كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر

في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

تأليف

ولي الدين عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون

الكتاب الثالث: الجزء الرابع عشر

قرأه وعارضه بأصول المؤلف

إحسان ذنون الثامري　　المهدي الرواضية

تونس 2010

كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر

في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

تأليف

ولي الدين عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون

الكتاب الثالث: الجزء الرابع عشر

قرأه وعارضه بأصول المؤلف

إحسان ذنون الثامري — المهدي الرواضية

تونس 2010

بسم الله الرحمن الرحيم

أذن سيادة الرئيس

زين العابدين بن علي

رئيس الجمهورية التونسية

بإحياء التراث الفكري لنابغة تونس

عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون

وإصدار تاريخه الكبير، العبر وديوان المبتدإ والخبر

بمناسبة احتفالات تونس والعالم بالذكرى المئوية السادسة لوفاته

تقديرا لإسهامه المتميز في إرساء أسس علم العمران البشري

وإثراء الفكر المستنير

تقديـم

بهذا الجزء الرّابع عشر يُنهي ابنُ خلْدون الكتابَ الثّالث من كتابه العِبر، في أيام العَرب والعَجم والبربر، ومن عاصرَهم من ذوي السُلطان الأكبر، ويخْتِمُه بترجمته وسيرته الذّاتيّة[1].

بدأ الجزء بالخبر عن "بني مَرِين وأنسابِهم وشُعوبهم وما تأثّلوا بالمغرب من السُلطان والدّوْلة التي استتْبعت سائرَ زَنَاتة وانتظَمتْ كراسيَ الملك بالعُدْوتَيْن، وأوليةِ ذلك ومَصائرِه". وبنو مَرِين من شعوب بني واسِينَ من زَناتة، وقد تابع المؤلّف ـ بما تكوَّن عنده من ملكَة المعْرفة بعلم النَّسَب، وما تجمّع له من أعمال نَسّابي البَربر ـ تقسيمات بطون بني مَرِين هؤلاء وما سجّله نَسّابوهم عن رئاسة القبيل وتَقدّمهم في السّيادة، وكيف أقاموا ملكَهم، ومَن تَتابع عليه منهم، وكان يُناقش بعض مقاطع ذلك النّسب المَرينيّ ويعْتمده، ويتوقّف عندما يَرى فيه ما لا يصحّ.

وكان المؤلّف ـ مثل من تقدّمه من مؤرّخي تلك الحقبة ـ يُلاحظ ويُدرك مغنَى الأمارات المؤدّية إلى سُقوط الدُول وقيام غيرها مكانها، فأشار إلى انصراف مُلوك الموحّدين إلى اللّهو والتّقصير في متابعة شؤون البلاد وحمايتها، وكيف أنّ هذا الحيّ من مَرينٍ كان بمجالات القِفار من فيكيك إلى صَا ومُلويّة، يصعدون إلى التُلول والأرياف، وينحدِرون إلى مشاتيهم بما امْتاروهُ من الحبوب لأقْواتهم، "فلمّا رأوْا من اختلال بلاد المغرب ما رأوْا، انتهزوا الفرصةَ، وتخَطّوْا إليها القَفْرَ، ودخلوا من ثناياهُ

(1) حقّقها ونشرها الأستاذ محمد بن تاويت الطّنجيّ ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1951.

وتفرّقوا في جهاته، وأوْجَفوا بخَيْلهم ورِكابهم على ساكِنه، واكْتسَحوا بالغارة والنّهب عامّةَ بسائطه".

وأظلم الجوُّ بينهم وبين الموحّدينَ الذين آذنوهم بالحَرْب، فكانت الدّبرة عليهم، واختلّ نظامُ الدّوْلة بهزائِمهم وكثُر الثّائرون بالمَغرب، "وامتنعَ عامّةَ الرّعايا عن دفع المَغرم، وفسَدَت السّابِلةُ، واعتَصم الأمراءُ والعمّالُ - من السّلطان فمن دونَه - بالأمصار والمُدُن، وغلَب أولئك على الضّاحية، وتقلّص ظلُّ الحكّام عن البَدْو جملةً".

وسقطت أمام بَني مَرينٍ الحواجزُ الحائِلةُ بينهم وبَيْن الوطن، فتطَلّعوا إلى حُكم البلاد، وانطلق بهم أميرهم أبو سعيد عُثمان بن عبد الحقّ في نَواحي المغرب، يتقَرّى مسالِكَه وشُعوبَه، ويَضعُ المغارمَ على أهْله حتّى دخلَ أكثرُهم في أمْره، فبايعه الطّواعنُ والقبائل ففرضَ عليهم الخراجَ، ثمّ فرضَ على أمْصار المغرب ضريبةً معْلومةً على أن يكفَّ الغارةَ عنهم ويُصلحَ سابِلَتَهم، وأصبحت المعارك بينهم وبَيْن الموحّدينَ سِجالاً، وأحداثُ الاسْتيلاء والاسْترجاع مُتَتالية يندفعُ كلُّ طرفٍ فيها اندفاعَ المسْتَيْئس المُسْتَميت، ثمّ عانَى المرينيُّون ما صار بَيْنهم من نِزاع على السُّلطان وما قام فيهم من خَوارج العَشيرة.

وكان من أُمرائهم الّذين وَطّدوا دعائمَ هذا المُلْك عبدُ الحقّ بن مَحْيوُ بن أبي بكر الذي يصفه ابن خَلدون أنّه "خيرُ أميرٍ عليهم، قيامًا بمصالحهم، وتعَفُّفًا عمّا في أيديهم، وتقويمًا لهم على الجادّة، ونظراً في العواقب". ثم ابنه عثمانُ من بعده، ثمّ أخوه محمّد بن عبد الحقّ.

وعندما استقرّ الحكم لبنيه وغلبهم على الموحّدين بني عَبْد المؤمن، واجهوا بني عَبْد الواد وزاحَموهم، ووَاجهوا نَصارى الأندلس الذين استَشْرى بأسُهمْ وتطلّعوا للاستِرداد الشّامل، حتّى حدثت مواجهة جيش السُلطان أبي يوسف يَعْقوب بن عبد الحقّ المرينيّ مع جيش ذُننة Don Nuno de Lara التي اعتبر أهل الأندلس انتصار المسلمين فيها كان ثأراً لوقعة العِقاب، أو موقعة هضاب تولوسا Navas di Tolosa، التي انهزم فيها الموحّدون أمامَهم وعُومِل فيها الأَسْرَى من الأطفال والنّساء أقْسَى مُعاملة.

ولم ينْسَ ابنُ خَلدون أنْ يمَهّدَ لموضوع الجهاد مع نَصارى العُدْوة الأندلُسيّة ثغرِ المسلمين ورباطِهم و"مَدارج شهادتهم"، لأنّها كانت مُحاطةً بأم الكفر من جميع جِهاتها، وتوافُر أُممهم في جِوارها، وحَجْزِ البَحْر بينهم وبين الدّول الإسلاميّة. ويذكّر بالخليفة عُمر بن عبد العزيز الّذي رأى أن يُخرِج المسلمين منْها لانقطاعهم عن قَوْمِهم وبُعدِهم عن الصّريخ؛ رأى ذلك بعد مُشاورة كبارِ التّابعين وأشراف العربِ واعتزم عليه، لولا ما عاقه من المنيّة.

ونوّه ابن خَلْدون بما حَقّقته الجزيرةُ من أَمْجادِ في عهد بني أميّة إلى مشارف القرن الرّابع، حيثُ افترقت الجماعةُ طوائف وفشلت ريحُ المسلمين وراءَ البحر بفناء دُول العَرب، حتّى جاءت دولةُ المُرابطينَ فجَمّعَت ما كان متفرّقاً بالمَغْرب من كلِمة الإسْلام وتشَوّفوا إلى الجِهاد، ودعاهم إخوانهُم من وراء البحر للمُدافعةِ عنْهم فأجازوا إليْهم، وكانت وَقْعةُ الزّلاّقة وغيرُها، واستَنْزلوا ملوكَ الطّوائف وجمعوا الكلمةَ بالعُدْوتَيْن. ثم جاء الموحّدون وكان لهم يومُ الأرَك ليعقوب المنصور، وغيرُهُ من الأيّام،

ثمّ فشلت ريح الموحّدين وتحاربوا على الخِلافَة واستجاشوا بالطّاغِية وأمكنوه منْ أكثر حُصونهم، فخشيَ أهلُ الأندلس وثاروا بالموحّدين وأخرجوهم بزعامة محمّد بن يوسف بن هودٍ الجُذاميّ.

ويمضي ابنُ خلدون في ذكر الأحداث والعوائق الحائِلة دون تلافي أوضاع الجزيرة المفككّة أمام تكالُبِ العدوّ، ويُحدّدُ الظروفَ والأسبابَ التي انتهت بسُقوط قُرطبةَ وإشبيليَة وجَيّان ثم بلَنْسيَة، والتجاء المسلمين إلى سِيف البَحْر، معتَصمين بأوْعاره من عَدوّهم. ويأتي على أخبار الجزيرة ومُحاولات الاسْترداد المُتتالِية في إيجاز جامع وضابط.

ويسترسل في ذكر أَخبار بني عبد الحقّ بعد وَفاته في حروبهم مع الموحّدين، فيفصّل أعمالَ ابن عثمان وما قام به من تأليف قبائل المغرب، ثمّ محمّد الّذي سار على نَهْج أخيه في جُهوده لتوحيد البلاد، وأبي يحيى بن عبد الحقّ الذي أدرك أسرار السّياسة العامّة؛ فهادنَ الموحّدين، ونظر في شُؤون قَومه ونظّمهم، وقسم بينهم بلاد المغرب، ووَطّد دولتهم، ورَتّبَ الرُّسُومَ والتّراتيب الإداريّة التي أورد ذِكْرَها القَلْقشنديّ(1).

ثمّ أظهر ما قام به الأمير يَغمراسَن بن زيّان على مسرح الأحداث، وصراعه مع بني عبد الحقّ والموحّدين، وما آل إليه حَالُ المغرب إبان ذلك الصّراع؛ فابنُ أبي حَفْصٍ اقتطعَ إفريقيّة، واجْتَزَأَ يَغْمَراسن بن زَيّان وبنو عَبْد الوَاد تِلِمْسانَ والمَغْربَ الأوْسَط، وأقاموا فيها دَعْوةَ ابن أبي حَفْص بتونس، وأطمعوه في الحركَة إلى مَرّاكُش

(1) صبح الأعشى 5: 204 ـ 210

بمُظاهَرتهم، وابنُ هُودٍ اقتطعَ عُدْوة الأندَلُس، وأقام فيها دَعْوة بَني العبّاس، وابنُ الأحْمر في الجانب الآخرَ في غرناطَة مُقيمٌ لدعوةِ ابن أبي حَفْص، وهؤلاء بنو مَرِين تَغَلَّبوا على ضواحي المَغرب، ثمّ سَمَوْا إلى تملُّك أمْصاره. وأسهب في عرض التَّشابُك والاشتباكات إلى أن استبدّ بنو مرين بمُلْك المغرب الأقصى.

ومن الجوانب المهمّة في هذا الجزء، تفصيلُ ابن خَلْدون لتاريخ سبتة ومليلة وطنجة، وإبراز المنزلة البَحْريّة لهذه المدن وأهميّتها في تَيْسير الجهاد وخِدْمة الأساطيل، بفضل وجود دار إنشاء الآلات البحريّة؛ وذكرُه لبدايات إمارة العَزَفيّين بسَبْتة (647 ـ 728هـ)، وابن الأمين بطَنْجة.

ويبرز المؤلِّف جانباً من علاقات المرينيّين بالنّصارى، وحركة الجهاد ضِدّهم، ولا يُغْفِل شأنَ أعمال البناء والتّعمير، فيذكر أخبار اختطاط بعض المدن؛ كالبلد الجديد بفاس، وقَصَبة مدينة مِكْناسَة.

وفي هذا الجزء شعْرٌ نَادرٌ غير موجود في مصادر الأدب والتّاريخ الأخرى ـ فيما نعلم ـ وخاصّة شعر ابن خَلْدون نفسه الذي أدْرجه من قِسْم تعريفه بنفسه، وفيه بعض الأحْداث المهمّة: كالمجاعة التي اجتاحت سنة 692هـ بلادَ المغرب بأقْسامه الثّلاثة، وخبر مُصْحف عثمان بن عفّان وكيف وصل إلى قرطبة، وفيه إفادات عن علاقات بَني حَفْصٍ أمراء تُونس مع بَني مَرين وبني عَبْد الوادِ الّذين كانوا يَدينون للحفصيّين بالوَلاء والطّاعة، ويخْطُبون لهم على مَنابرهم.

ويُعطي ابنُ خَلدون أهميّةً لتحرّكات قبائل البَرْبر وانتفاضِهم وهِجْراتهم وأخلافهم وثاراتِهم، كما في خَبَر انتقاض بني كمي من بَني عبد الواد وخروجهم بأرْض السُّوس.

ويُنبّهُ لبعض خفايا تمدُّدِ الأطماع السياسيّة و صناعة الدّسائس، متلمّساً ذلك فيما قام به بنو رَقّاصَة اليهود في دولة بني مَرين، حيث كانت لهم الحظوة في مناصب الدّولة والقرب من السّلطان، فتغلغلوا، وتدخّلوا في شؤون النّاس إلى أن نكبوا سنة 701هـ.

وفيه أخبارٌ تبيّن مدى التّبرُّم السّياسيّ من أصحاب الحكم في بعض المدن، فقد ضاق وضجر أهل سَبتة من حكم الأندلسيّين، وظلّوا يتحيّنون الفرصةَ للتخلّص من ربقتّهم وسُوء مِلكتهم، ويَستنصرون من يجدون فيه النّجدة.

وفي هذا السّياق يورد المؤلّف أخبارَ أُسرةٍ من بيوتات سبتة اشتَهرت بالعلْم، هي أسرة بَني عَبْد المهيمن، وقد استعمل السّلطانُ محمدُ المخلوع سلطانُ غرناطةَ عبدَ المهيْمن بن محمد الحَضْرميّ في ديوانه على الكتابة والعلامَة، وكان بَيْن عبد المهيمن هذا وأسرة ابن خَلدون رابطة متينةٌ عرض لها في فصل التّعْريف وترجَمَ له.

ويذكر ابن خلدون أخبار صريخ أهل الأندلس ببني مَرين، فيفصّل ما جَرى في تلك الحِقْبة من تَحالفات سياسيّة، وما توصّل إليه المسلمون والأسبانُ من تقْنية حَفْر المساربِ الطّويلة والاقتتال تحت الأرض، إلى أن هلك بِطْرُة، [بطرس الأوّل] وكان ابن خلدون قد عرفه حين وَفَد عليه سفيرًا لملك غرناطة الغنيّ بالله محمد الخامس سنة 765هـ محمّلاً بالهدايا، ويستَمرُّ في سَرْد أحداث ذلك التّنازع بين المسلمين والنّصارى في وقعة الملَند ووَقْعة طَريف وقَلْعة بني سعيد.

ويذكر خبرَ استيلاء عَمَر بن عبد الله على مُلْك المغرب؛ وكان من الطّامحين إلى السّلطة والنفوذ، فاستغلَّ وفاةَ السّلطان أبي سالم المرينيّ وأخذ يُولي مَن يَشاء

حسبما تقتضي مصلحته، وبقي على ذلك إلى أن هلك. ومثلُه متطلّعٌ آخرُ هو أحمد ابن عليّ القبائليّ كافل السُّلطان أبي العبَّاس المرينيّ.

ونلحظ في هذا الجزء جوانبَ من الصّراع الداخلي بين أبناء البَيْت المرينيّ، فقد أتى المؤلّف على بعض أخبار النّزاع النّاشب بين موسى ابن السّلطان أبي عِنان وبين ابن عمّه السّلطان أبي العبّاس، وشرح مراحل ذلك الصّراع الذي اشتدّ إلى أن ألْجأ أبا العبّاس للهرب إلى الأندلس.

وميزة هذا الجزء أنّه أبْرز المجالات الخَمسة المتجاورة والمتقابلة: بُلْدان الـمَغْرب الثّلاثة، ثمّ الجزيرة وراء العُدْوة بقُوّتَيْها المتقابِلَتَيْن: المسلمين والنّصارى.

وفي هذه المجالات الخمسة تتحرّك، الدّولة المرينيّة ودولةُ بني عبد الواد ودولَة بني أبي حَفْص، ويُشير إلى أحداثها البارِزَة والعلاقاتِ الثّنائيّة أو المتحالفة عليها سَلْبًا وإيجابًا، ويستوعب في كلّ دوْلَةٍ بعضَ الأحداث الخاصّة بها؛ كالهَدايا المتبادَلة، ونكْبة بَعْض الأُسَر ورجالِ الدّولة من وُزراء وقُوّاد، والدّسائِس والـمقاتل، ويتجاوَزُ إلى بلاد العُدْوة ليشملَ دولةَ بني الأَحْمر في غَرْناطَة وأوضاعَها وتَشابكَ علاقَتها مع ممالك الـمَغرب ومع نَصارى الأَندلس الّذين يوالون عليها الضّغط والحصارَ، ويغْتنمون تنازُع الأَطْراف في الـمَغْرب وضياعَ صَريخ الأندلُس، فيقْتَطعون ما أمكنهم من أَرْض الجزيرة.

ويحدّدُ ابنُ خَلْدون كيف أن النصارى اعْتَزّوا على المسلمين بالعُدْوة ونازلوا معاقِلَهم وتغلَّبُوا على الكثير منها وارْتَجعوا جبلَ الفَتْح منذ انْشغلَ بنو مَرينٍ عن الجهاد أيام يوسف بن يعقوب، ووضَعوا الجِزْية على غَرْناطة. فاعتَزم السّلطان أبو الحسن

عليّ بن عُثمان بن أبي يعقوب بن أبي سعيد على الجهاد، بعد أن فَرغَ من أعدائه المناوئين من حوله، وأوعز إلى ابنه أبي مالك أمير الثغور من عَمله بالعُدْوة، بالدُّخول إلى دار الحَرْب، وكانت النّتائج سلبيّة انتهَتْ بمقتله، فأعدّ أبو الحسن الأُسطولَ، وكانت وقعة الملَنْد في بحر الزُّقاق، وهي معركة مغاربيّةٌ شارك فيها جمْلَةُ سُفُنٍ وردت من طرابُلُس وقابِس وجزبة وتونس وبونة وبجاية؛ وصلَتْ إلى مَرْسى سَبْتةٍ وخرجت للملاقاةِ بعد أن عقَد السّلطانُ قيادتَها لمحمّد بن عليّ العَزَفيّ، وانتهت المعركةُ البحْريّة بانتصار المسْلمين وقَتْل الملَنْد قائد الأُسْطول النّصرانيّ. وتابع المؤلّف بعد أخْبار الانتصارات والهَزائم، وإبْرازَ حَيْرة دُول الضفَّة الإفريقيّة وخاصّة المغرب الأقصى بإدراك الخطر الكامن والقادم، وضَرورة مؤازرة بَني الأَحْمر بالمرابطين والعَتاد دَعْمًا لصُمودهم.

ويتوقّف في سِياق الكتاب ليحَدّثَ عن هديّة السّلطان إلى الشرق أيّام الملك النّاصر محمّد بن قَلاوون، ويذكر أنّه وقَف على بَرْنامج الهَديّة بخطّ أبي الفضل ابن محمّد بن أبي مَدْين، أحدِ رُسُلِه مع الهديَّة إلى مصر، ووَعاهُ، ثمّ نَسِيَهُ.

ووَصَف المصحفَ (الخَتْمةَ) التي كتبَها السّلطانُ بخطّه ثم جمع لها الوَرّاقينَ لتنميقِها وتذْهيبها وقراءتها لضَبْطِها وتَهْذيبها. وصَنع لها وعاءَ من خشَب الأبنوس والعاج والصَّنْدل مصفّحًا بالذّهب ومنظّمًا بالجوهر والياقوت، واتُّخِذت لها أصْونةُ الجلْد المحْكَمة الصّناعة، المرقومُ أديمُها بخيُوط الذّهب، ومن فَوْقها غلاف الحَرير والدّيباج وأَغْشية الكِتّان. وأخرج معها أموالاً لشِراء الضِّياع بالمَشْرق لتكونَ وقْفًا على القُرّاء فيها.

وأشار في الفَصْل نفسه إلى نُسخةٍ أخرى من المُصْحف الشّريف كتبها لبَيْت المَقْدس، فلم يُقَدَّرْ له إتمامُها، وماتَ قبل فَراغه من نَسْخها. [ولَعلّها أُكمِلت بعدَه وأُرسِلت إلى مقرّها؛ لأنّ أجزاءَ كثيرة منها باقيةٌ إلى اليوم، وهي على الرّقّ، وتقَع ضمن رَبْعَة كالتي وصفها ابن خَلْدون].

وسَجّل المؤلِّف بعضَ وُجوه العلاقة بين السّلطان أبي الحسن علي بن عُثمان وجارِه ملك مَالي مَنْسا موسى، ويذكر أنّه عند عودة الوَفْد إلى مالي كان مَنْسا موسى قد توفيّ وخلَفه ابنه مَنْسا سليمان الّذي حافظَ على الرّابطة وواصَلها.

وعند حديثه عن وَقْعة القَيْرُوان بين أبي الحسن المرينيّ والعَرب، يرتقي بأخْبار أولئك الأَعْراب من بَني سليم إلى بِدَاياتهم مذ أوّل الإسلام إلى أيّام أبي جَعْفر المنصور الّذي أوْصى ابنَه المهديَّ ألاّ يستَعينَ بأحدٍ منهم؛ لغَدْرهم ونكْثِهم وانتقاضِهم. ويُفصّلُ الخبَرَ عن مقدّمات المَعْركة الفاشِلة بين السُّلطان وبينهم، ودَوْر ابن تَافْرَاكِين، وكيف افترق الكُعُوب وتَساقطوا إلى السُّلطان فتنفَّسَ خِناقُ الحِصار عن القَيْروان.

وكان لوقعة القَيْروان هذه انعكاسٌ خَطير على انضباط شُؤون المغرب، فقد انتقضَتْ الثُّغورُ الغربيّة، وعندما اتصّل خَبرُ نَكْبةِ القَيْروان بابنه الأمير أبي عِنان صاحبِ تلمسان، وأَرْجفَ النّاس بهلَكِ السّلطان أبي الحسن، تطاولَ الأميرُ أبو عنان للاستئثار بملْكِ أبيه دون الأَبْناء، لمكانته عندهُ، وشجَّعه على ذلك بعضُ المغرضين.

والفضلُ بن السُّلطان أبي يَحْيى حدّثته نفسُه بالانْتزاء والتوثّب. وانبرى حافدُ السّلطان منصور بن منصور بن الأمير أبي مالك صاحب فاس وأعمال المغرب.

ودَعا لنفْسه بالمديّة عديّ بن يوسف بن زيّان.

ودعا لنَفْسه بتلِمْسان عثمانُ بن جرّار، ثم قُبِض عليه، واقْتَسم الملكَ فيها الأخَوان أبو سعيد عثمان، وأخوه أبو ثابِت.

واستَمْسَك أهلُ الجزائر بطاعة السّلطان أبي الحسن. وهكذا انتقضَتْ أطرافُ المغربْ وتغَلَّب الأَغياصُ من قَوْمه وسواهم على أعْماله، فسَرَّح السُّلطان من تونس ولَدَه النَّاصرَ إلى المغرب الأوْسط لإنْهاء نِزاع أولئك الخَوارج، وخرجَ معه يعقوبُ بن عليّ وأميرُ زُغْبَة عريفُ بنُ يَحيى، وزحفَ إليه بَنو عَبْد الواد ومن معهم للمُدافَعة، وانفَضَّ مَنْ حولَ النّاصر وانهزم، فلحق بأبيه في الجزائر.

وكان السّلطان قبلَ مُبارحة تونس قد تَدراك أَمْره عند فواته "بالتَّوْلية على أَهْل القُطْر من جِنْسهم؛ استِئْلافًا للكافَّة واستِبْقاءً لطاعَتهم"، فعقدَ على عَمل قابِس وجزبة والحَمَّة وما إليها لعبْد الواحِد بن السّلطان زكرياء بن أحمد اللّحْيانيّ وأنفذهُ مع أحمد بن مكّي إلى عمله[1]. وكذلك عقَد لأبي القاسم بن عَتّو شيخِ الموحّدين على تُوزر ونَفْطة وسائرِ بلاد الجريد بَعْد أن كان اسْتَخْلصه بَعْد مفَرّ أبي محمد بن تَافْراكِين، فنزل توزرَ، ثم نكثَا وحملَا النّاس على طاعَة الفَضْل بن السّلطان أبي يَحْيى وبايَعوه. واستطاعَ السّلطانُ بعد جَهْدٍ ومُعاناةٍ أنْ يصلَ إلى سِجِلْماسَة بعد أن سُدَّت دُونَه الآفاقُ، وأخذَ ابنُه أبو عنان العدَّةَ لمُلاقاتِه. وقد فَسَّرَ ابنُ خلدون أسبابَ

(1) هلك بجربة لليالٍ من مَقْدمِه بالطاعون الجارف عامئذ.

نُفْرةِ بَني مَرين وَوُلاتُهُ وقومُه منه وتأكيد الانتقاض عليه، بأنّهم "كانوا يحذرون غائلته لما يتّهمهم به من التّخاذل في المواقِف والفرار عنه في الشّدائد، ولما كان يُبْعد بهم في الأسْفار، ويتجَشّم بهم المهالكَ، فكانوا لذلك مُجمعين على مُنابذَتِه ومُخلصين في مُناصَحةِ ابْنِه مُنازِعِه".

وتخلّى عن السّلطان أبي الحَسن كلُّ أصفيائه، وبدأت مُطاردة ابنه تلاحقه من سِجلماسة إلى مَرّاكُش حتّى أوْهنَهُ التّعقُّبُ، فلَجأ إلى جَبل هِنتاتة وأجاره أهْلوه وبايَعوه على المَوْت. ثمّ اسْترضاهُ ابنُه أبو عنانٍ ورَعاهُ إلى وَفاته في 23 ربيع الثّاني سنة 752هـ، وأكرم مثْواه، ودُفن في شالّة حيث مَدافن بَني مَرين، وعَفا وأكرَمَ من أجار والدَه وأخلص له.

ويقدّم ابن خَلدون الأحداثَ مجمَّعة فيشْرح أسبابَها وداعِيَتَها ويسلْسِل أطوارَها ويصفُ مواقِف صانِعيها وإلى مَا انتهت إليه، كأنّك تشاهِدُها، ويتدخّلُ أحيانًا بِمُشاهداته الشَّخصيّة، فعندما يصِفُ موقفَ مَنصور بن سُليمان من أبناء يَعْقوب بن عبد الحقّ عندما أرجَف النّاسُ بولاية المُلْك للوزير الحَسن بن عُمَر بعد مَوْت السّلطان أبي عِنان، شكَى ذلك إلى الوزير مَسْعود بن رَحُّو بن ماسايْ، فانتهَرَهُ أن يختلِجَ بفكره مِثلُ هذا الوَسْواس، انتهارًا خلاً من وَجْه السّياسة، يقول ابن خَلدون: "ولقد شهدْتُ هذا الموطن ورحمتُ ذُلّهُ وانكِسارَهُ وخُضوعَه في مَوْقِفه".

ويقدّمُ ترجمةَ صاحِبه الوزيرِ لسان الدّين بن الخَطيب حينَ قدم على السّلطان بتلِمْسان، نازعًا إليه عن سُلطانه ابن الأحْمر صاحبِ غرْناطَة، وكان عندَه على رئاسة الكُتّاب، مثنّاةٍ بالوزارة، وفي عَرْض سيرته أتى على حياته السّياسيّة

ومُداخَلاته واستَبْداده وانفرادِه بالحَلّ والعَقْد، وانصرافِ الوُجوه إليه وتَعلّقِ الآمال به، حتّى غَصَّتْ به بِطانةُ السُّلطان فتفنّنوا في السّعاياتِ فيه. ومدّ ابنُ الخطيب نظرَه إلى التّخلُّص من أعدائه، فداخلَ السّلطانَ عبدَ العزيز في اعْتقال ابن بويَفَلُّوسَنْ وابن ماسايْ وإراحة نَفْسه من شَغَبِهم، وأمكنه أن يَبْرَحَ الأندلسَ، ويستقِرَّ في فاس على أكْمل وُجوه التّكْريم، وتأنّق في البِناء وتَوفير وَسائل الرَّفاه، ثمّ اضْطَربت الأحوالُ حولَه وتمكّن منه أعداؤه، وفَصَّلَ صاحِبُه ابن خلْدون ما يتحرّك حَوْلَه بالشَّرح إلى حين مَهلِكه بسِعاية عدُوّه سليمان بن داود ابن أعْرابْ، كبيرِ بني عَسْكر، ورديف محمّد بن عثمان وزيرِ أبي العبّاس أحمد بن أبي سالم.

ويُتابع مسارات مُلوك بني مَرين وما يتّصل بذلك من تداخلات مع جيرانهم وداخلِ أوْطانهم.

ويتحدّث في عرضٍ مستَقْصٍ عن الجزيرة الأندلسيّة وراءَ البَحْر وقلّة حامِيتها بعد انقضاء أمر بني عبد المؤمن وقيام ابن الأحمر بأمْرها. ولَمّا ضاقت بها أحوال المسلمين وتحيّفَهم الطّاغية حتّى ألجأهم إلى سِيف البَحْر "امتعضَ لذلك المسلمون وتَنافسُوا في الجهاد وإمْداد الأندلس بأموالهم وأنْفسهم، وسابقَ النّاسَ إلى ذلك الأميرُ أبو زكريّاء بن أبي حَفْص، فاستنفد الكثيرَ من أمواله في مَدَدهم، وأوْفدوا عليه المشيخةَ ببَيْعَتِهم ".

وكان يعقوب بن عبد الحقّ يتطلّع إلى الجهاد، حتّى قام بسلطان المغرب بعد أخيه أبي يحيى، فعقَد لعامر بن إدْريس في الجهاد بالعُدْوة وعقد له من مُطَوّعة زَناتة على ثلاثة آلاف. واجتمع أبناء ملوك المغرب الأوْسط وتعاقَدوا على الإجازة إلى

الجهاد، وأجازوا وأضبح مَقْصدُ هؤلاء الغُزاة هدفًا مُقدَّسًا يَتَسابق إليه رجالُ المَغارب الثلاث كافّةً لِما لهُ من شأنٍ وأثر. وقد ضَمَّن فصْلَه الأخيرَ من العبر ـ قَبْل التَّعريف بنَفسه ـ أخباراً مفصّلةً عن الأُمراء الغُزاة المجاهدين بالأندلس، الذين قاسَموا ابن الأَحْمر في مُلكه وانفردوا برئاسةِ جهاده.

ثمّ ألحق الكتابَ بالتّعريف بنفسه ومسيرة حياته إلى سنة قبل وَفاته، وفي بعض جوانب هذه السّيرة إيجازٌ وقَفْزٌ على الأحداث، وقد صنَع هذا الفصلُ من الكتاب، مع ما يتخلَّل الكتابَ الثّالث من العِبر من مواقف حضرها وشاهدها وعاصرها، ما يُسهم في شرح بعض الغوامض التي مرّ بها عابرًا في تعريفه بنفسه الذي يقف فيه على آخر قضاءٍ تولّاه في 10 شعبان سنة 807هـ. ولأنَّ حياته من خلال التّعريف غير قابلة للاقتضاب، فإنَّ قراءته في المتناول.

ومن أهمّ ما يُثار حول هذه السيرة الذاتيّة، تساؤلٌ كنت عرضْتُه في المقدّمة التي أعَدتُ بها نَشْرَ "التّعريف" الّذي أعدّه صديقي المرحوم الأستاذ محمد بن تاويت الطّنجيّ، وهو: متى كُتِب نصُّ التّعريف؟ وهل كان ابن خَلدون قد عَرَّف بنفسه في آخر النُّسخة التّي كتَبها في تونس وقدّمها إلى السّلطان أبي العبّاس أحمد الحَفْصِيّ نحو سنة 782هـ؟ ولإدراك حدود الإجابة ينبغي أن نَتمثّل من خلال التّعريف نفسه حياتَه السِّياسيَّة في المَغْرب، وتردُّدَه بين مَمالكه في تِلِمْسان وفاسَ وغَرْناطة، وقَرابتَهُ من أحْداث عَصْره بحُكْمِ مَناصبه وأهْليَّته الذِّهْنيَّة لتَصْريفِها، ومداخلَتَه للقبائل البَرْبريّة والعربيّة، وما لَقيَه من حظْوةٍ لديها وما أقامَهُ فيها من روابط انتفع بها، حتّى

عادَ إلى تونس بتَأمين السّلْطان أبي العبّاس وتصَدَّر للتّدريس وحظيَ بمنزلة القُرب منه.

وكان ابن خَلدون حسنَ المُحاضَرة، كما يقول مُعاصروه، فغصَّ به حُسّادهُ وتألّبوا عليه كيْدًا وسِعايَةً وخاصّة من فقيه عَصْره أبي عبد الله محمّد بنِ عَرفة الوِرْغميّ إمام جامع الزّيتونة وشَيْخ الفُتْيا الّذي يقولُ عنهُ "إنّه كانت في قَلْبه نَكْتَةٌ من الغَيْرة من لدن اجتماعنا في المَرْبَى لمجالس الشّيوخ، فكثيرًا ما كان يظهر شُفوفي عليه وإن كان أسنَّ منّي، فاسَوَدَّتْ تلك النكتةُ في قَلْبه ولم تُفارِقْه". ويقول: "ولمّا قدمتُ تونسَ انثالَ عليَّ طلبةُ العِلْم من أَصْحابه وسِواهمْ يطلُبونَ الإفادَةَ والاشْتِغالَ وأَسْعَفْتُهم بذلك، فعظُمَ عليه، وكان يُسِرُّ التّنفيرَ إلى الكثير منهم فلم يَقْبلوا، واشتدت غَيْرتُه، ووافقَ ذلك احتياجَ البِطانة إليه فاتّفقوا على شَأْنهم في التّأليب والسّعايَة، والسُّلطانُ خِلال ذلك مُعرِضٌ عَنْهم في ذلك".

"ثمّ كثُرتْ سِعايَةُ البِطانة بكلِّ نَوْع من أنواع السّعايات، وابنُ عَرفَة يَزيدُ في إغْرائِهم متَى اجْتمعوا إلَيْه، إلى أن أغْرَوا السّلطانَ بسفَري معه ولقنوا النّائب بتونسَ القائدَ فارحَ، من موالي السّلطان، أن يَتفادَى من مُقامَتي معه خشيةً على أَمْره منّي، بزَعْمه، وتواطَئوا أن يَشْهَدَ ابنُ عَرفة بذلك للسُّلطان، فشَهِد به في غَيْبَةٍ منّي، ونَكِر السّلطانُ عليهم ذلك، ثمّ بَعث إليّ وأمرني بالسَّفَر معه".

وقد استغلَّ أعداؤُه ارتباطَه بالتّحوّلات والصّراعات السّياسيّة في المغرب الأَوْسط والأَقْصى خَاصّة، وما تعرَّض له من محنٍ هناك، فقَدَّموا عنه صورةً بالغَوا في تَشْويهها وتَوسّلُوا بمختلَف الوسائل لإشاعَتها عنه للتّشكيك في مَقاصده ووَلائِه.

وفي "التّعريف" الّذي سَردَ فيه مرحلةَ حياته المغربية وتقلّباتها إدراكٌ للأذى الذي يُلاحقه بالحسَد المُلهب الدّافع للدّسائس وطلَبِ الوَقيعة به؛ فتدريسُه بجامع الزّيتونة، وما تفرّد به من الحضُور المتميّز وجَذْب الانتباه، وتجْديد طرائق التّبليغ والتّحليل، واستيعاب المَسائل، وبَراعة الرّبْط، وتوْسيع آفاق التّفكُر، هي مَزايا نادِرةٌ أشاعَتْ ذكْره وجمعتْ حولَه طلبةَ العلم، ولكنّها أثارت عليه الحفَائِظ فغصّوا به وأفاضُوا في السّعايات وألّبُوا عليه.

ورأى فيه رجالُ السّياسة وذَوُو الصّلة بالسُلْطان مُزاحِمًا مُترقباً مُتطلّعاً لتَجْديد أمْجاد ذَويه، وقد درب بدرايةٍ ناضجةٍ على شُؤون المُلْك ووَظائفه أيّام إقامَته في المغرب، فتوَجّسوا منه وتنَبّهوا لمخاطِره، وكان يَدْفع هذه التّوجُسات ما اسْتطاع، ولو كان نَصُ "التّعريف" أو الاعترافات بين يَدي السُلطان أبي العبّاس، لتأكّدَ له ما يذكرونَهُ عنه، ولوَقع على الاعترافِ بإدانتِه.

لهذا فإنّ النُسخةَ التُونسيّة من "العِبر" لم تكنْ مشتمِلةً على قسم "التّعريف"، وإنّما كُتِب "التّعريفُ" لأوّل مَرَّةٍ بالقاهِرة في آخر نُسْخة الظّاهري، وتوقّف فيه إلى سنة 797 هـ، ثم تناولَه بالاسْتِدْراك في النّسخ التّالية حتّى شعبان سنة 807 هـ كما تقدَّم.

لقد كتب ابن خلدون مادّةَ هذا الجزء المَرينيّ ورُبّما غيره من الكِتاب الثّالث أثناء انكبابه على تأليف "العِبر" في تونِس برغْبة من السُلطان أبي العبّاس. يقولُ في حديثه فيه عن إلحاق خُطّة الغُزاة المجاهِدين بصَاحب الأندلس: "والأَمْر على ذلك لهذَا العَهْد وهو سنة ثلاثٍ وثمانين".

وأكثر أحداث هذا الجزء ممّا عاصَره واسْتمع إلى شَرْح أسْبابه من ثقات العارفين، وبعضُ الأحْداث شهِدَها بنفْسه، وبعضُها كان مُسْهمًا فيها، مثل مُصاحبةِ رَكْب السُّلطان للقَضاء على ثَوْرة بِجاية، وشهودِه دخولَ السُّلطان أبي سالم للمغرب عند تملُّكه سنَة 760هـ، وبعض الأحداث والتّفاسير أخَذها عن شُيوخه الذين ذكَرهم في مواقع التّوثيق لما يُرْوَى، مثل شَيْخه محمّد بن إبراهيم الآبليّ والقاضي أبي القاسم الشّريف.

ومثل أكثر أجْزاء الكتاب الثّالث في أخْبار العَرب المُسْتَعْجمة والبربر خاصّة فإنّ مادّتَه أصيلةٌ جَهَد لجمعها وتَسْجيل أحْداثِها بنَفْسه، ووثّق أنْسابها من مصادر لم تعد متاحةٌ وربّما انقرضت، شأن المؤرّخ الحقيقي الذي يُلاحق حَركة التّاريخ في عَصْره ويضبط التّحوُّلات المختلِفة ويُدْرك أسبابَها ودواعِيها وإلى أين تتّجه. والنُّقول القليلة في هذا الجزء اعْتمدت: الأنيسَ المطرب برَوْض القرطاس، في أخْبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، لابن أبي زَرْع، والذّخيرة السنيّة، والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، وأشار إلى مصدر أخذ عنه ولم يصِلْنا ـ فيما نعلم ـ هو كتاب الزّليجيّ.

وقد اعتمد مُحققًا هذا الجزء على أصول خطيّة مهمّة، تابَعاها بدقّة، واستفادا من الأسْماء المضْبوطة فيها بالشّكل، واستَخْرجا الحواشي الجانبيّة المُضافة بخطّ المؤلِّف، وكانت لا تخلو أحيانًا من صعوبات لتداخُل كتابتها المتلاحقة. وهذه الأصول المعتمدة هي: نسخة "ظ" (الظاهري) المسايرة لكلّ أجزاء الكتاب، وهي المطابقة لإحالات أوراق المخطوطة على هوامش المطبوع دائماً. ثمّ نسخة "ص" (الصاحبيّة). ثمّ نسخة "أ" وهي نسخة مكتبة السُّلْطان أحمد الثالث

(طوبقبوسراي) وكتبها ابن الفخّار. ثم نسخة "ض"، وهي قطعة غير تامّة محفوظة بمكتبة مركز الملك فيصل بالرياض، وهي أشبه بإحدى مسودّات الكتاب، وقد كان لي شرف التّعرّف عليها واكتشافها بعد الفحص وتوثيق خُطوط المؤلّف عليها.

أمّا قسم التّعريف الّذي يوجد على صيغته الكاملة المنتهية بتاريخ سنة 807هـ، فإنّه موجودٌ بمكتبة السُّلطان أحمد الثّالث، وقد استُعمل في المقابلة، وأضيف إليه نسخةٌ كُتِب بها التّعريف مُنفرداً ويوجد بمكتبة آيا صوفيا ومحفوظ بالسُّليمانيّة ورقمه 3200. هذا ونص "التّعريف" في "ظ" يقف عند سنة 797هـ قبل سفره للشّام ولقاء تيمورلنك.

وقد سقطت من كلّ نُسخ الكتاب الخطيّة قصيدةُ ابن الأحمر من نظم كاتبه أبي عمرو بن المرابط، وصَدْرُ مطْلعِهَا:

هَلْ من مُعيني في الهَدَى أو مُنْجِدي

فقد استَمَرَّ النَّصّ في نسخة "ظ" مُتَصلاً بعد هذا الصَّدْر، وفي نسختَي "ص" "ض" تَرك النّاسخ فراغًا من ثلاث صَحائف. ولم يجيء لهذه القصيدة ذكرٌ في غير عِبَر ابن خَلْدون، فالتجأ المحقّقان إلى التماسِ نُسخٍ حديثةٍ من الكتاب محفوظة بالمَغرب، فاعتُمِدت وقُوبِل عليها، واحدةٌ منها محفوظة في الخزانة العامّة بالرّباط ق46، وثلاث نسخ من الخزانة الحسنيّة العامرة، أرقامها 8481، 8892، 10588[1].

(1) تلقّيتُ بالشُّكر صُوَر هذه النّسخ من صديقي الأستاذ عبد الرّحمن الفاسيّ رحمه الله، وصديقي الدكتور أحمد شوقي بنبين حفظه الله.

وورد في هذا الجزء أحياناً إحالات على أجزاء من كتاب العِبَر لم تطبع بعد، أشار فيها المحقّقان إلى نسخة "ظ" التامّة المخطوطة، ليُمْكِنَ بعد صدور الكتاب التحَوُّلُ مباشرةً إلى الصّحائف المطلوبة بفضل تسجيل صحائف النُّسْخة "ظ" على حواشي كلّ الأجزاء.

وعمد المحقّقان إلى إجراء معاملة نصّ "التّعريف" أثناء العناية بتحقيقه على النّسق المتّبع في كامل الجزء، فاستَبْعدا الشُّروحَ الكثيرة التي مَيَّزتْ نشرةَ الأستاذ الطّنْجيّ واكتفيا بإعادة تَوْثيق النَّصّ على الأُصول المذكورة والعناية بسلامة النَّصّ، واستَبْعدا ـ أيضًا ـ الزّيادات المضافَة من المصادر الأخرى.

ويشتمل هذا الجزء على ثلاثة مشجّرات وردت في نسخة "ظ" و"أ"، وهي تخصُّ نسبَ بني مَرين، ونسبَ أولاد بوالعلى إدريس بن عبد الله بن عبد الحقّ المرينيّ، ونَسب بني عَسْكر بن محمد بن ورصيص، أُدْرِجت جميعًا في مواضعها من النّصّ، وبقي مشجَّر واحدٌ انفردت به نسخة "أ" جمع فيه ابن خَلْدون بخطّه بين بني مَرين وبني عسكر. فآثرنا التَّعريفَ به في التّقْديم وإفرادَه بالتّنويه، لأنّه يوضح كيف يَتعامل المؤلّف مع الأنْساب، يُفْردُها ويدْمجُها حسْبَ مقتضى الحال.

[نسب بني مرين، ومدمج فيه نسب بني عسكر بن محمد بن وزصيص] من النسخة أ

والمحقّقان الفاضلان سبق التّعريف بهما في تقديم الجزء الثامن الذي خرج بجهدهما، ونُضيف عليه ما جدّ لهما من أعمال: فالأستاذ المهدي عيد الرّواضية الذي ينصرف حاليّاً لإنجاز بَحْثه الجامعيّ لدرجة الدكتوراه، قدّم للنشّر كتابَ "غرائب الفنون ومُلح العيون"، وهو نصّ نادر يعودُ إلى القرن الخامس الهجريّ، إضافة إلى بعض الأبحاث التي أعدّها في التّاريخ والجغرافيا التّاريخيّة.

أمّا الدكتور إحسان ذنّون الثّامريّ، فقد صَدَرَ له مجموعة من النُّصوص المهمّة، هي:

- كتاب بغداد لابن طيفور (280هـ)، وهو أقدم نص يصلنا عن تاريخ بغداد. مع دراسة عن موارد الكتاب ومنهجه ـ دار صادر، بيروت 2008.

- رسائل الشّيرازي (عبد العزيز بن يوسف، 388هـ) كان الشيرازي كاتبا ملازمًا لعضُد الدّولة بن بُوَيْه، ورسائله صادرة عن بلاط بني بُوَيه، وهي عهود وتعليمات ومناشير وأخبار سياسيّة ـ دار صادر، بيروت 2009.

- منية الراضي برسائل القاضي (منصور بن محمد الأزدي الهَرَوي، 440هـ) رسائل أدبيّة إخوانيّة، جمعها أبو الفضل الميدانيّ ـ دار صادر، بيروت 2009.

- معجم النّخلة، معجم لغوي لحصْر ما جاء في لغة العرب عن النّخلة بكل أجزائها وما يتعلّق بها.

وله قَيْد النّشر:

- كتاب الطّبيخ، لابن سيّار الورّاق.

- رسائل الصّاحب بن عبّاد، وزير البُويهيّين.

وقد بذل المحققان الفاضِلان بعلمِهما وخبرتهما المتمكّنه، كلّ الجهد في المقابلة والمقارنة وضبط النصّ، واستندَا إلى نَقْل الضّبط المؤكّد النّسبة لواضِعيه، وكانت كُتب الجغرافيا هي المعتَمَدة في ضَبْط أسماء الأماكن وخاصّة مُعجم ياقوت، وأمّا الأسماء البربريّة فقد تحرّتِ النّسخُ المخطوطَة نقلَها وشكْلَها، ولم يُغفل المحقّقان إثباتَ فروق القراءة وإن دَقّتْ، ووُفِّقا - من مَوْضِعها - في استعمال الكاف المنقوطة التّي اعْتَمدها ابن خَلْدون في كتابةِ ما ليس بعربي، وربّما اختلَف هذا الضّبط مع ما اعْتُمد في أَجْزاء أُخرى من الكتاب، وهو اجتهادٌ له ما يبرّره، ونَعْمل على توحيد ذلك في مُسْتَدْرك.

كما اختلَف رسمُ كتابة الأعداد المركّبة بين الاتّصال والانفصال "سبعمائة، سبع مائه"، ويوحّد ذلك - إن شاء الله - في الطبعة المقبلة.

ومن الله نستمدُّ العونَ لإخراج بقيّة أجزاء الكتاب وفهارسه على هذا المُستَوى من الدقّة والعِنايَة، ومنه التّوفيق والسّداد.

إبراهيم شبوح

كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر

الكتاب الثالث: الجزء الرابع عشر

[150 ب] / بسم الله الرّحمن الرّحيم[أ]

۞ الخَبَرُ عن بَني مَرِين[1] وأنسابِهِم وشُعُوبِهِم، وما تأثّلوا[ب] بالمَغْرِب[2] من السُّلطان والدَّوْلَة الّتي اسْتَتبعت سائرَ زَنَاتَة، وانتظمت كراسيّ المُلْك بالعُدْوَتَيْن، وأوَّلِيَّة ذلك ومَصائره

قد ذكرنا أنّ بَني مَرِين هؤلاء من شُعُوب بَني وَاسِين، وذكرنا نسبَ وَاسِين في زَنَاتَة، وذكرنا أنّهم بَنو[ج] مَرِين بن وَرْتَاجَّن بن ماخوخ بن زِجّيك[د] بن وجْديجَن[هـ]

(أ) سقطت البسملة من أ، ص (ب) ص: قاتلوا (ج) ظ: بني، أ: "وذكرنا أن مرين...". وسياقة نسبهم عند القلقشندي (قلائد الجمان 176) كما يلي: "بنو مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن جريج بن فاتن بن بدر بن يخفت بن عبد الله بن زرتبيص بن المعز بن إبراهيم بن رحيك بن واشين بن نصبين بن سرا بن إحيا بن ورسيك بن أديت بن جانا؛ وهو زناتة" (د) ظ: سجيك، وساقطة من ص، والمثبت من أ، ولم يُدرج زجّيك هنا في مشجر نسبهم الآتي (هـ) في الأصول: وجديج، والمثبت موافق لما رسمه في مشجر نسبهم في نسخة ظ، وسقط من مشجر نسخة أ

---

(1) بنو مَرِين: فخذٌ من قبيلة زَنَاتة البربريّة، خاضوا صراعاً مع الموحّدين، فانتزعوا كثيراً ممّا كان تحت سيطرتهم، إلى أن تخلّصوا منهم وأقاموا دولةً على أنقاض دولتهم سنة 668هـ. ثمّ توسّعوا كثيراً، ودامت دولتهم قرناً ونصف القرن تقريباً، وسقطت على أيدي بني وطاس. انظر عن نسبهم ومكانهم من زَنَاتة: يحيى ابن خلدون: بغية الروّاد 1: 186، ابن أبي زرع الفاسي: الذخيرة السنية 14ـ، ابن الأحمر: روضة النسرين 17ـ، مجهول: الحلل الموشية 185ـ، القلقشندي: قلائد الجمان 176، الناصري: سلا ورباط الفتح 2: 3.

(2) عن تقسيمات المغرب، وأنساب البربر، انظر: ابن عبد الحليم: كتاب الأنساب 15، 44

ابن فاتن بن يَدَّر [أ] بن يَخفَتْ بن عَبْد الله بن ورْتَنِيص [ب] بن المعزّ بن إبراهيم بن زِجّيك [ج] بن وَاسِين [1]، وأنّهم إخوة بَني يَلُومي ومَدْيُونَة، ورُبَّما يشهد بذلك جِوارُ مَواطِنِهم قبل المُلْك ما بين صا [د] ومُلْويّة [2]، وذكرنا كيف اقتسموا الضَّاحية والقَفْر مع إخوانهم بَني يادين [هـ] بن مُحَمَّد، وكيف اتَّصلت فتنتُهم معهم سائر [و] أيَّامِهم.

وكان الغَلَبُ أوَّلاً لبني يادين بن مُحَمَّد لكثْرة عددِهم؛ فإنَّهم ـ كما ذكرنا ـ خمسةُ بطون: بنو عَبْد الوَاد وتُوجِّينْ ومُصَاب [ز] وبنو زرْدال وإخوانهم بنو راشد بن مُحَمَّد، وكانوا أهلَ تلول المَغْرب الأوْسَط دونهم. وبقي هذا الحيُّ من بَني مَرين بمَجالات القَفْر من فيكيك [3] إلى سِجِلْمَاسَة إلى مُلْوِيّة؛ ورُبَّما يَخطون [ح] في ظَعْنهم

(أ) ظ، أ: يَدَّد، ص: بدد، والمثبت من مشجر نسبهم في نسختي ظ، أ (ب) ظ: ورتنين، أ: ورتنيز، وكتب في الهامش: ورتنيص، وفي ص: ورتينين، والمثبت موافق لما أورده بخطه في مشجَر نسبهم (ج) ظ، ص: سجيك، والمثبت من أ وموافق لما ورد في مشجَر نسبهم (د) ظ: يوضا، وفي أ، ص وضع في داخل الصاد حرف الزاي؛ لتنطق مشمومة بينهما، وعليه جاء رسمها عند الوزان (وصف إفريقيا 2: 250) بالزاي: وادي زا. وهو نهر ينبع من الأطلس ويسيل في صحراء أنكاد في الحد الفاصل بين فاس وتلمسان (هـ) ظ، ص: بادين، وانظر العبر 11: ورقة 16 أ وما بعدها (و) ظ: معهم مع سائر (ز) كتب ابن خلدون في نسختي أ، ص بداخل الصاد حرف زاي؛ لتنطق صاداً مُشَمَّة بالزاي، حسبما قرر ذلك في المقدمة. وموطن مصاب جنوب الأغواط وشمال غرداية بالجزائر (ح) ظ، ص: يحطون

---

(1) ذكر ابن أبي زرع الفاسيّ في الذخيرة السنية (ص15) سلسلة أطول لنسبهم، وأرجع أصلهم إلى أرومة عربيّة تتّصل بنزار بن معد بن عدنان. ووقع اختلاف في رسم الأسماء بين الفاسيّ وابن الأحمر وابن خلدون.

(2) ملوية: نهر كبير ينبع من الأطلس في ناحية الحوز، على بعد نحو خمسة وعشرين ميلاً من مدينة كرسلوين، ويمر في سفح جبل بني يزناسن، ويصب في البحر المتوسط بقرب مدينة غساسة. الوزان: وصف إفريقيا 2: 250، مقديش: نزهة الأنظار 1: 75 وفيها بفتح الميم.

(3) فيكيك أو فكيك: ثلاثة قصور في وسط صحراء المغرب، على بعد نحو مائتين وخمسين ميلاً شرقي سجلماسة، تحيط بها أشجار النخيل. الوزان: وصف إفريقيا 2: 133

إلى بلاد[1] الزَّاب؛ [وهم ثمانية بطون: بنو حَمَامَة، وبنو عَسْكَر، وتيرْبِيعِين، وبنو تَنَالُفْت، وبنو وَنكَاسَن، وبنو يابان، وبنو وَرْتَاجِّن، وبنو واطاس. فبنو حَمَامَة وبنو عَسْكَر وتيرْبِيعِين إخوة، وهم: بنو مُحمَّد بن وَرْزِيز، وبنو تَنَالُفْت إخوةُ محمد أبناءُ عَلاَّتٍ، وبنو وَنكَاسَن إخوة وَرْزِيز بن فَكُّوس، وبنو يابان إخوة فَكُّوس بن كُومَاط، وربَّما يقال إنهم أحْلافٌ لبني مَرِين من شعوب زَنَاتَة وليسوا من نَسَبِهم، وبنو وَرْتَاجِّن إخوةُ مَرِين بن وَرْتَاجِّن، وبنو واطاس ليسوا من نَسَب مَرِين في شيء، وفيهم بيتُ بَنِي الوزير من وَلَد عليّ بن يوسُف سُلْطان لَمْتُونَة، هكذا يذكر نسَّابتُهم.

وبنو واطاس من شُعُوب زَنَاتَة؛ اختلطوا ببني مَرِين كما اختلطت بهم أحْلافُهم من يِزْنيان وبَنِي فُودُود والحَشَم[2]. ولمَّا صار لهم المُلْك، تعيّنوا في دولتهم للوزارة[3]، فهي تتناقل

(1) ساقطة من أ. وبلاد الزاب: هي إقليم يبتدئ غرباً من تخوم مسيلة حتى بلاد الجريد شرقاً، ويحده من الشمال جبال بجاية، ومن الجنوب وركلة وتقرت. الروض المعطار 281، الوزان: وصف إفريقيا 2: 138

(2) ظ، ص: الجشم، والمثبت من أ. والحشم بالحاء المهملة: من بطون قبيلة توجين الزّناتيّة، كان موطنهم جبال وانشريس، وكانوا من أحلاف بني عبد الواد. انظر: بغية الروّاد 1: 213، الذخيرة السنية 27، نظام الحكم في دولة بني عبد الواد للدراجي 204.

والحَشَم في الأصل هيئة أنشأها يوسف بن تاشفين عام 470هـ من جزولة ولمطة وقبائل زناتة ومصمودة، تكونت منهم جماعات كثيرة أسماها "الحَشَم". ابن بطوطة: الرحلة 1: 78 (هامش 2)

(3) كانوا وزراء وحجّاباً وحاشيةً لملوك بني مرين، فلما ضعفت دولتهم استبدَّ بنو وطاس بالأمر، ثم استقلوا بعد وفاة آخر ملوك المرينيين سنة 869هـ، وفي سنة 876هـ استولى أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسيّ على فاس، وظل أميراً لها حتى خلفه ابنه أبو عبد الله الملقب بالبرتغاليّ سنة 910هـ، وانقرضت دولتهم سنة 961هـ في صراعهم مع السَّعْديين. الوزان: وصف إفريقيا 1: 38، 63

فيهم لهذا العَهْد][أ].

ويذكر نسّابتُهم أنّ الرِّيَاسَة فيهم قبل تلك[ب] العصور كانت لمُحَمَّد بن وَزْزِيز[ج] ابن فَكُّوس بن كُومَاط بن مَرِين، وأنّه كان لمُحَمَّد إخوةٌ آخرون يُعرفون[د] بأُمّهم تَنَالُفْت[هـ]، وكان بنو عَمّه وَنكَاسَن بن فكّوس، [ولوَنكَاسَن من الوَلَد: خَلُوف وكَبَّاب وزَيَّان وعليّ ومختار، ويقال في زَيَّان ومَنْ بعده: إنّهم من دمر، وليس بصحيح][و].

وكان لمحَمَّد من الوَلَد سبعة: شقيقان، وهما حَمَامَة وعَسْكَر، وأبناء عَلاَّتٍ أمّهات أولاد، وهم: سَنكيان وسكميان[ز] وسُكْم ووَرَاغ[ح] وقُرُونْت[ط]، ويُسمّى هؤلاء الخمسة في لسانهم تِيْرْبِيعِين[ي]، ومعناه عندهم الجماعة.

ويزعُمون/ أنّ مُحَمَّداً لمَّا هَلَك قام بأمره في قَوْمِه ابنُهُ حَمَامَة، وكان الأكبر، [ومن [151أ] وَلَده بنو أبي بكر بن حَمَامَة، فمنهم: بنو عَيَّاد بن يَحْيَى بن أبي بكر، وبنو مَحْيُو بن أبي بكر، وبنو وَسْنَاف بن مَحْيُو بن أبي بكر. ومن بني وَسْنَاف: بنو إبراهيم بن عيسى بن يحيى بن وَسْنَاف، وبنو سُلَيْمان بن عيسى. وبنو عبد الحقّ بن عيسى،

(أ) انفردت أ بالزيادة المشمولة بين الحاصرتين (ب) أ: هذه (ج) ظ، أ: ورزين، ص: ورزير، والمثبت موافق لما ارتضاه القلقشنديّ في كتابيه: صبح الأعشى 5: 194، وقلائد الجمان 177، وموافق لما كتبه في مشجر نسبهم إلا أنه كتبه بالصاد وجعل لزاي تحته، لينطق بينهما (د) ظ: معروفون (هـ) ص: بنالفت، والمثبت موافق لما ورد في مشجر نسبهم بخط ابن خلدون (و) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، ص ومثبت في أ (ز) ظ، أ: وسكمان، والمثبت من ص وموافق لما خطّه بيده في مشجّر نسبهم (ح) ص: ووراع (ط) ظ، أ: وقرونت، والمثبت من ص، وفي مشجّر نسبهم: قُرُنت. (ي) ظ: بيربعين، والمثبت موافق لمشجّر نسبهم

ومن بني أبي بكر: بنو إبراهيم بن غانم بن أبي بكر. ومن بني مَحْيُو بنو عبد الحقّ بن مَحْيُو أهل بيت المُلك، وسيأتي ذكرهم](أ).

ثمَّ [وَلِيَ أمرَ بني مَرِين قبلَ الملك من بعد حَمَامَة الأكبر](ب) أخوهُ عَسْكَر، وكان له من الوَلَد ثلاثة: تُكُوم وأبو يَكْنِي، ويلقّب المُخَضَّب، وعليّ، ويلقَّب لاغُذَز، [ومن وَلَده: بنو حَمَامَة بن يَصَلْتن بن عليّ، وبنو حَمَامَة بن خَلُوف بن عليّ، وهو صاحب فَنْدَلاوَة، ومن وَلَده: بنو عَمَر بن عُثْمان بن حَمَامَة، وابنه العَبَّاس بن عُمَر، ومنهم: بنو بُومِنْدِيل(ج) بن حَمَامَة بن خَلُوف، وهم فريقان: بنو يَحْيَى بن سُلَيْمان بن بومِنْدِيل، وبنو الحسن بن عليّ بن يَحْيَى بن بو مِنْدِيل. ويُعرف بنو خَلُوف بن علي كلّهم أولاد تافرَاسَتْ، وشيوخُهم أولاد عَمَر بن عُثْمان.

ومن وَلَد علي لاغُذَز: بنو زَكْداز بن محمَّد بن عليّ، منهم: بنو التُّونِسيّ محمَّد بن العبَّاس بن عَمَر بن علي بن زَكْداز، ومنهم: بنو بُومِنْدِيل بن يعقوب بن زَكْداز، ويُعرفون شيوخ أولاد تَدْرِينَتْ. ومن وَلَد عليّ لاغُذَز: بنو يوسف بن إدريس بن وَرْزِيز(د) بن عليّ، وبنو العَافِيَة بن علي.

وفي أولاد تَدْرِينَتْ بطون بَني الخيَّاط، وبنو تاعَزونْتُ، وبنو زَكْداز، وبنو أعرابْ، وبنو أيّوب الجبل، وبنو أيّوب الوطا، ويُقَال: إنَّ بَني أعراب بن بُوبكر من

(أ) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، ص (ب) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، ص، وعوضه فيها: من بعده ... (ج) ضبطه في مشجر نسبهم بفتح الميم (د) في مشجر نسبهم: ورصيص وتحت الصاد حرف زاي

العَرَب اختلطوا ببني عَسْكَر](أ).

ولمَّا هَلَكَ [عَسْكَر](ب)، قام برياسته فيهم ابنُهُ المُخَضَّب، فلم يَزَل أميراً عليهم إلى أن كان أمر المُوَحِّدين. وزحف عَبْد المُؤمن إلى تَاشِفِين بن عليّ بن يوسُف، فحاصره بتِلِمْسان. وسَرَّحَ الشَّيخ أبا حَفْص في العَساكر لحرب زَنَاتَة بالمَغْرب الأوْسَط، وجمع له بنو يادين كلّهم، وبنو يَلُوْمِي، وبنو مَرِين، ومَغْرَاوَة، ففضَّ المُوَحِّدُون جُموعَهم، واسْتَلْحموا أكثرهم. ثمَّ راجع بنو يَلُوْمِي وبنو يادين(ج) طاعَتَهم، وأخلص بنو عَبْد الوَاد في خدمَتِهم ونَصيحَتِهم. ولحق بنو مَرِين بالقَفْر.

فلمَّا غلب عَبْدُ المُؤمن على وَهْرَان(1)، واستولى على أموال لَمْتُونَة وذخيرتهم، بعث بتلك الغنائم إلى جبل تِينْمَلل(2) حيث داره، ومن أين كان منبعث الدَّعوة. وبلغ الخبرُ إلى بني مَرِين بمكانِهم من الزَّاب، وشيخُهم يومئذٍ المُخَضَّبُ بن عَسْكَر،

(أ) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، ص (ب) ساقطة من ظ، ص (ج) ص: بادين

---

(1) وهران: مدينة جزائرية على ساحل البحر قرب تلمسان، اشترك في بنائها جماعة من الأندلسيين البحريين بالاتفاق مع مجاوريها البربر لأجل المرسى، محاطة بأسوار عالية، ويقع جزء من المدينة في السهل، والجزء الآخر في جبل شديد الارتفاع. مجهول: الاستبصار 133، التمكروتي: النفحة المسكية 41، الوزان: وصف إفريقيا 2: 30

(2) ضبطه ياقوت هكذا: تِينْ مَلَّل (معجم البلدان 2: 69)، وذكره المراكشي والوزان بلام واحدة. وتِنْما: ذات، إيمل: الحواجز التي تعمل على الجبال لجعلها صالحة للزراعة والسقي، وكان هذا الجبل مهد دولة الموحدين، وهو جبل عال وعر المسالك؛ لا يعبر إليه أحدٌ إلاَّ على جسر يُرفع عند الحرب، وهو شديد البرودة، على قُنَّته مدينة تحمل اسمه. انظر: ابن سعيد: الجغرافيا 125، الإدريسي: نزهة المشتاق 1: 230، الحميري: الروض المعطار 128 (وفيه: تاملت)، الوزان: وصف إفريقيا 1: 141، مقديش: نزهة الأنظار 1: 51، وسيذكره ابن خلدون فيما بعد، وأنَّه حصن لبني عبد المؤمن لما ظهر المهدي محمد بن تومرت ومدفنه فيه.

فأجمع اعتراضَها بقوْمِه، ولَحِقَ العيرَ بوادي تلاغ(أ)، فاحتازها من أيدي المُوَحّدِين. واستَنفر عَبْدُ المُؤمن لاستنقاذها أولياءَه من زَناتة، وسَرَّحهم مع المُوَحّدِين لذلك، فأبلى بنو عَبْد الوَاد فيها بلاءً حسناً، وكان اللّقاءُ في فَحْص مَسون(1)، وانكشف بنو مَرِين، وقُتِل المُخَضَّب بن عَسْكَر، واكتَسَح بنو عَبْد الوَاد جِلّهم، وذلك سنة أربعين وخمسمائة. فلَحِقَ بنو مَرِين بعدها بصحرائهم ومَجالات قَفْرهم.

وقام بأمْرهم من بعد المُخَضَّب أبو بكر ابنُ عَمّه حَمَامَة بن مُحَمّد إلى أنْ هَلَكَ، فقام بأمره ابنُه مَحْيُو(ب)؛ ولم يزل مُطاعاً فيهم إلى أنِ استنفرهم المنصور لغَزَاة الأرْك(2)، فشهِدوها وأبلَوْا فيها البلاءَ الحسن. وأصابت مَحْيُو(ج) يومئذٍ جراحةٌ انتقضت عليه مَرْجِعَهُ منها، فهلَكَ بصَحْراء الزَّاب سنةَ إحدى وتسعين وخمسمائة. وكان من رياسته عبد الحَقّ ابنه مِن بعده وبقائها في عَقِبِه ما نذكرُهُ.

(أ) ص: بلاغ، ومهملة في ظ، والمثبت يوافق ما في الذخيرة السنية 115 (ب) ظ، ص: عيو (ج) ظ، ص: عيو

(1) فحص مَسون بين قرية جرسيف الواقعة غرب نهر ملوية وبين قصبة مسوف الواقعة إلى غربها في طريق تازَى التي تبعد عنها 65كم شرقاً، ويسمّى هذا الفحص أيضاً فحص جل (الأنيس المطرب 102 حاشية 179) وفيه دارت معركة فاصلة بين حميد بن يصل الكتامي القائد الفاطمي وموسى بن أبي العافية، وانتصر فيها الشيعة. وذكر الإدريسي (نزهة المشتاق 1: 241) وادي مَسون، وأنّ بينهُ وبين كرمطة - المعروفة بكرنطة – مرحلة، وهو حصن منيع مُطلّ على ملوية.

(2) غزوة الأرْك: وقعت سنة 591هـ بين المسلمين الموحدين والأندلسيين بقيادة السلطان أبي يوسف يعقوب المنصور، وبين جيش قشتالة بقيادة أذفونش (ألفونسو الثامن) بالقرب من حصن الأرك Alarcos، وكان النصر فيها للمسلمين. المعجب 359، الروض المعطار 27، الحجي: التاريخ الأندلسي 484.

وكان أذفونش قد أرسل للسلطان أبي يوسف قبل الحرب رسالة أثارت غضبه، فسار إليه. انظر الرسالة في الكامل لابن الأثير 12: 113، إنسان العيون لابن أبي عذيبة 5، وانظر المقارنة التي عقدها ابن عذاري بين الزلّاقة والأرك في البيان المغرب 196.

[151 ب]

[إفراد نسب بني عسكر من بني عبد الحقّ المرينيّ (عن نسخة أ)]

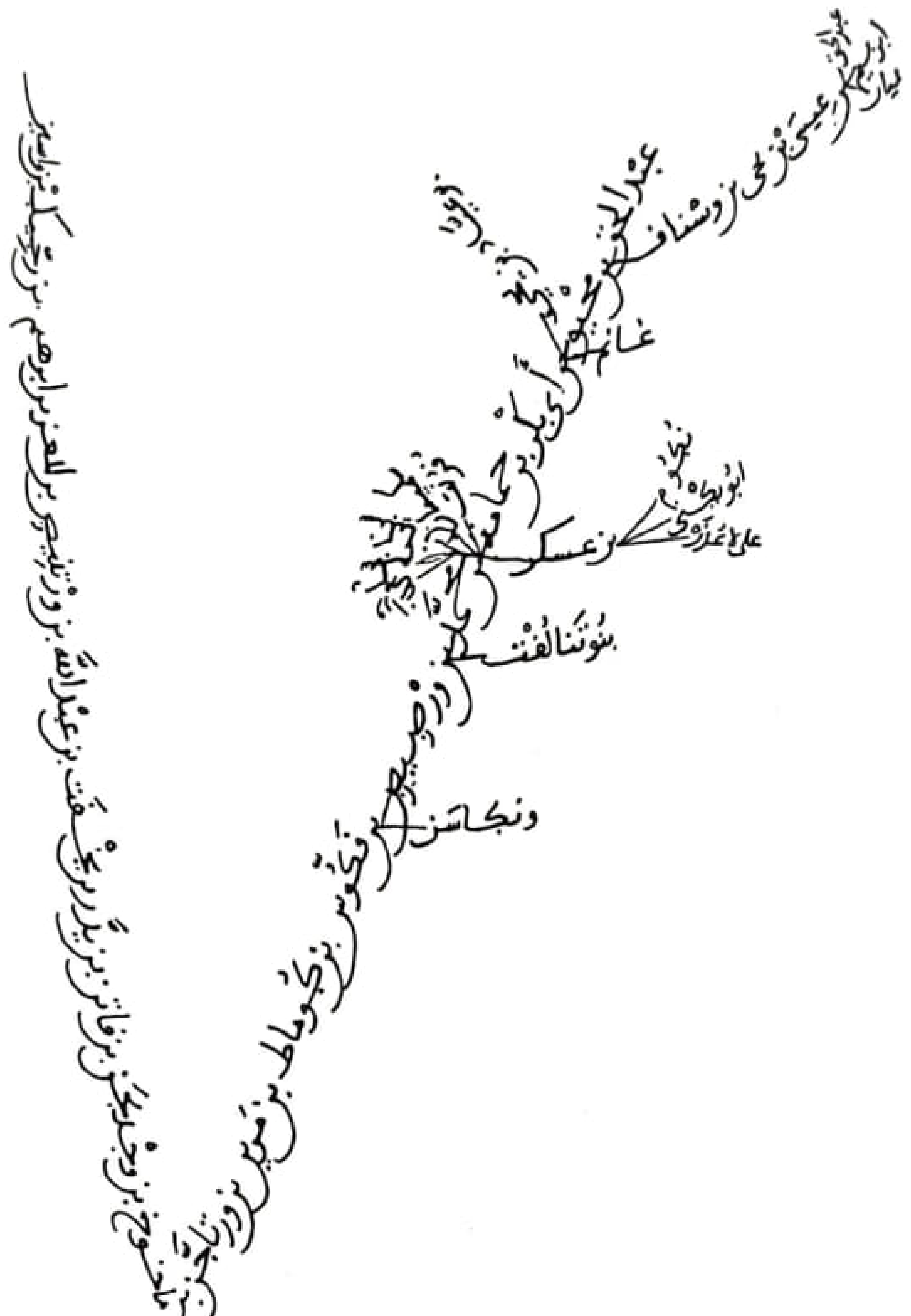

[النسب الأعلى لبني مرين]

[152 أ]

/الخبر عن إمارة عبد الحقّ بن مَحْيُو المُستقرّة في بَنيه، وإمارة(أ) ابنه عُثمان من بعده، ثمّ أخيه مُحَمَّد بن عبد الحقّ بعدهما، وما كان فيها من الأحداث

لمّا هَلَكَ مَحْيُو بن أبي بكر بن حَمَامَة من جراحتِه، كما قلناه، وكان له من الوَلَد عبد الحقّ ووَسْنَاف ويَحْيَاتَن، وكان عبد الحقّ[1] أكبرَهم، فقام بأمر بني مَرِين، وكان خيرَ أميرٍ عليهم قياماً بمصالحهم، وتعفّفاً عمّا(ب) في أيديهم، وتقويماً لهم على الجادَّة، ونظراً في العواقب، واستمرّت أيّامهم(ج).

ولمّا هَلَكَ النّاصِر[2]، رابعُ خلفاءِ المُوَحِّدِين بالمَغْرب، سنةَ عشر وستّمائة[3] مرجِعَهُ من غَزَاة العِقَاب[4]، وقام بأمر المُوَحِّدِين من بعده ابنُهُ يوسُف

(أ) ص: بإمارة (ب) أ: عن ما (ج) أ: أيامه

(1) أخباره في الذخيرة السنية 30، روضة النسرين 23، الزركشيّ: تاريخ الدولتين 31

(2) هو: محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن. أعمال الأعلام 269

(3) الذخيرة السنية 49

(4) العِقَاب، بكسر العين: موضع بالأندلس بين جيَّان وقلعة رباح، وكانت فيه الوقعة المشهورة بين الموحدين ونصارى الأندلس في منتصف صفر سنة 609هـ، وتسميها المصادر العربية "وقعة العقاب" أو "العقبان"، وتسميها المصادر الإسبانية "موقعة هضاب تولوسا" Navas di Tolosa، وانهزمت فيها جيوش الموحدين، واستولى ملك قشتالة ألفونش الحادي عشر على معسكر المسلمين وموضع سلطان المغرب، وفيه الحريم والأولاد فذُبحوا جميعاً بوحشية قاسية. الروض المعطار 416، الوزان: وصف إفريقيا 1: 135، 323 (وفيه قصر العقاب)، أشباخ: تاريخ الأندلس 354 ـ 373، الحجي: التاريخ الأندلسي 544

المُسْتَنْصِر[(1)]، نصّبه المُوَحّدُون للأمر غُلاماً [يُفَعَةً][(أ)]؛ لم يبلغ الحُلُم، وشغلته أحوالُ الصِّبا وجنونُه عن القيام بالسّياسة وتدبير المُلْك؛ فأضاعَ الحزمَ وأغفل الأمور. وتَوَاكَل المُوَحّدُون[(ب)] بما أرخى لهم من طيل[(ج)] الدَّالّة عليه، ونفَّس عن مُخَنَّقِهم من قبضة الاستبداد والقَهْر؛ فضاعت الثُّغور، وضعُفَت الحامية، وتهاوَنوا بأمْرهم، وفشلت رِيحُهُم[(2)].

وكان هذا الحيُّ لذلك العَهْد بمجالاتِ القِفار، [من][(د)] فيكيك إلى صَا[(هـ)] ومُلْوِيَّة، كما قدَّمناه من شأنهم. وكانوا يطرقون في صُعودهم إلى التُّلُول والأرياف - منذ أوَّل دولة المُوَحِّدِين وما قبلها - جِهاتِ[(و)] كَرْسِيف[(3)] إلى وطاط[(4)]، وَيَأْنسُون بِمَنْ هُنالِك من بقايا زَنَاتَة الأولى: مثل مِكْنَاسَة بجبال تَازَى، وبني يَرْنِيَّان من مَغْرَاوَة المُوطّنين قصُورَ وطاط[(ز)] من أعالي مُلْوِيَّة، فيتقلَّبون بتلك الجهاتِ عامّةَ المربع والمصيف، ويتحدَّرُونَ[(ح)] إلى مَشاتيهم بما امتارُوه من الحبوب لأقواتهم، فلمَّا رأوا من اختلال بلاد المَغْرب ما رأوا، انتهزوا فيها الفُرْصَة، وتخطّوا إليها القَفْر، ودخلوا من

(أ) ساقطة من ظ، ص (ب) ظ، ص: الموحدين (ج) ص: طيل (د) ساقطة من ظ (هـ) في أ، ص جعل بداخل الصاد زاياً إشارة إلى نطقها بين الصاد والزاي، وتقدم التعريف بنهر زا. (و) أ: من جهات (ز) أ: وطاه (ح) أ، ص: وينحدرون

---

(1) في تاريخ الدولتين للزركشي 19: المنتصر، وكان عمره يوم بويع عشرة أعوام.

(2) علّق ابن أبي زرع الفاسي على هذا بقوله: "... فوجدوا ملوك الموحّدين قد تهاونوا بالأمور، واعتكفوا في قصورهم على اللهو، وركنوا إلى الغيد في القصور، فأدّى ذلك بهم إلى الوَهَن والقصور". الذخيرة السنية 26

(3) كرسيف: قصر قديم مشيد فوق صخرة قرب نهر ملوية، على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من تاوريرت. الوزان: وصف إفريقيا 1: 350

(4) وطاط: لعلها المسمّاة الآن "أوطاط الحاج" أو: "أوطاط أولاد الحاج"، قرية مغربية تقع في إقليم بولمان جنوب مدينة فاس، ولم نجد لها ذكراً في المصادر التراثية.

ثنـاياه، وتفرّقـوا في جهاتـه، / وأوْجَفـوا بخَـيْلهم وركابهـم عـلى سـاكنِه، واكتَسـحُوا بالغـارة والنَّهْـب عامَّـةَ بَسـائطِه، ولجـأت الرَّعَـايَا إلى مُعْتَـصَماته ومعـاقله[أ]، وكَـثُرَ شاكيهم. [152 ب]

وأظلم الجوُّ بينهم وبين السُّلْطان والدَّوْلَة، فآذنوهم بالحَرْب، وأجمعوا لغَزْوهم[ب] وقَطْع دابرهم. وأغزى الخليفةُ المُسْتَنْصِر عظيم المُوَحِّدِين أبا عليّ بن وانودين بجميع العَسَاكر والحشودِ من مَرَّاكُش[1]، وسَرَّحَه إلى السَّيِّد أبي إبراهيم ابن أمير المُسْلمين يوسُف بن عَبْد المُؤمن بمكانه من إمارة فاس[2]، وأوْعَز إليه أنْ يخرجَ بهم لغـزْوِ بني مَرِين، وأمرهُ أنْ يُثْخنَ ولا يستبقِي.

واتَّـصَل الخَـبرُ ببَـني مَـرِين وهم في جهـاتِ الرِّيـف وبـلاد بَطُّويَـة، فتركـوا [أثقـالَهم][ج] بحِصْن تازُوطَـا[3]، وصَمَـدوا إلـيهم، فـالْتقى الجمْعـان بـوادي

(أ) ظ، ص: ومعاقلهم (ب) أ: الغزو فيهم (ج) ساقطة من ظ

(1) انظر عن اختطاط مدينة مراكش، وسير الأحداث بها إلى قيام دولة بني عبد الحق المرينيين: الحلل الموشية لمؤرّخ مجهول من القرن الثامن الهجريّ.

(2) تقع إلى الشرق من الرباط على بُعد نحو مائتي كم، ضعف شأنها في عهد المرابطين والموحدين بعد أن اتخذوا مراكش عاصمة لملكهم، فلما آل الحكم لبني مرين أعادوها إلى سابق مجدها. عن اختطاط مدينة فاس وعمائرها وفضائلها، انظر: ابن الخطيب: معيار الاختيار 172 ـ 179، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 32

(3) تازوطا: عند الوزان "تَزُوطَة"، وهي بلدة من بلاد كرط على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من غساسة، بنيت على ربوة عالية، ويضيف الوزان أنها كانت مستودع غلة بني مرين قبل أن يصير الملك إليهم، فلما ملكوا تركوا تزوطة لجيرانهم. ولم يذكر الوزان صفة الحصن الذي يذكره ابن خلدون في أكثر من موضع، وأنها من أمنع معاقل المغرب. انظر: وصف إفريقيا 1: 342

نكور[1]، فكان الظُّهورُ لبني مَرِين، والدَّبَرَةُ[أ] على المُوَحِّدِين، وامتلأت الأيدي من أسلابهم وأمتعتهم، ورجعوا إلى تَازَى وفاس عُرَاةً يخصفون عليهم من وَرَق النَّبات المعروف عند أهل المَغْرب بالمشغلة، يُوارُون به سَوْءَاتِهم لكَثْرة الخِصْب عامئذٍ، واعتمار الفدن بالزّراع وأصناف الباقِلاء، حتّى لقد سُمّيت الواقعةُ يومئذٍ بعام المشغلة[2].

وصَمَد بنو مَرِين بعدها إلى تَازَى، ففلّوا حاميتها أخرى. ثم اختلفت بنو مُحَمَّد رؤساؤهم، وانتبذ[ب] عنهم من عشائرهم[ج] بنو عَسْكَر بن مُحَمَّد، لمنافسةٍ وجدوها في أنفسهم من استقلال بني عَمّهم حَمَامَة بن مُحَمَّد بالرِّيَاسَة دونهم، بعد أنْ كان أوْمض عندهم منها في عَسْكَر وابنِه[د] المُخَضَّب إيماضٌ أخْلَف بارقُه، فخالفوا عبدَ الحَقّ أميرَهم وقومه إلى مُظاهرة أولياء المُوَحِّدِين، وحامية المَغْرب من قبائل رياح المُوطَّنين بالهَبْط وأزْغَار[هـ] لحديثِ عَهْدِهم بالتَّوَحُّش والعزّ منذ إنزال المنصور إيّاهم

(أ) ص: والدائرة (ب) ظ: فانتبذ (ج) أ: شعائرهم (د) ص: وأبيه (هـ) ظ: واوغاراً، أ: وبازغاراً، ومهملة في ص. وأزغار والهبط: إقليمان من أقاليم فاس السبعة، لكل منها إمارته الخاصة، فالهبط سهول الغرب من قرية سيدي قاسم بوعسرية إلى المحيط الأطلسي، تمتد من نهر ورغة جنوباً حتى المحيط شمالاً، وتتاخم غرباً مستنقعات أزغار، وهي أراض خصبة تخترقها المياه، وفيها ثمانية جبال تسكنها قبائل غمارة. أما إقليم الهبط فيمتد من المحيط شمالاً حتى نهر بونصر (وادي مكس حالياً) جنوباً، ومن نهر أبي رقراق غرباً حتى جبال غمارة شرقاً، وأرض الإقليم سهلية، يخترقه نهر سبو المار في وسطه. الوزان: وصف إفريقيا 1: 193، 301، 306، 320

---

(1) نهر النكور: يقع في آخر بلاد الريف أحد أقاليم فاس، ومدينة نكور تقع قرب مدينة مليلة، وهي بين نهرين، أحدهما نكور والآخر نهر غيس، فيجتمع الاثنان بموضع يقال له أكدال. البكري: المسالك 2: 764، الروض المعطار 576، الوزان: وصف إفريقيا 1: 324

(2) في الذخيرة السنية: "ودخل جلّ جيش الموحّدين عُراة إلى رباط تازة ومدينة فاس، وأكثرهم جرحى ومنهزمين، وبالربيع والمشعلة (بالعين المهملة؟) مستترين، ... ونفوسهم بالحزن مشعلة، فسمي ذلك العام عام المشغلة (بالغين؟)". وعلّق ناشر الكتاب: "المشعلة: نبات". وانظر عن عام المشغلة (613هـ): البيان المغرب لابن عذاري 244

بذلك القُطْر من إفرِيقِيَّة، فتحيَّزوا إليهم وكاثروهم على قومهم.

وصَمَدوا أجمعون للقاء بني مَرِين سنةَ أربعَ عشرة، ودارت بينهم حربٌ تولّى الصَّبْرُ مقامها. وهَلَكَ فيها أميرُهم عبدُ الحَقّ وكبيرُ بَنيه إدْرِيس، وتَذَامَرَ[أ] لمَهْلِكِهما بنو مَرِين. وجلى[ب] في تلك الحومة حَمَامَة بن يَصليتَن[ج] من بني عَسْكَر، والأمير ابن مَحْيُو السكمي[د]، فانكشف رِياح آخراً، وقُتل منهم أبطالٌ.

[153 أ] وولّى[هـ] بنو مَرِين عليهم بعد مَهْلِك عبد الحَقّ ابنَهُ عُثْمان[1] تلوَ / إدْرِيس، وشهرتُهُ بينهم أدرغال، ومعناه بَرطانتهم: الأعْوَر.

وكان لعبد الحَقّ من الوَلَد عشرةٌ: تسعةُ ذكور، وأختهم وَرْتطليم؛ فإدْرِيس وعَبْد الله ورَحُّو لامرأةٍ من بَني عليّ اسمُها سَوْط النِّساء[2]، وعُثْمان ومُحَمَّد لامرأةٍ من بَني وَنكَاسَن اسمُها النّوارُ بنت تَصالِيتْ[و]، وأبو بكر لامرأةٍ من بَني تَنالُفت وهي تاغزُونت[ز] بنت أبي بكر بن حَفْص، وزَيَّان لامرأةٍ من بَني وَرْتَاجِّن، وأبو عَيَّادٍ لامرأةٍ من بَني ولّلو إحدى بطون عَبْد الوَاد، اسمُها أمُّ الفرج، ويَعْقُوب لأمّ اليُمْن بنت مُحَلّى من بَطُّويَة. وكان أكبَرَهُم إدْرِيسُ الهالكُ مع أبيه عبد الحَقّ، فقام بأمر بَني مَرِين من بعد عبدِ الحَقّ ابنُهُ عُثْمان؛ بايعه لوَقْتِه حَمَامَةُ بن يَصليتَن[ح] ولَمِيرْر بن

(أ) ظ، أ، ص: بالمهملة: تنامر. والصواب بالمعجمة، وتَذامر القومُ: تحاضُّوا، ويتذامرون: أي يحضُّ بعضهم بعضاً على الجد في القتال. لسان العرب، مادة: ذمر (ب) ظ: وخلى، ص: وحلى (ج) ظ: يزصلتين، وفي أ، ص وضع في الصاد حرف زاي (د) أ: السكني (هـ) ظ: وولوا (و) في أ، ب وضع في داخل الصاد حرف زاي، وهي من بني يتجاسن. روضة النسرين 25 (ز) أ: تاغزنت، ومهملة في ص (ح) ص: مصليتن، وفي أ جعل بداخل الصاد حرف زاي

(1) الذخيرة السنية 35، روضة النسرين 25

(2) من بني علي الشرفاء الحسنيين. روضة النسرين 25

مَخْيُو ومَنْ إليها من مَشيخة قومها. واتَّبعوا مُنهزمةَ[أ] رياح، وأثخنوا فيهم. وثأر عُثْمان بأبيه وأخيه حتّى شفا نَفْسَه منهم؛ ولاذوا بالسِّلْم، فسالمهم على إتَاوَةٍ يؤدُّونها إليه وإلى قَوْمِه كلَّ سنة.

ثمَّ استَشرى ـ من بعد ذلك ـ داءُ بَني مَرِين، وأعضل خَطْبُهم، وكَثُر الثُّوَّار بالمَغْرب، وامتنعَ عامَّةُ الرَّعَايَا عن المغرَم[ب]، وفَسُدت السَّابِلَة. واعْتَصم الأمراءُ والعُمَّال من السُّلْطان فمن دونه بالأمْصار والمدُن، وغلبوا أولئك على الضَّاحية، وتقلَّص ظلُّ الحكَّام عن البدو جُملة.

وافتقد بنو[ج] مَرِين الحاميةَ دون الوَطَن والدِّفاع، فمدُّوا إلى البلاد يداً. وسار بهم أميرُهم أبو سعيد عُثْمان[د] بنُ عبد الحَقّ في نواحي المَغْرب يتقرَّى مَسالكه وشعُوبَه، ويضعُ المغارِمَ على أهله، حتّى دخلَ أكثرُهم في أمره، فبايعوه من الظَّواعن الشَّاوِيَّة[1] والقبائل الآهلة: هَوَّارَة وزكَّارة، ثمَّ تَسُول[هـ] ومِكْنَاسَة، ثمَّ بَطُوية وفشتالة[و]، ثمَّ سَدَّرَاتَة وَبَهْلُولَة ومَدْيُونَة؛ ففَرَض عليهم الخَراجَ، وألْزمهم المغارِمَ، وفرَّق

(أ) ظ: مهزمة، وساقطة من ص (ب) ظ، ص: المغرب (ج) ظ: بني (د) ظ: ابن عُثْمان (هـ) ص: بسول، وبني تسول هم بني وزطَناج. انظر صفة الجبل المسمى باسمهم في وصف إفريقيا للوزان 1: 357 (و) ص: قشتالة. وفشتالة: قبيلة من صنهاجة

(1) الشاويّة: هم أمازيغ (بربر)، يعيشون عيشة العرب بتربية الغنم والبقر، ويرتادون المسارح والمياه لحيواناتهم، ويُسمّون شاوية لقيامهم على الشاء والبقر. كان معظمهم يسكن في جبال الأطلس وسفوحه، ويتحدث بعضهم باللغة العربية لمجاورتهم للعرب وعلاقتهم بهم، كسكان بادية الأربيوس في نواحي تونس، ومنهم جماعة أخرى تقيم بين تونس وبلاد الجريد، يُعرفون بشاوية الأوراس. انظر: كتاب العبر لابن خلدون 1: 217، الوزان: وصف إفريقيا 1: 66

فيهم العُمَّال. ثمَّ فرضَ على أمْصارِ المَغرب مثل: فاس وتَازَى ومِكْنَاسَة وقَصْر كُتَامَةَ[1] ضَرِيبةً معلومةً؛ يُؤدُّونها إليه على رأس كلّ حَوْل، على أنْ يكفَّ الغارَةَ عنهم، ويُصْلحَ سَابِلَتهم.

ثمَّ أغزَى ظَواعنَ زَنَاتَة سنةَ عشرين، وأثخنَ فيهم حتّى أذعنوا، وقبضَ أيديَهم عمّا امتدّت إليه من الفساد والنَّهْب، وعطفَ ـ بعدها ـ على رياح أهل أزْغَار والهَبْط واتِرِيهِ[2] بأبيه، فأثخنَ فيهم وأبادَهم. ولم يَزَل / دَأْبُه ذلك إلى أنْ هَلَكَ باغتيال عِلْجِهِ سنةَ سبعٍ وثلاثين[3]. [153 ب]

وقام بأمر بَني مَرِين من بعده أخوه مُحَمَّد[4] بنُ عبد الحَقّ، فتقَيَّل[أ] سَنَن أخيه في تَدْويخ بلاد المَغرب وأخذ الضَّريبة من أمْصاره، وجباية المغارِم والوَضائع من ظَواعِنه، وبَدْوِه، وسائر رَعاياه. وبعث الرَّشِيدَ أبا مُحَمَّد بن وانودين لحربهم، وعقد له على مِكْنَاسَة؛ فدخلها، وأجْحَفَ بأهْلِها في المغارِم. ثمَّ نزل بنو مَرِين بتَيجُدُوَغِير[ب] من ضَواحيها، فنادى في عساكره وخرج إليهم، فدارت بينهم حربٌ شديدةٌ هَلَكَ فيها

(أ) ظ، ص: فتقبل، والتقيّل: التأسي والتشبه. (ب) أ: بتيجدوغيز، أو: بتيجدوغين

(1) قصر كتامة: ويسمى القصر الكبير، مدينة في شمال المغرب، قرب مدينة العرائش، وذكر ياقوت مدينة أخرى تعرف بقصر كتامة من مدن الجزيرة الخضراء بالأندلس. ياقوت: معجم البلدان 4: 362، ابن الخطيب: معيار الاختيار 149، الوزان: وصف إفريقيا 1: 303

(2) الوِتْر: الذحل، والموتور: الذي قُتل له قتيل فلم يدرك بدمه، والواتر: القاتل. لسان العرب، مادة: وتر.

(3) في الذخيرة السنية 58: في أول محرّم 638هـ، وقال: "اغتاله عِلجُه ليلاً بوادي روات".

(4) يكنّى أبا معرف، وكان أعرج؛ فلقّب بأرجولك. انظر عنه وعن عهده: الذخيرة السنية 59، روضة النسرين 25

خَلْقٌ من الجانبين. وبارز مُحَمَّد بنُ إدْرِيس بن عبد الحَقّ قائداً من الرُّوم، واختلفا ضربتَيْن هَلَكَ العِلْجُ بإحديهما[أ]، وانجرح مُحَمَّد في وَجْهِهِ بالأخرى، واندمل جرْحُه؛ فصار أثرٌ في وَجْهِهِ، لُقِّبَ من أجله أبا ضَرْبَة[1].

ثمَّ شدَّ بنو مَرِين على المُوَحِّدِين؛ فانكشفوا[ب]، ورجع ابنُ وانودِين إلى مِكْنَاسَة مَفْلولاً. وبقِيَ بنو عَبْد المُؤمن أثناء ذلك في مرضٍ من الأيّام، وتثاقِل[ج] عن الحماية.

ثمَّ أوْمضت دولتُهم آخراً إيماضةَ الخُمود؛ وذلك أنّه لمّا هلكَ الرَّشِيدُ بن المأمون سنة أربعين وستّمائة، ووَلِيَ أخوهُ عليّ وتلقّب بالسَّعيد[2]، وبايعهُ أهلُ المَغْرب؛ انصرفت عَزائمه إلى غَزْو بَني مَرِين وقَطْع أطماعهم عمّا سَمَتْ إليه مِن تملّك الوَطَن، فأغزى[د] عَساكِر المُوَحِّدِين لقتالهم، ومعهم قبائلُ العَرَب والمَصامِدَة وجموعُ الرُّوم؛ فنهضوا سنة ثنتَين وأربعين في جيشٍ كثيفٍ يناهزُ عشرين ألفاً فيما زعموا. وزَحَفَ إليهم بنو مَرِين بوادي بَاياش[هـ]، وصَبرَ الفريقان[و]، وهلكَ الأميرُ مُحَمَّد بنُ عبد الحَقّ في الجولة بيَدِ زعيمٍ من زُعماء الرُّوم[3]، وانكشفتْ بنو مَرِين واتَّبعهم المُوَحِّدُون،

(أ) ص: بأحدهما (ب) أ: وانكشفوا (ج) ظ، ص: وتثاقل (د) ص: فأغزا (هـ) ظ، ص: ياباش، وفي الأنيس المطرب لابن أبي زرع 290: صخرة أبي بياش من أحواز مدينة فاس. وفي الذخيرة السنية 62: "بموضع من أحواز فاس يعرف بإغلان". (و) ص: وصبر الفريقين

(1) انظر أخبار أبي ضربة في الجزء الثاني عشر من كتاب العبر قبله في فصل "الخبر عن استيلاء السلطان أبي بكر على الحضرة وإيقاعه بأبي ضربة وفرار أبيه من طرابلس إلى المشرق"، وفي نزهة الأنظار لمقديش 1: 565 - 567

(2) هو علي بن المأمون من بني عبد المؤمن، الملقَّب بالسَّعيد، أحد خلفاء الموحدين (640 ـ 646هـ). ابن أبي زرع الفاسي: الذخيرة السنية 61، مجهول: الحلل الموشية 167

(3) اسمه في الذخيرة السنية 63: جوان غيطان

ودخلوا تحت اللَّيل، فلحِقوا بجبال غِيَاثة[أ] من نواحي تازَى واعتصمُوا بها أيّامـاً، ثمّ خرجوا إلى بلاد الصَّحرَاء، وولّوا عليهم أبا يَحْيَى[1] بن عبد الحقّ، فقام بأمرهم على ما نذكره.

/الخَبَرُ عن دَوْلَة الأمير أبي يَحْيَى بن عبد الحَقّ، مُدِيلِ الأمر لقومه بني مَرِين، وفاتِحِ الأمصار، ومُقيمِ الرُّسُوم المُلُوكيّة[2] من الآلة وغيرها لمَن بعده من أمرائهم[3] [1154]

لمّا وَلِيَ أبو يَحْيَى بن عبد الحَقّ أمرَ[ب] بَني مَرِين سنة ثنتَين وأربعِين، كان من أوّل ما ذهب إليه ورآه من النّظر لقَوْمه، أنْ قسّم بلادَ المَغرب وقبائلَ جبايته بين عشائر بني مَرِين، وأنزل كلاًّ منهم في ناحيةٍ تسوّغها سائرَ الأيّام طُعْمَةً. فاستَرْكبوا

(أ) كذا في ظ والوزان (وصف إفريقيا 1: 356)، وفي أ والذخيرة السنية 36: غياثة، وفي ص: عياثة، وهو جبل صعب المرتقى، يقع على بعد نحو خمسة أميال من تازى. انظر الوزان: وصف إفريقيا 1: 356 (ب) ص: أمير

---

(1) هو الأمير أبو بكر بن عبد الحق. قيل عنه إنه كان يرمي ويطعن في الحرب بحربتين في حالة واحدة، وإنه أول من ضرب الطبول ونشر البنود من بني مرين. الذخيرة السنية 64، روضة النسرين 26

(2) أوْرَدَ القلقشندي (صبح الأعشى 5: 204 ـ 210) كثيراً من رسوم دولة بني مرين، وتراتيبها، وشاراتها، وتقاليدها، ووظائفها الإدارية، وأزياء موظفيها، وأرزاقهم، وغير ذلك. كما أن كثيراً من رسومهم ووثائقهم مبثوثةٌ في الرحلة المسمَّاة "فيض العُباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب" لابن الحاج النميري، معاصر أبي عنان المريني (729 ـ 759هـ) أعظم ملوكهم.

(3) استخلص ابن خلدون من خبر استيلاء بني مرين على المغرب الأقصى وانتزاعه من الموحدين بعد نحو ثلاثين سنة من المطاولة، أحد الشواهد الدّالة على أن "الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة"، حسب ما قرّره في مقدمة كتابه "العبر" 1: 511

الرَّجُل أتباعهم[أ]، واسْتَلْحقوا من غاشيتهم، وتوفَّرت عساكِرهم، ثمَّ لقحت[ب] نارُ المنافسة بين أحيائهم، وخالف بنو عَسْكَرٍ جماعتهم، وصاروا إلى المُوَحّدِين، فحرّضوهم على أبي يَحْيَى بن عبد الحقّ وبني حَمَامَة وأغروهم[ج] بهم، وبعثوا الصَّرِيخَ إلى يَغْمَرَاسَنْ[1] بن زَيَّان؛ فوصَلَ في قَوْمِه إلى فاس. واجتمعوا جميعاً إلى قائد المُوَحّدِين، وأعطوا الرُّهُن على صِدْق البلاء في الأمير أبي يَحْيَى وأتباعه. وصَمَدوا إليه حتّى انتهَوْا إلى وَزغَةَ[د]، ثمَّ إلى كَرْتْ[2]، وأعجزهم فانكفؤوا راجعين إلى فاس.

ونَذِرَ يَغْمَرَاسَن بغدر المُوَحّدِين، فخرَجَ في قَوْمِه مع أوليائه بَني عَسْكَر. وعارضَهم الأمير أبو[هـ] يَحْيَى بوادي سُبُو[3]، فلم يُطِقْ حَرْبَهم. ورجع عنهم عَسْكَرُ المُوَحّدِين

(أ) أ: من أتباعهم (ب) ص: لحقت (ج) ظ: فأغزوهم (د) ص: درعة (هـ) ظ: أبي

(1) اختلفت النسخ في ضبط اسم يغمراسن، فجاء على صور متعددة، وأحياناً كثيرة يختلف الضبط في النسخة الواحدة على أكثر من شكل، فيرد: يَغْمراسَن، يَغْمُراسِن، يَغْمَراسِن، يَغْمُراسِن، يَغْمَرَاسَن.
ويقول يحيى ابن خلدون عن يغمراسن بن زيان هذا: "هو أوّل من خلط زيّ البداوة بأبّهة المُلك". بغية الرواد 1: 205، وفيه تحرّكات يغمراسن وأعماله في بناء دولته.

(2) كُرْت: أوردها البكري والوزان بالطاء عوض التاء: كَرْط؛ وهو سادس أقاليم مملكة فاس، شديد الوعورة شديد الجفاف، وفيه صحراء تبتدئ شمالاً عند البحر المتوسط وتمتدّ إلى صحراء الحوز جنوباً. ولكرط مرسى على البحر. البكري: المسالك 2: 775، الوزان: وصف إفريقيا 1: 340، 346

(3) في ظ: سبوا. وضبط أوله في أ - حيثما يرد - بالفتح: سَبُو، وهو خلاف المشهور؛ فقد ضبطه ياقوت (معجم البلدان 3: 186) بضم أوله وثانيه، وعند الوزان (وصف إفريقيا 2: 248) بإسكان السين. وهو نهر ينبع من جبل سليلكو من جبال الأطلس، منبعه من عين كبيرة في غابة بالجبل، وينحدر من هناك بين جبال وتلال ويصب في المحيط الأطلسي عند قرية تسمى المعمورة. وقال الحميري (الروض المعطار 606): "وادٍ على نحو ثلاثة أيام من فاس"، ويرد ذكره كثيراً في كتاب الجغرافيا لابن سعيد 138، والبكري: المسالك 2: 828، والإدريسي: نزهة المشتاق 1: 247، الروض المعطار 435، مقديش: نزهة الأنظار 1: 74

بما صرخ[أ] في مُعَسْكَرِهم من موت الخليفة السَّعيد. ثمَّ بعثوا إليهم ـ لملاطفتهم في الفيئة إلى الطَّاعة ومَذاهبِ الخِدْمة ـ القائدَ عَنْبَر الخَصِيّ مَوْلى الخليفة في حصّةٍ من الرُّوم والنَّاشِبة، فتقبّض عليهم بنو عَسْكَر وتمسّكوا بهم في رُهُنهم، وقتلوا كافَّةَ النَّصارَى، فأُطلق أبناؤهم، ولَحِق يَغْمَرَاسَن وقومُه بتِلِمْسان.

ثمَّ رَجع بنو عَسْكَر إلى ولاية أميرهم أبي يَحْيَى. واجتمع بنو مَرِين لشأنهم، وتملّكوا الأعمالَ، ثمَّ مدّوا عيونهم إلى *تملُّك الأمصار، فنزل أبو يَحْيَى بحَمْلَته جبل زَرْهُون(1)، ودعا أهلَ مِكْنَاسَة إلى*[ب] بيعةَ الأمير أبي زَكَرِيَّاء بن أبي حَفْص صاحب إفْرِيقِيَّة، / [154 ب] لما كان يومئذٍ على دَعْوته وفي ولايته، وحاصَرَها، وضيَّقَ عليها بقَطْع المرافِق، وتَرْديد الغاراتِ، ومغاداة[ج] الحَرْب، إلى أنْ أذعنوا لطاعته، فافْتَتَحها[د] صُلْحاً بمُداخلةِ أخيه يَعْقُوب بن عبد الحَقّ لزعيمها[هـ] أبي الحَسَن بن أبي العَافِيَة. وبعثوا بَيْعَتَهم إلى الأمير أبي زَكَرِيَّاء، وكانت من إنشاء أبي المطرف بن عميرة[و]، كان قاضياً فيهم يومئذٍ، فأقطع السُّلْطان ليَعْقُوب ثلثَ جبايتها. ثم أحسَّ الأميرُ أبو[ز] يَحْيَى بنُ عبد الحَقّ من نفسِه الاستبدادَ، ومن قبيله الاستيلاءَ؛ فاتَّخذ الآلة.

(أ) ص: صرح (ب) سقط ما بين النجمين من أ (ج) ظ: ومعادات (د) أ، ص: وافتتحها (هـ) ص: لزعيمها (و) ظ: عمير
(ز) ظ، ص: أبي

---

(1) جبل زرهون: شمال مدينة فاس، ويطل على مكناسة، يبتدئ من سهل السايس على بعد عشرة أميال من فاس، ويمتد غرباً على مسافة ثلاثين ميلاً تقريباً، تغطيه الغابات التي يكثر فيها شجر الزيتون. الوزان: وصف إفريقيا 1: 294.

وبلغ الخبرُ إلى السَّعيد بتغلّبه على مِكْنَاسَة، وصرفها إلى دَعْوة ابن أبي حَفْص، فوَجَم لها، وفاوض الملأ من أهْل دَوْلته في أمره، وأراهم كيف اقتُطِعَ الأمرُ عنهم شيئاً فشيئاً: فابن أبي حَفْص اقتطع إفْرِيقِيَّة، ثمَّ يَغْمَرَاسَن بن زَيَّان وبنو عَبْد الوَاد اقتطعوا تِلِمْسان والمَغْرب الأوْسَط، وأقاموا فيها دَعْوةَ ابن أبي حَفْص، وأطمعوه في الحركة إلى مَرَّاكُش بمُظاهرتهم، وابن هُود اقتطع عُدْوَة الأنْدَلُس، وأقام فيها دَعْوة بَني العبَّاس، وابن الأَحْمر في الجانب الآخر مُقيمٌ لدعوةِ ابن أبي حَفْص، وهؤلاء بنو مَرِين تغلّبوا على ضواحي المَغْرب، ثمّ سَمَوْا إلى تملُّك أمْصاره[أ].

ثمَّ افتتح أبو يَحْيَى أميرُهم مِكْنَاسَةَ، وأظْهَرَ فيها دَعْوةَ ابن أبي حَفْص، وجاهَرَ بالاستبْداد - ويوشكُ إنْ رضينا هذه الدَّنِيَّة، وأغضينا عن هذه الواقعات، أنْ يختلَّ الأمرُ وتنقرضَ الدَّعوة - فتَذَامَرُوا[ب]، وامْتَعضوا، وتداعَوْا للصُّمود إليهم، فجهَّز السَّعيدُ عساكِرَهُ، واحتشد عرب المَغْرب وقبائله، واستنفر المُوَحِّدِين والمَصَامِدَة، ونهض من مَرَّاكُش سنةَ خمسٍ وأربعين يريدُ: مِكْنَاسَة وبَني مَرِين أوّلاً، ثمَّ تِلِمْسان ويَغْمَرَاسَن ثانياً، ثمَّ إفْرِيقِيَّة وابنَ أبي حَفْص آخراً. واعترض العَسَاكِر والحشود بوادي بَهْتَ[1]. ووصَلَ الأمير أبو يَحْيَى إلى معَسْكَره متوارياً عنهم عيناً لقومه، حتَّى صَدَقَهُم كُنْهَ الخبر، وعَلِمَ أنْ لا طاقةَ له بهم؛ فأفرجَ عن البلاد.

(أ) ظ: تلك أمصار (ب) ظ، ص: فتدامروا

---

(1) وادي بهت: ينبع هذا النهر من الأطلس، ويسيل نحو الشمال بين جبال وغابات، ثم يخرج وسط التلال لينتشر في أحد سهول أزغار، بحيث يتحول إلى مستنقعات وبحيرات. الوزان: وصف إفريقيا 2: 248

وتَـاذرَ بنـو مَـرِين بـذلك مـن أمـاكنهم، فتلاحقـوا بـه، واجتمعـوا إليـه بتازُوطَـا مـن بـلاد الرِّيـف. ونـزل الـسَّعيدُ[أ] مِكْنَاسَـة، ولاذ أهلُهـا بالطَّاعَـة، وسـألوا العَفْـو عـن الجريـرة، واسْتَـشفعوا بالمـصاحِف؛ بـرز بهـا الأولادُ عـلى رؤوسـهم، وانتظمـوا مـع النِّـسَاء في صـعيدٍ حـاسراتٍ مُنْكـسرات الطَّـرْف مـن الخـشوع ووجُـوم الذَّنْب والتَّوسّـل؛ فعفـا عنهم، وتقبَّـل فَيْئتَهم[ب]، وارْتَحَـل إلى / تَازَى في اتِّبـاع بَـني مَرِين. [155أ]

وأجمع[ج] بنو وَاطاس الفَتْكَ بأبي يَحْيَى بن عبد الحَقّ غَيْرَةً ومنافسةً، ودَسَّ إليـه بذلك محيبٌ [الوَطَّاسيّ][د] من مَشيختهم؛ فرحلَ[هـ] عنهم إلى بلادِ بَني يَزْنَاسَـنْ، ونزل بعين الصَّفا.

ثمَّ راجَعَ نظرَهُ في مُسالمةَ المُوَحِّدِين والفَيْئة إلى أمْرهم ومُظاهرتهم على عَدُوّهم يَغْمَرَاسَن وقَوْمه من بَني عَبْد الوَاد؛ ليكونَ فيها شِفاءُ نفسِه منهم، فأوْفَدَ مَشيخةَ قَوْمِه عليه بتَـازَى، فـأدّوا طاعتـه وفَيْئتـه، فتقبَّلها[و] وصَفَحَ لهم عن الجرائـر التي أتوها[ز]. وسألوه أنْ يستكفي بالأمير أبي يَحْيَى في أمر تِلِمْسان ويَغْمَرَاسَـن، على أنْ يمدَّه بالعَسَاكر رامحةً وناشبةً، فاتّهمهم المُوَحِّدُون، وحذروا منهم غائلةَ العصبيَّة، فأمَرَهم السَّعيد بالعَسْكَرة معه، فأمدَّهُ الأميرُ أبو يَحْيَى بخمسمائة من قبائل بَني مَرِين،

(أ) ظ: سعيد (ب) ظ: فيتهم (ج) ص: واجماع (د) بياض في ظ، أ، ص قدر كلمتين، والإضافة من الذخيرة السنية 73
(هـ) ظ: فترحل (و) ص: فتقلبها (ز) ظ، ص: أتاها

وعقَدَ عليهم لابن عمّه أبي عيّاد[أ] بن يَحْيَى بن أبي بكر بن حَمَامَة، وخرجوا تحتَ راياتِ السُّلْطان. ونهضَ من تازَى يريدُ تِلِمْسان وما وراءها، وكان من خبرِ مَهْلِكِه على جبل تامَزَزْدَكت[ب] بِيَدِ بني عَبْد الوَاد ما ذكرناه في أخبارهم.

ولمَّا هَلَكَ وانفضَّت[ج] عساكِره مُتسابقينَ إلى مَرَّاكُش، وجُمهورُهُم مُجتمعون إلى عَبْد الله ابن الخليفة السَّعيد، وليِّ عَهْده، وتحتَ راياتِ أبيه. وطارَ الخبرُ بذلك إلى الأمير أبي يَحْيَى بن عبد الحَقّ، وهو بجِهاتِ بني يَزْنَاسَنْ. وقد خلص إليه هُنالِك ابن عمّه أبو عَيَّاد[1]. وبعث بني مَرِين من تيّار تلك الصَّدْمة، فانتهز الفُرْصَة وأرْصَدَ لعَسَاكر المُوَحِّدِين وفلّهم بكَرْسِيف، فأوْقع بهم، وامتلأت أيدي بَني مَرِين من أسْلابهم، وانتزعوا الآلَة من أيديهم. وأصار إلى كتيبة الرُّوم والنَّاشِبة من الغز[د]، واتَّخذ الموكب المُلُوكيّ.

وهَلَكَ الأميرُ عَبْد الله بن السَّعيد في جَوانب تلك المَلْحَمة، ويئسوا للمُوَحِّدِين بعدها من الكرَّة.

ونهض الأميرُ أبو يَحْيَى وقَوْمه إلى بلادِ المَغْرب مُسابقِين[هـ] إليه يَغْمَرَاسَن بن زَيَّان بما كان مُلُوكُ المُوَحِّدِين أوْجَدُوهم السَّبيل إلى ذلك باسْتِجاشَتِه على بَني

(أ) ظ: أبو عباد (ب) ظ: تامرزذكت، ص: تامرزدكت، وذكرها مقديش: تامزكيدة، بينها وبين المسيلة مرحلتان. مقديش: نزهة الأنظار 1: 86 (ج) ص، ظ: وانقضت (د) ظ: والناشة من العز (هـ) أ: سابقين

(1) أبو عيّاد بن عبد الحق قتله أسدٌ بوادي بهت سنة 644هـ. الذخيرة السنية 68

مَـرِين أيَّام فِتْنَـتِهم معهـم، فكانـوا يُبيحونـه[أ] حـرم المَغـرب، ويوطئونـه عـساكِر قومِـهِ مـا بـين تَازَى إلى فـاس إلى القَـصْر مع عَـساكِر المُوَحّـدِين، فـكان ليَغْمَرَاسَن وقومِه بذلك طمعٌ[ب] فيها لـولا مـا كبحهُم بـأسُ بَني مَرِين وجدع[ج] من أنوفهم.

[155 ب] وكان / أوَّلَ ما بدأ به أبو يَحْيَى بن عبد الحَقّ أعمالُ وطاط؛ فـافتتح[د] حصُونَهم بمُلْويَّة ودوَّخ جَبَلَهم. ثمَّ رَحَل إلى فاس، وقد أجْمَعَ أمْرَه على انتزاعِها من ملكَةِ عَبْد المُؤمن، وإقامةِ الدَّعْوة لابن أبي حَفْص بها وبسائر نواحيها، والعامل بها يومئذٍ السَّيِّد أبو العبَّاس بن [....][هـ]، فأناخَ عليها بركَابِه، وتلطَّف في مُداخلةِ أهلها، وضَمِنَ لهم جميـلَ النَّظَـر وحميـدَ السِّياسـة، وكـفَّ الأيـدي عنهم[و]، والحمايةَ الكفيلة لهم بحُسن المَغَبَّة، وصالحِ العائدة، فأجابوه ووثقوا بعَهْده وغَنائه[ز]، وأووا إلى ظلّه، ورَكَنوا إلى طاعته[ح]، وانتحال الدَّعْوة الحَفْصيَّة بأمره. ونبذوا طاعةَ بَني عَبْد المُؤمن يأساً[ط] من صَريخهم وكثرتهم. وحضر أبو مُحمَّد الفشتاليّ[ي]، وأشهده الله على الوفاءِ بما اشترط على نفسِه من النَّظر لهم والذَّبّ عنهم، وحُسْن الملكة والكفالة، وتقَيُّل مذاهب العَدْل فيهم، فكان حضورُه ملاكَ تلك العقدةِ والبَرَكةِ التي يعرفُ أثَرَها خَلَفُهم في تلك البَيْعة. وكانت البيعةُ بالرَّابطة خارجَ بابِ الفُتوح. [ودخل][ك]

(أ) ص: ينجونه (ب) ظ: طمعاً (ج) ظ، ص: وجذع (د) ص: ففتح (هـ) في ظ، أ، ص بياض قدر كلمتين، وفي الاستقصا 3: 14: أبو العباس من بني عبد المؤمن (و) ساقطة من أ (ز) ظ، ص، ض: وعنائه (ح) أ: طاعتهم، ص: وركبوا إلى طاعتهم (ط) ص: تأنساً (ي) ص: القشتالي، وفشتالة: قبيلة من صنهاجة. (ك) ساقطة من ظ

إلى قَصَبة فاس لشهرَيْن اثنين من مَهْلِكِ السَّعيد[1]، فاتح ستٍّ وأربعين، وأخرج السَّيِّد أبا العبَّاس من القَصَبة[أ]، وبعث معه خمسينَ فارساً أجازوه أمَّ ربيع[2] ورَجعوا.

ثمَّ نَهَض إلى مُنازلة تازَى، وبها السَّيِّد أبو عليّ، فنازلَها أربعةَ أشهر. ثمَّ نزلوا على حُكْمه، فقتلهم، ومَنَّ على آخرين منهم، وسدّ ثغرَها، وثقف أطرافَها، وأقطع رباطَ تازَى وحصونَ مُلْويّة لأخيه يَعْقُوب بن عبد الحَقّ، ورَجَع إلى فاس، فوفَدَ عليه بها مَشيخةُ [أهلِ][ب] مِكْنَاسَة، وجدَّدُوا بَيْعَتَهم، وعاوَدوا طاعَتَهم.

ولَحِق بهم على أثرهم أهلُ سَلا ورِباط الفَتْح[3]، فتملَّك الأمير أبو يَحْيَى هذه

(أ) أ: القضية (ب) ساقطة من ظ

(1) فصَّل ابن أبي زرع الفاسيّ (الذخيرة السنية 71) خبر موته، وربطه بأمور غيبيّة تتعلّق بالفقيه أبي محمد عبد الله الفشتاليّ. الذخيرة السنية 71

(2) وادي أم ربيع: أحد أهم أنهار المغرب، منبعه من الأطلس بين جبال عالية في نواحي تادلا وفاس، وينصب النهر جنوباً في المحيط قرب سور أزمور، بعد أن يمر النهر بسهول دكالة وتامسنا. تحدث عنه ابن سعيد في كتاب الجغرافيا 137، وسمّاه الحميري: وادي وانسيفن، عند قلعة مهدي ببلد فازاز من أرض المغرب، وأن أم ربيع قرية كبيرة هناك فيها أخلاط من البربر، وهي على هذا الوادي. الإدريسي: نزهة المشتاق 1: 236 ـ 237، الروض المعطار 605، الوزان: وصف إفريقيا 2: 247، مقديش: نزهة الأنظار 1: 63

(3) سلا: مدينة بالمغرب يفصلها عن مدينة الرباط وادي أبي الرقراق، وهي مدينة قديمة فيها آثار للأول، بنيت على شاطئ المحيط، وذكر الإدريسي أن اسمها القديم "شلة" بينما يذكر مؤلف الاستبصار أن "شلّة" اسمها بالعجمي، وعند مقديش "شالة". الإدريسي 1: 238، مجهول: الاستبصار 140، الروض المعطار 318، الوزان: وصف إفريقيا 1: 207 ـ 209، ابن الخطيب: معيار الاختيار 152، مقديش: نزهة الأنظار 1: 65.

أما رباط الفتح: فهي مدينة الرباط التي أسسها المنصور الموحّديّ أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن سنة 594هـ. الوزان: وصف إفريقيا 1: 201، وانظر عن سَلا ورباط الفتح ما كتبه جعفر بن أحمد النّاصريّ في كتابه الكبير "سلا ورباط الفتح: أسطولها وقرصنتها الجهادية".

البلادَ الأربعةَ أمّهاتِ أمصار المَغرب[أ]، واستولى على نَواحيها إلى وادي أمّ ربيع، وأقام فيها دَعْوة ابن أبي حَفص، وبعث بها إليه.

واستبَدَّ بنو مَرين بمُلْكِ المَغرب الأقْصَى، وبنو عَبْد الوَاد[1] بمُلْك المَغرب الأوْسَط، وبنو أبي حَفص[2] بإفريقيّة. وخَمد ذبالُ آل عَبْد المُؤمن، وركدت ريحُهم، وآذنت بالانقراضِ دَوْلتُهم، وأشرف على الفَناء أمرُهم. وإلى الله عاقبة الأمور[3].

الخَبَرُ عن انتقاض أهلِ فاس على أبي /يَحْيَى بن عبد الحَقّ، وظَفَرِه بهم، بعد إيقاعه بيَغْمُراسَن وقَوْمِه بإِيسْلي[ب] [156 أ]

لمَّا مَلَكَ[ج] الأميرُ أبو يَحْيَى بن عبد الحَقّ مدينةَ فاس سنةَ ستٍّ وأربعين، استولى على بلادِ المَغرب بعد مَهْلِك السَّعيد، وقام بأمر المُوَحّدِين بمَرّاكُش أبو حَفْص عُمَر المُرْتَضَى بن السَّيِّد أبي إبراهيم إسحاق - الذي كان قائدَ عَسْكَر المُوَحّدِين في حَرْبهم مع بَني مَرين عامَ المشغلة - ابن أمير المؤمنين أبي يَعْقُوب يوسُف بن عَبْد

(أ) ظ: الغرب (ب) ظ، ص: بإيسلي. ويذكرها ابن خلدون في عدة مواضع أنها من بسائط وجدة، وهي عبارة عن قصر قديم في سهل يحاذي صحراء أنكاد. الوزان: وصف إفريقيا 2: 12 (ج) ظ، ص: لما هلك الأمير ... بمدينة

(1) وضع يحيى بن خلدون كتابه "بغية الرُّوَّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد" لتمجيد هذه الأسرة المنحدرة من قبيلة زَناتة، وبيان تاريخها وتأسيسها للدولة وأعمال ملوكها، خاصة عهد الأمير أبي حَمُّو الثاني.

(2) خصَّهم عددٌ من المؤرّخين بمؤلفات تتحدث عن دولتهم بما فيها من تفصيلات واسعة، كابن قنفذ في رسالته "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصيّة"، وابن الشمّاع "الأدلة البينة النورانيّة في مفاخر الدولة الحفصيّة"، والزركشيّ "تاريخ الدولتين: الموحّديّة والحفصيّة".

(3) أخذ القلقشنديّ هذه المادة ودبّجها بأسلوبه. صبح الأعشى 5: 196

المُؤمن، كان السَّعيدُ تركه والياً بقَصَبة رِباط الفَتْح من سَلا، فاستدعاه المُوَحِّدُون وبايعوه بَيْعةَ الخلافة، وقام بأمرهم.

فلمّا تغلّبَ الأميرُ أبو يَحْيَى على بلاد المَغرب ومَلَكَ مدينة فاس ـ كما ذكَرْناهُ ـ خرج إلى بلاد فَازَاز والمَغْدَن[1] لفَتْح بلاد زَنَاتَة وتَدْويخ نَواحيها، واستعمل على فاس مَوْلاه السّعود بن خَرْبَاش، من جماعة الحشم[أ] أحْلافِ[ب] بَني مَرِين وصَنائعهم. وكان الأميرُ أبو يَحْيَى استبقى بها مَنْ كان فيها من عَسْكَر المُوَحِّدِين من غير عيصهم في السَّبيل التي كانوا عليها من الخدمة، وكان فيهم طائفةٌ من الرُّوم، استخدمهم إلى نظر قائدهم شانه، فكانوا من حصّة السّعود هُنالِك. ووقعت بينهم وبين شِيَع المُوَحِّدِين من أهل البَلَد مُداخلةٌ، وفتكوا بالسعود عامِلِهم، وقَلَبوا الدَّعْوة للمُرْتَضَى الخليفة بمَرَّاكُش سِكِّيت الحلبة[ج] ومخلّف المضمار. وكان المتولِّيَ لكِبْر تلك الثَّوْرَة ابن جشّار[د] المشرف، وأخوه، وابن أبي طاطو[هـ] وابنه، اجتمعوا إلى القاضي أبي عبد الرّحمن المَغِيلِيّ، زعيمِ فئة الشُّورَى بينهم يومئذٍ، وتوامروا فيها، وأغرَوْا قائد الرُّوم بقتل السعود، وعَدَوْا[و] عليه بمَقْعد حُكْمِه من القَصَبة، وهاجوه ببعض

(أ) أ: الجشم، وفي الذخيرة السنية 74، والأنيس المطرب 294: السعود بن خرباش الحشمي (بالحاء). (ب) ظ، ص: أخلاف (ج) ص: الجلبة (د) ظ، ص: ابن حشار، والمثبت موافق لما في الذخيرة السنية 75، 78 وفيه: المشرف بن جشار، أي: مشرف فاس. (هـ) ظ، أ: طاهر، والمثبت من ص وموافق للذخيرة السنية 78 (و) أ: وغدوا

---

(1) لعل المعنية هي معدن عَوَّام: مدينة تقع على ضفة نهر أبي رقراق، وتبعد مسافة عشرة أميال من الأطلس. الوزان: وصف إفريقيا 1: 203

المحاورات فغضب، ووثب عليه الرُّوميّ، فقتله، وطاف برأسه الهاتف بسِكَكِ المدينة في شَوَّال سنة سبع وأربعين. وانتُهبت داره، واستُبيحت حُرَمُه. ونَصبوا قائدَ الرُّوم لضَبْط البَلَد، وبعثوا ببَيْعتهم إلى المُرْتَضَى.

واتَّصل الخَبَرُ بالأمير أبي يَحْيَى، وهو مُنازل بلد فَازَاز، فأفرج عنها، وأغَذَّ السَّيْرَ إلى فاس، فأناخ بعَساكرِه عليها، وشمَّر لحصارها، وقطع السَّابِلَة عنها. وبعثوا إلى المُرْتَضَى بالصَّرِيخ، فلم يرجع إليهم قولاً، / ولا مَلَكَ لهم ضرّاً ولا نفعاً، ولا وجَّه لِمَا [156 أ] نزل بهم وجهاً، حاشا أنَّه استجاش بالأمير أبي يَحْيَى يَغْمَرَاسَن بن زَيَّان على أمره، وأغراه بعدوه، وأمَّله لكشف هذه النَّازلة عمَّن انحاش إلى طاعته.

وتعلَّقت أطماعُ يَغْمَرَاسَن بطُروقِ بلاد المَغْرب، فاحتشد لحركته، ونهض من تِلِمْسان للأخذِ بحُجْزة الأمير أبي يَحْيَى عن فاس، وإجابة صَريخ الخليفة لذلك. وبلغ الأميرَ أبا[أ] يَحْيَى خبرُ نُهوضِه إليه لتسعةِ أشهر من مُنازلته البَلَد، فجَمَّر الكتائبَ عليها، وصَمَد إليه قبل فُصُوله من تُخوم بلاده، والْتقى الجَمْعان بإيسلى من بَسائط وَجْدَة[1]، فتزاحفَ القومُ وأبلوا. وكانت ملحمةً عظيمةً، هَلَكَ فيها عبدُ الحَقّ بن مُحَمَّد بن عبد الحَق بيد إبراهيم بن هشام من بني عَبْد الوَاد.

(أ) ظ، ص: أبي

(1) وجدة: مدينة مغربية كبيرة قديمة، على بعد نحو 40 ميلاً جنوب البحر المتوسط، تحاذي من جهة الغرب صحراء أنكاد، كثيرة البساتين والمياه والعيون، وكان عليها الطريق المار من بلاد المشرق إلى بلاد المغرب وسجلماسة. مجهول: الاستبصار 177، الوزان: وصف إفريقيا 2: 13

ثمّ انكشف بنو عَبْد الوَاد، وهَلَك يَغْمَرَاسَن بن تَاشِفِين من أكابر مشيختهم، ونجا يَغْمَرَاسَن بن زَيَّان إلى تِلِمْسان. وانكفأ الأمير أبو يَحْيَى إلى مَعَسْكَره الآخذ بمُخَنَّق فاس، فسُقِط في أيدي أهلها، ولم يجِدُوا وليجةً من دون طاعتِهِ، فسألوه الأمانَ، وبذله لهم على غُرْمٍ ما تَلِف له من المال بدارِه يومَ الثَّوْرَة، وقَدْرُه مائة ألف دينار، فتحمَّلوها، وأمكنوه من قِيادِ البَلَد؛ فدخلها في جُمَادَى من سنة ثمان وأربعين. وطالَبَهُم بالمال، فعَجِزوا ونَقَضوا شَرْطَه، فحَقَّ عليهم القَوْلُ. وتقبَّض على القاضي أبي عبد الرَّحمن، وابن أبي طاطو، وابنه، وابن جشَّار[أ]، وأخيه المتولِّين كِبْرَ الفَعْلة[ب]، فقَتَلَهم، ورفع على الشُّرفات رُؤوسَهم. وأخذ الباقين بغُرْم المال طَوْعاً أو كرهاً[ج]، فكان ذلك ممَّا عبَّدَ رعيَّةَ فاس وقادَهم لأحْكام بَني مَرِين. وضَرَب الرَّهَب على قُلوبهم لهذا العَهْد، فخشعَتْ منهم الأصوات، وانقادت الهِمَم، ولم يحدِّثوا بعدها أنفسهم بغمْسِ يدٍ في فتنة. والله مالكُ الأرض ومَن عليها.

الخَبَرُ عن تغلُّب الأمير أبي يَحْيَى على مدينة سَلا، وارتجاعها من يَدِهِ، وهزيمته للمُرْتَضَى بعدها

لمَّا كَمُلَ للأمير أبي يَحْيَى فَتْحُ مدينة فاس، واسْتَوْسَقَ أمرُ بَني مَرِين بها، رَجع إلى ما كان فيه من مُنازلة بلاد فَازَاز، فافْتَتَحها، ودوَّخَ أوْطانَ زَنَاتَة، واقتضى مَغارِمَهم، وحَسَم عِلَلَ الثائرين فيها. ثمَّ تخطَّى إلى مدينة سَلا ورِباط الفَتْح سنة تسع وأربعين،

(أ) ظ: حشاد، ص: حشار (ب) ظ: القلعة (ج) أ: طوعاً وكرهاً

[157 أ] فلكها، وتاخم الموَحِّدِين / بثغرها، واستعمل عليها ابنَ أخيه يَعْقُوب بن عَبْد الله بن عبد الحَقّ، وعقد له على ذلك الثَّغر، وضَمَّ إليه الأعمال.

وبلغَ الخبرَ بذلك [إلى](أ) المُرْتَضَى؛ فأهمَّه الشَّأن، وأحضر الملأ [من](ب) المُوَحِّدِين وفاوَضَهم، واعتزم على حَرْبِ بَني مَرِين. وسَرَّحَ العَسَاكر سنةَ خمسين، فأحاطت بسَلا، فافْتَتَحوها، وعادت إلى طاعةِ المُرْتَضَى. وعَقَد عليها لأبي عَبْد الله ابن أبي يَعْلُو من مَشيخة المُوَحِّدِين؛ كان المُرْتَضَى قد صَمَد بنفسه سنةَ تسعٍ وأربعين إلى مُحاربة بَني مَرِين في جُموع المُوَحِّدِين وعساكر الدَّوْلَة، وصَمَد بنو مَرِين للقائه. والتقى الجمعان بإيميلولين، ففضّوا جمُوعَه، وكانت الدَّبَرَة(ج) عليه، والظُّهُورُ لهم. ثمَّ كان بعدها فَتْحُ سَلا، وغَلَب المُوَحِّدِين عليها. وأجْمع المُرْتَضَى بعدَها على الاحتشاد أهْلَ سُلْطانه، ومعاودة الخروجِ بنفسِه إلى غَزْوِهِم لما خَشي من امتداد أمْرِهِم. وتقلَّص مُلْكُ المُوَحِّدِين، فعَسْكَر خارجَ حَضرته سنة ثلاثٍ وخمسين، وبعث الحاشرين(د) في الجهات، فاجتمع إليه أمَمُ المُوَحِّدِين والعَرَب والمَصَامِدَة. وأغَذَّ السَّيْرَ تلقاءهم، حتّى إذا انتهى إلى جبال بَهْلُولَة من نَواحي فاس، وصَمَد إليه الأمير أبو يَحْيَى في عساكر بَني مَرِين، ومَنِ اجتمع إليهم من دونهم(هـ)، والتقى الجَمْعان هُنالِك، وصَدَقَهُمُ(و) بنو مَرِين القتالَ، فاختلَّ مَصَافُّ السُّلْطان، وانهزمت عَساكِرُه، وأسْلَمه قومه، ورَجَع إلى مَرَّاكُش مَفْلولاً، واستولى القومُ على معَسْكَره، واستباحوا سُرادِقَه وفَساطيطَه، وانتهبوا جميعَ ما وجدوا بها من المال والذخيرة، واستاقوا سائرَ الكُراع والظَّهْر،

(أ) ساقطة من ظ (ب) ساقطة من ظ (ج) ظ، ص: الدائرة (د) أ: الحاشدين (هـ) أ: ذويهم (و) ظ: وصدتهم

وامتلأت أيديهم من الغنائم، واعتزَّ أمرهم، وانبسط سُلطانهم، وكان يوماً له ما بعده.

وأغزى[أ] إثر هذه الحركةِ عساكر بَني مَرين تادَلا، واستباح بَني جابر حاميتها من جُشَم ببلد أبي نفيس[1]، واستلحم أبطالهم، وألان من حَدِّهم، وخضد من شوكتهم. وفي أثناء هذه الحروب كان مقتلُ عليّ بن عُثمان بن عبد الحقّ، وهو ابنُ أخي الأمير أبي يَحْيَى؛ شعر منه بفسادِ / الدخلة والإجماع للتّوثّب به، فدسَّ لابنه أبي حديد مفتاح بقَتْلِهِ؛ فقتله بجهات مِكْناسَة سنةَ إحدى وخمسين. [157 ب]

الخَبَرُ عن فَتْح سجلْمَاسَة وبلاد القِبْلَة، وما كان في ذلك من الأحْداث

لمَّا يئس بنو عَبْد المُؤمن من غَلَبهم بَني مَرين على ما صار في أيديهم من بلاد المَغْرب، وعادوا إلى مُدافعتهم عن صُبَابَة الدَّولَة التي تحلَّبت إليها شفاهُهم، لو أطاقوا المدافعةَ عنها، ومَلَك بنو مَرين عامَّةَ بلادِ التُّلول؛ اعتزم الأميرُ أبو يَحْيَى بعدَها على الحركة إلى بلاد القِبْلَة لفَتْح سِجلْمَاسَة ودَرْعَة وما إليها سنة ثلاثٍ وخمسين، فافْتَتَحها

(أ) ط: وأغزى

(1) بلد أبي نفيس: لعلها مدينة نفيس، من بلاد المغرب قرب أغمات، وتسمى بالبلد النفيس، وهي مدينة صغيرة تقيم بها عدة طوائف من البربر. انظر: الروض المعطار 578. وذكر مقديش جبل نفيس من بلاد السوس، وأنها مدينة صغيرة. مقديش: نزهة الأنظار 1: 58

بِمُداخَلةٍ من ابن القَطرانيّ؛ غَدَرَ بعامل المُوَحّدِين، فتقبّض عليه وأمْكن منها الأميرَ أبا يَحْيَى، فملكها وما إليها من دَرْعَة وسائر بلاد القِبْلَة، وعَقَد عليها لابنه أبي حديد.

وبلغَ الخَبَرُ إلى المُرْتَضَى، فسَرَّحَ العَسَاكر سنةَ أربعٍ وخمسين لاستنقاذها، وعقدَ عليهم لابن عَطُّوش من مشيخة المُوَحّدِين، فأغَذَّ الأمير أبو يَحْيَى السَّيْرَ إليها وبها ابنه أبو حديد مفتاح. وأحسَّ به ابن عَطُّوش، ففرَّ راجعاً إلى مَرَّاكُش.

ثمّ نهضَ سنةَ خمسٍ وخمسين إلى مُحاربة يَغْمَرَاسَن، [ولقيه بأبي سَليط، فأوقع به واعتزم على اتّباعه، فثناه عن رأيه في ذلك أخوه يَعْقُوب بن عبد الحَقّ، لعَهْدٍ تأكّد بينه وبين يَغْمَرَاسَن][أ]، فرجع.

ولمّا انتهى إلى المُقَرْمِدَة[1] هذه، بَلَغَه أنّ يَغْمَرَاسَن قَصد سِجِلْمَاسَة لمُدَاخَلَةٍ من بعض أهلها أطْمَعته في مُلكها، فأغَذَّ إليها السَّيْرَ بجُموعِهِ، ودَخَلها.

ولصَبيحةِ دُخوله، وَصَل يَغْمَرَاسَن لشانه، فلمّا علم بمكان أبي يَحْيَى من البَلَد، سُقِط في يديه، ويئس من غِلابِه، ودارت بينهم حربٌ تكافؤوا فيها، وهَلَكَ سُلَيْمان ابن عُثْمَان بن عبد الحَقّ ابنُ أخي الأمير أبي يَحْيَى. وانقلب يَغْمَرَاسَن إلى بَلَده. وعَقَد

(أ) سقط ما بين الحاصرتين من ظ

(1) ظ، ص: المقرمرة، والأصح ما أثبتناه، وهي بلدة صغيرة قرب مدينة فاس، على بعد نحو عشرين ميلاً، في جهة الشرق، تقع بين فاس وتازى - حسب ما سيأتي عند ابن خلدون فيما بعد -، أُسّست على ضفة نهر صغير، وقد ضُبطت عند الوزان - إن صدقت الترجمة - هكذا: "المُقَرْمَدَة". انظر وصف إفريقيا 1: 292

الأميرُ أبو يَحْيَى على سِجِلْمَاسَة ودَرْعَة وسائرِ بلاد القِبْلَة ليوسُف بن يَزْكَاسن. واستعملَ على الجباية عبد السَّلام الأوْرِيّ وداود بن يوسُف، وانكفأ راجعاً إلى فاس.

[158 أ] /الخَبَرُ عن [مَهْلِك][أ] الأميرِ أبي يَحْيَى، وما كان إثْرَ ذلك من الأحداث التي تمخَّضت عن استبداد أخيه يَعْقُوب بن عبد الحَقّ بالأمر

لمَّا رَجَعَ الأميرُ أبو يَحْيَى من حَرْب يَغْمَرَاسَن بسِجِلْمَاسَة، أقام أيَّامَاً بفاس، ثمَّ نهضَ إلى سِجِلْمَاسَة متفقِّداً لثغورها، فانقلب منها عَليلاً، وهَلَكَ حتْفَ أنفِه على سَريرِ مُلكه في رجب سنة ستٍّ وخمسين، أمْضَى ما كان عزماً، وأطولَ إلى تناول المُلك يداً. اختطفته المنون عن شأنه، ودُفن بمقبرةِ بابِ الفُتوح[1] من فاس، ضَجيعاً للمَوْلى أبي مُحَمَّد الفشتاليّ[ب] كما عَهِد لأهل بيته.

وتصدَّى للقيام بأمرِهِ ابنُه عُمَر[2]، واشتمل عليه عامَّة قَوْمه. ومالت المشيخةُ وأهلُ الحلّ والعَقْد إلى عمِّه يَعْقُوب بن عبد الحَقّ، وكان غائباً عن مَهْلِك أخيه

(أ) ساقطة من ظ (ب) ص: القشتالي، وفشتالة: قبيلة من صنهاجة.

---

(1) في الذخيرة السنية 84: "صُلي على جنازته بجامع الأندلس، ودُفن بباب الجيزتين من أبواب عُدوة الأندلس بإزاء قبر الشيخ الفقيه الصالح أبي محمد الفشتاليّ".

(2) يكنّى أبا حفص، بويع سنة 656هـ بفاس، ثم خلعه عمُّه يعقوب. الذخيرة السنية 84، روضة النسرين 26

بتَازَى. فلمّا بلغَه الخبرُ، أسْرَعَ اللَّحاقَ بفاس، وتوجَّهت إليه وُجوهُ الأكابر. وأحسَّ عُمَر بصاغية النّاس إليه. وحرَّضه أتباعهُ على الفَتْك به، فاعْتَصَم(أ) بالقَصَبة. وسعى النّاس في إصلاح بينهما، فتفادى يَعْقُوب من الأمر، ودفعه إلى ابن أخيه، على أنْ يكونَ له بلاد تَازَى وبَطُّويَة ومُلْويَّة. ولمَّا لَحِق بتَازَى، واجتمع إليه كافَّة بَني مَرِين، عذلوه فيما كان منه؛ فاستلام، وحملوه على العَوْدة في الأمر، ووَعَدوه من أنفسهم المظاهرةَ والمؤازرة، فأجاب، وبايعوهُ، وصَمَدوا إلى فاس. وبَرَز عُمَر للقائه، فانتهى إلى إيمَسْجدَان(1).

ولمَّا تَراءى الجَمْعان، خذله جُنودُه وأسْلموه؛ فرَجَع إلى فاس مَفْلولاً، ووجَّه الرَّغبةَ إلى عمِّه أنْ يُقطِعَه مِكْنَاسَة. ونزل له عن الأمر، فأجابه إلى ذلك.

ودخل السُّلطانُ أبو يوسُف يَعْقُوب(2) بن عبد الحَقّ مدينةَ فاس مُمَلَّكاً سنةَ سبعٍ وخمسين، وتمشَّتْ طاعَتُه في بلادِ المَغرب ما بين مُلْويَّة وأمّ ربيع وسِجِلْمَاسَة وقَصْر كُتَامَة. واقتصر عُمَر على إمارة مِكْنَاسَة، فتَمَلَّاها أيَّاماً. ثمَّ اغتاله من عَشيرِهِ(ب) عُمَر وإبراهيم ابنا عمِّه: / عُثْمان بن عبد الحَقّ، والعبَّاس ابن عمِّه مُحَمَّد [158 ب] ابن عَبْد الحَقّ، فقتلوه وثأروا منه بدمٍ كانوا يعتدُّونه عليه، وهَلَكَ لعامٍ وبَعْض عام من إمارته، فكُفِي يَعْقُوب شأنه، واستقام سُلْطانه، وذهب المُنازع والمشاقّ(ج) عن أمره.

(أ) ظ: واعتصم (ب) ظ: عشيرته (ج) ص: والمشارف

---

(1) في الذخيرة السنية 84: "فهزمه على وادي المكس".

(2) أسهب ابن أبي زرع الفاسيّ في ذكر سيرته وأعماله ورجاله وما قيل فيه. الذخيرة السنية 85، روضة النسرين 27

وكان يَغْمَرَاسَن، بعد مَهْلِك قِرْنه الأمير أبي يَحْيَى، سما له أملٌ في الإجلاب على المَغْرب، فجَمَع لذلك قومَه، واسْتجاش بَني تُوجِّين ومَغْرَاوَة، وأطمعَهُم في غِيلِ الأُسُود. ونهضوا إلى المَغْرب حتّى انتهَوْا إلى كَلْدَامان، وصمد السُّلْطان يَعْقُوب بن عبد الحَقّ إلى لِقائهم، فغلَبهم، ورجعوا على تعبئته، ومرَّ يَغْمَرَاسَن ببلاد بَطُّويَة، فأحْرَقَ وانْتَسف واسْتَباح، وأعْظم فيها النِّكايَة. ورجع السُّلْطان إلى فاس، وتقَيّل(أ) مذهبَ أخيه الأمير أبي يَحْيَى في فَتْح أمصار المَغْرب وتَدْويخ أقطاره. وكان مما أكرمه الله به أن فتح أمره باستنقاذ مدينة سَلا من أيدي النَّصارَى، فكان له فيها أثرٌ جميلٌ وذِكْرٌ خالد، على ما نذكره.

الخَبَرُ عن فَجْأَةِ العَدوّ مدينةَ سَلا، واستنقاذِها من أيديهم

كان يَعْقُوب [بن عَبْد الله](ب) بن عبد الحَقّ قد استعمله عمُّه الأميرُ أبو يَحْيَى على مدينة سَلا لمَّا ملكها كما ذكَرناهُ، فلمَّا استرجعها المُوَحِّدُون من يَدِه، أقامَ يتقلَّبُ في جِهاتها مُرْصِداً لأهلها وحاميتها.

ولمَّا بُويع عمُّه يَعْقُوب بنُ عبد الحَقّ أسفتْه بعضُ الأحوال، فذهب مُغَاضِباً حتّى نزل غَبُولَةَ، وألْطف الحِيلةَ في تَمَلُّك رِباط الفَتْح وسَلا؛ ليعتدّها ذريعةً لما أسرَّ في نفسه، فتمَّت له الحِيلةُ، وركب عامِلُها ابن يَعْلُو البحرَ فارّاً إلى أَزَمُّور[1]، وخلَّف

(أ) ظ، ص: وتقبل (ب) ساقطة من ظ، ص

(1) أزمور: مدينة بالمغرب تقع جنوب الدار البيضاء وشمال المدينة الغربية، على ساحل المحيط الأطلنطي، وكانت من المدن التابعة لدكّالة. ابن الخطيب: معيار الاختيار 158، الوزان: وصف إفريقيا 1: 157

أمْوَالَه وحُرَمَه، فتملَّك يَعْقُوب بن عَبْد الله البَلَد، وجاهرَ بالخُلعان، وصرف إلى منازعة عَمِّه السُّلْطان أبي يوسُف وجوهَ العزم[أ]، وداخل تُجَّار الحرب في الإمداد بالسِّلاح، فتجارَزُوا[ب] في ذلك، وكَثُرت سُفُن المتردّدين بينهم، حتّى كثروا أهلها، واهتبلوا فيها غُرَّة يوم الفِطْر من سنة ثمانٍ وخمسين / عند شغل النَّاس بعيدِهم، وثاروا بسَلا، [159] وسَبَوُا الحُرَم، وانتهبوا الأموال، وضبطُوا البَلَد. وامتنع يَعْقُوب بن عَبْد الله برِباط الفَتْح، وصار[ج] الصَّريخُ إلى السُّلْطان أبي يوسُف، وكان بتَازَى مُسْتشرِفاً لأحوال يَغْمَرَاسَن، فنادى في قَوْمِه، وطاروا بأجْنحة الخيول، ووَصَلها ليومٍ وليلة، وتلاحقتْ به أمْدادُ المُسْلِمين من أهل الدّيوان والمُطَّوِّعَة، ونازلها أربعَ عشرةَ ليلة. ثمَّ اقتحمها[د] عليهم عَنْوة، وأثْخَن فيهم بالقتل. ثمَّ رَمَّ بالبناء ما كان متثلِّماً[هـ] من سُورِها الغربيّ، حيث أمكنت منه الفُرْصَة في البَلَد. وتناول البناء فيه بيَدِه. واللهُ لا يضيعُ عَمَلَ عامِل.

وخشي يَعْقُوب بن عَبْد الله بادِرَة السُّلْطان، فخرج من رِباط الفَتْح وأسْلَمه، فضبطه السُّلْطان وثقفه[و].

ثمَّ نهضَ إلى بلاد تَامَسْنَا[1] وأنْفَى[2]، فملَكها وضَبَطها. ولحق يَعْقُوب بنُ عَبْد

(أ) ظ، أ: الفرم (ب) ظ: فتجاوروا، ص: فتحاوروا (ج) أ: وسار (د) ظ: افتحها (هـ) ص: متثلماً (و) ظ: وثقفه

(1) تامسنا: كانت قديماً من أقاليم مملكة فاس، يمتد الإقليم من أم ربيع غرباً حتى أبي الرقراق شرقاً بطول ثمانون ميلاً. الروض المعطار 129، الوزان: وصف إفريقيا 1: 194، والإشارة عند مقديش أن تامسنا قبيلة بربرية والبلاد منسوبة إليهم. مقديش: نزهة الأنظار 1: 63

(2) ساقطة من أ، وأنفا: هي المعروفة الآن بالدار البيضاء على ساحل المحيط الأطلسي إلى الشمال الشرقي من أزمور، وهي العاصمة التجارية للمغرب، وكانت من المدن التابعة لفاس، ولها مرسى مقصود كانت تأتيه المراكب لنقل الحنطة والشعير. الإدريسي: نزهة المشتاق 1: 240، ابن الخطيب: معيار الاختيار 156، الوزان: وصف إفريقيا 1: 196 ـ 198 وفيه وصف دقيق لما كانت عليه المدينة في منتصف القرن العاشر الهجري من رقي وحضارة

الله بِحِصْن عَلُّودَان[أ] من جبال غُمَارَة، فامتنعَ به. وسَرَّحَ السُّلْطانُ ابنَه أبا مالك عَبْد الوَاحِد وعلي بن زَيَّان لمنازلته. وسارَ إلى لقاء[ب] يَغْمَرَاسَن لقاءة المهادنة، فلقيه [بوا]مَجَرْمَان[ج]، وافترقا على السِّلْم ووَضْع أوْزار الحرب.

ورجع السُّلْطان إلى المَغرب، فخرجَ عليه بنو أخيه أولاد إدْرِيس، ولَحِقوا بقَصْر كُتَامَة، وشايَعوا يَعْقُوب ابنَ عمِّهم عَبْد الله على رأيه، واجتمعوا إلى كبيرهم مُحَمَّد بن إدْرِيس، فيمن إليهم من العَشير والصَّنائع، فنَهض إليهم، واعتصمُوا بجبال غُمَارَة. ثمَّ استنزلهم واسْترضاهم. وعقد لعامر بن إدْرِيس سنة ستِّين على عَسْكرٍ من ثلاثة آلاف فارس أو يزيدون من المُطَّوِّعَة من بني مَرِين، أغزاهم[د] إلى العُدْوَة لجهادِ العدوّ وحملهم، وفرض لهم، وشفع بها عَمَله في واقعةِ سَلا، وهو أوَّلُ جيشٍ أجاز من بَني مَرِين، فكان لهم في الجهاد والمرابطة مقاماتٌ محمودةٌ وذِكْرٌ خالد؛ تقيَّل[هـ] سبيلَهم فيها خلفهم من بَعْدهم، حسبما نذكره.

وأقام يَعْقُوبُ بن عَبْد الله خارجاً بالنَّواحي مُتَنَقِّلاً في الجهاتِ، إلى أنْ قتله طَلْحَة بن مُحَلَّى[و] بساقية غَبُولَةَ من ناحية سَلا سنة ثمانٍ وستِّين، فكُفِي السُّلْطان شأنُه.

وكان المُرْتَضَى منذ تَوالَتْ عليهم الوَقائع، واستمرَّ الظُّهور لبَني مَرِين، انْحَجَر[ز] في جُدرانه[ح]، وتوارَى بالأسْوار عن عدوِّه، فلم / يَسْمُ إلى لقاءِ زَحْفٍ، ولا [159 ب]

(أ) أ: علوذان، وانظر الذخيرة السنية 96 (ب) ظ: لقيا (ج) ما بين الحاصرتين بياض في ظ، وفي ص: بوامحرمان (د) ص: أغزا لهم (هـ) ص: تقبل (و) أ: مجلي (ز) كذا في أ، ص، ومهملة في ظ (ح) ص: خدرانه

حدَّثَ نَفْسَه بشهودِ حَرْب. واسْتأسد بَنو مَرِين على الدَّوْلَة، وشرِهوا إلى التِهام البقيّة، وأسَفُّوا إلى مُنازلة مَرّاكُش دارِ الخلافة، كما نذكره.

الخَبَرُ عن مُنازلةِ السُّلْطانِ أبي يُوسُف حضرةَ مَرّاكُش، دارِ الخلافة، وعُنْصُرِ الدَّوْلَة، وما كانَ إثرَ ذلك من نُزوعِ أبي دَبُّوس[1] إليه، وكيفَ نصبه للأمرِ، وكانَ مَهْلِكُ المُرْتَضى على يَدِه، ثُمَّ انتقَضَ عليه

لمّا فَرَغَ السُّلْطانُ من شأن الخوارج عليه من عَشيرِه، استجمع لمنازلة المُرْتَضَى والمُوَحّدين في دارِهم، ورأى أنَّه أوْهَن لدَوْلَتِهم وأقوى لأمره عليهم. وبعث قَوْمه، واحتَشد أهلَ مَمالِكِه، واستكمل تَعْبِيَته، وسار حتّى انتهى إلى إيكَسلين[أ]، فاعْتَزَم على ذلك سنةَ ستّين، وشارفَ دارَ الخلافة، ثمَّ نَزَل بعُقْرِها، وأخذ بمُخَنَّقِها. وعقد المُرْتَضى على حَرْبِهم للسَّيِّد أبي العلاء إدْرِيس المكنَّى بأبي دَبُّوس ابن السَّيِّد أبي عَبْد الله ابن السَّيِّد أبي حَفْص بن عَبْد المُؤْمن، فعبَّأ كتائبَه ورتَّبَ مَصافَّه، وبَرَز لمدافعتِهم ظاهرَ الحَضْرة، فكانت بينهم حروبٌ بَعُدَ العَهْدُ بمثلها، استُشهِد فيها الأميرُ عَبْد الله بن يَعْقُوب بن عبد الحَقّ، وكانوا يسمُّونه بِرَطانتِهم أنْعَجُوبْ[ب]. ففتَّ مَهْلِكُه

(أ) أ: إيكلسين، ص: ايكلين (ب) ظ: أنعجوب، ومهملة الأول في ص، والمثبت من أ بضبطه ويوافق بغية الرواد 1: 208، وفي مشجر نسب بني عبد الحق ضبطه: أنْعَجُوب.

---

(1) هو أبو العلاء إدريس بن محمد بن عمر بن عبد المؤمن الكوميّ من هسكورة، الواثق بالله المعتمد عليه، آخر ملوك الموحدين بالمغرب (ت 668هـ). الوافي بالوفيات 8: 326، وانظر عن أخباره وتحرّكاته: الذخيرة السنية 109، روضة النسرين 29، المؤنس 150

في عَضُدهم، وارتحلوا عنها إلى عَملهم، واعترضهم عساكرُ المُوَحِّدِين بوادي أمّ ربيع، وعليهم يَحْيَى بن عَبْد الله ابن وانودين، فاقْتَتلوا في بطن الوادي، وانهزمت عساكر المُوَحِّدِين. وكان في مسيل[أ] الوادي كُدىً[1] يحسر عنها غمرُ الماء وتبدو كأنّها أرجُل، فسُمِّيت الواقعة بها أُمّ الرِّجلَين.

ثمّ سَعى بعضُ سَماسرة الفِتَن عندَ الخليفة المُرتَضَى، في ابنِ عمّه وقائدِ حَربه السَّيِّد أبي دَبُّوس بطَلَبه الأمْر لنفسه، وشعر بالسّعايَة، فخشيَ بادِرَة المُرْتَضَى، ولَحِق بالسُّلْطان أبي يوسُف مَدْخَلَهُ إلى فاس من مُنازلته آخرَ سنة إحدى وستّين نازعاً إليه، / فأقام عنده ملياً، ثمّ سأل منه الإعانةَ على أمْره بعَسْكَر يُمِدّه، وآلةٍ يتّخذها لمُلكه، ومالٍ يصرفه في ضروريّاته، على أنْ يُشركه[ب] في الغَنيمة والفَتْح والسُّلْطان، فأمدَّه بخمسة آلافٍ من بَني مَرِين، وبالكِفاية من المال والمستجاد من الآلة، وأهابَ لهُ بالعَرَب والقَبائل من أهل مَمالِكِه ومَن سِواهم أنْ يكونوا يداً[ج] معه. وسار في الكتائب حتّى شارَفَ الحَضْرة، ودسَّ إلى أشياعِه ومَن يُداخله من المُوَحِّدِين في أمره، فثاروا بالمُرْتَضَى وأجْهَضُوهُ عنها، فلَحِق بأزَمُّور مُستجيشاً بصِهْره ابن عَطُّوش. ودخل أبو دَبُّوس الحَضْرة[د] في المُحرَّم فاتِحَ خمسٍ وستّين، وتقبّض [160أ]

(أ) ص: سبيل (ب) ظ: يتركه (ج) ص: برأ (د) ظ: إلى الحضرة

(1) الكُدْيَةُ: ارتفاعٌ في الأرض. لسان العرب، مادة: كدا. ولعلّه قصد تلك الصخور المعترضة لتيار الماء فانحفرت على شكل أرجل.

ابن عَطُّوش عاملُ أَزَمُّور على المُرْتَضَى، واقتاده أسيراً إلى أبي دَبُّوس، فبعث مَوْلاه مُزاحماً؛ احتزَّ رأسه في طريقه، واستقلّ بالخلافة، وصُبَابَة آل عَبْد المُؤمن.

ثمّ بعثَ إليه السُّلْطان في الوَفاء بالمشارطَةِ، فعتا، واستنكَف، ونقض العَهْد، وأساء الخطاب، فنهضَ إليه في جُموع بَني مَرين وعساكر المَغرب، فحام عن اللّقاء، وانْحجرَ بمَرّاكُش، ونازَلَه السُّلْطان أيّامَاً تباعاً. ثمّ سار في الجهات والنّواحي يحطم[أ] الزَّرْع، وينسف الأقوات. وعجز أبو دَبُّوس عن دِفاعه؛ فاسْتجاش عليه بيَغْمَرَاسَن بن زَيَّان أنْ يفُتَّ في عَضُده، ويأخذ بحُجْزَته، ويشغله من ورائه عن التهامه، على ما نذكر لو أمهلته الأيّام، وانفسح له الأمد[ب].

الخَبَرُ عن وقيعة تلاغ بين السُّلْطان يَعْقُوب بن عبد الحَقّ ويَغْمَرَاسَن بن زيّان بإغراء أبي دَبُّوس وتَضْرِيبه

لمّا نازل السُّلْطانُ أبو يوسُف حَضْرَةَ مَرّاكُش، وقعَد على بَرائِنه للتوثّب عليه، لم يجد أبو دَبُّوس وَلِيْجَةً من دون قَصْده، إلاّ استجاشتَه بيَغْمَرَاسَن وقومه عليه؛ ليأخذوا بحُجْزَته عنه، ويشغلوه من ورائه. فبعث إليه الصَّرِيخ في كَشْف / بَلْواه [160 ب] ومُدَافعة عَدُوّه، وأكّد العَهْد، وأسْنى الهَدِيَّة، وشمَّر يَغْمَرَاسَن لاستنقاذه وجَذب[ج]

(أ) ظ: يخطر (ب) ظ: الأمل (ج) ظ: وجدب

عدوَّه من ورائه، وشنّ الغاراتِ على ثغورِ المَغرب، وأضرَمها ناراً، فأهاج عليه وعلى قَوْمه من السُّلْطان يَعْقُوب ليثاً عادياً، وأزهف منه عَزْماً ماضياً.

وأفرَجَ يَعْقُوب عن مَرَّاكُش بعَزْمِ النُّهوض إلى تِلِمْسان، ونزل بفاس، فتلوَّم[أ] بها أيّامَاً حتّى أخذ أُهْبَةَ الحَرْب، وأكْمل اسْتعدادها. ورَحَل فاتِحَ سنة ستٍّ[ب] وستّين، وسَلَك على كَرْسِيف، ثم على تافرَاطا.

وتَزاحَف الفريقان بوادي تلاغ، وعبَّأ كلٌّ منهم كتائبه، وزحَّف مَصافَّه، وبرَّزَ النِّسَاءَ سافراتِ الوُجوه في سبيل التَّحريض؛ يُحيّين ويعدين ويرغّبْن. ولمَّا فاءَ الفيء ومالَ النّهار، وكثُرت حشودُ المَغْرب جموعُ بَني عَبْد الوَاد ومَن إليهم، انكشفوا ومنحوا العدوَّ أكتافهم. وهَلَك أبو حَفْص عُمَر كبيرُ وَلَد يَغْمَرَاسَن ووليُّ عَهْدِه في جماعةٍ من عَشيرِهِ، ذكرناهم في أخباره.

وأخذ يَغْمَرَاسَن بأعقابِ قَوْمه، فكان له رِدْءاً إلى أنْ خلصوا من المعترك، ووصلوا إلى بلادهم في جُمَادَى من سَنَتِهم. وعاد السُّلْطان أبو يوسُف إلى مَكانِه من حِصار مَرَّاكُش.

(أ) أ: فتلوّا (ب) ظ، أ: ستة

الخَبَرُ عن السِّفارة والمهاداة التي وقعت بين السُّلطان يَعْقُوب بن عبد الحَقّ وبين المُسْتَنصِر[1] الخليفة بتُونِس من آل أبي حَفْص

كان الأميرُ أبو زَكَرِيَّاء[2] يَحْيَى بن عَبْد الوَاحِد بن أبي حَفْص، منذ دعا لنفسه بتُونِس سنةَ خمسٍ وعشرين طَموحاً إلى مُلْك مَرَّاكُش، مَقرّ الدَّعْوة، ومنْبعث الدَّوْلَة، وأصل الخلافة. وكان يُؤمِّل لذلك زَنَاتَة، وإلاَّ فلِما دُونَه من خَضْد شوكة آل عَبْد المُؤمن، وتَقْلِيم أظفار بأسِهم، ورَدّهم على أعقابهم أن يخلصوا[أ] إليه.

وتغلَّب على تِلِمْسان سنةَ أربعين، ودخل يَغْمَرَاسَن بن زَيَّان في دَعْوته، وصار فئةً له وشيعةً على عدوِّه، كما ذَكَرْناهُ، فوصل به جناحَه للمُدافعَة. وناغاه بنو مَرِين في مُراسلة ابن أبي حَفْص ومُخاطبته، وتخفيض / الشأن عليه فيما يهمّه من شأن [161أ] عَدوِّه، وحمل ما يفتحون من بلاد المَغْرب على البَيْعة له والطَّاعَة؛ مثل فاس

(أ) ص: يحصلوا

(1) هكذا يلقّبه ابن خلدون والزركشي (تاريخ الدولتين 32) وابن قنفذ (الفارسية 117)، لكن ابن الشماع يلقبه: المنتصر. وهو أبو عبد الله بن يحيى، أول من تلقّب بأمير المؤمنين من الأمراء الحفصيين، وذلك بعد أن جاءته البيعة من مكة المكرمة سنة 657هـ. انظر: ابن الشماع: الأدلة البينة النورانية 61، 67، ابن قنفذ: الفارسية 123

(2) أبو زكرياء الأول يحيى ابن المولى أبي محمد، ثاني الأمراء الحفصيين (625 ـ 647هـ)، ترجم له ابن الشمّاع ترجمة وافية، وذكر زهده وأعماله وجيشه وكثرة أمواله وما جمع من كتب. الأدلة البينة النورانية 54.

ومِكْنَاسَة والقَصْر. وكان هو يُلاطفهم بالتُحف والهدايا، ويريهم البِرّ في الكِتَابِ والخِطَاب والمُعاملَة وتكريم الوَفْد، غير سبيل آل عَبْد المُؤمن فكانوا يجنحون بذلك إلى تَجْديد مُراسلته، وإيفاد قَرابتهم عليه.

ووَلِيَ ابنُه المُسْتَنْصِر من بعده، سنةَ سبعٍ وأربعين، فتقيَّل[أ] مذاهبَ[ب] أبيه، وأوْفى عليها[ج] بالإيعاز إليهم بمنازلة مَرَّاكُش، وضَمان الإنفاق عليهم فيها، فكان يبعث لذلك أحمالاً من المال والسّلاح، وأعداداً وافرةً من الخيل بمَراكبها للحُمْلان، ولم يَزَل دأبُه ذلك معهم.

ولمَّا فعل ابنُ أبِي دَبُّوس فعْلَته في نَقْض العَهْد، واستجمع السُّلْطان لمنازلته، قدم بين يدي عَمَلِه مراسلةَ الخليفة المُسْتَنْصِر، يخبره الخبر، ويتلطّف له في استنزال المدد، فأوْفَدَ عليه ابن أخيه عامر بن إدْرِيس بن عبد الحَقّ، وأصْحبه عَبْد الله بن كَنْدُوز العَبْدلوَادي كبيرَ بَني كمِي، وقريعَ بن يَغْمَرَاسَن، الذي ثأر يَغْمَرَاسَن من أبيه كَنْدُوز بأبيه زَيَّان كما ذكَرْناهُ في أخبارهم، وكان خلص إليه من حضرة المُسْتَنْصِر، فلقاه مَبَرَّةً وتكريماً، وأوْفد معهما الكاتب أبا عَبْد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد الكِنَانيّ من صَنائع دولة آل عَبْد المُؤمن، كان نزع إلى أخيه الأمير أبي يَحْيَى لما رأى من اختلال الدَّولَة، فأنزله[د] مِكْنَاسَة، وآثره بالصُّحبة والخلَّة. فجَمَع له يَعْقُوب بن عبد الحَقّ - في هذا الوَفْد - من الأشراف مَن يُحسن الرِّيَاسَة، ويُعرب عمَّا في الضَّمائر، ويدلّ على

(أ) ص: فتقبل (ب) ظ: مواهب (ج) ظ: إليها (د) ظ، ص: وأنزله

شرَف مُرْسِله. فوفدوا على المُسْتَنْصِر سنةَ خمسٍ وستّين، وأدَّوْا رسالتهم، وحرَّكوا له حوار(أ) المظاهرة على صاحب مَرَّاكُش وكَبْح عِنانه، فحنَّ واهتزَّ سروراً من أعواده، ولقاهم مَبَرَّةَ التكريم وإحسان النُّزُل. وردَّ الأمير(ب) عامر بن إدْرِيس وعَبْد الله بن كَنْدُوْز لوقتها. وتمسَّك بالكِنَانيّ من بينهم لمصاحبة وَفْده، فطال مقامُه عنده إلى أنْ كان من فتح مَرَّاكُش ما نذكره.

ثمّ أوْفد المُسْتَنْصِر على السُّلْطان يَعْقُوب بن عبد الحَقّ آخرَ / سنة سبعٍ [161 ب] وستّين(ج) بعدها شيخ الجماعة من المُوَحِّدِين لعَهْده، أبا زَكَرِيَّاء يَحْيَى بن صالح الهِنْتَاتِيّ، مع جماعةٍ من مَشيخة المُوَحِّدِين في مُرافقة مُحَمَّد الكِنَانيّ.

وبعث معهم إلى السُّلْطان هديَّةً سنيَّةً يُلاطفه بها ويُتاحفه؛ انتخب فيها من الجياد والسِّلاح وأصناف الثياب الغريبة العمل ما انتقاه، ووَقَف رضاه وهمَّته على الاستكثار منه، فحَسُن موقِعُها، وتحدَّث بها، وانقلب وَفْدُه أحسنَ مُنْقَلَب بعد أنْ تلطَّف مُحَمَّد الكِنَانيّ في ذِكْر الخليفة المُسْتَنْصِر على مِنْبَر مَرَّاكُش، فتمَّ له، وشَهِدَهُ وَفْد المُوَحِّدِين، فعَظُم سُرورُهم، وانقلبوا مَحْبورين مَسْرورين.

واتَّصلت بعد ذلك مُهاداة المُسْتَنْصِر ليَعْقُوب بن عبد الحَقّ إلى أنْ هَلَكَ.

وجرَى ابنُه الواثق من بَعدِه على سَنَنه، فبعثَ إليهم سنةَ سبعٍ وسبعين هديةً

(أ) ص: جواز (ب) ظ: الأسير (ج) ظ، ص: وثمانين، والأصح ما أثبتناه

حافلةً؛ بعث بها القاضي أبا العبّاس الغُماريّ قاضي بِجَايَة، فعظُم مَوقِعُها. وكان لأبي العبّاس الغُماريّ بالمَغرب ذِكْرٌ تحدّث به النّاس.

الخَبَرُ عن فَتْح مَرّاكُش، ومَهْلِك أبي دَبّوس، وانْقِراض دولة المُوَحّدِين من المَغْرِب

لمّا رجع السُّلطانُ أبو يوسُف من حَرْب يَغْمَرَاسَن، ورأى أنْ قد كفّ من غَرْبه وردَّ من كَيْدِه وكَيْد أبي دَبّوس صَريخه، صرفَ حينئذٍ عَزائمه إلى مُنازلة مَرّاكُش، والعَوْدة إلى مُضايقتها كما كان لأوّل أمرِهِ.

ونَهَضَ لغزاته من فاس في شَعْبان من سَنَتِه؛ ولمّا أجازوا أمّ ربيع، بثّ السَّرَايا، وسَرَّحَ الغارات، وأطلق الأيدي والأعِنّة للنَّهْب والعَيْث(أ)؛ فحَطَّموا من زروعها(ب)، وانتسفوا آثارها(ج)، وتقرّى نَواحيها كذلك بقيّة عامِه. ثمّ غزا عرب الخُلْط[1] من جُشَم بتَادَلا، فأثخنَ فيهم واستباحهم. ثمّ نزل وادي العَبِيد[2]، ثمّ غزا بلادَ صِنْهَاجة. ولم يَزَل ينتقل رِكابُه بأنحاء البلاد المَرّاكُشيّة وأحوازها، حتّى حصِرَتْ(د) صدور بني

(أ) ص: والعبث (ب) ظ: زرعها (ج) أ: من آثارها (د) ظ، ص: حضرت

(1) يذكر الوزان أن الخلط هم من المنتفق؛ فرعٌ من الأثبج، مسكنهم من سهل أزغار، وكانوا يؤدون الخراج لملك فاس، وقدّرهم بثمانية آلاف فارس مجهزين أحسن تجهيز. وصف إفريقيا 1: 49، 50

(2) وادي العبيد: واد يفصل بين بلاد هسكورة وتادلا، يجري فيه نهر منبعه من الأطلس بين جبال عالية باردة، ويتجه شمالاً حتى يصب في نهر أم الربيع. الوزان: وصف إفريقيا 1: 163، 2: 246

عَبْد المُؤمن وقومه. وأغراهم أولياء الدَّوْلَة من عرب جُشَم بنُهوض الخليفة لمدافعةِ عَدُوِّه، فجَمَع / لذلك، وبَرَز في جيوشٍ[أ] ضخمة، وجُموعٍ وافرة. واستجرّه أبو يوسُف [162أ] بالفرار أمامه؛ ليبعُدَ عن مَدَد الصَّريخ، فيستمكن منه، حتّى نزل وادِغَفُو[ب]. ثمَّ كرّ إليه والتحم القتال، فاختَلَّ مَصَافُّه، وفرَّ عسكره، وانهزم يريد مَرَّاكُش، فأدْرَكوه دون أمله، واعتاقه أجلُه، فطُعن في مفرّه وخرَّ صَريعاً لليَدَيْن والفَم[1]، واحتُزَّ رأسُه، وهَلَك بمَهْلِكه وزيرُه عِمْران، وكاتِبُه عليّ بن عَبْد الله المَغِيليّ.

وارْتحل السُّلْطانُ أبو يوسُف إلى مَرَّاكُش، وفرَّ مَنْ كان بها من المُوَحّدِين، فلَحِقوا بجبل تِينَمَلل[ج]، وبايعوا لإسحاق أخي المُرْتَضَى، فبقي ذُبالُه هُنالِك سنين، ثمَّ تقبّض عليه سنة أربعٍ وسبعين، وسيق إلى السُّلْطان هو وأبو سعيد ابن عمّه السَّيِّد أبي الرَّبيع، والقبائليّ، وأولاده، فقُتلوا جميعاً، وانقرض أمرُ بَني عَبْد المُؤمن. والله وارث الأرْض ومَنْ عليها.

وخرج الملأ وأهلُ الشُّورَى من الحَضْرة إلى السُّلْطان، فأمَّنهم ووصلهم. ودَخَل مَرَّاكُش في بُروزٍ فَخْم فاتحَ سنة ثمانٍ وستّين. وورث مُلْكَ آل عَبْد المُؤمن وتملّاه، واستوْسَقَ أمرُه بالمَغرب، وتطامَن النَّاسُ لبأسه، وسكنوا لِظِلّ سُلْطانه. وأقام بمَرَّاكُش إلى رمضان من سَنَتِه.

(أ) ظ: جموع (ب) ص: حتى نزل عفو. والتصحيح من الذخيرة السنية 117 وفيها: (وادي غفو)، وقد ذكر ابن أبي زرع الفاسيّ خبر المعركة ومقتل أبي دَبُّوس مفصَّلاً. (ج) ظ، ص: تيمل، مهملة، وتقدم التعريف به

(1) مثلٌ يُقال عند الشَّماتة. التمثيل والمحاضرة 315

وأغزى ابنه الأميرَ أبا مالك إلى بلاد السُّوس، فافْتَتَحها، وأوْغلَ في ديارِها، ودوَّخَ أقطارَها. ثمَّ خرج بنفسه إلى المَغْرب ببلاد دَرْعَة، فأوقع بهم الواقعةَ المشهورةَ التي خضدت من شوكتهم. ورجع لشهرين من غَزاته.

ثمَّ أجمعَ الرِّحلةَ إلى دارِه بفاس، فعقدَ على مَرَّاكُش وأعمالها لمُحَمَّد بن علي بن مُحَلَّى من كبار أوليائهم، ومن أهل خؤولته، وكان من طبقة الوزراء، حسبما يأتي التعريفُ به وبعَشيرِه. وأنزله بقَصَبة[أ] مَرَّاكُش، وجعلَ المسالِحَ[ب] في أعمالها إلى نظره، وعَهِدَ إليه بتَدْويخ الأقطار، ومَحْوِ آثارِ بَني عَبْد المُؤمن. وفصل إلى حَضْرته في شوَّال وأراح بسَلا، فكان من خبر[ج] عهده لابنه ما نذكره.

الخَبَرُ عن عَهْد[د] السُّلْطان لابنه أبي مالك، وما كان عَقِبَ[هـ] ذلك من خُروج القَرابة عليه أولاد أخيه إدْريس وإجازتهم إلى الأنْدلُس

[162 ب] / لمَّا تلوَّمَ السُّلْطان بسَلا مُنصرفَه من رِباط الفَتْح، وأراح بها رِكابه، عَرَض له طائفٌ من المرض، ووُعِكَ وعكاً شديداً. فلمَّا أبلَّ جَمَعَ قَوْمَه، وعَهِد بأمره فيهم لابنه أبي مالك عَبْد الوَاحِد كبيرِ وَلَدِه، بما علم من أهليّته لذلك، وأخذ له البيعةَ عليهم، فأعطَوْها طواعيةً.

(أ) ظ: بقضية (ب) ظ، أ: المشايخ (ج) ظ: خير (د) ساقطة من ص (هـ) ص: عقيب

وأسف القَرابة من وَلَد أخَوَيْه عَبْد الله وإدْرِيس لأُمّها سَوْط النّسَاء، ووجدوا في أنفسهم لما يرون أنّ عَبْد الله وإدْرِيس آكابر وَلَد عبد الحَقّ، ولهما التقدُّم على مَنْ بَعْدهما من ولده، وأنهم أحقُّ بالأمر. فعادت هَيْفُ إلى أديانها[1]، ونَفِسوا على ابن السُّلْطان ما أخذ له من البَيْعة والعَهْد، ونَزعوا عنه إلى جَبل عَلُّودَان[أ] من جبال غُمَارَة، عُشّ خِلافِهم[ب]، ومَدْرج فِتْنتهم، وذلك سنةَ تِسْعٍ وستِّين. ورياستُهم يومئذٍ لمُحَمَّد بنِ إدْرِيس وموسى بن رَحُّو بن عَبْد الله. وخرجَ معهم وَلَدُ أبي عيَّاد بن عبد الحَقّ. وأغزاهم السُّلْطانُ ولدَه أبا يَعْقُوب يوسُفَ في خمسةِ آلافِ من عَسْكَره، فأحاط بهم وأخذ بمُخَنَّقِهم[ج]. ولَحِق به أخوه أبو مالك في عَسْكَره، ومعه مَسْعُود ابن كانون شيخ سُفْيان.

ثمّ خرج في أثرهم السُّلْطانُ أبو يوسُف، واجتمع معَسْكَرهم بتافَرْكا ونازلوهم ثلاثاً. وهَلَكَ في حُروبهم مِنْدِيل بنُ وزتطليم. ولمّا رأوا أنْ قد أُحيط بهم سَألوا الأمان، فبذله وأنزلهم، واستلّ سَخائمهم، ومَسَح ما في صُدورهم، ووَصَل بهم إلى حَضْرته، وسَألوا منه الإذن في اللّحاق بتِلِمْسان حياءً من كِبْر ما ارتكبوه، فأذن لهم، وأجازوا البحرَ إلى الأنْدَلُس، وخالفهم عامرُ بن إدْرِيس، لما أنس من صَاغِية السُّلْطان إليه، فتخلَّف عنهم بتِلِمْسان حتّى توثّق لنفسه بالعَهْد، وعاد إلى قومِهِ بعدَ مُنازلة السُّلْطان تِلِمْسان، كما نذكره الآن.

(أ) ص: علوفان (ب) ظ: خلافتهم (ج) ظ: بمختنقهم

(1) ص: أذنابها، وكلاهما يأتي في المثل المذكور، فيقال: عادت هيف لأديانها، وعادت هيف لأذنابها، والهيف: ريح حارة - وقيل: باردة - تهبّ من اليمن. وهو مثلٌ يُضرب فيمن لزم عادته ولم يفارقها. مجمع الأمثال 1: 279، ولسان العرب، مادة: هيف

واحتلَّ(أ) بنو إدْرِيس وعَبْد الله وابنُ عَمِّهم عَيَّاد بالأنْدَلُس، على حين أقْفَرَ من الحامية جَوُّها، واستأسد العَدُوُّ على ثغرها(ب)، وتَحلَّبت شِفاهُهُم لالتِهامها، فاحتلُّوها(ج) أُسُوداً ضارية، وسيوفاً ماضية، مُعَوَّدين لقاءَ الأبطال وقِراع الحتوف والنِّزال، مُستغلظين بخشونة البداوة، وصَرامة العزّ، وبَسالة التَّوَحُّش؛ فعظُمَت نِكايتُهم في العَدُوّ، واعترضوا شجىً في صَدْرِه / [163أ] دونَ الوَطَن الذي كان طُعْمَةً له في ظَنِّه، وارتَدّوه على عَقِبه، ونشطوا من هِمَم المُسْلِمِين المستضعفين وراء البَحْر، وبَسطوا من آمالهم لمدافعة طاغيتهم، وزاحموا أميرَ الأنْدَلُس في رياستها بمنكبٍ، فتجافى لهم عن خُطَّةِ الحَرْب ورِياسة الغُزاة من أهل العُدْوَة من أعْياصهم وقبائلهم ومَن سواهم من أمم البرابرة، وتناقلوها، وساهموه في الجباية، بفَرْض العطاء والدِّيوان؛ فبذله لهم، واستمرّوا على ذلك لهذا العَهْد، وحَسُن أثرهم فيها، كما سنذكره بعد في أخبار القَرابة. ثمّ أعمل السُّلْطان نظره في غزو تِلِمْسان، على ما نذكره.

الخَبَرُ عن حركةِ السُّلْطان أبي يوسُف إلى تلمْسان، ووِاقعتِه على يَغْمَراسَن وقومه(د) بإيسْلي

لمَّا غَلَبَ السُّلْطانُ أبو يوسُف على بَني عَبْد المُؤْمن، وفَتَح مَرَّاكُش، واستولى على مُلْكِهم سنةَ ثمانٍ وستّين، وعاد إلى فاس، كما ذَكَرْناهُ، تحرَّك ما كان في نفسه

(أ) ص: واختل (ب) ظ: تيتدها، أ،ص: تعدها، مهملة الأول. (ج) ص: فاختلوها (د) ساقطة من ص

من ضَغائِنِ[أ] يَغْمَرَاسَن وبَنِي عَبْد الوَاد، وما أسفوا به من تخذيل عَزائمه ومُجاذبته عن قَصْده، ورأى أنَّ واقعةَ تلاغ[ب] لم تشفِ صَدْرَه، ولا أطفأت نارَ مَوْجِدَتِه، فأجمع أمرَه على غَزْوِهم، واقْتَدر بما صار إليه من المُلْك والسُّلْطان على حَشْر أهْلِ المَغرب لحَرْبهم وقَطْعِ دابِرِهم، فعَسْكَر بظاهر فاس، وسَرَّحَ وَلَدَه وليَّ عَهْدِه أبا مالك إلى مَرَّاكُش في خواصّه ووزرائه، حاشرِين في مَدائنها[ج] وضَواحيها، وقبائلِ العَرَب والمَصَامِدَة، وبَنِي ورَا وغُمَّرَة[د] وصِنْهَاجَة، وبقايا عساكر المُوَحّدِين بالحَضْرة، وحامية الأمصار من جُنْد الرُّوم وناشبة الغز، فاستكثر من أعدادهم، واستوفى حشدهم. واحتفل السُّلْطان لحركته، وارتحل من فاس سنةَ سبعين وستّمائة، وتلوَّم بمُلْويَّة إلى أنْ لَحِقته الحشود، وتوافت[هـ] إليه أمْداد العَرَب من / قبائل جُشَم أهل تَامَسْنَا، [163 ب] الذين هم: سُفْيان، والخُلْط، والعاصم، وبنو جابر، ومَن معهم من الأثْبج، وقبائل ذوي حَسَّان، والشَّبَانَات من المَعْقِل أهل السُّوس الأقْصَى، وقبائل رِياح أهل أزْغَارَ والهَبْط. فاعترض هُنالِك عساكره، وعبّأ مواكبه؛ فيقال: بلغت ثلاثين ألفاً.

وارتحل يُريد تِلِمْسان. ولمَّا انتهى إلى أنكادَ، وافتْه رُسُلُ ابنِ الأحْمر هُنالِك، ووَفْدُ المُسْلِمين بالأنْدَلُس صَرِيخاً على العَدُوّ؛ يستجيشون بإخوانهم المُسْلِمين، ويسألونهم الإعانة، فتحرّكت هِمَمُه للجهاد ونَصْر المُسْلِمين من عَدُوّهم. ونَظَر في صَرْفِ الشَّواغل عن ذلك، وجَنَح إلى السِّلْم مع يَغْمَرَاسَن. وصَوَّبَ الملأُ في ذلك رأيَه لما كانوا عليه من إيثار الجهاد، وانتدبَ جماعةً من المشيخة إلى السَّعي في صَلاح بينهما، والكفّ من غَرْبِ عداوتهما.

(أ) ظ: ظعائن، أ، ص: ظغائن (ب) ص: بلاغ (ج) ظ: مداسها (د) ص: وعمره (هـ) ظ: وتوافيت

وساروا إلى يَغْمَرَاسَن، فوافَوْه بظاهر تِلِمْسان قد أخذ أُهْبَة الحَرْب واستعدَّ للِّقاء. واحتشد زَنَاتَة أهل ممالكه بالشَّرق من بني عَبْد الوَاد وبني راشد ومَغْرَاوَة وأحلافهم(أ) من العَرَب زُغْبَة(ب). فلجَّ في ذلك واستكبر، وصَمَّ عن إسْعافهم. وزحفَ في جُموعِه، والْتقى الجمعان بوادي إيسْلِي من بَسائط وَجْدَة، والسُّلْطانُ أبو يوسُف قد عبَّأ كتائبه، ورتَّبَ مَصَافَّه، وجعل ولَدَيْه الأميرَيْن أبا مالك وأبا يَعْقُوب في الجناحَيْن، وسار في القَلْب، فدارت بينهم حَرْبٌ شديدة، أجْلَت عن هَلاكِ فارس بنِ يَغْمَرَاسَن، وجماعةٍ من بَني عَبْد الوَاد، وكاثرَتْهُم حشودُ المَغرب الأقْصَى وقبائلُه، وعَساكِر المُوَحِّدِين والبلاد المَرَّاكُشيَّة، فولَّوُا الأدبار. وهَلَك عامَّة عَسْكَر الرُّوم؛ لثباتهم بثَبات السُّلْطان، فطَحَنَتْهُم رَحى الحَرْب، وتقبّض على قائدهم بيرُنبُش. ونجا يَغْمَرَاسَن بن زَيَّان في [فَلِّهِ](ج) مُدافعاً دون أهله إلى تِلِمْسان، ومَرّ بفَساطيطِه، فأضْرَمَها ناراً، وانتُهب معَسْكَره، واستُبيحت حُرَمُه.

[164أ] وأقام السُّلْطانُ أبو يوسُف على وَجْدَة حتّى / خَرَّبها، وأضْرع بالتُّرْبِ أسْوارَها، وألْصَق بالرَّغام جُدرانَها.

ثُمَّ نَهَض إلى تِلِمْسان، فحاصرَها أيّاماً، وأطلق الأيدي في ساحاتها بالنَّهْب والعَيْث(د)، وشنَّ الغارات على البَسائط، فاكتسحها سَبْياً، ونسفها نَسْفاً.

وهَلَك في طَريقه إلى تِلِمْسان وزيرُه عيسى بنُ مَاسَايْ، وكان من عِلْيَة(هـ)

(أ) ظ: وأخلافهم (ب) ظ: رغبة (ج) ساقطة من ظ (د) ظ: والعبث (هـ) ظ: غلبة

وُزرائه، وحُماة ميدانه، له في ذلك أخبارٌ مذكورة؛ وكان مَهْلِكُه في شوّال من هذه السَّنة.

ووصَلَه بمثواه من حِصارها مُحَمَّد بنُ عَبْد القويّ أميرُ بَني تُوجّين، ومُستصرِخُه على بَني عَبْد الوَاد؛ لما نال منه يَغْمَرَاسَن من ضَيْمِ القَهْر وذلّ الغَلَب والتحيُّف؛ وصَله في كافَّة قَبيلِهِ مُباهياً بآلته، فكرم السُّلطانُ أبو يوسُف وِفادَتَه، واشترك النَّاسَ لِلقائه، وأبَرَّ(أ) مَقْدِمَه، واتَّخذوا زينةَ السِّلاح لمباهاتِه. وأقام مُحاصِراً لتِلِمْسان معه أيّاماً حتّى وَقَع اليأسُ، وامتنع البَلَد، واشتدَّت شوكةُ حاميته.

ثمّ أجْمع السُّلطانُ أبو يوسُف على الإفراج عنها، وأشار على الأمير مُحَمَّد بن عَبْد القويّ وقومِه بالفُصول قبل قُفوله، وأنْ يَغذُّوا السَّيْرَ إلى بلادِهم. وملأ حقائبَهُم بإتحافه، وجنّب لهم مائةً من المُقَرَّبات[1] بمَراكِبها، وأراح عليهم ألفَ ناقةٍ حَلوب، وعمَّهم بالصِّلات من الخِلَع والكُسَا الفاخرة، واستكثر لهم السِّلاح والفازات والفساطيط، وحملهم على الظَّهْر، وارتحلوا، وتلوَّم السُّلطانُ أيّاماً لمَنْجاتهم إلى مقرّهم من جبل وَانْشَرِيس[2] حذراً من غائلة يَغْمَرَاسَن في انتهاز فُرْصةٍ فيهم.

ثم قَفَل إلى فاس، ودَخَلها مُفْتَتَحَ إحدى وسبعين، وهَلَكَ وَلَدُه الأمير أبو مالك وليّ عَهْده لأيّامٍ من مَقْدَمِه؛ فأسف لمهلكه، ثمّ تعزّى بالصَّبْر الجميل عن فَقْده،

(أ) ظ، ص: وبرز

---

(1) ظ: المتقربات، والمقربات: الخيل، تكون قريباً من البيوت لكرامتها. لسان العرب، مادة: قرب

(2) عند الوزان بإسقاط الألف ثاني الحروف "وَنْشَرِيش" وهو جبل شاهق كان يسكنه بنو توجين من زناتة. الوزان: وصف إفريقيا 2: 45

ورَجَع إلى حالِه في افتتاح بلاد المَغرب. وكان في غزوته هذه مَلَك حِصْنَ تاونت، وهو مَعْقِلُ مَطْغَرَة، وشَحَنَه بالأقوات لما رآه ثغراً مجاوراً لعدُوّه، وأسلَمه لنظَرِ هارون ابن [...][أ] شيخ مَطْغَرَة. ثمَّ مَلَك حِصْنَ مَلِيلَة[1] بساحل الرِّيف مَرْجِعَه من غَزاته هذه. وأقام هارون بحِصْن تاونت، ودعا لنفسه.

[164 ب] ولم يزل يَغْمَرَاسَن يُردِّد الغزوَ / إليه حتّى فرَّ من الحِصْن وأسلَمه سنةَ خمسٍ وسبعين. ولَحِقَ بالسُّلطان أبي يوسُف، كما ذكَرْناهُ في أخبارِه عند ذِكْر قبيلة مَطْغَرة، وكان من شأنه ما ذكرناه هُنالِك.

الخَبَرُ عن افتتاح مدينة طَنجَة، وطاعةِ أهْلِ سَبْتَة، وفَرْضِ الإتَاوَة عليهم، وما قارنَ ذلك من الأحداث

كانت هاتان المدينتان سَبْتَة وطَنجَة ـ مذ أوَّلِ دَوْلة المُوَحِّدِين ـ من أعظم عَمالاتهم وأكبر مَمالكهم، بما كانت ثغرَ العُدْوَة ومَرْقى الأساطيل، ودارَ إنشاء الآلات البَحْرِيَّة، وفُرْضَةَ الجَواز إلى الجهاد. فكانت ولايتُها مُختصَّةً بالقَرابة من السَّادة بَني عَبْد المُؤمن.

(أ) بياض في ظ، أ، ص قدر كلمتين

(1) مليلة: مدينة قديمة مشهورة، تقع على رأس خليج في البحر المتوسط، ولها سور من الصخر، وهي قريبة من نهر ملوية. ذكر الوزان أنها مشهورة بإنتاج العسل، ومنه اشتق اسمها، لأن مليلة تعني العسل بالبربرية. مجهول: الاستبصار 135، الحميري: الروض المعطار 545، الوزان: وصف إفريقيا 1: 341

وقد ذكرنا أنَّ الرَّشِيد[1] كان عَقَد على أعمالها لأبي علي بن خلاص من أهل بَلَنْسِيَة، وأنه ـ بعد استفحالِ الأمير أبي زَكَرِيَّاء بإفرِيقِيَّة، ومَهْلِك الرَّشِيد ـ صَرَف الدَّعوةَ إليه سنة أربعين، وبعث إليه بالمال والبَيْعة مع ابنه أبي القاسم. ووَلَّى على طَنْجَة يوسُفَ بنَ مُحَمَّد بن عَبْد الله بن أحمد الهَمْدَانيّ المعروف بابن الأمين، قائداً على الرَّجْل الأنْدَلُسيّ، وضابطاً للقَصَبة. وعَقَد الأميرُ أبو زَكَرِيَّاء على سَبْتَة لأبي يَحْيَى ابن أبي زَكَرِيَّاء، ابن عَمّه يَحْيَى الشَّهِيد، ابن الشَّيخ أبي حَفْص، فنزل بها. واستراب أبو عليّ بن خلاص من العواقب عندَ مَهْلِك ابنِه الوافد على السُّلْطان غريقاً في البَحْر، فدخل بحملته إلى تُونِس في السُّفُن، وأراح بِبجَايَة، فكان فيها هَلاكُه سنةَ ستٍّ وأربعين. ويُقال: بل هَلَك في سفينته، ودُفن بِبجَايَة.

ولَمَّا هَلَك الأمير أبو زَكَرِيَّاء في سنة سبعٍ بعدَها، انتقضَ أهلُ سَبْتَة على ابنه المُسْتَنْصِر، وطردوا ابن الشَّهِيد، وقتلوا العُمَّال الذين كانوا معه، وصرفوا الدَّعوة للمُرْتَضَى. وتولَّى كِبْرَ ذلك حَجْبُون الرُّنْداحيّ[2] بمُداخلة أبي القاسم

---

(1) هو المنصور بالله عبد الواحد بن المأمون إدريس بن يعقوب، خليفة الموحدين (633 ـ 640هـ). مجهول: الحلل الموشية 167

(2) ظ: الرنداجي، أ: الزنداحي، ومهملة في ص. أبو العباس أحمد الرنداحي، تولّى مهمة قيادة الأسطول منذ عهد عمر المرتضى، واستمر هذا المنصب في أسرته إلى منتصف القرن الثامن الهجري تقريباً. محمد المنوني: ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين 79. ولبعض أبناء هذه الأسرة ذكرٌ في الإحاطة 2: 364، 3: 77، ونفح الطيب 6: 84، والكتيبة الكامنة 73

[165 أ] العَزَفيّ[1] كبيرِ المشيخة بسَبْتَة، وأعظمِهم تَجِلّة؛ نشأ في حِجْر أبيه الفقيه / الصَّالح[أ] أبي العبّاس أحمد مكنوفاً بالجلالة، مغذوًّا[ب] بالعِلْم والدِّين، بما كان له فيها قدمٌ إلى أنْ هَلَك، فأوْجب أهلُ البَلَد لابنه ما عرفوه لحقِّه وحَقِّ أبيه من قَبْله، فكانوا يفزعون إليه في المهمّات، ويُسلمون له في الشُّورَى، فأغري الرُّنداحيّ بهذه الفعلة ففعلها، وعقد المُرْتَضَى لأبِي القاسم العَزَفيّ [على سَبْتَة][ج] مُستقلاً من غير إشرافِ أحدٍ من السَّادة ولا من المُوَحِّدِين، واكتفى بغَنائه في ذلك الثَّغر. وعقد لحجبون الرُّنداحيّ على قيادة الأساطيل بالمَغْرب، فورثها[د] عنه بَنوه[هـ] إلى أنْ زاحمهم العَزَفيّ بمناكب رياسته، فقوَّضوا عن سَبْتَة: فمنهم من نزل بمَالَقَة على بَني الأحْمر، ومنهم من نزل بِبجَايَة على آل أبي حَفْص. ولهم في الدَّوْلتين آثارٌ تشهد برياستهم. واستقلَّ الفقيهُ أبو القاسم العَزَفيّ برياسة سَبْتَة، وأوْرَثها بَنيه من بعده، على ما نذكره بعدُ.

(أ) أ: صالح (ب) أ: مقدراً (ج) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (د) ظ: فوزنها، ومهملة في أ، ص (هـ) وردت مكررة في ص

---

(1) ضجّ أهالي سبتة من التبعية للحفصيّين وظلم واليهم، فاتّفقوا على خلع الطاعة، وتولّى كبر ذلك أبو العبّاس الرُّنداحيّ قائد الأسطول، بمباركة الفقيه أبي القاسم العَزَفيّ، وهو ذو شأن عندهم، فولّوه أمورهم، وجعلوا رئاسة سبتة بيده، فأعلن استقلاله عن الدولة الحفصيّة سنة 647هـ، ثم أقام أولاده وأحفاده إمارة استمرت حتى سنة 728هـ.

عن التطورات السياسية الداخلية والخارجية لهذه الإمارة، وعلاقتها بالقوى المحيطة، وتاريخها الثقافي، انظر دراسةً بعنوان: "إمارة العزفيّين في سبتة 647 ـ 728هـ" للدكتورة نهلة شهاب أحمد، مجلة التاريخ العربي، ع 13، ص 101، ويحفل كتاب "اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنيّ الآثار" لمحمد بن القاسم الأنصاري السبتي بالكثير من أخبارهم.

وكانت طَنْجَة تاليةَ سَبْتَة في سائر الأحوال وتَبعاً لها، فاتَّبع ابنُ الأمين صاحِبُها إمارةَ الفقيه أبي القاسم، ثمَّ انتقضَ عليه لسَنَتِه واستبدّ، وخطب لابن أبي حَفْص، ثم للعبَّاسيّ، ثم لنفسه، وسَلَكَ فيها مَسْلك العَزَفيّ في سَبْتَة.

ولبثوا كذلك ما شاء الله، حتّى إذا ملك بنو مَرِين المَغْرب، وانبثّوا في شِعابه، ومدّوا اليدَ إلى مَمالكه فتناولوها، ونازلوا مَعاقِله وحُصونه فافتتحوها.

وهَلَكَ الأميرُ أبو يَحْيَى بن عبد الحَقّ وابنه عُمَر من بعده. وتَحيَّزَ[أ] بنوه في ذَوِيهم وأتباعهم وحَشَمهم إلى ناحية طَنْجَة وأَصِيلاَ[1]، فأوْطَنوا ضاحِيَتها، وأفسدوا سابِلَتها، وضيَّقوا على ساكِنها، واكتسحوا ما حَواليها. وشارَطَهم ابنُ الأمين[ب] على خَراجٍ معلومٍ، على أنْ يَكفّوا الأذيّة، ويحموا الحَوْزة، ويُصْلحوا السَّابِلَة. فاتَّصلت يدُه بأيديهم، وتردَّدوا إلى البَلَد لاقتضاء حاجاتِهم، ثمّ مكروا وأضْمروا الغَدْر؛ ودخلوا في بعض أيَّامهم متأبّطين السّلاح، وفتكوا بابن الأمين غيلةً، فثارت به العامَّةُ لحينهم، واستلحموا في مَصْرعٍ واحدٍ سنةَ خمسٍ وستّين، واجتمعوا إلى وَلَده، وبقيت في مِلْكَتِهم خمسةَ أشهر.

(أ) ظ: وتجبر (ب) ص: ابن الأمير

(1) أصيلا: وتكتب بالزاي أيضاً: أزيلا، وكتبها ياقوت "أزيلَي"، وهي مدينة صغيرة في المغرب بقرب طنجة، وكانت في القديم كبيرة عامرة أزلية، تقع على ساحل المحيط الأطلسي، ولها مرسى على البحر، وسور بخمسة أبواب. البكري: المسالك 2: 790، ياقوت: معجم البلدان 1: 170، مجهول: الاستبصار 139، ابن الخطيب: معيار الاختيار 150، الحميري: الروض المعطار 42، الوزان: وصف إفريقيا 1: 311 ـ، مقديش: نزهة الأنظار 1: 98

[165 ب] ثمَّ استولى عليها العَزَفيّ، فنَهَض إليها / بعَساكِره من الرَّجْل برّاً وبَحْراً، واستولى عليها. وفرَّ ابنُ الأمين، ولَحِقَ بتُونِس، ونزل على المُستَنْصِر. واستقرَّت طَنجَة في إيالة العَزَفيّ؛ فضَبَطَها وقام بأمْرها، وولَّى عليها من قِبَلِه، وأشْرَكَ الملأ من أشرافِه في الشُّورَى. ونازَلَها الأميرُ أبو مالك سنةَ ستٍّ وستّين، فامتنعت عليه. وأقامت على ذلك سِنِيًّا.

حتَّى إذا انتظم السُّلطانُ أبو يوسُف بلادَ المَغرب في مِلكَتِه، واستولى على حَضْرة مَرَّاكُش، ومحا دولةَ بني عَبْد المُؤمن، وفرغَ من أمْرِ عَدُوّه يَغْمَرَاسَن، همَّ بتلك الناحية واستضافة عَمَلِها، فأجْمَع الحركةَ إليها، ونازَل طَنْجَة مُفْتتَحَ ثنتَين وسبعين، لما كانت في البَسيط[أ] من دون سَبْتَة، وأقام عليها أيَّاماً. ثم اعتزم على الإفراج، فقَذف الله في قُلوبِهم الرُّعْبَ، وافترق بينهم، وتنادَى بعضُ النَّاشِبةِ[ب] من السُّور بشعارِ بَني مَرِين، فبادرَ سَرَعانُ النَّاس إلى تَسَوُّر حيطانها، فَملكوه عليهم، وقاتَلوا أهلَ البَلَدِ ظلامَ لَيلتِهم، ثمَّ دَخلوا البَلَدَ من صَبيحتها عَنوةً، ونادَى مُنادي السُّلطان في النَّاس بالأمان والعَفْو عن أهلِ البَلَد، فسكَن، ومَهَّد، وفرغ من شأن طَنْجَة.

ثمَّ بعثَ وَلَدَه الأميرَ أبا يَعْقُوب في عَساكِرَ ضخمةٍ، لمنازلة العَزَفيّ بسَبْتَة، وإرْغامه على الطَّاعَة؛ فنازَلها أيَّاماً، ثمَّ لاذ[ج] بالطَّاعَة على المنعة، واشترَط على نَفْسه خَراجاً يُؤَدِّيه كلَّ سنةٍ، فتقبَّل السُّلطانُ منه. وأفرجتْ عَساكِرُه عنهم، وقَفَل إلى حَضْرته، وصَرَف نَظَرَه إلى فَتْح سِجِلْمَاسَة، وإزعاج بَني عَبْد الوَاد المتغلّبين عليها، كما نذكره.

(أ) ظ: البسطة (ب) ظ، ص: الناشية، ومهملة في أ (ج) بعدها في أ: الغزاة، أو: الغداة

الخَبَرُ عن فَتْحِ سِجِلْمَاسَةَ الثاني،
ودُخولِها عَنْوةً على بَني عَبْد الوَاد والمُنَبَّات من عَرَبِ المَعْقِل

قد ذكرنا ما كان من تَغلُّب الأمير أبي يَحْيَى بنِ عبد الحَقّ على مدينة سِجِلْمَاسَة / وبلادِ دَرْعَة، وأنَّه عقدَ عليها وعلى سائرِ بلادِ القِبْلَة ليوسُف بنِ يَزْكَاسن، [1166] وأنْزلَ معه ابْنَه مفتاحاً المكنَّى بأبي حديد في مَشيخَتِه لحياطتها. وأنَّ المُرْتَضَى سَرَّح وزيرَه ابنَ عَطُّوش سنةَ أربعٍ وخمسينَ في العَسَاكر لارْتجاعِها؛ فنَهضَ إليه الأميرُ أبو يَحْيَى، وشرَّده عنها، ورجَّعه على عَقِبِه. وأنَّ يَغْمَرَاسَن بن زَيَّان، من بَعْد واقِعة أبي سليط سنة خمسٍ وخمسين، قَصَدها لعَوْرةٍ دُلَّ عليها، وغِرّة أملٍ أصابَها، فسابَقَه إليها الأميرُ أبو يَحْيَى، ومانَعَه من دونها، ورجعَ عنها خائبَ المسْعى، مَفْلولَ الحامية.

وكان الأميرُ أبو يَحْيَى من بعد ما عَقَدَ عليها ليوسُف بن يَزْكَاسن، عَقَدَ عليها من بعده لسنةٍ ونِصْفِها من ولايته ليَحْيَى بن أبي مِنْدِيل كبيرِ بَني عَسْكَر أقتالهم، ومُقَاسِميهم نَسَبَ مُحَمَّد بن ورصيص[أ]. ثمَّ عَقَدَ عليها لشهرَيْن لمُحَمَّد بنِ عِمْران بن عَبلة من بَني يَرْنِيَّان[ب] صَنائعِ دَوْلتهم، واستعملَ معه على الجباية أبا طالبَ بن الحبسيّ[ج]، وجعلَ مسلحةَ الجُنْدِ بها إلى نَظَر أبي يَحْيَى القطرانيّ، ومَلَّكه قِيادَتَهم. وأقاموا على ذلك سنتَيْن ثنتَيْن.

(أ) ظ: وزصيص، وفي أ، ص وضع تحت حرفي الصاد حرف زاي (ب) ظ: برنيان (ج) ظ، ص: الحبي، ومثله في أ بإهمال الباء

ولمَّا هَلَكَ الأميرُ أبو يَحْيَى، وشُغِل السُّلْطانُ أبو يوسُف بحَرْب يَغْمَرَاسَن، ومُنازلةَ مَرَّاكُش، سما للقطرانيّ أملٌ في الاستبدادِ بها، وداخَلَ في ذلك بعض أهل الفتن، وظاهَره يوسُف بنُ فرج العَزَفيّ، وفتكوا بعمَّار الورندغزانيّ(أ) شيخ الجماعة بالبلَدِ، واتَّمروا بمُحَمَّد بنِ عِمْران بن عبلة، فخرج ولَحِقَ بالسُّلْطان، واستبدَّ القطرانيُّ بها. ثمَّ ثار به أهلُ البلَد سنةَ ثمانٍ وخمسين، لسنةٍ ونِصْفها من لَدُن استبداده، وقتلوه. وصَرَفوا بيعتَهم إلى الخليفةَ المُرْتَضَى بمَرَّاكُش. وتولَّى كِبْرَ ذلك القاضي ابنُ حَجَّاج وعليّ بنُ عُمَر، فعَقَدَ له المُرْتَضَى عليهم، وأقام بها أميراً. ونازَلَتْه عساكِرُ بَني مَرِين والسُّلْطانُ أبو يوسُف سنة ستّين، ونصب عليها آلاتِ الحصار، فأخرقوها وامتنعوا، وأفرج عنهم. وأقام عليّ بن عُمَر في سُلْطانه ذلك ثلاث سنين، ثم هلك.

وكان الأميرُ يَغْمَرَاسَن بن زَيَّان، منذ غلب المُوَحِّدين على تِلِمْسان والمَغْرب الأوْسَط، وصار في مِلْكَته؛ تحيَّز إليه من عَرَب المَعْقِل قبيل المُنبَّات / من [166 ب] ذَوي منصور، بما كانت مَجالاتُ المَعْقِل مجاورةً لمجالات بَني يادين(ب) في القَفْر. وإنَّما ارْتحلوا عنها من بعد ما جَأْجَأَ(ج) يَغْمَرَاسَن ببَني عامر من مَجالاتهم بمْصَاب(د) ببلاد بَني يزيد، فزحموا المَعْقِل بالمناكب عن مَجالاتهم ببلاد فيكيك وصا، فرحلوهم(هـ) إلى مُلْويَّة وما وراءها من بلاد سِجِلْماسَة، فملكوا تلك المجالات.

(أ) ظ: بعمار الورندعراني، أ: الورندغراني، ومهملة في ص (ب) ص: بادين، ومهملة في أ (ج) ظ، ص: جاء (د) ظ: فصار، ووضع في أ، ص أسفل حرف الصاد حرف زاي، وذكر الوزان منطقة بزاب، على بعد نحو ثلاثمائة ميل شرق تيكورارين، تشتمل على عدة قصور وقرى. الوزان: وصف إفريقيا 2: 134 (هـ) ص: ورحلوهم، وساقطة من أ

وينبذ يَغْمَرَاسَن[أ] العَهْدَ إلى ذَوي عُبَيْد الله منهم، واستخلص المُنَبَّات هؤلاء، فكانوا له حلفاء[ب] وشيعة ولقومه ودعوته خالِصة. وكانت سِجِلْمَاسَة في مَجالاتهم، ومنقلب ظَعْنهم وناجِعَتهم، ولهم فيها طاعةٌ معروفة. فلمّا هَلَكَ عليّ بنُ عُمَر آثروا يَغْمَرَاسَن بمُلكها، فحملوا أهلَ البلدِ على القيام بدَعْوته، وخاطبوه وَجَأْجَأوا به، فغَشِيها بعَساكِرِه ومَلكها[ج] وضَبَطها، وعَقَد عليها لعَبْد المَلِك بن مُحَمَّد بن علي بن قاسم بن درع من وَلَد مُحَمَّد بن زكداز بن تيدُوكَسن[د]، ويُعرف بابن حنينة؛ نسبةً إلى أمّ أبيه أختَ يَغْمَرَاسَن، ومعه يَغْمَرَاسَن بن حَمَامَة، وأنزل معها وَلَده الأميرَ يَحْيَى لإقامة الرَّسْم المُلُوكيّ. ثمَّ أدالَه بأخيه[هـ] من السَّنَة الأخرى، وكذا كان شأنه في كلّ سنة.

ولمَّا فتحَ السُّلْطانُ أبو يوسُف بلادَ المَغْرب، وانتَظَم أمْصَارَهُ ومَعاقِلَه في طاعته، وغَلَب بَني عَبْد المُؤمن على دارِ خِلافتهم، ومحا رَسْمَهم، وافتتح طَنْجَة، وطوّع سَبْتَة مَرْقى الجوازِ[و] إلى العُدْوَة وثغرَ المَغْرب، سما أملُه إلى بلاد القِبْلَة، فوجَّه عَزْمه إلى انتزاع سِجِلْمَاسَة من أيدي بَني عَبْد الوَاد المتغلّبين عليها، وإدالة دَعْوته فيها من دَعْوتهم؛ فنهضَ إليها في العَساكِرِ والحشود في رَجب من سنة ثنتَين وسبعين، فنازلها وقد حشد إليها أهل المَغْرب أجمع، من زَنَاتَة والعَرَب والبَرْبَر، وكافَّة الجنود[ز] والعساكر، ونصبَ عليها آلاتِ الحِصار من المجانيق والعَرَّادات، وهِنْدام النَّفط

(أ) بعدها في ظ: "بملكها فحملوا أهل البلد". وهي عبارة ستأتي تالياً، وربما كانت مخرجاً فأدخله الناسخ في غير موضعه (ب) ظ: خلفاء (ج) ساقطة من أ (د) ص، أ: تيدُوكسن، ومهملة في ظ، وستأتي فيما بعد (هـ) ص: ناحية (و) أ: مرباً الجوار (ز) ظ: الحشود

القاذِف بحَصى الحديد تنبعث من خزنة[أ] أمام النّار الموقدة في البارود[1]، بطبيعةٍ [167أ] غريبة تردّ الأفعالَ إلى قُدرة باريها. فأقام / عليها حَوْلاً كريتاً يُغاديها القتالَ ويُراوِحُها، إلى أنْ سَقطت ذات يومٍ على حين غَفْلة طائفةٌ من سُورِها بإلحاح الحِجارة من المَنْجَنيق عليه؛ فبادروا إلى اقتحام البَلَد، فدَخلوها عَنْوةً من تلك الفرْجة في صَفَر من سنة ثلاثٍ وسبعين، فقتلوا المقاتِلة والحامِية، وسبوا الرَّعِيَّة، وقُتل القائدان عَبْد المَلِك بن حنينة، ويَغْمَرَاسَن بن حَمَامَة، ومَنْ كان معهم من بَني عَبْد الوَاد وأمراء المُنبَّات.

وكَمُل فَتْحُ بلاد المَغْرب للسُّلْطان[ب] أبي يُوسُف، وتمشَّت طاعتُه في أقْطاره؛ فلم يبقَ فيه مَعْقَلٌ يدينُ بغير دَعْوته، ولا جماعةٌ تتحيَّزُ إلى غير فئته، ولا أملٌ ينصرفُ إلى سواه.

ولمَّا كَمُلت له نِعَمُ الله في استيساق مُلكه وتمهيد أمْره، انصرفَ أملُه إلى الغَزْو وإيثار طاعة الله بجهادِ أعدائه، واستنقاذ المستضعَفين وراء البَحْر من عبادِه، على ما نذكر.

ولمَّا انكفأ راجعاً من سِجِلْمَاسَة، قصد مَرَّاكُش من حيث جاء، ثمَّ قَفَل إلى سَلا، فأراحَ بها أيَّامَاً، ونَظَر في شؤونها، وسَدَّ ثغرَها[ج]. وبَلَغه الخبَرُ بوفادة أبي طالب

(أ) أ: من خزنه، ومهملة في ظ (ب) ظ: السلطان (ج) ظ: ثغورها

---

(1) عُرف البارود مؤخَّراً في نحو سنة 766هـ، ويذكر إبراهيم الرّبّاش التولشي الأندلسي أنّ ابتداء عمله كان على يَدِ راهب يشتغل بالكيمياء، ينظر كتابه: العزّ والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، الذي كتبه بالقشتالية، وترجمه للعربيّة ترجمان سلاطين مراكش: أحمد بن قاسم الحجري. مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس، رقم 3433، مقديش: نزهة الأنظار: 1: 583.

[ابن][أ] صاحِب سَبْتَة الفقيه أبي القاسم العَزَفيّ على فاس، فأغَذَّ السَّيْرَ إلى حَضرته، وأكْرم وفادَته، وأحسن مُنقَلَبه إلى أبيه، مَمْلوء الحقائب بِبِرّة، ورَطْب اللِّسان بشُكْره. ثمّ شَرَع في إجازة وَلَده إلى العُدْوَة، كما نذكر الآن.

الخَبَرُ عن شأن الجهاد، وظُهور السُّلْطان أبي يوسُف على النَّصارى، وقَتْل زَعيمِهم ذُنُّنُه[1]، وما قارَن ذلك

كانت عُدْوَةُ الأنْدَلُس مذ أوّل الفَتح ثغراً للمسلمين، فيه جِهادُهم ورِباطُهم، ومَدارِجُ شَهادتِهم، وسُبُل سَعادتِهم. وكانتْ مَواطِنُهم فيه على مثل الرَّضْف[2]، وبين الظُّفْر والنَّاب من أُسود الكُفْر؛ لتوفُّر أُمَمِهم[ب] في جِوارها، وإحاطتهم بها من [167 ب] / جَميع جِهاتِها، وحَجْز البَحْر[ج] بينهم وبين إخوانهم المُسْلِمين.

وقد كان عُمَر بنُ عَبْد العَزيز رأى أنْ يُخرِجَ المُسْلِمين منها؛ لانقطاعِهم عن قَوْمهم وأهْلِ دينهم، وبُعْدهم عن الصَّريخ، وشاوَرَ في ذلك كِبارَ التَّابعين وأشراف العَرَب،

(أ) ساقطة من ظ (ب) ص: أممم (ج) أ: البحرين

(1) كذا جاء ضبطه مشدَّداً في أ. وهو دون نونيو دي لارا Don Nuno de Lara صهر ملك قشتالة ألفونس العاشر، ويُعرف في المصادر الأندلسيّة باسم: دنه، ذو نونه، ذُنونه. وكان قد قاد جيش قشتالة ضد المسلمين بقيادة السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحقّ المَرينيّ عند مدينة إسْتِجَّة (جنوب غرب قرطبة) سنة 674هـ. انظر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 316، الذخيرة السنية 148، الإحاطة 1: 565 هامش 3، التاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجي 536.

(2) الرَّضْف: الحجارة التي حميت بالشمس أو النار.

فرَأوْه رأياً[أ]. واعتزم عليها لولا ما اغتاقه من المنيَّة.

وعلى ذلك، فكان للإسلام[ب] فيها اعتزازٌ على مَن جاوَرَهُم من أهلِ الكُفر، بطُول دَوْلَة العَرَب من قُرَيش ومُضَر واليَمن. وكانت نهايةُ عزِّهم وسَوْرَةُ غَلَبهم[ج] أيّامَ بَني أُمَيَّة بها، الطَّائرة الذِّكْر، الباسطة جَناحَها على العُدْوَتَيْن منذ ثلاثِ مئين من السِّنين، أو ما يقاربها.

حتَّى [إذا][د] انتثر سِلْكُها بعد المائة الرَّابعة من الهجرة، وافترقت الجماعةُ طوائف، وفَشلت ريحُ المُسْلِمين وراءَ البَحْر بفَناء دَوْلَة العَرَب، واعتزَّ البَرْبَر بالمَغْرِب، واسْتفحل شأنُهم، وجاءت دَوْلَة المُرابطين، فجَمَعت ما كان مُفترقاً بالمَغْرب من كَلِمَة الإسلام، وتمسَّكوا بالسُّنَّة، وتَشَوَّفوا إلى الجهاد، واستدعاهم إخوانُهم من وراءِ البَحْر للمدافَعة عنهم، فأجازوا إليهم، وأبْلَوْا في جهادِ العَدُوّ أحْسنَ البَلاء، وأوْقعوا بالطَّاغِيَة أذْفُونْش(1) يومَ الزَّلَّاقة(2) وغيرها، وفتَحوا حُصوناً واسْترجعوا أخرى، واستنزلوا الثُّوَّار مُلُوك الطوائف، وجمعوا الكَلِمَة بالعُدْوَتَيْن.

(أ) ساقطة من ص (ب) ص: الإسلام (ج) ص: عليهم (د) ساقطة من ظ، ص

(1) في الأصول ظ، ص، أ: ابن أذفونش، وهو: أذْفُونْش (أو: الفُنْش) بن فَرْذِلَنْد (ألفونسو السَّادس)، حكم سنة 465هـ وتوفي سنة 501هـ، وخلفته في الحكم ابنته، حسب ما ترجم له ابن خلدون في أخبار ملوك الجلالِقَة. انظر: العبر 7: 179ب - 182ب، الحجي: التاريخ الأندلسي 329

(2) وقعت معركة الزَّلَّاقة سنة 479هـ؛ اجتاز أمير المرابطين يوسف بن تاشفين البحر بجيوشه، وساندته أمراء الطوائف بالأندلس، والتقوا جيش قشتالة بقيادة أذفونش بن فرذلند (ألفونسو السادس) ومعه جيوش الممالك النصرانية، وكان النصر فيها للمسلمين. انظر: الروض المعطار 287، الحجي: التاريخ الأندلسي 403

وجاء على أثرهم المُوَحِّدُون سالكينَ أحْسَن مَذاهبهم، فكانت لهم في الجهاد آثارٌ وعلى الطَّاغِيَة أيّامٌ، منها يومُ الأرْك ليَعْقُوب المنصور، وغيره من الأيَّام. حتَّى إذا فشلت رِيحُ المُوَحِّدِين، وافترقت كَلِمَتُهم، وتنازعَ الأمْرَ سادَةُ بَني عَبْد المُؤْمن الأمراءُ بالأنْدَلُس، وتحارَبوا على الخلافة، واسْتجاشوا بالطَّاغِيَة، وأمْكنوه من كثيرٍ من حُصون المُسْلِمين طُعْمَةً على الاسْتظهار، فَخشي أهلُ الأنْدَلُس على أنفسهم، وثاروا بالمُوَحِّدِين وأخرجوهم. وتولَّى كِبْرَ ذلك ابنُ هُود[1] بمُرْسِية وشَرْق[أ] الأنْدَلُس، وعمَّ بدَعْوته سائرَ أقطارِها، وأقامَ فيها الدَّعوةَ للعبَّاسيِّين، وخاطَبهم ببغدادَ، كما ذكَرْناهُ في أخباره، واسْتوفينا كلاً مِمَّا وَضَعناه[ب] في مكانه.

ثمَّ عَجِز ابنُ هُود عن الغَربيَّة؛ لبُعْدها عنه، وفَقْده / للعِصابة المتناولة لها، وأنَّه لم تكن صِبْغَتُه في المُلْك مُسْتَحْكَمة. وتكالب الطَّاغِيَة على الأنْدَلُس من كلّ جهة، [1168]

(أ) ظ: وشرف (ب) أ: وصفناه

(1) هو الأمير محمد بن يوسف بن هود الجذامي، كان قد دعا - خلال صراعه مع الموحدين وبني الأحمر - للخليفة المستنصر العبَّاسيّ، فمال إليه الناس. (ابن خلدون: العبر 1: 289، ابن الخطيب: الإحاطة 2: 95) وأرسل إلى بغداد سنة 627هـ رسولاً يخبر الخليفة باستيلائه على معظم بلاد المغرب واستنقاذها من أيدي غُصَّابها بني عبد المؤمن، وإقامة الدعوة بها لبني العبَّاس، ويطلب تقليداً بذلك، فأكرم رسوله وأجيب طلبه وخُلع عليه. (كتاب الحوادث لمجهول 33)، وكان الرسول قد وصل صحبة رسول الملك الكامل حاكم مصر (تاريخ الإسلام للذهبي 45: 37). ووصل تقليد الخليفة مع الراية لابن هود وهو في غرناطة سنة 631هـ، وقُرئ على الناس، وفيه أن الخليفة قلَّده أمر الأندلس تقليداً شرعياً، وقد احتفى بذلك أجلّ الاحتفاء (الإحاطة 2: 129، 131)، وهو كتابٌ طويل تضمن وصايا الخليفة وأوامره وما لقب به ابن هود، أورد نصه ابن العربي (شواهد الجلَّة 356)، ولسان الدين ابن الخطيب (أعمال الأعلام 280). وقد هنأ الأدباء ابن هود؛ ومنهم: أبو المطرف، وإبراهيم بن سهل. (نفح الطيب 1: 319، المغرب في حلى المغرب 1: 270)

وكَثُر اختلافُ المُسلِمين بينهم. وشُغل بَنو عَبْد المؤمن بما دَهَم المَغربَ من شأن بَني مَرين وزَناتَة، فتلافى مُحَمَّد بن يوسُف بن الأحْمر أمْر الغَربيَّة، وثارَ بحِصْنِه أرْجُونَة[1]، وكان شجاعاً قدماً ثبتاً في الحروب، فتلقّف الكرةَ من يَدِ ابنِ هُود، وخَلَع الدَّعوةَ العبَّاسيَّة، ودعا للأميرِ أبي زَكَرِيَّاء بن أبي حَفْص سنة تسعٍ وعشرين، فلم يَزَل - في فتنة ابن هُود - يُجاذبه الحَبْلَ، ويُقارعه على عَمالاتِ الأنْدَلُس واحدةً بعد أخرى، إلى أنْ هَلَكَ ابنُ هُود سنةَ خمسٍ وثلاثين.

وتكالَبَ العَدُوُّ - خلالَ ذلك - على جزيرةِ الأنْدَلُس من كلِّ جانب، ووفَّر له ابنُ هُود في الجزية، وبَلَغ بها أربعمائة ألف من الدَّنانير في كلّ سنة، ونَزَل له عن ثلاثين من حُصون المُسْلِمين. وخَشي ابنُ الأحْمر أنْ يَستغلظ عليه بالطَّاغِيَة، فجَنَح هو إليه، وتمسَّك بعُرْوَته، ونَفَر في جُمْلته[أ] إلى مُنازلة إشبيليَّة نِكايَةً لأهلها.

ولمَّا هَلَكَ الأميرُ أبو زَكَرِيَّاء، نَبَذ الدَّعْوةَ الحَفْصيَّة، واستبدَّ لنفسه، وتَسمَّى بأمير المُسْلِمين. ونازَعه بالشَّرق أعقابُ ابنِ هُود، وبَنو مَرْدَنيش[2]، ودعاه الأمْرُ إلى النُّزول للطاغية[ب] عن بلاد الفُرُنْتِيرَة، فنزل عنها بأسْرِها. وكانت هذه المدّة - من سنة ثنتَين وعشرين إلى سنة سبعين - فترةً ضاعَتْ فيها ثغورُ المُسْلِمين، واسْتُبيح

(أ) ظ: حملته (ب) ظ: للطاعة

(1) أرجونة: من مدن الأندلس المتوسطة الحجم. مجهول: ذكر بلاد الأندلس 10

(2) كان جدّهم محمد بن سعد بن مردنيش الجذامي متغلباً على بلنسية ومرسية ومناطق شرق الأندلس، وكان هو وصهره إبراهيم بن هَمُشْك على علاقة بالإسبان، ونزلا لهم عن بعض البلدان. أعمال الأعلام 259، 263، 270. الحجي: التاريخ الأندلسي 441، 459

حِماهُم، والتَهَم العَدُوُّ بلادَهُم وأمْوالَهم نَهْباً في الحرب، ووضيعةً[أ] ومُداراة في السِّلْم. واسْتولى طَواغيتُ الكُفْر[ب] على أمْصارِها وقَواعِدها؛ فَملَكَ ابنُ أذْفُونْش قُرْطُبَة سنةَ ستٍّ وثلاثين، وجَيَّانَ[1] سنةَ أربعٍ وأربعين، وإشْبيلِيَّة سنة ستٍّ وأربعين.

وتَملَّكَ قُمْط بَرْشَلونَة[2] مدينةَ بَلَنْسِيَة[3] سنة سبعٍ وثلاثين، إلى ما بينَها من الحصونِ والقَواعد والمعاقِل، التي لا تعدّ ولا تحصى. وانقرضَ أمْرُ الثُّوَّار بالشَّرق[ج]، وتفرَّد ابنُ الأحْمر بغرب الأنْدَلُس، وضاقَ نطاقُه عن الممانعة دون البَسائط الفِيح من أرض الفُرُنْتِيرَة وما قاربها، / ورأى أنَّ التَّمسُّكَ بها - مع قِلَّةِ العَدَد، وضَعْف الشَّوْكَة - [168 ب] مِمَّا يُوهِنُ أمْره ويُطمع فيه[د] عَدُوَّه؛ فعَقَدَ السِّلْمَ للطَّاغِيَة على النُّزول عنها أجْمع، ولجأ بالمُسْلِمين إلى سِيْفِ البَحْر مُعْتَصِمين بأوْعارِه من عَدُوِّهم، واختار لنُزُله مدينةَ غَرْنَاطَة، وابْتَنى بها لسُكْناه حِصْنَ الحمراء، حسبما شرحنا ذلك كلَّه في مَواضعه.

(أ) ظ: ووضعة (ب) أ: الكبير (ج) أ: بالمشرق (د) ص: معه

---

(1) جيَّان: مدينة قديمة (أزلية) من بلاد غرب الأندلس، إلى الشرق من مدينة قرطبة. مجهول: ذكر بلاد الأندلس 46

(2) قمط برشلونة (أو: برجلونة) هو: جايمش (خايمي) الأول بن بطره (بيدرو) الثاني بن ألفونسو، ملك أرغون (610 - 675هـ). الإحاطة 2: 98، الحجي: التاريخ الأندلسي 467، 527.

وبرشلونة (برجلونة): Barcelona مدينة من أقصى شرق الأندلس، تتبع لإقليم البرُتات، وهي مسورة على ساحل البحر، ولها ربض خارجها. البكري: المسالك 2: 910، مجهول: ذكر بلاد الأندلس 9، 14، 72، الروض المعطار 86، مقديش: نزهة الأنظار 1: 164

(3) اضطرَّ أهل بلنسية وجزيرة شُقَّر وشاطبة للهجرة إلى المغرب بعد استئذان الخليفة الموحدي عبد الواحد الرشيد بن المأمون بن المنصور، فأذن لهم وأصدر لهم ظهيراً سنة 637هـ خولهم حقَّ السكنى والعمل والفلاحة والتملُّك. انظر نصه في: سلا ورباط الفتح 1: 324

وفي أثناء هذا كلّه، لم يَزَل صَريخُه يُنادي بالمُسلِمين من وراء البَحْر، والملأ من أهْل الأنْدَلُس يَفِدون على أمير المُسْلِمين أبي يوسُف للإعانة ونَصْر المِلَّة، واستنقاذ الحُرَم والوِلْدان من أنياب العَدُوّ؛ فلا يجد مفزعاً إلى ذلك بما كان فيه من مُجاذَبة الحَبْل مع المُوَحِّدين، ثمّ مع يَغْمَرَاسَن، ثمّ بشغله بفَتْح بلاد المَغْرب وتَدْويخ أقطاره، إلى أنْ هَلَكَ السُلْطان أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن يوسُف بن الأحْمر[1]، المعروف بالشَّيخ وبأبي دَبُّوس؛ لَقَبَيْن كانا له على حين استكمال أمير المُسْلِمين فَتْح المَغْرب وفَراغه من شأن عَدُوّه سنةَ إحدى وسبعين.

على أنَّ بَني مَرِين كانوا يؤثرون الجهادَ ويَسْمُون إليه، وفي نُفوسهم جُنوحٌ إليه وصاغية.

ولمَّا اسْتَوْحش بنو إدْرِيس بن عبد الحقّ، وخرجوا سنةَ إحدى وستّين على السُلْطان يَعْقُوب بن عبد الحَقّ واسْتَرضاهم واستصلحهم، انتدب الكثير منهم للغَزْو وإجازة البَحْر لصَريخ المُسْلِمين بالأنْدَلُس. واجتمع إليهم من مُطَّوِّعَة بَني مَرِين عَسْكَرٌ ضخم من الغُزَاة، ثلاثة آلاف أو يزيدون. وعَقَد السُلْطانُ على ذلك العَسْكَر لعامر ابن إدْرِيس، وفَصَلوا إلى الأنْدَلُس، فكان لهم فيها ذِكْرٌ ونِكايَةٌ في العَدُوّ.

وكان الشَّيخُ ابن الأحْمر عَهِد إلى وَلَده القائم بالأمر من بَعْده مُحَمَّدٍ، الشَّهير بالفقيه؛ لانتحالِه طَلَب العلم أيّامَ أبيه، وأوْصاه بأنْ يَتمسَّك بعُرْوة أمير المُسْلِمين،

(1) المتوفى سنة 671هـ، أوّل ملوك بني الأحمر، وكان يدعو ـ لبعض الوقت ـ للخليفة المستنصر العبّاسيّ. اللمحة البدرية 43

ويخطب نَصْره، ويدرأ به وبقومه عن نفسه وعن المُسْلِمين تكالُبَ الطَّاغِيَة؛ فبادَرَ لذلك حين مُواراة أبيه[أ]، وأوْفد مَشيخة الأنْدَلُس كافَّةً[ب] عليه، ولقيه وَفْدهم منصرفاً من فَتْح سِجِلْمَاسَة، خاتم الفُتوح[ج] بالثُّغور الغربيَّة، وملاك العزّ[د]، ومَقاد[هـ] الملك. وتَنادَوْا للإسلام بالثَّأر، وألْقوا إليه كُنه الخبر عن كَلَب العَدُوّ / على المُسْلِمين، وثِقل وطأته، فحَيَّا وِفادَتهم، وبرّ وساهم، وبادر لإجابة داعي الله، واستيام الجنَّة. [1169]

وكان أميرُ المُسْلِمين ـ منذ أوَّل أمره ـ مؤثراً عملَ الجهاد، كَلِفاً به، مُختاراً له متى أُعطِي الخيار من سائر آماله؛ حتّى لقد كان اعتزم على الغَزْو إلى الأنْدَلُس أيّامَ أخيه الأمير أبي يَحْيَى، وطلب إذنه في ذلك عندما مَلَكوا مِكْنَاسَة سنة ثلاثٍ وأربعين، فلم يأذن له. وفصلَ إلى الغَزْو في حَشَمه وذَويه ومَن أطاعه من عَشيرِه. وأوْعَز الأميرُ أبو يَحْيَى لصاحِبِ الأمْرِ بسَبْتَة لذلك العَهْد أبي علي بن خلاص بأنْ يمنعه الإجازةَ، ويقطعَ عنه أسبابها. ولمَّا انتهى إلى قَصْر الجواز، ثنى عَزْمه عن ذلك الولي يَعْقُوب بن هارون الخِيَّرِيّ[و]، ووعده بالجهاد أميراً مستنفراً للمسلمين ظاهراً على العَدُوّ، فكان في نفسه من ذلك شغل وإليه صاغية.

فلمَّا قَدِم عليه هذا الوفدُ، نبَّهوا عَزائمه، وذكروا هِمَّته[ز]، فأعمل في الاحتشاد، وبعثَ في النَّفير، ونهضَ من فاس شهرَ شَوَّال من سنة ثلاثٍ وسبعين إلى فُرْضَة المجاز من طَنْجَة، وجهَّز خمسة آلاف من قَوْمه أزاح عِلَلَهم، واستوفى أعطياتهم[ح]،

(أ) وردت مكررة في أ (ب) ظ: كافية (ج) ظ: الفسوخ (د) ظ: العزة (هـ) أ: ومفاد (و) ص: الحيري (ز) أ: همه
(ح) ظ: اعطائهم، ص: عطائهم

وعَقَد عليهم لابنه مِنْدِيل، وأعطاه الرَّايَة، واستدعى من العَزَفِيّ صاحِبِ سَبْتَة السُّفُنَ لإجازتهم، فوافاه بقَصْر الجواز عشرون من الأساطيل، فأجازَ العَسْكَر، ونزل بطَرِيف[1]، وأراح ثلاثاً، ودخل دارَ الحَرْب، وتوغَّل فيها، وأجْلَب على ثغورها وبَسائطها، وامتلأت أيديهم من الغنائم، وأثخنوا بالقتل، والإسار، وتخريب العُمْران، ونسف الآثار؛ حتّى نزلَ ساحةَ شَرِيش[2]، فخام حاميتُها عن اللّقاء، وانْحَجروا[أ] في البَلَد، فقَفَلَ عنها إلى الجزيرة، وقد امتلأت أيديهم من الأموال، وحَقائبهم من السَّبْي، ورِكابهم من الكُراع والسّلاح.

ورأى أهلُ الأنْدَلُس أنْ قد ثأروا بعام العِقَاب، حتّى جاءت بعدها الطَّامَّة الكبرى على أهْلِ الكُفْر.

واتَّصَل الخَبَرُ بأمير المُسْلِمين، فاعتزم على الغَزْو بنفسه، وخَشيَ على ثغورِ بلادِه من عادِيَة يَغْمَرَاسَن في الفِتْنَة، فبعثَ حافِدَه تَاشِفِين بن عَبْد الوَاحِد في وَفْدٍ / من بَني مَرِين لعَقْد السِّلْم مع يَغْمَرَاسَن، والرُّجوع إلى الاتّفاق والموادعة، ووَضع أوْزار الحرب بين[ب] المُسْلِمين للقيام بوَظيفة الجهاد، فأكبر مؤصله ومؤصل قَوْمه، وبادَرَ [169 ب]

(أ) ظ، ص: وانحجزوا (ب) ظ: بين

---

(1) طريف: مدينة من الأندلس، تتبع لمدينة الجزيرة الخضراء، تقع على أول المجاز المسمى بالزقاق، وتسمى جزيرة طريف، وفيها كانت المعركة بين المسلمين والقشتاليين سنة 741هـ، التي هزم فيها المسلمون، مما سيرد تفصيله فيما بعد؛ في فصل "الخبر عن واقعة طريف...". انظر عن طريف: مجهول: ذكر بلاد الأندلس 68، الروض المعطار 392، مقديش: نزهة الأنظار 1: 160

(2) شريش: من مدن الأندلس التي تتبع إلى إقليم شذونة، مدينة محدثة في الإسلام، قريبة من البحر. مجهول: ذكر بلاد الأندلس 64

إلى الإجابة والألفة، وأوْفد مَشيخة بَني عَبْد الوَاد على السُّلْطان لعَقْد السّلْم، وبعث معهم الرُّسُل، وأسْنى الهَدِيّة. وجَمع الله كَلِمَةَ المُسْلِمين. وعَظُم موقعُ هذا السّلْم من أمير المُسْلِمين؛ لِمَا كان في نفسه من الصَّاغية[أ] إلى الجهاد، وإيثاره مَبْرورات الأعمال، وبثَّ الصَّدقات شكراً لله على ما مَنَحه من التفرُّغ لذلك.

ثمَّ استنفر الكافَّة، واحتشد القبائل والجموع، ودعا المُسْلِمين إلى الجهاد، وخاطَب في ذلك كافَّة أهل المَغْرب؛ من زَنَاتَة، والعَرَب، والمُوَحِّدِين، والمَصَامِدَة، وصِنْهَاجَة، وغُمَارَة، وأوْرَبَة، ومِكْنَاسَة، وجميع قبائل البرابرة، وأهل المَغْرب من المُرْتَزِقَة[1] والمُطَّوِّعَة، وأهاب بهم، وشرع في إجازة البَحْر، فأجازه من فُرْضَة طَنْجَة لصَفَر من سنةِ أربعٍ وسبعين، واحتلَّ بساحل طَرِيف.

وكان لما استصرخه السُّلْطانُ ابنُ الأحْمر، وأوْفد عليه مشايخ الأنْدَلُس، اشْتَرط عليه النُّزُولَ عن بعض الثُّغور بساحل الفُرْضَة لاحتلال[ب] عَساكِره، فتجافى له عن رُنْدَة[2] وطَرِيف.

(أ) ظ: الطاغية (ب) ص: لاختلال

(1) يقصد بالمرتزقة: الجيش النظامي الذي يأخذ الرزق (الراتب) من الدولة، وليس معناه ـ وفق الاعتبار المعاصر ـ مَن يؤجّرون أنفسهم للقتال نيابة عن أهله نظير الأجر. انظر عن فنون الحرب عند الموحدين وطبقات الجيش وتنظيمهم في المعارك، أشباخ: تاريخ الأندلس 483 ـ 493

(2) رندة: من مدن الأندلس، التابعة لكورة تاكرنا، وتقع إلى الغرب من مالقة، وهي مدينة خصيبة أزلية، زارها ابن بطوطة وقال عنها: "من أمنع معاقل المسلمين وأجملها وضعاً". وتسمّى بالإسبانية Ronda مجهول: ذكر بلاد الأندلس 68، ابن الخطيب: معيار الاختيار 130، ابن بطوطة: تحفة النظار 4: 217

ولمّا احتل[أ] بطَنْجَة، بادَرَ إليه ابنُ هشام الثّائر بالجزيرة الخضراء[1]، وأجاز البَحْرَ إليه، ولَقِيه بظاهر طَنْجَة، فأدّى له طاعته، وأمكنه من قِيادِ بَلده. وكان الرَّئِيس أبو مُحَمَّد بن إشقَيْلُولَة[2] وأخوه أبو إسحاق، صِهْرُ السُّلطان ابن الأحمر، تبعاً له في أمْره، ومُؤازراً على شأنه كلِّه. وأبوهما أبو الحسن هو الذي [تولّى][ب] له كبر الثّورَة على ابن هُود، ومُدَاخلة أهل إشبيليّة في الفَتْك بابن الباجيّ. فلمّا استوت قَدَمُه في مُلكِه، وغَلَب الثُّوّار بالأندَلُس، واستوى على أمْره، فَسُد بينهما بَعْدَ أنْ كان ولّى أبا مُحَمَّد على مَالَقَة، وأبا إسحاق على وادي آش[3]، فامتنع أبو مُحَمَّد بن إشقَيْلُولَة بمَالَقَة، واستأثر بها وبغربيّتها دونه. ومع ذلك فكانوا على الطّاغِيَة فئةً ولحمةً.

(أ) ص: اختل (ب) ساقطة من ظ

---

(1) الجزيرة الخضراء: مدينة أزلية من الأندلس، تقع على ضفة بحر الزقاق، ومرساها أقرب المراسي إلى العدوة، ومن مدنها مدينة طريف التي تقدم ذكرها، والتي كانت بها الواقعة بين المسلمين والقشتاليين سنة 741هـ. مقديش: نزهة الأنظار 1: 160

(2) تتفق النسخ على رسمه هكذا: شقيلولة، بإسقاط الألف في أوله، باستثناء مرة واحدة في الصفحة 89، ويرد في المصادر: إشقَيْلُولَة، وهو ما اعتمدناه دون الإشارة في الحاشية لما يرد في النُّسَخ. وبنو إشقيلولة بيتٌ من قبيلة تُجيب، غلب على حكم مالقة، وكانوا أصهاراً لبني نصر بن الأحمر، أمراء غرناطة. عن الرئيس أبي محمد وبني إشقيلولة عموماً انظر: الذخيرة السنية 151، وكتابَيْ ابن الخطيب: الإحاطة 1: 191 (وفهرس القبائل)، وأعمال الأعلام 287، المقري: نفح الطيب 1: 447 ـ، مقديش: نزهة الأنظار 1: 523 وسيأتي خبرهم فيما بعد.

(3) ظ، أ، ص: وادياش، ويكرر رسمها هكذا في بعض المواضع التي ترد فيها تالياً، فأثبتناها على هذا الوجه دون الإشارة إلى الفروق في الهامش. وهي مدينة تقع على نهر فردس، إلى الشمال الشرقي من غرناطة، على بعد نحو 55 كم، وتسمى بالإسبانية Guadix. ابن الخطيب: معيار الاختيار 112 وهامش المحقق رقم 176، الحميري: الروض المعطار 604.

ولمّا أحسّ أبو مُحمَّد[1] بإجازة السُّلطان يَعقُوب بن عبد الحَقّ، قَدِمَ إليه الوَفْدُ[أ] من أهل مَالَقَة ببَيْعَتهم وصَريحِهم، وانحاش إلى جانب السُّلطان وولايته، / وأمحضه [170] الخالصة والنّصيحة. فلمّا احتلَّ السُّلطانُ بساحة طَرِيف، ملأت كتائبه ساحةَ الأرض ما بينها وبين الجزيرة، وتسابَقَ السُّلطانُ ابن الأحمر - وهو مُحمَّد الفقيه ابن مُحمَّد الشَّيخ أبي دَبُّوس صاحب غَرْنَاطَة[2] - والرَّئيس أبو مُحمَّد بن إشْقَيْلُولَة صاحب مَالَقَة والغَربيَّة، وأخوه أبو إسحاق صاحب وادي آش وقُمارش[3] إلى لقاء السُّلطان؛ وتَناغَوْا في بُرور[ب] مَقْدَمِه والإذعان له ففاوضهما في أمور الجهاد ورجعهما لحينه إلى بلدهما[4].

وانصرف ابنُ الأحمر مغضباً ببعض النّزعات[ج] أحفظته، وأغَذَّ السُّلطانُ السَّيْرَ إلى القُرُنْتِيرَة، وعَقَد لوَلَدِه الأميرِ أبي يَعْقُوب على خمسة آلاف من عَسْكَره. وسَرَّحَ كتائبه في البَسائط، وخلال المعاقل، تنسفُ[د] الزَّرْعَ، وتحطّم الغُروسَ، وتخرّبُ العُمْران، وتنتهبُ الأموال، وتكتسحُ السّرح، وتقتلُ المقاتلة، وتَسْبي النّساء والذُّرِّيَّة،

(أ) أ، ص: الوافد (ب) ص: بروز (ج) ص: النزغات (د) ظ: بنشف

---

(1) المقصود: ابن إشقيلولة

(2) محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، الملقّب بالفقيه، ثاني ملوك بني نصر، توفي سنة 701هـ. اللمحة البدرية 58

(3) قمارش: من مدن مالقة (رية) وأمنع حصونها، وتعرف بالإسبانية Comares. مجهول: ذكر بلاد الأندلس 68، ابن الخطيب: معيار الاختيار 92

(4) تفصيل ذلك في أعمال الأعلام 289، اللمحة البدرية 57

حتّى انتهى إلى المدورة[1] ويابسة[2] وأُبَّدَة[3]، واقتحم حِصْنَ بَلْمَة[4] عَنوةً، وأتى على سائر الحُصون [في طَريقِه][أ]، فطمَس مَعالمها واكْتسح أموالَها، وقَفَلَ والأرْضُ تَموجُ سَبْياً، إلى أنْ عرس بإِسْتِجَة[5] من تُخوم دار الحَرْب.

وجاءه النَّذيرُ باتّباع العَدُوّ آثارهم[ب] لاستنقاذ أسْراهم وارْتجاع أموالهم، وأنَّ زعيمَ الرُّوم وعَظيمَهُم ذُنّنَّه خرج في طَلَبهم بأُمَم بلاد النَّصْرانيّة من المحتلِم فما فوقه، فقدَّم السُّلْطانُ الغنائمَ بين يَدَيْه، وسَرَّحَ ألفاً من الفُرْسان أمامها، وسار يَقْفيها[ج]، حتّى إذا أطلَّت راياتُ العَدُوّ من ورائهم كان الزَّحف، فرتَّبَ المصافَّ، وحرَّض، وذَكَّر.

وراجعت زَنَاتَة بَصائرها وعَزائمها، وتحرَّكت هِمَمُها، وأبْلَتْ في طاعة رَبِّها والذَّبِّ عن دينها، وجاءت بما يُعرف من بأسها وبَلائها في مَقاماتها ومَواقعها[د]، ولم يكُ إلاَّ

(أ) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ب) ظ: وآثارهم (ج) ص: يعقبها (د) أ، ص: ومواقفها

(1) أ، ص: المدور. ومثله في كتاب ذكر بلاد الأندلس 40 وفيه: "إقليم من أقاليم قرطبة، عدد قراه تسعون قرية".

(2) يابسة: جزيرة تقابل مدينة دانية من الأندلس وتقابل الجزائر. مجهول: ذكر بلاد الأندلس 75

(3) أبدة Ubeda: مدينة قديمة في الأندلس، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، وهي تقابل مدينة بياسة وبينها خمسة أميال، متصلة الجنات والزروع والفواكه. مجهول: ذكر بلاد الأندلس 46

(4) كذا ورد رسمه في الأصول، وكتبه مؤلف كتاب ذكر بلاد الأندلس 11: "حصن ولمة"، ذكره عرضاً عند الكلام على "نهر تاجة المنبعث من عين عظيمة بإزاء حصن ولمة بجبل القريرة [كذا] من شرق الأندلس من عمل مدينة تطيلة".

(5) إستجة Ecija: من أعمال رية بين القبلة والمغرب من قرطبة، تقع على نهر شنيل، لها قنطرة من الصخر المنجور، عامرة بالمتاجر والبساتين. نزهة المشتاق 2: 572، معجم البلدان 1: 174، الروض المعطار 53.

كلاّ ولا، حتّى هَبّت ريحُ النَّصر، وظَهَر أمْرُ الله، وانكشفت جُموعُ النَّصرانيّة، وقُتِلَ الزَّعِيمُ ذُنَنُّه والكثيرُ من جُموعِ أهْلِ الكُفْر. ومَنَح الله المُسْلِمين أكتافهم، واستحرَّ[أ] القتلُ فيهم، وأُحْصِيَ القَتْلى في المعركة؛ فكانوا ستّةَ آلاف، / [170 ب] واستُشهد من المُسْلِمين ما يُناهز ثلاثين؛ أكْرمهم الله بالشَّهادة، وآثرهم بما عنده، ونَصَر الله حِزْبَه، وأعزّ أولياءه، وأظْهر دينه، وبدا للعَدُوّ ما لم يحتسبه بمُحاماة هذه العِصابة عن المِلَّة، وقيامهم بنَصْر الكلمة[1].

وبَعَثَ أميرُ المُسْلِمين برأس الزَّعِيم ذُنَنُّه إلى ابن الأحْمر، فردَّه ـ زعموا ـ سِرّاً إلى قَوْمه، بَعْد أنْ طيَّبه وأكْرمه؛ ولايةً أخْلصها لهم؛ مُداراةً وانحرافاً عن أمير المُسْلِمين[2]، ظهرت شواهِدُه عليه بعد حين، كما نذكره.

وقَفَل أميرُ المُسْلِمين من غَزاته إلى الجزيرة منتصفَ ربيعٍ من سَنَتِه، فقَسَّم في المجاهدين الغنائم، وما نَفَّله[ب] اللهُ من أمْوال عَدُوِّهم وسَباياهم وأسْراهم وكُراعهم، بَعْدَ الاسْتئثار بالخُمْس لبيت المال على مُوجب الكتاب والسُّنَّة ليَصْرِفَه في مَصارفه.

(أ) ظ: واستجرّ، ص: واحتد (ب) أ: نفلهم

(1) انظر الوصف الأدبي المتَّشح بمَسْحَة دينيّة لهذه المعركة، وخطبة الأمير أبي يوسف في جُنده عند ابن أبي زرع الفاسي: الذخيرة السنية 148.

وبعد هذا النصر جاءته الكتب بالتهنئة، ومنها كتاب ابن إشقيلولة، ومعه قصيدة عينية، فريدة طويلة، من ابن عمّه الأمير سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن بن علي، أوّلها:

هبّت بنصركم الرّياحُ الأربعُ ... وسَرَتْ بسعدكم النجومُ الطُّلَّعُ
وأتت لنصركم الملائكُ سبقاً ... حتّى لَضاقَ بها الفضاءُ الأوسعُ

الذخيرة السنية 157

(2) انظر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 319

ويُقال: كان مبلغَ الغنائم في هذه الغَزَاة من البقر مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، ومن الأسرى سبعة آلاف وثمانمائة وثلاثون، ومن الكُراع أربعة عشر ألفاً وستّمائة. وأمّا الغنم فاتّسعت عن الحَصْر [كثرةً][أ]، حتّى لقد زَعَموا: بيعت الشّاةُ في الجزيرة بدِرْهَمٍ واحد، وكذلك السّلاح[1].

وأقام أميرُ المُسْلِمين بالجزيرة أيّاماً، ثمّ خرج لجُمَادَى غازياً إلى إشبيليّة، فجاسَ خلالَها، وتقرّى نَواحيها وأقْطارَها، وأثخن بالقتل والنَّهْب في جِهاتها وعُمْرانها. وارْتحل إلى شَرِيش[ب]، فأذاقَها وَبالَ العَيْث[ج] والاكتساح. ورَجَع إلى الجزيرة لشهرَيْن من غَزاته. ونظر في اختطاط مدينةٍ بفُرْضَة المجاز من العُدْوَة لنُزولِ عَسْكَره، مُنتبذاً عن الرَّعِيَّة لما يلحقهم من ضَرَر العَسَاكر وجفائهم، وتخيَّر لها مكاناً لِصْق الجزيرة، فأوْعَز ببناء المدينةِ جِوارها المشهورة بالبُنَيَّةِ[2]، وجعل ذلك إلى نَظَر مَن وثق به من دونه[د].

(أ) ساقطة من ظ (ب) ظ: سَتريش (ج) ظ: الغيث، ص: العبث (د) آ، ص: ذويه

---

(1) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 319

(2) ص: بالثنية. والبُنيَّة Albuniyya: وتسمّى الجزيرة الجديدة Algecira la nueva، أسّست بأمر سلطان المغرب أبي يوسف المريني لغرض عسكري دفاعي. وأقيمت على الضفة اليسرى من نهر العسل، والمصادر العربية - ومن ضمنها تاريخ ابن خلدون - تؤرخ لبنائها سنة 674هـ، بينما يذكر ألفونسو العاشر في كتابه "لاكرونيكا" أن المدينة أسست بعد سنة 678هـ. وقد تعرضت المدينة للتدمير بعد قرن من إنشائها (بين 780 - 790هـ) على يد محمد الخامس. انظر: ليبولدو تورّش بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، 80، 81، 103- 105

وقال ابن أبي زرع الفاسي في الذخيرة السنية 90: "وبنى في أيام مُلكه مدينتين حصينتين، إحداهما المدينة السعيدة فاس الجديدة ... والمدينة الثانية بناها لسكناه بخارج الجزيرة الخضراء على ساحل بحر الزّقاق، فكان يسكنها هو وقرابته ووزراؤه وحشمه إذا جاز إلى الجهاد؛ لأن لا يضيق على أهل الجزيرة في سكناهم".

ثمّ أجازَ البَحر إلى المَغرب في رجب من سنة أربعٍ وسبعين، فكان مَغيبُه وراءَ البَحر ستَّة أشهر. واحْتلَّ بقَصْر مَصْمُودَة[1]، وأمَرَ ببناء السُّور على بادِسْ[2] مَرْقى(أ) الجَواز ببلاد غُمَارَة. وتولّى ذلك إبراهيم بنُ عيسى كَبيرُ بَني / [171أ] وَسْنَاف بن مَحْيُو. ثمّ رَحَل إلى فاس، فدَخَلها في شَعْبان، وصَرَف النَّظَر إلى أحْوال دَوْلته واختطاط البَلَد الجَدِيد[3] لنُزُله ونُزُلِ حاشيته، واستنزال الثُّوَّار عليه بالمَغرب، على ما نذكره.

(أ) أ: مرفأ

---

(1) قصر مصمودة: قرية صغيرة، قرب سبتة إلى جهة الغرب، بينها نحو اثني عشر ميلاً، وبينه وبين طنجة عشرون ميلاً. مجهول: كتاب الاستبصار 138، الحميري: الروض المعطار 476، مقديش: نزهة الأنظار 1: 99

(2) بادس: مدينة مغربية تقع على ساحل البحر المتوسط، جنوب شرق تطوان، ويقال لها: "باديس" و"بادس غمارة"، ولها حصنان، وهي واقعة بين جبلين شاهقين قرب واد سحيق، تقابل مالقة من بلاد الأندلس. قال الوزان: إن الإسبان يسمونها "فيليس دو لاكوميرا". البكري: المسالك 2: 743، الإدريسي: نزهة المشتاق 1: 264، مجهول: الاستبصار 175، ابن الخطيب: معيار الاختيار 143، الحميري: الروض المعطار 75، الوزان: وصف إفريقيا 325 ـ، التمكروتي: النفحة المسكية 40، مقديش: نزهة الأنظار 1: 164

(3) ساقطة من أ، وفي ص: البلد الجريد. والبلد الجديد: هي فاس الجديدة، بجانب فاس القديمة على الوادي، بناها الأمير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني عام 674هـ، وسميت أيضاً: "المدينة البيضاء"، والمدينة الجديدة"، وكانت ـ كما يقول ابن خلدون في الفصل بعده ـ "من أعظم آثار هذه الدولة وأبقاها على الأيّام". ابن الخطيب: معيار الاختيار 176 وسمّاها: "مدينة الملك"، وانظر الفصل التالي الذي أفرده ابن خلدون لاختطاط المدينة وما اتخذه الأمير المريني لإقامتها.

الخَبَرُ عن اختطاط البَلَد الجَديد بِفاس[1]، وما كان على تفيئة[أ] ذلك من الأحداث

لمّا قَفَل أميرُ المُسْلِمين من غَزاته الجهاديّة، وتَمّ صُنعُ الله لديه في ظُهور الإسلام على يَدِه، واعتِزاز أهْل الأنْدَلُس بفَيْئَتِه، راحَ بالمَغْرب إلى نِعْمةٍ أخرى؛ من ظهور أوليائه، وحَسْم أدْواء الفَساد في دَوْلته، شَفَعتْ مَواهبَ السّعادة، وأكملتْ[ب] عوائدَ الصّنع؛ وذلك أنّ صُبَابَةَ بَني عَبْد المُؤْمن وفَلّهم، لمّا فرُّوا من مَرّاكُش عندَ الفَتْح، لَحِقوا بجبل تِيْنمَلَلْ جُرْثومةِ أمْرِهِم، ومنبعَثِ دَعْوتِهِم، ومَلاحِد خلفائهم، وحَضْرة سَلفهم، ودار إمامهم، ومَسْجد مَهْديِّهم، كانوا يعكفون عليه مُتَيَمِّنين بطَيْره، مُلْتمسين برَكةَ زيارته، ويقدمون ذلك أمام غَزواتهم قُرْبةً بين يَدَيْ أعمالهم، يعتدُّونها من صالح مَساعيهم. فلمّا خلص الفلُّ إليه اعتصموا بمَعْقِله، وآووا إلى وُكونه، ونصبوا للقيام بأمرهم عيصاً من أعْياص[ج] خُلفائهم بَني عَبْد المُؤْمن، ضَعيف المُنَّة[2]، خاسر الصَّفْقة من مَواهب الحظّ، وهو إسحاق أخو عُمَر المُرْتَضَى. وبايَعوه سنةَ [تسعٍ][د] وستّين، يرجون به رَجْعَ الكَرّة، وإدالة الدَّوْلَة. وكان المتولّيَ لكِبْر ذلك وزيرُ دَوْلتهم ابن عَطُّوش.

(أ) ظ، ص: بفية (ب) ظ: وأحلت، أ: وأجملت (ج) ص: عيضاً من أعياض (د) في ظ: ست وستين، والمثبت من أ، ص

---

(1) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية 161، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 322، الوزان: وصف إفريقيا 1: 246 - 292 وفيه توسّع كبير في هيئتها وأرباضها ومقابرها وحداثقها وقصورها وسكانها وعاداتهم ولباسهم ... إلخ

(2) ص: المنية. والمُنّة - بالضمّ -: القوّة، وخصّ بعضهم به قوّة القلب. لسان العرب، مادة: منن

ولمَّا عقد السُّلطانُ يَعْقُوب بنُ عبد الحَقّ لمُحَمَّد بن علي بن مُحَلّى على أعْمال مَرَّاكُش، لم يُقدِّم عَملاً على مُحاربتهم، وتخذيل النَّاس عنهم، واستمالة أشياعهم. وجمعوا له سنةَ أربعٍ وسبعين على غِرَّةٍ ظنّوها، فأوقع بهم، وفلّ من غَرْبهم، ثمّ صَمَد إلى الجبل لشهر ربيعٍ من سَنَته، فافتضَّ عُذْرته، وفضَّ خِتامَه، واقْتحمه عليهم عَنْوةً بعدَ مُطاولةِ النِّزال والحَرْب. وهَلَكَ / الوَزِيرُ[أ] ابن عَطُّوش في جوانب المَلْحَمة، وتقبَّض على خَليفتهم[ب] المستضعف وابن عمّه أبي[ج] سعيد بن السَّيِّد أبي الرَّبيع ومَن معهما من الأولياء، وجنبوا[د] إلى مَصارعهم بباب الشَّريعة من مَرَّاكُش، فضُربت أعْناقُهم، وصُلبت أشلاؤهم. وكان فيمَن قُتل منهم كاتِبُه القَبائليّ[1] وأولاده. [171 ب]

وعاثت العَسَاكرُ في جبل تِيْنَمَلَلْ واكْتسحت أمواله، وبعثرت قبور الخُلَفاء من بَني عَبْد المؤمن، واسْتُخرج شِلْوُ يوسُف وابنِه يَعْقُوب المنصور، فقُطعت[هـ] رُؤوسهم، وتولَّى كِبْرَ ذلك أبو عليّ المِلْيَانيّ النازع إلى السُّلطان أبي يوسُف من مِلْيَانة[2] عُشّ

(أ) ساقطة من ص (ب) ظ: حليفتهم (ج) ظ، أ، ص: أبو (د) ص: وحينوا (هـ) ظ: قطعت

---

(1) قبلها في أ من مخرج بخطّه: ابن القبائليّ، وانظر الفصل الذي عقده ابن خلدون في أخبار القبائلي ونكبته، آخر هذا الجزء.

(2) مليانة: على خلاف في ضبط أوله بين الفتح والكسر، مدينة بنيت في سفح جبل زكار الغربي على بعد نحو أربعين ميلاً من مدينة شرشال على ساحل البحر المتوسط، وهي محاطة بأسوار عالية، وذكر الوزان أن المدينة من بناء الرومان وأنهم كانوا يسمّونها "ماكانة". البكري: المسالك 2: 725، الإدريسي: نزهة المشتاق 1: 253، الروض المعطار 547، الوزان: وصف إفريقيا 2: 34، مقديش: نزهة الأنظار 1: 51، 80

غِوايته، ومَوْطن انتزائه، كما قَدَّمناه. وكان السُّلطانُ أقْطعه بلَدَ أغْمات[1] إكْراماً لوِفادته، فحضر هذه الغَزَاة في جُمْلة العَساكر. ورأى أنْ قد شفى نفسَه بإخراج هؤلاء الخلائف من أرْماسهم، والعَبَث بأشلائهم، لما نقم منه المُوَحّدُون، وأزعجوه من قَراره، فنكرها السُّلْطانُ لجلاله، وتجاوز عنها للمِلْيانيّ تأنيساً لغربته وجِواره، وعدَّها من هناته.

ولمَّا وَصَل أميرُ المُسْلِمين إلى حَضْرته من غَزَاة الجهاد، ترادفت عليه أخبارُ هذه الملحمة، وقطع دابر بَني عَبْد المُؤمن؛ فتظاهر السُّرور لديه، وارتفعت إلى الله كلماتُ الشُّكْر طيّبةً منه.

ولمَّا سكن غَرْبُ الثُّوَّار[أ]، وتمَهَّدَ أمرُ المَغرب، ورأى أميرُ المُسْلِمين أنَّ أمْرَه قد استفحل، ومُلْكَه قد اسْتَوْسَق، واتَّسع نطاقُ دَوْلته، وعَظُمت غاشيتُه، وكَثُر وافِدُه، رأى أنْ يختطَّ بَلَداً يتميَّز بسُكناه في حاشيته وأهْل خِدْمته وأوليائه الحاملين سَرير مُلكه. فأمرَ ببناء البَلَد الجَدِيد لِصَقَ فاس، بساحة الوادي المخترق وَسَطها من

(أ) ظ: عرب الثوار

(1) أغمات: مدينة بالمغرب قرب مراكش، بينها نحو اربعة وعشرين ميلاً، وكانت في زمن البكري ومن بعده ابن خلدون مدينتين: أغمات عيلان (أو: أيلان) وأغمات وريكة، والمسافة بينهما نحو ستة أميال، وبينها عداوة مستحكمة. ولكن ابن خلدون لم يميز بينهما. البكري: المسالك 2: 842، الإدريسي: نزهة المشتاق 1: 226، ابن الخطيب: معيار الاختبار 164 وهامش المحقق رقم 109، الحميري: الروض المعطار 46، الوزان: وصف إفريقيا 1: 135.، ابن مليح السراج: أنس الساري 13 ـ 25 (وفيه ذكر للصالحين والأولياء المدفونين بأغمات وريكة)، مقديش: نزهة الأنظار 1: 59، 62

أعلاه، وشرع في تأسيسها لثالث شوّال من سنة أربعٍ وسبعين هذه، وجَمَع الأيدي عليها، وحَشَد الصُنّاع والفَعَلة لبنائها، وأحضَر لها الحُزى[أ] والمعدّلين لحركات[ب] الكواكب، فاعتاموا في الطّوالع النُّجوميّة ما يَرضون أثره، ورَصَدوا أوانه. وكان فيهم الإمامان أبو الحسن بن القطّان[1]، وأبو عَبْد الله بن الحبّاك[2] المقدّمان في الصّناعة، [172ا] فكَمُلَ تَشييدُ هذه المدينة على ما رسم وكما رضي، / ونزلها[ج] بحاشيته وذويه سنة أربعٍ وسبعين كما ذكَرْناهُ، واختطُّوا بها الدُّور والمنازل، وأجرى فيها المياه إلى قُصوره، وكانت من أعظم آثار هذه الدَّولَة وأبقاها على الأيَّام.

ثمَّ أوْعز بعد ذلك ببناء قَصَبة مدينة مِكْناسَة، فشرع في بنائها من سَنَته. وكان لحين إجازته البَحْر قافلاً من غَزاته لَحِق طَلْحَة بن مُحَلّى بجبل أَزَرُو[3] نازعاً إلى قبائل زَنَاتَة من صِنْهَاجَة، فأغَذَّ إليه السُّلْطانُ بعَساكِره *وأناخ عليه*[د]، واستنزله

(أ) ظ: الحري، ص: الجري. والحازي: الكاهن والناظر في النجوم. (ب) ظ: بحركات (ج) ظ: ونزل (د) سقط ما بين النجمين من أ

---

(1) في الذخيرة السنية: سليمان الغياش

(2) اسمه محمد كما في الذخيرة السنية.

(3) ظ: أرزو، والمثبت من ص، أ، وهي إحدى مدن إقليم إيفرن جنوب مكناسة بوسط المغرب، معناها باللغة الأمازيغية: الصخرة أو الحجر؛ سميت بذلك لوجود صخرة كبيرة فيها. انظر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 321، ابن سعيد: الجغرافيا 124، ابن الحاج النميري: فيض العباب 283. وقال البكري (المسالك 2: 846): "يقال إن جبل أزور [كذا] متصل بجبل نفوسة من جبال طرابلس، وأحسبه جبل درن". وقال ابن أبي زرع الفاسيّ (الذخيرة السنية 160): "حينما خالف طلحة بن محلى البطويّ على أمير المسلمين، امتنع في جبل أزرو من بلاد فازاز".

لشهرٍ على ما سأل من الأمان والرُّتبة، وحسم الدّاء من خروجه، واسْتوزر صَنيعتَه فَتح الله السَّدْراتيّ[أ]، وأجْرى له رِزْق الوِزارَة على عَوائدهم.

ثمّ بعث إلى يَغْمَرَاسَن كفاء هديّته التي أتْحفه بها بين يدي غَزاته؛ وكان شغَلَهُ عنها أمْرُ الجهاد، فبَعَثَ له فُسْطَاطاً رائقاً كان صُنِع له بمَرَّاكُش، وحَكَمَاتٍ[1] مُمَوَّهة بالذَّهَب والفِضَّة، وثلاثين من البغال الفارهة ذكراناً وإناثاً بمَراكبها الفارسيَّة من السُّروج، والنّسوانيّة من الوَلايا[2]، وأحْمالاً من الأديم المعروفُ دِباغُه بالشركيّ، إلى غير ذلك ممَّا يُباهِي به مُلُوك المَغْرب وينافسون فيه.

وفي سنة خمس وسبعين من بعدها أهدى له مُحَمَّد بن عَبْد القويّ أميرُ بني تُوجِّين، وصاحبُ جبل وَانْشَرِيس أربعةً من الجياد انتقاها من خيل المَغْرب كافّة، ورأى أنّها على قلَّة عَدَدِها أخفل هديّة. وفي نفسه ـ أثناء هذا كلّه ـ من الجهاد شغلٌ شاغل يتخطّى إليه سائر أعماله، حسبما نذكره.

(أ) ظ: السدارات، ص: السدرات، والصواب ما أثبتناه نسبة إلى قبيلة سَدْرَاتة من قبائل البربر. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 20

(1) واحدتها حَكَمَة، وهي حديدة في اللجام تكون في أنف الفرس وحنكه، تمنعه من مخالفة راكبه. لسان العرب، مادة: حكم

(2) واحدتها وليّة، وهي البرذعة، وقيل: ما تحت البرذعة، وكل ما ولي ظهر الدابة من كساء أو غيره. لسان العرب، مادة: ولي. ويرد عند ابن خلدون تالياً في "الخبر عن صهر الموحدين" ما أعد للاحتفال بزفاف الأمير أبي الحسن بن السلطان أبي سعيد من فاطمة بنت السلطان أبي يحيى، ومن جملته: ولايا الحرير المغشاة بالذّهب.

الخَبَرُ عن إجازةِ أميرِ المُسْلمين الثّانية[1]، وما كان فيها من الغزوات

لمَّا قَفَل أميرُ المُسْلِمِين من غَزاته الأولى، واستنزل الخوارجَ، وثَقِفَ الثُّغور، وهادى المُلُوكَ، واختطَّ المدينةَ لنُزُله، كما ذكرنا ذلك كلَّه. ثمَّ خرجَ فاتِحَ سنة ستٍّ وسبعين إلى جهة مَرَّاكُش لسَدِّ ثُغورِه، وتثقيف أطرافه، وتوغَّل في أرض السُّوس، وبَعَث وزيرَه فَتْح الله بالعَساكر، فجاسَ خِلالَه، ثمَّ انكفأ راجعاً. وخَطَب قبائل المَغرب كافَّةً بالنَّفير إلى الجهاد، فتباطؤوا؛ واستمرَّ على تحريضهم. ونَهَض[أ] إلى رِباط الفَتْح، / وتلوَّمَ بها في انتظار الغزاة، فتثبطوا[ب]، فخفَّ هو في خاصَّته وحاشيته، [172 ب] واحتلَّ بالفُرْضَة من قَصْر المجاز، وتلاحق به النَّاس، فأجاز البَحْر، واحتلَّ بطَرِيف لآخر مُحرَّم. ثمَّ ارتحل إلى الجزيرة، ثمَّ إلى رُنْدَة. ووافاه هُنالِك الرَّئيسان أبو إسحاق ابن إشْقَيْلُولَة صاحبُ قُمارش، وأبو مُحمَّد صاحبُ مَالَقَة للغَزْو معه. وارتحلوا إلى مُنازلة إشبيلِيَّة، فعرَّسُوا عليها يومَ المولد النَّبويّ؛ وكان بها مَلِكُ الجَلالِقَة ابن أذْفُونْش، فحامَ عن اللِّقاء، وبرز إلى ساحة البَلَد مُحامياً عن أهلها. ورتَّبَ أميرُ المُسْلِمِين مَصافَّه، وجَعَل وَلَده الأمير أبا يَعْقُوب في المقدّمة، وزحف في التَّعْبِئَة، فأجْحروا[ج] العَدُوَّ في البَلَد، واقْتَحموا أثرهم الوادي، وأثخنوا فيهم. وباتَت العَساكرُ

(أ) أ: وظعن (ب) أ، ص: وتثبطوا (ج) ظ، ص: فأحجزوا

(1) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 323

لَيْلَتهم يجولون[أ] في مُتون جيادهم، وقد أضْرموا النّيران بساحتها. وارتَحل من الغَدِ إلى أرض الشَّرق، وبثَّ[ب] السَّرَايا والغُوّار في سائر النَّواحي، وأناخ بجُمْهور العَسَاكر عليها، فلم يَزَل يتقَرَّى تلك الجهات[ج] حتّى أباد عُمْرانها، وطَمَس مَعالمها. ودخل حِصْن قطنيانة[د]، وحِصْنَ جليانة[هـ]، وحِصْن القليعة[1] عَنْوةً، وأثْخن في القَتْل والسَّبْي، ثمَّ قَفَل بالغنائم والأنفال[و] إلى الجزيرة لسِرَار شهره، فأراح وقسّم الغنائم في المجاهدين.

ثمَّ خَرَج غازياً إلى شَرِيش مُنتصف ربيع الآخر، فنازلها وأذاقها نَكَال الحَرْب، وأقْفَرَ نَواحيها، وقَطَع شَجْراءَها، وأباد غَضْراءَها، وحرَّق ديارها، ونَسَف آثارها، وأثْخَن فيها بالقَتْل والإسار. وبعث وَلَده الأمير أبا يَعْقُوب في سريَّة من معَسْكَره للغوار على إشْبيلِيَّة وحُصونِ الواد[2]، فبالغ في النّكايَة. واكْتَسح حِصْن رُوْطَة[ز]، وشلوقة[3]، وغلْيَانَة[ح]، والقناطِر[4]. ثمَّ صَبَّح إشْبيلِيَّة بمغاره فاكْتسحها، وانكفأ إلى

(أ) ظ: يجولوا (ب) أ: ورتب (ج) ظ: الجهاد (د) ظ: قطبنانة، ص: فطبنانة، وقطنيانة: من مدن إشبيلية تقع على نهرها، وفيها حصن. مجهول: ذكر بلاد الأندلس 61، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 325 (هـ) ظ: حلبانة، ومهملة في ص، والمثبت يوافق ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 325 (و) ظ: والأنقال (ز) ظ، ص: زوطة، والمثبت يوافق ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 326. وحصن روطة: من حصون مدينة شذونة المنيعة. (مجهول: ذكر بلاد الأندلس 65) (ح) في ص: عليانة، مهملة، وحصن غليانة: من حصون مدينة شذونة بالأندلس. مجهول: ذكر بلاد الأندلس 65، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 326

(1) حصن القليعة: سماه مؤلف كتاب ذكر بلاد الأندلس 58: "حصن القلعة"، حصن منيع من حصون مدينة شنترية، فيه آثار للأوّل.

(2) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 326: الوادي الكبير

(3) حصن شلوقة: من حصون مدينة شذونة بالأندلس. مجهول: ذكر بلاد الأندلس 65

(4) سمّاه صاحب كتاب ذكر بلاد الأندلس 65: حصن القناطير، أحد الحصون التابعة لمدينة شذونة.

أمير المُسْلِمين، فقَفَلوا جميعاً إلى الجزيرة، وأراح وقَسَّم في المجاهدين غنائمهم.

ثمَّ ندَبَ إلى غَزْوِ قُرْطُبَة، ورغَّبهم في عُمْرانها، وثروةِ ساكِنِها، وخِصْبِ بلادها، فأَهْطعوا إلى إجابته. وخاطب ابن الأحمر يستنفره. وخرج لأوَّل جُمَادَى من الجزيرة. ووافاه ابنُ الأحمر بناحية أُرْشُذُونَة(1)، فكرَّم وُصولَه، وشكر خُفوفَه إلى الجهاد وبِدارَهُ؛ ونازلوا حِصْن بَني بشير، / [173] فدخل عَنْوةً، وقُتِلت المقاتلة، وسُبيت النِّساء، ونُقِلت الأموال، وخُرِّب الحِصْن.

ثمَّ بثَّ السَّرَايا والغارات في البَسائط، فاكتسحها(أ)، وامتلأت الأيدي، وأثرى المعَسْكَر، وتقرّوا المنازل والعُمْران في طَرِيقهم، حتَّى احتلّوا ساحةَ قُرْطُبَة فنازلوها، وانْحَجَزت(ب) حاميةُ العَدُوّ من وراء أسوارها، وانبثَّت بُعوثُ(ج) المُسْلِمين وسَراياهم في نَواحيها، فنَسفوا آثارها، وخَرَّبوا عُمْرانها، واكتسحوا قُراها وضِياعها، وتردَّد على جهاتها فدخل حِصْنَ بركونة عَنْوةً، ثمَّ أرْجُونَة كذلك، وقدم بَعْثاً إلى جَيَّان؛ قاسَمها حَظَّها من الخَسْف والدَّمار.

(أ) ظ: واكتسحها (ب) ظ، أ: وانحجرت (ج) ظ: نعوت

---

(1) ص: ارشدوه. وفي الأنيس المطرب: شذونة، ولعلها الأصح؛ لأنها في الطريق إلى قرطبة، أمّا الأخرى فبعيدة. وشذونة Sidonia: مدينة قديمة من قواعد الأندلس، لها مدن وحصون كثيرة (مجهول: ذكر بلاد الأندلس 64 ـ 65). وعند ابن الخطيب (معيار الاختيار 126): أرجذونة: ذكرها بالاندراس والخراب في زمنه، وتسمى اليوم Archidona. الحميري: الروض المعطار 25، 339، مقديش: نزهة الأنظار 1: 161

وخامَ الطّاغِيَةُ عن اللّقاء، وأيْقن[أ] بخَراب عُمْرانه وتَلافِ بلاده، فَجنَح إلى السّلْم، وخطبه من أمير المُسْلِمين، فدَفعه إلى ابن الأَحْمر، وجَعل الأمْرَ في ذلك إليه تَكْرِمةً لمشهده، ووفاءً بحقّه، وأجابهم ابنُ الأَحْمر إليه بعد عَرْضه على أميرِ المُسْلِمين، والْتماس إذنه فيه، وإبداء ما فيه من المصلحة، وجنوح أهل الأَنْدَلُس إليه منذ المدد الطويلة، فانعقد السّلْم. وقَفَل أميرُ المُسْلِمين من غَزاته، وجَعَل طريقَه على غَرْنَاطَة احتفاءً بالسُّلْطان ابن الأَحْمر. وخرج له عن الغَنائم كلّها، فاحْتوى عليها. ودخَلَ أميرُ المُسْلِمين إلى الجزيرة في أوّل رجب من عام يومئذٍ، فأراح، ونَظَر في تَرْتيب المسالح[ب] على الثُّغور، وتملّك مَالَقَة، كما نذكره.

الخَبَرُ عن تملّك السُّلْطان مدينة مَالَقَة من يد ابن إشْقَيْلُولَة(1)

كان بنو إشْقَيْلُولَة هؤلاء من رؤساء الأَنْدَلُس المؤمَّلين لمدافعة العَدُوّ، وكانوا نظراء لابن[ج] الأَحْمر في الرِّيَاسَة، وهما: أبو مُحَمَّد عَبْد الله، وأبو إسحاق إبراهيم، ابنا أبي الحسن بن إشْقَيْلُولَة. وكان أبو مُحَمَّد منهم صِهْراً له على ابنته، فكانوا له بذلك خالصةً، فأشركهم في أمره. واعتضد بعِصابتهم وبأبيهم من قبلُ على مُقاومة ابن هُود وسائر الثُّوّار. حتّى إذا استَمكن من فرصته، واستوى على كُرسيّه، استَبدَّ دونهم، وأنزلهم إلى مقامات الوزراء. وعقد لأبي مُحَمَّد ـ صِهْره على ابنته ـ على مدينة

(أ) ظ: وأثخن (ب) ص: المشايخ، وتردد ناسخ ظ في إثبات الصواب؛ فكتب المقطع الأول من الكلمة، وترك الباقي بياضاً: المسا[...] (ج) ظ: ابن

(1) تفصيل ذلك عند: ابن أبي زرع: الذخيرة السنية 143، الأنيس المطرب 328

مَالَقَة والغَربِيَّة، / وعقد لأبي الحسن - صِهْره على أُخته - على وادي آش وما إليها، [173 ب]
وعقد لابنه[أ] أبي إسحاق إبراهيم بن عليّ على قُمَارِش وما إلى ذلك، ووَجَدوا في أنفسهم، واستمرّ الحالُ على ذلك.

ولمَّا هَلَكَ الشَّيخُ ابنُ الأحمر سنة إحدى وسبعين، ووَلِي ابنُه مُحَمَّد الفقيه، سَمَوْا إلى مُنازعته. وأوفد أبو مُحَمَّد صاحبُ مَالَقَة ابنه أبا سعيد على السُّلْطان يَعْقُوب بن عبد الحَقّ، وهو منازل طَنْجَة، ووَفَد معه أبو عَبْد الله بن مِنْدِيل[ب]، فكَرَّم وِفادَتَها، وأحْسَن مَوْعدها. وانكفآ راجعين، فبَعَث الرَّئيس أبو مُحَمَّد إلى السُّلْطان بطاعتِه وبَيْعة أهلِ مَالَقَة سنة ثلاثٍ وسبعين، وعَقَد له عليها. ونزع ابنه أبو سعيد فرج إلى دارِ الحَرْب، ثمّ رجع لسَنَتِه، فقُتل بمَالَقَة.

ولمَّا أجاز السُّلْطانُ إلى الأنْدَلُس إجازتَه الأولى سنةَ أربعٍ وسبعين، تلقَّاه أبو مُحَمَّد بالجزيرة مع ابن الأحْمر، وفاوَضَهُما السُّلْطان في شؤون الجهاد، وردَّهما إلى أعمالهما. ولمَّا أجاز إجازتَه الثانية سنةَ ستٍّ وسبعين لَقِيَه بالجزيرة الرَّئيسان ابنا إشْقَيْلُولَة أبو مُحَمَّد صاحبُ مَالَقَة، وأخوه [أبو][ج] إسحاق صاحبُ وادي آش وقُمَارِش، فشهدا معه الغَزَاة. ولمَّا قَفَل، اعتلّ أبو مُحَمَّد صاحبُ مَالَقَة، ثمّ هَلَكَ غُرَّةَ جُمَادَى من سَنَتِه، فلَحِق ابنُه مُحَمَّد بالسُّلْطان آخرَ شهرِ رمضان، وهو متلوّم بالجزيرة مُنصرَفه من الغَزْو، كما ذَكَرْناهُ، فنزل له عن البَلَد، ودَعاه إلى احتيازها، فعقد عليها لابنه أبي زَيَّان [مِنْدِيل][د]، فسار إليها في بَعْثٍ. وكان ابن إشْقَيْلُولَة

(أ) ظ: لأبيه (ب) ظ: عندريل، أ: غُلندريل، ومهملة في ص (ج) ساقط من ظ، ص، ومثبتة بهامش آ (د) ساقطة من ظ

لحين فُصوله إلى لقاء السُلْطان، أمر ابن عمّهِ مُحَمَّد الأزرق بن أبي الحَجّاج يوسُف ابن الزرقاء بإخلاء مَنازل للسُلْطان[أ] بالقَصَبة وإعْدادها، فتمّ ذلك لثلاثِ ليال. واضْطَرَبَ الأميرُ أبو زَيّان معَسْكَره بخارجها. وأنفذ مُحَمَّد بن عِمْران بن عَبلة في رَهْطٍ من رجال بَني مَرِين إلى القَصَبة، فنَزَلها، ومَلَكَ أمْرَ البَلَد.

وكان السُلْطانُ ابنُ الأحْمر، لمّا بَلَغه وفاةُ أبي مُحَمَّد بن إشْقَيْلُولَة، سما أمَلُه إلى الاستيلاء على مَالَقَة، وأنَّ ابنَ أخته شيعة له، وبعث لذلك وزيَره أبا سُلْطان عزيزاً الدّانيّ، فوافى معَسْكَرَ الأميرِ أبي زَيّان بساحتها، ورجا أنْ يتجافى عنها لسُلْطانه، فأعْرض عن ذلك / وتجهَّمَ لهُ، ودَخَل إليها لثلاثٍ بقِينَ من رمضان. وانقَلب الدّانيُّ عنها بخُفَّيْ حُنَيْن. [174 أ]

ولمّا قضى السُلْطانُ بالجزيرة صَوْمَه ونُسُكه، خَرَج إلى مَالَقَة، فوافاها سادِسَ شَوّال، وبرز إليه أهلُها في يومٍ مشهودٍ؛ احتفلوا له احتفالَ أيّام الزّينة سُروراً بمَقْدم السُلْطان، ودخولهم في إيالته. وأقام فيهم إلى خاتم سَنَتِه. ثمّ عَقَد عليها لعُمَر بن يَحْيَى ابن مُحَلّى من صَنائع دَوْلتهم، وأنزل معه المسالح[ب]، وزَيّان بن بو عَيّاد بن عبد الحَقّ في طائفة لنظره من أبطال بَني مَرِين، واسْتَوْصاه بمُحَمَّد بن إشْقَيْلُولَة[1]، وارْتحل إلى الجزيرة.

ثمّ أجاز إلى المَغْرب سنةَ سبعٍ وسبعين، وقد اهتزّت الدُّنْيا لقُدومه، وامتلأت

(أ) أ، ص: السلطان (ب) ظ: المشائخ

---

(1) تكرر ذكره في هذا الجزء من تاريخ ابن خلدون بإسقاط الألف في أوّله إلاّ في هذا الموضع؛ فهي مُثبتة.

القُلوبُ بما كيَفه الله من نَصْر المُسْلِمِين بالعُدْوَة، وعُلُوّ رايةِ السُّلْطان[أ] على كلّ رايـة. وعَظُمت لذلك مَوْجدة ابن الأحْمر، ونشأت الفتنةُ، كما نذكر.

الخَبَرُ عن تَظاهُرِ ابن الأحْمر والطَّاغيَة على مَنْع السُّلْطان أبي يوسُف من إجازةِ البَحْر، واصْطفاقِ يَغْمَراسَن بن زَيَّان معهم من وراء البَحْر على الأخذ بحُجْزَته عنهم، وواقعةِ السُّلْطان على يَغْمَراسَن بخَرْزُوزَة[1]

لمَّا أجاز أميرُ المُسْلِمِين إلى العُدْوَة إجازتَه الأولى، ولَقِيَ العَدُوَّ بإسْتِجَة، وقَتَل الله دُنُّنَّه[ب] بأيْدي عَسْكَره، وصَنَع له من الظُّهور والعزّ ما لا كفاءَ له، ارْتابَ[ج] ابنُ الأحْمر بمكانه، وبدا له من ذلك ما لم يحتسب، وظنَّ بأميرِ المُسْلِمِين الظُّنونَ، واعترض ذِكره شأن يوسُف بن تاشِفِين والمرابطين مع ابن عَبَّاد سُلْطانِ الأنْدَلُس، وأكّد ذلك عِندَه جُنوحُ الرُّؤساء من بَني إشْقَيْلُولَة وغيرِهم إليه، وانقيادهم لأمره، [فارتاب][د] بمكانه، وحذر غوائله، وتكدَّر الجوُّ بينهما.

وأجاز إجازتَه الثّانية، فانقبض ابنُ الأحْمر عن لقائه، ودارت بينهما مُخاطباتٌ شِعْريَّة في مَعْنى العِتاب على ألْسنة كُتّابهما، نَسْردها الآن.

(أ) ص: وعلق راية للسلطان (ب) ظ: دنونه، أ: دُنُّنُه، ص: دنونة، وقد أبقينا على رسمه للاسم كما تقدم. (ج) ص: أرقاب
(د) مكانها بياض في ظ، أ، ص، والمثبت أقرب لمُراد ابن خلدون

(1) تعرف اليوم بعين خرزوزة، مدينة مغربية تقع على بعد نحو عشرة كيلومترات من جبل أزرو.

فمن ذلك قصيدةٌ كتبها إليه ابنُ الأحمر سنةَ أربعٍ وسبعين بعد واقعة دُنُونُهْ، واعتزامه على[أ] الرُّجوع إلى المَغرب؛ لخاطبه بها ليلةَ الإقامة بالجزيرة حذراً من غائلة العَدُوّ، وينحو فيها مَنحى الاستعطاف، وهي من نَظْم كاتِبه أبي عَمْرو بن المُرابط[ب]:

[من الكامل]

[174 ب] / هَلْ من مُعينٍ في الهُدَى أو مُنْجِدِ ... [مـن مُـتْهِمٍ في الأرضِ أو مـن مُنْجِـدِ
هـذا الهُـدَى داعٍ فهلْ مـن مُسْعِـفٍ؟ ... بإجابَـــةٍ وإنابَـــةٍ أو مُــــسْعِدِ
هذي سَبيلُ الرُّشْـدِ قد وَضَحَتْ فهل ... بالعُـــدْوَتَينِ مـــن امـــرىءٍ مُـــسْتَرْشِدِ
يَرْجـــو النَّجـاةَ بِجَنَّـةِ الفِـــرْدَوْسِ أو ... يَخْـشى المـصيرَ إلى الجحـيمِ المُوقَـــدِ
يـا آمِـلَ النَّصْـرِ العَزيـزِ على العِدى ... أجِـــبِ الهُـــدى تَـسْعَدْ بـــه وتُؤَيَّـــدِ
سِــرُّ النَّجـاءِ إلـى النَّجـاةِ مُشَمِّـراً ... إنَّ الهُـــدى لَهْـوَ النَّجـاةُ لمـن هُـدِي
يـا مـن يقـولُ غـداً أتـوبُ ولا غَـداً ... ألَدَيْـــكَ عِـــلْمٌ أنْ تَعِـــيشَ إلى غَـــدِ
لا تَغْتَـــرِرْ بنَسيئـــةِ الأجَـلِ الّـذي ... إنْ لم يَجِـــئْ لك نَقْـــدُهُ فكـــأنْ قَـــدِ
سَفَـــرٌ عليـــكَ طويلـــةٌ أيّامُـــهُ ... لم تَـــسْتَعِدَّ لطـــولِهِ فاسْـــتَعْدِدِ
أوَ مـا عَلِمْـــتَ بأنَّـــهُ لا بُـدَّ مِـنْ ... زادٍ لـــكُلِّ مُـــــسافِرٍ فَـــتَزَوَّدِ
هـذا الجهـادُ رَئيسُ أعْمـــالِ التُّقَـى ... خُـــذْ منـــه زادَكَ لارتحالِـكَ تَسْعَـدِ

(أ) ظ، ص: عن (ب) اقتصر ناسخو الأصول الثلاثة على إيراد مطلع هذه القصيدة، وترك في نسختي (أ)، (ص) فراغاً لإدراجها في مكانها قدره ثلاث صفحات، وجاء النصّ في نسخة الأصل (ظ) متصلاً بما بعده، وتجاوز ابن أبي زرع الفاسي (الذخيرة السنية 163) عن إثباتها لطولها، فاضطررنا إلى مراجعة النُّسخ المتأخّرة التي أتت بها، وعنها أثبتنا هذا النصّ، والمخطوطات المعتمدة في قراءتها هي: الجزء السابع من نسخة الخزانة العامة رقم ق 46، والجزء السابع من ثلاث نسخ في الخزانة الحسنية، أرقامها: 8481، 8892، 10588

هذا الرِّباطُ بأرضِ أندلُسٍ فَرُحْ   مِنهُ لما[أ] يُرضي إلهَكَ واغتَدي

سَوَّدْتَ وَجْهَكَ بالمعاصي فَالْتَمِسْ   وَجْهاً لِلُقيا اللهِ غَيْرَ مُسَوَّدِ

وَامْحُ الخطايا بالدُّموعِ فرُبَّما   مَحَتِ الدُّموعُ خَطِيئَةَ المُتَعَمِّدِ

مَنْ ذا يَتوبُ لربِّهِ من ذَنْبِهِ   أو يَقْتَدي بِنَبِيِّهِ أو يَهْتَدي

من ذا يُطَهِّرُ نَفْسَهُ بعزيمَةٍ   مَشحوذةٍ في نَصْرِ دينِ مُحَمَّدِ

أَتعِزُّ من أرضِ العَدُوِّ مَدائِنٌ   واللهُ في أقطارِها لم يُعْبَدِ

وتَذِلُّ أرضُ المُسلِمينَ وتُبْتَلى   بمُثَلِّثينَ سَطَوْا بكُلِّ مُوَحِّدِ

كَمْ جامِعٍ فيها أُعيدَ كَنيسَةً   فاهْلَكْ عليهِ أسىً ولا تَتَجَلَّدِ

القِسُّ والنّاقُوسُ فَوقَ مَنارِهِ   والخَمْرُ والخِنْزيرُ وسْطَ المَسْجِدِ

أَسَفاً عليها أقْفَرَتْ صَلَواتُها   من قانِتينَ وراكِعينَ وسُجَّدِ

وتَعَوَّضَتْ منهم بكُلِّ مُعانِدٍ   مُستَكبِرٍ مُذْ كان لم يَتَشَهَّدِ

كَمْ من أسيرٍ عندَهُمْ وأسيرَةٍ   لكلَيهِما ابتُغِيَ الفِداءُ فما فُدي

كَمْ من عَقيلَةِ مَعْشَرٍ مَعْقولَةٍ   فيهمْ هَوَتْ لو أنَّها في مَلْحَدِ

كَمْ من وَليدٍ بَيْنَهُمْ قد وَدَّ مَنْ   وَلَداهُ وَدّا أنَّهُ لم يُولَدِ

كَمْ من تَقِيٍّ في السَّلاسِلِ موثَقٍ   يَبْكي لآخَرَ في الكُبولِ مُقَيَّدِ

وشهيدِ مُعْتَرَكٍ تَوَزَّعَهُ الرَّدى   ما بينَ حَدَّيْ ذابِلٍ ومُهَنَّدِ

(أ) ع (الخزانة العامة): بما

ضَجَّتْ ملائِكَةُ السَّماءِ لحالِهِمْ   وَرَثى لهم مَنْ قَلْبُهُ كالجَلْمَدِ
أفَلا تَذوبُ قُلوبُكُمْ إخوانَنا   مِمّا دَهانا مِن رَدىً أو مِن رَدِي
أفَلا تُراعونَ الأذِمَّةَ بيننا   مِن حُرْمَةٍ ومَحَبَّةٍ وتَوَدُّدِ
أكَذا يعيثُ الرُّوم في إخوانِكُمْ   وسُيوفُكُمْ للثَّأرِ لم تَتَقَلَّدِ
يا حَسْرَةً لحَمِيَّةِ الإسْلام قَدْ   خَمَدَتْ وكانَتْ قَبْلُ ذاتَ تَوَقُّدِ
أينَ العَزائِمُ ما لها لا تُنْتَضى   هَلْ يَقْطَعُ الهِنْدِيُّ غَيْرَ مُجَرَّدِ
أبَني مَرِينَ أنتُمُ جيرانُنا   وأحَقُّ مَن في صَرْخَةٍ بِهِمُ ابْتُدي
فالجارُ كانَ به يُوَصّي المُصْطَفى   جِبْريلُ حَقّاً في الصَّحيح المُسْنَدِ
أبَني مَرِينٍ والقَبائِلُ كُلُّها   في المَغْرِبِ الأدْنى لنا والأبْعَدِ
كُتِبَ الجِهادُ عليكُمُ فتَبادَروا   منه إلى الفَرْضِ الأحَقِّ الأوْكَدِ[1]
وارضوا بإحدى الحُسْنَيَيْنِ وأَقْرِضوا   حَسَناً تَفوزوا بالحِسان الخُرَّدِ
هذي الجِنانُ تَفَتَّحَتْ أبوابُها   والحورُ قاعِدَةٌ لكم بالمَرْصَدِ
مَنْ بائِعٌ مِن رَبِّه مِن مُشْتَرٍ   منه الحُصولَ على النَّعيم السَّرْمَدِ
للهِ في نَصْرِ الحنيفَةِ مَوْعِدٌ   صِدْقٌ فثوروا لانْتِجازِ المَوْعِدِ
هذي الثُّغورُ بكُمْ إليكُمْ تَشْتَكي   شَكْوى العَديم إلى الغَنِيِّ الأوْجَدِ
ما بالُ شَمْلِ المُسْلِمينَ مُبَدَّداً   فيها وشَمْلُ الكُفْرِ غَيْرُ مُبَدَّدِ
أنتُمْ جيوش اللهِ مِلْءُ فَضائِه   تأسون للدِّينِ الغَريبِ المُفْرَدِ

(1) سقط هذا البيت من نسخة الخزانة العامة (ع)

مـا ذا اعْتِذارُكُـــمُ غَـــداً لنَبِيِّكُـــمْ وطرِيـــقُ هـــذا العُـــذْرِ غَـــيْرُ مُمَهَّــدِ
إنْ قـالَ: لِـــمْ فَرَّطْتُــمْ فـــي أُمَّتـــي وتَرَكْتُمُـــوهُمْ للعَـــــدُوّ المُعْتَــــدي
تـاللهِ لـــو أنّ العُقوبَـةَ لـــم تُخِـــفْ لكفـى الحَيـا مِـــن وَجْـهِ ذاكَ الـسَّيِّدِ
إخوانَنـا صَلُّـــوا عليـــهِ وسَلِّمـــوا وسَـــلُوا الـــشَّفاعَةَ منـــهُ يـــومَ المَـــشْهَدِ
واسْعَـــوا لنُصْـــرَةِ دينِـــهِ يُسْقِيكُـمُ من حَوْضِـهِ في الحشْـرِ أعْذَبَ مَوْرِدِ][أ]

وصَدر جَوابها من نَظْم عَبْد العَزيز، شاعرِ السُّلْطان يَعْقُوب بن عبد الحَقّ بما نَصُّه:

لَبَّيْكَ لا تَخْشَ اعْتِداءَ المعتدي ... إلى آخرها.

وكذلك أجاب عنها ـ أيضاً ـ مالكُ بنُ المُرحّل بقوله:

شَهِدَ الإلهُ، وأنْتِ يا أرْضُ اشْهَدي ... إلى آخرها

فأجابهم أبو عَمْرو بنُ المُرابِط، كاتبُ ابن الأَحْمر، بقوله:

قُلْ للبُغَاةِ وللعُداةِ الحُسَّدِ ... إلى آخرها

ولمّا أجاز السُّلْطانُ يَعْقُوب بن عبد الحَقّ الإجازةَ الثّانية سنةَ ستٍّ وسبعين، كما نذكره، وصار ابنُ الأَحْمر إلى الاستعتاب والرّضى، ولَقِيَ يَعْقُوب بن عبد الحَقّ، فأنشدَ كاتبُه أبو عمرو بن المُرَابِط في يوم اجتماعها:

بُشْرى لحزبِ الله والإيمانِ ... إلى آخرها.

(أ) آخر السقط في ظ، أ، ص، ومن بعده تبتدئ نسخة ض وتلتحق مع بقيّة النسخ

ولمّا انقضى المجلس، أمرَ السُّلْطانُ شاعرَه(أ) عَبْدَ العَزيز بمساجلته قصيدته، وأنشدها ثاني المجلس بحضرة ابن الأحْمر، ونصّها:

اليومَ كُنْ في غِبطةٍ وأمانٍ ... إلى آخرها.

ثمّ كان أثناء ذلك ما وَقَع من استيلاء السُّلْطان يَعْقُوب بن عبد الحَقّ على مَدينة مَالَقَة والغَرْبيَّة، جلّ عمله بَعْد مَهْلِك صاحبها أبي مُحَمَّد بن إشْقَيْلُولَة، فبرم لذلك وخيل عليه، ففزع إلى مُداخلة الطَّاغِيَة في شأنه واتّصال يَدِه بيده، وأنْ يعودَ إلى مكانٍ أبيه من ولايته ليدافعَ به السُّلْطان وقَوْمه عن(ب) أرضه، ويأمن معه من زَوال سُلْطانه، لما كانت كَلمةُ الإسلام حجراً(ج) دونه؛ فاهتبل الطَّاغِيَةُ غرّتها(د)، وانتكث(هـ) عهد أمير المُسْلِمين، ونقض السّلْم، ونبذ إليه العَهْد، وأغزى(و) أساطيلَه الجزيرةَ الخضراء، حيث مسالح(ز) السُّلْطان وعَسْكَره، وأرست بالزُّقاق حيث فِراضُ الجواز، وانقطع المُسْلِمون من جُنود السُّلْطان وقَوْمه وراءَ البَحْر، ويئسوا من صَريخه. وانتبذ عُمَر بن يَحْيَى بن مُحَلّى عن قَوْمه بمكان إمارته من مَالَقَة.

[175 أ] وكان بنو مُحَلّى هؤلاء من كبار / قَوْمهم بَطُّويَة، وكانوا حُلفاء(ح) لبني حَمَامَة بن مُحَمَّد منذ دخولهم المَغْرب. وأصْهر عبد الحَقّ أبو الأملاك إلى أبيهم مُحَلّى في ابنته أم اليُمْن، فكان من وَلَده(ط) السُّلْطانُ يَعْقُوب بن عبد الحَقّ، وكانت امرأةً صالحةً،

(أ) ظ: لشاعره، ص، ض: بشاعره (ب) ظ، ص: على (ج) ص: حجزاً، ومهملة في ظ (د) ص: غربها، ومهملة في ظ (هـ) ظ، ص، ض: وانتكب (و) ظ: وأغزا أساطله، ص: وأغزا (ز) ظ: مشايخ (ح) ظ، ض: خلفاء (ط) ض: ولده منها

وخرجت إلى الحجّ سنةَ ثلاثٍ و أربعين، فقضت[أ] فريضةَ الله عليها، وعادت إلى المَغرب لرابعةٍ من السّنين سنةَ سبعٍ وأربعين، ثمّ خرجت ثانيةً سنة ثنتين وخمسين، فتطوَّعَتْ بحَجّةٍ أخرى، وهَلكَتْ بِمِصْر مُنْصَرفَها من ذلك النُّسك سنةَ ثلاثٍ وخمسين، فكان لبني مُحَلّى أبيها مكانٌ من الدّوْلَة ودالَّةٌ[ب] على السُّلْطان؛ لخؤولتهم ووَشائجِ[ج] قَرابتهم وغَنائهم في قَوْمِهم.

ولمّا استولى السُّلْطانُ على حَضْرة المُوَحِّدِين مَرّاكُش، عَقَدَ لمُحَمَّد بن علي بن مُحَلَّى على جَميع أعمالها، فكانت له في الاضطلاعِ[د] بها مَقاماتٌ مَحمودةٌ. واتَّصَلت أيّامُ ولايته عليها من لَدُن سنة ثمانٍ وستّين إلى سنة سَبْعٍ وثمانين، ثمّ كان مَهْلِكُه أيّامَ يوسُف بن يَعْقُوب، كما نذكر.

ولمّا نزع[هـ] مُحَمَّد بن إشْقَيْلُولَة إلى السُّلْطان بالجزيرة سنةَ ستٍّ وسبعين، مُتَجافياً له[و] عن ولاية مَالَقَة بعدَ وَفاةِ أبيه الرَّئيس أبي مُحَمَّد، واستولى السُّلْطانُ عليها، واعتزم على الإجازة، كما قدَّمْناه، عَقَدَ على مَالَقَة والغَرْبِيّة وسائرِ ثغورِها وأعمالها لعُمَر بن يَحْيَى بن مُحَلّى. وكان أخوهُ طَلْحَة بنُ يَحْيَى بن مُحَلّى ذا بأسٍ، وصَرامةٍ، وقوّةِ شكيمةٍ، واعتزازٍ على السُّلْطان بمكان الخؤولة، وهو الذي قتل يَعْقُوب بن [عبد الله بن][ز] عبد الحَقّ بغَبُولة سنةَ ثمانٍ وستّين، كما قلناه.

وظاهر فَتْح الله السَّدْراتيّ، مَوْلى السُّلْطان ووزيره، على قتالِ أبي العلى بن

(أ) ساقطة من أ (ب) ظ: ومالت (ج) ظ، أ: أو وشائج (د) ظ: الاضلاع (هـ) ظ: فرغ (و) ساقطة من ص
(ز) كتبت في ض ثم شطبت، ومثبتة بهامش أ بخطّه، ويوافق ما في الذخيرة السنية 121

أبي طَلْحَة بن أبي قريش، عاملِ المَغرب بكُدْيَة العَرائِس[1] من ظاهر فاس سنة ثنتين وستّين[2]، ونزع سنةَ أربعٍ وسبعين إلى جبل أَزَرُو[أ] عندَ مَرْجِع السُّلْطان من إجازته الأولى، فاستنزله ورجعه إلى محلّه[ب] من جملته. ثمّ نزع من / الجزيرة إلى غَرْنَاطَة سنةَ ستٍّ وسبعين عندَ مَرْجِع السُّلْطان من أمر مَالَقَة، وأجاز البَحْر إلى بلاد الرِّيف. ثمّ رَجَع إلى القِبْلَة، وأقام بين بَني تُوجِّين. ثمّ أجاز إلى الأنْدَلُس سنةَ سبعٍ وسبعين عندما اضطرم نارُ هذه الفِتْنَة بين السُّلْطانِ وبين ابن الأَحْمَر والطَّاغِيَة. واحتلّ[ج] أُسْطُول النَّصَارَى بالزُّقاق، وانقطعتْ عساكرُ السُّلْطانِ وراءَ البَحْر. وأحسَّ أخوه عُمَر صاحبُ مَالَقَة بإظلام الجوّ بينه وبين السُّلْطان، بما كان من أمرِ أخيه طَلْحَة من قبل، فلاطَفَه ابنُ الأَحْمر عندَ استقراره بغَرْنَاطَة في مُداخلةِ أخيه عُمَر في النُّزُول عن مَالَقَة، والاعتياض عنها بشُلُوْبانِيَة[3] والمُنَكَّب[4] طُعْمةً، وخاطبه في ذلك أخوه طَلْحَة فأجاب. وخرجَ ابن الأَحْمر بعَساكِره إلى

[175 ب]

(أ) ط، أ، ص: أزور، والمثبت من ض، وقد تقدّم التعليق عليه. (ب) ص: مجلسه (ج) ص: واختل

---

(1) الذخيرة السنية 121: كدية العرائش

(2) في الذخيرة السنية 121: سنة ثمان وستين

(3) سمّاها ياقوت في معجمه 3: 360: شَلو بِينْيَة، ومثله الحميري في الروض المعطار 343. والمثبت يوافق: معيار الاختيار 97، واللمحة البدرية 29، وفيه: "إقليم شُلوبانية، وفيه المعقل العظيم بشاطئ البحر، وفيه للسلطان قصور نبيهة وبساتين عظيمة"، والإحاطة 1: 112، ونفاضة الجراب 113، ونفح الطيب 4: 524، مقديش: نزهة الأنظار 1: 523 (وفيه بفتح الشين). وهي من الثغور الصغيرة الواقعة جنوبي ولاية غرناطة على البحر المتوسّط، على بعد نحو 15 كم من حصن المنكب، وتسمّى اليوم بالإسبانية Salobrena.

(4) المنكب: حصن قديم منيع من حصون مدينة البيرة، فيه آثار بنيان الأول، يقع جنوب شرقي الأندلس على ساحل البحر وله مرسى، ويسمى اليوم Almunecar . البكري: المسالك 2: 775، مجهول: ذكر بلاد الأندلس 69، 112، ابن الخطيب: معيار الاختيار 94، الحميري: الروض المعطار 548

مَالَقَة، وتقبّض عُمَر بن مُحَلّي على زَيّان ابن بو عَيّاد قائدِ بَني مَرِين، ومُحَمَّد بن إشْقَيْلُولَة، وأمْكَن ابن الأحْمر من البَلَد؛ فدَخَلها آخرَ رمضان من سَنَتِه.

وأنزل ابن مُحَلّي بشَلُوبانِيَة، واحتمل ذخيرته، وما كان السُّلْطانُ ائتمَنَه عليه من المال والعُدَد [الجهاديّة][أ]. واتّصَلت يَدُ ابنِ الأحْمر بيَدِ الطّاغِيَة على مَنْع أميرِ المُسْلِمين من الإجازة، وراسَلوا يَغْمَراسَن بن زَيّان من وراءِ البَحْر، وراسَلَهم في مشاقّة السُّلْطان، وإفسادِ ثُغورِه، وإنزال العَوائق به المانعة عن حَرَكته، والأخذ بأذيالِه عن النُّهوض إلى الجهاد.

وأسْنَوْا فيما بينهم الإتحاف والمهاداة. وجَنَّبَ يَغْمَراسَن إلى ابن الأحْمر ثلاثينَ من عِتاقِ الخيل، مع ثيابٍ من عَمَل الصُّوف [الرّائق][ب]، وبعث إليه ابنُ الأحْمر صُحْبَةَ [أبي] مروان البجانسيّ[ج] كِفاءَ ذلك عشرةَ آلاف دينار، فلم يرضَ بالمال في هديّته وردَّها. واصْطَفَقَتْ أيديهم جميعاً على السُّلْطان، ورَأَوْا أنْ قد بلغوا [في][د] إحْكامِ أمْرِهم وسَدّ مذاهبه إليهم.

واتّصل الخَبَرُ بأمير المُسْلِمين وهو بمَرّاكُش؛ كان صَمَدَ إليها مَرْجِعَه من الغَزْو في شهر المحرَّم فاتِحَ سَبْعٍ وسبعين، لما كان من عَيْث[هـ] العَرَب جُشَم / بتامَسْنا، [176ا] وإفسادهم السّابِلَة؛ فثقّف أطرافَها، وحَسَم أدواءها.

(أ) ساقطة من ظ (ب) مثبت بهامش أ بخطه، وأيضاً بهامش ض (ج) في الأصول كلها: ابن مروان، والتصويب من نفح الطيب 2: 690، وهو: عبد الملك بن إبراهيم بن بشر القيسيّ البجانسي، نسبة إلى بجانس: قريةٌ من قرى وادي آش. وجاءت نسبته في ظ، ض: البجانسي، ومهملة في ص. (د) ساقطة من ظ (هـ) ظ: غيث، ص: عبث

ولمّا بلغه خبرُ ابن مُحَلّى ومَالَقَة، ومُنازلةُ الطّاغِيَة للجزيرة، نَهَض لثالثة من شوّال يُريد طَنْجَة؛ ولمّا انتهى إلى تَامَسْنَا، وافاه الخَبَرُ بنُزولِ الطّاغِيَة على الجزيرة، وإحاطةِ عَساكره بها سادسَ شوّال، بَعْدَ أنْ كانت أساطيلُه منازلتها منذ ربيع، وأنّه مُشرف على التهامِها. وبعثوا إليه يَستعدونه، فاعتزم على الرَّحيل.

ثمّ اتّصل به الخَبَرُ بخروج مَسْعُود بن كانون أمير سُفْيان من جُشَم ببلادِ نفيس من المَصَامِدَة خامسَ ذي قَعْدَة، وأن النّاس اجتمعوا إليه من قَوْمه وغيرهم(أ). فكرَّ إليه راجعاً، وقدَّم بين يَدَيْه حافِدَه تَاشِفِين بن بو مالك، ووزيرَه يَحْيَى بن حازم، وجاء على ساقتهم، وفرّوا أمامَ جُيوشه، وانتهب معَسْكَرَهم وحِلَلَهم، واستَباح عربَ الحارث من سُفْيان. ولَحِقَ مَسْعُود بمعقل السَّكْسِيويّ(ب)، ونازله السُّلْطان بعَساكره أيّامَاً، وسرَّحَ ابنَه الأميرَ أبا زَيَّان مِنْدِيل إلى بلاد السُّوس لتَمْهيدها وتَدْويخ أقطارِها، فأوْغل في دِيارها، وقَفَل إلى أبيه خاتمَ سَنَتِه.

واتّصل بالسُّلْطان ما نالَ أهلَ الجزيرة من ضيقِ الحصار، وشدَّةِ القتال، وإعْواز الأقوات، وأنّهم قَتلوا الأصاغِرَ من أوْلادهم خشيةً عليهم من مَعرَّة الكُفْر، فأهمَّه ذلك، وأعْمل النَّظرَ فيه، وعَقَدَ لوَلِيّ عَهْدِه ابنه الأمير أبي يَعْقُوب من مَرَّاكُش على الغَزْو إليها. وأغزى الأساطيلَ في البَحْر إلى جهاد عَدُوّهم، فوَصَل إلى طَنْجَة لصَفَر من سنةِ ثمانٍ وسبعين، وأوْعَز إلى البلاد البَحْرِيّة لإعْدادِ الأساطيل للغَزاة بسَبْتَة

(أ) ص: من قومه وغيره !؟ (ب) ظ، ص، ض: السكسوي، ولعلّ نسبته لجبل سُكْسِيوة من جبال مراكش. سيأتي التعريف به وانظر أيضاً: وصف إفريقيا للوزان 1: 140

وطَنْجَة وسَلا، وقَسَّم الأُعْطِيات، وتوفَّرت هِمَمُ المُسْلِمِين على الجهاد، وصَدَقَتْ عَزائمُهم على الموت. وأبلى الفقيهُ أبو حاتم العَزَفيّ صاحب سَبْتَة ـ لمَّا بلغه خطابُ أمير المُسْلِمين في ذلك ـ البلاءَ الحَسَن، وقامَ فيه المقامَ المحمودَ، واسْتنفر كافَّةَ أهلِ بَلَدِه؛ فرَكِبوا البَحْرَ أجمعين من المُحتَلِم فما فوقه.

[176 ب] ورأى ابنُ الأحمر / ما نَزَل بالمُسْلِمين في الجزيرة، وإشراف الطَّاغية على أخذها، فندمَ على(أ) مُمالأته، ونبذ عَهْدَه، وأعدّ(ب) أساطيلَ سواحِلِه من المُنَكَّب والمَرِيّة(1) ومَالَقَة مَدداً للمُسْلمين. واجتمعت الأساطيلُ بمَرْفأ(ج) سَبْتَة تناهز السَّبعين؛ قد أخذت بطَرفَي الزُّقاق في أحْفل زَيّ، وأحْسن قوّة، وأكْمل عدّة، وأوفر عديد، وعَقَد لهم الأميرُ أبو يَعْقُوب رايَتَه، وأقْلَعوا عن طَنْجَة ثامنَ ربيع الأوّل، وانتشرت قلوعهم في البَحْر فأجازوه، وباتوا ليلةَ المولِد الكريم بمَرْسَى الجبل، وصَبَّحوا العَدُوَّ وأساطيلُهم تُناهزُ أربعمائة، فتَظاهروا في دُروعهم(د)، وأسْبغوا من شِكَّتهم(هـ)، وأخلصوا لله عَزائمَهم، وصَدَقوا مع الله نِيّاتِهم، وتَنادَوْا بالجنَّة شِعارهم، ووعظوا، وذكَّر خطباؤهم، والْتحم القتال، ونزل الصَّبْر، ولم يكُ(و) إلاّ كلاّ ولا حتّى نَضَحوا

(أ) ظ: في، ص: فقدم في (ب) ظ: وعد، أ: وأغزى (ج) ظ، ص، ض: بمرقا (د) ظ: ذروعهم (هـ) ظ، ص: سكتهم (و) أ: يكن

---

(1) في ص محرَّفة: المدية، وهذه مدينة بالجزائر، أما المريّة: فهي من مدن الأندلس الكبيرة، الواقعة في الجنوب الشرقي، أمر ببنائها عبد الرحمن الثالث سنة 344هـ، وبلغت أوج ازدهارها في عهد المرابطين، وتسمى بالإسبانية Almaria . ابن الخطيب: معيار الاختيار 100، الحميري: الروض المعطار 537، مقديش: نزهة الأنظار 1: 158، ليوبولد تورّس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية 99.

العَدُوَّ بالنَّبْل، فانكشفوا وتَساقطوا في العُباب، فاسْتَلْحَمهم[أ] السَّيف، وغَشِيَهم اليمُّ، ومَلَكَ المُسْلِمون أساطيلَهم، ودخلوا مَرَقَّ الجزيرة وفُرْضَتها عَنْوةً؛ فاختلَّ مُعَكسرُ الطَّاغِيَة، وداخَلَهم الرُّعْب مــن إجازة الأمير أبي يَعْقُوب ومَنْ معه من الحامية، فأفرج[ب] لحينه عن البَلَد. وانتشر النِّساء والصِّبْيان بساحَتِه، وغلبت المقاتِلة كثيراً من المَعَسْكَر على مُخَلَّفِهم؛ فغَنِموا من الحِنْطة، والأدم، والفواكه ما ملأ أسْواقَ البَلَد أيَّاماً، حتّى وَصَلَتْها المِيرَة من النَّواحي.

وأجاز الأميرُ أبو يَعْقُوب لحينه، فأرْهَب العَدُوَّ في كلِّ ناحيةٍ، وصدَّهُ عن الغَزْو إلى دارِ الحَرْب شأنُ الفِتْنَة مع ابن الأَحْمر، فرأى أنْ يعقَدَ مع الطَّاغِيَة سِلْماً، ويصلَ به لمنازلة غَرْنَاطَة يَداً، وأجابَه إلى ذلك الطَّاغِيَة رَهْبةً من بَأسِهم، وموجدةً على ابن الأَحْمر في مَدَدِ أهْلِ الجزيرة، وبعثَ أساقِفَتَه لعَقْد ذلك، فأجازهم الأميرُ أبو يَعْقُوب إلى أبيه أميرِ المُسْلِمين، فغَضب لها، ونَكِرَها على ابنه، وزَوَى عنه وَجْهَ رِضاه، ورجعهم إلى طاغِيَتِهم مُخْفقي السَّعْي.

[177أ] وأجاز أبو يَعْقُوب ابن السُّلْطان / إلى أبيه ومَعَه وَفْدُ[ج] أهل الجزيرة، فلقُوا السُّلْطانَ بمكانِه من بلاد السُّوس، وولَّى عليهم ابنَه أبا زَيَّان مِنْدِيل، فنزل بالجزيرة وأحْكم العُقْدَة مع الطَّاغِيَة. ونازل مَرْبَلَّة[1] من طاعة ابن الأَحْمر برّاً وبَحْراً، فامتنعت

(أ) ظ: واستلجمهم (ب) ظ: وأفرج (ج) ص، ض: رفد

(1) مربلة: مدينة صغيرة مما يلي مالقة من جهة الغرب على الساحل، بين جبل طارق (جبل الفتح) ومالقة، إلى الجنوب الشرقي من رُندة، والطريق بينها - حسب ابن بطوطة - صعبة شديدة الوعورة. وترد في المصادر الأندلسية بهذا الرسم، وتسمى في المصادر الإسبانية اليوم Marbella. ابن بطوطة: الرحلة 4: 218، الإحاطة 1: 26، 197، اللمحة البدرية 55، ابن الخطيب: معيار الاختيار 85، الحميري: الروض المعطار 534، المقري: نفح الطيب 6: 142، 314، المقري: أزهار الرياض 1: 196، مقديش: نزهة الأنظار 1: 162

عليه، ورَجَع إلى الجزيرة، وانضوى إليه أهلُ الحُصُون الغَربيَّة بطاعتهم حَذراً من الطَّاغِيَة، فتقبَّلَهم. ثمَّ جاءه المَدَدُ من الغرب، ونازل رُنْدَة، فامتنعت. والطَّاغِيَةُ أثناء ذلك يَجوسُ خِلالَ الأنْدَلُس، ويُنازِلُ[أ] ابن الأحْمر بغَرْنَاطَة مع بَني إشقِيْلُولَة وابن الدّليل. ثمَّ راجع ابن الأحْمر مُسَالمَةَ[ب] بَني مَرِين، وبعث لأبي زَيَّان ابن السُّلْطان بالصُّلح، واجتمع معه بأحْواز مَرْبَلَّة[ج]، كما نذكر بعد.

ولمَّا ارْتحل السُّلْطانُ من معَسْكَره على جَبَل السَّكْسِيويّ[1] يريدُ السُّوس، ثمَّ أغزى العَسَاكِر، ورجع من طَرِيقِه إلى مَرَّاكُش، حتَّى إذا انقضت غَزاة البَرْبَر قَفَل إلى فاس، وبعث خِطابَه إلى الآفاق مُستنفِراً للجهاد، وفَصَل في رجب من سنةِ ثمانٍ وسبعِين، حتَّى انتهى إلى طَنْجَة، وعايَن ما اختلَّ من أحْوال المُسْلِمين في تلك الفترة، وما جَرَّت إليه فتنة ابن الأحْمر من اعتزاز[د] الطَّاغِيَة، وما حدَّثته نفسُه من التهام الجزيرة الأنْدَلُسيَّة ومَنْ فيها. وظاهَرَه على ابن الأحْمر مُنافِسوه في رياسته بنو إشْقَيْلُولَة، فاستجرَّه الرَّئيس أبو الحسن بن أبي إسحاق صاحبُ وادي آش، ونازل معه غَرْنَاطَة - سنةَ تسعٍ وسبعِين - خمسة عشر يوماً؛ ثمَّ أفرجوا. ولَقِيَتهم عَساكر غَرْنَاطَة من زَنَاتَة بعد ذلك من سَنَتِهم، وعليهم طَلْحَةُ بنُ يَحْيَى بن مُحَلَّى، وتَاشِفِين بنُ

(أ) ظ: وتنازل (ب) ظ، ض: مسألة، ص: بمسألة (ج) ظ: مديلة، ومهملة في ص (د) ظ: اعزاز

---

(1) سمَّاه الوزان: جبل سكْسِيوة، جبل موحش شديد الارتفاع والبرد من جبال مراكش، ومنه منبع نهر أسيف نوال (إيمينتانوت). وصف فريقيا 1: 140

مَغط[أ] كبيرُ تيرْبيعِين بِحِصْن المُثِلين[ب]، فأظهَرَهم الله عليهم، وهَلَكَ من النَّصَارَى ما يُناهز سبعمائة من فُرسانهم، واستُشهد فيها من أغياص بَني مَرِين عُثمان بن مُحَمَّد ابن عبد الحَقّ. واستجرَّ الطَّاغِيَةَ سنةَ ثمانين بعدَها الرَّئيسُ أبو مُحَمَّد عَبْد الله أخو صاحِب وادي آش إلى مُنازلة غَرْنَاطَة، فنزلها الطَّاغِيَةُ، وأقام عليها أيَّاماً، ثمَّ ارتَحل وقد اعتزَّ عليهم.

[177 ب] وأشفق السُّلْطانُ على المُسْلِمين وعلى / ما نال ابنَ الأَحْمر من خَسْف الطَّاغِيَة، فراسَلَه في الموادعة واتِّفاق الكَلِمة، وشَرَط عليه النُّزُول عن مَالَقَة، فامتنع، فرجع السُّلْطان إلى إزالة العَوائق المانعة عن شأنه من الجهاد، وكان من أعظمِها فتنةُ يَغْمَرَاسَن[ج]. واستَيْقَن ما دارَ بينه وبين ابن الأَحْمر والطَّاغِيَة وابن أخي[د] أَذْفُونْش من الاتِّصال والإصفاق، فبَعَث إليه في تَجْديد الصُّلْح والاتِّفاق، فلَجَّ وكَشَفَ الوَجْهَ في العِنَادِ، وأعْلَنَ بما وَقَع بينه وبين أهْل العُدْوَة مُسْلِمِهم وكافِرِهم من الوُصْلة، وأنَّه مُعتَزِمٌ على وَطْءِ بلاد المَغْرب، فصَرَف أميرُ المُسْلِمين عَزْمَه إلى غَزْو يَغْمَرَاسَن. وقَفَل إلى فاس لثلاثةِ أشهرٍ من نُزُوله بطَنْجَة، فدَخَلها آخرَ شَوَّال، وأعاد الرُّسُلَ إلى يَغْمَرَاسَن لإقامَة الحُجَّة عليه، والتَّجنِّي[هـ] بمُسالَمَة[و] بَني تُوجِّينَ والتَّجافي عنهم لموالاتهم أميرِ المُسْلِمين. فقام يَغْمَرَاسَن في رَكائبه وقعد، ولجَّ في طُغيانه.

(أ) أ: مَنغطي (ب) ظ: المسلى ابن، وفي ص مهملة: الميلبي ابن، والمثبت من أ، ومن ض مضبوطاً، ويوافق جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى لابن عاصم 1: 311، 2: 29، (ورجَّح المحقّق أن يكون المقصود حصن مكلين Moclin شمال غرب غرناطة)، ومثله أيضاً في نفح الطيب 4: 518 (ج) في أ: ابن يغمراسن، ثم طمست (د) ظ، ص، ض: وابن أخ (هـ) ظ: والتحني، ومهملة في ص (و) (أ) ظ: بمسألة

وارتحل أميرُ المُسْلِمِين من فاس خاتمةَ سنة تسعٍ، وقدَّم ابنه أبا يَعْقُوب في العَسَاكر، وأدْركه بتَازَى. ولمَّا انتهى إلى مُلْويّة تلوَّم في انتظارِ العَسَاكر، ثمَّ ارْتحل إلى تامّة ثمّ إلى تافنا[أ]، وصَمَد إليه يَغْمَرَاسَن بحُشودِ زَنَاتَة والعَرَب[ب]، بحِلَلِهم وكافَّة ناجِعَتِهم، والْتَقَتْ عُيونُ القَوْم، فكانت بينهم حَرْبٌ. ورَكِب على آثارهما العَسْكَران، والْتَحَم القتَالُ. وكان الزَّحْف[ج] بخَرْزُوزَة[د] من مَلْعب تيفنى[هـ]. ورتَّبَ أميرُ المُسْلِمِين مَصَافَّه، وجَعَل كتيبتَه وكتيبةَ ابنِه الأميرِ أبي يَعْقُوب جَناحَيْن للعَسْكَرِ[و]. واشتدَّ القتَالُ سائرَ النَّهار، وانْكَشف بنو عَبْد الوَاد عندَما أراح القَوْم، وانتُهب جميعَ مُخَلَّفِهم وما كان في معَسْكَرِهم من المتَاع والكُراع والسِّلاح والفَساطِيط، وبات مُعَسْكَرَ أميرِ المُسْلِمِين لَيْلَتَهم في صَهواتِ خَيْلِهم، واتَّبعوا من الغَدِ آثارَ عَدُوِّهم، واكتَسحت أموال العَرَب النَّاجِعة الذين كانوا مع يَغْمَرَاسَن، وامتلأت أيْدي بَني مَرِين من نَعَمِهم وشائهم، ودَخلوا بلاد يَغْمَرَاسَن وزَنَاتَة، ووافاه هُنالِكَ مُحَمَّد بنُ عَبْد القويّ أميرُ بَني تُوجِّين، لَقِيَه بناحية / القَصَبَات، وعاثوا جميعاً في بلادِه نَهْباً [178أ] وتخريباً. ثمَّ أذِن لبَني تُوجِّين في اللّحاق ببلادِهم، وأخذ هو بمُخَنَّق تِلِمْسان مُتلوِّماً

(أ) ظ: تاقيا، وفي ص: تافنا مهملة الأول. وفي حديث البكري: المسالك 2: 747 ومؤلف الاستبصار 134 على مدينة أرشجول نهر تافنى الذي تقع عليه المدينة، وأنه نهر كبير تدخل فيه السفن، ولم يذكرا مدينة تحمل اسم النهر، ومثل ذلك عند الحميري (الروض المعطار 135) في الكلام على مدينة تلمسان، فذكر نهر تافنا، مدخله ومخرجه، دون الإشارة للمدينة أو البلد. ونهر تافنا: نهرٌ ينبع من جبل بني ورنيد قرب قرية سبدو جنوبي تلمسان، ويسيل باتجاه الشمال عبر صحراء أنكاد، ويصبّ في البحر المتوسّط قبالة جزيرة أرشكون [أرشكول]، غربي مرسى بني مصاف. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 359 حاشية (176)، 336، 391، وانظر أيضاً: الوزان: وصف إفريقيا 2: 16، 250 (وفيه: التافنة) (ب) ظ: والغرب (ج) ظ، أ: الحرب (د) ظ: بخرزورة (هـ) مهملة في ص، وعند ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 336: تافنا (و) ص: العسكر

لوُصول مُحَمَّد بنِ عَبْد القَويّ وقَوْمِه إلى مَنجاتِهم من جبل وَانْشَرِيس حَذراً عليهم من غائلة يَغْمَرَاسَن. ثمّ أفرَجَ عنها، وقَفَل إلى المَغرب، ودَخَل فاس شهرَ رمضان من سنةِ ثمانين. ثمّ نَهَض إلى مَرَّاكُش، فاحتلّ[أ] بها فاتحَ إحدى وثمانين بعدَها، وسَرَّحَ ابنَه الأميرَ أبا يَعْقُوب إلى السُّوس لتَدويخ أقْطاره. ووافاه بمَرَّاكُش صَرِيخُ الطَّاغِيَة[1] على ابنِه شَانْجُهْ[2] الخارجِ عليه، فاغتنمَ الفُرْصَةَ في فَسادِ بينهم لِقَضاء إربِه من الجهاد، وارْتَحلَ مُبادِراً بالإجازةِ إلى الأنْدَلُس.

الخَبَرُ عن إجازة السُّلْطان أبي يوسُف الثّالثة[ب] باسْتِدعاء الطَّاغِيَة لخُروجِ ابنِه شانجُهْ عليه، وافْتِراق كَلِمَة النَّصْرانيَّة، وما كان في هذه الإجازة من الغَزوات

لمَّا رَجَع السُّلْطانُ من غَزَاة تِلِمْسان إلى فاس، وارْتَحل إلى مَرَّاكُش، [وافاه][ج]

(أ) ص: فاختل (ب) أ: التالية (ج) ظ: وأقام

(1) المقصود: الفونش (ألفونسو) العاشر بن فرناندو الثالث، وكان ميّالاً للعلم، فاتّصل ببعض علماء الأندلس، مما أثار عليه السخط في مملكته، فخرج عليه ابنه المذكور. لكن ابن خلدون يقول في موضع آخر من كتابه العبر 7: ورقة 183 أ: "خالَفَ على هِرَّانْدُه ملك قَشْتَالَةَ هذا ابنُه شَانْجُه، فوَفَدَ هِرَّانْدُه ـ لعلّه فرانده ـ على يَعقُوب بنِ عبدِ الحقّ صَرِيخًا، وقبّلَ يدَه..". وهذا يجانب الواقع التاريخيّ. انظر نقاش هذا الأمر عند: الحجيّ: التاريخ الأندلسي 539، وأيضاً ابن الخطيب: الإحاطة 1: 564، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 337 (حاشية 179).

(2) كذا ضبطه في أ، وهو أقرب للفظة الأصليّة: شانصو، وهو سانشو الرابع بن ألفونسو العاشر، ملك الإسبان المُلقّب بالعالم والحكيم، ثار على أبيه وخلفه في الحكم (681 ـ 695هـ)، الحجي: التاريخ الأندلسيّ 526.

بها وَفْدُ الطَّاغِيَةِ من بَطارِقَتِه، وزُعماءِ دَوْلتِه، وقَوامِيس مِلَّتِه، صَرِيخاً على ابنِه شَانجُهْ، خَرَج عليه في طائفةٍ من النَّصارَى وغَلَبوه على أمْرِه، فاسْتَنْصر أميرَ المُسْلِمين منهم، ودَعاه لحَرْبِهم، وأمَّله لاسْترجاعِ مُلكه من أيديهم، فأجابَ أميرُ المُسْلِمين داعيَهم رجاءَ للكرَّة بافْتراقهم. وارْتَحل حتَّى انتهى إلى قَصْر المجاز، وأوْعَز إلى النَّاس بالنَّفير إلى الجهاد. وأجاز إلى الخضراء، فاحتلَّ[أ] بها لربيع الثاني من سنةِ إحدى وثمانين، واجتمعتْ إليه مَساخُ[ب] الثُّغور بالأنْدَلُس، وسارَ حتَّى نَزَل صَخْرَة عَبَّاد[ج]؛ فوافاه بها الطَّاغِيَةُ ذليلاً لعزِّ الإسلام مُؤمِّلاً صَريخَ السُّلْطان، فأكْبَر وِفادَتَه، وكَرَّم موصله، وعَظَّم قَدْرَه، وأمدَّه لنفقاتِه بمائة ألفٍ من مال المُسْلِمين؛ استَرهن فيها التَّاجَ الذَّخِيرَةَ[1] عندَ سَلَفِه، وبقِي بدارِهم فَخْراً للأعقاب لهذا العَهْد. ودَخَل معه دارَ الحرب غازياً حتَّى يُنازلَ قُرْطُبَة، وبها شَانجُهْ ابنُ الطَّاغِيَة الخارج [178 ب] عليه مع طائفته، فقاتلها أيّاماً، ثمَّ أفرجَ عنها، وتنقَّل في جِهاتِها ونَواحيها. / وارْتَحل إلى طُلَيْطِلَة، فعاثَ في جِهاتِها، وخَرَّب عُمْرانَها، حتَّى انتهى إلى حِصْن مَجْرِيط[2] من

(أ) ص: فاحتل (ب) ظ، أ: مشايخ (ج) ظ، ض: عناد، أ: عنّاد، والمثبت من ص، وهو الصواب، وهي من أحواز رُندة. انظر: أزهار الرياض 1: 61

(1) قوله: "الذَّخِيرَة"؛ لأنَّ هذا التاج ورثه ألفونسو العاشر عن آبائه، وتقدّم قول ابن خلدون (العبر 7: ورقة 183أ): "ورهنَ في المالِ التاجَ المعروفَ من ذخائرِ سَلَفِهم". وقال المقري (أزهار الرياض 1: 61): "ورهنَ عنده تاجه ذخيرة النَّصارى"، ووصف صاحب كتاب الأنيس المطرب ص337 هذا الموقف بدقَّة وتفصيل.

(2) مجريط: هي مدينة مدريد Madrid، من إقليم الشارات بالأندلس، يُنسب تأسيسها إلى الأمير محمد الأول بن عبد الرحمن الأموي، أسسها لسبب عسكري؛ لحماية وادي نهر تاجه ضد الحملات العسكرية النصرانية. وذكر الوزير الغساني أنها تسمى قشتالة الجديدة. انظر: مجهول: ذكر بلاد الأندلس 50، ياقوت: معجم البلدان 5: 58، الروض المعطار523، الوزير الغساني: رحلة الوزير 67 ـ 90، مقديش: نزهة الأنظار 1: 163، ليوبلدو تورّس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية 93 ـ

أقصى الثَّغر؛ فامتلأت أيْدي المُسْلِمِين، وضاقَ مُعَسْكَرُهُم بالغَنائم الّتي اسْتاقوها. وقَفَل إلى الجزيرةِ، فاحتلَّ[أ] بها لشَعْبان من سَنَتِه.

وكان عُمَر بنُ مُحَلّى نَزَع إلى طاعةِ السُّلْطان، فهمَّ به ابنُ الأَحْمر، ونبذ إليه عَهْدَه، وارْتَجع المُنَكَّبَ من يَدِه، ونازَلَه بعَساكِره فاتحَ هذه السَّنة. فجَهَّز السُّلْطانُ إليه لوصولِه الجزيرة أُسْطُولَه. وأفْرج ابنُ الأَحْمر عنه، فبادَر إلى السُّلْطان بطاعته. ووَصَل ببيعة شُلُوْبانيَة، فأبقاه فيها بدَعْوته. ثمَّ راجَعَ طاعةَ ابنِ الأَحْمر في شَوَّال من سَنَتِه، فتَقَبَّل فَيْئته، وأعاضَه عنها بالمُنَكَّب. إلى أنْ كان ما نذكره.

الخَبَرُ عن شأن السِّلْم مع ابن الأَحْمر، وتَجافي السُّلْطانِ له عن مَالَقَة، ثمَّ تَجَدُّد الغَزْو بعد ذلك[1]

لمَّا اتَّصلتْ يَدُ السُّلْطانِ بيَدِ الطَّاغِيَة، خَشِيَ ابنُ الأَحْمر غائلَتَه؛ فجَنَح إلى مُوالاةِ شانجُهْ الخارجِ على أبيه، ووَصَل يَدَه بيَدِه، وأكَّد له العَقْد على نَفْسه. واضْطرمت له الأنْدَلُس ناراً وفتنة، ولم يُغْنِ شانجُهْ عن ابن الأَحْمر شيئاً. ورَجَع السُّلْطانُ من غَزاته مع الطَّاغِيَة، وقد ظَهَر على ابنِه، فأجْمع على مُنازلة مَالَقَة؛ ونَهَض إليها من الجزيرة فاتحَ ثنتَين وثمانين، فتغلَّب على الحُصون الغَربيَّة[ب] كلِّها. ثمَّ أسف إلى مَالَقَة، فأناخَ عليها بعَساكِره، وضاقَ النِّطاقُ على ابن الأَحْمر، وبدا له

(أ) ص: فاختل (ب) أ: الغربية

---

(1) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 339

سوءَ المَغَبَّة في شأن مَالَقَة، ومُداخلة ابن مُحَلّي في الغَدْر بها، وأعْمل نَظَره في الخلاص من وَرْطتها. ولم[أ] يرَ لها إلاَّ وَليّ عَهْد السُّلْطان ابنَه أبا يعقُوب، فخاطَبه بمكانِه من المَغْرب مُستصرخاً لرَقْع[ب] هذا الخرق، وجَمْع كَلِمَة المُسْلِمين على عَدُوِّهم، فأجابه، واغتنم المثوبةَ في مَسْعاه. وأجازَ لشهرِ صَفَر، فوافى أميرَ المُسْلِمين بمُعَسْكَره على مَالَقَة، ورَغب منه السَّمح لابن الأحْمر عن شأن مَالَقَة والتَّجافي له عنها، فأسْعفَ رغبةَ ابنِه؛ لِمَا يُؤمِّل في ذلك من رضى الله في / جهادِ عَدُوِّه وإعْلاءِ [ا 179] كَلِمَته. وانعقَدَ السِّلْمُ، وانبسط أملُ ابنِ الأحْمر، وتجدَّدت عَزائم المُسْلِمين، وقَفَل السُّلْطانُ إلى الجزيرة، وبثَّ السَّرَايا في دارِ الحَرْب، فأوْغلوا وأثخنوا.

ثمَّ استأنَف الغَزْو بنفسِه إلى طُلَيْطِلَة، فخَرج من الجزيرة غازياً غُرَّة ربيع الثَّاني من سنة ثنتين وثمانين، حتَّى انتهى إلى قُرْطُبَة؛ فأثخنَ، وغَنِم، وخرَّب العُمْران، وافتتَح الحُصون. ثمَّ ارْتحل نحو البُرْت، وخَلَّف مُعَسْكَره بظاهرِ بيَّاسَة(1)، وأغَذَّ السَّيرَ في أرْض قَفْر. ولِلَيْلَتَيْن[ج] انتهى إلى البُرْت من نَواحي طُلَيْطِلَة، فسرَّح الخيلَ في البَسائط حتَّى تقرَّت جميع ما فيها. ولم ينتهِ إلى طُلَيْطِلَة؛ لتثاقُلِ النَّاس بكَثْرة الغنائم، وأثْخَن في القتل. وقَفَل على غيرِ طريقِه، فأثخن وخرَّب، وانتهى إلى أُبَّدَة، ووقَفَ بساحَتِها والعَدُوُّ مُنْحَجِرون[د]. ثمَّ رَجَع إلى مُعَسْكَره ببَيَّاسَة، وأراحَ ثلاثاً ينسفُ آثارَها، ويقتَلعُ شَجْراءها. وقَفَل إلى الجزيرة، فاحتلَّ بها شهر رجب، وقَسَّم

(أ) ظ، ص: فلم (ب) ظ، ص: لرفع (ج) ظ: وليلتين (د) ص: منحجزون

---

(1) بيّاسة Baeza: مدينة من الأندلس، أزلية متوسطة القدر، تقابل مدينة أبدة وبينها خمسة أميال في جنات متصلة، وهي ذات أسوار ومتاجر. مجهول: ذكر بلاد الأندلس 46، الحميري: الروض المعطار 121

الغَنائم، ونفل من الخُمس. وولّى على الجزيرة حافِدَه عيسى بنَ الأميرِ أبي مالك ابنه، فهَلَك شهيداً [في بعضِ الغَزوات][(أ)] لشَهْرَيْن من ولايته.

وأجاز السُّلطانُ غُرّة شعْبان إلى المَغرب، ومعه ابنُه أبو زَيّان مِنْدِيل، وأراحَ بطَنْجَة ثلاثاً، وأغَذَّ السَّيرَ إلى فاس، فاحتلَّ بها آخرَ شَعْبان. ولمَّا قَضى صِيامَه ونُسُكه، ارتَحل إلى مَرّاكُش لتَمْهيدها وتَفَقُّد أحوالها. وقسم من نظره لنَواحي سَلا وأَزَرُو[(ب)]، فأقامَ برِباط الفَتْح شَهْرَيْن اثنين. واحتلّ مَرّاكُش فاتِحَ ثلاثٍ وثمانين.

وبَلَغه مَهْلِك الطَّاغِيَة ابن أَذْفُونْش، وإجماع النَّصْرانيَّة على ابنه شانْجُهْ الخارِج عليه، فتحرَّكت إلى الجهادِ عَزائمُه، وسَرَّحَ الأميرَ أبا يَعْقُوب وليّ عَهْدِه بالعَسْكَر إلى بلاد السُّوس لغَزْوِ العَرَب وكَفِّ عادِيَتهم، ومَحْو آثارِ الخوارج المُنْتَزِين على الدَّوْلَة. فأجْفلوا أمامه، واتّبع آثارَهم إلى السّاقية الحمراء آخرَ العُمْرانِ من بلاد السُّوس، فهَلَكَ أكثرُ العَرَب في تلك القِفار مَسْغَبَةً وعَطَشاً[(1)].

وقَفَل لِمَا بلغه من اعْتلالِ أميرِ المُسْلِمين، ووَصَل إلى مَرّاكُش وقد أبلَّ، واعْتَزم على / الجهادِ والغَزْو شُكراً لله، كما نذكره. [179 ب]

(أ) عوضها في ظ: بالمعزى، ص: بالمعري، وشطبت الكلمة هذه من أ وكتب ابن خلدون بخطه في الهامش العبارة المشمولة بين حاصرتين، وكذلك بهامش ض. (ب) ص: وأزرد

(1) قال ابن أبي زرع في الأنيس المطرب 340: "وكان في ذلك العام قحط شديد، ولم يرَ الناس ماء إلاّ في آخر رمضان".

الخَبَرُ عن إجازةِ السُّلطان أبي يوسُف الرَّابعة، ومُحاصرةِ شَرِيش، وما تخلَّل ذلك من الغَزوات[1]

لمَّا اعتَزمَ أميرُ المُسلِمين على الإجازة، اعترَضَ جُنوده وحاشيته، وأزاحَ عِلَلهم، وبَعَث في قبائل المَغرب بالنَّفير، ونَهَض [من][أ] مَرَّاكُش في جُمادَى الآخرة لثلاثٍ وثمانين، واحتلَّ رِباطَ الفَتْح مُنتصفَ شعْبان، فقَضى به صَوْمَه ونُسُكه.

ثمَّ ارْتَحلَ إلى قَصْر مَصْمُودَة، وشَرَع في إجازة العَسَاكر والحشودِ من المُرْتَزِقَة[2] والمُطَّوِّعَة خاتمَ سَنَتِه، ثمَّ أجازَ البَحْر بنَفْسِه، غُرَّة صَفَر من سنةِ أربعٍ بعدَها، واحتلَّ بطَرِيف، ثمَّ سار منها إلى الخضراء، وأراحَ أيَّاماً، ثمَّ خَرَج غازياً، حتَّى انتهى إلى وادلك[3]، وسَرَّحَ الخيولَ في بلادِ العَدُوِّ وبَسائطها؛ تَغيرُ وتَحرقُ وتَنْسف.

فلمَّا خَرَّب بلادَ النَّصرانيَّة، ودمَّرَ أرْضَهم، قَصَد مدينةَ شَرِيش، فنَزل بساحَتِها وأناخَ عليها، وبثَّ السَّرَايا والغاراتِ في جميع نَواحيها. وبَعَث عن [المسالح][ب] التي كانت بالثُّغور، فتَوافَت لديه. ولَحِقَ حافده عُمَر بن أبي مالك بجَمْعٍ وافرٍ من المُجاهدين من أهْلِ المَغْرب فُرْساناً ورِجالاً، ووافته حصَّةُ العَزَفيِّ [من سَبْتَة][ج]

(أ) ظ: إلى (ب) ظ: المشايخ (ج) ظ: في سنته، ض: من سنته، وفي الاستقصا 3: 59: حصة العزفي صاحب سبتة

---

(1) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 341

(2) المرتزقة: الجيش النظامي الذي يتقاضى أفراده الرزق.

(3) وادلك: وادي لك، سمّاه الحميري: "وادي لكه"؛ من أودية مدينة شذونة، يلتقي مع وادي فرطانة بقرية قرسانة. وإلى الغرب منه يقع حصن شنت بيطر، ومنه شريهم، وكانت عليه قنطرة عظيمة من ثلاثين قوساً. مجهول: ذكر بلاد الأندلس 64 ـ 65، الروض المعطار 606

غزاة ناشِئة تُناهز [خمسمائة][أ] من الرَّجْل. وأوْعَز إلى وَلِيِّ عَهْده الأميرِ أبي يَعْقُوب باسْتِنفارِ مَنْ بَقِي بالعُدْوَة من المُسْلِمين إلى الجهاد. وعَقَد لحافِدِه الآخر منصور بن عَبْد الوَاحِد على ألفِ فارسٍ من الغُزاة، وأعطاه الرَّايَة وسَرَّحه لغَزْو إشْبيلِيَّة لآخر صَفَر من سَنَتِه، فغَنِموا، ومَرّوا بقَرْمُونَة[1] في مُنْصَرفهم، فاسْتَباحوها، وأثْخنوا بالقَتْل والإسار، ورَجَعوا وقد امتلأت أيديهم من الغَنائم.

وبَعَث وزيرَه[2] مُحَمَّد بن عَطُّو، ومُحَمَّد بن عِمْران بن عبلة عُيوناً، فوافَوْا حِصْنَ القَناطر[3] ورُوْطَة، واستكشفوا ضَعْفَ الحاميةِ واختلالِ الثُّغور، فعَقَد ثانيةً لحافِدِه عُمَر بن عَبْد الوَاحِد على مثلها من الفُرْسان لثالثةٍ من رَبيع، وأعطاه الرَّايَة، وسَرَّحَه إلى بَسائط وادلك، فرَجَعوا من الغَنائم بما ملأ العَسَاكِر، بعدَ أنْ أثْخنوا فيها بالقَتْل، والتَّخريب، وتَحْريق الزَّرْع[ب]، / واقْتلاع الثِّمار، وأبادوا عُمْرانها. [180أ]

ثمَّ سَرَّح - ثامنَ ربيعٍ - عَسْكَراً للإغارة[ج] على حِصْن أركش[4]. ووافوه على غِرَّة، فاكْتَسحوا أمْوالَهم. ثمَّ عَقَد تاسعَ ربيعٍ لابنه أبي معرف على ألفٍ من الفُرْسان، وسَرَّحَه لغَزْو إشْبيلِيَّة، فسار حتَّى يقفَ[د] عليها، وانْحَجرت[هـ] منه حامِيَتُها،

(أ) مكانها بياض في ظ (ب) ص، ض: الزروع (ج) ظ، ص: عسكر الإغارة (د) ص: تقف (هـ) ظ، أ، ص: وانحجزت

---

(1) قرمونة Carmona: مدينة من مدن إشبيلية المتوسطة. مجهول: ذكر بلاد الأندلس 10، 61

(2) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 341: وزيريه

(3) سمّاه مؤلف كتاب ذكر بلاد الأندلس 65: حصن القناطير، وهو وحصن روطة من حصون مدينة شذونة

(4) أركش: حصن قديم (أزلي) من حصون مدينة شذونة، منيع على رأس جبل عال، عُرف قديماً بقلعة النسور. مجهول: ذكر بلاد الأندلس 64، مقديش: نزهة الأنظار 1: 160

فخرّب[أ] عُمْرانها وحرّق زَرْعَها[ب] وقَطَع شَجْراءها، وامتلأت أيدي عَسكَره سَبْياً وأموالاً، ورَجَع إلى معَسْكَرِ السُّلْطان مملوءَ الحقائب.

ثمّ عَقَدَ ثالثةً لحافِده عُمَر مُنتصفَ ربيعٍ لغَزْو حِصْنٍ كان بالقُرْب من مُعَسْكَره، وسَرَّحَ معه الرَّجْل من النَّاشِبة[ج] والفَعَلة بالآلات، وأمدَّه بالرَّجْل من المَصَامِدَة وغُزاة سَبْتَة، فاقتحموه عَنوةً على أهْلِه، وقَتَلوا المقاتِلة، وسَبَوُا النِّسَاء والذُّرِّيَّة، وأضْرعوا خدّه بالتُّرْب.

ولسبع عشرة من الشَّهر رَكِب السُّلْطانُ إلى حِصْن سقوط[د] قريباً من مُعَسْكَره، فخرَّبه، وحرقه بالنَّار، واستباحه، وقَتَل مُقاتِلَته، وسَبى أهْلَه.

ولعشرين من شَهْرِه وَصَل وليُّ عَهْدِه الأميرُ أبو يَعْقُوب من العُدْوَة بنَفيرِ أهْلِ المَغْرب وكافَّة القبائل، في جُيوشٍ ضَخْمة وعَسَاكِرَ مَوْفورة، [و]ركب[هـ] أميرُ المُسْلِمين لِلِقائهم وبروز[و] مُقَدَّمهم. واعترض العَسَاكِرَ الموافية يومئذٍ، فكانت ثلاثةَ عشرَ ألفاً من المَصَامِدَة، وثمانيةَ آلافٍ من بَرابِرة المَغْرب؛ مُتَطوِّعون كلّهم بالجهاد، فعَقَد له السُّلْطانُ على خمسةِ آلافٍ من المُرْتَزِقَة، وألفين من المُطَّوِّعَة، وثلاثة عشر ألفاً من الرَّجْل، وألفين من النَّاشِبة، وسَرَّحه لغَزْو إشْبيلِيَة والإثْخان في نَواحيها، فعبَّأ كَتائبه ونَهَض لوَجْهه، وبثَّ الغاراتِ بين يَدَيْه، فأثْخنوا، وسَبوا، وقَتَلوا، واقتحموا الحُصونَ،

(أ) ظ: فخربت (ب) أ، ص، ض: زروعها (ج) ص: الناشية (د) ظ: هنقوط، بإهمال الثاني، أ: سنشقوط، ص: سقوط، ض: منتقوط، وفي الإحاطة 2: 125: حصن مسقوط، والاستقصا 3: 60: حصن مرنقوط، وهو قريب من مرسية.
(هـ) سقطت الواو من ظ (و) أ: وبرور

واكْتَسحوا الأموال. وعاج على الشّرف[1] والغابة[أ] [من بَسيط إشبيلِيَّة، فنَسف قُراها نَسْفاً، واقْتحم من حُصونها عدَّة][ب]، وقَفَل إلى مُعَسْكَر أمير المُسْلِمين ظاهراً عزيزاً غانماً.

ولسادس ربيعِ الثَّاني وَصَل الأميرُ أبو زَيَّان مِنْدِيل من طَرِيف بعَسْكَرٍ وافر من المُسْلِمين، [180 ب] فعَقَد له غَداةَ وُصولِه، وأمدَّه بعَسْكر آخر، وأغْزاه قَرْمُونَة والوادَ الكبير، فأغارَ على قَرْمُونَة، وطَمِعت حاميتُها في المدافعة، فبرَزوا له، وصَدَقهم القتالَ، فانْكَشفوا[ج] حتّى أَحْجَروهم[د] في البَلَد، ثمَّ أحاطوا ببرجٍ كان قريباً من البَلَد، فقاتلوه ساعةً من نهار واقْتحموه عَنْوةً، ولم يَزَل يتقرَّى المنازلَ والعُمْران / حتّى وَقَف بساحةِ إشْبيلِيَّة، فأغار، واكْتَسح، واقْتحم بُرْجاً كان هُنالِك عيناً على المُسْلِمين وأضْرمه ناراً، وامتلأت أيدي عَساكِره، وقَفَل إلى مُعَسكَر[هـ] أميرِ المُسْلِمين.

ولثلاث عشرةَ من ربيعِ الثَّاني عقد[و] للأمير أبي يَعْقُوب لمنازلَة جَزيرة كبْتور[ز]، فصَمَد إليها، وقاتَلَها، واقْتَحمها عَنْوةً.

(أ) ظ: والغاية، ومهملة في ص، ض والمثبت من أ ويوافق الاستقصا 3: 60 (ب) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ج) ظ: فكشفوا (د) أ: جحروهم (هـ) أ: معسكره (و) ظ، ص، ض: عقدا (ز) في ظ، ص: كيوتر، بإهمال التاء، في أ: كبوتر، ض: كيوتر، والمثبت من ذكر بلاد الأندلس لمجهول 11، وابن أبي زرع: الأنيس المطرب 355. وجزيرة كبْتور أو قبتور: من جزر المحيط الغربي، وقال صاحب كتاب ذكر بلاد الأندلس (ص 61): "لو جعل في جزيرتي قبطيل وقبتور سرح الأندلس أجمع لم يحتج إلى غيرها"

---

(1) سيأتي تالياً ذكر إقليم الشرف وجباله من إشبيلية، والإقليم على تلّ عال من تراب أحمر، مسافته أربعون ميلاً في مثلها، يمشي بها السائر في ظل الزيتون والتين، ولا تكاد تشمس منه بقعة لالتفاف زيتونه واشتباك أغصانه. البكري: المسالك 2: 905، الحميري: الروض المعطار 59، 339، المقري: نفح الطيب 1: 159، مقديش: نزهة الأنظار 1: 161

وفي ثاني جُمَادَى عقد لطَلْحَة بن يَحْيَى بن مُحَلّى. وكان بعد مُداخلته أخاه عُمَر في شأن مَالَقَة سنةَ خمسٍ وسبعين، خَرَج إلى الحَجّ، فقَضَى فَرْضَه ورَجَع، ومرّ في طَريقه بتُونِس، واتَّهمه الدَّعِيّ ابن أبي عمارة، كان بها[أ] يومئذٍ، فاعْتقله سنةَ ثنتَين وثمانين، ثمّ سرَّحه، ولَحِق بقَوْمه بالمَغرب. ثمّ أجاز إلى الأنْدلُس غازياً في رِكاب السُّلطانِ، فعقَد له في هذه الغَزَاة على مائتَين من الفُرْسان، وسَرَّحه إلى إشْبيلِيَّة ليكونَ ربَة للمُعَسْكَر. وبعَث معه لذلك عُيوناً من اليَهُود والمعاهِدين من النَّصارَى؛ يتعرَّفُونَ له أخبارَ الطَّاغِيَة شانجُه، وأميرُ المُسْلِمين أثناء ذلك يُغادي شَريش ويُراوِحُها بالقتال والتَّخريب ونسف الآثار، ويبثّ السَّرَايا كلَّ يوم وليلة في بلاد العَدُوّ؛ فلا يخلو يوماً عن تَجْهيز عَسْكَر، أو إغزاء جَيْش، أو عقْد راية، أو بَعْث سريَّةٍ، حتَّى انْتَسف العُمْرانَ في جميع بلادِ النَّصْرانيَّة، وخرَّب بَسائط إشْبيلِيَّة، ولَبْلَة[1]، وقَرْمُونَة، وإسْتِجَة، وجبال الشرف، وجميع بسائط الفُرُنْتِيرَة.

وأبلى في هذه الغَزوات عَيَّادٌ العاصميّ من شُيوخ جُشَم، وخضر الغزيّ[ب] أميرُ الأكراد[2] بلاءً عظيماً، وكان لهم فيها ذِكر، وكذلك غُزاة سَبْتَة وسائر المجاهدين والعَرَب

(أ) ظ: فيها، وساقطة من آ (ب) كذا في ظ، ويوافق الاستقصا 3: 61، وفي آ، ض: الفُرّي أو الغُزّي، ص: العربي

---

(1) ظ، ص: وليلة. ولبلة Niebla: وتسمى المدينة الحمراء، مدينة قديمة تقع غرب قرطبة وشرق شلب، ولها إقليم عظيم، وقرى تزيد على ألف قرية، بينها وبين إشبيلية أربعون ميلاً كلها عامرة بالقرى والحصون والبروج. مجهول: ذكر بلاد الأندلس 59 -، الروض المعطار 507

(2) يبدو أن هؤلاء الأكراد قد قدموا إلى المغرب الإسلاميّ هروباً من التتر، كما يقول ابن خلدون: "... الأكراد الذين وفد رؤساؤهم على ملوك المغرب أيام أجلاهم التتر عن أوطانهم بشهرزور عند تغلبهم على بغداد سنة 656هـ".

من جُشَم وغيرِهم. فلمّا دَمَّرها تَدْميراً، ونسفها تخريباً، واكتسحها غارةً ونَهْباً، وزحَمَ فَصْل الشِّتَاء، وانقطعت المِيرَة عن المَعَسْكَر[ا]؛ اعتزم على القُفول، وأفرج عن شَرِيش لآخر رجب. ووافاه مَدَدُ غَرْنَاطَة من عَساكر الغُزاة، وقائدُهم يعلى بن أبي عياد بن عبد الحَقّ بوادي بردة[ب]، فلقاهم مَبرَّةً وتكريماً، وانقلبوا إلى أهْلهم.

واتَّصَل بـه أنَّ العَـدُوَّ أوْعـز إلى أسـاطيلِه باخـتلال الزُّقـاق والاعـتراض دونَ الفِـرَاض[ج]، فـأوْعَز أمـيرُ المُـسْلِمين إلى جَميـع سَـواحِلِه مـن سَـبْتَة[د]، وطَنْجَـة، والمُنَكَّب، والجزيرة، وطَرِيف، وبلاد الرِّيف، ورِباط الفَتْح. واستدعى أساطيلَه، فتوافَت منها سـتَّة / وثلاثـون أُسْـطُولاً متكاملة في عُـدَّتها وعَديـدها، فأحجمـت [181 أ] أساطيلُ العَدُوّ عنها، وارْتَدَّت على أعقابها. واحتلَّ بالجزيرة غُرَّة رمضان، واسْتَيْقن الطَّاغِيَة شَانجُهْ وأهلُ مِلَّته أنَّ بلادَهم قد فَنِيَت، وأرْضَهم خَرِبت، وتبيَّنوا العَجزَ عن المُدافعة والحماية؛ فجَنَحوا إلى السَّلْم، وضَرَعوا إلى أميرِ المُسْلِمين في كفّ عاديته عنهم، على ما نذكر.

ووَصَل إلى السُّلْطانِ بمكانِه من مُنازلة شَرِيش عُمَر بنُ أبي[هـ] يَحْيَى بن مُحَلَّى نازعاً إلى طاعته، فاتَّهمه لِمَا سبق من تَلاعُبه، وأمَرَ أخاه طَلْحَة فنكبه، واحتُمل إلى طَرِيف، فاعْتُقل بها.

وسار طَلْحَة إلى المُنَكَّب، فاسْتَصْفى أمْوالَ أخيه عُمَر وذخائره، وحملها إلى

(ا) ظ: العسكر (ب) في أ مضبوطاً: وادي بَرْدُة (ج) ظ، ض: القراض (د) ظ: من ستّه (هـ) طمست في أ

السُّلطان. وأقرَّ نائبه[أ] أخاه موسى على عَمَلِه بالمُنَكَّب، وأمدَّه[ب] بعَسْكَر من الرَّجْل. ثمَّ أطْلَق عُمَرَ لِلَيالٍ من اعتقاله. وأجاز طَلْحَة وعُمَر في رِكاب السُّلطان. ونَزَع منصور بن أبي مالك حافِد السُّلطان إلى غَرْنَاطَة، ثمَّ لَحِق منها بالمُنَكَّب، وأقام مع موسى بن يَحْيَى بن مُحَلَّى، فأقرَّه السُّلطانُ ورَضي بمقامه.

الخَبَرُ عن وِفادة الطَّاغِيَة شَانجُهُ، وانعقاد السَّلْم، ومَهْلك السُّلْطان على تفيئة ذلك[I]

لمَّا نَزَل بأُمَم النَّصْرانيَّة في بلادِ ابن أَذْفُونْش من أميرِ المُسْلِمين ما نَزل؛ من تَدْمير قُراهم، واكْتِساح أموالهم، وسَبْي نِسائهم، وإبادة مُقاتِلَتِهم، وتخريب مَعاقلهم، وانْتِساف عُمْرانهم، زاغت منهم الأبصار، وبَلَغت القُلوبُ الحناجِر، واسْتَيْقنوا أنْ لا عاصِمَ من أميرِ المُسْلِمين، فاجْتمعوا إلى طاغيتهم شَانجُهُ ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌ﴾ [القلم، من الآية 43، والمعارج، من الآية 44] يتوجَّعون[ج] مما أذاقهم جنودُ الله من سوءِ العَذاب وأليم النَّكَال. وحَملوه على الضَّراعة إلى أميرِ المُسْلِمين في السِّلْم، وإيفاد[د] الملإِ من كِبار[هـ] النَّصْرانيَّة عليه في ذلك، وإلاَّ فلا تزالُ تصيبهم منه قارعة، أو تحلّ قريباً من دارهم[2]؛ فأجاب إلى ما دعوه إليه من الخَسْف والهضيمة لدينه[و].

(أ) ص: ثانية (ب) أ: وأيده (ج) ظ: يتوجفون (د) ص: وإنقاذ (هـ) ظ: كفار (و) ظ: والهضمة لديه

---

(1) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 358، والاستقصا 3: 62 نقلاً عن ابن خلدون

(2) اقتباس من قوله تعالى في الآية 31 من سورة الرعد: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾

وأوْفد على أميرِ المُسْلِمين وَفداً من بَطارِقتهم، وقَمامِسَتهم، وأساقِفَتهم يخطبون السّلْمَ، ويَضْرعون في المهادَنةِ والإبقاء، / ووَضْع أوْزار الحَرْب، فرَدَّهم أميرُ المُسْلِمين اعتزازاً عليهم. ثمّ أعادهم الطّاغِيَة بترديد الرَّغبة، على أنْ يشترِطَ ما شاء من عزّ دينه وقَوْمه، فأسْعَفهم أميرُ المُسْلِمين، وجَنَح إلى السّلْم لمّا تيقّن صاغيتَهم[أ] إليه، وذلّهم لعزّ الإسلام، وأجابهم إلى ما سألوه، واشترط عليهم ما تقبّلوه[ب]؛ من مُسالمة المُسْلِمين كافّةً من قَوْمه [وغير قَوْمه][ج]، والوُقوف عندَ مَرْضاته في ولاية جيرانه من المُلوك أو عَداوتهم، ورَفْع الضَّريبة عن تُجّار المُسْلِمين بدارِ الحَرْب من بلاده، وتَرْك التَّضْريب بين مُلوك المُسْلِمين والدُّخول بينهم في فِتْنة. وبَعَث ثِقَتَه عبد الحَقّ ابن التُّرْجُمان[1] لاشتراط ذلك وإحْكام عقده، فاسْتَبْلغ وأكّد في الوفاء. [181 ب]

ووَفَدت رُسُل ابن الأحْمر على الطّاغِيَة، وهو عندَه لعَقْد السّلْم معه دون أميرِ المُسْلِمين وعلى مُدافعته عنه، فأحْضَرهم بمَشْهد ابن التُّرْجُمان، وأسْمعهم ما عقد لأميرِ المُسْلِمين على قَوْمه وأهْل مِلّته، وقال لهم: إنّما أنتم عَبيدُ[د] آبائي؛ فلَسْتم معي في مقامِ السّلْم أو الحَرْب، وهذا مَلِكُ المُسْلِمين، ولستُ أطيق مُقاومته ولا دفاعه عنكم، فانصرفوا[هـ].

(أ) ظ، ص: طاغيتهم (ب) ص: يقبلوه (ج) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (د) ظ: عبيدة (هـ) ظ: وانصرفوا

---

(1) في الأنيس المطرب 359: الشيخ عبد الحقّ الترجمان. وأورد ابن أبي زرع الفاسيّ الخطاب الذي خاطب به الرّهبان أمير المسلمين يعقوب. وقد أرسل الأمير يعقوب إلى سانشو (شانجه الطاغية) عبد الحقّ التُّرجمان يخبره بموافقته على السلم بشروط فصّلها الفاسيّ؛ أهمّها عدم التّدخل بين ملوك المسلمين، وأورد الفاسي نصّ الحديث الطويل الذي دار بين شانجه والترجمان.

ولمَّا رأى عبد الحقّ صاغيته[أ] إلى مَرْضاة السُّلْطان، وَسْوَسَ إليه بالوِفادة؛ لتتمكَّنَ الأُلفةُ، وتَستحكمُ العُقْدة، وأراه مَغَبَّةَ ذلك في سلّ السَّخيمة، وتسكين الحفيظة، وتمكين الألفة، فصَغى إلى وِفاقه. وسأل لُقيَّ الأمير أبي يَعْقوب وَليِّ عَهْده من قبل؛ ليطمئنَّ[ب] قلبه، فوَصل إليه، ولَقِيَه على فَراسِخ من شَرِيش، وباتا بمُعَسْكَرِ المُسْلِمين هُنالِك، ثمَّ ارتَحلا من الغدِ لِلقاء أميرِ المُسْلِمين، وقد أمرَ النَّاسَ بالاحتفالِ لِلقاء الطَّاغِيَة وقَوْمه، وإظهار شِعار الإسلام وأُبَّهته، فاحتفلوا وتأهَّبوا، وأظْهروا عِزَّ المِلَّة، وشِدَّة الشَّوْكة، ووُفور الحامية.

ولَقِيَه أميرُ المُسْلِمين بأحْسن مَبَرَّة، وأتمّ كَرامة يلقى بها مثله من عُظماء المِلَل. وقدَّم الطَّاغِيَةُ بين يَدَيْه هديَّةً أتحفَ بها أميرَ المُسْلِمين وابنَه من طُرَفِ[ج] بلادِه، كان فيها: زَوْجٌ من الحيوان الوَحْشيّ المسمَّى بالفيل، وحِمارةٌ من حُمُر الوَحْش، إلى غير ذلك من الطُّرَفِ[د]؛ تقبَّلها السُّلْطانُ وابنُه، وقابَلوه بكِفائها ومُضاعفتها. وكَمُل عَقْدُ السِّلْم، وتقبَّل الطَّاغِيَةُ سائرَ الشُّروط، ورَضيَ بعِزّ الإسلام عليه، وانقلبَ إلى قَوْمه بملء صَدْره من الرِّضى والمسَرَّة. / وسألَ منه أميرُ المُسْلِمين أنْ يَبْعثَ من [182أ] كُتب العِلْم التي بأيدي النَّصارَى من لدن اسْتيلائهم على مَدائن الإسلام، فاستكثَرَ من أصْنافِها في ثلاثة عشر حملاً بعث بها إليه، فوَقَفَها السُّلْطانُ بمَدْرَستِه التي أسَّسها بفاس لطَلَب العِلْم(1).

(أ) ظ: طاغيته (ب) ص: لتطمين (ج) ص: ظرف (د) ص: الظرف

(1) ذكر ابن أبي زرع الفاسي (الأنيس المطرب 363) بعض عناوين الكتب الموقوفة في المدرسة. وقد وقع اكتشاف هذه الصناديق في خزانة جامع القرويين في ثلاثينيات القرن العشرين. انظر: تاريخ المكتبات الإسلامية ومَن ألف في الكتب لأحمد شوقي بنبين وعبد القادر سعود 84 (الهامش 1)

وقَفَل أميرُ المُسْلِمين إلى الجزيرة لِلَيْلَتَيْن بقيتا لرمَضان، فقَضى صَوْمَه ونُسُكَه، وجَعَل من قيامِ لَيْلِهِ جزءاً لمحاضرة أهْلِ العِلْم. وأعدَّ الشُّعراءُ كلماتٍ أنشدوها يومَ الفِطْر بمَشْهد الملإ في مَجْلس أميرِ المسلمين، وكان من أسْبقهم في ذلك الميدان شاعرُ الدَّوْلَة عَزُّوز المكناسيّ(ا)؛ ذكر فيها سِير أميرِ المُسْلِمين وغَزواته على نَسق.

ثمّ أعْمَلَ أميرُ المُسْلِمين نَظَرَه في الثُّغور، فرتَّبَ بها المسالحَ(ب)، وعَقَد عليها لابنِه الأميرِ أبي زَيَّان مِنْدِيل، وأنزله بذَكوان(ج)؛ مقربة مَالَقَة، واسْتوصاه بأنْ لا يُحدث في بلاد ابن الأحْمر حَدَثاً. وعَقَد لعياد(د) بن أبي عياد(هـ) العاصميّ على مَسْلحةٍ أخرى، وأنزله بإصْطبُّونَةَ(1). وأجاز ابنَه الأميرَ أبا يَعْقُوب لتفقُّد أحْوالِ المَغْرب ومُباشرة أمورِه، فأجازَ في أسْطُولِ القائد مُحَمَّد بنِ أبي القاسم الرُّنْداحيّ(2) قائد سَبْتَة، وأوْعَز

(ا) ظ: المكاسي، وفي الأنيس المطرب 364 (ومثله الاستقصا 3: 64): عبد العزيز المكناسيّ الدار، المزوزيّ النجار. وأورد ابن أبي زرع الفاسيّ قصيدته تلك بطولها (220 بيتاً)، وفيها تمجيد أعمال الأمير وانتصاراته، وذكر مفاخر بني مرين والعرب. (ب) ظ: المشايخ (ج) في ض بالمهملة: دكوان. ومثله عند مؤلف كتاب ذكر بلاد الأندلس 68، والمثبت يوافق الإحاطة 2: 28، معيار الاختيار 128، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 373، ويذكر ابن عذارى (البيان المغرب 2: 189): أن تشييد الحصن كان في سنة 308هـ، ومرّ به ابن بطوطة ووصفه في كتاب رحلته، وأنه "حصن حسن كثير المياه والأشجار والفواكه"، وأشار محقّق الرّحلة أنه المعروف اليوم بكوين Coin على بعد 40 كم غربي مدينة مالقة. ابن بطوطة: تحفة النظّار 4: 229. (د) ظ، ص: لعباد (هـ) ظ، ص: عباد

(1) الضبط من ظ، وعند ابن الخطيب: الإحاطة 3: 75، ومعيار الاختيار 83، والكتيبة الكامنة 72 بالسين: إسطبونة، وهي ثغر صغير يقع على ساحل البحر المتوسّط، جنوبي غرب مالقة، وشمالي جبل طارق (جبل الفتح)، على مقربة من مربلة، وذكرها مؤلف كتاب ذكر بلاد الأندلس 68: "إصطبة" من مدن رية (وهي مالقة). وتسمّى اليوم بالإسبانية Estepona

(2) ذكره ابن أبي زرع الفاسي في الأنيس المطرب: الرجراجي

إليه بالبناء على قَبْر أبيه أبي المُلوك عبد الحقّ، ولقيه[أ] إدْرِيس بتافَرْطَسْت[ب]، فاختطَّ هُنالِك رِباطاً، وبنى على قُبورهم أسْنِمةً من الرُّخام، ونَقَشها بالكتاب، ورتَّبَ عليها قُرَّاءَ لتلاوةِ القرآن، ووَقَف على ذلك ضِياعاً وفدناً.

وهَلَكَ خلال ذلك وزيرُه يَحْيَى بن أبي مِنْدِيل العَسْكَري لمنتصف رَمضان.

ثمَّ اعتلّ أميرُ المُسْلِمين بعدَ ذلك لشهر ذي الحِجَّة، ومَرِض واشتدَّ وَجَعُه، وهَلَكَ لآخر مُحرَّم سنة خمسٍ وثمانين وستّمائة[1].

الخَبَرُ عن دَوْلَة السُّلْطان أبي يَعْقُوب[2]، وما كان فيها من الأحداث، وشأن الخوارج لأوّل دَوْلته

لمَّا اعتلَّ أميرُ المُسْلِمين أبو يوسُف بالجزيرة مَرَّضَهُ نِساؤه، وطيَّرنَ الخَبَرَ إلى وَلِيّ العَهْد الأميرِ أبي يَعْقُوب وهو بمكانِه من المَغْرب، فأغذَّ[ج] السَّيْر. وقَضى أميرُ المُسْلِمين قَبل وُصولِه، فأخَذ له البَيْعَةَ على النَّاس وُزراءُ أبيه وعُظَماءُ قَوْمه. وأجازَ / [182 ب] إليهم البَحْر، فجَدَّدوا بَيْعته غُرَّةَ صَفَر [من][د] سنةِ خمسٍ وثمانين، وأخذوها على الكافَّة. وانْعَقَد أمرُ السُّلْطان يومئذٍ، ففَرَّق الأمْوال، وأجْزل الصِّلات، وسَرَّحَ

(أ) ظ، أ، ص: ولقبه. والمثبت من ض (ب) الضبط من أ (ج) ظ: وأغذ (د) ساقطة من ظ

(1) حُمل إلى رباط الفتح ودُفن بمقابر ملوك بني مرين بشالّة، وما تزال رخامة قبره محفوظة بمتحف الجزائر. انظر: سلا ورباط الفتح 2: 132

(2) ابن الأحمر: روضة النسرين 30، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 374

السُّجونَ، ورَفَع عن النَّاس الأخذَ بزكاة الفِطْر، ووكَّلهم فيها إلى أماناتهم[1]، وقَبَض أيدي العُمَّال عن الظُّلْم والاعْتداء والجوْر على الرَّعَايَا، ورَفَع المكوسَ، ومَحا رُسومَ الرّتب، وصَرَف اعتناءه إلى إصْلاحِ السَّابِلَة.

وكان أوَّل شيءٍ أحدث من أمره أنْ بَعَث عن ابن الأحْمر وضَرَب موعداً لِلقائه، فبادَر إليه، ولَقِيَه بظاهِر مربالة لأوَّل ربيع، ولقاه مَبرَّةً وتَكْريماً، وتَجافَى له عن جميع الثُّغور الأندَلُسيَّة التي كانت لمملكته ما عَدا الجزيرة وطَرِيف. وتفرَّقا من مكانهما[أ] على أكْمل حالاتِ المُصافاة والوُصْلة، ورَجَع السُّلْطان إلى الجزيرة. ووافاه بها وَفْدُ الطَّاغِيَة شَانْجُهْ، مُجَدِّدين حُكْم السِّلْمِ الذي عَقَد له أميرُ المُسْلِمين ـ عفا الله عنه ـ فأجابهم.

ولمَّا تمهَّد أمرُ الأنْدَلُس، وفَرَغ عن النَّظر فيها، عَقَد لأخيه أبي عطيَّة العبَّاس على الثُّغور الغَربيَّة والإمارة عليها. وعَقَد لعليّ بن يوسُف بن يَزْكَاسن[ب] على مَسالِحها، وأمدَّه بثلاثة آلافٍ من عَساكِره. وأجازَ إلى المَغْرب، فاحتلَّ بقَصْر مَصْمُودَة[2] سابع ربيع الثاني. ثمَّ ارْتحل إلى فاس، واحتلَّ بها لثنتي عشرة خَلَت من جُمَادَى.

ولحِين اسْتقرارِه بدار مُلْكه، خَرَج عليه مُحَمَّد بن إدْريس بن عبد الحَقّ في إخوته وبَنِيه وذويهم، ولَحِق بجبال وَرْغَة[3]، ودَعا لنَفْسه. وسَرَّحَ إليهم السُّلْطانُ أخاه

(أ) ظ: مالكهما (ب) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 376: يرتاجن، والناصري: الاستقصا 3: 66: يزكاتن

---

(1) وقال: "من وجب عليه أداؤها يتصدَّق بها لنفسه حيث شاء". ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 375

(2) الأنيس المطرب: قصر المجاز

(3) ص: ورغة. وجبال ورغة بالمغرب قرب مدينة مليلة، وهي الجبال التي يخرج منها نهر ورغة. ابن الخطيب: الإحاطة 4: 78، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 377، مجهول: الاستبصار 136، 190، الحميري: الروض المعطار 134، 577

أبا معرف، فبدا له في النزوع إليهم، ولحق بهم؛ فأغزاهم السُّلْطان عَساكِره، وردَّد إليهم البُعوث والكَتائب. وتلطَّف في استنزال أخيه، فنَزَل عن الخِلاف، وعاد إلى أحسن طاعته. وفرَّ أولادُ إدْرِيس إلى تِلِمْسان، وتقبَّض عليهم أثناء طريقهم. وسَرَّحَ السُّلْطانُ أخاه أبا زَيّان إلى تَازَى، وأوْعَز إليه [بقَتْلهم][أ]، فقَتَلهم بمليلى[ب] خارج تَازَى لرجب من سنة خمس وثمانين.

[183] ورهب الأعْياص[ج] عندَ ذلك من بادِرة السُّلْطانِ، ففرِقوا[د] / ولَحِقوا بغَرْنَاطَة أولاد أبي العُلَى[1] إدْرِيس بن عَبْد الله بن عبد الحَقّ، وأولاد أبي يَحْيَى ابن عبد الحَقّ، وأولاد عُثْمان بن يزول. ورَجَع أولادُ أبي يَحْيَى إلى السُّلْطانِ بعد انقضاء عَهْده وأمانِه.

وهَلَكَ أخوه مُحَمَّد أجلَّيد بن يَعْقُوب بن عبد الحَقّ لشَعْبان من سَنَتِه. وهَلَكَ عُمَر ابن أخيه أبي مالك بطَنْجَة.

ثمَّ خَرَج على السُّلْطانِ عُمَر بن عُثْمان بن يوسُف العَسْكَرِيّ[2] [من وَلَد خَلُوف ابن عَسْكَر الذي كان صاحبُ فَنْدَلاوَة منهم، فخالف][هـ] بقَلْعة فَنْدَلاوَة[3]، ونَبَذ الطَّاعَة، وأذِن بالحَرْب. وأوْعَز السُّلْطان إلى بَني عَسْكَر ومَن إليهم من القبائل

(أ) ساقطة من ظ، ص (ب) أ، ص، ض: بلمسلي (ج) ظ، ص: الأعياص (د) كذا في ظ، أ، ص، وفي ض: ففروا
(هـ) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، ص، ومثبت بهامش أ، ض بخط ابن خلدون

(1) تختلف النسخ في رسمها بين: العليّ والعُلى والعلاء، حيثما يرد ذكر ابن أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق أو ذكر أحد أبنائه، وقد اعتمدنا الرسم الذي كتبه ابن خلدون مضبوطاً في مشجَّر نسبهم وفيه: بُولُعُلَى

(2) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 377: الهسكوري.

(3) ظ: قندلاوة، وقلعة فندلاوة في جبال بني يازغة، وذكر ياقوت "فِندلاو" بكسر أوله، وقال: أظنّه بالمغرب؛ ينسب إليه يوسف بن دُرناس الفندلاوي المغربي أبو الحجاج".

المجاورين لها، فاحتشدوا له ونازلوه. ثمَّ نَهَض بركابه وعَساكِره إلى مُنازلته، واحتلَّ بِبَنْدُوْرَة[ا]. وخافه عُمَر على نَفْسه، وأيقن أنْ قد أحيط به؛ فسأل الأمان؛ وبَذله السُّلطانُ على شَرِيطَةِ اللَّحاق بتِلِمسان، فبَعَث مَن توثَّق له من الخِيرة، فنزل؛ فوفى له السُّلطانُ بعَهْده، ولحق بتِلِمسان بأهْله ووَلَده.

ثم ارتحل السُّلطان في [رمضان من][ب] سَنَتِه إلى مَرَّاكُش لتَمْهيد أنحائها، وتَثقيف أطْرافها، واحتلَّ بها في شَوَّال، وأعْمَل النَّظر في مَصالحها. ونَزَع خلال ذلك طَلْحَةُ بنُ يَحْيَى بن مُحَلَّى البطويّ إلى بَني حسَّان من المَعْقِل، وخَرَج على السُّلطان ودعا لِنَفْسه.

وعَقَد السُّلطانُ لمنصور ابنِ أخيه أبي مالك على العَسَاكر، وعَهَد له بولاية السُّوس، وسَرَّحَه لاستنزالِ الخوارج، ومَحْوِ آثارِ الفَساد. وارْتابَ بمكانِ أخيه عُمَر [ابن مُحَلَّى][ج]، فغرَّبه إلى غَرْنَاطَة، فقتله أولادُ أبي العُلَى[د] يَوْمَ وُصولِه إليها، فسارَ الأميرُ مَنْصور في الجُيوش والكَتائب، وغزا عَرَبَ المَعْقِل وأثْخَن فيهم. وقتل طَلْحَة بن مُحَلَّى في بعض حُروبهم لثلاث عشرة من جُمَادَى سنة ستٍّ وثمانين، وبَعَث برأسه إلى سدّة السُّلطان، فعُلِّقَ بتَازَى.

ثمَّ نَهَض السُّلطانُ في رمضان لغَزْو المَعْقِل بصحراء دَرْعَة بما أضرُّوا العُمْران وأفسدوا السَّابِلَة؛ وسارَ إليهم في اثني عشر ألفاً من الفُرْسان. ومرّ على بلادِ

(ا) ظ: ببنذورة، وعند ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 377: قرية سدوره من بلاد وارثين. (ب) سقط ما بين الحاصرتين من ظ
(ج) زيادة من هامش أ بخط ابن خلدون (د) أ، ض: العُلى

هَسْكُورَة مُعْتَرِضاً جبل دَرَنْ[1]، وأدْرَكَهم بالقَفْر نواجعَ، فأثخن فيهم بالقَتْل والسَّبْي، واستكثر من رؤوسهم، فعُلِّقَتْ / بشُرفاتِ مَرَّاكُش وسِجِلْماسَة وفاس. [183 ب]

وعاد من غَزْوِه إلى مَرَّاكُش آخرَ شَوَّال، فنكبَ مُحَمَّد بن علي بن مُحَلَّى عاملَها القديم الولاية عليها من لدن غلب المُوَحِّدِين، لما وقع من الارتياب بأولاد مُحَلَّى بما أتاه كَبيرُهم طَلْحَة، فنُكب غُرَّةَ المُحرَّم من سنة سَبْع، وهَلَكَ في مَحْبِسه لشهر صَفَر بعده. وهَلَكَ على إثر ذلك المِزْوار[2] قاسم بن عَبُّو[أ]. وعَقَد السُّلطان على مَرَّاكُش وأعمالها لمُحَمَّد بن عَطُّو الجاناتيّ من موالي دَوْلتهم ولاء الحِلْف، وترك معه ابنه أبا عامر.

ثمّ ارْتحل إلى حَضْرة فاس، فاحتلَّ بها مُنتصفَ ربيع. ووافَتْه بها عِرْسُه بِنْتُ موسى بن رَحُّو[ب] بن عَبْد الله بن عبد الحَقّ من غَرْناطَة في وَفْدٍ من وُزراء ابن الأَحْمر وأهْل دَوْلَته، فأعْرَس بها؛ وكان بَعَث إلى أبيها من قَبْل في الإصْهار بها،

(أ) ظ: عَبو (ب) ظ، ص، ض: رخو

---

(1) هكذا يرد ضبطه في المصادر الجغرافية، وضبَطَه محقق كتاب التشوف إلى رجال التصوف (ص 155) بإسكان حروفه الثلاثة "دْرْنْ"، وعلّق في الحاشية رقم (59): ويسمى أدرارن، ويطلق عادة على الأطلس الكبير في غرب جنوب مراكش. ومبدؤه من البحر المحيط في أقصى السوس حتى يتصل بجبل نفُوسة، وذكره مؤلف الاستبصار 163: بأنه جبل المصامدة، الروض المعطار 234، مقديش: نزهة الأنظار 1: 58

(2) المِزوار: تسميةٌ معروفة في دول المغرب الإسلاميّ والأندلس، وتعني صاحب الحسبة، والمزوار في تونس ـ حسب قول الوزان ـ: هو ثاني المراتب في بلاط الملك، شبه القائد العام، وله السلطة المطلقة على الجنود والحرس الملكي. الوزان: وصف إفريقيا 2: 78، وانظر أيضاً ما كتبه عنها: بوزياني الدراجيّ في دراسته: "نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانيّة"، 137، وأيضاً: تاريخ الدولتين للزركشيّ 149، فيض العباب لابن الحاج النميريّ 93

ووافَت معها رُسُلُ ابن الأَحْمر يسألونه التَّجافِي عن وادي آش؛ فأسْعَفَهم بها، كما نذكر.

الخَبَرُ عن دُخولِ وادي آش(أ) في طاعة السُّلْطان، ثُمَّ رُجوعِها(ب) إلى طاعة ابن الأَحْمر

كان أبو الحسن بنُ إشقَيْلُولَة ظَهيرَ السُّلْطان ابن الأَحْمر على مُلكِه، ومُعينه على شأنه، وكان له في الدَّوْلَة بذلك مَكان. ولمَّا هَلَك، خَلَّف من الوَلَد أبا مُحَمَّد عَبْد الله، وأبا إسحاق إبراهيم، فعَقَد ابنُ الأَحْمر لأبي مُحَمَّد على مَالَقَة، ولأبي إسحاق على قُمَارِش ووادي آش(ج).

ولمَّا هَلَك السُّلْطانُ ابن الأَحْمر، حدثت مُغاضباتٌ ومُنافساتٌ بينهما وبينه، وتأدَّى ذلك إلى الفِتْنة، كما نَقَلْناه. ودَخَل أبو مُحَمَّد في طَاعَةِ السُّلْطان أبي يوسُف، ثمَّ هَلَك، فلَحِق ابنه مُحَمَّد بالسُّلْطان، ونَزَل له عن البَلَد سنة ستٍّ وسبعين.

ثمَّ هَلَك أبو اسحاق سنةَ ثنتَين وثمانين، وغَلَب ابنُ الأَحْمر على حِصْن قُمَارِش وصار إليه. وكان الرَّئيسُ أبو إسحاق قد عَقَد لابنِه أبي الحسن على وادي آش(د) وحُصونها، واتَّصلت الفِتْنَة بينه وبين ابن الأَحْمر، وظاهر أبو الحسن عليه الطَّاغِيَة، وأجْلَب أخوه أبو مُحَمَّد على غَرْنَاطَة هو وابن الدَّليل، وطالَ أمَدُ الفِتْنَة بينهم وبين

(أ) ظ، أ، ص: واداش (ب) ظ: رجوعهم (ج) ظ، أ، ص: واداش (د) ظ، أ، ص: واداش

ابن الأحمر، *وأجلب أخوه أبو مُحَمَّد على غَرْنَاطَة مع / الطَّاغِيَة*[أ]. [184أ]

ثمَّ انعَقد السِّلْمُ بين المُسْلِمِين والنَّصْرانيَّة، وخَشِيَ أبو الحسن بن إشْقَيْلُولَة على نَفْسه عادِيةَ ابن الأحمر، فتذمَّمَ بطاعَة صاحِب المَغْرب، وأقام دَعْوته بوادي آش[ب] سنة ستٍّ وثمانين، فلم يعرض [لها][ج] ابن الأحمر، حتَّى إذا وَقَعت المواصَلَة بينه وبين ابن السُّلْطان أبي يَعْقُوب وكان شأن هذا [الصِّهْر][د] على يَده، بَعَث[هـ] رسله إلى السُّلْطان يسأله التَّجافي عن وادي آش[و]، فتَجافى له عنها، وبَعَث إلى أبي الحسن بن إشْقَيْلُولَة بذلك؛ فتَرَكها. وارْتَحل إليه سنةَ سَبْع وثمانين، ولَقِيه بسَلا، فأعطاه القَصْر الكبير وأعمالَه طُعْمَةً سَوَّغه إيَّاها؛ [لم تَزَل][ز] لبنيه آخرَ دَوْلَتهم. واسْتَمكن ابنُ الأحمر في وادي آش[ح] وحُصونها، ولم يَبْقَ له بالأنْدَلُس مُنازِعٌ من قَرابته.

الخَبَرُ عن خُروج الأمير أبي عامر ونُزوعه إلى مَرَّاكُش، ثمَّ فَيْئَته إلى الطَّاعَة

لمَّا احتلَّ السُّلْطانُ بفاس وأقام بها، خَرَج عليه ابنُه أبو عامر، ولَحِق بمَرَّاكُش، ودَعا لِنَفْسه أخْرِيات شَوَّال من سنة سبعٍ وثمانين، وساعده على الخِلاف والانْتِزاء عامِلُها مُحَمَّد بن عَطُّو.

(أ) شطب ما بين النجمين في أ، وساقط من ض (ب) ظ، أ، ص: واداش (ج) ظ، ص: بها (د) ظ، ص: الظهر (هـ) أ: فبعث (و) ظ، أ، ص: واداش (ز) ظ، ص: ثم نزل، ض: فلم تزل، والمثبت من أ (ح) ظ، أ، ص: واداش

وخَرَج السُّلْطانُ في أثره إلى مَرَّاكُش، فبَرَز إلى لقائه، فكانت الدَّبْرَة[أ] عليهم، وحاصَرَهم السُّلْطان بمَرَّاكُش أيَّاماً. ثمَّ خَلص أبو عامر إلى بَيْت المال، فاسْتَصْفى ما فيه، وقَتَل المشرفَ ابن أبي البركات، ولَحِق بجبال المَصَامِدَة. ودَخل السُّلْطانُ من غَدِه إلى البَلَد يومَ عَرَفة، فعفا وسكَّن. ونَهَض منصور ابنُ أخيه الأمير أبي مالك من السُّوس إلى حَاحَةَ، فدوَّخَ أنحاءها، ثمَّ سَرَّح إليه المَدَدَ من مَرَّاكُش، فأوْقعوا بزُكْنَة من بَرابرة السُّوس، وقتل منهم ما يُناهز أربعين من سرواتهم، وكان فيمن قُتل شيخُهم حَيُّون بن إبراهيم.

ثمَّ إنَّ ابنَه أبا عامر ضاق ذَرْعُه بسخط أبيه وأجلابه[ب] في الخِلاف؛ فلَحِق بتِلِمْسان ومعه وزيرُه ابن عَطُّو فاتحَ سنةِ ثمانٍ وثمانين، فآواهم عُثْمان / بن يَغْمَرَاسَن، [184 ب] ومهَّد لهم المكان، ولبثوا عندَه أيَّاماً. ثمَّ عطفت السُّلْطانَ على ابنِه رَحِمٌ كما عطفت ابنَه عليه؛ فرضي عنه وأعاده إلى مكانه.

وطالب عُثْمان بن يَغْمَرَاسَن صاحب تِلِمْسان أنْ يُسلِّمَ إليه ابن عَطُّو النَّاجِمَ في النِّفاق مع [ابنه][ج]، فأبى من إضاعة جِواره وإخْفار ذمَّته، وأغْلَظ له الرَّسُول في القَوْل، فسَطا به واعْتقله، فثارت من السُّلْطانِ الحفائظُ الكامِنةُ، وتحرَّكت الإحَنُ القديمة والتِّرَاتُ [المتوارَثة][د]، واعْتزَم على غَزْو تِلِمْسان.

(أ) ظ: الدبرة، ص: الدائرة (ب) أ، ض: وجلائه، ص: وجلابه (ج) ساقطة من ظ (د) ظ: المتوائرة

الخَبَرُ عن تجدُّد الفِتْنَة مع عثمان بن يَغْمَرَاسَن، وغَزْوِ السُّلطان مدينة تِلِمْسان ومُنازَلته إيّاها

كانت الفِتْنَةُ بين هذين الحَيَّيْن قديمةً من لَدُن مَجالاتِهم بالقَفار من صَحْراء مُلْويَّة، إلى صا[1]، إلى فيكيك، إلى مَصاب[أ]. ولمّا تنقّلوا إلى التُّلول، وتغلّبوا على الضَّواحي بالمَغرب الأقْصَى والأوْسَط، لم تَزَل فِتْنَتُهم مُتَّصلةً، وأيّامُ حُروبهم فيها مذكورةً.

وكانت دَوْلَةُ المُوَحِّدِين، عندَ اعتلالها والتياثها، تَسْتَنْصر منهم بالتَّضْريب بينهم والفِتْنَة، فتأكَّدَت لذلك أحوالُها، واتَّصلت أيّامُها. وكان بين يَغْمَرَاسَن بن زَيّان وأبي يَحْيَى بن عبد الحَقّ فيها وَقائع ومَشاهد، نَقَلْنا منها بعضاً من كلّ. واستظهر المُوَحِّدُون بيَغْمَرَاسَن عليه في بَعْضها. وكان الغَلَبُ أكثر ما يكون لأبي يَحْيَى بن عبد الحَقّ؛ لوُفور قَبيلِه، إلاّ أنَّ يَغْمَرَاسَن كان يَتَصدَّى لمقاومته في سائر وَقائعه.

ولمّا طُمِس أثرُ بني عَبْد المُؤْمن، واستولى يَعْقُوب بنُ عبد الحَقّ على مُلْكهم، وصارَت في جُمْلته عَساكِرُهم، [تَضاعف غَلْبه][ب]، وأسَفَّ على ملك يَغْمَرَاسَن ملكه، وجَمَع له، فأوْقَع به في تلاغ الواقعة المعروفة، ثمّ أوْقع به ثانيةً وثالثةً.

ولمّا استَوَت قَدَمُ يَعْقُوب بن عبد الحَقّ في مُلْكه، واستَكْمل فَتْحَ المَغْرب وسائرِ أمْصاره، وكَبَح يَغْمَرَاسَن عن التَّطاوُل إلى مُقاومته، / وأوْهَن قُواه بفلِّ جُموعِه [1185]

(أ) في أ، ص، ض كتب الصاد في وسطها زاي (ب) ظ: فضاعف عليه، ص، ض: فضاعف غلبه

(1) كتبها ابن خلدون في أ، ص، ض: صاداً في وسطها زاي؛ لتُنطق مُشمَّةً بين الصاد والزاي.

ومُنازَلتِه في داره، ومُظاهَرة أقتالِه من زَناتة بني تُوجِّين ومَغْراوَة عليه، فانْصَرف بعدَ ذلك إلى الجِهاد، فكان له فيه شُغْلٌ عمَّا سِواه، كما نقلناه في أخباره.

ولمَّا ارْتاب ابنُ الأحْمر بمكان السُّلطانِ يَعْقُوب بن عبد الحَقّ من الأنْدَلُس، وحَذره على مُلكه، وتَظاهَر مع الطَّاغِيَة على مَنْعه من الإجازة إلى عُدْوَتِهم؛ خَشوا أنْ لا يِستقِلُّوا بمُدافَعَتِه؛ فراسَلوا يَغْمَراسَن في الأخْذ بحُجْزته، وأجابهم إليها، وجرَّد عَزائمه لها، واتَّصلت أيْديهم في التَّظاهر عليه.

ثمَّ فسد ما بين [ابن](أ) الأحْمر والطَّاغِيَة، ولم يكن له بُدٌّ من ولاية يَعْقُوب بن عَبْد الحقّ، فتَوَلَّاه بوَساطة(ب) ابنه يوسُف بن يَعْقُوب كما ذكَرْناه، وأطْلَعوه على خَبْءِ يَغْمَراسَن في مُظاهرتِهم، فأغْزاه سنةَ تَسعٍ وسَبعين، وهَزَمه بخَرزُوزة، ونازَله بتِلِمْسان، وأوْطأ عَدُوَّه من بَني تُوجِّين بساحته، كما ذكَرْناه، ثمَّ انْصرف إلى شأنه من الجهاد.

وهَلَك يَغْمَراسَن بن زَيَّان على تَفِيئة ذلك سنةَ إحدى وثمانين، وأوْصى ابنَه عُثْمان وَليَّ عهده - زعموا -: أنْ لا يُحدِّث نَفْسَه بمُقاومة بَني مَرِين ومُساماتِهم في الغَلَب، وأنْ لا يبرز إلى لقائهم بالصَّحْراء، وأنْ يلوذ منهم بالجدران(ج) متى سَموا إليه. وألْقى إليه - زعموا - أنَّ بَني مَرِين بعدَ تَغَلُّبهم على مَرَّاكُش، وانْضِياف(د) سُلْطانِ المُوَحِّدين إلى سُلْطانهم [ازدادت](هـ) قوَّتُهم، وتَضاعف غَلَبُهم، وقال له - زَعموا فيما

(أ) ساقطة من الأصول الأربعة. (ب) ص: بواسطة (ج) ظ: بالحذران (د) ظ: وانضاف (هـ) ظ، ص، ض: أن دارت، والمثبت من أ

أوْصاه ـ : "ولا يَغرنَّكَ أنّي زحفتُ بعدها إليهم، وبرزتُ إلى لقائهم؛ فإنّي أنِفتُ أنْ أرجعَ عن مُقاومَتِهم بعدَ اعْتيادِها، وأتركَ مُبارَزتهم وقد عَرَفها النّاس. وأنت فلا يُضيرك[أ] العَجْز عن مُبارزتهم، والنّكول عن لِقائهم، فليس لك في ذلك مقامٌ مَعْلومٌ، ولا عادةٌ سالفةٌ، واجْهد جهدَك في التَّغلُّب على إفْرِيقِيّة وراءك، فإنْ فعلت كانت المناهضة".

وهذه الوَصاةُ ـ زعموا ـ هي التي حَملت عُثْمان وبنيه من بعده على طَلَب مُلْك / [185 ب] إفْرِيقِيّة، ومُنازلته[ب] بِجَايَة، وحَرْبهم مع المُوَحِّدِين.

ولمَّا هَلَك يَغْمَرَاسَن ذَهَب عُثْمان ابنُه إلى مُسالمة بَني مَرِين، فبَعَث أخاه مُحَمَّداً إلى السُّلْطان يَعْقُوب بن عبد الحَقّ، وأجاز البَحْر إليه بالأنْدَلُس، ووافاه بأركش في إجازته الرَّابعة سنةَ أربعٍ وثمانين، فعقَد له ما جاء إليه من السّلْم والمهادَنة، ورجعه إلى أخيه وقومه مُمتلئاً كرامةً وسُروراً.

وهَلَك يَعْقُوب بن عبد الحَقّ إثر ذلك سنةَ خمسٍ وثمانين، وقامَ بالأمْر ابنُه يوسُف بن يَعْقُوب. وانْتَزى الخوارجُ عليه بكلّ جهة، فشمَّر لهم، واسْتَنْزلهم، وحَسَم أذواءهم.

ثمَّ خَرَج ابنُه عليه آخراً، كما ذكَرْناهُ، بمُالأة الشَّيْطان مُحَمَّد بن عَطُّو. ثمَّ فاء إلى طاعَة أبيه، ورَضي عنه، وأعاده إلى مَكانه من حَضْرته. وطالب عُثْمان ابن يَغْمَرَاسَن، كما ذكَرْناهُ، في ابن عَطُّو المُنْتَزي[ج] عليه مع ابنه، فأبى عُثْمان من

(أ) ظ، ص: يضرك (ب) ص: ومنازلة (ج) ظ: المنتزي

إسْلامه، وتحرَّكت حَفيظةُ السُّلطانِ، واعْتزمَ على غَزْوهم؛ فارْتحل من مَرَّاكُش لصَفَر من سنة تسعٍ وثمانين، وعقَد عليها لابنِه الأميرِ أبي عبد الرَّحمن.

ثمَّ نَهَض لغَزاته من فاس آخرَ ربيعٍ من سَنَتِه في عَساكِره وجُنوده، وحَشَد القبائل وكافَّةَ أهْل المَغرب، وسارَ حتَّى ينزلَ تِلِمْسان، فانْجَحر[أ] عُثْمان وقَوْمُه بها، ولاذوا منه بجدرانها، فسار في نَواحيها يَنسفُ الآثار، ويخرِّبُ العُمْران، ويُحطِّم الزَّرعَ. ثمَّ نَزَل بذراع الصَّابون من ساحَتها، ثمَّ انتقل منه إلى يَمامَةَ[ب]، وحاصَرها أربعين يوماً، وقَطَع شَجْراءها، وأباد غَضْراءها. ولمَّا امتنعت عليه، أفْرَج عنها، وانْكفأ راجعاً إلى المَغرب. وقضى نُسُكَ الفِطْر بعين الصَّفا من بلاد بَني يَزْناسَنَ[ج]، ونسك الأضْحَى وقُرْبانه بتَازَى، وتلبَّث بها، ومنها كان فُصولُه للغَزْو عندَ انتقاضِ الطَّاغِيَة، كما نذكره[د].

الخَبَرُ عن انْتقاضِ الطَّاغيَةِ، وإجازةِ السُّلْطانِ لغَزْوِه

[186 أ] لمَّا رَجَع السُّلْطانُ من غَزْو تِلِمْسان، وافاهُ الخَبَرُ بأنَّ الطَّاغِيَة شانْجُهْ / انْتقضَ ونَبَذ العَهْد، وتجاوَزَ التُّخومَ، وأغارَ على الثُّغور؛ فأوْعَز إلى قائدِ المسالح عليِّ بن يوسُف بن يَزْكَاسن[هـ] بالدُّخول إلى دارِ الحَرْب، ومُنازلة شَرِيش، وشنِّ الغاراتِ على بلادِ الطَّاغِيَة؛ فنَهَض لذلك في ربيعِ الآخر من سنة تسعين، وجاسَ خِلالَها، وتوغَّلَ في أقطارِها، وأبْلَغَ في النِّكايَة.

(أ) ظ، ص: فانحجز، والمثبت من أ، ض (ب) مهملة في ص. (ج) ظ، ص: يزناتن، وقد تقدم ذكر عين الصفا من بلاد بني يزناسن من نواحي تلمسان بالجزائر. (د) أ: نذكر (هـ) في الأصول الأربعة: ظ، أ، ص، ض: يزناسن، وابن أبي زرع: الأنيس المطرب 376: يرناجن، وسيأتي آخر الفصل: يزكاسن

وفَصَل السُّلْطانُ من تازَى غازياً على أثره في جُمادَى، واحْتَلَّ قَصْر مَصْمُودَة، واسْتَنْفر أهلَ المَغْرب وقبائله؛ ونفروا، وشَرَع في إجازتهم البَحْر. وبَعَث الطَّاغِيَة أساطيلَه إلى الزُّقاق حَجْزاً دونَ الإجازة، فأوْعَز السُّلْطانُ إلى قُوَّادِ أساطيلِه بالسَّواحل، فأغْزاهم. والْتَقت الأساطيلُ ببَحْر الزُّقاق في شَعْبان، فاقْتتلوا، وانْكَشف المُسْلِمون، ومَحَّصهُم الله.

ثمَّ أغْزاهم ثانيةً، وخامَتْ أساطيلُ العَدُوّ عن اللِّقاء، وصاعَدوا عن الزُّقاق، ومَلَكَته أساطيلُ السُّلْطانِ، فأجازَ أُخْريات رمضان، واحتَلَّ بطَرِيف. ثمَّ دَخَل دارَ الحَرْب غازياً، فنازَلَ حِصْن بُجَيْر[أ] ثلاثة أشهر، وضَيَّق عليهم، وبَثَّ السَّرَايا في أرْضِ العَدُوّ، ورَدَّدَ الغاراتِ على شَرِيش وإشْبيلِيَّة ونَواحيها إلى أنْ أبْلَغ في النِّكايَة والإثْخان، وقَضى من الجِهاد وَطراً. وزاحمَه فَصْل الشِّتاء وانقطاع المِيرَة عن المَعْسْكَر؛ فأفْرج عن الحِصْن، ورَجَع إلى الجزيرة. ثمَّ أجاز إلى المَغْرب فاتحَ إحدى وتسعين، فتظاهرَ ابنُ الأحْمر والطَّاغِيَة على مَنْعه الإجازة، كما نذكر.

الخَبَرُ عن انتقاض ابن الأحْمر، ومُظاهرته الطَّاغِيَة على طَرِيف، أعادَها الله

لمَّا قَفَل السُّلْطان من غزاته فاتحَ إحدى وتسعين، كما ذَكَرْناهُ، وقد أبْلَغ في نِكايَة العَدُوّ، وأثْخَن في بلادِه، فأهمَّ الطَّاغِيَةَ أمْرُه، وثَقُلَت عليه وَطْأته، والْتَمس الوَلِيجةَ

(أ) الضبط من أ

من دونه، وحَذر ابن الأحْمر غائلته، ورأى أنَّ مَغَبَّة حاله الاستيلاء على الأنْدَلُس وغلبه على أمْرِه، ففاوَض الطَّاغِيَة، وخلصوا نجيّاً. وتحدَّثوا أنَّ اسْتِمْكانه[أ] من الإجازة إليهم إنَّما هو بقُرب مَسافة[ب] بَحْر الزُّقاق، وانتظام ثُغور / [186 ب] المُسْلِمين حِفافَيْه تَتصرَّف[ج] شَوانيهم وسُفُنهم متى أرادوا فضلاً عن الأساطيل، وأنَّ أُمَّ تلك الثُّغور طَرِيف، وأنَّهم إذا اسْتَمْكنوا منها كانتْ رَبِيئَةً[1] لهم على بَحْر الزُّقاق، وكان أُسْطُولُهم من مَرْقبِها بمرصدٍ لأساطيل صاحِب المَغْرب الخائضين لجَّة ذلك البَحْر. فاعتَزم الطَّاغِيَةُ على مُنازلة طَرِيف، وزعم له ابنُ الأحْمر بمُظاهرته على ذلك، وشَرَط له المَدَدَ والمِيرَةَ لأقْواتِ العَسْكَر أيَّام مُنازلتها على أنْ تكونَ له إنْ خلصت[د]؛ وتعاوَنوا على ذلك، وأناخ الطَّاغِيَةُ بعَساكِر النَّصْرانيَّة على طَرِيف، وألحَّ عليها بالقتال، ونَصب الآلاتِ، وانقَطع عنها المَدَدُ والمِيرَة، واحْتلَّت أساطيلُه ببَحْر الزُّقاق، فحالت[هـ] دونَ الصَّريخ من السُّلْطان وإخوانهم المُسْلِمين. واضطرب ابن الأحْمر معَسْكَره بمَالَقَة قريباً منه، وسرَّب إليه المَدَدَ من السِّلاح والرِّجال والمِيرَة من الأقْوات[و]، وبعث عَسْكَراً لمنازلة حِصْن إصْطبُونة[ز]، وتغلَّب عليه بعد مُدَّةٍ من الحصار.

واتَّصلت هذه الحالُ أربعةَ أشهر حتَّى أصابَ أهْلَ طَرِيف الجَهْدُ، ونال[ح] منهم الحصار، فراسَلوا الطَّاغِيَةَ في الصُّلْح والنُّزول عن البَلَد، فصالَحَهم، واسْتنزلهم سنةَ

(أ) ص: استكانه (ب) ص: مسافته (ج) ص: بتصرف (د) أ: حصلت (هـ) ص: فحالف (و) ص: من الأموال
(ز) ظ: اصطبونة، ومهملة في ص (ح) ظ، ص: نازل، وشطب حرف الزاي في ض

---

(1) ربيئة: أي عَيناً لهم على بحر الزقاق، بإشراف طريف عليه.

إحدى وتسعين، ووفّى لهم بعَهْده، واسْتَشرف ابن الأحْمر إلى تَجافي الطَّاغِيَة عنها كما عَقَدوا عليه، فأعْرَض عن ذلك، واستأثر بها بعد أنْ كان نَزَل له عن ستَّةٍ من الحصون عِوَضاً منها؛ ففسد ذات بينهما.

ورَجَع ابنُ الأحْمر إلى تَمسُّكه بالسُّلْطان واسْتِغاثته[أ] به لأهْل مِلَّته على الطَّاغِيَة. وأوْفد ابن عمّه الرَّئيس أبا سعيد فرجَ بن إسماعيل بن يوسُف، ووزيرَه أبا سُلْطان عزيزاً الدَّانيّ، في وَفْدٍ من أهْلِ حَضْرته لتَجْديد العَهْد، وتأكيد المودَّة، وتقْرير المعذِرة عن شأن طَرِيف. فوافَوْه بمكانِه من مُنازلة تازُوطا، كما نَذكر بعدُ، فأبْرَموا العَقْد، وأحْكموا الصُّلْح، وانْصَرفوا إلى ابنِ الأحْمر سنةَ ثنتين وتسعين بإسْعاف غَرَضه من المؤاخاة واتّصال اليد. وهَلَكَ خلالَ ذلك قائدُ المسالحِ[ب] بالأنْدَلُس عليّ / [ا187] ابن يَزْكَاسن في ربيع سنة ثنتين وتسعين. وعَقَد السُّلْطانُ لابنه وليِّ عَهْده الأمير أبي عامر على ثُغور الأنْدَلُس التي في طاعَته، وعهد له بالنَّظر في مَصالحها، وأنفذه إلى قَصْر المجاز بعَساكِره، فوافاه هُنالِك السُّلْطان ابن الأحْمر، كما نذكر[ج].

الخَبَرُ عن وِفادة[د] ابن الأحْمر على السُّلْطان، والْتقائهما بطَنْجَة

لمَّا رجعت الرُّسُل إلى ابنِ الأحْمر، وقد كرمت وِفادَتُهم، وقُضِيت حاجاتُهم، وأُحْكِمت في المؤاخاة مَقاصِدُهم، وَقَع ذلك من ابن الأحْمر أجْملَ مَوْقعٍ، وطارَ سُروراً[هـ] من أعواده، وأجْمعَ الرِّحلةَ إلى السُّلْطانِ لإحْكام الودّ، والاسْتبلاغ في

(أ) أ، ص، ض: واستعانته (ب) ظ: المشايخ (ج) ظ: نذكره (د) ظ: وفاة (هـ) أ: مسروراً

العُـذر عـن واقِعَة طَرِيف[1] وشـأنها، واسـتعدادهم لإغاثة المُسْلِمين ونَصْرِهم مـن عَدُوّهم. فاعْتزَمَ[أ] على ذلك، وأجازَ البَحْر ذا القَعْدَة سـنةَ ثنتَين وتسعين، واحتلَّ ببُنْيُونَش[2] من ساحة سَبْتَة، ثمَّ ارتَحل إلى طَنْجَة، وقَدَّم بين يَدَيْ نَجْواه هديَّةً سَنيَّةً، أتْحف بها السُّلْطانَ؛ كان من أحْفلِها وأحْسنها مَوْقعاً لديه ـ فيما زعموا ـ المُصْحَفُ الكبير، أحدُ مَصاحف عُثمان بن عفّان الأربعة المُنْتَعَثَة[ب] إلى الآفاق[3]، المختَصّ هذا منها بالمَغرب، كما نقله السَّلَف؛ كان بنو أُمَيَّة يتوارثونه بقُرْطُبَة، فتلقّاه الأميرُ أبو عامر هُنالِكَ وأخوه [الأمير][ج] أبو عبد الرَّحمن ابنا السُّلْطان، واحتفلا في مَبرّته. ثمَّ جاء السُّلْطانُ على أثرهما من حَضْرته لتلقّيه وبُرور[د] مَقْدَمِه، ووافاه بطَنْجَة، وأبْلَغ في تَكْرِمته، وبرّ وِفادته بما يُكْرِمُ به مثلُه[هـ].

(أ) ظ: فأعزم (ب) ص: المنبعثة (ج) ساقطة من ظ (د) ظ: وبروز (هـ) وردت مكررة في ض

---

(1) أفرد ابن خلدون فصلاً للحديث عن واقعة طريف بين المسلمين والقشتاليين وانهزام المسلمين فيها. انظر ص 264.

(2) ظ: بليونش، ومهملة في ص، والمثبت من أ ـ مَضبوطاً ـ و ض. سمّاها البكريّ: المسالك 2: 783، والحميري (الروض المعطار 103) ومؤلف الاستبصار 137 ـ 138، ومقديش: نزهة الأنظار 1: 97: بَلْيُونَش، وهي قرية كبيرة على ستة أميال من سبتة إلى جهة الغرب، كان الأمير يوسف بن عبد المؤمن قد جلب الماء منها إلى سبتة سنة 580هـ في قناة تحت الأرض. وذكر لسان الدين ابن الخطيب بنيونش والجبل المنسوب إليها في معرض كلامه على سبتة. (معيار الاختيار 144، 146). وسمّاها المقري في كتابَيْه: بنيونش. انظر: أزهار الرياض 1: 31 (حاشية رقم 2)، نفح الطيب 2: 311، 6: 210، 506. الوزان: وصف إفريقيا 1: 317.

(3) فصّل المقريّ كيفية وصوله إلى قرطبة عاصمة الأمويّين وانتقاله إلى الموحدين ثم لبني مرين، وأفاض في الحديث عن أهميته واهتمام الأمراء به، وما بذلوه من أنواع الفنون لتكريمه وصيانته وتزيينه وتعظيمه. المقري: نفح الطيب 1: 607، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 383

وبَسَط ابنُ الأحْمر العُذْرَ عن شأن طَرِيف، فتجافى السُّلطان عن العذْلِ[أ]، وأغرض عنه، وقَبِل منه، وبَرَّ واحتفى، ووَصَل وأجْزل، ونَزَل له ابن الأحْمر عن الجزيرة، ورُنْدَة، والغَرْبِيَّة، وعشرين حِصْناً من ثغور الأنْدَلُس، كانت من قَبلُ لطاعة صاحِب المَغرب ونُزُل عَساكِره.

وعاد ابنُ الأحْمر إلى الأنْدَلُس خاتمَ ثنتَين وتسعين مَحْبوّاً مَحْبوراً[ب]. وأجازَت عَساكِرُ السُّلطان معه لِحِصار طَرِيف. وعَقَد على حَرْبها ومُنازلتها لوَزيرِه / الطَّائر الذِّكر عُمَر بن السّعود[ج] بن خَرْبَاش[د] الحَشَمِيّ[هـ]، فنازَلها مدَّةً، وامتنعت، فأفرج عنها[و]. وصَرَف السُّلطانُ همَّه[ز] إلى غَزْو تِلِمْسان وحِصارها، كما نذكر. [187 ب]

الخَبَرُ عن انتزاء ابن الوَزِير الوَطَّاسيّ بِحِصْن تازُوطا من جِهات الرِّيف، واستنزال السُّلطان إيّاه

كان بَنو الوَزِير هؤلاء رؤساءَ بَني وَاطاس من قبائل بني مَرِين، ويَرَوْن أنَّ نَسَبهم دَخيلٌ في بَني مَرِين، وأنَّهم من أعقاب عليّ بن يوسُف بن تَاشِفِين؛ لَحِقوا بالبَدْوِ، ونَزلوا على بَني وَطَّاس، ووشجت فيهم عُروقُهم، حتَّى لبسوا جلدتهم. ولم يَزَل السُّرورُ متربِّعاً بين أعينهم لذلك، والرِّيَاسَةُ شامخةً بأنوفهم. وكانوا يَرومون الفَتْكَ بالأمراء من أولاد عبد الحَقّ، فلم يُطيقوه.

(أ) ظ، ض: العدل (ب) ص: مجبوراً (ج) ص: المسعود (د) ظ: خرباش، ومهملة في ص (هـ) في ظ، ص، ض: الجشمي، والمثبت من أ، والنسبة إلى الحشم - بالحاء المهملة - من بطون قبيلة توجين الزناتية. انظر: ابن أبي زرع: الذخيرة السنية 74، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 294 (و) ظ: فامتنعت وأفرج عنها (ز) ظ: همته

ولمَّا احتلَّ السَّعيدُ بتَازَى غازياً إلى تِلِمسان، كما ذكَرْناهُ، ولَحِق ببلدهم الأميرُ أبو يَحْيَى بن عبد الحَقّ، ائتمروا في الفَتْك به، ونَذِرَ بشأنهم؛ فارْتحل، ففرّوا إلى غَبُولة وعين الصَّفَا من بلاد بَني يَزْنَاسَنْ[أ]، وهُنالِكَ بَلَغه خَبَرُ مَهْلِك السَّعيد.

وكانت بلادُ الرِّيف لبني وَاطاس من لَدُن دُخول بَني مَرِين المَغرب واقْتِسامهم لأعماله، فكانت ضَواحيها لنُزُلهم، وأمْصارُها ورَعاياها لجبايتهم. وكان حِصْنُ تَازوطَا بها من أمنع مَعاقل المَغرب، وكان المُلوكُ من أولاد عبد الحَقّ يَعتنون بشأنه ويُنزلونه من أوليائهم مَن يثقون بغَنائه واضْطِلاعه؛ ليكون آخذاً بناصِية هؤلاء الرَّهْط، وشجاً في صُدورهم عمَّا يَسْمُون إليه.

وكان السُّلْطانُ قد عقَد عليه لمنصور ابنِ أخيه الأمير أبي مالك، بعدَ مَهْلِك أبيه أمير المُسْلِمين يَعْقُوب بن عبد الحَقّ. وكان عُمَر بن يَحْيَى بن الوَزِير وأخوه عامر رئِيسَيْن على بَني وَاطاس لذلك العَهْد، فاسْتهْوَنوا أمرَ السُّلْطان بعدَ مَهْلِك أبيه، وحدَّثوا أنفسَهم بالانتزاء بتازُوطَا والاستبداد بتلك الناحية، فوثب عُمَر منهم بمنصور ابن أخي السُّلْطان شهرَ شوَّال من سنة إحدى وتسعين، وفَتَك برجاله وذويه، / [188أ] وأزْعَجه[ب] عنها، وغَلَبه على مال الجِباية الذي كان بقَصْره، فاسْتصفاه واستأثر به، واستبدَّ، وشَحَن الحِصْن برجاله وحاشيته ووُجوهِ قَوْمه.

ووَصَل منصورٌ إلى السُّلْطان، وهَلَك لليالٍ من مَنْجاته أسَفاً لِمَا أصابه. وسَرَّحَ السُّلْطانُ وزيرَه، الطَّائر الذِّكر، عُمَر بن السّعود بن خَرْبَاش بالعَسَاكر لمنازلته، فأناخ

(أ) ظ: عرياسن، ومهملة في ص (ب) ظ، ص: وأزعجوه

عليه. ثمّ نَهَض السُّلطان على أثره، ووافاه واضطرب مُعَسْكَره بساحته. وخالَفَ عامرٌ أخاه عُمَر إلى السُّلطان بقَوْمه حَذراً من مَغَبَّة الأمر، وأشفق عُمَر لشدَّة الحِصار، ويئس من الخَلاص، وظنَّ أنْ قد أُحيط به، ودسَّ إلى أخيه عامر [أنْ يستأذن][أ] السُّلطانَ في مُداخلته في النُّزول عن الحِصْن، فأذن له. واحْتَمَلَ ذخيرتَه، وفرَّ إلى تِلِمْسان. وبدا لعامر في رأيه عندما خلص إلى الحِصْن، وخلا له من أخيه عُمَر الجوّ، وحذر غائلة السُّلطان وخَشي أنْ يثأرَ منه بابن أخيه، فامْتنع بالحِصْن. ثمّ نَدِم وسُقِط في يده.

وفي خلال ذلك كان وُصولُ وَفْد الأنْدَلُس، وأرْسوا أساطيلَهم بمَرْفإ غَسَاسَة[ب]، فبعث إليهم عامر أنْ يشفعوا له عند السُّلطان لوَجاهتهم لديه،

فتُقُبِّلَتْ شفاعتُهم على شَريطة إجازته إلى الأنْدَلُس، وكره ذلك، وقدم بين يديه بعض حاشيته إلاّ[ج] الأُسْطُول مَكْراً بهم، وخاض اللَّيْل إلى تِلِمْسان، فتقبَّض السُّلْطانُ على وَلَدِه وقُتِل، وأسْلم أهلُ الأُسْطُول مَن كان مِن حاشيته لديهم، وتجافَوْا عن إجازتهم على السُّلْطان لما مكر بهم عامر؛ فاسْتلحموا[د] مع مَن كان بالحِصْن من

(أ) عوضها في ظ، ص: فأذن، وكانت كذلك في أ، ض، فاستعيض عنها بمخرج بخط ابن خلدون، وهو المثبت (ب) ظ، ض: بمرق، ومهملة في ص، والمثبت من أ، وهو الصواب؛ لأن غساسة امتازت بمرساها، يقول ابن الخطيب (معيار الاختيار 183): "غساسة ... مرسى مطروق، بكل ما يروق، ومرفأ جارية بحرية، ومحيط جباية تجرية". وقال الوزان: "لها ميناء حسن"، وهي مدينة تقع غرب مدينة مليلة، بقرب مصب نهر ملوية في البحر المتوسط، وقد اعتمدنا الضبط الذي درجت عليه النسخ في أكثر من موضع من هذا الجزء، لكنها وردت في موضع واحد بالسين المشدَّدة، وضبطها الوزّان بكسر الغين. الوزان: وصف إفريقيا 1: 342 (ج) أ: إلى (د) ص: فاستلحموه

أتباعهم وقَرابتهم[أ] وذُرِّيَّاتهم[ب]. وتَملّكَ السُّلطانُ [حِصْنَ][1] تازُوطا، وأنزل به عُمَّالَه ومَسْلَحته، وقَفَل إلى حَضرته بفاس آخرَ جُمادَى من سنة ثنتَين وتسعين.

الخبرُ عن نُزوعِ أبي عامرٍ ابن السُّلطان إلى بلاد الرِّيف وجبال غُمَارة

[188 ب] كان الأميرُ أبو عامر بعدَ إجازة ابن الأحمر إلى السُّلطان أبيه / ورِضاه عنه، وتأكيد مُؤاخاته، وإغزاء وزيره عُمَر بن السعود لمنازلة طَرِيف، واستنزاله أولاد الوَزِير المُنتَزِين بحِصْن تازُوطا؛ رَجَع من قَصْر مَصْمُودَة إلى بلاد الرِّيف، بإيعاز أبيه إليه بذلك؛ لتسكين أحوالها.

وكان أولادُ الأمير أبي يَحْيَى بن عبد الحَقّ قد نزعوا إلى تِلِمْسان لسِعايَةٍ فيهم وَقَرت في صَدْر السُّلطان، فأقاموا بها أيّاماً. ثم استعطفوا السُّلطان واسترضَوْه، فرَضي، وأذِن لهم في الرُّجوع إلى محلّهم من قَوْمهم ودَوْلتهم.

وبَلَغ الخَبَرُ الأميرَ أبا عامر، وهو بمُعَسْكَره من الرِّيف؛ فأجمع على اغتيالهم في طَريقهم يظنّ أنّه يُرضي بذلك أباه. واعترضهم بِوادي القطف من بلاد مُلْوِيَّة سنةَ خمس وتسعين، فاستَلْحمهم. وانتهى الخبرُ إلى السُّلطان، فقام في رَكائبه وقَعد، وتبرّأ إلى الله من إخفار ذمَّته، ومن صَنيع ابنه، وسَخِطَه وأقْصاه، فذهب مُغاضِباً، ولَحِق ببلاد الرِّيف، ثمَّ صاعد إلى جبال غُمَارَة، فلم يَزَل طَريداً بينهم. ونازلته عساكرُ أبيه

(أ) ظ، ص: وقرباتهم (ب) آ، ض: وذُوبانهم، ص: وذوياتهم

(1) انظر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 383

لنظر ميمون بن وَدْرَار[أ] الحَشَمِيّ[ب]، ثمّ لنظر يَرْزِيكَن[ج] ابن المولاة تامِيمُونت[د]. وأوقع بهم مِراراً آخرها بيرزيكن سنة تسعٍ وتسعين.

وذكر الزَّلِّيجِيُّ[1]، مؤرّخُ دَولَتِهم، أنَّ خروجَه بجبال غُمَارَة كان سنةَ أربعٍ وتسعين، وقَتْلَه لأولاد الأمير أبي يَحْيَى كان سنةَ خمسٍ وتسعين بعدها، أغزاهم[هـ] من مَثْوى انتزائه، وقَتَلهم، كما ذكَرْناهُ[و]. والله أعلم.

ولم يَزَل هذا دأبَه إلى أنْ هَلَكَ ببَنِي سعيد من جبال غُمَارَة سنةَ ثمانٍ وتسعين، ونُقِل شِلْوُه إلى فاس[ز]، فوُورِيَ بباب الفُتوح بمَلْحد قَوْمِهم هُنالِكَ. وأعْقَب وَلَدَيْن كفلهما[ح] السُّلْطانُ جَدُّهما، فكانا الخليفَتَيْن من بعده، على ما نذكر.

(أ) ص: ودران (ب) في ظ، ص، ض بالجيم المعجمة "الجشمي"، وفي أ أكّدها برسم حاء تحتها وسكون الشين. (ج) ظ: برويكن، ض: يزريكن (د) ص: تاميموت (هـ) ص: أغرا بهم، مهملة (و) ظ: كما ذكرنا (ز) ظ، أ: قابس، وهو خطأ (ح) ظ، أ، ض: كفلها

---

(1) لم نهتد إلى معرفته، والذي شُهرته "الزليجي" واحدٌ؛ اسمه عبد الرحمن بن محمد الزَّلِّيجيّ، نقل عنه البناهيّ [أو: النباهي، كما في المطبوع] في موضعين من كتابه المرقبة العُليا: في ترجمته لأبي جعفر المَزْدَغِيّ: "قال عبد الرحمن بن محمد الزليجي - وقد ذكره في كتابه - توفي عام 687هـ"، وفي ترجمة أبي العباس الغبرينيّ: "وهذا القاضي مِمّن ذكره عبد الرحمن الزليجيّ في تأريخه، وقال عنه: توفي عام 704هـ". (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا "أو: تاريخ قضاة الأندلس" 129، 132)، ونحن نميل إلى كونه هو الذي عناه ابن خلدون؛ فمن إفادات البناهيّ نعلم أن للزَّلِّيجيّ هذا كتاباً في التاريخ، وهذا يتّفق مع ما ذكره ابن خلدون، وأن كتابه مختصّ بتاريخ بني مرين من البربر، ويؤكّده نقل البناهيّ عنه في ترجمتين لاثنين من المنسوبين لقبائل بربريّة "الغبرينيّ والمزدغيّ"، والأمر الثالث أن الزَّلِّيجيّ من أهل القرن الثامن. ولعلّ الزَّلِّيجيّ أيضاً هو من ذكره السخاويّ (الإعلان بالتوبيخ 269) وسمّاه "الزَّلْيَخيّ"، وأنّ له كتاب "تاريخ فاس".

الخَبَرُ عن تَرْدِيد[أ] الغَزْوِ إلى تِلِمْسان ومُنازلتها

كان عُثْمان بن يَغْمَرَاسَن ـ بعدَ إفراج السُّلْطان عنه سنةَ تسعٍ وثمانين، وانتقاض [189 أ] الطَّاغِيَة وابن الأَحْمر عليه، كما قلناه ـ صرف إلى ولايتها وجه / تدبيره، وأوفد على الطَّاغِيَة ابن بَرِيدِيّ من صَنائع دولته سنةَ ثنتين وتسعين، ورجعه الطَّاغِيَة مع الريك ريكس[ب] رسول من كبار قومه. ثم أعاد إليه الحاج المَسْعُود من حاشيته، ووصل يَدَه بيده يظنّ ذلك دافعاً عنه. واعتدّها السُّلْطانُ عليه، وطَوى له على النَّثّ. حتّى إذا فرغ من شأن الأَنْدَلُس، وهَلَكَ الطَّاغِيَة شَانجُهْ سنةَ ثلاثٍ وتسعين لإحدى عشرة من سِنيّ مُلكه، وارتحل السُّلْطانُ إلى طَنْجَة لمشارَفة أحْوال الأَنْدَلُس سنةَ أربعٍ وتسعين، فأجاز إليه السُّلْطانُ ابن الأَحْمر ولقيه بطَنْجَة، وأحْكم معه المؤاخاة، ولمّا استيقن سُكونَ أحْوالها، نَزَل لابن الأَحْمر عن جميع الثُّغور التي بها لطاعته، وأجْمع غزو تِلِمْسان، ولَحِق به بين يَدَيْ ذلك ثابت بنُ مِنْدِيل المَغْرَاوِيّ صَرِيخاً على ابن يَغْمَرَاسَن ومُسْتجيشاً بقَوْمه؛ فتقبّله وأجازه[ج].

وكان أصابَ النَّاسَ أعوامَ ثنتين وتسعين[1] وما بعدها قَحْطٌ، ونالتهم سَنَةٌ وهِنوا لها، ثمَّ إنَّ الله رَحِمَ خَلْقَه، وأدرَّ نعمته، وأعاد النَّاسَ إلى ما عَهِدوه من سُبوغ نِعَمهم[د] وخِصْب عَيْشهم.

(أ) ظ: تردد (ب) ظ: الريك ويكس (ج) كذا في ظ، ص، ض، وفي أ: وأجابه (د) ص: نعمتهم

(1) عند ابن أبي زرع (الأنيس المطرب 409) في سنة 693هـ "كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم بالمغرب وإفريقية ومصر".

ووَفَد عليه سنةَ أربعٍ وتسعين ثابت بنُ مِنْدِيل أمير مَغْرَاوَة[أ] مُسْتصرخاً به من عُثْمان بن يَغْمَرَاسَن؛ فبَعث من كبار قَوْمه موسى بن أبي حَمُّو إلى تِلِمْسان شفيعاً في ثابت بن مِنْدِيل، فردَّه عُثْمان أقبحَ ردّ، وأساء في إجابته[ب]، فعاوَدَ الرِّسَالةَ إليهم في شأنه، فلم تَزِدْهم إلاَّ إصراراً، فاعْتزم على غَزْو بلادهم، واستعدَّ لذلك. فنَهَض سنة [189 ب] أربعٍ وتسعين، حتَّى انتهى إلى بلاد تَاوَرِيرْتْ[1]؛ وكان تَخْماً لعَمَل بَني مَرِين وبَني عَبْد الوَاد: في جانبها عاملُ السُّلْطان أبي يَعْقُوب، وفي جانبها الآخر عاملُ عُثْمان بن يَغْمَرَاسَن، فطَرَد السُّلْطانُ عاملَ يَغْمَرَاسَن وتميَّز بها، واختطَّ الحِصْن الذي هُنالِكَ لهذا العَهْد؛ تولاَّه بنفسه، يُغادِي الفَعَلَة ويُراوِحهم، وأكْمَلَ بناءه في شهرِ رمضان من سَنَتِه، واتَّخذه ثغراً لمُلكه، وأنزل بَني عَسْكَر لحياطته وسدِّ / فُروجه، وعَقَد عليهم[ج] لأخيه أبي يَحْيَى بن يَعْقُوب، وانكفأ راجعاً إلى الحضرة.

ثمَّ خَرَجَ من فاس سنةَ خمسٍ وتسعين غازياً إلى تِلِمْسَان، ومرّ بوَجْدَة فهَدَم أسوارَها، وتغلَّب على مَسِيفَة، والزَّغارة[د]، وانتهى إلى نَدْرُومَة[2]، ونازَلها أربعين

(أ) بعدها في ظ، أ، ص مكرراً: سنة أربع وتسعين (ب) ظ، أ: جابته (ج) ظ: عليه (د) ص: والزعارة

(1) ظ: تاويرت، وتاوريرت: في آخر عمل بجاية حسب ما يذكره ابن خلدون فيما بعد. وسمّاها الوزان "تَوْرِيرْتْ" ووصفها بأنها على تل مرتفع قرب نهر زاغ، وأنها آهلة بالسكان حتى استيلاء بني مرين على حكم المغرب فصارت المدينة موضع نزاع وميدان حروب. وسماها الإدريسي ومقديش "تاورت". الإدريسي: نزهة المشتاق 1: 262، الوزان: وصف إفريقيا 1: 349، مقديش: نزهة الأنظار 1: 94

(2) ندرومة، على نحو ميلين من طرف جبل تاجرا الأطلسي، أشبه في موقعها بموقع رُومَا كما يقول مارمول. انظر وصفها في مسالك البكري 2: 750، الإدريسي: نزهة المشتاق 2: 534، الوزّان: وصف إفريقيا 2: 13، مَارْمول: إفريقيا 2: 295.

يوماً، ورَماها بالمجانيق، وضيَّق عليها، وامْتنعت عليه، فأفرج عنها ثانيَ الفِطْر.

ثمَّ أغزى تِلِمْسان سنةَ ستٍّ وتسعين، وبَرز لمدافعته عُثْمان بن يَغْمَراسَن، فهَزَمه، وأحْجَره بتِلِمْسان، ونَزل بساحتها[أ]، وقَتل خلقاً من أهلها، ونازلها أيّاماً، ثمّ أقْلع عنها، وقَفَل إلى المَغْرب، وقضى مَنْسَكَ الأضحَى من سَنَتِه بتَازَى. فأغرس هُنالِك بحافِدَة ثابت بن مِنْدِيل؛ كان أصْهر فيها إلى جدِّها قبلَ مَهْلِكه سنةَ ستٍّ وتسعين قتيلاً ببُحيرة الزَّيْتُون من ظاهر فاس؛ قَتَله بعضُ بَني وَرْتَاجُن[ب] في دَمٍ كان لهم في قَوْمِه، فثأرَ السُّلْطانُ به من قاتِله وأغرسَ بحافِدَتِه، وأوْعَز ببناء القَصْر بتَازَى، وقَفَل إلى فاس فاتحَ سبعٍ وتسعين.

ثمَّ ارْتَحل إلى مِكْنَاسَة، وانكفأ إلى فاس، ثمَّ نَهَض في جُمَادَى غازياً تِلِمْسان، ومرّ بوَجْدَة، فأوْعَز ببنائها وتَحْصين أسوارها، واتَّخذ بها قَصَبةً وداراً لسُكْناه ومَسجداً.

وأغزى[ج] إلى تِلِمْسان، ونَزل بساحتها، وأحاطت عَساكِره إحاطةَ الهالة بها، ونَصَب عليها القَوْسَ البعيدة النَّزع العظيمة الهيكل المسمَّاة بقوس الزّيار، ازدلف إليه الصُّنَّاعُ والمهندسون بعملها، وكانت توقر على أحد عشرَ بغلاً.

ثمَّ لمَّا امتنعت عليه تِلِمْسان، أفرجَ عنها فاتحَ سنة ثمان. ومرّ بوَجْدَة، فأنزل بها الكتائبَ من بَني عَسْكَر لنظر أخيه أبي يَحْيَى بن يَعْقُوب كما كانوا بتَاوِرِيرْت. وأوْعَز

(أ) أ، ص، ض: بساحتها (ب) ص: ورتاجين، وسيأتي في معرض الخبر عن الفتاح بلاد مغراوة عبارة عارضة كتبها ابن خلدون بخطه في أ، ض؛ يذكر فيها مقتل ثابت بن منديل على يد بعض بني مرين وليس بني ورتاجن. (ج) ص: وأغزا

إليهم بترديد[أ] الغاراتِ على أعْمال ابن يَغْمَرَاسَن وإفساد سابلتها. وضاقت أحوالُهم، ويئسوا من صَرِيخ صاحِبِهم، فأوْفدوا على الأمير أبي يَحْيَى وفداً منهم يسألون الأمان لمن وراءهم من قَوْمهم، على أن يمكِّنوه من قِياد بَلَدِهم، ويدينون بطاعة / السُّلْطان، [190 أ] فبذلَ لهم من ذلك ما رَضِيَهم، ودخل البَلَدَ بعَسَاكِرِه، واتَّبعهم أهلُ تاوونت[1]، وأوْفد مشيختهم جميعاً على السُّلْطان آخرَ جُمادَى، فقَدِموا عليه بحَضْرته، وأدَّوْا طاعَتهم، فقَبِلها، ورغبوا إليه في الحرَكة إلى بلادهم ليريحهم من ملكة عدوّه وعدوّهم ابن يَغْمَرَاسَن، ووصفوا من عَسْفه وجَوْرِه وضَعْفه عن الحماية ما استنهض السُّلْطان لذلك، على ما نذكر.

الخَبَرُ عن الحِصارِ الكبيرِ لتِلِمْسان، وما تخلَّلَ ذلك من الأحْداث[2]

لمَّا توفَّرت عَزائمُ السُّلْطان على النُّهوض إلى تِلِمْسان، ومُطاولة حِصارها إلى أنْ يظفرَ بها وبقَوْمها، واستَيقَن أنَّه لا مُدافعَ له عن ذلك، نهضَ من فاس شهرَ رجب من سنةِ ثمانٍ وتسعين، بعد أنْ استكمل حشده، ونادَى في قَوْمِه، واعترض عَساكره، وأجزل أعطياتهم، وأزاح عِلَلَهم.

وارْتحل في التَّعْبِئَة، واحتلَّ بساحة تِلِمْسان ثاني شَعْبان، وأناخ عليها، واضطرب

(أ) ظ، ص، ض: بتردد

(1) ظ: تاورنت. وتسمَّى: تاونت، وهي قلعة وحصن بأعلى الجبل المطل على مرسى الغزوات في أقصى غرب الجزائر على الحدود المغربية.

(2) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 386

معَسْكَره بفنائها، وأجحر عُثْمان بن يَغْمَرَاسَن وحاميتها من قَوْمه، وأدار الأسوارَ سياجاً على عُمْرانها كلّه، ومن ورائها نطاقُ الحفير البعيد المهوى. ورتَّبَ المسالح[أ] على أبوابها وفُرَجها، وسَرَّحَ عَسكرَه إلى هُنَيْن[1]، فافتتحوها، وأتوا طاعتهم، وأوْفدوا مشيختهم وسط شَعْبان.

ثمَّ سرَّح عَساكِرَه لمحاصرة وَهْرَان، وتقرّي البَسائط، ومُنازلة الأمصار، فأخذت مَازُونَة[2] في جُمَادَى الآخرة من سنة تسعٍ وتسعين، وتَنَس[3] في شَعْبان بعده، وتَالّلُوت[ب]، والقَصَبَات، وتامَزْزْدكَت في رمضان منه. وفيه كان فَتْحُ مدينة وَهْرَان. وسارت عَساكِرَه في الجهاتِ إلى أنْ بلغت بِجَايَة، كما نذكره.

وأخذ الرُّعب بقُلوب الأمم بالنَّواحي، وتغلَّب على ضَواحي مَغْرَاوَة وتُوجِّين،

(أ) ظ: المشايخ (ب) ظ: وباللوت، والضبط من أ

---

(1) هُنين: بلدة صغيرة من نواحي تلمسان، ولها ميناء صغير محروس ببرجين، ولها أسوار عالية منيعة،خاصة من جهة البحر. الحميري: الروض المعطار 597، الوزان: وصف إفريقيا 2: 15، التمكروتي: النفحة المسكية 40، 168، مارمول: إفريقيا 2: 296.

(2) مازونة: مدينة قديمة من بناء الرومان، تبعد عن ساحل البحر المتوسط نحو أربعين ميلاً، (وعند مقديش: ستة أميال؟)، وتحيط بها أسوار منيعة. الإدريسي: نزهة المشتاق 1: 271، الوزان: وصف إفريقيا 2: 36، الحميري: الروض المعطار 521، مقديش: نزهة الأنظار 1: 100

(3) ص: وتنين، والمثبت يوافق الأنيس المطرب. وتَنَس: مدينة في الجزائر، بينها وبين البحر ميلان، بنيت في منحدر جبل على مسافة قليلة من البحر المتوسّط، مسوَّرة حصينة، ولها نهر يسمَّى تامَن. ويذكر التمكروتي ـ نقلاً عن البكري ـ أن تنس حصن بناه الأندلسيون سنة 262هـ. البكري: المسالك 2: 726، الإدريسي: نزهة المشتاق 1: 251، مجهول: الاستبصار 133، ابن بطوطة: تحفة النظار 4: 190، الحميري: الروض المعطار 138، الوزان: وصف إفريقيا 2: 35، التمكروتي: النفحة المسكية 42، مقديش: نزهة الأنظار 1: 51، 77

وسارت فيها عَساكِرُه، ودَوَّختها كتائبه، واقتحمتْ أمصارَها راياتهُ، / مثل: مِلْيَانَة، [190 ب]
ومُسْتَغانِم(1)، وشَرْشَال(2)، والبَطْحاء(3)، ووَانْشَرِيس، [والمَدِيَّة](أ)، وتَافَرْكَنِيتُ(ب).
وأطاعه زيري(4) المُنْتَزِي ببَرِشْك(5)، وأتى ببيعته، وابن علاّن المُنْتَزِي بالجَزَائِر(6)، وأتى
ببيعته. وأزعج التَّاكِين(ج) منهم عن طاعته، واستألف أهل الصَّاغية(د)، كما نذكره.

(أ) ساقطة من ظ. والمدية: مدينة جزائرية تبعد عن الجزائر العاصمة نحو 55 ميلاً. الوزان: وصف إفريقيا 2: 41 (ب) ظ، أ: نافركيت، ص: تامركيت، والمثبت موافق لما أورده مقديش، وفيه: مرسى تافركيت على البحر، وعليه حصن منيع صغير بينه وبين مصب وادي آقرسيف أربعون ميلاً، ومنها إلى حصن تاجريت ثمانية أميال. وعند البكري: تافرجنيت، وهي ساحل جراوة. البكري: المسالك 2: 752، مقديش: نزهة الأنظار 1: 99. (ج) ص: الناكثين (د) ظ، ص: الطاغية، أ، ض: الطاعة

---

(1) كذا ورد رسمها في الأصول بمُثنّاة تحتية قبل الميم، وهي مدينة جزائرية على ساحل البحر المتوسط، ولها ميناء صغير كانت تقصده السفن الأوروبية، وضبطها الوزان "مَسْتَغَانَم". الإدريسي: نزهة المشتاق 1: 271، الروض المعطار 558، الوزان: وصف إفريقيا 2: 32، مقديش: نزهة الأنظار 1: 100

(2) شَرْشَال: مدينة كبيرة فيها آثار للأول. تقع على ساحل البحر المتوسط، وذكر التمكروتي - وقد مرَّ بها سنة 997هـ - أنها "بليدة حصينة كثيرة العمارة والزرع والفواكه؛ يجلب منها الزرع وغيره إلى الجزائر"، وذكر البكري مرساها ورباطاتها. البكري: المسالك 2: 756، الإدريسي: نزهة المشتاق 1: 258، النفحة المسكية 42، مجهول: الاستبصار 132، الوزان: وصف إفريقيا 2: 34، مقديش: نزهة الأنظار 1: 88، 101

(3) البطحاء: مدينة بنيت في سهل فسيح من إقليم بني راشد، وكانت مدينة عامرة آهلة بالسكان، ثم خربت بحروب استعرت بين ملوك تلمسان وسكان جبل ونشريس. الوزان: وصف إفريقيا 2: 27

(4) هو زيري بن حمَّاد، وسيذكره ابن خلدون فيما بعد، وسمّاه في كتاب رحلته، عند ذكر ابنَي الإمام: زيرم. انظر ص 563

(5) برشك: مدينة صغيرة تقع على تل من ساحل البحر المتوسط، على بعد عدة أميال من مستغانم، وعليها سور من تراب. الإدريسي: نزهة المشتاق 1: 257، الحميري: الروض المعطار 88، الوزان: وصف إفريقيا 2: 32، مقديش: نزهة الأنظار 1: 51، 88

(6) الجزائر Alger: عاصمة الجزائر، على ساحل البحر المتوسط، سُميت بذلك لمجاورتها لجزر ميورقة ومنورقة ويابسة، وهي مدينة قديمة من بناء بني مزغنة، وتذكرها المصادر الجغرافية باسم جزائر بني مزغناي. البكري: المسالك 2: 732، الإدريسي: نزهة المشتاق 1: 258، ابن بطوطة: تحفة النظّار 1: 161، الوزان: وصف إفريقيا 2: 37، مقديش: نزهة الأنظار 1: 51، 89

وحذره المُوَحّدُون من ورائهم بإفرِيقِيَّة مُلُوك بِجَايَة ومُلُوك تُونِس، فمدُّوا إليه يدَ المواصلة، ولاطَفوه بالمتاحفة والمهاداة، كما نذكر.

وخاطَب صاحب الدّيار المِصْريّة ملك التُّرْك، وهاداه وراجَعَه، كما نذكره.

ووَفَد عليه شرفاءُ مَكّة بنو أبي نُمَيّ، كما نذكر، وهو في خلال ذلك مُستجمعٌ للمُطاولة بالحصار والتَّضييق، مُتجافٍ عن القتال إلاّ في بعض الأيّام، لم تبلغ ـ زعموا ـ أربعةً أو خمسةً؛ يُنزل شديدَ العِقابِ والسَّطْو بمَن يُمِيرُها، ويأخذ بالمراصد على مَن يتسلّل بالأقوات إليها؛ قد جَعل سُرادق الأسوار المحيطة ملاكاً لأمره في ذلك، فلا يخلص إليهم الطَّيفُ، ولا يكاد يصل إليهم الغَيث مدّة مُقامهِ عليها، إلى أن هَلَك بعد مائة شهرٍ، كما نذكره.

واختطَّ بمكان فَساطيط المَعْسْكَر قَصْراً لسُكناه، واتّخذ به مسجداً لمُصلاّه، وأدار عليها السُّور، وأمرَ النّاس بالبناء، فابتنوا الدُّور الواسعة، والمنازل الرَّحيبة، والقُصورَ الأنيقة، واتّخذوا البساتين، وأجروا المياه. ثمّ أمر بإدارة السُّور سِياجاً على ذلك سنةَ ثنتين وسبعمائة، وصيَّرها مِصْراً، فكانت من أعظم الأمصار والمدن، وأحفلها اتّساعَ خِطّةٍ، وكَثْرة عُمْران، ونَفاق أسواق، واحتفال بناء، وتَشييد منعة.

وأمر باتّخاذ الحَمّامات والخانات والمارستان، وابتنى بها مسجداً جامعاً، وشيَّد له مِئذنةً رَفيعةً، فكان من أحفل مساجد الأمصار وأعظمها، وسمّاها المَنْصُورَة،

واسْتَبحرت عِمارتُها، وهالت أسواقُها، ورحلَ إليها التُّجرُ(1) بالبضائع من الآفاق، فكانت إحدى مدائن المَغْرب. وخرَّبها آل يَغْمَرَاسَن عندَ مَهْلِكه، وارتحال كتائبه عنها، بعد أنْ كان بَنو عَبْد الوَاد / أشفوْا على الهلاك، وأذنوا بالانقراض، كما نذكره، فتدارَكهم من لُطف الله ما شأنه أنْ يتدارك المتورّطين في المهالك، والله غالب على أمره. [191أ]

الخَبَرُ عن افتتاح بلاد مَغْرَاوَة، وما تخلَّلَ ذلك من الأحْداث

لمَّا أناخ السُّلْطانُ على تِلِمْسَان، وتغلَّب على ضَواحي بَني عَبْد الوَاد، وافْتتح أمْصارَهم، سَما إلى التغلُّب على مَمالك مَغْرَاوَة وبَني تُوجِّين. وكان ثابت بن مِنْدِيل قد وَفَد على السُّلْطان بمقرّ مُلكه من فاس سنةَ أربعٍ وتسعين، وأصْهَر إليه في حافِدَتِه، فعقَد له عليها. وهَلَكَ ثابت بمكانِ وِفادَتِه من دَوْلتهم؛ [قتيلاً على يَدِ بعض بَني مَرين في دَمٍ كان أصابه، وثأر به السُّلْطانُ منهم](أ)، وأعْرس السُّلْطان بحافِدَتِه سنةَ ستٍّ وتسعين، كما ذكرنا ذلك كلّه من قبلُ.

فلمَّا تغلَّب السُّلْطانُ على أعْمال بَني عَبْد الوَاد، جَهَّز عَساكِرَه إلى بلاد مَغْرَاوَة، وعَقَد عليها لعليّ بن مُحَمَّد الخَيْرِيّ من عُظماء بَني وَرْتَاجَن، فتغلَّبوا على الضَّواحي، وشرَّدوا مَغْرَاوَة إلى رؤوس المعاقل. واعْتصم راشد بن مُحَمَّد بن ثابت بن مِنْدِيل صِهْر السُّلْطان بِمِلْيَانَة، فنازلوه بها، ثمَّ اسْتنزلوه عن الأمان سنةَ تسعٍ وتسعين،

(أ) من مخرج بهامش آ، ض بخط ابن خلدون، وقد تقدم ذكر مقتل ثابت الذي أصهر السلطان بحافدته، وأن مقتله كان على يد بعض بني ورتاجن.

---

(1) التُّجُرُ: جمع تاجر

وأوْفدوه على السُّلْطان، فلَقاه مَبرَّةً وتَكْرمةً، وخَلَطهُ بجُمْلته [لمكان][أ] صهْرِه معه.

ثمَّ افتتحوا مدينةَ تَنَس، ومَازُوْنَة، وشَرْشَال، وأعطى زيري بن حَمَّاد المُنْتَزي على بَرِشْك من بلادهم يدَ الطَّاعَة، وأوْفد على السُّلْطان البَيْعة، واستولوا على ضَواحي شَلَف[1] كلّها.

ولاذت مَغْرَاوَةُ بطاعَةِ السُّلْطان، وعَقَد عليهم وعلى جميع بلادهم لعُمَر بن ويغَزَن[ب] ابن مِنْدِيل، فأسف ذلك راشد بنَ مُحَمَّد؛ لِمَا كان يَراهُ لنفسه من الاختصاص، ولِمَا كانت أختهُ[ج] حظيَّةَ السُّلْطان / [191 ب] وكريمته. ونافس عُمَر بن ويغَزَن في إمارة قومه، فلَحِق بجبال مِتِّيجَة[2]، وأجلب على من هُنالِكَ من عُمَّال السُّلْطان وعساكره، وانحاش إليه مَرْضى القُلوب من قَوْمه، فاعْصَوْصَبوا عليه. وداخلَ أهل مَازُوْنَة، فانتقضوا على السُّلْطان، وملَّكوه أمْرَهم في شهر ربيع من المائة السَّابعة. ثمَّ بيَّت عُمَر ابن ويغَزَن بمُعَسْكَره من وازمور، فقَتَله واستَباح المعَسْكَر.

وبلغَ الخَبَرُ إلى السُّلْطان، فسَرَّح العَسَاكر من بَني مَرِين، وعقَد لعليّ بن الحسن

(أ) ساقطة من ظ، ص، ض (ب) اختلفت النسخ في رسمه، حيثما يرد، ففي ظ: ويغرن بإهمال المثناة التحتية، ومهملة في ص، وفي ض: ويغرن (ج) ساقطة من ص

---

(1) شلف: نهر كبير بقرب مليانة، عليه مدينة قديمة تنسب إلى النهر، ينبع في جبال ونشريس، ويمر عبر السهول الفاصلة بين تنّس وتلمسان إلى أن يصب في البحر المتوسط. الروض المعطار 343، الوزان: وصف إفريقيا 2: 251

(2) متيجة: سلسلة جبال من الجزائر، تقع جنوبي العاصمة، عظيمة كثير العمارة تشقها الأنهار، ويمر بقرب سهلها نهر الشفة. وتقع مدينة متيجة المنسوبة للجبال على نهر كبير. مجهول: الاستبصار 132، رحلة ابن بطوطة 1: 161، الروض المعطار 523، الوزان: وصف إفريقيا 2: 251

ابن أبي الطَّلاق على قَوْمه من بَني عَسْكَر، ولعليّ بن مُحَمَّد الخَيْرِيّ على قَوْمه من بَني وَرْتَاجَن، وجَعَل الأمرَ شورى بينهما، وأشرك معهما عليّاً الحَسَّانيّ من صَنائع دَوْلته، وأبا بكر بن إبراهيم بن عَبْد القويّ من أعْياص(أ) بني تُوجِّين. وعَقَد على مَغْرَاوَة لمُحَمَّد بن عُمَر بن مِنْدِيل، وأشركه معهم، وزحفوا إلى راشد. ولمَّا أحسَّ بالعَسَاكر، لجأ إلى مَعْقِل بَني بُوسْعِيد فيمَن معه من شيعَتِه مَغْرَاوَة. وأنزل بمَازُونَة عليّاً وحَمُّو ابنَيْ عمّه يَحْيَى بن ثابت، واستَوْصاهم بضَبْطِ البَلَد، وأنّه مُشرفٌ عليهم من الجبل.

وجاءت عَساكرُ السُّلْطان إلى بلادِ مَغْرَاوَة، فتغلَّبوا على البَسائط، وأناخوا بمَازُونَة، واضطربوا معَسْكَرهم بساحتها، وأخذوا بمخنَّقها، واهْتبل عليٌّ وقَوْمُه غِرَّةً في مُعَسْكَر بَني مَرِين، فبيَّتهم سنةَ إحدى وسبعمائة. وانفضَّ المَعَسْكَر، وتقبَّض على عليّ بن مُحَمَّد الخَيْرِيّ، ثمَّ امتنّوا عليه، وعاد(ب) المَعَسْكَرُ إلى مكانه من حِصارهم. وجَهِدَهم حالهم، فنزل إليهم يَحْيَى على حُكم السُّلْطان، وأنفذوه إليه، فتقبَّض عليه. ثمّ نزل عليّ ثانية من غير عَهْد، فأشخصوه إلى السُّلْطان، ولقاه مبرَّةً وتكريماً، تأنيساً لراشد المُنْتَزِي بمَعْقله.

واقْتُحمت مَازُونَة على أهلها عَنْوةً سنة ثلاث، فمات منهم عالَمٌ، واحتُملتْ رؤوسُهم إلى سدّة السُّلْطان، فرُميَتْ في حَفائر البَلَد المحصور؛ إرهاباً لهم وتخذيلاً.

[192 أ] ولمَّا عقد السُّلْطانُ لأخيه أبي يَحْيَى / على بلاد الشَّرق، وسَرَّحه لتَدويخ

(أ) ظ، أ، ص: أعياص (ب) ظ: وأعاد

التُّخوم، نازل راشداً بمَعْقله[أ] من بَني بُوسَعِيد، فبيَّت راشد معَسْكَرهم إحدى لياليه، فانفضُّوا[ب] وقتل طائفة من بَني مَرِين، ووجَد لها[ج] السُّلْطان؛ فأمَرَ بقَتْل عليٍّ وحَمُّو ابنَيْ عمِّهِ يَحْيَى، ومَن كان مُعْتَقلاً معهما من قَوْمِهم؛ رفعوهم على الجذوع، وأثبتوهم بالسِّهام.

ونزلَ راشد بعدَها عن مَعْقِله، ولَحِق بمِتِّيجَة، وانْحاش إليه عمُّه منيف بن ثابت، وأوْشابٌ من مَغْرَاوَة. وتحيَّزَ الآخرون إلى أميرهم مُحَمَّد بن عُمَر بن مِنْدِيل الذي عَقد له السُّلْطانُ عليهم.

ثمَّ تأَشَّبَت على راشد ومنيف خوارِجُ الثَّعالبةِ ومَلِيكَش، وصمدَ إليهم الأميرُ أبو يَحْيَى في عَساكرِه ثانيةً، ونازلهم بمَعاقِلهم، ورَغِبوا في السِّلْم، فبذله السُّلْطانُ لهم. وأجاز منيف بن ثابت إلى الأنْدَلُس فيمَن إليه من بَنيه وعَشيره[د]، فاستقرّوا بها آخرَ الأيَّام. ولَحِق راشدٌ ببلاد المُوَحِّدِين. ووفد مُحَمَّد بن عُمَر بن مِنْدِيل سنةَ خمسٍ على السُّلْطان، فأوْسَعه حِباً وتَكْرِماً. وتمهَّدت بلادُ مَغْرَاوَة، واستبدَّ بمُلكها السُّلْطان، وصرف إليها العُمَّال، ولم يَزل كذلك إلى أنْ هَلَك سنةَ ستٍّ، [كما نذكرُهُ][هـ].

الخَبَرُ عن افتتاح بلاد بَني تُوجِّينْ، وما تخلَّل ذلك

لمَّا نازلَ السُّلْطانُ[و] يوسُف بن يَعْقُوب تِلِمْسان وأحاطَ بها، وتغلَّب على بلادِ بَني عَبْد الوَاد، وسَما إلى تَملُّك بلاد بَني تُوجِّينْ. وكان عُثْمان بن يَغْمَرَاسَن قد غلبهم

(أ) ظ: معقله (ب) ص: فانقضوا (ج) ص: لهما (د) ظ: وعشيرته (هـ) من أ، ض بخط ابن خلدون (و) ساقطة من ص

على مواطنهم، ومَلَكَ جبلَ وَانشَرِيس، وتصرَّف في بَني عَبْد القويّ بالولاية والعَزْل وأخْذ الإتَاوَة، [ورياستُهم يومئذٍ لعليّ بن النّاصر بن عَبْد القويّ، كما ذكرناهُ في أخبارهم. فلمّا انْحَجر عُثْمان وقَوْمُه بتِلِمْسَان، استبدَّ بنو تُوجّينْ بمَوْطنهم في جَبل وَانشَرِيس، وولّوْا عليهم أبا بكر بنَ إبراهِيم بن مُحمَّد بن عَبْد القويّ. ثمّ اضطرب أمرُهم، وافترقوا على عطيّة الأصمّ، ويوسف بن زَيَّان، كما ذكرناه، ووَفَد يَحْيَى بن عَطيَّة كبيرُ بَني تيغرين ببَيْعة عطيّة الأصمّ وطاعته[أ] على السُّلْطان *بمكانِه من حِصار تِلِمْسَان*[ب] ورَغَّبه[ج] في مُلْك وَانْشَرِيس وما وراءه[د]، فعَقَد السُّلْطانُ[هـ] لأخيه أبي سرحان على العَساكِر، وبَعَثه معهم، ثمَّ أدالَ منه بأخيه أبي يَحْيَى، ونَهَض][و] سنةَ إحدى وسبعمائة. وأوْعَز إليه السُّلْطانُ ببناء البَطْحاء التي هَدَمَها مُحَمَّد بن عَبْد القويّ، فبناها، وتوغّل في قاصِية الشَّرق[ز]، ثمّ انكفأ راجعاً إلى حَضْرة أخيه، وعَطَف على بلاد بَني تُوجّينْ سنة ثنتَين، وفرَّ بنو عَبْد القويّ إلى ضَواحيهم بالقَفْر، ودخلَ جبلَ وَانْشَرِيس، وهدمَ حُصونَهم به، ورَجَع إلى الحَضْرة.

ثمَّ بادرهُ أهلُ تَافَرْكَنِيتْ سنةَ ثلاثٍ بإيتاء طاعَتِهم، ونقَضوا / بعدها، ثمَّ بعث [192 ب] أهل [المَدِيَّة][ح] بطاعتهم للسُّلْطان، فتقبّلها، وأوْعَز ببناءِ قَصَبتِها.

(أ) ساقطة من ص، ض (ب) سقط ما بين النجمين من ص، ض (ج) ظ، أ: ورغبوه (د) ساقطة من ص، ض، وبعدها في ظ، ص، ض: "وكان الوافد منهم يَحْيَى بنُ عطيَّة"، وهو تكرار (هـ) ساقطة من أ (و) ألحق ابن خلدون بخطه الزيادة المشمولة بين الحاصرتين في هامش نسخة أ، ض، ووردت أيضاً بهامش ص بخطٍّ مغاير لخطه. (ز) ص: المشرق (ح) ظ: المدينة

وراجع بَنو عَبْد القويّ - بعد ذلك - بصائرَهم [في][أ] طاعةَ السُّلْطان، ووفدوا عليه بمكانه من المَنْصُورَة مدينَتِه المُحيطة على تِلِمْسان سنةَ ثلاثٍ، فتقبَّل طاعتَهم، ورعى سابِقَتهم، وأعادهم إلى بلادِهم، وأقْطَعهم، وولّى عليهم علي بنَ النّاصِر بن عَبْد القويّ، وأوْعَز ببناء قَصَبة [المَدِيَّة][ب] سنةَ أربع، وكَمُلَت سنةَ خمس.

وهَلَك عليّ بن النّاصِر خلال ذلك، فعقد عليهم لمُحَمَّد بن عَطيَّة الأصم، كما ذكَرْناهُ، فاستمَرَّ على الطّاعَة، ثمَّ انتقض سنةَ ستٍّ، وحمل قَوْمه على الخلاف، وانتبذوا عن الوَطَن، إلى أنْ هَلَك يوسُف بن يَعْقُوب، كما نذكره.

الخَبَرُ عن مُراسلة المُوَحِّدين مُلُوك إفْرِيقِيَة بتُونِس وبِجَايَة، وأحواله معهم

كانت لبني أبي حَفْص مُلُوكِ إفْرِيقِيَّة مع زَنَاتة هؤلاء أهلِ المَغْرب من بَني مَرِين وبَني عَبْد الوَاد سَوابقُ مذكورةٌ؛ فكانت لهم على يَغْمَرَاسَن وبنيه طاعةٌ معروفةٌ يؤدُّون بَيْعَتها، ويَخطُبون على مَنابرهم بدَعْوتها مُذ تَغلُّب الأميرِ أبي[ج] زَكَرِيّاء يَحْيَى ابن عَبْد الوَاحِد على تِلِمْسان، وعَقْدِه[د] عليها[هـ] ليَغْمَرَاسَن. واستمَرَّ حالُهم على ذلك.

وكانت لهم أيضاً مع بَني مَرِين ولايةٌ [و]سابقةٌ[و]، بما كان بَنو مَرِين مُذ أوّل

(أ) ساقطة من ظ، ص (ب) ظ، ص: المدينة (ج) ظ، ص، ض: أبو (د) ض: وعقد (هـ) ظ: عليها (و) سقطت الواو من ظ

أمْرهم يخاطبون الأمير أبا زَكَرِيَّاء، ويبعثون له بَيْعة البلاد التي يتغلّبون عليها [من المغرب الأقْصَى][أ]؛ مثل: مِكْنَاسَة، والقَصْر، ومَرَّاكُش آخراً. ثم صارت مخالصةً من لَدُن عَهْد المُسْتَنْصِر ويَعْقُوب بن عبد الحَقّ. وكانوا يُتْحِفونهم بالمال والهدايا في سَبيل المَدَد على صاحب مَرَّاكُش.

وقد ذكرنا السّفارةَ التي وقعت بينها سنةَ خمسٍ وستّين، وأنَّ يَعْقُوب أوْفد عامر ابن إدْرِيس، وعَبْد الله بن كَنْدُوز، ومُحَمَّد الكِنَانِيّ، وأوْفد عليه المُسْتَنْصِر سنةَ سبعٍ بعدَها كبيرَ المُوَحّدِين يَحْيَى بنَ صالح الهِنْتَاتيّ في وَفْدٍ من مَشيخة المُوَحّدِين، ومعهم هديّة سنيّة. ثمَّ أوْفد الواثقُ ابنَهُ سنةَ سبعٍ وسبعين[1] قاضي بِجَايَة المذكور أبا العبَّاس أحمد الغُمَاريّ، وأسْنى الهَدِيَّة معه.

ولم يَزَل الشّأنُ بينهم هكذا[ب] إلى أنْ افترق أمرُ آلِ أبي حَفْص، / [193 أ] وطارَ الأميرُ أبو زَكَرِيَّاء ابنُ الأمير أبي إسحاق بن يَحْيَى بن عَبْد الوَاحِد من عُشّه بتِلِمْسان في وَكْر عُثْمان بن يَغْمَرَاسَن. وأسَفَّ إلى بِجَايَة، فاسْتولى عليها سنةَ ثلاثٍ وثمانين، واسْتضاف إليها قُسَنْطِينَة[2]،

(أ) زيادة من هامش ض بخط ابن خلدون (ب) أ: ذلك، ص، ض: هذا

(1) كانت كذلك في ظ ثم أصلحت لتصبح: سبع وتسعين، وهو خطأ؛ فالقاضي الغُماريّ توفي سنة 682هـ، وله ترجمة ضافية في عنوان الدراية للغبريني 93، وفيه خبر هذه السّفارة.

(2) قسنطينة: مدينة قديمة من مدن الجزائر، تقع على جبل شاهق، والصعود إليها لا يمكن إلا من طريقين صغيرين ضيقين، ويحيط بها من جهة الجنوب صخور عالية، ويمر في أسفل الجبر نهر اسمه سوفغمار. رحلة ابن بطوطة 1: 164، الوزان: وصف إفريقيا 2: 55 ـ، مقديش: نزهة الأنظار 1: 51، 83

وبُونَة[1]، وصيَّرها عَمَلاً لِمُلكه، ونَصَب بها كُرسيّاً لأمره. وأسِف عُثمان بن يَغْمَرَاسَن لفراره من بَلَده؛ لِمَا كان عليه من التمسُّك بدَعْوة عمِّه أبي حَفْص صاحِب تُونِس، فشقَّ ذلك عليه ونَكِره، واستمرّت الحالُ على ذلك.

ولمَّا نزل السُّلْطانُ يوسُف بن يَعْقُوب بمخنّق تِلِمْسان، وأرسى قَواعدَ مُلكه بساحتها، سَرَّحَ[أ] عساكِرَه لالتهام الأمصار والجهات، وتوجَّسَ[ب] المُوَحّدُون الخِيفةَ منه على أوْطانهم. وكان الأميرُ أبو زَكَرِيّاء في جِهاتِ تَدَلّس[2] مُحامياً عن حَوْزته وعَمَله، ووَصَله هُنالِكَ راشد بن مُحَمَّد نازعاً عن السُّلْطان أبي يَعْقُوب. ثمّ طلعت العَسَاكِر على تلك الجهاتِ في اتّباعه، فزحفَ إليه عَسْكَرُ المُوَحّدِين سنةَ تسع وتسعين بناحية جَبل الزَّان[3]، ففضُّوا جمعه، وأوْقعوا به، واستلحموا جنوده، واستحرَّ القتل فيهم، وبقيت عِظامُهم ماثلةً بمَصارِعهم سنين.

(أ) في الأصول الأربعة: وسرح (ب) ص: وتوحش

(1) بونة: مدينة قديمة بالجزائر على ساحل البحر، وفيها مرسى للسفن، ويطل عليها جبل زغوغ (مقديش: يدوغ) وهو كثير الثلج والبرد، وذكر التمكروتي أنها تسمى في وقته - نهاية القرن العشر الهجري - بلد العنّاب، بينما قال معاصره الوزان أن بلد العنّاب بنيت بعدها على بعد نحو ميلين، وذكر أيضاً أن اسمها القديم أربونة. مجهول: الاستبصار 127، رحلة ابن بطوطة 1: 164، الروض المعطار 115، الوزان: وصف إفريقيا 2: 61، النفحة المسكية 51، مقديش: نزهة الأنظار 1: 124

(2) تدلس ويقال: دَلّس، مدينة جزائرية تبعد عن شاطئ البحر الأبيض المتوسط نحو أربعين ميلاً، وهي مدينة قديمة مسوَّرة. الإدريسي: نزهة المشتاق 1: 259، الروض المعطار 132، الوزان: وصف إفريقيا 2: 42، مقديش: نزهة الأنظار 1: 51، 92

(3) جبل الزان: هو الجبل الممتد بالجزائر من تيزي أوزو في بلاد القبائل حتى بجاية، مرَّ به الرحالة ابن بطوطة في سفره بين متّيجة وبجاية، وعلق محقق الرحلة بأن جبل الزان هو المعروف بجبل البلوط. رحلة ابن بطوطة 1: 161، وانظر هامش المحقق رقم 23

ورجع الأميرُ أبو زَكَرِيَّاء إلى بِجَايَة، فانحصر بها، وهَلَكَ على تفيئة(أ) ذلك على رأس المائة السَّابعة. وقارن ذلك مغاضبة بينه وبين أمير الدَّوَاودَة(ب) لعَهْده عُثْمان بن سِبَاع بن يَحْيَى بن دُرَيْد بن مَسْعُود [البلط](ج)، فوَفَد على السُّلْطان [يوسف بن يعقوب بمكانِه من حصار تِلِمْسان](د) أُخْرِيات إحدى وسبعمائة، ورغَّبه في ملك بِجَايَة، واستغذَّه للسَّيْر إليها، فأوْعَز إلى أخيه الأمير أبي يَحْيَى بمكانِه من مُنازلة مَغْرَاوَة ومَلِيكَش والثَّعالبة(هـ)، بأنْ ينهض إلى عَمَل المُوَحِّدِين. وسار عُثْمان بن سِبَاع وقَوْمه بين يدي العَسَاكر ينقضون(و) الطَّرِيق، إلى أنْ تجاوزَ الأميرُ أبو يَحْيَى بعساكره بِجَايَة، [واحتلَّ بتاكَرَارَتْ(ز) من أوْطان سَدْوِيكَش في أعمال بِجَايَة](ح)، وأطلَّ على بلاد سَدْوِيكَش، وانكفأ راجعاً، فأوْطأ عَساكِرَهُ ساحةَ بِجَايَة، وبها الأميرُ خالد بن يَحْيَى، وناشَبَهم القتالَ بعضَ أيَّامٍ جَلَّى فيها أولياءُ السُّلْطان أبي البقاء عن أنفسهم وسُلْطانهم. وأمرَ بِرَوْض السُّلْطان المسمَّى بالبديع، فخُرِّبه، / وكان من آنَق الرِّياض [193 ب] وأحْفَلِها. وقَفَل إلى مكانه من تَدْوِيخ البلاد، وأعْرض عن أعمال المُوَحِّدِين.

وكان صاحبَ تُونِس لذلك العَهْد مُحَمَّدٌ المُسْتَنْصِر الملقَّب بأبي عَصيدةَ [بن](ط) يَحْيَى الواثق، فأوْفَد على السُّلْطان شيخَ المُوَحِّدِين بدَوْلته مُحَمَّد بنَ أكْمازِير [مؤكِّداً](ي) أسبابَ الولاية، ومُحْكِماً مَذاهبَ الوصلة، ومُقرِّراً سَوابق السَّلف،

(أ) ص: بقية (ب) أ: الذواودة (ج) ظ: الشلط (د) زيادة من هامش ض بخط ابن خلدون (هـ) ظ: والثعالبة (و) مهملة في ظ، وفي ض: ينفضون، والمثبت من أ، ص (ز) ص: بتاكراوت (ح) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ط) ظ، ص: أبي. وأبو عصيدة المذكور هو سابع الملوك الحفصيّين (694 ـ 709هـ). انظر عنه: ابن الشمّاع: الأدلة البيّنة النورانية 83 وفيه: "المنتصر"، الزركشيّ: تاريخ الدولتين 53، مقديش: نزهة الأنظار 1: 560 (ي) كتبت بهامش أ

فوَفَد في مَشيخةٍ من قَوْمه لشَعْبان سنةَ ثلاث. وناغاه الأميرُ أبو البقاء خالد صاحبُ بِجَايَة، فأوْفَد مَشيخته من أهل دَوْلته كذلك، وبرَّ السُّلْطان وِفادَتهم، وأحْسن مُنْقَلَبهم.

ثمَّ عاد ابن أكمازير سنةَ أربعٍ وسبعمائة، ومعه شيخُ المُوَحِّدِين وصاحبُ السُّلْطانِ أبو عَبْد الله بن يزريكن[أ] في وَفْدٍ من عُظماء[ب] المُوَحِّدِين. وأوْفد صاحبُ بِجَايَة حاجِبَه أبا مُحَمَّد الرَّخَاميّ، وشيخَ المُوَحِّدِين بدَوْلته عَيَّاد بنَ سعيد بن عُثَيْمن؛ ووفدوا جميعاً على السُّلْطان ثالثَ جُمَادَى، فأحْسن السُّلْطانُ في تَكْرمتهم ما شاء، وأوْصلهم إلى نفسه بمَساكِن دارِه، وأراهم أُبَّهة مُلكهِ، وأطافهم قُصورَه ورِياضَه، بعدَ أنْ فُرِشتْ ونُمِّقتْ، فملأ قلوبَهم جلالاً وعظمةً. ثمَّ بعثهم إلى المَغْرب؛ ليطوفوا على قُصورِ الملك بفاس ومَرَّاكُش، ويُشاهدوا آثارَ سلفهم. وأوْعَز إلى عُمَّال المَغْرب بالاستبلاغ في تَكْرمتهم وإتْحافهم؛ فانتهوا من ذلك إلى الغاية، وانقلبوا إلى حَضْرته آخر جُمَادَيْن، وانصرفوا إلى مُلُوكهم بالحديث عن شأن رِسالتهم[ج] وكَرامة وَفْدهم.

ثم أعاد مُلُوكُهم مُراسلةَ السُّلْطانِ سنةَ خمسٍ بعدَها؛ فوفَدَ أبو عَبْد الله بن أكمازير من تُونِس، وعيَّاد بن سعيد بن عُثَيْمن[د] من بِجَايَة، وأوْفد السُّلْطانُ على صاحب تُونِس مع رسولِه صاحبَ الفُتْيَا بحَضْرته[هـ] الفقيهَ أبي الحسن التَّنَسِيّ، وعلي

(أ) ظ: يرزكين، ومهملة في ص، والمثبت من أ، ض (ب) ظ، ص، ض: عطا (ج) ظ: تبيان وسائتهم (د) في الأصول الأربعة: عُثمان، وقد تقدم (هـ) ص: بحضرة

ابن يَحْيَى البَرِشْكِيّ رسولَيْن يسألانه المَدَدَ بأُسْطُوله، فقضوا رسالتَهم وانقلبوا سنةَ خمسٍ، ووصل بخبرها أبو عَبْد الله المزدُوريّ من مشيخة المُوَحِّدِين. واقترن بذلك وصولُ حَسُّون بن مُحَمَّد بن حَسُّون المكناسيّ من صَنائع السُّلْطان؛ كان أوْفده مع ابن عُثَيْمن على مُراسلة الأمير أبي البقاء خالد صاحب بِجَايَة في طَلب الأُسْطُول أيضاً، [فرجعوه][أ] بالمعاذير، وأوْفدوا معه عبد الله / بن عبد الحَقّ بن سُلَيْمان، [1194] فتلقَّاهم السُّلْطانُ بالمَبَرَّة، وأوْعَز إلى عامِلِه بوَهْرَان أنْ يَسْتبلغَ في تكريم عمرةِ الأُسْطُول، فجرى في ذلك على مَذهبه، وانقلبوا جميعاً أحْسَنَ مُنْقلب. وغَنِيَ السُّلْطانُ عن أُسْطُولِهم؛ لفَواتِ وَقْت الحاجة إليه من مُنازلة بلاد السَّواحل؛ إذ كان قد تملَّكها أيَّامَ مُماطلتهم ببعثه[ب].

واتَّصل الخَبَرُ بصاحب تِلِمْسان الأمير أبي زَيَّان بن عُثْمان المبايع أيَّامَ الحصار عندَ مَهْلِك أبيه عُثْمان بن يَغْمَرَاسَن آخرَ سنة ثلاثٍ، فبلَغه صنيعُ المُوَحِّدِين في مُوالاة عَدوِّهم السُّلْطان يوسُف بن يَعْقُوب ومُظاهرته بأساطيلهم عليه، فأسفهم[ج] ذلك، وأخرسوا مَنابرهم عمَّا كانت تنطقُ به من الدُّعاء من عَهْد يَغْمَرَاسَن فلم يُراجعوا دَعْوتهم من بعد. وهَلَكَ السُّلْطانُ على تفيئة[د] ذلك، والبقاءُ لله.

الخَبَرُ عن مُراسلة مُلُوك المشرق الأَقْصى ومُهاداتهم، ووفادة أمراء التُّرْك على السُّلْطان، وما تخلَّل ذلك

لمَّا استولى السُّلْطانُ على المَغْرب الأوْسَط بمَمالكه وأعماله، وهابتْه[هـ] مُلُوك

(أ) ساقطة من ظ (ب) ظ، أ: يبعته (ج) ظ: فلستفهم (د) ظ، ص: بقية (هـ) ظ: وهباته، ص: وهنأته

الأقطار، وأعرابُ الضَّواحي والقِفار، وصَلُحتِ السَّابِلَة، ومَشَتِ الرِّفاق إلى الآفاق، استجدَّ أهلُ المَغْرب عَزْماً في قَضاء فَرْضهم، ورَغِبوا من السُّلْطان إذنَه لرَكْب الحاجّ في السَّفَر إلى مَكَّة، فقد كان عَهْدُهم بَعُدَ بمثلها، لفَساد السَّابِلَة واسْتِهجان الدُّول. فسَما للسُّلْطان[أ] في ذلك أملٌ، وداخَلَه لحَرَم[ب] الله ورَوْضةِ نبيّه شوقٌ؛ فأمَرَ بانْتِساخ مُصْحفٍ رائق الصَّنعة؛ كتبه[ج] ونمَّقه أحمد بن حسن الكاتب المحسنُ، واسْتوسع في جِرْمِه، وجُعل[د] غشاوُه من بديع الصَّنعة، واستُكثِر فيه من مَغالق[هـ] الذَّهَب المُنظَّم بخَرزات الدُّرّ والياقوت، وجُعلت منها حصاةٌ وسطَ المغلق تفُوق[و] الحُصيَّات مِقْداراً وشكلاً وحُسْناً، واستُكثِر من الأَضْوِنَةِ عليه، ووَقَفه على الحرم الشَّريف، وبَعَثَ به مع الحاجّ سنة ثلاث.

وعُني بشأن هذا الرَّكْب، فسرَّح معهم حاميةً من زَنَاتَة تُناهز خمسَمائة من الأبطال. وقلَّد القضاءَ عليهم مُحَمَّد بن زَغْبوش[ز] من أعلام أهل المَغرب، وخاطبَ صاحبَ الدِّيار المِصْريَّة[1]، واستوصاه / بحاجّ المَغْرب[ح] من أهل مَملكته، وأتْحفه [194 ب] بهديَّة من طُرَفِ بلاده، فاستَكثَر فيها من الخيلِ العِرَاب، والمطايا الفارِهة، يُقال: إنَّ المطايا كانت منها أربعمائة، حدَّثني بذلك مَن لَقيته، إلى ما يناسب ذلك من طُرَفِ المَغْرب ومَاعُونه. ونهج السَّبيل بها للحاجّ من أهل المَغْرب، فأجْمعوا الحجّ سنةَ أربعٍ

(أ) ظ، أ، ص: السلطان (ب) ظ، ص: بحرم (ج) بعدها في ظ: واستكثر، وطمست من ض، أ (د) ص، ض: وحمل (هـ) أ، ص: معالق (و) ظ، أ، ص: تفوت (ز) ظ: زغبوش (ح) ظ: أهل المغرب

---

(1) هو السلطان النّاصر محمد بن قلاوون، وكان ذلك في مدة سلطنته الثانية (697ـ 708هـ). أخبار الدول للقرماني 2: 279

بعدها. وعقد السُّلْطان على دلالتهم لأبي زيد الغفائريّ، وفَصَلوا من تِلِمْسان لشهر ربيع الأوَّل.

وفي شهر ربيعِ الآخر بعده كان مَقْدمُ الحاجّ الأوَّلين حَمَلةِ المُصْحَف، ووَفَد معهم على السُّلْطانِ الشَّريفُ لُبَيْدَة بن أبي نُمَيّ نازعاً عن سُلْطان التُّرْك، لمَّا كان تقبَّض على أخوَيْه حُمَيْضَة ورُمَيْثَة[أ] إثر مَهْلِك أبيهم أبي نُمَيّ صاحبِ مَكَّة سنةَ إحدى وسبعمائة[1]، فاستَبلغ السُّلْطان في تَكْرِمه، وسَرَّحَه إلى المَغرب؛ ليجولَ في أقطاره، ويطوفَ على مَعالم المُلْك[ب] وقُصوره. وأوْعَز إلى العُمَّال بتكريمه، وإتحافه كلٌّ على شاكلته. ورَجَع إلى حَضْرة السُّلْطان سنةَ خمسٍ، وفصل منها إلى المشرق، وصَحِبه من أعلام المَغْرب أبو عَبْد الله الأَقْوَرِيّ[ج] حاجّاً.

ولشَعْبان من سنةِ خَمْسٍ وَصَل أبو زيد الغفائريّ دليلُ رَكْبِ الحاجّ الآخرين، ومعه بيعةُ الشُّرفاءِ أهلِ مَكَّة للسُّلْطان، لما أسفهم صاحبُ مِصْر بالتَّقبُّض على إخوانهم، وكان شأنهم ذلك متى غاضَبهم السُّلْطان؛ فقد سَبق في أخبار المُسْتَنْصِر بن أبي حَفْص مثلها، وأهدى السُّلْطانُ[د] ثوباً من كِسْوة البيت شُغف به، واتَّخذ منه ثوباً للباسه في الجُمَع والأعياد، يَسْتبطنه بين ثيابه تبرُّكاً به.

(أ) ظ، ض: ورميتة (ب) ص: الملكة (ج) ظ: الكفوري، ص: فوزي، والمثبت من أ، ض. وهو محمد بن إبراهيم، ترجم له المقري، وفيه: "اليقُّوري" نسبة إلى يقُّورة بالأندلس. وهو عالم بالحديث والأصول، وله فيها مؤلفات، قدم إلى مصر ومعه مصحف قرآن ... بعثه ملك المغرب ليوقف بمكة، وتوفي بمراكش سنة 707هـ. نفح الطيب 2: 53، الزركلي: الأعلام 5: 297 (د) أ: للسلطان

(1) عن وفاته وما دار بين أبنائه، انظر: الدرر الفرائد المنظمة للجزيري 1: 386، أمراء البلد الحرام لأحمد زيني دحلان 44.

ولَمَّا وَصَلت هديَّةُ السُّلْطان إلى صاحبِ مِصْر لعَهْده المَلِكِ النَّاصِر مُحَمَّد بن قَلاوون الصَّالحيّ حَسُن مَوْقعُها لديه، وذَهب إلى المكافأة، فَجمع من طُرَفِ بِلاده من الثِّياب والحيوان ما يُسْتغرب جِنْسهُ وشَكْله من نوع الفيل والزَّرَافة، وأوْفد بها من عُظماء دَوْلته الأمير التَّلِيلِيّ[أ]، وفَصَل من القاهرة أُخْريات سنة خَمْس، ووصلت إلى تُونِس في ربيعِ من سنة ستٍّ بعدها. ثمَّ كان وُصولُها إلى سُدَّة السُّلْطان بالمَنْصُورَة من البَلَد الجَدِيد في جُمَادَى الآخرة. واهتزَّ السُّلْطانُ لقُدومها، واستَركب النَّاسَ للقائها، واحتفل / للقاء هذا الأميرِ التَّلِيلِيّ ومَن معه من أمراء التُّرْك، وبُرور [195 أ] وِفادَتِهم، واستَبلغ في تَكْرِيمهم نُزُلاً وقِرىً، وبعثهم إلى المَغْرب على العادة في مَبرَّة أمثالهم.

وهَلَكَ السُّلْطانُ خلالَ ذلك، وتقَيَّل[ب] أبو ثابت سُنَّته من بعده في تَكْرِيمهم، وأحْسن مُنْقلَبهم، وملأ حقائبَهم صِلةً وبِرّاً. وفَصَلوا من المَغْرب لذي الحِجَّة سنة سَبْعٍ.

ولَمَّا انتهوا إلى بلاد بَني حسن في ربيعٍ من سنة ثمان، اعترضهم الأعرابُ بالقَفْر، فانتهبوهم، وخَلصوا إلى مِصْر بجُرَيْعَة الذَّقَنِ[1]، فلم يُعاودوا بعدَها إلى

(أ) ضبطها في أ بضم المثناة الفوقية وفتح اللام: التُّلَيلِيّ، والمثبت من ابن حجر العسقلاني الذي ضبطه بالحرف: بفتح المثناة وكسر اللام. وهو الأمير علاء الدين أيدغدي التليلي توفي بدمشق سنة 728هـ. انظر: الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني 1: 425، عقد الجمان لبدر الدين العيني 4: 379 (ب) ص: وتقبل

(1) مَثَلٌ، كناية عمّا بقي من الروح، كأنَّ النفس في فيه وقريباً منه كقُرب الجرعة من الذقن. الميداني: مجمع الأمثال 2: 69، لسان العرب، مادتا: فلت، جرع.

المَغْرب سفراً، ولا لفتوا إليه وَجْهاً. وطالما أوْفد عليهم مُلوكُ المَغْرب بعدَها من رجال دَوْلتهم مَن يؤبه له، ويُهادونهم، ويُكافئون، ولا يزيدون في ذلك كلّه على الخِطاب شيئاً.

وكان النّاسُ لعَهْدهم ذلك يتّهمون أنَّ الذين نهبُوهم أعرابُ حُصَيْن، بدَسِيْسَةٍ من صاحب تِلِمْسان أبي حَمُّو لعَهْدهم، مُنافسةً لصاحِب المَغْرب؛ لِمَا بينهم من العَداوات والإحَن القَديمة.

أخبرني شيخُنا مُحَمَّد بن إبراهيم الآبِليّ، قال: حضرتُ بين يَدي السُّلْطانِ وقد وَصَله بعضُ الحاجّ من أهل بَلَده مُستصحباً كتابَ الملك النّاصِر بالعِتَابِ على شأن هؤلاء الأمراء، وما أصابهم في طَريقهم من بلاده، وأهدى له مع ذلك كويْبَيْن[أ] بدُهْنِ البَلَسَان المختصّ ببلَدِهم، وخمسة ممالك[ب] من التُّرْك رُمَاةٍ بخمسة أقواس من قِسِيّ الغُزّ المؤلّفة الصَّنْعَة من الغِرَى والعَقَبِ، فاستقلّ السُّلْطانُ هديّته تلك بنسبة ما أهْدوا إلى ملك المَغْرب. ثمَّ استدعى القاضي مُحَمَّد بن هَدِيَّة[1] - وكان يكتبُ عنه - فقال له: الآن [اكتب][ج] إلى الملك النّاصِر كما أقول لك، ولا تحرّف كلمةً عن مَوْضعها إلاّ

(أ) أ: كوزين (ب) كذا رسمها في الأصول، وتأتي كذلك بعدُ. والمراد: مماليكُ يحذقون الرمي بالقسيّ (ج) ساقطة من ظ، ص، ض، ووردت بهامش أ

(1) لعله محمد بن منصور بن عليّ بن هديّة القرشي التلمساني، أبا عبد الله، من القضاة والكتّاب البلغاء، ولي القضاء بتلمسان، وقلّده السلطان مع القضاء كتابة سرّه. توفي سنة 736هـ. ابن خلدون: بغية الرواد 1: 116، النباهي: المرقبة العليا 134، تعريف الخلف 549، الزركلي: الأعلام 7: 112

ما يقتضيه صناعةُ الإعراب، وقُل له:

"... أمَّا عتابُك على شأن الرُّسُل وما أصابهم في طَريقهم، فقد حَضروا عندي وأَبَيْتُ لهم الاستعجالَ حذراً ممّا أصابهم، وأريتهم مَخاوفَ بلادِنا وما فيها من غَوائل الأعراب، فكان جوابُهم: إنّا جئنا من عند مَلِك المَغرب(أ) فكيف نخاف؟! مُغترّين بشأنهم يحسبون أنَّ أمْرَه نافذٌ في أعراب فَلاتِنا. وأمَّا الهَدِيَّة فُردَّ عليك. أمَّا دُهْن / البَلَسان، فنحن قومٌ باديةٌ لا نعرف إلاَّ الزَّيت، وحَسْبنا به دُهناً. وأمَّا المَماليك الرُّماة فقد افتتحنا بهم إشْبيلِيَّة وصَرَفْناهم إليك لتَستفتح(ب) بهم بَغْدَاد، والسَّلام". [195 ب]

قال لي شيخُنا: وكان النَّاسُ إذ ذاك لا يشكُّون أنَّ انتهابَهم كان بإذنٍ منه، وكان هذا الكتابُ دليلاً على ما في نفسه، ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص آية 69].

الخَبَرُ عن انتقاض ابن الأحْمر، واستيلاء الرَّئيس أبي سعيد على سَبْتَة، وخروج عُثمان بن أبي العُلَى في غُمَارَة

لمَّا أحْكَم(ج) السُّلطانُ عَقْدَ المُهادَنة والوِلاية مع السُّلطان ابن الأَحْمر المعروف

(أ) ص: الغرب (ب) أ، ض: لتفتح (ج) ص: حكم

بالفَقيه، عندَ إجازته إليه بطَنْجَة سنةَ ثنتَين وتسعين كما ذكَرْناهُ، وفرَغ لِعَدُوّه، تمسَّك ابنُ الأحْمر بولايته[أ]، إلى أنْ هَلَك سنةَ إحدى وسبعمائة في شَهْر شَعْبان منه. وقامَ بأمر الأنْدلُس من بعده ابنُه مُحمَّد المعروفُ بالمَخْلُوع[1]، واستَبدَّ عليه كاتِبُه أبو عَبْد الله بن الحكيم من مَشيخة رُنْدَة؛ كان اصْطفاه لكِتابَتِه أيّام أبيه، فاضْطلعَ[ب] بأُموره وغَلَب عليه.

وكان هذا السُّلْطانُ المَخْلُوع ضَريرَ البَصَر، *ويقالُ: إنّه ابنُ الحكيم*[ج]، فغَلَب عليه واستَبدّ، إلى أنْ قَتَلَها[د] أخوه أبو الجيوش نَصْر سنةَ ثمانٍ، كما نذكُره.

وكان من أوَّل آرائه ـ عندَ استيلائه على الأمْر من بعد أبيه ـ المبادرةُ إلى إحْكام ولاية السُّلْطان، واتّصال[هـ] يده بيده، فأوْفَد عليه لحين ولايته وزيرَ أبيه أبا سُلْطان[و] عزيزَ الدّانيّ، ووزيرَه الكاتب أبا عَبْد الله بن الحكيم؛ فوَفَدوا على السُّلْطان بمُعَسْكَره من حِصار تِلِمْسان، وتُلُقِّيا[ز] بالقَبول والمَبَرَّة، وجُدِّدت له أحْكامُ الوُدّ والوِلاية، وانقلبا إلى مُرْسِلِهما خيرَ مُنْقَلب. وتَقَدَّم السُّلْطانُ إليهم في المَدَد برَجْل

(أ) بعدها في ظ، ص: بتلك، وطمست في أ، ض (ب) ص: فاطلع (ج) شطب ما بين النجمين في أ، ض (د) أ، ض: قتله، على اعتبار أن الجملة الاعتراضية السابقة شطبت (هـ) ظ: وإيصال (و) ظ، ص، ض: أبا السُّلطان. وتقدم رسمه صحيحاً، وهو عزيز بن علي بن عبد المنعم الداني، أبو سلطان. الإحاطة 2: 445 وفيه: أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الدانيّ، نفح الطيب 5: 498، والاسم فيه كما في الإحاطة (ز) ظ: وتلقا

(1) محمد بن محمد بن محمد (701 ـ 708هـ). اللمحة البدرية 60

الأندَلُس وناشِبَتِهم المعوَّدين مُنازلةَ الحصون والمُثاغَرة بالرُّبُط، فبادَروا إلى إسعافه، وبعثوا حصَّتهم لحين مَرْجِعهم إلى سُلْطانهم، فوَصَلت سنةَ ثنتين وسبعمائة. وكانت لها نِكايَةٌ في العَدُوّ، وأثرٌ في البَلَد المَحْرُوب[أ].

ثمَّ بدا لمُحَمَّد بن الأَحْمر المَخْلُوع في ولاية السُّلْطان بمنافَساتٍ جرَّت [196أ] إلى ذلك. وبَعث إلى ابن أذْفُونْش / هِرَّانْدُهْ بن شانْجُهْ، وأحكم له عَقْد السِّلْم، ولاطَفَهُ في الوِلاية، فانعَقد ذلك بينهما سنةَ ثلاثٍ. واتَّصل خبرُه بالسُّلْطان، فسَخِطه، ورجَّع إليهم حصَّتهم آخرَ سنة ثلاث، لسنةٍ من مَقْدَمِهم، بعد أنْ أبلوا وأثخنوا، وطوى لهم على النَّثّ. واعْتَمل ابنُ الأَحْمر وشيعتُه في الاستعداد لمدافعة السُّلْطان، والإرصاد لسَطْوِه بهم. وأوْعَز إلى صاحب مَالَقَة ابنِ عمِّه الرَّئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن مُحَمَّد بن نَصْر، وَليِّه من دون القرابة بما كان له الصِّهْرُ على أخته، والمُضْطلع بثغر الغَرْبيَّة، فأوْعَز إليه بمُداخلة أهل سَبْتَة في خَلْع طاعة السُّلْطان، والقَبْض على بَني العَزَفيّ، والرُّجوع إلى ولاية ابن الأَحْمر[1].

وكان أهلُ سَبْتَة منذ هَلَك أميرُهم الفقيهُ أبو القاسم العَزَفيّ سنةَ سبعٍ وسبعين، قامَ بأمرهم وَلَدُه أبو حاتم. وكان أخوه أبو طالب رَديفاً له في الأمر، إلاَّ أنَّه استبَدّ

(أ) ظ، ص، ض: المحروب، والمثبت من أ

(1) المقري: أزهار الرياض 2: 92، يوسف شكري فرحان: غرناطة في ظل بني الأحمر 38

عليه بصاغيته(أ) إلى الرِّيَاسَة، وإيثار أبي حاتم للخُمول، مع إيجابه حقَّ أخيه الأكبر، وإجابته الدَّاعي [متى](ب) روفع إليه، فاستقام أمرُهما مدَّةً. وكان من سياستهما من أوّل أمرهما الأخذُ بدَعْوة السُّلْطان فيما لنظرهما، والعَمَلُ بطاعته، والتَّجافي عن السُّكْنى بقُصور الملك، والتَّحرّج(ج) عن أُبَّهةِ السُّلْطان إمْكانَهم، فأنزلوا بالقَصَبة عَبْدَ الله بنَ مخلص؛ قائداً من البيوتات اصْطنعوه، وجَعلوا إليه إحْكام البَلَد، وضَبْطَ الحامية، فاضطلع بذلك سنين. ثمَّ أسفه يَحْيَى ابن أبي طالب ببعض النزعات(د) الرِّياسيَّة، وحجر عليه الأحكام في ذويه. ثمَّ أغرى به أباه(هـ)، وطالَبه بحساب الخَرْج لعَطاء الحامية. وغفلوا عمَّا وراءها من التَّظنّن فيه، والرِّيب به؛ ثقةً بمكانه، واستنامةً إليه. وهم مع ذلك على أوَّلهم في مُوالاة السُّلْطان، والأخذ بدَعْوته، والوفود عليه في أوقاته.

ولمَّا فَسدت ولايةُ ابن الأحْمر للسُّلْطان، وعقد على مُحاولة سَبْتَة، وَجَد السَّبيل إلى ذلك بما طَوى صاحب الأحكام بالقَصَبة على النَّثِّ. فداخَله الرَّئِيسُ أبو سعيد صاحبُ الثَّغْر بمَالَقَة جارة سَبْتَة، ووَعَده الغَدْرَ ببَني العَزَفيّ، وأنْ يَصْحَبهم بأساطيله، فشرَع(و) الرَّئِيسُ أبو سعيد / في إنشاء الأساطيل البَحْريَّة، واسْتنفارِ النَّاس [196 ب] للمُثاغَرة(ز)، وأنَّ العَدُوَّ له ولمَالَقَة بمِرْصاد، وشَحَنها بالفُرْسان، والرَّجْل، والنَّاشِبة، والأقْوات، وأخْفى وَجْهَ قَصْدِه عن النَّاس حتّى أقْلعت أساطيلُه، [و]بيَّتَ سَبْتَة

(أ) ظ، ض: بطاغيته، ص: بطاعته (ب) ساقطة من ظ (ج) ظ، ض: والتخرج (د) ص: النزغات (هـ) في ظ: ثم أغرى به أباه، أ: إغرائه إياه، والمثبت من ص، ض (و) ظ: فسرع (ز) ص: للمناغرة

لسبعٍ وعشرين من شَوَّال سنة خَمْس، وأرسى بساحَتِها لمِوْعدِ صاحب القَصَبة، فأدخلَه إلى حِصْنه، فملَكه، ونَشَر راياتِه بأسوارِها، وسرَّب جُيوشَه إلى البَلَد، فتَسَاتَلُوا، ورَكِب إلى دُور بَني العَزَفيّ، فتقبَّض عليهم وعلى وَلَدِهم وحاشيتِهم.

وطيَّر الخبرَ إلى السُلْطان بغَرْنَاطَة، فوَصَل الوَزيرُ أبو عَبْد الله بن الحكيم، ونادَى في النّاس بالأمان، وبَسَط المَعْدَلَة[1]. وأرْكَب بَني العَزَفيّ السُّفُنَ إلى مَالَقَة، ثمّ أجازوا إلى غَرْنَاطَة، وقَدِموا على ابن الأحْمر، فأجلَّ قُدومَهم، وأركَبَ النّاس إلى لقائِهم، وجَلَس لهم جُلوساً فَخْماً حتّى أدَّوا بَيْعتَهم، وقَضَوْا وفادتَهم، وأُنزلوا بالقُصور، وأُجريت عليهم سَنيّاتُ الأرزاق. واستقرّوا بالأنْدَلُس إلى أنْ صاروا إلى المَغْرب بعد، كما نذكر.

واستبَدَّ الرَّئيسُ أبو سعيد بأمْر سَبْتَة، وثقف أطرافَها، وسدَّ ثُغورَها، وأقام دَعْوةَ ابنِ عمِّه صاحبِ الأنْدَلُس بأنحائها.

وكان عُثْمان بن أبي العُلَى بن عبد الحَقّ من أغْياص(أ) الملك المَرِينيّ، أجاز معه البَحْرَ إليها أميراً على الغُزاة الذين كانوا بمَالَقَة، وقائداً لعُصَبِهم تحتَ لوائه، فموّه بنصبه للملك بالمَغْرب. وخاطَب قبائلَ غُمَارَة في ذلك(ب)، فوَقفوا بين الإقْدام والإحْجام. واتَّصل ذلك كلُّه بالسُّلْطان، وهو بمُعَسْكَره من حِصارِ تِلِمْسان؛ فاسْتَشاطَ لها

(أ) ظ، ص: أعياض (ب) ص: في ذاك

(1) المَعْدَلة والمَعْدِلة والعُدولة والعَدالة، كلّه: العَدْل. لسان العرب، مادة: عدل

غضباً، وحَمِيَ أنفه بعزّة[أ]، واستفزّه الصَّريخ؛ فبعث ابنه الأميرَ أبا سالم لسدّ تلك الفُرْجة، وجمع إليه العَساكر، وتقدَّم إليه باحتشادِ قبائل الرّيف، وبلاد تازَى، فأغَذَّ السَّيْرَ إليها، [ونازَلَ سَبْتَةَ][ب]، وأحاطت عَساكِره بها، فحاصَرها مُدّة. ثم بيّته عُثْمان ابن أبي العُلَى؛ فاختلّ معَسْكَره، وأفرج عنها مُنْهزماً، فسَخِطه السُّلْطانُ، وزَوَى عنه وَجهَ رِضاه. وسار عُثْمان بن أبي العُلَى في نَواحي سَبْتَة وبلاد غُمَارَة، وتغلّب على تيكَيسَّاس[1]، وانتهى إلى قَصْر ابن عبد الكريم[2] في آخر سنة ستٍّ لسنةٍ[ج] من / استيلائهم على سَبْتَة، مُقيماً رَسْمَ السُّلْطان، مُنادياً بالدُّعاء لنفسه، فاعتزمَ [197أ] السُّلْطان على النُّهوض إليه عندَ الفَراغ من أمر تِلِمْسان، لما كانت على شَفا هَلَكةٍ ومُحاينة انقضاضٍ[د]، لولا عائقُ[هـ] الأقْدارِ بمَهْلِكه، كما نذكره.

(أ) ظ: بعرة، آ، ض: نعرة، ص: نفرة. وحَمِيّ الأنف: مَن لا يحتمل الضيم، وحمي أنفه من كذا: أنِف منه. وفي المثل: رُبَّ حامٍ لأنفه وهو جادعه. مجمع الأمثال 2: 290 (ب) زيادة من هامش آ، ض بخط ابن خلدون (ج) ظ، ض، ص: لستته (د) آ: انقضاض (هـ) ظ: عواتق

---

(1) انظر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 51 .

(2) ويُعرف أيضاً بقصر صنهاجة، كما قال صاحب الاستبصار 189، لكنه عنده قصر عبد الكريم، وعرّفه على أنه شيخ من شيوخ كتامة القاطنين هناك، فبنى فيه داراً سمّيت قصراً؛ لانعدام القصور بتلك الجهات، ومثله أيضاً "قصر عبد الكريم" عند ياقوت (معجم البلدان 4: 360)، وفيه: مدينة على ساحل سبتة مقابل الجزيرة الخضراء من الأندلس. ويذكره الإدريسي بكلتا التسميتين في سطر واحد: "ومن بلاد مكناسة في جهة الغرب إلى قصر عبد الكريم ثلاث مراحل، وقصر ابن عبد الكريم يسكنه قوم من البربر ..."، وهو بقرب البحر. نزهة المشتاق 1: 246، الروض المعطار 476، مقديش: نزهة الأنظار 1: 73، 98

الخَبَرُ عن انتقاض بَني كمي من بني عبد الواد، وخُروجهم بأرض السُّوس

كان هؤلاء الرَّهطُ من بَني عَبْد الوَاد، ثمَّ من بطون بَني عليّ، من شعب آيت القاسم، وكانوا يرجعون في رياستهم إلى كَنْدُوْز [بن عبد الله][أ] بن كمي. ولمَّا استقلّ برِياسة أولاد علي زَيَّان بن ثابت بن مُحَمَّد من أولاد طاع الله، نَفِس عليه كَنْدُوْز هذا ما آتاه الله من الرِّيَاسَة، وجاذَبه حَبْلَها. واحتقر زَيَّان شأنه، فلم يحفل به. ثمَّ تأشَّبَت[ب] عليه أخلاطٌ من قَوْمِهم، وواضَعه الحَرْبَ، وهَلَكَ زَيَّان بيد كَنْدُوْز، وقامَ بأمر أولاد عليّ جابر بن يوسُف بن مُحَمَّد.

ثمَّ تَناقلت الرِّيَاسَةُ فيهم إلى أنْ عادت في وَلَد ثابت بن مُحَمَّد، واستقلّ بها أبو عزة زكْداز بن زَيَّان، ولم تَطُل أيَّامه. والْتحم بين أولاد كمي وبين أولاد طاع الله، وتناسَوا الإحَن، وصارت رِياسةُ أولاد طاع الله ليَغْمَرَاسَن بن زَيَّان، واستتبعوا قبائل بَني عَبْد الوَاد كافَّة.

واعتمَل يَغْمَرَاسَن في الثأر بأبيه زَيَّان من قاتِلِه كَنْدُوْز؛ فاغتالَه ببَيْتِه؛ دعاه[ج] لمأدُبةٍ جَمع لها بَني أبيه، حتّى إذا اطمأنَّ المجلسُ تَعاوَرُوهُ بأسْيافهم، واحتَزّوا رأسَه، وبعثوا به إلى أُمّهم، فنَصَبت عليه القِدْرَ ثالثَ أثافيها تَشَفِّياً منه وحَفيظَةً.

(أ) مكانها بياض في سائر الأصول قدر كلمة، والإضافة من موضع آخر من هذا الجزء. (ب) ساقطة من ص (ج) أ: ودعاه

وطالَبَ يَغْمَرَاسَن بقيّةَ بَني كَنْدُوز، ففرّوا أمامَ مُطالبته، وأبعدوا المذهب، ولَحِقوا بالأمير أبي زَكَرِيّاء بن عَبْد الوَاحِد بن أبي حَفْص، فأقاموا بسُدَّته أحوالاً. وكانوا يرجعون في رِياستِهم لعَبْد الله بن كَنْدُوز. ثمّ تذكّروا عَهْدَ البداوة، وحنّوا إلى عَشير زَنَاتَة؛ فراجعوا المَغْرب، ولَحِقوا ببَني مَرِين أقتالهم.

[197 ب] ونزلَ عَبْد الله بن كَنْدُوز على / يَعْقُوب بن عبد الحَقّ خيرَ نُزُل، تلقّاه من البرّ والتّرحيب بما ملأ صَدْره، وأكّد اغتباطَه، وأقْطعه بناحية مَرَّاكُش الكفاية له ولقَوْمه، وأنزلهم هناك. وجعل انتجاعَ إبِلِه وراحِلَتِه لحَسَّان بن أبي سعيد الصُّبَيْحِيّ، وأخيه موسى من ذَويهم وحاشيتهم، وألْطفَ منزلةَ عَبْد الله، ورفعَ مكانَه بمَجْلسه، واكتفى به في كثيرٍ من أموره. وأوفد على المُسْتَنْصِر صاحب إفْرِيقِيَّة سنةَ خَمْسٍ وستّين، مع عامر ابن أخيه إدْرِيس، كما قدَّمناه.

واستقرّ بنو كَنْدُوز هؤلاء بالمَغْرب الأقْصَى. واستمرّت الأيّام على ذلك، وصاروا من جُملة قبائل بَني مَرِين وفي عِدادهم. وهَلَكَ عَبْد الله بن كَنْدُوز، وصارت رِياستُهم لعُمَر ابنه مِن بعده.

ولمّا لفتَ السُّلْطانُ يوسُف بن يَعْقُوب وَجْهَ عزائمه إلى بَني عَبْد الوَاد، ونازلَ تِلِمْسان، وطاولَ حِصارَها، واستطالَ بَنو مَرِين وذَووهم على بَني عَبْد الوَاد، وأحسّوا بها؛ أخذتهم العزَّة بالإثم، وأدْركتهم النّعرة[أ]، فأجْمع بَنو كَنْدُوز هؤلاء

(أ) ص: النغرة

الخِلافَ والخروجَ [على](أ) السُّلطان، ولَحِقوا بجَاحَة سنةَ ثلاثٍ وسبعمائة؛ واحتفل الأميرُ بمَرَّاكُش، يَعِيش بن يَعْقُوب، لغَزْوهم سنةَ أربعٍ وسبعمائة، فناجَزوه الحَرْبَ بتادرت(1)، واستمَرّوا على خِلافهم.

ثمَّ قاتلَهم يَعِيش وعساكِرُه ثانيةً بتامطريت(ب) سنةَ أربعٍ، فهزمهم الهزيمةَ الكبرى التي حصَّت جناحَهم، وأوْهنت من بأسهم. وقتلَ جماعةً من بَني عَبْد الوَاد بأزْغَارَن تامكا(ج)، وأثخن يَعِيش بن يَعْقُوب في بلاد السُّوس، وهَدَم تَارَوْدَنْت(2) قاعدةَ أرضِها وأُمَّ قُراها؛ كان بها عبد الرَّحمن بن الحسن بن يَدَّر من بقيَّة الأُمراء على السُّوس من قبل بَني عَبْد المُؤمن، وقد مرّ ذكرهم، وكانت بينه وبين العَرَب المَعْقِل من الشَّبَانَات وبَني حَسَّان منذ انقرضت دولةُ المُوَحِّدين حروبٌ سِجالٌ؛ هَلَكَ في بعضِها عمُّه علي ابن يَدَّر سنةَ ثمانٍ وستّين، وصارت إمارتُه بعد حين إلى عبد الرَّحمن هذا. ولم يزالوا في حَرْبه إلى أنْ تملّكَ / السُّوس يَعِيش بن يَعْقُوب، وهدم تَارَوْدَانْت. [198أ]

(أ) ظ: عن (ب) ظ، ض: بتامطديت (ج) كذا في ظ، ض، وفي أ: بأزغازن تاكما، ص: بارعارن بامكا، ولعل الموضع المذكور هو ما ذكره الوزان "أزغاز لِكّارَن"؛ وهو سهل من إقليم الحوز بنواحي فاس، تحيط به جبال مكسوة بالغابات. انظر وصف إفريقيا 1: 365

---

(1) ذكرها مقديش: تادرة، قرية في حضيض جبل فيه عين ماء، بينها وبين تلمسان مرحلة. مقديش: نزهة الأنظار 1: 86

(2) في الاستبصار 211: تارُودانت، وتأتي بَعْدُ بهذا الرسم، وعند الوزان: تَرُودَانْت، وعند مقديش: تارْدانت، والمثبت يوافق الإدريسي، وهي مدينة تقع جنوب الأطلس الكبير، وقد اتخذ بنو مرين منها - عند سيطرتهم على السوس - مركزاً لإقامة نائب السلطان في الإقليم. الادريسي 1: 227، 241، الوزان: وصف إفريقيا 1: 117، مقديش: نزهة الأنظار 1: 51

ثمّ راجَعَ عبد الرّحمن أمْرَه، وبَنى بلده تَارَوْدَانْت هذه سنة ستٍّ بعدها. ويزعم بَنو يَدَّرْ هؤلاء أنهم مستقرّون بذلك القُطر من لَدُن عَهْد الطَّوالع من العَرَب، وأنّهم لم يزالوا أمراءَ به(أ)؛ تُعقد لهم ولايتُه كابِراً عن كابِر.

ولقد أدركتُ بفاس على عَهْد السُّلطان أبي عِنَان وأخيه أبي سالم من بعده شيخاً كبيراً من وَلَد عبد الرّحمن هذا، فحدَّثني بمثل ذلك، وأنّهم وَلَدُ أبي بكر الصِّدّيق، والله أعلَم.

ولم يَزَل بنو كَنْدُوز مشرَّدين بصحراء السُّوس إلى أنْ هَلَكَ السُّلطانُ، وراجعوا طاعةَ المُلُوك من بَني مَرِين مِن بعده، وعفَوْا لهم عمَّا سَلَف من هذه الجَرِيرة، وأعادوهم إلى مَكانهم من الولاية، فأمْحضوا النَّصيحةَ والمُخالصة إلى هذا العَهْد، كما سنذكره.

الخَبَرُ عن مَهْلِك المشيخة من المَصَامِدة بتلبيس ابن المِلْيَانيّ

قد ذكرنا شأنَ أبي عليٍّ المِلْيَانيّ وأوَّليتَه في أخبار مَغْرَاوَة الثانية، وما كان من ثورته بمِلْيَانَة، وانتزائه عليها، ثم إزعاج العَسَاكر إيّاه منها، ولحاقه بيَعْقُوب بن عبد الحَقّ سُلْطانِ بَني مَرِين، وما أحلّه من مَراتب التَّكْرمة والمَبَرَّة، وأقْطعه بَلَد أَغْمَات طُعْمَةً، فاسْتقَرّ بها، وما كان منه في العَبَث(ب) بأشلاء المُوَحِّدين ونَبْش أجداثِهم، ومَوْجَدة

(أ) ظ، أ: أمرائه (ب) ظ: العيث

السُلْطان والنَّاس عليه لذلك. وأرْصد[أ] له المَصَامِدَة الغوائل لِمَا كان منه في ذلك.

ولمَّا هَلَكَ يَعْقُوب بن عبد الحَقّ، استعمله يوسُف بن يَعْقُوب على جِبَاية المَصَامِدَة، فلم يضطلع بها. وسَعى به مَشْيختهم عندَ السُلْطان أنّه اختَجَن المالَ لنفسه، وحاسبوه، فصدقوه السّعايَة، فاعتقله السُلْطانُ وأقْصاه. وهَلَكَ سنةَ ستٍّ وثمانين، واصْطنع السُلْطان أحمد ابن أخيه، واستعمله في كتابتِه، وأقام على ذلك ببابه وفي جُمْلته. وكان / [198 ب] السُلْطانُ سَخِط على مَشْيخة المَصَامِدَة: عليّ بن مُحمَّد كبيرِ هِنْتَاتَة، وعبد الكريم بن عيسى كبيرِ كَدْمِيوَة[1]، وأوْعَز إلى [ابنه][ب] علي الأمير بمَرَّاكُش باعتقالهما؛ فاعتقلها فيمَن لهما من الوَلَد والحاشية. وأحسَّ بذلك أحمد بن المِلْيَانيّ؛ فاستعجل[ج] الثَّار.

وكانت العلامةُ السُلْطانيّة على الكتاب في الدَّولَة لم تختصّ بكاتبٍ واحد، بل كلّ منهم يضع العلامةَ بخطّه على كتابه إذا أكمله، لِمَا كانوا كلّهم ثِقاتٍ أمناء، وكانوا عندَ السُلْطان كأسْنان المِشط؛ فكتبَ أحمد بن المِلْيَانيّ إلى ابن السُلْطان الأمير بمَرَّاكُش سنةَ سبعٍ وتسعين كتاباً عن أمْر أبيه، يأمره فيه بقتْل مَشْيخة المَصَامِدَة، ولا

(أ) ص: وأرسل (ب) ظ: أبيه (ج) ص: فاستعمل

(1) كدميوة: من جبال مراكش، يبتدئ من قمة جبل سمد غرباً ويمتد شرقاً حتى يصل إلى مدينة أمزميز. الوزان: وصف إفريقيا 1: 141

يُمهلهم طَرْفةَ عَيْن، ووَضَع عليه العَلامةَ التي تنفُذ بها الأوامر، وخَتَم الكتابَ، وبَعَث به مع البريد، ونجا بنفسه إلى البَلَد الجَدِيد، وعَجِب النَّاسُ من شأنه. ولمَّا وَصَل الكتابُ إلى ابن السُّلْطان بِمَرَّاكُش، أخرجَ أولئك الرَّهْطَ المُعتقَلين من[أ] المَصَامِدَة إلى مَصارِعِهم، وقَتَل عليَّ بنَ مُحَمَّد، وعبد الكريم بنَ عيسى، [ووَلَده عيسى][ب]، وعليّ، ومنصور، وابنَ أخيه عَبْد العَزِيز. وطيَّرَ الأميرُ وزيرَه إلى أبيه بالخبر، فقتله لحينه حنقاً عليه، وأنفذ البريدَ باعتقال ابنه. وجرَّد على ابن المِلْيَانيّ، فافتُقِدَ، ولَحِق بتِلِمْسان، ونزلَ على آل زَيَّان، ثمَّ لَحِق مِن بعدها بالأنْدَلُس عندَ إفْراجِ السُّلْطان عنها في تلك السَّنَة، كما ذكَرْناهُ، وبها هلك.

واقتصر السُّلْطانُ من يومئذٍ في وَضْع علامتِه على مَن يختارُه لها من صَنائعه ويثِقُ بأمانته. وجَعَلها لذلك العَهْد لعَبْد الله بن أبي مَدْيَن؛ خالِصَتِه المُضطَلِع بأُمورِ مَمْلكته، فاختصّت[ج] من بعدَه لهذا العَهْد.

الخَبَرُ عن رِياسة اليَهُود بَني رَقَّاصَة، ومَقْتَلهم

كان السُّلْطانُ يوسُف بن يَعْقُوب في صِباه مُؤْثِراً لِلَذَّاته، ومُتَستِّراً بها عن أبيه يَعْقُوب بن عبد الحَقّ لمكانه في الدِّين والوقار، وكان يشربُ الخَمْرَ ويُعاقِرُ بها النُّدْمَان. وكان خليفةُ بنُ رَقَّاصَة من اليَهُود المعاهَدين / بفاس قَهْرَماناً لدارِه على عادة الأمراء في مثله من المعاهَدين، فكان يزدلِفُ إليه بوجُوه الخدَم ومذاهبها، فاستعمله [199أ]

(أ) ص: عن (ب) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ج) ظ: واختصت

هذا الأميرُ في اعْتصارِها والقيامِ على شؤونها؛ فكانت له بذلك خلوةٌ منه أوجبتْ له الحظّ عنده. حتّى إذا هَلَكَ يَعْقُوب بن عبد الحَقّ، واستقلّ ابنه يوسُف بأعْباء مُلكِه، واتَّصلت خلواتُه في مُعاقرة النُّدْمَان، وانفردَ ابنُ رَقَّاصَة بخلوته لذلك مع ما كان له من القَهْرَمة؛ عَظُمت رِياسَتُه، وعلا كَعْبُه في الدَّولَة، وتَلَقَّى الخاصَّةُ الأوامرَ منه، فصارت له الوَجاهةُ بينهم، وعَظُم قَدْرُها بعِظَم الدَّولَة.

أخبرني شيخُنا الآبليُّ، قال: وكان لخليفةَ هذا أخٌ يسمَّى إبراهيم، وابنُ عَمٍّ يُسمَّى خليفةَ، لقَّبوه بالصَّغير لمكانه هو من هذا الاسم. وكان له صِهرٌ يُعرفون ببني السَّبتيّ؛ كبيرُهم موسى، وكان رَديفَه في قَهْرَمته. فلم يُفِق السُّلْطان من نَشوة صِباه ومَلْهاه حتّى وَجَدهم على حالٍ استتبعوا فيها العِلْيَة[أ] من القَبيل والوزراء والشُّرفاء والعُلَماء؛ فأهمَّه ذلك، وترصَّد بهم. وتَفَطَّن لمذهبه فيهم خالِصتُه عَبْد الله ابنُ أبي مَدْيَن، فسعى عنده فيهم، وأوْجَدهُ السَّبيل عليهم، فسطا بهم سَطوةً واحدةً، واعتُقلوا في شَعْبان من سنة إحدى وسبعمائة بمُعَسْكَره من حِصار تِلِمْسان، وقُتل خليفةُ الكبير، وأخوه إبراهيم، وموسى بن السَّبتيّ، وإخوتُه، بعد أنْ امتُحنوا ومُثِّل بهم، وأتت النَّكْبَةُ على حاشيتهم وذَويهم وأقاربهم، فلم تبقَ[ب] منهم باقيةٌ، واستُبْقي منهم خليفةُ الأصغر احتقاراً لشأنه، حتّى كان من قَتْلِه بعدُ ما نذكر، وعبث بسائرهم، وطهرت الدَّولَة من رِجسهم، وأُزيلت عنها مَعرَّة رِياستهم. والأمورُ بيد الله.

(أ) ظ، ص: الغلبة (ب) ظ، أ، ص: يُبق

الخَبَرُ عن مَهلك السُّلطان أبي يَعقوب

[199 ب] كان في جُمْلة السُّلْطان وحاشيته مَوْلى من العِبِدَّى الخِصْيان من / مَوالي ابن المِلْيَانيّ يُسمَّى سَعادةَ، صار إلى السُّلْطان من لَدُن استعماله إيَّاه[أ] بمَرَّاكُش، وكان على تَبَجٍ من الجَهْل والغَباوة؛ وكان السُّلْطانُ يَخلِط الخِصْيانَ بأهله، ويكشفُ لهم الحجابَ عن ذَوات مَحارِمه.

ولمَّا كانت واقعة العِزّ مولاه، واتُّهم بمُداخلة بعض الحُرَم، وقُتِل بالظنّة، واستراب السُّلْطانُ بكثيرٍ من حاشيته المُلابسين لداره؛ اعتقل جملةً من الخِصْيان، كان فيهم عَنْبَرٌ الكبير عَريفهم، وحُجِب سائرُهم، فارتاعوا لذلك. وسَوَّلت لهذه الخَصِيّ الخَبيث نفسُهُ الشَّيطانيَّة الفَتْكَ بالسُّلْطان، فعَمد إليه وهو ببعض الحُجَر من قَصْره وأذنه؛ فأَذِن له، فألفاهُ[ب] مُسْتلقياً على فِراشه مُخْتَضِباً بالحِنَّاء، فوَثب عليه، وطَعنه طعناتٍ قَطَع بها أمعاءَه، وخَرج هارباً[1]. وانطلق بعضُ الأولياء في إثره، فأُدرك من العَشيّ بناحية تَاسَّالَة، فتقبَض عليه، وسِيق إلى القَصْر، فقَتله العبيدُ والحاشية.

(أ) ص: أباه (ب) ظ، ص: فألقاه

---

(1) خلط ابن الأحمر في كتابه بيوتات فاس الكبرى 48 بين مقتل السلطان أبي يعقوب ومقتل الحاجب عبد الله بن أبي مدين، فسرد حادثة فتك الخصي سعادة بالحاجب، وأنه دخل عليه وهو نائم، وعدَّ ذلك من الروايات المذكورة في خبره، وأعاد في موضع آخر من كتابه ص 59 إيراد الرواية الأخرى في أن مقتل الحاجب كان في الطريق إلى دار السلطان قرب مقبرة ابن العربي، بسعاية من بني رقاصة اليهود، حسب ما يذكره ابن خلدون - فيما بعد - في خبر مقتله.

وصابر السُّلْطانُ منيَّته إلى أُخريات النَّهار، ثمَّ قضى - رحمه الله - يوم الأربعاء سابع ذي قَعْدَة من سنة ستٍّ، وقُبِرَ هُنالِك، ثمَّ نُقل بعدما سكنت الهَيْعة إلى مَقْبرتهم بشالَّةَ[1]، فدُفِنَ بها مع سَلَفه، والبقاء لله وحده.

الخَبَرُ عن ولاية السُّلْطان أبي ثابت[2]، واسْتلحامه المُرشَّحين، وما تخَلَّلَ ذلك

كان الأميرُ أبو عامر ابنُ السُّلْطان أبي يَعْقُوب ووليُّ عَهْده، لمَّا هَلَكَ طريداً ببلاد بَني سعيد من غُمَارَة[أ] والرِّيف، سنةَ ثمانٍ وتسعين، كما ذَكَرْناه، خلف ولديه عامراً وسُلَيمان في كفالة السُّلْطان جدّهما[ب]، فكان لهما بعَيْنه حلاوةٌ، وفي قَلْبِه لَوْطَةٌ، لمكان حبّه لأبيهما واغترابه عنه؛ فحَدِب عليهما، وأنزلهما من نفسه بمكان.

(أ) ظ، ص: بن عمارة (ب) ظ، ص، ض: جده

(1) شالَّة: مدينة صغيرة بقرب نهر أبي رقراق، على بعد ميلين من البحر وميل واحد من الرباط، اتخذت مقبرة لملوك بني مرين بعد أن أوصى المنصور بأن يدفن فيها، وقد زار الوزان القاعة التي تضم قبورهم وشاهد ثلاثين قبراً منها وانتسخ ما كُتب عليها، (الوزان: وصف إفريقيا 1: 203)، وانظر ما كتبه الناصريّ عن أطلال ضريحه، وما عثر عليه في رخامة قبره، وعن مقبرة شالَّة ومَن دُفن فيها من ملوك بني مرين في كتابه: سلا ورباط الفتح 2: 131 - 133

(2) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 389

وكان الأميرُ أبو ثابت عامرٌ منهما، صَقْرَ قومه، إقداماً وشجاعةً وجرأةً، وكانت له في بَنِي وَرْتَاجِّن / [1200] خؤُولَة. فلحِين مَهْلِك السُّلْطان [الَّذي أدار سورَه على مَنازِله وبُيوتِه وسَمَّاه المنصورة][أ]، عرضوا له ودَعَوْه للبَيْعة؛ فبايعوه. وحضر لها الأمير أبو يَحْيَى بن يَعْقُوب عمّ أبيه؛ عثر بمَجْمَعِهم[ب] اتِّفاقاً، وحملوه على الطَّاعَة. وكان أقرب للأمر منه لو حضرهُ رجالٌ، فأعطى القِياد في المساعدة، وطَوى على النَّثّ. وبادَر الحاشيةُ والوُزراء بالبَلَد الجَدِيد عندَ مَهْلِك السُّلْطان، فبايعوا ابنَه الأمير أبا سالم.

وكاد أمرُ بَنِي مَرِين أنْ يفترقَ، وكَلِمتُهم أنْ تفسد، فبعث الأميرُ أبو ثابتٍ لحينه إلى تِلِمْسان للأميرَيْن[ج] أبي زَيَّان وأبي حَمُّو ابنَيْ عُثْمان بن يَغْمَرَاسَن، وعقدَ لهما حِلْفاً على الإفراج عنهم[د] إنْ تمّ أمرُه على أنْ يمدَّاه بالآلة، ويرفعا له كسر البيت إنْ كان غير ما أمل، وحضر للعَقْد أبو حَمُّو فأحْكَمه، ومال أكثرُ بَنِي مَرِين وأهلُ الحلّ والعَقْد إلى الأمير أبي ثابت. وتفرَّد ببَيْعة أبي سالم البطانةُ، والوزراءُ، والحاشية، والأجْناد، ومَن لافهُم، أو كان مَسْكنُه بالبَلَد الجَدِيد، وأشاروا عليه بالمناجزة، فخرج وقد عبَّأ كتائبَه، فوقف وتهيَّب، وخامَ عن اللِّقاء، ووَعَدهم الإقدامَ بالغَداة، وكرَّ راجعاً إلى قَصْره؛ فيئسوا منه[هـ]، وتسلَّلوا لواذاً إلى الأمير أبي ثابت، وهو بمَرْقَبٍ من [الجبل][و] مُطِلٌّ[ز] عليهم، حتّى إذا انْجحر[ح] أبو سالم بالبَلَد، انْحاشَ إليه الجُمْلَةُ

(أ) كتب ابن خلدون بخطّه الإضافة المشمولة بين الحاصرتين في أ، ض، ووردت أيضاً في ص بخطٍّ مختلف، ولم يضع علامة للمخرج تحدد مكانه. (ب) ظ: بمجتمعهم (ج) ظ: للأمير ابن أبي، ص: للأمير أبي (د) ظ: عنهما (هـ) ص: عنه (و) ظ: الخيل (ز) ص: يطلُّ (ح) ظ، ض: انحجز

دفعةً واحدةً. فلمّا استوفت القبائلُ والعَساكرُ لديه، زَحَف إلى البَلَد الجَدِيد؛ مَثْوى السُّلْطان، وسِياجِ قُصوره، ومُختطّ عَزمه، وانتهى إلى ساحَتِها مُغتماً، وخرج إليه الوَزِيرُ يخلف[(أ)] بن عِمْران الفُودُودِيّ[(ب)]، فأُزجِلَ عن فَرسه بأمْر أبي يَحْيَى، وقُتل بين يدَيْه قَعْصاً بالرِّماح، وكان قريبَ عَهْدٍ بالوِزارَة؛ استوزره السُّلْطان قُبيل مَهْلِكه في شَعْبان [من][(ج)] سنة ستٍّ.

وفرَّ أبو سالم إلى جهة المَغرب، وصَحِبه من عَشيرِه من أولاد رَحُّو[(د)] بن عَبْد الله بن عبد الحقّ: العبَّاس[(هـ)]، وعيسى، وعليّ ابنا رَحُّو، وابن أخيهم: جمال الدِّين / [200 ب] بن موسى. وأتْبعهم الأمير أبو ثابت شرذمةً من عَسكَره أدركوهم بنَدْرُومَة، فتقبَّضوا عليهم، ونفذ أمرُ السُّلْطان بقَتْل أبي سالم وجمال الدِّين، واستبقى الآخرين.

وأمَر بإحراق باب البَلَد ليفتتحها العَسكَر، فأطلَّ عليه قَهْرَمانُ دارِهم عَبْد الله ابن أبي مَدْيَن [الكاتب][(و)]، وأخبره بفرار أبي سالم، وباتّفاق النّاس على طاعَتِه، ورَغب إليه في المسالمَة ليلَتَهم، حتّى ينفجرَ الصَّباحُ خشيةً على دارِهم من مَعرَّة العَساكر وهُجومها؛ ففعل.

وأمره الأميرُ أبو يَحيَى باعتقال أبي الحَجّاج بن إشْقَيْلُولَة، فاعتقله لقَديمٍ من

(أ) ظ: ويخلف (ب) أ: الفودوي (ج) ساقطة من ظ (د) ظ، ص، ض: رجو (هـ) ظ، ص، ض: العباسي، والمثبت من أ وسيأتي ذكره تالياً في خبر فراره صحبة جماعة إلى عثمان بن أبي العلى في غمارة. (و) ساقطة من ظ

العَداوة كان بينهما، ثمّ أمره بقَتْله وإنفاذ رأسه؛ فقُتل.

وأمرَ السُّلْطانُ ليلتئذٍ بإضرام النّيران، حتّى إذا أضاء الظَّلامُ وبات راكباً. ودخل القَصْر لصُبْحه، فوارى جسده بعد أن صلَّى عليه. وغصَّ بمكان الأمير أبي يَحْيَى لما تعدَّد فيه الترشيح، وفاوض في شأنه كبيرَ القَرابة يومئذٍ عبد الحقّ بن عُثْمان ابن الأمير أبي معرّف مُحَمَّد بن عبد الحَقّ، ومَن حضره من الوزراء؛ مثل: إبراهيم بن عبد الجليل الوَنْكَاسَنِيّ، وإبراهيم بن عيسى اليَرْنِيَّانيّ[أ]، وغيرهما من الخاصَّة، فأشاروا بقَتْله. ونُمِيَتْ[ب] عنه كلماتٌ في مَعنى التَّربّص بالسُّلْطانِ ودَوْلته، وابتغاء العِصابة لأمره.

ورَكب الأميرُ أبو يَحْيَى إلى القَصْر ثالث البَيْعة، فأخذ السُّلْطان بيدِه، ودخلَ معه إلى الحُرَم لعَزائهنَّ عن[ج] أخيه السُّلْطان. ثمّ خرج على الخاصَّة، وتخلَّف عنه السُّلْطان، وقد دسَّ إلى عبد الحقّ بن عُثْمان أنْ يتقبَّض عليه؛ ففعل. ثمّ برز السُّلْطانُ إليهم وهو موثق، فأمر بالإجهاز عليه، ولم يمهله، وألْحق به يومئذٍ وزيرَه عيسى بن موسى الفُودُودِيّ. وفشا الخَبَرُ بمَهْلِك هؤلاء الرَّهْط، فرُعِبَ[د] منه القَرابةُ؛ ففرَّ يَعِيش بنُ يَعْقُوب أخو السُّلْطان، وابنهُ عُثْمان المعروفُ بأُمّه قَضيب، ومَسْعُودٌ ابن الأمير أبي مالك، والعبَّاسُ بن رَحُّو بن عَبْد الله بن عبد الحَقّ. ولَحِقوا / جميعاً بعُثْمان بن أبي العُلَى[1] بمكانه من غُمَارَةَ. وخلا الجوُّ من المرشحين، [200 أ]

(أ) ص: اليرنيابي، ومهملة في ظ، والمثبت من أ (مضبوطاً)، ض (ب) ظ: ونمت (ج) أ: على (د) ظ، ص: فرغب

---

(1) تختلف النسخ في رسمها - حيثما ترد - بين: العليّ والعُلى والعلاء. وابن أبي العلاء هنا هو إدريس بن عبد الله بن عبد الحق. انظر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 389

واستبدَّ السُّلطانُ بمُلك قَوْمه، وأمِن غوائل المُنازعين.

ولمَّا تمَّ له الأمرُ، واسْتَوسَقَ المُلْكُ، وفى لبني عُثْمان بن يَغْمَرَاسَن بالإفراج عنهم، ونزلَ لهم عن جميعِ البلادِ التي صارت إلى طاعَتِه من بلاد المَغْرب الأوْسَط من أعْمالهم وأعْمال بَني تُوجِّينْ ومَغْرَاوَة. ودعاه إلى بِدارِ المَغْرب ما كان من احتلال عُثْمان ابن أبي العُلَى بن عَبْد الله بن عبد الحَقّ بسَبْتَة، ودُعائه لنفسه بين يدَيْ مَهْلِك السُّلْطان، وخُروجه إلى بلد غُمَارَة، واستيلائه على قَصْر كُتَامَة[1]، فاعتزم على الرِّحلة إلى المَغْرب، وفوَّضَ الأمرَ في الرِّحلة بأهل المدينة الجَدِيدة للوزير إبراهيم بن عبد الجليل، لما كانت حينئذٍ غاصَّةً بالسَّاكن، مُستبحرةً في الاعتمار، ممتلئةً من الخُرْثِيّ والآلَة، فأحسن السِّياسةَ في أمْرهم، وضَرَب لهم الآجالَ والمواعيدَ إلى أنِ استوفوا بالرِّحلة، وتركوها قواءً، خرَّبها بنو عُثْمان بن يَغْمَرَاسَن عندَ رِحْلة بَني مَرين إلى المَغْرب، وتحيَّنُوا لذلك فترات الفِتَن، فطَمسوا مَعالمها طَمْساً، ونسفوها نَسْفاً[2]. وقدَّم السُّلْطانُ بين يديه من قَرابته الحسن بن عامر بن عَبْد الله أنْعَجُوب[أ] في العَسَاكر والجنود، وعَقَد له على حَرْب ابن أبي العُلَى. وتَلَوَّم بالبَلَد الجَدِيد لموافاة

(أ) ظ: العجوب، ومهملة في ص، وقد تقدّم التعليق عليها.

---

(1) ومدينة أصيلة أيضا كما في الأنيس المطرب 389

(2) علّق محقق الأنيس المطرب (ص 390) على هذه الحادثة قائلاً: "ما كاد الجيش المغربي ينسحب من تلمسان حتى خرج العبد الواديون منها كأنما نُشروا من القبور، وكان أول شيء فعلوه تخريب تلمسان الجديدة في ظرف وجيز".

المسالح(أ) التي كانت بثغور الشَّرق، لما(ب) نزل عنها جميعاً لبني عُثْمان بن يَغْمَرَاسَن. وارتَحل غُرَّة ذي الحجَّة، ودخل فاس فاتِحَ سبعٍ وسبعمائة.

[الخَبَرُ عن انتزاء يوسُف بن أبي عيَّاد بمَرَّاكُش، وتغلّب السُّلْطان عليه](ج)

لمَّا فَصَلَ السُّلْطانُ أبو ثابت من مُعَسْكَرهم بتِلِمْسان إلى المغرب، قدَّم بين يديه من قَرابته الحسن بن عامر بن عَبْد الله أنْعَجُوب ابن السُّلْطان أبي / يوسُف في [201 ب] العَساكر والجنود، وعَقَد له على حَرْب عُثْمان بن أبي العُلَى، كما ذكرناه، وعَقَد على بلاد مَرَّاكُش ونَواحيها لابن عمّه الآخر يوسُف بن مُحَمَّد بن أبي عيَّاد بن عَبْد الحقّ، وعَهد له بالنَّظر في أحوالها، فسار إليها واحتلَّ بها. ثمَّ حدَّثته نفسُه بالانتزاء؛ فقتل الوالي بمَرَّاكُش(1)، واسْتركب واسْتلحق، واتَّخذ الآلَة، وجاهرَ بالخُلعان، وتقبَّض على والي البَلَد، فقتَله بالسَّوط في جُمَادَى سنةَ سبعٍ وسبعمائة، ودعا لنفسه.

واتَّصل الخَبَرُ بالسُّلْطان لأوَّل قُدومه، فسرَّح إليه وزيرَه يوسُف بن عيسى بن

(أ) ظ: المشايخ (ب) ظ: ولما (ج) سقط عنوان الفصل من ظ، وترك مكانه بياضاً، وكذا في ص، فألحق بها العنوان بخط حديث ومغاير لخط النسخة. وانظر عن انتزاء ابن أبي عياد: الأنيس المطرب 390.

(1) سماه ابن أبي زرع في الأنيس المطرب 390: الحاج المسعود

السّعود الحَشَمِيّ[أ]، ويَعْقُوبَ بن أصْنَاك[ب]، في خَمْسة آلاف من عَساكره، ودفعهم إلى حربه، وخرج في أثرهم بكتائبه. وبرز يوسُف بن أبي عيّاد، وأجاز وادي أمّ ربيع، فانهزم أمام الوَزِير وعَساكره، واتّبعه الوَزِيرُ، ففرّ إلى أغْمَات، ثمّ فرّ إلى جبال هَسْكُورَة، ولَحِق به موسى بن أبي سعيد الصُّبَيْحيّ من أغْمات؛ تدلّى من سورها، ودخل الوَزِيرُ يوسُف إلى مَرَّاكُش، ثمّ خرج في إثْره ولحقه، فكانت بينهما جولةٌ، وقَتل منهم خلقاً، ولحق بهَسْكُورَة.

ودخلَ السُّلْطانُ أبو ثابت مَرَّاكُش منتصفَ رجب من سنة سبعٍ، وأمرَ بقَتْل أوْرَبَة[ج]، المُداخِلين كانوا له في انتزائه، فاسْتُلحموا.

ولمَّا لحق يوسُف بن أبي عيَّاد بجبال هَسْكُورَة، نزلَ على مخلوف بن هَنُوْ، وتذمَّم بجِواره، فلم يُجِرْه على السُّلْطان[1]، وتقبَّض عليه، واقتاده إلى مَرَّاكُش مع ثمانيةٍ من أصْحابه تولّوا كِبْرَ ذلك الأمر، فقُتلوا في مَصْرعٍ واحدٍ، بعد أنْ مُثّل بهم بالسّياط، وبعث برأس يوسُف إلى فاس، فنُصب بسورها، وأُثخن القتلُ فيمَن سواهم ممَّن داخَله في الانتزاء، فاستلحم منهم أُمَماً[2] بمَرَّاكُش وأغْمات.

(أ) ظ، ص، ض: الجشمي، والمثبت من أ، ويوافق الأنيس المطرب (ب) في أ، ص جعل تحت حرف الصاد حرف زاي، ووضع في أ تحت الكاف نقطة (ج) ص: أورنة

(1) عند ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 390: "فغدر به".

(2) قدّر ابن أبي زرع الفاسي (الأنيس المطرب 391) عددهم بنيف وستمائة رجل، عُلّقت رؤوسهم على أحد أبواب مرّاكش.

وسَخِط خلال ذلك وزيرَه إبراهيم بنَ عبد الجليل؛ فاعتقلَه، واعتقل [عَشيره](أ) من بَني دُولِين من بني وَنكَاسَنْ، وقتل الحسن بن دُولِين منهم، ثمَّ عفا عنهم.

وخرجَ منتصفَ شَعْبان إلى مُنازلةِ السَّكْسِيويّ وتَدْويخ جهاتِ مَرَّاكُش، فتلقَّاهُ السَّكْسِيويّ بطاعته المعروفة، وأسنى الهَدِيَّة، فتقبَّل طاعته وخدمته.

ثمَّ سرَّحَ قائدَه يَعْقُوب بن أصْنَاك في اتّبَاع زَكْنَةَ(ب) حتَّى توغَّل في بلاد السُّوس، ففرّوا أمامه إلى الرِّمال(1). وانقطعَ أثرهم، ورجَع إلى مُعَسْكَر السُّلْطان. [202] وانكفأ / السُّلْطانُ بعَساكره إلى مَرَّاكُش، فاحتلّ بها غُرَّةَ رمضان، ثمَّ قَفَل إلى فاس بعد أنْ قتل جماعةً من شيوخ بَني وَرَا. وجعل طريقَه على بلاد صِنْهَاجَة. وسار في بلاد تَامَسْنَا، وتلقَّاه عربُ(ج) جُشَم من قبائل الخُلْط، وسُفْيان، وبَني جابر، والعاصم، فاستصحبهم إلى أنْفَى، وتقبَّض على ستّين من أشياخهم، فاستلحم منهم عشرين ممَّن نُمي عنه(د) إفسادُ السَّابِلَة. ودخل رِباطَ الفَتح أُخرياتِ رمضان، فقَتل هُنالِكَ من الأعراب أمّةً ممَّن يُؤثر عنه الحرابة.

ثمَّ ارتَحلَ منتصفَ شَوَّال لغَزْوِ رِياح أهلِ أزَغَار(هـ) والهَبْط، والثَّأرِ منهم بالإِحَن القَديمة؛ فأثخنَ فيهم بالقَتْل والسَّبْي. وقَفَل إلى فاس، فاحتلَّ بها منتصفَ ذي قَعْدَة. وفَجِئَهُ الخَبَرُ بهزيمة عبد الحَقّ بن عُثْمان، واسْتلحام الرُّوم من عَسْكَره،

(أ) ظ: غيره (ب) ظ: زنكنه، ص، ض: زكنة، والمثبت من أ مضبوطاً وتحت الكاف نقطة. (ج) ساقطة من أ (د) ظ: نمي عليه (هـ) ظ، ص، ض: أزغار، مهملة. وتقدم التعريف بها في مطلع الجزء.

(1) في الأنيس المطرب: "حتّى دخلوا بلاد القبلة".

ومَهْلِك عَبْد الوَاحِد الفُودُودِيّ من رجالاتِ دَوْلته، وأن عُثْمان بن أبي العُلَى قد استفحل أمرُه بجهاتِ غُمَارَة؛ فأجمع لغزوه.

الخَبَرُ عن غَزَاة السُّلْطان لمدافعة عُثْمان بن أبي العُلَى ببلاد الهَبْط، ومَهْلِكه [بطَنْجَة][أ] بعد ظُهوره

لمَّا مَلَك الرَّئيس أبو سعيد فرج بنُ إسماعيل بن يوسُف بن نصر بسَبْتَة سنةَ خَمْسٍ وسبعمائة، وأقام بها الدَّعوة لابن عمّه المَخْلُوع مُحَمَّد بن مُحَمَّد الفقيه ابن مُحَمَّد ابن محمد[ب] الشَّيخ بن يوسُف بن نَصْر، كما ذَكَرْناهُ، وأجازَ معه رئيس الغُزَاة المُجاهِدين بمحلّ إمارته من مَالَقَة عُثْمانَ بن أبي العُلَى إدْرِيس بن عَبْد الله بن عبد الحَقّ من أعْياص هذا البيت، كان مُرَشَّحاً للمُلْك فيهم، واستقدمه معه ليفرقَ به الكلمةَ في المَغْرب[ج]، ويشغل بفِتْنَتِهِ الدَّولَة مُدافعةً عن سَبْتَة، لِمَا كانوا أهاجوا السُّلْطانَ وقَوْمَه بأخذها، واستيام[د] مُلكها، وطَمَع عُثْمان في مُلْك المَغْرب بإمدادهم ومظاهرتهم، وسوَّلت له نفسُه ذلك؛ فخَرج من سَبْتَة، وولَّى على جيش الغُزاة بعدَه عُمَر ابنَ عمّه رَحُّو بن عَبْد الله. ونجم هو[هـ] ببلاد غُمَارَة، فدعا لنفسه، وأجابته القبائلُ منهم. واحتلّ بحِصْن عَلُّودَان[و]؛ من أمْنع مَعاقِلهم، وبايعوه على الموت. ثمَّ

(أ) ساقطة من ظ (ب) طمست في أ (ج) ص: الغرب (د) ظ: واستينام (هـ) أ: هؤلاء (و) أ: عَلُوذان

نَهَض إلى أَصِيلا[أ] والعَرَائِش[1]، / فغلَب عليها. [202 ب]

واتَّصل ذلكَ كلُّه بالسُّلْطان الهالِكِ أبِي يَعْقُوب، فلم يحرّكه استهانةً بأمْرِهم. وبعثَ ابنَه أبا سالم بالعَسَاكر، فنازلَ سَبْتَة أيّاماً، ثمّ أقْلَع عنها. وبَعَثَ بعدَه أخاه يَعِيش ابن يَعْقُوب، وأنزله طَنْجَة، وجمَّرَ معه الكتائبَ، وجَعلها ثغراً. وزَحف إليه عُثْمان بن أبِي العُلَى، فتأخَّر عن طَنْجَة إلى القَصْر. ثمّ اتّبعه، فخرج إليه أهلُ القَصْر فُرْساناً ورجالاً ورُماةً مع يَعِيش، فوصلوا إلى وادِ وَرَاوُ، ثمّ انهزموا إلى البَلَد. ومات عُمَر بن ياسين، ونزل[ب] عُثْمان عليهم القَصْر يوماً، ثمّ دَخله من غَدِه. ثمّ كان مَهْلِكُ السُّلْطان، ومفرّ يَعِيش بن يَعْقُوب خيفةً من أبِي ثابت، فلحِق بعُثْمان بن أبِي العُلَى، واسْتقام أمرُه بتلك الجهاتِ بُرْهةً.

وكان السُّلْطانُ أبو ثابت، لمَّا احتلّ بالمَغْرب شَغله ما كان من انتزاء يوسُف بن مُحَمَّد[ج] بن أبي عيَّاد بمَرَّاكُش، كما قدَّمناه، فعقَد على حَرْبِ[د] عُثْمان بن أبِي العُلَى مكانَ عمّه يَعِيش [بن يَعْقُوب][هـ] لعبد الحَقّ بن عُثْمان بن مُحَمَّد بن عبد الحَقّ من رجال بَيْته، فزَحف إليه. ونَهض عُثْمان إلى لقائه منتصفَ ذي الحِجَّة سنةَ سبعٍ، فهَزمه، واسْتلحم مَن كان معه من جُند الرُّوم. وهَلَكَ في تلك الواقعة

(أ) في أ، ص كتب تحت الصاد حرف زاي، وفي تاج العروس (مادة: أصل): ويقال لها: أزيلا (ب) كذا في سائر الأصول، ولعل المراد: ونازل (ج) ساقطة من أ (د) ظ، ص: حربه (هـ) ساقطة من ظ

(1) العرائش: مدينة قديمة على شاطئ المحيط عند مصب نهر اللكوس في البحر. الوزان: وصف إفريقيا 1: 302، 2: 249

عَبْد الوَاحِد الفُودُودِيّ من رِجالات السُلْطان المُرشَّحِين رُدَفَاء الوِزارَة. وسار عُثْمان إلى قَصْر كُتَامَة، فنَزله، واسْتولى على جِهاته.

وعلى تفيئة[أ] ذلك، كان رجوعُ السُلْطان من غَزَاة مَرّاكُش؛ وقد حَسم الدَّاء، ومحا أثرَ النِّفاق، فاعتزمَ على الحركة إلى بلاد غُمَارَة؛ ليَمْحوَ منها دعوةَ ابن أبي العُلَى التي كادت تلجُ عليه مَمالكه بالمَغرب، ويَرُدَّه[ب] على عَقِبه، ويستخلصَ[ج] سَبْتَة من يَدِ ابن الأَحْمر، لمّا صارت رِكاباً لمن يرومُ الانتزاء والخروجَ من القَرابة والأَغْياص، المستقرِّين وراءَ البَحْر غزاةً في سبيل الله، فنَهض من فَاسَ منتصفَ ذي الحِجَّة من سنة سبعٍ، ولمّا انتهى إلى قَصْر كُتَامَة، تلوَّم به ثلاثاً حتّى توافتْ عَساكِرهُ وحُشودهُ، وكَمُل اعتِراضُها.

وفرَّ عُثْمان بن أبي العُلَى أمامَه، وارْتَحل السُلْطانُ في اتِّباعه، فنازَل حِصْن عَلُّودَان[د]، واقْتحمها عَنْوةً، واسْتلحم به زهاءَ أربعمائة. ثمّ نازَل بَلَدَ الدِّمْنَة، واقْتحمها / وأثْخَن فيها قتلاً وسبياً، لتمسّكها بطاعَةِ ابن أبي العُلَى، ومُظاهرتِها له على كَنْس [203 أ] القَصْر واستباحته[هـ].

ثمَّ ارْتَحل إلى طَنْجَة، واحتلَّ بها غُرَّة ثمانٍ. وانْجحر[و] ابنُ أبي العُلَى بسَبْتَة مع أوليائه، وسَرَّحَ السُلْطانُ عَساكِره، فتقرَّتْ[ز] نواحي سَبْتَة بالاكتساح والغارة. وأمر

(أ) ظ، ص: بقية (ب) ص: وترده (ج) ص: وتستخلص (د) أ، ض: علونان (هـ) ظ: واستباحته (و) ص: وانحجر، ومهملة في ظ (ز) ظ: فتقوت

باختطاط بلَد تِيطّاوينَ[1] لنُزول[أ] مُعَسْكَره، والأخذ بمُخَنَّق سَبْتَة، وأوْفد كبيرَ الفقهاء بمجلسِه أبا يَحْيَى بن أبي الصَّبْرِ إليهم في شأن النُّزول له عن البَلَد.

وفي خلال ذلك اعتلّ السُّلطانُ فَمَرِض، وقَضى لأيَّامٍ قلائلَ في ثامن صَفَر من سَنَتِه[2]، ودُفن بظاهر طَنْجَة، ثمّ حُمِلَ شِلْوهُ بعدَ أيّام إلى مَدْفن آبائه بشالَّة، فوُورِي هُنالِكَ[3]. رحمة الله عليه[ب] وعليهم.

الخَبَرُ عن دَولة السُّلطان أبي الرَّبِيع، وما كان فيها من الأحْداث[4]

لمّا هَلَكَ السُّلطانُ أبو ثابت، تصدّى للقيام بالأمر عمُّه عليّ ابن السُّلطانِ أبي يَعْقُوب المعروف بأُمّه رُزَيْكَة، وخلص الملأ من بَني مَرِين أهل الحلّ والعَقْد إلى أخيه أبي الرَّبيع[ج]؛ فبايعوه. وتقبّض على عمّه عليّ بن رُزَيْكَة[5] المُستامِ للأمر،

(أ) ص، ض: لنزل (ب) ساقطة من أ (ج) أي: أخي السلطان أبي ثابت

---

(1) في الأنيس المطرب: تطوان، وكلاهما من صيغ تسمياتها، ويقال: تيطوان، وتِطّن، وهي مدينة قديمة في شمال المغرب، على ساحل البحر، قرب مضيق جبل طارق، وإفادة ابن خلدون عن اختطاطها تعني إعادة بناءها، وذكر الوزان أنها سميت تيطاوين ومعناه "عين واحدة" بلغة البربر لأن امرأة عوراء حكمتها. البكري: المسالك 2: 784، مجهول: الاستبصار 137، الحميري: الروض المعطار 145، الوزان: وصف إفريقيا 1: 318، التمكروتي: النفحة المسكية 37، 171، مقديش: نزهة الأنظار 1: 51

(2) كانت وفاته في سنة سبع وسبعمائة.

(3) الناصري: سلا ورباط الفتح 2: 135

(4) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 393

(5) في الأنيس المطرب: ابن أبي زرايحة

فاعْتقله بطَنْجَة إلى أنْ هَلَكَ بها سنةَ عشرٍ لجُمَادَى. وبثّ العطاءَ في النّاس، وأجزلَ الصِّلاتِ، وارْتَحل نَحْوَ فاس. واتَّبعه عُثْمان بنُ أبي العُلَى في جيشٍ كثيفٍ، وبيَّته وقد نَذِرَ به العَسْكَر، فأيقظوا لَيْلَهم، ووافاهم على الظُّهر بساحةِ عَلُّودَان[أ]، فناجَزَهم الحَرْبَ؛ وكانت الدَّبرةُ[ب] على عُثْمانَ وقَوْمِه. وتقبّض على وَلَدِه وكثيرٍ من عَسْكَره، وأثْخن أولياءُ السُّلْطانِ فيهم بالقَتْلِ والسَّبْي، وكان الظهور الذي لا كِفَاءَ له.

ووَصَل أبو يَحْيَى بنُ أبي الصَّبْر إلى[ج] الأنْدَلُس، وقد أحْكَمَ عُقدة الصُّلْح. وقد كان ابن الأَحْمر جاء لِلِقاء السُّلْطان أبي ثابت، ووَصَل إلى الجزيرة الخضراء، فأدْركه خَبَرُ[د] مَهْلِكه، فتوقَّف عن الجَواز. وأجاز ابنُ أبي الصَّبْر بإحْكام المؤافاة[هـ]، واجتاز عُثْمانُ بنُ أبي العُلَى إلى العُدْوَة فيمَن معه من القَرابة، فلَحِق بغَرْنَاطَة.

وأغَذَّ السُّلْطانُ السَّيْرَ إلى حَضْرته، فدخل فاس آخرَ ربيعٍ من سنةِ ثمان. واسْتقامتِ الأمورُ، وتمهَّد المُلْك، وعَقَد السِّلْمَ مع صاحب تِلِمْسان موسى بنِ عُثْمان ابن يَغْمَرَاسَن، فأقام وادِعًا[و] بحَضْرته. / وكانت أيّامُه خيرَ أيّامٍ؛ هُدْنَةً وسُكوناً وترفاً لأهل الدَّولَة. [203 ب]

وفي أيّامه تغالَى النّاسُ في أثمان العقار، فبلغت قيمتُها فوقَ المعتاد، حتّى لقد بيع

(أ) أ: علوثان (ب) ص: الدائرة (ج) أ: من (د) ظ، ص: حين (هـ) كذا في الأصول كلها. (و) في ظ بتشديد الدال: وادّعا

كثيرٌ من الدُّور بفاس بألف دينار من الذَّهَب العين. وتنافسَ النَّاسُ في البناء، فعالوا الصُّروحَ، واتَّخذوا القُصورَ المشيَّدَة بالصَّخر والرّخام، وزَخرفوها بالزّليج والنُّقوش، وتناغَوْا[أ] في لبْس الحرير، ورُكوب الفارِه، وأكْل الطَّيِّب، واقتناء الحُليّ من الذَّهَب والفِضَّة، واستبحر العُمْران، وظهرتِ الزّينة والتَّرف، والسُّلطان وادعٌ بدارِه مُمتلئٌ أريكته، إلى أنْ هَلَكَ، كما نذكره.

الخَبَرُ عن مَقْتَل عَبْد الله بن أبي مَدْيَن

كان أبو شُعَيب بنُ مخلوف من بَني أبي عُثْمان من قبائل كُتَامَة المجاورين للقَصْر الكبير، وكان مُنْتِحلاً للدّين مُشتهراً به. ولمَّا أجلَبَ بَنو مَرِين على المَغْرب، وجالوا في بَسائطه، وتغلَّبوا على ضَواحيه، وصَحِب البَرَّ منهم [البَرّ][ب]، والفاجرُ الفاجرَ[ج] من أهله. وكان بَنو عبد الحَقّ قد تخيَّروا شُعَيباً هذا فيمَن تخيَّروه للصحابة من أهل الدّين، فكان إمامَ صَلاتهم. وكان يَعْقُوب بن عبد الحَقّ أشدَّهم صحابةً له، وأوْفاهم بها ذِماماً، فاتَّصل به حَبْلُه، واستمرّت صحابته، وعَظُم في الدَّولَة قَدْرُه، وانبسط بين النَّاس جاهُ وَلَدِهِ وأقاربه وحاشيته. وربِي بنو شُعَيب هذا: عَبْد الله، ومُحَمَّد المعروف بالحاجّ، وأبو القاسم، ومَن بعدهم مِن إخوتهم بقَصْر كُتَامَة في جوّ ذلك الجاه.

(أ) ظ: وتنازعوا (ب) ساقطة من ظ، ص، ض، وكتبت بهامش أ (ج) ساقطة من ص

وهَـلَكَ السُّـلْطان يَعْقُـوب بـن عبـد الحَـقّ؛ فاسْتَخْلَصهم يوسُـف بـنُ يَعْقُـوب لخدمَتِه، واسْتعملهم على مُخْتصَّاتِه. ثمَّ ترقَّى بهم في رُتَبِ خِدْمته وأخصَّائه(أ) درجةً بعد أخرى، إلى أنْ هَلَكَ أبوهم أبو مَدْيَن شُعَيبٌ سـنةَ سبعٍ وتسعين. وكان المقدَّمُ منهم عندَ السُّلْطان عَبْد الله، فأوْفى به على ثنيات العزّ والوِزارَة والحلّة والولايَة، وتقدَّم بحُظْوته في مَجلسه كلَّ حُظْوة، واختصَّه بوَضْع عَلامتِه على الرَّسائل والأوامر الصَّادرة عنه، وجَعَل إليه حُسْبانَ الخَراج، والضَّرْب على أيدي العُمَّال، وتنفيذَ الأوامر بالبَسْط والقَبْض منهم. واسْتَخْلصه لمناجاة الخلْوات، والإفضاء بذات / [204 أ] الصُّدُور، فوقَف ببابِه الأشْرافُ من الخاصَّة والقَبيل والقَرابة والوَلَد، وسوَّدُوه، وخَطَبوا نائلَهُ، وكان غمْراً(ب). واسْتعمل مع ذلك أخاه مُحَمَّداً على جِباية المَصامِدَة بمَرَّاكُش، وهنَّأ أبا القاسم الدّعةَ بفاس، فأقام بها متملّيًا راحتَه، عَريضاً جاهُهُ، طاعِماً كاسياً، تتسرَّبُ إليه أموالُ العُمَّال في سَبيل الإتحاف، وتقِفُ ببابه صُدورُ الرَّكائب(ج)، إلى أنْ هَلَكَ السُّلْطان يَعْقُوب بن يوسُف. ويُقال: إنَّ له خائنةً في دَمِه مع سَعَادَة المِلْيَانيّ(1).

ولمَّا وَلِيَ السُّلْطانُ أبو ثابت، ضاعَفَ رُتْبتَه، وشفعَ لديه حظّه، ورَفَع على

(أ) أ: وإخظائه (ب) ظ، ص: عمراً (ج) أ: الركاب

(1) الذي يراه ابن الأحمر أن سعادة الخصي مولى الملياني هو من قتل الحاجب عبد الله ابن أبي مدين، بأمر مولاه يحيى الملياني، وأن سعادة دخل عليه وطعنه، خلاف ما يطرحه ابن خلدون تالياً. انظر: ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى 48

الأقدار قَدْرَه. ثمَّ وَلِيَ مِن بعده أخوه أبو الرَّبيع، فتقيَّل فيه مَذهبَ سَلَفِه.

وكان بَنو رَقَّاصَة[أ] اليَهُودُ حين نُكبوا، باشرَ نَكْبَتَهم لمكانه من إصْدار الأوامر؛ ويَزْعُمون أنَّ له فيهم سِعايَةً، وكان خليفةُ الأصغرُ منهم قد اسْتُبْقِي، كما ذَكَرْناهُ، فلمَّا أفضى الأمرُ إلى السُّلْطان أبي الرَّبيع، اسْتعملَ خَليفةَ بدارِه في بعضِ المِهَن، ولابَسَ الخدمَ حتَّى اتَّصل بمُباشرة السُّلْطان، فَجَعل غايته السِّعايَةَ بعَبْد الله بن أبي مَدْيَن.

وكان يُؤثَر عن السُّلْطان أبي الرَّبيع أنَّه[ب] لا تُؤْمَنُ[ج] بَوائِقُه مع حُرَم[د] ذويه، ويَعْرِفُ خليفةُ ذلك من مَقالات النَّاس، فدسَّ إلى السُّلْطان أنَّ عَبْد الله بن أبي مَدْيَن يعرِّض باتِّهام السُّلْطان في ابنته، وأنَّ صَدْرَه وَغَلَ بذلك، وأنَّه مُترَصِّدٌ بالدَّوْلَة، وكان يَخْشى[هـ] الغائلةَ لِمَا كان عليه من مُداخلة القَبيل، ولِمَا كان داعيةً من دُعاة آل يَعْقوب، فتعجَّل السُّلْطانُ دَفْعَ غائلته، واسْتدعاهُ صَبيحةَ زِفافِ ابْنَته - زعموا - على زَوْجها، فاستحثَّه قائدُ الرُّوم من داره بفاس، ونَذِرَ بالشَّرِّ، فلم تُغْنِهِ النُّذُر، ومرَّ في طَريقه إلى دار السُّلْطان بمَقبرةِ أبي يَحْيَى بن العَرَبِيِّ، فطَعَنه القائدُ هُنالِكَ مِن ورائه طَعنةً أكبَّته على ذَقَنِه، واحتزَّ رأسَه، فألقَاه بين يدي السُّلْطان. ودَخَل الوَزيرُ سُلَيمان بن يرزيكن[و]، فوَجَده بين يديه، فذهبت نفسُه عليه وعلى مكانه من الدَّوْلَة حسرةً وأسَفاً، وأيقظ لسُّلْطانَ لمكر

(أ) ص، ض: رفاصة (ب) ظ، أ: لأنه (ج) ص: يؤمن (د) أ: جُرَم، ص: حزم (هـ) أ، ض: تخشى (و) ظ، ض: يرزيكن، ومهملة في ص

اليَهُوديّ، فوقفه على براءةٍ كان ابنُ أبي مَدْيَن بعثها معه إلى السُلْطان بالتَّنصُّل والحلف؛ فتيقَّظ[أ] وعَلِمِ مَكْرَ اليَهُوديّ به؛ فنَدِم، وفتَك لحِينه بخليفة / بن رَقَّاصَة [204 ب] وذَوِيه من اليَهُود المتصدِّين للخِدْمة، وسَطا بهم سَطْوةَ الهلكة، فأصبحوا مثلاً للآخرين.

الخَبَرُ عن ثورة أهلِ سَبْتَة بالأَنْدَلُسيِّين، ومُراجعتهم طاعة السُّلْطان[1]

لمَّا قَفَل السُّلْطانُ أبو الرَّبيع من غَزَاته سَبْتَة، بعدَ أنْ شرَّد عُثْمان بن أبي العُلَى وأخجره[ب] بسَبْتَة، وأجاز منها إلى العُدْوَة، ومَن كان معه من القَرابة، كما قلناه؛ بَلَغه الخَبَرُ بضَجَر أهلِ سَبْتَة، ومَرَض قُلوبهم من ولاية الأَنْدَلُسيِّين، وسُوء مِلْكَتِهم. ودسّ إليه بعضُ أشياعِه بالبَلَد بمثل ذلك، فأغزى صَنيعتَه تاشِفِين بنَ يَعْقُوب الوَطَّاسيّ أخا وَزيرِه في عَساكر ضَخمةٍ من بَني مَرِين، وسائر الطَّبقات من الجند. وأوْعَز إليه بالتقدّم إلى سَبْتَة ومُنازلتها، فأغَذَّ إليها السَّيْرَ، ونَزَل بساحتها. ولمَّا أحسّ به أهلُ البَلَد، بَهَشَتْ[ج] رجالاتُهم، وتنادَوْا بشعارهم، وثاروا على مَن كان منهم من قُوَّاد ابن الأَحْمر وعُمَّاله، وأخرجوا منها حامِيته

(أ) ظ، ص: فتقبض، ض: فتيقض (ب) ظ، ص: وأحجزه، أ: وأحجره، والمثبت من ص (ج) ظ، أ: تمشت، ص: نهشت، ض: تهشت. والبَهْش: المسارعة إلى أخذ الشيء، والحنين إليه، يقال: بهشتُ إلى فلان أي: حننت إليه. لسان العرب، مادة: بهش

(1) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 393

وجُنودَه، واقتحمتها العَساكر. واحتلَّ تاشِفِين بن يَعْقُوب بقَصَبتها عاشرَ صَفَر من سنةِ تِسْعٍ. وطيَّر الفُرانِقَ(أ) بالخبر إلى السُّلطان؛ فعمَّ السُّرورُ، وعَظُم شأنُ الفَتْح. وتقبَّض على قائد القَصَبة أبي زَكَرِيَّاء يَحْيَى بن مليلة(1)، وعلى قائد البَحْر أبي الحسن بن كُماشَةَ، وعلى قائد الحروب بها من الأغْياصِ عُمَر بن رَحُّو بن عَبْد الله بن عبد الحَقّ؛ كان صاحبُ الأنْدَلُس عَقَد له مكانَ ابنِ عمِّه عُثْمان بن أبي العُلَى، عندَ إجازتِه البَحْرَ إلى الجهاد، كما ذكرناه. وكَتَب إلى السُّلطان بالفَتْح، وأوْفد عليه الملأ من مَشيخة سَبْتَة وأهلِ الشُّورَى.

وبَلَغ الخَبَرُ إلى ابن الأحْمر؛ فارْتاعَ لذلك، وخَشِيَ عاديةَ السُّلْطان وجُيوش المَغْرب حين انتهوا إلى الفُرْضَة. وقد كان الطَّاغِيَةُ في تلك الأيَّام نازَلَ الجزيرةَ الخضراء، وأقْلَعَ عنها(ب) على الصُّلح، بعد أنْ أذاقَها من الحِصار شدَّةً، وبعد أنْ نازَلَ جَبَلَ الفَتْح، فتغلَّب عليه ومَلكه. وانهزم زعيمٌ من زُعمائه يُعرف الْفُنش بيرَش؛ هَزَمه أبو يَحْيَى بن عَبْد الله بن أبي العُلَى صاحبُ الجيش بمَالَقَة، *لقيه وهو*(ج) يَجوسُ خِلال البلاد بعدَ تملُّك الجبل، فهُزم النَّصارَى، وقُتلوا أبرحَ قَتْلٍ.

(أ) ظ: الفرانق، ص: الفرانِق. والفُرانِق: فارسي معرَّب معناه: البريد، وربما سمِّي دليل الجيش فُرانِقاً. لسان العرب، مادة: فرنق، الجواليقي: المعرَّب 71، 238 (ب) ظ: منها (ج) سقط ما بين النجمين من ص

(1) كذا في الأصول الأربعة، وذكر ابن الأحمر بيتهم وسمّاه "بيت بني ملّيل" (بفتح الميم وكسر اللام المشدَّدة)، من بيوت البربر، وذكر من مشاهيرهم يحيى بن ملّيل، والي الخراج؛ كان يكتب تنفيذ الجيش في حضرة السلاطين من بني مرين، وتوفي بطاعون فاس سنة 750هـ. انظر: ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى 43

[205أ] وأهمَّ المُسْلِمينَ شأنُ الجبل؛ فبادرَ السُّلْطانُ أبو الجيوش بإنفاذ رُسُله راغبينَ في / السّلْم، خاطبين للولاية، وتبرَّع بالنُّزول عن الجزيرة ورُنْدَة وحُصونِها ترغيباً للسُّلْطان في الجهاد، فتقبَّل منه السُّلْطان، وعَقَد له الصُّلح على ما رَغِب. وأصهرَ إليه في أختِه، فأنكحه إيَّاها. وبَعَث بالمَدَدِ للجهاد أموالاً وخُيولاً وجَنائب، مع عُثْمان بن عيسى اليَرْنِيَانيّ. واتَّصلت بينهما المهادنةُ والولايةُ إلى مَهْلِك السُّلْطان. والبقاءُ لله وحده.

الخَبَرُ عن بَيْعة عبد الحَقّ بن عُثْمان، بمُمالأة الوَزير والمشيخة، وظُهور السُّلْطان عليهم، ثمّ مَهْلكه إثر ذلك

كانت رُسُل ابنِ الأَحْمر خلال هذه المهادناتِ(أ) والمكاتبات تختلفُ إلى باب السُّلْطان(1)، ووَصَل منهم في بعضِ أحيانها خَلَف من مُترفيهم، مجاهر بالكبائر، فكشف صَفْحةَ وَجْهه في معاقرة الخَمر والإدمان عليه، وكان السُّلْطانُ منذ شهر جُمَادَى الأول سنة تِسْعٍ قد عَزَل القاضي بفاس أبا غالب المَغِيلِيّ، وعَهِد بأحْكام

(أ) ظ: المهاديات، ومهملة في أ، وبالوجهين يتم المعنى.

(1) حفظ لسان الدين ابن الخطيب في كتابه "كناسة الدكان بعد انتقال السكان" بعض هذه المكاتبات؛ خاصة تلك العائدة إلى عهد الأمير أبي الحجّاج يوسف الأوّل (733 ـ 755هـ)، وابن الأحمر المذكور هنا هو: الأمير نصر بن محمد الثاني (708 ـ 713هـ).

القَضاء لشيخ الفُتْيَا [المذكور بها][(أ)] أبي الحسن الملقَّب بالصَّغير، وكان على ثَبَجٍ من تَغْيِير المنكرات والتَّعسُّف فيها، حتَّى لقد كان مُطاوعاً في ذلك وسواس النُّسُك الأعْجَميّ، ومُتجاوزاً بها الحدود المتعارفة بين[(ب)] أهلِ الشَّريعة في سائر الأمْصار. وأُحضرَ عندَه ـ ذاتَ يوم ـ هذا الرَّسولُ ثملاً، وحَضَر العُدُولُ فاستَرْوَحُوه، ثمَّ أمضى حُكْمَ الله فيه، وأقامَ عليه الحدّ. وأضْرمته هذه الموجدة؛ فاضْطَرم غَيْظاً. وتعرَّض للوزير رَحُّو بن يَعْقُوب الوَطَّاسيّ[(ج)] مُنْصَرفه من دارِ السُّلْطان في مَوْكبه، وكشف عن ظَهْره يُرِيه أثر السياط، ويَنْعَى عليهم سوءَ هذا المُرْتَكَب مع الرُّسُل، فبَرِمَ لذلك الوَزِيرُ، وأدركته الحفيظةُ، وسَرَّحَ وَزَعَته وحَشَمه في إحضار القَاضي على أسوإ الحالات من التَّنْكيل والتَّلّ لذقنهِ، فَمَضَوا لذلك الوَجْه. واعْتَصم القاضي بالمسجد الجامع، ونادى بالمُسْلِمين[(د)]، فثارتِ العامَّةُ [بهم][(هـ)]، ومرج أمرُ النَّاس.

واتَّصل الخَبَرُ بالسُّلْطان، فتلافاه / بالبعث في أولئك النَّفَر من وَزَعَة [205 ب] الوَزِير، وضرب أعناقهم، وجَعَلهم عِظَةً لِمَن وراءهم، فأسرَّها الوَزِيرُ في نفسِه، وداخَل الحسن بن علي بن أبي الطَّلَّاق من بَني عَسْكَر بن مُحَمَّد شيخ بني مَرين، والمسلَّم له في شوراهم[(و)]، وقائد الرُّوم غُنْصَالة المنفرد برياسة العَسْكَر وشَوْكته، وكان لهم بالوَزِير اختصاص آثروه له على سُلْطانه، فدعاهم إلى بيعة

(أ) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ب) ظ، ص، ض: من، والمثبت من أ (ج) كذا في الأصول كلها، وفي الأنيس المطرب 394: عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي. (د) ظ، ص: المسلمين (هـ) ظ: فيهم (و) ص: شوارهم

عبد الحَقّ بن عُثْمان بن مُحَمَّد بن عبد الحَقّ كبيرِ القَرابة وأَسَدّ الأغياص، وخَلَع طاعة السُّلْطان، فأجابُوهُ وبايعوا له، وتَمَّ أمرُهم نَجِيّاً.

ثُمَّ خرجوا عاشرَ جُمادَى من سنةِ عَشرٍ إلى ظاهر البَلَد الجَدِيد بمكان الرَّمَكَة، وجاهَروا بالخُلعان، وأقاموا الآلة، وبايعوا سُلْطانهم عبد الحَقّ على عُيون الملإ. وعَسْكروا بالعُدْوَة القُصْوى من سُبُو تَخْم بلاد [بَني][أ] عَسْكَر، وإزاء تَبْدُوْرَةَ من مَعاقِل الحسن بنِ علي زعيمِ تلك الثَّورَة.

ثُمَّ ارْتَحلوا من الغَد إلى تازَى، وخَرَج السُّلْطانُ في طَلَبهم، فعَسْكَر بسُبُو، وتلوَّم لاعتراض العَساكر، وإزاحة العِلَل، واحتلَّ القومُ برِباط تازَى، وأوْفَدوا على موسى بن عُثْمان بن يَغْمَراسَن سُلْطان بَني عَبْد الوَاد يدعونه إلى المظاهرة، واتِّصال اليَدِ، والمدَد بالعَساكر والأموال؛ جنوحاً إلى التي هي آثرُ لديه من تَفْريق كلمة عَدوِّه، فتثاقلَ عن ذلك؛ لمكان السِّلْم الذي عَقد له السُّلْطان مُذ أوَّل الدَّولَة، وليَستبينَ سبيلَ القَوْم [في مُغالبة[ب] السُّلْطان][ج]. وقدَّم السُّلْطانُ بين يديه يوسُفَ بن عيسى الحَشَمِيّ[د]، وعُمَرَ بن موسى الفُودُودِيّ في جُموعٍ كثيفةٍ من بَني مَرِين. وسارَ في ساقَتِهم [على التَّعْبِئَة][هـ]، فانكشفَ القومُ عن تازَى، ولَحِقوا بتِلِمْسان صَرِيخاً. وحمد [صاحب تِلِمْسَان موسى بن عُثْمان][و] مَغَبَّةَ نَظَره[ز]

(أ) ساقطة من ظ، ص، ض (ب) ض: مغالبتهم (ج) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، ص (د) ظ، ص، ض: الجشمي، والمثبت من أ وابن أبي زرع: الأنيس المطرب 394 (هـ) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، ص (و) عوضه في ظ، ص: السلطان (ز) أ: رأيه

في التّثاقُل عن نُصْرَتِهم، ووجَد بها الحُجّةَ عليهم أنّ غايةَ مُظاهرتِه إيّاهم أن يُملّكهم تازَى، وقد انكشفوا عنها؛ فيئسوا من صَريخه.

وأجازَ عبدُ الحَقّ بن عُثْمان، [والحسن بن عليّ](أ)، ورَحُّو بن يَعْقُوب إلى الأَنْدَلُس، فأقام رَحُّو بها إلى أنْ قتَله أولادُ ابن أبي العُلَى، ورجع الحسن بن عليّ إلى مَكانِه من قَبيله /، ومحلّه من مَجلس السُّلْطان، بعدَ أنْ اقتضى عهده بالأمان على ذلك. [206 أ]

ولمّا احتلَّ السُّلْطانُ بتازَى، حَسَم الدّاءَ، ومحا أثرَ الشقاق، وأثْخَنَ في حاشية الخوارج وذَويهم بالقَتْل والسَّبْي. ثمّ اعتلّ أثناء ذلك، وهَلَك لليالٍ من اعْتلالِه سَلْخَ جُمادَى الآخرة من سنةِ عَشْر، ووُرِيَ بصَحْن الجامع الأعظم من تازَى. وبُويع السُّلْطان أبو سعيد، على ما نذكر.

الخَبَرُ عن دَولة السُّلْطان أبي سعيد، وما كان فيها من الأحْداث(1)

لمّا هَلَك السُّلْطانُ أبو الرَّبيع بتازَى، تطاوَلَ للأمرِ عمّهُ عُثمان ابنُ السُّلْطان أبي يَعْقُوب المعروف بأُمّه قضيب، واشتام المنصبَ، وأسْدَى في ذلك وألْحم. وحَضر الوزراءُ والمشيخةُ بالقَصْر بعدَ هُدوءٍ من اللّيل، فاستأثروا بشيخ(ب)

(أ) سقط ما بين الحاصرتين من أ، ض (ب) ظ: شيخ

(1) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 395

القَرابة يومئذٍ، وكبيرِ الأغياص المرشَّحين، العالي القُعْدُدِ عُثمان بن يَعْقُوب بن عبد الحَقّ. ودسَّتْ أختهُ عُرَيْبَةُ[أ] إليهم بالوَعْد، وسرَّبت إليهم الأموالَ. وجاءهم عُثْمان ابن السُّلطان أبي يَعْقُوب مُسْتاماً، فزَجَروه، واستدعوا السُّلْطان أبا سعيد؛ لحضر[ب]، وبايعوه ليلتئذٍ، وأنفذ كُتُبَه إلى النَّواحي والجهاتِ باقْتضاء البَيْعة. وسَرَّحَ ابنَه الأكبر الأميرَ أبا الحسن إلى فاس، فدَخَلها غُرَّةَ رجب من سنةِ عَشر. ودَخل القَصْر واطَّلع على أموالِه وذخيرته.

وفي غَدِ لَيْلته أُخذت البَيْعةُ العامَّة للسُّلْطان بظاهِر تازَى، على بَني مَرِين، وسائرِ زَنَاتَة، والعَرَب، والقبائل، والعَساكر، والحاشية، والموالي، والصَّنائع، والعُلَماء، والصُّلحاء، ونُقَباء النَّاس، وعُرفائهم، والخاصَّة، والدَّهْماء، فقام بالأمْرِ، واسْتَوْسق له المُلْكُ، وفرَّق الأعطياتِ، وأسْنى الجوائز، وتفقَّد الدَّواوين، ورَفع الظَّلامات، وحطَّ المغارِمَ والمكوس، وسَرَّحَ أهلَ السُّجون، ورَفَع عن أهلِ فاس وَظيفةَ الرِّباع.

وارْتحل لعشرينَ من رجب إلى حَضْرته، فاحتلَّ بفاس. وقَدِم عليه وُفودُ / [206 ب] التَّهنئة من جميعِ بلادِ المَغْرب. ثمَّ خرج لذي القَعْدَة بعدَها إلى رِباط الفَتْح لتفقُّد الأحْوال، والنَّظَر في أحوال الرَّعَايَا، والتهمُّم[ج] بالجهاد، وإنشاء الأساطيل للغَزْوِ في سبيل الله.

(أ) ظ: عربية، ومهملة في ص، والضبط من أ (ب) ص: لحضروا (ج) ظ، ص، ض: والتهم

ولمّا قضى مَنْسَكَ الأضحى بعده، رَجَع إلى حَضْرته بفاس. ثمّ عَقَدَ سنةَ إحدى عشرة لأخيه الأمير أبي البقاء يَعِيش على ثغور الأنْدَلُس: الجزيرةِ، ورُنْدَةَ وما إليها من الحصون.

ثمّ نَهَض سنةَ ثلاث عشرة إلى مَرّاكُش لِمَا كان بها من اختلال الأحوال، وخُروج عدي بن هَنُو[1] الهَسْكُورِيّ ونَقْضِه للطّاعة، فنَزل به وحاصَره مدّةً، واقتحم حِصْنَه عَنْوةً عليه، وحَمله مقيّداً إلى دارِ مُلكه، فأودَعه المُطْبَق[أ]. ثمّ رَجَع إلى غَزْوِ تِلِمْسان.

الخَبَرُ عن حَرَكة السُّلْطان أبي سعيد إلى تلمْسان[2]؛ أُولَى حَرَكاته إليها

لمّا خَرج عبدُ الحَقّ بن عُثْمان على السُّلْطان أبي الرَّبيع، وتغلَّب على تازَى بمُظاهرة الحسن بنِ عليّ بن أبي الطَّلاق كبيرِ بَني عَسْكَر، واختلفت رُسُلُهم إلى أبي حَمُّو موسى بنِ عُثْمان سُلْطانِ بَني عَبْد الوَاد؛ أسف ذلك بَني مَرِين، وحَرَّك من إحَنِهم، ولمّا لَحِق الخارجون على الدَّولَة بالسُّلْطان أبي حَمُّو، وأقبل عليهم، أضْرَم ذلك حِقْدَ بَني مَرِين. ووَلِي السُّلْطانُ أبو سعيد الأمرَ، وفي أنفُسِهم من

(أ) في الأصول الأربعة: الطبق، ومثله حيثما ترد ما عدا آخر مرة يذكرها في آخر الجزء قبل التعريف، ومرة أخرى في كتاب التعريف. والصواب: المُطْبَق: وهو سجنٌ تحت الأرض.

(1) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 399: همو.

(2) ابن أبي زرع: المصدر نفسه والصفحة.

بَنِي عَبْد الوَاد غصّة. فلمّا اسْتوْسَقَ أمرُ السُلْطان، ودوَّخَ الجهاتِ المَرّاكُشيَّة، وعَقَد على البلاد الأنْدَلُسيَّة، وفَرغ من شأن المَغْرب؛ اعْتزَمَ على غَزْوِ تِلِمْسان؛ فنَهض إليها[أ] سنةَ أربعَ عشرة، ولمّا انتهى إلى وادي مُلْويّة قَدَّم ابنَيْه: أبا الحسن وأبا علي[1] في عَسْكَرين عَظيمين فَي الجناحَيْن، وسارَ في ساقَتِها، ودَخل بلادَ بَنِي عَبْد الوَاد على هذه التَّعْبِئَة، فاكْتَسحَ نَوَاحيَها، واصْطَلم نِعَمها. ونازَل وَجْدَة، فقاتَلها قِتالاً شديداً، وامْتنعت / [207 أ] عليه. ثمَّ نَهَدَ[ب] إلى تِلِمْسان، فنَزَل بالملعب من ساحَتِها. وانْحجر[ج] موسى بنُ عُثْمان[2] من وراء أسوارِها، وغَلَب على مَعاقِلها ورَعاياها، وسائرِ ضَواحيها، فَحطمها حَطْماً، ونَسَف جِهاتِها نَسْفاً. ودوَّخَ جبالَ بَنِي يَزْنَاسَنْ، وفَتَح مَعاقِلَها، وأثْخَنَ فيها، وانتهى إلى وَجْدَة. وكان معه في مُعَسْكَرِه أخوهُ يَعِيشُ بنُ يَعْقُوب، وقد أدركته[د] بعضُ الاسْتِرابة بأمْره؛ ففرَّ إلى تِلِمْسان، ونَزَل على أبي حَمُّو، ورَجَع السُلْطانُ على تعبئته إلى تَازَى، فأقام بها. وبَعَث وَلَده الأمير أبا عليّ إلى فاس، فكان من خُروجه على أبيه ما نذكره.

(أ) ظ، ص، ض: إليه (ب) ض: نهذ. ونهد فلان لعدوه: نهض إليه وشرع في قتاله. لسان العرب، مادة: نهد (ج) ظ: وانحجز، أ، ض: وانحجر. والمثبت من ص (د) ظ: أدركه

(1) أبو الحسن اسمه علي، وأبو علي اسمه عمر، وسيفصل ابن خلدون تالياً حالها وعلاقتها به، في معرض الخبر عن انتقاض الأمير أبي علي ...
(2) هو الأمير بتلمسان

الخَبَرُ عن اسْتِقدامِ عَبْدِ المُهَيْمِن[1] للكِتابةِ والعَلامَة[2]

كان بَنو عَبْدِ المُهَيْمِن من بُيوتاتِ سَبْتَة، ونَسبُهم في حَضرموت. وكانوا أهلَ تَجِلَّةٍ ووَقار، مُنْتَحلين للعِلْم. وكان أبوه مُحَمَّد قاضياً بسَبْتَة أيَّامَ أبي طالب وأبي حاتِم، وكان له معهم صِهْر. ونشأ ابنهُ عَبْدُ المُهَيْمِن هذا في حِجْر الطَّلَب والجلالة، وقرأ صِناعةَ العَرَبِيَّة على الأُستاذ [أبي إسحاق][أ] الغافِقيّ[3]، وحذق فيها. ولمَّا نزلت بهم نَكْبَةُ الرَّئيس أبي سعيد سنةَ خَمْسٍ، واحتُمِلوا إلى غَرْناطَة، احتُمِل فيهم القاضي مُحَمَّد بن عَبْدِ المُهَيْمِن وابنُه. وقرأ عَبْدُ المُهَيْمِن بغَرْناطَة على مَشيختها [مثل أبي جعفر بن الزُّبَيْر[4] وأنظاره][ب]، وازداد عِلْماً وبَصَراً باللِّسان

(أ) زيادة من هامش أ بخطه (ب) من هامش أ، ض بخطه

(1) عبد المهيمن بن محمد الحضرميّ أبو عبد الله، المحدّث الكاتب، وفاته بالطاعون الجارف سنة 749هـ، وسيُعيد ابن خلدون الترجمة لعبد المهيمن هنا في رحلته الآتي ذكرها: التعريف بابن خلدون ص771

(2) موضع هذا الفصل (استقدام عبد المهيمن) والفصل الذي يليه (صريخ الأندلسيين) يأتي في الأصول الأربعة فيما بعد، في الأوراق [211أ ـ 213أ] من نسخة الظاهري "ظ"، لكن ابن خلدون ارتأى أن يعيد ترتيب الفصول؛ فقدَّم هذين الفصلين في هذا الموضع، ونبّه على ذلك في مواضعه، فكتب إزاء موضع الإدراج: "هنا ترجمة استقدام عبد المهيمن للكتابة والعلامة، وبعدها صريخ الأندلس بالسلطان ومَهلك بطره". وكتب في موازاة عنوان الفصل الأول منهما: "هذه الترجمة قبل ترجمة انتقاض الأمير أبي علي على أبيه، فلتكتب هنالك، ويكتب بعدها كما هو هنا: صريخ أهل الأندلس بالسلطان ومَهلك بطره على غرناطة". وعليه نقلنا الفصلين إلى حيث أشار المؤلف ونبهنا على ذلك، وأبقينا على الأرقام الجانبية الدالة على موضعه من المخطوط.

(3) إبراهيم بن أحمد بن عيسى الإشبيليّ، متبحّرٌ في كثير من العلوم، أخذ عنه العديد من التلاميذ، توفي سنة 716هـ. له ترجمة في المرقبة العليا للنباهي 133 ـ 134، وله ذكرٌ كثير في الإحاطة (ينظر فهرس الأعلام)

(4) أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفيّ الغرناطيّ، من كبار المقرئين والمحدِّثين، توفي سنة 708هـ. ترجمته في الديباج المذهب لابن فرحون 106، والإحاطة (انظر فهرس الأعلام).

والحديث. واستُكتب [بدارٍ][أ] السُّلْطان مُحَمَّد المَخْلُوع، واختصّ بوزيره المُتغلّب على دَوْلته مُحَمَّد بن الحكيم الرُّنْديّ فيمن اختصّ به من رُؤسائهم بَني العَزَفيّ، ثمّ / رَجَع بعد نَكْبَة ابن الحكيم إلى سَبْتَة، وكَتَب عن قائدها يَحْيَى بن مسلمة مُدَّةً. [211 ب]

ولمّا استخلص بَنو مَرِين سَبْتَة سنةَ تِسْع، اقْتَصر عن الكِتابة، وأقام مُتقيّلاً مذاهبَ سَلَفِه في انْتحال العِلْم ولُزوم المروءة.

ولمّا استولى السُّلْطانُ أبو سعيد على المَغْرب، واستقلَّ بولاية العَهْد والتَّغلُّب على الأمْر ابنُه أبو عليّ، وكان مُحبّاً للعِلْم، مُولَعاً بأهله، مُنْتحِلاً لفُنونه. وكانت دولتُه[ب] خِلواً من صِناعة التَّرسِيل[ج] مُذ عَهْد المُوَحِّدين؛ للبَداوة الموجدة[د] في أوّلِهم، وحصل للأمير أبي عليّ بعضُ البَصَر بالبلاغة واللِّسان؛ تفطَّن به لشأن ذلك، وخلوّ دَوْلتهم من الكُتّاب المُرسِّلين، وأنَّهم إنّما يحكمون الخطَّ الذي حذقوا فيه. ورأى الأصابعَ تُشير إلى عَبْد المُهَيْمِن في رِياسة تلك الصَّنائع، فوَلِعَ به. وكان كثير الوِفادةِ مع أهل بلده أوْقَاتَ وِفادتهم، فيختصّه الأميرُ أبو عليّ بمَزيدٍ من برّه وكَرامته، ويرفعُ مَجْلسه، ويخطبه للكِتابة، وهو يمتنعُ عليه. حتّى إذا أمضى عَزِيمَته في ذلك، أوْعَز إلى عامِلِه بسَبْتَة سنة ثنتي عشرة أنْ يُشْخِصَهُ إلى بابهم، فقلّده كتابتَهُ وعَلامته. حتّى إذا خرج أبو عليّ على أبيه تحيّز عَبْد المُهَيْمِن إلى الأمير أبي

(أ) زيادة من أ (ب) أ: دولتهم (ج) ظ: الترسل (د) ض: الموجودة

الحسن، فلمّا صُولِح أبو عليّ على النُّزول عن[أ] البَلَد الجَدِيد، وكتب شروطه على السُّلْطان، كان من جُملتها كونُ عَبْد المُهَيْمِن معه، وأمضى السُّلْطانُ له ذلك. وأنِفَ الأميرُ أبو الحسن منها، فأقسم [أبو الحسن][ب] ليقتلنَّه إنْ عمِل[ج] بذلك، فرَفع عَبْدُ المُهَيْمِن أمْرَه إلى السُّلْطانِ، ولاذَ به، وألْقَى نفسَه بين يدَيْه؛ فرقَّ لشَكْواه، وأمَرَه باعْتزالهما معاً والرُّجوعِ إلى خِدْمته، وأنزله بمُعَسْكَره، وأقام على ذلك. واختصّه مِنْدِيل الكِنَانيّ كبيرُ الدَّولَة وزعيمُ الخاصَّة، وأنْكَحه ابنتَه.

ولمَّا نُكِب مِنْدِيل الكِنَانيّ، جَعَل السُّلْطانُ عَلامتَه لأبي القَاسم بن أبي مَدْيَن، وكان غُفْلاً خلْواً من الأدوات، فكان يرجِعُ إلى عَبْد المُهَيْمِن في قراءة الكُتب وإصْلاحها وإنشائها، حتّى عَرَف السُّلْطان له ذلك؛ فاقْتصر / عليه، وجَعَل وَضْعَ [212أ]
العَلامةِ إليه سنةَ ثمان عشرة؛ فاضْطلع بها. ورَسَخَتْ قَدمُه في مَجْلس السُّلْطان، وارْتفع صيتُه. واستمرَّ على ذلك أيّامَ السُّلْطان وابنه أبي الحسن من بعده، إلى أنْ هَلَك بتُونِس في الطَّاعُون الجارِف[1] سنةَ تِسْعٍ وأربعين. واللهُ خيرُ الوارِثِين.

(أ) في سائر النسخ: على (ب) زيادة من هامش أ، ض بخطّه (ج) ص: تحمل

---

(1) حل هذا الوباء بالأندلس ومناطق كثيرة من العالم الإسلامي، وأنحاء من آسيا وأوربا وأفريقيا؛ وحصد أعداداً هائلة من البشر. قال عنه السيوطي: "لم يعهد نظيره، فإنه طبق الأرض شرقاً وغرباً". (ما رواه الواعون في أخبار الطاعون 192). وكان ابن الخطيب وابن خلدون – الذي فقد أكثر أسرته – شاهدَيْن على فتك هذا الوباء في تونس. وقد صنّف ابن الخطيب كتاباً أسماه "مقنعة السائل عن المرض الهائل"، ووضع أحمد بن خاتمة الأنصاري (ت770هـ) رسالةً اسمها "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد". كما أفرد له ابن أبي حجلة التلمساني والسُّبكي وابن حجر رسائل بذاتها. وكان ملك قشتالة الهنشة (ألفونسو) الحادي عشر قد تجهز للاستيلاء على جبل طارق، فحاصره حصاراً شديداً، لكن عاقه الطاعون وقد فشا في جيشه، فاضطر إلى الانسحاب، وكان هو من ضحاياه. انظر ما يلي: "فصل الخبر عن ارتجاع الجزيرة".

الخَبَرُ عن صَريخِ أهلِ الأَنْدَلُس بالسُّلطانِ، ومَهْلِكِ بِطْرُهْ[أ] على غَرْنَاطَة

كان الطَّاغِيَة شَانجُهُ بن أَذْفُونْش قد تكالَبَ على أهلِ الأَنْدَلُس من بعد أبيه هِرَّانْدُهْ الهالِكِ سنة ثنتَين وثمانين. ومنذ غَلَبَ على طَرِيف، وشُغِلَ السُّلْطان يوسُف ابن يَعْقُوب بعَدُوِّه[ب] بَني يَغْمَرَاسَن، ثمَّ تَشاغل حفَدَتهُ مِن بعده بأمْرهم، وتَقَاصَرت مُدَدُهم، وهَلَكَ شَانجُهُ سنةَ ثلاثٍ وتسعين، ووَلِي ابنُه هِرَّانْدُهْ[1]، ونازَلَ الجزيرةَ الخضراء فُرْضَةَ الجهادِ لبَني مَرِين حَوْلاً كاملاً. ونازَلَتْ أساطيلُه جَبَلَ الفَتْح، واشتَدَّ الحصارُ على المُسْلِمين. وراسَلَ[ج] هِرَّانْدُهْ بن أَذْفُونْش صاحبَ بَرْشَلُونَة[د] أنْ يشغلَ أهلَ الأَنْدَلُس مِن ورائهم، ويأخذَ بحُجْزَتِهم؛ فنازلَ المَرِيَّة، وحاصَرها الحصارَ المشهورَ سنةَ تِسْعٍ، ونَصب عليها الآلاتِ؛ وكان منها برجُ العود المشهور، طال الأسوارَ بمقدارِ ثلاثِ قامات، وتحيَّلَ المُسْلِمون إلى إحْراقه[هـ]، فأُحْرِق. وحَفَر العَدُوُّ تحتَ الأرْضِ مَسْرباً عريضَ المسافة مقدارَ ما يسيرُ[و] فيه عشرون راكباً. وتفطَّن لهم المُسْلِمون، فاحتفروا قُبالَتهم مثله، إلى أنْ نفذ بعضُهم لبعض، واقتتلوا من تحتَ الأرْض.

(أ) الضبط من أ، ض حسبما تكرَّر في أكثر مواضع الكتاب، وعليه نسخة الأصل ظ دون ضبط أوّله، إلاّ في مواضع قليلة ضبطت بضم الباء، كما في الورقة 213أ. وبِطْرُة (بضم الباء أو كسرها) هو بطرس أو بيتر الأوّل، الملقَّب بالقاسي (751 ـ 769هـ). وعلى بطره هذا وفد ابن خلدون في إشبيلية سفيراً لملك غرناطة محمد الخامس الغني بالله سنة 765هـ، حسبما يشير ابن خلدون في كتاب رحلته آخر هذا الجزء (التعريف بابن خلدون)، منوّهاً بالهدايا التي حملها معه. انظر ما يلي ص 601 (ب) أ: بعداوة (ج) ظ: وأرسل (د) ضبطه في أ بضم أوله: بُرْشلونة (هـ) أ: لإحراقه (و) ص: يستر

(1) فِرَّانْدُه (فِرْدِلَنْد) الرابع ملك قشتالة (695 ـ 712هـ)، قتل إثر هزيمة المسلمين له كما يفصّل ابن خلدون في هذا الفصل.

وعَقد ابنُ الأحْمر لعُثْمان بنِ أبِي العُلَى زعيمِ الأغياص على عَسكرٍ بعثهُ مَدداً لأهلِ المَرِيّة، فلَقِيه جَمْعٌ من النَّصَارَى؛ كان الطَّاغِيَةُ بعَثَهم لحصار مُرْشَانَة[1]، فهَزَمهم عُثْمان واسْتَلْحمهم. ونَزَل قريباً من معَسْكَر الطَّاغِيَة، وألحَّ بمُغاداتِهم ومُراوَحتِهم إلى أنْ رَغِبوا إليه فِي السِّلْم، وأفْرج عن البَلَد. وتغلَّب الطَّاغِيَةُ /ـ خلالَ ذلك ـ على جَبَل [212 ب] الفَتْح، وأقامَتْ عَساكِره على شُهانَةَ[2] وإصْطبُّونَة. وزَحَف العبَّاسُ بنُ رَحُّو بن عَبْد الله، وعُثْمان بنُ أبِي العُلَى فِي العَسَاكر لإغاثة البَلَدَيْن، فأوْقع عُثْمانُ بمُعَسْكَر إصْطبُّونَة، وقَتَل قائدَهم ألفنش بيرَسْ[أ] فِي نَحْوِ ثلاثةِ آلاف فارِسٍ اسْتُلْحموا.

ثُمّ زَحَف عُثْمان إلى إغاثة[ب] العبَّاس، وكان دخل غُوجِين[3]، فحاصَرَته جموعُ النَّصْرانِيَّة به، فانفضُّوا لخبر زَحْفِه. وبَلَغ الخَبَرُ إلى الطَّاغِيَة بمكانِه من ظاهر الجزيرة بفتْكَةِ عُثْمان فِي قَوْمِه، فسرَّحَ جموعَ النَّصْرانِيَّة إليه، ولقيهم عُثْمان، فأوْقعَ بهم، وقَتَل زعماءَهم.

وارْتَحل الطَّاغِيَةُ يريدُ لقاءهم، فخالَفَه أهلُ البَلَد إلى معَسْكَره، وانتهبوا محلَّاتِه

(أ) في أ: بضم الراء. (ب) ص: إعانة

(1) مرشانة: من مدن إشبيلية بالأندلس. مجهول: ذكر بلاد الأندلس 61، الروض المعطار 542، مقديش: نزهة الأنظار 1: 162

(2) شهانة: حصن من حصون الجزيرة الخضراء بالأندلس. مجهول: ذكر بلاد الأندلس 68

(3) غوجين: حصن بالأندلس يتبع لمدينة الجزيرة الخضراء. مجهول: المصدر نفسه والصفحة.

وفَساطيطَه. وأُبِيْحَتْ[أ] للمُسْلِمِين عليهم الكَرَّةُ، وامتلأت الأيدي من غنائمهم وأسْراهم.

ثمَّ هَلَكَ الطَّاغِيَةُ إثر هذه الهزائم سنةَ ثنتَي عشرة، وهو هِرَّانْدُهْ بنُ شَانْجُهْ، ووَلِيَ من بعدِه ابنُه الهُنْشُهْ[1] طفلاً صغيراً، جَعلوه إلى نَظَرِ عَمِّه دون بِطْرُهْ[ب] ابن شَانْجُهْ، وزعيمِ النَّصْرانيَّة جُوَان، فكفلاه. واسْتقام أمرُهم على ذلك.

وشُغِلَ السُّلْطانُ أبو سعيد ملكُ المَغرب بشأن ابنِه وخُروجِه؛ فاهْتبلَ النَّصْرانيَّةُ الغِرَّةَ في الأنْدَلُس، وزحفوا إلى غَرْنَاطَة سنةَ ثمان عشرة، وأناخوا عليها بمُعَسْكَرِهم وأُمَمِهم. وبَعَثَ أهلُ الأنْدَلُس صَرِيخَهم إلى السُّلْطان، واعتذر لهم بمكانِ [ابن][ج] أبي العُلَى من دَوْلتهم، ومحلّه من رِياستهم، وأنَّه مُرشَّحٌ للأمْر في قَوْمِه بَني مَرِين؛ يخشى معه من تَفْريق الكلمة. وشرط عليهم أنْ يدفعوه إليه برُمَّته، حتَّى يتمَّ أمرُ الجهاد، ويعيده إليهم حَوطةً على المُسْلِمِين. ولم يمكنهم ذلك لمكان عُثْمان بنِ أبي العُلَى بصَرامته وعِصابته من قَوْمه؛ فأخفق سَعْيُهم واستلموا[د]. وأحاطت أُمَمُ النَّصْرانيَّة بغَرْنَاطَة، وطمعوا في التهامِها. ثمَّ إنَّ الله نفَّس مُخَنَّقَهم، ودافَع بيد قُدرَتِه عنهم، وكيَّفَ لعُثْمان بن أبي العُلَى وعُصْبته واقعةً فيهم كانت من / أغرب الوقائع؛ صمّموا إلى [213أ]

(أ) ظ: وأبيحت (ب) أ: دُنْ بطره، ظ، ص: نظره، وهو: Don Pedro (ج) ساقطة من ظ، ص، ض ومثبتة بهامش في أ
(د) كذا في ظ، ص، أ وفي ض: واستسلموا

---

(1) هو ألفونش (ألفونسو) الحادي عشر (712 - 751هـ)

مَوْقف الطَّاغِيَة بجُمْلتهم، وكانوا زهاء مائتين أو أكثر، وصابَروهم حتّى خالَطوهم في مَراكزهم، فصَرعوا بِطْرُة وجُوَان، ووَلّوهم الأدبار. واعترضتهم من ورائهم مَساربُ الماء للشُّرب من شنيل[1]، فتطاوَحوا فيها، وهَلَك عامَّتُهم[أ]، واكتُسِحَتْ أموالُهم، وأعزَّ الله دينَه، وأهْلَك عَدُوّه. ونُصب رأسُ بِطْرُة بسورِ البَلَد عبرةً لمن تذكَّر، وهو باقٍ هُنالِكَ لهذا العَهْد.

الخَبَرُ عن انتقاض الأمير أبي عليّ، وما كان بينَه وبينَ أبيه من الواقعات[2]

كان للسُّلْطانِ أبي سعيد اثنانِ من الوَلَد: أكبرهما لأُمّه الحَبَشيَّة، وهو عليّ، والآخر لمملوكةٍ من سَبْيِ النَّصْرانيَّة[ب]، وهو عُمَر. وكان هذا الأصغرُ آثرَهما لديه،

(أ) ص: أكثرهم (ب) طمست في أ واستعيض عنها في الهامش بـ الفرنج

(1) نهر شنيل Xenil, Genil: ويقال: شنجيل، وسنجيل، الذي تقع عليه مدينتا غرناطة وإستجة، المتفرّع من نهر الوادي الكبير (نهر بيطي)، والمنبعث من جبل شلير Sierra Nevada، ويذكره ابن خلدون فيما بعد عند ترجمته لابن الخطيب، وقد وصفه ابن الخطيب، وذكر أن الشعراء ولعت بوصفه، وأنهم بالغوا في تفضيله على النيل بزيادة الشين، وتقديرها 1000 من العدد على الترتيب المغربي في حساب الجُمّل، فكأنه نيل بألف ضعف. الإحاطة 1: 118، وانظر أيضاً: مجهول: ذكر بلاد الأندلس 11، 69، مقديش: نزهة الأنظار 1: 162

(2) كتب ابن خلدون بخطه في هامش أ ، إزاء عنوان هذا الفصل: "هنا ترجمة استقدام عبد المهيمن للكتابة والعلامة، وبعدها صريخ الأندلس بالسلطان ومهلك بطره". وهما فصلان متتاليان، موقعهما من نسخة الأصل في (الأوراق 211أ- 213أ) ولما كان رأي المؤلّف تقديم موضع الفصلين المذكورين إلى هنا أعدناهما إلى حيث أشار.

وأغلَقَها بقَلْبه منذ نشأ. فكان عليه حَدِباً، وبه مَشغوفاً. ولمَّا استولى السُّلْطانُ على مُلكِ المَغرب، رَشَّحه لولايةِ عَهْده، وهو شابٌّ لم يَطُرّ شارِبُه، ووَضَعوا له ألقابَ الإمارة، وصَيَّر معه الجلساءَ والخاصّة والكُتّاب، وأمَره باتِّخاذ العَلامة في كُتُبِه[1]. وعَقَد على وزارته لإبراهيم بن عيسى اليَرْنِيّاني من صَنائع دَوْلتهم، وكِبار المُرشَّحين بها.

ولمَّا رأى أخوه الأكبر أبو الحسن صاغيةَ أبيها إليه - وكان شديدَ البُرورِ لوالدَيْه - *انحاشَ إليه*[أ]، وصارَ في جُمْلته، وخلطَ نفسَه بحاشيته طاعةً لأبيه.

واستمَرَّت حالُ الأمير أبي عليّ على هذا، وخاطَبه المُلوك من النَّواحي، وخاطَبهم، وهادوه، وعَقَد الرّاياتِ، وأثبتَ[ب] في الدِّيوان، ومحا وزاد في العَطاء ونَقَص، وكاد أنْ يستبدّ.

ولمَّا قَفَل السُّلْطانُ أبو سعيد من غَزاته إلى تِلِمْسان سنةَ أربعَ عشرة أقام بتازَى، وبَعَث ولَدَيْه إلى فاس، / فلمَّا استقرَّ الأميرُ أبو عليّ بفاس حَدَّثته نفسُه بالاستبدادِ [207 ب]
على أبيه وخَلْعه، وراوَضَهُ المداخِلون له في المكْر بالسُّلْطانِ حتّى يتقبَّض عليه، فأبى، ورَكِب الخلافَ، وجاهَر بالخُلعان، ودعا لنفسه؛ فأطاعه النّاسُ لِما كان

(أ) سقط ما بين النجمين من أ (ب) ظ: وأثبت

---

(1) جاء في الأنيس المطرب لابن أبي زرع 399: "وفي سنة أربع عشرة وسبعمائة عقد أمير المسلمين لولده الأجلّ أبي علي عمر على بلاد القبلة ومدينة سجلماسة وبلاد درعة وما والى ذلك إلى الصحراء، وفوّض له الأمر في خراجها وجميع أمورها". لكن ما يثير الاستغراب سكوت صاحب الأنيس المطرب على خروج الأمير على أبيه.

السُّلطانُ جعلَ إليه من أمْرِهِم. وعَسْكَرَ بساحة البَلَد الجَدِيد يُرِيدُ غَزْوَ السُّلطانِ، فبَرز من تَازَى بعَسْكَره يُقَدِّمُ رِجْلاً ويؤخِّرُ أخرى.

ثمَّ بدا للأمير أبي عليّ في شأن وَزِيرِه، وحدَّثته نفسُه بالقَبْض عليه استرابةً به؛ لِمَا كان بلَغه من المكاتبة بينَه وبينَ السُّلطان، فبَعَث لذلك عُمَر بن يخلف الفُودُودِيّ[أ]، وتفطَّنَ الوَزِيرُ لِمَا جاء به من المكْر، فتقبَّض عليه، ونَزع إلى السُّلطان أبي سعيد، فتقبَّله ورَضِي عنه، وارْتَحل إلى لقاء ابنه. ولمَّا تراءى الجمعان بالمُقَرْمِدَة ما بين فاس وتَازَى، اختلَّ مَصافّ السُّلطان، وانهزم عَسْكَرُه. وأفلت بعد أن أصابته جِراحةٌ في بدنه[ب] وَهَن لها، ولَحِق بتَازَى فَليلاً جَرِيحاً، ولَحِق به ابنُه الأمير أبو الحسن نازِعاً إليه من جُملة[ج] أخيه أبي عليّ بعدَ المِحْنة وفاءً بحقِّ أبيه[د]؛ فاستبشر السُّلطانُ بالظُّهور والفَتْح وحَميد المَغَبَّة. وأناخ الأميرُ أبو عليّ بعَساكره على تَازَى، وسَعى الخواصّ بين السُّلطانِ وابنه في الصُّلح، على أنْ يخرجَ له السُّلطان عن الأمر، ويقتصر على تَازَى وجِهاتِها، فتمَّ ذلك بينهما وانعقد. وشَهِد الملأ من مَشيخة العَرَب وزَنَاتَة وأهْلِ الأمصار، فاستحكم عَقدُه، وانكفأ الأميرُ أبو عليّ إلى حَضْرة فاس مُملَّكاً. وتوافتْ إليه بَيْعاتُ الأمصار بالمَغْرب ووُفودهم، واسْتَوْسَق أمرُه.

ثمَّ اعتلَّ على إثر ذلك، واشتدَّ وَجَعُه، وصارَ إلى حال الفَوْتِ، وخَشي النَّاس

(أ) ص: الفودي، ض: الفودوي (ب) ظ، ض: يده، ص: يديه، والمثبت من أ (ج) ظ، أ: حملة (د) ص: لحق ابنه

على أنفسِهم تَلاشي الأمرِ بمَهْلِكه، فتَساتلوا إلى السُّلْطان بتَازَى. ثمّ نَزع [عن][أ] الأمير أبي عليّ وزيرُه أبو بكر بن النَّوار، وكاتِبُه مِنْدِيل بن مُحَمَّد الكِنَانيّ، وسائرُ خَواصّه، فلَحِقوا بالسُّلْطان، وحملوه على تَلافي الأمر، فنَهَض من تَازَى، واجتمع إليه كافَّةُ بَني مَرِين والجند. / وعَسْكَرَ على البَلَد الجَدِيد، وأقام مُحاصِراً لها، وابتَنى داراً [208 أ] لسُكناهُ. وجَعل لابنه الأمير أبي الحسن ما كان لأخيه أبي علي من وِلاية العَهْد وتفويض الأمر.

وتفرَّد أبو عليّ بطائفةٍ من النَّصارَى المستخدَمين بدَوْلتهم كان قائدُهم يَمُتُّ إليه بالخُؤولة، وضَبَط البَلَد مدَّةَ مَرَضِه، حتّى إذا أفاق، وتبيَّن اختلالَ أمْرِه، بَعَث إلى أبيه في الصَّفح والرِّضا، وأنْ ينزلَ له عمَّا انتزى عليه من الأمْر، على أن يُقْطِعَهُ سِجِلْمَاسَة وما إليها، ويُسوّغَه ما يحتملُ من المال والذَّخِيرَة من دَراهم؛ فأجابه لذلك، وانعقد بينهما سنةَ خَمْس عشرة.

وخَرج الأميرُ أبو عليّ بخاصَّته وحَشَمه، وعَسْكر بالزَّيتُون[1] من ظاهِر البَلَد. ووفى له السُّلْطانُ بما اشترط، وارْتحل إلى سِجِلْمَاسَة. ودَخل السُّلْطانُ إلى البَلَد الجَدِيد، ونَزل بقَصْره، وأصْلَح شؤونَ مُلكه، وأنزل ابنَه الأميرَ أبا الحسن بالدَّار البَيْضَاء من قُصورهم، وفوَّض إليه في سُلْطانِه تفويضَ الاستقلال. وأذِن له في اتّخاذ

(أ) ظ، ص: على

(1) سماه ابن خلدون فيما مرّ: "بحيرة الزيتون"، وحدَّده في موضع آخر: "من ساحة فاس"

الوزراء والكُتّاب، ووَضَع العَلامةَ على كتابه، وسائرِ ما كان لأخيه. ووفدت عليه بَيْعاتُ الأمصار بالمَغرب، ورَجعوا إلى طاعته.

ونَزل الأميرُ أبو عليّ سِجِلْمَاسَة، فأقام بها مُلْكاً، ودوَّن الدَّواوين، واستَلْحق واسْتَرْكب، وفَرض[أ] العَطاء، واستَخدم ظَواعن العَرَب من المَعْقِل، وافتتح مَعاقِلَ الصَّحْرَاء وقصُورَ تَوَاتْ[1] وتِيكُورَارِين[2] وتَمَنْطِيتْ، وغزا بلادَ السُّوس، فافْتَتحها، وتغلَّبَ على ضَواحيها، وأثْخَنَ في أعْرابها من ذَوِي حَسَّان والشَّبَانَات وزُكْنَة، حتّى استقَاموا على طاعَتِه.

وبيَّتَ[ب] عبد الرَّحمن بن الحسن بن يَدَّر أمير الأمصار بالسُّوس في تَارَوْدَانْت مقرِّه، فافْتَتحها عليه عَنْوةً، / وقتَله واصْطَلم نِعْمته، وأباد سُلْطانه. وأقام لبني مَرِين [208 ب] في بلاد القِبْلَة مُلْكاً وسُلْطاناً. وانْتقض على السُّلْطان سنةَ عشرين، وتغلَّب على دَرْعَةَ، وسَما إلى طَلَب مَرَّاكُش، فعقَد السُّلْطانُ على حَرْبه لأخيه الأمير أبي الحسن، وجَعَله إليه وأغزاهُ، ونَهَض على إثره، فاحتلُّوا بمَرَّاكُش، وثقفوا أطرافَها، وحَسَموا عِلَلها، وعَقَد عليها لكَنْدُوز بن عُثْمان من صَنائع دَوْلتهم، وقَفَلوا بعَساكرهم إلى الحَضْرة.

(أ) أ، ص: وفوّض، ومثله في ض ثم أصلحت (ب) ظ: وبثت، ومهملة في ض

(1) توات: وتعرف ببلد بني أركان، وهو بلد كثير الزرع والثمار، فيها العيون والأنهار. ابن مليح السراج: أنس الساري 28 ـ 30

(2) تِكُورَارِين: منطقة ممتدة في الصحراء المغربية، تبعد عن إقليم تسبت نحو مائة وعشرين ميلاً إلى الشرق. الوزان: وصف إفريقيا 2: 133

ثمَّ نَهَضَ الأميرُ أبو عليّ سنةَ ثنتين وعشرين بجُموعِه من سِجِلْمَاسَة، وأغَذَّ السَّيْرَ إلى مَـرَّاكُش، فاحتلَّـت عَساكرُه بها قبل أنْ يجتمع لكَنْـدُوز أمرُه، فتقبّض عليه، وضَرَب عُنقَه، ورَفعه على القَناة، ومَلَكَ مَرَّاكُش وسائرَ ضَواحيها.

وبلَغ الخَبَرُ إلى السُّلْطان، فخَرج من حَضْرته في عَساكرِه بعدَ أنْ احْتشد، وأزاح العِلَلَ، واسْتوفى الأُعطياتِ، وقدَّم بين يديه ابنَه الأميرَ أبا الحسن - وَلِيّ عَهْده، والغالب على أمْره - في عَساكرِه وجُموعه، وجاء في ساقته، وسار على هذه التَّعْبِئَة، ولَمَّا انتهى إلى نُونُو[أ] من وادي مُلْوِيَّة نَذِرُوا بالبيات من أبي عليّ وجُنوده، فحذروهم، وأيقظوا لَـيْلَهم، وبيَّـتهم بمُعَسْكَرهم ذلك، فكانت الدَّبـرةُ[ب] عليه، وفُلَّ عَسْكَرُه. وارتحلوا من الغَد في أثره، وسَلَكَ على جبال دَرَن، وافترقت جنودُه في أوْعارِه، ولَحِقهم من مَعرَّاتها شناعاتٌ، حتّى ترجَّلَ الأميرُ أبو عليّ عن فَرسِه، وسَعى على قَدمَيه. وخلصوا من وَرْطَةِ ذلك الجبل بعد عَصْبِ [الرِّيق][ج]، ولَحِق بسِجِلْمَاسَة. ومَهَّد السُّلْطانُ نَواحي مَرَّاكُش، واستعملَ عليها، ورتَّبَ الحامية بها. وعقدَ على جِباية [أموالِ المَصَامِدَة ونَواحي مَرَّاكُش][د] لموسى بن عليّ بن مُحَمَّد الهِنْتَاتِيّ، فعَظُم غَناؤهُ في ذلك واضْطلاعه، وامتدَّت أيّام ولايته.

[209 أ] وارتَحلَ السُّلْطانُ إلى سِجِلْمَاسَة، فدافعَه / الأميرُ أبو عليّ بالخضوع في الصَّفح والرِّضا والعَوْدة إلى السِّلْم، فأجابه السُّلْطانُ لِمَا كان شغفه من حُبّه، فقد كان

(أ) ض: بُونُو، ومهملة في ص (ب) ص: الدائرة (ج) ظ، ص، ض: الرمق (د) سقط ما بين الحاصرتين من ظ

يُؤثَر عنه من ذلك غرائبُ. ورَجَع إلى الحَضْرة، وأقام الأميرُ أبو عليّ بمكانه من ملك القِبْلَة[أ]، إلى أنْ هَلَكَ السُّلْطانُ، وتغلَّب عليه أخوه السُّلْطانُ أبو الحسن، كما نذكره.

الخَبَرُ عن نَكْبَةِ مِنْدِيل الكِنَانيّ، ومَقْتَله

كان أبوه مُحَمَّد بنُ مُحَمَّد الكِنَانيّ من عِلِّيَّة الكُتَّاب بدَوْلَة المُوَحِّدِين، ونَزع من مَرَّاكُش عندَما انحلَّ نظامُ بَني عَبْد المُؤْمن، وانفضَّ[ب] جَمْعُهم إلى مِكْنَاسَة، فأَوْطَنها في إيالةِ بَني مَرِين. واتَّصل بالسُّلْطانِ يَعْقُوب بنِ عبد الحَقّ، فصَحِبَه فيمَن كان يُثابِر على صحابتِه من أعْلام المَغْرب. وسَفَر عنه إلى المُلُوك، كما ذكرنا في سفارته إلى المُسْتَنْصِر سنةَ خَمْسٍ وستِّين.

وهَلَكَ السُّلْطانُ يَعْقُوب بن عبد الحَقّ، فازْداد الكِنَانيّ عند [ابنه][ج] يوسُف ابن يعقوب حُظْوةً ومَكانةً، إلى أنْ سَخِطه ونَكَبه سنةَ سبعٍ وستِّين. وأقصاه من يومئذٍ، وهَلَكَ في حال سَخطته. وبَقي من بعده ابنه مِنْدِيل هذا في جُمْلة السُّلْطان أبي يَعْقُوب مُتَبرِّماً بمكان عَبْد الله بن أبي مَدْيَن المستولي على قَهْرَمة دارِ السُّلْطان ومُخالصته في خَلَواته مُغضباً[د] لذلك، مُتوقِّعاً للنَّكْبَة[هـ] في أكْثر أيَّامه، مضطرمةً له بالحسد جَوانحه، مع ما كان عليه من القِيام على حُسْبان الدِّيوان؛ عُرِفَ فيه سبقُه، وشَهِد به صَديقُه وعدوُّه.

(أ) ظ: أبو علي على مكانه من ذلك القبلة (ب) ظ: وانتقض (ج) ظ، ص، ض: أبيه (د) ظ: مفضياً، ومثله في أ مهملاً (هـ) أ، ض: متوقع النكبة

ولمّا تغلّب السُّلْطانُ على ضاحية شَلَف وأمصارِه من بلاد مَغْرَاوَة، واستعمل على حُسْبان الجباية، وجعل إليه ديوانَ العَسْكَر هُنالِكَ، وإلى نَظَره اعتِرَاضَهم وتمحيصَهم، فنزل بِمِلْيَانَة مع مَن كان هُنالِكَ من الأمراء مثل: عليّ بن مُحَمَّد الخِيَرِيّ، والحسن بن عليّ بن أبي الطَّلاق / العَسْكَرِيّ، إلى أنْ هَلَكَ السُّلْطانُ أبو يَعْقُوب [209 ب] ورجع أبو ثابت البلادَ إلى أبي زَيّان وأخيه أبي[أ] حَمُّو مُلُوك بني عَبْد الوَاد، ونَزل لهم عنها، فرَجَع إلى المَغْرب، ولَحِق بالسُّلْطانِ أبي ثابت، ومرّ في طَرِيقِه بأبي زَيّان وأخيه أبي حَمُّو، فحقّ عليهما، وحَلاَّ بعيونهما، واسْتبلغا في تَكْرِيمه، وانْصَرف إلى مغْرِبه.

وكان أيّام معَسْكَر السُّلْطان يوسُف بن يَعْقُوب على تِلِمْسان قد صَحِب أخاه أبا سعيد عُثْمان بن يَعْقُوب في حالِ خُمولِه، وتأكّدت بينهما الخَلّة التي رَعاها له السُّلْطانُ أبو سعيد. فلمّا وَلِيَ أمرَ المَغْرب متَّ بذلك إليه، فعرفَهُ له، واختصّه وخالَصه، وجَعَل إليه وَضْع عَلامته، وحُسْبان جِبايته، ومُسْتَخلص أحوالِه، والمفاوضة بذات صَدْره، ورَفَع مَجلسَه في بساطه[ب]، وقدّمه على خاصّته، وكان كثيرَ الصَّاغِيَة للأميرِ أبي عليّ ابنه المتغلّب على أبيه أوّل أمره[ج].

ولمّا استبدَّ وخَلَع أباه، انحاش مِنْدِيل هذا إليه، ثمّ نَزَع عنه حين تبيّن اختلالَ أمرِه. وكان الأميرُ أبو الحسن [يحقد][د] له ولايةَ أخيه أبي عليّ، لِمَا كان بينهما من

(أ) في الأصول جميعها: أبو (ب) ظ، ص: بسائطه. (ج) ظ: مرة (د) ظ: عقد

المنافسة. وكان كثيراً ما يُوغِل صَدْرَه بإيجاب حقّ عُمر عليه، وامْتهانِه في خِدْمته، فطوى له على النثّ، حتّى إذا انفرد بمَجْلس أبيه، وفَصَل عُمر إلى سِجِلْمَاسَة أحْكَم السّعايَةَ فيه، والآلاء في الهَلَكَة التي صرَّ السُّلْطانُ عليها أذناً واعِيةً، حتّى تأذَّن الله بإهلاكه.

وكان مِنْدِيل هذا كثيراً ما يُغْضِب السُّلْطانَ في المحاوَرة والخِطاب دالَّةً عليه وكِبْرًا، فاعتدَّ عليه من ذلك كلماتٍ وأحوالاً، وسَخِطَهُ سنةَ ثمان عشرة، وأذِنَ لابنه أبي الحسن في نَكْبته؛ فاعْتقله، واسْتَصْفى أمْوالَه، وطَوى ديوانَه، وامْتحنه أيّاماً، ثمّ قَتَله بمَحْبِسه خَنقاً، ويقال: جُوعاً، وذهب مثلاً / في الغابرين. والله خيرُ الوارثين. [210أ]

الخَبَرُ عن انتقاضِ العَزَفيّ بسَبْتَة، ومُنازلته، ثمّ مصيرها إلى طاعة السُّلْطان بعد مَهْلكه

كان بَنو العَزَفيّ لمّا تغلّب عليهم الرَّئِيسُ أبو سعيد، ونَقَلهم إلى غَرْنَاطَة سنةَ خَمْسٍ، استقرّوا بها في إيالة المَخْلُوع(أ) ثالث مُلُوك بَني الأَحْمر، حتّى إذا استولى السُّلْطانُ أبو الرَّبِيع على سَبْتَة سنةَ تِسْع(1)، آذنوهُ في الإجازة إلى المَغْرب،

(أ) ظ: الخلوع. والمخلوع هو محمد الثالث (701 ـ 708هـ). انظر أخباره في اللمحة البدرية 60

(1) مقديش: نزهة الأنظار 1: 525: في صفر عام تسعة وسبعمائة.

فأجازوا إلى فاس، واستقرّوا بها.

وكان يَحْيَى وعبد الرَّحمن ابنا أبي طالب من سَرواتِهم وكبارِهم، وكانوا يَغشون مَجالسَ أهلِ العِلْم، بما كانوا عليه من انتحال[أ] الطَّلَب. وكان السُّلْطانُ أبو سعيد أيّامَ إمارة[ب] بَني أبيه يُجالِسُ بالمسجد الجامع للقرويّين شيخ الفُتْيا أبا الحسن الصَّغير، وكان يَحْيَى بن أبي طالب يُلازمه، فاتّصل[ج] به، وصارت له وَسيلةً يحتسِبُها عندَه. فلمّا وَلِيَ الأمرَ[د]، واستقلّ به، رَعى لهم ذِمامَ صحابتهم، ووفى لهم مَقاصِدَهم. وعقد ليَحْيَى على سَبْتَة، ورجعهم إلى مقرّ إمارتهم منها ومحلّ رِياستهم؛ فارتحلوا إليها سنةَ عشر. وأقاموا دعوةَ السُّلْطان أبي سعيد، والتزموا طاعَته.

ثمّ تغلّب الأميرُ أبو عليّ على أمْرِ أبيه، واستبدّ عليه، فعَقَد على سَبْتَة لأبي زَكَرِيّاء حيُّون بن أبي العلاء القُرَشيّ، وعزل يَحْيَى بن أبي طالب عنها، واسْتَقْدمه إلى فاس؛ فقَدِمَها هو وأبوه أبو طالب وعمُّه أبو حاتم، واستقرّوا في جُمْلة السُّلْطان.

وهَلَكَ أبو طالب بفاس خلالَ ذلك، حتّى إذا كان من خُروج الأمير أبي عليّ على أبيه ما قدّمناهُ، لَحِق يَحْيَى بن أبي طالب وأخوه بالسُّلْطان نازِعَيْن من جُمْلة

(أ) أ: نحلة (ب) أ: سلطان (ج) ظ: فاتصلت، ص: واتصل (د) أ: الملك

[210 ب] الأمير أبي عليّ. فلمّا اعتلّ[أ] بالبَلَد الجَدِيد، ونازَلَه / السُّلْطان بها، فحينئذٍ عقد السُّلْطانُ ليَحْيَى بن أبي طالب على سَبْتَة، وبعثه إليها ليقيمَ دَعْوته بتلك الجهاتِ، وتمسَّك بابنه مُحَمَّد رهْناً على طاعته، فاستقلَّ بإمارتِها، وأقامَ طاعةَ السُّلْطانِ[ب] ودَعوتَه بها، وأخذ بَيْعتَه على النَّاس، واتَّصَل ذلك سنتَيْنِ[ج]. وهَلَكَ عمُّه أبو حاتِم هُنالِكَ بعدَ مَرْجِعه معه من المَغْرب. ولسنة ستّ عشرة انتقضَ على السُّلْطان، ونبذَ طاعةَ الأمرِ، ورَجَع إلى حالِ سَلَفِه من أمْرِ الشُّورَى في البَلَد. واستقدمَ من الأنْدَلُس عبد الحَقّ بن عُثْمان؛ فقَدِم عليه، وعَقَد له على الحَرْب ليفرِّق به الكَلِمة، ويُوهِنَ[د] ببأسِه عزائمَ السُّلْطان في مُطالبته. وجهَّز السُّلْطانُ إليه العَسَاكر من بَني مَرِين، وعَقَد على حَرْبه للوزير إبراهيم بن عيسى، فزَحَف إليه وحاصَره. وتعلَّل عليهم بطَلَب ابنِه، فبَعَث به السُّلْطانُ إلى وَزيرِه إبراهيم ليعطي الطَّاعَة، فتَسلَّمه.

وجاءه الخَبَرُ من عُيونٍ كانت بالعَسْكَر، وأنَّ ابنَه كان في فُسْطَاطِ الوَزِير بساحةِ البَحْر بحيث تتأتَّى[هـ] الفُرْصَة في أخْذه، فبيَّت المَعْسْكَر، وهَجَم عبد الحَقّ بن عُثْمان بحَشَمه وذَويه على فُسْطَاط الوَزِير، فاحْتَمله إلى أبيه. وركبت العَسَاكرُ للهَيْعة، فلم يقفوا على خَبر حتّى تفقّد الوَزِيرُ ابن العَزَفيّ. واتّهموا قائدَهم إبراهيم بن

(أ) كذا في سائر النسخ، ولعلّ الصواب: احتل، أو أن المراد: أصابه مرض بها. (ب) ظ: وأقام الناس طاعته السلطان !؟
(ج) ص: سنين (د) ظ: ويوهم (هـ) ص: يتأتى

عيسى الوَزير بمُمالأة العَدُوّ على ذلك، فاجْتمعت مَشيختُهم وتقبَّضوا عليه، وحَملوه إلى السُّلطان، ابتلاءً للطَّاعةِ، واستبصاراً في نُصْح السُّلطان، فشَكَر لهم، وأطْلَقَ وَزيرَه لابتلاءِ نَصيحَتِه.

ورَغِب يَحْيَى بن العَزَفيّ بعدَها في رضا السُّلطان وولايته. ونَهض السُّلطانُ سنةَ تِسع عشرة إلى طَنْجَة لاختبار طاعَتِه، فعَقَد له على سَبْتَة، واشْترط هو على نفسِه الوفاءَ بجِبايةِ السُّلطان، وإسْناءِ هَدِيَّته في كلّ سنة.

واستمرّت الحالُ على ذلك إلى أنْ هَلَكَ يَحْيَى العَزَفيّ سنةَ عشرين. وقامَ بالأمْرِ ابنُه مُحَمَّد إلى نَظَر ابنِ عمّه مُحَمَّد بن عليّ بن الفقيه أبي القاسم شيخِ قَرابتهم. وكان قائد الأساطيل / بسَبْتَة وَلِيَ النَّظَرَ فيها بعدَ أنْ نزع القائد يَحْيَى الرَّنْداحيّ[أ] إلى الأنْدَلُس، واختلفَ الغَوْغاء بسَبْتَة، وانتهزَ السُّلطان الفُرْصَة، فأجْمَع على النُّهوضِ إليها سنةَ ثمانٍ وعشرين، وبادَروا بإيتاء[ب] طاعَتِهم. وعَجَز مُحَمَّد بن يَحْيَى عن المناهَضة، وظنَّها مُحَمَّد بن علي من نَفْسه، فتعرَّض للأمْر في أوْغادٍ من اللَّفيف اجْتمعوا إليه. ودافَعَهم الملأُ عن ذلك، وحَملوهم على الطَّاعة، واقتادُوا[ج] بَني العَزَفيّ إلى السُّلطان، فانْقادوا. [211 ب]

واحتلَّ السُّلطانُ بقَصَبة سَبْتَة، وثقف جِهاتِها، ورمَّ مُنْثَلَمَها[د]، وأصْلَح خَلَلَها، واستعملَ كِبارَ رجالاتِه وخَواصّ مَجْلسه في أعمالها؛ فعقَد لحاجِبه عامر بن

(أ) ظ: الرنداجي، وقد تقدم ذكره (ب) أ: بإتيان (ج) ظ: واقتادوا هم (د) أ، ض: متثلمها

فتح الله السَّدْراتيّ على حاميتها، وعقد لأبي القاسم بن أبي مَدْيَن على جِبايتها والنَّظَر في مَبانيها، وإخراج الأموال للنَّفقات فيها. وأسْنى جَوائز الملإ من مَشيختها، ووفَّر إقطاعاتِهم وجِراياتِهم. وأوْعَز ببناء البَلَد المسمَّى أفراكُ على سَبْتَة؛ فشَرَعوا في بنائها سنةَ تِسْع وعشرين، وانكفأ راجعاً إلى حَضْرته[1].

الخَبَرُ عن صِهْرِ المُوَحِّدين، والحركة إلى تلمسان على أثره، وما تَخَلَّل ذلك من الأحداث[2]

لمَّا انفرجَ الحصارُ عن وَلَد عُثْمان بن يَغْمَراسَن مُلُوكِ بَني عَبْد الوَاد سنةَ ستٍّ، وتَجافى أبو ثابت عن بلادهم، ونَزَل لهم عمَّا مَلَكه بَنو مَرِين منها بسُيوفهم، واستقلَّ أبو حَمُّو بمُلْك بَني عَبْد الوَاد على رأس الحَوْل منها؛ صرف نظرَهُ واهتمامَهُ إلى بلاد الشَّرق، فتغلَّب على بلاد مَغْرَاوَة، ثمَّ على بلادِ بَني تُوجِّين، ومحا منها[أ] أثَرَ

(أ) ظ: منهم

(1) يلي هنا في الأصول الأربعة فصلان هما: الخبر عن استقدام عبد المهيمن للكتابة والعلامة، وفصل: الخبر عن صريخ أهل الأندلس بالسلطان ومهلك بطره على غرناطة، ثم ارتأى ابن خلدون أن يعيد ترتيب الفصول بالتقديم والتأخير، فكتب بخطّه إزاء عنوان الفصل الأول منها في نسخة أ: "هذه الترجمة قبل ترجمة انتقاض الأمير أبي علي على أبيه، فلتكتب هنالك، ويكتب بعدها كما هو هنا: صريخ أهل الأندلس بالسلطان ومهلك بطره على غرناطة". وعليه نقلنا الفصلين إلى حيث أشار المؤلف ونبهنا على ذلك. وتقدم لنا ذكر إشارة ابن خلدون لهذا التقديم حيث أدرجنا الفصلين.

(2) يواصل ابن خلدون التنبيه على ترتيب هذه الفصول بالتقديم والتأخير، فكتب بخطّه في موازاة هذا العنوان في أ: "إلى هنا ترجمة انتقاض الأمير أبي علي على أبيه، وبعدها انتقاض العَزَفي، وبعدها هذه".

سُـلْطانِهم. ولَحِـق أغياصُـهم مـن وَلَد عَبْـد القَـويّ بـن عَطيّـة، ووَلَد مِنْـدِيل بـن عبـد الـرَّحمن بالمُوَحِّـدِين آل[أ] أبي حَفْـص مـع مَـن تَـبِعَهم مـن رؤوس قَبـائلهم، وصـاروا في جُمْـلةِ عَـساكِرهم. واسـتلحقَ مَـوْلانا[ب] السُّلْطانُ أبـو يَحْـيَى وحاجِبُـه يَعْقُوب بنُ غَمَر[ج] منهم جُنْداً كثيفاً أثبتهم في الدِّيوان، وغالَبَ بهم الخَوارِجَ والمُنازعِين للدَّوْلَة.

ثمَّ زَحَفَ أبو حَمُّو إلى الجَزَائِر، وغَلَب ابنَ عَلَّان عليها سـنةَ كذا[د]، ونَقَلَه إلى تِلِمْسان ووفَّى له. وفرَّ بَنو منصور[هـ] أمراءُ مَلِيكَش أهلُ بَسيطِ مِتِّيجَة من صِنْهَاجَة، فلَحِقوا بالمُوَحِّدِين واصْطنعوهم. وتَملَّكَ قاصيةَ المَغْرب الأوْسَط، وتاخَمَ عَمَلَ المُوَحِّدِين بعَمَلِه.

ثمَّ تغلَّبَ على تَدَلّس سنةَ ثنتي عَشرة، وتَجنَّى على مَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى بما وَقَع بينهم من المُراسلة أيَّامَ انتزاء ابنِ خَلُوف ببِجَايَة، كما ذَكَرْناهُ في أخباره، فحثَّ عزائمَه لمنازلتها. / وطَلَب بلادَ المُوَحِّدِين، وأوْطأ [213 ب]
عَساكِره أرضَهم، ونازَلَ أمصارَهم بِجَايَةَ وقُسَنْطِينَة، واختصَّ بِجَايَةَ بشَوْكَتِه من ذلك، وجَهَّز العَسَاكِرَ مع مَسْعُود ابنِ عَمِّه أبي عامر إبراهيم لمضايقتها. وكان خلالَ ذلك ما قدَّمناه من خروجِ مُحَمَّد بن يوسُف بن يَغْمَرَاسَن عليه سنةَ [سَبْعَ

(أ) ظ، ص، ض: إلى (ب) من هنا يتكرر في أ، ض طمس كلمة "مولانا" حيثما ترد قبل ذكر السلطان أبي يحيى، وطمست أيضاً في موضع آخر عند ذكر أولاد السلطان: أحمد وعمر. ولم نكرر الإشارة إلى هذا الطمس في مواضعه. ولا بد أن لهذا الطمس - عند ابن خلدون - مدلولاً. (ج) ظ، ص: عمر (د) هكذا في الأصول. (هـ) ظ، ص: منصورة

عشرة][أ]، وقيامِ بَني تُوجِّين بأمْرِه، واقتطاعِ جبلِ وَانْشَرِيس من عمالةِ مُلكِه.

واستمرّت الحالُ على ذلك حتّى هَلَكَ السُّلْطانُ أبو حَمُّو[1] سنةَ ثمانِ عشرة. وقام[ب] بأمْرِهم ابنُه أبو تاشِفين عبدُ الرَّحمن، فصُنع له في ابن عمّه مُحمَّد بن يوسُف، ونهض إليه بعساكر بني عَبْد الوَاد، حتّى نازله بمُعْتَصَمه من جبل وَانْشَرِيس. وداخله عُمَر بن عُثْمان كبير بني تيغرين في المكرية[ج]، فتقبّض عليه[د] وقتله سنةَ تسع عشرة. وارتحل إلى بِجَايَة، حتّى احتلَّ بساحتها. وامتنع عليه الحاجبُ ابنُ غَمَر[هـ]، فأقام يوماً أو بعضه. ثمّ انكفأ راجعاً الى تِلِمْسان، وردَّد البعوث إلى أوطان بِجَايَة، وابتنى الحصون لتجمير الكتائب، فابتنى بوادي بِجَايَة من أعلاه حِصْنَ بَكر[2]، ثمّ حِصْن [.....][و] يليه، ثمّ اختطَّ

(أ) مكانها في ظ بياض قدر ثلاث كلمات، ومثله في ص، فكُتِبت السنة رقماً (ب) ظ: وأقام (ج) ظ: المكرمة (د) ساقطة من ص (هـ) ظ، ص: عمر، وقد تقدم ذكر (و) بياض في سائر الأصول قدر كلمتين، ولعل أقرب حصن إلى حصن بكر - حسب الإدريسي ومقديش - هو حصن وارفو، ويسمّى أيضاً حصن رافو (وعند مقديش: وافو). نزهة المشتاق 1: 262، مقديش: نزهة الأنظار 1: 94

(1) موسى الأول بن عثمان (707 - 718هـ)، غلبت كنيته على اسمه. انظر: الدراجي: نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية 58

(2) عدَّد الإدريسيّ منازل الطريق بين بجاية والقلعة، وذكر حصن بكر على وادي بجاية، وفيه: "حصن بكر، وبه المنزل، حصن حصين ... ومن حصن بكر إلى حصن وارفو، ويسمى أيضاً رافو". (نزهة المشتاق 1: 262). وزاد مقديش: له مزارع ممتدة، والوادي الكبير يجري مع أصلها ويحتويها، وفيه سوق وبيع وشراء. (مقديش: نزهة الأنظار 1: 94)

والإدريسي من أهل القرن السادس الهجري، وهو يذكر بناء الحصن قبل التاريخ الذي ذكره ابن خلدون (أي قبل سنة 719هـ)، وربما أراد ابن خلدون أن عبد الرحمن أبا تاشفين جدَّد الحصن.

بِتِيكْلَاتْ[1] على مَرْحلةٍ منها بَلَداً سمَّاهُ تِمْزِيزْدَكْت[2] على اسم المَعْقِل الذي كان لأوليهم بالجبل قبالةَ وَجْدَةَ. وامْتنعَ يَغْمَرَاسَن [به][أ] على السَّعيد، كما قدَّمناه، فاختطَّ بلَدَ تِيكْلَاتْ هذه، وشَحَنها بالأقواتِ والعَساكر، وصيَّرها ثغراً لمُلكِه، وأنزَل بها جُنْدَه. وعَقَد عليها لموسى بنِ عليٍّ[ب] الغُزِّيِّ كبير دَوْلته ودَوْلة أبيه. واستحثّه أمراءُ الكُعُوب من بَني سُلَيْم لملك إفريقِيَّة حين مُغاضبتهم لمَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى، فأغزى معهم جيوشَ زَنَاتة، وعَقَد على تُونِس للأغياصِ من آل أبي حَفْصٍ: الأمير أبي عَبْد الله مُحَمَّد بن أبي يَحْيَى اللِّحْيانيّ، وأبي عَبْد الله مُحَمَّد بن أبي بَكْر بن[ج] أبي عِمْران، وأبي إسحاق بن أبي يَحْيَى الشَّهِيد، مرَّةً بعد أخرى، كما ذكَرْناهُ في أخبارهم جميعاً. وكانت حُروبُهم سِجالاً إلى أنْ كان بين جيوشِ [214أ] / زَنَاتَة والمُوَحِّدِين الزَّحفُ المشهور بالرِّياش من نَواحي مَرْمَجَنَّة[3] سنةَ تِسْعٍ وعشرين، زَحَفتْ فيه إلى السُّلْطانِ أبي يَحْيَى عساكرُ زَنَاتة مع حَمْزَة بن عُمَر أميرِ

(أ) ساقطة من ظ (ب) ظ: لموسى بن موسى (ج) ظ، ص، ض: من

---

(1) وتسمى أيضاً بِكْلَت وتاكلات، وهي عبارة عن أنقاض مدينة رومانية قديمة تسمى تبسكتو قرب بجاية، وهي حصن منيع مطلّ على جبل بجاية، وبه قصور حسنة، وهو ثاني مرحلة للخارج من بجاية. الإدريسي: نزهة المشتاق 1: 262، الروض المعطار 147، الوزان: وصف إفريقيا 2: 11 (هامش التحقيق رقم 10)، مقديش: نزهة الأنظار 1: 94

(2) أ: تمززدكث، وهي تقع بين صحراء أنكاد وبلاد تلمسان، ويسيل في سفحها نهرُ التافنة. الوزان: وصف إفريقيا 2: 11

(3) مَرْمَجَنّة: يجعلها ابن حوقل غربيّ الأربس بين أبّة وتامديت (صورة الأرض 87) ويجعلها محمد الطالبي في موقع مدينة تالّة الحالية. الإمارة الأغلبية (الترجمة العربية) 631. البكري: المسالك 2: 832، الإدريسي، نزهة المشتاق 1: 292، الروض المعطار 540، الاستبصار 162.

بَني كعب، ومَن إليه من البدو، وعليهم يَحْيَى بنُ موسى من صَنائع دَوْلَة آل[أ] يَغْمَرَاسَن. وقد نصبوا للمُلْك مُحَمَّد بنَ أبي عِمْران بن أبي حَفْص، ومعهم عبدُ الحَقّ ابن عُثْمان من أغْياصِ بَني عبد الحَقّ في بَنيه وذَويه؛ كان نَزَعَ إليهم من عند المُوَحِّدِين، كما ذكَرْناهُ؛ فاختلَّ مَصافُّ مَوْلانا السُّلْطانِ أبي يَحْيَى، وانهزم، واستولوا على فَساطيطِه بما فيها من الذَّخِيرَة والحُرَم، وانتهبوا معَسْكَره، وتقبَّضُوا على ولَدَيْه المَوْلَيَيْن[ب] أحمد وعُمَر، وأشخصوهما إلى تِلِمْسان. وأُصيب السُّلْطانُ في بَدَنِه بجراحاتٍ أوْهَنته، وخلص إلى بُونَة ناجِياً برَمَقِه. وركب السُّفِن منها إلى بِجَايَة، فأقام بها يُدامل جِراحَه.

واستولت زَنَاتَة على تُونِس، ودَخَلها مُحَمَّد بن أبي عِمْران، سمّوه باسم السُّلْطان ومقادته في يَدِ يَحْيَى بن موسى أميرِ زَنَاتَة.

واعتزم[ج] مَوْلانا السُّلْطانُ أبو يَحْيَى على الوِفادَةِ على مَلِك المَغْرب السُّلْطانِ أبي سعيد بنَفْسه صَرِيخاً على آل يَغْمَرَاسَن[1]. وأشار حاجبُه مُحَمَّد بن سيد النَّاس بإيفادِ[د] ابنه الأمير أبي[هـ] زَكَرِيَّاء صاحب الثَّغرِ استنكافاً له عن مثلها، فتقبَّل إشارتَه، وأرْكَبَ ابنَه البَحْرَ لذلك. وبَعَث معه أبا مُحَمَّد عَبْد الله بن تافْرَاكِين من مَشيخة المُوَحِّدِين، نافضاً أمامهُ طُرقَ[و] المَقاصِد والمحاورات[ز]،

(أ) ساقطة من أ (ب) طمست في أ، ض، وفي ظ، ص: المولين (ج) ص: وأعزم (د) ظ، ص: بإنقاذ، وبالوجهين يتم المعنى. (هـ) ظ، ص، ض: أبا (و) ظ، ص، ض: طرف (ز) ص: والمجاورات

(1) الزركشيّ: تاريخ الدولتين 68

ونزلوا بغَسَاسَة من سَواحل المَغرب. وقَدِموا على السُلْطان أبي سعيد بحَضْرته، وأبلغوه صَريخَ مَوْلانا السُلْطان أبي يَحْيَى؛ فاهتزَّ لذلك هو وابنُه الأميرُ أبو[أ] الحسن، وقال للأمير في ذلك الحفل: "يا بُنيّ، لقد أكبر قومُنا قصدَك ومَوْصلَك، ووالله لأبذُلنَّ في مظاهرتكم مالي وقَوْمي ونَفْسي، ولأسيرنَّ بعَساكري إلى تِلِمْسان فأنزلُها مع أبيك"[1]؛ فانصَرَفوا إلى منازلهم مَسْرورين. / وكان فيما شَرَطه عليهم السُلْطانُ أبو سعيد، مسيرُ مَوْلانا السُلْطان أبي يَحْيَى بعَسَاكِره إلى مُنازلة تِلِمْسان معه؛ فقبلوا. [214 ب]

ونَهَض السُلْطانُ[ب] أبو سعيد إلى تِلِمْسان سنةَ ثلاثين، ولَمّا انتهى إلى وادي مُلْويَّة وعَسْكَر بصَبْرَة[ج]، جاءهم الخبرُ اليقينُ باستيلاء السُلْطانِ أبي يَحْيَى على حَضْرة تُونِس، وإجهاضه زَنَاتة وسُلْطانهم عنها. فاستدعى مَوْلانا السُلْطانُ الأميرَ أبا زَكَرِيّاء يَحْيَى ابنَه، ووَزيرَه أبا مُحَمَّد عَبْد الله بن تَافْرَاكِين، وأمَرَهم بالانصرافِ إلى صاحبهم، وأسْنى جَوائزَهم [وحِباءهم][د]، وركبوا أساطيلَهم من غَسَاسَة. وأرْسَلَ معهم للخطبةِ والصِّهْرِ إبراهيم بنَ أبي حاتم العَزَفيّ، والقاضي بحَضْرته أبا[هـ] عَبْد الله ابن عَبْد الرَّزَّاق، وانكفأ على عَقِبه راجعاً إلى حَضْرته.

ولَمّا انعقدَ الصِّهْرُ بين الأميرِ أبي الحسن والسُلْطانِ أبي يَحْيَى في ابنته[2] شِقَّة[3] الأمير يَحْيَى، زفَّها إليهم في أساطيلِه مع مَشيخةٍ من المُوَحِّدين كبيرُهم

(أ) ظ، ص، ض: أبي. (ب) ظ، ص: ونهضوا للسلطان (ج) ظ: بصيرة (د) ساقطة من ظ (هـ) ظ، ص، ض: أبي

(1) في تاريخ الدولتين: "بشرط أن يكون أبوك معي".

(2) اسمها فاطمة، كما في تاريخ الدولتين للزركشيّ 68، والاستقصا 3: 117

(3) كذا يكتبها ابن خلدون حيثما ترد في هذا الجزء، ولم نجدها بهذا الرسم عند غيره.

أبو القاسم بن عَتُّو، ووَصَلوا بها إلى مَرْسى غَسَاسَة(أ) سنةَ إحدى وثلاثين بين يَدَي مَهْلِكِ السُّلْطانِ أبي سعيد، فقاموا بها على أقْدَامِ البِرّ والتَّكْرِمة. وبعثوا الظَّهْرَ إلى غَسَاسَة لرُكوبِها وحَمْلِ أثقالها، وصِيغَتْ حَكَمَاتُ الذَّهَب والفِضَّة، وقُدَّتْ ولايا الحريرِ المُغشَّاة بالذَّهَب، واحتُفل لوافدِها وإعْراسِها غايةَ الاحتفال بما لم يُسمع مثلُه في دَوْلتهم. وتولَّت قَهارِمةُ الدَّار من عُجُز النِّسَاء ما يتولَّاهُ مثلُهم من ذلك؛ فعَظُم(ب) الصَّنيع، وتحدَّثَ النَّاسُ به. وهَلَكَ السُّلْطانُ أبو سعيد بين يَدَيْ مَوْصِلها، والبقاءُ لله.

الخَبَرُ عن مَهْلِك السُّلْطان أبي سعيد، عفا الله عنه، وولايةِ ابنه السُّلْطانِ أبي الحَسَن، وما تخَلَّل ذلك من الأحْداث

كان السُّلْطانُ لمَّا بلَغه [خَبَرُ](ج) وُصولِ العروس، بِنْتِ مَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى / سنةَ إحدى وثلاثين، واهتزَّت الدَّولَةُ لقُدومها عليهم؛ تَعْظيماً لحقّ أبيها وقَوْمها، [215أ]
واحتِفاءً بها؛ ارْتحلَ السُّلْطانُ أبو سعيد إلى تازَى ليُشارِفَ أحوالَها بنَفْسه؛ استبلاغاً في تَكْريمها، وسُروراً بعُرس ابنه.

(أ) في ظ، ض: غَشاسة، بتشديد السين، وفي تاريخ الدولتين للزركشي 68: ساغاسة (ب) ساقطة من ص (ج) ساقطة من ظ، ص، وألحقت في ض

واعتلَّ هُنالِكَ ومَرِض[1]، حتَّى إذا أشفى على الهَلَكة، ارتَحلَ به وَليُّ العَهْد الأميرُ أبو الحسن إلى الحَضْرة، وحَمَلَه في فِراشِه على أكْتَادِ الحاشية والخَوَل، حتَّى نزل بسُبُو، ثمَّ أدْخَلَه كذلك ليلاً إلى دارِه. وأدْركته المنيَّة في طَرِيقِه، فقَضى، رحمةُ الله عليه، فوَضعوه بمكانِه من البيت، واستدعَى الصَّالحين لمواراته؛ فوُوريَ[أ] لشهر ذي الحِجَّة من سنة إحدى وثلاثين. والبقاءُ لله وَحْدَه، و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [سورة القصص، من الآية 88].

ولمَّا هَلَكَ السُّلْطان أبو سعيد، اجتمع الخاصَّةُ من المشيخة ورجالاتِ الدَّوْلَة إلى وليِّ عَهْده الأمير أبي الحسن، وعقدوا له على أنفُسِهم، وأتوه بيعتهم. وأمر بنَقْل معَسْكَرِه من سُبُو، واضطُرب بالزَّيتُون من ساحة فاس.

ولمَّا وُورِيَ[ب] السُّلْطانُ، خرج إلى معَسْكَره في التَّعْبِئَة، واجتمع إليه النَّاس على طَبقاتِهم لأداءِ البَيْعة، وجَلَس بفُسْطَاطه. وتولَّى أخْذَ البَيْعةِ له يومئذٍ على النَّاس المزْوارُ عَبُّو[ج] بن قاسم عريفُ الوَزَعَة والمُتصرِّفِين، وحاجبُ الباب، القديمُ الولاية في ذلك بدارِهم منذ عهد السُّلْطان يوسُف بن يَعْقُوب. وزُفَّتْ إليه ـ ليلتئذٍ ـ عَروسُه بنتُ مَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى؛ فأعْرس بها بمكانِه من المَعَسْكَر، وأجمع أمْرَه على الانتقام لأبيها من عَدُوِّه. وبدأ باستكشاف حالِ أخيه

(أ) ظ، ص، ض: فوري (ب) ظ، ص، ض: وري (ج) ظ: عبو، ومهملة في ص

(1) حسب الناصري: كان مريضاً بعلة النقرس. انظر: الاستقصا 3: 118

أبي علِيّ، وكان السُّلطانُ أبوهما[أ] يَسْتَوْصيه به لِمَا كان له بقَلْبه من العلاقة. وكان وليّ العَهْد هذا مُؤثِراً لرضاهُ جهدَهُ، فاعتزَمَ على الحركة إلى سِجِلْمَاسَة لمشارفة أخوالِه.

الخَبَرُ عن حركة السُّلْطان أبي الحسن إلى سجِلْماسَة، وانكفائه عنها إلى تِلِمْسان، بعد الصُّلْح مع أخيه والاتفاق

/ لمَّا هَلَكَ السُّلطان أبو سعيد، وكَمُلت بيْعةُ السُّلْطان أبي[ب] الحسن، وكان كثيراً ما يَسْتَوْصيه بأخيه أبي عليّ؛ لِمَا كان كَلِفاً به، شفيقاً عليه، فأراد مُشارفةَ أخوالِه قبل النُّهوضِ إلى تِلِمْسان، فارْتحلَ من مُعَسْكَره بالزَّيْتُون قاصداً سِجِلْمَاسَة. وتَلَقَّته في طَرِيقِه وفودُ الأمير أبي عليّ أخيه مؤدّياً حقَّه، مُوجباً مبرَّته، مُهنئاً بما آتاهُ الله من المُلْك، مُتجافياً عن المُنازعة فيه، قانِعاً من تُرَاث أبيه بما حَصَل في يَدِه، طالباً العَقْدَ له بذلك من أخيه؛ فأجابهُ السُّلْطانُ أبو الحسن إلى ما سأل، وعَقَد له على سِجِلْمَاسَة وما إليها من بلادِ القِبْلَة، كما كان لعَهْد أبيها. وشهد الملأُ من القَبيل وسائر زَنَاتَةَ والعَرَب، وانكفأ راجعاً إلى تِلِمْسان لإجابةِ صَريخِ المُوَحّدِين. [215 ب]

وأغَذَّ السَّيْرَ إليها، ولمَّا انتهى إلى تِلِمْسان، نكَبَ عنها مُتجاوزاً إلى ناحية

(أ) ظ: أبوه (ب) ظ، ص، ض: أبو

الشَّرق؛ لمَوْعِد(أ) مَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى بالنُّزُول معه على تِلِمْسان، كما كان عليه وِفاقُهم ومُشارَطَتُهم مع الأمير أبي زَكَرِيَّاء الرَّسُول إليهم، فاحتلَّ بتَاسَّالَة في شَعْبان من سنة ثنتَين وثلاثين، وتلوَّم بها، وأوْعَز إلى أساطيلِه بمَراسي المَغْرب، فأغْزاها إلى سواحل تِلِمْسان. وجهَّز لمَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى مَدَداً من عَسْكَره أرْكبهم الأساطيلَ من سَواحلِ وَهْرَان، وعَقَد عليهم لمُحَمَّد البطويّ من صَنائع دَوْلته. ونزلوا بِجَايَة، ووافَوْا بها مَوْلانا السُّلْطان أبا يَحْيَى، فصاروا في جُمْلتِه، ونَهَضوا معه إلى تِيكَلاَتْ، ثغرِ بَني عَبْد الوَاد، المُجَمَّرة بها الكتائب لحصار بِجَايَة، وبها يومئذٍ ابنُ [مزرع](ب) من قُوَّادهم. وأجفل من كان بها من العَسَاكر قبلَ وُصولِه إليهم، فلَحِقوا بآخر عَمَلِهم من المَغْرب الأوْسَط. وأناخ مَوْلانا السُّلْطان أبو يَحْيَى عليها بعَساكِره من المُوَحِّدِين، والعَرَب، والبَرْبَر، وسائر الحشود، / [216أ] فخرَّبوا عُمْرانَها، وانتهبوا ما كان من الأقوات مُخْتَزَناً بها، وكان بحراً لا يُدرك ساحِلُه، لِمَا كان السُّلْطانُ أبو حَمُّو من لَدُن اختطَّها قد أوْعز إلى العُمَّال بسائر البلاد الشَّرْقيَّة، منذ عمل البَطْحاء، أنْ ينقلوا أعشارَ الحبوب [إليها](ج) وسائرِ الأقوات. وتقيَّل ابنهُ السُّلْطان أبو تَاشِفِين مذهبَه في ذلك. ولم يَزَل دأبَهم إلى حين حلَّت بها هذه الفاقرة؛ فانتهبَ النَّاس من تلك الأقوات ما لا كِفَاءَ له، وأضْرعوا مختطَّها بالأرْض فنَسفوها نَسْفاً، وذروها قاعاً صَفْصَفاً، والسُّلْطان أبو الحسن ـ خلال ذلك ـ مُسْتَشرفٌ لأحوالهم، منتظرٌ قدومَ

(أ) ظ، ص، ض: لوعد (ب) مكانها بياض في ظ، وفي ص: هزرع (ج) ساقطة من ظ

مَوْلانا السُّلْطانِ أبي يَحْيَى بعَساكِره عليه لمُنازلة تِلِمْسان، حتّى وافاهُ الخَبَرُ بانتقاضِ أخيه ـ كما نذكره ـ فانكفأ راجعاً.

واتّصل الخَبَرُ بمَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى؛ فقَفَل إلى حَضْرته. وحمل البطوي معه، وأسْنى جائزتَه وجوائزَ عَسْكَرِه، وانصرفوا إلى مَوْلانا[أ] السُّلْطان مُرْسِلهم في سُفُنهم. وانقبض عنانُ السُّلْطانِ أبي تَاشِفِين عن غَزْوِ بلاد المُوَحِّدِين إلى أنْ انقرض[ب] أمرُه.

الخَبَرُ عن انتقاضِ الأمير أبي عليّ، ونُهوضِ السُّلْطانِ أبي الحَسَنِ إليه، وظَفَرِه به

لمّا توغّل السُّلْطانُ أبو الحسن في غَزَاة تِلِمْسان، وتجاوَزَها إلى تَاسَالَة لموعد مَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى، دسَّ أبو تَاشِفِين إلى الأمير أبي عليّ في اتّصالِ اليَد والاتّفاق على السُّلْطان أبي الحسن، وأنْ يأخذ كلّ واحدٍ منهما بحُجْزَته[ج] عن صاحِبه متى همَّ به، وانعقد بينهما على ذلك. وانتقض الأميرُ أبو عليّ [على][د] أخيه السُّلْطان أبي الحسن، ونهض من سِجِلْمَاسَة إلى دَرْعَة، فقَتَل بها عاملَ السُّلْطان، واستعملَ عليها من ذَويه، وسَرَّحَ العَسْكَر إلى بلاد مَرَّاكُش.

(أ) ساقطة من ص، ض، وطمست في أ (ب) ظ، أ: إلى انقراض (ج) ظ، ض: بحجزته (د) ساقطة من ظ

[216 ب] وَاتَّصَلَ الخَبَرُ بالسُّلطان، وهو بمُعَسْكَره / بتَاسَّالَةَ، فأحفَظه شأنه، أجْمع على الانتقام منه، فانكفأ راجعاً إلى الحَضْرة. وأنزل بثغر تَاوَرِيْرْتْ تخُم عَمَلِه عَسْكراً، وعَقَد عليه لابنِه تَاشِفِين، وجَعَله إلى نَظَرِ وزيرِه مِنْدِيل بن حَمَامَة من تِيْرَبِيعِين[أ]، وأغذَّ السَّيْرَ إلى سِجِلْمَاسَة، فنزل عليها، وأحاطت عَسَاكِرُه بها، وأخذ بمُخَنَّقِها، وحَشَر الفَعَلَةَ والصُّنَّاع لعَمَل الآلاتِ لحصارها، والبناء بساحتها، وأقام يُغاديها القتالَ ويُراوِحُها حَوْلاً كَرِيتاً.

ونَهض أبو تَاشِفِين في عَساكِره وقَوْمِه إلى ثغر المَغْرب ليوطئَهُ عَساكِره، وتعِيث في نواحيه، ويجاذب السُّلطان عن مكانِه من حصاره.

ولمَّا انتهى إلى تَاوَرِيْرْتْ، بَرز إليه ابنُ السُّلطانِ في وزرائه وعَساكِره، وزحفوا إليه في التَّعْبِئَة، فاختلَّ مَصافّه؛ وانهزم، ولم يلْقَ أحداً، وعاد إلى مُنْحَجَزِه. وبادر إلى إمداد الأمير أبي عليّ بعَسْكَره، فعَقَد على حصّةٍ[ب] من جنوده، وبعث بهم إليه، فتسرَّبوا إلى البَلَد زُرافاتٍ[ج] ووُحداناً، حتّى استكملوا عنده. وطاوَلهم السُّلطانُ الحصارَ، وأنزل بهم أنواعَ الحَرْب والنَّكال، حتّى تغلّب عليهم، واقْتحم البَلَد عَنْوةً، وتقبَّض على الأمير أبي عليّ عندَ باب قَصْره. وسِيقَ إلى السُّلطان، فأمْهله، واعتقَله، واستولى على مُلكِه. وعَقَد على سِجِلْمَاسَة، واستعمل عليها، ورَحَل مُنكفئاً إلى الحَضْرة، فاحتلَّ بها سنة ثلاثٍ وثلاثين. واعتقل أخاه في إحدى حُجَر القَصْر

(أ) في ظ، آ، ض: يتربيعين، وتقدم ذكرهم في أول الجزء (ب) ص: حصته (ج) ظ: زرافاً

إلى أن قتَله لأشهر من اعتقاله خَنقاً بمَحْبِسه. وعُزّز[أ] له هذا الفَتْحُ بفَتحِ الجبل، واسْتِرجاعه من يَدِ العَدُوّ دمَّره الله بأيدي عَسْكَره وتحتَ رايةِ ابنه أبي مالك. كما نذكر.

الخَبَرُ عن مُنازلة جَبَل الفَتْح، واسْتِئثار الأمير أبي مالك والمُسْلمين به

لمَّا هَلَكَ السُّلْطانُ أبو الوليد ابن الرَّئِيس أبي سعيد المتغلِّبُ على مُلْك الأنْدَلُس من يَدِ ابن عَمِّه أبي الجيوش، قام بالأمر من بعده ابنُه مُحَمَّد طفلاً صغيراً إلى نَظَرِ وَزيرِه مُحَمَّد بن المَحْروق، من بُيوتِ الأنْدَلُس وصَنائع الدَّوْلَة، / واستَبدَّ عليه. فلمَّا [1217أ] شبَّ وناهزَ، وأنِف من الاستبدادِ عليه، أغراهُ المَعْلُوجي[1] من حَشَمه بالوَزِير، فاغتالهُ وقتَله سنةَ تِسْعٍ وعشرين[2]، وشمَّر للاستبداد، وشيَّد أواخي المُلْك.

وكان الطَّاغِيَةُ قد أخذ جَبَلَ الفَتْح سنةَ تسعٍ، وجاورت[ب] النَّصْرانِيَّةُ به ثغورَ الفُرْضَةِ، وصار شجىً في صَدْرِها، وأهمَّ المُسْلِمين شأنُه. وشُغِل عنهم صاحبُ المَغْرب بما كان من فتنةِ ابنِه، فرجعوا الجزيرةَ وحُصونَها إلى ابن الأحْمر منذ سنة ثنتَي عشرة لأوّل المائة الثامنة[ج]. واسْتغلظ الطَّاغِيَةُ عليهم بعد ذلك، فرجعوا الجزيرةَ إلى

(أ) ظ، ص، ض: وعز (ب) ظ: وجاورت (ج) ظ، ص، ض: الباقية

---

(1) المعلوجي: جمع عِلْج، وهو الرجُل الشّديد الغليظ، وقيل: هو كلّ ذي لحية، أو الرجُل من كفّار العجم، ويجمع أيضاً على: عُلوج وأعلاج. (لسان العرب، مادة: علج). وجمعها ابن خلدون في هذا الجزء: معلوجات

(2) انظر تفصيلات أخرى في الإحاطة 1: 510

صاحبِ المَغْرب سنةَ تسعٍ وعشرين. ووَلّى عليها السُّلْطانُ أبو سعيد من أهلِ دَوْلتِه سُلْطانَ بن مُهَلْهِل من عَرَب الخُلْط أخوالِه. وأسفَّ الطَّاغِيَةُ إلى حُصونِها عندَ مَهْلِكِ السُّلْطان أبي سعيد، فمَلَكَ أكثرَها، ومَنَع البَحْر من الإجازة. وقارَنَ ذلك استبدادُ صاحبِ الأَنْدَلُس، وقَتْلُه لوزيرِه [ابن][أ] المَحْرُوق[ب]. وأهمَّه شأن الطَّاغِيَة، فبادر إلى إجازةِ البَحْر. ووَفَد على السُّلْطان أبي الحسن بدارِ مُلْكِه من فاس سنةَ ثنتَين وثلاثين، فأكْبَر مَوْصِلَه وأرْكَب النَّاسَ للقائه، وأنزلَه برَوْض المصارة[1] لِصْقَ دارِه، واسْتَبلَغ في تَكْريمه.

وفاوَضَه ابنُ الأَحْمر في شأن المُسْلِمين وراءَ البَحْر، وما أهمَّهم من عدوِّهم، وشكا إليه حالَ الجبل، واعتراضَه شجىً في صَدْر الثُّغور، فأشكاه السُّلْطان. وعامل الله في أسبابِ الجهاد، وكان مَشغوفاً به، مُتقَيِّلاً مذهبَ جَدِّه يَعْقُوب فيه. وعَقَد لابنه الأميرِ أبي مالك على خمسة آلافٍ من بَني مَرِين، وأنفذه مع السُّلْطان مُحَمَّد بنِ إسماعيل لمُنازلةِ الجبل، فاحتلَّ بالجزيرة، وتَتَابع إليه الأُسْطُولُ بالمَدَد.

وأرْسل ابن الأَحْمر حاشرِين في الأَنْدَلُس؛ فتَساتَلوا إليه، واضْطَربوا مُعَسْكَرهم جميعاً بساحةِ الجبل، وأبْلَوْا في حَرْبه ومُنازلته البلاءَ الحسَن، إلى أنْ تغلَّبُوا

(أ) مقحمة في أ، ض (ب) ظ، ص، ض: المحرق

---

(1) تُعرف أيضاً بجنّة المصارة. ويكتبها ابن خلدون في موضع آخر: المصارى. ويقع هذا الروض الملوكيّ جنوب القصر الملكي من فاس. ابن الخطيب: نفاضة الجراب 184، ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى 48، الناصري: الاستقصا 3: 120

عليه سنةَ ثلاثٍ وثلاثين، واقتحمهُ المُسلِمون عَنوةً، ونَقلهمُ اللهُ[أ] مَنْ [كان][ب] به من النَّصْرانيَّة بما معهم، ووافاهُ الطَّاغِيَة بأُم الكُفْر لثالثةِ فَتْحه، وقد شَحَنه المُسلِمون بالأقْوات؛ نقلوها من / الجزيرة على خُيولهم، وباشَرَ نَقْلها الأميرُ أبو مالك وابن الأحْمر، فنقَلها النَّاس عامَّة. [217 ب]

وتحيَّزَ الأميرُ أبو مالك إلى الجزيرة، وترك بالجبل يَحْيَى بن طَلْحَة بن مُحَلًّى من وزراء أبيه. ووَصَل الطَّاغِيَة بعد ثلاث، فأناخ عليه. وبرز أبو مالك بعَساكره[ج]، فنزل بحياله[د]. وبعثَ إلى الأمير أبي عَبْد الله صاحبِ الأنْدَلُس، فوَصَل بحَشْد المُسلِمين بعد أنْ دوَّخَ أرضَ النَّصْرانيَّة. وخرجَ فنَزل بإزاء عَسْكَر الطَّاغِيَة، وتحصَّنَ العدوُّ في محلَّتهم. وأقاموا كذلك، [وخَشِيَ المُسْلمون][هـ] عادِيَتَه؛ لقُرْب العَهْد بارْتجاعه، وخِفَّة ما به[و] من الحامية والسِّلاح، فبادَر السُّلْطانُ ابنُ الأحْمر إلى لُقِيِّ الطَّاغِيَة. وسبق النَّاسَ إلى فُسْطاطِه عَجِلاً، بائعاً نفسَه من الله في رضى المُسْلِمين، وسَدَّ فُرْجَتهم، فتلقَّاه الطَّاغِيَةُ راجلاً حاسِراً إعظاماً لمَوْصِله، وأجابه إلى ما سأل من الإفراج عن هذا المَعْقِل، وأتحفهُ بذخائرَ مِمَّا لديه، وارْتحل لفَوْرِه. وأخذ الأميرُ أبو مالك في تَثقيف أطْرافِ الثَّغر، وسَدِّ فُروجِه، وإنْزال الحامية به، ونَقْل الأقْوات إليه. وكان فَتْحاً طوَّقَ دَوْلَةَ السُّلْطان أبي الحسن قِلادة الفَخْر آخرَ الأيَّام. ثمَّ رَجع بعدَها إلى شأنه من مُنازلة تِلِمْسان.

(أ) ظ، ص: ونقلهم إليه (ب) ساقطة من ظ (ج) ظ، ض: لعساكره (د) ظ: بخياله (هـ) من هامش أ، ض بخط ابن خلدون (و) ظ: وحقته مائة

الخَبَرُ عن حِصارِ تِلِمْسان،
وتَغلُّبِ السُّلْطانِ أبي الحسن عليها،
وانقِراضِ أمْرِ بَني عَبْد الوَاد بمَهْلِكِ أبي تاشِفِين

لمّا تغلَّب السُّلْطانُ على أخيه، وحَسَم عِلَّة انتِزائه ومُنازعته، وسدَّ ثغورَ المَغْرب، وعظُمتْ لديه نعمةُ الله بظُهور عَسكَرِه على النَّصْرانيَّة، وارْتِجاع جَبَل الفَتْح من أيديهم، بعد أنْ أقام في مِلكتِهم[أ] نَحْواً من عشرين سنة؛ فَرِغَ[ب] لعَدُوِّه وأجْمع لغَزْو تِلِمْسان. ووَفَد عليه رُسُلُ السُّلْطان أبي يَحْيَى في سَبيل التَّهنئة بالفَتْح والأخْذ بحُجْزة أبي تاشِفِين عن[ج] الثُّغور. وأوْفد السُّلْطانُ رُسُلَه إلى أبي تاشِفِين شفعاً، وأنْ[د] يتخلَّى عن عَمَل المُوَحِّدين جُمْلةً، وينزِلُ لهم عن تَدَلُّس[هـ]، / [218 أ] ويرجع إلى تَخْم أعمالهم منذ أوّل الأمر، ولو عامئذٍ، ليعلمَ النَّاسُ جاهَ السُّلْطان عند المُلُوك، ويقدِّروهُ حَقَّ قَدْرِه. واستنكف أبو تاشِفِين من ذلك، ولَجَّ وأغلظ للرُّسُل في القَوْل، وأفحش بمَجْلِسه بعضُ السُّفهاءِ من العِبِدَّى في الرَّدِّ عليهم، والنَّيل من مُرسلهم، فانقلبوا إليه بما أحْفظه، فانبعثتْ عزائمُ السُّلْطان للصُّمودِ إليهم. وعَسْكَر بساحة البَلَد الجَدِيد، وبَعَث وزراءه إلى قاصِية البلاد المَرَّاكُشيَّة لحَشْد[و] القبائل والعَساكر. ثمّ تعجَّل فاعْترَض جُنودَه، وأزاح عِلَلهم، وعبَّأ مَواكِبه، وسارَ في التَّعْبِئة، وفَصَلَ بمُعَسْكَرِه من

(أ) ظ: مملكتهم (ب) ظ: نزع (ج) ظ، ص: على (د) أ: شفعاء أن (هـ) ظ: تلمسان، والمثبت من أ، ص، ض. (و) ظ: بحشد، أ: لحشد

فاس أواسطَ خَمْسٍ وثلاثين. وسار يجرُّ الشّوْكَ والمدَد من أُمم المَغرب وجنوده. ومرَّ بوَجْدَة، فجمَّر الكتائبَ لحِصارها. ثمّ مرَّ بنَدْرُومَة، فقاتَلَها بعضَ يومٍ واقْتَحمها، فقَتلَ حاميتَها، واستَولى عليها آخرَ سنة خَمْسين.

ثمّ سار على تعبئته حتّى أناخَ على تِلِمسان، وبلَغه الخبَرُ بتغلُّبِ عساكِره على وَجْدَة سنةَ ستٍّ وثلاثين؛ فأوْعَز إليهم(أ) بتَخْريب أسوارها، فأضرعُوها بالأرْض.

وتَوافت إليه أمْدادُ النّواحي وحُشودها، وربَضَ على فريسته. ووَفَدت عليه قبائلُ مَغْرَاوَة وبَني تُوجّين، فآتوه طاعتَهم. ثمّ سَرّحَ عَساكِره إلى الجهات، فتغلّب على وَهْرَان وهُنَيْن، ثمّ على مِلْيَانَة وتَنَس والجزائِر، كلّ ذلك سنة ستٍّ وثلاثين.

ونزعَ إليه يَحْيَى بن موسى صاحبُ القاصية الشّرْقيّة من عَمَلِه، والمُتاخِمُ - كان - لعمل المُوَحّدِين، والقائم بحصار بِجايَة بعد نَكْبةِ موسى بن عليّ، فلقّاهُ مبرّةً(ب) وتكريماً، ورفَعَ مجلِسَه في بساطه، ونَظَمه في طَبقاتِ وزرائه وجلسائه.

وعقدَ على فَتْح البلاد الشّرْقيّة ليَحْيَى بن سُلَيمان العَسْكَريّ كبيرِ بَني عَسْكَر بن مُحَمَّد، وشيخِ بَني مَرِين، وصاحبِ شُوراهم(ج) بمَجْلس السُّلْطان، والمخصوص بصِهْرٍ من السُّلْطان؛ عقد له على ابنته، فسارَ في الألْوِيَة والجُنود، وطوّع ضاحيةَ / الشّرق [218 ب]

(أ) ساقطة من أ (ب) ض: ميرة (ج) ظ، ص: شوارهم

وقبائله، وافتتح أمصاره، حتّى انتهى إلى المَدِيَّةِ، ونظم البلادَ في طاعة السُلطان، واحتشد مقاتلتها إلى معَسْكَره؛ فلَحِقوا به وكاثروا جنوده.

واستعمل السُلطانُ على وَانْشَرِيس وعَمَل الحَشَم[أ] من بَني تُوجِّين. وعقد لسَعْد ابن سلامة بن عليّ على بني يَدْلَلْتَن[ب]. وجعل الوالي بالقلعة إلى نَظَره. وكان خلص إليه بالمَغرب قبل فصُوله نازعاً عن أبي تَاشِفِين لمكان أخيه قريعهِ مُحَمَّد من الدَّولَة.

واستعمل السُلطانُ أيضاً على شَلَف وسائر أعمال المَغرب الأوْسَط. واختطَّ السُلطانُ بغَرْبِي تِلِمْسان البَلَد الجَدِيد لسُكْناه، ونُزُل عَساكره، وسمَّاهُ المنصورة[ج]. وأدار على البَلَد المَحْرُوب[د] سِياجاً من السُّور ونطاقاً من الخندق، ونَصَب المجانيقَ والآلات من وراء خندقه، وشيَّدَ قُبالةَ كلّ بُرْج من أبراج البَلَد بُرجاً على شافةِ[هـ] خندقه، تنضحُ[و] رُماتُه بالنَّبل رُماتَهم، ويَشْغَلُونهم[ز] بأنفسهم حتّى يشيّدوا بُرجاً آخرَ أقرب منه، وترتفع[ح] شرفاته[ط]. ولم يزل يتقرّب بوَضْع الأبراج من حَدٍّ إلى ما بعده، حتّى اختطَّها من قرب على شافة[ي] خندقهم. وتَماصَعَ المقاتلةُ بالسُّيوف من أعاليها، وقُرِّبت المجانيقُ إلى رَجْمها ودَكِّها، فنالت من ذلك فوق الغاية. واشتدّ الحَرْب وضاق نطاق الحصار. وكان السُلطان يُصابحهم كلَّ يومٍ بالبكُور والطَّواف على البَلَد من جميع

(أ) ص: الجشم (ب) في ص حيثما ترد: يدللين (ج) ظ، ص، ض: المنصورية، وتقدم ذكر في المنصورة في أكثر من موضع. (د) ظ، ص، ض: المحروب، والمثبت من أ (هـ) ظ: ساقة (و) ص: ينضح (ز) ظ، ص: ويشغلوهم (ح) ظ، ص، ض: ويرتفع (ط) ظ، ص: شرافاته (ي) ظ: شاقة

جماته؛ لتفقُّد المُقاتلة في مراكزهم، ورُبَّما ينفرد[أ] في تَطْوافه بعض الأيَّام عن حاشيته؛ فاهْتَبلوا الأمْرَ يحسبونه غِرَّةً، وصفُّوا جيوشهم من وراء السُّور مِمَّا يلي الجبل المُطلّ على البَلَد، حتَّى إذا حاذاه السُّلْطان في تَطْوافه، فتحوا أبوابهم، وأرْسلُوا عليه عِقبان جُنودهم، واضطرُّوه إلى سَفْح الجبل حتَّى لَحِق بأوْعَاره، وكاد أنْ ينزلَ عن فرسه هو ووليّه عَريف بن يَحْيَى أميرُ سُوَيْد.

ووَصَل الصَّائحُ إلى المَعْسكَر؛ فركبَ الأميران، ابناهُ: أبو / عبد الرَّحمن وأبو مالك، في جُموعِ بَني مَرِين، وتهاوَتْ فُرْسانُ المَعْسكَر من كلّ جانب، فشمروا جُنودَ بني عَبْد الوَاد إلى مراكزهم. ثمَّ دفعوهم عنها، وحملوهم على هُوّة الخندق، فتطاوَحُوا فيها وترادَفُوا، وهَلَك بالكَظِيظِ[1] أكثرُ مِمَّن هَلَك بالقَتْل. واسْتلحم في ذلك اليوم زُعماءُ مَلاحمهم؛ مثل: عُمَر بن عُثْمان كبير الحَشَم[ب] من بَني تُوجِّين، ومُحَمَّد بن سلامة بن علي كبير بني يَدْلَلْتَن منهم أيضاً وغيرِهم. وكان يومٌ له ما بعْدَه، واعتزَّ بنو مَرِين عليهم من يومئذٍ. [219 أ]

ونَذِرَ[ج] بنو عَبْد الوَاد بالتغلُّب عليهم، واتَّصلت الحَرْبُ مُدَّةَ عامين. ثم اقتحمها السُّلْطان غِلاباً لسبعٍ وعشرين من رمضان سنة سبعٍ وثلاثين. ووقف أبو تَاشِفين بساحةِ قصره مع خاصَّته، وقاتل هُنالِك حتَّى قُتل ابناهُ عُثْمان ومَسْعُود،

(أ) ظ، أ، ض: يتفرّد، والمثبت من ص (ب) ص: الجشم (ج) ظ، ص: وندد

(1) الكظيظ: الزّحام

ووزيرُه موسى بن علي، ووليّهُ عبد الحقّ بن عُثْمان بن مُحَمَّد من أغياص آل عبد الحقّ؛ نزع إليه من جُمْلة المُوَحِّدِين ـ كما أشرنا إليه، ونستوفي في أخباره ـ فهَلَك هو وابنُه وابنُ أخيه، وأثخنت السُّلْطانَ أبا تَاشِفِين الجِرَاحةُ، ووهِن لها؛ فتُقُبِّض عليه، واحْتَقَبَهُ[أ] بعضُ الفُرْسان إلى السُّلْطان، فلقيه الأميرُ أبو عبد الرَّحمن، صَالِي تلك الحروب ووارِدُ غمرتِها[ب] بنفسه، فاعترضه وقد غصَّ الطُّرق[ج] بمَوْكِبه، فأمر به للحين، فقُتِل واحتُزَّ رأسُه[1]. وسَخِط ذلك السُّلْطان من فعله لحرصه على تَوْبيخه وتَقْريعه، وذهب مثلاً في الغابرين. واقتحم السُّلْطان البَلَد بكافَّة عساكره، وتواقَع النَّاس بباب كشُوط لجنوبهم من كَظِيظ الزّحام، فهَلَك منهم أممٌ.

وانطلقت أيدي النَّهْب على البَلَد، فلحقت الكثيرَ من أهله مَعرَّات في أمْوالهم وحُرَمِهم. وخلص السُّلْطان إلى المسجد الجامع [مع][د] لُمَّةٍ من خَواصّه وحاشيته. واستُدعي شُيوخُ الفُتْيا بالبَلَد: أبو زيد، وأبو موسى ابنا الإمام[2]، وفاءً بحقّ العِلْم وأهله؛ فخلصوا إليه بعد الجهد، ووعظوه وذكَّروه / بما نال النَّاس من النَّهْب؛ [219 ب]
فركب لذلك بنفسه، وسكن، ووَزَع جنوده وأشياعَه عن الرَّعِيَّة، وقبض أيديَهم

(أ) ظ: واحتفنه، ص: واحتقنه. واحتقبه: أي حمله، وكلّ شيءٍ شُدّ في مؤخّر رحل أو قتب، فقد احتُقِبَ. لسان العرب، مادة: حقب (ب) ظ، ص: عمرتها (ج) ص: الطرف (د) ساقطة من ظ

---

(1) عند الوزان: وصف إفريقيا 2: 19: "حمل ـ أبو الحسن ـ ملكها أسيراً إلى فاس فضرب عنقه، وأمر برمي جثته في مزبلة المدينة".

(2) ترجم لهما ابن خلدون في رحلته "التعريف"، انظر: ص 553.

عن الفَساد وعاد إلى معَسْكَرِه بالبَلَد الجَدِيد؛ وقد كَمُل الفتحُ وعزَّ النَّصرُ.

وشهد ذلك اليومَ أبو مُحَمَّدٍ عَبْد الله بن تَافْرَاكِين، وافاه رسولاً عن مَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى ومجدِّداً العَهْد، فأعجله السُّلْطان إلى مُرْسله[أ] بالخبر وسابق الفُرَانِقين. ودخل تُونِس لسبع عشرةَ ليلة من نَوْبة الفتح، فعظم السُّرورُ عند السُّلْطان أبي يَحْيَى بهَلاك عَدُوِّه[ب] والانتقام منه بشارةً، واعتدَّها بمساعيه.

ورفع[ج] السُّلْطانُ أبو الحسن القتلَ عن بَني عَبْد الوَاد أعدائهم، وشفا نفسَه بقَتْل سُلْطانهم، وعفا عنهم، وأثبَتَهُمْ في الدِّيوان، وفرض لهم العطاءَ، واستتبعهم على راياتهم ومراكزهم. وجمع كلمةَ بَني وَاسِين من بَني مَرِين وبَني عَبْد الوَاد وتُوجِّين، بل وسائر زَنَاتَة، وأنزلهم ببلاد المَغْرب، وسدَّ بكلّ طائفةٍ منهم ثغراً من أعماله، وصاروا[د] عُصَباً تحتَ لوائه، فأنزل منهم بقاصية السُّوس وببلاد غُمَارَة، وأجازَ منهم إلى ثغور عَمَله بالأنْدَلُس حاميةً ومرابطين، واندرجُوا في جُمْلته، واتَّسع نِطاقُ مُلكِه. وأصبح ملكَ زَنَاتَة بعد أنْ كان ملكَ بَني مَرِين، وسُلْطانَ العُدْوَتَين بعد أنْ كان سُلْطانَ المَغْرب. و﴿ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة الأعراف، من الآية 128].

(أ) ظ: مراسله (ب) أ: عدوهم (ج) ظ: ودفع (د) ظ، ص، ض: وساروا

الخَبَرُ عن نَكْبَةِ الأميرِ أبي عبد الرَّحمن بمتّيْجَة، وتقبُّض السُّلْطان عليه، ثُمَّ مَهْلِكه آخراً

قد قدَّمنا ما كان من اشتِراط السُّلْطان أبي سعيد على المُوَحِّدِين منازلتهم تِلِمْسان مع عَساكره، وتلوُّم السُّلْطان أبي الحسن بتَاسَّـالَة لانتظارِ مَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى. ولمَّا نازل تِلِمْسان بعَساكره المرَّة الثانية، لم يُطالبهم بذلك. وكان أبو مُحَمَّد بن تَافْرَاكِين يتردَّد إليه، وهو بمُعَسْكَره[أ] / من حصار تِلِمْسان مؤدِّياً حقَّه، مُستخبراً[ب] مآل عدوهم. [221أ] فلمَّا تغلَّب على تِلِمْسان أسرَّ إليه سفيرُهما أبو مُحَمَّد بن تَافْرَاكِين بأنَّ سُلْطانه قادمٌ عليه لِلِقائه وتهنئته بالظَّفَر بعدُوِّهِ. وتشوَّف السُّلْطان أبو الحسن إليها لِمَا كان يحبّ الفَخْر ويَغْنى به؛ فارْتحل من تِلِمْسان سنةَ ثمانٍ وثلاثين، وعَسْكَر ببَسيط مِتّيْجَة منتظراً وفادة مَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى عليه. وتكاسَل السُّلْطانُ عنها لِمَا أراه سَيْفُه المُتحكِّم في دَوْلته مُحَمَّد بن الحكيم من حذَر مغبَّتها، وقال له: إنَّ لقاءَ سُلْطانين لا يتَّفق إلاَّ في يومٍ على أحدهما، فنَكِره ذلك السُّلْطانُ وتقاعَد عنه.

وطال مُقامُ السُّلْطان أبي الحسن في الموعد الذي ألقى إليه أبو مُحَمَّد بن تَافْرَاكِين، واعتلَّ لأشهرٍ من مقامه، ومرِضَ بفُسْطاطه. وتحدَّث أهلُ المعَسْكَر بمَهْلِكه.

(أ) تجاوز مرقِّم نسخة الأصل ظ عن إثبات رقم 220 مع أن النص متّصل، فأبقينا الترقيم مثبتاً كما هو (ب) ص: مستجيراً

وكان ابناه الأميران أبو عبد الرّحمن وأبو مالك مُتناغِيَيْن في ولاية عَهْده منذ أيّام جدّهما أبي سعيد. وكان السُلْطان قد جعل لهما ـ مُذ أوّل دولته ـ ألقابَ الإمارَةِ وأحوالها؛ من اتّخاذ الوزراء والكُتّاب، ووَضْع العَلامة، وتَدْوين الدّواوين[أ]، وإثبات العَطاء، واستلحاق الفُرسان، والانفراد بالمَعَسْكَر، فكانا من ذلك على ثَبَج. وجعل لهما مع ذلك الجلوس بمقعد فَصْله مناوَبةً لتنفيذ الأوامر السُلْطانيّة؛ فكانا لذلك رَديفَيْن له في سُلْطانه.

ولمّا اشتدَّ وجعُ السُلْطان تَمشَّت[ب] سَماسرةُ الفِتَن بين هذين الأميرين، وحَزَّبوا أهلَ المَعَسْكَر لهما أحزاباً، وبثَّ كلّ واحد منهما المال وحمله على المُقَرّبات[ج]، وصاروا شِيَعاً، وانقسموا فِرَقاً. وهمَّ الأمير أبو عبد الرّحمن بالتوثّب على الأمر، قبل أنْ يتبيَّن حال السُلْطان بإغراءِ وزرائه وبطانته بذلك. وتفطَّن خاصّةُ[د] السُلْطان لها، فأخبروه الخبر، وحَضُّوه على الخروج إلى النّاس قبل أنْ يتفاقَمَ الأمرُ ويتَّسع الخرقُ، فبرزَ إلى فُسْطاط جلوسه. وتَسامَع أهلُ المَعَسْكَر به؛ فازدحموا على مَجلسه وتَقْبيل يده. وتَقبّض على / [221 ب] أهل الظِّنّة من العَسْكَر[هـ]، فأوْدعهم السّجن، وسَخِط على الأميرين. ورحل النّاس من معَسْكَرهما، فردَّهم[و] إلى معَسْكَره. ثمّ رجع إلى فُسْطاطِه، فارْتاب الأميران لذلك ووجما، وطفئت نار فتنتهما. وسكن سعي المفسدين عندهما، وانتبذ النّاس عنهما. واشتدَّت روْعةُ الأمير أبي عبد الرّحمن، وركب من فَساطيطه وخاض

(أ) ظ، ص، ض: الديوان (ب) ظ: مشت (ج) ص: القربات (د) أ: حامية (هـ) أ: المعسكر (و) ظ، ص، ض: فردهما

اللّيل، وأصبح بحِلّةِ أولاد زُغْلى أمراءِ زُغْبَةَ المُوطَّنين بأرض حَمْزَة[أ]، فتقبّض عليه أميرُهم موسى بن أبي الفَضْل. وردّه إلى أبيه، فاعتقله بوَجْدَة، ورتَّبَ العُيُون لحراسته[ب] من حَشَمه، إلى أنْ قتله بعد ذلك سنةَ ثنتين وأربعين؛ توثَّبَ بالسَّجّان فقتله. وأنفذ السُّلْطانُ حاجبَه عَلّال بن مُحَمَّد، فقضى عليه. ولحق وزيرُه زَيّان بن عَمَر الوَطّاسيّ بالمُوَحِّدِين، فأجارُوه[ج]. ورضي السُّلْطان صبيحةَ نزوع أبي عبد الرَّحمن عن أخيه أبي مالك، وعقد له على ثغورِ عَمَله بالأَنْدَلُس، وصرفه إليها، وانكفأ [راجعاً][د] إلى تِلِمْسان.

الخَبَرُ عن خروج ابن هَيْدُور، وتلبيسه بأبي عبد الرَّحمن

لمّا تقبَّض السُّلْطانُ على ابنه أبي عبد الرَّحمن وأوْدعه السِّجن، تفرَّق خَدمُه وحَشَمُه، واندعروا في الجهات. وهمل جازرٌ من مَطْبخه، كان يُعْرف بابن هَيْدُور، كان شبيهاً له في الصُّورة، فلحق ببَني عامر من زُغْبَةَ؛ وكانوا لذلك العَهْد مُنْحرفين عن الطّاعَة، خوارج على الدَّوْلَة؛ لِمَا كان السُّلْطان وأبوه قد اختصَّ عريفَ بن يَحْيَى أميرَ بَني سُوَيْد أقتالَهم، منذ نزع إليهم عن أبي تاشِفِين. فركبوا سَنَن الخِلاف ولبِسُوا جِلْدةَ النِّفاق، وانتبذوا بالقِفار، ورِياستُهم لذلك العَهْد لصُغَيِّر بن عامر وإخوته.

(أ) ص: حمزة (ب) ظ، ص، ض: بحراسته (ج) ظ، ص، ض: فأجازوه (د) ساقطة من ظ، ص، ووردت في هامش أ، وطمست في ض

وعقدَ السُّلْطانُ على حَرْبِهم لوَنْزْمَار ابنِ وليّه عريف، وكان سيِّدَ البَدْوِ يومئذٍ، فجمع لهم وشمَّر لطلبهم. وأبعدوا أمامه في المذاهب، وأوقع بهم مراراً.

/ ولَحِقَ بهم هذا الجازرُ، وانتسب لهم إلى السُّلْطان أبي[أ] الحسن، وأنَّه أبو عبد الرَّحمن ابنُه النَّازع عنه، فشُبِّه لهم، وبايعوه، وأجلبوا به على نَواحي المَدِيَّة. وبرز إليهم قائدُها مجاهد بن [...][ب] من صَنائع الدَّولَة، ففضُّوا جَمْعه وانهزم أمامهم. ثم جمع لهم وَنْزْمَار وفرّوا عن تلك النَّواحي، وافترق جمعهم. ونبذوا إلى ذلك الجازر عهده، فلحق ببَني يِرَاتَن[ج] من زَوَاوَة، ونزل على سيِّدتهم شَمْسِي[د]، فقامَتْ بأمره. وحمل بنوها من بني عبد الصَّمَد قومهم على طاعته. وشاع في النَّاس خبره؛ فمن مُصَدِّق ومُكَذِّب، حتَّى تبيَّنت حاله، ووقفوا على كذبه في انتسابه، فنبذوا إليه عَهْده. ولَحِقَ بالدَّوَاودَة[هـ] أمراءِ رِياح، ونزل على سيِّدهم يَعْقُوب بن علي، وانتسب له في مثل ذلك النَّسب، فأجارَهُ إلى[و] أنْ صدق نسبُه. [222 أ]

وأوْعَزَ السُّلْطانُ إلى مَوْلانا[ز] السُّلْطان أبي يَحْيَى *صاحب إفْرِيقِيَة*[ح] في شأنه، فبعث إلى يَعْقُوب بن علي فيه. وأرسل إليه زَيَّان بن عُمَر وزير أبي عبد الرَّحمن النازع إليهم، فكشف لهم عن خبثِه[ط]، فتقبَّض عليه يَعْقُوب، وأشْخَصَهُ إلى السُّلْطان مع ذويه، فلَحِقَ به بمكانه من سَبْتَة[ي]، فامْتحنه السُّلْطانُ وقطعه

(أ) ظ، ص، ض: أبو (ب) بياض في ظ، أ، ص قدر كلمة، وفي ض قدر كلمتين (ج) في سائر النسخ بمثناة تحتية واحدة: يراتن (د) ص: شمس، والمثبت يوافق الاستقصا 3: 134 (هـ) أ: الذواودة (و) ساقطة من ص، ض (ز) ساقطة من ظ، أ وطمست في أ (ح) سقط ما بين النجمين من ص (ط) ص: خبثه (ي) بعدها في ظ، ص، ض بياض قدر كلمتين، وفي ص: من سنته

من خلاف، وانحسم داؤه، وبقي بالمَغرب تحتَ جرايةٍ من الدَّولَة، إلى أنْ هَلَك سنةَ ثمانٍ وستِّين.

الخَبَرُ عن شأن الجهاد، وإغزاء السُّلْطان ابنَهُ الأمير أبا مالك، واستشهاده

لمَّا فرغ السُّلْطانُ من أمرِ عَدُوِّه، وما تبع ذلك من الأحوال، صَرَف اعتزامه إلى الجهاد؛ لِمَا كان كَلِفاً به. وكان الطَّاغِيَة منذ شغل بنو مَرِين عن الجهاد، منذ عهد يوسُف بن يَعْقُوب، قد اعتزُّوا على المُسْلِمين بالعُدْوَة، ونازلوا مَعاقلهم، وتغلَّبوا على الكثير منها، وارتجعوا / الجبل، ونازلوا السُّلْطانَ أبا الوليد في عُقْر دارِه بغَرْناطَة، ووضَعُوا عليهم الجزيةَ، فتقبَّلوها، وأسَفوا إلى التهام[أ] المُسْلِمين بالأنْدَلُس. [222 ب]

فلمَّا فرغ السُّلْطانُ أبو الحسن من شأن عَدُوِّه، وغلب على الأيدي يده، وانفسح نِطاقُ مُلكه، دعته نفسُه إلى الجهاد. وأوْعَز إلى ابنه الأمير أبي مالك، أميرِ الثُّغور من عمله بالعُدْوَة سنةَ أربعين، بالدُّخول إلى دار الحَرْب. وجهَّز إليه العَساكر من حَضْرته، وأنفذ إليه الوزراء؛ فشخص غازياً في الجَحْفَل، وتوغَّل في بلاد الطَّاغِيَة واكْتَسحها، وخرج بالسَّبْي والغنائم إلى أدنى مَدَرَةٍ[ب] من أرضهم، وأناخ بها.

(أ) ص: اتهام (ب) ظ، ص، ض: صدرة، والمَدَرَة: القرية، أو القرية المبنية بالطين واللَّبِن، وقيل: المدينة الضخمة. انظر: لسان العرب، مادة: مدر

واتَّصَلَ الخَبَرُ بأن النَّصارَى جمعوا له، وأغَذُّوا السَّيْرَ في اتِّباعه. وأشار عليه الملأ بالخروج عن أرضهم، وإجازة الوادي الذي كان تَخْماً بين أرض الإسلام ودار الحَرْب. وأنْ يصيرَ إلى مَدَر المُسْلِمين، فيمتنعَ بها، فلجَّ في إبايته، وصمَّم [على][أ] التَّغريس[ب]. وكان قُدْماً ثبتاً، إلاَّ أنَّه كان غير بصيرٍ بالحروب[ج]؛ لمكان سِنِّه، فصبَّحتهم[د] عَساكر النَّصْرانيَّة في مَضاجِعهم قبل أنْ يستركبوا، وخالَطوهم في أبياتهم. وأُدْرِك الأميرُ أبو مالك بالأرْض قبل أنْ يستوي على فرسِه، فجَدَّلُوه واستَلْحموا الكثيرَ من قَوْمه، واحْتَوَوا على المُعَسْكَر بما فيه من أموال المُسْلِمين وأموالهم[هـ]، ورجعوا على أعقابهم.

واتَّصَلَ الخَبَرُ بالسُّلْطان، فتفجَّعَ لمهلِك ابنه واسترجَم له، واحتسب عندَ الله أجرَه وفي سبيله قَتْلَه. وشرع في إجازة العَسَاكر للجهاد وتجهيز الأساطيل.

الخَبَرُ عن واقعة المَلَنْد[1]، والظَّفَر به، وظهور أساطيل المُسْلِمين على أُسْطُول النَّصارَى

لَمَّا بَلَغ الخَبَرُ إلى السُّلْطان باستشهاد ابنه، أخرج وزراءه إلى السَّواحل لتجهيز الأساطيل. وفتحَ ديوان العطاء، واعترض الجنودَ، وأزاح عِلَلَهم. / واستنفر[و] [223أ]

(أ) ظ: إلى (ب) أ: البيات (ج) ساقطة من ص (د) ظ: فنضحتهم، ومهملة في ض (هـ) ساقطة من ص (و) ظ: واستقر

---

(1) الملند ـ كما قال ابن خلدون ـ بتفخيم اللام منقولاً من لغة الإفرنجة، وهي رُتبة قيادة الأساطيل في دولة المغرب. العبر 1: 434

أهـل المَغـرب، وارتحـل إلى سَـبْتَة ليبـاشرَ أحـوالَ الجهـاد. وتَـسامعتْ أُممُ النَّـصْرانيَّة بذلك؛ فاستعدُّوا للدِّفـاع. وأخـرج الطَّاغِيَـةُ أسْـطُولَه إلى الزُّقـاق لِيمنعَ الـسُّلْطان مـن الإجازة.

واستحثَّ السُّلْطانُ أساطيلَ المُسْلِمين من مَراسي العُدْوَة. وبعث إلى المُوَحِّدِين بتَجْهيزِ أُسْطُولهم إليه، فعَقَدوا عليه لزيد بـنِ فرحـون قائـدِ أُسْـطُول بِجَايَـة مـن صَـنائع دَوْلـتهم، ووافى سَـبْتَة في سـتَّة عـشر مـن أسـاطيل إفْرِيقِيَّة، كان فيهـا مـن طَـرابُلُس وقَابِس وجَرْبَة وتُونِس وبُونَـة وبِجَايَـة. وتوافـت أسـاطيلُ المَغْرِبَيْن بمَرْسى سَـبْتَة تُنـاهز المائة. وعقَـد الـسُّلْطانُ عليهـا لمُحَمَّـد بـن علي العَـزَفيِّ، الذي كان صـاحبَ سَـبْتَة يـومَ فَتْحِهـا، وأمـرهُ بمُنـاجزة أُسْـطُول النَّـصَارَى بالزُّقـاق، وقـد أكمـلَ عديـدهم وعـدَّتهم، فاسْتلأَموا وتظاهروا في السِّلاح. وزحفوا إلى أُسْطُول النَّصارَى، وتواقفُوا مليًّاً. ثمَّ قربوا[أ] الأساطيل بعضاً إلى بعض وقَرنوهـا[ب] للمِصَاع، ولم يكـن إلاَّ كلاًّ ولا، حتَّى هبَّت ريحُ النَّصْرِ، وأظفر الله المُسْلِمين بعَدُوِّهم، وخالَطوهم في أساطيلهم، واسْتَلْحَموهم هَبْرَاً بالسُّيوف وطَعْناً بالرِّماح، وألقوا أشلاءهم في اليَمِّ. وقتلوا قائدَهم المَلَنْد، واسْـتاقوا أسـاطيلَهم مجنوبـةً إلى مَـرْسى سَـبْتَة، فـبرز النَّـاسُ لمشاهدتها. وطِيفَـتْ بكثـيرٍ مـن رؤوسـهم في جوانـبُ البَلَد. ونُظمـت أصـفادُ الأسرى بـدار الإنشاء. وعَظُـم الفـتحُ، وجلس السُّلْطان للتَّهنئة، وأنشدت الشُّعراء بين يديه. وكان يومـاً مـن أعزِّ الأيَّام، والمِنَّةُ لله.

(أ) ص: قربَوا، ومهملة في ظ، ض (ب) ص: وقربوها، ومهملة في ض

الخَبَرُ عن واقعةِ طَرِيف[1] وتَمْحيص المُسْلِمين

لمّا ظفر المُسْلِمون بأسْطُول النَّصَارَى، وخضدوا شوكتهم عن مُمانعة الجَواز، شَرَعَ السُّلْطانُ في إجازة العَسَاكر الغُزاة من المُطَّوّعة / والمُرْتَزِقة، وانتظمت الأساطيلُ سلسلةً واحدةً من العُدْوَة إلى العُدْوَة. [223 ب]

ولمَّا استكملَ إجازة العَسَاكر، أجاز هو في أُسْطُوله خاصّه وحشمه آخرَ سنة أربعين. ونزل بساحة طَرِيف، وأناخ بعساكره عليها، واضطرب معَسْكَره بفنائها، وبدأ بمنازلتها.

ووافاه سُلْطان الأنْدَلُس أبو الحَجَّاج ابن السُّلْطان أبي الوليد بعَسْكَر الأنْدَلُس؛ من غُزاة زَنَاتَة، وحامية الثُّغور، ورَجْل البَدْو، فعَسْكَروا حذو معَسْكَره، وأحاطوا بطَرِيف نطاقاً واحداً، وأنزلوا بهم أنواع القتال، ونصبوا عليها الآلات.

وجَهَّز الطَّاغِيَةُ أُسْطُولاً آخر اعترَضَ به الزُّقَاق؛ لقَطْعِ المرافق عن المعَسْكَر، وطال ثواؤُهم بمكانهم من حِصار البَلَد؛ ففنِيَتْ أزوِدَتُهم، وافتقدوا العَلُوفات، فوهِن

(1) وقعت سنة 741هـ بالقرب من طريف بين المسلمين والقشتاليين، وكان المسلمون فريقين: المرينيّون بقيادة السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن أبي يعقوب، والأندلسيّون بقيادة السلطان أبي الحجّاج يوسف الأول أمير غرناطة، أما القشتاليون فكانوا بقيادة الفونش (ألفونسو) الحادي عشر، وكانت الهزيمة فيها على المسلمين. انظر تفصيلات هذه الواقعة وخسائر المسلمين فيها، ومن استشهد فيها من العلماء في التاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجي 545.

الظَّهْرَ، واختلَّت أحوالُ المَعَسْكَر. واحتشد الطَّاغِيَة أَمَ النَّصْرانيَّة، وظاهَرَهُ البُرْتقالُ، صاحبُ أُشْبُونَة وغَرْبِ الأَنْدَلُس، فجاء معه في قَوْمِه. وزحف إليهم لستَّة أشهر من نزولهم. ولمَّا قرب من معَسْكَرِهم سرَّب إلى طَرِيف جيشاً من النَّصَارَى أكمنهُ بها، فدخلوها ليلاً على حين غفلةٍ من العسَسِ الذي أرْصد لهم. وأحسُّوا بهم آخرَ ليلتهم، فثاروا بهم من مَراصدهم. وأدركوا أعقابهم قبل دخول البَلَد، فقتلوا منهم عدداً، ولبَّسوا على السُّلْطان بأنَّه لم يدخل البَلَد سواهم؛ حذَراً من سَطْوته. وزحف الطَّاغِيَةُ من الغد في جموعه، وعبَّأ السُّلْطانُ مواكبَ المُسْلِمين صفوفاً، وتزاحفوا.

ولمَّا نشب[أ] الحَرْبُ، برزَ الجيشُ الكمينُ من البَلَد، وخالفوهم إلى المَعَسْكَر، وعمدوا إلى فُسْطَاطِ السُّلْطان. ودافعهم عنها النَّاشِبة[ب] الَّذين[ج] أُعدّوا لحراسته، فاستلحموهم. ثمَّ دافعهم النِّسَاء عن أنفسهنّ، فقتلوهنّ، وخَلصوا إلى حظايا السُّلْطان: عائشةَ بنتِ عَمِّه أبي يَحْيَى بن يَعْقُوب، وفاطمة بنتِ مَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى ملك إفْرِيقِيَّة، وغيرِها من حظاياه، / فقتلوهنّ وسَلَبوهنَّ[د]. وانتهبوا سائرَ الفُسْطَاط، وأضرموا المَعَسْكَر ناراً. [224 أ]

وأحسَّ المُسْلِمون بما وراءهم في معَسْكَرِهم، فاختلَّ مَصَافُّهم، وارتدُّوا على أعقابهم، بعد أنْ كان ابنُ السُّلْطان صمّم في طائفةٍ من قَوْمه وذويه حتَّى خالَطهم في

(أ) أ: نشبت (ب) ظ، ض: الناشية (ج) ظ، ص: اللتي (د) أ، ص، ض: واستلبوهن

صُفوفهم، فأحاطوا به، وتقبّضوا عليه. وولّى السُّلطانُ مُتحيِّزاً إلى فئة المُسْلِمين. واسْتُشهد كثيرٌ من الغُزاة. ووصل الطّاغِيَةُ إلى فُسْطاط السُّلطان من المحلَّة. ونكِر قتلَ النِّساء والوِلْدان، ووقف منها بمنتهى أثره، وانكفأ راجعاً إلى بلاده. ولَحِق ابنُ الأَحْمر بغَرْناطَة، وخلص السُّلطان إلى الجزيرة، ثمَّ إلى الجبل، ثمّ ركب السَّفِين إلى سَبْتَة في لَيْلته. ومَحَّص الله المُسْلِمين، وأجزل مثوبتهم، وأزجأ[أ] لهم الكَرَّة على عَدُوّهم.

الخَبَرُ عن مُنازلة الطَّاغِيَة الجزيرةَ، ثمَّ تغلّبه عليها، بعدما غَلَّب على القلعة من ثُغور ابن الأَحْمر

لمَّا رَجَع الطَّاغِيَةُ من واقعةِ طَرِيف، استأسَد على المُسْلِمين بالأَنْدَلُس، وطمع في التهامهم، وجمعَ عَساكِرَ النَّصْرانيَّة، ونازَلَ قلعةَ بني سعيد ثغرَ غَرْنَاطَة، وعلى مَرْحلةٍ منها. وجمع الآلاتِ والأيدي على حِصارها، واشتدَّ مخنقها، وأصابهم الجَهْدُ من العَطَش؛ فنزلوا على حُكْمِه سنةَ ثنتَين وأربعين. وأدال الله الطَّيِّبَ منها بالخبيث، وانصرف إلى بلده.

وكان السُّلطانُ أبو الحسن لما أجاز إلى سَبْتَة أخذ نفسَهُ بالعودة[ب] إلى الجهاد لِرَجْع الكَرَّة، وبعث في الأمصار للاستنفار، وأخرج قُوَّادَهُ إلى سَواحل البَحْر لتجهيز

(أ) ظ، ص: وأزجا (ب) ظ، ص: بالعدوة، وكانت كذلك في أ، ض ثم أصلحت

الأساطيل حتّى اكْتَمَلَ له منها عدد. ثمَّ ارْتَحل إلى سَبْتَة لمشارفتها، وقدَّم عَسْكَره إلى العُدْوَة مع وزيرِه عَسْكَر بنِ تَاحَضْرِيت. وبعث على الجزيرة مُحَمَّد بن العبَّاس بن تَاحَضْرِيت من قرابةِ الوَزِير، وبعث إليها مدداً من العَسكَر مع موسى بن إبراهيم اليَرْنِيَّانيّ من المُرَشَّحين للوزارة ببابه.

[224 ب] / وبلغ الطَّاغِيَةَ خبرُه، فجهَّز أُسْطُولَه وأجراهُ إلى بحر الزُّقاق لمدافعته. وتلاقت الأساطيلُ، فمحَّص الله المُسْلِمين؛ واستُشهِدَ منهم أعدادٌ. وتغلَّب أُسطُولُ الطَّاغِيَة على بحر الزُّقاق، وملكوهُ دون المُسلِمين.

وأقبل الطَّاغِيَةُ من إشبيلِيَّة يجرّ عَساكر النَّصْرانيَّة، حتّى أناخَ بها على الجزيرة الخضراء، مَرْقى أساطيل المُسلِمين وفُرْضَة المجاز. وأمل أنْ ينظمها في مِلْكته مع جارَتها طَرِيف. وحشر الفَعَلة والصُّنَّاع للآلات، وجمع الأيدي عليها، وطاوَلها الحصارَ، واتَّخذ أهلُ المُعَسْكَر بيوتاً من الخشب للمُطاولة.

وجاء السُّلْطانُ أبو الحَجَّاج بعَساكر الأنْدَلُس، فنزل قبالةَ الطَّاغِيَة بظاهر جَبَل الفَتْح في سبيل الممانعةِ. وأقام السُّلْطان أبو الحسن بمكانِه من سَبْتَة يُسَرِّبُ إليها المَدَد؛ من الفُرْسان، والمال، والزَّرع، في أحايِين الغَفْلة من أساطيلهم، [وتحتَ جَناح اللَّيل، فلم يُغْنِهم ذلك، واشتدَّ عليهم الحصار][أ] وأصابهم الجَهْدُ.

وأجاز إليه السُّلْطانُ أبو الحَجَّاج يفاوضهُ في شأن السِّلْم مع الطَّاغِيَةِ، بعد إذن

(أ) سقط ما بين الحاصرتين من ظ

الطَّاغِيَة له في الإجازة مَكْراً بـه. وترصَّدَته بعضُ الأسـاطيل في طَريقه، فـصَدَقَهُم المُسْلِمون القتال، وخلصُوا إلى السَّاحِل بعد عَضبِ الرِّيق، وضاقت(أ) أحوالُ أهل الجزيرة ومَن كان بها من عساكر السُّلطان. وسألوا من الطَّاغِيَة الأمان على أنْ ينزلوا عن البَلَد؛ فبذله(ب)، وخرجوا، فوفى لهم.

وأجازوا إلى المَغرب سنةَ ثلاثٍ وأربعين، فأنزلهم السُّلطانُ ببلاده خير نُزُل، ولقاهم من المَبَرَّة والكرامَةِ ما أعاضهم ممَّا فاتهم، وخلع عليهم، وحَمَلَهم، وأجازهم بما تحدَّث به النَّاسُ.

وتقبَّض على وزيره عَسْكَر بن تَاحَضْرِيت [عقوبةً](ج) على تَقْصيره في المدافعة، مع تمكّنه منها بما كان لديه من العَسَاكر. وانكفأ السُّلطانُ إلى حَضْرته مُوقِناً بظهور أمر الله، وإنجاز وَعْده في رَجْع الكرّة وعُلوّ الدّين. ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [سورة الصّف: من الآية 8].

[225أ]

/الخَبَرُ عن شفاعَةِ صاحب تُونس في أولاد أبي العُلَى ووُصولِهم إلى السُّلْطان

كان عُثمانُ بن أبي العُلَى من أعْياص آل عبد الحَقّ شيخ

(أ) ظ، ص، ض: ضاق (ب) ساقطة من أ (ج) ساقطة من ظ

الغُزَاة[1] المُجاهِدين من زَنَاتَة والبَرْبَر بالأنْدَلُس، وكان له فيها مُقامٌ معلومٌ في حماية الثُّغور، ومُدافعة العَدُوّ، وغَزْو دار الحَرْب، ومُساهمةِ صاحب الأنْدَلُس الجهاد، كما نستوفي في أخباره.

وكان السُّلْطانُ أبو سعيد لمَّا اسْتَصْرخ به أهلُ الأنْدَلُس، اعتذر بمكانه بينهم. واشترط عليهم أنْ يمكِّنوهُ من قِيادِه حتّى يقضي[أ] نَوْبَةَ الجهاد، فلم يُسْعِفوه بذلك[ب].

ولمَّا هَلَكَ عُثْمانُ بن أبي العُلَى، قام بأمره من بعده في مَراسم الجهاد بنوهُ، وكانوا يرجعون في رِياستهم إلى كَبيرهم [أبي][ج] ثابت عامر. وقويَتْ عِصابتُهم بالأبناء والموالي، وعلتْ على يدِ السُّلْطان يدُهم، واستبدّوا عليه في أكثر الأحوال، واسْتَنْكف لها، وكان ذلك ممَّا دعاه إلى القُدوم على السُّلْطان أبي الحسن. وارْتاب بَنو

(أ) ظ: تقضى (ب) ساقطة من أ (ج) ظ: أبو

(1) كان من نتائج حُسن التفاهم بين المرينيّين وسُلطان غرناطة أن نزحت مجموعةٌ من المجاهدين إلى الأندلس للإقامة فيها، ليكونوا على أهبة الجهاد مدافعين عن الأندلس. ونُظمت هذه المهمة الدفاعيّة؛ فأصبحت خطّةً عسكريّة تسمّى "مشيخة الغُزاة"، ويعرف متولّيها باسم "شيخ الغُزاة". وتولّى بنو العُلَى - وهم من أقارب السلطان المرينيّ - قيادة المشيخة؛ فتولّى رياستها عبد الله بن أبي العُلَى سنة 693هـ، ثمّ صارت لأخيه أبي سعيد عثمان بن أبي العُلَى. انظر: الإحاطة 2: 16، 38، الحجي: التاريخ الأندلسي 540، (وابن الخطيب يهتم بذكر صاحب مشيخة الغزاة في عهد كل أمير من أمراء بني نصر في كتابه اللمحة البدرية).

وذكر المقريّ أن ملوك بني مرين يُعينون أهل الأندلس بالمال والرجال، وتركوا منهم حصةً معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غُزاة، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة، وعليهم رئيس من بيت ملك بني مرين يسمّونه "شيخ الغُزاة". نفح الطيب 4: 385

أبِي العُلَى بإجازته إليه، واتّهموه على أنفسهم، واسْتَغذّهم[أ] إلى مُنازلة جَبَل الفَتح على كُرْهٍ. فلمّا تغلَّب المُسْلِمون عليه، وقضى ابنُ الأحْمر من مُدافعة الطَّاغِيَة عنه بالرَّغبة ما قضى، كما ذَكَرنا، واعتزم على القُفول إلى حَضْرته، أجمعوا الفَتْكَ به في طَرِيقه. وداخَلوا في ذلك مَواليه من المَغْلُوجَى؛ لِمَا أسفهم به [من][ب] إرْهافِ حَدّه، والتَّضَيُّق[ج] عليهم في جاهِه، فبرموا وطَوَوْا على النَّثِّ. حتّى إذا وجدوا من بَنِي أبِي العُلَى داعيةً إلى ذلك، خفّوا إلى إجابتها[د]. ونَذِرَ بهم مُحَمَّد بن الأحْمر، فبعث عن السُّفِنِ يعترضُه في طَرِيقه، وسَاحَلَ إليه، وتَسابقوا لشأنهم قبل فَوْته، فأدركوه دونَ حِصْن إصْطبُّونَة. وعتبوه فاسْتَعْتَب، ثمَّ أغلظوا في القول، وقتلوا مَوْلاه عاصماً صاحِبَ ديوان العَطاء تجنّياً عليه. ونَكِر السُّلْطانُ ذلك؛ فتناوَلوهُ / بالرِّماح طَعْناً، [225 ب] حتّى أقْعَصُوه[هـ].

ورَجَعوا[و] إلى المَعْسْكَر، فاسْتدعوا مَن كان داخَلَهم من الموالي. وجاؤوا بأخيه أبِي الحَجّاج يوسُف بن أبِي الوليد، فبايَعوا له، وأصْفَقُوا على تقْديمه. وسَرَّحَ لحينه قائدَهُ ابنَ غَزُّون، فاستولى له على دارِ مُلْكِه، وتمَّ أمرُه. وحَجَبَهُ رِضْوان مَوْلى أبيهم، واستبدَّ عليه، وسكن بين جَنبيْه - من بَني أبِي العُلَى وقَتْلِهم لأخيه - داءٌ دَخيل، حتّى إذا سما السُّلْطانُ أبو الحسن إلى الجهاد، وأجاز المَدَدَ إلى ثُغورِ عَمَله بالأنْدَلُس، وعقَدَ لابنه الأميرِ أبِي مالك، أسَرَّ إليهم في شأن بَني أبِي العُلَى

(أ) ظ، ص: واستعدهم (ب) ساقطة من ظ، ص ومثبتة في أ وهامش ض (ج) ظ، ص: والمتضيق (د) ظ: اجباتها
(هـ) ظ، أ: أقصعوه (و) ص: وزحفوا

ما كان أبوه السُّلْطانُ أبو سعيد اشترط عليهم في مثلها، ووافقَ منهم داعيةً لذلك؛ فتقبّض عليهم أبو الحَجّاج، وأوْدعهم المُطْبَق[أ] أجمعَ. ثمّ أشخصهم في السُّفِن إلى مَراسي إفْرِيقِيَّة، فنزلوا بتُونس على مَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى. وبعث فيهم السُّلْطانُ أبو الحسن إليه، فاعْتَقلهم. ثمّ أوْعزَ إليه مع عَرِيفِ الوَزَعَة ببابه ميمون ابن بَكْرُون في إشخاصِهم إلى حَضْرته، فتوقّف عنها. وأبى من إخْفارِ ذِمَّتهم، ووَسْوَس إليه وزيرُه أبو مُحَمَّد عَبْد الله بن تَافْرَاكِين بأنَّ مقصدَ السُّلْطانِ فيهم غير ما ظنّوا به من الشَّرّ. ورغبَ في منّةِ السُّلْطان ببَعْثهم إليه، والمُبالغة في الشَّفاعة فيهم علماً بأنَّ شفاعَته لا تُرد، فأجابه إلى ذلك، وجنبوهم إليه مع ابن بَكْرون. واتَّبعهم أبو مُحَمَّد بن تَافْرَاكِين بكتابِ الشَّفاعة فيهم من السُّلْطان.

وقَدِموا على السُّلْطان أبي الحسن مَرْجعَهُ من الجهاد سنةَ ثنتَين وأربعين، فتلقَّاهم بالبِرّ والرّحْب[ب] إكْراماً لشفيعهم، [وأنزلهم][ج] بمُعَسْكَره، وجنَّبَ[د] لهم المُقَرَّبات بالمراكب[هـ] الثقيلة، وضَرب[و] لهم الفَساطيط، وأسْنى لهم الخِلَعَ والجوائز، وفَرَض لهم أعلى رُتَب العَطاء، وصاروا في جُمْلته.

ولَمَّا احتلَّ بسَبْتَة لمشارفة أحوال الجزيرة، سُعِيَ عنده فيهم بأنَّ كثيراً من المُفسدين يُداخِلونهم في الخروج والتوثّب على المُلْك، فتقبّض عليهم، وأوْدَعهم السِّجن بمِكْنَاسَة، إلى أنْ كان من خَبَرِهم مع ابنه أبي عِنَان ما نذكُرُه.

(أ) ظ، أ، ص، ض: الطبق (ب) ظ: والمرحب (ج) ساقطة من ظ (د) أ: وجُنّبت (هـ) ص: بالمواكب، ومثله في ض ثم أصلحت (و) أ: وضُربت

[1226]

/ الخَبَرُ عن هديَّة السُّلطان إلى المَشرِق، وبَعْثِه بنُسَخِ[أ] المُصْحَف من خَطِّه إلى الحرمَيْن والقُدْس[1]

كان للسُّلطان[ب] أبي الحسن مذهبٌ في ولاية مُلوك المشرق، والكَلَف بالمعاهد الشَّريفة؛ تقبَّلَه من سَلَفه[2]، وضاعفَهُ لديه مَتينُ دِيانتِهِ.

ولمَّا قضى من أمْر تِلِمسان ما قضَى، وتغلَّب على المَغرب الأوْسَط، وصار أهلُ النَّواحي تحت رِقْبةٍ منه، واستظلالٍ بجَناح سُلْطانه، خاطبَ لحينه صاحبَ مِصْر والشَّام مُحَمَّد بن قلاوون الملكَ النَّاصِر، وعرَّفه بالفَتْح وارتفاعِ العَوائق عن الحاجّ في سَابِلتهم. وكان قُرَانِقُهُ في ذلك فارس بن ميمون بن وَدْرَار. وعاد بجوابِ الكتاب وتقرير المودَّةِ بين السَّلف.

وأجمع السُّلْطانُ على كتاب نُسخةٍ عَتِيقَة[3] من المُصْحَف الكريم بخطِّ يَدِه؛ ليقفَها بالحرم الشَّريف قُرْبةً إلى الله وابتغاءً للمثوبة؛ فانتَسخها، وجَمع الورَّاقين

(أ) ظ، ض: لنسخ (ب) ظ، ص: السلطان

(1) يراجع خبر انتساخ أبي الحسن المريني للمصاحف بخطِّه في: كتاب "المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن" لابن مرزوق التلمساني، و"الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" للناصري 3: 127 ـ 131.

(2) كالسلطان أبي ثابت عامر بن عبد الله الذي أهدى الملك النَّاصر هديةً جُملتها سبعمائة دابّة، لكنها سُرقت في الطريق. ابن أبي حجلة: سكردان السلطان 180

(3) كلّ شيء بلغ النهاية في الجودة فهو عتيق. لسان العرب، مادة: عتق

لِمعاناته تَذهيبها[أ] وتَنميقها، والقراءة لضَبْطِها وتَهْذيبها حتّى اكتمَلَ شأنُها. وصُنِعَ لها وعاءٌ مؤلّفٌ من خَشب الآبَنُوس والعَاج والصَّنْدَل فائق الصَّنْعَة، وغُشّيَ بصفائح الذَّهَب، ونُظِمَ بالجوهر[ب] والياقوت، واتُّخِذَتْ له أصْونَةُ الجلد المُحْكَمَةُ الصّناعةِ المرقومُ أديمُها بخيوط الذَّهَب، ومن فوقها غِلافُ الحرير والدِّيبَاج وأغشية الكتَّان. وأخرج من خَزائنه أموالاً عيَّنها لشراء الضِّياع بالمشرق لتكونَ وَقْفاً على القُرَّاء فيها[1].

وأوْفدَ على الملك النَّاصِر مُحَمَّد بن قلاوون صاحبِ مِصْر والشَّام خَواصَّ مَجْلِسِه وكِبارَ أهلِ دَوْلته: عَريف بنَ يَحْيَى أميرَ زُغْبَة، والسَّابق القَدَم في بساطه على كلّ خالصةٍ، وعطيَّة بنَ مُهَلْهِل بن يَحْيَى كبير الخؤولة. وبعث كاتبه أبا الفَضْل ابن مُحَمَّد بن أبي مَدْيَن، وعريف الوَزَعَةِ بدَوْلَته، وصاحبَ الباب عَبُّو بن قاسم المِزْوار؛ واحتفل في الهَدِيَّة للسُّلْطان صاحبِ مِصْر احتفالاً تَحدَّثَ به النَّاسُ دَهْراً.

[226 ب] ووقفتُ على برنامج الهَدِيَّة[2] بخطّ أبي الفَضْل بن أبي مَدْيَن هذا / الرَّسول ووَعَيْتُه وأُنْسِيتُهُ.

(أ) ظ: تذهيباً (ب) ظ: بالجواهر

(1) قال المقريّ في ترجمة أبي عبد الله محمد بن إبراهيم البَقُّوريّ: "قدم إلى مصر ومعه مصحف قرآن حمل بغل؛ بعثه ملك المغرب ليوقف بمكة، ثم عاد بعد حجّه، ومات بمراكش سنة 707هـ". (نفح الطيب 2: 53)، ولعل هذا المصحف هو المقصود.

(2) تفصيل ما تضمنته الهدية في الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى 3: 128 - 129

وذكر لي بعضُ قَهارِمة الدّار أنّه كان فيها خمسمائة من عِتاق الخيل المُقَرَّبات، بسُروج الذَّهَب والفِضَّة ولُجمِها خالصاً، ومُغَشّىً، ومموَّهاً، وخمسمائة حمل من متاع المغرب وماعُونه وأسلحته، ومن نَسْج الصُّوف المُحكم ثياباً وأكْسيةً وبرانِسَ وعمائمَ، وأُزراً مُعْلَمة وغير مُعْلَمة، ومن نَسْج الحرير الفائق المُعْلَم بالذَّهَب ملوَّناً وغير ملوَّن، وسَاذَجاً[أ] ومُنَمَّقاً، ومن الدَّرَق المجلوبة من بلاد الصَّحْرَاء المحكمة بالدِّباغ المتعارَف، وتُنسب إلى اللَّمَط[1]، ومن خُرْثِيِّ المَغْرب وماعُونه ما تُستطرف صناعتهُ بالمشرق، حتّى لقد كان فيها مكيلٌ من حصى الجوهر والياقوت.

واعتزَمَتْ حظِيّةٌ من حَظايا أبيه على الحجّ في ركابه ذلك، فأذن لها، واستبلغ في تَكْرِيمها، واسْتَوصَى بها وافِدَهُ وسُلْطانَ مِصْر في كِتابِه. وفَصَلوا من تِلِمْسان سنةَ [ثمانٍ وثلاثِين][ب]، [والأميرُ عليهم - في سَفرِهم - عُثمان بنُ جَرَّار من أولاد طَاع الله قَرابة بَني زَيَّان مُلُوك تِلِمْسَان][ج]، وأدّوا رسالَتهم إلى الملك النَّاصِر وهديّتهم، فتقبّلها، وحَسُن لديه موقعُها.

وكان يومُ وِفادتِهم عليه بِمِصْر يوماً مَشْهوداً تحدَّث به النَّاسُ دَهْراً، ولقَّاهم في

(أ) ظ، ص، ض: بالدال المهملة: سادجاً، والساذج: الذي لا نقش فيه. تاج العروس، مادة: سذج (ب) في ظ، ض بياض قدر كلمة، وساقط من ص. وزاد الناصريّ في خبر سفر الوفد أن وصولهم لمصر كان في الثاني والعشرين من رمضان من السنة المذكورة. الاستقصا 3: 128 (ج) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، ص. وكتبه ابن خلدون بخطه في هامش أ، ض

(1) اللَّمَط: حيوان دون البقر ويشبه الثور في شكله لكنه أصغر منه، للذكور والإناث منه قرون دقاق حادة، وكلما زاد عمر الحيوان طال قرنه، يميل لون جلده إلى البياض، ومنه تصنع التروس الصلبة بحيث لا يخترقها شيء، وأجود أنواع الجلود وأغلاها ثمناً في اللمط الأكبر سناً. الوزان: وصف إفريقيا 2: 263، الدالي: مملكة مالي الإسلامية 66

طريقهم أنواع البرّ والتَّكْرمة حتّى قضَوا فَرْضَهم، ووضعُوا المُصْحَفَ الكريم بحيث أمرهم صاحبُهم. وأسنى هديَّةَ السُّلْطان من قَساطيطِهم الغريبة الشَّكل والصَّنْعَة بالمَغرب، ومن ثياب إسْكَنْدريّة البديعة النَّسج المرقومَةِ بالذَّهَب، ورجعهم بها إلى مُرْسِلهم وقد استَبلغَ في تَكريمهم وصِلَتِهم. وبقي حديثُ هذه الهَدِيَّة مذكوراً[أ] بين النَّاس لهذا العَهْد.

ثمَّ انتسخ السُّلْطانُ نُسخةً أخرى من المُصْحَف الكريم على القانون الأوَّل، ووَقَفها على القَراءة بالمدينة، وبعثها مع مَن تخيَّره[ب] لذلك العَهْد من أهل دَوْلته سنةَ [أربعين وسبعمائة][ج].

واتَّصلت الولايةُ بينَه وبين الملك النَّاصِر إلى أنْ هَلَكَ سنةَ إحدى وأربعين.

ووَلِيَ الأمرَ من بعده ابنُه أبو[د] الفِدَاء إسماعيل[1]، فخاطبَه السُّلْطان وأتحفَهُ وعزَّاهُ عن أبيه. وأوْفدَ عليه كاتبَه وصاحبَ ديوانِ الخراج ببابه أبا الفَضْل بن عَبْد الله بن أبي مَدْيَن، فقضى من وِفادته ما حُمِّل[2]. وكان شأنُه[هـ] عَجَباً في

(أ) ظ، ص، ض: مذكورة (ب) ظ، أ: تخيره (ج) بياض في سائر الأصول قدر كلمتين، والإضافة من الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى 3: 131 (د) ظ، ص: أبا (هـ) ص: شاباً

(1) لم يَلِ الأمر بعد أبيه مباشرةً، وإنما تولى السلطنة قبله ثلاثة من إخوته، وحكم هو من بعدهم (743 ـ 746هـ). القرماني: أخبار الدول 2: 284

(2) كان وصول ابن أبي مدين إلى مصر في منتصف شعبان سنة 745هـ، وكان في صحبته الحُرَّة أخت السلطان أبي الحسن، وحمَّله السلطان كتاباً لأبي الفداء، أورد الناصري نصه ـ بطوله ـ في الاستقصا 3: 140 ـ 146، وأورد أيضاً نص الجواب عليه وهو من إنشاء خليل الصفدي، انظر الاستقصا 3: 147 ـ 151

إظهار أُبَّـهِ سُلطانه، / والإنفاق[أ] على المستضعفين من الحاجّ[ب] في سَبيلهم[1]، [227أ] وإتحاف رجال الدَّولَة التُّركيَّة بذات يده، والتعفّف عمَّا في أيديهم.

ثمَّ شرع السُّلطانُ بعدَها - عند اسْتِيلائه على إفْرِيقِيَّة، كما نذكره - في كتاب نُسْخةٍ أخرى من المُصْحَف الكريم؛ ليقفَها ببيت المَقْدِس[2]، فلم يُقَدَّر إتمامُها، وهَلَكَ قبل فَراغه[ج] من نَسْخها، كما نذكره إنْ شاء الله.

الخَبَرُ عن هَدِيَّةِ السُّلْطان إلى ملك مَالِي[3] من السُّودان المجاورين للمَغْرِب

كان للسُّلْطان[د] أبي الحسن مذهبٌ في الفخر معروف، يتطاولُ به إلى مُناغاةِ

(أ) ظ: والاتفاق (ب) أ، ظ: الحاج؟! (ج) أ: الفراغ (د) ظ، ص: السلطان

(1) سبيل الحاج: جزء من قافلة الحج يسيّره أحد الميسورين قُربةً إلى الله عزّ وجلّ. جاء في إنسان العيون في مشاهير سادس القرون (284): "وكان - صاحب إربل - يقيم كل سنة سبيلاً للحاج، ويسيّر معهم جميع ما تدعو حاجة المسافر إليه في الطريق، ويسيّر صحبتهم أميناً معه خمسة آلاف دينار يُنفقها على المحاويج وأرباب الرواتب".

(2) في أ: "نسخة أخرى من المصحف الكريم ليبعث بها إلى بيت المقدس فيقفها هنالك". وهذه النُّسخة عبارة عن رَبْعة شريفة، الموجود منها الآن بمكتبة المسجد الأقصى (القدس) واحد وعشرون جزءاً (من تجزئة ثلاثين)، وكُتب في فهرس المكتبة: خطها مغربي، بخط عبد الله علي بن أبي سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق سنة 745هـ. فهرس مخطوطات المسجد الأقصى 15 (رقم 3)، وفهرس المصاحف المخطوطة (عمّان: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية) 232

(3) أدّى تفكّك دولة غانا الوثنيّة سنة 469هـ على أيدي المرابطين إلى ظهور كياناتٍ جديدة؛ منها دولة مالي الإسلامية التي قامت على أيدي قبائل الماندنجو المسلمة سنة 638هـ. عن جغرافية مالي وتاريخها وظروف نشأتها وسير ملوكها ولباسهم وثرواتهم ورسومهم السلطانية وعلاقتهم بالمغرب الإسلامي انظر: تاريخ السودان للسعدي 9، صبح الأعشى للقلقشندي 5: 293، الوزان: وصف إفريقيا 2: 164، دولة مالي الإسلامية لإبراهيم طرخان، مملكة مالي الإسلامية للهادي النالي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي لمحمد الغربي 46.

المُلوك الأعاظم واقتفاء سَنَنِهم في مُهاداة الأقتال[أ] والأنظار، وإيفاد[ب] الرُسُل على مُلوك القاصية والتُّخوم البعيدة.

وكان مَلِكُ مَالِّي أعظمَ مُلوك السُّودَان لعَهْده، ومُجاوراً لِمُلكِهِ بالمَغْرب على مائة مَرْحلةٍ في القَفْر من ثُغور مَمالكه القِبْليّة.

ولمَّا غلبَ بَنِي عَبْد الوَاد على تِلِمْسان، وابتزَّهم مُلكَهم، واستولى على مَمالك المَغْرب الأوْسَط، وتحدَّث النَّاسُ بشأن أبي تَاشِفِين وحِصاره ومقْتَله، وما كان للسُّلْطان في ذلك من سَوْرة الغَلَب وآيةِ العزّ، وشاعت أخبارُ ذلك في الآفاق.

وسَما سُلْطانُ مَالِّي مَنْسَا موسى[1] - المتقدِّمُ ذكره في أخبارهم[2] - إلى مُخاطبته، فأوْفد عليه فُرَانِقَيْن من أهل مَملكته مع تُرْجُمان من المُلَثَّمين[3] المُجاورين

(أ) في أ: الأقيال. والأقتال: الأقران والنُّظراء. لسان العرب، مادة: قتل (ب) ص: وإنفاذ، والمعنى واحد

---

(1) السلطان منسا موسى: أشهر ملوكهم؛ حكم نحو عشرين سنة، وحج سنة 725هـ في رحلة وُصفت بكثير من مظاهر البذخ، وتوفي سنة 761هـ، وذكر ابن بطوطة (الرحلة 4: 255) والقلقشندي (صبح الأعشى 5: 293) أن منسا تعني "السلطان" بلغة أهل مالي، وضبطها ابن بطوطة بالحرف. ولمنسا موسى رسم في أسفل الخارطة الكروية لدولسير عام 1339م المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس برقم Ge. Be 696، والمنشورة في كتاب عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب 7: 48. انظر عنه وعن رحلته: تاريخ الفتاش لمحمود كعت 78، تاريخ السودان للسعدي 7، الذهب المسبوك للمقريزي 110.

(2) في الجزء الحادي عشر قبله الورقة 159أ وما بعدها

(3) قوله: "من الملثمين" ساقط من ص. والملثمون: هم التوارق (الطوارق) من صنهاجة. انظر عنهم وعن أقسامهم واتخاذهم اللثام: السعدي: تاريخ السودان 25، إبراهيم طرخان: إمبراطورية البرنو الإسلامية 32

لمالكهم من صِنْهَاجَةَ[أ]، فوَفدوا على السُّلْطان في التّهنئة بالغَلَب والظَّفر بالعَدُوّ، فكرّم وِفادتهم، وأحْسن مَثواهم ومُنقلبهم، ونزع إلى طريقته في الفخر، فانتخبَ طُرَفاً من مَتاع المَغرب وماعُونه من ذَخِيرَة دارِه وأسْناها. وعيَّن رجالاً من أهل دولته، كان فيهم كاتبُ الدّيوان أبو طالب بن مُحَمَّد بن أبي مَدْيَن، ومولاهُ عَنبَرّ الخَصِيّ، وأوفدهم بها على مَلك مَالِّي مَنْسَا سُلَيمان بن مَنْسَا موسى(1)، لهلك أبيه [قبل مَرجِع وَفْده(2). وأوْعَز](ب) إلى أعْرابِ الفلاةِ من المَعْقِل بالسَّير معهم ذاهبين وجائين، فشمَّر لذلك عليّ بن غانم أميرُ أولاد جار الله [من](ج) المَعْقِل، وصَحِبَهم في طريقهم/ امتثالاً لأمر السُّلْطان. وتوغَّل ذلك الرِّكاب في القَفْر إلى بلد مَالِّي، بعدَ الجَهْد وطول الشّقَّة، فأحْسن مبرَّتهم، وأعظمَ مَوْصِلَهم، وكرم وِفادتهم ومُنقلبهم. وعادوا إلى مُرْسِلهم في وفدٍ من كِبار مَالِّي يعظِّمون سُلْطانه، ويُوجبون حقَّه، ويؤدُّون من خضوع مُرْسِلهم، وقيامه بحقّ السُّلْطان، واعتماله في مَرْضاته ما استوصاهم به، فأدّوا رسالتهم. وبلغ [227 ب]

(أ) كتب ابن خلدون بخطه في هامش أ: الملثمين، وهو تكرار (ب) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، وسقطت كلمة: "وأوعز" من ص (ج) ظ: بن

---

(1) تملَّك السلطان منسا سليمان من سنة 741هـ حتى 761هـ، ويذكر ابن بطوطة ان "منسا" معناه السلطان، وسليمان اسمه، وقد وصف ابن بطوطة منسا سليمان بالبخل وأنه "لا يرجى منه كبير عطاء"، لكنه يذكر أيضاً أنه صنع طعاماً برسم عزاء السلطان أبي الحسن المريني الذي توفي في 23 ربيع الثاني سنة 752هـ، ووافق إقامة هذا الصنيع وجود ابن بطوطة في مالي. ابن بطوطة: تحفة النظار 4: 255، وهامش المحقق رقم 66، طرخان: دولة مالي الإسلامية 106

(2) مات منسا موسى خلال وجود الوفد المالي في حاضرة المرينيين.

السُلْطان أَرَباً من اعتزازه على المُلوك، وخضوعهم لسُلْطانه. وقضى حقَّ الشُكْر لله في صُنعِه.

الخَبَرُ [عن][أ] إصْهارِ السُلْطانِ إلى صاحِبِ تُونِس

لمّا هَلَكت ابنةُ مَوْلانا السُلْطان أبي يَحْيَى بطَرِيف فيمَن هَلَك من حظايا السُلْطان أبي الحسن بفَساطيطه، بقِي في نفسه منها شيءٌ؛ حنيناً إلى ما شغفته به من خلالها، وعزّة سُلْطانها، وقيامها على بيتها، وظَرْفها في تَصرُّفاتها، والاستمتاع بأحوال التَّرف ولَذاذة العَيْش في عِشرتها؛ فسَما أملُه إلى الاعتياض منها ببعض أَخَواتها، وأوْفد في خطبتها وليَّه عريف بن يَحْيَى أمير زُغْبَة، وكاتبَ الجباية والعَساكر بدَوْلته أبا الفَضْل ابنَ عَبْد الله بن أبي مَدْيَن، وفقيهَ الفُتْيا بمَجْلسه أبا عَبْد الله مُحَمَّد بن سُلَيمان السَّطِّيّ، ومولاهُ عَنْبَراً الخَصِيّ، فوفدوا يومَ مِنًى[ب] من سنةِ ستٍّ وأربعين. وأُنزلوا منزلَ البرّ، واسْتُبلِغ في تَكْرِيمهم. ودَسَّ الحاجبُ أبو مُحَمَّد عَبْد الله بن تَافْرَاكِين إلى سُلْطانه غَرَضَ وِفادتِهم، فأبى من ذلك؛ صَوْناً لحُرَمِه عن جَوْلَة الأقطار، وتحكُّم الرِّجال، واستعظاماً لمثل هذا العرس. ولم يزل حاجبُه ابن تَافْرَاكِين يخفِّض عليه الشَّأن، ويُعظِّم عليه حقَّ السُلْطان أبي الحسن في ردِّ خِطبتِه، مع الأُذْمَة[ج] السَّالفة بينهما من الصِّهْر والمخالصة، إلى أن أجاب وأسْعف. وجعل ذلك إليه،

(أ) ظ: في (ب) ظ، ض: منبى، ومهملة في ص. والمثبت من أ، ويوافق الزركشيّ: تاريخ الدولتين 78 (ج) أ، ض: الأذمة، والأُذْمَةُ: القرابة والوسيلة إلى الشيء، وقيل: هي الخلطة أو الموافقة والاتفاق. لسان العرب، مادة: أدم

فانعَقَد الصِّهْرُ بينهما. وأخذ الحاجبُ في شِوَار[أ] العُرس[ب]، وتأنّق فيه، واحتفل واستكثر، وطال ثواءُ الرُّسُل إلى أن استكمل.

وارتحلوا من تُونس لربيعٍ [من][ج] سنة [تسع][د]. وأوْعَز / مَوْلانا السُّلْطان أبو يَحْيَى إلى ابنه الفَضْل صاحبِ بُونَة وشِقِّ هذه العروس، أنْ يَزُفّها على السُّلْطان أبي الحسن قياماً بحقّه. وبعث من بابه مشيخةً من المُوَحِّدِين، مقدَّمُهم عَبْد الوَاحِد بن أكمازِير، صحبوا رِكابها إليه. ووفدوا جميعاً على السُّلْطان. [228 أ]

واتَّصل بهم الخبرُ أثناء طريقهم بمَهْلِك مَوْلانا[هـ] السُّلْطَان أبي بكر[1] عفا الله عنه، فعزَّاهم السُّلْطانُ أبو الحسن عنه عندما وصلوا إليه، واستبلغ في تكريمهم، وأجْمل مَوْعِد أخيها الفَضْل بسُلْطانه، ومظاهرته على تُراثِ أبيه؛ فاطمأنَّت به الدَّار إلى أنْ سار في جُمْلة السُّلْطان، وتحت ألْويته إلى إفْرِيقِيَّة، كما نذكره.

الخَبَرُ عن حَرَكَة السُّلْطان إلى إفْرِيقِيَة، واستيلائه عليها

كان السُّلْطانُ أبو الحسن قد امتدّت عينُه إلى مُلْك إفْرِيقِيَّة، لولا مكانُ

(أ) ظ: سوّار، ص: شوان. والشَّوَارُ: الحسن والجمال والهيئة واللباس والزينة. لسان العرب، مادة: شور (ب) ظ، ص، ض: العروس (ج) ساقطة من ظ (د) مكانها بياض في ظ، وفي ض: تسع، ثم أصلحت إلى: سبع، والمثبت من أ، ص (هـ) طمست في أ، ض جرياً على عادته في ملاحقة هذا الكلمة وطمسها حيثما وردت، واستعاض عنها في الهامش بـ: أبيها

(1) عند ابن الشماع: الأدلة البينة النورانية 83: والزركشيّ: تاريخ الدولتين 79: أبي يحيى أبي بكر، ولعله ثالث أبناء الأمير عبد الحق بن محيو المريني المتوفى سنة 656هـ

مَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى من ولايته وصِهْره، وأقام يتحيَّن لها الأوقات. ولمَّا بعث إليه في الصِّهْر، وأُشِيْعَ بتِلِمْسان أنَّ المُوَحِّدِين ردّوا خِطبته، نهض من المنصورة بتِلِمْسان، وأغَذَّ السَّيْرَ إلى فاس؛ ففتَح ديوانَ العطاء، وأزاحَ عِلَلَ عَساكِره. وعَقَد على المَغرب الأقْصَى لحافِده منصور ابنِ الأمير أبي مالك. وفوَّض إلى الحسن بن سُلَيْمان بن يزريكن[أ] في أحكام الشرطة، وعقد له على الضاحية. وارتحل إلى تِلِمْسان مُضْمِراً الحركةَ إلى إفْرِيقِيَّة، حتَّى إذا جاءه الخبرُ اليقين بالإسعاف والزِّفاف، سَكن غَرْبُهُ، وهدأ طائرُه. فلمَّا هَلَكَ السُّلْطان أبو يَحْيَى في رجب [من][ب] سنةِ سَبْعٍ وأربعين، وكان من قيام ابنه عُمَر بالأمر[ج]، ونزوع الحاجب أبي مُحَمَّد بن تَافْرَاكِين في رمضان منها ما ذكرناه، تحرَّكت عزائمُه لذلك.

ورَغَّبهُ ابن تَافْرَاكِين في مُلْك المُوَحِّدِين؛ فرَغِب، وجاء على أثره الخبرُ بما كان من قَتْل عُمَر لأخيه أحمد وليّ العَهْد، وكان يستظهرُ على عَهْده بكتاب أبيه، وما أوْدعه السُّلْطانُ بطُرَّته[د] من الوِفاق على ذلك بخَطِّه، اقتضاه منه حاجبُه أبو القاسم ابن عَتُّو في سِفارته إليه، فامْتعضَ / السُّلْطانُ لِمَا أضاع عُمَر من عَهْد أبيه، وهَدَر من دَم أخيه، وارْتكب مذاهبَ العُقوق فيهم، وخَرَق السِّياجَ الذي فرضَهُ بخطّه عليهم، فأجْمَع الحركةَ إلى إفْرِيقِيَّة. ولَحِق به خالد بنُ حَمْزَة بن عُمَر[هـ] نازعاً إليه، ومُستغذّاً مَسيرَه، ففَتح ديوانَ العَطاءِ، ونادى في النَّاس بالمسيرِ إلى إفْرِيقِيَّة، وأزاحَ عِلَلَهم. [228 ب]

(أ) أ: يزريكن، ص: برزيكن (ب) ساقطة من ظ (ج) ظ: بالأمرة (د) أ: بحاشيته، وكتب بهامش ض: بحشيته (هـ) ص: عمرة

وكان صاحبُ بِجَايَةَ المولى أبو عَبْد الله حافدُ مَوْلانا الأمير أبي يَحْيَى، وَفَدَ على السُّلْطان أبي الحسن إثرَ مَهْلِكِ جَدِّه يُقرِّرُ المَتَاتَ بسِفارةِ أبيه إليه، ويطلبُ الإقرارَ على عَمَله. فلمّا اسْتَيْأَس منه، واسْتَيْقن حَرَكته بنَفْسه إلى إفْريقِيَّة، طَلَب الرُّجوعَ إلى مكانه؛ فأُسْعف، وفَصَل إلى بِجَايَة.

ولمَّا قضى السُّلْطانُ مَنْسَك الأضْحَى من سنةِ سبعٍ وأربعين، عَقَد لابنه الأميرِ أبي عِنَان على المَغْرب الأوْسَط، وعَهِدَ إليه بالنَّظر في أُموره كافَّة، وجَعل إليه جبايتَه، وارْتَحل يُرِيد إفْرِيقِيَّة. وسارَ في جُمْلته هو وخالد بن حَمْزَة أميرُ البَدْو.

ولمَّا احتلَّ بوَهْرَان، وافاه[أ] هُنالِكَ وَفْدُ قَسْطِيلِيَةَ وبلاد الجَرِيد، يقدمهم أحمدُ ابن مكِّي أميرُ جَرْبَةَ ورديفُ أخيه عَبْد المَلِك في إمارةِ قَابِس، ويَحْيَى بن مُحَمَّد بن يَمْلُول أميرُ تَوْزَر؛ سَقَط إليها بعدَ خروج الأمير أبي العبَّاس وليِّ العَهْد عنها، ومَهْلِكه بتُونِس، وأحمدُ بن عُمَر بن العابد[ب] رئيسُ قَفْصَةَ، وعليّ بن الخَلَف رئيسُ نَفْطَةَ، رجعا إليها كذلك بعد مَهْلِك وليِّ العَهْد، فلَقِيَه هؤلاء الرُّؤساءُ بوَهْرَان في ملإٍ من وُجوه بلادهم، فآتوه بيعتَهم[ج]، وقضَوْا حقَّ طاعته. وتثاقل مُحَمَّد بنُ ثابت أميرُ طَرابُلُس عن اللَّحاق به، فبعث ببَيْعَتِهِ معهم، فأكرم وفدَهم، وعَقَد لهم على أمْصارِهم، وصَرَفهم إلى أعمالهم. وتمسَّك بأحمد بن مكِّي لِصحابةِ رِكابه، وفي جُمْلته، وأغَذَّ السَّيْرَ.

(أ) ص: ووافاه (ب) ص: العايد (ج) ظ: بيعتهم

ولمّا احتلَّ بَنِي حسن من أعمال بِجَايَة، وافاهُ بها منصور بنُ فضل بن مُزْنِي، أميرُ بِسْكِرَة وبلاد الزّاب، في وفدٍ من أهل وَطَنِه، ويَعْقُوب بن علي بن أحمد، سَيِّدُ الدَّوَاوِدَة وأمير البَدو بضاحية بِجَايَةَ وقُسَنْطِينَة، فتلقَّاهم بالمَبَرَّة والاحتفاء، وألزمهم ساقَتَه. وسَرَّحَ بين يديه / [229 أ] قائدَه حَمُّو بن يَحْيَى العَسْرِيّ(1) من صَنائع أبيه. فلمَّا عَسْكَر بساحة بِجَايَة [اعتزم الأميرُ(أ) أبو عَبْد الله صاحبُها، *وهو حافدُ السُّلْطان أبي يَحْيَى*(ب) على الامتناع](ج)، وأبى عليه أهلُ البَلَد رهبةً من السُّلْطان ورغبةً فيه، وانفضُّوا من حوله. ولحقتْ مشيختهم من القُضاة وأهل الفُتْيا والشُّورَى بمَجْلس السُّلْطان. وسابقهم إليه حاجبُه فارحُ مَوْلى ابن سيِّد النَّاس، فأدَّى طاعتَه، ورجعه إليه بالخروج للقاءِ رِكابه. وارتحل حتّى إذا أطلّت راياتُه على البَلَد، بادرَ المولى(د) أبو عبد الله [إليه](هـ)، ولَقِيَه بساحةِ البَلَد، واعتذر عن تخلّفه، فتقبّل عُذْرَه، وأحلّه من البِرور والتَّكْرِمة محلّ الوَلَد العزيز. وأقْطَعه عملَ كُومِيَة من ضَواحي هُنَيْن، وأسنى جِرايَتَه بتِلِمْسان، وأصْحَبه إلى ابنه أبي عِنَان صاحبِ المَغْرب الأوْسَط، واستوصاه به. ودخل بِجَايَةَ، فرفع عنهم الظلامات، وحطّ عنهم الرُّبْعَ من المغارم. ونظر في

(أ) ض: المولى (ب) سقط ما بين النجمين من ض (ج) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، ص وعوضه فيهما: "أبي عبد الله".
(د) أ: الأمير (هـ) ساقطة من ظ

(1) أ: العشري، وسيأتي فيما بعد: محمد بن يحيى العسري، وفي الهامش: حمو بن .....، وفي الأدلة البينة النورانية لابن الشماع 94: العسري، وأصلحه المحقق بناءً على إحدى نشرات ابن خلدون فجعله العشري، ومثله بالشين المعجمة في تاريخ الدولتين للزركشي 83

أحوالِ ثغورها، فثقَّفَ أطرافَها، وسدَّ فُروجَها، وعقدَ عليها لمُحَمَّد بن النّوار[أ] من طَبقة الوَزراء والمُرَشَّحين لها، وأنزل معه حاميةً[ب] من بَني مَرين، وكاتِبَ الخراج ببابه بركات بنَ حَسُّون بن البوَّاقِ. وارتحل مُغذًّا لسَيْرِه حتّى احتلّ بقُسَنطِينة. وتلقّاه أميرُها أبو زيد حافدُ مَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى، وإخوتُه: مَوْلانا أبو العبَّاس أحمد، وأبو يَحْيَى زَكَرِيَّاء، وسائرُ إخوتِهم، فآتوه بيعتَهم، ونزلوا له عن عَمَلِهم. وأدَالهم السُّلْطانُ منه بنَدْرُومَةَ من عَمَل تِلِمْسان، عقد للمَوْلى[ج] أبي زيد على إمارتها، وجعله إسْوَةَ إخوته في إقطاعِ جِبايتها، ودخل البَلَد، وعَقَد عليها لمُحَمَّد بن العبَّاس، وأنزل معه العبَّاس بنَ عُمَر في قَوْمِه من بَني عَسْكَر. وأمضى إقطاعاتِ الدَّواودَة.

ووافاه[د] هُنالِكَ عُمَر بنُ حَمْزَة سيّد الكُعُوب لعَهْده / وأميرُ البَدْوِ مُسْتَحِثًّا لرِكابه. [229 ب] وأخبره برَحيلِ السُّلْطان عُمَر بن مَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى من تُونس، فيمَن اجتمع إليه من أولاد مُهَلْهِل أقتالهم من الكُعُوب متوجِّهًا[هـ] إلى ناحية قَابِس. وأشار على السُّلْطان بتَسْريح العَسَاكر لاعتراضه قبلَ أنْ يخلصَ إلى طَرابُلُس، فسرَّحَ معه حَمُّو بن يَحْيَى العَسْرِيّ[و] قائده في عَسْكَر من بَني مَرين والجُنْد. وارتحلوا في اتّباع السُّلْطان أبي حَفْص. وتلوَّم السُّلْطانُ أبو الحسن بقُسَنطِينة، واعترض عساكره بسَطْحِ الجِعَاب منها. وصرف يوسُف بن مُزْني إلى عَمَله بالزَّاب، بعد أنْ خلعَ عليه وحمله.

(أ) ص: البواب (ب) ظ: خاصة، ص: خاصيه، وأصلحت تحتها بإبدال الخاء حاءً والصاد ميماً (ج) طمست في أ واستبدلت بـ: الأمير (د) ظ: ووفاه (هـ) ظ، ص، ض: موجهاً (و) أ: العسكري، وتقدم التعليق عليه

ثمّ عَقَدَ للمَوْلى[أ] الفَضْل ابنِ مَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى على مكانِ عَمَلِه بِبُونَةَ، وملأ حقائبه جائزةً وخِلَعاً نفيسةً، وسَرَّحَه، ثمَّ ارْتَحل على أثرهم.

وأغَذَّ حَمُّو بن يَحْيَى[ب] السَّيْرَ مع التَّاجعةِ من أحياء أولاد أبي اللَّيْل، ولَحِقوا بالأمير أبي حَفْص بالمبارَكة[ج] من ناحية قَابِس، فأوقعوا به، وتردّى عن فَرسِه في حومَةِ القتال هو ومولاهُ ظافر السَّنَّان القائم بدَوْلَته من المَغْلُوجَى، فتُقُبِّضَ عليهما وسِيقا إلى حَمُّو، فاعتقلها إلى اللَّيْل، ثمَّ ذبحهما، وأنفذ برؤوسهما إلى السُّلْطان[1].

ولَحِق الفلُّ بقَابِس، فتقبَّض عَبْد المَلِك بن مكّيٍّ على أبي القاسم بن عَتُّو[2] حاجبِ الأمير أبي حَفْص وشيخ المُوَحِّدِين، وعلى صَخْر بن موسى شيخ بَني سيلين[د] من سَدْوِيكَش فيمَن تقبّض عليه من ذلك الفلّ، وأشخصهم مُقَرَّنِين في الأصفاد إلى السُّلْطان.

وسَرَّحَ السُّلْطانُ عَسْكَره إلى تُونِس، وعَقَد عليهم ليَحْيَى بن سُلَيمان صِهْرِه من

(أ) طمست في أ. وفي الهامش: للأمير (ب) ظ: يحيى بن حمو بن يحيى (ج) في ظ: لمباركه، والمثبت من أ، ص، ض، ويوافق الأدلة البينة النورانية لابن الشماع 94: "فأدركه بالمباركة عند قابس"، وتاريخ الدولتين 83: "أدركوا السلطان أبا حفص ومَن معه بأرضة الحامة من جهات قابس بموضع يسمى المباركة بقرب جبل السباع".. (د) ظ، ص، ض: سلين، ويمرّ ذكرهم كثيراً في تاريخ الدولتين للزركشي، انظر: فهرس الكتاب: "الزعماء والقبائل".

(1) انظر تفصيلات أخرى في الأدلة البينة النورانية 94.

(2) في تاريخ الدولتين 83: عبو

بَنِي عَسْكَر على ابنته، وأنفذَ معه أحمد بنَ مكِّي، فاحتلوا بتُونِس واستولوا عليها. وانطلقَ ابنُ مكِّي إلى مكانٍ عَمَلِه من هُنالِكَ لمَّا عقد / له السُّلْطان عليه وسَرَّحَهُ إليه [1230] بعد أنْ خَلَع عليه وعلى حاشيته وحملهم. ونزل السُّلْطانُ ببَاجَة[1]، فوافاه هُنالِكَ البريدُ برأس الأمير أبي حَفْص؛ وعَظُم الفتح.

ثمَّ ارْتحل إلى تُونِس، واحتلَّ بها يوم الأربعاء الثامن لجُمَادَى الآخرة من سنة ثمان. وتلقَّاه وفدُ تُونِس وملأُها(أ) من شيوخ الشُّورَى وأَرْباب الفُتْيا، فآتوا طاعَتَهم، وانقلبوا مسرورين بملكتهم.

ثمَّ عبَّأ يوم السَّبت إلى دُخولها مواكبه، وصفَّ جنودَه سِماطَيْن من معَسْكَرَه بسَيْجُوم إلى باب البَلَد، تُناهز ثلاثة أميال أو أربعة. وركب بَنو مَرِين في جُموعهم وعلى مَراكزهم وتحتَ راياتِهم. وركب السُّلْطانُ من فُسْطَاطه، وواكبهُ مِن عن يَمينه وليُّهُ عريف بنُ يَحْيَى أميرُ زُغْبَة، ويليه أبو مُحَمَّد عَبْد الله بن تَافْرَاكِين. ومِن عن يَسارِه الأمير أبو عَبْد الله مُحَمَّد أخو مَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى، ويليه الأمير أبو عَبْد الله ابن أخيه خالد؛ كانا معتقَلَيْن بقُسَنْطِينَة مع وَلَدِهما منذ خروج الأمير

(أ) في سائر الأصول: وملاؤها

---

(1) باجة: Beja، من مدن تونس الكبيرة، تقع غرب العاصمة، أقيمت على مُنحدر جبل، وسُهولها خصبة، لذلك كانت تُعرف بباجة القمح، وأنها هُرْي إفريقيَة، تصفها الجغرافية التاريخية بوفرة الينابيع وأنها تجود فيها جميع الزروع. وبها حصن أزلي مبنيّ بالصخر الجليل وفنادق وحمامات ولها نَهْر من جهة المشرق. انظر: معجم البلدان 1: 314، البكري: المسالك 2: 718، نزهة المشتاق 1: 251، الروض المعطار 75، الوزان: وصف إفريقيا 2: 66، مارمول: أفريقيا 3: 96.

أبي فارس، فأطلقهم السُّلْطان أبو الحسن، وصَحِبوه إلى تُونِس، فكانوا طرازاً في ذلك الموكب فيمَن لا يُحصى من أغياص بَني مَرِين وكبرائهم. وهَدَرَتْ طبولُه، وخفقَتْ راياته، وكانت يومئذٍ مائةً مائةً[أ]. وجاءَ والمواكِبُ تجتمع عليه صفّاً صفّاً، إلى أنْ وصلَ إلى البَلَد، وقد ماجَتِ الأرْضُ بالجيوش، وكان يوماً لم يُرَ مثلُه فيما عَقِلْناه.

ودخل السُّلْطانُ إلى القَصْر، وخلَع على أبي مُحَمَّد بن تافْرَاكِين كُسْوته، وقرب إليه فرسه بسرجه ولجامه. وطعم النَّاسُ بين يديه وانتشروا.

ودخل السُّلْطانُ مع أبي مُحَمَّد بن تافْرَاكِين إلى حُجَر القَصْر ومَساكن الخُلَفاء فطاف عليها، ودخلَ منه إلى الرِّياض المُتَّصلة به المدعوَّة / [230 ب] برأس الطَّابية، فطاف على بَساتينه وحوائِره[ب]، وأفْضى منه إلى معَسْكَره، وأنزل يَحْيَى بن سُلَيمان بقَصَبة تُونِس في عَسْكَر لحمايتها.

ووصلَ إليه فَلُّ الأمير أبي حَفْص والأسرى بقَابِس[ج] مُقَرَّنِين في أصْفادهم[د]، فأوْدعهم السِّجنَ بعد أنْ قطَع أبا القاسم بن عَتُّو وصَخْرَ بن موسى من خِلَافٍ لفُتْيَا الفُقَهاء بحرابَتِهم.

وارْتَحل من الغد إلى القَيْرَوان، فجال في نَواحيها، ووقف على آثار الأوَّلين ومَصانع الأقدمين، والطُّلول الماثلة[هـ] لصِنْهَاجَة والعُبَيْدِيِّين، وزارَ أجداثَ العُلَماء والصَّالحين.

(أ) ساقطة من ص (ب) ص: وجوائره (ج) ظ، ص: بقاس (د) ظ: الأصفاد، ومثله في ض، ثم أصلحت بما هو مثبت (هـ) ص: الماثلة

ثمَّ سارَ إلى المَهْدِيّة، ووقفَ على ساحل البَحْر، ونظرَ في عاقبة الذين كانوا من قَبْله أشدَّ قوّةً وآثاراً في الأرْض، واعْتبر بأحْوالهم. ومرَّ في طَريقه بقَصْرِ الأجَم[1] ورِباط المُنَسْتِير[2]، وانكفأ راجعاً إلى تُونِس، واحتلَّ بها غُرَّة رمضان.

وأنزل المسالح[أ] على ثغور إفْرِيقيّة، وأقْطع لبَني مَرِين البلادَ والضَّواحي، وأمْضى إقطاعات المُوَحِّدِين للعَرَب[ب]. واسْتعمل على الجهاتِ، وسكن القَصْر، وقد كَمُل الفَتْح، وعَظُمت في الاستيلاء على الممالك والدوَل المِنّةُ. واتّصلت مَمالِكُه ما بين مَسْرَاتَة[3] والسُّوسِ الأقْصَى من هذه العُدْوَة، وإلى رُنْدَة من عُدْوَة الأنْدَلُس، والمُلْكُ لله يؤتيه من يشاءُ من عباده والعاقبة للمتَّقين.

ورفع إليه الشُّعَراء بتُونِس يُهنِّئونه بالفَتْح، وكان سابقَهم في تلك النَّوْبةِ أبو القاسم

(أ) ظ، ص: المشايخ (ب) ظ: للغرب

---

(1) قصر الأجُم، بضمّ الأوّلين: هو الحصن، وسماه البكري والتجاني وغيرهما "قصر الجم" على التخفيف وهو الشائع. وقد بقي من المدينة القديمة مَلْعبها الروماني البيضاوي الشكل واعتبر في بعض العصور الإسلامية حصناً أو قصراً. انظر: مسالك البكري 2: 670، 684 رحلة التجاني 57-65.

(2) المنستير: مدينة إسلامية قديمة أقيمت على لسان داخلٍ في البحر بين سوسة ولمطة، وتبتعد قليلاً عن Ruspina الرومانية والتي كان بها في العصر البيزنطي ديرٌ Mona sterium، وأقام عليها الوالي العباسي هرثمة بن أعْيَن سنة 180هـ أول قصر للرباط بقي من أهمّ عناصره، وأضافت عليه العصور التالية إضافات واضحة، ثم اتسع حوله العمران لتصبح مدينة. مسالك البكري 2: 692، رحلة التّجاني 30، الوزان: وصف إفريقيا 2: 84، مارمول: إفريقيا 3: 67، G. Marcais: مادة رباط في دائرة المعارف الإسلامية، إبراهيم شبوح: قصر هرثمة بن أعْيَن بالمنستير.

(3) مَسْرَاتة، ويقال بالصاد: مصراتة: مدينة على البحر المتوسط، تقع على بعد نحو مائة ميل عن طرابلس الغرب. رحلة ابن بطوطة 1: 171، الوزان: وصف إفريقيا 2: 111

الرَّحَويّ[1] من ناشئة أهل الأدب، فرفع إليه قوله: [من الطّويل]

أجابَكَ[أ] شَرْقٌ إذ دَعَوتَ ومغـربُ ... فمَكَّـةُ هَشَّتْ لِلّقـاءِ وَيَثْرِبُ
ونـاداكَ مِصْـرٌ والعِـرَاقُ وشامُـهُ ... بِـدار، فَصَدْعُ الدِّيـنِ عندك يُشْعَبُ
وحَيَّتْـكَ أو كـادتْ تُحَيِّي منابِـرٌ ... عليهـا دُعـاةُ الحَـقِّ باسمِـكَ تَخْطِـبُ
[231 أ] / فسـارَعَ مِنّـا كُـلُّ دانٍ وشاسِـعٍ ... إلى طاعَـةٍ مِـنْ طاعَـةِ اللهِ تُحْسَـبُ
وتاقَـتْ لـكَ الأرواحُ حُبّاً ورَغْبَـةً ... وأنـتَ عـلى الآمـالِ تَنْـأى وتَقْـرُبُ
فبالبَـلدةِ البَيْضـاءِ لبَّـاكَ مَعْشَـرٌ ... وأنـتَ بـأُفْقِ النّاصِريَّـةِ تَرْقُـبُ
ووافَتْكَ مِـنْ ذاتِ النَّخيـلِ وفودُهـا ... فلاقـاهُمُ أهـلٌ لديـكَ ومَرْحَـبُ
ولَـمْ تَتَلكَّـأْ[ب] عَـنْ إبـاءٍ بِجَايَـةٌ ... ولكـن يُـراضُ[ج] الصَّعْبُ ثُمَّتَ يُرْكَبُ
تأَبَّـتْ فلمَّـا أنْ أطَلَّـتْ عَسَاكِـرٌ ... تَـرى الشُّهْبَ مِمّـا يُستباحُ ويُنْهَـبُ
تَبـادَرَ منهُـمْ مُذْعِـنٌ ومُسَلِّـمٌ ... وأذعَـنَ مـنهمْ شـاغبٌ ومؤلِّـبُ
ومـا تُونِـسٌ إلاّ قنيـصٌ[د] مُـرَوَّعٌ ... وفي حَـرَمٍ أمْسَتْ لديـكَ تَـسرَّبُ
ومـا أهْلُهـا إلاّ بُغـاثٌ لصائِـدٍ ... وبالعـزِّ منـكَ اسْتَنْسرُوا وتعقَّبُـوا
وقـد كُنتَ قبلَ اليـوم كهفَ زعيمِهِمْ ... فهـا أنـتَ كهـفٌ للجميـعِ ومَهْـرَبُ
فكُـلٌّ يـرى أنَّ الزَّمَـانَ أدالَـهُ ... بِكُمْ[هـ] فأجابَ العيشَ والعيشُ مُخْصِبُ

(أ) ص: أجابتك (ب) ظ: تتكلأ، ومثله في ص مهملة، وكذلك في ض ثم أصلحت في الهامش (ج) ظ، ص: تراض (د) ظ، ص: فينصر، ص: فنيص (هـ) ظ: إذا لديكم

(1) هذا الشاعر الرَّحويّ الذي ذكره ابن خلدون بأنه من ناشئة الأدب، تقدّم له تضمين كتابه قصيدة له (العبر 2: 424) ونعته بأنه من شعراء أهل تونس، وفي نسخة التعريف الملحقة هنا (ص548) يسمّيه صاحبنا الرحويّ شاعر تونس.

وكدَّ لكَ[أ] ابنٌ طائعٌ وإنِ اعتَلَتْ … بهِ السِّنُّ إجلالاً وأنتَ لهُ أبُ
وما ذاكَ إلاَّ أنَّ عَدلَكَ يَنْتَمي … إلى الخُلَفاءِ الرَّاشدينَ ويُنْسَبُ
تساميْتَ في مُلْكٍ ونسكٍ بِخُطَّةٍ … حَذِيَّاكَ[ب] مِحرابٌ لديها ومَوْكِبُ
إذا لذَّ للأمْلاكِ خَمْرٌ مُدارةٌ … فَلَذَّتُكَ القُرآنُ تَتلو وتَكْتُبُ
وإنْ أدْمَنَ القَوْمُ الصَّبوحَ فإنَّما … على رَكَعاتٍ بالضُّحَى أنتَ تَدْأبُ
وإنْ حَمدوا الشُّرْبَ الغَبُوق فإنَّما … شَرابُكَ بالإمساءِ ذِكْرٌ مُرَتَّبُ
وإنْ خشُنَتْ أخلاقهُمْ وتَحَجَّبوا … فما أنْتَ فَظٌّ، لا، ولا مُتَحجِّبُ
لقد كَرُمَتْ منكَ السَّجايا[ج] فأصْبحتْ … إذا ما أمدَّ الدَّهرُ تحلو وتعذُبُ
كما شِدْتَ بَيْتاً في ذُؤابَةِ مَعْشَرٍ … يزيدُ بهِم قَحطانُ فَخْراً ويعرُبُ
هُمُ التَّارِكو الغُلْبَ القَساور خُضَّعاً … وعن شأوِهِمْ كُفَّتْ عبيدٌ وأغلَبُ
هُمُ النَّاسُ والأمْلاكُ تحتَ جوارِهِمْ … هُمُ العُظمُ والأرضُ العظيمَةُ مَغربُ
/ هُمُ المالِكو المُلْكَ العَظيمَ فبيتُهُمْ … على كاهِلِ السَّبعِ الشِّدادِ مُطنَّبُ [231 ب]
لقد أصبحتْ بَغْدَادُ تَحسِدُ فاسَهُمْ … ودِجلَةُ ودَّتْ أن يكونَ بها سَبُو[د]
تَجلَّتْ سماءُ [المجدِ][هـ] مِنهُمْ كواكِباً … لقد جلَّ منها شارِقٌ ومُغرِّبُ
فللَّهِ منهُمْ ثُلَّةٌ يَعْرُبِيَّةٌ … يَرومُ ثَناها الأعجميُّ فيُعْرِبُ
لقد قامَ عَبْدُ الحَقِّ للحَقِّ طالباً … فما فاتَهُ منه الذي قامَ يَطْلُبُ

(أ) ظ، ص: وكذلك (ب) في سائر الأصول: خديناك (ج) ظ: السخايا، ومهملة في أ (د) ص: بهاسبُ، ض: تاسبوا
(هـ) بياض في ظ

وأعْقَبَ يَعْقُوباً يَوْمُ سَبيلَهُ … فلَمْ يُخْطِهِ وَهْوَ السَّبيلُ المُلَحَّبُ
وخَلَّفَ عُثْماناً فللَّهِ صارمٌ … بهِ بانَ للإسْلامِ شَرْعٌ ومَذْهَبُ
فكَمْ في سَبيلِ اللهِ شَنَّ إغارةً … لِمَا شادَ أهْلُ الكُفْرِ أمْسَتْ تُخَرَّبُ
ولَمَّا أرادَ اللهُ إتْمامَ مِنَّةٍ … تقلَّدَها منَّا مُطيعٌ ومُذْنِبُ
أتى بِكَ للدِّينِ الحنيفيِّ آيةً … تَعَرَّى[أ] بها عن لامعِ الحقِّ غيهبُ
فجِئْتَ كما يَرْضى بكَ اللهُ سالِكاً … سَبيلاً إلى رضوانه بكَ يَذْهَبُ
وقُمْتَ بأمْرِ اللهِ حَقَّ قِيامِهِ … يُناضِلُ عنهُ منكَ نَصْلٌ مُذرَّبُ
وأصْبَحَ أهْلُ اللهِ أهْلاً وشِيعَةً … لكُمْ ولهمْ منكمْ مكانٌ ومنصِبُ
وحلَّ بأهلِ الفَتْكِ ما حلَّ عَزْمَهمْ … وقامَ لديهمْ واعظٌ ومُثَوِّبُ
وجاهدتَ في الرَّحمنِ حَقَّ جِهادِهِ … فراهَبُ أهْلِ الكُفْرِ بأسَكَ يَرْهَبُ
وأنقذتَ من أيدي الأعارب أمَّةً … وأولى جِهادٍ كان بل هو أوْجَبُ
فأصْبَحتِ الدُّنيا عَرُوساً يَزُفُّها … لأمرك من جاري المقاديرِ[ب] مغربُ
فلا مِصْرَ إلاَّ قد تمنَّاكَ أهلُهُ … ولا أرضَ إلاَّ باذِّكارِكَ[ج] تُخْصِبُ
وما الأرض إلاَّ منزلٌ أنت ربُّهُ … وما حلَّها إلاَّ الودودُ المُرحَّبُ
تَملَّكْتَ شطرَ الأرضِ كَسْباً وشطرَها … تُراثاً[د] فطابَ المُلكُ[هـ] إرثٌ [ومكسبُ][و]
بجيشٍ على الألواح والماء يمتطي … وجيشٍ على الضُّمْرِ الصَّوافِنِ يَرْكَبُ

(أ) ظ: تفرد، أ، ض: تفرى (ب) ص: التقادير (ج) في الأصول جميعها: باذكارك، ويستقيم الوزن بما هو مثبت. (د) ص: رأياً
(هـ) ظ، أ: الكل (و) مكانها بياض في ظ

وجيشٍ من الإحسان والعدلِ والتُّقـى　　　وذاكَ ـ لَعَمْـرُ اللهِ ـ أغـلى وأغْلَـبُ
/ فـلا مركـبٌ إلاَّ يُزيِّـنُ راكبـاً　　　ولا راكـبٌ إلاَّ بـهِ ازْدانَ مَرْكـبُ [232ا]
ولا رُمْـحَ إلاَّ وَهْـوَ أهيفُ خاطـرٌ　　　ولا سَـيْفَ إلاَّ وهـو أبـيضُ مِقْـضَبُ
فِـن كاتـبٍ خِطِّيِّـهُ أدَواتـهُ　　　ولم يقْـرَ خطّـاً، لا ولا هـوَ يَكْتُـبُ
يَمُـرُّ على الأبطـال وَهْـوَ كأنَّـهُ　　　هِزَبْـرٌ وأبْطَـالُ الفـوارِسِ رَبْـرَبُ
ومِـن كاتـبٍ لا تُنكـرُ الطّعـنَ رُمْحُـهُ　　　خبـيرٌ بـأيّامِ الأعاريـبِ مُغـرَبُ
لهُ من عجيبِ السِّحر بالقول أضـرُبٌ　　　وفي هامَـةِ القَـرْمِ المُـضارِبِ مَـضْرِبُ
فها هُـوَ فـي الأقـوال واشٍ مُحبِّـرٌ　　　وهـا هُـوَ في الأقْيـالِ شـأوٌ مُجـرَّبُ
ومِن ساحبٍ بُرْداً من العِلْمِ والتُّقـى　　　عليـهِ ذيـول الداوديَّـةِ تُـسْحَبُ
لـه صِبغـةٌ فـي العِلْـمِ جاءتْ بأصْبَـغٍ　　　وشُـهْبانُ فَهْـمٍ لم يـشِمْهُنَّ أشْـهَبُ
فيا عَسْكَـراً قـد ضمَّ أعلامَ عالـمٍ　　　بـه طـابَ في الدُّنيـا لنـا مُتَقَلَّـبُ
هُـمُ الفِئـةُ العَليـاءُ والمعشـرُ الـذي　　　إذا حَـلَّ شِـعْباً فهـو للحَـقِّ مَـشْعَبُ
لكَ الفضلُ في الدُّنيا على كلّ قاطـنٍ　　　ومُرْتَحِـلٍ أنَّى يجـيءُ ويَـذْهَبُ
ويـا مَلِكـاً عـدلاً رِضـىً مُتورِّعـاً　　　مناقِبُـهُ العَلْيـاء تُـتْلَى وتُكْتَـبُ
شرعْـتَ مـن الإحسـانِ فينا شريعـةً　　　تَـساوى بهـا نـاءٍ ومَـنْ يَتَقَـرَّبُ
وأَسْمَيْـتَ أهـلَ النُّسْكِ إذ كنْـتَ منهـمُ　　　فمِنْـكَ أخـو التَّقْـوى قريـبٌ مُقَـرَّبُ
وأعْلَيْـتَ قَـدْرَ العِلْمِ إذ كنْـتَ عالمـاً　　　فقيهـاً وفي طلاَّبِـهِ لكَ مَـأرَبُ
فَمدحُـكَ مَختـومٌ علـى كُـلّ قائـلٍ　　　ومَـنْ ذا الذي يُحْصِي الرِّمالَ ويَحْسِبُ

فللّهِ كمْ تُعْطي وتُمْطِي وتجتَبي ... فللبَحْرِ من كفَّيْكَ قد صحَّ منْسَبُ
فلا بَرِحَتْ كفَّاكَ في الأرضِ مُزْنَةً ... يَطيبُ بها للخلْقِ مَرْعىً ومَشْرَبُ
ولا زِلْتَ في عَلْياءِ مَجْدِكَ راقِياً ... وشانِئُكَ المدْحُوضُ يُنكا ويُنْكَبُ
تُوافي على أقصى أمانِيكَ آمِناً ... فلا هي تَسْتَعْصي ولا تَتَصَعَّبُ[أ]

[232 ب] / الخَبَرُ عن واقعة العَرَب مع السُّلطان بالقَيْرَوان، وما تخلَّلَها من الأحْداث

كان هؤلاء الكُعُوب من بَني سُلَيْم رؤساء البَدْوِ بإفْرِيقِيَّة، وكان لهم اعتزازٌ على الدَّوْلَة لا يعرفون غيره مذ أوَّلها؛ بل وما قبله، إذ كان سُلَيْم هؤلاء مذ تغلَّبَ العَرَبُ من مُضَر على الدُّول والممالك أوَّلَ الإسلام انتبذوا إلى الضَّواحي والقِفار، وأعطوا صَدقاتِهم عن عزَّة، وارتاب الخُلَفاء بهم لذلك؛ حتّى لقد أوْصى المنصور ابنَه المهديّ أنْ لا يستعين بأحدٍ منهم، كما ذكَر الطَّبريّ[1].

فلمّا الْتاثتِ الدَّولَةُ العبّاسيّة، واستبدَّ الموالي من العَجم عليهم، اعتزَّ بنو سُلَيْم هؤلاء بالقَفْر من أرض نجد وأجلبوا على الحاجّ بالحَرَمَيْن، ونالتهم منهم معرّات.

ولمَّا انقسم مُلْكُ الإسلام بين العبّاسيّة والشِّيْعَة، واختطُّوا القاهرة، نفقت لهم

(أ) في ظ، ص: فلا من يستعصي ولا يتعصب، وفي ض: فلا بر يستعصي ....، والمثبت من أ.

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك 8: 104، ووصيّةُ المنصور لابنه المهديّ كانت عند عزمه الحجّ سنة 158هـ وهي السنة التي توفي فيها. وانظر: الذهب المسبوك للمقريزيّ 38

ـ إذ ذاك ـ أسواقُ الفِتْنَة والتّعزّز، وساموا الدَّوْلتَين بالهضيمة وقَطْعِ السَّابِلَة.

ثمَّ أغزاهم العُبَيْدِيُّون بالمَغرب، وأجازوا إلى بَرْقَة على إثر الهِلاليِّين، فخرَّبوا عُمْرانها، وأجروا في خلائها. حتّى إذا خرج ابنُ غَانِيَةَ على المُوَحِّدِين، وانتزى بالثُّغور الشَّرْقيَّة: طَرابُلُس وقَابِس واجتمع معه على ذلك قَراقش الغُزّيّ[(أ)] مَوْلى بَني أيُّوب مُلُوك مِصْر والشَّام، وانضاف إليهم أفاريق العَرَب من بَني سُلَيْم هؤلاء، [وبَني هِلال][(ب)] وغيرهم، فأجلبوا معهم على الضَّواحي[(ج)] والأمصار، وصاروا في جُمْلتهم، ومن ناعق فتنتهم.

ولمَّا هلكَ قَراقش وابنُ غَانِيَة، واستبدَّ آل أبي حَفْص بإفْرِيقِيَّة، واعتزَّ الدَّوَاوِدَة على الأمير أبي زَكَرِيَّاء يَحْيَى بن عَبْد الوَاحِد بن أبي حَفْص، استظهر عليهم ببَني سُلَيْم هؤلاء، وزاحمهم بظَواعنِهم، وأقْطعهم بإفْرِيقِيَّة، ونقلَهم من مَجالاتهم / [233أ] بطَرابُلُس[(د)] وأنزلهم بالقَيْرَوان، فكان لهم من الدَّوْلَة مكانٌ وعليها اعتزاز.

ولمَّا افترق سُلْطان بَني أبي حَفْص، واستبدَّ الكُعُوب برياسةِ البَدْوِ، ضربوا بين أغْياصِها، وسَعَوْا في شِقاقها، وأصابت منهم وأصابوا منها.

وكان بين مَوْلانا الأمير أبي يَحْيَى وبين حَمْزَة بن عُمَر أخو الأمير منازعةٌ وفِتَن، وحربٌ[(هـ)] سِجال أعانه عليها ما كان من زَحْف بَني عَبْد الوَاد إلى إفْرِيقِيَّة،

(أ) ظ: القري، أ، ص: العزي، ونسبته إلى الغز. (ب) ما بين الحاصرتين من مخرج في أ ولعله بخطّه. (ج) ظ: النواحي (د) ظ، ص، ض: بأطرابلس، وأبقينا على الرسم الذي يتكرر في الكتاب (هـ) أ: وحروب

وطَمَعهم في تملّك ثغورها، فكان يستجرُ جيوشهم لذلك، وينصِبُ الأعياصَ من بَني أبي حَفْص يزاحم بهم، ثمَّ غلبهُ مَوْلانا السُّلْطانُ أبو بكر آخراً، وقادَه إلى الطَّاعَة ما كان من قَطْع كلمة الزَّبُون عن مَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى، وهلاكِ عَدُوّه من آل يَغْمَراسَن، بسَيْف وليّهِ وظَهيره السُّلْطان أبي الحسن، فأذْعن وسَكَن غَرْبُ اعتزازه. وحمل بَني سُلَيْم على إعطاء صَدقاتِهم، فأعطوها بإكراهِهِ. ثمَّ هَلَكَ باغتيال الدَّوْلَة له، فيما يزعمون، وقام بالأمر بنوه، فلم يعرفوا عواقبَ الأمور، ولا بلوا باعتساف الدُّول، ولم يعهدوا ولا سَمعوا لسَلَفهم غير الاعتزاز؛ فحدَّثتهم أنفُسُهم بالفِتْنَة والاعتزاز على قائد الدَّوْلَة، وحاربوه، فغلَبوه، وأجْلبوا على السُّلْطان في مُلكِه، ونازَلوه بعُقْر دارِه سنةَ ثنتَين وأربعين.

ولمَّا سامَهم الأميرُ عُمَر ابنُ مَوْلانا الأمير أبي يَحْيَى الهضيمةَ بعد مَهْلِك أبيه، نزعوا إلى أخيه وليّ العَهْد، فجاءَ إلى تُونِس ومَلَكها سَبْعاً. ثمَّ اقْتحم عليه أخوه الأميرُ أبو حَفْص فقَتَله. وتقبَّض يومَ اقتحامِه البَلَدَ على أبي الهول بن حَمْزَة أخيهم، فقتلَه صَبْرًا[1] بباب دارِه بالقَصَبة، فأسفَهُم بها. ونزعوا إلى السُّلْطان أبي الحسن ورغَّبوه في ملك إفْرِيقِيَّة، واستغذُّوه إليها[2].

[233 ب] ولمَّا تغلَّب السُّلْطانُ على الوَطَن، وكانت / حالُه في الاعتزاز[أ] على مَن في

(أ) ظ: الاعترار

(1) قتل الصَّبْر: أن يحبس كل ذي روح حيّاً ويرمى بشيء حتى يموت. لسان العرب، مادة: صبر
(2) الزركشيّ: تاريخ الدولتين 81

طاعته [من العرب][أ] غير حال المُوَحِّدِين، وملكته للبَدْوِ غير ملكتهم، وحين رأى اعتزازَهم على الدَّوْلَة، وكثرةَ ما أقطعتهم من الضَّواحي، ثمّ من الأمصار؛ نَكِرَه، وأدالهم من الأمصار التي أقطعهم المُوَحِّدُون[ب] بأُعطياتٍ فَرَضها لهم في الدّيوان. واستكثر جِبايتهم، فنقّصهم الكثير منها، وشكى إليه الرَّعِيَّة من البَدْوِ ما ينالونهم[ج] به من الظّلامات والجَوْر بفَرْض الإتَاوَة التي يسمُّونها الخِفَارة، فقبض أيديَهم عنها، وأوْعَز إلى الرَّعَايَا بمنعهم منها، فارتابوا بذلك، وفسدت نيّاتهم، وثقُلت وطأةُ الدَّولَة عليهم؛ فتَرَصَّدوا لها. وتسامَع ذؤبانهم وبواديهم بذلك، فأغاروا على قياطن بَني مَرِين ومَسالحهم[د] بثغور إفْرِيقِيَّة وفُروجها، واستاقوا أموالهم [ورَواحل[هـ] السُّلْطان من مَراعيها][و]، وكثر شاكيهم، وأظلم الجوُّ بينهم وبين السُّلْطان والدَّوْلَة، ووفد عليه بتُونِس - بعد مَرْجعه من المَهْدِيَّة - وفدٌ من مَشيختهم كان فيهم: خالد بن حَمْزَة مستحثّه[ز] إلى إفْرِيقِيَّة، وأخوه أحمد، وخليفة ابن عَبْد الله بن مَسْكين، وابن عمّه خليفة بن بُو زيد من أولاد القَوْس، فأنزلهم السُّلْطان وكرَّمهم.

ثمّ رفع إليه الأميرُ عَبْد الوَاحِد ابن السُّلْطان أبي يَحْيَى زَكَرِيّاء بن اللّحْيانيّ كان في جُمْلته، وكان من خبره: أنّه رجع من المشرق بعد مَهْلِك أبيه بمِصْر - كما قدّمناه - سنةَ

(أ) ما بين الحاصرتين من مخرج في أ، ض بخط ابن خلدون (ب) ظ، ص: الموحدين (ج) ظ، ص: ينالوهم (د) ظ: ومشايخهم
(هـ) أ: ومراحل (و) ما بين الحاصرتين من مخرج في أ، ض بخط ابن خلدون (ز) ظ: مشيخته

ثنتين وثلاثين، فدعا لنفسه بجهاتِ طَرابُلُس، وتابعه أعرابُ دَبَّاب، وبايع له عَبْد المَلِك بن مكّي صاحبُ قَابِس. ونهضَ معه إلى تُونِس في غَيْبة السُّلْطان لتخريب تمزَيزْدَكْت[أ]، كما ذكَرْناهُ، فملكها أيَّاماً. وأحسَّ[ب] بمَرْجِع السُّلْطان، فأجفل عنها. ولَحِق عَبْد الوَاحِد بن اللِّحْيانيّ بتِلِمْسان إلى أنْ دَلَفَ إليها السُّلْطان أبو الحسن بعساكره، ففارقهم وخرج إليه، فأحلَّهُ محلّ التَّكْرمةِ والمَبَرَّةِ، واستقرَّ في جُملته إلى أنْ ملك تُونِس. ورفع إليه / عند مقدَم هذا الوفدِ أنَّهم دسُّوا إليه مع بعضِ حَشَمِهِم، وطلبوه في الخروج معهم لينصبوه للأمر بإفْرِيقِيَّة، وتبرَّأ إلى السُّلْطان من ذلك، فأُحْضِروا بالقَصْر، ووبَّخهم الحاجبُ عَلَّال بن مُحَمَّد بن أمضيُود، وأمر بهم، فسُحبوا إلى السِّجن. [234 أ]

وفتح السُّلْطان ديوانَ العطاء، وعَسْكَر بسَيْجُوم من ساحة البَلَد بعد قضائه مَنْسَك الفِطْر من سَنَتِه. وبعث في المساح[ج] والعَسَاكر، فتوافَوْا ببابه.

واتَّصل الخَبَرُ بأولاد أبي اللَّيْل، وأولاد القَوْس باعتقال وَفْدِهم وعَسْكَرةِ السُّلْطان لهم؛ فضاقت عليهم الأرْضُ بما رَحُبت، وتعاقَدوا على الموت، وبعثوا إلى أقتالهم أولادِ مُهَلْهِل بن قاسم بن أحمد. وكانوا بعد مَهْلِك سُلْطانهم أبي حَفْص قد لحقوا بالقَفْر، وانتبذوا عن إفْرِيقِيَّة فراراً من مطالبة السُّلْطان، بما كانوا شيعةً لعدوّه، فأغَذَّ السَّيْرَ إليهم أبو اللَّيْل بن حَمْزَة مُتطارحاً عليهم بنفسه في الاجتماع للخُروج على السُّلْطان، فأجابوه وارْتحلوا معه. وتوافت أحياءُ بَني كعب وحكيم جميعاً بتَوْزَر من بلاد

(أ) أ: تمززذكت (ب) أ: وأحسُّوا، ص: وأحسف (ج) ظ: المشائخ

الجَرِيد، فهدروا الدّماءَ بينهم، وتَذَامَرُوا وتبايعوا على الموت، والتمَسُوا من أعْياص الملك مَن ينصبونه للأمر، فدلَّهم بعضُ سَماسرة الفِتَن على رَجُلٍ من أعقاب أبي دَبُّوس فريسةِ بَني مَرِين من خُلَفاءِ[أ] بَني عَبْد المُؤمن بمَرَّاكُش، عندما استولوا عليها. وكان من خَبَرِه: أنَّ أباهُ عُثْمان بنَ إدْرِيس بن أبي دَبُّوس لحق بعدَ مَهْلِك أبيه بالأنْدَلُس، وصحبَ هُنالِك مَرْغَم[ب] بن صابر شيخ دَبّاب[ج]، وهو أسيرٌ ببَرْشَلونَة، فلمَّا انطلق من أسْرِه صَحِبه إلى وطن دَبّاب، بعد أنْ عقد قُمْط[1] بَرْشَلونَة بينهما حِلفاً وأمدّهما بأُسْطُولٍ على مالٍ الْتزماهُ له. ونزل بضَواحي طَرابُلُس وجبال البَرْبَر بها، ودعا لنفسه هُنالِك. وقام بدعوته كافَّةُ العَرَب من دَبّاب. وقاتل طَرابُلُس، فامتنعتْ عليه. ثمَّ تابعَه أحمد بن أبي اللَّيْل شيخُ الكُعُوب بإفْرِيقِيَّة، وأجلَب به على تُونِس، فلم يتمّ أمرُه؛ لرسُوخ دعوة الحَفْصيِّين بإفْرِيقِيَّة، وانقطاعِ أمرِ بَني عَبْد المُؤمن منها وآثارهم / [234 ب] منذ الأحوال العَديدة والآماد المتقادمة، فنُسي أمرُهم.

وهَلَك عُثْمان بنُ إدْرِيس هذا بجَرْبَة، ثمَّ ابنه عبد السَّلام بعده، وترك من الوَلَد ثلاثة؛ أصغرُهم أحمد، وكان صَنَاعَ اليدين[2]. ولَحِقوا بتُونِس بعدما طوَّحت

(أ) أ: حلفاء. (ب) أ: عمر، ص: مزغم، وقد تقدم ذكره عند الكلام على قومه دباب في الجزء الحادي عشر (الورقة 65ب)، وهم من الجواري (بنو حميد بن جارية) أحد بطون دباب، ومواطنهم في طرابلس ونواحيها، وكانت رئاسة الجواري - لعهد ابن خلدون - في بني مرغم بن صابر بن عسكر بن حميد (ج) ص: بني دباب، ومثله في ض ثم شطبت

---

(1) تقدّم التّعريف به.

(2) صَنَاع اليدين: ماهر في الصنعة، حاذق

بهم طَوائحُ الاغتراب، وظنّوا أنْ قد تُنوسي شأنُ أبيهم، فتقبّض عليهم مَوْلانا السُّلْطان أبو يَحْيَى، وأودعهم السّجن إلى أنْ غرَّبهم إلى الإسْكَنْدريّة سنة أربعٍ وأربعين.

ورجع أحمدُ منهم إلى إفْرِيقِيّة، واحتلَّ بتَوْزَر مُحْترفاً بالخياطة[1]؛ يتعيَّش منها، فاستدعاه بَنو كعب هؤلاءِ حين اتّفقت أهواؤهم ومَن اتّبعهم من أحلافهم أولاد القَوْس، وسائر شعوب عَلاّق. وخرج إليهم من تَوْزَر؛ فنصبوه للأمر، وجمعوا له شيئاً من الفَساطيط والآلة والكُسى الفاخرة والمُقْرَبات، وأقاموا له رَسْمَ السُّلْطان، وعَسْكَروا عليه بحِلَلهِمْ وقياطينهم، وارتحلوا لمناجزة السُّلْطان.

ولمّا قضى مَنْسَك الأضْحَى من سنة ثمانٍ وأربعين، ارتحل[أ] من ساحة تُونِس يُريدهم، فوافاهم في القَرْج ما بين بَسيط[ب] تُونِس وبَسيط[ج] القَيْرَوان المسمَّى بالثَّنِيَّة، فأجفلوا أمامه، وصَدَقوه القتال منهزمين، وهو في اتّباعهم، إلى أنْ احتلَّ بالقَيْرَوان، ورأوا أنْ لا ملجأ منه، فتذامَرُوا واتّفقوا على الاستماتة، ودسّ إليهم من عَسْكَر السُّلْطان بَنو عَبْد الوَاد ومَغْرَاوَةُ وبنو تُوجّينْ مُغَلِّبُو بَني مَرِين؛ وعَدُوهم بالمناجزةِ صبيحةَ يومهم ليتحيَّزوا إليهم براياتهم، فصبّحوا معَسْكَرَ السُّلْطان. وركب إليهم في الآلة والتَّعْبِئَة؛ فاختلَّ المصاف، وتحيَّزَ إليهم الكثير[د].

(أ) أ: وارتحل (ب) ظ: بسط (ج) ظ: بسط (د) ظ: الكثر

(1) الزركشيّ: تاريخ الدولتين 84

ولجأ السُّلْطانُ إلى القَيْرَوان، فدَخَلها في الفلّ من عَساكِره ثامَن المُحرَّم فاتحَ تسعٍ وأربعين، وتدافعتْ سَاقاتُ العَرَب في أثره، وتَسابقوا إلى المَعْسْكَر، فانتهبوه، ودَخلوا فُسْطَاط السُّلْطان، فاستولوا على ذَخيرته والكثيرِ من حُرَمه. وأحاطوا بالقَيْرَوان، وأحدقت حِلَلهم بها سِياجاً، وتعاوَتْ ذئابُهم بأطرافِ البِقاع، وأجْلَبَ ناعِقُ الفِتْنَة من كلِّ مكان.

[1235] وبلغَ الخَبَرُ إلى تُونِس،/ فاسْتَحْصَن بالقَصَبة أولياءُ السُّلْطان وحُرَمُه، ونزع ابنُ تَافْرَاكِين من جملة السُّلْطان بالقَيْرَوان إليهم، فعقدوا له على حِجابة سُلْطانهم أحمد بن أبي دَبُّوس، ودفعوه إلى مُحاربة مَن كان بقَصَبة تُونِس؛ فأغذَّ إليها السَّيْرَ. واجتمع إليه أشياعُ المُوَحِّدِين وزعانفُ الغَوْغاء والجُنْد، وأحاطوا بالقَصَبة، وغاداها بالقِتال، ونَصَب المنجنيقَ لحصارها. ووصل سُلْطانهُ أحمد على أثره، فامتنعتْ عليهم، ولم يُغنُوا فيها غَناءً، وافترق أمرُ الكُعُوب، وخالف بعضُهم بعضاً إلى السُّلْطان، وتَساقَطوا إليه، فتنفَّس مُختَنَقُ الحصار عن القَيْرَوان.

واختلفت إليه رُسُل أولادِ مُهَلْهِل، وأحسَّ بهم أولادُ أبي اللَّيْل. فدخل أبو اللَّيْل ابنُ حَمْزَة بنفسِه، وعاهَدَ السُّلْطانَ على الإفراج، ولم يفُوا بعَهْده. وداخَلَ السُّلْطانُ أولادَ مُهَلْهِل في الخروج معهم إلى سُوْسَةَ[1]، فعاهَدوه على ذلك. وواعَدَ أُسْطُولَه

---

(1) سوسة Sousse: عاصمة الساحل التونسي، جنوب تونس على البحر. كان لها شأنٌ في العصور الكلاسيكية ثم أصبحت ثغر القيروان، وأحاطها الأمراء الأغالبة بأسوارها المنيعة، واشتهرت برباطها (206هـ) وجامعها الفريد الطراز (236هـ) وقصبتها. أحسن التقاسيم 226، رحلة التجاني 25-56، مسالك البكري 2: 688، ابن بطوطة 1: 169.

بمَرْساها، وخرج معهم ليلاً على تعبئته، فلَحِق بسُوْسَةَ.

وبلغَ الخَبَرُ إلى ابن تَافْرَاكِين بمكانِه من حِصار القَصَبة، فركبَ السَّفِين[أ] ليلاً إلى الإسكَنْدَرِيَّة. وارْتاب سُلْطانُهم ابنُ أبي دَبُّوس لَمَّا وقَفَ على خَبَرِه، فانفضَّ جمعُهم، وأفرجوا عن القَصَبة[1].

وركب السُّلْطانُ أُسْطُوله من سُوْسَةَ، ونزل بتُونِس آخِرَ جُمَادَى، واعْتَمل في إصْلاح أسْوارها وإدَارَةِ الخندق عليها. وأقام لها من الامتناع والتَّحصين رَسْماً ثبتَ لها من بعده، ودفع به في نَحْر عَدُوِّه. واستقلّ من نَكْبَة القَيْرَوان وعثرتها، وخلص من هوّتها. والله يفعل ما يشاء.

ولحق أولادُ أبي اللَّيْل، وسُلْطانُهم أحمد بن أبي دَبُّوس بتُونِس، فأحاطوا بالسُّلْطان واستبلغوا في حِصارِه. وخلُصت ولايةُ [أولادِ][ب] مُهَلْهِل للسُّلْطان[ج]، فعوَّل عليهم، ثمَّ راجع بنو حَمْزَة رأيَهم في طاعةِ السُّلْطان، فدخَلَ كبيرُهم عُمَر إليه في شَعْبان، وتقبَّضُوا على سُلْطانهم أحمد بنِ أبي دَبُّوس، وقادُوه إلى السُّلْطان اسْتبلاغاً في الطَّاعَةِ، وإمْحاضاً للولايةِ؛ فتقبَّل فيئتَهم، وأوْدع ابن أبي دَبُّوس السِّجن، وأصْهر إلى عُمَر بابنِه أبي الفَضْل، فعَقَد له على بنته. واختلفت أحوالهم في الطَّاعَة والانحراف، إلى أنْ كان ما / نذكر، والله غالبٌ على أمره. [235 ب]

(أ) ظ: السفن (ب) من مخرج في أ بخطه (ج) ظ: السلطان

---

(1) الزركشيّ: تاريخ الدولتين 85

الخَبَرُ عن انتقاض الثُّغور الغَربِيَّة [من إفْرِيقيَّة][أ]، ورجوعها إلى دَعْوة المُوَحِّدين

كان المولى الفَضْل ابنُ مَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى، لمَّا قدم على السُّلْطان أبي الحسن بتِلِمْسان في زفاف شِقَّته[1] سنةَ سبعٍ وأربعين، بعدما اتَّصل به في طَريقه مَهْلِكُ أبيه؛ أوْسع له السُّلْطان كنفَه، ومهَّد له جانبَ كرامته وبِرِّه، وغمز له بوَعْدٍ في المظاهرة على مُلْك أبيه يعزّي[ب] به عن فَقْده.

وارتحلَ السُّلْطانُ إلى إفْرِيقِيَّة، والمولى الفَضْل يُرجِّي أنْ يجعلَ سُلْطانها إليه، حتَّى إذا استولى السُّلْطانُ على الثَّغرين: بِجَايَة وقُسَنْطِينَة، وارتحل إلى تُونِس، عَقَد له على مكانِ إمارته أيَّامَ أبيه ببُونَة، وصرفه إليها؛ فانقطع أملُه، وفَسَد ضميرُه، وطوى إلى النَّثِّ، حتَّى إذا كانت نَكْبَةُ السُّلْطان على القَيْرَوان، سما إلى التوثّب على مُلْك سَلَفه.

وكان أهلُ قُسَنْطِينَة وبِجَايَة قد بَرِموا من الدَّوْلَة، واستثقلوا وَطأة الإيالة لِمَا اعتادوه من الملكة الرَّفيقة؛ فاشرأبُّوا إلى الثَّورَة عندما بلَغهم خبرُ النَّكْبَة.

وقد كان تَوافَى بقُسَنْطِينَة رِكابٌ من المَغْرب فيه طوائفُ من الوُفود والعَسَاكر، وكان فيهم ابنٌ صغيرٌ من أبناء السُّلْطان، عقد له على عَسْكَر من أهل المَغْرب،

(أ) من مخرج في أ بخطه (ب) ظ، أ، ض: تعزّي

(1) كذا يكتبها ابن خلدون حيثما ترد في كامل النص، ولم نجدها عند غيره بهذا الرسم

وأوْعَز إليه باللّحاق بتُونِس وفيهم عُمَّال المَغرب قَدِموا عند رأس الحَوْل بجِبايتهم وحُسْبانهم. وفيهم أيضاً وفدٌ من زعماءِ النَّصارَى، بعثهم الطَّاغِيَة ابنُ أَذْفُونْش مع تَاشِفِين ابن السُّلْطان لَمَّا أطلقه من الأسر، بعد عقد السِّلْم والمهادنةِ، وكان أسيراً عندهم من لَدُن واقعةِ طَرِيف، كما ذكَرْناه، وكان أصابهُ مَسٌّ من الجنون. فلمَّا خلصت الولايةُ بين السُّلْطان *والطَّاغِيَة، وعظم عنده الإتحاف والمهاداة، وبلَغه خبرُ السُّلْطان*[أ] وتملكه إفْرِيقِيَّة، أطلق ابنه تَاشِفِين. وبعث معه[ب] هؤلاءِ الزُّعماء للتَّهنئة، وفيهم أيضاً وفدٌ من أهل مَالِّي مُلُوك السُّودَان بالمَغرب؛ أوْفدهم ملكُهم مَنْسَا سُلَيمان للتَّهنئةِ بسُلْطان إفْرِيقِيَّة، وكان معهم / [236أ] أيضاً يوسُف بن مُزْني[1] عاملُ الزَّاب وأميرُه، قَدِم بجِبايةِ عَمَلِه. واتَّصل به خبرُ الرِّكاب بقُسَنْطِينَة؛ فلَحِق بهم، مُؤثراً صِحَابتَهم، إلى سدَّة السُّلْطان. وتوافَوْا هؤلاء الوفودُ جميعاً بقُسَنْطِينَة، واعْصَوْصَبُوا على وَلَد السُّلْطان. فلمَّا وصلَ خبرُ النَّكْبَة اشرأبَّ الغَوْغاء من أهل البَلَد إلى الثَّورَة، وتحلَّبت شِفاهُهم إلى ما بأيديهم من أموال الجباية وأحوال الثروة[ج]، فنقِموا عليهم سوءَ المَلَكَة، ودسَّ مشيختهم إلى المولى الفَضْل ابنِ مَوْلانا السُّلْطان أبي يَحْيَى بمكانه من بُونَة، وقد كَشَفَ القناعَ في الانتزاءِ على عَمَله والدُّعَاء لنفسه، فخطبوه للأمر واستحثّوه للقُدوم؛ فأغَذَّ السَّيْرَ.

وتسامَعَ بخبرِه أولياءُ السُّلْطان، فخشي ابنُ مُزْني على نفسه، وخرج إلى معَسْكَره

(أ) سقط ما بين النجمين من ص (ب) ظ: إليه (ج) ص: الثورة

---

(1) كذا ضبطه في أ بالضم: مُزني، وفي موضع آخر من ذات النسخة ضبطه بالفتح: مَزْني

بجِلّة يَعْقُوب بن عليّ أميرِ الدَّوَاوِدَة، ولجأ ابنُ السُّلْطان وأولياؤه إلى القَصَبة. ومَكَر بهم أهلُ البَلَد في الدّفاع دونهم، حتّى إذا أطلّتْ راياتُ المولى[أ] الفَضْل، وثبوا بهم، وأخجرُوهم[ب] بالقَصَبة، وأحاطوا بها حتّى اسْتنزلوهم على أمانٍ عَقَدوه لهم. ولحقوا بجِلّة يَعْقُوب، فعَسْكَروا بها بعد أنْ نقض أهلُ البَلَد عَهْدَهم في ذات يَدهم، فاسْتصفوه[ج]. وأشارَ عليهم ابنُ مُزْني باللّحاق ببَسْكَرَة[1] لتكونَ رِكابُهم إلى السُّلْطان، فارْتحلوا جميعاً في جِوار يَعْقُوب بما له من ملك الضَّواحي حتّى لحقوا ببَسْكَرَة، ونزلوا منها على ابن مُزْني خيرَ نُزُل، وكفاهم كلّ شيء يُهِمّهم على طَبقاتهم ومَقاماتهم، وعناية السُّلْطان بمن كان وافداً منهم، حتّى سار بهم يَعْقُوب بن عليّ إلى السُّلْطانِ، وأوْفدهم عليه في رجب من سَنَتِه.

واتّصلَ الخَبَرُ بأهل بِجَايَة بالفَعْلة التي فعل أهل قُسَنْطِينَة، فساجَلوهم في الثَّورَة. وكَبَسوا منازل أولياء السُّلْطان وعَسْكَره وعُمَّاله، فاسْتَباحوها، واسْتلبوهم، وأخرجوهم من بين ظَهرانيهم عُراةً، فلَحِقوا بالمَغْرب. وطيَّروا بالخبرِ إلى المولى[د] الفَضْل، واستحثّوه للقُدوم؛ فقَدِم عليهم. وعقدَ على قُسَنْطِينَة وبُونَة لمن اسْتكفى به من

(أ) طمست في أ (ب) ظ: وأجزوهم، ض: وأجحروهم (ج) ظ: فاستضعفوه (د) أ: السلطان، وطمست في ض

(1) بسكرة: مدينة قديمة بالجزائر، حولها حصون كثيرة وقرى عامرة، ويشق غابتها نهر كبير ينحدر من جبل أوراس فيسقي بساتينها ونخلها، ولكثرة نخلها سميت بسكرة النخيل، وهي اليوم ولاية تقع في الجهة الجنوبية الشرقية منها. البكري: المسالك 2: 713، ياقوت: معجم البلدان 1: 422، مجهول: الاستبصار 173، الوزان: وصف إفريقيا 2: 138، الحميري: الروض المعطار 113

خاصّته ورجالاتِ دَوْلته، واحتلّ بِجَايَة لشهر ربيعٍ من سَنَتِه. وأعاد ملك سلفِه. واستوثق أمرُه بهذه الثُّغور، إلى أن كان من خبره مع السُّلطان / - بعد خروجه من بجَايَة - ما نذكره. [236 ب]

الخَبَرُ عن انتزاء أولاد السُّلطان بالمَغْرِب الأوْسَط والأقصى، ثمّ استقلال أبي عِنَان بمُلْك المَغْرِب كلّه

لمّا اتّصل خَبَرُ النَّكْبَة على القَيْرَوان بالأمير أبي عِنَان ابن السُّلطان، وكان صاحبَ تِلِمْسان والمَغْرِب الأوْسَط. وتساقَطَ إليه الفلُّ من عَسْكَر أبيه عُزَاةً زَرافاتٍ ووُحداناً، وأرْجف النَّاس بهَلِك السُّلطان بالقَيْرَوان، فتطاولَ الأميرُ أبو عِنَان للاستئثار بسُلطان أبيه دون الأبناء، لما كان له من الإيثار عند أبيه، لصيانته(أ) وعفافه، واستظهاره القرآن، فكان يحلَى بعين(ب) أبيه لأمثالها.

وكان عُثْمان بن يَحْيَى بن جَرَّار(ج) من مَشيخة بَني عَبْد الواد وأولاد تيدُوكسن(د) ابن طاع الله منهم، وكان له محلٌّ من الدَّولَة، كما ذَكَرْناهُ في خبره. وكان السُّلطانُ أذِنَ له في الرُّجوع إلى المَغْرب؛ فرجع من معَسْكَره بالمَهْدِيَّة، ونزل بزاوية العُبَّاد[1]

(أ) أ: بصيانته (ب) ظ: بغير (ج) ظ: حران، ص: جران (د) ظ، ض: نيدوكسن، أ: يندوكسن، ومهمل أوله وثانيه نون في ص، والمثبت يوافق ما ورد في أوّل الجزء، وما سيأتي أيضاً فيما بعد

(1) ويُسمّى رباط العباد، وهي زاوية الشيخ شعيب بن الحسن الأندلسي أبي مدين الغوث، الذي توفي بتلمسان سنة 594هـ ومدفنه بمسجدٍ في مدينة العباد، يُنزل إليه بعد نزول سلّم من عدّة درجات. والعباد: مدينة صغيرة تقع على جبل على بعد نحو ميل من تلمسان. انظر: كتاب العبر 1: 570، الوزان: وصف إفريقيا 2: 24 و ما يزال قائماً إلى الآن، ويُعدُّ من أهم ما عمّره المرينيون بتلمسان، انظر عن تاريخه وأهميته العمرانية دراسة بوروبية: مساهمات الجزائر في الهندسة المعمارية العربية الإسلامية

من تِلِمسان، وكان مُسمتاً، وَقوراً، جُهَينَةَ [خبرٍ][أ] مُمْتِعاً في حديثه. وكان يرجم فيه الوقوفَ على الحدثان. وكان الأميرُ أبو عِنَان متشوّقاً إلى أخبار أبيه، ففزِعَ إلى عُثمان بن جَرَّار في تعرّفها، واستدعاه وأَنِسَ به، وكان في قَلْبه مَرَضٌ من السُّلْطان؛ فأوْدع أذنَ الأمير أبي عِنَان ما أراد من الألاقيّ بتورّط السُّلْطان في المهلكة، وبشَّره بمَصير الأمر إليه، فصادفَ منه أذناً واعيةً. واشتمل عليه ابنُ جَرَّار من بعدُ.

فلمَّا وردَ الخَبَرُ بنَكْبَة السُّلْطان، أغراه ابنُ جَرَّار بالتوثُّبِ على المُلْك، وسوّل له الاستئثار به عن إخوانه، يَقِيناً بَهَلِك السُّلْطان. ثمَّ أوهمهُ الصِّدق بإرجاف النَّاس بمَوْتةِ السُّلْطان، فاعتزم وشحذ عَزيمَته في ذلك ما اتّصل به عن حافِد السُّلْطان منصور ابن الأمير أبي مالك صاحب فاس وأعمال المَغربِ من الانتزاء على عَمله، وأنّه فتحَ ديوانَ العطاء، واسْتلحقَ واسْترْكبَ لغيبة بَني مَرِين عن بلادهم، وخَلاءِ جَوِّهِ / من عَساكرهم. وأظهر العَسْكَر والحشد لاسْتنقاذ السُّلْطان من هُوَّة القَيْروان، يُسِرُّ منها حَسْواً في ارْتِغاءٍ[1]. [237أ]

وتفطَّن لشأنه الحسنُ بن سُلَيمان بن يرزيكن، عامل القَصَبة بفَاس، وصاحب الشُّرطَة بالضَّواحي، فاستأذنه في اللّحاق بالسُّلْطان، فأذِن له راحةً من مَكانه.

(أ) ساقطة من ظ، وفي ص: خير

---

(1) مثلٌ يُضرب فيمَن يُظهر أمراً وهو يريد غيره، أو: يُظهر طلب القليل وهو يُسِرُّ أخذ الكثير.

وأصحبه عُمّالَ المَصَامِدَة ونَواحي مَرّاكُش ليستقدمَهم على السُّلْطان بجباياتهم، فلَحِقَ بالأمير أبي عِنَان على حين أمْضى عزيمَتَهُ على التوثُّب والدُّعَاء لنفسه، فقبض أموالهم، وأخرج ما كان بمودَع السُّلْطان بالمنصورة من المال والذَّخِيرَة، وجاهر بالدُّعَاء لنفسه، وجلَس للبَيْعة بمجلس السُّلْطان من قَصْره في ربيعٍ من سنة تسعٍ، فبايعه الملأُ، وقُرِئَ كتابُ بيْعتهم على الأشهاد، ثمَّ بايعه العامَّة، وانفضَّ المجلسُ، وقد انعقد سُلْطانهُ، ورَسَت قواعدُ مُلكِه، وركب في التَّعْبِئة والآلة، حتّى نزل بقُبَّة الملْعب، وطَعِم النَّاسُ وانتشَروا.

وعَقَد على وزاراته[أ] للحسن بن سُلَيمان بن يَرزيكن، ثمَّ لفارس بن ميمون ابن وَدْرَار وجعله رَديفاً له وتبعاً. ورفع مكان ابن جَرَّار عليهم. واختصَّ لولايته[ب] ومناجاة خَلْوتِه كاتبه أبا عَبْد الله *مُحَمَّد ابن القاضي عَبْد الله*[ج] بن أبي عمرو[د]، وسنذكر خبره.

ثمَّ فتح الدِّيوان، واسترْكب مَن تَساقَط إليه من فَلِّ أبيه، وخلعَ عليهم، ودفع إليهم أُعْطياتِهم، وأزاح عِلَلَهم. وبينما هو يريدُ الرِّحلةَ إلى المَغرب، إذ بَلَغه أنَّ وَنْزَمَار ابنَ [وليّ][هـ] السُّلْطان وخالصته[و] عريف بن يَحْيَى، وكان أميرَ زُغْبَة لعَهْده، ومقدَّماً على سائر البدور، وبلغه أنّه قد جَمع له يُريد حَرْبَه، وغلبه من على ما صارَ إليه من الانتزاء والثَّورَة على أبيه، وأنَّه قصد تِلِمْسان بجُموعِه العَرَب، وزَنَاتَة

(أ) كذا في الأصول كلها. (ب) ض، ص: بولايته (ج) سقط ما بين النجمين من أ، واستدركه ابن خلدون بخطّه في هامش ض
(د) ظ: عمر (هـ) ساقطة من ظ (و) ظ، ص: وخالصة

المَغرب الأوْسَط؛ فعَقد للحسن بن سُلَيمان وزيرِه على حَرْبه، وأعطاه الآلَةَ وسَرَّحَه لِلقائه، وسَرَّحَ معه مَن حَضَره من بَني عامر أقتالِ سُوَيْد. وارْتَحل الوَزير في عَسْكَره حتّى احتلَّ بتَاسَّالَةَ. وناجزهُ وَتَزْمارُ الحربَ، ففُلَّت جُموعُه، ومُنِحُوا أكتافهم، واتَّبع الوَزيرُ وعَسْكَرُهُ آثارَهم، واكتسحَ أموالَهم وحِلَلَهم، وعاد إلى سُلْطانه بالفَتْح والغنائم.

[237 ب] وارْتَحل الأميرُ أبو(أ) عِنَان إلى المَغرب، / وعقد على تِلِمْسان لعُثْمان بن جَرَّار، وأنزله بالقَصْر القديم منها، حتّى كان من أمره مع عُثْمان بن عبد الرَّحمن ما ذكرناهُ في أخبارهم.

ولمَّا انتهى إلى وادي الزَّيْتون، وُشِيَ إليه بالوَزير الحسن بن سُلَيمان أنَّه مُضمِرٌ الفَتْكَ به بتَازَى؛ تزلُّفاً إلى السُّلْطان ووفاءً بطاعته، وأنّه داخَلَ في ذلك الحافدَ منصور صاحبَ أعمال المَغرب، بما كان يُظهر من طاعةِ جَدّه. وارتاب الأميرُ أبو عِنَان به، واستَظهرَ واشيه على ذلك بكتابِه؛ فلمَّا قرأه تقبّض عليه، وقَتله بالمساءِ خَنْقاً، وأغَذَّ السَّيرَ إلى المَغرب.

وبلغ الخَبَرُ منصور بنَ أبي مالك صاحبَ فاس، فزحف لِلقائه. والْتقى الجمعانِ بساحة تازَى وبوادي أبي الأَجْراف(1)، فاختلَّ مَصافّ منصور، وانهزمتْ جُموعه،

(أ) ظ، ض: أبي

(1) وادي أبي الأجراف: ذكر مقديش جبلاً (وليس وادٍ) يُعرف بالأجراف، يقع بين بوزكور ومدينة بادس، وليس فيه مرسى. مقديش: نزهة الأنظار 1: 99

ولحقَ بفاس، وانْجَحر[أ] بالبَلَد الجَدِيد، وارْتحل الأميرُ أبو عِنَان في أثره، وتَساتَل النَّاسُ على طَبقاتهم إليه، وآتوه الطَّاعَة. وأناخ بعَساكِره على البَلَد الجَدِيد في ربيع الآخر من سنةِ تسعٍ وأربعين، وأخذ بمُخَنَّقِها، وجمع الأيدي والفَعَلة على الآلاتِ لحصارها.

ولحين نزوله على البَلَد الجَدِيد، أوْعز إلى الوالي بمِكْناسَة أنْ يُطلقَ أولادَ أبي العُلَى المعتقَلين بالقَصَبة؛ فأطْلَقهم، ولحقوا به، فأقاموا معه على حصارِ البَلَد الجَدِيد. وطال تمَرُّسه بها إلى أنْ ضاقت أحوالُهم واختلفتْ أهواؤهم، ونزع إليه أهلُ الشَّوكة منهم.

ونزع إليهم إدْرِيس بن عُثْمان بن أبي العُلَى فيمَن إليه من الحاشية بإذن [السُّلْطان][ب] له في ذلك سِرّاً ليمكُر بهم، فدسَّ إليه، وواعدهُ الثَّورَة بالبلد، فثار بها. واقْتحمها الأميرُ أبو عِنَان عليهم. ونزل منصور بنُ أبي مالك على حُكْمه، فاعتقله إلى أنْ قَتَله بمَحْبِسهِ[ج]، واستولى على دارِ المُلْك وسائر أعْمال المَغْرب.

وتسابقَتْ[د] إليه وفودُ الأمصار للتَّهنئة والبَيْعة. وتَمسَّك أهلُ سَبْتَة بطاعةِ السُّلْطان، والانقياد لعامِلِهم عَبْد الله بن عليّ بن سعيد من طَبقة الوزراء حيناً، ثمَّ توثَّبوا به، وعَقَدوا على أنفسهم للأمير أبي عِنَان، وقادوا عامِلَهم إليه. وتولَّى

(أ) ظ، ص: وانحجر (ب) ساقطة من ظ، وص، وفيها: بإذنه، وقد صوَّب ابن خلدون العبارة بخطِّه بإلحاق كلمة "السلطان" بهامش أ، ض (ج) ظ: بمجلسه (د) ظ: وتسابقت

[1238] كِبْرُ(أ) الثَّوْرَة فيهم زعيمُهم الشَّريف أبو العبَّاس أحمد بن مُحَمَّد/ بن رافع من بيت أبي الشَّرف من آل الحسين؛ كانوا انتقلوا إليها من صِقِلِّيَّة.

واسْتوسق للأمير أبي عِنَان مُلْك المَغْرب، واجتمع إليه قومُه من بَني مَرِين إلاَّ مَنْ أقام مع السُّلْطان بتُونِس وفاءً لحقِّه، وحصَّ جناح أبيه عن الكرَّة على الكُعُوب النَّاكثين لعَهْده، النَّاكبين عن طاعته، فأقام بتُونِس يُزجي الأيَّام، ويأمل الكرَّة، والأطرافُ تنتقضُ، والخوارجُ والثُّوَّار تتجدّد، إلى أنْ ارْتحل إلى المَغْرب بعد اليأس، كما نذكره.

الخَبَرُ عن انتقاض النَّواحي، وانتزاء بَني عَبْد الوَاد بتِلِمْسان، ومَغْرَاوَة بشَلَف، وتُوجِّين بالمَدِيَة

لـمَّا كانت نَكْبَةُ السُّلْطان بالقَيْرَوان، وانتثر سِلْكُ زَنَاتَة، وانتقضت قَواعدُ سُلْطانهم، اجتمع كلّ قومٍ منهم لإبرام أمْرِهم، والنَّظر في شأن جَماعتهم، وكانوا جميعاً نزعوا إلى الكُعُوب الخارجين على السُّلْطان، وبنُزوعهم تمَّت الدَّبَرة(ب) عليه. ولحقوا بتُونِس مع الحاجب أبي مُحَمَّد بن تَافْرَاكِين، ليلْحقوا منها بأعمالهم.

وكان في جُملةِ السُّلْطان جماعةٌ من أغياصهم، منهم: عُثْمان، وإخوتهُ: الزَّعِيم، ويوسُف، وإبراهيم، أبناءُ(ج) عبد الرَّحمن بن يَحْيَى بن يَغْمَرَاسَن بن زَيَّان سُلْطانِ

(أ) ظ، ص، ض: كبس (ب) ظ: المبرة، ص: الدائرة (ج) ظ، ص: وابنا

بَني عَبْد الوَاد. صاروا في إيالة السُلْطان منذ فَتْح تِلِمْسان، وأنزلَهم بالجزيرة للرِّباط. ثمَّ رجعوا بعد استئثارِ الطَّاغِيَة بها إلى مَكانِهم من دَوْلته، وساروا إلى القَيْرَوان تحتَ لِوائه. ومنهم: عليّ بنُ راشد بن مُحَمَّد بن ثابت بن مِنْدِيل، وقد ذكرنا أخبارَ أبيه؛ ربِي في إيالة السُلْطانِ وجوّ الدَّولَة يتيماً، وكَفَلَته نعمتُها منذ نشأته، حتَّى كأنه لا يعرف سِواها. فاجتمع بَنو عَبْد الوَاد بتُونِس، وعَقَدوا على أنفسهم لعُثْمان بن عبد الرَّحمن، بما كان كبيرَ إخوته. وأتوه ببَيْعتهم بشرقيّ المصلَّى العَتيق المطِلّ على سَيْجُوم من ساحةِ البَلَد لعَهْدي بهم يومئذٍ. وقد وضعوا له بالأرض دَرَقَةً من اللَّمْط[1] أجلَسوه عليها، ثم ازدحموا مُكبّين على يَدِه يقبّلونها للبَيْعةِ، ثمَّ اجتمع من بعدهم مَغْرَاوَةُ إلى عليّ بن راشد وبايعوه وحَفّوا[أ] به.

[238 ب] وتعاهَدَ بَنو عَبْد الوَاد ومَغْرَاوَة على الأُلفةِ، وانتظام الكلمة، وهَدْر الدِّماء. / وارتحلوا إلى أعمالهم بالمَغْرب الأوْسَط، فنزل عليّ بنُ راشد وقومُه بمَوْضع عَمَلهم من ضَواحي شَلَف، وتغلَّبوا على أمْصارِه. وافتتحوا تَنَس، وأخرجوا منها أولياءَ السُلْطانِ وعَسْكَره، وقتلوا القاضي بمَازُوْنَة سَرْحانَ، كان مقيماً لدَعْوة السُلْطان بها، ثمَّ سوَّلت له نفسه الانتزاءَ والتوثّب؛ فدعا لنفسه. وقتَلَه عليّ بن راشد وقومُه.

(أ) ص: وخصوا

(1) تقدم التعريف به.

وأجاز عُثْمان بن عبد الرَّحمن وقومُه من بَني عَبْد الوَاد إلى محلّ مُلكِهم بتِلِمْسان، فألْفَوْا عُثْمان بن جَرَّار قد انتزى بها بعدَ مُنْصَرَف الأمير أبي عِنَان ودعا لنفسِه، فتجهَّم له النَّاسُ لتوثُّبه على المنصب الذي ليس لأبيه، واسْتَمْسك بالبَلَدِ أيَّاماً يؤمِّل نزوعَ قومِه إليه.

ثمَّ زحف إليه بَنو عَبْد الوَاد وسُلْطانُهم، فصَدَقوه الزَّحْفَ، وثارَتْ به الغَوْغاء، وكَسروا أبوابَ البَلَد، وخرجوا إلى السُّلْطان، فأدْخلوه إلى القَصْر، واحتلّ به في جُمَادَى من سنةِ تِسْعٍ.

وتَسابَق النَّاسُ إلى مَجْلسه مَثنى وفُرادَى، وبايَعوه البَيْعةَ العامَّة، وتُفُقِّدَ ابنُ جَرَّار. ثمَّ أغرى[أ] به البحث، فعُثر عليه ببعض زوايا القَصْر، واحتُمِل إلى المُطْبَق فأُوْدِعَ به إلى أنْ سُرِّبَ إليه الماء، فماتَ غريقاً في هُوَّته.

وساهَمَ السُّلْطانُ أبو سعيد عُثْمان أخاه أبا ثابت الزَّعِيمَ في سُلْطانِه، وشَرِكَهُ في أمْرِه، وأرْدفه في مُلكه، وجَعَل إليه أمرَ الحَرْبِ[ب] والضَّواحي والبَدْوِ كلِّها. واستَوْزَر قريبَه يَحْيَى بنَ داود بن مَكَن، من وَلَد مُحَمَّد بن تيدُوكسن[ج] بن طاع الله، واستوسَقَ مُلكُهم.

وأوْفدوا مَشيختَهم على الأمير أبي عِنَان صاحبِ المَغْرب، وسُلْطانِ بَني مَرِين، فعَقدوا معه السِّلْمَ والمهادنةَ، واشترطوا له على أنفسِهم دِفاعَ السُّلْطانِ أبيه عن

(أ) ص: أعرى (ب) ص: الحرث، ولا وجه له (ج) في أ مضبوطاً: يَتْدُوكْسن، ومثله في ض دون ضبط، ومهملة في ص

الخلوص إليه. وزحفوا إلى وَهْرَان من ثُغور أعمالهم، ونازلوا بها أولياء السُّلْطان وعَساكره، وعاملُها يومئذٍ عَبُّو بن أجَانَا من صَنائع السُّلْطانِ أبي الحسن، إلى أنْ غلبوهُ عليها، واستنزلوه صُلْحاً لأشهرٍ من حِصارها.

واستمسك أهلُ الجَزَائِر بطاعةِ السُّلْطانِ واعْتَصَموا بها. وعقد عليها لقائده حَمُّو بن يَحْيَى العَسْرِيّ(أ) من صَنائع أبيه، بعثَه إليهم من تُونِس بعد نَكْبَة القَيْرَوان.

[239 أ] ونَجَم بالمَدِيَّة عديّ بنُ يوسُف / بن زَيَّان بن مُحَمَّد بن عَبْد القويّ داعياً لنفسه، وطالباً سُلْطانَ سَلَفِه. وامْتنع عليه معقلُ مُلكهم بجبل وَانْشَرِيس؛ لمكان وَلَدِ(ب) عُمَر بن عُثْمان وقَوْمِهم بَني تيغَرين في رياسته، وانْحاشَ إليه أولادُ عزيز، من بَني تُوجِّينْ، أهلِ ضاحية المَدِيَّة، فقاموا بأمره، واعْصَوْصَبُوا عليه. وكانت بينه وبين أبناء عُمَر بن عُثْمان بوَانْشَرِيس حربٌ سِجالٌ إلى أنْ هَلَك، وخَلُص أمرُ بَني تُوجِّينْ لأبناء عُمَر بن عُثْمان، وهم على مَذهبهم من طاعةِ السُّلْطانِ والتمسّك بدَعْوته، وهو مُقيمٌ - خلالَ هذا كلّه - بتُونِس، إلى أنْ أزْمَعَ الرِّحلةَ، واحتلّ بالجَزَائِر، كما نذكره.

(أ) في الأصول الأربعة: محمد بن يحيى العسري، وكتب ابن خلدون بخطّه في هامش ض، أ: حمّو بن يحيى العسري، وقد تقدم ذكره في موضعين بهذا الرسم (ب) ظ، ص: ولده

الخَبَرُ عن رُجوعِ أُمراءِ الثُّغورِ الغَربيّةِ من المُوَحّدين إلى ثُغورِهم بِبِجَايَة وقُسَنْطِينَة

لمَّا توثَّبَ الأميرُ أبو عِنَان على مُلْك أبيه، وبُويع بتِلِمْسان، وكانت للأمير[أ] أبي عَبْد الله مُحَمَّد ابنِ الأمير أبي زَكَرِيَّاء صاحبِ بِجَايَة لديه خُلَّةٌ ومصافاةٌ، من لَدُن بَعَثَه إليه السُّلْطان أبوه من بِجَايَة، وأنزله بتِلِمْسان، فرعى له السَّابقةَ[ب]، وآثره بالإمارة، وعقَد له على محلّ إمارته من بِجَايَةَ، وأمدَّهُ بما رَضِيه من المال والسِّلاح. ودفعه إليها؛ ليكونَ حجزاً[ج] دونَ السُّلْطان بتُونِس. وضمن له هذا الأمر[د] صدّهُ عن الخلوص إليه وسدّ المذاهب دونه.

وأوْعَز أبو عِنَان إلى أساطيلِه بوَهْرَان؛ فرَكِبها الأميرُ إلى تَدَلَّس ودَخلها. ونزع إليه صِنْهَاجَة أهلِ ضاحية بِجَايَةَ، عن عَمِّه الأمير[هـ] أبي العبَّاس الفَضْل، واغْصَوْصَبُوا عليه، وقاموا بأمْرِه؛ لقَديمِ نِعْمته[و] وسالِف إمارة أبيه.

ولَمَّا ارتَحل الأميرُ أبو عِنَان إلى المَغْرب، رَحَل في جُمْلته الأميرُ[ز] أبو زيد عبد الرَّحمن ابنُ الأميرِ[ح] أبي عَبْد الله مُحمَّد صاحب قُسَنْطِينَة، ومعه إخوتُه، فاختصّهم - يومئذٍ - بتَقْرِيبه، وخَلَطهم بنفسه. فلمَّا غلب الأميرُ أبو عِنَان منصورَ ابنَ أخيه أبي مالك على البَلَد الجَدِيد، واستولى على المَغْرب، رأى أنْ يبعثَ مُلُوك المُوَحّدِين إلى

(أ) ص: للمولى الأمير، ومثله في ض ثم طمست، ومكانها في الأصل ظ بياض (ب) ظ: المسابقة (ج) ظ، ص، ض: حجراً (د) أ: الأمير (هـ) ص: المولى (و) أ: نعمه (ز) ص: المولى (ح) ص: مولانا الأمير، ومثله في ض ثم طمست، وساقطة من أ، ومكانها بياض في ظ

[239 ب] بلادهم، ويدفعَ في صَدْرِ / أبيه بمكانهم؛ فَسَرَّحَ الأميرُ(أ) أبا زيد وجميعَ(ب) إخوته، وكان منهم السُّلْطانُ(ج) أبو العبَّاس الذي جَبَرَ الله به الصَّدْعَ، ونَظَم الشَّمْلَ، ففصلوا إلى مَواطن مُلْكِهم ومحلّ إمارتهم. وكان مَوْلاهُم نبيلٌ حاجبُ(د) أبيهم قد تقدَّم إلى بِجَايَة، ولَحِقَ بالأمير(هـ) أبي عَبْد الله بمكانه من حِصارها. ثمّ تقدَّم إلى قُسَنطِينَة وبها مَوْلًى من مَوالِي السُّلْطان المتغلِّب عليها، وهو الأميرُ(و) أبو العبَّاس الفَضْل. فَلِحِين إطلالِه على جِهاتِها وشُعور أهْلها بمكانه، لفحت منهم غرائز المودّة، وذكروا جميلَ الإيالة، وأجمعوا التوثّب بواليهم.

واحتلَّ نبيلٌ بظاهر قُسَنطِينَة، فشرهت(ز) العامَّةُ إلى إمارته والقِيام بدَعْوةِ مَواليه. وتوثّب أشياعُهم على أولياء عمّهم فأخرجوهم، واستولى القائدُ نبيل على قُسَنطِينَة وأعمالها، وأقام دعوةَ الأميرِ(ح) أبي زيد وإخوته كما كانت أوّلَ مرَّة بها، وجاؤوا من المَغْرب إلى مركز إمارتهم، ودعوتُهم بها قائمةٌ، ورايتُهم على أنحائها خافِقةٌ، فاحتلّوا بها حُلولَ الآسادِ بعَرِينِها، والكواكبِ بآفاقها.

ونهضَ الأميرُ(ط) أبو عَبْد الله مُحَمَّد فيمَن اجْتمَعَ إليه من البِطانة والأولياءِ إلى مُحاصرة بَلَدِه بِجَايَة، فأحْجزَ(ي) عمّه بالبَلَد وأخذ بمُخَنَّقِها أيّاماً، ثمّ أفْرج عنها، ثمّ رجع إلى مَكانِه من حِصارها. ودسَّ إلى بعض أشياعه بالبَلَد، وسرَّبَ المالَ في

(أ) ص: المولى (ب) ظ: وجمع (ج) ص: مولانا السلطان، ومثله في ض ثم طمست، وساقطة من أ، ومكانها بياض في ظ
(د) ظ: صاحب (هـ) ظ، ص: بالمولى (و) ص: المولى (ز) ظ، ص: فشرعت (ح) ص: المولى (ط) ص: المولى
(ي) ظ: فأجز، ض: فأجهر

الغَوْغاء؛ فواعَدوهُ فَتْحَ أبوابِ الرَّبض في إحدى ليالي رمضان سنة تسعٍ وأربعين، واقتحم البَلَدَ، وملأ الفضاءَ بهدِير طُبولِه، فهبَّ النَّاسُ من مَراقِدهم فَزِعِين، وقد ولَجَ الأميرُ وقومُه البَلَد.

ولجأ[أ] الأميرُ[ب] الفَضْلُ إلى شِعاب الجبل كُواريةَ المُطلّ على القَصَبة راجلاً حافياً، فاختفى بها إلى أنْ عُثِرَ عليه ضُحى النَّهار وسِيقَ إلى ابن أخيه، فمنَّ عليه وأركبه السَّفِين إلى محلّ إمارته من بُونَةَ. وخلص مُلْكُ بجَايَةَ للأمير[ج] أبي عَبْد الله هذا، واقْتعد سريرَ آبائه بها. وكتبوا / للأمير أبي عِنَان بالفَتْح وتَجْديد المُخالَصة [240أ]
والموالاة، والعَمل على مُدافعة أبيه عن جِهاته.

الخَبَرُ عن نُهوض النَّاصر ابن السُّلْطان وولِيّه عريف بن يَحْيَى من تُونس إلى المَغْرب الأوْسَط

لمَّا بلغ السُّلْطانَ خبرُ ما وقع بالمَغْرب من انتقاض أطرافه، وتغلّب الأغياصِ من قَوْمه وسِواهم على أعماله، ووصل إليه يَعْقُوب بن علي أمير الدَّوَاودَة بوَلَدِه وعُمَّاله ووفدِه؛ نظرَ في تَلافي أمره، بتَسْريح وَلَده النَّاصِر إلى المَغْرب الأوْسَط؛ لارْتجاع مُلْكِهم، ومَحْوِ آثار الخوارج من أعْمالهم؛ فنهضَ مع يَعْقُوب بن عليّ، وأصْحبه وليّه عريف بن يَحْيَى أميرَ زُغْبَة، ليَسْتظهِرَ به على مُلْك المَغْرب، وقدَّمَهُا طليعةً بينَ

(أ) أ: ونجا (ب) ص: المولى، وفي ظ، ص: الأمير أبو العباس الفضل، فشطبه في ض، وسقط من أ (ج) ص: للمولى الأمير

يديه. وسار النَّاصِر إلى بِسْكِرَة، واضطرب معَسْكَره بها.

ثمَّ فَصَل من بلاد رِياح إلى بلاد زُغْبَةَ، واجتمع إليه أولياؤهم من العَرَب ومن زَنَاتَة من بَنِي تُوجِّينْ أهلِ وَانْشَرِيس وغيرهم.

وزحفَ إليهم الزَّعِيمُ أبو ثابت من تِلِمْسان في قَوْمِه من بني عَبْد الوَاد وغيرهم للمدافعة. والتقى الجمعان بوادي وزك[1]، فانفضَّت جموعُ النَّاصِر وانذعروا، ورجَع على عَقِبه إلى بِسْكِرَة. وخلص عريفُ بن يَحْيَى إلى قَوْمِه سُوَيْد، ثمَّ قطع القَفْرَ إلى المَغْرب الأَقْصَى. ولحق بالأمير أبي عِنَان، فنزل منه بأَلْطف محلٍّ، ورجَع النَّاصِرُ إلى بِسْكِرَةَ، وارْتَحل مع أوليائهم أولادِ مُهَلْهِل لمدافعة أولادِ أبي اللَّيل وسُلْطانهم المولى[أ] الفَضْل عن تُونِس، كما ذَكَرْناه. وأحسُّوا بهم؛ فنهضوا إليهم وفرّوا أمامَهم، إلى أنْ خلص النَّاصِرُ إلى بِسْكِرَة ثانية واتَّخذها مثوىً، إلى أنْ لحق بأبيه بالجَزَائِر عندَ رِحْلَتِه من تُونِس إليها، كما نذكره.

الخَبَرُ عن رِحلة السُّلْطان أبي الحَسَن إلى المَغْرب، وتغلُّبِ المولى[ب] الفَضْل على تُونِس، وما دعا إلى ذلك من الأَحْوال

[240 ب] / لمَّا خلص المولى أبو العبَّاس الفَضْل ابنُ مَوْلانا[ج] السُّلْطان أبي يَحْيَى من

(أ) طمست في أ، ض (ب) أ: السلطان، وفي ض: المولى ثم أصلحت بـ: السلطان (ج) ساقطة من أ

(1) وادي ورك: مرّ منه ابن خلدون لمَّا أرسله الوزير أبو بكر بن غازي إلى بني رياح، وذكر أن هذا الوادي من بلاد العطّاف. وسيأتي هنا فيما بعد.

تَكْبته بِبِجَايَة، وامتَنَّ عليه ابنُ أخيه فلحق بمحلّ إمارته من بُونَةَ، ووافتهُ بها مشيخةُ أولاد أبي اللَّيْل، أوفدهم عليه بنو حَمْزَة بن عُمَر يستحثّونه لملك إفْرِيقِيَّة ويرغّبُونه فيه، فأجاب دعايَتَهم ونهضَ إليهم بعد قضاءِ نسُك الفِطْر من سنةِ تسعٍ وأربعين، ونزل بحِلَلِهم، وأوْجَفوا بخَيْلهم ورِكابهم على ضواحي إفْرِيقِيَّة، وجَبَوْها. وصَمَدوا إلى تُونِس، فنازَلوها، وأخذوا بمُخَنَّقِها أيّاماً. ثمَّ أخذ بحُجُزَتِهم عنها شيعةُ السُّلْطان وأولياؤه من أولاد مُهَلْهِل وابنه النَّاصِر عندَ قُفوله من المَغْرب الأوْسَط مَفْلولاً. فرحلوا وشرَّدوهم. ثمَّ رَجَعوا إلى مَكانِهم من حِصارها، ثمَّ انفضّوا عنها. وتحيَّزَ خالد بن حَمْزَة إلى شيعة السُّلْطانِ أبي الحسن من أولاد مُهَلْهِل وقومه، فاعتزُّوا به. وذهب عُمَر [بن حَمْزَة](أ) إلى المشرق لقضاءِ فَرْضه، وأجْفل أبو اللَّيْل أخوه والمولى(ب) الفَضْل إلى القَفْر، حتّى كان من دُخول أهلِ الجَرِيد في طاعته ما سنذكره.

وكان السُّلْطانُ لمّا خلص من القَيْرَوان إلى تُونِس، وفَدَ عليه أحمدُ بنُ مكّي مُهَنِّئاً ومُفاوضاً في شأن الثَّغر، وما مُنِيَ به من انتقاض الأطراف(ج) وفَساد الرَّعِيَّة. وتدارَكَ السُّلْطانُ أمرَه عند فَواته بالتَّوْلية على أهل القطر من جِنْسهم؛ استِئلافاً للكافَّة، واستبقاءً(د) لطاعتهم. فعقدَ على عَمل قَابِس وجَرْبَة والحَمَّةَ(1) وما إليها لعَبْد الوَاحِد

(أ) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ب) أ، ض: والسلطان (ج) أ: الأشراف (د) ظ: واستيفاء

---

(1) الحَمَّة: مدينة تونسية قديمة، يقال لها: حمة مطاطة؛ تفريقاً لها عن حمة توزر المعروفة بحمة البهاليل، تبعد عن مدينة قابس نحو خمسة عشر ميلاً، ذكرها الوزان بالمد: "الحامَّة". رحلة التجاني 10، 134- 141، الوزان: وصف إفريقيا 2: 92

ابن السُّلْطان زَكَرِيَّاء بن أحمد اللِّحيانيّ، وأنفذه مع أحمد بن مكّي إلى عمله، فهلك بجَزْبَةَ[1] لليالٍ من مَقْدَمه بالطّاعُون الجارِف عامئذٍ[2].

وعقد لأبي القاسم بن عَتُّو شيخ المُوَحِّدِين على تَوْزَرَ ونَفْطَةَ وسائر بلاد الجَرِيد، بعد أنْ كان اسْتَخلصه عندَ مفرّ أبي مُحَمَّد بن تَافْرَاكِين قَرِيبه، وما ظهر من سوء دِخْلته، فنزل بتَوْزَرَ، وجمع أهل الجَرِيد على الولاية والمُخالصة.

[241 أ] ولمّا نازل *المولى أبو العبّاس*[أ] الفَضْل تُونِس مرّتين، وشرد أولاد مُهَلْهِل، / وامتنعت عليه، عمدَ إلى الجَرِيد سنةَ خمس يُحاول فيه مُلْكاً. وخاطب أبا القاسم بن عَتُّو يذكِّرهُ عَهْدَه وعَهْدَ سَلَفِه وحُقوقَهم؛ فتذكَّر وحَنّ، ونظر إلى ما ناله به السُّلْطان من المَثُلَةِ[3] في أطرافه، واستثار كامنَ حِقْده، فانحرف وحملَ النّاسَ على طاعة المولى[ب] الفَضْل ابن مَوْلانا[ج] السُّلْطان أبي يَحْيَى، فسارَعوا إلى الإجابة؛ وبايعه[د] أهلُ تَوْزَرَ وقَفْصَةَ ونَفْطَةَ والحَمَّةَ. ثمّ دعا ابنَ مكّي إلى طاعته، فأجاب إليها، وبايعهُ أهلُ قَابِس وجَزْبَةَ أيضاً.

وانتهى الخَبَرُ إلى السُّلْطانِ باسْتيلاءِ المولى[هـ] الفَضْل على أمْصار إفْرِيقِيَّة، وأنّه ناهضٌ إلى تُونِس؛ فأهمّه الشّأن وخَشِي على أمره. وكان بطانتُه يوَسْوِسُون إليه

(أ) سقط ما بين النجمين من أ، ض وعوضه: الأمير (ب) ساقطة من أ، وطمست في ض (ج) ساقطة من أ، وطمست في ض (د) ظ: وتابعه (هـ) ساقطة من أ، وطمست في ض

(1) جزيرةٌ قبالة الساحل التونسي

(2) الزركشيّ: تاريخ الدولتين 85 وقد مرّ التعريف بالطاعون الجارف

(3) المَثُلَة والمَثْلَة والمُثْلَة (بضمتين): العقوبة. لسان العرب، مادة: مثل

بالرِّحلةِ إلى المَغرب لاسترجاع نِعْمتهم باسترجاع مُلكِه، فأجابهم إليها، وشَحَن أساطيلَه بالأقوات، وأزاح عِلَلَ المسافرين. ولمَّا قضى مَنْسَكَ الفِطْر من سنةِ خمسين، ركب البَحْرَ أيَّام استفحل فصلُ الشِّتَاء.

وعقَد لابنه أبي الفَضْل على تُونِس؛ ثقةً بما بينَه وبين أولادِ حَمْزَةَ من الصِّهْر، وتفادياً بمكانِه عن مَعرَّةَ الغَوْغاء وثورتِهم، وأقْلَع من مَرْسى تُونِس. ولخمسٍ دخلَ مَرْسى بِجَايَةَ، وقد احتاجوا إلى الماء، فمنَعهم صاحبُ بِجَايَة من الوُرود[أ]. وأوعزَ إلى سائرِ سَواحله بمَنْعهم[ب]، فزَحفوا إلى السَّاحِل، وقاتَلوا مَن صدَّهم عن الماء، إلى أنْ غَلَبوهم عليه، واستَقوا وأقْلعوا. وعصفت بهم الرِّيحُ ليلتئذٍ، وجاءهم الموجُ من كلِّ مكان، وألْقاهم اليَمُّ بالسَّاحِل، بعد أنْ تكسَّرت الأجْفان، وغرِق الكثيرُ من بِطانة السُّلْطان وعامَّةِ النَّاس، وقذفَ الموجُ بالسُّلْطان فألْقاه إلى الجزيرة قُرْبَ السَّاحِل من بلاد زَوَاوَةَ مع بعض حَشَمه عُرَاةً، فمكثوا ليلتَهم. وصبَّحهم[ج] جَفْنٌ[1] من الأساطيل كان قد سَلِم من ذلك العاصِف، فقذَفوا إليه حين رأوه، وقد تَصايحَ به البَرْبَرُ من الجبال، وتواثبوا إليه، فاختَطفه أولياؤه من أهلِ الجَفْن قبلَ أنْ يصلَ إليه البَرْبَرُ، وقذفوا به

(أ) أ: الورد (ب) ظ: يمنعهم (ج) ظ: وصحبهم

---

(1) يبدو من عبارة ابن خلدون أنه جزء من الأساطيل، وعند ابن الخطيب (الإحاطة 3: 298) ما يوحي أنه سفينة حربية، يقول: "فبادر إلى مظاهرته في جفن غزوي من أسطول الأندلس". وذكر الحميري (الروض المعطار 567) أن الأسطول الذي فتح جزيرة ميورقة كان مؤلَّفاً من 300 جفن، وركب ابن بطُّوطة الجفن عند إجازته إلى الأندلس. انظر تحفة النظار 4: 229.

إلى الجَزَائِر، فنزل بها، ولأَمَ صدْعَه. وخَلَع على مَن وَصَل من فَلّ[أ] الأساطيل، ومَن خلص إليه من أوليائه. / [241 ب] ولحق به ابنهُ النَّاصِرُ من بَسْكَرَة.

واتَّصل بالمولى[ب] الفَضْلِ خَبَرُ رَحيله من تُونِس وهو ببلاد الجَرِيد[1]، فأغَذَّ السَّيْرَ إلى تُونِس، ونزلَ على ابْنِه، ومَن كان بها من مُخَلَّفِ أوليائه، فغلبُوهم عليها. واتَّصل أهلُ البَلَد بهم، وأحاطوا يوم مِنىً بالقَصَبة، واستنزلوا[ج] ابن السُّلْطان أبا الفَضْل الأميرَ بالقَصَبة على الأمان، فخَرج إلى بيت أبي اللّيْل ابن حَمْزَة، وأنفذ معه مَنْ أبلغه إلى مأمنه، فلَحِق بالجَزَائِر بأبيه. وبادَر إلى السُّلْطان عَدي بن يوسُف المُنْتَزِي بالمَدِيَّة من بَني عَبْد القَوِيّ، فصارَ في جُمْلته، وخرج له عن الأمْرِ، وزعَمَ أنّه إنما كان قائماً بدَعْوته، فتقبّل منه وأقرّه على عَمَله.

ووفَدَ عليه أولياؤه من المَغْرب[د]: سُوَيْد، والحارث، وحُصَين، ومَنْ إليهم ممَّن اجتمع إلى وليّه وَنَزْمَار بن عَرِيف المتمسّك بطاعته. ووفَدَ عليه أيضاً عليّ بنُ راشد أميرُ مَغْرَاوَة، وأغراهُ ببَنِي[هـ] عَبْد الوَاد، واشترط عليه إقرارَه بوَطَنِه وعَمَله إذا تمّ أمرُه، فأبى من قَبول الاشتراط[و]؛ ضَنّاً بعَهْده عن النَّكث، فنزعَ عنه وصار إلى مُظاهرة بَني عَبْد الوَاد عليه.

وبعث أبو سعيد عُثْمان صاحبُ تِلِمْسان إلى الأميرِ[ز] أبي عِنَان في المَدَد؛ فبعثَ

(أ) ظ: قبل (ب) طمست في أ، ض وكتب في الهامش: بالسلطان (ج) أ: واستنزل (د) أ، ض: العرب (هـ) ظ، ص: وأغراه بني (و) أ: قبول هذا الشرط (ز) أ: السلطان

---

(1) انظر المزيد من التفصيل في: تاريخ الدولتين للزركشي 89

إليه بعَسْكَر من بَني مَرِين، عقَدَ عليهم ليَحْيَى بن رَحُو بن تَاشِفِين بن معط(أ) [كبيرِ](ب) تيرْبيعِين. وزحف الزَّعِيمُ أبو ثابت إلى حَرْب السُّلْطان أبي الحسن فيمن اجتمع له من عَسْكَر بَني مَرِين ومَغْرَاوَةَ.

وخرج السُّلْطانُ من الجَزَائِر، وعَسْكَر بِمَتِّيجَةَ، واحتَشدَ وَنْزْمَار سائرَ العَرَب بحِلَلِهِم ووافاهُ بهم، وارْتَحلوا إلى شَلَف. ولمَّا الْتقى الجمعانِ بشدِيويَة، صَدَقت مَغْرَاوَةُ الحملةَ. وصابَرَهم ابنهُ النَّاصِر، وطُعِنَ في الجولة؛ فهَلَك، واختلَّ مَصافُّ السُّلْطان، واستُبِيحَ مُعَسكَرُه، وانتُهِبت فَساطيطُه، وخلصَ مع وليّه وَنْزْمَار بن عَرِيف وقومه، بعدَ أن اسْتُبيحَت حِلَلُهم، فخرجوا إلى جبل وَانْشَرِيس، ثمَّ لَحِقوا بجَبَل راشد، ورجع القومُ عن اتِّباعِهم، وانكفؤوا إلى الجَزَائِر، فتغلَّبوا عليها، وأخرجوا مَنْ كان بها من أولياء السُّلْطان، ومَحَوْ آثار دَعْوته من المَغرب الأوْسَط جُمْلةً. والأمرُ بيَدِ الله / يُؤتيه مَن يشاء. [242 أ]

الخَبَرُ عن استيلاء السُّلْطان على سِجِلْمَاسَة، ثمَّ فرارُه عنها أمامَ ابنه إلى مَرَّاكُش، واستيلاؤه عليها، وما تخَلَّلَ ذلك

لمَّا انفضَّت جموعُ السُّلْطانِ بشدِيويَة(ج)، وفُلَّتْ(د) عَساكِره، وهَلَك النَّاصِرُ ابنُه؛ خلص إلى الصَّحْرَاء مع وَلِيّه وَنْزْمَار، ولَحِق بحِلَل قَوْمه سُوَيْد، وأوطانُهم قِبْلَةَ

(أ) ساقطة من أ (ب) ساقطة من ظ، وفي ص، ض: من تيربيعين (ج) ص: بشدبونة، وقد تقدمت (د) ظ، ص: وفل

جبلِ وَانْشَرِيس، وأجمعَ أمرَه على قَصْد المَغرب مَوْطِنِ قَوْمه، ومَنْبتِ عزّه، ودارِ مُلكه. وارْتَحل معه وليُّه وَنْزْمَار بالنّاجعة من قَوْمه، وخرجوا إلى جَبَل راشد. ثمّ أبْعَدُوا المَذْهَبَ وقطعوا المفاوزَ، وسلكوا إلى سِجِلْمَاسَة في القَفْر. فلمّا أطلّوا عليها، وعايَن أهلُها السُّلْطان؛ تهافَتوا عليه تهافُتَ الفَرَاش. وخلص إليه العَذَارَى من وراءِ سُتُورهِنّ صاغيةً إليه، وإيثاراً لإيالته. وفرَّ العاملُ بسِجِلْمَاسَة إلى مَنْجاته.

وكان الأميرُ أبو عِنَان لمّا بلغه الخبرُ بقَصْده سِجِلْمَاسَةَ ارتَحلَ إليها في قَوْمِه وكافّة عَساكرِه، بعد أنْ أزاحَ عِلَلَهم، وأفاض عَطاءه فيهم.

وكان لبَني مَرِين نفرةٌ عن السُّلْطان وحَذرٌ من غائلته؛ لجناياتهم[أ] بالتّخاذُل في المواقف، والفرارِ عنه في الشّدائد، ولِمَا كان يُبْعِدُ بهم في الأسفار، ويَتَجشَّم بهم المهالِكَ، فكانوا لذلك مُجتمعين[ب] على مُنابذتِه، ومُخلِصين في مُناصَحة ابنه مُنَازِعِه. فما لبث السُّلْطانُ أنْ جاءه الخبرُ بوصُولهم إليه في العَسَاكر الضَّخمة، مُغِذّين السَّيرَ إلى دِفاعه، وعلم من حاله أنّه لا يطيقُ لقاءَهم. وأجْفلَ عنه وَنْزْمَار وليّه في قَوْمِه سُوَيْد.

وكان من خَبَرِه: أنَّ عريف بن يَحْيَى كان نَزَع إلى الأمير أبي عِنَان، وأحلّه بمَحلّه المعهود من تَشْرِيفهم ووِلايتهم، حتّى إذا بلَغه الخَبَرُ بمُناصَحة وَنْزْمَار للسُّلْطان[ج]

(أ) ظ: لجناياتهم (ب) أ: مجمعين (ج) ظ: السلطان

ومُظاهرته وقَصْده المَغرب معه بناجعته، زَوَى عنه وجهَ رضاه بعض الشيء، وأقسم له: لَئن لم يُفارق السُّلْطان لأوقِعَنَّ بك وبابْنِك عنتر! وكان معه في جُمْلة الأمير أبي عِنَان، وأمَره بأنْ يكتبَ له بذلك، فآثر وَنْزَمَار رِضى أبيه. / [242 ب] وعَلِم أنَّ غَناءَه عن السُّلْطان في وَطنِ المَغرب قليل؛ فأجْفل عنه ولَحِق بالزَّاب، وانتبذ عن قَوْمه، وألْقى عَصاهُ بِبَسْكَرَة، فكان ثَواؤه بها إلى أنْ لَحِق بالأمير أبي عِنَان، على ما نذكره.

ولمَّا أجْفل السُّلْطان عن سِجِلْمَاسَةَ، ودخل الأميرُ أبو عِنَان إليها، وثقف أطرافَها، وسدَّ فُروجها، وعقدَ عليها ليَحْيَاتَن بنِ عُمَر بن عَبْد المُؤمن كبيرِ بَني وَنكَاسَن. وبلَغه قَصْدُ السُّلْطان إلى مَرَّاكُش؛ فاعتزم على الرِّحلة إليها، وأبى عليه قَوْمه، فرجع بهم إلى فاس إلى أنْ كان من خبرهم مع السُّلْطان ما نذكره.

الخَبَرُ عن استيلاء السُّلْطان على مَرَّاكُش، ثمَّ انهزامه أمام الأمير أبي عِنَان، ومَهْلكه بجبل هِنْتَاتَة[1]، عفا الله عنه

لما أجفل السُّلْطانُ من سِجِلْمَاسَة سنةَ إحدى وخمسين بين يدي الأمير أبي عِنَان وعَساكر بَني مَرِين، قَصَد مَرَّاكُش، وركبَ إليها الأوْعارَ من جبل

(1) جبل هنتاتة: اسم يُطلق على جبلٍ من جبال أطلس، كما يُطلق على القبيلة المقيمة فيه، ولابن الخطيب فصلٌ في ذكره. انظر: نفاضة الجراب 43

المَصَامِدَة. ولمّا شارَفها، تَسارعَ إليه أهلُ جهاتها بالطّاعَة من كلّ أوْبٍ، ونسَلوا من كلّ حدَبٍ.

ولحق عاملُ مَرَّاكُش بالأمير أبي عِنَان، ونزع إلى السُّلْطان صاحبُ ديوان الجباية أبو المجد [بن](أ) مُحَمَّد بن أبي مَدْيَن بما كان في المودَع من مال الجباية، فاختصّه، واستكْتَبه، وجعل إليه علامَته. واسْتَرْكب، واسْتَلحق، وجَبى الأموالَ، وبثَّ العَطاء، ودخلَ في طاعتِه قبائلُ العَرَب من جُشَم وسائر المَصَامِدَة، وثابَ له مُلْكٌ بمَرَّاكُش(ب) أمل معه أنْ يستولي على سُلْطانه، ويرتجعَ فارِطَ أمرِه من يد مُبتزِّه.

وكان الأميرُ أبو عِنَان لمّا رجع إلى فاس عَسْكَر بساحتها، وشرع في العَطاء وإزاحة العِلَل، وتقبّض على كاتِب الجباية حَمْزَةَ بن شُعَيب بن مُحَمَّد بن أبي مَدْيَن؛ اتّهمه بمُمالأة بَني مَرِين في الإبايَة عليه عن اللّحاق بمَرَّاكُش من سِجِلْمَاسَة. وأثارَ حِقْدَه في ذلك ما كان من نُزوع عمّه أبي المجد / إلى السُّلْطان بأموال الجباية. ووَسْوَس إليه في السّعايَة به كاتبهُ وخالِصتُه أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن أبي عَمْرو؛ لِمَا كان(ج) بينهما من المُنافسة، فتقبَّض عليه وامْتَحنه، ثمَّ قطع لسانه، وهَلَك في ذلك الامتحان. [243 أ]

وارْتَحلَ الأميرُ أبو عِنَان وجُموعُ بَني مَرِين إلى مَرَّاكُش، وبرزَ السُّلْطانُ لِلقائهم

(أ) ساقطة من ظ (ب) ظ: ملك مراكش (ج) ساقطة من أ، ص، ض

ومُدافعتهم، وانتهى كلٌّ واحدٍ من الفَريقَيْن إلى وادي أمّ ربيع، وتربَّص كلٌّ بصاحِبه إجازةَ الوادي. ثمّ أجازهُ السُّلْطانُ أبو الحسن، وأصبحوا جميعاً في التَّعْبِئَة.

والْتقى الجمعان بتامَدْغُوسْتْ في آخر صَفَر من سنةِ إحدى وخمسين، فاختلَّ مَصافُّ السُّلْطان، وانهزم عَسكَرُه، ولحق به أبطالُ بَني مَرِين، فرجعوا عنه حياءً وهيبةً. وكبا به فرسُهُ يومئذٍ في مفرّه؛ فسَقَط إلى الأرْض والفُرْسانُ تحومُ حوله. واعترضهم دونه أبو دينار سُلَيمان بن عليّ بن أحمد أميرُ الدَّوَاودَة، ورديفُ أخيه يَعْقُوب؛ كان هاجَر مع السُّلْطان من الجَزَائِر، ولم يزل في جُمْلته إلى يومئذٍ. فدافع عنه حتّى ركب، وسار من ورائه رِدْءاً له. وتقبَّض على حاجبه عَلّال بن مُحَمَّد؛ فصار في يد الأمير أبي عِنَان، وأوْدعهُ السّجن إلى أنْ امتنَّ عليه بعد مَهْلِك أبيه.

وخلص السُّلْطانُ إلى جبل هِنتَاتة، ومعه كبيرُهم عَبْدُ العَزِيز بن مُحَمَّد بن عليّ، فنزل عليه وأجارَه[أ]. واجتمع إليه الملأُ من قَوْمه هِنتَاتَة ومَن انضاف إليهم من المَصَامِدَة، وتَذَامَرُوا وتعاهَدوا[ب] على الدّفاع عنه، وبايَعوه على الموت.

وجاء أبو عِنَان على إثْرِهِ حتّى احتلّ بمَرّاكُش، وأنزل عَساكرَه على جبل

(أ) ظ، ص: وأجازه (ب) أ: وتعاقدوا، وفي ض: وتعاهدوا، ثم أصلحها

هِنتَاتة، ورتَّبَ المسالح لحصارِه وحَزبه، وطالَ عليه مَثواه[أ]. وطلَب السُلطانُ من ابنه الإبقاءَ، وبعث في حاجبه مُحَمَّد بن أبي عَمرو؛ فحَضَر عنده، وأحسن العذرَ عن الأمير أبي عِنَان، والتمس له الرِّضى منه؛ فرضي عنه وكتب له بولاية عَهْده. وأوْعَز إليه بأنْ يبعثَ له مالاً وكُسىً، فَسَرَّحَ الحاجبَ / ابن أبي عَمرو إلى إخراجها من [243 ب] المودَع بدارِ مُلكِهم.

واعتلَّ السُلطانُ خلال ذلك؛ فمَرَّضَهُ أولياؤُه وخاصَّته، وافتصد لإخراج الدّم، ثمَّ باشَرَ الماء بعُضوه للطّهارة؛ فورِمَ، وهَلَكَ لِليالٍ قريبةٍ، عفا الله عنه، لثلاثٍ وعشرين من ربيع الثَّاني سنة ثنتين وخمسين[1].

وبعث أولياؤه بالخبرِ إلى ابنه بمُعَسْكَرِه من ساحة مَرَّاكُش، ورَفعوه على أعواده إليه، فتلقَّاه حافياً حاسِراً، وقبَّل أعواده وبكى واسترجع، ورضي عن أوليائه وخاصَّته، وأنزلهم بالمحلّ الذي رَضُوه من دَوْلته. ووارى أباه بمَرَّاكُش، إلى أنْ نقله إلى مقبرةِ سَلَفهم بشَالَّة في طَريقه إلى فاس. وتلقّى أبا دينار بن عليّ بن أحمد بالقَبول والكَرامة، وأحلّه مِن كَنفِه محلَّ الرَّحْب والسَّعة، وأسْنى جائزته، وخَلَع عليه، وحَمَله.

وانصرف من فاس إلى قَوْمه يستحثّهم لِلقاءِ السُلطان أبي عِنَان بتِلِمْسان؛ لمّا

(أ) ظ، ص، ض: مثواؤه

(1) الزركشيّ: تاريخ الدولتين 90

كان أجمَعَ على الحركَة إليها بعدَ مَهْلِك أبيه، ورعَى لعَبْد العَزِيز بن مُحَمَّد أمير هِنْتَاتَة إجارَتَه[أ] للسُّلْطان واسْتِماتَته دونه، فعقَد له على قَوْمه، وأحلّه بالمحلّ الرَّفيع من دَوْلته ومَجْلسه، واسْتَبْلغ في تَكْرِيمه.

الخَبَرُ عن حَرَكة السُّلْطان أبي عِنَان إلى تلمْسان[1]، وإيقاعه ببني عَبْد الوَاد بأنْكَاذ[2]، ومَهْلك أبي سعيد سُلْطانهم

لمَّا هَلَكَ السُّلْطانُ أبو الحسن، وانقَضى شأنُ الحصار، ارْتَحلَ السُّلْطانُ أبو عِنَان إلى فاس، ونَقَل شِلْوَ أبيه إلى مقبرتهم بشَالَّة[3]، فدَفَنه مع مَنْ هُنالِك من سَلَفِه، وأغَذَّ السَّيْرَ إلى فاس، وقد استبَدَّ بالأمر، وخَلَت الدَّولَة عن المُنازِع، فاحتلّ بفاس، وجَمع أمرَه على غَزْو بَني عَبْد الوَاد؛ لارْتِجاعِ ما بأيديهم من المُلْك الذي سَمَوْا لاستخلاصه.

ولمَّا كان فاتِحَ سنةِ ثلاثٍ وخمسين، نادى بالعَطاء، وأزاحَ العِلَلَ، وعَسْكَر

(أ) ظ، ص: إجازته

---

(1) وثّق ابن الخطيب دخول أبي عنان مدينة تلمسان في الرسالة التي وجهها إليه السلطان يوسف الأول ملك غرناطة سنة 752هـ (كناسة الدكان 80)، وأيضاً الهدايا التي أرسلها مع رسالة أخرى أواخر سنة 752هـ (كناسة الدكان 96).

(2) أنكاد: ما بين تلمسان وفاس، حسب ما ألحقه ابن خلدون بخطه في هامش أ، ض [ويقابل الورقة 255 ب من نسخة ظ]، وهي قرية من مدينة تاهرت، يشقّها واديها نصفين. ياقوت: معجم البلدان 1: 272، الوزان: وصف إفريقيا 2: 11

(3) شاهد الناصريّ رخامة هذا القبر ووثقها. سلا ورباط الفتح 2: 138

بساحة البَلَد الجَدِيد، واعترض العَسَاكر، وارتحل يُريد تِلِمسان.

[244أ] واتَّصَل الخَبَرُ بأبي سعيد وأخيه، فجمعوا / قَوْمهم ومَنْ إليهم من الأشياع والأحزاب من زَنَاتَةَ والعَرَب، وارتحلوا إلى لِقائه. ونزل السُّلْطانُ بمُعَسْكَر وادي مُلْوِيَّة، وتلوَّم به أيّاماً لاعتراض الحشود والعَرَب.

ثمَّ رَحَل على التَّعْبِئَة، حتَّى إذا احتلّ ببَسيط أنكَاذ وتراءى الجمعانِ، انفضّ سَرْعانُ المَعَسْكَر ولحقوا بالمَغرب. ورَكب السُّلْطانُ في التَّعْبِئَة، وخاضَ بحر القَتام؛ وقد أظلم الجوُّ به. حتّى إذا خلص إليهم من غَمْرِهِ، وخالَطَهم في صُفوفهم، ولّوا الأدبار، ومَنحوهم الأكتاف. واتَّبع بَنو مَرين آثارَهم، فاستولوا على مُعَسْكَرهم واستباحوه، واستَلْحَموهم قَتْلاً وسَبْياً، وصَفَّدوهُمْ أسارَى، وغَشِيهم اللَّيل وهم مُتَسايِلون في أثرهم. وتقبَّض على أبي سعيد سُلْطانِهم[1]، فسيق إلى السُّلْطان، وأمر باعتقاله، وأطلق أيدي بَني مَرين من الغد على حِلَل العَرَب من المَعْقِل، فاستباحوهم واكتسحوا أموالَهم جزاءَ بما شَرِهُوا إليه من النَّهب بالمحلّة في هَيْعة ذلك المجال، ثمَّ ارتحل على تَعْبئته إلى تِلِمسان، فاحتلَّ بها لربيعٍ من سَنَتِه، واستوت في مُلْكِها قَدَمُه.

وأحضر أبا سعيد، فقرَّعَهُ ووبَّخَهُ، وأراهُ أعمالَه حَسْرةً عليه، وأحضَر الفقهاءَ وأربابَ الفُتْيا، فأفتَوا بحِرابته وقَتْله. وأُمضيَ حُكْمُ الله فيه، فذُبح بمَحْبِسه لتاسعةٍ من اعتقالِه، وجَعَله مثلاً للآخرين.

(1) انظر: روضة النسرين 64.

وخلَص أخوه الزَّعِيمُ أبو ثابت إلى قاصِية الشَّرْق، فكان من خَبَرِه ما نذكره.

الخَبَرُ عن شأن أبي ثابت، وإيقاع بَني مَرِين به بوادي شَلَف، وتقبُّض المُوحِّدِين عليه ببِجَايَة

لمَّا أوْقَع السُّلْطان ببَني[أ] عَبْد الوَاد بأنْكَاد، وتقبَّضَ على أبي سعيد سُلْطانهم، خَلَص أبو ثابت أخوه في فَلٍّ منهم، ومرَّ بتِلِمْسان، فاحْتَملَ حُرَمهم ومُخَلَّفهم، وأجْفل إلى الشَّرْق، فاحتلَّ بشَلَف من بلاد مَغْرَاوَةَ، وعَسْكَر هُنالِك، واجتمع إليه أوْشابٌ من زَنَاتَة، وحدَّثَ نفسه باللِّقاء، ووَعَدها بالصَّبْر والثَّبات.

[244 ب] / وسَرَّحَ السُّلْطانُ وزيرَه فارِسَ بنَ ميمون بن وَدْرَار في عَساكر بَني مَرِين والجند، فأغَذَّ السَّيْرَ إليهم، وارْتَحل [من][ب] تِلِمْسان على أثره، [فلَحقوهم بوادي شَلَف][ج]، ولمَّا تراءى الجَمعانِ صَدَق الفريقان المجاوَلةَ، وخاضُوا النَّهرَ بالقِرَاع. ثمَّ صدقَ بنو مَرِين الحملةَ وأجازوا النَّهر إليهم، فانكشفوا، واتَّبعوا آثارَهم، فاسْتلحموهم واستباحوا معَسْكَرَهم، واسْتاقوا أمْوالهم ودَوابَّهم ونساءَهم، وارْتَحلوا في اتِّباعهم. وكتب الوَزِيرُ بالفَتْحِ إلى السُّلْطان.

(أ) ظ، ض: بني (ب) ظ: إلى (ج) ما بين الحاصرتين من مخرج في أ كتبه ابن خلدون بخطه، وأضاف إليه نصًّا لا يختلف كثيراً عن المثبت في متن ذات النُّسخة دون أنْ يشير إلى شطب ما في المتن، ونصّ ما قيَّدَهُ بهامش أ: [فلحقوهم بوادي شَلَف، فلمَّا تراءى الجمعان صدق الفريقان القراع، ثم حمل بنو مَرِين عليهم، فأخرجوهم عن الماء، واتَّبعوا آثارهم، فاستلحموهم واستباحوا معَسْكَرَهم، واستاقوا أموالهم ودوابهم ونساءهم، وارتحلوا في أتباعهم].

ومرَّ أبو ثابت بالجَزَائِر طارِقاً، وأجاز إلى قاصِية الشَّرْق، فاعْتَرضهم قبائلُ زَوَاوَة، وأزجَلوهم عن خَيْلهم، وانْتَهبوا أسْلابَهم، ومرُّوا حُفاةً عُرَاةً. واحتلَّ الوَزِيرُ بالجَزَائِر، فاستولى عليها، واقتضى بَيْعة السُّلْطان منهم، فآتَوْها.

واحتـلَّ الـسُّلْطانُ بالمَدِيَّـة، وأوْعَـز إلى أمـير بِجَايَـة المـولى[أ] أبي عَبْـد الله [مُحَمَّد][ب] حافِدِ مَوْلانا[ج] الأمير أبي يَحْيَى مع وَلِيِّهِ وَنَزْمَار، وخالِصَته يَعْقُوب بن عليّ، بالتَقبُّض على أبي ثابت وأشياعِه، فأذْكَوا العُيُون عليهم، وقَعَدوا لهم بالمراصِد.

وعثر بعضُ الحَشَم على أبي ثابت، وأبي زَيَّان ابنِ أخيه أبي سعيد، ووزيرِهم يَحْيَى بن داود، فرفَعوهم إلى الأمير بِبِجَايَة، فاعْتَقلهم. وارتحل إلى لِقاء السُّلْطان بالمَدِيَّة، وبعث بهم مع مُقَدِّمته، وجاء على أثرهم، ونَزَل على السُّلْطان بمُعَسْكَره من المَدِيَّة خيرَ نُزُل، بعد أنْ تلقَّاه بالمَبَرَّة والاحتفاء، وركب إلى لِقائه، ونزل عن فَرسِه للسُّلْطان، فنَزَل [له][د] السُّلْطان برّاً به، وأوْدَع أبا ثابت السِّجن.

وتَوافَت إليه وفودُ الدَّوَاودَة بمكانِه من المَدِيَّة، فأكْرَمَ وَفْدَهم وأسْنى أُعطياتهم من الخِلَع والحُمْلان والذَّهَب، وانقلبوا خيرَ مُنْقلَب. ووافته بمكانِه ذلك بَيْعةُ ابنِ مُزْني عاملِ الزَّاب ووَفْدِه، فأكْرَمَهم ووَصَلهم.

وفرغ السُّلْطان من شأن المَغرب الأوْسَط، وبثَّ العُمَّالَ في نَواحيه، وثقَّف أطْرافَه، / وسَما إلى مُلْك إفْرِيقِيَّة، كما نذكر. [245أ]

(أ) ساقطة من أ، وطمست في ض (ب) ساقطة من ظ (ج) ساقطة من أ، وطمست في ض (د) ساقطة من ظ

الخَبَرُ عن تملّك السُّلطان أبي عِنَان بجَايَة، وانتقال صاحبها إلى المَغْرِب[1]

لمَّا وَصَل المولى[أ] أبو عَبْد الله مُحَمَّد ابنُ الأميرِ أبي زَكَرِيَّاء يَحْيَى صاحبُ بجَايَة إلى السُّلطان بمكانِه من المَدِيَّة، في شَعْبان من سَنَتِه، وأقْبَلَ السُّلطانُ عليه، وبوَّأه كنفَ تَرحيبه وكَرامته؛ خَلَص الأميرُ به نجِيّاً، وشكا إليه ما يلقاهُ من أهلِ عَمَلِه من الامتناعِ من الجبايَة والسَّعْي في الفَساد، وما يتبعُ ذلك من زَبون الحامية واستبداد البِطانةِ؛ وكان السُّلطانُ متشوِّقاً لمثلها، فأشارَ عليه بالنُّزُول عنها وأنْ يُديلَه عنها بما شاء من بلاده، فسارَعَ إلى قَبولِ إشارته، ودسّ إليه مع حاجبه مُحَمَّد بن أبي عمرو أنْ يُشيدَ بذلك على رؤوس الملإ؛ ففَعَل، ونَقِمَ عليه بِطانتُه ذلك، وفرّ بعضُهم من مُعَسْكَره، فلَحِق بإفْرِيقِيَّة، ومنهم: عليّ بنُ القائد مُحَمَّد بن الحكيم. وأمره السُّلطانُ أنْ يكتبَ بخطِّه إلى عامِله على البَلَد بالنُّزُول عنها، وتَمكين عُمَّالِ السُّلطان منها؛ ففَعَل. وعقَد السُّلطانُ عليها لعَمَر بنِ عليّ الوَطَّاسيّ، من أولاد الوَزِير الذين ذكرنا خبرَ انتزائهم بتازُوطَا من قبلُ[2].

ولمَّا قضى السُّلطانُ حاجاتِه من المَغْرب الأوْسَط، واستولى على بجَايَة، انكفأ راجعاً إلى تِلِمْسان لشُهودِ الفِطْر بها، ودَخَلها في يومٍ مشهود. وحمل أبا ثابت ووزيرَه

(أ) أ، ض: الأمير

(1) انظر: كناسة الدكان لابن الخطيب 102، 112 .

(2) تقدم ذكرهم في فصل: "الخَبَرُ عن انتزاء ابن الوَزِير الوَطَّاسيّ بحِصْن تازُوطَا من جهات الرِّيف، واستنزال السُّلطان إيَّاه". انظر ص 137.

يَحْيَى بن داود على جَمَلَيْن يَخْطِران بهما في ذلك الحفل بين السّماطين، فكانا عِبْرَةً لمن حَضَر. وجُنِبَا من الغد إلى مَصارِعها، فقُتلا قَعْصاً بالرِّماح.

وأنزل السُّلْطانُ المولى[أ] الأميرَ أبا عَبْد الله صاحبَ بِجَايَة خيرَ نُزُل، وفَرَش له في مَجْلسه تَكْرِمةً به، إلى أنْ كان مِن توثُّب صِنْهَاجَة و[أهل][ب] بِجَايَة بعَمَر ابن علي، ما نحن ذاكِروه.

[245 ب]

/الخَبَرُ عن ثورةِ أهلِ بِجَايَة، ونُهوضِ الحاجب إليها في العَسَاكر[1]

كان صِنْهَاجَة هؤلاء من أعقاب تُلُكَّاتَة[ج] مُلُوكِ القلعة وبِجَايَة، نزل أوّلوهم بوادي بِجَايَة بين القَبائل من بَرابرتها الكُتامِيِّينَ في مَواطن بَني وَرْيَاكَل[د] مذ أوَّل دولة المُوَحِّدِين، وأقْطعوهم على العَسْكَر معهم. ولمَّا ضَعُفت جُنود المُوَحِّدِين وقلَّ عددُهم، انفردوا بالعَسْكَرَة[هـ] مع السُّلْطان، وصار لهم بذلك اعتزازٌ وزَبُونٌ على الدَّوْلَة.

وكان المولى[و] الأميرُ أبو عَبْد الله هذا قد أصابَ منهم لأوَّل أمْرِه، وقَتَل مُحَمَّد ابن تميم من أكابر مشيختهم. وكان حاجبُه فارح مولى ابنِ سيِّد النَّاس عَرِيفاً عليهم

(أ) ساقطة من أ، وطمست في ض (ب) ساقطة من ظ (ج) ظ: تلكانه، وقد تقدم ذكرها في الجزء الحادي عشر عند تفصيل الكلام على صنهاجة وبطونها وأولية نسبهم في باب: "الخبر عن صنهاجة من بطون البرانس ....". [الورقة 119 ب، وما بعدها]

(د) ظ: ورياكل، ولعله ما ذكره الوزان "جبل بني ورياكل" من بلاد الريف، أمامه سهل يخترقه نهر ورغة. وصف إفريقيا 1: 337

(هـ) ظ: بالعسكر (و) ساقطة من أ، وطمست في ض

(1) انظر: كناسة الدكان لابن الخطيب 108

من عَهْد أبيه الأمير أبي زَكَرِيَّاء، وكان مُسْتَبِدًّاً على المولى[أ] أبي عَبْد الله. فلمَّا نزل عن إمارته للسُّلْطان أبي عِنَان سَخِط ذلك ونَقَمَه عليه، وأسرَّها في نَفْسه ولم يُبْدِها له. وسَرَّحَهُ أميرُه مع عُمَر بن عليّ الوَطَّاسيّ لنَقْل حُرَمه ومَتاعه وماعُون[ب] دارِه، فوَصلَ إليها.

وشكا إليه الصِّنْهَاجيُّون مَغَبَّةَ أمْرِهم في ثِقَل الوَطأة وسوء المَلَكة؛ فأشكاهم، ودَعاهم إلى الثَّورَة ببني مَرِين، والقيام بدَعْوة المُوَحِّدِين للمولى[ج] أبي زيدٍ[د] صاحبِ قُسَنْطِينَة؛ فأجابوه، وتَواعَدوا للفَتْك بعَمَر بن عليّ بمَجْلِسه من القَصَبة. وتولَّى كِبْرَها منصور بنُ الحاجّ من مَشيختهم، وباكَرَه بدارِه على عادةِ الأمراء، ولمَّا أكبَّ عليه لِلَثْمِ أطرافه[هـ]، طَعَنه بخِنْجرِه، وفرَّ إلى بيته جَرِيحاً، فوَلجوا عليه واسْتَلْحَموه. وثارتِ الغَوْغاء من أهل البَلَد أوَّل ذي الحِجَّة من سنةِ ثلاثٍ وخمسين.

ورَكِب الحاجبُ فارح، وهَتَف الهاتفُ بدَعْوة المولى[و] أبي زيد صاحبِ قُسَنْطِينَة، وطيَّروا بالخبر إليه؛ واستدعوه، فتثاقَل عن إجابتهم. وبعث مولىً من
[246أ] المَغْلُوجَى / للقيام بأمره.

وبلَغ الخَبَرُ إلى السُّلْطان، فاتَّهم المولى[ز] أبا عَبْد الله بمُدَاخلة حاجبه، فاعتقلَهُ بداره. واعتقل وفداً من ملإ[ح] بِجَايَة كان[ط] ببابِه. وثابتْ آراءُ المشيخة من أهل

(أ) أ: الأمير، وطمست في ض (ب) ساقطة من أ، وفيها: ومتاع داره (ج) أ، ض: للأمير (د) ظ، ص: أبي زيان، ومثله في ض ثم أصلحت (هـ) أ: لتقبيل يده (و) أ، ض: الأمير (ز) أ، ض: الأمير (ح) أ: أهل (ط) أ، ض: كانوا

بِجَايَة، وتَمشَّتْ رجالاتُهم وأُولوا الرَّأي والشُّورَى منهم في الفَتْك بصِنْهَاجَةَ والعِلْج، وداخَلَهم[أ] القائدُ هلال مولى ابن سيِّدِ النَّاس من المَغْلُوجَى، وعليّ بنُ مُحَمَّد بن المنتْ[ب] حاجبُ الأمير أبي زَكَرِيَّاء يَحْيَى، ومُحَمَّد بنُ الحاجب أبي عَبْد الله[ج] ابن سيِّد النَّاس، وتَوَاعَدوا للفَتْك[د] بفارح يومَ وُصولِ النَّائب من قِبَل صاحبِ قُسَنْطِينَة، [ووصل][هـ] فَجَهَروا بالتَّكبير[و] على الحاجب [فارح][ز]، ودعوه إلى المسجد ليؤامِروه، ونَذِرَ بأمرهم؛ فاعتمد دار شيخ الفُتْيَا أحمد بنِ إدْرِيس، واقتحموا عليه الدَّار، وباشَرَه مولاه مُحَمَّد بن سيِّد النَّاس، فطَعَنه وأشواه، ورمَى بشِلْوه من سَقْف الدَّار، وقَطَع رأسه فبعثوا به إلى السُّلْطان [مع بعض مشيخة البَلَد][ح]. وفرَّ منصور بنُ الحاجّ وقومُه صِنْهَاجَة من البَلَد.

وكان بالمَرْسى أحمد بنُ سعيد القَرْمُونيّ من حاشية السُّلْطان، جاء في السُّفن لبعض حاجاتِه من تُونِس، ووافى مَرْسى بِجَايَةَ يومئذٍ، فأنزلوه واعْصَوْصَبُوا عليه، وتَنَادَوْا بدَعْوة السُّلْطان وطاعته. وأشار عليهم أحمد القَرْمُونيّ أنْ يبعثوا إلى قائد تَدَلُّس من مشيخة بَني مَرِين يَحْيَاتَن بن عُمَر بن عَبْد المُؤمن الوَنْكَاسَنيّ، فاستدعَوْه، ووَصَل إليهم في لُمَّةٍ من العَسْكَر، وبعثوا بأخبارهم إلى السُّلْطان، وانتظروا.

(أ) ظ: وأدخلهم (ب) ظ، ص: الميت (ج) أ: ومحمد بن الحاجب محمد ... (د) ظ: بالفتك، ص: الفتك (هـ) ساقطة من ظ، ص (و) ص، ض: بالنكر (ز) ساقطة من ظ، ص (ح) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، ص، ومثبت في أ، وفي هامش ض بخطه

فلمّا بلغ الخَبَرُ إلى السُّلْطان، أمَرَ حاجبَه مُحَمَّد بنَ أبي عَمْرو بالنُّهوض إلى بِجَايَةَ، فعَسْكَرَ بساحة تِلِمْسان. وانتقى له السُّلْطان من قومه وجنوده خمسةَ آلاف فارس، أزاح عِلَلَهم، واستوفى أُعطياتهم. وسَرَّحَه؛ فنَهَضَ من تِلِمْسان بعدَ قضاءِ مَنْسَك الأضحى، وأغذَّ السَّيْرَ إلى بِجَايَة.

ولمَّا نزل ببَني حَسَن، جَمع له صِنْهَاجَة، ثمَّ خاموا عن اللِّقاء، ولَحِقوا بقُسَنْطِينة، وأجازوا منها إلى تُونِس. واحتلَّ الحاجبُ بمُعَسْكَرِهم / من خميس تَـيْكْلاَتْ[1]. [246 ب] وخرج[أ] إليه المشيخة والوزراء. فتقبَّضَ[ب] على القائد هلال، وأشخَصَهُ إلى السُّلْطان، ودخل البَلَد في التَّعْبِئَة، واحتلّ بقَصَبتها لمُحرَّم فاتحَ أربعٍ وخمسين. وسَكَّن النَّاسَ، وخَلَع على المشيخة، واختصَّ عليّ بنَ المنت ومُحَمَّد ابن سيِّد النَّاس، واستظهر بهم على أمره. وتقبَّضَ على جماعةٍ من الغَوْغاء نُقباءَ على مَن تحت أيديهم ممّن يتّهمُ بالمُداخلة في الثّورات يُناهزون مائتين، واعتقلهم وأركبهم السُّفِن إلى المَغرب، فودعَ النَّاسُ وسَكنوا.

وتوافتْ وُفودُ الدَّوَاودَة من كلِّ جهةٍ؛ فأجزل صِلاتهم، واقتضى على الطَّاعة رُهُنهم. ووَصَل عاملُ الزَّاب يوسُف [بنُ مُزْني للقُدوم على السُّلطان، وأصْلَح الحاجبُ أحوالَ الوَطَن][ج] وسدَّ فُروجَه، وارتحل إلى تِلِمْسان أوّلَ جُمادَى لشهرَيْن

(أ) ظ: وخرجت (ب) ظ: فقبض (ج) ما بين الحاصرتين من مخرج كتبه بخطّه بهامش أ، ض

(1) لعل المراد: سوق الخميس، القريب منها. مقديش: نزهة الأنظار 1: 94

من مدخله. وأغَذَّ السَّيْرَ بمَن معه من العَرَب والوُفود، وكنتُ يومئذٍ في جُمْلتهم، وقد خلعَ عليَّ، وحَمَلني، وأجزل صِلتي، وضَرَب لي الفَساطيط، فوفدتُ في رِكابه. وقدم تِلِمْسان لأوَّل جُمادَى الآخرة، فجلس السُّلْطان للوَفْد، واعترض ما جُنِب له من الجِياد والهَدِيَّة، وكان يوماً مَشهوداً.

ثمّ أسنى السُّلْطانُ جوائزَ الوَفْد، واختصَّ يوسُفَ بنَ مُزْني ويَعْقُوب بنَ عليّ بمزيدٍ من البرّ والصِّلةِ، وخصُوصيَّات من الكرامة، ووامَرَهم في شأن إفْرِيقِيَّة ومُنازلة قُسَنْطِينَة. ورَجَع معهم الحاجبُ ابنُ أبي عَمْرو على كُرْهٍ منه؛ لِمَا نذكره من أخباره، وانصرفوا إلى مَواطنِهم لأوَّل شَعْبان من سنةِ أربعٍ وخمسين. وانقَلَبْتُ معه بعد إسناءِ الجائزةِ والخِلَع والحُمْلاَن من السُّلْطان، والوَعْد الجميل بتَجْديد ما لي ولقومي ببلدنا من الأقطاع.

الخَبَرُ عن الحاجب ابن أبي عَمْرو، وما عَقَد له السُّلْطان على ثَغْرِ بِجَايَة، وعلى(أ) مُنازلة قُسَنْطِينَة، ونُهوضه لذلك[1]

[247 أ] سَلَفُ هذا الرَّجُل من أهل المهديّة من أجناد العَرَب من بَني تَميم / بإفْرِيقِيَّة، وانتقل جدّه عليّ إلى تُونِس باسْتدعاء السُّلْطان المُسْتَنْصِر، [من بَني حَفْص

(أ) ساقطة من أ

(1) الزركشيّ: تاريخ الدولتين 95

المُوَحِّدين][أ]؛ وكان فقيهاً عارفاً بالفُتْيَا والأحْكام؛ فقلَّدهُ القَضاء بالحَضْرة. واستعمله على كتابِ عَلامتِهِ في الرّسائل والأوامر الكبرى والصُغرى، فاضْطَلع بذلك، وهَلَكَ على حَالِهِ من التَّجِلَّة والمنصب. وقُلِّد ابنُه عَبْدُ الله من بعده العَلامتَيْن[1] أيّامَ أبي حَفْص عمر ابن الأمير أبي زَكَرِيَّاء، كما كان لأبيه، فاضطلع بذلك. وكان أخوهُ أحمد بنُ عليّ مُسمَّتاً وقوراً منتحلاً للعِلْم. ونشأ ابنه مُحَمَّد، وقرأ بتُونِس، وتفقّه على مشيختها.

ولمّا ألتاثتْ أمورُهم وتلاشتْ أحوالُهم، خرج مُحَمَّد بنُ أحمد بن عليّ[ب] مُبتغياً للرِّزق والمعاش، فطوَّحت به الطَّوائح إلى بلد القُلّ[2]؛ وكان مُنتحلاً للطلب والكتابة؛ فاستُعْمِل شاهداً بمَرْسى القُلّ أيّام رِياسة الحاجب ابن غَمْر[ج]، وكانت له صُحبةٌ مع حسن بن مُحَمَّد السَّبْتيّ المُنْتَحل نسب الشَّرف. وكانا رفيقَيْن في مَطارِح اغترابهما، فسعى له في مُرافقته في الشَّهادة؛ فأُسْعِف، واتَّصلا بابن غَمْر لحمد مذاهبهما.

(أ) ما بين الحاصرتين زيادة من أ، وكتبه بهامش ض بخطّه (ب) أ: محمد بن أحمد هنا (ج) في ظ، ص، حيثما يرد تالياً: عمر

(1) لعلّه يقصد العلامة في الأوامر الكبرى والصغرى، كوالده.

(2) القل: مدينة قديمة في الجزائر على ساحل البحر المتوسط، قال الإدريسي (نزهة المشتاق 1: 269): "مدينة عامرة، وهي مرسى على البحر". ونزل التمكروتي بمرساها وأقام بها يومين، قال: "مرسى القل: وهو مرسى مليح مستكن من الريح، فيه سوق وديار وجامع". ومدينة القل تقع في أسفل جبل شاهق، وتفصل أيضاً بينها وبين قسطينة جبال عالية. النفحة المسكية 51، وأيضاً: مجهول: الاستبصار 127 (وذكر أيضاً فحص القل بالقرب من باجة 160)، الوزان: وصف إفريقيا 2: 54، مازمول: إفريقيا 63.

ولمَّا نزع الشَّرِيفُ عَبْد الوَهَّاب زعيمُ تَدَلَّس إلى طاعة المُوَحِّدِين، أيّام التياث أبي حَمُّو، بخُروج مُحَمَّد بن يوسُف عليه، واعتلال الدَّوْلَة، ودَخل في أمْرِ ابنِ عَمْرو وجُمْلته، فبعث[أ] مُحَمَّد بن أبي عَمْرو هذا وصاحبه إلى تَدَلَّس، واستُعْمِل حسن الشَّرِيف في القضاء، ومُحَمَّد بن أبي عمرو في شهادة الدِّيوان.

فلمَّا برئت الدَّوْلَةُ من مَرضها، واستَفحل أمرُ أبي حَمُّو، وتغلَّب على تَدَلَّس، وجاء رئِيسُ الفُتْيَا [أبو موسى][ب] ابن الإمام لاقتضاء طاعَتِها وإيفادِ[ج] أهلها على السُّلْطان أبي الحسن[د]، كانوا في الوَفْد. واستقرُّوا بتِلِمْسان من يومئذٍ، واستُعملا معاً في خُطّة القَضاء متعاقبين أيّام بَني عَبْد الوَاد وأيّام السُّلْطان أبي الحسن.

وتَعَصَّبَ على ابنِ أبي عَمْرو أيّامَ قضائه جماعةٌ من مشيخة البَلَد، وسعوا به إلى السُّلْطان أبي الحسن، وتظلَّموا؛ فأشكاهم على عِلْمٍ من براءته، واختصّه بتأديبِ وَلَده فارس هذا وتعليمه، فأفرغ وُسْعَهُ في ذلك.

[247 ب] وربِي ولده مُحَمَّد هذا الحاجبُ مع / السُّلْطان أبي عِنَان تِرْباً وخليلاً، وألْقى عليه محبَّته، حتّى إذا خلص له الملك؛ [رفعَ رُتْبةَ مُحَمَّد بن أبي عَمْرو هذا، ورقّاه][هـ] من منزلةٍ إلى أخرى، حتّى إذا أوفى به على سائرِ المراتب، وجعلَ إليه العلامةَ، والقِيادةَ، والحجابةَ، والسِّفارةَ، وديوانَ الجُنْد، والحسابَ، والقَهْرَمَةَ، وسائرَ ألْقابِ دَوْلته وخُصُوصيّات دارِه، فانصرفتْ إليه الوجوه، ووقفتْ

(أ) أ: بعث (ب) من أ، ومثبتة بهامش ض بخطّه (ج) ص: وإنفاد (د) ساقطة من أ، ص (هـ) سقط ما بين الحاصرتين من ظ

ببابه الأشراف من الأعْياص والقبائل والشُّرفاء والعُلَماء. وسرَّبَ إليه العُمَّالُ أموالَ الجبايةِ تزلّفاً، وطالَ أمرُه واستيلاؤُهُ على السُّلْطان. ونَفِس عليه رجالُ الدَّوْلَة ووزراؤها ما آتاه الله من الحظّ، حتّى إذا خلا لهم وجهُ السُّلْطان منه عند نُهوضه إلى بِجَايَة، حامَتْ أعراضُ السّعايَة على مكانه فقرطست، وألْقَى السُّلْطان أذنه لاستماعها. فلمّا رَجَع من بِجَايَة، وكانت له الدَّالَّة على السُّلْطان، وَجَد عليه في قَبول الألاَقِي، ولقيه مغاضِباً؛ فتنكّر له السُّلْطان، ثم تجَنّى بطَلَب الغيبة عن الدَّوْلَة، وأنْ يَعْقِد له على بِجَايَة متوهّماً أنَّ السُّلْطان ضَنينٌ به، فبادَر السُّلْطان إلى إسْعافِه، وبدا له ما لم يحتَسب من الإعراض عنه. ورَجَع إلى الرَّغبة في الإقالة، فلم يُسْعَف. وعقَد له على حَزب قُسَنطِينَة، وحكّمه في المال والجيش، وارتحل في شَعْبان من سنةِ أربعٍ وخمسين، واحتلّ ببجَايَة آخرَها، وأشتَى[أ] بها.

ونصب المُوَحّدُون تَاشِفِين ابن السُّلْطانِ أبي الحسن المعتقَل عندهم من لَدُن عَهْد المولى[ب] الفَضْل واعتقاله إياه، فنصبوه للأمر لتَفْريق كلمة بَني مَرِين، وجمعوا له الآلَة والفَساطيط، وقام بأمره ميمون بنُ عليّ لمنافسةٍ مع أخيه يَعْقُوب.

وسَمِع بخبره يَعْقُوب، فأغَذَّ السَّيْرَ إليه بحِلَله من بلاد الزَّاب، وفرَّقَ جمعَهم، وردّهم على أعقابهم، وأجْحَرهم بالبَلَد. ولمَّا انصرم الشّتَاءُ، وقضى مَنْسَكَ الأضْحى، عَسْكَر بساحة البَلَد، واعترض العَساكِر، وأزاح عِلَلَهم، وفرَّق أُعطياتهم، وارتحل إلى

(أ) أ: وشتا (ب) طمست في أ ، ض، وعوضها في الهامش: السلطان

مُنازلةَ قُسَنطِينَة. واجتمع إليه الدَّوَاودَة بجِلَّلهم، وجمع المولى[أ] أبو زيد صاحبُ قُسَنطِينَة / مَنْ كان على دَعْوته من أحياء تَوْبَةَ[ب]، وميمون بن عليّ بن أحمد وشيعته من الدَّوَاودَةِ، وعقد عليهم لحاجبه نبيل[ج]، وسَرَّحَه لِلقاء ابنِ أبي عَمْرو وعَساكره، فأوقع بهم الحاجب لجُمادَى من سنةِ خمسٍ، واكتسح أموالَهم. ونازَلَ قُسَنطِينَة حتَّى تفادوا منه بتَمْكينه من تَاشِفِين ابنِ السُّلْطان أبي الحسن المنصُوب للأمر، فاقتادوه إليه، وأشخصه إلى أخيه السُّلْطان. [248 أ]

وأوْفَد المولى[د] أبو زيد ابنَه على السُّلْطان أبي عِنَان؛ فتقبَّل وِفادَته، وشكرَ مُراجعته، وانكفأ الحاجبُ ابن أبي عَمْرو إلى بجَايَة، وأقام بها إلى أنْ هَلَكَ في المُحرَّم فاتحَ سنةِ ستٍّ وستِّين، فذهب حميدَ السَّيرة عندَ أهل البَلَد، وتفجَّعوا لمهلِكِه. وبعث السُّلْطان دَوابَّه لارتحال عِيالِه ووَلَده، ونقل شِلْوه إلى مقبرة أبيه بتِلِمْسان، وسَرَّحَ ابنه أبا زَيَّان في عَسْكَر بَني مَرِين لموارَاته بها.

وعقد على بجَايَة لعَبْد الله بنِ عليّ بن سعيد وزيره، فنهض إليها في شهر ربيعٍ من سنة ستٍّ [وخمسين][هـ] واستقرَّ بها. وتقيَّلَ ما حمده النَّاس من مذاهب الحاجب وسيره فيها، على ما نذكره. وجهَّز العَسَاكر إلى حصار[و] قُسَنطِينَة، إلى أنْ كان من فَتْحها ما نذكره بعدُ، إنْ شاء الله.

(أ) طمست في أ، ض، وعوضها في الهامش: الأمير (ب) ض: بونة (ج) ساقطة من أ (د) ساقطة من أ، وطمست في ض، وعوضها في الهامش: الأمير (هـ) ساقطة من ظ (و) ساقطة من أ

الخَبَرُ عن خروجِ أبي الفَضْل ابن السُّلْطان أبي الحسن بجبل السَّكْسِيويّ، ومَكْرِ عامِلِ دَرْعَة به ومَهْلِكه

كان السُّلْطانُ أبو عِنَان بعد مَهْلِك أبيه، لحق به في جُمْلته أخَواه أبو الفَضْل مُحَمَّد، وأبو سالم إبراهيم، وتدبَّر في تَرْشيحهما وحذِر عليهما مغبَّته[أ]؛ فأشخصهما إلى الأنْدَلُس، واستقرَّا بها في إيالة أبي الحَجَّاج[ب]*ابن السُّلْطان أبي الوليد ابن الرَّئيس أبي سعيد*[ج]. ثمّ نَدِم على ما أتاه من ذلك، فلمَّا استولى على تِلِمْسان والمَغْرب الأوْسَط، ورأى أنْ قد استفحل أمرُه واعتزَّ سُلْطانه؛ أوْعزَ إلى أبي الحَجَّاج أنْ يُشْخِصهما إليه[1] ليكونَ مُقامُهما لديه أحْوَط على الكلمة من أنْ يعتمد على تَفْريقهما / [248 ب] سَماسرةُ الفِتَن. وخَشِيَ أبو الحَجَّاج عليهما عاديَتَه، فأبى من إسلامِهما إليه، وأجاب الرُّسُلَ بأنَّه لا يخفر ذمَّته وجِوارَ المُسْلِمين المجاهدين، فأحْفَظتِ السُّلْطانَ كلمتُهُ، وأوْعَزَ إلى حاجِبِه مُحَمَّد بن أبي عَمْرو بأنْ يخاطبَه في ذلك بالتَّوْبيخ واللَّائمة؛ فكتبَ له كتاباً أقْذعَ فيه، وَقَفَني عليه الحاجبُ بِبجَايَةَ أيَّامَ كَوْني معه، فقضيْتُ العجبَ من فُصُوله وأغراضه.

ولمَّا قرأه أبو الحَجَّاج، دسَّ إلى كبيرِهما أبي[د] الفَضْل باللَّحاق بالطَّاغِيَة، وكانت بينهما ولايةٌ ومُخالصةٌ منذ مَهْلِك أبيه الهُنْشُهْ على جَبَل الفَتْح سنة إحدى وخمسين،

(أ) أ: مغبّة أمرهما معه (ب) أ: سلطانها أبي الحجاج (ج) سقط ما بين النجمين من أ (د) ظ: أبو

(1) في الرسائل التي احتفظ بها ابن الخطيب في كناسة الدكان 170، 181، 188

فنزعَ إليه أبو الفَضْل وأجارَهُ[أ]، وجهّز له أسْطولاً إلى مَراسي المَغرب، وأنـزلَه بساحل السُّوس، فلَحِق بالسَّكْسِيويّ عبدالله ودعا لنفسه.

وبلَغ الخَبَرُ إلى السُّلْطان بين يدي مَقْدَم حاجبه ابن أبي عَمْرو من فَتْح بِجَايَةَ سنةَ أربعٍ وخمسين، فجَهَّز عَساكِره إلى المَغْرب. وعقَد على حَرْب السَّكْسِيويّ لوزيره فارس ابنِ ميمون بن وَدْرَار، وسَرَّحَه إليه؛ فنَهض من تِلِمْسان لربيعٍ من سنة أربعٍ وخمسين، وأغَذَّ السَّيْرَ إلى السَّكْسِيويّ، ونـزل بمُخَنَّقِه، وأحاط به، واختطَّ مدينةً لمَعَسْكَره وتَجْمير كتائبه بسَفْح جَبَلِهِ، وسمَّاها القَاهرة.

واشـتدَّ الحـصارُ عـلى السَّكْسِيويّ، وراسـل الـوَزِيرَ في الرُّجـوع إلى طاعَتِـه المعروفة، وأنْ يَنبذَ العَهْد إلى أبي الفَضْل، ففارَقَه وتنقَّل في جبال المَصَامِدَة.

ودخل الوَزِيرُ فارس إلى أرض السُّوس، فدوَّخ أقطارَه، ومهَّد أنحاءه، وسارت الألوِيـةُ والجيـوشُ في جهاتِـه. ورتَّـبَ المـسالحَ في ثُغـورِه وأمْـصاره؛ مثـل: إيفِـري فونان[ب]، وتَارَوْدَانْت، وثقف أطرافه، وسدَّ فُروجه.

وسار أبو الفَضْل في جبال المَصَامِـدَة إلى أن انتهى إلى صَنَاكَة[ج]، وألْقى بنفسه على ابن حَمِيدي منهم ممَّا يلي بلاد دَرْعَةَ؛ فأجارَهُ[د] وقام بأمره. ونازلَه عاملُ دَرْعَةَ يومئذ عَبْد الله بن مسلم الزَّرْدَاليّ من مَشيخة دَوْلة بَني عَبْد الوَاد، كان اصْطنعَهُ

(أ) ظ، ص: وأجازه (ب) ظ، ص، ض: إيفري ان فونان، أ: إيفري ان يُونان. وذكرها في الجزء الحادي عشر [ورقة 77ب]، وأنها من أرض السوس قبلة مراكش، وهي بلاد ذاتُ نخل وأنهار ومزارع متعددة عامرة. (ج) في أ، ص: وضع تحت الصاد حرف زاي. وصناكة أو زناكة: هي قبيلة صنهاجة الصحراوية. الوزان: وصف إفريقيا 1: 38، 2: 148 (د) ص، أ: فأجازه

السُلْطانُ أبو الحسن منذ تغلّبه عليهم وفَتْحه / لتِلِمْسان سنةً سبعٍ وثلاثين، فاستقرّ في دَوْلتهم ومن جُمْلة صَنائعهم، فأخذ بمُخَنَّقِ ابن حَمِيدي وأرْهبه بوُصول العَساكر والوزراء إليه، وداخَلَه في التقبُّض على أبي الفَضْل وأنْ يبذلَ له في ذلك ما أحبَّ من المال، فأجابَ ولاطفَ عَبْد الله بن مسلم [الأمير](أ) أبا الفَضْل، ووَعَده من نفسه الدُّخول في أمره، وطلب لقاءه؛ فركب إليه أبو الفَضْل. ولمَّا استمكن منه عبد الله بن مسلم تقبّض عليه، ودَفَع لابن حَمِيدي ما اشترط له من المال، وأشْخصَهُ مُعْتَقَلاً إلى أخيه السُلْطان أبي عِنَان سنةً خمسٍ وخمسين، فأوْدَعَهُ السِّجنَ، وكتب با[لفَتح](ب) إلى القاصية. ثمَّ قَتَله لليالٍ من اعتقاله خَنْقاً بمَحْبِسه. وانقضى أمرُ الخوارج، وتمهّدت الدَّوْلَة، إلى أنْ كان ما نذكر. [249أ]

الخَبَرُ عن انتقاضِ عيسى بن الحسن بجَبَل الفَتْح(1) ومَهْلكِه

كان عيسى بنُ الحسن بن عليّ بن أبي الطَّلَاق هذا من مشيخة بَني مَرِين، وكان صاحبَ شوراهم(ج) لعَهْده. وقد كنّا قَصَصْنا من قبل أخبارَ أبيه الحسن عند ذِكْرِ دولة أبي الرَّبيع. وكان السُلْطانُ أبو الحسن قد عَقَد له على ثُغور عَمَلِه بالأنْدَلُس، وأنْزله بجَبَل الفَتْح عندما أكمل بناءه، وجعل إليه النَّظر في مَصالح الثُّغور وتفْريق

(أ) ساقطة من ظ (ب) مكان ما بين الحاصرتين بياض في ظ (ج) ظ، ص، ض: شوارهم

(1) جاء في رحلة ابن بطوطة من رواية ابن جزيّ خبر انتقاض عيسى بن الحسن باختصار، وقد وصف ابن جزيّ عيسى هنا بـ "الخائن الذي خُتم له بالشقاء... الشقيّ المخالف". ابن بطوطة: تحفة النظار 4: 214

العَطاء على مَسالِحها[أ]، فطالَ عَهْدُ ولايته، ورسخ فيها قدمُه. وكان السُّلطانُ أبو الحسن يبعث عنه في الشُّورَى متى عنَّتْ. وحَضَره عندَ سَفَرِه إلى إفرِيقِيَّة، وأشار عليه بالإقصار عنها، وأراه أنَّ قبائل بَني مَرين لا تفي أعدادهم بمَسالح الثُّغور إذا رُتِّبَتْ شرقاً وغرباً وعُدْوَةَ البَحْر، وأنَّ إفرِيقِيَّة تحتاج من ذلك إلى أوْفر الأعداد وأشدّ الشوكة؛ لتغلُّب العَرَب عليها وبُعْد عَهْدهم بالانقياد، فأعرَضَ السُّلطانُ عن نَصيحته؛ لِمَا كان شَرِهَ إلى تملُّكها، وصرفه إلى مكان عَمَله بالثُّغور الأنْدَلُسيَّة.

ولمَّا كانت نَكْبَةُ القَيْرَوان، وانتزَى الأبناءُ بفَاس وتِلِمْسان، وأجاز البَحْر لحسم الدَّاء، ونزل بغَسَاسَة. ثمَّ انتقل إلى وَطَنِه بتَازَى، وجمعَ قَوْمه بَني عَسْكَر. وألْفَى السُّلْطان أبا عِنَان قد هزم عَساكِرَ / ابنِ أخيه وأخذ بمُخَنَّقِه، فأجْلَبَ عليه وبيَّتَهُ [249 ب] بمُعَسْكَره من ساحَةِ البَلَد الجَدِيد. وعقد السُّلْطانُ أبو عِنَان على حَرْبه لصَنيعته سعيد ابن موسى العَجِيسيّ[1]، وأنزلَهُ[ب] بثغر بلادِ بَني عَسْكَر على وادِ بُوحُلُو. وتَوافَقا كذلك أيَّاماً حتَّى تغلَّب السُّلْطان أبو عِنَان على البَلَد الجَدِيد. ثمَّ راسَل عيسى بنَ الحسن في الرُّجوعِ إلى طاعَتِه. وأبطأ عنه صريخُ السُّلْطانِ أبي الحسن بإفْرِيقِيَّة،

(أ) ظ: مصالحها (ب) ظ: وأنزل

(1) نسبته لعَجِيسَة: من قبائل البربر، لهم فحَصّ بقرب مدينة القدير بالجزائر يعرف بفحص عجيسة، كثير الزرع إلا أنه شديد البرد والثلج. مجهول: الاستبصار 167، 172

فراجعَهُ واشترط عليه، فتقبّل وسار إليه، فتلقّاه السُّلْطان وامتلأ سروراً بمَقْدَمِه. وأنزلهُ بقُصوره، وجعل الشُّورَى إليه في مَجْلسه، واستمرَّتْ على ذلك حالُه.

ولمَّا تمكَّنت حالُ ابن أبي عَمْرو بعدَ مَهْلِك السُّلْطان أبي الحسن، وانفرد بخُلَّةِ[أ] السُّلْطانِ ومُناجاتِه، وحَجْبِهِ عن الخاصَّة والبِطانة، أخفظه[ب] ذلك ولم يُبْدِها. واستأذن السُّلْطانَ في الحجِّ؛ فأذِنَ له، وقَضى فَرْضَهُ، ورَجَع إلى محلّه من بِساط السُّلْطان سنة ستٍّ وخمسين[ج]. ولقي ابن أبي عَمْرو ببِجَايَة، وتطارَح عليه في أنْ يصلحَ حالَه عند سُلْطانه، فوعدَهُ في ذلك. ولمّا وفد على السُّلْطان وجدَهُ قد استبدَّ في الشُّورَى، وتنكّر[د] للخاصَّة والجلساء، فاستأذنه في الرُّجوع إلى مَجْلسه من الثَّغر لإقامة رَسْم الجهاد؛ فأذِنَ له، وأجاز البَحْرَ إلى جَبَل الفَتْح من سَنَتِه.

وكان صاحبَ ديوان العَطاء بالجبل[هـ] يَحْيَى الفرقاجيّ، وكان مُستظهراً على العُمَّال، وكان ابنُه أبو يَحْيَى قد بَرِم بمكانه. فلمَّا وصل عيسى إلى الجبل اتَّبعه السُّلْطان بأُعطياتِ المسالح مع مَسْعُود بن كَبْنْدُوْز من صَنائع دَوْلته، فاشرَأَبَّ[و] الفرقاجيّ إلى الضَّرْب[ز] على يده شأنَه مع ابنه أيَّامَ مَغيبه، وأنِفَ عيسى من ذلك، فتقبّض عليه

(أ) ظ، ص: بحلة (ب) ظ، ص: احتفظه (ج) كذا في ظ، ص، وفي أ: "وقضى فرضه سنة ست وخمسين ورجع إلى محله من بساط السلطان، ولقي..."، وفي هامش ض: أقحم تاريخ السنة "ست وخمسين" بعد قضاء الفرض وأبقى على سنة رجوعه إلى محله عند السلطان أيضاً. (د) ظ: فتنكر (هـ) أ: بجبل الفتح (و) ص: فاستراب (ز) ظ، ص: القرب

وأوْدعَهُ المُطْبَق[أ]، وردَّ ابن كَنْدُوْز على عَقِبِه، وأرْكبه السُّفِين من لَيْلَته إلى سَبْتَة[ب]، وجاهَرَ بالخُلْعان.

وبلَغ الخَبَرُ إلى السُّلْطانِ أبي عِنَان، فقَلِق لذلك، وقام في رَكائبه وقَعد، وأوْعَز بتَجْهيز الأساطِيل، وظنَّ أنّه تدبيرٌ[ج] من الطَّاغِيَة وابن الأحْمر. وبعث أحمد بن الخَطِيْب قائد البَحْر بطَنْجَة عَيْناً على شأنهم، فوَصل إلى مَرْسى الجبل، وكان عيسى ابن الحسن لمَّا جاهَرَ بالخُلعان، تمشَّت رجالاتُ / الثَّغر وعُرفاء الرَّجْل من غُمَارَة الغُزاة [250 أ] المُوطَّنِين بالجبل، وتحدَّثوا في شأنه، وامتنعوا من الخروج على السُّلْطان، وتوامروا في إسلامه بِرُمَّته. وخالفه[د] سُلَيمانُ بن داود بن أعراب العَسْكَرِيّ؛ كان من خواصّه وأهل شوراه. وكان عيسى قد مَكَّن قَدَمَه عند السُّلْطان واستعمله على رُنْدَةَ. فلمَّا جاهَرَ عيسى بالخُلْعان، ورَكبَ له ظَهْرَ الغَرَر[هـ]، خالَفه سُلَيمان هذا إلى طاعةِ السُّلْطان، وأنفذ كتبه وطاعته. واشتبهَ عليه الأمر، فندِم[و]؛ إذ لم يكن بَنى أمْرَه على أساسٍ من الرَّأي.

فلمَّا احتلَّ أُسْطُول أحمد بن الخَطِيب بمَرْسى الجبل، خرج إليه، وناشدهُ الله والعَهْدَ أنْ يُبْلغَ السُّلْطانَ طاعتَه، والبراءةَ بما صنع أهل الجبل، ونَسَبها إليهم.

فعند ذلك خشي غُمارَةَ على أنفسهم، فثاروا به. ولجأ إلى الحِصْن، فاقتحموه عليه،

(أ) ظ، أ، ص، ض: الطبق (ب) سقطت عبارة "إلى سبتة" من أ (ج) ظ، ص، ض: أنه قد تدبير (د) ظ: وخلا به، ص: وخلانه (هـ) الغَرَر: الخطر (و) ظ: فتقدم

وشدُّوه وابنَه وثاقاً، وألقوهما[أ] في أسْطول ابن الخَطِيب. وأنزلهما[ب] بسَبْتة، [ثمّ رَكِب فرسَه][ج] وطار إلى السُّلْطان بالخبر، فخَلَع عليه، وأمرَ خاصَّته فخلعوا عليه. وبعث عُمَر ابنَ وزيره عَبْد الله بن علي وعُمَر بن العجوز قائد جُند النَّصارَى، فأحضروهما بدار السُّلْطان يومَ مِنى من سنة ستٍّ [وخمسين][د]. وجلس لهما السُّلْطان، ووقفا بين يديه، وتنصَّلا واعتذرا؛ فلم يقبل منهما، وأوْدعهما السِّجنَ وشدَّ ثقافهما، حتَّى قضى مَنْسَك الأضْحَى.

ولمَّا كان خاتَم سَنَتِه أمرَ بهما، فجنبا إلى مَصارعهما، وقُتل عيسى قَعْصاً بالرِّماح، وقُطع ابنهُ أبو يَحْيَى من خِلاف، وأبى من مُداواة قطعه[هـ]، فلم يزل يتشحَّط في دَمِه إلى أنْ هَلَك لثانيةِ قَطْعه، وأصْبَحا مثلاً في الآخرين. وعَقَد على جَبَل الفَتْح وسائر ثُغور الأنْدَلُس لسُلَيمان بن داود إلى أنْ كان من الأمر ما نذكره.

الخَبَرُ عن نُهوض السُّلْطان إلى قُسَنْطِينَة وفَتْحها، ثمَّ فتح تُونس عَقِبها

لمَّا هَلَكَ الحاجبُ مُحَمَّد بن أبي عَمْرو، عَقَد السُّلْطانُ على الثُّغور ببِجَايَة[و] وما وراءها من بلادِ إفْرِيقِيَّة لوَزيرِه عبدالله بنِ عليّ بن سعيد، وسَرَّحه إليها، وأطْلَق يدَه في / الجبايةِ والعَطاء. وكانت جبالُ ضَواحي قُسَنْطِينَة قد تملَّكها السُّلْطانُ بما [250 ب] كانت الدَّوَاودَة متغلِّبةً عليها. وكان عامَّةَ أهلِ ذلك الوَطَن قبائلُ سَدْوِيكَش، وعَقَد

(أ) ظ، ص: وألقوه (ب) ظ، ص: وأنزله (ج) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، ص، ومثبت في أ، وفي هامش ض
(د) زيادة من أ (هـ) أ: وأبى من إدمال القطع، ض: إدمال قطعه (و) ظ، ض: بجاية

السُّلطانُ عليهم لموسى بنِ إبراهيم بن عيسى [اليَرْنِيَّانيّ](أ)، وأنـزله بتَـاوَرِيْرَتْ(ب) آخـر عَمَل بِجَايَة *في وَلَده وأقاربه وصَنائعه.

ولمَّا نازَلَ ابن أبي عَمْرو بِجَايَة*(ج)، وأخذ بمُخَنَّق قُسَنطِينَة، ثمَّ ارْتَحل عنها على مـا عقَد من السِّلْم مع المولى(د) الأمير أبي زيد، أنزَل موسى بنَ إبراهيم بِمِيْلَة[1]، فاسـتقرّ بها.

ولمَّـا وَلِيَ الـوَزِيرُ عَبْـد الله بـنُ علـيّ أمـرَ إفْرِيقِيَّة، أوْعـزَ إليـه السُّلْطانُ بمُـنازلة قُسَنْطِينَة[2]، فنازَلَها سـنةَ سبعٍ وأخذ بمُخَنَّقها، ونَصَب المنجنيق عليها، واشـتدَّ الحصارُ بأهلها، وكادوا أنْ يُلْقوا باليد، لولا ما بلَغ المَعَسْكَرَ(هـ) من الإرْجافِ بهَلِك السُّلْطان، فأفرجوا عنهـا. ولحـق المـولى(و) أبـو زيـد ببُونَـة. وأسْـلَم البَلَد إلى أخيـه *مَـوْلانا أمـير المؤمنين أبي العبَّاس، أيَّده الله تعالى*(ز)، عندما وَصَل إليه من إفْرِيقِيَّة، كان بهـا مـع العَـرَب طالبـاً مُلكهـم بتُونِـس، ومُجْلبـاً بهـم علـى ابـن تَافْرَاكِـين منذ نازَلـوا تُونِس

(أ) زيادة من هامش أ (ب) كذا في ظ، ص، وكُشطت في أ، وطمست في ض وأدالها بـ: ببلد بني وَرّا. وبلاد بني ورا في أقصى المغرب (كما في نفاضة الجراب 68 ـ 69)، وهي بعيدة عن بجاية في الجزائر. (ج) سقط ما بين النجمين من أ (د) ساقطة من أ وطمست في ض (هـ) ظ: العسكر (و) أ، ض: الأمير (ز) سقط ما بين النجمين من أ، وطمس في ض، وعوضه فيها: أخيه أبي العباس

---

(1) مِيلَة: مدينة قديمة في الجزائر، تقع على بعد نحو اثني عشر ميلاً من قسنطينة، ولها قرى عامرة، وعليها سور من الصخر من بناء الأقدمين، وفيها العين المعروفة بعين أبي السباع. البكري: المسالك 2: 729، الإدريسي: نزهة المشتاق 1: 265، الوزان: وصف إفريقيا 2: 60، مجهول: الاستبصار 166، الحميري: الروض المعطار 568.

(2) الزركشيّ: تاريخ الدولتين 102

سنةَ ثلاثٍ وخمسين، كما مرّ. فلمّا رجع الآن إلى قُسَنطِينَة مع خالد بن حَمزَة، داخَلَ خالد المولى(أ) أبا زيد في خُروجه إلى حصارِ تُونِس، وإقامة مَوْلانا(ب) أبي العبّاس بقُسَنطِينَة؛ فأجابَ لذلك وخَرج معه.

ودَخل مَوْلانا(ج) أبو العبّاس إلى قُسَنطِينَة، فدعا لنفسه، وضَبَط قُسَنطِينَةَ، وكان مُدِلّاً ببأسه وإقْدامه. وداخَلَهُ بعضُ المُنحرِفِين عن بَني مَرِين من أولاد يوسُف رؤساء سَدْوِيكَش في تبييت(د) موسى بن إبراهيم بمُعَسْكَره من مِيلَةَ، فبيَّتوهُ، وانتهبوا مُعَسْكَره، وقَتَلوا أولادَه، وخلصوا إلى تَاوَرِيرَتْ(هـ)، ثمَّ إلى بِجَايَة، ولحق بمَوْلانا(و) السُّلْطانِ مَفْلولاً.

ونَكِر السُّلْطانُ على وَزيرِه عَبْد الله بنِ عليّ ما وَقَع بموسى بنِ إبراهيم، وأنّه قصَّرَ في إمْدادِه، فسرَّح شُعَيب بنَ ميمون، وتقبّض عليه، وأشخَصَهُ إلى السُّلْطان مُعْتَقلاً، وعَقَد على بِجَايَة مكانَهُ ليَحْيَى بنِ ميمون بن أَمَضمود من صَنائع دَوْلته.

وفي خلال ذلك راسَلَ المولى(ز) أبو زيد الحاجبُ، أبا مُحمَّد عَبْد الله بنَ تَافرَاكِين المتغلّب على عَمِّه إبراهيم، في / النُّزُولِ لهم عن بُونَة، والقُدوم عليهم بتُونِس؛ [1251]
فتقبّلوه وأحلُّوه محلَّ وليّ العَهْد، واستعملوه على بُونَة *من صَنائعهم*(ح).

(أ) أ، ض: الأمير (ب) أ، ض: أخيه الأمير (ج) ساقطة من أ، وطمست في ض (د) ظ: تبيت (هـ) طمست في أ، وكتب في الهامش: بني وزا (و) ساقطة من أ، وطمست في ض (ز) أ، ض: الأمير (ح) سقط ما بين النجمين من أ، وطمس في ض

ولمّا بلَغ خبرُ موسى بن إبراهيم إلى السُّلْطانِ أيّامَ التَّشريق من سنةِ سبعٍ[أ] وخمسين، اعتزم على الحركةَ إلى إفرِيقِيّة. واضطَرب معَسكَره بساحة البَلَد الجَدِيد. وبعث في الحشد إلى مَرّاكُش. وأوْعَز إلى بَني مَرِين بأخذِ الأُهْبَة للسَّفر، وجَلَس للعَطاءِ والاعْتراضِ من لَدُن وُصولِ الخَبَر إليه إلى شهر ربيع من سنة ثمان.

ثمَّ ارْتَحلَ من فاس، وسَرَّحَ في مُقدّمته وزيرَه فارسَ بنَ ميمون في العَساكر، وسار في سَاقَتِه على التَّعْبِئَة، إلى أنْ احتلّ بِبجَايَة، وتلوَّم لإزاحة العِلَل. ونازَل الوَزِير قُسَنْطِينَة، ثمَّ جاء السُّلْطانُ على أثره. ولمّا أطلّت راياتُه، وماجَت الأرْضُ بعَساكره، ذُعِرَ أهلُ البَلَد، وألقوا بأيديهم إلى الإذعان، وانفضُّوا من حول سُلْطانهم مُهْطعِين إلى السُّلْطان، وتحيَّز صاحبُ البَلَد في خاصّته إلى القَصَبة. ووَصَل أخوهُ المولى[ب] الفَضْل يطلبُ[ج] الأمان، فبذلَه السُّلْطانُ لهم، وخرجوا، وأنزلهم بمُعَسْكَره أيّاماً. ثمَّ بعث بالسُّلْطانِ في الأُسطُول إلى سَبْتَةَ، فاعتقلَهُ بها إلى أنْ كان من أمره ما نذكره بعدُ.

وعَقَد على قُسَنْطِينَة لمنصور بنِ الحاجّ خَلُوف اليابانيّ من مَشيخة بَني مَرِين وأهل الشُّورَى منهم، وأنزله بالقَصَبة منها في شَعْبان من سَنَتِه.

ووَصَل إليه بمُعَسْكَره من ساحة قُسَنْطِينَة بيعةُ يَحْيَى بنِ يَمْلُول صاحبِ تَوْزَر، وبَيْعة عليّ بنِ الخَلَف صاحبِ نَفْطَةَ، ووَفَد ابنُ مكّي مُجدِّداً طاعته.

(أ) ظ، ص: تسع، تصحيف (ب) ساقطة من أ، وطمست في ض (ج) أ: بطلب

ووَصَل إليه أولادُ مُهَلْهِل أمراءُ الكُعُوب وأقتالُ بَني[أ] أبي اللَّيْل يستحثُّونه لمُلْك تُونِس، فسرَّح معهم العَسَاكر، وعَقَد عليها ليَحْيَى بن رَحُّو بن تَاشِفِين، وبعث أُسْطُوله في البَحْر مَدَداً لهم، وعَقَد عليه للرَّئِيس مُحَمَّد بن يوسُف الأبْكَم [من بَني الأحمر][ب]، وساروا إلى تُونِس، وأخرجَ الحاجبُ أبو مُحَمَّد بنُ تَافْرَاكِين سُلْطانه أبا إسحاق إبراهيم ابن مَوْلانا[ج] السُّلْطان أبي يَحْيَى مع أولاد أبي اللَّيْل، وجمَّز له العَساكِر لمَّا أحسّ بقُدُومِ عَساكرِ السُّلْطان. ووَصَل الأُسْطُولُ إلى مَرْسى تُونِس، فقاتَلَهم يوماً أو بعضَ يوم، وركبَ اللَّيْلَ إلى المَهْدِيَّة، فتحصَّن بها. ودخلَ أولياءُ السُّلْطان / إلى [251 ب] تُونِس في رمضان من سنة ثمانٍ، وأقاموا بها دَعْوتَه. واحتلّ يَحْيَى بن رَحُّو بالقَصَبة، وأنفذ الأوامِرَ، وكتبوا إلى السُّلْطان بالفَتْح.

ونظر السُّلْطانُ - بعد ذلك - في أحوال الوَطَن، وقَبَض أيدي العَرَب من رياح عن الإتَاوَة التي يسمُّونها الخِفَارة؛ فارتابوا، وطالَبهم بالرَّهْن، فأجْمعوا على الخِلاف، وأرْهَف لهم حَدّه، وتبيَّن ليَعْقُوب[د] بنِ عليّ أميرِهم نَكْراءَه[هـ]، فخرج معهم، ولحقوا جميعاً بالزَّاب، وارتحل في أثرهم. وسار يوسُف بنُ مُزْني عاملُ الزَّاب ينفضُ الطَّريق أمامَه حتّى نزل بَسْكَرَة. ثمّ ارتحل إلى طُولَقَة[1]، فتقبَّض[و] على مُقَدَّمِها عبد الرَّحمن

(أ) ظ: ابن (ب) ما بين الحاصرتين زيادة من أ، ومثبت بهامش ض (ج) ساقطة من أ، وطمست في ض (د) ظ، ص: يعقوب (هـ) ظ: مكراً (و) ظ: فقبض

(1) طولقة: مدينة جزائرية قديمة، من ناحية الزاب الكبير، يحيط بها سور، ويمرّ بقربها جدول ماء ساخن. ضبطها ياقوت بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح اللام والقاف. معجم البلدان 4: 50، الحميري: الروض المعطار 400، الوزان: وصف إفريقيا 2: 140

ابن أحمد بإشارة ابن مُزْنِي، وخرَّبَ حُصونَ يَعْقُوب بنِ عليّ، وأجفلوا إلى القَفْر أمامَه، ورَجَع عنهم. وحمل له ابنُ مُزْنِي جبايةَ الزّاب، بعد أنْ أرْغدَ عامَّةَ معَسْكَره بالقِرى من الحِنْطة والأُدْم واللُّحْمان والعَلُوفَة لثلاث ليالٍ فغرَّبَ[أ] في ذلك، وكافَأه السُّلْطان عن صَنيعه، فخَلَع عليه وعلى وَلَده وأهله، وأسْنى جَوائزَهم، ورَجَع إلى قُسَنْطِينَة، واعتزَمَ على الرّحلة إلى تُونِس. وضاق ذَرْعُ العَساكر بشأن النَّفقاتِ والإبْعاد في المذهب، وارْتِكاب الخَطَر في دُخول إفْرِيقِيَّة، فتمشَّتْ رِجالاتُهم في الانفِضاض عن السُّلْطان، وداخَلوا[ب] الوَزِيرَ فارسَ بنَ ميمون، فوافَقَهم عليه، وأذِنَ المشيخة والنُّقباءُ لَمَن تحتَ أيديهم من القَبائل في اللَّحاق بالمَغْرب حتّى تفرّدوا.

ونَمَى الخبرُ[ج] إلى السُّلْطان أنَّهم تَوامروا في قَتْله، ونَصَب إدْرِيس بنِ عُثْمان بن أبي العُلَى للأمْر، فأسرَّها في نفسه ولم يُبْدِها لهم. ورأى قلّةَ مَنْ معه من العَساكر، وعَلِم بانفضاضِهم، فكرّ راجعاً إلى المَغْرب بعد أنْ ارتحل [عن][د] قُسَنْطِينَة مرحلتَيْن إلى المشرق، وأغَذَّ السَّيْرَ إلى فاس، واحتلَّ بها غُرّةَ ذي الحِجَّة من سَنَتِه. وتقبّض يوم دُخولِه على وَزيرِه فارسَ بنِ ميمون، اتّهَمَهُ بمُداخلِة بَني مَرِين في شأنه، وقتَله رابعَ أيّام التَّشْرِيق قَعْصاً بالرّماح. وتقبّض على مَشيخة بَني مَرِين، فاسْتَلْحمهم، وأودَعَ منهم السِّجنَ.

(أ) ظ، ص: فغرت (ب) ظ: وأدخلوا (ج) آ، ض: وأنهي إلى، ص: ونهي إلى (د) ظ: إلى

[252 أ] وبَلَغ / إلى الجهاتِ خبرُ رُجوعِه من قُسَنطِينَة إلى المَغرب، فارْتحل أبو مُحَمَّد بن تافْرَاكِين من المَهْدِيَّة إلى تُونِس. ولمَّا أطلَّ عليها ثار شِيَعُهُ بالبَلَد [على](أ) مَنْ كان بها من عساكر السُّلْطان وخَلَصوا إلى السُّفِين، فنَجَوْا إلى المَغرب.

وجاء على أثرهم يَحْيَى بنُ رَحُّو بمَن معه من العَسَاكر، كان مع أولاد مُهَلْهِل بناحية الجَرِيد لاقتِضاء جِباياتِهم. واجتمعوا جميعاً بباب السُّلْطان، وأرجأ حركَتَه إلى العام القابِل، فكان ما نذكرُه.

الخَبَرُ عن وزارة سُلَيمان بن داود، ونُهوضِه بالعَسَاكر إلى إفْرِيقِيَّة

لمَّا رجَعَ السُّلْطانُ من إفْرِيقِيَّة ولم يَسْتَتِمَّ فَتْحَها، بقِيَ في نفسِه منها شيء، وخَشِيَ على ضَواحي قُسَنْطِينَة من يَعْقُوبَ بنِ عليّ ومَن معه من الدَّوَاودَة المُخالفين، فأهمّه شأنُهم، واستدعى سُلَيمان بنَ داود من مكانِ ولايته بثُغور الأنْدَلُس، وعَقَد له على وزارته. وسَرَّحَه في العَسَاكر إلى إفْرِيقِيَّة، فارْتحلَ إليها لربيعٍ من سنةِ تسعٍ وخمسين.

وكان يَعْقُوب بنُ عليّ لمَّا كشفَ وَجْهَهُ في الخِلاف، أقام السُّلْطانُ مكانَه أخاهُ ميمونَ بنَ عليّ مُنازِعَه، وقدَّمه على أولاد مُحَمَّد من الدَّوَاودَة، وأحلّه بمكانِه من رِياسةِ البَدْوِ والضَّواحي. ونزعَ إليه عن أخيه يَعْقُوب الكثيرُ من قَوْمِهم، وتمسّك بطاعة السُّلْطان طوائفُ من أولاد سِبَاع بنِ يَحْيَى، وكبيرُهم يومئذٍ عُثْمان بنُ يوسُف

(أ) ساقطة من ظ، وفي ص: عما كان

ابن سُلَيمان، فانحاشوا جميعاً إلى الوَزِير ونزلوا على مُعَسْكَره بحِلّلهم. وارتحل السُّلْطان في أثره حتّى احتلّ بتِلِمْسان، فأقام بها لمشارَفَةِ أحوالِه منها. واحتلّ الوَزِير سُلَيمان(أ) بوَطَن قُسَنْطِينَة. وأوْعَز السُّلْطانُ إلى عامل الزَّاب يوسُف بن مُزْني بأنْ تكونَ يدُهُ معه، وأنْ يؤامره في أحوالِ الدَّوَاوِدَة؛ لرسُوخِهِ في معرفتِها، فارتَحلَ إليه من بِسْكِرَة، ونازلوا جبلَ أُوْرَاس(1) واقتضوا جِباياتِه ومَغارِمه، وشرَّدوا المُخالفِين من الدَّوَاوِدَة عن العَيْث / في الوَطَن، فتمّ غرضُهم من ذلك. وانتهى الوَزِير [252 ب] وعساكرُ السُّلْطان إلى أوّل أوْطانِ إفْرِيقِيَّة من آخر مجالاتِ رِياح، وانكفأ راجعاً إلى المَغْرب.

ووافى السُّلْطانَ بتِلِمْسان، ووَصَلتْ معه وفودُ العَرَب الذين أبلوا في الخدمة، فوَصَلهم السُّلْطانُ، وخَلَع عليهم، وحَمَلهم وفَرَض لهم العَطاء بالزَّاب وكَتبَ لهم به، وانقلبوا إلى أهلِهم.

ووَفَد على إثْرِهم أحمد بنُ يوسُف بن مُزْني، أوْفده أبوه بهديَّته إلى السُّلْطان من الخيل والرَّقيق والدَّرَق؛ فتقبَّلها السُّلْطانُ وأكرم وِفادَته ونُزُلَه، واستصحبه إلى فاس؛

(أ) أ: وسليمان

(1) جبل أوراس: يقع على بعد نحو ثمانين ميلاً من بجاية، ويشقّ بلاد المغرب وإفريقية، وهو جبل خصيب فيه مدن كثيرة، وفي أسفله يقع حصن بادس ومدينة باغاية. الإدريسي 1: 264، مجهول: الاستبصار 163 ـ 164، الحميري: الروض المعطار 65، الوزان: وصف إفريقيا 2: 102، مقديش: نزهة الأنظار 1: 96

لِيُرِيَه أحوالَ كَرامتِه، ويَسْتبلغَ في الاحتفاء به. واحتلَّ بدارِ مُلكه منتصفَ ذي القَعْدَة من سنة تسعٍ وخمسين.

الخَبَرُ عن مَهْلِكِ السُّلْطان أبي عِنان، ونَصْبِ السَّعيد للأمر، باستبداد الوَزير الحسن بن عُمَر في ذلك

لمَّا وصلَ السُّلْطانُ إلى دار مُلكه بفاس، احتلَّ بها بين يَدَي العيد الأكبر حتَّى إذا قضى الصَّلاةَ من يوم الأضْحَى أدْرَكَه المرضُ، وأعْجَله طائفُ الوَجع عن الجُلُوس يوم العيد على العادة؛ فدخل إلى قَصْره ولَزِم فراشَه، واشتدَّ[أ] به وَجعُه، وأطاف به النِّساء يُمرِّضْنَهُ.

وكان ابنُه أبو زَيَّان وليَّ عَهْده، وكان وزيرُه موسى بن عيسى العَقوليّ من صَنائع دَوْلتهم وأبناء وزرائهم، قد عقد السُّلْطانُ له على وزارتِه واستوصاه به، فتعجَّل الأمرَ وداخَلَ رؤوسَ بني مَرين في الانحياش إلى أمْرِهم والفَتْك بالوَزِير[ب] الحسن بنِ عُمَر. وداخَلَه في ذلك عُمَر بنُ ميمون؛ لعداوةٍ بينها وبين الوَزِير، فخشيها الحسن بنُ عُمَر على نَفْسه، وفاوضَ عِلْيَةَ أهل المجلس بذات صَدْرِه؛ وكانت نفرتُهم عن وليِّ العَهْد مُستحكمةً؛ لِمَا بلوا من سوءِ دَخْلَتِه، وشرّ مِلْكته، فاتَّفقوا على تحويل الأمر عنه.

(أ) أ، ض: واستبدّ (ب) أ: بالوزير الكبير

[253أ] ثمّ نُمِيَ إليهم أنّ السُّلْطانَ مُشرفٌ على الهَلَكة / لا مَحالة، وأنّه موقعٌ بهم من قبل مَهْلِكه، فأجمعوا أمرَهم على الفَتْك به والبيعة لأخيه السَّعيد طفلاً خماسِيًّا، وباكَروا دارَ السُّلْطان، فتقبَّضوا على وزيره موسى بنِ عيسى، وعُمَر بن ميمون، فقتلوهما، وأجلَسوا السَّعيد للبَيْعة. وأغرى وزيره مَسْعُود بن رَحُّو بن مَاسَايْ بالتقبُّض على أبي زَيَّان من نَواحي القَصْر، فدخَلَ إليه وتلطَّف في إخراجِه من بين الحُرَم، وقادهُ إلى أخيه، فبايع، وتلَّه إلى بعض حُجَر القَصْر، فأتلَفَ فيها مُهجَته.

واستقلَّ الحسنُ بنُ عَمَر بالأمر يوم الأربعاء الرَّابع والعشرين لذي الحِجَّة من سنة تسعٍ وخمسين، والسُّلْطانُ - أثناء ذلك - على فراشِه يجودُ بنفسه. وارتقبَ النَّاسُ دَفْنَه يومَ الخميس والجمعة بعده، فلم يُدفن؛ فارتابوا، وفشا الكلامُ، وارتاب الجماعةُ. فأَدخلَ الوَزِير - زعموا - إليه بمكانِه من بيته مَن غطّه حتّى أتلفه[1]. ودُفن يوم السَّبت، وحَجَب الحسنُ بنُ عَمَر الولَدَ السَّعيدَ المنصوبَ للأمرِ، وأغلقَ عليه بابه، وتفرَّد بالأمر والنَّهي دونَه.

ولَحِق عبد الرَّحمن ابنُ السُّلْطان أبي عِنَان بجبل لكَايْ[2] يومَ بَيْعةِ أخيه، وكان أَسَنَّ منه، وإنَّما آثروه لمكان ابنِ عَمِّه مَسْعُود بن مَاسَايْ من وزارته، فبعثوا إليه مَن

(1) قال ابن الأحمر (روضة النسرين 37): "مات مقتولاً؛ خنقه وزيره الحسن بن عمر الفودوديّ مختتم 759هـ وله ثلاثون سنة". وعلّق محقّق الكتاب: "لا يزال شاهد قبره حتى الآن بشالّة"، لكن الناصريّ لم يذكره ضمن المدفونين بشالّة من ملوك بني مرين.

(2) جبل لكاي: سمّاه الوزان جبل لوكَايْ من بلاد الريف، يقع على بعد خمسة وثلاثين ميلاً من فاس. نفاضة الجراب 243 (وحاشية المحقق رقم 1)، الوزان: وصف إفريقيا 1: 334.

لاطَفَه واستنزله على الأمان، وجاء به إلى أخيه، فاعتقله الحسنُ بالقَصَبة من فاس.

وبَعث عن أبناء السُّلْطان الأصاغِر الأمراء بالثُّغور: فجاء المعتصمُ من سِجِلْمَاسَة، وامتنع المعتمِدُ بمَرَّاكُش؛ كان بها في كَفالةِ عامر بنِ مُحَمَّد الهِنتَاتيّ، اسْتوصاه به السُّلْطان وجعله هُنالِك لنَظَره، فمَنَعه من الوُصول، وخرج به من مَرَّاكُش إلى مَعْقِله من جبل هِنْتَاتَة، وجهَّز الوَزِيرُ العَسَاكِرَ لمحاربته. ولم يَزَل هُنالِك إلى أن استنزله عَمُّه(أ) السُّلْطانُ أبو سالم، عندَ استيلائه على مُلْك المَغرب، كما نذكر.

/الخَبَرُ عن تَجهيز العَسَاكر إلى مَرَّاكُش، ونُهوضِ الوَزير سُلَيمان بنِ داود لمحاربة عامر بنِ مُحَمَّد [253 ب]

كان عامر بنُ مُحَمَّد بن عليّ، شيخَ هِنْتَاتَة، من قبائل المَصَامِدَة. وكان السُّلْطان يَعْقُوبُ قد استعمل أباهُ مُحَمَّد بنَ عليّ على جِبايتهم، والسُّلْطانُ أبو سعيد استعملَ عَمَّه موسى بنَ عليّ.

وربِي عامرٌ هذا في كَفالةِ الدَّوْلَة، وسار في جُمْلة السُّلْطان إلى إفْرِيقِيَّةَ، وولَّاه السُّلْطان أحكامَ الشُّرْطة بتُونس. ولمَّا ركب(ب) البَحْرَ إلى المَغرب، أرْكَبَ حُرَمَهُ

(أ) ساقطة من أ (ب) ظ: ركب السلطان، ومثله في ض ثم شطبت

وحَظاياه في السُّفِن، وجَعلَهم إلى نَظَر عامر بن مُحَمَّد. وأجازوا البَحْر إلى الأنْدَلُس، فنزلوا بالمَرِيَّة. وبلَغهم غرقُ الأسْطُول بالسُّلْطان أبي الحسن وعَسْكره، فأقام بهم بمَكانِه من المَرِيَّة.

وبعثَ السُّلْطانُ أبو عِنَان عنه، فلم يُجِبْ داعيه وفاءً ببيعة أبيه. حتّى إذا هَلَك السُّلْطانُ أبو الحسن بدارِهم بالجبل، ورَعى لهم السُّلْطان أبو عِنَان إجارَتهم لأبيه، حين لفظته البلاد وتَحاماهُ النَّاس، أجمع أمرَه على الوِفادة عليه، فوَفَد بمَن معه من الحُرَم، وأكْرم السُّلْطانُ أبو عِنَان وفادَته، وأحسن نُزُلَه.

ثمَّ عَقَدَ له على جِبايةَ المَصَامِدَة سنةَ أربعٍ وخمسين، وبَعَثه لها من تِلِمْسان، فاضْطَلع بهذه الولاية، وأحسن الغَناءَ فيها، والكفايةَ عليها، حتّى كان السُّلْطانُ أبو عِنَان يقول: وددتُ لو أصبتُ رَجُلاً يكفيني ناحيةَ الشَّرق من سُلْطاني، كما كفاني عامرُ بنُ مُحَمَّد ناحيةَ الغرب، واتودَّعُ.

ونافسَهُ الوزراءُ في مَقامِه ذلك عند السُّلْطان ورُتْبته. وانفرد الحسن بنُ عُمَر آخرَ الأمرِ بوزارة السُّلْطان، فاشتدَّت منافسته وانتهت إلى العَداوة والسِّعايَة.

وكان السُّلْطان بين يدي مَهْلِكه / ولَّى أبناءه الأصاغرَ على أعمالِ مُلكِه: [254أ]
فعَقَدَ لابنه [مُحَمَّد](أ) المعتمد على مَرَّاكُش، واستوزر له، وجعله إلى نَظَر عامر، واسْتوصاه به. فلمَّا هَلَك السُّلْطانُ واستقلّ الحسن بنُ عُمَر بالأمر، ونَصَب السَّعيد

(أ) ساقطة من ظ

وحَظاياه في السُّفِين، وجَعلَهم إلى نَظَر عامر بنِ مُحَمَّد. وأجازوا البَحْر إلى الأنْدَلُس، فنزلوا بالمَرِيَّة. وبلَغهم غرقُ الأُسْطُول بالسُّلْطان أبي الحسن وعَسْكره، فأقام بهم بمكانِه من المَرِيَّة.

وبعثَ السُّلْطانُ أبو عِنَان عنه، فلم يُجِبْ داعيه وفاءً ببيعة أبيه. حتَّى إذا هَلَكَ السُّلْطانُ أبو الحسن بدارِهم بالجبل، ورَعى لهم السُّلْطان أبو عِنَان إجارَتهم لأبيه، حين لفظته البلاد وتَحاماهُ النَّاس، أجمع أمرَه على الوِفادة عليه، فوَفَد بمَن معه من الحُرَم، وأكْرم السُّلْطانُ أبو عِنَان وفادَته، وأحسن نُزُلَه.

ثمَّ عَقَدَ له على جِبايةَ المَصَامِدَة سنةَ أربعٍ وخمسين، وبَعَثه لها من تِلِمْسان، فاضْطَلع بهذه الولاية، وأحسن الغَناءَ فيها، والكفايةَ عليها، حتَّى كان السُّلْطانُ أبو عِنَان يقول: وددتُ لو أصبْتُ رَجُلاً يكفيني ناحيةَ الشَّرق من سُلْطاني، كما كفاني عامرُ بنُ مُحَمَّد ناحيةَ الغرب، واتودَّعُ.

ونافسَهُ الوزراءُ في مَقامِه ذلك عند السُّلْطان ورُتْبته. وانفرد الحسن بنُ عُمَر آخرَ الأمرِ بوزارة السُّلْطان، فاشتدَّت منافسته وانتهت إلى العَداوة والسِّعاية.

[254 أ] وكان السُّلْطان بين يدي مَهْلِكه / ولَّى أبناءه الأصاغرَ على أعمالِ مُلْكِه: فعَقَدَ لابنه [مُحَمَّد](أ) المعتمد على مَرَّاكُش، واستوزر له، وجعله إلى نَظَ واسْتوصاه به. فلمَّا هَلَكَ السُّلْطانُ واستقلّ الحسن بنُ عُمَر بالأمـ

(أ) ساقطة من ظ

للملك، استقدَم الأبناء من الجهات، فبعث عن المعتمد من مَرَّاكُش، فأبى عليه عامر من الوِفادة عليهم، وصَعِدَ به إلى مَعْقِله من جبل هِنتَاتة.

وبلَغ الحسن بنَ عُمَر خبرُه، فجهَّز إليه العَساكر، وأزاحَ عِلَلَهم، وعَقَد على حَرْبه للوزير سُلَيمان بنِ داود مساهمةً في القيام بالأمر، وسَرَّحَه في المُحرَّم من سنة ستّين، فأغَذَّ السَّيرَ إلى مَرَّاكُش، واستولى عليها، وصَمَد إلى الجبل فأحاط به، وضيّق على عامر[أ]، وطاوَلَ منازلته، وأشرف على اقتِحام معْقِله، إلى أنْ بلَغ خبرُ افتراقِ بني مَرِين، وخروج منصور بن سُلَيمان من أعْياص الملك على الدَّولَة، وأنَّه مُنازِلٌ للبلدِ الجديد، فانفضَّ المعَسْكَر من حوله، وتسابقوا إلى منصور ابن سُلَيمان، فلَحِق به الوَزِير سُلَيمان بن داود، وتنفّس المُخَنَّق عن عامر، إلى أنِ استولى السُّلْطان أبو سالم على مُلْك المَغْرب في شَعْبان من سنة ستّين. واستقدم عامر والمعتمد ابن أخيه من مَكانِهم بالجبل؛ فقَدِم عليه وأسْلَمه إليه، كما نذكر.

الخَبَرُ عن ظُهورِ أبي حَمُّو بنَواحي تِلِمْسان، وتَجهيزِ العَساكرِ لمُدافعته، ثمَّ تغلّبه عليها، وما تخلَّل ذلك

كان وَلَدُ عبد الرَّحمن بن يَحْيَى بن يَغْمَرَاسَن هؤلاء أربعةً، كما ذكَرْناهُ في أخبارِهم، وكان يوسُف كبيرَهم، وكان سَكوناً مُنْتحِلاً لطُرُقِ الخير لا يريدُ علوّاً في الأرض.

(أ) ظ: عامر وقبيله، ومثله في ض ثم شطبت

ولمّا ملك[أ] أخوه عُثمان تِلِمْسان، عَقَد له على هُنَيْن. وكان ابنُه موسى مُتقيِّلاً مذهبَه في السّكون والدّعة ومُجانبة أهل الشّرّ.

ولمّا تغلّبَ السُّلْطانُ أبو عِنَان عليهم سنةَ ثلاثٍ وخمسين، وفرَّ أبو ثابت إلى قاصيةِ الشَّرق، واسْتَلَبَتْهُم[ب] قبائلُ زَوَاوَة، وأرجلوهم عن خيلهم؛ سَعَوْا على أقدامهم. [254 ب] وانتبذ / أبو ثابت وأبو زَيَّان ابن أخيه أبي سعيد، وموسى ابن أخيه يوسُف، ووزيرهُمْ يَحْيَى بن داود ناحيةً عن قَوْمهم، وسَلكوا غير طريقهم. وتُقُبِّضَ على أبي ثابت ويَحْيَى بن داود ومُحَمَّد بن عُثْمان، وخلص موسى إلى تُونِس، فنزل على الحاجب أبي مُحَمَّد بن تَافْرَاكِين وسُلْطانه خيرَ نُزُل، وأجارَه مع فلٍّ من قَوْمه؛ خَلَصوا إليهم وأسْنوا جِرايتَهم. وبعث السُّلْطان أبو عِنَان فيهم إلى ابن تَافْرَاكِين، فأبى من إسْلامهم، وجاهَر بإجارتهم[ج] على السُّلْطان.

ولمّا استولتْ عساكرُ السُّلْطان على تُونِس، وأجْفل عنها سُلْطانُها أبو إسحاق إبراهيم ابنُ مَوْلانا[د] السُّلْطان أبي يَحْيَى، خرجَ موسى بنُ يوسُف هذا في جُمْلته.

ولمّا رَجَع السُّلْطانُ إلى المَغرب، صَمَد المولى[هـ] أبو إسحاق إبراهيم ابنُ مَوْلانا[و] السُّلْطان أبي يَحْيَى، وابنُ أخيه المولى[ز] أبو زيد صاحبُ قُسَنْطِينَة مع يَعْقُوب بن عليّ وقومه من الدَّوَاوِدَة، إلى مُنازلة قُسَنْطِينَة وارتجاعها. وسار في جُمْلتهم موسى بنُ

(أ) ظ، ص، ض: هلك (ب) ظ، ص: واهتبلتهم، ومثله في ض ثم أصلحت (ج) ظ، ص: بإجازتهم (د) ساقطة من أ
(هـ) طمست في أ واستعيض عنها في الهامش بـ الأمير (و) ساقطة من أ (ز) ساقطة من أ

يوسُف هذا فيمَن كان عندهم من زَنَاتة قَوْمه. وكان بنو عامر من زُغْبَة خارجين على السُّلْطان أبي عِنَان منذ غَلَبه بَني عَبْد الواد على تِلِمْسان. وكانت رياستهم إلى صُغَيْر[أ] بن عامر بن إبراهيم، فلَحِق بإفْرِيقِيَّة في قَوْمِه. ونَزلوا على يَعْقُوب بنِ عليّ، وجاورُوه[ب] بحِلَلهم وظُعُنهم.

فلمّا أفرجوا عن قُسَنْطِينَة بعد امتناعها، واعتزم صُغَيْر على الرِّحلة بقَوْمه إلى وَطَنهم من صحراء المَغْرب الأوْسَط؛ دعوا موسى بن يوسُف هذا إلى الرِّحلة معهم، لينصبوه للأمر، ويجلبوا به على تِلِمْسان، فخلَّى المُوَحِّدُون سبيلَه، وأعانوه بما اقتدروا عليه لوَقْتهم، وعلى حالِ سَفَرهم؛ من آلةٍ وفُسْطَاطٍ. وارْتحل مع بَني عامر، وارتحل معهم صَوْلَةُ بن يَعْقُوب بن عليّ، وزَيَّان بن عُثْمان بن سِبَاع من أمراء الدَّوَاوِدَة، ودَغَّار ابن عيسى في حِلَلهِ من بني سعيد إحدى بُطون / رِياح. [255 أ] وأغَذّوا السَّيْرَ إلى المَغْرب للعَيْث في نَواحيه. وجمع لهم أقْتالُهم من سُوَيْد أولياءُ السُّلْطان والدَّولَةِ، والْتقوا بقِبْلة تِلِمْسان، فانهزمتْ سُوَيْدٌ، وهلَكَ عُثْمان ابنُ كبيرِهم[ج] وَنْزْمَار، وكان مَهْلِكُ السُّلْطان في خلال ذلك.

ولمَّا تبيَّن الخَبَرُ، وكان السُّلْطانُ حين استعمل الأبناءَ على الجهات، عَقَد لمُحَمَّد المهديّ من وَلَده على تِلِمْسان. ولمَّا اتَّصل خبرُ [وَفاةِ][د] السُّلْطانِ بالعَرَب، أغَذُّوا السَّيْرَ إلى تِلِمْسان ومَلَكوا ضَواحيها. وجهّز الحسنُ بنُ عُمَر إليها عَسْكَراً عقد عليه

(أ) ظ، ص، ض: صغير (ب) ظ: وجاوره (ج) ظ: كبير ونزمار (د) ظ: وفادة، ومثله في ض ثم أصلحت

وعلى الحامية الذين بها لسعيد بنِ موسى العَجِيسيّ من صَنائع السُّلطان، وسَرَّحَه إليها، وسار في جُملته أحمدُ بن مُزْني فاصِلاً إلى عَمَله بعد أنْ وَصَله وخَلَع عليه وحَمَله.

وسار سعيد بنُ موسى في العَسَاكرِ إلى تِلِمْسان، واحتلّ بها في صَفَر من سنة ستّين. وزحفت إليهم جموعُ بَني عامر وسُلْطانُهم أبو حَمُّو موسى بنُ يوسُف، فغَلَبوهم على الضَّاحية، وأجْحَروهم[أ] بالبَلَد، ثمّ نازَلوهم الحَرْبَ أيّامَاً، واقتحموها عليهم لثمانٍ خَلَوْن من ربيع، واستباحوا مَن كان بها من العَسْكَر، وامتلأت أيديهم من أسلابهم ونِهابِهم[ب]. وخلص سعيد بنُ موسى بابن السُّلْطان إلى حِلَّة صُقَيْر بنِ عامر، فأجارَه[ج] ومَن جاء على أثره من قَوْمه، وأوْفد معهم رجالات من بَني عامر ينفضون الطَّريقَ أمامَه إلى أنْ أبلغوه مَأمنه من دارِ مُلْكهم.

واستولى أبو حَمُّو على مُلْك تِلِمْسان، واستأثروا بالهَدِيَّة التي ألفى بمودَعها؛ كان السُّلْطانُ انتقاها وبعث بها إلى صاحب بَرْشَلونَة بِطْرُهْ بنِ القُنط[د] [من مُلُوك الفرنجة وراءَ البَحْر][هـ]، وبعث إليه فيها بفَرس أدْهم من مُقَرَّباته بمركبٍ ولجام ذهبيّين ثقيلين، فاتّخذ أبو حَمُّو ذلك الفرسَ لركوبه، وصرف الهَدِيَّةَ في مَصارفه ووجوه مَذاهبه. والله غالبٌ على أمره.

(أ) ض: وأجحزوهم، ومهملة في ظ (ب) ظ، أ، ص: ونهاهم. والنِّهاب: الغنائم. لسان العرب، مادة: نهب (ج) أ: فأجازه (د) كذا في الأصول: القُنط، وهو قمط برشلونة بطره (پدرو) الرابع ملك أرغون (736 ـ 789هـ). انظر: كناسة الدكان لابن الخطيب 214، 215، التاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجي 527. (هـ) ما بين الحاصرتين من مخرج في أ، ض بخط ابن خلدون

[255 ب]

/الخَبَرُ عن نُهوض الوَزير مَسْعُود بن مَاسَايْ إلى تلمْسان، وتغلّبه عليها، ثمّ انتقاضه، ونصبه منصور بن سُلَيمان للأمر

لمَّا بلَغ الوَزيرَ الحسنَ بنَ عُمَر خبرُ تِلِمْسان، واستِيلاءُ أبو حَمُّو عليها، جَمَعَ مشيخةَ بَني مَرِين، ووامَرَهم في النُّهوض إليها، فأبوا عليه من النُّهوض بنفسه(أ)، وأشاروا بتَجْهيز العَسَاكر، ووَعَدوه بمَسيرهم كافَّةً. ففَتح ديوانَ العَطاء، وفرَّقَ الأموالَ، وأسْنى الصِّلاتِ، وأزاح العِلَل، وعَسْكَر بساحة البَلَد الجَدِيد. ثمَّ عَقَدَ عليهم لمَسْعُود ابن رَحُّو بن مَاسَايْ، وحمل معه المال، وأعطاه الآلة، وسارَ في الألوية والعَسَاكر. وكان في جُمْلته منصور بن سُلَيمان بن منصور بن أبي مالك بن يَعْقُوب بن عبد الحَقّ، وكان النَّاسُ يَرْجِفون بأنَّ سُلْطانَ المَغْرب صائرٌ إليه بعد مَهْلِك أبي عِنَان، وشاع ذلك على ألْسنةِ النَّاس وذاع، وتحدَّث به السُّمَّر والنُّدْمَان، وخشي منصور على نفسه لذلك، فجاء إلى الوَزِير وشكا إليه ذلك، فانتهَرَهُ أنْ يختلج بفكره مثل هذا الوسواس، انتهاراً خلا من وَجْه السياسة، فازدجر واقتصر. ولقد شهدت هذا الموطن، ورَحِمْتُ ذلّة انكساره وخضوعه في موقفه.

ورحل الوَزير مَسْعُود في التَّعْبِئة، وأفرج أبو حَمُّو عن تِلِمْسان، ودخلها مَسْعُود في ربيع الثاني واستولى عليها. وخرج أبو حَمُّو إلى الصَّحْرَاء وقد اجتمعت إليه جموعُ العَرَب من زُغْبَة والمَعْقِل. ثمَّ خالَفوا بَني مَرِين إلى المَغْرب، واحتلّوا بأنْكَاذ - [ما

(أ) ساقطة من أ

بين تِلِمْسان وفاس][أ] - بحِلَلهم وظَواعنهم، وجهَّز مَسْعُود بنُ رَحُّو إليهم عَسْكَراً من جُنوده انْتَقَى فيه مشيخةَ بَني مَرِين وأُمرائهم، وعقد عليهم لعامر ابنِ عَمِّه عَبُّو بن مَاسَايْ، وسَرَّحَهم[ب]، فزحفوا إليهم بساحة وَجْدَةَ. وصدقهم العَرَبُ الحملَةَ، فانكشفوا واسْتُبيح مُعَسْكَرهم، واسْتُلبت مَشيختُهم، وأُرْجِلوا عن خَيْلِهم، ودَخَلوا إلى وَجْدَة عُراةً.

[256أ] وبلَغ الخَبَرُ إلى بَني مَرين بتِلِمْسان، وكان في قُلوبهم مرضٌ / من اسْتبدادِ الوَزِير عليهم وحَجْرِه لسُلْطانهم، فكانوا يتربَّصُون بالدَّولَة. فلمَّا بلَغ الخَبَرُ وحاصَ النَّاسُ له حَيْصةَ[ج] الحُمُر، خَلَص بعضُهم [إلى بعض][د] نَجِيّاً بساحة البَلَد، واتَّفقوا على البَيْعة ليَعِيش بنِ عليّ بن أبي زَيَّان ابن السُّلْطان أبي يَعْقُوب؛ فبايعوه.

وانتهى الخَبَرُ إلى الوَزِير مَسْعُود بنِ رَحُّو، وكان مُسْتَحيناً[هـ] سُلْطان منصور بن سُلَيمان، فاستدعاهُ وأكرهه على البيعةِ، وبايعهُ معه الرَّئيسُ الأبْكَمُ من بَني الأحْمر، وقائدُ جُنْدِ النَّصارَى القَمَنْدَدُور[و]، وتَسايَل إليه النَّاسُ، وتَسامعَ الملأُ من بَني مَرِين بالخبر، فتَهاوَوْا إليه من كلِّ جانب. وذهب يَعِيش بنُ أبي زَيَّان لوَجْهه، فركب البَحْرَ، وخلص إلى الأنْدَلُس، وانعقدَ الأمرُ لمنصور بنِ سُلَيمان، واجتمع بَنو مَرِين على

(أ) ما بين الحاصرتين من مخرج في أ، ض بخط ابن خلدون (ب) ظ: وسرحوا (ج) ظ، ص: وخاض ... خيضة. وحاص الناس: انهزموا وجالوا يطلبون الفرار كحمر الوحش (د) من مخرج في أ، ض بخطه (هـ) ص، ض: متحيناً (و) ظ: القمندور

كَلِمته، وارتحل بهم من تِلِمْسان يُريدُ المَغرب، واعترضتهم[أ] جموعُ العَرَب بطريقهم، فأوْقعوا بهم، وامتلأت أيديهم من أسلابهم وظَعْنهم.

وأغَذُّوا السَّيْرَ إلى المَغرب، واحتلُّوا بسُبُو في منتصف جُمادَى الآخرة، وبلَغ الخَبَرُ إلى الحسن بنِ عُمَر، فاضطرب مُعَسْكَرُهُ بساحة البَلَد. وأخرج السُّلْطان في الآلة والتَّعْبِئة إلى أنْ أنزلَه بفُسْطاطه. ولمَّا غَشِيَهم اللَّيل، انفضَّ عنه الملأُ إلى السُّلْطان منصور بنِ سُلَيمان، فأوْقدَ الشُّموعَ، وأذكى النِّيرانَ حولَ[ب] الفُسْطاط، وجمع الموالي والجندَ، وأرْكب السُّلْطان، ودخَلَ إلى قَصْره، وانْجحر[ج] بالبَلَد الجَدِيد.

وأصبح منصورُ بن سُلَيمان، فارتحل في التَّعْبِئة حتَّى نزل بكُدْيَة العَرائِس في الثَّاني والعشرين لجُمادَى، واضطرب معَسْكَره بها، وغدا عليها بالقتال، وشدَّ عليها الحملات، وامتنعتْ ليومها. ثمَّ جمعَ الأيدي على اتِّخاذ الآلاتِ للحِصار. واجتمعتْ إليه وفودُ الأمصار بالمَغرب للبَيْعة. ولحقَتْ به كتائبُ بَني مَرِين التي كانت مُجَمَّرةً بمرَّاكُش لِحِصارِ[د] عامر مع الوَزير سُلَيمان بن داود، فاستوزرَه، وأطلق عَبْدَ الله بنَ عليّ وزيرَ السُّلْطان / [256 ب] أبي عِنَان من مُعْتَقَلِه، فاستوزره أيضاً. وأوْعَز بإطلاق مَوْلانا[هـ] أبي العبَّاس أحمد [بن أبي حَفْص][و] صاحبِ قُسَنْطِينَة من معتقَله بسَبْتَة، فخلَص منه خُلوصَ الإبريز بعدَ[ز] السَّبْك. وأمرَ منصور بنَ سُلَيمان بتَسْريح السُّجون، فخرج

(أ) ظ: واعترضهم (ب) أ، ص، ض: حوالي (ج) ظ: انحجز، ص: وانحجر (د) ظ، ص: بحصار (هـ) أ، ض: الأمير (و) ما بين الحاصرتين زيادة من أ، ض (ز) طمست في أ

مَن كان بها من دُعّار بِجَايَة وقُسَنْطِينَة؛ وكانوا مُعْتقَلين من لَدُن اسْتِحْواذ السُّلْطان أبي عِنَان[أ] على بِلادهم، وانطلقوا إلى مَواطنهم، وأقام على البَلَد الجَدِيد يُغادِيها بالقتال ويُراوِحُها. ونزع عنه إلى الوَزِير الحسن بنِ عُمَر طائفةٌ من بَني مَرِين. ولَحِق آخرون ببلادهم، وانتقضوا عليه ينتظرون مَآلَ أمْرِه. ولبث على هذه الحال إلى غُرَّة شَعْبان، فكان من قُدومِ السُّلْطان أبي سالم لمُلْك سَلَفِه بالمَغْرب، واستيلائه عليه ما نذكره.

الخَبَرُ عن نُزولِ المولى[ب] أبي سالم بجبال غُمَارَة، واستيلائه على مُلْك المَغْرِب، ومَقْتَل منصور بن سُلَيمان

كان السُّلْطانُ أبو سالم بعدَ مَهْلِكِ أبيه، واستقرارِه بالأنْدَلُس، وخروجِ أبي الفَضْل بالسُّوس لطَلَبِ الأمْر، ثمَّ ظَفَر السُّلْطانِ أبي عِنَان به ومَهْلِكه، كما ذكرناه؛ قد تودَّع وسَكَن وسالمه السُّلْطان.

ثمَّ لمَّا هَلَكَ سُلْطانُ الأنْدَلُس أبو الحَجَّاج سنةَ خَمْسٍ وخمسين يومَ الفِطْر بمصلَّى العيد، طعَنَهُ أسودُ مُوَسْوسٌ كان ينتسبُ إلى أخيه مُحَمَّد من بعض إماءِ قَصْرهم. ونصبوا للأمر ابنه مُحَمَّداً، وحجبهُ مولاهُ رِضوان واستبدَّ عليه.

وكان[ج] للسُّلْطان أبي عِنَان اعتزازٌ، كما ذكَرْناهُ، وكان يؤملُ مُلْكَ الأنْدَلُس،

(أ) في أ: استحوذ .. أبو عنان (ب) طمست في أ، واستبدلها بخطه في الهامش بـ: السلطان (ج) ظ، ص، ض: فكان

وأوْعَز إليهم عندما طرقَهُ[أ] طائفُ المرض سنةَ سبعٍ وخمسين، أنْ يبعثوا إليه طبيبَ دارِهم إبراهيم بنَ زَرْزَر[1] الذِّمّيّ، وامتنع من ذلك اليَهوديُّ، واعتذر، وأعذرُوه[ب]، فنكِر لهم السُّلْطان.

ولمَّا / وصل إلى فاس من فَتْح قُسَنْطِينَة وإفْرِيقِيَّة، وتَقَبَّض على وزيره والمشيخةِ [257 أ] من قبله، تجنَّى عليهم، أنْ لم يبادر السُّلْطانُ بنفسه أو حاجبه للتَّهنئة. وأظْلم الجوُّ بينهم، واعتزم على النُّهوض إليهم، وكانوا مُنحاشين بالجُملة إلى الطَّاغِيَة بِطْرُة بن أذْفُونْش صاحب قَشْتَالَة، منذ مَهْلِك أبيه الهُنْشُهْ على جَبَل الفَتْح سنةَ إحدى وخمسين، ثمَّ استبداد رِضْوَان على الدَّولَة بعد مَهْلِك أبي الحَجَّاج، كانت له صَاغِيَةٌ[ج] إليهم، ظاهرُها النَّظَر للمُسلمين بمُسالمة عدوّهم. وكان السُّلْطانُ أبو عِنَان يعتدُّ ذلك عليهم، وعلم أنّه لا بُدَّ أنْ يُمدّهم بأساطيله، ويدافِعُوه عن الإجازة إليهم. وكان بين الطَّاغِيَة بِطْرُة وبين قُمْط بَرْشَلونَة[د] فتنةٌ هَلَكَ فيها أهلُ مِلّتهم، فصرَفَ السُّلْطانُ قَصْدَه إلى قُمْط بَرْشَلونَة، وخاطَبه في اتّصالِ اليَدِ على بن أذْفُونْش واجتماع أُسْطُول المسلمين وأُسْطُول القُمْط بالزُّقاق، وضربوا لذلك الموعد، وأتحفَهُ السُّلْطانُ بهديَّةٍ سنيَّةٍ من مَتاع المَغْرب وماعُونه، ومَرْكبٍ ذهبيّ صنيع، ومُقَرَّب من جياده؛ وأنفذها إليه، فبلغت تِلِمْسان، وهَلَكَ قبل وصولها إلى محلّها.

(أ) ظ، ص، ض: طرقه من، وكانت كذلك في أ ثم أصلحت (ب) ص: واعتذروا عذره (ج) ظ: صياغة (د) ضبطها في ظ، أ بضم الأول: بُرْشلونة

(1) الإحاطة 3: 169، وأزهار الرياض 1: 62: زَرْزار

ولمّا هَلَكَ السُّلْطانُ أبو عِنَان أملَ أخوهُ المولى(أ) أبو سالم مُلْكَ أبيه، وطمع في مُظاهرة أهل الأنْدَلُس له على ذلك، لِمَا كان بينهم وبين أخيه. واستدعاه أشياعٌ من أهل المَغرب، ووَصَل البعضُ منهم إليه بمكانِه من غَرْنَاطَة، وطلَبَ الإذنَ من رِضْوَان في الإجازة، فأبى عليه، فأحفظه ذلك. ونزع إلى مَلِكِ قَشْتَالَة مُتطارحاً بنفسه عليه أنْ يجهّزَ له الأُسْطُول للإجازة إلى المَغرب، فاشترط عليه، وتقبّل شَرْطَه. وأجازه في أُسْطُوله(ب) إلى مَرَّاكُش، فامْتنع عامرٌ من قبوله؛ لِمَا كان فيه من التَّضييق والحِصار بحصّة سُلَيمان بن داود، كما ذكرناه، فانكفأ راجعاً على / عَقِبه، فلمَّا حاذى طَنْجَةَ وبلادَ غُمَارَةَ ألقى بنفسه إليهم، ونزل بالصَّفِيحَة(1) [257 ب] من بلادهم، واشتملت عليه قبائلُهم، وتَسَاتلوا إليه من كلِّ حَدَبٍ، وبايعوه على الموت.

وملكَ سَبْتَةَ وطَنْجَةَ، وبها يومئذٍ السُّلْطانُ أبو العبَّاس ابنُ أبي حَفْص صاحبُ قُسَنْطِينَةَ لحق بها بعد الخروج من اعتقاله بسَبْتَة، كما ذَكَرْناهُ، فاختصَّهُ المولى(ج) أبو سالم بالصّحابة والخلّة، وآلفه(د) في اغْتِرابه ذلك إلى أنْ استولى على مُلكه.

(أ) طمست في أ (ب) ظ: أسطول (ج) طمست في أ وأدالها في الهامش بـ: السلطان (د) ظ، ص: وبالغه

(1) جبل الصفيحة: من بلاد غمارة في طريق الإجازة إلى العدوة الأندلسية، كما سيذكر ابن خلدون فيما بعد.

وألفَى[أ] بطَنْجَةَ الحسنَ بنَ يوسُف الوَرْتَاجْنِيّ، وكاتبَ ديوان الجند أبا الحسن عليّ بن السّعود، والشَّريف أبا القاسم التِّلِمْسانِيّ؛ كان منصور بنُ سُلَيمان ارتاب بهم، واتّهمهم بمُداخلة الحسن بنِ عُمَر بمكانِه من البَلَد الجَدِيد، فصَرَفهم من معَسكَره إلى الأَنْدَلُس، فوافوا المولى[ب] أبا سالم عندَ استيلائه على طَنْجَة، فصاروا إلى إيالَتِه. واستوزر الحسن بنَ يوسُف، واستكتب لعَلامته أبا الحسن عليّ بن السّعود، واختصّ الشَّريفَ بالمُجالسة والمُواكبة.

ثمّ قام أهلُ الثُّغور الأَنْدَلُسيَّة بدَعْوته، وأجازَ يَحْيَاتَن بن عُمَر صاحبُ جَبَل الفَتْح إليه بمَن كان معه من العَسْكَر. وطنّت حَصَاة المولى أبي سالم واتّسعَ معَسْكَره، وبلَغ الخبَرُ إلى الثّائر على البَلَد الجَدِيد منصور بن سُلَيمان، فجَهّز عَسْكَراً لدِفاعه، وعقد عليه لأخوَيْه عيسى وطَلْحَة، وأنزلهم قَصْرَ كُتَامَة. وقاتَلوه، فهزموه، واعتصم بالجبل. وبادَر الحسن بن عُمَر من وراء الجدرات، فبعث إليه بطاعته، ووعده بالتمكّن من دارِ مُلكه. وداخَل بعض أشياع المولى[ج] أبي سالم مَسْعُود بن رَحُّو بن مَاسَايْ وزير منصور في النُّزوع إلى السُّلْطان، وكان قد ارتاب بمنصور وابنه عليّ، فنزع وانفضّ النّاسُ من حول منصور، وتَخاذلَ أشياعهُ من بَنِي مَرِين، ولحق ببادِس من سواحل المَغْرب.

ومشى أهلُ المعَسكَر بأجمعهم في ساقاتِهم ومَواكبِهم على التَّعْبِئَة، فلَحِقوا

(أ) ظ، ص، ض: وألفى بها (ب) طمست في أ، وفي الهامش: السلطان (ج) طمست في أ

بالسُّلْطان أبي سالم واسْتَغذُّوه إلى دارِ مُلكه؛ فأغَذَّ السَّيْرَ، وخَلَع الحسن بنُ عُمَر سُلْطانَه السَّعيد عن الأمر، وأسْلَمه إلى عَمِّه، / وخرج إليه فبايعه. [258أ]

ودخل السُّلْطانُ إلى البَلَد الجَدِيد يوم الجمعة منتصفَ شَعْبان من سنة ستِّين. واستولى على مُلْك المَغْرب، وتَوافَتْ وُفودُ النَّواحي بالبَيْعات. وعقد للحسن بنِ عُمَر على مَرَّاكُش، وجهَّزه إليها بالعَسَاكر ريبةً بمكانه.

واسْتَوْزَر مَسْعُود بنَ رَحُّو بن مَاسَايْ، والحسنَ بنَ يوسُف الوَرْتَاجَّنِيّ، واصْطفى من خواصّه خطيبَ أبيه(أ) الفقيهَ أبا عَبْد الله مُحَمَّد بن أحمد بن مَرْزُوق، وجعل إلى مؤلِّف هذا الكتابِ توقيعَه وكتابةَ سِرِّه؛ وكنتُ نزعتُ إليه من معَسْكَر منصور بنِ سُلَيْمان بكُدْيَة العَرائِس لمَّا رأيت من اختلال أحْوالِه، ومصير الأمر إلى السُّلْطان، فأَقْبَلَ(ب) عليّ وأنزلني بمحلّ التَّنويه(ج)، واسْتَخلَصَني لكتابته. واسْتَوْسق أمرُه بالمَغْرب.

وتَقَبَّضَ شيعةُ السُّلْطان ببادِس على منصور بن سُلَيْمان وابنه عليّ، وقادوهم مُصَفَّدين إلى سُدَّته، فأحضرهم ووبَّخهم(د)، وجُنبوا إلى مَصارِعهم، فقُتِلوا قَعْصاً بالرِّماح آخرَ شَعْبان من سَنَتِه. وجمع الأبناءَ والقرابةَ المرشَّحين من وَلَد أبيه وعَمِّه، فأشخصهم إلى رُنْدَة من ثُغورهم بالأنْدَلُس، ووكَّلَ بهم مَن يحرسهم.

(أ) أ: ابنه (ب) ظ، ص: فقبل، وكانت كذلك في ض ثم أصلحت (ج) كذا في أ، ض، وفي ص: البنونة، ومهملة في ظ
(د) ظ: فذبحهم

ونزع مُحَمَّد ابنُ أخيه أبي عبد الرَّحمن منهم إلى غَرْنَاطَة، ثمَّ لَحِق منها بالطَّاغِيَة واستقرَّ لديه، حتَّى كان مِن تملُّكه المَغْرب ما نقصُّهُ. وهَلَكَ الباقون غَرَقاً في البَحْر بإيعاز السُّلْطان بذلك، بعد مُدَّةٍ من سُلْطانه، أرْكَبهم السُّفِين إلى المشرق، ثمَّ غرَّقهم. وخلص المُلْكُ من الخوارج والمُنازعِين واستوسق له الأمرُ. والله غالبٌ على أمره.

واحتفل السُّلْطانُ في كَرامة مَوْلانا[أ] السُّلْطان أبي العبَّاس، وأشاد ببرّه، وأوْعَز [بتَعْيين][ب] دارِ عامر بن فَتْح الله وزيرِ أبيه لنُزُله، ومهَّد له المجلسَ لِصْقَ أريكته، ووعده بالمُظاهرة على ملكه، إلى أنْ بعثه من تِلِمْسان عند استيلائه عليها، كما نذكر.

الخَبَرُ عن خَلْع ابن الأَحْمر صاحب غَرْنَاطَة، ومقتل رِضْوَان، ومَقْدمه على السُّلْطان

لمَّا هَلَكَ السُّلْطانُ أبو الحَجَّاج سنةَ خمسٍ وخمسين، ونُصب ابنُه مُحَمَّدٌ للأمر، واستبدَّ / عليه رِضْوَانُ مولى أبيه؛ وكان قد رشَّح ابنه الأصْغر إسماعيل بما ألقى عليه وعلى أُمِّه من محبَّته. فلمَّا عدَلوا بالأمر عنه حجبوه ببعض قُصورهم، وكان له صهرٌ من ابن عَمِّه مُحَمَّد بن إسماعيل ابن الرَّئيس أبي سعيد في شِقَّته، فكان يدعوه [258 ب]

(أ) طمست في أ (ب) ساقطة من أ، ومكانها بياض في ص، ض

سرّاً إلى القيام بأمره، حتّى أمكنته فُرصَةٌ في الدَّوْلَة، بخُروج السُّلْطان إلى بعض متنزَّهاته برياضِهِ، فصعد سورَ الحمراءِ ليلةَ سبعٍ وعشرين لرمضان من سنة ستّين في أوْشابٍ جمعهم من الطَّغَام لثورته، وعمد إلى دارِ الحاجب رِضْوَان، فاقتحَمَ عليه الدَّارَ، وقتَله بين حُرَمه وبناته. وقرَّبُوا إلى إسماعيل فَرَسه، وركب، فأدخلوه القَصْرَ وأعلنوا ببيعته، وقرعوا طُبولَهم بسور الحمراء، وفرَّ السُّلْطانُ من مكانه بمُتَنَزَّهه، فلحق بوادي آش. وغدا الخاصَّة والعامَّة على إسماعيل، فبايعوه. واستبَدَّ عليه هذا الرَّئيس ابنُ عَمِّه، ثمَّ قَتَله لأشهرٍ من بيعته، واستقلّ بسُلْطان الأنْدَلُس.

ولمَّا لَحِق السُّلْطانُ أبو عَبْد الله محمّد بوادي آش بعدَ مَقْتل حاجبه رِضْوَان، واتّصل الخَبَرُ بالسُّلْطان المولى(أ) أبي سالم؛ امْتعض لمَهْلِك رِضْوَان، وخَلْع السُّلْطان؛ رعياً لِمَا سلف له في جِوارهم. وأزعج لحينه أبا القاسم الشَّريف من أهل مجلسه لاستقدامه، فوصل إلى الأنْدَلُس، وعقد مع أهل الدَّولَة على إجازة المَخْلُوع من وادي آش إلى المَغرب، وأطْلق من اعتقالهم الوَزِير الكاتب أبا عَبْد الله بن الخَطِيب، كانوا اعتقلوه لأوَّل أمرهم؛ لما كان رَدِيفاً للحاجب رِضْوَان، ورُكناً لدَولة المَخْلُوع، فأوْصى المولى(ب) أبو سالم إليهم بإطلاقه؛ فأطلقوه. ولحق الرَّسول أبا القاسم الشَّريف بسُلْطانه المَخْلُوع بوادي آش للإجازة إلى المَغْرب، وأجاز لذي القَعْدَة من سَنَتِه. وقدم على السُّلْطان بفاس، فأَجَلّ قدومَه، وركب للقائه، ودخل به إلى مجلس

(أ) ساقطة من أ (ب) طمست في أ، وكتب ابن خلدون بخطّه في هامشها: السلطان، وطمست أيضاً في ض

مُلكه، وقد احتفل تَرتيبه، وغصّ بالمشيخة والعِلْية. ووقف وزيرُه ابن الخَطيب، فأنشد السُلْطان قصيدته الرَّائيَّة يستصرخه لسُلْطانه، / ويستحثّه لمظاهرته على [1259أ] أمره. واستعطف واسترحم، بما أبكى النَّاسَ شفقةً له ورحمةً، ونصّ القصيدة[1]: [من الطويل]

سَـــلا هـل لَدَيْها من مُخَبِّرةٍ ذِكْـرُ … وهـل أعـشبَ الـوادي ونَمَّ بـه الزَّهْـرُ

وهـل باكَـرَ الوَسْمِيُّ داراً على اللِّـوى … عَفَــتْ آيُهــا إلاَّ التَــوَهُّمُ والذِّكْــرُ

بلادي التي(أ) عاطَيْتُ مَشمولَةَ الهوى … بِأكْنافِها والعَــيْشُ فيْنــانُ مُخْــضَرُّ

وَجَـوِّي الـذي ربَّـى جَناحَـيَّ وكْـرُهُ … فهــا أنا ذا مــا لي جَنــاحٌ ولا وَكْــرُ

نَبَــتْ بِيَ لا عــن جَفـوةٍ وَمَلالَــةٍ … ولا نَـسَخَ الوَصْـلَ الـهَنِيَّ بِهـا هَجْـرُ

وَلكنَّهــا الدُّنيــا قَليــلٌ مَتاعُهــا … وَلَذّاتُهــا دَأْباً تَــزُوْرُ وَتَــزْوَرُّ

فَمَن لِي بِنَيْلِ القُرْبِ(ب) منها وَدونَنا(ج) … مَـدىً طَـالَ حَتّـى يَوْمُـهُ عِنْدَناشَـهرُ!

وَللهِ عَيْنا مَــنْ رآنــا ولِلأسـى … ضِرامٌ له في كُلِّ جانِحَــةٍ(د) جَمْـــرُ

وقـد بَدّدَتْ دُرَّ الدُّمـوعِ يـدُ النَـوى … وَللبَيْنِ(هـ) أَشْجانٌ يَضيقُ لها(و) الـصَّدْرُ

بَكينا علـى النَهْـرِ الشَّرُوب عَشِيَّةً … فَعـادَ أُجاجـاً بَعْدَنــا ذَلِـكَ النَّهْـرُ

(أ) ظ: الذي (ب) في اللمحة والنفح وأزهار الرياض: فمن لي بقُرب العهد (ج) اللمحة البدرية: ودونها (د) أزهار الرياض: جارحة
(هـ) اللمحة والنفح وأزهار الرياض: وللشوق (و) ظ، أ: بها

---

(1) أورد ابن الخطيب نصّ القصيدة في اللمحة البدرية في الدولة النصرية 122ـ 125، والمقّري في كتابيه: نفح الطيب 5: 86ـ 89، وأزهار الرياض 1: 196ـ 200

أقولُ لأظعاني وقد غالها السُّرى ... وآنسها الحادي وأوحَشَها الزَّجْرُ

رُوَيدَكِ بعد العُسْرِ يُسْرٌ أنَ ابْشري ... بإنجازِ وَعْدِ اللهِ قد ذَهَبَ العُسْرُ

وَللهِ فينا سِرُّ غَيْبٍ وَرُبَّما ... أتى النَّفعُ من حالٍ أُريدَ بها الضَّرُّ

وإنْ تَخُنِ الأيّامُ لم تَخُنِ النُّهى ... وإن يَخْذُلِ الأقوامُ لم يَخْذُلِ الصَّبرُ

وإنْ عَرَكَتْ مِنّي[(أ)] الخطوبُ مُجَرِّباً ... نِقاباً تساوى عندهُ الحُلوُ وَالمُرُّ

فقد عَجَمَتْ عُوداً صَليباً على النّوى[(ب)] ... وعزْماً كما تَمضي المُهنَّدَةُ البُتْرُ

[إذا أنتَ بِالْبَيْضاء قَرَّرتَ منزِلي ... فَلا اللَّحْمُ حِلٌّ ما حَيِيتُ ولا الظَّهْرُ][(ج)]

زَجَرنا بإبراهيمَ بُرْءَ هُمومِنا ... فَلمّا رَأَينا وَجْهَهُ صَدَقَ الزَّجْرُ

بمنتخَبٍ[(د)] من آلِ يَعْقوبَ كُلّما ... دجا الخَطْبُ لم يكذِبْ لعَزْمَتِهِ فَجْرُ

تَناقَلَتِ الرُّكْبانُ طِيبَ حديثِهِ ... فلمّا رَأَتهُ صَدَّقَ الخَبَرَ الخُبْرُ

[259 ب] / نَدىً لَوْ حَواهُ البَحْرُ لَذَّ مَذاقُهُ ... وَلَم يَتَعقَّبْ مَدَّهُ أَبَداً جَزْرُ

وَبَأْسٌ غدا يَرتاعُ من خَوْفِهِ الرَّدى ... وَتَرْفُلُ[(هـ)] في أَذْيالِهِ[(و)] الفتكَةُ البِكْرُ

أطاعَتْهُ حَتّى العُصْمُ في قِنَنِ الرُّبا ... وَهَشَّتْ إلى تأميلِهِ الأَنْجُمُ الزُّهْرُ

قَصَدْناكَ يا مَوْلى[(ز)] المُلوكِ على النّوى ... لِتُنْصِفَنا مِمّا جَنى عَبْدُكَ الدَّهْرُ

كَفَفْنا بِكَ الأيّامَ عن غُلَوائِها ... وَقَدْ رابَنا مِنها التَّعسُّفُ وَالكِبْرُ

(أ) ص: بين (ب) اللمحة والنفح وأزهار الرياض: الردى (ج) سقط هذا البيت من أ، وجعل مكانه بياضاً في ظ، ص، ض، والتعويض من مصادر التخريج (د) نفح الطيب: بمنتجب (هـ) في متن ض: وتكن، فشطبت وكتب في الهامش ما هو مثبت (و) اللمحة والنفح وأزهار الرياض: أثوابه (ز) اللمحة والنفح وأزهار الرياض: يا خير

وَعُذْنا(أ) بذاكَ المَجْدِ؛ فانْصَرَف(ب) الرَّدى ... وَلُذْنا بِذاكَ العِزّ(ج)؛ فانْهَزَم الذُّعْرُ
وَلمّا أتَيْنا البَحْرَ يُرْهِبُ مَوْجُهُ ... ذَكَرنا نَداكَ(د) الغَمْرَ، فاحْتُقِرَ البحرُ
خِلافَتَكَ العُظْمى ومَن لم يَدِنْ بِها ... فَإيمانُهُ لَغْوٌ وَعِرْفانُهُ نُكْرُ
وَوَصْفُكَ يَهْدِي المدْحَ قَصْدَ صوابه(هـ) ... إذا ضَلَّ في أوْصافِ مَنْ دونَكَ الشِّعْرُ
دَعَتْكَ قُلوبُ المُسْلمينَ(و) وَأخْلَصَتْ ... وَقَدْ طابَ مِنْها السِّرُّ للهِ وَالجهْرُ
وَمُدَّتْ إلى اللهِ الأكُفُّ ضَراعَةً ... فَقالَ لَهُنَّ اللهُ: قَدْ قُضِيَ الأمْرُ
وَألْبَسَها النُّعْمى بِبَيْعَتِكَ(ز) الّتي ... لها الطّائِرُ المَيْمونُ وَالمحتِدُ الحُرُّ
فَأصْبَحَ ثَغْرُ الثَّغْرِ يَبْسِمُ ضاحِكاً ... وقَدْ كان -مِمَّا نابَهُ- ليس يَفْتَرُّ
وأمَّنْتَ بالسِّلْمِ البِلادَ وَأهْلَها ... فَلا ظُبَةٌ تَعْرَى ولا رَوْعَةٌ تَعْرو
وَقَدْ كانَ مَوْلانا أبوكَ مُصَرِّحاً ... بِأنَّكَ في أبْنائِهِ الوَلَدُ البَرُّ
وَكُنْتَ حَقيقاً بالخلافَةِ(ح) بَعْدَهُ ... على الفَوْرِ، لكِن كُلُّ شَيْءٍ له قَدْرُ
فَأوْحَشْتَ مِن دار الخِلافَةِ هالَةً ... أقامَتْ زَماناً لا يَلوحُ بها البَدْرُ
وَرَدَّ عليكَ اللهُ حَقَّكَ إذْ قَضى ... بِأنْ تَشْمُلَ النُّعْمى وَيَنْسَدِلَ السِّترُ
وَقادَ إلَيْكَ المُلْكَ رِفْقاً بِخَلْقِهِ ... وقد عَدِموا رُكْنَ الإمامَةِ واضْطُرّوا
وَزادَكَ بالتَّمْحيصِ عِزّاً وَرِفْعَةً ... وَأجْراً، وَلوْلا السَّبْكُ ما عُرِفَ التِّبْرُ

(أ) ص: وعدنا (ب) اللمحة والنفح وأزهار الرياض: فانصرم (ج) اللمحة والنفح وأزهار الرياض: العزم (د) ص: بذاك
(هـ) اللمحة البدرية: ثوابه (و) اللمحة والنفح وأزهار الرياض: المؤمنين (ز) ص: سعيك (ح) اللمحة وأزهار الرياض: خليقاً بالإمارة

وَأَنْتَ الّذي تُدْعى[أ] إذا دَهِمَ الرَّدى　　وَأَنْتَ الّذي تُرْجَى[ب] إذا أخلَفَ القَطْرُ

وَأَنْتَ إذا جارَ الزَّمانُ بِحُكْمِهِ[ج]　　لكَ النَّقْضُ والإبْرامُ والنَّهْيُ والأَمْرُ

[260 أ] / وَهذا ابنُ نَصْرٍ قَدْ أَتى وَجَناحُهُ　　كَسيرٌ[د]، ومِنْ عَلْياكَ يُلْتَمَسُ الجَبْرُ

غَريبٌ يُرَجّي منكَ ما أنتَ أَهْلُهُ　　فَإنْ كنتَ تَبْغي الفَخْرَ قد جاءكَ الفخرُ

[فَفُزْ - يا أَميرَ المُسْلِمينَ[هـ] - بِبَيْعَةٍ　　مُوَثَّقَةٍ قَدْ حَلَّ عُرْوَتَها الغَدْرُ][و]

وَمِثْلُكَ مَنْ يَرعى الدَّخيلَ ومَن دعا　　بِيالَ مَرينٍ جاءهُ العِزُّ والنَّصْرُ

وَخُذْ - يا إمامَ الحَقِّ - للحَقِّ[ز] ثَأْرَهُ　　ففي ضِمْنِ ما تَأْتي[ح] به العِزُّ والأَجْرُ

وَأَنْتَ لها - يا ناصِرَ الحَقِّ - فَلْتَقُمْ[ط]　　بِحَقٍّ فَما زَيْدٌ يُرَجّى ولا عَمْرُو

فَإنْ قيلَ: مالٌ؛ مالُكَ الدَّثْرُ[ي] وافِرٌ　　وإنْ قيلَ: جيشٌ؛ عِنْدكَ العسكَرُ المَجْرُ

يَكُفُّ بِكَ العادي وَيَحيا بِكَ الهُدى　　وَيَبْني بِكَ الإسْلامُ ما هَدَمَ[ك] الكُفْرُ

أَعِدْهُ إلى أَوْطانِهِ عَنْكَ نائِباً[ل]　　وَقَلِّدْهُ[م] نُعْماكَ التي ما لها حَصْرُ

وَعاجِلْ قُلوبَ النّاسِ فيه بِجَبْرِها　　فَقَدْ صَدَّهُمْ عنه التَّغَلُّبُ وَالقَهْرُ

وهم يَرْقُبونَ الفِعلَ منكَ وَصَفْقَةً　　تُحاوِلُها يُمناكَ ما بَعْدَها خُسْرُ

مَرامُكَ سَهْلٌ لا تَؤُودُكَ كُلْفَةٌ　　سوى عَرَضٍ ما إنْ له في العُلى خَطْرُ

(أ) ض: يدعى　(ب) ظ، ض: يُرجى　(ج) اللمحة والنفح وأزهار الرياض: مُحكَّمٌ　(د) اللمحة والنفح وأزهار الرياض: مهيض

(هـ) اللمحة: أمير المؤمنين　(و) سقط بيت الشعر من أ، ص، ومكانه بياض في ظ، ض، وعوضناه من مصادر التخريج

(ز) اللمحة والنفح وأزهار الرياض: بالحق　(ح) ظ: يأتي　(ط) ص: فلتعم، ض: فلتعم　(ي) أزهار الرياض: الدهر

(ك) اللمحة: هدى، ولعله من أخطاء الطبع　(ل) اللمحة والنفح وأزهار الرياض: راضياً　(م) اللمحة والنفح وأزهار الرياض: وطوّقه

وما العُمْرُ إلاّ زينةٌ مُستعارةٌ   تُرَدُّ ولكنَّ الثَّناءَ هو العُمْرُ

ومَن باعَ ما يَفنى بِباقٍ مُخلَّدٍ   فقد أنجحَ المَسعى وقد رَبحَ التَّجْرُ

ومِن دون ما تَبْغيهِ يا مَلِكَ العُلى(أ)   جيادُ المَذاكي والمُحَجَّلةُ الغُرُّ

وِرادٌ وشُقْرٌ واضِحاتٌ شِياتُها   فأجسامُها تِبرٌ وأرجُلُها دُرُّ

وَشُهْبٌ إذا ما ضُمِّرَتْ يَوْمَ غارةٍ   مُطَهَّمةٌ غارَتْ بها الأنْجُمُ الزُّهْرُ

وأُسْدُ رِجالٍ مِنْ مَرينٍ أَعِزَّةٌ(ب)   عَمائِمُها بِيضٌ، وآسالُها سُمْرُ

عليها مِنَ الماذِيِّ كُلُّ مُفاضةٍ   تَدافَعُ في أعطافِها اللُّجَجُ الخُضْرُ

هُمُ القَوْمُ؛ إنْ هبُّوا لِكشْفِ مُلِمَّةٍ   فلا المُلْتَقى صَعْبٌ، ولا المُرتَقى وَعْرُ

إذا سُئلوا أعطَوْا، وإنْ نُوزِعُوا سَطَوْا   وإنْ وَعدوا أوْفَوْا(ج)، وإنْ عاهَدوا بَرُّوا

وإن سَمِعوا العَوْراءَ فَرُّوا بأنفُسٍ   حَرامٌ على هِمّاتِها(د) في الوَغى الفَرُّ

[260 ب]

/ وإنْ مُدِحُوا اهتَزُّوا ارتِياحاً كأنَّهُم   نَشاوَى تَمَشَّتْ في مَعاطِفِهِمْ خَمْرُ

وتَبْسِمُ ما بَيْنَ الوَشيجِ ثُغورُهُمْ   وما بَيْنَ قُضْبِ الدَّوحِ يَبْتَسِمُ الزَّهْرُ

أمَوْلايَ غاضَتْ فِكرتي وتَبَلَّدَتْ   طِباعي، فلا طَبْعٌ يُعينُ ولا فِكْرُ

ولَوْلا حَنانٌ مِنكَ دارَكْتَني بهِ   وَأحْيَيْتَني(هـ) لم يَبْقَ عَينٌ ولا أثْرُ

فأوْجَدْتَ مِنّي فائتاً أيَّ فائتٍ   وأنْشَرْتَ مَيْتاً ضَمَّ أشْلاءَهُ قَبْرُ

(أ) النفح وأزهار الرياض: ملك الهدى (ب) اللمحة والنفح وأزهار الرياض: مخيفة (ج) اللمحة والنفح وأزهار الرياض: وفوا

(د) نفح الطيب: هاماتها (هـ) كذا في الأصول الأربعة والنفح وأزهار الرياض، وفي اللمحة: أحييتني

بَـدأتَ بِفَضْـلٍ لـم أكُـن لِعَظيمِـهِ ... بأهـلٍ، فَجَـلَّ اللُّطـفُ وانـشَرَحَ الـصَّدرُ[أ]
وَطَوَّقْتَنـي النُّعمـى المضاعَفَـةَ الّتـي ... يَقِـلُّ عليهـا مِـنّيَ الحَمْـدُ وَالـشُّكرُ
وَأنْـتَ بتَتْميـمِ الصّنائـعِ كافـلٌ ... إلى أنْ يَعـودَ العِـزُّ وَالجـاهُ وَالوفـرُ
جَزاكَ الّذي يُسني[ب] مقَامَكَ رَحمةً[ج] ... يُفَـكُّ بهـا العـاني[د] وَيُـنعَشُ مُـضطَرُّ
إذا نَحْـنُ أثنَيْنـا علَيـكَ بِمِدْحَـةٍ ... فَهيهاتَ يُحصى الرَّمـلُ أو يُحْصَر القَطْرُ
ولكنّنـا نَـأتـي بمـا نَسْتَطيـعُهُ ... ومَـنْ بَذَلَ المَجهـودَ حُـقَّ لـه العُـذْرُ

ثمَّ انفضَّ المجلسُ، وانصرف ابن الأحْمر إلى نُزُله، وقد فُرِشت له القصورُ، وقُرِّبتِ الجيادُ بالمراكب الذَّهَبيَّة، وبُعث إليه بالكُسى الفاخرة، ورُتِّبت الجراياتُ له ولمواليه من المَغْلوجَى وبطانته من الصَّنائع. وانحفظ عليه رَسْم سُلْطانه في الموكب والرَّجْل، ولم يَفْقِدْ[هـ] من ألقاب مُلكه إلاَّ الآلة؛ أدباً مع السُّلْطان. واستقرَّ في جُملته إلى أنْ كان من لحاقه بالأنْدلُس، وارتجاع مُلكه سنةَ ثلاثٍ وستِّين، ما نذكره.

الخَبَرُ عن انتقاض الحسن بنِ عُمَر، وخروجه بتادَلا، وتغلّب السُّلْطان عليه، ومَهْلكه

لمَّا فَصَل الوَزيرُ الحسن بن عُمَر إلى مَرَّاكُش، واستقرّ بها، تأثَّل له بها

(أ) في متن ظ، ص، ض: وانتزح الحصر، وكتب في هامشها: وانشرح الصدر، وفي اللمحة: وانفرج الحصر، وفي النفح وأزهار الرياض: وانفرج الصدر (ب) اللمحة: سنّى، النفح وأزهار الرياض: أسنى (ج) اللمحة والنفح وأزهار الرياض: عصمةً (د) اللمحة والنفح وأزهار الرياض: عانٍ (هـ) ظ: يعقد

سُلْطانٌ ورِياسةٌ، نَفِسها عليه الوزراء بمجلس السُّلْطان، وسعوا في تنكُّر السُّلْطان له، حتَّى أظلم الجوُّ بينهما. وشعر الوَزِير بذلك، فارتاب بمكانه، وخشي بادرةَ السُّلْطان على نفسه. وخرج من مَرَّاكُش في شهر صَفَر من سنة إحدى وستِّين، فلحق بتَادَلا، منحرفاً عن الطَّاعَة، مُرتبكاً في / أمرِه. وتلقَّاه بَنو جابر [من][أ] جُشَم، واغْضَوْضَبُوا [261 أ] عليه وأجارُوه. وجهَّز السُّلْطان عساكِرَه إلى حربه، وعقد عليها لوزيره[ب] الحسن بنِ يوسُف، وسَرَّحَه إليه، فاحتلَّ بتَادَلا. ولحق الحسن بن عُمَر بالجبل، واعتصم به مع حسين بن علي الوَرْديغِيّ كبيرِهم. وأحاطت بهم العَسَاكِر، وأخذوا بمُخَنَّقِهم. وداخل الوَزِيرُ بعضَ أهلِ الجبل من صَنَاكَةَ[ج] في الثَّوْرَة بهم. وسرَّب إليهم المال، فثاروا بهم وانفضَّ جمعهم. وتُقُبِّضَ على الحسن بن عُمَر، وقادوهُ برمّته إلى عَسْكَر السُّلْطان، فاعتقله الوَزِيرُ، وانكفأ راجعاً إلى الحَضْرة، وقدم به على السُّلْطان في يومٍ مشهُودٍ[د]، استركب السُّلْطان فيه العَسْكَرَ، وجلس ببُرج الذَّهَب مقعدَه من ساحة البَلَد لاعتراض عَساكِره. وحُمل[هـ] الحسن بنُ عُمَر على جَمَلٍ يتهادَى[و] به بين أهل ذلك المحشر. وقُرِّبَ إلى مجلس السُّلْطان، فأومأ إلى تقبيل الأرْض [من][ز] فوق جَمَلِه، وركب السُّلْطان إلى قصره. وانفضَّ الجمعُ وقد شهدوا عِبْرَةً من عِبَر الدُّنيا.

(أ) ظ: بن (ب) ظ: الوزير (ج) وضع في أ، ص، ض تحت الصاد حرف زاي لتلفظ صناكة وزناكة (د) ظ، ص، ض: مشهور (هـ) ظ: وحَمل السلطان، وأسقطت من ص، وطمست في أ، ض (و) ظ: طائف، وطمست في أ وعوّضها في الهامش بما هو مثبت وألحقت في ص، ض (ز) ساقطة من ظ، ص

ودخل السُّلْطانُ قَصْره، فاقتعدَ أريكته، واستدعى خاصَّته وجلساءه. وأحضره، فوبَّخه وقرَّر عليه مُرْتكَبه، فتلوَّى بالمعاذير وفزع إلى الإنكار؛ حضرتُ يومئذٍ هذا المجلس فيمن حضره من العِلْية والخاصَّة، فكان مقاماً تسيلُ فيه العُيُون رحمةً وعِبْرةً. ثم أمرَ به السُّلْطان، فسُحِبَ على وجهه، ونُتفتْ لحيته، وضُرب بالعِصِيّ، وتُلّ إلى مَحْبِسِه، وقُتل لليالٍ من اعتقاله قَعْصاً بالرِّماح بساحة البَلَد [الجديد][أ]، وصُلِبَ شِلْوُه بسُور البَلَد، عند باب المَحْرُوق، وأصبح مثلاً في الآخرين.

الخَبَرُ عن وَفْد السُّودان، وهديّتهم، [وفيها الحيوان الغريب الشِّيَات[ب] المُسَمَّى بالزَّرَافة][ج]

كان السُّلْطانُ أبو الحسن لمَّا أهدى إلى ملك السُّودَان مَنْسَا سُلَيمان بن مَنْسَا موسى هديَّته المذكورة في خبره، اعتمل [ملكُ السُّودان][د] في مكافأته، وجمع لمهاداته[هـ] من طُرَفِ أرضه وغرائب بلاده. وهَلَكَ السُّلْطان أبو الحسن خلال ذلك. ووصلت الهَدِيَّة إلى أقصى تُخُومهم من وَالاتَن[1]، وهَلَكَ مَنْسَا سُلَيمان قبل

(أ) من أ ومقحمة بين الأسطر بخطه في ض (ب) أ: الشبهات (ج) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، ص، وفيها: "وإغرابهم فيها بالزرافة". والمثبت من أ، وهامش ض بخطه، وسيذكر ابن خلدون في التعريف برحلته نص قصيدة يخاطب بها السلطان ويذكر خبر هذه الهدية. (د) زيادة من هامش ض بخطه (هـ) ظ: لها ذات

(1) سمّاها ابن بطوطة - وقد زارها وأقام فيها نحو خمسين يوماً - إيوالاتن، وذكر أنها أول عمالة السودان، شديدة الحر، فيها نخل قليل، يزرعون في ظلالها البطيخ. ابن بطوطة: الرحلة 4: 244.

[261 ب] فُصولها. / واختلفَ أهلُ مَالّي وافترق أمرُهم، وتَواثب مُلُوكُهم على الأمر وقَتَل بعضُهم بعضاً، وشُغلوا بالفِتْنَة، حتّى قام فيهم مَنْسَا جَاطَةُ بنُ [منسا مغا][1]، واسْتَوْسق له أمرهم، ونظر في أعطاف مُلكه. وأخبر بشأن الهَدِيَّة واختِزَانها[أ] بوَالاتَنْ[ب]، فأمر بإنفاذها إلى ملك المَغرب، وضمّ إليها الحيوانَ الزَّرَافةَ الغريبَ الشّكل، العظيمَ الهيكل، المختلف الشِّياتِ[ج]. وفَصَلوا بها من بلادهم، فوَصَلوا إلى فاس في صَفَر من سنة ثنتين وستّين. وكان يومُ وفادَتِهم يوماً مَشهوداً، جلس لهم السُّلْطانُ ببُرج الذَّهَب مجلسَ العرض، ونودي في النَّاس بالبُروز إلى الصَّحْرَاء، فبرزوا ينسِلونَ من كلّ حدَبٍ، حتّى غصَّ بهم الفضاء، وركب بعضهم بعضاً في الازدحام على الزَّرَافةِ؛ إعجاباً بخَلْقِها.

وأنشد الشُّعَراء في غرض[د] المدح، والتَّهنئة، ووصف الحال[2].

(أ) ص: وأخبر أنها (ب) ظ: بولاتن (ج) ظ، ص: المختلف الشبه بالحيوانات (د) ظ، ص: عرض

---

(1) مكانها في الأصول الأربعة بياض قدر كلمة. وهو: ماري جاطه (الثاني) بن منسا مغا بن منسا موسى، حكم مالي أربعة عشر عاماً، وأصيب في آخر حياته بمرض النوم؛ "مرضٌ يأخذ أحدهم فلا يكاد يفيق"، وتوفي سنة 775هـ. وقد فصّل ابن خلدون في الجزء الحادي عشر من العبر تسلسل الحكم في مالي، في معرض "الخبر عن ملوك السودان المجاورين للمغرب ..."، وقال في تفسير "ماري": معناها ـ عندهم ـ الأمير الذي يكون من نسل السلطان، وجاطه: الأسد. انظر: العبر 11: ورقة 159 أ ـ 162 ب، القلقشندي: صبح الأعشى 5: 297، طرخان: دولة مالي الإسلامية 107 ـ 109، وفيه شرح لأسباب ضعف دولة مالي بعد وفاة السلطان سليمان.

(2) كان ابن خلدون ممن حضر هذا المجلس، وقد أنشد السلطان قصيدة في ذكر تلك الزرافة، وفيها وصف بديعٌ لها (انظر ص 591)

وحضر الوفدُ بين يدي السُلْطان، وأدَّوْا رسالتهم[أ] بتأكيد الودّ والمخالصة، والعُذْر عن إبطاءِ الهَدِيّة بما كان من اختلاف أهل مَالِّي وتَواثبهم على الأمر، [ثمّ أفاضوا في][ب] تَعَظيم سُلْطانهم[ج] وما صار إليه، والتُّرجُمان يَتَرْجم عنهم وهم يصدّقونه[د] بالنَّزْع في أوتار قسيِّهم؛ عادةً معروفة لهم، وحَيَّوا السُلْطان؛ يَحْثُون التراب على رؤوسهم على سُنَّة مُلوك العَجَم.

ثمَّ ركب السُلْطان، وانفضَّ ذلك الجمعُ وقد طار به الذّكر. واستقرَّ ذلك الوفد في إيالة السُلْطان وتحت جِرايته. وهَلَكَ السُلْطانُ قبل انصرافهم، فوصَلهم القائمُ بالأمر من بعده. وانصرفوا إلى مَرَّاكُش، وأجازوا منها إلى ذوي حَسَّان عَرَب السُّوس من المَعْقِل المتّصلين ببلادهم، ولحقوا من هُنالِك بسُلْطانهم. والأمرُ لله.

الخَبَرُ عن حركة السُّلْطان إلى تلمْسان، واستيلائه عليها، وإيثارِ أبي زيّان حافد أبي تاشفين بمُلْكها، وما كان مع ذلك من صَرْف أمراء المُوَحّدين إلى بلادهم

[262 أ] لمَّا استقلَّ السُلْطانُ بمُلْك المَغْرب سنةَ ستّين، كما ذكرناهُ، وكان / العاملَ على دَرْعَةَ عَبْد الله بنُ مسلم الزَرْدَاليّ، من أحلافِ[هـ] بَني عَبْد الوَاد وشيعةِ آل زَيَّان، اصطنَعَهُ السُلْطانُ أبوالحسن عندَ تَغلُّبه على تِلِمْسان، واستعمله ابنُه أبو عِنَان

(أ) ظ: رسالاتهم (ب) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، وفيها: وتعظيم (ج) أ، ض: ملكهم (د) ظ: يصدقون (هـ) ظ: أخلاف

بعدَ ذلك على بلادِ دَرْعَة، كما ذكَرْناهُ. وتولَّى المكْرَ بأبِي الفَضْل ابن السُّلْطان أبِي الحسن، حين خروجه على أخيه السُّلْطان أبِي عِنَان بجبل ابن حَمِيدي، فارْتاب عندَ استقلالِ المولى أبِي سالم بالأمر، وخَشِيَ بادرَتَهُ؛ لِمَا يأتيهم من حِقْدِهِ عليه، بسبب أخيه أبِي الفَضْل، لِمَا كان بينهما من لُحْمَةِ الاغتراب، فداخَل بِطانَةً له من عَرَب المَعْقِل، واحتَمَل ذخائرَه وأموالَه وأهلَه، وقَطَع القَفْرَ إلى تِلِمْسان، ولَحِق بالسُّلْطان أبِي حَمُّو آخرَ سنة ستّين، فنزل منه خيرَ نُزُل، وعقَدَ له لحين وُصوله على وزارته، وباهَى به وبمكانه، وفوَّض إليه في التَّدْبير والحلّ والعَقْد، وشمَّر هو عن ساعدِه في الخدمَةِ. وجأجأ بعَرَب المَعْقِل من مَواطنهم؛ رغبةً في ولايته، وإيثاراً لمكانه من الدَّوْلَة، ورهبةً من السُّلْطان بالمَغْرب، لِمَا كانوا ارتكبوه من مُوافقة بَني مَرِين مرَّةً بعد أخرى، فاسْتقرُّوا بتِلِمْسان، وانحاشوا جميعاً إلى بَني عَبْد الوَاد.

وبعثَ السُّلْطانُ إلى أبِي حَمُّو في شأن عامِلِهم عَبْد الله بن مسلم، فلم يرجع له جواباً عنه. وحَظَر[أ] عليه ولايةَ المَعْقِل أهل وطنه، فلجَّ في شأنهم، فأجمع السُّلْطانُ أمرَه على النُّهوض إليه. واضطرب مُعَسْكَرُهُ بساحةِ البَلَد، وفَتَح ديوانَ العطاء، ونادى في النَّاس بالنَّفير إلى تِلِمْسان، وأزاحَ العِلَل.

وبعثَ الحاشرِينَ من وُزرائه إلى مَرَّاكُش، فتوافَتْ حشودُ الجهات ببابه، وفَصَل من فاس في جُمادَى من سنة إحدى وستّين. وجمع أبو حَمُّو [مَنْ](ب) في إيالته

(أ) ظ، ص: وخطر (ب) زيادة من أ ومقحمة في

[262 ب] وعلى التشيُّع[أ] لدَوْلته من زَناتة والعَرَب بَني عامر والمَعْقِل كافَّة، ما عدا العَمارِنَة؛ / كان أميرُهم الزُّبَيْرُ بنُ طَلْحَة متحيِّزاً إلى السُّلْطان. وأجْفلوا عن تِلِمْسان، وخرجوا إلى الصَّحْراء.

ودخل السُّلْطانُ تِلِمْسانَ[ب] ثالثَ رجب. وخالَفهُ أبو حَمُّو وأشياعهُ إلى المَغْرب، فنزلوا كَرسِيفَ بلدَ وَنْزَمار بن عَريف وخرَّبوه. واكتسحوا ما وَجدوا فيه؛ حَنقاً على وَنْزَمار وقومه بولاية بني مَرِين. وتخطّوا إلى وطاط، فعاثُوا في نواحيه، وانقلبوا إلى أنْكَاد.

وبلغ السُّلْطانَ خبرُهم، فتلافى أمرَ المَغْرب، وعقد على تِلِمْسان لحافدٍ من حَفَدة السُّلْطان أبي تاشِفِين، كان ربِيَ في حِجْرِهم وتحت كفالة نِعْمتهم، وهو أبو زَيَّان مُحَمَّد ابن عُثْمان وشهرته بالقُبّي[ج]. وأنزله بالقَصْرِ القديم من تِلِمْسان، وعَسْكَر عليه زَناتة الشَّرق كلهم. واستوزر له ابنَ عَمّته عُمَر بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن مَكْـن، ومن أبناء وزرائهم سعيدَ بن موسى بن علي، وأعطاه عشرةَ أحمالٍ من المال دنانير ودراهم، ودفع إليه الآلَةَ. وذكرَ حينئذٍ لمَوْلانا[د] السُّلْطان أبي العبَّاس سَوابقَه وإيلافه في المنزل الخشن، فنزل له عن محلّ إمارته قُسَنْطِينَة. وصرف أيضاً المولى[هـ] أبا عَبْد الله صاحب بِجَايَة لاسترجاع بلَدِه بِجَايَة، فعقد لهما بذلك وحملها[و]، وخلع عليهما، وأعطاهما حِمْلَيْن من المال.

(أ) ظ، ص، ض: التشييع (ب) ظ، ص: إلى تلمسان، وطمست في أ، ض (ج) ص: بالفتى، وإذا كانت كذلك؛ فلأنه كان فتى غرا. (د) ساقطة من أ، وطمست في ض (هـ) طمست في أ، ض وعوضها: الأمير (و) ساقطة من أ

وكانت بِجَايَةُ لذلك العَهْد قد تغلّب عليها عمُّهم المولى(أ) أبو إسحاق إبراهيم صاحبُ تُونِس، فكتب إلى عامِلِهم على قُسَنطِينَة منصور بن الحاج خَلُوف، أنْ ينزلَ عن بلَدِه لمَوْلانا(ب) السُّلْطان أبي العبَّاس أحمد ويمكّنه منها. ووَدَّع هؤلاء الأمراءَ، وانكفأ راجعاً إلى حَضْرته، لسدّ ثغورِ المَغرب، وحَسْم داءِ العَدُوّ، فدَخل فاس في شَعْبان من سَنَتِه. ولم يلبث أنْ رَجَع أبو زَيَّان على أثره بعدَ أنْ أجْفَلَ عن تِلِمْسان، ولحق بوَانْشَريس. وتغلّب عليه أبو حَمُّو وفضَّ جُموعَه، فلَحِق بالسُّلْطان. واستقلّ أبو حَمُّو بمُلْك تِلِمْسان، / وبعث في السّلْمِ إلى السُّلْطان، فعقد له من ذلك ما رضيه، كما نذكره. [1263 أ]

الخَبَرُ عن مَهْلِك السُّلْطان أبي سالم، واستيلاء(ج) عُمَر بن عَبْد الله على مُلْك المَغْرِب(د)، ونصْبِه للمُلُوك واحداً بعد آخر إلى أنْ هَلَك

كان السُّلْطانُ قد غلب على هَواه الخطيبُ أبو عَبْد الله بن مَرْزُوق، وكان من خبره: أنَّ سَلَفه من أهلِ رِباطِ الشَّيخ أبي مَدْيَن(1)، كان جدّه قَيِّماً على خِدمة قَبْره ومَسْجده، واتَّصل القِيامُ على هذا الرِّباط في عَقِبِهِ. وكان جدُّه الثَّالث مُحَمَّد معروفاً

(أ) طمست في ض (ب) ساقطة من أ، وطمست في ض (ج) أ: على يد (د) أ: واستيلائه على ملك المغرب

(1) هو المسمّى رباط العُبّاد، وقد مرّ التعريف به في ص 289.

بالولايةِ، ولمَّا مات دَفَنه يَغْمَرَاسَن بالقَصْرِ القَديم، ليُجاوِرَه بجدَثهِ تبرُّكاً به. وكان ابنُه أحمدُ أبو مُحَمَّد هذا قد ارتحل إلى المشرق، وجاوَر الحرَمَيْن إلى أنْ هَلَكَ، وربيَ مُحَمَّدٌ ابنُه بالمشرق ما بين الحِجاز ومِصْرَ، وقَفَل إلى المَغْرب بعد أنْ شدا شيئاً في الطَّلَب وتفقَّه على أولاد الإمام.

ولمَّا ابتَنى السُّلْطانُ أبو الحسن مسجدَ العُبَّاد، ولَّاهُ الخَطابةَ به، وسمعه يخطبُ على المنبر، وقد أحسن في ذِكْره والدُّعَاء له؛ فَحَلِيَ بعَيْنِهِ، واستخلصه لنفسه، وأحلَّه محلَّ القرب من مجلسه، وجعله خطيباً حيث يُصلِّي من مساجد المَغْرب، وسفر عنه إلى المُلوك. ولمَّا كانت نَكبَةُ القَيْرَوان، خَلَص إلى المَغْرب، واستقرَّ بِرِباطِ العُبَّاد محلَّ سَلَفِه، بعدَ أحْوالٍ أضْرَبْنا عن ذكرها اختصاراً.

ولمَّا خلصَ السُّلْطانُ إلى الجَزَائِر، داخَلَه أبو سعيد صاحبُ تِلِمْسان في السِّفارة عنه إلى السُّلْطان أبي الحسن وصَلاحٍ بينهما، فسارَ لذلك، ونَقِمَه أبو ثابت وبَنو عَبْد الوَاد ونَكِروه على سُلْطانهم، وسَرَّحُوا صُقَيْر بنَ عامر في اتِّباعِه، فتقبَّض عليه، وأوْدعُوه المُطْبَق[أ]. ثمَّ أشخصوه - بعد حينٍ - إلى الأنْدَلُس، فاتَّصل بأبي الحَجَّاج صاحبِ غَرْنَاطَة، وولَّاه خَطابتَه؛ لِمَا اشتهَرَ به من إجادةِ الخُطبة للمُلُوك بزَعْمِهم. وأَلِفَ السُّلْطان أبا سالم في مثوى غربته من غَرْنَاطَة، وشارَكَه عند أبي الحَجَّاج في مهمَّاته.

(أ) في الأصول الأربعة: الطبق

[263 ب] ولمَّا نزل بجبال غُمَارَة، داخَلَ بَني مَرِين والوزراء في / القِيام بدَعْوته، وكان له في ذلك مقامٌ محمودٌ، فرعى السُّلْطانُ وسائلَه ومَوَاتَّهُ(1) القديمةَ والحادثةَ إلى مقامه عندَ أبيه. فلمَّا اسْتَوْسَقَ له مُلْكُ المَغْرب، استخصَّهُ بولايته، وألْقَى عليه محبَّته وعِنايته، وكان مُؤَامِرَه ونَجِيَّ خَلْوَتِه والغالبَ على هَواه، فانصرفتْ إليه الوجوهُ، وخضعتْ له الرِّقابُ، ووطئَ عَقِبَهُ الأشرافُ والوزراءُ، وعَكَفَ على بابه القُوَّادُ والأمراءُ؛ وصار زمامُ الدَّوْلَة بيده. وكان يَتَجافى عن ذلك أكثرَ أوقاته، حذراً من المَغَبَّةِ، ويزجرُ مَن يتعرَّض له في الشِّكاية، ويردُّهم إلى أصحابِ المراتب والخِطط بباب السُّلْطان، وهم يعلمون أنَّه قد ضَرَب على أيديهم، فنَقِموا ذلك عليه وسخطوا الدَّوْلَةَ من أجله، ومَرِضَت قلوبُ أهل الحلّ والعَقْد من تقدّمه، ونَفِسَ عليه الوزراءُ ما تعيّن له عند السُّلْطان من الحظّ، فتربَّصوا بالدَّوْلَة. وشَمِل هذا الدَّاءُ الخاصَّةَ والعامَّةَ.

وكان عُمَر بنُ عَبْد الله بن علي، لمَّا هَلَكَ أبوه الوَزِيرُ عَبْد الله بن عليّ في جُمَادَى سنةَ ستّين، عندَ استيلاء السُّلْطان على مُلكه، تحلَّبت شفاهُ أهلِ الدَّوْلَة إلى تُراثه، وكان مثرياً؛ فاستجارَ منهم بابن مَرْزُوق، وساهمهُ من(أ) تُراث أبيه، بعدَ أنْ حملوا السُّلْطان على النَّيْل منه والإهانةِ به، فأجارَه منهم، ورَفَع عندَ السُّلْطان رُتْبَته،

(أ) ساقطة من أ

---

(1) المَتُّ والماتَّة: الحرمة والوسيلة. لسان العرب، مادة: متت

وحَمله على الإصهار إليه في أخته، وقلَّده السُّلْطانُ أمانةَ البَلَد الجَدِيد، دارِ مُلكه، متى عنَّت له الرِّحلةُ عنها.

وأصْهَرَ عُمَر إلى وزيرِ الدَّوْلَة مَسْعُود بنِ مَاسَايْ؛ تَمْكيناً لغَرَضِه، واستخلاصاً لمودّته. وسَفَر عن السُّلْطان إلى صاحبِ تِلِمْسان في شَعْبان من سنة ثنتين وستّين. ونُمِيَ عنه أنّه داخَلَ صاحبَ تِلِمْسان في بعضِ المكْر، فهمَّ بنَكْبته وقَتْلِهِ. ودافَع عنه ابنُ مَرْزُوق، فخلص من عِقابه؛ وطوى من ذلك على النَّثّ، وتربّص بالدَّوْلَة. وأُعيد إلى مَكانِه من الأمانة على دار / [264 أ] الملك أوّل ذي قَعْدَة، مرجعَهُ من تِلِمْسان؛ لمَّا كان السُّلْطانُ قد تحوَّل عنها إلى القَصَبة بفاس، واختطَّ إيواناً فخماً لجلوسِه بها لِصْقَ قُصورِه مُتَفيِّئاً الأَبْرَدَيْن. فلمّا استوى عُمَر على دارِ الملك، حدَّثته نفسُهُ بالتوثّب، وسوَّل له ذلك ما اطّلع عليه من مَرضِ القُلوب والنَّكير على الدَّوْلَة، بمَكانِ ابن مَرْزُوق من السُّلْطان؛ فداخَلَ قائدَ الجُنْد [من](أ) النَّصارَى غَرْسِيَّةَ بن أنطون واتَّعَدُوا لذلك ليلةَ الثلاثاء السَّابع عشر من ذي قَعْدَة سنةَ ثنتين وستّين، وخَلَصوا إلى تَاشِفِين الموسُوس(1) ابنِ السُّلْطان أبي الحسن بمَكانِه من البَلَد الجَدِيد، فخلَعوا عليه وألْبَسوه شارةَ المُلْك، وقرَّبوا له مَرْكَبه، وأخرجوه إلى أريكةِ السُّلْطان،

(أ) ساقطة من ظ، ص

---

(1) أبو عمرو تاشفين بن عليّ بن عثمان المرينيّ، كان النصارى قد أسروه أيام أبيه في واقعة طريف، فاختلّ عقله، ثم أطلقوه، وكان من أمره ما يذكره ابن خلدون في هذا الفصل من كتابه. وانظر تفصيلات أخرى في: تاريخ الدولتين للزركشي 101

فأقْعدوه عليها. وأكرهوا شيخَ الحامية والنَّاشِبة عيسى[1] بنَ الزَّرقاء [من قَرابةِ بَني إشْقَيْلُولَة][أ] على البَيْعة له، وجهروا بالخُلْعان، وقَرعوا الطُّبول، ودخلوا إلى مودَع المال، فأفاضوا العَطاء من غيرِ تقْدير ولا حُسْبان[ب]. وماجَ أهلُ البَلَد الجَدِيد من الجند بعضهم في بعض، واختطفوا ما وَصَل إليهم من العَطاء، وانتَهَبوا ما كان بالمخازن الخارجةِ من السّلَع والعُدَّة، وأضْرموا النَّار في بُيوتها؛ سِتْراً على ما ضاع منها.

وأصبح السُّلْطانُ بمكانِه من القَصَبة، فرَكِب، واجتمع إليه مَن حضر من الأولياء والقبائل، وغدا إلى[ج] البَلَد الجَدِيد، وطافَ بها[د] يَرومُ فيها منفذاً، فاستصعَبت، واضْطرب معَسْكَره[هـ] بكُدْية العَرائِس لحصارِها، ونادى في النَّاس بالاجتماع إليه، ونزل عندَ قائلةِ الهاجِرة بفُسْطَاطه، فتَساتَل النَّاسُ عنه إلى البَلَد الجَدِيد فَوْجاً بعد فَوْج بمرأىً منه، إلى أنْ سارَ إليها أهلُ مَجلسِه وخاصَّته ، فطَلَب النَّجاةَ بنفسه وركب في لُمَةٍ من الفُرْسان مع وزرائه: مَسْعُود بن رَحُو، وسُلَيمان بن داود، ومقدّم

(أ) ما بين الحاصرتين من أ، وهامش ض بخطه (ب) ظ، ص: حساب (ج) أ، ص، ض: على (د) أ: طائفاً بها، ص: فطاف بها (هـ) ظ: عسكره

---

(1) في الأصول الأربعة: محمد بن الزرقاء، ووضع ابن خلدون في أ قبلها مخرج إلى جهة اليسار وكتب في الهامش: عيسى بن ....، فهل المراد: عيسى بن محمد بن الزرقاء، أمْ عيسى بن الزرقاء؟ ولعلّ ابن خلدون أراد تصحيح الاسم أو مراجعته فيما بعد. وفي نفاضة الجراب (28، 273، 331): "عيسى بن الزرقاء، متولي الحكم وصاحب الشرطة العليا بباب السلطان.. المنتسب إلى الرؤساء من بني إشقيلولة". وعلّق المحقق د. أحمد مختار العبادي بأن ابن خلدون ذكره محمد بن الزرقاء.

[264 ب] الموالي والجند ببابه سُلَيمان بن ونصَار[1]. وأذن / لابن مَرزُوق في الدُّخولِ إلى داره، ومضى على وَجْهه.

ولمَّا غشيهم اللَّيْلُ، انفضُّوا عنه. ورجع الوَزِيران إلى دار المـُلْك، فتقبَّض عليهما عُمَر بنُ عَبْد الله ومُساهِمُه[أ] غَرْسِيَّةُ بنُ أنطون [قائدُ النَّصارَى][ب]، واعتقلاهُما مُفترِقَيْن. وأشخصَ عليّ بن مهدي بن يرزيجَن في طَلَب السُّلْطان، فعثر عليه نائماً في بعض المجاشر[2] بوادي وَرْغَة وقد نزع عنه *لباسَه اختفاءً بشخصه*[ج]، وتوارَى عن العُيُون بمكانِه، فتقبّض عليه وحمله على بغل. وطيّر بالخبر إلى عُمَر بن عبدالله، فـأزعج لتلقِّيه شُعَيبَ بنَ ميمون بن وَدْرَار، وفَتْح الله بن عامر بن فَتْح الله [مِنْ بِطانة السُّلطان ووزرائه][د]، وأمرهما بقَتْلِه وإنفاذ رأسه، فلَقياهُ بخندق القَصَب إزاءَ كُدْيَة العَرائِس. وأمَرا بعضَ جُنْد[هـ] النَّصَارَى تولِّي ذبحه، وحمل رأسه في مِخْلاةٍ، فوضعه بين يدي الوَزِير والمشيخة. واستقلّ[و] عُمَر بالأمر، ونَصب الموسوِسَ تَاشِفِين يموّه به على النَّاس. وجرت الأمور إلى غايتها. ولكلّ أجلٍ كتاب.

(أ) أ: ورفيقه في الثورة (ب) ما بين الحاصرتين زيادة من أ (ج) سقط ما بين النجمين من أ وعوضه: ثيابه (د) من أ، وهامش ض بخطّه (هـ) أ: أجناد (و) ظ: واستقرّ

(1) سيتكرر رسمه فيما بعد بوضع حرف الزّاي تحت الصّاد

(2) أ: المداشر، وتعني عند المغاربة ذات المعنى: المراعي والقرى والضياع

الخَبَرُ عن الفَتْكة بابن أنطون قائد العَسْكَر من النَّصارى[أ]، ثمّ خروج يحيى بن رَحُّو وبَني مَرين عن الطّاعَة

لمَّا تقبَّض عُمَر بنُ عَبْد الله على الوَزير، جعل معتقلَ سُلَيْمان بن داود بدار غَرْسِيَّة قائدِ النَّصارَى، ومعتقلَ ابن مَاسَايْ بدارِه؛ ضنًّا[ب] عن الامتهان لمكان صهره، ولِمَا كان يؤمّل فيه من الاستظهار على أمْرِه بعصابته من الأبناء والإخوة والقَرابة.

وكان غَرْسِيَّة بنُ أنطون[ج] صديقاً لسُلَيْمان بن ونصَار[د]، فلمَّا رَجَع عن السُّلْطان ليلَةَ انفضاضهم، نزل عليه؛ وكان يُعاقِرهُ الخمْرَ، فباثَّهُ شجوه، وتفاوضا في اغتيال عُمَر وإقامة مُعْتَقَلِهِ سُلَيْمان بن داود في الوِزارَة، لما هو عليه من السنّ ورُسوخ القَدَم في الأمر.

ونُعِيَ إلى عُمَر الخبرُ؛ فارتاب، وكان خِلواً من العِصابة، ففزع إلى قائدِ الموكب السُّلْطانيّ من[هـ] الرَّجْل الأنْدَلُسيِّين / يومئذٍ إبراهيم البِطْروجيّ[1]، فباثَّهُ أمْرَه، وبايعَهُ [1265]
على الاستماتةِ دونَه. ثمّ استقلّ عصابتهم، ففزعَ إلى يَحْيَى بن رَحُّو شيخِ بَني مَرِين

(أ) أ: قائد النصارى من العسكر (ب) ظ: ظناً (ج) ساقطة من أ، وفيها: غرسية قائد النصارى (د) وضع في أ، ص، ض تحت الصاد حرف زاي (هـ) ظ: ابن

(1) ص: البطروجي. ونسبته إلى بطروج، ويقال: بِطْروش Pedroche: قرية من عمل فحص البلوط قرب قرطبة بالأندلس، يحيط بجبالها وسهولها شجر البلوط. رسائل ابن حزم 174، الإدريسي: نزهة المشتاق 2: 538، 580، الحميري: الروض المعطار 332، ابن الخطيب: نفاضة الجراب 332، وفيه: إبراهيم بن أحمد البطروجي.

وصاحبِ شورَاهم، فشكا إليه؛ فأشكاه، ووَعَده الفَتْكَ بابـن أنطـون وأصحابه. وانبرم عقَدُ ابن أنطون وسُلَيمان بـن ونصَار[أ] على شـأنهم، وغدَوْا إلى القَصْر. وأدْخَل ابـنُ أنطون طائفةً من النَّصَارَى للاستظهار بهم.

ولمَّا تَوافت بنو مَرِين بمَجْلِس السُّلْطان - على عادَتِهم - وطعِمُوا، دعا عُمَر بن عَبْد الله القَائدَ ابن أنطون، بين يدي يَحْيَى بن رَحُّو، وقد أحضر البطْرُوجيّ[ب] رَجُلَ الأنْدَلُسيّين، فسأله يَحْيَى تَحْوِيلَ سُلَيمان بن داود من دارِه إلى السِّجن، فأبى وضنَّ به[ج] على الإهانه حتَّى يُنالَ مثلها من ابن مَاسَايْ صاحبه، فأمر عُمَر بالتقبّض عليه، فكشَّر في وُجوه الرِّجَل، واخترط سِكِّينه للمُدافعة، فتَواثب به بَنو مَرِين، وقَتلوه لحينـه. واسْتَلْحموا مَـن وجدوا بالدَّار مـن جُنْد النَّـصَارَى بعـد جـولة، وفَـرُّوا إلى معَسْكَرِهم؛ ويُعْرف بالمَلَّاح[د] جِوارَ البَلَد الجَدِيد.

وأرْجَف الغَوْغاءُ بالمدينة أنَّ ابنَ أنطون غدر بالوَزِير، فقُتل جندُ النَّصَارَى حيث وُجدوا من سِكك المدينة، وتَزاحفوا إلى المَّلاح لاستلحام مَن به من الجند. وركب بَنو مَرِين لحماية جُندهم من معرَّة الغَوْغاء، وانتُهب يومئذٍ الكثيرُ من أموالهم وآنيتهم وأمتعتهم، وقتل النَّصَارَى كثيراً من المُجّان؛ كانوا يعاقرون الخمْرَ بالمَلَّاح. واستبدّ عُمَر بالدَّار واعتقلَ سُلَيمان بنَ ونْصَار[هـ] إلى اللَّيْل، وبعث مَـن قَتَله بمَحْبِسه. وحوَّل

(أ) وضع في أ، ض تحت الصاد حرف زاي (ب) ص، ض: البطروجي (ج) ص: وضربه (د) ظ، ص: بالسلاح، أ: الملاج. ويذكر مؤلف كتاب ذكر بلاد الأندلس 41 إقليم الملاحة من أقاليم قرطبة "فيه ستة حصون وسبعة عشر برجاً وأربع وثمانون قرية".
(هـ) وضع في أ، ص، ض تحت الصاد حرف زاي

سُلَيمان بن داود إلى بعض الدُّور بدارِ المُلْك؛ اعتقله بها واستولى على أمره. ورجع في الشُّورَى إلى يَحْيَى بن رَحُّو، واعصوصَب بنو مَرِين عليه، واعتزَّ على[أ] الوزراء والدَّوْلَة. وكان عدوّاً لخاصَّةِ السُّلْطان أبي سالم حريصاً على قتْلهم. وكان عُمَر يُريد / استبقاءَهم، لِمَا أمله في ابن مَاسَايْ، فاختلفتْ أهواؤهما، وتبيّن [265 ب] يَحْيَى بن رَحُّو والمشيخةُ صاغيته إلى ابن مَاسَايْ، فخشنتْ صُدورُهم عليه، ودبّروا في شأنه. وخاطب هو عامرَ بن مُحَمَّد باتِّصال اليد واقتسام مُلك المَغرب.

وبعث إليه بأبي الفَضْل ابن السُّلْطان أبي سالم، اعتدّه عنده وليجةً لخَلاصِه من رِبْقَة الحصار الذي همَّ به مشيخةُ بَني مَرِين. وكان أبو الفَضْل هذا بالقَصَبة تحت الرَّقْبة والإرصاد، فتُفُقِّدَ من مكانه. وأغلظ المشيخةُ في العتب لعمَر في ذلك، فلم يستعتب، ونبذ إليهم العَهْد، وامتنع بالبَلَد الجَدِيد، ومنعهم من الدُّخول إليه، فاعصَوْصَبُوا على كبيرهم يَحْيَى بن رَحُّو، وعَسْكَرُوا بباب الفُتوح. وجاجأوا بعَبْد الحَليم ابن السُّلْطان أبي عليّ. وكان من خَبَرهم معه ما نذكره. وأطلق عُمَر بن عَبْد الله مَسْعُود بن مَاسَايْ من مَحْبِسه، وسَرَّحه إلى مَرَّاكُش، وواعَده في الإجْلاب عليهم إنْ حاصَرُوه، كما نذكر.

(أ) ظ: عن

الخَبَرُ عن وُصول عَبد الحَليم ابن السُّلطان أبي عليّ من تلمْسان، [وبَيْعة بني مَرِين له][أ]، وحصار البَلَد الجديد

كان السُّلْطانُ أبو الحسن لمَّا قتل أخاه الأميرَ أبا عليّ وقضى الحقَّ الذي له في دَمِهِ، عمل بالحقّ الذي عليه في وَلَده وحُرَمه، فكَفِلَهم وأغذاهم نِعْمَتَه، وساواهم بوَلَده في كافَّة شؤونهم، وأنكَح ابنته تَاحَضْرِيت العزيزةَ عليه، عليًّا منهم المكنَّى بأبي يَفَلُوسَنْ. ونزَع عنه وهو بالقَيْرَوان أيَّامَ النَّكْبة، ولحق بالعَرَب، وأجلب معهم على السُّلْطان بالقَيْرَوان وتُونِس.

ثمَّ انصرف من إفْرِيقِيَّة ولحق بتِلِمْسان، ونزل على سُلْطانها أبي سعيد عُثْمان بن عبد الرَّحمن، فبوَّأه كرامته.

ثمَّ شرع في الإجازة إلى الأنْدَلُس. وبعث فيه السُّلْطان أبو عِنَان قبلَ فُصوله، فأشْخَصوه / إليه، فاعتقله، ثمَّ أحضره [ووبَّخه][ب] على مُرْتَكَبه مع السُّلْطان أبي الحسن، وجَحْده حقَّه، ثمَّ قَتَله لِلَيْلَتين من شُهور إحدى وخمسين. [266 أ]

ولمَّا هَلَكَ السُّلْطانُ أبو الحسن، ولحقَت جملته من الخاصَّة والأبناء بالسُّلْطان أبي عِنَان، وأشخص إخوته إلى الأنْدَلُس، أشخص معهم وَلَدَ الأمير أبي عليّ هؤلاء: عَبْدَ الحَلِيم، وعَبْدَ المُؤْمن، والمنصورَ، والنَّاصِرَ، وسعيدَ ابنَ أخيهم أبي زَيَّان،

(أ) زيادة من أ (ب) ظ: وذبحه

فاستقرّوا بالأندَلُس في جِوار ابن الأحمر. ثمّ طلب أبو عِنَان إشخاصَهم بعدُ، كما طلب إشخاص أخيهم [عبْد الحلِيم][أ]، فأجارَهم ابنُ الأحمر جميعاً، وامتنع من إسلامهم إليه؛ وكان من المغاضبة لذلك ما قدّمناه.

ولمّا اعتقل السُّلطانُ أبو سالم الأبناءَ المرشَّحين برُنْدَة، كما قدّمناه، نَزَع منهم عبد الرّحمن [بن][ب] علي أبي يَقَلُوسَنْ إلى غَرْناطَة، فلحق بأعمامه.

وكان السُّلطانُ أبو سالم ضَجِراً بمكانِهم مُستريباً بشأنِهم، حتّى لقد قتل مُحَمَّد ابن أبي يَقَلُوسَنْ من أخته تاحَضْريت وهو في حِجْرها وحِجْره، استرابةً بما نُمِيَ عنه.

ولمّا أجاز أبو عَبْد الله المَخْلُوع ابن أبي الحَجَّاج إلى المَغْرب، ونزل عليه، وصار إلى إيالته، رأى أنْ قد مَلَك أمْرَه في هؤلاء المرشَّحين بغَرْنَاطَة. وراسَلَ الرَّئيس مُحَمَّد ابن إسماعيل عند توثّبه[ج] على الأمر واستلحامه أبناء السُّلطان أبي الحَجَّاج، فراسَلَه في اعتقالهم، على أنْ يمسِك المَخْلُوع عن التهامه، ويقبض عنانَه عن الهُوِيّ[1] إليه، فاعتقلهم. ثم فسد ما بين الرَّئيس والطَّاغِيَة. وزحف إليهم، والتَهَمَ كثيراً من حصون المُسْلِمين. وبعث إلى السُّلطان أبي سالم في أنْ يخلّي سبيلَ المَخْلُوع إليه، فامتنع وفاءً للرَّئيس. ثمّ دافعَ الطَّاغِيَة عن ثغوره بإسعاف طِلْبتِهِ، فجهَّز المَخْلُوع، وملأ

(أ) ساقطة من ظ، ص، وفيها: إشخاص أخيه (ب) ساقطة من ظ (ج) أ: ثبوته

(1) الهُوِيّ من السير: المضي إليه

حقائبه صِلاتٍ، وأعطاه الآلَةَ، وأوْعَز إلى أُسطُوله بسَبْتَة؛ فَجُهِّز، وبعث عَلَّال بن مُحَمَّد ثقة [أبيه](أ)، فأرْكبه الأسْطُولَ، وركب معه إلى الطَّاغِيَة.

[266 ب] / وخلص الخَبَرُ إلى الرَّئيس بمكانِه من سُلْطان غَرنَاطَة. وكان أبو حَمُّو صاحبُ تِلِمْسان يُراسله في أولاد أبي عليّ، وأنْ يجيزَهم إليه ليجِدَهم زَبُوناً على السُّلْطان أبي سالم، فبادرَ لحينه وأطْلقهم من مَكان اعتقالهم، وأركب عَبْدَ الحَليم وعَبْد المُؤمن وعبْدَ الرَّحمن(ب) ابن أخيهما علي أبي(ج) يَفْلُوسَنْ في الأُسْطُول، وأجازهم إلى هُنَيْن بين يَدَيْ مَهْلِك السُّلْطان أبي سالم، فنزلوا من صاحبِ تِلِمْسان بأعزّ جِوار، ونصب عَبْدَ الحَليم منهم لمُلك المَغرب.

وكان مُحَمَّد السُّبَيْعُ بن موسى بن إبراهيم نزع عن عُمَر ولحق بتِلِمْسان، فتَوافى(د) معهم، وأخبرهم بمَهْلِك السُّلْطان، وبايع له، وأغراهُ بالرِّحلةِ إلى المَغرب.

ثمّ تتابعتْ رُسُلُ بَني مَرِين بمثلها، فسرَّحه أبو حَمُّو، وأعطاهُ الآلَةَ، واستوزر له مُحَمَّداً السُّبَيْع(هـ)، وارتحل يُغِذُّ(و) السَّيْرَ، ولَقِيَه بطريقه مُحَمَّد بن زَكْداز(ز)؛ من أولاد عليّ، من شيوخ بني وَنكَاسَن، أهلُ دَبْدُو(ح)، ثغر المَغْرب، منذ دُخول بَني مَرِين إليه، فبايعهُ وحمل قومَهُ على طاعته، وأغَذَّ السَّيْرَ.

(أ) ظ، ص: إليه (ب) سقط اسم عبد الرحمن من أ (ج) أ: أبو (د) ظ: فوافى (هـ) ظ، ص: محمد بن السبيع، واسمه كما مرّ قبل قليل: محمد السبيع بن موسى بن إبراهيم (و) ظ: يغلو، ض: يغذه (ز) ص: زكراز، وقد تقدم ذكره في أول الجزء (ح) ظ: ديدو، ومهملة في ص، وضبطه في أ بضم أوله. وهي مدينة قديمة مبنية على منحدر جبل شاهق. الوزان: وصف إفريقيا 1: 351.

وكان يَحْيَى بن رَحُّو والمشيخةُ لمَّا نبذ عُمَر بن عَبْد الله إليهم العَهْد وعَسْكَروا بباب الفُتوح، أوْفدوا مشيخةً منهم على تِلِمْسان، لاستقدام السُّلْطان عَبْد الحَلِيم[أ]، فوافوهُ[ب] بتَازَى، ورجعوا معه. وتلقَّتْهُ جماعةُ بَني مَرِين بسُبُو[1]. ونزلوا على البَلَد الجَدِيد يومَ السّبت سابعَ مُحرَّم من سنةِ ثلاثٍ وستّين، واضطربوا معَسْكَرَهم بكُدْيَة العَرائِس. وغادَوا البَلَد بالقتال وراوَحوها سبعةَ أيّام، وبعثاتُ الأمصار تُوافيهم، والحشودُ تَتَساتَلُ إليهم.

ثمَّ إنَّ عُمَر بنَ عَبْد الله برزَ من السّبت القابل في مُقدّمة السُّلْطان أبي عُمَر، بمَن معه من الجند المُسْلِمين والنَّصارَى، رامحةً وناشبةً. ووكَّل السُّلْطانُ مَن جاء به في السَّاقَةِ على التَّعْبِئَة المحكَمَة، وناشَبَهم الحربَ، فدَلَفوا[ج] إليه، فاستطرد لهم ليتمكَّن النَّاشِبةُ من عَقْرِهم من الأسوارِ، حتّى فَشتْ فيهم الجِرَاحاتُ. ثمّ صمَّم نحوهم، فانفرجَ القلبُ وانفضَّت الجموعُ، وزحفَ السُّلْطانُ في السَّاقَةِ، فابْذَعَرّوا[2] في الجهات. / [267أ]
وافترق بَنو مَرِين إلى مَواطنهم. ولحق يَحْيَى بن رَحُّو بمَرَّاكُش مع مبارك بن إبراهيم شيخ الخُلْط. ولحق عَبْد الحَلِيم وإخوته بتَازَى بعد أنْ شَهِد لهم أهلُ المَقام بصِدْق الجِلاد وحُسْن البلاءِ في ذلك المجال. وصابَر عُمَر بن عَبْد الله [أمرَهُ][د] ينتظرُ قُدومَ مُحَمَّد بن أبي عبد الرَّحمن، كما نذكره.

(أ) ظ، ص: عبد الحميد (ب) ظ، ص: فوافاه (ج) ظ، ص: فتلقوا (د) ساقطة من ظ

---

(1) ضبطه في أ بفتح أوله: سَبُو. وتقدم التعريف به.

(2) في ظ، ص، ض: فانذعروا، وكلاهما يعني: التفرّق والفرار

الخَبَرُ عن قُدومِ مُحَمَّد ابنِ الأميرِ أبي عبد الرَّحمن، وبيعته بالبَلَد الجَديد في كَفالةِ عُمَر بن عَبْد الله

لمَّا نبذ عُمَر إلى بَني مَرين عهدَهم واعْصَوْصَبُوا عليه، ونَكِروا ما جاءَ به من البَيْعة لأبي عُمَر، مع فُقدانِه العَقْلَ الذي هو شرطُ الخِلافةِ شَرْعاً وعادةً، ونقموهُ عليه؛ اتَّهم نفسَه في نظرِه، وفزِعَ إلى الْتماسِ المرشَّحين، فوقَع نظرُه على حافِد السُّلْطان أبي الحسن مُحَمَّد ابنِ الأميرِ أبي عبد الرَّحمن النَّازع لأوَّل دَوْلةِ السُّلْطان أبي سالم من رُنْدَة إلى الطَّاغِيَة؛ وكان قد نزل منه بخَيْرِ مَثْوى، فبعث إليه مَوْلاه عتيقاً الخَصِيّ، ثمَّ تلاه بعُثْمان ابن اليَاسمين، ثمَّ تلاهما بالرَّئيس الأبكَم من بَني الأَحْمر، وفي كلّ ذلك يستحثّ[ا] قُدومَهُ.

وخاطبَ المَخْلُوعَ ابن الأَحْمر وهو في جِوارِ الطَّاغِيَة، كما قدَّمناه، وقريبُ عهدٍ بجِوارهم، فخاطبهُ في استِحْثاثه واستخلاصهِ من يَدِ الطَّاغِيَة. وكان المَخْلُوعُ يرتادُ لنفسه نُزُلاً من ثغور المُسْلِمين، لِمَا كان قد فَسد بينه وبين الطَّاغِيَة، ورامَ النُّزوع عن إيالته، فاشترط على الوَزير عُمَر النُّزولَ له عن رُنْدَة؛ فتقبَّل شَرْطَه، وبعث إليه الكتابَ بالنُّزول عنها، بعد أنْ وَضَع الملأُ عليه خُطُوطَهم من بَني مَرين والخاصَّة والشُّرفاء والفُقهاء، فسار ابنُ الأَحْمر إلى الطَّاغِيَة، وسأل منه تَسْريحَ مُحَمَّد هذا إلى مُلكه، وأنَّ قبيلَه دَعَوْهُ إلى ذلك؛ فسرَّحه بعد أنْ شَرَط عليه وكَتَب الكتاب بقبوله.

(ا) ظ: يستحب

وفَصَل من إشْبيلِيَة في شهر المُحرَّم فاتحَ ثلاثٍ وستِّين، ونزل بسَبْتَة، وبها سعيد بنُ عُثْمان من قَرابة عُمَر بن عَبْد الله؛ أرْصدَهُ لقُدومِه، فطيَّر بالخبرِ / إليه، [267 ب] فخلَع أبا عُمَر من الملك وأنزله بدارِه مع حُرَمه. وبعثَ إلى السُّلْطان أبي زيّان [مُحَمَّد][أ] بالبَيْعة والآلة والفَساطيط. ثمَّ جهَّز عَسكراً لِلقائه، فتلقَّوه بطَنْجَة. وأغذَّ السَّيرَ إلى الحَضْرة، فنزلَ منتصفَ شهرِ صَفَر بكُدْيَة العَرائِس، واضطرب معَسْكَره بها، وتلقَّاه الوَزيرُ يومئذٍ، وبايعَهُ، وأخرجَ فُسْطَاطه، فاضطرَبه بمُعَسْكَره، وتلوَّم السُّلطانُ هُنالِك ثلاثاً، ثمَّ دخل في الرَّابعة إلى قَصْره واقتعدَ أريكته، وتودَّع مُلكَه[1]، وعُمَر مُستبدٌّ عليه لا يَكِل إليه أمْراً ولا نَهياً، واستطالَ عند ذلك المُنازِعون أولادُ علي، كما نذكره.

الخَبَرُ عن تحَيُّز السُّلْطان عَبْد الحَليم وإخوته إلى سِجِلْماسَة بعدَ الواقعة عليهم بمِكْناسَة

لمَّا سَمِع عَبْدُ الحَلِيم بقُدوم مُحَمَّد بنِ [أبي][ب] عبد الرَّحمن من سَبْتَة إلى فاس وهو بمكانِه من تازَى، سرَّح أخاهُ عَبْد المُؤمن وعبدَ الرَّحمن ابنَ أخيه إلى اعتراضه،

(أ) ساقطة من ظ (ب) ساقطة من ظ

---

(1) وجه السلطان كتاباً - بهذه المناسبة - إلى الفقهاء والعلماء والوجوه والأعيان وعامّة الناس في مدينة سلا؛ حفظه ابن الخطيب في نفاضة الجراب 340

فانتهوا إلى مِكْنَاسَة، وخاموا عن لقائه. فلمّا دخل إلى البَلَد الجَدِيد، أجلَبوا بالغارة على النَّواحي، وكثُر العَيْث.

وأجمع الوَزِيرُ عَمَر على الخروج إليهم بالعَسَاكر، فبرز في التَّعْبِئَة والآلة، وبات بوادي النَّجَا. ثمّ أصبح على تَعَبئته، وأغَذَّ السَّيْرَ إلى مِكْنَاسَة، فزحفَ إليه عَبْدُ المُؤمن وابنُ أخيه عبد الرَّحمن في جُموعهم، فجاوَلهم القتالَ ساعةً، ثمّ صمَّم إليهم، فدَفَعهم عن مراكزهم، وانكشفوا، فلَحِقوا بأخيهم السُّلْطان عَبْد الحَلِيم بتَازَى.

ونزلَ الوَزِير عَمَر بساحة مِكْنَاسَةَ، وأوْفدَ بالفَتح على السُّلْطان؛ وكنتُ(أ) وافدَه إليه يومئذٍ، فعمَّت البُشرَى واتَّصل السُّرور، وتهنَّأ السُّلْطانُ مُلكَه، وتودَّع من يومئذٍ سُلْطانه.

ولمَّا وَصَل عَبْد المُؤمن إلى أخيه عَبْد الحَلِيم بتَازَى مَفلولاً، انفضَّ معَسْكَره، ونزعوا عنه إلى فاس، وذهب لوَجْهِه هو وإخوتُه(ب) مع وزيرهم السُّبَيّع ومَنْ كان معهم من العَرَب المَعْقِل، فلحقوا بسِجِلْمَاسَةَ؛ وكان أهلُها قد دخلوا في بَيْعتهم / وداونوا [1268أ] بطاعتهم، فاستقرُّوا بها، وجدَّدوا رَسْمَ المُلْك والسُّلْطان، إلى أن كان من خُروجهم عنها ما نذكره.

(أ) ظ، ص: وكتب (ب) أ، ص، ض: وإخوانه

الخَبَرُ عن قُدومِ عامرِ بن مُحَمَّد ومَسْعُود بن مَاسَايْ من مَرَّاكُش، وما كان من زيارة ابن مَاسَايْ، واسْتبداد عامرٍ بمَرَّاكُش

كان السُّلطانُ أبو سالم، لَمَّا استقلَّ بمُلك المَغرب، استعمل على جِبايةِ المَصَامِدَة وولايةِ مَرَّاكُش مُحَمَّد بنَ أبي العلاء بن أبي طَلْحَة من أبناء العُمَّال، وكان مُضطلعاً بها. وناقش[أ] الكثير من ذوي عامر، فأحْفَظه ذلك. ورُبَّما تكرَّرت سِعايتُه في عامر عندَ السُّلطان ولم يقبلْ.

ولَمَّا بلغ إلى عامر خبرُ مَهْلِكِ السُّلطان أبي سالم وقيامِ عُمَر بالأمر، وكانت بينهما خُلَّة بيت مُحَمَّد بن أبي العلاء، فتقبّض عليه، وامتحنه، وقتَله، واستقلّ بأمر مَرَّاكُش.

وبعث إليه الوَزيرُ عُمَر بأبي الفَضْل ابن السُّلطان أبي سالم يعتده؛ لِمَا يتوقَّع من حصارِ بَني مَرين إيَّاهُ، أنْ يجلبَ به عامرٌ عليهم ويستنقذَهُ، كما ذكرْناهُ. ثمّ سرَّح مَسْعُودَ بن مَاسَايْ، كما ذكرْناهُ.

ولَمَّا أحاط بنو مَرين بالبَلَد الجَدِيد، جمعَ عامر مَنْ إليه من الجند والحشود، وزحَفَ بأبي الفَضْل ابنِ السُّلطان أبي سالم إلى أنْفَى، ونزل بوادي أمّ ربيع. ولَمَّا انفضّ جمعُهم من على البَلَد الجَدِيد، لحقَ به يَحْيَى بن رَحُو؛ وكان له صديقاً ملاطفاً،

(أ) ص: ونافس، وأصلحها بين الأسطر

فتنكَّر له تَوْفيةً لعَمَر بن عَبْد الله وصاحبه مَسْعُود. وبعثه إلى الجبل، ولم يُشْهِدهُ الجمع، فذهبَ مُغاضِباً، ولَحِق بسِجِلْمَاسَة بالسُّلْطان عَبْد الحَلِيم. وهَلَكَ في بعضِ حُروبه مع العَرَب.

ولمَّا انفضَّ عَبْد المُؤمن، وأجْفَل عَبْدُ الحَلِيم من تازَى، ولَحِقوا[أ] بسِجِلْمَاسَة، واسْتَوسَقَ الأمرُ لعَمَر بن عَبْد الله، وفرغ من شأن المنازعِين ومُضايقتهم له، رجع إلى ما كان يؤمله من الاستظهار على أمْرِه بمَسْعُود بن رَحُّو وإخوته وأقاربه، لمكان الصِّهْر الذي بينهما، فاستقدمَهُ للوزارة مَرْضاةً لبني مَرِين؛ لِمَا كان عليه من استمالتهم / [268 ب] لجميع المذاهب والإغضاء عمَّا نالوه به من النِّكايَة.

وكان عامر بنُ مُحَمَّد مُجْمِعاً القُدومَ على السُّلْطان، فقدمَ في صحابته، ونزل من الدَّوْلَة بخير منزل. وعقد السُّلْطانُ لمَسْعُود بن رَحُّو على وزارته بإشارة الوَزِير عَمَر واضطلع بها، ودَفَعه عَمَر إليها؛ استنامةً إليه، وثقةً بمكانِه، واستظهاراً بعِصابته. وعَقَدَ مع عامر بن مُحَمَّد الحِلْفَ على مُقاسمة المَغْرب من تَخْم وادي أمّ ربيع، وجعل إمارة مَرَّاكُش لأبي الفَضْل ابن السُّلْطان أبي سالم؛ إسْعافاً بغرض عامر بن مُحَمَّد في ذلك. وأصْهر عامرٌ إليهم في بنت مَوْلانا[ب] السُّلْطان أبي يَحْيَى المتوفَّى عنها السُّلْطان أبو عِنَان، فحملوا أولياءَها على العَقْد له عليها. وانكفأ راجعاً إلى مكان عَمَلِه بمَرَّاكُش،

(أ) ظ: ولحق (ب) ساقطة من أ، وطمست في ض

يجرُّ الدُّنيا وراءه عزّاً وثروةً وتابعاً، لجُمَادَى من سنة ثلاثٍ وستّين. وصرف عُمَر عزيمَته إلى تَشْريد عَبْد الحَلِيم[أ] وأخيه من سِجِلْمَاسَة، كما نذكره.

الخَبَرُ عن زحف الوَزِير عُمَر بن عَبْد الله إلى سِجِلْمَاسَة

لمَّا احتلَّ عَبْدُ الحَلِيم وإخوته بسِجِلْمَاسَة، اجتمع إليهم عربُ المَعْقِل بكافَّة حِلِلهم [وأحيائهم][ب]، واقتضوا خراجَ البَلَد، فوزَّعوه فيهم، واقتضوا على الطَّاعة رهُنهم. وأقطعهم جنّاتِ المختصّ بأسْرِها، واغْصَوْصَبُوا عليه.

واستحثَّهُ يَحْيَى بن رَحُّو ومَنْ هُنالِكَ من مَشيخة بَني مَرِين إلى النُّهوض للمغرب، فأجْمع أمْرَه على ذلك. وتدبَّر الوَزِير عُمَر أمْرَه، وخشي أن يَضْطَرم جمرُه، فأجْمَعَ الحركةَ إليه، ونادى في النَّاس بالعَطاء والرِّحلة، فاجتمعوا إليه، وبثَّ العَطاء فيهم، واعترض العَساكر، وأزاح العِلَل.

وارتحل من ظاهر فاس في شَعْبان من سنة ثلاثٍ وستّين، وارتحل معه ظهيرُه مَسْعُود بن مَاسَايْ، وبرز السُّلْطانُ عَبْد الحَلِيم إلى لقائهم. ولمَّا تراءت الفئتان بتاغَزُوطت، عندَ فرج الجبل المفضي من تُلول المَغْرب إلى الصَّحرَاء، همُّوا باللِّقاء، ثمَّ تواقفوا أيّاماً، وتمشَّتْ بينهما رجالاتُ العَرَب في الصُّلح والتَّجافي لعَبْد الحَلِيم عن سِجِلْمَاسَة تُراث أبيه، فانعقد ما بينهما / وافترقا، ورجع كلُّ واحدٍ منهما إلى عَمَله ومكانه من سُلْطانه. [269أ]

(أ) ظ، ص: عبد الحميد (ب) من مخرج في أ بخطه

ودخل عَمَر والوَزيرُ مَسْعُود إلى البَلَد الجَدِيد في رمضان من سَنَتِه، وتلقَّاهما سُلْطانُهما بأنواع المَبَرَّة والكَرامَة. ونزع الوَزِير مُحَمَّد السُّبَيْع عن السُّلْطان عَبْد الحَلِيم إلى الوَزِير عَمَر وسُلْطانه، فتقبّل وحلّ محلّ التَّكْرِمة والرِّدافة(أ) للوزارة، واستقرّ كلٌّ بمكانه، وتودَّعوا أمْرَهم، إلى أنْ كان من خَلْع عَبْد المُؤمن لأخيه ما نذكره.

الخَبَرُ عن بَيْعة العَرَب لعَبْد المُؤمن، وخُروج عَبْد الحَلِيم إلى المَشْرِق

لمَّا رَجَع عَبْد الحَلِيم، بعدَ عَقْد السِّلْم مع الوَزِير [عَمَر](ب)، إلى سِجِلْمَاسَة واستقرَّ بها، وكان عربُ المَعْقِل من ذوي منصور فريقَيْن: الأحلاف وأولاد حسين، وكانت سِجِلْمَاسَة وَطَناً للأحلاف، وفي قِسْمةِ(ج) مَجالاتهم مذ أوّل أمْرِهم ودخولهم المَغْرب، وكان من أولاد حسين في مُمالأة الوَزِير عَمَر ما قدَّمناه، فكانت صاغيةُ السُّلْطان عَبْد الحَلِيم إلى الأحْلافِ بسبب ذلك أكثر، فأسف ذلك أولاد حسين على الأحْلاف(د)، وتجدَّدَتْ بينهما لذلك فتنة وتَزاحفوا(هـ).

وأخرج السُّلْطانُ عَبْد الحَلِيم أخاه عَبْد المُؤمن لرَقْع ما بينهما من الخرق وملامته، فلمَّا قَدِم على أولاد حسين دَعَوْه إلى البَيْعة والقِيام بأمره، وأبى؛ فأكرهوهُ عليها وبايعوهُ. وزحفوا إلى سِجِلْمَاسَة في صَفَر من سنةِ أربعٍ وستِّين.

وبرزَ عَبْدُ الحَلِيم إليهم في أوليائه من الأحلاف، وتواقَفُوا مليّاً، وعَقَلوا

(أ) ظ، أ: والرادفة (ب) ساقطة من ظ (ج) ظ، ص، ض: قيمة (د) ظ: الأخلاف (هـ) أ: وتراجعوا

رَواحِلَهم. ثمّ انكشف الأحلاف وانهزموا. وهَلَكَ يَحْيَى بن رَحُّو كبيرُ المشيخة من بَني مَرين يومئذٍ في حَرْبهم. وتغلّبوا على سِجِلْمَاسَة، ودخل إليها عَبْدُ المُؤمن، وتخلّى له أخوهُ عَبْد الحَلِيم عن(أ) الأمْر، وخرج إلى المشرق لقَضاءِ فَرْضِه، فودّعه وزوّده بما أراد، وارْتَحل إلى الحجّ، وقَطَعَ المفازةَ إلى بلد مَالّي من السُّودان، وصَحِب منها رِكاب الحاجّ إلى مِصْر، ونزل على أميرها المتغلّب على سُلْطانها يومئذٍ، وهو يَلْبُغَا الخَاصِكِيّ، وأنهى خبرهُ إليه، / وعُرِّف بمقامِهِ، فاستبلغ في تَكْرِيمه بما يناسب بيتَه وسُلْطانه. [269 ب] وقضى حَجَّه وانصرف إلى المَغْرب، فهَلَكَ بقرب الإسْكَنْدَرِيّة سنة ستٍّ وستّين. واستقلَّ عَبْد المُؤمن بأمْر سِجِلْمَاسَة، حتّى كان من نُهوض العَسَاكر إليه ما نذكره.

الخَبَرُ عن نُهوض ابن مَاسَايْ بالعَسَاكر إلى سِجِلْمَاسَة، واستيلائه عليها، ولحاق عَبْد المُؤمن بمَرّاكُش

لمّا افترقت كلمةُ أولادِ السُّلْطانِ أبي عليّ، وخَلَع عَبْد المُؤمن أخاهُ، تطاوَل الوَزِيرُ عَمَر إلى التغلّب عليهم، ونزع إليه الأحلافُ عدوّ أولاد حسين وشيعةُ عَبْد الحَلِيم المَخْلُوع؛ فجهَّز العَسَاكر، وبثَّ العَطاءَ، وأزاح العِلَل. وسَرَّحَ ظَهيرَه مَسْعُودَ بن مَاسَايْ إلى سِجِلْمَاسَة، فنَهض إليها في ربيع من سنةِ أربع، وتلقّاه الأحلاف

(أ) ظ، ص: على

بجِلَلِهم وناجعتهم، وأغَذَّ السَّيْرَ، ونزع الكثيرُ من أولاد حسين إلى الوَزِير مَسْعُود. وبعث عامرُ بن مُحَمَّد عن عَبْد المُؤمن [يستقدمُهُ للمُلْك ويُغْرِيه به مَكْراً[أ] وخديعةً، ووفاءَ لصاحبه الوزير عُمَر بن عبد الله، فأجْفلَ عَبْد المُؤمن][ب] عن سِجِلْمَاسَة وتَرَكها، ولَحِق بعامر، فتقبَّض عليه واعتقله بداره من جبل هِنْتَاتَة.

ودخل الوَزِيرُ مَسْعُود إلى سِجِلْمَاسَة واستولى عليها، واقتلع منها جُرْثومةَ الشِّقاق باقتلاع دَعْوة أولاد أبي عليّ منها. وكرَّ راجعاً إلى المَغْرب لشهرين من حَرَكته، فاحتلَّ بفاس، إلى أنْ كان من خبر انتقاضِه على عُمَر وفَسادِ بينهما ما نذكره.

الخَبَرُ عن انتقاضِ عامر، ثمَّ انتقاضِ الوَزِير ابن مَاسَايْ على أثرِه

لمَّا استقلَّ عامرٌ بالناحية الغَرْبيَّة من جبال المَصَامِدَة ومَرَّاكُش وما إلى ذلك من الأعمال واستبدَّ بها، ونصب لأمْرِه أبا الفَضْل ابن السُّلْطان أبي سالم واستوزرَ له واسْتَكْتَب، وصارت كأنَّها دولةٌ مستقلَّة، فصرف إليه النَّازعون من بني مَرِين على الدَّوْلَة وجوهَ مَفرِّهم / ولجأوا إليه، فأجارَهم على الدَّوْلَة، واجتمع إليه منهم ملأٌ، [270 أ] وأشاروا عليه باستِقْدام عَبْد المُؤمن وأنَّه أبْلَغُ ترشيحاً من أبي الفَضْل بنَسبه

(أ) ص: مكراً منه (ب) ما بين الحاصرتين من مخرج في أ، ض بخطه، وفي هامش ص بخطٍّ آخر

وقِيامِه على أمره وصاغيةِ بَني مَرِين إليه، فاستدعاهُ وأظهر لعَمَر أنَّه يرومُ بذلك مصلحتَهُ والمكر بعَبْد المُؤمن.

ونُمِيَ ذلكَ كلُّه إلى عُمَر، فارتاب به. ونزع إليه آخرُ مَنْ نَزَعَ السُّبَيِّع بن موسى ابن إبراهيم الوَزِير؛ كان لعَبْد الحَلِيم، فكشف عُمَر القِناعَ في مُطالبته وتجهيز العَسَاكر إليه، واسْتَرَاب بأهل ولايته. وعثر على كتاب من الوَزِير مَسْعُود بن مَاسَايْ إليه يُخالصُهُ ويبذل له النَّصيحة، فتقبَّض على حامِله، وأوْدعه السِّجن، فتنكَّر مَسْعُود. وأغراهُ صحابتُه المُلابسونَ له من بَني مَرِين بالخروج ومُنازعة عُمَر في الأمر، ووعدَه النَّصْرَ منه. فاضطربَ معَسْكَره بالزَّيتُون من خارج فاس، مورّياً بالنُّزهة إبّان الرَّبيع وزُخرفِ الأرْض في شهر رجب من سنة خَمْسٍ. وبَنى أصحابُه الفَساطيطَ في معَسْكَره؛ حتَّى إذا استوفى جمعُهم واعتزَمَ على الخروج، ارتحل مُجاهراً[أ] بالخِلاف، وعَسْكَر بوادي النَّجَا مَن كان يعِدُه[ب] الخروجَ معه من بَني مَرِين. ثمَّ ارتحل إلى مِكْنَاسَةَ. وكتب إلى عبد الرَّحمن بن علي أبي يَفَلُوسَنْ يستقدمُه للبَيْعة، وكان بجهاتِ تَادَلا قد خرج بها بعد انصرافهم من سِجِلْمَاسَة، وتخلفه عن أخيه عَبْد المُؤمن. وبعث عامر إليه بَعْثاً، فهزموه، ثمَّ لحق ببني وَنكَاسَن، فبعث إليه ابنُ مَاسَايْ وأصحابُه، فقَدِم عليهم وبايعوه.

وأخرج عُمَر سُلْطانَه مُحَمَّد بن أبي عبد الرَّحمن وعَسْكَر بكُدْيَة العَرائِس،

(أ) ظ: مهاجراً (ب) ظ: بعده

وبثّ العَطاءَ، وأزاح العِلَل. ثمّ ارتحل إلى وادي النَّجَا[أ]، وبيّتهُ مَسْعُود وقومهُ، فثبتَ هو وعَسْكَرُه في مراكزهم حتّى انجابَ الظَّلامُ وفرُّوا أمامَهم، فاتبعوا آثارهم وانفضّ جمعُهم، وبدا لهم ما لم يَحتسبوه من إصْفاقِ / النَّاس على السُّلْطانِ ووزيرِه عُمَر [ب 279] واعْتصامِهم بطاعته، فانْذَعروا[ب].

ولحقَ مَسْعُودُ بن مَاسَايْ بن رَحُّو بتَادَلا. ولحق الأميرُ عبد الرَّحمن ببلاد بني وَنكَاسَن.

ورَجَع عُمَر والسُّلْطانُ إلى مَكانِهم من الحَضْرة، واستمال مشيخةَ بَني مَرِين، فرجعوا إليه، وعفا لهم عنها واستصلحهم. وتمسّك أبو بكر بن حَمَامَة بدعوة عبد الرَّحمن بن أبي يَفَلُوسَنْ، وأقاما في نَواحيه، وبايعه عليها موسى بنُ سيِّد النَّاس، من بَني عليّ أهل جبل دَبْدُو[ج] من بَني وَنكَاسَن، بما كان صهراً له، وخالَفه قومُه إلى الوَزير عُمَر، وأغرَوْه بالنُّهوض إلى أبي بكر بن حَمَامَةَ، فنَهَض وغلَبه على بلاده، واقتحم حِصْنَه إيكَلْوَان، وفرَّ هو وصهرُه موسى، وفارَقوا سُلْطانَهم عبد الرَّحمن، ونبذوا إليه عَهْده. ورَجَعوا إلى طاعةِ صاحبِ فاس، فلَحِق هو بتِلِمْسان، ونزل على السُّلْطان أبي حَمُّو؛ فاسْتبلغ في تَكْرِيمه. ولحقَ وزيرُه مَسْعُود بن مَاسَايْ [بدَبْدُو][د]، ونزل على أميرِه مُحَمَّد بن زَكْدان صاحبِ ذلك الثَّغر، ثمَّ بدا له في أمْرِه، وداخَلَ

(أ) ظ، أ، ض: وادي النجاة (ب) أ: فابذعرُّوا، وكلاهما يعني: الفرار والتفرق (ج) ظ: ديدو، ومهملة في ص (د) مكانها بياض في ظ

صاحب الثَّغر، وبعثَ عن الأمير(أ) عبد الرَّحمن من تِلِمْسان ليُطارِدَ به(ب) لفُرصةٍ ظنَّها في المَغْرب ينتهِزُها. وأبى عليه أبو حَمُّو من ذلك، فركب مطيَّةَ الفِرار، ولَحِق بابن مَاسَايْ وأصحابه، فنصبوه للأمر، وأجلَبوا على تازَى.

ونهَض الوَزِيرُ إليهم في العَسَاكر واحتلّ بتَازَى. وتعرّضوا للقائه، ففضَّ جُموعَهم، وردَّهمْ على أعْقابهم إلى جبل دَبْدُو. وسعى بينهم وَنْزَمار بنُ عَريف، وليّ الدَّوْلَة، في قَبْض عِنانهم عن المُنازعة والتَّجافي عن طَلَب الأمر، وأن يُجيزوا إلى الأنْدَلُس للجهاد، فأجاز عبدُ الرَّحمن بن أبي يَفْلُوسَنْ ووزيرهُ ابنُ مَاسَايْ من غَسَاسَة، فاتِح سبعٍ وستّين. وخلا الجوُّ من إجْلابِهمْ وعِنادهم، ورجع الوَزِيرُ إلى فاس واحتشد إلى مَرَّاكُش، كما نذكر.

الخَبَرُ عن نُهوض الوَزِير عَمَر وسُلْطانه إلى مَرَّاكُش

[1271] / لمَّا فرغ عَمَر من شأن مَسْعُود وعبد الرَّحمن بن أبي يَفْلُوسَنْ، صَرَف نظَرَه إلى ناحية مَرَّاكُش وانتزاء عامر بنِ مُحَمَّد بها. وأجْمَع أمْرَه على الحركة إليه، فأفاض العَطاءَ، ونادى بالسَّفر إلى حَرْب عامر، وأزاح العِلَل، وارْتَحل إليه لرجب من سنةِ سَبْعٍ، وصَعِدَ عامر وسُلْطانُه أبو الفَضْل إلى الجبل، فاعْتَصَم به. وأطْلَق عَبْد المُؤمن من مَعْقِله، ونَصَب له الآلَة، وأجْلسهُ على سريرٍ حذاءَ سريرِ أبي الفَضْل، يُوهم أنّه بايَع له، وأنَّه قد حَكَم أمْرَه يُجَأْجِئُ بذلك لبَني مَرِين، لِمَا يَعلمُ من صاغيتهم إليه.

(أ) ص، ض: الأمر (ب) ظ، ص: ليطاردنه

وخَشِيَ عُمَر مَغَبَّة ذلك، فألان له في القَوْل ولاطَفَه في الخطاب، وسعى بينها في الصُّلح حَسُّون بنُ عليّ الصُّبَيْحيّ، فعقد له عُمَر من ذلك ما ابتغاه، وانقلب إلى فاس.

ورَجَع عامرٌ عَبْدَ المُؤمن إلى مُعتقلِه وأمَرَّ الأحوال [على](أ) ما كانت من قبل، إلى أنْ بلَغَهم قَتلُ الوَزِير عُمَر لسُلْطانه، كما نذكره.

الخَبَرُ عن مَهْلِك السُّلْطان مُحَمَّد بن أبي عبد الرَّحمن(ب)، وبَيْعة عَبْد العَزِيز ابن السُّلْطان أبي الحسن

كان شأنُ هذا الوَزِير عُمَر في الاستبداد على سُلْطانه مُحَمَّد هذا عَجَباً، حتَّى بلَغ مَبْلغَ الحَجْرِ للسُّفهاءِ من الصِّبيان؛ وكان قد جعل عليه العُيُون والرُّقباء حتَّى مِن حُرَمه وأهل قَصْره.

وكان السُّلْطانُ كثيراً ما يتنفّس الصُّعَداء من ذلك مع نُدمائه ومَن يختصّهُ بذلك من حُرَمه، إلى أنْ حدَّث نفسَه باغتيال الوَزِير، وأمر بذلك طائفةً من العِبِدَّى؛ كانوا يختصُّون به، فنُمِيَ القَوْل. وأرسل به إلى الوَزِير بعضُ الحُرَم كانت عَيْناً له عليه، فخشيه على نفسه. وكان من الاستبداد والدَّالَّة، أنَّ الحِجابَ مرفوعٌ له عن خَلَوات السُّلْطان وحُرَمه ومكاسِع(1) رتبه(ج)، فخلص إليه في حَشَمه وهو مُعاقرٌ لندمائه،

(أ) ظ: إلى (ب) أ: بن بو عبد الرحمن (ج) أ، ض: ربه

(1) كذا في الأصول، ولم نجدها في المعاجم، أوردها ابن الخطيب في مقدمة كتابه معيار الاختيار 73: "ومرابط خيل البريد، ومكاسع الشيطان المريد ..."، وشرحها المحقق: بالمطارد، مكان الطرد

فطَرَدوهم[أ] عنه، وتَناولوه غَطّاً حتّى فَاظَ، وألْقَوْه في بئر بـرَوْض الغُـزْلان[1] / [عليه دولابُ ساقيتِه][ب]. واستدعى الخاصَّة، فأراهم جَدَّه[ج]، وأنَّه سَقَط عن دابّته وهو ثمِلٌ في تلكَ البئر، وذلك في المُحرَّم فاتحَ ثمانٍ وستّين. واستدعى من حِينه عَبْدَ العَزيز ابـن الـسُلْطانِ أبي الحسن؛ وكان في بعض الدُّور بالقَـصَبة مـن فـاس، تحتَ رِقْبـة وحِراسةٍ من الوَزير، لِمَا كان السُّلْطانُ مُحَمَّد يرومُ الفَتْكَ به غَيْرةً منه على الملك، لمكان تَرْشيحه، فحضرَ بالقَصْر وجلس على سَرير الملك. وفُتّحت الأبوابُ لبني مَرِين والخاصَّة والعامَّة، فازدحموا على تقْبيل يده مُعْطِين الصَّفقة بطاعته، وكمل أمرُه. وبادر الوَزير من حينه إلى تجهيز العَسَاكر إلى مَرَّاكُش، ونادى بالعطاء، وفتح الدِّيوان، وكمل الاعتراضُ. [271 ب]

وارتحل بسُلْطانه من فـاس في شهر شَعْبان، وأغَذَّ الـسَّيْرَ إلى مَرَّاكُش. ونازلَ عامرَ بنَ مُحَمَّد بمَعْقِله من جبل هِنْتَاتَة، ومعه الأميرُ أبو الفَضْل ابنُ السُّلْطان أبي سالم، وعَبْد المُؤمن ابن السُّلْطان أبي عليّ، أطلقَهُ مـن الاعتقـال أيضاً وأجْلَسه مُوازيَ ابن عَمّه، واتّخذ له الآلة يمَوّهُ به شأنَه الأوّل.

ثمَّ سُعِيَ بينه وبين عُمَر في الصُّلْح، فانعقد بينهما، وانكفأ راجعاً بسُلْطانه إلى فاس في شهر شَوَّال، فكان حَتْفُهُ[د] إثر ذلك، كما نذكر.

(أ) ظ: فطردهم (ب) ما بين الحاصرتين زيادة من أ وهامش ض (ج) ظ، ص: مكانه، وكانت كذلك في ض فأصلحها (د) ظ: خنقه

---

(1) قتل غرقاً في السانية التي بروض الغزلان بفاس في 22 ذي الحجّة 767هـ. وكان ابن الأحمر قد رآه ووصفه في روضة النسرين 43

الخَبَرُ عن مَقْتَل الوَزير عُمَر بن عَبْد الله، واستبداد السُّلْطان عَبْد العَزيز بأمره

كان عُمَر قد عظمَ استبدادُهُ على السُّلْطان عَبْد العَزيز، فَحَجَره[أ] ومَنَعه من التَّصَرُّف في شيءٍ من أمْره، ومَنَع النَّاسَ من التَّعَرُّض له في شيءٍ [من][ب] أمورهم[ج]. وكانت أُمُّهُ حذِرَةً عليه إشفاقاً وحُبّاً. وكان عُمَر لمَّا مَلَكَ أمره واستبدّ عليهم سَما إلى الإصْهار إليهم في بنتِ[د] السُّلْطان أبي عِنَان، واشترط لها ـ زعموا ـ تولية[هـ] أخيها الأمرَ[و].

ونُمِيَ ذلك إلى السُّلْطان، وأنَّ عُمَر مُغْتالُه لا مَحالة، وقارنَ ذلك أنَّ عُمَر أوْعز إلى السُّلْطان بالتَّحَوُّل عن قَصْره إلى القَصَبة، فركب أسنَّةَ الغَرَر لاضطراره، واعتزَمَ على الفَتْك به، وأكْمَنَ بزوايا دارِه جماعةً من الرَّجْل، وأعدَّهم للتَّوثُّب به. ثُمَّ استدعاه إلى بيته / [272 أ] للمُؤامرة معه على سُنَنِهِ، فدَخل معه، وأغلقَ الموالي من الخِصيان بابَ القَصْر من ورائه، ثُمَّ أغلظ له السُّلْطانُ في القَوْل وعتبه، ودَلَف الرِّجال إليه من زَوايا الدَّار، فتناولوه بالسُّيوف هَبْراً. وصَرَخ بِطانته بحيثُ أسْمَعَهم، فحملوا على الباب، وكَسروا أغْلاقه، فألْفَوْه[ز] مُضرَّجاً بدمائه، فولَّوا الأدبار، وانفضُّوا من القَصْر واندعروا[ح].

وخرج السُّلْطانُ إلى مَجْلسه، فاقتعد أريكتَهُ، واستدعى خاصَّته، وعقَد لعُمَر بن

(أ) ظ، ص: فحجبوه، ومثله في ض ثم أصلحت (ب) ساقطة من ظ (ج) ص، ض: أمرهم (د) أ: بيت (هـ) ظ: ولاية (و) ظ: الأمير (ز) ظ، ص: فألقوه (ح) أ: وابذعرّوا، والمعنى واحد

مَسْعُود بن مِنْدِيل بن حَمَامَة من بني مَرِين، وشُعَيب بن ميمون بن وَدْرَار من الحَشَم، ويَحْيَى بن ميمون بن أَمَصْمود من الموالي. وكملتْ بيعتُه منتصفَ ذي القَعْدَة سنةَ ثمانٍ وستّين.

وتقبّض على ابنِ الوَزِير عَمَر وأخيه وعَمّه وحاشيتهم وذويهم واعتقلهم حتّى أتى القتلُ عليهم لِلَيالٍ، واستأصل النّكالُ شأفتَهم. وسكّن وأمّن وردّ النّافرين بأمانِه، وبَسَطَ لهم في وَجْه بِشْره.

ثمّ تقبّض لأيّامٍ على سُلَيمان بن داود ومُحَمّد السُّبَيّع[أ]؛ وكانا من مُخالصةِ عَمَر بمكان، فاعتقلهما استرابةً بهما ولشيءٍ نُمِيَ لهُ عنهما. وأوْدَعهما السّجن إلى أنْ هَلَك، واعتقل معهما عَلّال بن مُحَمّد، والشّريف أبا القاسم ريبةً بصحابتهما، ثمّ امتنّ عليهما بشفاعةِ ابنِ الخَطِيب وزيرِ ابن الأَحْمر، وأقصاهُ، ثمّ أطْلَق عِنانَه في الاستبداد، وقبض أيدي الخاصّة والبِطانة عن التّصرُّف في شيءٍ من سُلْطانه إلاّ بإذنه وعن أمْرِه. وهَلَكَ لأشهرٍ من استبدادِ الوَزِير شُعَيب بنِ ميمون. ثمّ تلا يَحْيَى بن ميمون، على ما نذكره.

الخَبَرُ عن انْتِزاءِ أبي الفَضْل ابنِ السُّلْطان[ب] أبي سالم، ثمّ نُهوضِ السُّلْطان إليه ومَهْلكِه

لمّا فَتَكَ السُّلْطانُ عَبْد العَزِيز بعَمَر بنِ عَبْد الله المتغلّب عليه، سوّلتْ لأبي

(أ) أ: محمد بن السبيع (ب) ظ: المولى، وطمست في أ، ص، ض وعوضها في الهامش بالمثبت

الفَضْل ابنِ السُّلْطان أبي سالم نفسُهُ مثلها في عامر بن مُحَمَّد، لمكان استبدادِه عليه، وأغراه بذلك البِطانةُ. وتوحَّش لها عامر، فتمارَضَ بدارِه، / [272ب] واستأذنه في الصُّعود إلى مُعْتَصِمِه بالجبل ليمرِّضَهُ هُنالِك حُرَمُه وأقارِبُهُ، وارتحل بجُفْلته. ويئس أبو الفَضْل من الاستمكان منه. وأغراه حَشَمُه بالرَّاحة من عَبْد المُؤمن.

ولليالٍ من مُنصرَفِ عامر، ثمل أبو الفضل ذاتَ ليلةٍ، وبعث عن قائدِ الجُنْد من النَّصَارَى، فأمَره(أ) بقَتْل عَبْد المُؤمن بمكانِ مُعْتقَله من قَصَبة مَرَّاكُش؛ فجاء برأسه إليه.

وطار الخبرُ إلى عامر، فارْتاع وحَمَدَ الله أنْ خَلص من غائلته. وبَعث ببَيْعته إلى السُّلْطانِ عَبْد العَزِيز، وأغراه بأبي الفَضْل، ورغَّبه في ملك مَرَّاكُش، ووَعَده بالمظاهَرة، فأجْمع السُّلْطانُ أمْرَه على النُّهوض إلى مَرَّاكُش. ونادى في النَّاس بالعَطاء، وقَضى أسبابَ حركته، وارتحل من فاس سنةَ تسعٍ وستِّين.

واستَبدَّ أبو الفَضْل من بعد مَهْلِك عَبْد المُؤمن. واستوزر طَلْحَةَ التَّيورتيّ، وجعل عَلامته لمُحَمَّد بنِ مُحَمَّد بن مِنْدِيل الكِنَانيّ، وجعل شُوراه(ب) لمبارك بنِ إبراهيم بن عطيَّة الخُلْطيّ. ثمَّ سَخِط طَلْحَةَ التَّيورتيّ بسِعاية الكِنَانيّ؛ فقَتَله، واعتمد بعَساكِره مُنازلةَ عامر.

ولمَّا فَصَل لذلك من مَرَّاكُش، جاءه الخبرُ بحركة السُّلْطان عَبْد العَزِيز إليه، فانفضَّ مُعَسْكَرُه، ولَحِق بتَادَلا ليعتصِمَ بها في مَعْقِل بَني جابر. وعاجَ السُّلْطانُ عن

(أ) ظ: فأمر (ب) ظ، ص: شواره

مَرَّاكُش بعَساكِره إليها، فنازَلَه وأخذ بمُخَنَّقِه، وقاتَلَه، فَفَلّ عَسْكَره. وداخَلَه بعضُ بَني جابر في الإخلال بمَصَافّه يومَ الحَرْب على مالٍ بذَلَه لهم، ففعلوا، وانهزَمَتْ عَساكِرُ أبي الفَضْل وجُموعه، وتقبّض على أشياعه. وسِيق(أ) مبارك بنُ إبراهيم إلى السُّلْطان، فاعْتقَله إلى أنْ قتله مع عامر عندَ مَهْلِكِه، كما نذكره.

وفرّ الكِنَانيُّ إلى حيث لم يُعْلَم مَسْقطهُ. ثمَّ لحق بعامر بن مُحَمَّد، ولحق أبو الفَضْل بقبائل صَنَاكَة من ورائهم. وداخَلَهم أشياعُ السُّلْطان من بَني جابر، وبذلوا لهم المال الدَّثْر في إسْلامه؛ فأسْلَمُوه. وبعث السُّلْطانُ إليهم وزيره يَحْيَى بن ميمون، فجاء به / أسيراً. [273أ]

وأحضره السُّلْطانُ، فوبّخه وقرّعَهُ، واعتقله بفُسْطَاطٍ في جِواره، ثمَّ غُطَّ من اللَّيل. وكان مَهْلِكُه في رمضان من سنةِ تسعٍ. وبَعث السُّلْطانُ إلى عامر يختبرُ طاعَتَه بذلك، فأبى [عليه](ب)، وجاهَرَ بالخِلاف، إلى أنْ كان من شأنه ما نذكره.

الخَبَرُ عن نَكْبَةِ الوَزيرِ يَحْيَى بن ميمون بن أَمَصْمود(ج)، ومَقْتَله

(د)[كان يَحْيَى بن ميمون هذا من رجالاتِ دَوْلتهم، ورَبِيَ في دولة السُّلْطانِ أبي الحسن، وكان عَمُّه عَلّال عدوًّا له لعَداوةِ أبيه.

ولمَّا انتزى السُّلْطانُ أبو عِنَان على مُلْك أبيه، استخلص يَحْيَى هذا وأخاه سائرَ

(أ) ظ: وسبق (ب) ساقطة من ظ (ج) ظ: امصود (د) سقط نص الفصل المشمول بين الحاصرتين من الأصل ظ، والنص متتابع مع نص الفصل الذي يليه.

أيّامه، وهَلَك عُمَر يومَ مَهْلِكِه، كما ذكَرْناهُ، واستعمل يَحْيَى بِبِجَايَة، فلم يَزَل بها إلى أنْ تَقَبّض عليه المُوَحّدُون، لمّا استخلصوا بِجَايَةَ من يَدِه. وصار إلى تُونِس واعتُقِل بها مدّةً، ثمّ صَرَفوه إلى المَغرب أيّامَ عُمَر، فاختصّ به.

ولمّا عقد له السُّلْطانُ عَبْد العَزِيز على وزارته، وكان قويَّ الشَّكيمة، شديدَ الحزم، وصعبَ العَداوة، مُرْهَفَ الحدّ، وكان عَمُّه عَلّال بعدَ أنْ أطْلَقه السُّلْطان من الاعتقال مَكّنه من أُذنه[1]، وأقامه مُتصرّفاً بين يَدَيْه، فألْقى إلى السُّلْطان استبدادَ يَحْيَى عليه، وحذَّره من شأنه، ورَفَع إليه[أ] أنّه يرومُ تحويلَ المُلْك[ب] لبعض القَرابة من آل عبد الحَقّ، وأنّه داخَلَ في ذلك قُوّادَ الجند من النَّصارَى. وأصابَ الوَزِيرَ وَجَعٌ قَعَد به عن مَجلس السُّلْطان، فاختلفَ النّاسُ إلى زيارته، وعَكَف ببابه قُوّاد النّصارَى، فاستَرابَ النّاسُ[ج] بأمْرِهم، *وتيقّن الأمر بعُكوفهم*[د]، فأرسل السُّلْطانُ من حَشَمِه مَن تقبّض على الوزير[هـ] وأوْدعَهُ السّجن، ثمّ جُنِبَ إلى مَصْرعه من الغد، وقُتِل قَعْصاً بالرّماح. وقُتل المتّهمون من القَرابة وقُوّاد الجُند، واستُلْحِموا جميعاً، وصاروا مثلاً في الآخرين. والأمر لله.

(أ) ا: وأخبره (ب) ص: الدعوة، ومثله في ض وكتب فوقها: الملك (ج) في هامش ض: الخاصّة، وفي ص: فاستريب بأمرهم
(د) سقط ما بين النجمين من آ (هـ) ص: من تقبض عليه

(1) هذا من كلام العرب؛ قال أحد بلغائهم: ما أمكنني والٍ قط من أذنه، إلاّ غلبتُ عليه. الجاحظ: البيان والتبيين 1: 174

الخَبَرُ عن حَرَكَةِ السُّلْطانِ إلى عامر بن مُحَمَّد، ومُنازلَتِه بجبله، ثمَّ الظَّفَر به][أ]

لمَّا فَرَغَ[ب] السُّلطان [من شأن][ج] أبي الفَضل، عقَد على مَرَّاكُش لعليّ بن مُحَمَّد بن أجَانَا من صَنائع دَوْلتهم، وأوْعَز إليه بالتَّضْييق على عامر، والأخذ بمُخَنَّقِه، وإلجائه إلى الطَّاعَةِ[د]. وانقلب إلى فاس واعتزم على الحركَة إلى تِلِمْسان. وبينما هو في الاستنفار كذلك، إذ جاءه الخبرُ بأنَّ عليّ بنَ أجَانَا نهضَ إلى عامر وحاصَرَه أيَّاماً، وأنَّ عامراً زحَفَ إليه، ففضَّ[هـ] مُعَسكَرَه، وتقبَّض على ابنِ أجَانَا والكثير من العَسكَر، فاعتقلهم، فقامَ السُّلْطانُ في رَكائبه وقعد، وأجْمع أمْرَه على النُّهوض إليه بكافَّة بَني مَرِين وأهل المَغرب، فبعث في الحشود وبثَّ العَطاء. وعَسْكَر بظاهر البَلَد، حتّى استوفى العَرْض[و]، وعقَد على وزارته لأبي بكر بنِ غازي[ز] بن يَحْيَى بن الكاس، لِمَا كان فيه من مَخايِل الرِّيَاسَة والكِفاية، ورفع محلّه.

وارتحل سنةَ سبعين، فاحتلَّ بمَرَّاكُش، ثمَّ خرجَ إلى مُنازلة الجبل، فنازله، وكان عامر بنُ مُحَمَّد قد نصب بعضَ الأغْياص من آل عبد الحَقّ، من وَلَد أبي ثابت بن يَعْقُوب بن عَبْد الله؛ اسمه تَاشِفِين. ولحق به عليّ بنُ عَمَر بن وِيعلاَن[1] من شيوخ

(أ) نهاية السقط من نسخة الأصل ظ (ب) ظ: قرع (ج) ساقط من ظ (د) ظ: طاعته (هـ) ظ، ض: فقبض (و) أ، ص، ض: الغرض (ز) في الأصول الأربعة: غاز، ثم استدركه - فيما بعد - بالتصويب في نسخة أ، وقد نبّه ابن الأحمر في كتابه بيوتات فاس الكبرى ص 40 بأن أبو بكر بن غازي هذا، وهو أحد رؤساء بني مرين، ليس من بيت بني الغازي من البربر، الذين وصفهم بالعلم والفقه والترفه.

(1) سيذكره في فيما بعد في التعريف برحلته ص691: علي بن عمر الويعلانيّ

بَنِي وَزِنَاجَنْ، كبير بَني مَرِين وصاحب الشُّورَى فيهم لعَهْده، فاشتدَّ أَزْرُه به. وتَوافَى به[أ] كثيرٌ من الجُند النَّازعِين عن[ب] السُّلْطان، رهبةً من بأسه، أو سُخْطةً لحاله، أو رَغبةً فيما عندَ عامر، فرتَّبهم، وأمْسكَ اللهُ يدَه عن العَطاء؛ فلم تَبِسّ[ج] بقَطْرةٍ. وطال مثوى السُّلْطان بساحته وعلى حصاره. وبوَّأ المقاعدَ للمُقاتِلة، وغاداه بالقِتال وراوَحَهُ. وتغلَّبَ على حُصونه شيئاً فشيئاً، إلى أنْ تعلَّق بأعلى الجبل بأَمَسْكَرُوط.

[273 ب] / وكان لأبي بكر بن غازي[د] غَناءٌ مذكور، ويَئِسَ أصحابُ عامر وأشياعُهُ من عطائه. وفسد ما بينه وبين علي بن عُمَر هذا، فدسَّ إلى السُّلْطان بطلب الأمان، وتوثَّق لنفسه، ثم نزع إليه. وداخلَهُ فارسُ بن عَبْد العَزيز أخي عامر في القيام بدعوة السُّلْطان والخلاف على عمّه، لِمَا كان يُوسفهُ[هـ] به من إرهاف الحدّ وتفْضيل ابنه أبي بكر عليه، فبلَغ خبرُه إلى السُّلْطان، واقتضى له وثيقةً من الأمان والعَهْد بعث به إليه، فثار بعمّه. واستدعى القبائلَ من الجبل إلى طاعة السُّلْطان فأجابوه. واستحثَّ السُّلْطان للزَّحْف إليهم، فزحفت العَسَاكر والجُنود، واستوت على مُعْتَصَم الجبل.

ولمَّا استَيْقَن عامر أنْ قد أُحيط به، أوْعزَ إلى ابنه أنْ يلحقَ بالسُّلْطان مُموِّهاً بالنُّزوع، فألْقى بنفسه إليه، وبذل له الأمانَ، وألْحقه بجُمْلته.

وانتبذ عامر عن النَّاس، وذهب لوَجْهه، ليخلُصَ إلى السُّوس، فردَّهُ الثَّلْجُ، وقد

(أ) أ، ض: إليه (ب) ظ، ص: على (ج) جاءت مهملة في الأصول الأربعة، والبسس: من الإبساس، وهو أن يقال للناقة عند الحلب: بِسْ بِسْ؛ لتسكن وتدرّ. لسان العرب، مادة: بسس (د) الأصول الأربعة: غاز (هـ) ص: يوسف به. والأسَف: المبالغة في الغضب. لسان العرب، مادة: أسف

كانت السَّماء أرسلت[أ] منذ أيّام بَرَداً وثلجاً، حتّى تَراكَمَ بالجبل بعضُه على بعض، وسَدَّ المسالكَ، فاقتحمه عامر وهَلَكَ فيه بعضُ حُرَمِه، ونَفَق مركوبُهُ، وعايَن الهلكَةَ العاجلةَ، فرجع مخفياً أثره إلى غارٍ آوى إليه مع أدلّاء بَذَل لهم المال، يسلكون[ب] به ظهرَ الجبل إلى الصَّحْرَاء بالسُّوس، وأقاموا ينتظرونَ إمْساكَ الثَّلج. وأغرى السُّلْطانُ به البحثَ، فدلَّهم عليه بعضُ البَرْبَر عثروا عليه، فسِيق إلى السُّلْطان، وأحضره بين يديه، ووبَّخه؛ فاعتذر، وبَخَع بالطَّاعَة، ورغب في الإقالَة، واعترف بالذَّنب، فحُمل[ج] إلى مَضْرَبٍ بُني له إزاءَ فُسْطَاطِ السُّلْطان، واعتُقِل هُنالِك.

وتقبّض يومئذٍ على مُحَمَّد بن الكِنَانِيّ، فاعتقل. وانطلقت الأيدي على مَعاقِل عامر ودِيارِه، فانتهبَ من الأموال والسِّلاح والذَّخِيرَة والزَّرْع والأقْوات والحُرْثِيّ ما لا عين رأت ولا خَطَر على قلبِ أحدٍ منهم.

واستولى السُّلْطانُ على الجبل ومَعاقِله، في رمضان من سنة إحدى وسبعين، لحَوْلٍ من يوم حِصاره. وعقد على هِنتَاتَةَ لفارس بنِ عَبْد العَزِيز بن مُحَمَّد بن عليّ. وارتحل إلى فاس، / واحتلَّ بها آخرَ رمضان، ودَخلَها في يومٍ مشهودٍ برزَ فيه النَّاس. [274أ] وحُمل عامر وسُلْطانُه تاشِفِين على جَمَلَيْن، وقد أُفْرِغَ عليهما الرّثّ[د]، وعبثتْ بهما أيدي الإهانة، فكان ذلك عبرةً لمَن رآه.

ولمَّا قضى مَنْسَكَ الفِطْر، أحضر عامراً، فقرَّعه بذنوبه، وأُوتِيَ كتابهُ بخطّه

(أ) ظ، ص: أرسلت به، وطمست من أ، ض (ب) أ: ليسلكوا (ج) ظ: فاحتمل (د) كذا في الأصول، والرث: البالي من كل شيء، ولعل المراد: الروث لذوات الحافر، معروف

يُخاطِبُ فيه أبا حَمُّو ويستنجده على السُلْطان، فشهد عليه، وأمر به السُلْطان، فامتُحن، ولم يزل يُجْلَد حتّى انتثر لحمُه، وضُرب بالعِصِيّ حتّى ورِمَتْ أعضاؤهُ، وهَلَك بين يدي الوَزَعَةِ. وأُحضر الكِنَانيّ، ففُعل به مثله. وجُنِبَ تَاشِفِين سُلْطانُهم إلى مَصْرعه، فقُتل قَعْصاً بالرِّماح. وجُنِبَ مُبارك بنُ إبراهيمَ من مَحْبِسه بعد طول الاعتقال، فأُلحق بهم. ولكلّ أجلٍ كتابٌ. وصفا الجوُّ للسُلْطان من المُنازِعين، وفرغ لغزو تِلِمْسان، كما نذكر.

الخَبَرُ عن ارتجاع الجزيرة[1]

قد تقدَّم ذِكرُ تغلُّبِ الطَّاغِيَة الهُنْشُهْ[أ] على الجزيرة، سنةَ ثلاثٍ وأربعين، وأنّه نازَلَ بعدَها جَبَلَ الفَتْح سنةَ إحدى وخمسين، وهَلَكَ بالطَّاعُون وهو مُحاصِرٌ له، عندما استفحل أمرُه واشتدَّت شوكته، فكفى الله شأنَه.

ووَلِي أمرَ الجَلالقةِ[ب] بعده ابنُه بِطْرُهْ، وعدا[ج] على سائر إخوته. وفرَّ أخوه القُمْطُ - ابنُ حظِيَّةِ أبيه المُسَمَّاة بلُغَتِهم الريق همزة[د] - إلى قُمط بَرْشَلونة؛ فأجارَه، وأنزله خيرَ نُزُل. ولحق به من الزُّعماء المزكش[2] ابنُ خالته وغيرُه من أقماطِهم.

(أ) ضبطه في أ بكسر الهاء في أوله (ب) ظ، ص: الخلافة، وأصلحت في ض (ج) ظ: وغدا (د) أ: همرة

---

(1) المراد: الجزيرة الخضراء، والمدينة المستحدثة التي تجاورها المسماة "البَنِيَّة"، يفصل بينهما نهر لاميل، وتعرفان معاً بالإسبانية: "الخثيرا". انظر: ليولد تورّس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية 62

(2) المركش: تعني المركيس، وترد بالشين أيضاً. ويتردد هذا اللقب في مصادر الحروب الصليبية. أنستانس الكرملي: الألقاب الرومانية عند قدماء العرب (مجلة المجمع العلمي العربي، ج7 - تموز 1921م)، 198

وبعث إليه بِطْرُة ملكُ قَشْتَالَةَ في إسلام أخيه، فأبى من إخْفار جِواره. وحدَثت بينهما - بسبب ذلك - الفِتْنَة الطَّويلة؛ افتتح بِطْرُة فيها كثيراً من مَعاقِل صاحب بَرْشَلونَة، وأوْطأ عَساكِره نَواحيَ أرضه، وحاصَرَ بَلَنْسِيَة قاعدةَ شرقِ[أ] الأنْدَلُس مِراراً؛ أوْجف[ب] عليها بعَساكره، وملأ البَحْرَ إليها بأساطيله، إلى أنْ ثقلتْ على النَّصْرانيَّة وَطأتُه وساءت[ج] فيهم مَلَكَتُه، فانتقضوا عليه، ودَعَوُا القُمْط أخاه، فزحفَ إلى قُرْطُبَة، وثار على بِطْرُة أهلُ إشْبيلِيَة، وتيقَّن صاغيةَ [النَّصارَى][د] إليه، ففرَّ عن مَمالكه، ولحق بَملِك / [274 ب] الإفرنج وراء جِلِّيقِيَّة وفي الجوف[هـ] عنها، وهو صاحبُ أنكِلَطِرَّةَ[و]، واسمهُ البنس[1] غَالسْ، ووفد عليه صريخاً سنةَ سبعٍ وستِّين، فجمع قومَه وخرج في صَريخِه إلى أنْ استولى على مَمالِكه. ورجع ملكُ الفرنج، فعاد النَّصارَى إلى شأنهم مع بِطْرُة.

وغلَب القُمْطُ على سائر المالك، فتحيَّز بِطْرُة إلى ثُغوره ممَّا يلي بلاد المُسْلِمين، ونادى صريخه بابن الأحْمر، فانتهزَ فيها الفُرْصَةَ، ودخل بعَساكِر المُسْلِمين، فأثخن في أرضِ النَّصْرانيَّة وخرَّب مَعاقِلَهم ومُدُنَهم؛ مثل: أُبَّدَةَ، وجَيَّان[ز]، وغيرها من أُمَّهات

(أ) ظ، ض: شرف (ب) أ: أرجف، والإرجاف: الاضطراب، وأيضاً خوض الناس في الأخبار السيئة وذكر الفتن، أما الوجف: فهو الحركة السريعة والانتفاض. (ج) ظ، ض: وسارت (د) ساقطة من ظ (هـ) ظ، أ، ض: الخوف، والمُراد في الشمال عن جليقية وليس الجوف: الكورة التي بالأندلس غربي قرطبة. (و) ض، ص: أنكطرة، والمقصود: انكلترا؛ وقد ذكرها ابن خلدون في حديثه عن الإقليم السادس والسابع، انظر: العبر 1: 136، 142 (ز) ظ: وجياد. وتقدم التعريف بجيان

(1) البنس: أي الفنس

أمصارهم، ثمَّ رجع إلى غَرْنَاطَة. ولم تَزَل الفِتْنَةُ قائمةً بين بِطْرُة وأخيه القُمْط، إلى أنْ غَلَب عليه القُمْط وقَتَله.

وفي خلال هذه الفتن، بقيَتْ ثُغورُهم ممَّا يلي أرض المُسْلِمين عورةً. وتشوَّفَ[أ] المُسْلِمون إلى ارتجاع الجزيرة التي قَرُبَ عهدُهم بانتظامها في مَلَكة المُسْلِمين.

وكان صاحبُ المَغْرب في شغلٍ عن ذلك، بما كان فيه من انتقاضِ أبي الفَضْل ابنِ أخيه وعامر بن مُحَمَّد، فراسَل صاحبَ الأنْدَلُس في أنْ يزحفَ إليها بعَساكِره، على أنَّ عليه عطاءَهم وإمدادَه بالمال والأساطيل، وعلى أنْ يكونَ مثوبةُ جهادِها خالصةً له. فأجابه إلى ذلك، وبعث إليه أحمالَ المال. وأوْعَز إلى أساطيله بسَبْتَة، فعمَرت وأقلعَتْ إلى مَرْسى الجزيرة لحصارها.

وزحفَ ابنُ الأحْمر بعَساكر المُسْلِمين على أثرها، بعد أنْ قسم فيهم العَطاءَ، وأزاحَ العِلَل، واستعدّ بآلاتٍ[ب] للحِصار، فنازلها أيَّاماً قلائل. ثمَّ أيقَن النَّصارَى بالهَلَكَة؛ لبُعْدهم عن الصَّريخ، ويأسهم من مَدَدِ مُلُوكهم، فألْقوا باليد، وسألوا النُّزُول على حُكْم السّلْم، فأجابهم السُّلْطانُ إليه، ونزلوا عن البَلَد، وأُقيمت فيها شعائرُ الإسلام ومَراسِمُه، ومُحِيَتْ منها كلمةُ الكُفْر وطواغيته. وكتب الله أجرها لمَنْ أخلص في مُعاملته، وكان ذلك سنةَ سبعين.

وولَّى ابن الأحْمر عليها من قِبَلِه، ولم تَزَل لنَظَرِه إلى أنْ تمخَّضَ[ج] النَّظَرُ عن

(أ) ظ: وتشوق (ب) ظ، ص، ض: لألات (ج) ظ: تمحص، ص: تمحض

هَدْمِها[أ]، خشيةَ استيلاءِ النّصْرانيّة عليها، فهُدِمت أعوامَ ثمانين، وأصبحت خاويةً كأنْ لم تَغْنَ بالأمس[1]. / والبقاءُ لله. [275 أ]

الخَبَرُ عن حركةِ السُّلطان إلى تِلِمْسان، واستيلائه عليها، وعلى سائرِ بلادها، وفِرارِ أبي[ب] حَمُّو عنها

كان عربُ المَعْقِل مُوطَّنين بصحراء المَغرب من لَدُن السُّوس ودَرْعَة وتافِيلالْت ومُلْوِيَّة وصا[ج]. وكان [بَنو][د] منصور منهم أولاد حسين والأحلاف، مُختصِّين بطاعةِ بَني مَرِين وفي وَطَنِهم، وكانوا مُغلَّبين للدّولة وتحت قَهْرِ [من][هـ] سُلْطانها.

ولمّا ارتجع بنو عَبْد الواد مُلكهم بتِلِمْسان على يدِ أبي[و] حَمُّو؛ وكان الاختلافُ بالمَغرب، عاثَ هؤلاء المَعْقِل وأكثروا في الوَطَن الفساد. ولمّا استقلّت الدّولةُ من عِثارها، تحيَّزوا إلى بَني عَبْد الواد وأقْطعوهم في أوطانهم. واستقرّوا هُنالِك من لَدُن نُزوع عَبْد الله بن مسلم، العامِل كان بدَرْعَةَ، إلى أبي حَمُّو ووزارته له. وفسد ما بين سُلْطانِ المَغْرب وبين أبي حَمُّو من جرّاء ذلك.

ونَهَضَ أبو حَمُّو سنةَ ستٍّ وستّين إلى المَغْرب، وعاث في نَواحي دَبْدُو[ز] ثغرِ

(أ) ظ، ص: صدمها (ب) في الأصول جميعها: أبو (ج) وضع في ص، ض تحت الصاد حرف زاي (د) ظ: ابن (هـ) ساقطة من ظ (و) ظ: أبو (ز) ضبطها في أ بضم الأول

(1) بقيت مهجورة وخالية من الساكن إلى أن استولى الإنجليز على جبل طارق سنة 1704م، فعاد إليها سكانها الأصليون بعد أقامتهم طيلة ثلاثة قرون في المزارع المجاورة لها، دون أن ينسى اسمها القديم. انظر: ليوبولد تورّس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية 62

المَغرب؛ فشبَّت لذلك نارُ العداوةِ بينه وبين صاحبِ الثَّغر مُحَمَّد بن زَكْدان، فكان داعيه يُغري صاحبَ المَغرب به على الأيَّام.

ولمَّا استبدَّ السُّلْطانُ عَبْد العَزيز، وهَلَك عَبْدُ الله بن مسلم صاحبُهم، وترددت الرُّسُلُ بين أبي حَمُّو وبين السُّلْطان عَبْد العَزيز، كان فيما اشترط عليه التَّجافي عن قبول المَعْقِل عرب وطنه، لِمَا فيه من الاستكثار بهم عليه، وأبى عليهم أبو حَمُّو منها؛ لاستظهاره بهم على زُغْبَة من أهلِ وَطنه وغيرهم. وكثر التَّلاحي في ذلك، وأحفَظ السُّلْطان وهَمَّ بالنُّهوض إليه سنةَ سبعين، وأقصر لمَّا أخذ بحُجزته من خلاف عامر، وصاحبُ الثَّغر مُحَمَّد بن زَكْدان أثناء ذلك يُحرِّضُهُ على الحركةِ إلى أبي حَمُّو، ويرغّبه في مُلْك تِلِمْسان.

[275 ب] ولمَّا قضى / السُّلْطانُ حركةَ مَرَّاكُش، وفرغ من شأن عامر، ورَجَع إلى فاس، وافاه بها أبو بكر بن عَريف أميرُ سُوَيْد في قَوْمِه من بَني مالك بحِلَلِهم وناجِعَتهم، صَريخاً على أبي حَمُّو لِمَا نال منهم.

وتقبَّض على أخيهم مُحَمَّد ورُؤساء بَني مالك جزاءً بما يُعْرف لهم ولِسَلَفِهم من ولاية صاحبِ المَغرب. ووفد عليه معهم رُسُلُ أهل الجَزائِر ببيعتهم يستحثُّون السُّلْطانَ لاستنقاذهم من لَهَواتِهِ. ووامَر السُّلْطانَ في ذلك وليَّه وَنْزمار، ومُحَمَّد بن زَكْدان صاحب دَبْدُو(أ)، فزعموا له بالغَناء في ذلك. واعتزم على النُّهوض إلى تِلِمْسان، وبعث الحاشرين إلى مَرَّاكُش للاحْتِشاد، وتَوافى النَّاسُ ببابه على طَبقاتهم أيَّامَ مِنى من

(أ) ضبطها في أ بضم الأول

سـنةِ إحـدى [وسـبعين][1]، وأفـاض العَطـاء، وأزاح العِلَـل. ولـمَّا قَـضى نُـسُكَه في الأَضْحَى، اعترض العَسَاكِر، وارْتَحل إلى تِلِمْسان، واحتلَّ بتَازَى.

وبَلَغ خبرُ نُهوضِه إلى أبي حَمُّو، فَجَمَع مَنْ إليه مـن زَنَاتَـة الـشَّرق وبَـني عامر مـن عرب زُغْبَةَ، وتَوَافَت جُموعُه بساحة تِلِمْسان، واضـطرب هُنـالِكَ معَسْكَره، واعْـترض جُنوده، واعتَزم على الزَّحْف إلى لقاءِ بَني مَرِين، ثقةً بمكانِ المَعْقِل. وتحيَّزَ مَـنْ كان معه من عرب المَعْقِـل الأحـلاف وعبيـد الله إلى الـسُّلْطان عَبْـد العَزِيـز، بمُـداخلة ولـيّهم[أ] وَنَزْمَار. واجتمعوا إليه، وسَرَّحَ معهم[ب] صَنائعه، فـارْتَحلوا بـينَ يدَيْـه، وسَـلكوا طريـقَ الصَّحْرَاء. وبَلَغ خبرُ تحيُّزِهم وإقْبالِهم إلى أبي حَـمُّـو؛ فأجْفـلَ هـو وجُنـودُه وأشـياعُه مـن بَني عامر، وسَلكوا على البَطْحاء، ثمَّ ارْتحلوا عنها، وعاجوا على مَنْدَاس[2]، وخرجـوا إلى بلاد الدَّيالم[3]، ثمَّ لَحِقوا بوَطَن رياح، ونزلوا على أولاد سِبَاع بن يَحْيَى.

وارْتحل الـسُّلْطانُ عَبْـد العَزِيـز من تَازَى، وقَـدَّم بين يديه وزيـرَه أبا بكـر بـن

(أ) أ: وليه (ب) ظ: معه

---

(1) في الأصول الأربعة: إحدى وستين. وهو خطأ كما سيأتي في كتاب التعريف برحلته، والاستقصا 4: 57

(2) منداس: مدينة بالجزائر، تقع في الجنوب الشرقي من ولاية غليزان. وإفادة الإدريسي (نزهة المشتاق 1: 242) وابن خلدون (في الجزء الحادي عشر قبله) تدلّ على أن تسميتهم نسبة لمنداسة إحدى بطون صنهاجة من البربر، وتردَّد ذكرهم وموطنهم عند ابن خلدون مرات عديدة، منها: أن جبل كزول محيط بمنداس، وأنها قرب وانشريس.

(3) الديالم (بنو دليم): من المعقل من ذوي حسان، بلادهم قبلة ونشريس في شرق الجزائر، ومنهم من يسكن صحراء ليبيا، كان تعدادهم - في القرن العاشر الهجري - عشرة آلاف رجل؛ أربعمائة منهم فرسان والباقي راجلة. الوزان: وصف إفريقيا 1: 54

غازي[أ]؛ فدَخل تِلِمْسان ومَلكها. ورَحَل السُّلْطانُ على أثره، واحتلّ بتِلِمْسان يومَ عاشوراء من سنة ثنتين [وسبعين][1]، فدَخَلها في يومٍ / [276 أ] مشهود، واستولى عليها، وعَقَد لوَزيرِه أبي بكر بن غازي[ب] على العَساكر من بَني مَرين والجُنود والعَرَب من المَعْقِل وسُوَيْد، وسَرَّحَه في اتّباعه، وجَعَل شوراه إلى وَليّه وَنْزمَار، وفوّض إليه في ذلك. وارتحلوا من تِلِمْسان آخرَ المُحرَّم.

وكنتُ وافداً على أبي حَمُّو، فلمَّا أجفل عن تِلِمْسان ودَّعْتُه وانصرفتُ إلى هُنَيْن للإجازة إلى الأنْدَلُس، ووَشَى بعضُ المفسدين عندَ السُّلْطان بأنّي احتملتُ مالاً للأنْدَلُسِ، فبعث جريدةً من عَسْكَره للقَبْض عليّ، ووافَوْه بي بوادي الزَّيتُون قبلَ مدخله إلى تِلِمْسان، فأحضَرني وسألني؛ وتبيَّن كذبُ الواشين، وأطْلَقني، وخَلَع عليّ، وحَمَلني[2].

ولمَّا ارتحل الوَزيرُ في اتّباع أبي حَمُّو، اسْتَدْعاني وأمَرَني بالنُّهوضِ إلى رياح، والقيامِ فيهم بطاعته، وصَرْفِهم عن طاعة أبي حَمُّو وصَريخه، فنهضتُ لذلك، ولحقتُ بالوَزير بالبَطْحاء، وارتحلتُ معه إلى وادي وَزكَ من بلاد العَطّاف، فودَّعته وذهبتُ لوَجْهي، وجمعتُ رياحاً على طاعة السُّلْطان، ونكَّبتُ بهم عن صَريخ أبو حَمُّو، فنكبُوا عنها.

(أ) ظ، ص، ض: غاز، ومثله في أ ثم ألحق الياء بعدها (ب) ظ، ص، ض: غاز

(1) في الأصول الأربعة: ثنتين وستين. ولا يمكن ذلك؛ فهذه الأحداث ـ كما سيذكر في كتاب رحلته فيما بعد ـ وقعت بعد سنة 771هـ.

(2) فصّل ابن خلدون ذلك في كتاب رحلته "التعريف"، انظر ما يلي ص640-641.

وخرج أبو زَيَّان من محلّ ثورته بحُصَين، فلَحِق بأولاد مُحَمَّد بن عليّ بن سِبَاع من الدَّوَاودَة. وارتحل أبو حَمُّو من المَسِيلَة[1]، فنزل بالدُّوسَن[2] وتلوَّم بها. وأوفدتُ من الدَّوَاودَةِ على الوَزِير وَنزْمَار، فكانوا أدلَّاءهم في النُّهوض إليه. ووافوه بمكانِه من الدُّوسَن في مُعَسْكَره من زَنَاتَة وحِلَل بَني عامر، والوَزِيرُ في التَّعْبِئَة، وأُمُّ زَنَاتَة والعَرَب من المَعْقِل وزُغْبَة ورياح مُحتفَّة به، فأجْهَضوه عن مالِه ومُعَسْكَرِه، فانتُهِبَ بأسره، واكتُسِحَتْ أموالُ العَرَب الذين معه، ونجا بذمائه(أ) إلى مُصَاب(ب). وتَلاحَق به وَلَدُه وقومُه مُتفرّقين على كلّ مَفازة، وتلوَّم الوَزِيرُ بالدُّوسَن أيّاماً، ووافاه هُنالِك إتحافُ ابن مُزْني، وانقلبَ إلى المَغْرب، ومرَّ على قُصور بَني عامر / بالصَّحْرَاء، [276 ب] فاسْتَبَاحها، وشرَّدهم عنها إلى قاصية القَفْر ومَفازة العطش. ولَحِق بتِلِمْسان في ربيع الثَّاني.

ووفدتُ أنا بالدَّوَاودَة على السُّلْطان، ورئيسُهم أبو دينار بن عليّ بن أحمد، فبرَّ السُّلْطانُ مَقْدمَهُ، ورعى له سَوابقَهُ عند أبيه، وخلعَ عليه وحمله، وخَلَع على الوفد كافَّة، وانصرفوا إلى مَواطنِهم.

(أ) ظ، ص، ض: بذماله (ب) وضع في أ تحت الصاد حرف زاي

(1) المَسِيلة: مستحدثة؛ أمر الخليفة الفاطمي الثاني القائم سنة 313هـ قائده علي بن حَمدون ببنائها على أرض ذات مياه وخوصٍ واسعة ويَنْثُر بها نَهر سَهر (عيون الأخبار 5: 217) وعليها سُوران بينهما ماء جارٍ، وحولها مزارع. البكري: المسالك 59 وبمقربة منها قلعة بني حمّاد. جاء اسمها في الشعر بفتح الميم وتنطق ساكنة. نزهة المشتاق 1: 254، الاستبصار 171، الروض المعطار 558، وصف إفريقيا 2: 52، مارمول: إفريقيا 2: 381.

(2) الدوسن: مدينة جزائرية قديمة، ضبطها الوزان بتشديد السين المفتوحة. وصف إفريقيا 2: 140

وبعثَ السُّلطانُ عُمَّالَه في الأمصار، وعقد لصَنائعه على النَّواحي، وجهَّز الكتائبَ مع وزيرِه عُمَر بنِ مَسْعُود بن مِنْدِيل بن حَمَامَة، لحصار حَمْزَة بن عليّ بن راشد من آل ثابت بن مِنْدِيل؛ كان ربِي في حِجْر الدَّوْلَة ونشأ في جوّ نِعْمتها، وسخط حاله لديهم، فنزع[أ] إلى وَطنِ سَلَفِه من بلاد مَغْراوةَ، ونزل بجبل بَني بُوسْعِيد[1]، فأجاروه وبايعوه على الموت دونه، وسَرَّحَ السُّلْطانُ وزيرَه إلى الأخذ بمُخَنَّقِهم، فنزل عليهم وقاتَلَهم، وامتنعوا في رأس شَاهِقِهمْ، فأوطن الوَزِيرُ بالخميس[ب] من وادي شَلَف، وأجحرهم[ج] بمُعْتَصَمِهم، وتَوافتْ لديه الأمدادُ من العَسَاكر من تِلِمْسان، فجهَّزها كتائبَ، وبوَّأهم المقاعدَ للحصار، وأقام هُنالِك. واستولى السُّلْطانُ على سائر الوَطَن من الأمصار والأعمال، وعقد عليها. واستوسق له مُلْكُ المَغْرب الأوْسَط كما كان لسلفه.

الخَبَرُ عن اضطرابِ المَغْرِب الأَوْسَط، ورجوعِ أبي زَيَّان إلى تِيطَرِي، وإجْلابِ العَرَب بأبي حَمُّو على تلمْسان، إلى أنْ غلبهم السُّلطانُ جميعاً على الأمر، واستوسَقَ له المُلْك

لمَّا خلصَ أبو حَمُّو من واقعة الدَّوْسَنْ هو وأحياءُ بَني عامر أشياعِه، لحقوا بالصَّحْرَاء وأبْعَدُوا فيها عن قُصورهم قِبلةَ جبل راشد، ورجع الوَزِير ووَنْزَمَار بن عَريف بأحياء العَرَب كافَّةً من زُغْبَة والمَعْقِل.

(أ) أ: ففزع، ض: فزع (ب) ظ: بالجيش (ج) ظ، ض: وأجحزم

(1) جبل بني بوسعيد: يقع بجوار مدينة تنَس. الوزان: وصف إفريقيا 2: 45

وكان السُّلْطانُ لمَّا احتلَّ بتِلِمْسان طَلَب العَرَبُ منه إطلاقَ أيديهم ما أقطعهم أبو حَمُّو إيَّاهُ من الوَطَن على الزَّبُون والاعتزاز عليه، فاسْتَنْكَف من ذلك لعِظَم / [277 أ] سُلْطانِه واسْتِبدادِ مُلْكه، فسَخِطوا أحوالهم ورجَوْ أنْ يكونَ لأبي حَمُّو ظهورٌ يَنالون به من ذلك ما أمَّلوه، فلمَّا انهزم وفُلَّتْ عَساكِره، وظهر السُّلْطانُ ظهوراً لا كِفاءَ له، يئسوا، وأزمع ابن منصور [...][أ] أميرُ الخوارج - من عبيد الله إحدى بطون المَعْقِل - الخروجَ على السُّلْطان.

ولمَّا خرج العَرَبُ إلى مشاتيهم، لَحِق بأبي حَمُّو وأحياء بَني عامر، وكاثَرهم، وقادَهم[ب] إلى العَيْث في الأوطان. وأجلبوا على ممالك السُّلْطان، ونازَلوا وَجْدَةَ في رجب من سنة ثنتَين وسبعين[ج]. وصَمَدت نحوهم العَسَاكرُ من تِلِمْسان، فأجْفلوا وعاجُوا إلى البَطْحاء فاكْتسحوا أوْطانها. ونهضَ إليهم الوَزِيرُ في العَسَاكر، ففرُّوا أمامه، واتَّبع آثارَهم إلى أنْ أصْحروا، واسْتَنْسَرَ خلال ذلك بُغاثُ حَمْزَة بن عليّ بن راشد، فبيَّت مَعَسْكَرَ الوَزِير بمكانِه من حِصارِه بشَلَف، ففضَّ جُموعه، ولحِقَ مفلولاً بالبَطْحاء.

وبلغ الخَبَرُ إلى حُصَيْن، وكانوا راهبين من السُّلْطان، لِما اشتهر عنهم من الإجْلاب على الدُّوَل والقيام بأمر الخوارج، فَجَأجَأوا بأبي زيَّان، الثَّائر كان عندهم من مَكانِه بأحياء أولادِ يَحْيَى بن عليّ بن سِبَاع من الدَّوَاوِدَة، فلَحِق بهم، وأجْلبوا

(أ) بياض في ظ قدر كلمة، وفي أ، ص، ض قدر كلمتين أو ثلاث. (ب) ظ، ص، ض: وقادوهم (ج) أ، ص: وستين، ومثله في ض ثم أصلحت. وانظر ما يلي ص642 وما بعدها

على ضَواحي المَدِيّة، ونازلوا عَسكَرَ السُلْطانِ بها. واضطَرم المَغرب الأوسَط ناراً، واتَّصل ذلك مدَّةً.

ولمَّا كانت سنة ثلاثٍ وسبعين، استمال السُّلْطانُ رَحُو بنَ منصور [عن][أ] أبي حَمُّو، وبذلَ له مالاً، وأقطعهُ ما أحبَّ من الضَّواحي، وفعل ذلك بسائرهم، وملأ صُدورَهم ترغيباً. واعتزم على تجهيز العَساكر معهم لحَسْم أدواءِ الفَساد، وإخراج الثُوَّار من النَّواحي. واتَّهم وزيرَه عُمَر بن مَسْعُود بالمُداهَنة في أمر المَغراويّ، فسرَّح من ذويه مَن تقبَّض عليه وأشخصه إلى حَضْرته مُقيَّداً، واعتقله / بفاس. وجهَّز عَساكرَه، واعتَرض جنوده، وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي[ب] [على][ج] حرب الثُوَّار والخوارج، فنَهَض من تِلِمْسان في رجب من سنةِ ثلاثٍ وسبعين. واعتمد حَمْزَة بن عليّ بن راشد في مُعْتَصَمِه بجبل بَني بُوسَعِيد، وألحَّ عليهم بالقتال، فعضَّتهم الحَرْبُ بنابِها، وداخَلَهم الرُّعْبُ، وأوْفَدوا مشيختهم على الوَزِير بالطَّاعَة. ونبذ العَهْد إلى حَمْزَة، فعَقَد لهم ما ابتغوه. ولحق حَمْزَة بأبي زَيَّان بمكانِه من حُصَيْن، ثمَّ انثَنَى عزمُهُ عن ذلك، ورَجَع إلى ضَواحي شَلَف، وبيَّتهُ بعضُ الحامية بتيمزُوغْت[1]، فثبتوا في مَراكزهم، وانفضَّ جَمْعُهُ، وتُقُبِّض[د] عليه، وسيقَ إلى الوَزِير، فاعتقله.

وبعث إلى السُلْطان في شأنه، وأمر بقَتْلِه، فاحتزَّ رأسُه ورؤوس أشياعه، وبُعث

(أ) ساقطة من ظ (ب) في الأصول الأربعة: غاز (ج) ظ: إلى (د) ظ: وقبضوا

(1) تيمزوغت: قرية من المدية ومليانة، كما يُستشف من كلام ابن خلدون في الجزء الحادي عشر من العبر.

بهم إلى السُّلْطان، وعلّق أشلاءهم بأسوار مِلْيَانَة. ثمّ زَحَف إلى حُصَيْن، فأجْحَرهم بمَعْقِلِهم بتِيطَرِي. واجتمعت إليه أحياءُ زُغْبَة كافّة، فأحاطَ بهم من كلّ جانب، وطاوَلَهم الحِصارَ وغاداهم الحربَ.

وخاطَبَني السُّلْطانُ بمكاني من الزّاب، وأوْعَز إليّ بنفير رياح كافّة إلى معَسْكَر الوَزِير، فاستنفرتُهم بأحيائهم وناجِعَتِهم. ونازلنا الجبل من جانب الصَّحْرَاء ممّا يلي ضواحِي رِياح، فأصابهم الجَهْدُ وداخَلَهم الرُّعْبُ وانفضّوا من المَعْقِل وانذعروا[أ] في الجهات في المُحرَّم فاتِحَ أربعٍ وسبعين، ولحق أبو زَيّان بوَارَكْلَي[1]، واستولى الوَزِيرُ على المَعْقِل وانتُهِبَ ما فيه. واقتضى رُهُن حُصَيْن على الطّاعَة، وقدَّر عليهم الوَضائع والمغارم، فأعطوها عن يدٍ.

وكان أبو حَمّو ـ في خلال ذلك ـ قد أجلب على تِلِمْسان ينتهِزُ فرصةً في انتباذ العَسَاكِر عن السُّلْطان. وكان وليّه خالد بنُ عامر أميرُ بَني عامر من زُغْبَة مريضَ الطّاعَة؛ لِمَا اتّهم أبو حَمّو به بولاية رَدِيفِه عَبْد الله بن عَسْكَر بن معرف دونه، فأسْخَطه ذلك، وداخَل السُّلْطان عَبْد العَزِيز في الانحراف إليه عن أبي حَمّو على مالٍ حملهُ إليه، فنزعَ عنه. وجهّز له السُّلْطان عَسْكَراً [الحرب][ب] أبي حَمّو وأشياعه في ذي القَعْدَة سنة ثلاثٍ وسبعين من بَني عامر وأولاد يَغْمُور من المَعْقِل، وعقد عليهم

(أ) أ: وابذعروا (ب) ساقطة من ظ

---

(1) عرّف به ابن خلدون في الجزء الحادي عشر قبله، في معرض كلامه على مواطن البربر بإفريقية والمغرب [الورقة 77ب]، قال: "بلدُ وارَكْلي قبلة بِجَايَة، بلدٌ واحِدٌ مُسْتَبْحرَ العُمْرانِ كثيرُ النّخل، وفي سَمْتِهِ إلى جهةِ التّلولِ بلادُ رِيْغ تُناهِزُ الثّلاث مائة".

[278 أ] لمحمَّد بن عُثْمان / من قَرابة أبي بكر بن غازي[أ].

وتعرَّضوا لِلِقائهم، فانفضَّ جَمْعُهم ومنحوا أكتافهم. وأُحيط بمُعَسْكَر أبي حَمُّو وحِلَل العَرَب، فاكتَسح ما فيها، واستولى بَنو مَرِين على أَموالِه وحُرَمه ووَلَده، فاستاقوهم إلى السُّلْطان، وأشخصهم إلى فاس فأنزلهم بقُصوره. وتقبَّض على مَوْلاه عطيَّةَ بن موسى صاحبِ شَلَف، فامتنَّ عليه، وألْحقه بجُمْلته.

ونجا أبو حَمُّو، وألْقى بنفسه إلى عَبْد الله بن صُقَيْر مُستميتاً؛ فامتنَّ عليه، وبعث معه الأدِلَّاءَ إلى تِيَكْوَرَارِين من بلاد القِبْلَة، فنزلها، وكان ذلك بين يدَيْ فَتْح تِيطَرِي بليالٍ، واستوت قدمُ السُّلْطان في مُلْكِه، واستولى على المَغْرب الأوْسَط، ودفع الثُّوَّار والخوارج عنه. واستمال كافَّةَ العَرَب إلى طاعته، فأتوها راغبين وراهبين.

ووَفَد عليه الوَزِيرُ أبو بكر بن غازي[أ] من قاصية الشَّرق ومعه مشيخةُ العَرَب من كلِّ حيٍّ من أحيائهم، فوَصَلهم واحتفى بقُدومهم، وركب للقاء الوَزِير، وطلب المشيخة في الرُّهُن على الطَّاعَة والاستحثاث لتَشْريد أبي[ب] حَمُّو من تِيَكْوَرَارِين، فأعطوها، وأوْسعَ حِباءَهم وبِرَّهم، وانصرفوا إلى مَشاتيهم مُعتملين في أسباب الحركة إلى تِيَكْوَرَارِين [إلى أنْ كان ما نذكر][ج].

(أ) في الأصول الأربعة: غاز (ب) ظ: أبو (ج) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، وأضافه في ص بخطه

الخَبَرُ عن قُدومِ الوزيرِ ابنِ الخَطيب على السُّلْطان بتلمسان نازعاً إليه عن سُلْطانه ابنِ الأَحْمر صاحب الأَنْدَلُس[أ]

أصلُ هذا الرَّجُل من لَوْشَة[1] على مَرْحلةٍ من غَرْنَاطَة، في الشَّمال من البَسيط الذي في ساحتها المسمَّى بالمَرْج على وادي شِنْجِيل[ب]، ويُقال: شِنِّيل، المخترق في ذلك البَسيط من الجنوب إلى الشَّمال، كان له بها سَلَفٌ معدودٌ في وزرائها.

وانتقل أبوه عَبْد الله إلى غَرْنَاطَة واستُخدم لمُلوك[ج] بَني الأَحْمر، واستُعْمِل على مخازن الطعام. ونشأ ابنهُ مُحَمَّد هذا بغَرْنَاطَة، وقرأ وتأدَّب على مَشيختها، واختصّ بصُحْبةِ الحكيم المشهور يَحْيَى بنِ هُذَيْل، وأخذ عنه العلومَ الفلسفيَّة، وبَرَّزَ في الطبّ، وانتحل الأدب، وأخذ عن أشياخه، وامتلأ من حفظ اللِّسان: نَظْمِه ونَثْرِه، مع انتقاءِ الجيّد منه، ونَبَغَ في / الشِّعْر والتَّرسيل بحيث لا يُجارَى فيها. [278 ب]

وامتدحَ السُّلْطانَ أبا الحَجّاج من مُلوك بني الأَحْمر لعَصْره، وملأ الدَّوْلَةَ بمَدائِحه، وانتشرت في الآفاق، فرقَّاهُ السُّلْطانُ إلى خدمته، وأثبتَه في ديوان الكتّاب ببابه مَرْؤوساً بأبي الحسن بن الجيَّاب شيخ العُدْوَتَيْن في النَّظم والنَّثر وسائر العلوم الأدبيَّة.

(أ) سقط هذا الفصل من ص، وكان المَقَّرِيّ قد خصّص الجزء الخامس من كتابه "نفح الطيب" للتعريف بابن الخطيب وذكر أوّليته ونشأته وحياته وترجم لمشايخه، ونقل هذا الفصل بلفظه في كتابه أزهار الرياض 1: 204 ـ 212 (ب) تقدم التعريف به في ص208 (ج) ظ: بملوك

---

(1) لوشة: تقع إلى الغرب من غرناطة، وهي من إقليم البيرة؛ بينهما ثلاثون ميلاً، وتسمى بالإسبانية Loja. مجهول: ذكر بلاد الأندلس 24، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب 2: 157، ابن الخطيب: معيار الاختيار 125، الحميري: الروض المعطار 513.

وكاتب السُّلْطان بغَرْنَاطَة من لَدُن أيّام مُحَمَّد المَخْلُوع من سَلَفه، عندما قتل وزيره مُحَمَّد بن الحكيم المستبدّ عليه، كما مرّ في أخبارهم، فاستبدَّ ابنُ الجيَّاب برياسة الكُتَّاب من يومئذٍ، إلى أنْ هَلَكَ في الطَّاعُون الجارف سنةَ تسعٍ وأربعين وسبعمائة، فولّى السُّلْطانُ أبو الحَجّاج حينئذٍ مُحَمَّد بنَ الخَطِيْب هذا رياسةَ الكُتَّاب ببابه، مُثنّاةً بالوِزارَة، ولقَّبه بها، فاستقلّ بذلك. وصَدَرت عنه غرائبُ من التَّرسيل في مُكاتباتِ جيرانهم من مُلُوك العُدْوَة.

ثمَّ داخَلَه السُّلْطانُ في تَوْلية العُمّال على يده بالمشارَطات، فجمع له بها أموالاً. وبَلَغ به في الخالَصة إلى حيث لم يبلغ بأحدٍ ممَّن قبله. وسَفَر عنه إلى السُّلْطان أبي عِنَان ملك بَني مَرِين بالعُدْوَة مُعَزِّياً بأبيه السُّلْطان أبي الحسن، فجلّى في أغراض سِفارتِهِ.

ثمَّ هَلَكَ السُّلْطانُ أبو الحَجَّاج سنةَ خمسٍ وخمسين؛ عدا عليه بعضُ الزَّعَانِف يومَ الفِطْر بالمسجد في سُجوده للصَّلاة، وطَعَنه فأشْواهُ، وفاظَ لوَقْتِه، وتعاوَرَتْ سيوفُ الموالي المَعْلُوجَى هذا القاتلَ فمزَّقوه أشلاءً، وبويع ابنُه مُحَمَّد لوقته.

وقام بأمْرِه مولاهم رِضْوَان الرَّاسِخُ القَدَم في قِيادة عَساكِرهم وكفالة الأصاغر من مُلُوكهم، واستبدّ بالدَّوْلَة. وأفردَ ابنَ الخَطِيْب بوزارته كما كان لأبيه، واتَّخذ لكتابته غيرَه، وجعل ابنَ الخَطِيْب رَديفاً له في أمْره وشريكاً في استبداده [معنىً][1]، فجرت الدَّوْلَةُ على أحسن حال وأقْوَم طريقةٍ.

(ا) ساقطة من ظ

ثمّ بعثوا الوَزِيرَ ابن الخَطِيب سفيراً إلى السُّلطان / أبي عِنَان مستمدّين[أ] له على عدوّهم الطَّاغِيَة على عادتهم مع سلفه. فلمّا قَدِم على السُّلطان ومَثُل بين يديه؛ يُقَدِّمُ[ب] الوفدَ الذين معه من وزراء الأندَلُس وفُقهائها، استأذنَهُ في إنشاد شيءٍ من الشّعْر يقدّمه بين يدي نَجْواه، فأذن له، وأنشد وهو قائمٌ: [من المنسرح] [279 أ]

خليفـــةَ الله ساعـــدَ القَـــدَرُ ... عُـلاك مـــا لاح في الدُّجَى قمـــرُ
ودافَعـتْ عنـــك كـــفُّ قدرتِـــهِ ... مـا ليـــس يستطيعُ دَفْعَـهُ البشـــرُ
وَجهُـــك في النّائبـات بَـدْرُ دُجـــىً ... لنـــا وفي المَحْـــل كفّـــكَ المَطَـــرُ
والنّـاسُ طُـــرّاً بـــأرضِ أندَلُـــسٍ ... لـــولاك مـــا أوْطَنُـــوا ولا عَمَـــرُوا[1]
ومَـــنْ بـه مـذ وصَلْـــتَ حبلَهُـــمُ ... مـــا جحَـــدُوا نِعْمـــةً ولا كفَـــرُوا
وقـــد أهمَّتْهُـــمُ نفوسُهُـــمُ ... فوَجّهُونـــي إليـــكَ وانتَظَـــروا

فاهتزَّ السُّلطانُ لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس، وقال له قبل أنْ يجلس: ما ترجع إليهم إلاّ بجميع طَلباتِهم[ج]. ثمّ أثقل كاهِلَهم بالإحسان، وردّهم بجميع ما طلبوه.

وقال لي شيخُنا القاضي أبو القاسم الشَّريف، وكان معه في ذلك الوفد: لم يُسْمَع بسفيرٍ قضى سِفَارَتَهُ قبل [أنْ يؤدّي رسالتَه][د] إلاّ هذا.

(أ) ظ: مستبدين (ب) أ: تقدم، ومهملة في ض (ج) أ: بجميع ما طلبوه (د) في ظ: قبل أن يسلم على السلطان، ومثله في ض فشطبها وكتب بخطه في الهامش ما هو مثبت

---

(1) أورد المقّري في النفح 5: 99، وأزهار الرياض 1: 206 بعد هذا البيت قوله:

وجُملةُ الأمر أنه وطن ... في غير علياك ما له وَطَرُ

ومكثَتْ دولتُهم هذه بالأندَلُس خمسَ سنين، ثمَّ ثار بهم مُحمَّد الرَّئِيس ابنُ عمِّ السُّلْطان، يُشْركه في جدّهِ الرَّئِيس أبي سعيد، وتحيَّنَ خروجَ السُّلْطانِ إلى مُتنزَّهِه خارجَ الحمراء، وتسوَّر دارَ الملك المعروفة بالحمراء، وكبس رِضْوَاناً في بيته، فقَتَله. ونَصب للمُلْك إسماعيل ابنَ السُّلْطان أبي الحَجَّاج، بما كان صِهْرَهُ على شِقَّتِهِ؛ وكان مُعتَقَلاً بالحمراء، فأخْرَجه وبايعَ له، وقام بأمره مُستبدّاً عليه. وأحسَّ السُّلْطان مُحمَّد بقَرْعِ الطّبول وهو بالبُسْتان، فركب ناجياً إلى وادي آش [وضبطها](أ).

وبعث بالخبر إلى السُّلْطان أبي سالم إثر ما استولى على ملك آبائه بالمَغرب. وقد كان مثواه أيَّام أخيه أبي عِنَان عندهم بالأندَلُس. واعتقل الرَّئِيس القائم بالدَّولَة هذا الوَزير ابن الخَطِيب وضيّق عليه في مَحْبِسه. وكانت / بينه وبين الخَطِيب [279 ب] ابنِ مَرْزُوق مودّةٌ استحكمت أيَّامَ مُقامهِ بالأنْدَلُس، كما مرّ. وكان غالباً على هوى السُّلْطان أبي سالم، فزيّن له استدعاءَ هذا السُّلْطان المَخْلُوع من وادي آش يعدّه زَبُوناً على أهل الأندَلُس، ويكفُّ به عاديةَ القَرابة المُرشَّحين هُنالِك متى طمحوا إلى مُلْك المَغرب، فقبل ذلك منه. وخاطب أهلَ الأنْدَلُس في تَسْهيل طَريقِه من وادي آش إليه. وبعث من أهلِ مَجلِسه الشَّريفَ أبا القاسم التِّلِمْسانيّ، وحمّلهُ مع ذلك الشَّفاعة في ابن الخَطِيب، وحَلّ معتقَلِهِ، فانطلق، وصحبَ الشَّريفَ أبا القاسم إلى وادي آش وسار في رِكاب السُّلْطان. وقَدمُوا على السُّلْطان أبي سالم؛ فاهتزَّ لقُدوم ابن الأَحْمر، ورَكِب في الموكب لتلقّيه، وأجلسَهُ إزاءَ كُرْسيّه.

(أ) ساقطة من ظ

وأنشد ابنُ الخَطِيب قصيدَته ـ كما مرَّ ـ يستصرخُ السُّلْطانَ لنَصْرِه، فوعده، وكان يوماً مشهوداً، وقد مرّ ذكره. ثمَّ أكرم مثواه، وأرْغَدَ نُزُله، ووفّر أرزاقَ القادمين في رِكابه، وانتظر به، وأرْغدَ عيش ابن الخَطِيب في الجِراية والأقْطاع.

ثمَّ استيأَس واستأذن السُّلْطان في التَّجوال بجهات مَرَّاكُش والوقوف على آثار الملك بها، فأذِنَ له، وكتبَ إلى العُمَّال بإتحافه، فتبارَوْا في ذلك، وحصل منه على حظٍّ.

وعندما مَرَّ بسَلا في قفُولِه من سَفَرِه، دخلَ مقبرةَ المُلُوك بشَالَّة، فوقَفَ على قبرِ السُّلْطان أبي الحسن وأنشد قصيدةً على رويّ الرَّاءِ الموصُولة يرثيه، ويَستجيرُ به في استرجاع ضِياعه بغَرْنَاطَة، مطلِعُها[1]: [من الكامل]

إنْ بَـانَ مَنْزِلُـهُ وَشَطَّـتْ دَارُهُ   قَامَـتْ مقَـامَ عِيَانِـهِ أخْبَـارُهُ
قَسَّـمْ زَمَانَـكَ عِبْـرَةً أو عَبْـرَةً   هـذا ثَـرَاهُ وهـذِهِ آثَـارُهُ

فكتب السُّلْطانُ أبو سالم في ذلك إلى أهل الأنْدَلُس بالشَّفاعةِ، فشفعوه. واستقرّ هو بسَلا منتبذاً عن سُلْطانه طولَ مُقامته بالعُدْوَة.

ثمَّ عاد السُّلْطانُ مُحَمَّد المَخْلُوع إلى مُلْكه بالأنْدَلُس سنةَ ثلاثٍ وستّين، كما مرّ في أخباره. وبعث عن مُخلَّفه بفاس من الأهل والوَلَد، والقائمُ بالدَّوْلَة يومئذٍ عُمَر بن عَبْد الله بن / عليّ، فاستقدمَ ابن الخَطِيب من سَلا وبعثهم لنظره؛ فسُرَّ السُّلْطانُ [280أ]

(1) يراجع كتاب رقم الحلل لابن الخطيب 97، وكتاب سلا ورباط الفتح للناصريّ 2: 141 وفيه القصيدة بتمامها، وهي طويلة جداً.

لمَقدمه[أ]، وردّه إلى منزلته، كما كان مع رِضْوَان كافله.

وكان عُثْمان بنُ يَحْيَى بن عَمَر شيخُ الغزاة وابنُ أشياخِهم، قد لحق بالطَّاغِيَة في رِكاب أبيه عندما أحسَّ بالشَّرِّ من الرَّئيس صاحبِ غَرْنَاطَة. وأجاز يَحْيَى من هُنالِك إلى العُدْوَة، وأقام عُثْمان بدار الحَرْب، فصَحِب السُّلْطان في مثوى اغترابه هُنالِك، وتقلَّب في مَذاهب خِدْمته. وانحرفوا عن الطَّاغِيَة بعدما يئِسُوا من الفتح على يديه، فتحوّلوا عنه إلى ثغور بلاده. وخاطبوا عَمَر بن عَبْد الله في أنْ يمكّنهم من بعض الثُّغور الغَرْبِيَّة التي لطاعتهم بالأنْدَلُس، يرتقبون منها الفَتْح.

وخاطَبَني السُّلْطانُ المَخْلُوع في ذلك؛ وكانت بيني وبين عَمَر بن عَبْد الله أذِمَّةٌ مَرْعيَّةٌ وخالصةٌ مُتَأكّدةٌ، فوفيتُ للسُّلْطان بذلك من عَمَر بن عَبْد الله. وحملته على أنْ يردّ عليه مدينة رُنْدَة؛ إذ هي من تُراث سَلَفه، فقَبِل إشارتي في ذلك. وتسوَّغها السُّلْطانُ المَخْلُوع ونزل بها، وعُثْمان بن يَحْيَى في جُمْلته، وهو المقدَّمُ في بطانته.

ثمّ غَزَوْ منها مَالَقَة، فكانت رِكاباً للفَتْح، ومَلَكها السُّلْطان، واستولى بعدَها على دارِ مُلْكه بغَرْنَاطَة، وعُثْمان[ب] بنُ يَحْيَى مُتقدّمُ القَدَم في الدَّوْلَة، عريقٌ في المخالَصَة، وله على السُّلْطان دالَّة واستبدادٌ على هَواه. فلمّا وصل ابنُ الخَطِيْب بأهل السُّلْطان وولَده، وأعاده السُّلْطانُ إلى مكانه في الدَّوْلَة من عُلوّ يَدِه وقبول إشارته، أدْرَكَتْهُ الغَيرة من عُثْمان، ونَكِرَ على السُّلْطان الاستكفاءَ به، والتخوّف من هؤلاء الأعياص على مُلْكه. فحَذِرَهُ السُّلْطان وأخذَ في التَّدبير عليه حتّى نكبه وأباه وإخوته في رمضان [سنة][ج] أربعٍ وستّين، وأوْدعهم المُطْبَق. ثم غرّبهم بعد ذلك.

(أ) ظ: بمقدمه (ب) سقطت الواو من ظ (ج) ساقطة من ظ، ض

وخلا لابن الخَطِيب وَجْهُ السُّلْطان، وغَلَب على هَواه[أ]، ودفع إليه تَدْبير الدَّوْلة، وخَلَط بنيه بنَدْمانه وأهل خَلْوته.

وانفرد ابنُ الخَطِيب بالحلّ والعَقْد، وانصرفتْ إليه الوُجوهُ، وعلِقَتْ به الآمالُ، وغَشِيَ بابَهُ / الخاصَّةُ والكافَّةُ، وغَصَّتْ به بِطانةُ السُّلْطان وحاشيتُهُ، فتَفَنَّنُوا في [280 ب] السِّعايات[ب] فيه، وقد صمَّ السُّلْطانُ عن قبولها.

ونُمِيَ الخبرُ بذلك إلى ابن الخَطِيب؛ فشمَّر عن ساعِده في التَّقويض عنهم. واستخدم للسُّلْطان عَبْد العَزِيز ابن السُّلْطان أبي الحسن ملك العُدْوَة يومئذٍ في القبض على ابنِ عَمِّه عبد الرَّحمن بن بُويَقْلُوسَنْ ابن السُّلْطان أبي علي، كانوا قد نصَّبوه شيخاً على الغزاة بالأنْدَلُس، لمَّا أجازَ من العُدْوَة، بعدما جاسَ خلالَها لطلَبِ المُلْك، وأضْرَم بها نارَ الفِتْنَة في كلِّ ناحيةٍ، وأحسنَ دِفاعَهُ الوَزِيرُ عُمَر بن عَبْد الله، القائم حينئذٍ بدَوْلة بَني مَرِين، فاضطرَّ إلى الإجازة إلى الأنْدَلُس، فأجاز هو ووزيرُه مَسْعُود بنُ ماسَاي، ونزلوا على السُّلْطان المَخْلُوع أعوامَ سبعةٍ وستِّين، فأكرم نُزُلَهُم. وتوفِّيَ عليّ بنُ بدر الدِّين شيخ الغزاة، فقدّم عبد الرَّحمن مكانه.

وكان السُّلْطانُ عَبْد العَزِيز قد استبدَّ بمُلْكِه بعدَ مَقْتل الوَزِير عُمَر بن عَبْد الله، فغَصَّ بما فَعَله السُّلْطان المَخْلُوعُ من ذلك. وتوقَّع انتقاضَ أمْرِه منهم. ووَقَف على مُخاطباتٍ من عبد الرَّحمن يُسَرِّبُها في بَني مَرِين، فجَزَع لذلك. وداخَلَه ابنُ الخَطِيب في

(أ) ظ: وخلا لابن الخطيب الجو وغلب على هوى السلطان، ومثله في ض فأصلحها بخطه في الهامش (ب) ظ: بالسعايات فيه

اعتقالِ ابن بُويَقْلُوسَنْ وابن مَاسَايْ وإراحة نفسه من شغْبِهم، على أن يكونَ له المكانُ من دَوْلته متى نَزَعَ إليه، فأجابه إلى ذلك، وكَتَب له العَهْد بخطِّه، على يدِ سَفيرِه إلى الأنْدَلُس وكاتِبه أبي يَحْيَى بن أبي مَدْيَن، وأغرى ابنُ الخَطِيب سُلْطانَه بالقَبْض على ابن بُويَقْلُوسَنْ وابن مَاسَايْ؛ فقبض عليهم، واعتقلهم.

وفي خلال ذلك استحكمت نفرةُ ابن الخَطِيب لِمَا يبلغه عن البِطانة من القَدْح فيه والسِّعايَة. ورُبَّما تَخيَّل أنَّ السُّلْطانَ مالَ إلى قَبولها، وأنَّهم قد أحْفَظوه عليه، فأجْمع التَّحوُّلَ عن الأنْدَلُس إلى المَغرب. واستأذن السُّلْطان في تفقّدِ الثُّغورِ الغَرْبيَّة. وسار إليها في لُمَّةٍ من فُرْسانه، ومعه ابنه عليّ الذي كان خالِصةً للسُّلْطان، وذهب لِطِيَّتِهِ، فلمَّا حاذى جَبَل الفَتْح، فُرْضَةَ المجازِ إلى العُدْوَة، / مال إليه وسَرَّحَ آذِنَهُ بين يديه، [281 أ] فخرج قائدُ الجبل لتلقّيه. وقد كان السُّلْطانُ عَبْدُ العَزِيز أوْعَز إليه بذلك وجهّز له الأُسْطول من حينه، فأجاز إلى سَبْتَة. وتلقَّاه ولاتُها بأنواع التَّكْرِمة وامتثال المراسم.

ثمَّ سار لقَصْد السُّلْطان، فقدمَ عليه سنةَ ثلاثٍ وسبعين بمُقامتِه من تِلِمْسان، فاهتزَّت له الدَّوْلَة. وأركَبَ السُّلْطانُ خاصَّته لتلقّيه، وأحلّه من مَجْلسه بمحلّ الأمن والغِبطة، ومن دولته بمكان التَّنويه والعزّة. وأخرج لوقته كاتِبَه أبا يَحْيَى ابن أبي مَدْيَن سفيراً إلى صاحب الأنْدَلُس في طَلَب أهله ووَلَده، فجاء بهم على أكمل حالاتِ الأمن والتَّكْرِمة.

[1][ووفّر السُلطانُ الجِرايةَ والأقطاع له ولبنيه ولَمن جاء من خُدَّامه ومن فُرسان الأنْدَلُس في جُمْلته، وأقام أيّاماً، ثمَّ طَلَب المسير إلى فاس، فأذِنَ له السُلطانُ في ذلك، فنزل بفاس، واستكثر من شراء الضِّياع، وتأنَّق في بناء المساكن واغتراس البَساتين.

ثمَّ لغَط المنافِسُونَ له بالأنْدَلُس في شأنه، وأغروا سُلْطانه بتتبّع[أ] عثراتِه وإبْدَاءِ ما كان كامناً في نفسه من سقطات دالّته وإحصاءِ مَعايبه. وشاع على ألْسنة أعدائه كلماتٌ منسوبةٌ إلى الزَّندقة؛ أحصوها عليه ونسيَها. ورُفعت إلى قاضي الحَضْرة

(أ) ظ، أ: يتتبع، والمثبت من ض

---

(1) أعاد ابن خلدون ترتيب خاتمة الفصل بالتقديم والتأخير والإضافة، فأثبتناه حسب ما جاء في نسخة أ، وما أصلحه في نسخة ض بخطه، ونص نسخة الأصل ظ كما يلي: "ثم لغط المنافِسُونَ له في شأنه وأغروا سُلْطانه يَتتبّع عثراته وإبْدَاء ما كان كامناً في نفسه من سقطات دالّته وإحصاءِ معايبه. وشاع على ألْسنة أعدائه كلماتٌ منسوبةٌ إلى الزَّندقة أحصوها عليه ونسيَها. ورُفعت إلى قاضي الحَضْرة أبي الحسن بن الحسن، فاسترعاها وسجّل عليه بالزندقة. وراجع صاحب الأنْدَلُس رأيه فيه. وبعث القاضي ابن الحسن إلى السُلْطان عَبْد العَزيز في الانتقام بتلك السّجلّات وإمضاء حكم الله فيه، فصمّ عن ذلك وأنِف لذمّته أنْ تُخْفرَ، ولجواره أنْ يُردّ؛ وقال لهم: هلّا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه؟ وأمّا أنا فلا يخلصُ إليه بذلك أحدٌ ما كان في جواري. ثم وفّر الجراية والأقطاع له ولبنيه و[لـ]ـمن جاء من فرسان الأنْدَلُس في جملته.

فلمّا هلك السُلْطان عَبْد العَزيز سنةَ أربع وسبعين ورجع بنو مَرين إلى المَغْرب وتركوا تِلِمْسان، سار هو في ركاب الوَزير أبي بكر بن غازي القائم بالدَّولَة، فنزل بفاس واستكثر من شراء الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنات. وحفظ عليه القائم بالدَّولَة الرسوم التي رسمها له السُلْطان المتوفى. واتَّصلت حاله على ذلك، إلى أنْ كان ما نذكر".

أبي الحسن بن الحسن، فاسترعاها وسجّل عليه بالزّندقة. وراجع صاحبُ الأنْدَلُس رأيه فيه. وبعث القاضي ابن الحسن إلى السُّلْطان عَبْد العَزِيز في الانتقام منه بتلك السّجلّات وإمضاء حُكْم الله فيه، فصمّ عن ذلك وأنِفَ لذمّته أنْ تُخْفَرَ، ولجِواره أنْ يُرَدَّ؛ وقال لهم: هَلَّا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه؟ وأمّا أنا فلا يخلص إليه بذلك أحدٌ ما كان في جِواري.

ولمَّا هَلَكَ السُّلْطانُ عَبْد العَزِيز سنةَ أربعٍ وسبعين، ورَجَع بَنو مَرِين إلى المَغْرب وتركوا تِلِمْسان، وقام بأمْر الدَّولة أبو بكر بن غازي وزير السُّلطان وكافل ابنه المبايَع له بعدَ مَهْلِكه، فاستخلص مكان ابن الخَطِيب، ورَفَعه، وقرَّبه، وحفظ عليه الرُّسومَ التي رَسَمها له السُّلْطان المتوفَّى، واتَّصلت حاله على ذلك، إلى أنْ كان ما نذكر].

[281 ب] / الخَبَرُ عن مَهْلِك السُّلْطان عَبْد العَزِيز، وبيعة ابنه السَّعيد، واستبداد أبي بكر بن غازي عليه، ورجوع بَني مَرِين إلى المَغْرب

كان السُّلْطانُ منذ أوّل نشأته قد أزمنت به الحُمّى بما أصابه من مَرض النُّحول، ولأجل ذلك تَجافى السُّلْطان أبو سالم عن احتماله مع الأبناء إلى رُنْدَة. ولمَّا شبّ، أَفَاقَ من مرضه وصَلُح بَدَنُه. ثمَّ عاوَدَه وَجَعُه في مثواه بتِلِمْسان(ا) وتزايد نُحوله.

(ا) ظ، ص: في تلمسان

ولمّا كَمُل الفَتْحُ، واستفحل[أ] الأمرُ، اشتدّ به الوجعُ، وصابَرَ المرضَ، وكتمه عن النّاس خشيةَ الإرْجاف، واضطرب مُعَسْكَره خارج تِلِمْسان للّحاق بالمَغرب.

ولمّا كان ليلةَ الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة أربعٍ وسبعين[ب] قَضى متودّعاً بين أهله وولده، ودسّ الحُرَمُ بالخبر إلى الوَزِير، فخرج على النّاس وقد احتمل مُحَمَّد السّعيد ابن السُّلْطان على كَتَده، فعزّى النّاس عن خليفتهم، وألْقى ابنه بين أيديهم، فازدحموا عليه باكين متفجّعين، يُعطونه الصَّفقةَ ويُقبّلُون يديه للبَيْعة، وأخرجوه إلى المَعَسْكَر.

ثمَّ أخرج الوَزِيرُ شِلْوَ السُّلْطان على أعْوادِه، وأنزله بفَساطيطه، وأيقظَ اللّيل بحراسةِ المُعَسْكَر، وأذّن في النّاس بالرّحيل، فخرجوا أفواجاً إلى المحلّة. ثمّ ارتحلوا لثلاثٍ، وأغَذُّوا السَّيْرَ إلى المَغرب، واحتلّوا بتازَى. ثم أغَذُّوا السَّيْرَ إلى فاس. واحتلّ ابن السُّلْطان بدار مُلْكه، وجلس للبَيْعة العامّة بقَصْره. وتَوافَت وُفودُ الأمصارِ ببَيْعاتِهم على العادة.

واستبدّ عليه الوَزِيرُ أبو بكر، وحَجَبه بقَصْره، وحَجَره عن التصرّف في شيءٍ من سُلْطانه، ولم يكن في سنّ التصرّف[1]. واستعمل على الجهات، وجلس بمَجْلس الفَصْل[ج]، واستقلّ[د] بأمر المَغْرب إبراماً ونَقْضاً، إلى أنْ كان ما نذكره.

(أ) ظ: واستعجل (ب) ص: وستين، وقد مرّ قبل قليل: أربع وسبعين. (ج) ظ: الفضل (د) ظ: واشتغل

(1) كان عمره أربع سنوات، وقد تزلّف لسان الدين ابن الخطيب له وللوزير أبي بكر بن غازي المستبد عليه، فألّف كتابه "أعمال الأعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام"، مبرّراً شرعيّة حُكم هذا الطفل: عُرفاً وتاريخاً. المقّري: نفح الطيب 5: 180، الناصري: الاستقصا 4: 60

الخَبَرُ عن استيلاء أبي حَمُّو على تِلِمْسان والمَغْرِب الأوْسَط

لمَّا فَصَل بَنو مَرِين من تِلِمْسان إثر مَهْلِكِ السُّلْطان عَبْد العَزِيز، واحتلّوا / [282 أ] بتَازَى؛ اجتمع المشيخةُ وعقدوا على تِلِمْسان لإبراهيم بن السُّلْطان أبي تاشِفِين؛ كان رَبِيَ في كفالة دولتهم منذ مَهْلِكِ أبيه، فآثروه بذلك لخلوصه. وبعثوه مع رَحُّو ابن منصور أميرِ عبيد الله [من][أ] المَعْقِل، وسَرَّحُوا معهما مَنْ كان بالمَغْرب من مَغْرَاوَة إلى وَطَن مَلِكهم بشَلَف[ب]. وعقدوا عليهم لعليّ بن هارون بن مِنْدِيل بن عبد الرّحمن وأخيه رَحْمُون، وانصرفوا إلى بلادهم.

وكان عطيّة بن موسى، مَوْلى أبي حَمُّو، قد صار إلى السُّلْطان عَبْد العَزِيز، وألحقه بجُمْلته وبِطانته. فلمّا هَلَكَ السُّلْطان، خرج من القَصْر واختفى بالبَلَد، حتّى إذا فَصَل بَنو مَرِين من مَعَسْكَرِهم ظاهر البَلَد، خرج من مَكان اختفائه وقام بدعوة مولاه أبي[ج] حَمُّو. واجتمع إليه شيعتُه من أهل البَلَد مع من تأَشَّبَ إليهم من الغَوْغاء. وحملوا الخاصَّة على البَيْعة لأبي حَمُّو، ووصلهم إبراهيم بن أبي تَاشِفِين مع رَحُّو بن منصور وقومه من عبيد الله، فنابذوه وامتنعوا عليه، فرَجَع عنهم إلى المَغْرب.

وطيّر أولادُ يَغْمُور[د] أولياء أبي حَمُّو من عبيد الله بالخبرِ إليه وهو بمَثواه من تِيكُوْرَارِين. واتَّصل الخبرُ بابنه أبي تَاشِفِين وهو بحِيٍّ بَني عامر، فبادَر إلى تِلِمْسان ودَخَلها ومَنْ معه من بَني عَبْد الوَاد، وتَساقَط إليه فُلُّهم من كلّ جانب.

(أ) ظ، ض: بن (ب) ظ، ض: لشلف (ج) في الأصول جميعها: أبو (د) ظ، ض: يعمور

ووَصَل السُّلْطانُ على إثْرِهم بعدَ اليأس منه، فدَخَلها في جُمَادَى من سنة أربعٍ وسبعين، واستقلَّ بمُلْكه، وتقبّض على بِطانته الذين آسفوه في اغترابه، ونُمِيَ له عنهم السَّعي عليه، فقَتَلهم، ورَجَع مُلْك بَني عَبْد الوَاد وسُلْطانهم.

ونَهَض إلى مَغْرَاوَة أولياء بَني مَرِين بمكانهم من شَلَف، فغَلَبهم عليه بعدَ مُطاولةٍ وحُروبٍ سِجال، هَلَك فيها رَحْمُون بنُ هارون. ومحا دعوةَ بَني مَرِين من ضَواحي المَغْرب الأوْسَط وأمْصاره[أ]، واستقلّ بالأمر[ب]، حسبما ذكرناه في أخباره.

واتَّصل [ج]*الخَبَرَ بالوَزير أبي بكر بن غازي، فهَمَّ بالنُّهوض إليه، ثمّ ثنى عزمَهُ ما كان من / خُروجِ الأمير عبد الرَّحمن[د] بناحية بَطُّويَة، فشغله شأنه عن ذلك. [282 ب]

الخَبَرُ عن إجازة الأمير عبد الرَّحمن بن أبي يَفْلُوسَنْ[هـ] إلى المَغْرِب، واجتماع بَطُّويَة إليه، وقيامهم بدَعْوته[و]

كان مُحَمَّد المَخْلُوع بن الأحْمر قد رَجَع من رُنْدَة إلى مُلْكه بغَرْنَاطَة في جُمَادَى من سنة ثلاثٍ وستّين [وسبعمائة][ز]، وقتل له الطَّاغِيَة عدوّه الرَّئيس المُنْتَزي على مُلكهم حين هرب من غَرْنَاطَة إليه، وفاءً بعَهْد المَخْلُوع، واستوى على كرسيه واستقلّ بمُلكه.

(أ) أ، ض: وأقطاره (ب) ص: بالإمرة (ج) من هنا حتى نهاية الفصل التالي ساقط من ض. (د) أ: الأمير بي
(هـ) ظ، ص: بويفلوسن (و) ص: بشأنه (ز) زيادة من أ وحدها

ولَحِقَ به كاتبُهُ وكاتبُ أبيه مُحَمَّد بن الخَطِيب؛ فاستخلصه، وعَقَد له على وزارته[أ]، وفوّض إليه في القيامَ بمُلكه، فاستولَى عليه ومَلَكَ هَواهُ. وكانت عينُهُ ممتدّةً إلى المَغرب وسُكناه[ب] إنْ نزلت به آفةٌ في رياسته، فكان لذلك يُقدّم السّوابق والوسائل عند مُلوكه.

وكان لأبناءِ السُّلطان أبي الحسن كلّهم غَيْرةٌ من وَلَد عمّهم السُّلطان أبي عليّ؛ [ينافِرُونهم][ج] ويخشونهم على أمرهم. ولمَّا لَحِق الأمير عبد الرَّحمن بالأنْدَلُس اصطفاهُ ابن الخَطِيب واستخلصه لنَجواه، ورَفَع في الدَّوْلَة رُتبته وأغلى منزلته، وحمل السُّلطانَ على أنْ عقد له على الغُزَاة المُجاهِدين من زَنَاتَة مكان بَني عمّه من الأغياص، فكانت له آثارٌ في الاضطلاع بها.

ولمَّا استبدّ السُّلطانُ عَبْدُ العَزيز بأمره واستقلَّ بمُلكه، وكان ابن الخَطِيب ساعياً في مَرْضاته عندَ سُلطانِه، فدسّ إليه باعتقال عبد الرَّحمن بن أبي يَفْلُوسَنْ[د] ووزيره المطارَد به مَسْعُود بن مَاسَايْ. وأدار ابن الخَطِيب في ذلك مَكْرَه، وحمل السُّلطانَ عليهما، إلى أنْ سَطا بهما ابنُ الأَحْمر واعتقلهما سائرَ أيّام السُّلطان عَبْد العَزِيز.

وتغيَّرَ الجوُّ بين ابنِ الأَحْمر ووزيرِه ابن الخَطِيب وأظْلَم، وتنكَّر له، فنزعَ عنه إلى عَبْد العَزِيز سُلْطانِ المَغْرب سنةَ ثنتَين وسبعين، لِمَا قدّم من الوسائل

(أ) ظ: وزرائه (ب) أ: إلى شكنى المغرب (ج) من أ وحدها (د) أ: بويفلوسن

ومحمد من السَّوابق، فتقبّله(أ) السُّلطان، وأحلّه من مَجلسه محلَّ الاصطفاء والقُرب(ب). / وخاطب ابنَ الأَحْمر في أهله ووَلَده، فبعثهم إليه واستقرّ في جُمْلة السُّلطان. [1283]

ثمّ تأكّدت العَداوةُ بينه وبين ابن الأَحْمر، فرَغّب السُّلطانَ في مُلْك الأَنْدَلُس، وحملوا(ج) عليه، وتَواعدوا لذلك عندَ مَرْجِعه من تِلِمْسان إلى المَغْرب.

ونُمِيَ ذلك إلى ابن الأَحْمر، فبعث إلى السُّلطان بهديّةٍ [فاخرة](د) لم يُسْمع بمثلها، انتقى فيها من مَتاع الأَنْدَلُس وماعُونها وبِغالها الفارِهة ومَغْلُوجَى السَّبْي وجواريه، وأوْفَدَ بها رُسُلَه يطلبُ إسْلامَ وزيره ابن الخَطِيب إليه، وأبَى السُّلطان من ذلك ونَكِرَهُ.

ولَمَّا هَلَكَ واستبدّ الوَزِيرُ ابنُ غازِي(هـ) بالأمر، تحيّز إليه ابنُ الخَطِيب وداخَلَه، وخاطَبه ابنُ الأَحْمر فيه بمثل ما خاطَبَ السُّلطان، فلجَّ واستنكف عن ذلك وأقبح الرَّدّ. وانصَرف رسولُه إليه، وقد رهبَ سَطْوَتَه، فأطْلق ابنُ الأَحْمر لحينه عبد الرَّحمن بنَ أبي يَفْلُوسَنْ، وأرْكبه الأُسْطُول، وقذَف به [إلى](و) ساحل بَطُّويَة *ومعه الوزير مسعود بن مَاسَايْ*(ز). ونَهَض إلى جَبَل الفَتْح، فنازله بعساكره.

ونزل عبد الرَّحمن ببَطُّويَة في ذي القَعْدَة من سنةِ أربعٍ وسبعين ومعه وزيرُه

(أ) ظ: قبله له، أ: فقبله، والمثبت من ص (ب) ساقطة من أ (ج) أ: وأغراه به وتواعدوا، ص: وحمله عليه (د) زيادة من أ وحدها (هـ) ظ، أ، ص: غاز (و) ظ: في (ز) سقط ما بين النجمين من ص

مَسْعُود بن ماسَايْ، فاجتَمع قبائلُ بَطُّويَة إليه وبايَعوه على القِيام بدَعْوته والموتِ دونَه.

واتَّصل الخَبَرُ بالوَزِير أبي بكر، فعَقَد لابنِ عمّه مُحَمَّد بن عُثْمان على سَبْتَة، وبعثه لسدّ ثغورها لمَّا خَشِيَ عليها من ابنِ الأَحْمر. ونَهَض من فاس بالعَسَاكر والآلة. ونازَلَ عبد الرَّحمن ببَطُّويَة، فامتنع عليه وقاتَلَهُ أيَّامَاً، ثمَّ رجع إلى تازَى ثمَّ إلى فاس. ودخل الأميرُ عبد الرَّحمن تازَى واستولى عليها، ودخل الوَزِيرُ إلى فاس وقَعد بمَجْلِس الفصْل[أ]، وهو مُجْمِعٌ العودةَ إلى تازَى لتَشْريد عدُوّه، إلى أنْ جاءَه الخَبرُ ببَيْعة السُّلْطان أبي العبَّاس أحمد بن السُّلطان أبي سالم، حسبما نذكره[ب].

الخَبَرُ عن بَيْعة السُّلْطان أبي العبَّاس أحمد بن أبي سالم، واستقلاله بالمُلْك، وما كان خلال ذلك من الأحْداث

[283 ب] / لمَّا نزل مُحَمَّد بنُ عُثْمان بالثَّغر من سَبْتَة[ج] لسدّ فرجها، ومُدافعة ما يخشى من عادية ابنِ الأَحْمر عليها، وكان قد طاوَلَ حصارَ جَبَل الفَتْح وأخذ بمُخَنَّقِه. وتكرّرت المُراسلةُ بينه وبين مُحَمَّد بن عُثْمان بالعِتاب، فاسْتعتب له، وقبحّ ما جاء به ابنُ عمّه من الاستغلاظ له، فوَجَد ابنُ الأَحْمر بذلك السَّبيل إلى غَرَضه. وداخَلَه في البَيْعة لابنِ السُّلْطان أبي سالم، من الأبناء الذين كانوا بطَنْجَة تحت الرِّقْبة والحَوْطَة، وأنْ

(أ) ظ، ص: النفصل (ب) هنا ينتهي سقط نسخة ض (ج) ظ: من سته

يقيمه للمسلمين سُلطاناً مُستبدّاً يحُوطُ سِياجَهم ويُدافع عنهم، ولا يتركهم فوضى وهملاً، وتحت بَيْعة الصَّبيّ الذي لم تنعقِدَ بيعتُهُ شرعاً.

واختصّ[أ] [ولد السُّلطان أبي سالم][ب] من بين أولئك الأبناء [وفاءً][ج] بحُقوق أبيه، ووعده بالمظاهرة على ذلك، واشترط عليه أنْ ينزلوا له عن الجبلِ اذا انعقد أمرُهم، ويُشخِصُوا إليه بقيّةَ الأبناء والقَرابة من طَنْجَة ليكونوا في إيالته[د] وتحتَ حَوْطته، وأنْ يبعثوا إليه بابن الخَطِيب متى قدروا عليه، فتقبّل مُحمَّد بنُ عُثمان شَرْطَه. وكان سفيرُه في ذلك أحمد الرُّعَيْنيّ من طَبقَة كُتّاب الأشغال بسَبْتَة، كان السُّلطان أبو الحسن تزوَّج أمّه ليلة إجازَتِه من واقعة طَرِيف وافْتقاده حظَاياهُ، حتّى لَحِقَ به الحُرَمُ من فاس، فردّها إلى أهلها. ونشأ الرُّعَيْنيّ في تَوهُّم هذه الكفالة، فانتفخ سَحْرُهُ[1] لذلك، ويحسبُها وُصْلةً إلى أبناء السُّلطان أبي الحسن. وكان سفيراً بين مُحمَّد بن عُثمان وابن الأَحْمر، فأمّل رِيَاسَةً في هذه الدَّوْلَة.

وركب مُحمَّد بنُ عُثمان من سَبْتَة إلى طَنْجَة، وقصد مكانَ اعتقالهم، واستدعى أبا العبَّاس أحمد ابنَ السُّلطان أبي سالم من مَكانِه مع الأبناء، فبايعَ له، وحمل النَّاسَ على طاعته، واستقدم أهل سَبْتَة بكتاب البَيْعة، فقَدِموا، وخاطَب أهلَ الجبل؛ فبايعوا، وأفرج ابن الأَحْمر عنهم.

(أ) المقصود: اختصّ ابن الأحمر (ب) ظ: واختص هذا السلطان، ص: واختص هنا بالسلطان، ومثله في ض فأصلحها في الهامش بخطه. وفي أزهار الرياض 1: 226: "لما سبق بينه وبين أبيه أبي سالم من الموالاة". (ج) ظ، ص: سالي؟ (د) ظ: إيالته

---

(1) السَّحْرُ والسَّحَرُ والسُّحْرُ: ما التزق بالحلقوم والمريء من أعلى البطن، ويقال للجبان: قد انتفخ سَحْرُه، ويقال أيضاً لمن تعدّى طوره. لسان العرب، مادة: سحر

وبعث إليه مُحَمَّد بن عُثْمان عن سُلْطانه بالنُّزول له عن جَبَل الفَتْح، وخاطبوا أهْلَه بالرُّجوع إلى طاعته، فارتحل من مَالَقَة إليه، ودَخَله(أ) واستولى عليه، ومحا دعوةَ بَني مَرِين ممَّا وراءَ البَحْر. وأهدى للسُّلْطان أبي العبَّاس، وأمدَّهُ بعَسْكَر من غزاة الأنْدَلُس، وحمل / إليه مالاً للإعانة على أمره. [284 أ]

وكان مُحَمَّد بن عُثْمان عندَ فُصولِه من فاس، وودَاعه الوَزِيرَ ابن عمّه، وفاوضه في شأن السُّلْطان، وأنْ يقَدّم للنَّاس(ب) إماماً يرجعون إليه ويترك لهم أمرهم، ووامَره في ذلك، ولم يفترَقا على مُبْرَمٍ من أمرهم. فلمَّا ارتكب هذا المرتَكَب وجاء بهذا الأمر، خاطَب الوَزِير يُمَوهُ عليه بأنَّه فَعَل بمُقتضى المؤامَرة، وأنَّه عن إذنه، والله أعلمُ بما دَارَ بينهما. ولجَّ الوَزِيرُ في تكذيبه والبراءة للنَّاس ممَّا رُمي به، ولاطفه في نَقْض ذلك الأمر، وردّ أبي العبَّاس إلى مكانه مع الأبناء تحت الحَوْطة. وأبَى مُحَمَّد بن عُثْمان من ذلك، ودافعه باجتماع النَّاس عليه وانعقاد الأمر.

وبينما الوَزِيرُ يرومُ ذلك، جاءه الخَبَرُ بأنّ مُحَمَّد بنَ عُثْمان أشْخَص الأبناء المعتقَلِين كلَّهم إلى الأنْدَلُس، وأنَّهم حصلوا في كفالة ابن الأحْمر، فوجَمَ وأعْرَض عن ابن عمّه وسُلْطانه. ونهَض إلى تَازَى ليفرغَ من عدوّه إليهم، فنازله الأميرُ عبد الرَّحمن وأخذ بمُخَنَّقِه.

واهْتَبَل مُحَمَّد بنُ عُثْمان الغِرَّة في مُلك المَغْرب، ووصله مددُ السُّلْطان ابن

(أ) ظ: ودخل (ب) أ: للسلطان

الأحْمر وعَسْكَره تحت رايته، عقدها عليهم ليوسُف بن سُلَيمان بن عُثْمان بن أبي العُلَى من مَشيخة الغُزَاة[1] المُجاهِدين، وعَسْكَرٌ آخر من رَجْل الأنْدَلُس النَّاشِبة يُناهزون سبعمائة. وبعث ابنُ الأحْمر رُسُلَه إلى الأمير عبد الرَّحمن باتِّصال اليَد بابنِ عمّه السُّلْطان أبي العبَّاس أحمد، ومُظاهرته على مُلْك سَلَفه بفاس واجتماعها لمنازلتها. وعقد بينهما الاتِّفاق والمواصلَةَ، وأنْ يختصّ عبدُ الرَّحمن بمُلْك سَلَفه؛ فتراضيا. وزحف مُحَمَّد بن عُثْمان وسُلْطانه إلى فاس؛ خالَفوا إليها الوَزِيرَ، وانتهضوا إلى قَصْر ابنِ عبد الكريم. وبلغ الخَبَرُ إلى الوَزِير بمكانه من حِصار تَازَى، فانفضّ معَسْكَره، ورَجَع إلى فاس، ونَزل بكُدْيَة العَرائِس.

وانتهى السُّلْطانُ أبو العبَّاس أحمد إلى زَرْهُون، فصَمَد إليه الوَزِيرُ بعَساكره وصمّم نحوه بمكانِه من قُنَّةِ الجبل، فاختلَّ مَصَافّهُ، وانهزمتْ ساقةُ(أ) العَسْكَر من ورائه، ورَجَع على عَقِبه مَفْلولاً، وانتُهِبَ المَعَسْكَر / ودخل إلى البَلَد الجَدِيد. وجاءَ [284 ب] بالعَرَب(ب) من أولاد حسين أنْ يُعَسْكروا له بالزَّيتُون ظاهرَ فاس، ويخرجَ بجُموعه إلى حِلَلِهم، فنَهَض إليهم الأميرُ عبد الرَّحمن من تَازَى فيمَن كان معه من العَرَب الأحلاف، وشرَّدهم إلى الصَّحْرَاء.

وشارَفَ السُّلْطان أبا العبَّاس [أحمد](ج) بجُموعِه من العَرَب(د) وزَنَاتَة، وبعثوا إلى

(أ) ظ، ص: شاقة (ب) ظ، ص: بالمغرب، والمثبت موافق لأزهار الرياض (ج) ساقطة من ظ (د) ظ، ص: الغرب

(1) انظر التعليق على منصب شيخ الغزاة فيما تقدم ص 253.

وليّ سَلَفهم وَنَزْمَار بن عَريف بمكانِه من قَصْر مرادة الذي اختطّه بمُلوِيَّة، فجاءهم، وأطْلعوه على كامِن أسرارهم، فأشار عليهم بالاجتماع والاتّفاق، فاجتمعوا بوادي النَّجَا. وحضر لعقدهم واتّفاقهم، وحلَّفهم على اتّصال اليد على عدّوهم ومنازلته بالبَلَد الجَدِيد، حتّى يُمكّن [الله][أ] منه. وارتحلوا بزحفهم إلى كُدْيَة العَرائِس في ذي القَعْدَة من سنة خمس [وسبعين][ب]، وبرز إليهم الوَزِيرُ بعساكره، فدارت الحربُ، وحَمِي الوطيسُ، واشتدّ القتال مليّاً.

ثمّ زحف إليه العَسْكَران بساقتِها وآلتِها، واختلّ مَصَافّهُ، وانهزمتْ جُموعه وأُحِيطَ به، وخلص إلى البَلَد الجَدِيد بعد عَضِّ الرِّيق. واضطربَ السُّلْطانُ أبو العبَّاس مُعَسْكَره بكُدْيَة العَرائِس، ونزل الأميرُ عبد الرَّحمن بإزائه، وضربوا على البَلَد الجَدِيد سِياجاً بالبناءِ للحِصار، وأنزلوا بها أنواعَ القتال والإرْهاب.

ووَصَلهم مَدَدُ السُّلْطان ابنِ الأَحْمر من [الرَّجْل][ج] النَّاشبة لحصارها، واحتكموا في ضِياع ابن الخَطِيب بفاس، فهَدَموها وعاثوا فيها.

ولمَّا كان فاتح سنة ستٍّ[1] داخَلَ مُحَمَّدُ بنُ عُثمان ابنَ عَمِّه أبا بكر في النُّزُول عن البَلَد الجَدِيد والبَيْعة للسُّلْطان، لمَّا كان الحصار قد اشتدّ به ويئس من الصَّريخ وأعْجزه المال، فأجاب. واشترط عليهم الأمير عبد الرَّحمن التَّجافي له عن أعمال مَرَّاكُش،

(أ) ظ، ص: إليه (ب) ظ، أ، ص: وستين، والمثبت من ض، وموافق لأزهار الرياض 1: 228 (ج) ظ، ص: الرجال

(1) أزهار الرياض: فاتح ست وسبعين

وأنْ [يُديلُوه][(أ)] بها من سِجِلْمَاسَة، فعَقدوا له على كُرْهٍ وطَوَوْا على المكر.

وخرج الوَزِيرُ أبو بكر إلى السُّلْطان أبي العبَّاس أحمد وبايعه، واقتضى عَهْدَه بالأمان وتَخْلِية سبيلِه من الوِزارَة؛ فبذله.

ودخل السُّلْطانُ أبو العبَّاس إلى البَلَد الجَدِيد سابعَ[(ب)] المُحرَّم. وارتحل الأميرُ عبدُ الرَّحمن يومئذٍ إلى مَرَّاكُش واستولى عليها، وارتحل معه عليّ بنُ عُمَر بن ونِعلاَن شيخُ بَني مَرِين والوَزِيرُ ابن مَاسَايْ، ثمَّ نزع عنه ابنُ مَاسَايْ إلى فاس لعَهْدٍ كان اقتضاهُ من السُّلْطان / أبي العبَّاس، وأجاز البَحرَ إلى الأنْدَلُس فاستقرّ بها في إيالة [285أ]
ابن الأحْمر.

و[استقلّ][(ج)] السُّلْطانُ أبو العبَّاس ابنُ السُّلْطانِ أبي سالم بمُلْك المَغْرب،ووزيره مُحَمَّد بن عُثْمان بن الكاس، وفوَّض إليه شؤونه، وغَلَب[(د)] على هَواه. وصار أمرُ الشُّورَى إلى سُلَيمان بن داود؛ كان نزع إليهم من البَلَد الجَدِيد من جُمْلة أبي بكر بن غازي[(هـ)] بعد أنْ كان أطْلقه من مَحْبِسه واسْتخلصه، وجعل إليه مَرْجِع إبْرامه ونقضه، فتركه أحوجَ ما كان إليه، ولَحِق بالسُّلْطان أبي العبَّاس بمكانِه من حِصار البَلَد الجَدِيد.

فلمَّا اسْتوْسَقَ مُلْكُه ألْقَى الوَزِيرُ مُحَمَّد بن عُثْمان إليه بمَقاد الدَّوْلَة، وأصار إليه أمرَ الشُّورَى ورِياسة المشيخة. واستحكمت المودّةُ بينهم وبين السُّلطانِ ابن الأحْمر،

(أ) ظ، ص: يدبئوه (ب) أ، ض: فاتح، والمثبت موافق لما في أزهار الرياض 1: 229 (ج) ظ: واشتغل (د) أ: وغلبه
(هـ) في الأصول الأربعة: غاز

وتأكّدت المُداخَلةُ، وجعلوا إليه المرجع في نَقْضِهم وإبْرامِهم لمكان الأبناءِ المُرشَّحين من إيالته.

ولمَّا ارتحل الأميرُ عبد الرَّحمن إلى مَرَّاكُش نبذوا إليه العَهْد، وتَعَلَّلوا عليه بأنّ العقدَ الأوّل له، إنّما كان على مُلْكِ سَلَفه [بسِجِلْمَاسَة وأعْمالها، وأمّا][أ] مَرَّاكُش فإنّما ألجأهم إلى العَقْد له عليها إلْجاءٌ. واعتزموا على النُّهوض إليه، ثمَّ أقْصروا وانعقدت بينهما السِّلْم سنة ستٍّ وسبعين[ب]، وجعلوا التَّخْم بينهما أزْمُّور، وعقدوا على ثَغرها لحَسُّون ابن علي الصُّبَيْحيّ، فلم يزل عليها إلى أنْ هَلَك، كما نذكره[ج].

الخَبَرُ عن مَقْتَل ابن الخَطِيب[د]

ولمَّا استولى السُّلْطانُ أبو العبَّاس على البَلَد الجَدِيد دارِ مُلْكه، فاتحَ ستٍّ وسبعين، واستقلّ بسُلْطانه، والوَزيرُ مُحمَّد بن عُثْمان مُستبدٌّ عليه، وسُلَيْمانُ بن داود بن أعْرَابُ كبيرُ بني عَسْكَر رديفٌ له، وقد كان الشّرط وَقَع بينه وبين السُّلْطان ابن الأحْمر عندما بُويع بطَنْجَة على نَكْبَة ابنِ الخَطِيب وإسْلامه إليه، لِمَا نُمِيَ إليه عنه أنَّه كان يُغْرِي السُّلْطان عَبْدَ العَزِيز بمُلك الأنْدلُس.

فلمَّا زحف السُّلْطانُ أبو العبَّاس من طَنْجَة ولَقِيه أبو بكر بن غازي[هـ] بساحة البَلَد الجَدِيد، فهزمه / السُّلْطانُ ولاذ منه بالحِصار، أوى معه ابنُ الخَطِيب إلى البَلَد الجَدِيد خوفاً على نفسه. [285 ب]

(أ) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، ص، والمثبت من أ وهامش ض إصلاحاً بخطه (ب) ظ، أ، ض: وستين (ج) بعدها في ض إشارة مخرج إلى ناحية اليمين ولا وجود لنص يقابلها، ولعله تنبيه لطيارة مُفردة. (د) أخّر هذا الفصل في نسخة أ إلى ما بعد الفصل الذي يليه، وسقط من ص، ض (هـ) ظ، أ: غاز

فلمّا استولى السُّلْطانُ على البَلَد، أقام أيّاماً، ثمّ أغراه سُلَيمان بن داود بالقَبْض عليه، فقبَضوا عليه وأوْدعوه السّجنَ، وطيّروا بالخبر إلى السُّلْطان ابن الأحْمر.

وكان سُلَيمان بنُ داود شديدَ العَداوة لابن الخَطِيب بما كان سُلَيمان قد بايعَه السُّلْطانُ ابن الأَحْمر على مَشيخة الغُزَاة بالأنْدَلُس متى أعادهُ الله إلى مُلكه. فلمّا استقرّ له سُلْطانه أجاز إليه سُلَيمان سَفيراً عن عُمَر بن عَبْد الله ومُقْتَضياً عَهْده من السُّلْطان، فصدَّهُ ابن الخَطِيب عن ذلك بأنّ تلك الرّيَاسَة إنّما هي لأعْياص المُلْك من بَني عبد الحَقّ، لأنّهم يَعْسُوب زَنَاتَة، فرجع سُلَيمان آيساً، وحقد ذلك لابن الخَطِيب.

ثمّ جاورَ[أ] الأنْدَلُس بمحلّ إمارته من جَبَل الفَتْح، فكانت تقعُ بينه وبين ابن الخَطِيب مُكاتَباتٌ يتنفّس كلٌّ منهما لصاحبه بما يُحْفِظه لما كَمَن في صُدورهما.

وحين بلغ خبرُ القَبْض على ابن الخَطِيب إلى السُّلْطان، بعث كاتِبَهُ ووزيرَه بعد ابن الخَطِيب، وهو أبو عَبْد الله بن زَمْرَك، فقَدِم على السُّلْطان أبي العبّاس، وأُحضر ابنُ الخَطِيب بالمِشْوَرِ[1] في مَجلس الخاصّة وأهل الشُّورَى، وعُرض عليه بعض

(أ) ظ: جاوز، وفي أزهار الرياض: جاوز الأندلس لمحل إمارته ...، ولعل المثبت أقرب للصواب

(1) المشور: مكان معدّ لمجلس أهل الشورى، وقد وصف ابن خلدون المشور المبتّى لعهده في قصيدة نونية أنشدها في حضرة أبي الحجاج سنة 764هـ، نقلها ابن الخطيب (الإحاطة 3: 515) عند ترجمته له؛ قوله:

يا مصْنعاً شُيِّدت منه السعود حمىً ... لا يطْرُق الدهر مبناه بتوهين
صرحٌ يحار لديه الطَّرْفُ مُفْتِتَناً ... فما يروقك من شكل وتلْوين
بُعْداً لإيوان كسرى إنّ مِشْوَرَك السـ ... ـامي لأعظم من تلك الأواوين

كلماتٍ وقعتَ له في كتابه[1]، عظُم عليه النَّكِير فيها، فوُبِّخ ونُكِّل، وامتُحِن بالعَذاب بمشهدِ ذلك الملإ، ثمَّ تُلَّ إلى مَحْبِسه، واشتَوَرُوا[2] في قَتْله بمُقتضى تلك المقالات المسجَّلة عليه[3]، وأفتَى بعضُ الفُقهاء فيه.

ودَسَّ سُلَيمان بنُ داود لبعض الأوْغاد من حاشيته بقَتْله، فطرقوا السِّجنَ ليلاً ومعهم زَعَانِفَةٌ جاؤوا في لَفِيف الخدَم مع سُفَراء السُّلْطان ابن الأحْمر، وقتلوه خَنْقاً في مَحْبِسه، وأُخْرِجَ شِلْوُه من الغد، فدُفن بمقبرة باب المَحْرُوق[4]، ثمَّ أصبح من الغد على شافةِ قبره طريحاً، وقد جُمِعَتْ له أعوادٌ وأُضرِمتْ عليه ناراً، فاحترق شَعَره، واسودّ بشَره، فأُعيد إلى حفرته، وكان في ذلك انتهاءُ محنته.

وعَجِب النَّاسُ من هذه الشَّنْعاء التي جاء بها سُلَيمان / واعتدّوها من هَنَاتِهِ، [286 أ] وعَظُم النَّكيرُ فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته. والله الفعَّال لِمَا يُريد.

وكان ـ عفا الله عنه ـ أيَّامَ امتحانِه بالسِّجن يتوقَّع مصيبةَ الموت، فتجيش هواتفُهُ

---

(1) في نفح الطيب 5: 111 وأزهار الرياض 1: 230: كتابه في المحبة، والمقري ينقل في كليهما كلام ابن خلدون.

(2) أي: تشاوروا

(3) هي ما اتُّهم به من الزندقة وسلوك مذهب الفلاسفة.

(4) حدّد المقريّ موضع قبر ابن الخطيب وزاره مراراً، يقول: "وقد زرته مراراً بفاس المحروسة فوق باب المدينة الذي يقال له: باب الشريعة، وهو يسمى الآن باب المحروق. وشاهدت موضع دفنه غير مستوٍ مع الأرض، بل يُنزل إليه بانحدار كثير. ويزعم الجلّ من عوام فاس أن الباب المذكور إنما سمي باب المحروق لأجل ما وقع من حرق لسان الدين به ... وليس كذلك، وإنما سمي باب المحروق في دولة الموحِّدين قبل أن يوجد لسان الدين ولا أبوه؛ بسبب ثائر ثار على الدولة فأُمسك وحُرق في ذلك المحل". نفح الطيب 5: 156، وانظر أيضاً: ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى 63

بالشّعر يبكي نفسَه، وممّا قال في ذلك[1]: [من المتقارب]

بَعُـدْنـا وإنْ جاورَتْـا البُيُـوتْ ... وجئنـا لِوَعْـدٍ[أ] ونحـن صُمُـوتْ
وأنفاسُنـا سكنَـتْ دَفعـةً ... كَجَهـرِ الـصَّلاةِ [تـلاهُ][ب] القُنـوتْ
[ومـدَّت وقـد أنكرتْـا الثيـابُ ... علينـا نـسائجها العنكبـوتْ][ج]
وكُنّـا عِظامـاً فصِـرْنا عِظامـاً ... وكُنّـا نَقُـوتُ فهـا نحـنُ قُـوتْ
وكُنّـا شمـوسَ سمـاءِ العُـلا ... غَـرُبْنَ فناحـتْ علينـا الـسُّموتْ
[ومَـنْ كـان مُنتظـراً للـزَّوالِ ... فكيـف يُؤَمَّـل منـه الثّبـوتْ؟!][د]
فكـم جدَّلَـتْ ذا الحُسَام الظُّبـا ... وذو البُخـتِ كم خذّلتـه[هـ] البُخـوتْ!
وكـم سِيـقَ للقبـر فـي خِرْقـةٍ ... فـتىً مُلِئـتْ مـن كُساه التُّخـوتْ
فقُـلْ للعِـدى: ذَهَـبَ ابـنُ الخَطيـبِ ... وفـاتَ؛ ومَـنْ[و] ذا الذي لا يفـوتْ
ومَـنْ كـان يفـرحُ منهـمْ لـهُ ... فقُـلْ: يفـرحُ اليـومَ مَـنْ لا يمـوتْ
[سَيَبْلَـى الجديـدُ إذا مـا المـدَى ... تتـابع آحـادُه والـسُّبوتْ
ولا تغتـرِرْ بسَـرابِ الحيـاةِ ... فإنّكَ عمّـا قريـبٍ تمـوتْ][ز]

(أ) النفح وأزهار الرياض: بوعظ (ب) ظ: صلاة (ج) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (د) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (هـ) كذا في ظ، أ وفي نفح الطيب وأزهار الرياض: جدّلته (و) أ: فمن (ز) سقط ما بين الحاصرتين من ظ. وقال ابن حجر العسقلاني (الدرر الكامنة 3: 473) بعد أن أورد بيتين من القصيدة: "ذكر الشيخ محمد القصباتيّ أن ابن الأحمر وجّهه رسولاً إلى ملك الفرنج، فلما أراد الرجوع، أخرج - الملك - له كتاباً من ابن الخطيب بخطّه يشتمل على نظم ونثر في غاية الحسن والبلاغة، فاقرأه إيّاه؛ فلما فرغ من قراءته، قال له: مثل هذا يُقتل؟!، وبكى حتّى بلّ ثيابه!". وأورد المقّريُّ هذه الحكاية في نفح الطيب 5: 112

(1) أورد المقّريّ أبيات ابن الخطيب نقلاً عن ابن خلدون - باستثناء الزيادات التي أوردتها نسخة أ - في كتابيه: نفح الطيب 5: 111، وأزهار الرياض 1: 231، والزيادات المذكورة وردت في تخميس لبعض بني الصباغ على القصيدة، وذكر المقّري أنها تُشبه نَفَس ابن الخطيب ورجّح أنّ ابن خلدون اختصرها. انظر: نفح الطيب 5: 113، أزهار الرياض 1: 232، 234

الخَبَرُ عن إجازة سُلَيمان بن داود إلى الأندلُس ومُقامه بها إلى أن هَلَك

كان سُلَيمان بنُ داود هذا منذ عضّته الخطوبُ واختلفت عليه النَّكباتُ، يرومُ الفِرارَ بنفسه إلى الأندَلُس، للمُقامة مع الغُزَاة المُجاهِدين من قومه.

ولمَّا استقرَّ السُّلطانُ ابنُ الأحمر بفاس، عندَ خَلْعِه ووِفادته على السُّلطان أبي سالم سنةَ إحدى وستّين، داخَلَه سُلَيمان بن داود في تأمِيل الكَون عنده، فعاهَدَه على ذلك، وأنْ يقدّمه على الغُزَاة المُجاهِدين. فلمّا عاد إلى مُلكه، وفدَ عليه سُلَيمان بن داود بغَرْنَاطَة في سبيل السّفارة عن عُمَر بنِ عَبْد الله سنة ستٍّ وستّين، وأنْ يؤكِّد عقده من السُّلطان، فحال دونَ ذلك ابن الخَطِيب، وثنى رَأيَ السُّلطان عن ذلك بأنّ شِياخةَ الغُزَاة مخصوصةٌ بأعْياص الملك من بَني عبد الحَقّ، لمكان عِصابتهم بالأندَلُس، فأخفق أملُ سُلَيمان حينئذٍ، وحقدها على ابن الخطيب، ورَجَع إلى مُرسِله.

ثمّ كانت نكبتُه أيّامَ السُّلطان / [286 ب] عَبْد العَزِيز، فلم يخلص منها إلاّ بعدَ مَهْلِكه؛ أطلقه أبو بكر بنُ غازي[أ] المُستبدُّ بالأمر من بعده، ليعضدَ[ب] بمكانه على شأنه.

فلمَّا اشتدَّ الحصارُ على ابن غازي[ج]، خرج عنه سُلَيمان، ولَحِق بالسُّلطان أبي العبَّاس ابن المولى[د] أبي سالم بمكانِه من ظاهر البَلَد الجَدِيد، فكان ذلك من أسباب الفَتْح.

ولمَّا دَخَل السُّلطانُ إلى دارِ مُلكه من البَلَد الجَدِيد فاتحَ سنة ستٍّ وستّين واستوسَقَ أمره، رفع مجلسَ سُلَيمان وأحلّه محلَّ الشُّورَى، واعتضدَ به وزيره مُحَمَّد

(أ) في الأصول الأربعة: غاز (ب) أ: ليعتضد (ج) في الأصول الأربعة: غاز (د) طمست في أ

ابن عُثْمان واستخلصه، كما ذكَرْناهُ، وكان يرجع إلى رأيه، وهو في خلال ذلك يحاول اللَّحاقَ بالأنْدلُس، فكان من أوّل عَملِه التّقرُّبُ إلى السُّلْطان ابن الأحمر، بإغراءِ الوَزِير مُحمَّد بن عُثْمان بقَتْل ابن الخَطِيب مَشْنُوئِهِ، فتمّ ذلك لأوّل الدَّوْلَة. وجَرَت الأمورُ بعدَها على الاعتمال في مَرْضاته إلى أنْ حاول السّفارةَ إليه في أغراض سُلْطانه سنة ثمانٍ وستّين وفي صَحَابةِ وَنْزَمَار بن عَريف، فتلقّاهُما السُّلْطانُ ابن الأحْمر بما يتلقّى به أمثالهما، وغرب[أ] في تَكْرِمتهما. فأمّا وَنْزَمَار فانقلب راجعاً لأوّل تأدية الرّسالة، اقتضى من السُّلْطان خطّه لقوّاد أُسطُوله بتسهيل الإجازة له متى رامها. وخرج يتصيّد، فلَحِق بمَرْسى مَالَقَة، ودَفَع أمرَ السُّلْطان بخطّه إلى قائد الأُسْطُول، فأجازَه إلى سَبْتَة، ولَحِق بمكانِه. وأمّا سُلَيمان، فاعتَزمَ على المقامَ عندَ ابنِ الأحْمر، وأقام هُنالِك خالِصةً ونَجِيّاً ومُشَاوَراً، إلى أنْ هَلَكَ سنةَ إحدى وثمانين[ب].

الخَبَرُ عن شأنِ الوَزِير أبي بكر بن غازي[ج]، وما كانَ من تغريبه إلى مَيُورْقَة، ثمّ رُجوعه، وانتقاضِه بعد ذلك، ومَهْلِكه

لمّا اشتدّ الحصارُ بالوَزِير أبي بكر بن غازي[د]، وفنِيَتْ أموالُهُ وأموالُ السُّلْطان، وظنَّ أنّه أُحيط به، داخَلَه الوَزِيرُ مُحمَّد بن عُثْمان من مكانِهم بِحِصارِه في النُّزُول عن البَلَد على الأمان والإبقاء؛ فأجاب. وخرج إلى السُّلْطان أبي العبّاس بن أبي سالم،

(أ) أ، ص، ض: وعرب، والغَرْبُ: النشاط والتمادي في الأمر. لسان العرب، مادة: غرب. (ب) كتب في ص: "عند فراغنا من هذا التأليف، والله وارث الأرض ومن عليها"، ثم شطبه (ج) ظ، ص، ض: غاز (د) ظ، ص، ض: غاز

[287 أ] فعقَد له أماناً بخطّه، وتحوّل إلى دارِه بفاس. وأسْلم سُلْطانَه / المنصوبَ للأمر، فتسلّمه منه الوَزِيرُ مُحَمَّد بن عُثْمان، واشتدَّ في الاحتياط عليه، إلى أنْ بعثه إلى السُّلْطان ابنِ الأَحْمر، فكان في جُمْلة الأبناء عنده.

ودخلَ السُّلْطانُ أبو العبَّاس إلى دارِ مُلكه، واقتعدَ سَريرَه، ونفذَت في المَمالك أوامرُه. وأقام أبو بكر بن غازي[أ] على حالِه بدارِه، والخاصَّةُ يُباكرونه، والنُّفوسُ مُنطويةٌ على تأمِيله، فغصّ به أهلُ الدَّوْلَة، وتردّدت فيه السِّعايَة. وتقبَّض عليه السُّلْطانُ، وأشخصه إلى غَسَاسَةَ، ورَكِب منها السُّفِين إلى مَيُورْقَةَ آخرَ سنة ستٍّ وسبعين، فأقام بها أشهراً، ومُخاطباتُه متردِّدة إلى الوَزِير مُحَمَّد بن عُثْمان.

ثمَّ عطفته عليه رَحِمٌ، فأذِن له في القُدومِ على المَغْرب والمقامة بغَسَاسَة، فقَدِمها أوائلَ سنة سبعٍ، واستبدَّ بإمارَتِها. وبدا له رأيٌ في تأميل الرُّتبة، وظهر ما كان يُخفيه لابن عَمِّه من المنافسة، فخاطب السُّلْطان ابن الأَحْمر من وراء البَحْر، ولاطَفه بالتُّحف والهدايا، فكتب إلى ابن عَمِّه مُحَمَّد بن عُثْمان يحضّه على إعادته إلى مَكانِه دَفْعاً لغوائله، فأبى من ذلك. وداخَلهُ وَنْزْمَار بن عَرِيف في بعضها كذلك، فلجَّ في الامتناع، وحمل سُلْطانَه على نَبْذ العَهْد إلى أبي بكر بن غازي[ب]، فتنكّر له، وأجْمع المسيرَ إليه بعَساكرِ العَرَب[ج]، فخرجَ من فاس سنةَ تسعٍ وسبعين.

وبلَغ الخَبَرُ إلى أبي بكر بن غازي[د]، فاستَجاشَ بالعَرَب[هـ] واستحثَّهم للوُصول،

(أ) ظ، ص، ض: غاز (ب) ظ، ص، ض: غاز (ج) ظ، ص، ض: الغرب (د) ظ، ص، ض: غاز (هـ) ظ، ص: بالمغرب

فوَصَل إليه الأحلاف من المَعْقِل، وسرَّب[أ] فيهم أموالَه. وخرج من غَسَاسَةَ، فألْقى بينهم نفسَه، وعمد إلى بعض الغُرباء الطَّارئين، فنصَّبه للأمْر مشبِّهاً ببعض أبناء السُّلْطان أبي الحسن، وزحفَ إليه السُّلْطان حتَّى نزل بتَازَى، فأجفلت أحياءُ العَرَب أمام العَسَاكر من بَني مَرِين والجند، ونجا[ب] ابنُ غازي[ج] معهم بذمَائه[د].

ثمَّ داخَلَه وَنْزَمَار بنُ عَريف في الإذعان للسُّلْطان والتَّنكيب عن سَنَن الخِلاف، فأجابَ، ووَصَل به إلى سدَّة الملك، فبعث به السُّلْطانُ مُحتاطاً عليه إلى فاس، فاعتقِل بها. ونزلت مقدّمات العَسَاكر بوادي مُلْوِيَّة، وداخَلَ صاحب تِلِمْسان منها رُعب، فأوْفد على السُّلْطان من قَوْمه وكِبار مَجْلسه / مُلاطفاً ومُدارياً، فتقبّل منه، [287 ب] وعقد له السِّلْمَ، وأصْدَر به كتابه وعَهْدَه بخطّه، وانكفأ راجعاً إلى حَضْرته، بعد أنْ بعث العُمَّال في تلك النَّواحي على جِبايَتها، فجمعوا له منها ما رضي.

ولمَّا احتلَّ بدارِ مُلْكه، أنفذ أمرَه بقَتْل أبي بكر بن غازي[هـ]، فقُتل بمَحْبِسه طَعْناً بالخناجر، وذهب مثلاً في الأيَّام، واسْتَوْسَق للسُّلْطان أمرُه. وأحْكم العقدَ مع الأمير عبد الرَّحمن بن أبي يَفْلُوسَنْ صاحبِ مَرَّاكُش، واتَّصل بينهما وتردَّدت المهاداة منهما بعض إلى بعض، وإلى صاحبِ الأنْدَلُس وإليهما منه، بما ملأ المَغْرب هُدنةً وأمناً، وبعث للآمال بساطاً[و] وغبطةً. والحالُ مُتَّصلةٌ على ذلك لهذا العَهْد آخرَ سنة إحدى وثمانين أيَّام إشرافِنا على هذا التَّأليف. والله مُقدِّر اللَّيْل والنَّهار.

(أ) ظ: وسرت (ب) ظ، ص، ض: ولجأ (ج) ظ، ص، ض: غاز (د) ظ، ص، ض: بدمائه (هـ) ظ، ص، ض: غاز
(و) أ: نشاطاً

انتقاضُ الصُّلح بين عبد الرَّحمن صاحب مَرَّاكُش والسُّلْطانِ أبي العبَّاس صاحبِ فاس، واستيلاءُ عبد الرَّحمن على أزمُّور، ومَقْتل عاملِها حَسُّون بن عليّ

كان عليّ بنُ عُمَر كبيرُ بَني وَرْتَاجَّن وشيخُ بَني وِيغلاَن منهم، قد تحيَّز إلى الأمير عبد الرَّحمن، مذ إجازتِه من الأنْدَلُس واستيلائه على تَازَى، ثمَّ زَحْفه إلى حِصار البَلَد الجَدِيد مع السُّلْطان أبي العبَّاس، كما مرّ. فوَصَل في جُمْلته إلى مَرَّاكُش، وكان صاحبَ شُوراه وكبيرَ دَوْلَته، وكان يضْطغِن على خالد بنِ إبراهيم المتَرَازيّ[أ] شيخ حَاحَة من قبائل المَصَامِدَة، ما بين مَرَّاكُش وبلاد السُّوس.

وقد كان عليّ بنُ عُمَر انتقض على ابن غازي[ب]، الوَزِير المستبدّ بعد عَبْد العَزِيز، ولَحِق بالسُّوس، ومرَّ بخالد بن إبراهيم هذا، فاعترضه في طريقه، وأخذ الكثيرَ من أثقالِه ورَواحِلِه. وخَلُص هو إلى مَنْجاته بالسُّوس، وقد حقد ذلك لخالد. ثم بعث عن شيوخ المَعْقِل، عندما أجازَ الأميرُ عبد الرَّحمن من الأنْدَلُس إلى نَواحي تَازَى يرومُ اللَّحاقَ به، فوفدوا عليه. وسار معهم إلى أحيائهم، وأقامَ معهم، وهو في طاعة الأمير عبد الرَّحمن ودعوته، إلى أنْ اتَّصل به بين / يَدَيْ حِصارِه البَلَدَ الجَدِيد مع السُّلْطان أبي العبَّاس. [288 أ]

(أ) مهملة في ظ، وفي ص، ض بإهمال المثناة الفوقية، والمثبت من أ، وجاء في النسخ مثل ذلك عند ذكر أخيه محمد بن إبراهيم في فصل "خلاف علي بن زكرياء بجبال الهساكرة ونكبته". (ب) ظ، ص، ض: غاز

فلمّا فتح السُّلطانُ البَلَد الجَدِيد أوّل ستٍّ وسبعين واستولى على مُلكِهم بها، وفصَل عبدُ الرَّحمن إلى مَرَّاكُش، كما كان الوفاقُ بينهم، سار[أ] عليّ بنُ عُمَر في جُمْلة[ب] الأمير عبد الرَّحمن إلى مَرَّاكُش. واستأذنه في قَتْل خالد صاحبه، فلم يأذَن له؛ فأحفظه ذلك، وطَوى عليه.

وبعد أيّام صَعد إلى جبل وَرِيكَة[1]، في غَرضٍ من أغراض[ج] الدَّوْلَة، وتقدّمَ إلى حافِده عامر ابنِ ابنه مُحَمَّد بقَتْل خالد، فقَتَله في بعضِ الأيّام بظاهر مَرَّاكُش. ولَحِق بجدّه عليّ بنِ عُمَر بوَرِيكَة، فتلطّفَ له الأميرُ عبد الرَّحمن، وراسَله بالمُلاينة والاستعطاف. ثمّ رَكِب إليه بنفسه واستصلحه، ونَزَل به إلى مَرَّاكُش، فأقام معه أيّاماً. ثمّ ارْتابَ، ولَحِق بأَزَمُّور، وعاملُها يومئذٍ حَسُّون بنُ عليّ الصُّبَيْحِيّ، فأغْراه بالإجلاب على عَمَل مَرَّاكُش، وزحفوا جميعاً إلى عَمَل صِنْهَاجَة.

وسَرَّحَ الأميرُ عبد الرَّحمن لمدافعتهم كبيرَ دَوْلَته يومئذٍ، وابنَ عَمّه عَبْدَ الكبير ابنَ عيسى بن سُلَيمان بن منصور بن أبي مالك، وهو عَبْد الوَاحِد بن يَعْقُوب بن عبد الحَقّ، فخرج في العَسَاكر ومعه منصور مَوْلى الأمير عبد الرَّحمن، فلقُوا عليّ بنَ عُمَر وهزموه، وأخذوا سَواده[2]، ولجأ[د] إلى أَزَمُّور.

(أ) ص: شأن (ب) ظ، ض: حملة (ج) ظ، ض: في عرضٍ ... من أعراض (د) ص: ونجا

(1) جبل وريكة: يقع إلى الجنوب من مراكش، وعلى سفوح جبال أطلس تقع مدينة أغمات، وتتكون من مدينتين متقابلتين: أغمات إيلان (أو: هيلانة)، وأغمات وريكة، وكان بينهما عداء دائم، وكان كل فريق يُصلي في الجامع مُنفرداً. انظر: نفاضة الجراب 54، الروض المعطار 46، وانظر عن وادي وريكة: الاستبصار 209.

(2) سواد القوم: معظمهم، وسَواد العسكر: ما يشتمل عليه من المضارب والآلات والدَّواب وغيرها. لسان العرب، مادة: سود

ثمّ وفد هو وحَسُّون بنُ عليّ على السُّلطانِ بفاس، ووقعت ـ أثناء ذلك ـ المُراسلةُ بين السُّلطانَيْن، وانعقَد بينهما الصُّلح؛ فأقام عليّ بنُ عُمَر بفاس، ورَجَع حَسُّون بنُ عليّ إلى مَكانِ عَمَله بأَزَمُّور، ثمّ انتقض ما بين السُّلطانَيْن ثانياً.

وكان عند الأمير عبد الرَّحمن أخَوان من وَلَد مُحَمَّد بن يَعْقُوب بن حَسَّان الصُّبَيْحيّ، وهما: عليّ وأحمد، جُرْثومَتا بَغْيٍ وفَسادٍ، وعَدَا عليّ كبيرُهما على ابن عمّه عليّ بن يَعْقُوب بن عليّ بن حَسَّان فقتله. واستعدَى أخوه موسى عليه[أ] السُّلطانَ؛ فأعداه. وأذِن له أنْ يثأَرَ منه بأخيه؛ فقَتَله، فجزع[ب] لذلك أحمد أخو عليّ، وهَمَّ بقَتْل موسى، فاستجار موسى بيَعْقُوب بنِ موسى بن سيّد النَّاس كبير بني وَنكَاسَن وصهر الأمير عبد الرَّحمن، وأقام أيّاماً في جِواره، ثمّ هَرب إلى أَزَمُّور، فلقحت[ج] نارُ الفِتْنَة، ونَهَض / [288 ب] الأمير عبد الرَّحمن إلى أَزَمُّور، فلم يُطِقْ حَسُّون بنُ عليّ دِفاعَه، فَملَكها عليه وقَتَله واستباحها.

وبلَغ الخَبَرُ إلى السُّلطانِ بفاس، فنَهَض في عَساكِرِه، وانتهى إلى سَلا. ورَجع الأميرُ عبد الرَّحمن إلى مَرَّاكُش، وسارَ السُّلطانُ في اتّباعه، حتّى نزل بفَحْص أَكْـلِميمْ قريباً من مَرَّاكُش، وأقام هُنالِك نحواً من ثلاثة أشهر، والقتالُ يتردَّدُ بينهم.

ثمّ سُعِيَ بين السُّلطانَيْن[د] في الصُّلح، فاصْطَلحوا على حُدودِ العَمالاتِ أوَّلاً، وانكفأ صاحبُ فاس إلى بَلَده. وبعث الحسنَ بن يَحْيَى بن حَسُّون الصِّنْهاجيّ عاملاً على الثَّغر بأَزَمُّور، فأقام بها؛ وكان أصلُه من صِنْهاجَةَ أهلِ وَطَن أَزَمُّور، وله سَلَفٌ

(أ) أ، ص، ض: على (ب) ظ، أ، ض: فخرج، والمثبت من ص (ج) ظ: فلحقت (د) ظ: السلطان، ومثلها في ض ثم أصلحها

في خِدْمة بَني مَرِين مـذ أوّل دولـتهم. وكان أبوه يَحْيَى في دولة السُّلْطان أبي الحسن عاملاً في الجباية بأزَمُّور وغيرِها، وهَلَكَ في خدمته بتُونِس أيَّامَ مقام السُّلْطان بها، وتَرَك ولده يُسْتَعملون في مثل ذلك. ونزع[أ] الحسنُ هـذا منهم إلى الجُنديَّة، فلَبِس شارَتَها، وتصرَّف في الولاياتِ المناسبة لها. واتَّصل بخدمة السُّلْطان أبي العبَّاس لأوَّل بيعته بطَنْجَة، وكان يومئذٍ عاملاً بالقَصْر الكبير، فدَخَل في دعوته وصار في جُمْلته، وشهد معه الفَتْح، واستعمله في خُطط السَّيف، حتّى ولَّاه أزَمُّور هذه الولاية، فقام بها كما ذكرناه.

وأمَّا الصُّبَيْحيُّون؛ فالخَبَرُ عن أوَّليتهم: أنَّ جدّهم حَسَّان من قبيلة صُبَيْح، من أفاريق سُوَيْد، جاء مع عَبْد الله بن كَنْدُوْز الكمِيّ من بَني عَبْد الوَاد، حين جاء من تُونِس وافداً على السُّلْطان يَعْقُوب بن عبد الحَقّ ولقيه بتجدَاع[ب]، كما مرّ. وكان حَسَّان من رِعَاءِ إبله. فلمَّا استقرّ عَبْد الله بن كَنْدُوز بناحية مَرَّاكُش، وأقطعه السُّلْطان يَعْقُوب في أعمالها[ج]، وكان الظَّهْرُ الذي يحمل عليه السُّلْطان مُفترقاً في شاوية المَغْرب، فجمعَه وجعله لنظر عَبْد الله بن كَنْدُوز، فجمع له الرِّعَاءَ، وكبيرُهم يومئذٍ حَسَّان الصُّبَيْحيّ، فكان يُباشر السُّلْطان في شأن ذلك الظَّهْر، ويُطالعه في مُهمّاته، فَحصلتْ له بذلك مُداخلةٌ اجتلبتْ[د] له الحظّ، حتّى ارتفع وأثرى وكثر.

ونَشَأوا في ظلّ الدَّوْلَة وعِزّها[هـ]، / وتصرَّفوا في الولايات فيها، وانفردوا بالشَّاوِيَة، [289أ]
فلم تَزَل ولايتُها متوارثةً فيهم، مُنقسمةً بينهم لهذا العَهْد، إلى ما كانوا يتصرَّفون فيه من غير ذلك من الولايات.

(أ) ص: وبرع، ومهملة في ض (ب) مهملة في ظ، ض. (ج) أ: أعماله (د) ظ: أجلبت (هـ) ظ، ض: وغيرها

وكان لحسّان من الوَلَد: عليّ، ويَعْقُوب، وطَلْحَة، وغيرهم. ومن حسّان هذا تفرّعتْ شعوبُهم في وَلَده، وهمْ لهذا العَهْد متصرِّفون في الدَّوْلَة على ما كان سَلَفهم من ولايةِ الشَّاوِيَّة، والنَّظرِ في رَواحل السُّلْطان والظَّهْر الذي يحمل من الإبل، ولهم عددٌ وكثرةٌ ونَباهةٌ في الدَّوْلَة.

الانتقاضُ الثَّاني بين صاحبِ فاس وصاحبِ مَرَّاكُش، ونُهوضُ صاحبِ فاس [إليه][أ]، وحصارُه، ثمَّ عَوْدهما إلى الصُّلْح

لمَّا رَجَع السُّلْطانُ إلى فاس على ما استقرّ من الصُّلْح، طلَب الأميرُ عبد الرَّحمن أنْ يُدخل عمالةَ صِنْهَاجَة ودُكَّالَة في أعماله. وكتب السُّلْطانُ إلى الحسن بن يَحْيَى عاملِ أزَمُّور وتلك العمالةَ، بأنْ يتوجّه إليه ويَسُدّ المذاهب في ذلك دونه.

وكان الحسن بن يَحْيَى مُضطغناً على الدَّوْلَة، فلمَّا وصل إليه، داخَلَه في الخِلاف وأن يُملكه تلك العمالة، فازداد الأميرُ [عبد الرَّحمن][ب] بذلك قوّةً على أمره، وتعلّل على[ج] صاحبِ فاس بأنْ يكون حدود بين الدَّوْلتين وادي أمّ ربيع. واستمرّ صاحبُ فاس على الإبايةِ من ذلك، فنهض الأمير عبد الرَّحمن من مَرَّاكُش. ودخل الحسنُ بنُ يَحْيَى في طاعته، فملكها، وبعث مَوْلاه منصوراً في العَسَاكر إلى أنْفَا[د]، فاستولى عليها وصادَر أعيانَها وقاضِيَها وواليَها.

(أ) ساقطة من ظ (ب) ظ، ص، ض: عبد الله، وأصلحت في أ (ج) ساقطة من أ (د) ظ، ص: أنف، وأصلحت في ض

وبلَغ الخَبَرُ إلى السُّلطان، فنَهَض من فاس في عَساكِره، وانتهى إلى سَلا، فهَرَب منصور من أَنَفَا[أ] وتركها، ولَحِقَ بمَوْلاه [عبد الرَّحمن][ب]، فأجْفل من أَزَمُّور إلى مَرَّاكُش، والسُّلطانُ في أثره، حتَّى انتهى إلى قَنْطرة الوادي، على غَلْوةٍ من البَلَد، وأقام خمسةَ أشهر يحاصرُها.

واتَّصل الخَبَرُ بالسُّلطانِ ابن الأَحْمر صاحبِ الأَنْدَلُس، فبعث خالِصَته الوَزِيرَ أبا القاسم / ابن الحكيم[ج] الرُّنْديّ ليعقدَ الصُّلحَ بينهما، فعقده على أنِ استرهَن السُّلطانُ أولادَ الأمير عبد الرَّحمن وحامداً وأبا الحسن. [289 ب]

وانكفأ السُّلطانُ راجعاً إلى سَلا، ولَحِق به جماعةٌ من جُمْلة الأمير عبد الرَّحمن، من بَني مَرِين وغيرِهم؛ نزعوا عنه، كان منهم أحمد بنُ مُحمَّد بن يَعْقُوب الصُّبَيْحيّ، ولقي في طَريقه جاءَ الخَيْر مولى الأمير عبد الرَّحمن، فجاء به مُكرهاً إلى السُّلطان. وكان من النَّازِعِين أيضاً: يَعْقُوبُ بنُ موسى بن سيِّد النَّاس، كبيرُ بَني وَنكَاسَنْ، وأبو بكر بنُ رَحُّو بن الحسن بن علي بن أبي الطَّلاق، ومُحمَّد بنُ مَسْعُود الإدْرِيسيّ، وزَيَّان بن عُمَر بن عليّ الوَطَّاسيّ، وغيرُهم من المشاهير، وقدِموا على السُّلطان بسَلا؛ فتقبَّلهم، وأحْسَن كرامتهم، ورحل راجعاً إلى فاس.

انتقاضُ عليّ بن زكريّاء، شيخِ الهَساكرة، على الأمير عبد الرَّحمن، وفَتْكُه بمولاه منصور

لمَّا رَجَع السُّلطانُ إلى فاس، وبدا من الخَلَل في دَوْلةِ الأمير عبد الرَّحمن وانتقاض

(أ) ظ، ص: أنف، وأصلحت في ض (ب) ظ، ص: عبد الحق، وطمست في أ، ض (ج) ظ، ض: الحكم

النَّاس عليه ما قدّمناه، نَزَع يدَه من التَّعْويل على العَسَاكر، وشَرَع في تَحْصين البَلَد، وضَرب الأسوار على القَصَبة، وحفر الخنادق، وتبيَّن بذلك اختلالُ أمره.

وكان عليّ بنُ زَكَرِيَّاء شيخَ هَسْكُورَة وكبيرَ المَصَامِدَة، وكان في دعوته مُذ دخل مَرَّاكُش، فتلافى أمره مع صاحبِ فاس، ومدَّ إليه يداً من طاعته. ثمَّ انتقض على الأمير عبد الرَّحمن، ودَخَل في دعوة السُّلْطان، وبعث إليه الأميرُ عبد الرَّحمن مَوْلاه منصوراً؛ اسْتَألفه(أ)، فأرْصد إليه في طريقه مِنْ حاشيته مَنْ قتله. ثم بعث برأسه إلى فاس، فنَهَض السُّلْطانُ في عَساكِره إلى مَرَّاكُش. واعتَصَم الأميرُ عبد الرَّحمن بالقَصَبة؛ وقد كان أفردَها عن المدينة بالأسوار، وخندق عليها، فمَلَكَ السُّلْطانُ المدينةَ، ورتَّبَ على القَصَبة المقاتِلَةَ من كلِّ جهةٍ، ونصَب الآلة، وأدارَ عليها من جهة المدينة حائطاً، وأقام يُحاصرها تسعةَ أشهر؛ يُغاديها بالقِتال / ويُراوحُها. [290 أ]

وكان أحمد بنُ مُحَمَّد الصُّبَيْحيّ من الذين بوَّأوا المقاعدَ لقتالها، فهمَّ بالانتقاضِ، وحدَّثتْهُ نفسُه بغَدْرة السُّلْطان والتوثّب به. وسُعِيَ بذلك إلى السُّلْطان، فقَبض عليه وحَبَسه.

وبعث السُّلْطانُ بالنَّفِير إلى أعماله، فتوافَت الأمدادُ من كلِّ ناحية. وبعث صاحبُ الأنْدَلُس إليه مَدَداً من العَسْكَر، فلمَّا اشتدَّ الحِصارُ بالأمير عبد الرَّحمن، ونفدت الأقوات، وأيْقن أصحابُه بالهلاك، وأهمّتهم أنفسُهم، فهرب عنه وزيرُه يَحُو(ب) ابن العلَم من بقيَّة بيت مُحَمَّد بن عُمَر، شيخ الهَسَاكِرَة والمَصَامِدَة لعَهْد السُّلْطان أبي الحسن وأبيه(ج)، وقد مرَّ ذكره.

(أ) ص: يستألفه (ب) مهملة في ظ، ض (ج) ظ: وابنه

فلمّا لَحِق يَحْو[أ] هذا بالسُّلْطان، وعَلِم أنَّه إنَّما جاء مُضْطرًا، قبض عليه وحبسه.

ثمّ انفضّ النّاس عن الأمير عبد الرَّحمن، وتدلَّوا[ب] من الأسوار ناجين إلى السُّلْطان. وأصبح في قَصَبته[ج] مُنفرداً، وقد بات ليلَته يروض ولده على الاستماتة؛ وهما: أبو عامر وسُلَيْم.

ورَكَب السُّلْطانُ من الغَد في التَّعْبِئَة، وجاء إلى القَصَبة، فاقْتحمتْها مقدّمتُه، ولقيهم الأميرُ عبد الرَّحمن وولداه بأَسَاراك المَيْدان الذي بين أبوابِ دورهم، فجالوا معهم جولةً قُتل فيها هو وولداه؛ تولَّى قَتْلَهم عليّ بنُ إدْرِيس التَّنَالْفَتِيّ[د]، وزَيَّان بنُ عَمَر الوَطَّاسيّ. وطالما كان زَيَّانُ يَمْتَرِي ثديَ[هـ] نِعَمِهم، ويجرّ ذَيْلَه خُيَلاءَ في جاههم، فذهب مثلاً في كُفران النّعمة وسُوءِ الجزاء، والله لا يَظْلِم مثقالَ ذرَّة. وكان ذلك خاتمَ جُمَادَى الآخرة سنة أربع وثمانين. ثمّ رحلَ السُّلْطانُ مُنقلِباً إلى فاس، وقد استولى على سائرِ [أعْمال][و] المَغْرب، وظَفِر بعَدُوّه، ودفع المُنازِعِين عن مُلكه.

إجلابُ العَرَب على المَغْرِب في مَغيب السُّلْطان بقُرْبته[ز] من وَلَد [أبي][ح] عليٍّ، وبأبي تَاشفِين بن أبي حَمُّو صاحب تِلِمْسان، ومجيء أبي حَمُّو على أثرهم

كان أولادُ حسين من عَرب المَعْقِل مُخالفين على السُّلْطان من قبل مَسيرِه إلى

(أ) مهملة في ظ، ض (ب) ظ: وتزلوا (ج) أ: قبضته (د) مهملة في ظ (هـ) أ: يـدي، ومهملة في ظ، ض (و) ظ: بلاد (ز) ظ: بقربة، ص: بقربه (ح) ساقطة من ظ

[290 ب] / مَرَّاكُش. وكان شيخُهم يوسُف بنُ عليّ بن غانم، قد حدثت بينه وبين الوَزِير القائم على الدَّوْلَة مُحَمَّد بن عُثْمان منافرةٌ وفتنةٌ. وبعث العَسَاكر إلى سِجِلْمَاسَة، فخرَّبَ ما كان له بها من العَقَار والأملاك، وأقام مُنتقضاً بالقَفْر. فلمَّا حاصرَ السُّلْطان الأميرَ عبد الرَّحمن بمَرَّاكُش وأخذ بمُخَنَّقِه، أرْسَل[أ] أبا العشائر ابنَ عمّه منصور إلى يوسُف بن عليّ وقومه، ليجلبوا به على المَغرب ويأخذوا بحُجْزة السُّلْطان عن حِصاره، فسار لذلك. ولمَّا قَدِم على يوسُف، سار به إلى تِلِمْسان، مُستجيشاً بالسُّلْطان أبي حَمُّو لذلك القَصْد، بما كان بينه وبين الأمير عبد الرَّحمن من العَهْد على ذلك. فبعث أبو حَمُّو معهم ابنه أبا تَاشِفِين في بعض عَساكرِه، وسار في الباقين على أثرهم، ووَصَل أبو تَاشِفِين وأبو العشائر إلى أحياء العَرَب، فدخلوا إلى أحواز مِكْنَاسَةَ وعاثوا فيها.

وكان السُّلْطانُ عندَ سَفَرِه إلى مَرَّاكُش، استخلف على دارِ مُلْكه بفاس عليّ بنَ مهدي العَسْكَرِيّ في جماعةٍ من الجُنْد، واستنجد بوَنَزْمَار بن عَرِيف شيخ سُوَيْد ووليّ الدَّوْلَة المُقيم بأحيائه بنَواحي مُلْوِيَّة، فخالف[ب] بين العَرَب المَعْقِل، واستألف منهم العَمارِنَة[ج] والمُنَبَّات وهم الأحْلاف. واجتمعوا مع عليّ بنِ مهدي وساروا لمدافعة العدّو بنَواحي مِكْنَاسَة، فصدّوهم عن مَرامِيهم ومَنعوهم من دُخول البلاد، فأقاموا متواقفين[د] أيّاماً.

(أ) أ: وأرسل (ب) ص: فخالف (ج) مهملة في ظ، وفي أ، ض: المعارية، ص: الغمارية. والصواب: العمارنة، وهم أولاد عمران إحدى بطون بني منصور الأربعة، مسكنهم في الصحارى المجاورة لسجلماسة، وينتقلون في صحراء ليبيا. بلغ عدد فرسانهم ـ في القرن العاشر الهجري ـ نحو ثلاثة آلاف رجل، وقد تقدّم لابن خلدون التعريف بهم في الجزء الحادي عشر [51 ب ـ 52ب]، الوزان: وصف إفريقيا 1: 49، 54 ـ 55 (د) أ: متوافقين

وقصد أبو حَمُّو *في عَسكَره*[أ] مدينةَ تَازَى، وحاصَرها سبعاً، وخرّب قَصْر المَلك هُنالِك ومسجدَه المعروف بقَصْر تازرُوت[1]. وبينما هم على ذلك بَلَغ الخَبَرُ اليقِين[ب] بفَتْح مَرَّاكُش وقَتْل الأمير عبد الرَّحمن، فأجفلوا من كلّ ناحية. وخرج أولادُ حسين وأبو العشائر وأبو تَاشِفِين والعَرَب[ج] الأحلاف في اتّباعهم، وأجْفل أبو حَمُّو من تَازَى راجِعاً إلى تِلِمْسان، ومرَّ بقَصْر وَنْزَمَار في نَواحي بَطُّوية المسمّى بمرادة[2]، فهَدَمه، ووَصَل السُّلْطانُ [من مرَّاكُش][د] إلى فاس وقد تمَّ له الظُّهور والفَتْح، إلى أن كان ما نذكر.

نُهوضُ السُّلْطان إلى تِلِمْسان، وفَتْحُها، وتَخْرِيبُها

[291 أ] / كان السُّلْطانُ لمَّا بلغه ما فعله العَرَب وأبو حَمُّو بالمَغرب [وهو بمَرَّاكُش][هـ]، لم يشغله ذلك عن شأنه [من حِصار عامر][و]، ونَقِم على أبي حَمُّو ما أتاه من ذلك، وأنّه نقض عَهْده من غير داعٍ إلى النَّقْض.

فلمَّا احتلّ بدار مُلْكه بفاس، أراح أيّاماً، ثمّ أجمع عَزْمَه على النُّهوض إلى تِلِمْسان، وخرج في عَساكِره على عادتهم، وانتهى إلى تَاوَرِيْرَت[ج].

(أ) سقط ما بين النجمين من أ (ب) ساقطة من أ (ج) أ: ورحلت العرب ... (د) زيادة من أ، وهامش ض بخط ابن خلدون (هـ) زيادة من أ، ومخرج في هامش ض بخطه (و) من مخرج بهامش أ بخط النّاسخ، وبهامش ض بخط ابن خلدون (ز) ظ: تازروت، مهملة

---

(1) تازروت أو تاصروت وتكتب بالسين أيضاً: اسم يطلق على عدّة مواضع من بلاد الريف، أشهرها تلك التي تقع فيها الزاوية الريسونية - نسبة للمولى أحمد الريسونيّ - وهي تازروت بني عروس. معلمة المغرب 6: 2032، والظاهر من كلام ابن خلدون أن المذكورة عنده تقع بنواحي مدينة تازى.

(2) ذكره ابن خلدون - فيما تقدم ص437 - بأنه القصر الذي اختطّه ونزمار بن عريف بمَلْوية

وبَلَغ الخَبَرُ إلى أبي حَمُّو، فاضطرب في أمره واعتزم على الحصار، وجَمع أهلَ البَلَد عليه، واستعدّوا له. ثمّ خرج في بعض تلك اللّيالي[أ] بوَلَده وأهله وفي خاصّته، وأصبح مخيّماً بالصَّفْصِيف[1] [من خارج البَلَد][ب] وانفضَّ أهلُ البَلَد إليه، وبعضُهم بعيـاله ووَلَده، مُسْتمسكين بـه، مُتفادين[ج] مـن معرّة هُجومِ عَساكر المَغرب، فـلم [يَزَعْه][د] ذلك عن قَصْده، وارتحل ذاهباً إلى البَطْحَاء. ثمّ قَصَد بلاد مَغْرَاوَة، فنزل في بَني بُوسَعِيد قريباً من شَلَف، وأنزل وَلَده الأصاغرَ وأهله بحِصْن تاجَحْمُومِتْ.

وجاء السُّلْطانُ إلى تِلِمْسان، فَملكها واستقرّ فيها أيّاماً، ثمّ هَدَم أسوارَها وقُصورَ الملك بها، [بإغراء وليّه][هـ] وَنْزْمَار، جزاءً بما فعله أبو حَمُّو من تَخْريب قَصْر تازْرُوْت وحِصْن مرادةَ. ثم خرج من تِلِمْسان في اتّباع [أبي][و] حَمُّو ونزل على مرحلةٍ منها.

وبلَغَه الخَبَرُ هُنالِك بإجازةِ السُّلْطان موسى ابنِ عمّه أبي عِنَان من الأنْدَلُس إلى المَغرب، وأنّه خالَفَه إلى دارِ الملك، فانكفأ راجعاً، وأغَذَّ السَّيْرَ إلى المَغرب، كما نذكر. ورجع أبو حَمُّو إلى تِلِمْسان، واستقرَّ في مُلكه بها، كما تقدَّم في أخباره.

(أ) أ: الأيام، وأقحمت كلمة "الأيام" بين الأسطر في ض (ب) زيادة من أ وحدها (ج) ظ: منقادين (د) ظ: يرعه، ويزعه وزعاً بالزاي المعجمة: كفّه ومنعه (هـ) ظ: عن أولية (و) ظ: أبو

(1) الصفصيف: لم نهتد لتحديد هذا الموضع، وقد أورد المقري قصيدة للفقيه أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري يمدح السلطان أبا حمو الزياني، ومنها:

واعمد إلى الصّفصيف يوماً ثانياً   وبـه تسلّ وعنه دأباً فاسأل

انظر: نفح الطيب 7: 121

إجازةُ السُّلْطان موسى ابن السُّلْطان أبي عِنَان من الأَنْدَلُس إلى المَغْرِب، واستيلاؤه على المُلْك، وظَفَرُه بابن عمّه السُّلْطان أبي العبّاس، وإزعاجه إلى الأَنْدَلُس

قد تقدَّم لنا أنّ السُّلْطانَ مُحَمَّد بن الأَحْمر المَخْلُوع، كان له تحكّمٌ في دَوْلَة السُّلْطان أبي العبّاس بن أبي سالم صاحبِ المَغْرِب، بما كان من إشارته على مُحَمَّد بن عُثْمان ببَيْعَته وهو مُعتقَل بطَنْجَة، ثمّ بما أيَّدهُ[أ] من مَدَد العَسَاكِر والأموال، / حتّى تمّ [291 ب] أمرُه واستولى على البَلَد الجَدِيد، كما تقدّم في أوّل خبرِه، ثمّ[ب] بما كان له من الزَّبُون عليهم بالقَرابة المُرشَّحين الذين كانوا مُعتقلين بطَنْجَة مع السُّلْطان أبي العبّاس، من أسْباط السُّلْطان أبي الحسن، من وَلَد أبي عِنَان، وأبي سالم، والفَضْل، وأبي عامر، وأبي عبد الرّحمن، وغيرِهم؛ وكانوا مُتعاهدين في مُعتقَلهم أنّ مَنْ أتاح[ج] الله له المُلْك منهم، فيُخرجهم من الاعتقال ويجيزهم إلى الأَنْدَلُس.

فلمّا بُويع السُّلْطانُ أبو العبّاس وَفَّى لهم بهذا العَهْد وأجازهم، فنزلوا على السُّلْطان ابنِ الأَحْمر أكرَمَ نُزُل؛ أنزلَهُم بقُصور مُلْكه بالحمراء، وقَرَّب[د] لهم المراكب، وأفاض عليهم العَطاء، ووسَّع لهم الجرايات والأرزاق. وأقاموا هُنالِك في ظلٍّ ظليلٍ من كنفه، فكان له بهم زَبُون على الدَّوْلَة بالمَغْرب.

وكان الوَزِير القائم بها مُحَمَّد بن عُثْمان يُقدّر له قَدرَ ذلك كلّه، فيجري في

(أ) ص، ض: أمده (ب) ساقطة من أ (ج) ظ، ص: أباح، ومهملة في ض (د) أ: وضرب

أغراضه وقصوده، ويحكّمه في الدَّوْلَة ما شاء الله أنْ يحكّمه، حتّى توجّهت الوجُوهُ إلى ابن الأَحْمَر وراءَ البَحْر من أشياخ بَني مَرِين والعَرَبِ [وأعيان الدّولة][أ]، وأصبح المَغربُ وكأنّه من بعض أعمال الأنْدَلُس.

ولمّا نَهَض السُّلْطانُ إلى تِلِمْسان، خاطَبوه وأوْصَوْهُ بالمَغرب. وترك مُحَمَّد بن عُثْمان بدارِ الملك كاتِبَه مُحَمَّد بنَ حسن؛ كان مُصْطنَعاً عندَه من بقيّة شِيع المُوَحِّدِين ببِجَايَةَ، فاختصَّهُ، ورقَّاهُ، واستخلفَهُ في سَفَرِه هذا على دارِ الملك. فلمّا انتهوا إلى تِلِمْسانَ، وحصل لهم من الفَتْح ما حصل، كتبوا بالخبر إلى السُّلْطان ابن الأَحْمَر، مع شيطانٍ من ذرّيّة[ب] عَبُّو بن قاسم المزوار[ج]؛ كان بدارِهم، وهو عَبْد الوَاحِد بنُ مُحَمَّد بن عَبُّو، وكان يَسْمُو بنفسه إلى العَظائم التي ليس لها بأهل ويترَبّص لذلك بالدَّوْلَة.

وكان ابنُ الأَحْمَر مع كثرة تَحكُّمه فيهم يتجنّى عليهم بعض الأوقات، بما يأتونه من تَقْصيرٍ[د] في شفاعة أو مخالفته في أمْرٍ لا يجدون عنها وَليجةً[هـ]، فيضطغن لهم ذلك. فلمّا قدمَ عليه عَبْدُ الوَاحِد هذا بخبر الفَتْح، وقصَّ عليه القَصص، دسَّ له أنَّ أهلَ الدَّوْلَة مُضطربون على سُلْطانهم، ومُستبَدِلُون به[و] لو وجدوا، وأبلغ من ذلك ما حُمِّل و[ما][ز] لم يحمّل، وأشار له بخلاءِ المَغْرب / من الحامية جُملةً، وأنَّ دارَ الملك ليس [292 أ] بها إلاّ كاتبٌ حضريٌ لا يُحْسِنُ المدافعةَ، وهو أعْرَفُ به، فانتهز ابنُ الأَحْمر الفُرْصةَ،

(أ) زيادة من أ، ومخرج بهامش ض بخطه (ب) ص: ذريته، ومثلها في ض ثم أصلحت (ج) ظ: المروان (د) شطبت في ض وأقحم عوضها: إغماض في شفاعته ... (هـ) أ: من رد شفاعته أو مخالفته فيما لا يجدون عنه وليجة، (و) أ، ض: منه (ز) ساقطة من ظ، ص

وجهّز موسى ابنَ السُّلطان أبي عِنَان من الأسباط المقيمين عنده، واستوزر له مَسْعُودَ بن رَحُّو بن مَاسَايْ من طبقة الوزراء *لبَني مَرِين*[ا] ومن بَني فُودُود من أحلافهم؛ وله في ذلك سَلَف، وقد كان بعثه من قبلُ وزيراً للأمير عبد الرَّحمن بن أبي يَفَلُّوسَنْ[ب]، حين أجاز إلى المَغرب أيَّامَ استبداد أبي بكر بنِ غازي، فلم يَزَل معه حتَّى كان حصار البَلَد الجَدِيد واستيلاءُ السُّلطان أبي العبَّاس عليها.

وذهب الأميرُ عبد الرَّحمن إلى مَرَّاكُش، فاستأذنه مَسْعُود في الانصراف[ج] إلى الأنْدَلُس، فأذِنَ له، ورجَع عنه إلى فاس. ثمَّ فارَقهم وأجاز إلى الأنْدَلُس مُتودِّعاً ومُتودِّداً للكلّ، ومُعَوِّلاً على ابنِ الأحْمر، فتلقَّاهُ بالقَبول، وأوْسع له النُزُل والجراية، وخَلَطه بنفسه، وأحضره مع نُدْمانه.

ولم يَزَل كذلك إلى أنْ جهَّزه وزيراً للمَغْرب مع موسى بنِ السُّلطان أبي عِنَان، وبعث معهم عَسْكَراً. ثمَّ رَكِب معهم السَّفِينَ إلى سَبْتَة، وكانت بينه وبين شُرفائها ورُؤساء الشُّورَى بها مُداخلةٌ، فقاموا بدَعْوة السُّلطان موسى وأدْخلوه، وقبضوا على عاملها رَحُّو بن الزَّعِيم المَكْدُولِيّ، وجاؤوا به إلى السُّلطان، فملكها غُرَّةَ صَفَر [من][د] سنة ستٍّ وثمانين، وسلَّمها لابن الأحْمر، فدَخلت في طاعته. وسار هو إلى فاس، فوَصَلها لأيَّامٍ قريبة[هـ]، وأحاط[و] بدار الملك، واجتمع إليه الغَوْغاء، ونزل الدَّهَشُ

(ا) سقط ما بين النجمين من أ (ب) أ: بن يوبفلوسن (ج) أ: الرجوع (د) ساقطة من ظ (هـ) أ: قليلة (و) ظ، ص، ض: فأحاط

بمُحَمَّد بن حَسَن، فبادر بطاعته. ودخل السُّلْطانُ موسى إلى دار الملك وقبض عليه لوقته، وذلك في عشري ربيع الأوَّل من السَّنَة، وجاءَ النَّاس بطاعتهم من كلّ جانب.

وبَلَغ الخَبَرَ إلى السُّلْطان أبي العبَّاس بمكانِه من نَواحي تِلِمْسان بأنَّ السُّلْطانَ موسى قد نزل سَبْتَة، فجهّز عليّ بن منصور، تُرْجُمان الجُنْد النَّصارَى ببابه، مع طائفةٍ منهم، وبعثهم حاميةً لدار الملك، فانتهوا إلى تَازَى، وبلَغهم[أ] خبرُ فَتْحها، فأقاموا هُنالِك.

وأغَذَّ السُّلْطانُ أبو العبَّاس السَّيْرَ إلى فاس، فلَقِيَه خَبَرُ فَتحُها بتَاورِيرتْ، فتقدَّم[ب] إلى مُلْويَّة، وتردّد في رأيه بين / المسير إلى سِجِلْمَاسَة [مع العَرَب][ج] أو [292 ب] قَصْد المَغرب. ثمَّ استمرّ عزمُهُ، ونزل بتَازَى وأقام بها أربعاً. وتقدَّم إلى الرّكن، وأهلُ دولتِه ـ خلال ذلك ـ يخوضون في الانتقاضِ عليه سرّاً[د] مع ابن عَمّه السُّلْطان موسى المستولِي على فاس. ويومَ أصبح مُرْتحلاً من الرّكن أرجَفُوا به، ثمَّ انفضُّوا عليه طَرائق قاصدين فاس، ورجع هو إلى تَازَى بعد أنْ انتهب معَسْكَره، وأضرم النَّارَ في خيامه وخزائنه.

ثمَّ صبَّح تَازَى من لَيلَته، فدَخَلها، وعاملُها يومئذٍ جاء الخَيْر[هـ] من مَوالي السُّلْطان أبي الحسن. وذهب مُحمَّد بن عُثْمان إلى وليّ الدَّوْلَة وَنَزْمَار بن عَريف وأمراء العرب من المَعْقِل.

(أ) أ: ولقيهم (ب) أ: فاستمرّ (ج) ظ: من الغرب (د) في الأصول الأربعة: سلا، ولعل المثبت هو المراد. (هـ) ظ: الخير، ومهملة في ض

ولمّا دَخَل السُّلْطانُ أبو العبّاس إلى تازَى، كتبَ إلى ابنِ عَمِّه السُّلْطان موسى يذكِّره العَهْد بينهما؛ وقد كان السُّلْطانُ ابن الأحْمر عَهِد إليه أنْ يبعثَ به إليه إنْ ظَفِر به، فبادرَ السُّلْطان موسى باستدعائه مع جماعةٍ من وُجوهِ بَني عَسْكَر، أهلِ تلك النّاحية، وهم: زَكَرِيّاء بنُ يَحْيَى بن سُلَيمان، ومُحَمَّد بنُ سُليمان بن داود بن أعْرَاب، ومعهم العبّاس بنُ عَمَر الوَسْنَافِيّ، فجاؤوا به، وأنزلوه بالزّاوية بغدير الحِمّص[1] من ظاهر فاس، فقُيِّد هُنالِك، ثمّ بُعث إلى الأنْدَلُس مُوَكّلاً به مع عَمَر بنِ رَحُّو أخي الوَزير مَسْعُود بن مَاسَايْ، واستصحب[أ] معه ابنه أبا فارس، وترك سائرهم بفاس، وأجاز البَحْر من سَبْتَة، فأنزله السُّلْطانُ ابنُ الأحْمر بقَلْعة مُلْكِه الحمراء، وفكّ قيودَه، ووكّل به، ووسَّع له الجِراية، وأقام هُنالِك مُحتاطاً[ب] به، إلى أنْ كان ما نذكر.

نَكْبَةُ الوَزِير مُحَمَّد بن عُثْمان، ومَقْتَلُه

أصلُ هذا الوَزِير من بَني الكاس؛ إحدى بُطونِ بَني وَرْتَاجَن[ج]، وكان بَنو عبد الحَقّ، عندما تأثّلوا مُلكهم بالمَغرب، يستعملونَ منهم في الوِزارَة. ورُبَّما وقعت بينهم وبين الحَشَم وبَني فُودُودَ المُختَصِّين بالوِزارَة عندهم مُزاحمةٌ؛ أجازوا بسببها إلى الأنْدَلُس، ورُبّما وقع بينهم هُنالِك وبين بَني إدْرِيس وبَني عَبْد الله مُنافَساتٌ، فقتلوا فيها بعض بَني الكاس.

(أ) ظ: فاستصحب (ب) أ: مختلطاً (ج) ظ: ورياجن، ومهملة في ض

(1) غدير الحِمَّص: هو وادي الجواهر، ولفظ الحمص أطلق على ناحية من فاس العليا، سميت بذلك نسبة لليهود الوافدين من إشبيلية التي تسمى حمصاً لنزول أهل حمص من الشام بها. ابن بطوطة: تحفة النظار 4: 202 وانظر هامش المحقق رقم 127

ونشأ غازي بنُ الكاس [منهم][أ] في دَوْلَةِ السُّلْطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن، وتهذَّبَ بالخِلال. ثمَّ استوزره السُّلْطانُ أبو الحسن بعد مَهْلِك وزيره يَحْيَى بن طَلْحَة ابن مُحَلًّ[ب] / [أ 293] بمكانِه من حِصار تِلِمْسان، وقام بوزارته أعواماً، وحضر معه واقعةَ طَرِيف سنةَ إحدى وأربعين من هذه المائة واستُشهد فيها.

ونَشَأَ ابنه أبو بكر في ظلّ الدَّوْلَةِ مُمتَّعاً بحُسن الكفالة وسَعَة الرِّزقِ. وكانت أُمُّه أُمَّ وَلَد، وخلفه عليها ابن عمّه مُحَمَّد بن عُثْمان هذا الوَزِير، فنشأ أبو بكر في حجره. وكان أعلى رتبةً منه بأوَّليَّة [أبيه][ج] وسَلَفه، حتّى إذا بلغ أشدّه واستوى، سَمَتْ به الخِلال، وجَالت أبصارُ[د] المُلوك في اختيارِه وتَرْشيحه، حتّى استوزره السُّلْطانُ عَبْد العَزِيز ـ كما قلناه ـ وقام بوزارته أحسنَ قِيام، وأصبح مُحَمَّد بن عُثْمان هذا رَدِيفه.

وهَلَكَ السُّلْطانُ عَبْد العَزِيز، فنصب الوَزِيرُ أبو بكر ابنه السَّعيد للمُلْك صبيّاً لم يثغر، وكان من انتقاضِ أمرِه وحصاره بالبَلَد الجَدِيد واستيلاء السُّلْطان أبي العبَّاس عليه ما قدَّمناه.

وقام[هـ] مُحَمَّد بنُ عُثْمان بوزارة السُّلْطان أبي العبَّاس، مُستبِدّاً عليه، ودفع إليه أمورَ مُلكه، وشُغِل بلذّاته، فعانى مُحَمَّد بن عُثْمان من أمور الدَّوْلَة ما عاناه، حتّى كان من استيلاء السُّلْطان موسى على مُلكهم [ما مرّ.

(أ) ساقطة من ظ (ب) ضبطه في أ بسكون الحاء (ج) ظ: ابنه (د) أ، ص، ض: أنظار (هـ) ظ، أ، ض: قام

وانفضَّ بَنو][أ] مَرين عن السُّلْطان أبي العبَّاس وعنه، كما ذكرناه، ورَجَعا إلى تازَى، فدَخلها السُّلْطانُ أبو العبَّاس، وفارَقه مُحَمَّد بن عُثْمان إلى وليِّ الدَّوْلَة وَنَزْمَار ابن عَريف وهو مقيمٌ بظاهر تازَى، وتذمَّم له؛ فتجهَّم له وَنَزْمَار وأعْرض عنه، فسار مُغِذّاً إلى أحياء المُنبَّاتِ من عرب المَعْقِل؛ كانوا هُنالِك قبلةَ تازَى لِذِمَّة صحابةٍ كانت بينه وبين شيخهم أحمد بن عَبُّو، فنزل عليه مُتَذمِّماً[ب] به، فخادَعه وبعث بخبره إلى السُّلْطان، فجهز إليه عَسكَراً مع المِزْوار[ج] عَبْد الوَاحِد بن مُحَمَّد بن عَبُّو بن قاسم، ورَزُّوق بن تُوقَرِيطَتْ، والحسن أعوفي[د] من الموالي، فتبرَّأ منه العَرَبُ وأسْلموه إليهم، فجاؤوا به وأشهروه يومَ دُخولِه إلى فاس. واعتُقل أيّاماً، وامتُحن في سبيلِ المُصادرة حتَّى استُصْفِي، ثمَّ قُتل ذبيحاً بمَحْبِسه. والله وارث الأرْض ومَنْ عليها.

خروجُ الحسن بن النَّاصِر بغُمَارة، ونهوضُ الوَزِير ابن مَاسَايْ إليه بالعَساكر

[293 ب] / لمَّا استقلَّ السُّلْطانُ موسى بمُلْك المَغْرب، وقام مَسْعُود بن مَاسَايْ بوزارته مُسْتَبِدّاً عليه، وكان من تَغْريبهم السُّلْطان أبا العبَّاس إلى الأنْدَلُس ونكبتهم وزيره مُحَمَّد بن عُثْمان وقتلهم إيَّاه، وافترق أشياعُ الوَزِير مُحَمَّد بن عُثْمان من قَرابته وبطانته، فطلبوا بطن الأرْض، ولحق منهم ابن [أخته][هـ] العبَّاس بن المقداد بتُونِس،

(أ) عوض ما بين الحاصرتين في ظ: فأمروا بعض بني... !؟ (ب) ظ: مبتدعاً (ج) ظ: المروان (د) كذا في ظ، أ، ض، وفي ص: آعوفي (هـ) ظ، أ: ابن أخيه، ومهملة في ض، والمثبت من ص، وهو الصّواب، وسيرد ذكره فيما بعد (ص473) في باب الخبر عن مسير السلطان أبي العباس من سبتة ...

فوجد هُنالِكَ الحسن بن النَّاصِر ابن السُّلْطان أبي علي قد لحق بها من مقرّه بالأنْدَلُس في سَبيل طَلَب المُلْك، فثابَ له رأيٌ في الرُّجوع به إلى المَغرب لطَلَب الأمر هُنالِكَ؛ فخرج به من تُونِس، وقطع المفاوِز والمشاق إلى أنْ انتهى إلى جبال غُمَارَة[أ]، ونزل على أهل الصَّفِيحَة منها، فأكرموا مَثْواه وتلقّيه، وأعلنوا بالقيام بدعوته، واستوزر العبَّاس بن المقداد.

وبَلَغ الخَبَرُ إلى مَسْعُود بن مَاسَايْ بفاس، فجهّز العَسَاكِرَ لطلبه مع أخيه مهدي ابن مَاسَايْ، فحاصَروه بجبل الصَّفِيحَة أيَّامَاً. وامتنع عليهم، فتجهَّز الوَزِير مَسْعُود بن مَاسَايْ بالعَسَاكِر[ب] من دارِ الملك، وسار لحصاره، ثمَّ رَجَع من طَرِيقه؛ لِمَا بلَغه من وفاة السُّلْطان بعده.

وفاةُ السُّلْطان موسى، والبيعةُ للمنتصر ابن السُّلْطان أبي العبَّاس

كان السُّلْطانُ موسى لمَّا استقلَّ بمُلْك المَغرب، استنكف من استبداد ابنِ مَاسَايْ عليه، وداخَلَ بِطانَته في الفَتْك به، وأكثرُ ما كان يُفاوِض في ذلك كاتِبه وخالِصته مُحَمَّد ابن كاتبِ أبيه وخالصته مُحَمَّد بن أبي عمرو.

وكان للسُّلْطانِ[ج] موسى نَدْمانٌ يُطْلِعُهم على الكثير من أُمورِه؛ منهم العبَّاس بنُ عُمَر بن عُثْمان الوَسْنَافيّ، وكان الوَزِيرُ مَسْعُود بن مَاسَايْ قد خَلَف أباه عُمَر على أُمّه ورَبِيَ في حِجْره، فكان يُدلِي إليه بذلك ويَشِي له بما يدور في مجلس السُّلْطان في شأنه، فحصلت للوزير بسببِ ذلك نفرةٌ طلب لأجلها البُعد عن السُّلْطان، وبادر

(أ) ظ، ص، ض: غمارى (ب) ظ: فجهّز الوزير ..... العساكر (ج) ظ: السلطان

بالخروج لمدافعة الحسن القائم بغُمَارَة، واستخلف على دارِ الملك أخاه يَعِيش بن رَحُو ابن مَاسَايْ، فلمَّا انتهى إلى القَصْر الكبير لحقهُ الخبرُ بوفاة السُّلْطان موسى. وكانت وفاته / في شهر [رمضان][أ]؛ طَرقه المرضُ فهَلَكَ ليومٍ وليلةٍ، حتّى كان النَّاسُ يَرْمُون [أ294] يَعِيشَ أخا الوَزِير بأنَّه سمَّهُ.

وبادَرَ يَعِيش فنَصب ابنَ أخته للمُلْك، وهو المنتصر[ب] ابنُ السُّلْطان أبي العبَّاس. وانكفأ الوَزِيرُ مَسْعُودٌ راجعاً من القَصْر، وقتل الشُّبَيِّع مُحَمَّد بن موسى بن إبراهيم من طَبقة الوزراء، وقد مرَّ ذكره وذكر قومه، وكان اعتقله أيَّام السُّلْطان موسى، فقتله بعد وفاته. واستمرَّت أمور الدَّوْلَة [في استقلاله][ج].

إجازةُ الواثق مُحَمَّد بن أبي الفَضْل ابن السُّلْطان أبي الحسن من الأَنْدَلُس، والبَيْعة له بفاس

كان الوَزِيرُ مَسْعُود بن مَاسَايْ لمَّا استوحش من السُّلْطان موسى، بعث ابنه يَحْيَى وعَبْد الوَاحِد المِزوار إلى السُّلْطان ابن الأَحْمر يسألُ منه إعادة السُّلْطان أبي العبَّاس إلى مُلكه، فأخرجه ابنُ الأَحْمر من الاعتقال، وجاء به إلى جَبَل الفَتْح يرومُ إجازته إلى العُدْوَة.

فلمَّا توفي السُّلْطانُ موسى، بدا للوزير مَسْعُود في أمْره، ودسَّ للسُّلْطان ابن

(أ) مكانها بياض في الأصول الأربعة، والمثبت من جذوة الاقتباس لابن القاضي 2: 33، وفيه: أنه مات مسموماً يوم الجمعة الثالث من الشهر المذكور، وعند السلاوي (الاستقصا 4: 71) نقلاً عن ابن خلدون أنه توفي في جمادى الآخرة. (ب) ظ: المستنصر (ج) سقط ما بين الحاصرتين من ظ

الأحْمر بردّه[أ]، وأنْ يبعثَ إليه بالواثق مُحَمَّد بن أبي الفَضْل ابن السُّلْطان أبي الحسن من القَرابة المُقيمين عنده، ورآه ألْيَقَ بالاستبداد والحَجْر، فأسْعفه ابنُ الأحْمر في ذلك، ورَدَّ السُّلْطانَ أحمد إلى مكانه بالحمراء. وجاء بالواثق، فحضر بجَبَل الفَتْح عندَه. وفي خلال ذلك وَصَل جماعةٌ من أهل الدَّوْلَة؛ انتقضوا على الوَزِير مَسْعُود، ولَحِقوا بسَبْتَة، وأجازوا إلى السُّلْطان ابن الأحْمر؛ وهم: يَعِيش بنُ علي بن فارس اليابانيّ، وسَيُّور[ب] بنُ يَحْيَاتَن بن عُمَر الوَنكَاسَنيّ، وأحمدُ بنُ مُحَمَّد الصُّبَيْحيّ، فدَفَع إليهم الواثقَ، ورجعوا به إلى المَغْرب على أنَّهم في خدمة الوَزِير، حتّى إذا انتهو إلى جبل زَرْهُون المطلّ على مِكْنَاسَة، أظْهَروا الخلافَ على الوَزِير، وصَعِدُوا إلى قبائل زَرْهُون واعتصموا بجبلهم. ولَحِق بهم مَنْ كان على مثل دِينهم من الخلاف على ابن مَاسَايْ، وصاروا معهم يداً؛ مثل: طَلْحَة بنِ الزُّبَيْر الوَرْتَاجِّنِيّ، وسَيُّور[ج] بنِ يَحْيَاتَن ابن عُمَر / [294 ب] الوَنكَاسَنِيّ، ومُحَمَّد التُونِسيّ من بَني أبي الطَّلاق، وفارح بن مهدي من مَعْلوجَى السُّلْطان، وأصلُه من موالي بَني زَيَّان مُلُوك تِلِمْسان.

وكان أحمد بنُ مُحَمَّد الصُّبَيْحيّ، من حين جاء مع الواثق، قد استطال على أصحابه وأظْهر الاستبداد، بما كان من طائفة الجُنْد المستخدَمين، فغصَّ به أهلُ الدَّوْلَة وتبرَّأوا منه للسُّلْطان الواثق، فأظهر لهم البراءة منه[د]، فوثبوا به وقَتلوه عند مُخيَّم[هـ] السُّلْطان. وتولَّى كِبْرَ ذلك يَعِيش بنُ عليّ بن فارس اليابانيّ كبير بَني مَرِين، فذهب مثلاً في الغابرين، ولم تبكِ عليه سماءٌ ولا أرض.

(أ) ظ: يرده (ب) مهملة في ظ، ض (ج) ظ: سنور، ومهملة في ض (د) ظ، ص (بخطه في الهامش): منهم (هـ) ظ، ص: عند باب خيمة، وكانت كذلك في ض فأصلحها بخطه

وكان رَزُّوق بن تُوقَرِيْطَت من مَوالي بَني عليّ بن زَيَّان من شيوخ بَني وَنكَاسَن، وكان من أعيان الدَّوْلَة ومقدّمي الجُند، قد انتقض على الدَّوْلَة أيَّامَ السُّلْطان موسى، ولَحِق بأحياء أولاد حسين من عرب المَعْقِل، المُخالفين مُذ أيَّام السُّلْطان موسى، ونزل على شيخهم يُوسف بن عليّ بن غانم، لذِمَّة صحابةٍ بينهما من جِوارهم في المواطن(أ). وكان معه في ذلك الخلاف مُحَمَّد بن يوسُف بن عَلَّال؛ كان أبوه يوسُف من صَنائع السُّلْطان أبي الحسن ونشأةِ دَوْلته، استوحشا من الوَزِير، فلَحِقا بالعرب، فلمَّا جاء هذا السُّلْطان الواثق قَدِما عليه، فلقيها بالتَّكرمة وأحلَّهما في مقامهما من الدَّوْلَة.

وخرج الوَزِيرُ ابنُ مَاسَايْ في العَسَاكر، ونَزل قُبالتَهم(ب) بجبل مَغِيْلَة، وقاتلهم هُنالِك أيَّاماً، وداخَلَ الذين مع الواثق واستمالهم، وبعث عَسكراً إلى مِكْنَاسَة؛ فحاصَرُوها، وكان بها يومئذٍ عبدُ الحَقّ بنُ الحسن بن يوسُف الوَرْتَاجَّنِيّ(ج)، فاستنزله منها(د)، ومَلكها. وتردَّدت المراسلاتُ(هـ) بينه وبين الواثق وأصحابه على أن ينصبَه للأمر، ويبعثَ بالمنتصر(و) المنصوب عنده إلى أبيه السُّلْطان أبي العبَّاس بالأنْدَلُس، وانعقد الأمرُ بينهم على ذلك.

وسارَ الواثقُ في أصحابه إلى الوَزِير ابن مَاسَايْ، فنزل عليه. ومَضى يَعِيش بنُ عليّ بن فارس عنهم ذاهباً لوجهه. وسار الوَزِير بالواثق إلى دارِ الملك، فبايعه في

(أ) ص: الموطن (ب) ظ: قبالهم (ج) ظ: الورياجني (د) ظ: فيها، وهو خلاف المقصود (هـ) ظ: المراسلة (و) ظ: المستنصر

شَوَّال ثمانٍ وثمانين، بعد أنْ اشترطَ(أ) عليه لنفسه وأصحابه ما شاء. وأجاز سُلْطانَه المنتصر إلى [أبيه](ب) السُّلْطان أبي العبَّاس بالأنْدَلُس، وقبض على جماعةٍ ممَّن كان مع الواثق، مثل: المزْوار عَبْد الوَاحِد / [295أ] وقَتَله، وعلى فارح بن مهدي، وحَبَسه، وعلى جاء الخَيْر(ج) مولى الأمير عبد الرَّحمن؛ وامْتَحنه، وعلى آخرين سواهم. ثمَّ قبض على جماعةٍ من بِطانة السُّلْطان موسى؛ كانوا(د) يُداخلونه في الفَتْك به، فحَبَسهم وقَتل بعضهم. وعلى جُند الأنْدَلُس الذين جاؤوا مَدَداً للواثق، وعلى قُوَّادهم من مَغلوجَي ابن الأَحْمر، فأوْدعهم السُّجونَ.

ثمَّ قبضَ على كاتبِ السُّلْطان موسى أبو الفَضْل مُحَمَّد بن أبِي عَمْرو؛ مَرْجعَه من السِّفارة عن سُلْطانه إلى الأنْدَلُس، فاعتقله وصادَره، ثمَّ خلَّى سبيله.

ثمَّ بعثَ إلى الحسن بن النَّاصِر الثائر بجبل الصَّفِيحَة من غُمَارَة مع إدْرِيس بن موسى بن يوسُف اليابانيّ، فخادَعه باستدعائه للمُلْك والبَيْعة له، فخَدَعه(هـ) واستنزله. وجاء به، فاعتقله الوَزِيرُ أيَّاماً، ثمَّ أجازه إلى الأنْدَلُس، [واستقرَّ الأمرُ على ذلك](و).

الفِتْنَةُ بين الوَزِير ابن مَاسَايْ وبين السُّلْطان ابن الأَحْمر، وإجازةُ السُّلْطان أبي العَبَّاس إلى سَبْتَة، لطلب مُلْكه، واستيلاؤه عليها

لمَّا بايع الوَزِيرُ ابن مَاسَايْ [للواثق](ز)، ورأى أنَّه قد استقلّ بالدَّوْلَة ودفع عنها

(أ) ص: شرط (ب) ظ، ض: ابنه (ج) مهملة في ظ، ض (د) ظ: وكانوا (هـ) ظ: فجدعه. والجدع والجَدْع: الحبس والسجن، وأيضاً: قطع الأنف أو الأذن أو اليد أو الشَّفة ونحوها. لسان العرب، مادتي: جدع، وجذع (و) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ز) ساقطة من ظ

الشَّوَاغِبَ، وصَرَف نظرَه إلى استرجاع ما فرط من أعمال الدَّوْلَة، وافتتح أمرَه بسَبْتَة. وقد كان السُّلْطانُ موسى لأوَّل إجازته، أعطاها لابن الأحْمر، كما مرَّ، فبعث إليه الآن الوَزِيرُ ابن مَاسَايْ في ارْتجاعها منه على سبيل الملاطفة، فاستشاط لها ابنُ الأحْمر ولجَّ في الرَّدِّ، فنشأت الفِتْنَة لذلك.

وجهَّز ابنُ مَاسَايْ العَسَاكِر لحصار سَبْتَةَ مع العبَّاس بن عُمَر بن عُثْمان الوَسْنَافيِّ، ويَحْيَى بن علَّال بن أمَصْمود، والرَّائِس[1] مُحَمَّد بن مُحَمَّد الأبْكَم من بَني الأحْمر، ثمَّ من بيت السُّلْطان الشَّيخ، فاتح أمرهم ومُمَهِّد دولتهم. وراسل سُلْطان إشْبيلِيَّة والجَلالِقَة من بَني أذْفُونْش وراء البَحْر، بأنْ يبعثَ إليه ابنَ عمِّ السُّلْطان ابن الأَحْمر مُحَمَّد بن إسماعيل مع الرَّائِس الأبْكم، ليُجْلِبا من ناحيته على الأنْدَلُس. وجاءت عساكِرُ الوَزِير إلى سَبْتَة، فحاصَروها ودَخلوها عَنْوةً، واعتصم حاميةُ الأنْدَلُس الذين / كانوا بها بالقَصَبة. واتَّصلت الجولةُ بين الفريقين وسطَ البَلَد. وأوْقد أهلُ القَصَبة [295 ب] النِّيران بالجبل، علامةً على أمرهم، ليَراها ابن الأحْمر ـ وكان مُقيماً بمَالَقَة ـ فبادَر بتَجْهيز الأُسْطُول مَشْحوناً بالمقاتلة مَدَداً لهم. ثمَّ استدعى السُّلْطان أبا العبَّاس من مَكانِه بالحمراء، وأركبه السُّفِين إلى سَبْتَة، فأصْبحَ بالقَصَبة في غُرَّة صَفَر تسعٍ وثمانين، وأشرف عليهم من الغد، وناداهم من السُّور يدعوهم إلى طاعته، فلمَّا رأوه اضطربوا

(1) تقدم لقبه: الرئيس، ودرج من هنا إلى آخر الجزء إثباته الرائس، وهو لقب مخصوص بربّان السفينة (ابن جبير: الرحلة 50) ولم نهتد إلى إثبات الوجه فيه أو معرفة لِمَ خُصَّ به محمد الأبكم، وقد ورد في نفح الطيب واستبدله المحقق (المرحوم د. إحسان عباس) دون التعليق عليه.

وافترقوا، وخرج إليهم، فنهب سوادهم، ودخلوا في طاعته مُتَسَايِلين. ورجع جمهور [أهل][أ] الغَرْب[ب] ومقدّموهم إلى طَنْجَة.

واستولى السُّلْطانُ على مدينة سَبْتَة، وبعث إليه ابنُ الأحْمر بالنُّزول عنها وردّها إليهم، فاسْتقرّت في مُلكه وكَمُلت بها بَيْعته. وكان يوليه[ج] أمور الضُّيَّاف[د] الواردين، [والنَّظر في أمور مَطْبَخِه][هـ].

مسيرُ السُّلْطانِ أبي العبَّاس من سَبْتَة لطَلَب مُلْكه بفاس، ونُهوض ابن مَاسَايْ لدِفاعه، ورُجوعه مُنْهَزِماً

ولمَّا استولى السُّلْطانُ أبو العبَّاس على سَبْتَة وتمَّ له مُلكها، اعتزَمَ على المسير لطلب مُلكه بفاس. وأغراهُ ابنُ الأحْمر بذلك، ووَعَده بالمَدَد، بما كان من مُداخلة ابنِ مَاسَايْ لجماعةٍ من بِطانته في أنْ يقتلوه ويُمَلّكوا الرَّائِسَ الأبْكَم؛ يُقال: إنَّ الذي داخَلَه في ذلك، من بِطانة ابن الأحْمر، يوسُف بنُ مَسْعُود البَلَنْسِيّ، ومُحَمَّد ابن الوَزِير أبي القَاسم بن الحكيم الرُّنْديّ، وشعر بهم السُّلْطانُ ابن الأحْمر، وهو يومئذٍ على جَبَل الفَتْح، يُطالع أمورَ السُّلْطان أبي العبَّاس، فقَتَلهم[و] جميعاً[ز]. ويُقَال: إنَّ ذلك كان بِسِعايَة القائم على دَوْلَته مَوْلاه خالد؛ كان يغصّ بهم ويُعاديهم[ح]، فاختلق عليهم هذه وتمَّت سِعايتُه بهم، فاستَشاط ابنُ الأحْمر غَضَباً على ابن مَاسَايْ، وبعث إلى السُّلْطان

(أ) زيادة من مخرج في أ، ض بخط ابن خلدون (ب) ظ، ص: العرب (ج) ظ: توليه (د) أ: الضيوف (هـ) ما بين الحاصرتين من مخرج في أ بخطّه (و) ظ، ص: لقتلهم (ز) بعدها في ظ، ص: وإخوالهم، وكانت كذلك في ض ثم شُطبت (ح) ظ، ص: ويعاودهم

أبي العبَّاس يستفِزّه للرّحلة إلى طَلَب مُلكه، فاستخلف على سَبْتَة رَحُّو ابن الزَّعِيم المَكْدُولِيّ[أ] عاملَها من / قبلُ، كما مرّ، وسار إلى طَنْجَة، وعاملها من قبل الواثق صالح بن حَمُّو اليابانيّ، ومعه بها الرَّائِس الأبكَم [في جمع من][ب] العَسَاكر، فحاصرها أيّامًا وامتنعت عليه، فجمَّر عليها عَسكراً، وسار عنها إلى أصِيلاً[ج]، فدخلت في دَعْوته ومَلكها. ونَهَض الوَزِيرُ من فَاس في العَسَاكر، بعد أن استخلَف أخاه يَعِيش على دارِ الملك، وسار، ولَحِقت مُقدِّمته بأصِيلاً[د]، ففارَقها السُّلْطان أبو العبَّاس، وصَعِدَ إلى جبل الصَّفِيحَة، فاعتصم به[هـ]. وجاء الوَزِيرُ ابن مَاسَايْ، فتقَدّم إلى حصاره بالجبل، وجَمع عليه رُماةَ الرَّجْل من الأنْدَلُسيّين الذين كانوا بطَنْجَة، وأقام يُحاصره بالصَّفِيحَة شهرين. [296 ب]

وكان يوسُف بنُ عليّ بن غانم، شيخُ أولاد حسين من عرب المَعْقِل، مخالفاً على الوَزِير مَسْعُود، وداعيةً للسُّلْطان[و] أبي العبَّاس، وشيعةً له، وكان يُراسل ابن الأحْمر في شأنه. فلمَّا سَمِع باستيلائه على سَبْتَة وإقباله إلى فاس، جمع أشياعَه من العَرَب ودَخَل إلى بلاد المَغْرب، ونزل ما بين فاس ومِكْنَاسَة، وشنّ الغاراتِ على البَسائط واكْتَسحها. وأزجَف الرَّعَايَا وأجْفَلوا إلى الحُصون.

وكان وَنْزَمَار بن عَرِيف وليّ الدَّوْلَة شِيعةً للسُّلْطان، وكان يُكاتبه[ز] وهو بالأنْدَلُس، ويُكاتب[ح] ابن الأحْمر في شأنه. فلمّا اشتدَّ الحِصارُ على السُّلْطان بالصَّفِيحَة، بعث

(أ) ظ، ص: المكدودي (ب) ظ، ص: من قبل، ومثله في ض ثم أصلحه في الهامش بخطّه (ج) كتب في أ، ص، ض تحت الصاد حرف زاي (د) كتب في أ، ص تحت الصاد حرف زاي (هـ) ظ، ص: بها (و) ظ: إلى السلطان (ز) ظ، ض: مكاتبه (ح) ظ، ض: ومكاتب

ابنه أبا فارس إلى وَنزْمَار بمكانِه من نَواحي تَازَى، وبعث معه سَيُور[أ] بن [يَحْيَاتَن][ب] ابن عُمَر، فقَام وَنزْمَار بدَعْوته وسار به إلى مدينة تَازَى، وعامِلُها سُلَيمان بن بُوحَيَّات الفُودُودِيّ[ج] من قَرابة الوَزِير ابن مَاسَايْ. فلمَّا نزل به أبو فارس ابن السُّلْطان بادَر إلى طاعته وأمْكنه من البَلَد، فاستولى عليها، واستوزرَ سُلَيمان هذا، وسار إلى صُفْرُوى[1] ومعه وَنزْمَارُ للاجتماع بعرب المَعْقِل وإصفاقِهم على حصار فاس. وكان مُحَمَّد بن الدَّمْعة عاملاً على وَرْغَة، فبعث إليه السُّلْطان عَسكراً / مع العبَّاس بن |296 ب| المقداد ابن أخت الوَزِير مُحَمَّد بن عُثْمان، فقَتلوه وجاؤوا برأسه. ونجم الخلافُ على يَعِيش نائب البَلَد الجَدِيد من كلّ جهةٍ، وطيَّر *يَعِيش بنُ مَاسَايْ، النَّائب بدار الملك*[د]، بالخبر بذلك كلّه إلى أخيه بمكانِه من حِصار السُّلْطان بالصُّفيحَة، فانفضَّت عنه العَسَاكر وأجفل راجعاً إلى فاس. وسار السُّلْطان في اتّباعه، ودَخَل في طاعته عامل مِكْنَاسَة جاء الخيْر مولى الأمير عبد الرَّحمن. ولقيه يوسُف بن علي بن غانم ومَنْ معه من أحياء العَرَب، وساروا جميعاً إلى فاس.

وكان أبو فارس ابن السُّلْطان، قد رحل من تَازَى إلى صُفْرُوى[هـ] للقاء أبيه، فاعترَضه الوَزِير ابن مَاسَايْ في العَسَاكر، رجاءَ أنْ يفلَّه، ولقيه ببَني بهلول، فنزع أهلُ العَسْكَر إلى أبي فارس. ورَجَع الوَزِير مُنهزماً، ودخل البَلَد الجَدِيد، فاعتصم بها.

(أ) مهملة في ظ، ص (ب) مكانها بياض في ظ (ج) ظ: التودودي (د) شطب ما بين النجمين في أ (هـ) ظ: صفرد

(1) ظ: صفردي، والمثبت موافق للإدريسي (نزهة المشتاق 1: 243)، وصاحب الاستبصار 193، ولما جاء في أحد أبيات ابن الخطيب (الإحاطة 4: 23)، وعند البكري (المسالك 2: 834): سفروي، والوزان (وصف إفريقيا 1: 362): صَفْرُو. وهي مدينة صغيرة بين نهرين، تقع في سفح الأطلس على بعد نحو خمسة عشر ميلاً جنوب فاس، وانظر أيضاً: مقديش: نزهة الأنظار 1: 51، 70 وفيه بفتح أوله.

وبلَغ خبرُه إلى السُّلْطان وهو بِمِكْنَاسَة، فارتَحل يُغِذُّ السَّيْرَ إلى فاس. وسار ابنُه أبو فارس للقائه، فلقيه على وادي النَّجَا. وصبَّحوا البَلَد الجَدِيد، فنزلوا عليها بجُموعِهم، وقد اعتصم بها الوَزِير في أوليائه وبِطانته، ومعه يَغْمَرَاسَن بن مُحَمَّد التَّنَالُفْتِيّ ومَراهِن[1] بَني مَرِين، الذين استرهنهم عند مَسيرِه [معهم][أ] للقاء السُّلْطان بأَصِيلاَ.

ظُهورُ دَعْوةِ السُّلْطان أبي العبَّاس في مَرَّاكُش، واستيلاءُ أوليائه عليها

كان الوَزِيرُ مَسْعُود بن مَاسَايْ، قد ولَّى على مَرَّاكُش وأعمال المَصَامِدَة، أخاه عَمَر بن رَحُّو، وكانت البلادُ مُنتظمةً في طاعته. فلمَّا بَلَغ الخبرُ بوُصولِ السُّلْطان إلى سَبْتَةَ واستيلائه عليها، تطاولت رؤوسُ أوليائه إلى إظهار دَعْوته بتلك النَّواحي، فقامَ بدَعْوته بجبل الهَسَاكِرَة شيخُهم عليّ بنُ زَكَرِيَّاء. وبعث الوَزِيرُ مَسْعُود من مكانه في حصار السُّلْطان بالصَّفِيحَة في إمْداده بالعَسَاكر من مَرَّاكُش، فخَفَّ إليه مخلوف بن سُلَيمان الوازيتيّ[ب] صاحب الأعمال / ما بين مَرَّاكُش والسُّوس، وقَعَد الباقون عن نَصْرِه وتفرَّقُوا. [297 أ]

وصَعِدَ أبو ثابت حافدُ عليّ بنِ عَمَر إلى جبل الهَسَاكِرَة، ومعه موسى بنُ يَعْقُوب ابن عليّ الصُّبَيْحِيّ، فاستَمدَّ من عليّ بن زَكَرِيَّاء ورَجَع إلى مَرَّاكُش مُجْلِباً [على][ج] عَمَر بن رَحُّو، فناوشه القتال ساعةً. ثمَّ غَلَبه على البَلَد ومَلَكها من يده ونزل بقَصَبة

(أ) ظ: معه (ب) ظ، ص، ض: الوازيني، بإهمال الياء الأولى (ج) ظ: عن

(1) المراد: جمع الرهن أو الرهينة: ما وضع عند الإنسان ممّا ينوب مناب ما أخذ منه. ولم نجدها في لغة العرب تجمع على مراهن. انظر لسان العرب، مادة: رهن

المُلك، وحبس عُمَر بن رَحُو بها، وكتب إلى السُّلطان بذلك وهو بِمِكْنَاسَة متوجّهاً إلى فاس، فكتب إليه بأنْ يصله في عساكر مَرَّاكُش لحصار دار الملك، فجمع العَساكر، واستخلف على قصبة مَرَّاكُش بعضَ بَني عَمّه، ولَحِق بالسُّلطان، وأقام معه في حصار البَلَد الجَدِيد.

ولايةُ المُنْتصر ابن السُّلطان على مَرَّاكُش، واستقلاله بها

كان السُّلطانُ أبو العبَّاس حين مَلَكَ أَصِيلاً[أ]، بعث ابنه مُحَمَّداً المنتصر في البَحْر إلى سَلا، واستوزر له عبد الحَقّ بن الحسن بن يوسُف، فوَصَل إلى سَلا ومَلَكها وأقام بها. ومرَّ به رَزُّوق بن تُوقَرِيطَت، راجعاً من دُكَّالَة؛ وقد بلَغه نزول السُّلطان على البَلَد الجَدِيد، فتلطَّف في استدعائه، ثمّ قبض عليه، وبعث به إلى أبيه مقيّداً، فأوْدَعه السّجنَ، وقُتل بعد ذلك في مَحْبِسه.

ثمّ بعثَ السُّلطانُ إلى ابنه المنتصر بولاية مَرَّاكُش وأنْ يسيرَ إليها، فلمَّا وصلَ، امتنع النائبُ بالقَصَبة من أنْ يُمَكِّنَهُ من البَلَد، إلاّ أنْ يَدْخُل إليه[ب] مُنْفرداً عن أصحابه وبِطانته[ج]؛ وكان عليّ بنُ عَبْد العَزِيز بن محمَّد شيخ هِنْتَاتَة مُداخلاً للنَّائب بالقَصَبة، فدسَّ لعبد الحَقّ وزيرِ المنتصر أنَّ النَّائبَ قد همَّ بقَتْله، وحينئذٍ تَمكّن المنتصر من القَصَبة، فأجْفَلَ بالمنتصر وصَعِدَ إلى جبل هِنْتَاتَة، وطَيَّر بالخبر إلى السُّلطان، فتغيّر لأبي ثابت، وأمَرَه بأنْ يُكاتبَ نائبه بتَمْكين ابنه من القَصَبة، واستوزر له سعيدَ بن عَبْدُون، وبعثه بالكتاب، وعزل عبد الحَقّ عن

(أ) في أ وضع تحت الصاد حرف زاي (ب) ساقطة من أ (ج) ظ، أ، ص: بطانه

وزارة ابنه، واستدعاه إلى فاس، فوَصَل سعيد بن عَبْدُون إلى مَرَّاكُش ودفع إلى النَّائب بالقَصَبة كتاب مُستخلفه، فأجاب إلى الامتثال، / وأمْكَنه من القَصبة، [297 ب] واعتَزل عنها فدَخَلها، وبعث عن المنتصر ابن السُّلْطان، واستولوا عليها، وقبضوا على نائب عامر الذي كان بها وسائر شِيَعِهِ وبطانته، وامتحنوهم واستصْفَوْهم، إلى أن كان ما نذكر.

حصارُ البَلَد الجَدِيد وفتحُها، ونَكْبَةُ الوَزِير ابن مَاسَايْ، ومَقْتَلُهُ

ولمَّا نزل السُّلْطانُ على البَلَد الجَدِيد واجتمع إليه سائرُ قَبيلِه وأوليائه وبطانته، داخَلَ الوَزيرَ مَسْعُوداً الحنقُ على وُجوهِ بَني مَرِين؛ لانتباذهم عنه(أ)، وهَمَّ بقَتْل أبنائهم الذين استرهنهم على الوفاء له، فلاطَفه يَغْمَرَاسَن التَّنَالُفْتِيّ في المنع من ذلك؛ فأقْصَر عنه، وضَيَّق السُّلْطانُ مُخَنَّقه بالحِصار ثلاثة أشهر، حتَّى دعا إلى النُّزُول والطَّاعَة، فبعث السُّلْطانُ إليه وليّ الدَّوْلَة وَنْزْمَار بنَ عَرِيف، وخالِصَته مُحَمَّد بنَ يوسُف بن عَلَّال، فعَقَد معهم الأمانَ لنفسه ولمَن معه، على أن يستمرّ على الوِزارَة ويبعث بسُلْطانه الواثق إلى الأنْدَلُس، واستحلفهم على ذلك، وخرج معهم إلى السُّلْطان، فدَخَل السُّلْطانُ البَلَد الجَدِيد خامسَ رمضان تسعٍ وثمانين لثلاثة أعوام وأربعة أشهر من خَلْعه. ولحين دُخوله قَبَض على الواثق وبعث به معتقَلاً إلى طَنْجَة حتَّى قُتل بها بعد ذلك.

(أ) ظ، ص: عنهم، ومثله في ض ثم أصلحت

ولمَّا استوى على أمْرِه، قَبض على الوَزِير مسعود ليومَيْن من دُخوله وعلى إخوته وحاشيته، وامتحَنهم جميعاً؛ فهَلكوا في العذاب. ثمَّ سلَّط[أ] على مَسْعُود من العذاب والانتقام ما لا يُعَبَّر عنه، ونَقِم عليه ما فَعَله في دُور بَني مَرِين النَّازِعِين إلى السُّلْطان؛ فإنَّه كان متى[ب] هَرَب عنه أحد [منهم][ج] يَعْمد إلى بُيوته فينهبها ويخربها، فأمر السُّلْطان بعِقَابه في أطْلالها، فكانَ يُؤتى به إلى كلّ بيتٍ منها، فيُضْرَبُ عشرين سَوْطاً، إلى أنْ أفحَش فيه العذابُ وتجاوز الحدّ، ثمَّ أمر به فقُطِع، فهَلَكَ عندَ قطع الثَّانية من أربعته، وذهب مثلاً في الآخرين.

وزارة مُحَمَّد بن عَلَّال

كان أبوه يوسُف بن عَلَّال نشأة الدَّوْلَة، وصَنيعةَ[د] السُّلْطان أبي الحسن، ورَبِيَّ دارِه، / [298 أ] ولمَّا ضَخُم أمرُه، سَما به إلى ولاية الأعْمال، فولَّاه على دَرْعَة، فأثْرى وأنْجب وباهى أولياء الدَّوْلَة.

ثمَّ ولَّاه السُّلْطان أبو عِنَان أمْرَ مَطْبَخِه ومائدته وضُيوفه واستكفى به في ذلك، وولّاه أخوه أبو سالم بعدَه كذلك. ثمَّ بعثه على سِجِلْمَاسَة، فعانى بها من أمور العَرَب مشقَّةً، وعزله عنها، فهَلَكَ بفاس.

وكان له جماعةٌ من الوَلَد نشأوا في ظلّ هذه النعمة، وجذَبتِ[هـ] النَّجابةُ بمُحَمَّد منهم. فلمَّا وَلِيَ السُّلْطانُ أبو العبَّاس، استعمله في أُمُور الضُّيَّاف[و] والمطبخ][ز]

(أ) أ: سلطوا (ب) ظ: فإنه متى كان (ج) ساقطة من ظ (د) ظ، ض: وصنعة، ص: وصيغة (هـ) ظ: وحديث، ص: وحنث (و) أ، ص: الضيوف (ز) زيادة من مخرج في أ بخطه

والمائدة كما كانت لأبيه. ثمَّ رقَّاه إلى المخالصة وخلَطه بنفسه.

فلمَّا خُلع السُّلطانُ، واستولى الوَزِيرُ ابن مَاسَايْ على المَغْرب، وكانت بينه وبين أخيه يَعِيش بن مَاسَايْ إحَنٌ قديمةٌ، فسَكَن لصَوْلتهم، حتَّى إذا اضطرمت نارُ الفِتْنَة [بالمَغْرب](أ)، وأجلب(ب) عربُ المَعْقِل في الخلاف، استوحش مُحَمَّد هذا، فلَحِق بأحيائهم مع رَزُّوق بن تُوقَرِيطَتْ، كما مرَّ ذكره. ونزلا على يوسُف بن عليّ بن غانم شيخ أولاد حسين، وأقاما معه في خِلافه، حتَّى إذا أجاز السُّلطان الواثق من الأنْدَلُس، ووَصَل مع أصحابه إلى جبل زَرْهُون، وأظْهروا الخِلافَ على الوَزِير ابن مَاسَايْ، بادر مُحَمَّد هذا ورَزُّوق إلى السُّلْطان ودَخلا في طاعته، مُتَبَرِّئين من النِّفاق الذي حملتهم عليه عَداوة الوَزِير ابن مَاسَايْ. فما كان إلاَّ أنْ انعقدَ الصُّلْحُ بين الواثق وابن مَاسَايْ، وسارَ به وبأَصْحابه إلى فاس، وحَصلوا في قَبضة ابن مَاسَايْ، فعفا لهم عمَّا كان منهم، واستعملهم في معهود ولاياتهم.

ثمَّ جاء الخَبَرُ بإجازة السُّلْطان أبي العبَّاس إلى سَبْتَة، فاضطرب مُحَمَّد بن يوسُف، وذكرَ مُخالصة السُّلْطان ومُنافرةَ بَني مَاسَايْ، فأجمع أمْرَه ولَحِق بسَبْتَة؛ فتلقَّاهُ السُّلْطانُ بالكرامة، وسُرَّ بمَقْدَمِهِ، ودَفَعه إلى القيام بأمْرِ دَوْلَته، فلم يَزَل مُتَصرِّفاً بين يديه، إلى أنْ نَزَل على البَلَد الجَدِيد. ولأيَّامٍ من حِصارها، خَلَعَ عليه للوزارة ودَفَعه إليها، فقام بها أحسنَ قيام. ثمَّ كان الفَتْحُ وانتظمت أمور الدَّوْلَة، ومُحَمَّدٌ هذا يصرِّفُ الوِزارَةَ على أحسن أحوالها، إلى أنْ كان ما نذكر.

(أ) ساقطة من ظ (ب) ظ: وأحلت

/ ظهور مُحَمَّد ابن السُّلْطان حَلي بسِجِلْمَاسَة[أ] [298 ب]

قد تقدَّم ذِكْر السُّلْطان عَبْد الحَلِيم ابن السُّلْطان أبي عليّ، وكان يُدْعى حَلي، وكيف بايع له بَنو مَرِين وأجلبوا به على عُمَر بن عَبْد الله سنة ثلاثٍ وستّين، أيّامَ بَيْعته للسُّلْطان أبي عُمَر ابن السُّلْطان أبي الحسن، وحاصروا معه البَلَد الجَدِيد، حتّى خرج لِدِفاعهم وقاتَلَهم، فانهزموا وافترقوا.

ولَحِق السُّلْطان عَبْد الحَلِيم بتَازَى، وأخوه عَبْد المُؤمن بمِكْنَاسَة، ومعه ابنُ أخيهما عبد الرَّحمن بن بُويَفَلُوسَنْ.

ثمَّ بايعَ الوَزِيرُ عُمَر بن عَبْد الله لمُحَمَّد بن أبي عبد الرَّحمن ابن السُّلْطان أبي الحسن، واستبدل به من أبي عُمَر؛ لِمَا كان بَنو مَرِين يَرْمونه به من الجنون والوَسْوَسة، فاستدعى[ب] مُحَمَّد بن أبي عبد الرَّحمن من مطرح اغترابه بإشبيلِيَّة، وبايع له.

وخرج في العَساكر لمُدافعة عَبْد المُؤمن وعبد الرَّحمن عن مِكْنَاسَة، فلَقِيَهما وهَزَمهما، ولَحِقا بالسُّلْطان عَبْد الحَلِيم بتَازَى، وساروا جميعاً إلى سِجِلْمَاسَة؛ فاستقرّوا فيها، والسُّلْطانُ لعَبْد الحَلِيم[ج]، وقد تقدَّم خبرُ ذلك كلّه في أماكنه.

ثمَّ كان الخلاف بين *عرب المَعْقِل*[د] أولاد حسين والأحلاف، وخرج عَبْد المُؤمن للإصلاح بينهم، فبايع له أولاد حسين ونصبوه كُرْهاً للمُلْك. وخَرَج السُّلْطان عَبْد الحَلِيم إليهم في جُموع الأحلاف، فقاتَلوه وهَزَموه، وقتلوا كبارَ قَوْمِه؛ كان

(أ) ظ: على سجلماسة (ب) أ: فاستدعاه (ج) بعدها في أ: منها (د) سقط ما بين النجمين من أ

منهم[أ]: يَحْيَى بنُ رَحُّو بن تَاشِفِين بن معطي شيخ بَني تيرْبيعِين وكبيرُ دَوْلَة[ب] بني مَرِين؛ أجْلت المعركةُ عن قَتْله[ج]، ودخل عَبْد المُؤمن البَلَد مُنفرداً بالمُلْك.

وصَرَف السُّلْطانُ أخاه عَبْدَ الحَلِيم إلى المشرق لقضاء فَرْضِه برَغْبتِه في ذلك، فسار على طَرِيق القَفْر مسلك[د] الحاجّ من التّكرور إلى أنْ وَصَل القاهرة، والمستبِدُّ بها يومئذٍ يَلْبُغا الخاصِكِيّ، على الأشْرف شَعْبان بن حسين، من أسْباط الملك النّاصِر مُحَمَّد بن قَلاوون، فأكْرمَ وِفادَته، ووسَّع نُزُله وجِرايته، وأدَرَّ لحاشِيته الأرزاق، ثمّ أعانه على[هـ] طَرِيقِه إلى الحجّ بالأزْواد والآنية[و] والظَّهْر من الكراع والخُفّ. ولمَّا انصرف من حَجّه، زوَّده لسَفَرِ[هِ قافلاً بعد أنْ أصدَر له تقليدَ الخليفة العبَّاسيّ بمُلْك][ز] المَغْرب. وهَلَك بتَرُوجَةَ[1] سنة سبعٍ وستِّين. ورجع حاشيتُه إلى المَغرب بحُرَماتِه ووَلَده.

[299 أ] وكان ترك مُحَمَّداً / هذا رضيعاً، فشبَّ مُتقلِّباً بين الدُّوَل من مَلِكٍ إلى آخر، مُنتبذاً عن قَوْمه لغَيْرَة بَني السُّلْطان أبي الحسن من بَني عمِّهم السُّلْطان أبي عليّ. وكان أكثر ما يكونُ مُقامُه عندَ أبي حَمُّو سُلْطان بَني عَبْد الوَاد بتِلِمْسان؛ لِمَا يَرومُ به من الإجْلاب على المَغْرب ودَفْع عادية بَني مَرِين عنهم.

(أ) أ: وقتلو كِبار قومه مثل... (ب) ساقطة من أ (ج) أ: عنه قتيلاً (د) أ: في مسلك (هـ) أ: إلى (و) أ: الأبنية، ومثله في ظ، ص، ض مهملة (ز) ما بين الحاصرتين من أ وحدها

(1) تَرُوجَة: ويقال: تَرُّجة، قرية كبيرة من أعمال الإسكندرية، زارها ابن بطوطة وحدد بُعدها عن مدينة الإسكندرية على مسيرة نصف يوم، وضبطها بالفتح: "تَرَوْجَة" خلاف ضبط ياقوت. ياقوت: معجم البلدان 2: 27، ابن بطوطة: تحفة النظار 1: 192.

فلمّا وَقَع بالمَغرب من انتقاض عرب المَعْقِل على الوَزِير مَسْعُود بن مَاسَايْ سنة تَسعٍ وثمانين ما وَقَع، واستمرّوا على الخلاف عليه، انتهز أبو حَمُّو الفُرْصَةَ، وبعث بمُحَمَّد بن حَلي هذا إلى المَعْقِل ليجلبوا به على المَغْرب، ويُمزّقوا من مُلكِه ما قدروا عليه، فلَحِق بأحيائهم، ونزل على الأحلاف الذين هم أمسّ رَحِماً بسِجِلْمَاسَة [من سائر المَعْقِل][أ]، وأقربُ موطناً إليها. وكان الوَزِير مَسْعُود بن مَاسَايْ قد وَلّى عليها من قَرابته عليّ بن إبراهيم بن عَبُّو بن مَاسَايْ. فلمّا ظهر عليه السُّلْطانُ أبو العبّاس، وضيَّق مُخَنَّقه[ب] بالبَلَد الجَدِيد، دسّ إلى الأحلاف وإلى قَريبه عليّ بن إبراهيم أنْ ينصبوا مُحَمَّد ابن السُّلْطان عَبْد الحَلِيم ويُملّكوه سِجِلْمَاسَة، ويجلبوا به على تُخوم المَغْرب، ليأخذوا بحُجْزَة السُّلْطان أبي العبّاس عنه، وينفسوا من خناقه، ففعلوا ذلك. ودخل مُحَمَّد إلى سِجِلْمَاسَة مُمَلَّكاً، وقام عليّ بنُ إبراهيم بوزارته، حتّى إذا استولى السُّلْطانُ أبو العبّاس على البَلَد الجَدِيد، وفَتَك بالوَزِير مَسْعُود بن مَاسَايْ وبإخوته وسائر قَرابته، اضطربَ عليّ بنُ إبراهيم وفسَد ما بينه وبين سُلْطانه مُحَمَّد، فخرج عنه من سِجِلْمَاسَة *وعاد إلى أبي حَمُّو سُلْطان تِلِمْسان كما كان.

ثمّ زادت هَواجسُ عليّ بن إبراهيم وارتيابه، فخرج عن سِجِلْمَاسَة وتَركها*[ج] ولَحِق بأحياء العَرَب. وسارت طائفةٌ منهم معه إلى أنْ أبلغوه[د] مأمَنه[هـ]، ونَزَل على السُّلْطان أبي حَمُّو، [ولم يَزَل معه][و] إلى أنْ هَلَك، *فسار إلى تُونِس، وحَضَر وفاة

(أ) ما بين الحاصرتين زيادة من أ (ب) أ: حصاره (ج) سقط ما بين النجمين من أ، وشطب في ض (د) ظ: بلغوه (هـ) بعدها في أ ومخرج في ض بخطه: "وعاد إلى تلمسان"، وهو استعاضة عن النص المحصور بين النجمين الذي شطبه (و) ما بين الحاصرتين زيادة من أ وحدها

السُّلْطان أبِي العبَّاس بها سنة ستٍّ وتسعين. ولَحِق مُحَمَّد ابن السُّلْطان عَبْد الحَلِيم بعد مَهْلِك أبِي حَمُّو بتُونِس*[أ]، ثمَّ ارْتحل بعدَ وفاةِ السُّلْطان أبِي العبَّاس إلى المشرق في سبيلِ جَوْلةٍ ومُطاوعة اغتراب [إلى هذا العَهْد][ب].

نَكْبَةُ ابنِ أبِي عَمْرو ومَهْلِكُه، وحَرَكَات ابن حَسُّون[ج]

لمَّا استقلَّ السُّلْطانُ بمُلكِه، / واقتعد سريرَه، صَرَف نَظَره إلى أولياء تلك الدَّوْلَة [299 ب] ومَن يرتاب منه. وكان [أبو الفضل][د] مُحَمَّد بن أبِي عَمْرو - وقد تقدّم ذِكْره وأوّليته - من جُمْلة خَواصّه ونَدْمانه. وكان السُّلْطانُ يَقْسِم له من عنايته وجميل نَظَره، ويرفعه على أنظاره. فلمَّا وَلِي السُّلْطانُ موسى، نَزَعتْ به إليه نَوازعُ المُخالَصة لأبيه من السُّلْطانِ أبِي عِنَان؛ فقد كان أبوه من أعزّ بِطانته، كما مرّ. فاستخلصَهُ السُّلْطانُ موسى للشُّورى، ورَفَعه على سائر أهل الدَّوْلَة، وجَعَل إليه كتابَ عَلامتِه على المراسم السُّلْطانيَّة، كما كان لأبيه، وكان يُفاوِضه في مُهمَّاته، ويَرْجِع إليه في أموره، حتّى غصَّ به أهلُ الدَّوْلَة، ونُمِيَ عنه للوزير مَسْعُود بن مَاسَايْ أنَّه يُداخلُ السُّلْطانَ في نَكْبته، ورُبَّما سَعَى عندَ سُلْطانِه في جماعةٍ من بِطانة السُّلْطانِ أحمد، فأتى عليهم النَّكال والقَتْل لفلتاتٍ كانت تجري بينَهم وبينه في مَجالس المُنادَمة عندَ السُّلْطانِ [أحمد][هـ] حَقَدَها لهم، فلمَّا ظَفر بالحظّ من سُلْطانِه، سَعَى بهم فقَتَلَهم.

(أ) سقط ما بين النجمين من أ وعوضه: "فلحق بتونس". وفي ض شطب ما بين النجمين حتى قوله: "سنة ست وتسعين".
(ب) زيادة من أ وحدها (ج) جاء العنوان في أ: نكبة ابن أبي عمرو وحركات ابن حسون ومملكها (د) ساقطة من ظ، ومقحمة بين الأسطر في ص، ض (هـ) ساقطة من ظ، ص

وكان القاضي أبو إسحاق إبراهيم اليَزْنَاسَنِيّ[أ] من بِطانة سُلطانِه، وكان يحضر مع نَدْمانِه[ب]، فحَقَد له ابنُ أبي عَمْرو بعضَ الفلتات. وأغرى به سُلطانَه؛ فضَربه وأطافه، وجاء بها شنعاء عَرَّبت في القُبْح. وسَفَر عن سُلطانِه إلى الأنْدَلُس، وكان يَمُرُّ بمنزل السُلْطانِ هذا ومكان اعتقاله، ورُبَّما تلقَّاه فلا يُلِمُّ به[ج] بتحيَّة[د]، ولا يُوجب له حقًّا، فأحْفَظَ ذلك السُلْطان. ولمَّا فَرَغ من أمْرِ ابن مَاسَايْ، قَبَض على ابنِ أبي عَمْرو هذا وأوْدعه السِّجن، ثمَّ امتحنه بعدَ أيَّام، إلى أنْ هَلَكَ ضَرْباً بالسِّياط، عفا الله عنه. وحُمل إلى داره، وبينما أهلُه يجهِّزونه إلى قَبْرِه، وإذا بالسُلْطانِ قد أمَرَ بأنْ[هـ] يُسْحَبَ في نَواحي البَلَد إبلاغاً في التَّنْكيل، فحُمِل من نَعْشه، وقد رُبط حبلٌ من رِجْله وسُحِب في سائر أنحاء المدينة، ثمَّ أُلقي على بعض الكُناسات[و] من أطرافها، وأصبح مثلاً في الآخرين.

ثمَّ قبض السُلْطانُ على حَرَكات بنِ حَسُّون النَّياطيّ، وكان مُخبًّا[ز] في الفِتْنَة موضعاً. وكان العَرَب المُخالفون من المَعْقِل، لمَّا أجاز[ح] السُلْطانُ إلى سَبْتَة، وحَرَكات هذا بتَادَلا، أرادوه على طاعة السُلْطان فامتنع أوَّلاً، ثمَّ أكْرهوه وجاؤوا به إلى السُلْطان، فطَوَى له على ذلك حتَّى استقام أمرُه. ومَلَكَ البَلَد الجَدِيد، فقَبَض عليه وامتحنه إلى أنْ هَلَكَ. والله وارث الأرْض ومَن عليها.

/ خلافُ عليّ بن زَكَرِيَّاء بجبال الهَسَاكِرَة ونَكْبَته [300 أ]

لمَّا مَلَكَ السُلْطانُ البَلَد الجَدِيد واستوى على مُلكه، وَفَد عليه عليّ بنُ زَكَرِيَّاء

(أ) أ: اليزناسي، ومثله في ظ ، ص محملة، ض: الزناتي (ب) ظ، ص: ندمائه (ج) أ، ض: له (د) ظ، ص: فيحيه
(هـ) ظ: أن (و) ظ، أ، ض: المكبات، بإهمال الباء الموحدة. (ز) ظ: مجنأ (ح) ظ، ض: أجا

شيخُ هَسْكُورَة مُستَضيئاً بما قدَّم من سَوابقه؛ وقد كان حَضَر معه حصارَ البَلَد الجَدِيد واستدعاه، فجاء بقَوْمِه وعَساكرِ المَصَامِدَة، وأبلى في حِصارها، فرَعى السُّلْطانُ سَوابقَه، وولَّاه الولايةَ الكُبرى على المَصَامِدَة على عادةِ الدَّوْلَة في ذلك.

ثمَّ وَفَد بعدَه مُحَمَّد بنُ إبراهيم المَرَازِيّ[أ] من شُيوخ المَصَامِدَة، وكانت له ذِمَّةُ صِهْرٍ مع الوَزِير مُحَمَّد بن يوسُف بن عَلَّال على أخته، فولَّاه السُّلْطانُ مكانَ عليّ بنِ زَكَرِيَّاء، فغضب لها عليّ واستشاط وبادَر[ب] إلى الانتقاضِ والخِلاف. ونصب بعض القَرابة من بَني عبد الحَقّ، فجَهَّز إليه السُّلْطانُ العَسَاكر مع مُحَمَّد بن يوسُف بن عَلَّال، وصالح بن حَمُّو اليابانيّ. وأمر صاحبَ[ج] دَرْعَةَ - وهو يومئذٍ عُمَر بنُ عَبْد المُؤمن بن عُمَر - أنْ يَنْهَدَ[1] إليه بعَساكر دَرْعَةَ من جهة القِبْلَة، فساروا إليه وحاصَروه في جَبَلِه، وجاوَلوه[د] مرَّاتٍ؛ ينهزم في جميعها، حتَّى غلبوه على جَبَلِه، وسار إلى إبراهيم بن عِمْران الصَّنَاكِيّ[هـ] المجاور له في جَبَلِه، فاستذمَّ به. وخَشِيَ إبراهيم معرَّةَ الخِلاف والغَلَب، ورغَّبه الوَزِيرُ مُحَمَّد بنُ يوسُف بمالٍ بذَلَه له، فأمْكنه منه، وقَبَضَ عليه الوَزِير، وجاء به إلى فاس، فأدْخَله في يومٍ مشهود وشهرَهُ، واعتُقِل؛ فلم يَزَل في الاعتقال إلى أنْ هَلَكَ السُّلْطان أبو العبَّاس. وارتاب به أهلُ الدَّوْلَة بعدَه؛ فقتلوه، كما نذكر.

(أ) مهملة في ظ، ض، وفي ص: بإهمال المثناة الفوقية، والمثبت من أ، وقد تقدم مثله عند ذكر أخيه خالد شيخ حاحة (ب) ظ: وتأذن (ج) ظ: بصاحب (د) ظ، ص: وحاولوه (هـ) وضع في أ، ص، ض تحت الصاد حرف زاي: الزناكي والصناكي، وهو الصنهاجي

(1) ينهد: أي ينهض، والنهد: الشروع في القتال

وِفادةُ أبي تاشفين على السُّلطان أبي العبّاس صَرِيخاً على أبيه، ومسيرُه بالعساكر، ومَقتَلُ أبيه السُّلطان أبي حَمُّو

كان أبو تاشِفِين ابنُ السُّلطان أبي حَمُّو قد وَثَب على أبيه آخرَ ثمانٍ وثمانين بمُالأته لغيرِه من إخوته، واعتقله بوَهْرَان(أ). وخرج في العَساكر لطلَبِ إخوته: المنتصر، وأبي زَيَّان، وعُمَيْر، وامتنعوا عندَ حُصَيْن بجَبَل تِيطَرِي، فحاصَرهم أيّاماً.

ثمَّ تذكَّر غائِلةَ [أبيه، فبعَث](ب) ابنَه أبا زَيَّان في جماعةٍ من بِطانته؛ منهم: [موسى ابن](ج) الوَزِير عِمْران بن موسى، وعَبْد الله بن جابر الخُرَاسَانيّ، فقتلوا(د) بعضَ وَلَده بتِلِمْسان، ومضوا إليه(هـ) وهو بمَحْبِسه في وَهْرَان(و)، فلمَّا شعر بهم أشْرف من [سُورِ القَصَبة](ز) / [300 ب] ونادى في أهْلِ المدينة مُتَذمِّماً بهم، فهرعوا إليه، وتدلَّى إليهم في عمامته وقد احتزم بها، فأنزلوه وأحْدَقوا به وأجلسوه على سَريره.

وتولَّى كِبْرَ ذلك خطيبُ البَلَد ابنُ خَرْزوزة(ح)، ولَحِق أبو زَيَّان بن أبي تاشِفِين ناجياً إلى تِلِمْسان(ط). واتَّبعه السُّلطان أبو حَمُّو، ففرَّ منها إلى أبيه. ودَخَل أبو حَمُّو تِلِمْسان؛ وهي طَلَلٌ وأسوارُها خَرابٌ، فأقام فيها رَسْمَ دَوْلَته.

وبَلَغ الخَبَرُ إلى أبي(ي) تاشِفين، فأجْفَل من تِيطَرِي، وأغَذَّ السَّيْرَ؛ فدخَلها، واعتصم أبوه بمئذنة المسجد، فاستنزله منها، وتَجافَى عن قَتْله. ورغب إليه أبوه في

(أ) ظ، ص: بوهري (ب) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ج) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (د) ظ: فقتلوه (هـ) أ: ومرّوا إلى أبيه أبي حمُّو (و) ظ، ص: وهري (ز) ظ: الحصن، والمثبت من أ، ومقحم بين الأسطر ص، ومصلح بخطه في ض (ح) ظ: حزورة، ص: حرزورة، ض: خزوزة، والمثبت من أ (ط) أ: ناجياً بتلمسان (ي) أ: وبلغ الخبر أبا ...

رحلة المشرق لقضاء فَرْضه، فأسْعفه، وأركبه السُّفِنَ مع بعض تُجَّار النَّصارَى إلى الإسْكَنْدَرِيَّة مُوكَّلاً به. فلمَّا حاذى مَرْسى بِجَايَة لاطفَ النَّصرانيّ في تَخْلية سَبيله، فأسْعفه، وملك أمرَهُ. وبعث إلى صاحب الأمر بِبجَايَة[أ] يستأذنه في النُّزُول؛ فأذِنَ له، وسارَ منها إلى الجَزَائِر، واستخدم العَرَب، واستصعب عليه أمرُ تِلِمْسان، فخرج إلى الصَّحْرَاء، وجاء إلى تِلِمْسان من جهة المَغْرب، فهزم عساكر [ابنه][ب] أبي تَاشِفِين، ومَلَكها. وخرج أبو تَاشِفِين هارباً منها، فلَحِق بأحياء سُوَيْد في مَشاتِيهم. ودخل أبو حَمُّو تِلِمْسان في رجب تسعين. وقد تقدَّم شرحُ هذه الأخبار كلِّها مُسْتوعَبَة.

ثمَّ وفد أبو تَاشِفِين مع مُحَمَّد بن عَرِيف شيخ سُوَيْد على السُّلْطان أبي العبَّاس صَرِيخاً على أبيه ومؤمّلاً الكرَّة بإمْداده، فتقبَّله السُّلْطان وأجمل له المواعد. وأقام أبو تَاشِفِين في انتظارها، والوَزِير مُحَمَّد بن يوسُف بن عَلَّال *يعده ويُمنِّيه*[ج] ويحلف له على الوفاء.

وبعث السُّلْطانُ أبو حَمُّو إلى السُّلْطان ابن الأحْمر، لِمَا يعلَمُ من استطالتِه على دَوْلَة بَني مَرِين كما مرّ، فتوسَّل إليه في أن يصدَّهم عن صَريخ أبي تَاشِفِين وإمداده عليه، فجلَّى ابن الأحْمر في ذلك، وجَعَلها من أهم حاجاته. وخاطب السُّلْطان أبا العبَّاس في أنْ يُجيزَ إليه أبا تَاشِفِين، فتعلَّل عليه في ذلك، [ثمَّ أسْعَفه، وأمر أبا تَاشِفِين بالسَّفر مع رسول ابنِ الأحمر، وأَسَرَّ إليه مع بعض حاشيته أنْ يُلقي

(أ) أ: صاحب بجاية (ب) ظ: أبيه (ج) سقط ما بين النجمين من أ

بنفسه في دار ابنه الأمير أبي فارس إذا مرَّ بها مُتَطارحاً؛ ففعل، وانقلب الرَّسُولُ[أ] ابنُ زَمْرَك إلى سُلْطانِه *بكتاب السُّلْطان أبي العبَّاس*[ب] مُعْتذراً عن شأن أبي تَاشِفِين][ج] بأنَّه اسْتجارَ بابنه أبي فارس، واستذمَّ به. ولم يَزَل الوَزِيرُ ابنُ عَلَّال يَفْتِلُ[د] لسُلْطانه ولابن الأحْمر في الذِّرْوَة والغارب[1]، حتَّى تمَّ أمرُه، وأنجز له السُّلْطان بالنَّصْر موعده. وبعث ابنه الأمير أبا فارس والوَزِير ابن عَلَّال في العَسَاكر صَرِيخِين له، وانتهوا إلى تَازَى.

وبَلَغ الخَبَرُ إلى أبي حَمُّو، فخرج من تِلِمْسان في عَساكِره، واستألف أولياءه من عبيد الله، ونزل بالغِيْرَان من وراء جبل بَني وَرْنِيدْ[هـ] المُطلّ على تِلِمْسان، وأقام هُنالِك مُتحصِّناً / بالجبل، وجاءت العُيُون إلى عَساكر بَني مَرِين بتَازَى بمكانِه هو [301 أ] وأعرابه من الغِيْرَان، فأجْمعوا غَزْوَهُ. وسار الوَزِيرُ ابن عَلَّال وأبو تَاشِفِين وسَلكوا القَفْر، ودَليلُهم سُلَيمان بنُ ناجي من الأحلاف، حتَّى صبَّحوا أبا حَمُّو ومَنْ معه من أحياء الخَرَّاج في مكانهم من الغِيْرَان[و]، فجاوَلوهم ساعةً، ثمَّ ولَّوا مُنهزمين. وكَبا بالسُّلْطان أبي حَمُّو فرسُه، فسَقَط وأدْركه بعضُ [العَسْكر][ز] فقَتلوه قَعْصَاً بالرِّماح، وجاؤوا برأسه إلى ابنه أبي تَاشِفِين والوَزِير ابن عَلَّال، فبعثوا به إلى السُّلْطان وجيءَ

(أ) ساقطة من ص، ض (ب) سقط ما بين النجمين من أ (ج) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (د) ظ: يقبل (هـ) أ، ص: ورنيذ، والضبط من ص، والمثبت من ظ ويوافق ما أورده الوزان، ويقع الجبل على بعد نحو ثلاثة أميال من تلمسان. انظر: الوزان: وصف إفريقيا 2: 44 (و) أ، ص، ض: مكانهم بالغيران (ز) ظ: وأدركه بعض أصحاب أبي تاشفين، ومثله في ض فأصلحت بين الأسطر.

(1) الذِّرْوَة: أعلى سنام البعير، والغارب مثله. مثلٌ يُقال في الرجل يخدع صاحبه حتى يظفر بما يريد. مجمع الأمثال للميداني 2: 69

بابنه عُمَيْر(أ) أسيراً، فهمّ أخوه(ب) أبو تَاشِفِين بقَتْله، فمنعه بَنو مَرِين أوّياماً، ثمّ أمْكنـوه منه فقَتَله، ودخـل إلى تِلِمْسـان آخـرَ إحدى وتسعين. وخيَّم(ج) الوَزِيرُ وعساكرُ بَني مَرِين بظاهر البَلَد، حتّى دفع إليهم ما شارَطَهم عليه من المال. ثمّ قَفَلوا إلى المَغرب. وأقام أبو تَاشِفِين بتِلِمْسان يُقيم دَعْوةَ السُّلْطانِ أبي العبَّاس صاحبِ المَغْرب، ويخطبُ له على منابر تِلِمْسان وأعمالها، ويبعث إليه بالضَّريبة كلَّ سـنة، كما اشترط على نفسه.

وكان أبو حَمُّو - لمَّا مَلَكَ تِلِمْسان - ولَّى ابنَه أبا زَيَّان على الجَزَائِر، فلمَّا بلَغه مقتلُ [أبيه](د)؛ امتعض، ولَحِق بأحياء حُصَيْن ناجياً وصَريخاً. وجاءه وفدُ بَني عامر من زُغْبَة يدعونه للمُلْك؛ فسار إليهم. وقام بدَعْوته شيخُهم المَسْعُود بنُ صُغَيْر، ونهضوا جميعاً إلى تِلِمْسان في رجب ثنتين وتسعين، فحاصروها أيّاماً. ثمّ سرَّبَ أبو تَاشِفِين المالَ في العَرَب، فافترقوا عن أبي زَيَّان. وخرج إليه أبو تَاشِفِين، فهزَمه في شَعْبان من السَّنَة، ولَحِق بالصَّحراء، واستألف أحياء المَعْقِل، وعاوَد حصار تِلِمْسان في شوَّال، وبعث أبو تَاشِفِين ابنه صَريخاً إلى المَغرب، فجاءه بمَدَدٍ من العَسْكَر. ولمَّا انتهى إلى تَاوَرِيرْتُ، أفرج أبو زَيَّان عن تِلِمْسان وأجفل إلى الصَّحْرَاء. ثمّ أجْمع رأيَهُ على الوِفادة على(هـ) صاحبِ المَغرب، فوَفد عليه صَريخاً، فتلقَّاه، وأبرّ(و) مَقْدَمه، ووَعَده النَّصْرَ من عَدُوّه، وأقام عندَه إلى حين مَهْلِك أبي تَاشِفِين.

(أ) ضبطه في أ: عُمَيْر، وقد تقدم ذكره (ب) ساقطة من أ (ج) أ، ض: وأقام (د) ظ: ابنه، ومهملة في ض (هـ) ظ، ص: إلى (و) ظ، ص: وبر

وفاةُ أبي تَاشِفِين، واستيلاءُ صاحبِ المَغْرِب على تِلِمْسان

لم يَزَل هذا الأميرُ أبو تَاشِفِين مُمَلَّكاً على تِلِمْسان ومُقيماً فيها لدَعوة صاحب المَغرب أبي العبَّاس ابن السُّلطان أبي سالم، ومؤدِّياً الضَّريبة التي فَرَضها عليه منذ مَلَك. وأخوه الأميرُ[أ] أبو زَيَّان مُقيمٌ[ب] عندَ صاحب المَغرب ينتظرُ وَعْده في النَّصر [٣٣ب] / عليه، حتَّى تغيَّر السُّلْطانُ أبو العبَّاس على أبي[ج] تَاشِفِين في بعض النَّزعات المُلُوكيَّة، فأجاب داعي أبي زَيَّان وجَهَّزه بالعَسَاكر لملك تِلِمْسان. فسار لذلك مُنتصفَ سنة[د] خمسٍ وتسعين، وانتهى إلى تَازَى، وكان أبو تَاشِفِين قد طَرَقَهُ مرضٌ أزْمَن به، ثمَّ هَلَك منه في رمضان من السنة. وكان القائمُ بدَوْلته أحمد بنُ العِزّ من صَنائعهم، وكان[هـ] يمتُّ إليه بخؤولة، فولَّى بعدَه مكانه صبيّاً من أبنائه، وقام بكفالته.

وكان يوسُف بن أبي حَمُّو، وهو ابن الزَّابيَّة[و]، والياً على الجَزَائِر من قبل أبي تَاشِفِين، فلمَّا بلغه الخبر أغذَّ السَّيْرَ مع العَرَب ودخل تِلِمْسان، فقتل أحمدَ بن العِزّ، والصَّبيَّ المكفول ابن أخيه أبي تَاشِفِين. فلمَّا بلغ الخَبَرَ إلى السُّلْطان أبي العبَّاس صاحب المَغرب؛ خرج[ز] إلى تَازَى، وبعث من هُنالِك ابنه أبا فارس في العَسَاكر، وردَّ أبا زَيَّان ابن أبي حَمُّو إلى فاس ووكَّل به. وسار ابنهُ أبو فارس إلى تِلِمْسان، فملَكها وأقام فيها دعوة أبيه. وتقدَّم وزيرُ ابنه[ح] صالح بن حَمُّو إلى مِلْيَانة، فملكها وما بعدها من الجَزَائِر وتَدَلَّس إلى حدود بِجَايَة. واعتصم يوسُف ابن الزَّابيَّة[ط] بحِصْن

(أ) ساقطة من أ (ب) ظ، ص: ويقيم (ج) أ: لأبي (د) ساقطة من أ (هـ) ساقطة من أ (و) مهملة في ظ، ص، ولعلّ النسبة إلى بلاد الزاب (ز) أ، ض: وبلغ الخبر ... فخرج (ح) شطبت في أ وعدلت: الوزير صالح (ط) مهملة في ظ، ص.

تاجَحْمُومتُ، وأقام الوَزِيرُ صالح يُحاصره. وانقرضت دَعْوةُ بني عَبْد الوَاد من المَغْرب الأوْسَط. والله غالبٌ على أمره.

وفاةُ أبي العبّاس صاحب المَغْرب، [وولايةُ ابنه أبي فارس مكانه][أ]، واستيلاءُ أبي زيَّان ابن أبي حَمُّو على تِلِمْسان والمَغْرب الأوْسَط

كان السُّلْطانُ أبو العبَّاس بن أبي سالم، لمَّا وصل إلى تَازَى، وبعث ابنَه أبا فارس إلى تِلِمْسان فملكها، أقام هو بتَازَى يُشارفُ أحوالَ ابنِه ووزيره صالح الذي تقدَّم لفَتْح البلاد الشَّرْقيَّة.

وكان يوسُف بن عليّ بن غانم أميرُ أولاد حسين من المَعْقِل، قد حجّ سنة ثلاثٍ وتسعين، واتَّصل بمَلِك مصرَ من التُّرْك الملك الظَّاهر برقوق.

وتقدَّمْتُ[ب] إلى السُّلْطان فيه، وأخبرتُه بمحلِّه من قَوْمه، فأكرم تلقِّيه، وحَمَّلَهُ - بعد[ج] قضاءِ حَجّه - هديَّةً إلى صاحب المَغْرب، يُطرفه فيها بتحفٍ من بضائع بَلَده على عادة المُلُوك. فلمَّا قَدِم يوسُف بها على السُّلْطان أبي العبَّاس، أعْظَم موقعَها، وجلس في مجلسِ حفلٍ لعَرْضها والمباهاة[د] بها. وشرع في المكافأة عليها[هـ] بمُتَخيَّر الجياد والبضائع / والثِّياب، حتَّى استكمل من ذلك ما رضيه. [302 أ]

واعتزم على إنفاذها مع يوسُف بن عليّ حاملها الأوَّل، وأنَّه يُرْسِله من تَازَى لأيَّام مقامته [تلك][و]، فطَرقه هُنالِك مرضٌ كان فيه حَتْفُه في مُحرَّم سنة[ز] ستٍّ وتسعين.

(أ) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ب) أ، ض (مقحمة): وتقدمت أنا (ج) ظ: بعد على (د) ظ: المهاباة (هـ) ظ، ص: عنها (و) ساقطة من ظ (ز) ساقطة من أ، ص، ض

واستدعوا ابنه أبا فارس من تِلِمْسان، فبايعوه بتازَى، وولَّوه مكانه، ورجعوا به إلى فاس. وأطْلقوا أبا زَيَّان بن أبي حَمُّو من الاعتقال، وبعثوا به إلى تِلِمْسان أميراً عليها وقائماً بدَعْوة السُّلْطان أبي فارس فيها، فسار إليها ومَلكها.

وكان أخوه يوسُف بن الزَّابِيَّة[أ] قد اتَّصل بأحياء بَني عامر يَرومُ مُلْكَ تِلِمْسان والإجلابَ عليها، فبعث إليهم أبو زَيَّان عندما بلَغه ذلك. وبذل لهم عطاءً جزيلاً[ب] على أنْ يبعثوا به إليه، فأجابوه إلى ذلك، وأسْلَموه إلى ثِقاته[ج]، وساروا به، فاعترضهم[د] بعضُ أحياء العَرَب ليستنقذوه منهم، فبادَروا بقَتْله، وحملوا رأسَه إلى أخيه أبي زَيَّان، فسكنتْ أحوالُه، وذهبت الفِتْنَة بذَهابه، واستقامت أمورُ[هـ] [بَني مَرِين وسُلْطانهم أبي فارس، وتوطَّدتْ دَوْلتُه، وأقام مُمَلَّكاً عليهم إلى أنْ توفّي على فراشه سنةَ ثمانٍ وتسعين، فوَلِي بعدَه أخوه أبو عامر عبد الله، وبعث بالهديَّة إلى صاحب مصرَ مع يُوسف بن عليّ كبير أولاد حسين من المَعْقِل كما أعدَّها أبوه وأخوه.

وبعدَ انصرافِه[و] بالهديَّة في ذي الحِجّة[ز] تسعٍ وتسعين، هَلَكَ هذا السُّلْطان أبو عامر أيّامَ عيد الفطر سنة ثمانمائة؛ وذلك أنَّه رَكِب في النُّزْهة أيّامَ الفطر في بُسْتانه من المصاره[ح] يُلاعبُ الفُرْسان من حاشيته ومَواليه؛ مُطارَدةً على مُتون الخيل، فجَمَح به

(أ) محملة في ظ، ص، ض (ب) في أ: ووعدهم بالعطاء الجزيل (ج) ظ، ص: إلى ثقاة أبي زيان، والمثبت من أ، ومن هامش ض بخطّه (د) أ: فساروا به واعترضهم (هـ) ظ: "واستقامت أمور دولته، وهم على ذلك لهذا العهد. والله غالب على أمره". وسقطت من الأصل ظ الزيادة المشمولة بين الحاصرتين، أوردتها نسخة أ، ووردت بهامش ص، وأيضاً بهامش ض بخط ابن خلدون (و) أ: انصرافهم (ز) أ: أضحى (ح) أ: ببستان لنصارى، وترد في الفصل التالي: المصارى ؟!

مركوبُه وصادَمه[أ] بعض الشَّجرات العادية، فتفسَّخ وهَلَك مِن حِينه، وبُويِع أخوه أبو سعيد عُثمان، وهو لهذا العَهْد سُلْطان بَني مَرِين بالمَغرب الأقصى][ب].

[ج][الخَبَرُ عن القَبائلي؛ كافِل وَلَد السُّلْطان أبي العَبَّاس، والقائم بدُوَل الثَّلاثة منهم، إلى أنْ كانت نَكْبَتُهُ في دَوْلَة الأخير[د] منهم

كان هذا الرَّجُل - وهو أحمد بن عليّ القَبَائِليّ - وسَلَفهُ من بِطانة بَني عبد المؤمن خُلفاءِ الموحّدين بمَرَّاكُش، خرج جدُّه مع فَلّ الموحّدين عندَ مَقْتل أبي دبُّوس *وانقراضِ مُلكهم عامَ ستَّةٍ وستِّين وستّمائة، فاجتمعوا على إسحاق أخي المُرْتَضَى وبايَعوه، ولَحِقوا بجبل تِيْنَمَلَلْ مَعْقلِ المَصَامِدَة ومَدْفن إمامهم، وأقاموا هُنالِكَ وجيوشُ بَني مَرِين تَتَعاهدهُم بالمُطالبة والحِصار إلى أنْ غَلَبوا على الجبل عامَ أربعةٍ وسبعين، وتُقُبِّضَ على ذلك الفَلّ، وسِيقوا إلى السُّلْطان، وفيهم إسحاق أخو المُرْتَضَى، وأبو سعيد

(أ) ص، ض: فصدمه (ب) نهاية الزيادة التي أوردتها النسخ الثلاث: في متن أ، وهامش ص، وبخطه في هامش ض
(ج) سقط هذا الفصل من نسخة الأصل "ظ"، وكتبه ابن خلدون بخطّه في نسختي أ، ض، وكُتب في هامش نسخة ص بخطٍّ مغايرٍ لخطّ ناسخها، وجاء موضعه في النسخ الثلاث بعد مشجّر النسب الآتي، لكنه كتب في أعلى اليمين من نسخة ض: "مكان هذه الورقة قبل المقابلة لها (المقابلة هي التي فيها المشجر) في آخر أخبار الدولة والشجرة بعدها". وكتب أيضاً في آخر هذا الفصل في هامش ض بخطّه، وهامش ص: "وبعد هذا الكلام قبل الشجرة من آخر أخبار الدولة قوله: وقد انتهى بنا القول في دولة بني مرين من زناتة الثانية وملوكهم وبقي علينا خبر القرابة المرشّحين". فأعدناه إلى موضعه حيث أشار.
(د) أ: الآخر

ابنُ عمّه السيّد أبي الرَّبيع، والقَبَائِليّ وأولاده*[أ]، فقُتلوا جميعاً، وانقرض أمرُ بَني عبد المؤمن.

وتناسلَ أعقابُ القَبَائِليّ بفاس في إيالة بَني مَرِين وكَنَف[ب] دَوْلَتهم، يتصرّفُون في دَواوين الجباية وأرزاق الجُند ومهمّات الأعمال الحسابيّة[ج]، بما لهم في ذلك من *البَصَر بصِناعة الدّيوان والقيام عليها*[د] سائرَ أيّام الدَّوْلَة، حتّى ظهر منهم الرّئيسُ أبـو الحـسن [عـليّ][هـ] والدُ هـذا الرَّجُـل[و]، وبـرّز عـلى أهْـلِ صـناعته بكفايتـه واضطلاعه، وباشر خدمةَ السُّلْطان أبي الحسن [في دَوْلَته][ز]، فكشف عن غوره، وبَلا[ح] صادقَ نُصْحِهِ وضَبْطه، فاصْطَنعه وقرّبه، *وردِف بـه أبـا الفضل بـن أبي مَدْيَن كبير الخلصـاءِ ببابـه وابن أولياءِ سلفه*[ط]، فكـان مُسَامياً له عنـدَ السُّلْطان، ومُوفِياً فيا يعنّ من مُهمّات الأعمال، [وربّما كان يَشِفُّ[1] عليه في أكثرها[ي] بكافيته

(أ) جاء ما بين النجمين في ص، ض بصياغة أخرى لا يستقيم معها إثبات الفروق، ونصه: "عند مقتل أبي دبُّوس [آخرهم سنة ستّ وستّين وستّمائة وانقراض ملكهم، وخرج هذا الفلّ من مَرّاكُش، فلحقوا بجبل تِيْنملل معقل المصامدة ومدفن الإمام محمد بن تومرت، وقد بايعوا لإسحاق أخي المرتضى، ونصبوه، وأقاموا هُنالِكَ وجيوش بني مَرِين تتعاورهم بالمطالبة إلى أنْ غلبوا على جبل تِيْنملل سنة أربع وسبعين، وتقبّض على إسحاق أخي المرتضى، وأبي سعيد ابن عمّه أبي الرَّبيع، وكاتبهم القَبَائِليّ، وأولاده، وسيقوا إلى السُّلْطان يعقوب بن عبد الحقّ] فقتلوا جميعاً..." (ب) ص، ض: ونشأوا في ظل (ج) ساقطة من أ (د) عوضه في ص، ض: من الكفاية والاضطلاع (هـ) ساقطة من أ (و) ص، ض: هذا الرئيس (ز) زيادة من ص، ض (ح) ص، ض: وخبَر، وكلاهما يفيد المعنى ذاته؛ لأن البلاء: الاختبار والامتحان (ط) في ص، ض: وردف به كبير الخلصان والأولياء ببابه أبا الفضل بن أبي مدين (ي) ض: كثيرها

(1) الشَّفُ والشِّفُّ: الفضل والزيادة، وهو أيضاً: النقصان، يقال: شَفَّ الدرهم: إذا زاد، وإذا نقص. (لسان العرب، مادة: شفف)، ومراد ابن خلدون هنا: أنّ أبا الحسن القبائليّ ربما تفوّق على رديفه ابن أبي مدين.

واضطلاعِهِ، وقيامه على تلك الصّناعة مُذ أوّل أمره][أ]، وركب البَحْر من تُونِس في جُمْلةِ[ب] السُّلْطان أبي الحسن *عندَ عَوْدِه إلى المغرب، كما مرَّ في أخباره*[ج]، وأصابَهم من الغَرَق *في مَراسي بِجَايَةَ ما تقدَّم ذكره*[د].

وهَلَكَ أبو الفضل بن أبي مَدْيَن فيمَن هَلَكَ من أصحاب السُّلْطانِ وأوليائه[هـ]، ونجا[و] إلى الجزائر، فاستَكْفاه السُّلْطانُ في حمل تلك الوظيفة، وزيادَةُ إليها وظيفةَ العَلامة: [الرَّسم المكتوب أواخرَ الأوامر والمُراسلات][ز]؛ فنَهَض بأعْباء الوظيفتَيْن[ح]، *وجمعَ رئاسةَ القَلَمَيْن لو ساعدته الأيّام*[ط].

ثُمَّ جمعَ بَنو عبد الوَاد لمانعة السُّلْطان [أبي الحسن][ي] عن بلادهم، واستَمدُّوا ابنَه السُّلْطانَ[ك] أبا عِنَان ملكَ المغرب، فأمدَّهم بعَساكر بَني مَرِين، وزَحفوا لِلقائه بشدِيوية *من أعمال شَلَف*[ل]، فانهزَم السُّلْطانُ في ذلك اللّقاءِ، وقُتِلَ وَلَدُه النَّاصر، *والكثيرُ من رِجالِ دَوْلَته*[م]، وخواصّ خُدَّامِه؛ وكان[ن] منهم هذا الرَّئيس *أبو الحسن*[س]، ونشأ بَنوه في ظلّ الدَّوْلَة ونِعْمتها؛ يتصرَّفون في مُباشرة الأعْمال السُّلْطانيَّة *بالكِفاية والاضْطلاع*[ع].

ثُمَّ شبَّ *أحمد ابنُ هذا الرَّئيس أبي الحسن*[ف] قارئاً، كاتباً، عارفاً بالحساب،

(أ) ما بين الحاصرتين من ص، ض (ب) أ، ص، ض: حملة (ج) سقط ما بين النجمين من ص، ض (د) عوضه في ص، ض: ما مرّ ذكره في دولته (هـ) سقط ما بين النجمين من ص، ض (و) ص، ض: وخلصوا (ز) زيادة من ص، ض (ح) ص، ض: فقام بالوظيفتين أحسن قيام (ط) سقط ما بين النجمين من ص، ض (ي) زيادة من ص، ض (ك) ساقطة من ص، ض (ل) ص، ض: من وطن مغراوة، وكلاهما صحيح. (م) ص، ض: وأكابر رجاله (ن) ص، ض: كان (س) سقط ما بين النجمين من ص، ض (ع) عوضه في ص، ض: كما كان سلفهم (ف) في ص، ض: أحمد هذا الرئيس الثاني منهم

قائماً على صِناعة الدَّواوين[أ]؛ أخذها عن كبيرِ مَشيختهم أبي الحسن عليّ[ب] بن سعود القائم فيها بخدمة السُّلْطانِ *أبي الحسن*[ج] بعدَ أبيه أبي الحسن القَبَائِليّ، [فنبغَ فيها، و][د] اضْطلع، وبرّز على طبقاتها، وباشرَ خدمةَ السُّلْطان؛ فنهض فيها زعيماً بانفاذها، سابقاً في ميدانها، إلى أنْ اختصَّهُ كافِلُ الدَّوْلَة أيّامَ السُّلْطانِ موسى بنِ أبي عِنَان[هـ] الوزيرُ مسعود بنُ مَاسَايْ، فألْحَقَهُ بعنايته، وقرَّبه من نجي السُّلْطان وسَريرِه *والتَّصَرُّف فيما يرجع إلى الحُسْبان من أعْماله*[و]، فقام بذلك مُشَمِّراً عن ساعدِ الجِدّ والنَّصيحة، ووقع من السُّلْطان أعلى المواقع[ز]، وغصَّ به *أبناءُ طَبقته من قَلَم الحُسْبان*[ح]؛ فشكمهم وردَّهم على أعقابهم.

ثمَّ جاءَ[ط] السُّلْطانُ أبو العبَّاس، فانتزع[ي] المُلْكَ من أيديهم، *كما مرَّ في أخبارهم*[ك]، ونكبَ الوَزِيرَ ابنَ مَاسَاي، فجرَّت تلك النَّكْبةُ عليه[ل] أذيالَ المُصادَرة والطَّلَب[م]، ثُمَّ خلص[ن] خلوصَ الإبريز، ولَزِم الخِدمةَ ببابِ السُّلْطان، وقلَّده سائرَ أعْمالِ الدَّوْلَة، فاضْطلع[س] بها نَصيحاً مأموناً، مُدِرّاً للجِبَاية، كافياً مصارفَ الدَّوْلَة إلى أنْ هَلَكَ[ع] السُّلْطانُ - رحمه الله - بتازَى[ف].

*وكان من خَبَرِه: أنَّه تحرَّك من فاس بعَساكرِه يَرومُ وَطْءَ بلاد بَني عبد الوَاد وافتتاحها، فلمَّا انتهى إلى تازَى، بعث ابنَه وليّ عَهْدِه أبا فارس، ووزيرَه صالح بنَ

(أ) ص، ض: وصناعة الديوان (ب) ساقطة من ص، ض (ج) سقط ما بين النجمين من ص، ض (د) زيادة من ص، ض، وفي أ: فاضطلع بها (هـ) ص، ض: أيام موسى بن السلطان أبي عنان (و) ص، ض: ومباشرة الأعمال في بابه (ز) ص، ض: موقع (ح) ص، ض: وغص به الملأ من أهل طبقته (ط) ص، ض: ظهر (ي) ص، ض: وانتزع (ك) في ص، ض أخَّر هذه العبارة عند قوله: ... ابن ماساي كما مرَّ في أخباره (ل) ص، ض: على هذا الرئيس أبي العباس (م) ص، ض: أذيال الجفوة والمصادرة (ن) ص، ض: وخلص (س) ص، ض: فقام بها (ع) ص، ض: قُبض (ف) ساقطة من ص، ض

حَمُّو بجميع العساكر، وأقام هو بتَازَى مُشارفاً لأحوالهم، فملكوا البلادَ، واستولوا على الأوطان، وافتتحوا المعاقل.

وطرق السُّلْطانَ بتازَى المرضُ؛ فهَلَك، رحمه الله، وأخذ الرَّئيسُ أبو العبَّاس البَيْعةَ لابنِه أبي فارس وليِّ عَهْده*[أ]، وبعثوا إليه - وهو بتِلِمْسان - فقَفَل راجعاً[ب] في عَساكِره إلى تازَى، ثمَّ فارقوها إلى فاس.

واقتعدَ السُّلْطانُ أبو فارس أريكةَ مُلكِه، وفوَّض إلى أبي العبَّاس هذا[ج] أمورَ دَوْلَته، فقامَ بها أحسنَ قيام، [وأحْسَنَ كفالةَ السُّلْطان والدَّوْلَة في كلّ مُهمّ][د] إلى أنْ هَلَك سنةَ ثمانٍ وتسعين، فأخذ البَيْعة[هـ] لأخيه أبي عامر*كما أخذها له من قبل، وقام بدَوْلَتِه أحسنَ قيام*[و]، وبعث الهديَّة *التي كان السُّلْطانُ أبو العبَّاس أعدَّها لصاحب مِصْر مكافأةً عن هديَّته التي بعث بها مع يوسف بنِ عليّ بن غانم شيخِ المَعْقِل*[ز].

ولم يَزَل [الأمرُ][ح] على ذلك إلى أنْ هَلَك [أبو عامر][ط] سنةَ ثمانمائة[ي]؛ *في مُطاردةٍ وقعت له بروض المصارى أيَّامَ عيد الفطر في مُلاعبته مع وُجوهِ خُدَّامه؛

(أ) جاءت هذه الفقرة المشمولة بين النجمين في ص، ض بصياغةٍ مغايرة، نصّها: "وكان من خبر ذلك: أنَّ السُّلْطان اعتزم على الحركة إلى أوطان الشَّرق لفتح تِلِمْسان وما وراءها، ولمَّا انتهى إلى تازَى قدم ابنه الأمير أبا فارس في العساكر ومعه الوزير صالح بن حَمُّو، وأقام هُنالِك لمشارفة أحوالهم، فأدركه حِمَامُهُ هُنالِك، فقام هذا الرئيس بالأمر أحسن قيام، وجمع النَّاس على بيعة ابنه ولي عهده الأمير أبي فارس ..." (ب) ص، ض: وبعثوا عنه إلى تلمسان وجاء ... (ج) ص، ض: إلى هذا الرئيس أبي العباس (د) ما بين الحاصرتين زيادة من ص، ض (هـ) ص، ض: فعقد الأمر ... (و) عوض ما بين النجمين في ص، ض: وقام بأمره وكفالة دولته (ز) عوض ما بين النجمين في ص، ض: الهدية التي وصفناها إلى المشرق كما عهد السلطان أبو العبَّاس لم (ح) زيادة من ص، ض (ط) زيادة من ص، ض (ي) في أ، ص، ض: "سنة تسع وتسعين"، والصواب ما أثبتناه وقد تقدم ذلك في الفصل السابق.

صدم في طلق الفَرَس بشجرةٍ من عوادي الأشجار؛ فسَقَط عن سَرْجه ميّتاً، عفا الله عنه*[أ]، فأخذ البَيْعة لوقته[ب] لأخيه الأصغر أبي سعيد عُثمان[ج]؛ *فقام بدَوْلته أحسنَ قيام*[د]، إلى أنْ دبّت عقاربُ السّعاية [من البِطانة][هـ] في مِهادِهِ الوَثِير *بما كان الحسدُ أغصّ البِطانةَ بِرِيقهم، وأشجاهم في نُفوسهم، وطمعوا في*[و] إزاحته عن تلك الرُّتبة، فزيّنوا للسُّلْطان *فيه الاستِرابة من عَيْثه[ز]، وأنّه يَرومُ الانتقاضَ والإدالةَ منه بأخيه من المُحجوبِين بالقَصَبة*[ح]، وأروه أنّ[ط] ذلك في غفلةٍ وقعت بعض تلك[ي] اللّيالي عن إغلاق[ك] باب القَصْر *عدُّوها عليه، وأغروا السُّلْطان بتفقّد إغلاقه باللّيل، وعرض العسس في مقاعدهم، وشعر الرّئيس بذلك؛ فرامَ دفعَه بالتّخلّي عن الرّئاسة*[ل] والخروجِ إلى فضاء الرّاحة لاستنشاق[م] رَوْح السّلامة، *فأعجله الحال عن ذلك، وخلصوا نجيّاً في أسْرِه، فرأوا البِدارَ بالقَبْض عليه والرّاحة من القولات منه*[ن].

وبعث السُّلْطانُ وزيرَه صالح بنَ حَمُّو لذلك[س]، وخالصةَ دَوْلته فارحاً مولى أسْلافه[ع]، فجاؤوا به بعد أنْ سِيقَ الوزيرُ بابنه عبد الرّحمن، *فاعتُقِلا لوقتهما، ثمّ

(أ) عوض ما بين النجمين في ص، ض: "بروض المصارى [ص: المصارم] وهو يُطارد الفرسان في يوم عيد الفطر فجمح به مركوبه وصدم شجرة من عاديات الأشجار، سقط لها من سرجه ميتاً..." (ب) ص، ض: في وقته (ج) ساقطة من ص، ض (د) في ص، ض: وقام بدولته كما كان مع أخويه (هـ) زيادة من ص، ض (و) عوض ما بين النجمين في ض: وطمع حمال الدولة في ....، ص: وطمع حملاء ... (ز) أ: غيثه (ح) عوض ما بين النجمين في ص، ض: "فزينوا للسلطان وأهل الكفالة الخاصة من أهل الحجاب أنّ أبا العبّاس هذا مُداهن مُنتقض، وأنّه يروم الإدالة من السُّلطان ببعض أخويه المحجوبين [ص: المحبوبين] بالقصبة". (ط) ص: أنه (ي) ساقطة من أ (ك) ص، ض: غلق (ل) في ص، ض: عدوها منه لتهيئة أسباب الإدالة، وشعر هو بذلك واستنكف ورام التخلي عن رئاستهم (م) ص، ض: ليجد هنالك (ن) في ص، ض: فلم يمهلوه لما أحاط بهم من الإشفاق والحذر (س) ساقطة من ص، ض (ع) ص، ض: ومولى سلفه فارحاً

عرض عليها المصادرة، فأحضرا طالعه من المال، ولم يئِسًا بعدها بقطرة، مع ما كان يُعلم منهما في جباية السُّلْطان أنَّهما يسوقانها إلى محلّها من خزائن السُّلْطان لوقت حضورها، ثمَّ أصبحا لثالثة ذلك اليوم ذبيحَيْن، عفا الله عنهما. و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾*[أ] [سورة القصص، من الآية 88].

وقد انتهى بنا القولُ في دولة بَني [مَرِين][ب] من زَنَاتَة الثَّانية [ومُلُوكهم][ج]، [وبقي علينا منها[د] خبرُ القَرابَة المُرَشَّحين للمُلْك من آل عبد الحقّ عيص اليَعَاسِيب منهم[هـ]، الذين أجازوا إلى الأندلُس كَلَفاً بالجهاد[و]، وكيف كانت إمارتُهم هُنالِك على الغُزَاة المُجاهِدين من زَنَاتَة وسائر أهل العُدْوة، ونذكرهم واحداً بعد آخر إلى انقراض أمْرهم، وبذلك نَسْتَوْفي الكلامَ في أخبار بَني مَرِين ودَوْلَتهم. والله وارث الأرض ومَن عليها *وهو خير الوارثين*[ز]][ح].

(أ) نهاية الفصل الذي سقط من نسخة الأصل "ظ"، وأوردته النسخ الثلاث الأخرى، وجاءت خاتمته في ص، ض بنص مختلف هو: "واعتقل لحينه ثمّ أتبع بأبيه وقُتِلا لوقتها، ثم عرضوا عليها المصادرة لطلب المال فأحضروا بعضاً ولم ييْئسوا بعده بقطرة، لما كان معروفاً منهم في أموال الجباية وأنها تورد لخزائن السُّلْطان لأوّل حضورها، ثم أتى القتل عليها وأصبحا ذبيحين في معتقلها. والله وارث الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين". وكتب أيضاً في هامش ض بخطه، وهامش ص ما يحدّد موضع الزيادة، نصّه: "وبعد هذا الكلام قبل الشجرة من آخر أخبار الدولة قوله: وقد انتهى بنا القول في دولة بني مرين من زناتة الثانية وملوكهم وبقي علينا خبر القرابة المرشَّحين". (ب) ظ: بني عبد الواد (ج) زيادة من أ، ض (د) من أ وحدها (هـ) ساقطة من أ (و) كتب بخطه في هامش أ: رغبةً في الجهاد، وفي ض: أجازوا إلى الأندلس للجهاد. (ز) سقط ما بين النجمين من ض (ح) أورد ابن خلدون خاتمة هذا الفصل في نسخة أ، بشكل مغاير لنسخة الأصل ظ، مما أثبتناه في الأعلى، وأصلحت في هامش ص، وأيضاً أعاد صياغتها بخطه في ض، ونصّ خاتمة الأصل ظ: "وبقي علينا خبرُ الرَّهْط الذين تحيزوا منهم إلى بني مَرِين من أوّل الدولة. وهو (؟) بني كمي من فصائل علي بن القاسم إخوة طاع الله بن علي وخبر بني كَنْدُوز أمرائهم بمَرَّاكُش. فليُرجع إلى ذكر أخبارهم، وبها يستوفى الكلام في أخبار بني عَبْد الوَاد. والله وارث الأرض ومن عليها".

/ [302 ب]

[نسب بني عبد الحقّ من بني مَرين وتتابع سلاطينهم (نسخة الأصل ظ)]

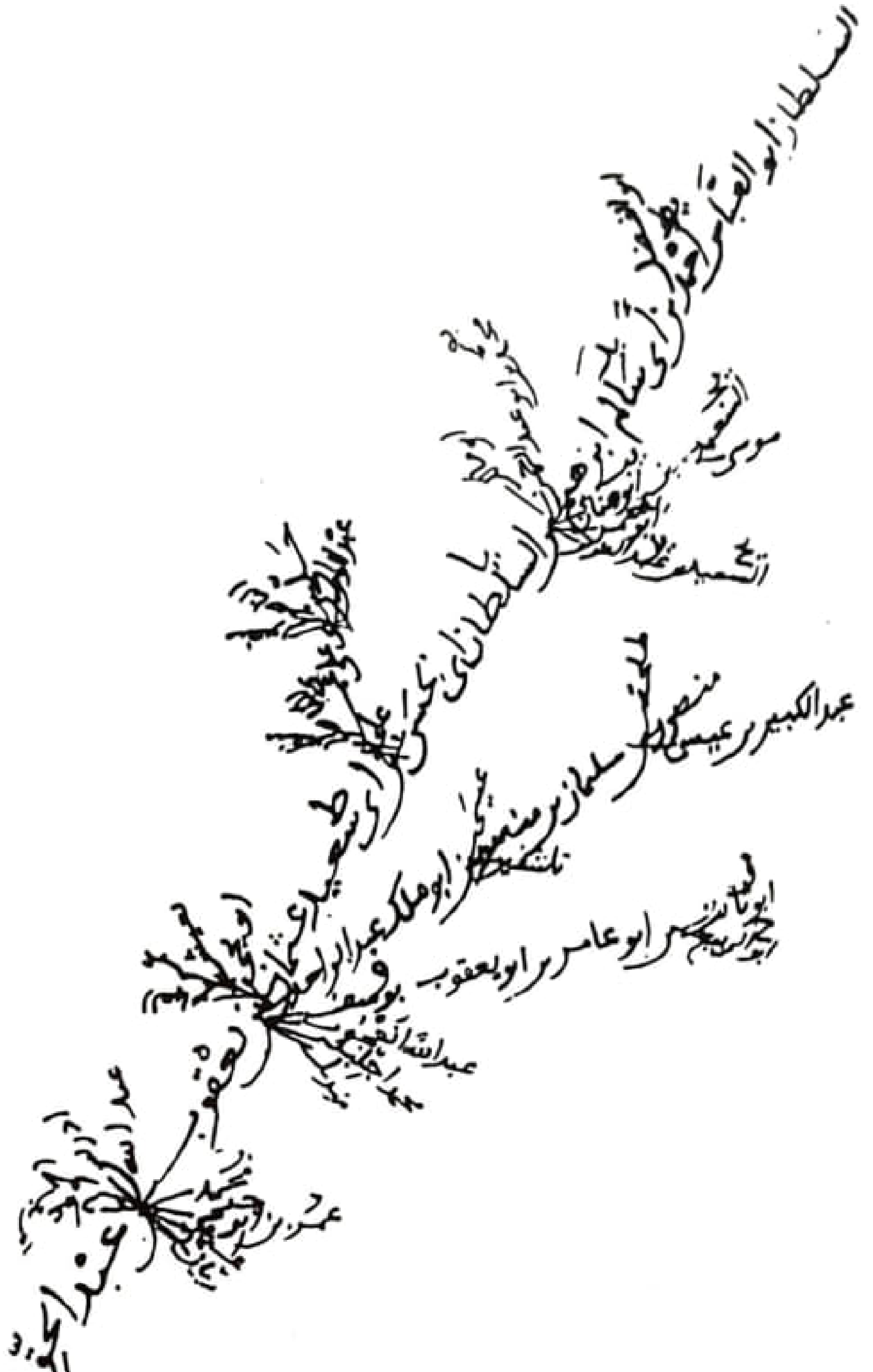

[نسب بني عبد الحقّ من بني مرين (من نسخة أ)]

[303 أ]

❁ / الخَبَرُ عن القَرابةِ المُرَشَّحين من آل عبد الحَق، الأُمَراءِ على الغُزاةِ المُجاهِدين بالأَنْدَلُس، الذين قاسَموا ابنَ الأَحْمَرِ في مُلْكِه، وانفَردوا برِياسَةِ جِهادِه

كانت الجزيرةُ الأَنْدَلُسيَّة وراءَ البَحْر، مُنذ انقضاء أمْرِ بَني عَبْد المُؤمن وقيامِ ابنِ الأَحْمر بأمرها، قليلةَ الحامية، ضعيفةَ الأحوال، إلاَّ مَنْ يُلْهِمهُ الله [إلى][أ] عَمَل الجهاد من قبائل زَنَاتَة المُتلقِّفينَ كُرَةَ المُلْك والمقتَسِمين ممالكَ المغرب، وخصوصاً بَني مَرِين أهل المَغْرب الأقْصَى، لاتّصال عُدْوَة الأَنْدَلُس ببَسائطِه، وتعدّد الفِراضِ ببَحْر الزُّقاق القَرِيب العُدْوَتَيْن. وما زال هذا الزُّقاقُ على قديم الزَّمان ـ لأجل ذلك ـ فُرْضَةً دونَ سواحل المَغْرب.

ولَـمَّا استولى بَنو مَرِين على مَمالكِه، وضاقَتْ أحوالُ المُسْلِمين بالأَنْدَلُس، وتَحَيَّفَهم الطَّاغِيَةُ حتّى ألجأهم إلى سِيْفِ البَحْر، واستأثر بالفُرُنْتِيرَة وما وراءها، واستأثر بَنو القُمْط أهلُ بَرْشَلونَة[ب] وقَطَلُونيَةَ[1] بشرق الأَنْدَلُس، وانتشر في الأقطار ما كان من أَمْر قُرْطُبَة وأُخْتَيها: إشْبيلِيَّة وبَلَنْسِيَة. وامتعض لذلك المُسْلِمون وتنافَسُوا في الجهاد، وإمْداد[ج] الأَنْدَلُس بأموالهم وأنفسهم. وسابق النَّاسَ إلى ذلك الأميرُ أبو زَكَرِيَّاء بنُ أبي حَفْص بما كان صاحبَ الوقتِ والمؤمَّلَ للكرَّة، فاسْتَنْفَدَ الكثيرَ من

(أ) ظ: تعالى (ب) ضبطها في أ: بَرْشُلونة (ج) ظ: وامتداد

(1) قطلونية: Catalonia: هو الإقليم الشمالي الشرقي من الأندلس، وأهم مدينة في الإقليم هي برشلونة.

أمواله ومُقرّباته في مَددهِم، بعد أنْ كانوا آثروا القيامَ بدعوته، وأوْفدوا عليه المشيخةَ ببيعته.

وكان ليَعْقُوب بن عبد الحَقّ أملٌ في الجهاد وحرصٌ عليه. واعتزم في سُلْطان أخيه أبي يَحْيَى على الإجازة لذلك، فمنعهُ ضِنانةً به على الاغتراب عنه، وأوْعَز إلى صاحب سَبْتَة يومئذٍ أبي عليّ بنِ خلاص بمَنْعِه[أ] منها، فوعَّر له السَّبيل[ب] وشبّه عليه المذاهب.

ولم ينشَبْ يَعْقُوب بنُ عبد الحَقّ أنْ قام بسُلْطان المَغْرب بعدَ أخيه أبي يَحْيَى، وشُغِل بشأنه، وأهمّه شأنُ بَني أخيه إدْرِيس بن عبد الحَقّ، / [303 ب] بما كان فيهم[ج] من التَّرشيح والمنافسة لبنيه. واستأذنه عامر بنُ إدْرِيس منهم في الجهاد بالعُدْوَة، فاغتنمها منه وعقد له من[د] مُطَوّعَة زَنَاتَة على ثلاثة آلاف أو يزيدون، وأجاز معه رَحُّو ابن عمّه عَبْد الله بن عبد الحَقّ. وفصَلوا إلى الأنْدَلُس سنةَ إحدى وستّين؛ فحَسُنت آثارُهم في الجهاد وكرمَتْ مقاماتُهم.

ثُمَّ رجع عامرُ بنُ إدْرِيسَ إلى المَغْرب وكثر انتقاضُ القَرابة، ونافسهُم أقيالُ زَنَاتَةَ في مثلها، فاجتمع أبناءُ المُلُوك بالمَغْرب الأوْسَط؛ مثل: عَبْد المَلِك بن يَغْمَرَاسَن بن زَيَّان، وعايد[هـ] بن مِنْدِيل بن عبد الرَّحمن، وزَيّان بن مُحَمَّد بن عَبْد القَويّ، فتَعاقدوا على الإجازة إلى الجهاد، فأجازوا فيمن خفَّ معهم من قومهم سنة ستٍّ

(أ) ظ: يمنعه (ب) أ: السُّبُل (ج) ظ: فيه (د) ظ: عن (هـ) ظ: عابد، ومهملة في ض

وسبعين وستّمائة، فامتلأت الأندَلُس بأقيال زَنَاتَة وأعْياص الملك منهم، وكان فيمَن أجاز من أعْياصِهم: بَنو عِيسى بن يَحْيَى بن وَسْنَاف بن مَحْيُو(أ) بن أبي بكر بن حَمَامَةَ. ومنهم سُلَيمان وإبراهيم، وكانت لهما آثارٌ في الجهاد ومقاماتٌ محمودة. وكان موسى بن رَحُّو، لمَّا نازله السُّلْطانُ وبَنو(ب) [...] أبيه(ج) عَبْد الله بن عبد الحَقّ بحِصْن عَلُّودَان(د)، ونزلوا على عَهْده؛ لحق بتِلِمْسان.

وكان بنو عَبْد الله بن عبد الحَقّ، وإدْرِيس بن عبد الحَقّ عصبةً من بين سائرِهم؛ لأنَّ عَبْد الله وإدْرِيس كانا شقيقَيْن لسَوْط النِّسَاء [من بَني عليّ](هـ)، فاقتفى أثَرَ يَعْقُوب بن عَبْد الله مُحَمَّدُ ابن عمِّه إدْرِيس وخرج على السُّلْطان بقَصْر كُتَامَة سنةَ ثلاثٍ وستّين. ثمّ استرضاه عمُّه واستنزله. وبقي يَعْقُوب بنُ عَبْد الله في انتقاضِه يتنقَّلُ في الجهات، إلى [أنْ](و) قَتَله طَلْحَة بنُ مُحَلّى من أولياءِ السُّلْطان سنةَ ثمانٍ وستّين بجهة سَلا، فَكَفَى السُّلْطان شأنَه.

ولمَّا كان من عَهْد السُّلْطانِ لابنه أبي مالك ما قدَّمناهُ، نَفِس عليه هؤلاء القَرابةُ هذا / الشَّأن، فانتقضوا، ولَحِق مُحَمَّد بنُ إدْرِيس بحِصْن عَلُّودَان(ز)، ولَحِق موسى [304 أ] ابنُ رَحُّو بن عَبْد الله بجبال غُمَارَة ومعه أولادُ عمِّه أبي عيَّاد بن عبد الحَقّ. ونازَلَهم السُّلْطانُ، حتّى نزلوا على عَهْده. وأجازَهم إلى الأندَلُس سنةَ سبعين، فأقاموا بها

(أ) ظ، ص: عبو، ومثله في ض ثم أصلحت، وقد تقدم ذكره في مطلع الجزء عند تعداد ولد أبي بكر بن حمامة (ب) ظ، ص، ض: وبني (ج) ظ: ابنه، وقبلها في الأصول الأربعة بياض قدر كلمة (د) أ: علُّونان (هـ) ظ، ص: لسوط النساء بنت [...]، والبياض قدر كلمة، وقد تقدم ذكر سوط النساء في مطلع الجزء، في معرض الخبر عن إمارة عبد الحق بن محيو .... (و) ساقطة من ظ (ز) أ: علُّونان

للجِهادِ سُوقاً. ونافَسَهم أقيالُ زَناتة في مثلها بتِلِمْسان، وأجاز منها إلى الأندلُس سنةَ سبعِين، فولّاهُ السُّلْطانُ ابنُ الأحْمر على جميع الغُزَاة المُجاهِدين هُنالِك بما كان كَبْشَ كتيبتِهم[أ] وفحلَ شَوْلهم. ولم يلبث أنْ عادَ إلى المَغرب، فولّى السُّلْطانُ مكانَهُ أخاه عبد الحقّ، ثمّ رَجَع عنهم مُغاضباً إلى تِلِمْسان، فولّى مكانَه على الغُزَاة المُجاهِدين إبراهيم بن عيسى بن يَحْيَى بن وَسْنَاف، إلى أنْ كان ما نذكر.

الخَبَرُ عن موسى بنِ رَحُّو فاتِحِ هذه الرِّيَاسَة بالأَنْدَلُس، وخَبَرُ أخيه عبد الحَقّ من بعده، وابنه حَمُّو بن عبد الحَقّ بعدَهُما

لمّا هَلَكَ السُّلْطانُ الشَّيخ ابن الأَحْمر وولي ابنُه السُّلْطانُ الفقيه، ووفد على السُّلْطان يَعْقُوب بن عبد الحَقّ صَرِيخاً للمُسْلِمين، فأجاز إليه أوّلَ إجازاته سنةَ ثلاثٍ وسبعين، وأوْقع بجُيوش النَّصْرانيّة، وقتل الزَّعِيم ذُنُنْه، واستوى له الغلب على الأَنْدَلُس، فبدا لابن الأَحْمر في أمْرِه وخَشي مغبَّتَه، وتوقَّع أنْ يكون شأنه معه شأن يوسُف بن تاشِفِين والمرابطِين مع ابن عَبّاد[1].

وكان بالأَنْدَلُس من قَرابته بنو إشْقَيْلُولَة قد قاسَموه في مَمالكها وانفردوا بوادي آش ومَالَقَة وقُمَارِش، حسبما ذكرناه في أخباره مع السُّلْطان. وانتقض عليه أيضاً من

(أ) مهملة في ض، ض، وفي ص: كتيبتهم. وكبش الكتيبة: قائدها

(1) ظ: عياد. والمقصود: المعتمد بن عبّاد، وكان من خبره مع المرابطين ما فصّله ابن خلكان (وفيات الأعيان 5: 28-)؛ حيث استنجد بهم على الأسبان؛ فنصروه أولاً، ثم اعتقلوه واستولوا على مُلكه.

رؤساء الأنْدَلُس أبو عُنْدَرِيل[أ]، وابن الدَّليل، فكانوا يجلبون على بلاد المُسْلِمِين. وكانوا قد استنجدوا جيوشَ النَّصْرانيَّة، ونازلوا غَرْنَاطَة، وعاثوا[ب] في الجهات.

[304 ب] فلمَّا استوتْ قدمُ السُّلْطان يَعْقُوب بن عبد الحَقّ بالأنْدَلُس، / وَصَل هؤلاء الثُّوَّار به[ج] أيديَهم، لخشْيتِهم[د] ابنُ الأَحْمر جميعاً على نفسه، وقَلَب للسُّلْطان[هـ] أبي يوسُف ظَهْرَ المِجَنّ[1]، واستظهر عليه بالأعياص من قرابته.

وكان هؤلاء القَرابةُ من أولاد رَحُّو بن عَبْد الله، وإدْرِيس بن عَبْد الله، وإدْرِيس ابن عبد الحَقّ، ويُنْسَبُون جميعاً إلى سَوْط النِّسَاءِ، كما ذَكَرْنَاهُ، ومن أولاد أبي عيّاد[و] بن عبد الحَقّ لمَّا أَوْجسوا الخيفةَ من السُّلْطان واستشعروا التَّكير منه؛ لَحِقوا بالأنْدَلُس تَوْرِيَةً بالجهاد، وانتباذاً عن الشَّوْل فراراً من فَحْله[ز]. وقد كان السُّلْطانُ أبو يوسُف متى أحسّ بريبةٍ منهم في ذلك أو انتقضوا عليه، يُشْخصهم إلى الأنْدَلُس، فاجتمعت منهم عندَ ابنِ الأَحْمر عصابةٌ من أولاد عبد الحَقّ، كما قلناه، وأولاد وَسْنَاف، وأولاد يَرُول[ح]، وتَاشِفِين بن معطي كبير تيرْبيعِين من بَني مُحَمَّد. وتَبِعَهم أولادُ مُحَلَّى أخوالُ السُّلْطان أبي يوسُف.

(أ) كذا مضبوطاً في أ، وفي ظ: عبدريل، ومثله في ض، ص مهملاً (ب) ظ: وعاثوا، ومهملة في ص (ج) ظ: الثوارية (د) ظ: لخيشهم (هـ) في الأصول الأربعة: السلطان (و) ص: عباد، ومهملة في ض (ز) ظ، ص: محله (ح) مهملة في ظ، ص، ض

---

(1) المجن: الترس، مثلٌ يُضرب في تغيّر المودّة والرعاية وإساءة الرأي. المستقصى من أمثال العرب 2: 198، مجمع الأمثال 2: 101

وكان ابنُ الأحْمر كثيراً ما يعقد لهم على الغُزَاةِ المُجاهِدين من زَنَاتَةَ لدار الحَرْب؛ فعقد أوّلاً لموسى بنِ رَحُّو سنةَ ثلاثٍ وسبعين، ولأخيه عبد الحَقّ بعد انصرافهِ إلى المَغرب، ثمَّ لإبراهيم بن عيسى بعد انصرافهما معاً، كما قُلناه، ثمّ رجعا فعقد لموسى بن رَحُّو ثانية على الشّياخة[أ]، وأثبتَ له قدماً في الرّيَاسَة، ليحسنَ به دِفاع السُّلْطان أبي يوسُف عنهم.

ثمَّ تداولت الإمارةُ فيهم ما بينهم وبين عُمومتِهم؛ ورُبَّما عقد قبل ذلك أزمان الفترة ليَغلَى بن أبي عيّاد[ب] بن عبد الحَقّ في بعض الغزوات، ولتَاشِفِين بن معطي في أخرى سنةَ تسعٍ وسبعين ومعه طَلْحَةُ بن مُحَلّى، فاعترضوا الطَّاغِيَةَ دونَ حِصْن المُتلين[ج]، وكان لهم الظهورُ.

ثمَّ حدثت الفِتْنَةُ بينه وبين السُّلْطانِ أبي يُوسف، وعقد ابنُ الأحْمر - في إحدى حُروبهِ معه - ليَغلَى بن أبي عيّاد على زَنَاتَة جميعاً، وحاشهم إلى رايته، فانفضَّت جموعُ السُّلْطان أبي يوسُف، وظهروا عليه، وتقبّضوا في المعركة على ابنِه مِنْدِيل واستاقوه أسيراً، إلى أنْ أطْلَقه / السُّلْطانُ ابنُ الأحْمر، في سَلْمٍ عَقَده بعدَ مَهْلِكه، مع ابنِه [أ305] يوسُف بن يَعْقُوب. واستبدّ موسى بنُ رَحُّو من بعدها بإمارة الغُزاة بالأنْدَلُس إلى أنْ هَلَكَ سنة [...][د]، فوَليها من بعده أخوهُ عبد الحَقّ إلى أنْ هَلَكَ سنةَ تسعٍ وتسعين[هـ]، وكان مُظفَّرَ الرَّايَة على عَدُوّ المُسْلِمين.

(أ) ظ: السباخة (ب) ص: عباد (ج) مهملة في الأصول الأربعة، وتقدم التعليق عليه في ص103. (د) ساقطة من أ، وفي ص: بياض قدر كلمتين، ظ: هلك ستمائة ؟!، وفي ض كتب ابن خلدون بخطه: هلك سنة تسع وتسعين وستمائة. ثم شطبه (هـ) أ: تسع وسبعين وستمائة.

ولمَّا هَلَكَ وَلِيَ مِن بعدِه ابنُه حَمُّو بن عبد الحقّ، فكانت هذه الإمارةُ متَّصلةً في بَني رَحُّو، إلى أنْ انتقلت منهم إلى إخوانهم من بَني أبي العُلَى وغيرِهم. واندرجَ حَمُّو في جُمْلة[أ] عُثمان بنِ أبي العُلَى من بعده، حسبما نذكر.

وأمَّا إبراهيم بنُ عيسى الوَسْنَافِيّ، فرَجَع إلى المَغْرب ونزل على يوسُف بنِ يَعْقُوب، وقَتَله بمكانِه من حصار تِلِمْسان بعد حينٍ من الدَّهر، وبعد أنْ كبر وعَمِي. والله مالك الأمور *لا ربَّ غيره*[ب].

وكان مَهْلِكُ يَعْلَى بن أبي عيَّاد، سنةَ سبعٍ وثمانين، ومعطي بن بوتَاشِفِين[ج] سنةَ تسعٍ وثمانين، وطَلْحَة بن مُحَلَّى [قبلهما][د] سنةَ ستٍّ وثمانين.

الخَبَرُ عن عبد الحَقّ بن عُثْمان شيخ الغُزاة بالأنْدلُس

كان عبد الحَقّ هذا من أعْياصِ الملك المَرِينيّ ويَعَاسِيبِهم[هـ]، وهو من وَلَد مُحَمَّد ابن عبد الحَقّ ثاني الأمراء على بَني[و] مَرِين بعد أبيهم عبد الحَقّ. وهَلَكَ أبوه عُثْمان ابنُ مُحَمَّد بالأنْدَلُس، إحدى أيَّام الجهاد سنةَ تسعٍ وسبعين، ورَبِيَ ابنُه عبد الحَقّ هذا في حِجْر السُّلْطانِ يوسُف بن يَعْقُوب، إلى أنْ كان من *أمرِ خُروجِه مع*[ز] الوَزِير رَحُّو بنِ يَعْقُوب على السُّلْطانِ[ح] أبي الرَّبيع [واتِّفاقه مع الحسن بنِ عليّ بن أبي الطَّلاق على البَيْعة لعَبْد الحَقّ][ط] ما ذكرناه في أخباره. [ولَحِقوا بتَازَى، واتَّبعهم أبو

(أ) ظ: حلة (ب) سقط ما بين النجمين من أ (ج) أ: بن تاشفين، وتقدم اسمه: تاشفين بن معطي. (د) زيادة من أ (هـ) أ: ويعاسيب زناتة (و) أ: ثاني ملوك بني .... (ز) عوض ما بين النجمين في أ: انتقاض (ح) أ: سلطانه (ط) ما بين الحاصرتين زيادة من أ

الرَّبيع؛ فانتقض أمرهم][أ]، ولَحِق [عبد الحقّ][ب] بتِلِمْسان وأجازَ منها إلى الأنْدَلُس، وسُلْطانُها يومئذٍ أبو الجُيوش ابن السُّلْطان الفقيه [ثاني مُلُوك بَني الأحمر][ج]، وشيخ زَنَاتَة بها حَمُّو بن عبد الحقّ بن رَحُّو. *وخاطَبهم السُّلْطانُ أبو سعيد ملكُ المَغرب في اعتقاله، فأجابوه[د]، وفرَّ من مَحْبِسه ولَحِق بدار الحَرْب*[هـ].

ولمَّا انتقض أبو الوليد ابنُ الرَّئيس أبي سعيدٍ وبايع لنفسه بمَالَقَة، وزحف إلى غَرْنَاطَة، فنازلها ووقعت الحَرْبُ بظاهرها بين الفريقَيْن، وأُخِذَ في بعض أيّامها / حَمُّو [305 ب] ابن عبد الحقّ أسيراً وسيق إلى السُّلْطان أبي الوليد، وكان معه عَمُّه العبَّاس بنُ رَحُّو، فأبى من إسار ابن أخيه وخلَّى عنه، فرَجَع إلى سُلْطانه، فارتاب به لذلك. وعقد على الغُزَاة مكانَه لعبد الحقّ بن عُثْمان؛ *استدعاه من مَكانِه بدار الحَرْب*[و].

ثمَّ غَلَبهم أبو الوليد على غَرْنَاطَة. وتحوَّل أبو الجُيوش إلى وادي آش، على سَلْمٍ انعَقد بينهم، وسار معه عبد الحقّ بنُ عُثْمان على شأنه. ثمَّ وقعت بينه وبين أبي الجُيوش مُغاضبةٌ لَحِق لأجلها بالطَّاغِيَة وأجاز إلى سَبْتَة، فاستظهر به يَحْيَى بنُ أبي طالب العَزَفِيّ أيَّامَ حصار السُّلْطان أبي سعيد إيَّاه، فكان له في حماية ثَغرِه والدِّفاع دونه آثارٌ مذكورةٌ.

ثمَّ عَقَدَ السُّلْطانُ أبو سعيد السِّلْمَ ليَحْيَى العَزَفِيّ وأفرج عنه، فارتَحل عبد الحَقّ ابن عُثْمان إلى إفْرِيقِيَّة، ونزل ببِجَايَة سنةَ تسع عشرةَ على أبي عبد الرَّحمن بن عمر[ز]

(أ) ما بين الحاصرتين زيادة من أ (ب) زيادة من أ (ج) ما بين الحاصرتين من أ (د) أ: فاعتقلوه (هـ) سقط ما بين النجمين من ص، وكتبه ابن خلدون بخطه بهامش ض (و) سقط ما بين النجمين من ص، وكتبه بخطه في هامش ض (ز) أ: غمر

حاجبِ السُلْطان أبي يَحْيَى المُستبدّ بالثُغور الغَربيَّة؛ فأكرم نُزُله، وأوْسَع قِراه، واضطرب له الفَساطيط بالرَّشَّة من ساحةِ البَلَد استبلاغاً في تَكْرِيمه، وحَمَله وأصحابه على مائة وخمسين من الخيل، ثمَّ أقْدمهم على السُلْطان بتُونِس؛ فَبَرَّ مَقْدَمَهم، وخَلَط عبد الحقّ بنفسه، وآثره[أ] بالخُلَّة والصَّحابة، وأحلّه بمكان الاستظهار به وبعصابته.

ولمَّا عقدَ السُلْطانُ لمُحَمَّد بن سيد النَّاس على حِجابته سنةَ سبعٍ وعشرين، واستقدمه لذلك من ثغر بِجَايَة، كما ذكَرْناهُ، فعَظُمت رياسته واستغلظ حِجابُه. وحجبَ عبد الحَقّ ذات يوم عن بابه، فسَخِطَها وانصرف مُغاضباً، وداخَلَ أبا فارس في الخُروج على أخيه، فأجابه، وخرج معه من تُونِس، فكان من خبرهم، ومقتل أبي فارس، وخُلوص عبد الحَقّ إلى تِلِمْسان، ونُزوله على أبي تَاشِفِين، وغَزْوه إلى إفْرِيقِيَّة مع عَساكرِ بَني عَبْد الوَاد سنةَ سبعٍ[ب] وعشرين، ما ذكرناه في أخبار الدَّوْلَة الحَفْصيَّة.

ثمَّ لمَّا رَجَع بَنو عبد الوَاد إلى تِلِمْسان، صَمَدَ مَوْلانا[ج] السُلْطانُ أبو يَحْيَى إلى تُونِس في أُخريات سَنَتِه، / وفرّ ابنُ أبي عِمْران السُلْطانُ المنصوبُ بتُونِس من بَني أبي حَفْص إلى أحياء العَرَب. وتَقَبَّض على أبي رزين[د] ابنِ أخي عبد الحَقّ بن عُثْمان في لُمَّةٍ من أصحابه، فقُتلوا قَعْصاً بالرِّماح. ورَجَع عبد الحَقّ بن عُثْمان إلى مكانه من [306 أ]

(أ) ظ: وأبره، ومهملة في ض (ب) ص: تسع (ج) ساقطة من أ، وطمست في ض (د) كذا في ص، ومثله في ض مهملة، وفي ظ: ابن أبي رزين، أ: أبي رزين ثابت

تِلِمْسان، فأقام بمثواهُ عندَ أبي تاشِفِين متبوّءاً من الكَرامة والاعتزاز ما شاء، إلى أن هَلَكَ بمَهْلِكِ أبي تاشِفِين يومَ اقتحم السُّلْطانُ أبو الحسن تِلِمْسان عليهم سنةَ سبعٍ وثلاثين [وسبعمائة][أ]. وقُتلوا جميعاً عند قَصْر الملك: أبو تاشِفِين، وابناهُ: عُثْمان ومَسْعُود، وحاجبُهُ موسى بن عليّ، ونزيلُهُ عبد الحقّ هذا، وأبو ثابت ابن أخيه، فقُطعت رؤوسهم، وتُرِكَتْ[ب] أشلاؤُهم بساحة القَصْر عِبرةً للمُعتبرين، حسبما ذكرناه في أخبار أبي تاشِفِين.

الخَبَرُ عن عُثْمان بن أبي العُلَى، من أُمراءِ الغُزاةِ المُجاهِدين بالأَنْدَلُس

كان أولادُ سَوْط النِّساء من وَلَد عبد الحقّ، أهلَ عصابةٍ واعتزازٍ على قَوْمِهم، وهم أولادُ إدْرِيس وعَبْد الله ابنَيْها[ج] الشَّقيقَيْن، كما ذكَرْناهُ. وكان مَهْلِكُ إدْرِيس الأكبر يومَ مَهْلِكِ أبيه بتافَرْطَسْت، ومَهْلِكُ عَبْد الله قبله.

وخلَّفَ عَبْدُ الله ثلاثةً من الوَلَد، تَشعَّب فيهم نَسْلُه؛ وهم: يَعْقُوب، ورَحُّو، وإدْرِيس. واستعمل أبو يَحْيَى بنُ عبد الحَقّ يَعْقُوبَ منهم على سَلا عندَ افتتاحِه إيَّاها سنةَ تسعٍ وأربعين [وستمائة][د]. ثمَّ انتزى بها ـ بعدَ ذلك ـ على عَمِّه يَعْقُوب سنةَ ثمانٍ وخمسين، وكان من شأن ثورة النَّصارَى بها ما ذكرناهُ، واستخلصها يَعْقُوب بنُ عبد الحَقّ. ولَحِق يَعْقُوب بنُ عَبْد الله بعَلُّودَان[هـ] من بلاد غُمارَةَ وامتنع بها. وخرج على إثْره بَنو عَمِّه إدْرِيس، وهما: عامر ومُحَمَّد، وانتزوا بالقَصْر الكبير، ولَحِق بهم كافَّةُ

(أ) زيادة من أ (ب) أ: وطرحت (ج) ساقطة من ص (د) زيادة من مخرج في أ بخطه (هـ) أ: بعلوذان

أولادِ سَوْط النِّسَاء، وطالَبهم السُّلْطانُ، فلَحِقوا بجبال غُمَارَة ونازَلهم، ثمّ استنزلهم بعد ذلك على الأمان. وعقدَ لعامر على الغَزْوِ إلى الأنْدَلُس سنةَ ستّين، كما ذَكَرْناهُ، وأجاز معه رَحُّو ابن عَمّه عَبْد الله. ورَجَع مُحَمَّد بن عامر، وفرَّ إلى تِلِمْسان سنةَ ثمانين، وأجاز منها إلى الأنْدَلُس.

[306 ب] ثمّ خرجوا على السُّلْطانِ / يَعْقُوب بن عبد الحَقّ سنةَ تسعٍ وستّين، ومعهم أولادُ أبي[(أ)] عيّاد بن عبد الحَقّ، واعتصموا بعَلُّودَان[(ب)]. واستنزلهم السُّلْطانُ على اللَّحاق بتِلِمْسان، فلَحِقوا بها، وأجاز أولاد سَوْط النِّسَاء وأولاد أبي عيّاد كافَّةً إلى الأنْدَلُس، واستقرُّوا بها يومئذٍ. ورَجَع عامر منهم ومُحَمَّد، وكان من خبرهم ما نذكر.

وهَلَكَ يَعْقُوب بن عَبْد الله سنةَ ثمانٍ وستّين في غِوايته وانتزائه بِغَبُولة من رِباط الفَتْح؛ قَتَله طَلْحَةُ بنُ مُحَلّي، واستقرَّ بَنوه من [بين][(ج)] أولاد سَوْط النِّسَاء بالمَغْرب. وكان ابنُه أبو ثابت أميراً على بلاد السُّوس، أيّامَ السُّلْطانِ يوسُف بنِ يَعْقُوب، وأوْقع بزَكْنَةَ سنةَ تسعٍ وتسعين، ولم يَزَل وبَنوه بالمَغْرب من يومئذٍ. وكان من إخوانه أبو العُلَى ورَحُّو ابنا عَبْد الله بن عبد الحَقّ؛ تشعَّب نَسْلُهُ فيها. وأجازَ رَحُّو إلى الأنْدَلُس مع عامر ومُحَمَّد ابنَيْ عَمّه إدْرِيس. ثمّ أجاز موسى ابنه سنةَ تسعٍ وستّين مع أولاد أبي عيّاد وأولاد سَوْط النِّسَاء، ثمّ رَجَع إلى محلّه من الدَّوْلَة، وفرَّ ثانيةً سنةَ خمسٍ وسبعين إلى تِلِمْسان، وأجاز منها إلى الأنْدَلُس فاستقرَّ بها. وأجاز

(أ) ظ: أبو (ب) أ: بعلوذان (ج) زيادة من أ وحدها

أولادُ أبي العُلَى سنةَ خمسٍ وثمانين مع أولاد أبي يحيَى بن عبد الحقّ، وأولادِ عُثْمان بن يَزُول(أ) فاستقرُّوا بالأندَلُس، وكانوا يَرجعون في رياستهم إلى كَبيرِهم عَبْد الله بن أبي العُلَى، وعقَد له ابنُ الأحْمر على الغُزَاة من زَنَاتَة(ب)، فمَن كان يعقدُ لهم من زَنَاتَة قبل استقرار المنصب [لبَني عَبْد الحقّ](ج)، إلى أنْ هَلَك شهيداً في إحدى غزواته سنةَ ثلاثٍ وتسعين.

وعقَد المَخْلوع ابنُ الأحْمر لأخيه عُثْمان بن أبي العُلَى، على حامية مَالَقَة وغزيّتها من الغُزَاة، لنَظَر ابنِ عَمّه الرَّئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسُف بن نصر. ولمَّا غدر الرَّئيسُ أبو سعيد بسَبْتَة سنةَ خمسٍ، وتمَّتْ له في تملكها الحِيلةُ، واضْطَرَمَ(د) نار العَداوة بينهم وبين صاحبِ المَغرب، نصبوا عُثْمان هذا للأمر، وأجازوه إلى غُمَارة، فثار بها، ودعا لنفسه، وتغلَّب على أصِيلاً والعَرَائِش، ثمَّ على القَصْر، وكان من ذلك ما ذكرناه، إلى أنْ غلبه أبو الرَّبيع سنةَ ثمانٍ، ورَجَع إلى مكانه من الأندَلُس.

[307أ] ولمَّا اعتزم أبو الوليد ابنُ الرَّئيس / أبي سعيد على الخروج على أبي الجُيوش صاحب غَرْنَاطَة، وداخَل في ذلك شيخ الغُزاة بمَالَقَة عُثْمان بن أبي العُلَى، فساعده عليه، واعتقل أباهُ الرَّئيس أبا سعيدٍ، وزحف إلى غَرْنَاطَة سنةَ أربعَ عشرة؛ فلمَّا استولى عليها، عقدَ لعُثْمان هذا على إمارةِ الغُزَاة المُجاهِدين من زَنَاتَة، وصَرَف عنها عبدَ الحَقّ بنَ عثمان، فلَحِق بوادي آش مع أبي الجُيوش. وصار حَمُّو بنُ عبد الحَقّ بن

(أ) مهملة في ظ، وفي أ مجوداً: يَزُول، ص: نزول، والمثبت من ض، وقد تقدمت. (ب) أ: الأعياص، ومقحمة بين الأسطر في ض
(ج) زيادة من أ، ومقحمة بين الأسطر في ض (د) أ: واضطرمت

رَحُو في جُمْلتِه، بعدَ أنْ كان شيخاً على الغُزَاة[مكانه][أ].

واستمَرَّت أيَّامُ ولايةِ عُثْمان هذا، وبَعُدَ فيها صِيتُهُ، وغصَّ صاحبُ المَغرب أبو سعيد بمكانِه. ولمَّا اسْتَصْرَخه المُسْلِمون للجهاد سنةَ ثمان عشرة، اعتذَر بمَكانِ عُثْمان هذا، واشترط عليهم [اعتقالَه][ب] حتَّى يرجِعَ عنهم، فلم يمكن ذلك. ونازَلَ الطَّاغِيَةُ غَرْنَاطَةَ وحاصَرَها، وكان لعُثْمانَ وبنيه في ذلك آثارٌ مذكورةٌ.

وأتاح الله للمُسْلِمين في النَّصْرانيَّة، على يد عُثْمان هذا وبنيه[ج]، ما لم يخطرُ على قَلْبِ أحدٍ [في الوقيعة المشهورة][د]، فتأكَّد اغتباطُ الدَّوْلَة والمُسْلِمين بمكانِهم إلى أنْ هَلَكَ أبو الوليد سنةَ خمسٍ وعشرين، باغتيال بعض الرُّؤساء من قَرابته، وبمُداخَلةِ من عُثْمان هذا - زعموا - في غَدْرِه، ونُصِبَ للأمر ابنُه مُحَمَّد صبيًّا لم يبلغ الحُلُمَ، وقام بأمره وزيرُهُ مُحَمَّد بن المَحْروق من صَنائع دَوْلَتِهم، فاستبدَّ عليه، وألقى زمامَ الدَّوْلَة بيد عُثْمانَ في النَّقض والإبرام، فاعتزَّ عليهم، وقاسَمَهم في الأمر، واستأثر في أُعطيات الغُزاة بأكثر[هـ] أموال الجباية، حتَّى خشيَهُ الوَزِيرُ على الدَّوْلَة. وأدار الرَّأيَ في كَبْحِهِ عن التغلّب، فجَمَح وفسد ما بينه وبين الوَزِير ابن المَحْروق [والدَّوْلَة][و]، فانتقضَ عليه[ز] وخرج مُغاضباً، فاضطرب فَساطيطه[ح] بمَرْج غَرْنَاطَة، واعصوْصَب جماعةُ الغُزَاة من قبائل زَنَاتة عليه. واعتصم الوَزِير وأهلُ الدَّوْلَة بالحمراء، وسَعى النَّاس بينهما أيَّاماً.

(أ) عوضها في ظ، ص: "كما قلناه"، والمثبت من أ، وكما أصلحه بخطه في هامش ض (ب) عوضها في ظ، ص: القبض عليه، والمثبت من أ، وكما أصلحه بخطه في هامش ض (ج) أ، ض: على أيديهم (د) ظ، ص: منهم، والمثبت من أ، وكما أصلحه بخطه في هامش ض. انظر عنه وعن بنيه: اللمحة البدرية 93 - (هـ) ظ، ص، ض: بكثير (و) من مخرج في ض بخطّه (ز) أ: عليهم (ح) أ: فضرب أبنيته

وأدار الوَزِيرُ الرَّأيَ في أنْ ينصبَ له كفؤاً من قَرابتِه، يُجاذبه الحبلَ ويشغله بشأنه عن الدَّوْلَة، فجأجأ بيَحْيَى بنِ عُمَر بن رَحُّو بن عَبْد الله بن عبد الحَقّ، وكان في جُمْلَة عُثْمان وصِهْراً له، فدَخَل إليه، وعقد له على الغُزَاة / فتَسَاتلوا إليه. وتفرَّد عُثْمان [307 ب] بمُعَسْكَره في عَشيرِه ووَلَده، وعقدَ معه السَّلْم على أنْ يُجيزَ إلى المَغْرب، وأوْفد بِطانته لذلك على السُّلْطان أبي سعيد سنةَ ثمانٍ وعشرين. وارتَحل من ساحة غَرْنَاطَة في ألفِ فارس - زعموا - من ذويه وأقاربه وحَشَمه. وقصد المَرِيَّة ليَجْعَلَها فُرْضَةَ لمجازِه، حتَّى إذا حاذى أَنْدَرَش[1]، وكان بينه وبين رُؤسائها مُداخلةٌ، فخرجوا إليه مؤدّين[أ] حقّ مبرَّته، فغدر بهم ورَكِب إليها، فملَكها وضَبَطها، وأنزل بها حُرَمَهُ وأثقاله.

ودعا مُحَمَّد ابن الرَّئِيس أبي سعيد من شُلُوْبانيَة؛ كان منزلاً[ب] بها، فَخَفَّ إليه ونَصَبه للأمر، وشنَّ الغاراتِ على غَرْنَاطَةَ صباحَ ومساء، واضطرمت نارُ الفِتْنَة. واستَرْكب يَحْيَى بن [عُمَر بن][ج] رَحُّو مَن قَدر عليه من زَنَاتَه. وطالَتِ الحَرْبُ سنين، حتَّى إذا فَتَكَ السُّلْطانُ مُحَمَّد بن الأَحْمر بوَزيرِه ابنِ المَحْرُوق، واستدعى عُثْمانَ بنَ أبي العُلَى، وعَقَد له السَّلْم، على أنْ يجيزَ عَمَّهُ مُحَمَّداً إلى المَغْرب ويلحقَ بغَرْنَاطَة

(أ) أ: يؤدُّون (ب) أ، ض: معتقلاً (ج) من أ، ومقحمة في ض بين الأسطر

(1) أندرش: حصن ومدينة صغيرة من أعمال المريّة، وتسمى بالإسبانية Andorax. ابن الخطيب: معيار الاختيار 111، الحميري: الروض المعطار 42

لشأنه من رِياسة الغُزاة، فتمَّ ذلك سنةَ تسعٍ وعشرين، ورَجَع إلى مَكانِه من الدَّوْلَة، وهَلَك إثر ذلك. والبقاءُ لله.

الخَبَرُ عن رِياسةِ ابنِه أبي ثابت من بعده، ومَصيرِ أمرهم(أ)

لمَّا هَلَك شيخُ الغُزاة ويَعْسُوب زَنَاتَة عُثمان بن أبي العُلَى، قام بأمره في قَوْمِه ابنُه أبو ثابت عامر. وعَقَد له السُّلْطانُ أبو عَبْد الله بن أبي الوليد على الغُزاة المُجاهِدين كما كان أبوه، فعَظُم شأنُه قوَّةَ شكيمةٍ، وكثرةَ عِصابةٍ، ونفوذَ رأيٍ، وبسَالةٍ.

وكان لقَوْمِه اعتزازٌ على الدَّوْلَة بما(ب) عجموا من عُودِها [وثبتوا في مَواقفها](ج)، وكانوا أُولي بأسٍ وقوَّةٍ فيها واستبدادٍ عليها، وكان السُّلْطانُ مُحمَّد بن أبي الوليد مُستنكفاً من الاستبداد عليه في القُلّ والكُثر، فكان كثيراً ما يُحْفِظهم بتَسْفيه آرائهم والتَّضييق عليهم في جاهِهم.

ولمَّا وَفَد على السُّلْطانِ أبي الحسن سنةَ ثنتين وثلاثين، صَريخاً على الطَّاغِيَةِ، واستقدم(د) ابنَه الأميرَ أبا مالك لمُنازلته جَبَل الفَتْح، اتَّهموه بمُداخلةِ السُّلْطان أبي الحسن في شأنهم، فتنكَّروا وأجمعوا الفَتْكَ به، وداخَلوا في ذلك بعضَ صَنائعِه ممَّن [308أ] كان مُتَرَبِّصاً بالدَّوْلَة؛ فساعدَهم. / ولمَّا افتُتح الجبلُ وكان من شأنه ما قدَّمنا ذكره،

(أ) ورد عنوان الفصل في أ: "الخبر عن رياسة أبي ثابت بن عثمان بن أبي العُلَى بعد أبيه ومصير أمرهم". (ب) أ: لما
(ج) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (د) ظ: واستعد، ومثله في ص فأصلحت

وزحف الطَّاغِيَةُ [لاستنقاذه](أ) فأناخَ عليه، وقَصَد ابن الأَحْمَرُ الطَّاغِيَة في بيته(ب) راغباً أنْ يرجع عن الحِصْن(ج)، فرَجَع، وافترقت عَساكر المُسْلِمين، وارْتَحل السُّلْطانُ(د) ابنُ الأَحْمر إلى غَرْنَاطَةَ *سنةَ ثلاثٍ وثلاثين*(هـ) وقد قعدوا له بمرصَدٍ من طَرِيقِه. ونُمِي إليه الخبر؛ فدعا بأُسْطُوله لرُكوبِ البَحْر إلى مَالَقَة، واستبق إليهم الخبر بذلك، فتَبادروا إليه، ولقُوه [بطَرِيقِه](و) من ساحل إصْطبُونَةَ(ز)، فلاحَوْه وعاتَبوه في شأنِ [وَكِيلِه](ح) عاصم من مَغْلُوجَاته(ط)، [ودافعهم عنه بالحُجَّة، فلم يقبلوا](ي)، فاعتَوروا عاصِماً بالرِّماح، فنكِر ذلك عليهم، فألْحقوه به، وخرَّ صَرِيعاً عن مَرْكوبه، وبعثوا إلى أخيه يوسُف، فأعطوه بَيْعَتهم وصفقةَ أيْمانهم، ورَجَعوا به إلى غَرْنَاطَةَ وهو حذِرٌ منهم لفَعْلتهم التي فعلوا، واستمرَّت الحالُ على ذلك.

ولمَّا استكمل السُّلْطانُ أبو الحسن فَتْحَ تِلِمْسان، وصرفَ عَزائمه إلى الجهاد، داخَل ابنَ الأَحْمر في إزاحَتهم عن الأَنْدَلُس مكان جهادِه، فصادَف منه إسْعافاً وقبولاً [وحرصاً على ذلك](ك). وتقبَّض على أبي ثابتٍ وإخوته: إدْرِيس، ومَنْصُور، وسُلْطان. وفرَّ أخوهم سُلَيمان، فلَحِقَ بالطَّاغِيَة، وكان له يومَ طَرِيفٍ أثرٌ [في](ل) هزيمة المُسْلِمين(م).

ولمَّا تقبَّض ابنُ الأَحْمر على أبي ثابت وإخوته، أوْدَعهم جميعاً المُطْبَقَ(ن) أيَّاماً، ثمَّ

(أ) ساقطة من ظ (ب) ظ: بنيه، ومثله في ص وكتب أسفلها: بيته (ج) أ، ض: يرجع عنه (د) ساقطة من أ، وشطبت في ض (هـ) سقط ما بين النجمين من أ (و) ظ: من طريقه، وساقطة من أ، وفيها: ولقوه بساحل (ز) ظ: اصطبرية، ص: اصطبرية (ح) ظ، ص: صنيعته، والمثبت من أ، وكذا أقحمه بخطه في ض (ط) أ: معلوجاه (ي) عوضه في ظ: وحاجهم عنه (ك) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ل) ساقطة من ظ (م) ظ: الإيقاع بالمسلمين (ن) في الأصول الأربعة: الطبق

غَرَّبهم إلى إفْرِيقِيَّة، فنزلوا بتُونِس على مَوْلانا[أ] السُّلْطان أبي يَحْيَى. وأوْعَزَ إليه السُّلْطانُ أبو الحسن بالتوثّق منهم أنْ يتّصلوا بنَواحي المَغْرب ويُخالفوه إليها أيّام شُغْله بالجهاد في الأنْدَلُس، فاعتقلهم [السُّلْطانُ بتُونِس؛ حتّى إذا انقضى أمرُ الجهاد، وانعقد السّلْمُ بين الطَّاغية والسُّلْطان أبي الحسن، بعث في طَلَبِهم من تُونِس][ب]، فأوْفد بهم [السُّلْطانُ وزيرَه][ج] أبا مُحَمَّد عَبْد الله بن تَافْرَاكِين إلى سُدَّة السُّلْطان أبي الحسن، وكَتَب إليه شفيعاً فيهم، فتقبّل شفاعتَهُ[د]، وأحْسَن نُزُلهم وكَرامتهم، حتّى إذا احتلَّ بسَبْتَةَ، أيّامَ حصارِ الجزيرة سنةَ[هـ] ثلاثٍ وأربعين، سُعِيَ بهم عنده فتقبّض عليهم واعتقلهم بمِكْناسَة.

ولمَّا انتزى[و] ابنُه الأميرُ أبو عِنَان على الأمْرِ، وهزمَ منصور ابنَ أخيه أبي مالك صاحبَ فاس، [ولّاهُ عليها السُّلْطانُ أبو الحسن عند مَسيرِه إلى إفْرِيقِيَّة][ز]، فنازَله [أبو عِنَان][ح] بالبَلَد الجَدِيد، وبعث [في أولاد أبي العُلَى][ط] إلى مِكْنَاسَة، فأطْلَقهم من الاعتقال، وأفاض فيهم الإحسانَ والعَطاء، واستظهر بهم على شأنه. وأحلَّ أبا ثابت محلّ الخُلَّة والشُّورَى من مَجلسِه، وداخَل إدْرِيسَ أخاه في المكر بالبَلَد الجَدِيد، فنَزَعَ إليها[ي] ومَكَر بهم وثارَ عليهم، إلى أنْ نزلوا على / حُكْمِ السُّلْطانِ أبي [308 ب] عِنَان، فعقد لأبي ثابت على سَبْتَةَ وبلاد الرِّيف ليُشارِفَ منها الأنْدَلُسَ محلّ إمارته، وأطْلَق يدَه في المال والجيش وفَصَل لذلك، فهَلَكَ بالطَّاعُون يومئذٍ سنةَ تسعٍ وأربعين

(أ) ساقطة من أ وطمست في ض (ب) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ج) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (د) ص: شفاعتهم (هـ) ظ، ص: في سنة (و) ظ، ص: افترى (ز) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ح) ساقطة من ظ (ط) ظ: وبعث فيهم (ي) أ: إليها عنه

بمُعَسْكَره إزاءَ معَسْكَر السُّلْطان من حصار البَلَد الجَدِيد. واستقرّ إخوانُهُ في إيالةِ السُّلْطانِ أبي عِنَان بالمَغرب الأقصَى، إلى أنْ كان من مفرّ أخيه إدْرِيس وولايته على الغُزاة بالأنْدَلُس ما نذكره.

الخَبَرُ عن يَحْيَى بن عُمَر بن رَحُّو، وإمارتِه على الغُزَاةِ بالأَنْدَلُس: أُولى وثانية، ومبدأ ذلك وتَصارِيفِه

كان رَحُّو بنُ عَبْد الله كبيرَ وَلَد عَبْد الله بن عبد الحَقّ، وكان له بَنون كثيرون تشعَّب نَسْلُه فيهم؛ منهم: موسى وعبد الحَقّ والعبَّاس وعُمَر ومُحَمَّد وعلي ويوسُف. وأجازوا كلّهم إلى الأنْدَلُس مع أولاد سَوْط النِّسَاء من تِلِمْسان كما قدَّمناه.

وأقام عُمَر بعدَهم بتِلِمْسان مدَّةً، واتَّخذ بها الأهل والوَلَد، ثمَّ لَحِقهم، وولى موسى إمارةَ الغُزاة بعدَ إبراهيم بن عيسى الوَسْنَافِيّ، وبعدَه أخوهُ عَبْدُ الحَقّ، [وبعدَه ابنه حَمُّو بن عبد الحقّ، ولمَّا أجاز عُمَر بن رَحُّو من تِلِمْسان *إلى الأنْدَلُس*[أ] في إمارة حَمُّو ابن أخيه عبد الحقّ][ب] أقام بها مدَّة وأجاز إلى سَبْتَة مع الرَّئِيس أبي سعيد وعُثْمان بن أبي العُلَى سنةَ خمسٍ ووَلِي بها على الغُزَاةِ المُجاهِدين. ثمَّ رَجَع إلى الأنْدَلُس ولم يلبثْ بعدَها أنْ أجاز إلى المَغْرب، ونَزَل على السُّلْطان أبي سعيد، فأكرَمَ نُزُله، ثمَّ رَجَع إلى الأنْدَلُس.

(أ) سقط ما بين النجمين من أ (ب) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، وعوضه: على الغزاة

ولمَّا وَلِي إمارةَ الغُزَاة عُثْمان بنُ أبي العُلَى، وكان بينهم من المُنافسة ما يكون بين فُحولِ الشَّوْل، فأشْخصَ بَني رَحُّو جميعاً إلى إفْرِيقِيَّة، فنزلوا على مَوْلانا[أ] السُّلْطان أبي يَحْيَى خيرَ نُزُل؛ اصْطفاهم واستَخْلصهم واستظهر بهم في حُروبه، وهَلَكَ عَمَر بن رَحُّو ببلاد الجَرِيد، وقبرُهُ ببَشْرى[1] من نَفْزَاوَةَ معروفٌ، ونزع ابنُه يَحْيَى من بين إخوته عن مَوْلانا[ب] السُّلْطان أبي يَحْيَى وصار في جُمْلة ابن أبي عِمْران، ثمَّ لَحِق بزَوَاوَةَ وأقام في بَني يِراتن[ج] سنتين، ثمّ أجاز إلى الأنْدَلُس واستقرَّ بمكانِه من قَوْمه، واصطفاه عُثْمان بن أبي العُلَى وأصْهر إليه بابنته وخلطه بنفسِهِ.

[309 أ] ولمَّا فسد بينه وبين ابن المَحْروق وزيرِ السُّلْطانِ/ بغَرْنَاطَةَ سنةَ سبعٍ وعشرين، واعصوْصَبَ عليه الغُزَاةُ بمُعَسْكَره من مَرْج غَرْنَاطَة، فدسَّ يومئذٍ [ابنُ][د] المَحْرُوق إلى يَحْيَى بن عَمَرَ هذا ودعاهُ إلى مكان عُثْمان ليغيظَه بذلك فأجاب، ونزع عن عُثْمانَ وقومه إلى ابن المَحْروق وسُلْطانه. وعقد له على الغُزاة، فتَساتلوا إليه عن عُثْمان شيخِهم، وانصرف إلى المَرِيَّة. وكان من شأنه ما قصصْناه في أخبارِه.

وأقام يَحْيَى بنُ عَمَر في رِياستِه إلى أنْ هَلَكَ ابنُ المَحْرُوق بفَتْكَةِ سُلْطانِه.

(أ) ساقطة من أ وطمست في ض (ب) ساقطة من أ وطمست في ض (ج) أ: يراتن، ومهملة في ص، وقد تقدم ذكرهم في الجزء الحادي عشر [ورقة 100ب] عند كلامه على بطون زواوة، وأن مواطن بني يراتن ما بين بجاية وتدلس. (د) ساقطة من الأصول الأربعة

---

(1) بشرى: من مدن نفزاوة، مدينة قديمة مسورة، لها غابة كبيرة كثيرة النخل والزيتون. وعند اليعقوبي: بِشْرَة، وأنها المدينة العظمى من مدن نفزاوة التي ينزلها العمّال، بها قوم من الأفارقة القدم والبربر. كتاب البلدان لليعقوبي 350، مجهول: الاستبصار 157، الحميري: الروض المعطار 114، التجاني: الرحلة 153.

واستدعى عُثْمان بن أبي العُلَى لرياسته، فرَجَع إليها. وصُرِفَ يَحْيَى بن عَمَر إلى وادي آش، وعُقِدَ له على الغُزَاة بها فأقام حيناً، ثمّ رَجَع إلى مكانِه بين قَوْمِه، واصطفاه عُثْمانُ بن أبي العُلَى وابنُه أبو ثابت، بما كانت أُمُّه بنت موسى بن رَحُّو، فكان يتعصَّب لخؤلته فيهم. ثمّ هَلَكَ عُثْمان وكان ما قدَّمناهُ من شأن وَلَده وفَتْكهم بالسُّلْطانِ المَخْلُوع. وتقبَّض أخوه أبو الحَجَّاج عليهم وأشْخَصَهم إلى إفْرِيقِيَّة وقوّض مَباني رياستهم، وعَقَد على الغُزَاةِ مكانهم ليَحْيَى بن عَمَر هذا، فاضْطَلَع بها أحسنَ اضطلاع. واستمرَّتْ حالُه، وحضر مشاهدَ أبي الحَجَّاج مع السُّلْطان أبي الحسن، فظهرت كفايتُه وغَنَاؤه.

ولمَّا هَلَكَ أبو الحَجَّاج سنةَ خمسٍ وخمسين، طَعيناً بمُصَلَّى العيدَيْن[أ] آخرَ سجدةِ من صلاته، بيد عبدٍ من عَبيدِ إصطبله مُصَابٍ في عَقْلِه، أُغْرِيَ ـ زعموا ـ به، وقُتِلَ لحينه هَبْرَاً بالسُّيوف[1].

وبُويع لابنه مُحَمَّد؛ أخذ له البَيْعةَ على النَّاس يومئذٍ مولاهُ رِضْوَان من مَغْلُوجَاهُم، حاجب أبيه وعمّه. وقام بأمره واستبدَّ عليه وحجَرَهُ[ب]، فقاسم يَحْيَى بن عَمَر هذا في شأنه وشارَكه في أمْرِه، وشدّ أزر سُلْطانه به، حتّى إذا ثارَ بالحمراء[ج] الرَّئيسُ ابنُ عمّهم مُحَمَّد بن إسماعيل بن مُحَمَّد بن الرَّئيس أبي سعيد قائماً بدَعْوة إسماعيل بن أبي الحَجَّاج أخي السُّلْطان مُحَمَّد؛ / كان ساكناً بالحمراء، وتحيَّنُوا لذلك [309 ب]

(أ) أ: العيد في (ب) ظ، ص: وحجزه (ج) ظ: بالعدا، ص: بالحصر

(1) تفصيلات أكثر في اللمحة البدرية 110، وقد اهتمّ ابن الخطيب بذكر ما كُتب على رخامة قبره كاملاً نثراً ونظماً.

مغيبَ السُّلْطان في مُتَنَزَّهه بروْضِهِ خارجَ الحمراء[1]، فخالفوه إليها وكبسُوها ليلاً، فقتلوا الحاجبَ المُستبدّ رِضْوَان، وأجْلِسَ[أ] السُّلْطان على سَرير مُلْكه، ونادوا بالنَّاس إلى بَيْعته.

ولمَّا أصبح، غدا عليهم يَحْيَى بنُ عُمَر[2] بعدَ أنْ يئسوا منه وخَشَوْا عاديته، فأتاهم بَيْعته، وأعْطاهم عليها صَفْقته، وانْصَرف إلى منزله.

وبعدَ أيّامٍ من استيلائهم، استخلصوا إدْرِيسَ بن عُثْمان بن أبي العُلَى؛ كان وَصَل إليهم من دارِ الحَرْب بأرضِ بَرْشَلونَة[ب] كما نذكره. ووَلَّوْه إمارةَ الغُزَاةِ، وائتمروا في التَّقَبُّض[ج] على يَحْيَى بن عُمَر، ونَذِر بذلك، فرَكِبَ في حاشيته يَؤمُّ دارَ الحَرْب من أرضِ الجَلالِقَة، واتَّبعه إدْرِيسُ فيمَن إليه من قَوْمِه، فقاتَلَهم صَدْرَ نهارِه وفضَّ جُموعَهم. ثمَّ خلص إلى تُخوم النَّصْرانيّة، ولَحِق منها بسدّة ملك المَغْرب على إثْر سُلْطانِه المَخْلُوع مُحَمَّد بنِ أبي الحَجَّاج، وخلَّف ابنَه أبا سعيد عُثْمان بدار الحَرْب، ونَزَلَ يومئذٍ على السُّلْطانِ أبي سالم سنةَ إحدى وستّين، فأكرمَ مثواهُ، وأحلَّه من مَجلسِه محلّ الشُّورَى والمؤامرة. واستقرَّ في جُمْلته، إلى أنْ بعث مَلِكُ قَشْتَالَةَ في السُّلْطانِ المَخْلُوع، بإشارةِ ابنه أبي سعيدٍ وسِعايته في ذلك، ليجلبَ به على أهل الأنْدَلُس بما

(أ) أ: وأجلسوا (ب) ضبطها في أ بضم أولها (ج) أ: القبض

(1) قال ابن الخطيب (اللمحة البدرية 121): "كان السلطان متحوّلاً بولده إلى سكنى الجنّة المنسوبة للعريف لصق داره، وهي المثل المضروب في الظل الممدود، والماء المسكوب، والخندق المصنوع". ثم أورد تفصيلات أكثر عن الانقضاض على السلطان، وأرجع ذلك التدبير إلى زوجة أبيه.

(2) يحيى بن عمر بن رَحُّو الذي سُيعيَّن أميراً على الغزاة فيما بعد.

نقضوا من عَهْدِه. وجهَّزه السُّلْطانُ أبو سالم سنةَ ثلاثٍ وستِّين، فصَحِبه يَحْيَى بنُ عَمَر هذا، ولَقِيهم ابنُه أبو سعيد عُثْمان وقاموا بأمر سُلْطانِهم، واستولى على الأنْدَلُس بمُظاهرتِهم، وكان لهم في ذلك آثار.

ولمَّا استولى على غَرْنَاطَةَ سنةَ ثلاثٍ وستِّين، عَقَد ليَحْيَى بن عَمَر على إمارة الغُزَاةِ[1] كما كان وأعْلَى يَداً. واستخلص عُثْمان لشوراهُ(أ) وخلَطه ببطانتِه. ونافسهُ الوَزِيرُ يومئذٍ مُحَمَّد ابنُ الخَطِيب، فسَعَى فيهم، وأغْرى السُّلْطانَ بهم، فتقبَّض عليهم سنةَ أربعٍ وستِّين وأوْدَعهم المُطْبَق(ب). ثمَّ أشخصَ يَحْيَى سنةَ ستٍّ وستِّين إلى المشرق، ورَكِبَ السَّفِينَ من المَرِيَّة، فنزل بالإسكَنْدَرِيَّة. ورَجَع منها إلى المَغْرب، ونزلَ على / عَمَر بنِ عَبْد الله أيَّامَ استبدادِه، واستقرَّ به في كرامةٍ وخَيْرِ مقَامة. ولم يَزَل بالمَغْرب على أعزِّ الأحوال، إلى أنْ هَلَكَ سنةَ ثنتين وثمانين. [310أ]

ثمَّ أشخصَ ابنَه أبا سعيد عُثْمان من الاعتقال سنةَ تسعٍ وستِّين إلى إفْرِيقِيَّةَ؛ فنزل ببِجَايَة على مَوْلانا(ج) السُّلْطان أبي العبَّاس حافدِ مَوْلانا(د) السُّلْطان أبي يَحْيَى واستقرَّ في جُمْلته(هـ). وحَضَر معهم(و) فَتْحَ تُونِس وأبْلَى فيه. وأقْطَع له السُّلْطانُ وأسْنى له الجِرايةَ، وخَلَطه بنفسِه، واصْطفاهُ لشُوراه(ز) وخُلَّته، وهو لهذا العَهْد - [سنةَ أربعٍ وثمانين](ح) - من عُظَماء مَجلسِه وظُهَرائه في مَقاماتِ حُروبه، وإخوتُه

(أ) في الأصول الأربعة: لشواره، والشوار: اللباس والهيئة، وأيضاً: العورة (ب) في الأصول الأربعة: الطبق (ج) ساقطة من أ، وطمست في ض (د) ساقطة من أ، وطمست في ض (هـ) ظ: جملتهم (و) أ: معه (ز) في الأصول الأربعة: لشواره (ح) ما بين الحاصرتين زيادة من أ

(1) وبقي إلى رمضان 764هـ. اللمحة البدرية 130

بالأنْدَلُس على مراكز عزّهم وفي ظِلال عَصبيَّتهم مع قَوْمهم، وقد ذهب مَواجِدُ[أ] السُّلْطان بالأنْدَلُس عليهم فصار[ب] إلى جميل رأيه فيهم. والله مالك الملك ومُقلّبُ القُلوب لا إله غيره.

الخَبَرُ عن إدْرِيس بن عُثْمان بن أبي العُلَى، وإمارته بالأنْدَلُس، ومصائر أمره

لمَّا هَلَك أبو ثابت بنُ عُثْمان بن أبي العُلَى سنةَ خمسين وسبعمائة، استقرَّ إخوتُه في جُمْلةِ السُّلْطانِ أبي عِنَان مَلِك المَغْرب، وأقْطَعهم وأسْنى جِراياتِهم، وكان في إدْرِيس منهم بقيَّةٌ من التَّرشيح يراه النَّاسُ بها.

فلمَّا نهضَ السُّلْطانُ لفَتْح قُسَنطِينَة سنةَ ثمانٍ وخمسين، وتوغَّل في ديارِ إفْرِيقيَّة، وخَامَ قَوْمُه على مواقفها، تحيَّلوا عليه في الرُّجوع به عن قَصْدِه منها. وأذِنت المشيخةُ لِمَن معهم من قَوْمهم في الانطلاق إلى المَغرب، حتَّى خَفَّ المُعَسْكَرُ من أهله، وتوامرُوا - زعموا - في اغتيال السُّلْطانِ والإدالة منه بإدْرِيس هذا. ونَذِرَ بذلك، فكرَّ راجعا كما ذكَرْناهُ في أخباره.

ولمَّا أُشيع ذلك، بلَغ إدْرِيسَ شأنه، فرَكِب ظَهْرَ الغَرَر، وفرَّ من المعَسْكَر ليلاً، ولَحِق بتُونِس، فنزل على القائم بالدَّوْلَة يومئذٍ الحاجبِ أبي مُحَمَّد بن تَافْرَاكِين خَيْرَ نُزُل وأبرَّه. ورَكِبَ السَّفِينَ من تُونِس إلى العُدْوَة،/ فنزل على ابنِ القُمّط صاحبِ [310 ب]

(أ) ظ، ض: مواحه، ص: مواجه (ب) أ: وصاروا

بَرْشَلُونَة[أ] في حَشَمه وذويه، وأقام هُنالِك، إلى إنْ كان من مَهْلِك رِضْوَان الحاجبِ المُسْتَبِدّ بالأَنْدَلُس سنةَ ستّين ما قدّمناه، فنزع إلى منيته من غَرْنَاطَة، ونزل على إسماعيل ابنِ السُّلْطان أبي الحَجّاج، والقائمُ بدَوْلَتِه يومئذٍ الرَّئِيس مُحَمَّد ابنُ عمّه إسماعيل بن مُحَمَّد ابن الرَّئِيس أبي سعيد، فلقّوه مبرَّةً وتكريماً، ورجَوْهُ بالإدالةِ به من يَحْيَى بن عَمَر أميرِ الغُزَاة يومئذٍ، لِمَا كانوا يتّهمونه به من مُمالأة المَخْلُوع صاحبِ الأمر عليهم.

ولمَّا نزع يَحْيَى بن عَمَر إلى الطَّاغِيَة، ولَحِق بدار الحَرْب سنةَ إحدى وستّين، عَقَدوا لإِدْرِيس بن عُثْمان هذا على الغُزَاة مكانه، وولّوه[ب] خطّةَ أبيه وأخيه بدَوْلَتهم، فاضطلع بها. ثمّ قَتَلَ الرَّئِيسُ مُحَمَّد سُلْطانه إسماعيل ابن عمّه أبو الحَجّاج واستبدَّ بالأمر.

ولسنتين من ولايته، غَلَبهم المَخْلُوع [أبو عَبْد الله مُحَمَّد][ج] على أمرهم. وزحف إليهم من رُنْدَة؛ كان نَزَل بها بعدَ خُروجِه من دار الحَرْب مُغاضباً للطَّاغِيَة. [وأَذِنَ له وزيرُ][د] المَغْرب عَمَر بن عَبْد الله في نزلها فنزلها. ثمّ زحف إلى الثَّائر بغَرْنَاطَة على ملكهم الرَّئِيس وحاشيته، فأجْفلوا. ولَحِق الرَّئِيسُ مُحَمَّد وإدْرِيس هذا بقَشْتَالَة، ونزلوا في جُمْلتهم وحاشيتهم على الطَّاغِيَة، فتقبَّض عليهم، وقَتَل الرَّئِيس مُحَمَّداً وحاشيته، جزاءً بما أتوه[هـ] من غَدْرِ رِضْوَان. ثمّ غَدْر السُّلْطان إسماعيل من بعده وأوْدع إدْرِيس ومَنْ معه من الغُزَاةِ السّجنَ بإشْبيلِيَّة، فلم يَزَل في أسْرِه[و] إلى

(أ) ضبطها في أ بضم الأول (ب) أ، ص: وولده، ومثله في ض فأصلحها (ج) ظ: أبو محمد عبد الله (د) ظ، ص: وأذن لوزير (هـ) ظ: لقوه (و) ظ: أمره

أنْ تحيّل في الفرار بمُداخَلة مُسْلمٍ من الدّجَن[1]؛ أعدَّ له فَرَساً إزاء مُعتقلِه، ففكَّ قَيْدَه، ونقَبَ البيتَ، وامْتطى فرسَه، ولَحِق بأرض المُسْلِمين سنةَ ستٍّ وستّين. واتَّبعوه فأعْجزهم، وجاء إلى السُّلْطانِ أبي عَبْد الله مُحَمَّد بن أبي الحَجَّاج، فأكرَمَ نُزُله، وأحسنَ مبرّتَه، ثمَّ طلب إذنه في اللَّحاق بالمَغرب، فأذِنَ له وأجاز إلى سَبْتَة.

وبلغ شأنُه إلى صاحب الأمر بالمَغرب يومئذٍ عُمَر بن عَبْد الله، فأوْعَزَ إلى عامل[أ] / سَبْتَة بالتَّقبُّض عليه لمكان ما يُؤنس من تَرْشيحه. وأوْدعه السِّجنَ بمِكْناسَة، ثُمَّ نقله السُّلْطانُ عَبْد العَزِيز إلى سجن القَوْرِ بفاس، ثمّ قتلوه خنقاً سنةَ سبعين. والله وارث الأرْض ومَنْ عليها. [311أ]

الخَبَرُ عن إمارة عليّ بنِ بدر الدّين على الغُزاة بالأنْدلُس، ومصائرِ أمرِه

قد ذكرنا أنَّ موسى بنَ رَحُّو بن عَبْد الله بن عبد الحَقّ، كان أجاز إلى الأنْدَلُس مع مُحَمَّد وعامر[ب] ابني إدْرِيس بن عبد الحَقّ وقَوْمِهم، أولاد سُوط النِّساء، سنةَ تسعٍ وستّين. ثمَّ رَجَع إلى المَغرب وفرَّ إلى تِلِمْسان سنةَ [تسعٍ وستّين][ج] وأجاز منها

(أ) ظ: صاحب (ب) ظ، ص: محمد بن عامر (ج) بياض في الأصول الأربعة قدر كلمتين، وقد تقدم ذكر تاريخ فراره إلى المغرب، أما إجازته إلى الأندلس فكانت سنة سبعين

---

(1) ظ: الدحن، أ، ض: الدجن، ص: الدحن. والدجن: أو المُدَجَّنون (Los Mudejares) هم المسلمون الأندلسيّون الذين ثبّتوا في بلدانهم وبقوا فيها بعد أن احتلّها النصارى الإسبان، وقد لاقى المدجنون الأمرّيْن: فمن جهة عانوا شدة التنكيل من السلطة النصرانية الجديدة، ومن جهة أخرى تحمّلوا اللوم الشديد من المسلمين أنفسهم، إذ ظهر تيار ديني يحثُّ المدجنين على الهجرة إلى الخارج ليكونوا تحت سلطة إسلامية، وتجلّى هذا التيار بوضوح في فتوى أبي العباس الوَنْشريسيّ التي ضمّنها رسالته "أسنى المتاجر، في بيان أحكام مَن غلب على وطنه النّصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر"، وفيه وصف لأحوالهم الاجتماعية بعد سقوط غرناطة. للمزيد في هذا الموضوع انظر: نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان 56 ـ التاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجيّ 531.

إلى الأَنْدَلُس. ووَلي إمارةَ الغُزَاةِ بها إلى أنْ هَلَك، بعدَ أنْ أصْهر إليه السُّلْطانُ يوسُف ابن يَعْقُوب في ابنته [...][أ]، فعَقَد له عليها، وزفَّها إليه سنةَ [سبعٍ][ب] وسبعين مع وفدٍ من قَوْمها.

وكان لموسى بنِ رَحُو من الوَلَد جماعةٌ؛ أكبرهم المُحَمَّدان: جمالُ الدِّين وبدرُ الدِّين، وَضَعَ عليهما[ج] هذين اللَّقبين ـ على طريقةِ أهل المشرق ـ الشَّريف المكِّيّ، الوافد على المَغْرب لذلك العَهْد من شُرفاءِ مَكَّةَ. وكان هؤلاءِ الأعْياصُ مُلُوكُهم وأقيالُهم يعظِّمون أهلَ البيتَ النَّبويّ، ويلْتمِسون الدُّعَاءَ والبَرَكَة منهم فيما تيسَّر من أحوالهم، فحمل موسى بنُ رَحُو وَلَدَيْه هذيْن عندَ وَضعِها إلى الشَّريف يحنِّكهُما ويدعو لهما، فقال له الشَّريف: خُذْ إليك جمالَ الدِّين. وقال في الآخر: خُذْ إليك بدرَ الدِّين، فاستحبَّ موسى دعاؤهما بهذين اللَّقبين؛ تبرُّكاً بتَسْمية الشَّريف بهما، فاشتهرا بهذين الاسمَيْن.

ولمَّا بلغا الأشدّ، وشاركا أباهما في حَمْل الرِّيَاسَة، وكان من مَهْلِكه ما ذكرناه، وانحرفت رياسةُ الغُزَاة عنهما إلى عمِّهما عبد الحَقّ وابنه، فلَحِق جمالُ الدِّين منهما بالطَّاغِيَة سنةَ ثلاث، ثمَّ أجاز البَحْرَ من قَرْطَاجَنَّة(1) إلى السُّلْطان يوسُف بن

(أ) في الأصول الأربعة بياض قدر كلمتين (ب) ظ: سنة تسع، وقد تقدم في فصل الخبر عن دولة السلطان أبي يعقوب ذكر خبر إصهار السلطان يوسف في ابنة موسى بن رحو (ج) ظ: عليهم

(1) قرطاجنة: تقع على خليج تونس، وهي مدينة بونيقيّة ثم آلت للرومان الذين جَلبوا لها الماء على الحنايا من جبل زغوان، وأنهى الحضور الإسلامي نفوذها الذي تحوّل للقيروان، وأصبحت خرائبها مصدراً للرخام ومواد البناء والأساطين خصوصاً بعد أن تحولت تونس إلى عاصمة إفريقية، زمن بني حفص. مسالك البكري 2: 699، نزهة المشتاق 1: 286، الوزان: وصف إفريقيا 1: 4، 2: 68، مارمول: إفريقيا 3: 99.

[311ب] يَعْقُوب / بِمُعَسْكَرِه من حِصار تِلِمْسان واستقرّ في جُمْلته، حتّى إذا هَلَكَ السُّلْطانُ، وتصدّى ابنُه أبو سالم للقيام بالأمر، وكان مُغلّباً مضعّفاً فلم يتمّ أمره، وتناول المُلْكَ أبو ثابت حافدُ السُّلْطان واستولى عليه. وفرَّ أبو سالم عشيّ مَهْلِكه ومعه من القَرابة جمالُ الدِّين هذا وأعْمامه: العبَّاسُ وعيسى وعليّ بنو رَحُّو بن عَبْد الله، فتقبَّض عليهم في طَرِيقِهم بِمَدْيُونَة[أ] وسيقوا إلى السُّلْطان أبي ثابت، فقَتَل عَمَّه أبا سالم وجمال الدِّين ابن موسى بن رَحُّو، وامتنَّ على الباقين واستحياهم.

وانصرف العبَّاسُ بعدَها إلى الأنْدَلُس، فكانت له في الجهاد آثارٌ كما ذَكَرْناهُ قبلُ.

وأمَّا بدرُ الدِّين، فلم يَزَل بالأنْدَلُس مع قَوْمه، ومحلّه من الرِّيَاسَة والتَّجِلَّة محلّه من النَّسب، إلى أنْ هَلَكَ، *فقام بأمره من بعدَه ابنُه*[ب] عليّ بنُ بدر الدِّين مُزاحِماً لقَومه في الرِّيَاسَة، مُباهياً لهم بالتَّرْشيح. وكان كثيراً ما يعقد له مُلُوكُ بَني الأَحْمر على الغُزاة من زَنَاتَة؛ المرابطين بالثُّغور فيما بَعُدَ عن الحَضْرة من قَواعد الأنْدَلُس؛ مثل: مَالَقَة والمَرِيَّة ووادي آش، سبيل المُرَشَّحين من أهل بيته. وكانت إمارةُ الغُزاة بالأنْدَلُس مُستأثرةً بأمرِ السَّيف والحَرْب، مُقاسمةً للسُّلْطان أكثر الجباية في الأُعطية والأرزاق بما كانت الحاجةُ إليهم في مُدافعة العَدُوّ، ومُقارعة مَلِك المغرب المشتَّق[ج] إلى مُلْك الأنْدَلُس، فكانوا يغضّون لهم عن اسْتِطالَتِهم عليهم[د] لمكان حاجتهم إلى دفاع العَدُوَّيْن، حتّى إذا سَكن ريحُ الطَّاغِيَة، بما كان من شُغْله بفتنة أهلِ دينِه منذ

(أ) ظ: بمديونة، ومهملة في ص (ب) عوض ما بين النجمين في أ: وخلف ابنه (ج) كذا في ص، وتحتها: المسيف، ظ، أ: المنسف، ض: المسف. والتشوّف إلى الشئ: التطلع إليه. وهو المقصود هنا. (د) ظ: إليهم، وفي أ: عن الإستطالة عليهم

منتصف هذه المائة [الثّامنة][أ]، وشُغل بَني مَرِين أيضاً بعد مَهْلِك السُّلْطان أبي الحسن [بفتنة أبنائه][ب] وتناسَوْا عَهْدَ الغَلَب على أقتالهم وجيرانهم [ونُظرائهم][ج]. وتُنوسِيَ عَهْدُ ذلك أجمع، فاعتزم صاحبُ الأنْدَلُس على مَحْوِ هذه الخطّة من دولته. وأغراهُ بذلك وزيرُه ابن الخَطِيب كما ذَكَرْناهُ حِرْصاً على خلاءِ الجوّ له، فتقبَّض[د] على يَحْيَى بنِ عُمَر وعلى بَنيه سنةَ أربعٍ وستّين كما ذَكَرْناهُ. وعَقَد على الغُزَاة المُجاهِدين لابنه / وليّ عَهْده الأمير يوسُف، ومحا رَسْمَ الخطّةِ لبَني مَرِين بالجُملة، إلى أنْ تُوهِم فناءُ الحامية منهم بفناء بيوتِ العَصَبيّة الكُبرى، فراجع[هـ] رأيه في ذلك. [312أ]

وكان عليّ بنُ بدر الدّين خالصةً له، وكان مُقدَّماً على الغُزَاة بوادي آش. ولمّا لَحِق السُّلْطانُ به ناجياً من النَّكْبة ليلةَ مَهْلِك رِضْوَان، مانع دونَه وظاهَرَه على أمره، حتّى إذا ارْتَحل[و] إلى المَغْرب ارْتَحل[ز] معه، ونزلوا جميعاً على السُّلْطانِ أبي سالم سنةَ إحدى [وستّين][ح] كما ذَكَرْناهُ. ولمّا رَجَع إلى الأنْدَلُس رَجَع في جُملته، فكان له بذلك عَهْدٌ وذِمَّةٌ رعاها السُّلْطانُ [له][ط]؛ وكان يستخلصه ويُناجِيه، فلمّا تفقّد مكانَ الأمير على الغُزاةِ، ونَظَر فيمَن يُولّيه، عثر اختيارُهُ على عليّ هذا لسابقته ووَسائله وما بلاه من نُصْحه ووُقوفه عند حدّه، فعَقَد له سنةَ سبعٍ وستّين على الغُزاة كما كان أوّلوه، فقام بها واضطلع بأُمورها، واستمرَّتْ حالُه إلى أنْ هَلَك حتفَ أنفِه سنةَ ثمانٍ وستّين. ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن، آية 27].

(أ) ساقطة من ظ (ب) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ج) زيادة من أ وحدها (د) ظ: فقبض (هـ) أ: ثم راجع
(و) أ، ض: وارتحل (ز) أ: فارتحل (ح) ظ: وتسعين (ط) ساقطة من ظ

الخَبَرُ عن إمارة عبد الرّحمن بن عليّ[ا] أبي يَفْلُوسَنْ[ب] ابن السُّلطان أبي عليّ على الغُزاةِ بالأندَلُس، ومصيرِ أمرِه

كان وَلَدُ السُّلطان أبي عليّ قد استقرّوا بالأنْدَلُس وأجازوا إلى طَلَب الأمر بالمَغرب. وكان من أمْرِهم ما شرحناه، إلى أنْ أجاز عبدُ الرّحمن هذا مع وزيرِه المطارِدِ به مَسْعُود بن رَحُّو[ج] سنة ستٍّ وستّين، من غَسَاسَة على سَلْمٍ عقدهُ لهم وزيرُ المَغرب المستبدُّ بأمْره يومئذٍ عَمر بنُ عَبْد الله.

ونزل عبد الرّحمن هذا بالمُنَكَّب، وكان السُّلطانُ يومئذٍ مُعَسْكِراً بها، فتلقَّاه من الاحتفاءِ والبرّ بما يُناسبه، وأكرم مثواه وأسْنى الجِرايةَ له ولوزيرِه ولحاشيته، واستقرّوا في جُمْلةِ الغُزَاة المُجاهِدين، حتّى إذا هَلَكَ عليّ بنُ بدر الدّين سنةَ ثمانٍ وستّين، نَظَر السُّلطانُ فيمَن يولّيه أمْرَهم، فعثرَ[د] اختيارُه على عبد الرّحمن هذا، لِمَا عُرف به من البَسالة والإقدام، ولقُرب الوَشائجِ بينه وبين مَلِكِ المَغْرب يومئذٍ، التي هي ملاكُ / [312 ب] التَّرشيح لهذه الخطّة بالأنْدَلُس كما قدّمناه، لَمّا كانت وَشائجُ أولاد عَبْد الله بن عبد الحَقّ قد بَعُدت باتّصال الملك في عَمود نَسبِ صاحبِ المَغْرب دونَ نَسبِهِم، فآثره صاحبُ الأنْدَلُس بها، وعَقَد له على الغُزَاة المُجاهِدين سنةَ ثمانٍ وستّين، وأضفى عليه لَبوسَ[هـ] الكَرامةِ والتَّجِلّة، وأقْعده بمَجْلِس الموازاة كما كان الأمراءُ قبلَه.

واتَّصل الخَبَرُ بسُلْطانِ المَغْرب يومئذٍ عَبْد العَزِيز ابن السُّلطان أبي الحسن،

(ا) ظ، ص: أبي علي، ومثله في ض فشطبت (ب) أ، ض: بويفلوسن (ج) أ: مسعود بن ماساي، وماساي جده

(د) شطبها في أ وكتب بخطه في الهامش: فوقع (هـ) ظ، ص: وأصفى عليه ليونس

فغصّ بمكانِه، وتوهَّم أنَّ هذه الإمارةَ زيادةٌ في تَرْشيحه ووسيلةٌ لملكه. وكانت لوزيرِ الأنْدَلُس مُحَمَّد ابنِ الخَطِيْب مداخلةٌ مع صاحبِ المَغرب، بما أمل أنْ يجعله فيئةً لاعتصامهِ، فأوْعَزَ إليه بالتَّحَيُّل على إفسادِ ما بينه وبين صاحبِ الأنْدَلُس، فَجَهِدَ في ذلك جهده. ولُبِّسَت عليه وعلى وزيره مَسْعُود بن مَاسَايْ، كتبٌ إلى عُظماء القَبيل وبعض البِطانة من أهل الدَّوْلَة، بالتَّجنيب[أ] والدَّعوة إلى الخروج على صاحبِ المَغرب، فأحضرهم السُّلطانُ ابنُ الأَحْمر وأعطاهم كتابهم، فشَهِد عليهم وأمر بهم، فاعتُقِلُوا بالمُطْبَق سنةَ سبعين. واسترضى صاحب المَغرب بفَعْلته فيهم. ونَزَع الوَزيرُ ابن الخَطِيب بعد ذلك إلى السُّلطانِ عَبْد العَزِيز، وتبيّن لسُلْطانه مَكْرُه واحتيالُه عليه في شأنهم.

ولمَّا هَلَكَ عَبْد العَزِيز، وأظلم الجوُّ بين صاحبِ الأنْدَلُس وبين القائم بالدَّوْلَة أبي بكر بن غازي[ب] كما قدَّمناهُ، وامتعضَ ابن الأَحْمر للمُسلمين من الفوضى، أطلقَ عبد الرَّحمن بن أبي يَفَلُّوسَنْ ووزيره مَسْعُود بن مَاسَايْ من الاعتقال، وجهَّز لهما الأُسطُولَ، فأجازوا فيه[ج] إلى المَغرب، ونَزَل بمَرْسى غَسَاسَة على بَطُويَة داعياً لنفسه، فقاموا بأمْرِه. وكان من شأنه مع الوَزِير أبي بكر بن غازي[د] ما قَصَصْناهُ. واستقرَّ آخراً بمَرَّاكُش، وتقاسَم مَمَالِكَ المَغرب وأعْماله [مع][هـ] السُّلطانِ أبي العبَّاس، أحمد بن أبي سالم، صاحبِ المَغرب لهذا العَهْد. وصار التَّخْمُ بينهما وادي مُلْويَّة. ووَقَف

(أ) مهملة في ظ، ص (ب) ظ، ص، ض: غاز (ج) ظ، ص: فيها (د) ظ، ص، ض: غاز (هـ) ساقطة من ظ، ص

كلُّ واحدٍ منها عندَ حَدِّه. والله مالك الملك يؤتي المُلْك من يشاء وينزع المُلْك ممّن يشاء.

[313أ] وأغفلَ صاحبُ الأندَلُس هذه الخطّةَ / من دَوْلته، ومحا رَسْمَها من مُلكه، وأصارَ أمرَ الغُزَاة المُجاهِدين إليه، وباشرَ أحوالَهم بنفسِه وعَمَّهم بنَظَرِه، وخصّ القَرابةَ المُرَشَّحين منهم بمزيدِ تَكْرِمته وعنايته. والأمرُ على ذلك لهذا العَهْد، وهو سنة ثلاثٍ وثمانين[1].

(1) إلى هنا تقف النُّسختان ص، ض عن إيراد بقيّة الجزء المتضمّن "التعريف بابن خلدون..."، والنص متتابع في نسختي: ظ، أ إضافة إلى نسخةٍ مستقلة تتضمن نص "التعريف" منفصلاً عن التاريخ، هي نسخة آيا صوفيا.
ونصّ خاتمة الجزء في ص: "تمّ السفر بحمد الله وعونه وحُسن توفيقه ويُمْنه في خامس عشر ذي قعدة سنة [....]"، وأسفل ذلك بخطٍّ مغاير لخطّ ناسخها: "تمّ الجزء السابع من تاريخ ابن خلدون المسمّى بالعبر وهو آخر الكتاب". وكتب في آخر نسخة ض: "تمّ السفر بحمد الله وعونه"

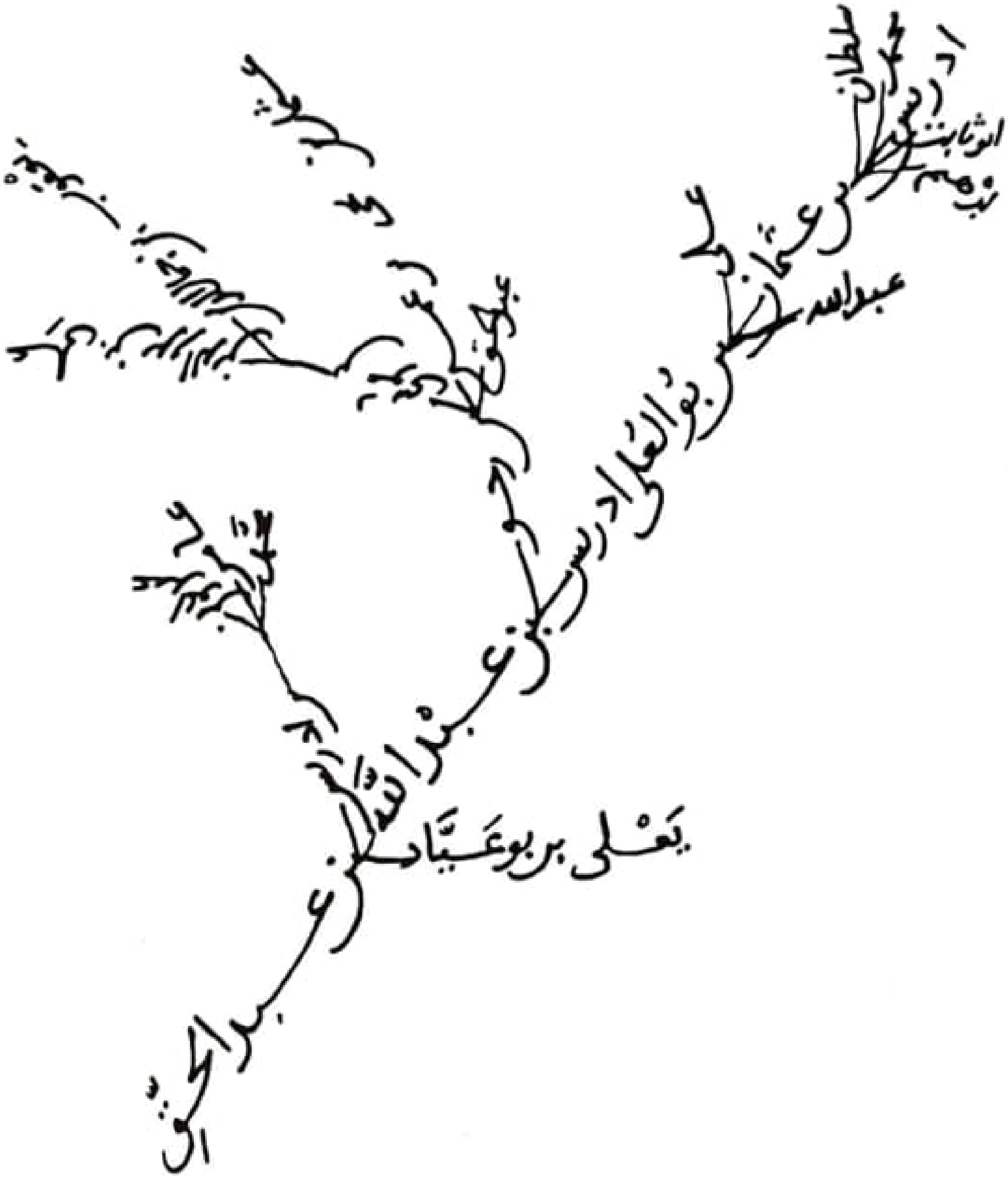

[نسب أولاد بُوالعُلَى، أمراء الغزاة بالأندلس]

[313 ب]

/ ۞ التَّعريفُ بابن خَلْدُون مُؤلِّف الكتابِ

[ورِحْلته غَرباً وشَرْقاً][أ]

وأصلُ هذا البيتِ من إشبيلِيَّةَ؛ انتقل سَلفُنا ـ عندَ الجلاءِ وغَلَبِ مَلِكِ الجلالِقة ابن أُدْفُونْش عليها ـ إلى تُونِسَ في أَواسطِ المائة السابعةِ.

نَسَبُهُ[1]:

عبدُ الرّحمنِ بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن الحَسَن بن مُحَمَّد بن جابِر بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن عبد الرّحمن بن خَلْدون. لا أَذْكُر من نَسَبي إلى خَلْدونَ غيرَ هؤلاءِ العَشرة، ويغلُب على الظنّ أنّهم أكثرُ، وأنّه سَقَط مثلُهم عَدداً؛ لأنَّ خَلْدون هذا هو الدّاخلُ إلى الأَنْدَلُس، فإنْ كان أَوّلَ الفَتْح، فالمُدَّة لهذا العَهْد سبعُمائة سنة، فيكونون زُهاءَ العشرين؛ ثلاثةً لكلّ مائة، كما تقدّمَ في أوّلِ الكتابِ الأوّلِ[2].

وَنَسَبُنا في حَضْرَموتَ، من عَربِ اليمنِ، إلى وائل بن حُجْر، من أَقيال العَربِ، معْروفٌ وله صُحْبةٌ. قال أبو مُحَمَّد بن حَزْم في كتاب الجَمْهَرة[3]: وهو وائل بن حُجْر ابن سعيد بن مَسْروق بن وائل بن النُّعمان بن رَبيعة بن الحارِث بن عَوْف بن سعد بن

(أ) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، ومثبت في أ ونسخة آيا صوفيا

---

(1) أورد المقّري ترجمة ابن خلدون هذه نقلاً عنه بشيءٍ من التصرّف. نفح الطيب 6: 171.

(2) العبر 1: 297

(3) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب 460

عَوْف بن عَدِيّ بن مالك بن شُرَحْبيل بن الحارث بن مالك بن مُرَّة بن حِمْيَرِيّ بن زَيْد ابن الحَضْرَمِيّ بن عمرو بن عبد الله [بن هانىء][(1)] بن عَوْف بن جُرشم[(أ)] بن عَبْد شَمس بن زَيْد بن لأي بن شَبْث[(ب)] بن قُدامة بن أَعْجَب بن مالِك بن لأي بن قَحْطان؛ وابنُه عَلقَمة بن وائل، وعبد الجَبَّار[(ج)] بن عَلْقَمَة بن وائِل.

وذكره[(د)] أبو عُمر بن عَبْد البَرّ في حرف الوَاو من الاستيعابِ[(2)]، وأنَّه وَفَد على النَّبِيّ، صلّى الله عليه وسَلَّم، فبسَطَ له رداءَه، وأجلَسَهُ عليه، وقال: اللَّهُمَّ بارِكْ في وائل بن حُجْر، وولدِه، وولَدِ ولَدِه، إلى يوم القيامةِ[(هـ)].

وبعثَ معه مُعاويةَ بن أَبِي سُفيان إلى قومِهِ يُعلِّمهم القرآنَ والإسلامَ، فكانت له بذلك صِحابةٌ مع مُعاويةَ، ووفدَ عليه لأوّلِ خِلافته، وأجازَه، فردَّ عليه جائزتَه، ولم يقبلْها.

ولمَّا كانت واقعة حُجْر بن عَدِيّ الكِنديّ بالكوفةِ[(3)]، اجتمع رؤوسُ أهل اليَمَن، وفيهم وائل هذا، فكانوا مع زياد بن أبي سُفيان عليه، حتَّى أوثقوه؛ وجاءوا بِه إلى

(أ) عند ابن حزم (الجمهرة 460): جرم، والمثبت يوافق إحدى نسخه الخطيّة. وكتبه في نسخة آيا صوفيا بالهاء ثم أصلحت (ب) آيا صوفيا: شبث (ج) ظ: وائل بن عبد الجبار، والمثبت من أ ونسخة آيا صوفيا ويوافق جمهرة ابن حزم (د) ظ: ذكره (هـ) لم ترد عبارة "إلى يوم القيامة" في نشرة الاستيعاب

---

(1) زيادة من جمهرة أنساب العرب لابن حزم 460

(2) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب 756

(3) كان حُجر بن عدي من شيعة علي بن أبي طالب في حربه مع معاوية بن أبي سفيان. فلما تولى زياد بن أبيه أمر الكوفة، طلب حُجراً - وكانت بينهما مودّة – وحاول كسبه إلى جانب معاوية، فرفض؛ فأرسله مع جماعة آخرين إلى معاوية بتهمة رفضهم لَعْن علي بن أبي طالب، فقتلهم معاوية سنة 52هـ بمرج عَذْراء (تاريخ اليعقوبي 2: 230). وقال ياقوت في تعريف عَذْراء: من قرى غوطة دمشق، وبها قُتل حُجر بن عدي الكندي وبها قبره. (معجم البلدان: 4: 91). ولنصر بن مزاحم المِنْقري كتاب (مقتل حُجر بن عدي الكندي). الوافي بالوفيات 27: 123.

مُعاويةَ، فقَتَله، كما هو معروف.

قال ابنُ حَزمٍ[1]: ويُذكَر بنو خَلْدون الإشبيليّون من ولده، وجَدُّهم الدّاخِل من الشَّرْق خالد، المعروف بخَلْدون بن عُثْمان بن هانئ بن الخطّاب بن كُرَيب بن مَعْدِيكَرِبَ[أ] بن الحارثِ/ بن وائل بن حُجْر. [314 أ]

قال: وكانَ من عَقبِهِ كُرَيْب بن عُثْمان بن خَلْدون وأخوه خالد، وكانا من أعظم ثُوّار الأنْدَلُس.

قال ابنُ حَزمٍ: وأخوه مُحَمَّد، كان من عَقبِهِ أبو العاصِي عَمْرو بن مُحَمَّد بن خالد ابن مُحَمَّد بن خَلْدون.

وبنو أبِي العاصِي: مُحَمَّد وأحمد وعبدُ الله. قَال: وأخوهم عُثْمان، وله عَقِبٌ. ومنهم الحكيم المشهور بالأنْدَلُس، من تلامِيذِ مَسْلَمَةَ المَجْريطِيِّ[2]؛ وهو أبو مُسلم، عمر بن مُحَمَّد بن بَقِيّ بن عبد الله بن بَكْر بن خالد بن عُثْمان بن خالد بن عُثْمان بن خَلْدون الدّاخِل. وابنُ عمّه أحمد بن مُحَمَّد بن أحمد بن مُحَمَّد بن عبد الله. قال: ولم يبقَ من ولد كُرَيْب، الرّئيسِ المذكور، إلاّ أبو الفَضْل ابن مُحَمَّد[ب] بن خَلَف بن أحمد بن عَبْد الله[ج] بن كُرَيْب. انتهى كلامُ ابن حَزمٍ.

(أ) ظ، أ وآيا صوفيا: معدي كرب، والمثبت من ابن حزم (ب) عند ابن حزم (جمهرة أنساب العرب 460): أبو الفضل محمد (ج) ابن حزم: المصدر نفسه 460: عُبيد الله

---

(1) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب 460

(2) ذكره ابن خلدون سابقاً ونعته بأنه "إمام أهل الأندلس في التعاليم والسحريات، وجمع طرقها في كتابه "غاية الحكيم"، وزاد ابن خلدون بأنه "لم يكتب أحدٌ في هذا العلم بعده". العبر 2 : 325، 342.

سَلَفُه بالأندلس:

ولمَّا دخل خَلْدونُ بن عُثْمان، جَدُّنا، إلى الأنْدَلُس، نزل بقَرْمُونَة في رَهْطٍ من قومه حَضْرَمَوت، ونَشَأَ بيتُ بَنِيه بها، ثمّ انتقلوا إلى إشْبِيلِيَّة. وكانوا في جُنْد اليَمَن، وكان لكُرَيْب، من عَقِبِهِ، وأخيه خالد، الثَّورةُ[1] المعروفةُ بإشْبِيلِيَّة أيَّامَ الأميرِ عَبْد الله المَرْوانيّ؛ ثار على ابن أبِي عَبْدَة، وملَكَها من يَدِه أعواماً. ثمّ ثار عليه إبراهيمُ بن حَجَّاج، بإملاءِ الأميرِ عبد الله، وقَتَله، وذلك في أواخر المائة الثالثةِ.

وتَلْخيصُ الخَبَر عن ثَوْرته، على ما نَقَله ابنُ سَعيد[2] عن الحِجَاريّ وابن حَيَّان[3] وغيرِهما، وينقلونَهُ عن ابن الأشْعَث، مؤرّخ إشْبِيلِيَّة: أنَّ الأنْدَلُس لمّا اضْطرَبَتْ بالفتَنِ، أيَّامَ الأميرِ عَبْدِ الله، تطاولَ رؤساء إشْبِيلِيَّة إلى الثَّورة والاستبدادِ، وكان رُؤَساؤها المتطاولون إلى ذلك في ثلاثةِ بيوت: بيت بَني [أبي][أ] عَبْدَة، ورئيسهم يومئذٍ أُمَيَّةُ بن عبد الغافِر بن أبِي عَبْدَة، وكان عبدُ الرّحمن الدَّاخِل ولَّى أبا عَبْدَةَ إشْبِيلِيَّة وأعمالَها، وكان حَافدُه أُمَيَّةُ من أَعْلامِ الدَّوْلَةِ بقُرْطُبَة، ويولونه المَمالكَ الضّخمةَ. وبيتُ بني خَلْدون هؤلاء، ورئيسُهم كُرَيْب المذكور، ويَرْدفُهُ أخوه خالِد.

(أ) ساقطة من ظ

---

(1) تقدم لابن خلدون بسط خبر الثورات التي قامت بإشبيلية في الجزء السابع من العبر [الورقة 136أ – 140ب] في فصل "ثوّار إشبيلية المتعاقبون بها: ابن أبي عبدة وابن خلدون وابن حجاج وابن مسلمة".

(2) لم نجده فيما وصلنا من كتاب ابن سعيد "المغرب في حلى المغرب" خاصة وأن جزءاً كبيراً مما يختص بتاريخ إشبيلية مفقود من الكتاب. أمّا الحِجاريّ المذكور فهو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، وكان أول من وضع أساس كتاب "المغرب" وكان عنوانه: "المسهب في غرائب المغرب"، ثم توالى على الإضافة والتنقيح خمسةٌ من أدباء المغرب كان آخرهم علي بن موسى بن سعيد، واستغرق ذلك العمل مائة وخمسة عشر عاماً.

(3) المقتبس من أنباء أهل الأندلس 91 وتقدم لابن خلدون (العبر 7: 136أ) إثبات ما نقله عن ابن سعيد بنصه.

قال ابن حيَّان: وبيتُ بني خَلْدون إلى الآن في إشبيليَّة نهايةٌ في النَّباهةِ، ولم تزلْ أعلامُه بينَ رياسة سُلْطانيّة، ورياسة عِلْميّة.

ثمّ بَيْت بني حَجّاج، وَرَئيسُهم، يومئذٍ، عبدُ الله. قال ابن حَيَّان: هُمْ - [يعني: بني حجّاج][(أ)] - من لَخْم، وبيتهم إلى/ الآن في إشبيليَّة ثابِتُ الأصل، ثابتُ الفرع، موسومٌ [31 ب] بالرِّياسةِ السُّلْطانيّة والعِلْميّة. فلمّا عظمت الفتنةُ بالأنْدَلُس أعوامَ الثمانين والمائتين، وكان الأميرُ عبدُ الله قد ولَّى على إشبيليَّة أُمَيَّةَ بن عبد الغافِر، وبَعَثَ معه ابنَه مُحَمَّداً، وجعله في كفالتهِ، فاجتمعَ هؤلاء النَّفَر، وثارُوا بمُحَمَّد ابن الأمير عبدِ الله، وبأُمَيَّة صاحِبِهم، وهو يمالِئُهم على ذلكَ، ويكيد بابن الأمير عبد الله؛ وحاصروهما في القَصْرِ، حتَّى طلب منهم اللّحاقَ بأبيه؛ فأخرجوه، واستبدّ أُمَيَّة بإشبيليَّة، ودَسَّ على عبد الله بن حجّاج من قَتَله، وأقام أخاه إبراهيمَ مكانَه، وضبطَ إشْبيليَّة، واسترهنَ أولادَ بَني خَلْدونَ وبني حجّاج، ثمّ ثاروا به، وهمَّ بقتل أبنائهم، فراجَعوا طاعتَه، وحَلَفوا له، فأطلقَ أبناءَهم، فانتقضوا ثانيةً، وحاربوه؛ فاستَمات، وقَتَل حُرَمَه، وعَقَر خُيولَه، وأحرقَ موجودَه، وقاتَلهم[(ب)] حتَّى قَتلوه، مُقْبِلاً غيرَ مُدْبِر؛ وعاثت العامَّة في رأسِه، وكتبوا إلى الأميرِ عبدِ الله بأنَّه خَلَع؛ فقتَلوه؛ فقبلَ منهم مُداراةً، وبعث عليهم هشامَ بن عبد الرّحمن من قَرابته، فاستبدُّوا عليه، وفتكوا بابنهِ، وتولَّى كِبْرَ ذلك كُرَيْبُ بن خَلْدونَ، واستقلَّ بإمارتها.

وكان إبراهيمُ بن حجّاج، بعدما قُتل أخوه عبدُ الله - على ما ذكَرَهُ ابن سَعيد عن

(أ) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، كتبه بخطه في هامش أ (ب) ظ: وقتلهم

الحِجَاريّ - سَمَتْ نفسُه إلى التّفَرّد، فظاهر[أ] ابنَ حَفصُون أعظمَ ثوّار الأنْدَلُس يومئذٍ، وكان بمَالَقَة وأعمالها إلى رُنْدَة، فكان له منه رِدْءٌ. ثمّ انصرف إلى مُداراة كُرَيْب ابن خَلْدون ومُلابَسَتِهِ، فَردَفه في أمرِه، وشَرِكَه في سُلْطانِهِ، وكان في كُرَيْب تحاملٌ على الرَّعيّة وتعصُّب، فكان يتجهَّم لهم، ويغلظُ عليهم، وابن حَجّاج يَسلكُ بهم الرِّفقَ والتّلطّفَ في الشّفاعةِ لهم عنده، فانحرفوا عن كُرَيْب إلى إبراهيمَ؛ ثمّ دسَّ إلى الأميرِ عبدِ الله يَطلب منه الكتاب بولاية إشْبِيلِيَّة، لتَسْكُنَ إليه العامّة، فكتب إليه العهدَ بذلك، وأَطلع عليه عُرَفاءَ البلد، مع ما أُشْرِبوا من حُبّه، والنّفرةِ *عن كُرَيْب، ثمّ أجمع الثّورة، وهاجَت / العامّة بكُرَيْب؛ فقتلوه، وبعث برأسه*[ب] إلى الأميرِ عبدِ الله، [315أ] واستقرّ بإمارة إشْبِيلِيَّة.

قال ابن حَيّان: وحَصَّن مدينة قَرْمُونَة من أَعظم مَعاقِل الأنْدَلُس، وجعلها مُرتَبَطاً لخيولِهِ، وكان يَنتقلُ بينها وبين إشْبِيلِيَّة، واتَّخذ الجُند ورتَّبهم طبقاتٍ. وكان يُصانِعُ الأميرَ عبدَ الله بالأموالِ والهَدايا، ويبعث إليه المَدَدَ في الصّوائف، وكان مَقْصوداً مُمَدَّحاً، قَصَدَه أهلُ البيوتات؛ فوَصَلَهم، وَمَدحَهُ الشّعراء فأجازَهم، وانتَجعه أبو عمر، ابن عبد ربّه، صاحب (العِقد)[1]، وقصدَهُ من [بين][ج] سائر الثوّارِ، فعرَفَ حقّه، وأعظم جائزتَهُ.

وَلَم يَزَلْ بيت بني خَلْدون بإشْبِيلِيَّة - كما ذكَرَهُ ابنُ حَيّان وابنُ حَزم وغيرُهما - سائرَ أيّام بني أُمَيّة إلى أَزمانِ الطّوائفِ، وانمَحت عنهم الإمارةُ بما ذهبَ لهم من الشَّوْكَةِ.

(أ) ظ، أ، آيا صوفيا: فصاهر، تصحيف (ب) سقط ما بين النجمين من أ (ج) ساقطة من ظ

(1) العقد الفريد.

ولمّا علا كَعْبُ ابن عَبّاد بإشبيليَّة، واستبدَّ على أهلها، استوزرَ من بني خَلْدون هؤلاء، واستَعملهم في رُتَب دولتِه، وحَضَروا معه وَقْعة الزَّلاَّقةِ، كانت لابن عَبّاد وليُوسُفَ بن تَاشِفين على مَلِكِ الجلالِقَةِ، فاستُشهد فيها طائفةٌ كبيرةٌ من بني خَلْدون هؤلاء، ثبتوا في الجَوْلةِ معَ ابن عبّاد، فاستُلْحِموا في ذلك الموقِف. ثمّ كان الظُّهُور للمسلمين، ونصَرهم الله على عَدُوّهم. ثمّ تَغلّب يُوسُف بن تَاشِفين والمُرابِطُون على الأنْدَلُس، واضمحلَّت دولةُ العَرَب، وفَنِيتْ قبَائلُهم.

سَلَفُه بإفْرِيقيَّة:

ولمّا استولى المُوَحّدون على الأنْدَلُس، وملكوها من يد المُرابطين، وكان مُلُوكُهم: عبدَ المُؤمن وبَنيه، وكان الشَّيخ أبو حَفْص، كبيرُ هِنتَاتَةَ، زعيمَ[أ] دولتِهم، وولَّوه على إشْبيلِيَّة وغَربِ الأنْدَلُس مراراً، ثمّ وَلّوا ابنه عَبْدَ الواحد عليها في بعض أيّامهم، ثمّ ابنَه أبا زَكَريّاءَ كذلك، فكان لِسَلَفِنا بإشبيلِيَّة اتّصالٌ بهم، وَأهدَى بعضُ أجْدادنا من قِبَل الأُمّهات، ويُعْرَف بابن المُحْتَسِب، للأمير أبي زَكَريّاء يَحْيَى بن عبد الواحد بن أبي حَفْص أيّامَ/ ولايته عليهم، جاريةً من سَبْي الجَلاَلِقَة، اتّخذها أمَّ وَلَدٍ، وكان له منها [315 ب] ابنُه أبو يَحْيَى زَكَريّاء وليُّ عهده، الهالك في أيّامه، وأخواه: عُمر وأبو بكر، وكانت تُلقَّب أمَّ الحلفاءِ[ب]. ثمّ انتقل الأمير أبو زَكَريّاء إلى ولاية إفْرِيقيَّة سِنيّ العشرين والسّتمائة، ودعا لنفسه بها، وخلع دعوة بني عَبْد المُؤمن سنَةَ خَمْسٍ وعشرين، واستبدَّ بإفْرِيقيَّة. وانتقضت[ج] دولةُ المُوَحّدين بالأنْدَلُس، وثار عليهم ابنُ هُود، ثمّ

(أ) ظ: وزعيم (ب) كذا في ظ، أ، آيا صوفيا وميّزها في ظ بكتب حرف الحاء المهملة تحتها. (ج) ظ: وانقضت

هلك واضطربت الأندَلس، وتكالبَ الطّاغية عليها، ورَدّدَ الغزوَ إلى الفُرُنْتيرَة، بسيطِ قُرْطُبَة وإشبيلِيَة إلى جَيَّانَ؛ وثارَ ابنُ الأحمر بغَربِ الأندَلُس من حِصْن أرْجُونَة، رجو التّمسّكَ بما بقِي من رَمقِ الأندَلس، وفاوضَ أهْل الشّورَى يومئذٍ بإشبيلِيَّة، وهم: بَنو الباجيّ، وبنو الجَدّ، وبنو الوَزيرِ، وبنو سَيِّدِ[1] النّاسِ، وَبنو خَلْدونَ، ودَاخلهم في الثوْرَة على ابنِ هُود، وأنْ يتجافَوا للطّاغية عن الفُرُنْتيرَة، ويتمسّكوا بالجِبال السّاحليّة وَأمصارِها المُتَوَعّرةِ، مِن مالَقَة إلى غَرْناطَة إلى المَرِيَّة، فلَم يوافقوه على بَلَدِهم.

وكان مقدَّمَهم أبو مروان الباجيّ[2]، فنابذَهم ابنُ الأحمر، وخلع طاعة الباجيّ، وبَايَعَ مَرَّةً لابن هُود، ومَرَّة لصَاحب مَرَّاكُش من بني عَبْد المُؤمن، ومرةً [للأمير][أ] أبي زَكَريَّاء، صاحب إفريقِيَّة، ونزل غَرْناطَة، واتّخذها داراً لمُلكِهِ، وبقيت الفُرُنْتيرَةُ وأمصارها ضاحِيةً من ظلّ المُلك، فخشِي بنو خَلْدون سُوءَ العاقبة معَ الطّاغيةِ، وارتَحلوا من إشبيلِيَّة إلى العُدْوةِ، ونزلوا سَبْتَة، وأَجلبَ الطّاغِيَة على تلك الثُغورِ، فملك قُرْطُبَة، وإشْبيلِيَّة، وقَرْمُونة، وجَيَّان وما إليها، في مدّة عشرين سنةً.

ولمّا نزل بنو خَلْدونَ سَبْتَةَ، أَصْهر إليهم العَزَفيُّ بأبنائه وبَناته، فاختلطَ بهم، وكان لَهُ معهم صِهرٌ مذكورٌ، وكان جدُّنا، الحسن بن مُحَمَّد، وهو سِبط ابن المُحْتَسِب، قد

(أ) ساقطة من ظ، وفيها: لأبي

(1) ضبطها في ظ بكسر السين حسب الدارجة المنطوق بها.

(2) تقدّم تفصيل ذلك في العبر (7: 172) في معرض "الخبر عن دولة بني الأحمر ملوك الأندلس لهذا العهد، ومبدإ أمرهم وتصاريف أحوالهم". وأيضاً: نفح الطيب 1: 448. وللباجي ترجمة في السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة للمراكشي 2: 687، كما يرد ذكره كثيراً في الإحاطة. (انظر فهرس الأعلام).

أجازَ فيمن أجازَ معهم، فذكر سوابقَ سَلَفِهِ عندَ الأميرِ أبي زَكَرِيَّاء، فقَصَدَه، وَقدمَ عليه، فأكرمَ قدومَه، وارتحل إلى المَشرِق، فقضى فَرْضَه، ثمّ رجع، ولحقَ بالأمير أبي زَكَرِيَّاء / على بُونَةَ(أ)، فأكرمَه، واستقرَّ في ظلّ دولتِهِ، ومَرْعى نِعمتِهِ، وفَرَضَ له الأرزاقَ، وأقطع الإقطاعَ، وهَلَكَ هنالك، فدُفِن ببُونة، وخلَّف ابنَه مُحَمَّداً، أبا بكر، فنَشأ في جوّ تلك النِّعمةِ ومرعَاها، وهلكَ الأمير أبو زَكَرِيَّاء ببُونة سنةَ سبعٍ وأربعين، وَوَلِيَ ابنُه المستَنصر مُحَمَّد، فأجرى جَدَّنا، أبا بكر، على ما كان لأبيه، ثمّ ضربَ الدَّهر ضَرَبانَه(ب)، وهَلَكَ المُستنصر سَنة خمسٍ وسَبْعِين، وَوَلِيَ ابنُه يَحْيَى، وجاء أخوه الأَميرُ أبو إسْحاقَ من الأنْدَلُس، بعد أنْ كان فرَّ إليها أمَامَ أخيه المُستنصِر، فخَلعَ يَحْيَى، واستقَلَّ هو بمُلْكِ إفْرِيقِيَّة، ودفع جدَّنا أبا بكر مُحَمَّداً إلى عَملِ الأشغال في الدَّولَة، على سَنَن عُظماءِ المُوَحِّدين فيها قَبْلَه؛ من الانفراد بولاية العمّالِ، وعَزْلِهم، وحُسبانهم على الجبايةِ، فاضطلع بتلك الرُّتبَةِ، ثمّ عقد السُّلطان أبو إسحاقَ لابنه مُحَمَّد، وهو جدُّنا الأَقْرب، على حِجابة وليّ عَهْـدِهِ، ابنـه أبي فارِس، أيّامَ أقصَاه إلى بِجَايـة. ثـمّ استعفـى جَدُّنـا من ذلك فأعفاه، ورَجَعَ إلى الحضرةِ.

[316أ]

ولمّا غلبَ الدَّعيُّ ابنُ أبي عمارَة على مُلكِهم بتُونس، اعتَقَل جدُّنا أبا بَكـر مُحَمَّـداً، وَصادَره على الأموالِ، ثمَّ قتله خنقاً في محبِسِه. وذهب ابنه مُحَمَّد، جَدُّنا الأقرب، معَ السُّلْطان أبي إسحـاقَ وأبنائه إلى بِجَاية، فقـبض عليـه ابنُـه أبـو فـارِس، وخـرج في العَسَاكر هـو وإخـوتُه لمدافعة الدَّعيّ ابن أبي عمارةَ، وهو يشبِّه بالفَضْل ابن المَخْلوع،

(أ) ظ: برضة (ب) ظ: ضرباته

حتَّى إذا استُلْحِموا بِمَرْمَاجَنَّة خلصَ جَدُّنا مُحَمَّد مع أبي حَفْصٍ ابن الأمير أبي زَكَرِيَّاء من المَلْحَمةِ، ومعهما الفَازَازيّ وأبو الحُسَين بن سَيِّد النّاس، فلَحقوا[أ] بمَنجاتِهم من قلعة سِنَان. وكان الفازازيُّ من صَنائع المولى أبي حَفْص، وكان يؤثِرُه عليهم. فأمّا أبو الحُسَيْن بن سَيِّد النّاسِ فاستنكفَ من إيثار الفازازيّ عليه، بما كان أعلى رُتْبَةً منه ببَلده إشْبيلِيَّة، ولحق بالمَولى[ب] أبي زَكَرِيَّاء الأوسَط بتِلِمْسان، وكان من شأنِه ما ذكرناه.

وأمّا مُحَمَّد بن خَلْدون فأقام مع الأميرِ أبي حَفْص، وسكن لإيثارِ الفازازيّ. ولمّا استولى أبو حَفْص / على الأمر، رَعَى له سابقَتَه، وأقطَعه، ونظَمَه في جُمْلَةِ القُوَّاد [316 ب] ومراتِب أَهْلِ الحروب، واستَكفى به في الكثيرِ من أهْل مُلكِهِ، ورشَّحه لِحجابتهِ من بعد الفازازيّ[ج]، وهلك، فكان من بعده حافدُ أخيه المستَنْصِر، أبو عَصيدة؛ واصطفى لحجابتهِ مُحَمَّد بن إبراهيمَ الدَّبّاغ، كاتب الفازازيّ، وجَعَل مُحَمَّد بن خَلْدون رَديفاً له في حِجابتهِ، فكان كذلك إلى أنْ هلك السُّلْطان. وجاءت دولةُ الأميرِ خالد، فأبقاه على حَالِهِ من التَّجِلَّة والكَرامةِ، ولم يستعمِلْه، ولا عَقدَ له؛ إلى أنْ كانت دولةُ أبي يَحْيَى ابن اللَّحْيانيّ، فاصطنعه، واستكفى به عندما نَبضَتْ عروقُ التغلُّبِ للعرَبِ؛ ودفعه إلى حماية الجزيرة من دَلّاج، أحد بُطون سُلَيْم المُوطِّنين بنواحيها، فكانت له في ذلك آثارٌ مذكورةٌ.

ولمّا انقرضت[د] دولة ابنِ اللَّحْيانيّ خرجَ إلى المَشْرِقِ، وقضى فَرْضَهُ سنةَ ثمان

(أ) آيا صوفيا: فلحقوا (ب) أ: الأمير (ج) ظ، وآيا صوفيا: الفزازي (د) ظ: انقضت

عشرةَ، وأظهر التوبةَ والإقلاعَ، وعاود الحجّ متنَفِّلاً سنة ثلاث وعشرين، ولزم كِسْرَ بيتهِ، وأبقى السُّلْطانُ أبو يَحْيَى عليه نعمتَه في كثيرٍ ممّا كان بِيَدِهِ من الإقطاع والجِراية، ودعاه إلى حِجَابته مِراراً، فامْتَنع.

أخبرني مُحَمَّد بن منصور بن مُزْني، قال: لمَّا هلك الحاجبُ مُحَمَّد بن عبد العزيز الكرديّ، المعروف بالمِزْوَار، سنة سبع وعشرين وسبعمائة، استدعى السُّلْطان جَدَّك مُحَمَّد بن خَلْدون، وأراده على الحِجابةِ، وأنْ يفوّض إليه في أمره، فأبى واستعفى، فأعفاه، وَوَامَرَهُ فيمن يولّيه حِجَابته، فأشار عليه بصاحب الثَّغرِ، بِجاية: مُحَمَّد بن أبي الحسين بن سَيِّد النّاسِ، لاستحقاقهِ ذلك بكفايته واضطلاعه، ولقديمِ صِحابةٍ بينَ سلفهما بتُونِسَ وبإشْبيلِيَّة من قبلُ، وقال [له][(أ)]: هو أقدر على ذلك، بِمَا هو عليه من الحاشيةِ والدَّوين؛ فعملَ السُّلْطانُ على إشارتهِ[(ب)]، واستدعى ابنَ سَيِّد النّاس، وولاَّه حِجابتَه؛ وكان السُّلْطان أبو يَحْيَى إذا خرج من تُونِس يَسْتَعْمِلُ جدَّنا مُحَمَّداً عليها، وثوقاً بنَظَرِه، واستنامةً إليه، إلى أنْ هلك سنة سبع وثلاثين، ونزع ابنه - وهو والدي مُحَمَّد، أبو بكر - عن طريقة السَّيف والخِدمة، / إلى طريقة العِلْم والرِّباط، لما نشأ عليها في حِجْرِ أبي عَبد الله الزُّبَيْديّ، الشّهير بالفَقيه، كان كبيرَ تُونِسَ لعهدِهِ، في العِلم والفُتيا، وانتِحال طرق الولايةِ الّتي ورثها عن أبيه حُسين، وعمِّه حَسن، الولِيَّيْن الشَّهيرَيْن. وكان جدُّنا - رحمه الله - قد لزمه من يوم نزوعه عن طريقه، وألزمه ابنَهُ، وهو والدي رحمه الله، فقرأ وتفقَّه، وكان مُقدَّماً في صِناعةِ العَربيّة، وله بَصَرٌ بالشّعرِ [317أ]

(أ) ساقطة من ظ (ب) آيا صوفيا: إشادته

وفنونه، عَهدي بأهل الأدب يتَحاكمون إليْه فيه، ويعرضون حَوْكَهم عليه؛ وهلَكَ في الطّاعون الجارف، سنةَ تسع وأربعين وسبعمائة.

نَشْأتُه ومَشيختُه وحالُه:

أمّا نشأتي؛ فإنّي وُلدت بتُونِسَ، في غُرَّة رمضانَ، سنة ثنتين وثلاثين وسبعمائة، ورَبِيتُ في حِجْرِ والدي، رحمَهُ الله، إلى أنْ أيْفَعتُ، وقرأتُ القرآن العظيم على الأُستاذ المكتِّب أبي عبد الله مُحمَّد بن سَعْد بن بُرّال الأنصاريّ، أصْله من جالية الأنْدَلُس، من أعمال بَلَنْسِية، أخذ عن مَشْيخة بَلَنسية وأعمالها، وكان إماماً في القِراءات لا يُلحَق شَأْوُه، وكان من أشهر شيوخه في القراءات السَّبْع، أبو العبّاس أحمد بن مُحمَّد البَطَرْنِيّ، ومشيختُه فيها وأسانيده معْروفة.

وبعد أنْ استظهرتُ القرآنَ الكريمَ من حِفْظي، قرأته عليه بالقِراءات السَّبْع المشهورة إفراداً وجَمْعاً في إحدى وعشرين خَتْمةً، ثُمّ جمعتُها في خَتْمةً واحدةٍ أُخرى؛ ثمّ قرأتُ برواية يعقوب خَتْمةً واحدةً، جمعاً بين الرّوايتَيْن، عنه؛ وعرضَتُ عليه ـ رحمه الله ـ قصيدَتَي الشّاطبيّ: اللاّميّة في القراءات، والرّائيّة في الرّسم، وأخبرني بهما عن الأُستَاذ أبي العبّاس البَطَرْنيّ وغيره من شيوخه؛ وعرضتُ عليه كتاب التَّقَصّي لأحاديث المُوَطّأ لابن عبد البَر، حَذَا بِه حَذْو كتابه التّمهيد على المُوَطّأ، مُقتَصِراً على الأَحاديثِ فَقط.

ودارَسْتُ عليه كُتباً جَمّة، مِثل: كتاب التَّسْهيل لابن مالِك، ومختصر ابن الحاجِب في الفِقه، ولم أُكملها بالحِفظِ، وفي خلال ذلك تعلّمت صناعة العربيّة على

والدي، وعلى أُسْتَاذِي تُونس؛ منهم: الشّيخ أبو عبد الله مُحَمَّد بن العربيّ الحَصايرِيّ، وكان إماماً في النّحو، وله شرحٌ مُسْتَوفىً على كتاب التَّسهيل. ومنهم: أبو عبد الله، مُحَمَّد بن الشَّواش الزَّرْزَالِيّ. ومنهم: أبو العبّاس أحمد بن القَصَّار؛ كان [317 ب] مُمْتِعاً في صِناعة / النَّحو، وله شرحٌ على قصيدةِ البُرْدَةِ المشهورة في مَدْح الجَنابِ النَّبَوِيّ، وهو(أ) حيٌّ لهذا العهد بِتُونِس.

ومنهم: إمامُ العربيّةِ والأدبِ بتُونِس، أبو عبد الله، مُحَمَّد بن بَحْر؛ لازمتُ مجلسَه، وأفدتُ عليه، وكان بحراً زاخِراً في علوم اللّسان، وأشارَ عليَّ بحفظ الشّعر، فحفظتُ كتابَ الأشعار السّتّة، والحماسَة للأعْلَم، وشِعْرَ حَبِيب، وطائفةً من شعر المُتَنَبِّيّ، ومن أشعار كتاب الأغاني.

ولازمتُ أيضاً مجلسَ إمام المحدّثِين بتُونِس؛ شمس الدِّين، [أبي](ب) عبد الله، مُحَمَّد بن جابر بن سُلطان القَيْسيّ الوَادِيَاشيّ، صاحب الرِّحلتين؛ وسمعتُ عليه كتاب مُسْلِم بن الحَجَّاج، إلاّ فَوْتاً يَسيراً من كتاب الصّيد؛ وسمعتُ عليه كتابَ المُوَطّأ من أوّلِه إلى آخرِه، وبعضاً من الأُمَّهاتِ الخَمْس؛ وناولني كُتُباً كثيرةً في العربيّةِ والفِقهِ، وأجازني إجازةً عامّةً، وأخبرني عن مشايخِه المذكورين في بَرْنَامَجِهِ؛ أشهَرُهُم بتُونِس قاضي الجماعة، أبو(ج) العبّاس أحمد بن الغَمّاز الخَزْرَجيّ.

وأخذتُ الفقه بتُونِس عن جَماعة؛ منهم: أبو عبد الله، مُحَمَّد بن عبد الله الجَيَّانيّ، وأبو القاسم مُحَمَّد بن القصير؛ قرأتُ عليه كتاب [التَّهذيب](د) لأبي سَعيد البَرَادِعِيّ؛ مختصَر المُدَوَّنة، وكتاب المالكيّة، وتفقّهتُ عليه.

(أ) ظ: وهي (ب) ظ، أ، آيا صوفيا: أبا (ج) أ: أبي (د) ظ: التمهيد، وكذلك كانت في آيا صوفيا لكنها شطبت وأبدلت

وكنتُ في خِلال ذلك أنتابُ مجلس شيخنا الإمام، قاضي الجماعة، أبي عبد الله، مُحَمَّد بن عبد السّلام، مع أخي مُحَمَّد ـ رَحمَةَ الله عليهما ـ وأفدتُ منه، وسمعتُ عليه أثناءَ ذلك كتاب المُوَطّأ للإمام مالِك، وكانت له فيه طريقٌ عالية، عن أبي مُحَمَّد بن هارون الطّائيّ ـ قبل اختِلاطِه ـ إلى غيرِ هؤلاءِ من مَشْيَخةِ تُونِس، وكلّهم سمعتُ عليه، وكتب لي، وأجازني؛ ثمّ دَرَجوا كلُّهم في الطّاعونِ الجارفِ.

وكان قدمَ علينا في جُمْلةِ السُّلْطان أبي الحَسَن، عندما مَلَكَ إفْرِيقِيَّة، سنة ثمانٍ وأَربعِين، جماعةٌ من أهْلِ العِلْمِ، كان يُلْزِمهم شُهودَ مَجلسِه، ويتجمَّل بمكانِهم فيه.

فمنهم: شيخُ الفُتيا بالمغربِ، وإمام مَذْهَب مالِك، أبو عبد الله، مُحَمَّد بن سُلَيمان السَّطّيّ؛ فكنتُ أنتابُ مجلسَه، وأفدتُ عليه.

ومنهم: كاتبُ السُّلْطان أبي الحَسَن، وصاحب عَلاَمته الّتي توضع أسافل مكتوباته، إمام المحدّثين والنُّحاة بالمغرِب، أبو مُحَمَّد، عبد المُهَيمِن [بن عبد المُهَيمِن][ا] الحَضْرَميّ؛ لازمتُهُ، وأخذتُ عنه سَماعاً وإجازة: الأُمَّهات السِّتَّ[ب]، وكتاب المُوَطَّأ، والسِّيَرَ لابن إسْحاقَ، وكتاب ابن الصَّلاحِ في الحَديثِ، / [318أ] وكُتُباً كثيرة شَذَّتْ عن حِفظي. وكانت بضاعتُه في الحديث وافرةً، ونِحْلَتُه في التقييد والحفظ كامِلة، كانت له خِزانة من الكتُب تزيد على ثلاثة آلاف سِفرٍ؛ في الحديثِ، والفِقْه، والعَربيّة، والأَدَب، والمَعْقول، وسائر الفُنون؛ مضبوطة كلّها، مُقابَلة. ولا يخلو ديوانٌ منها عن ثَبَتٍ بخطّ بعض شيوخهِ المعروفين في سَنَدِهِ إلى مؤلّفهِ، حتَّى الفقه، والعربيّة الغريبة الإسناد إلى مُؤلّفيها في هذه العُصور.

(ا) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ب) ظ، أ: الستة

ومنهم: الشّيخ، أبو العبّاس، أحمد الزّواويّ، إمام المقرئين بالمغرب. قرأتُ عليه القرآنَ العظيمَ، بالجمْعِ الكبير بين القراءات السَّبْع، من طريق أبي عَمرو الدّانيّ، وابن شُرَيْح، في خَتْمةٍ لم أُكْمِلها، وسمعتُ عليه عِدّة كتب، وأجازني[أ] بالإجازة العامّة.

ومنهم شيخُ العلوم العَقْليّة، أبو عبد الله، مُحمّد بن إبراهيم، الآبِليُّ؛ أصله من تِلِمْسان، وبها نشأ، وقرأ كتب التّعاليم، وحَذِق فيها؛ وأظلّه الحِصار الكبير بتِلِمْسان أعوام المائة السّابعة، فخرجَ منها، وحَجَّ، ولقي أعلامَ المَشرقِ يومئذٍ، فلم يأخذْ عنهم؛ لأنه كان مُختلطاً بعارِضٍ عَرَض في عَقْلِه، ثمّ رجعَ من المشرقِ، وأفاق، وقرأ المَنْطِق والأَصلين، على الشّيْخ أبي موسى، عيسى ابن الإمام؛ وكان قرأ بتُونِس، معَ أخيه أبي زَيْد عبد الرّحمن، على تَلاميذ[ب] ابن زَيْتُون الشهير الذّكر؛ وجاء إلى تِلِمْسان بعلم كثيرٍ من المَعْقول والمَنْقول، فقرأ الآبِليّ على أبي موسى مِنْهُما كما قلناه. ثمّ خرج من تِلِمْسان هارباً إلى المغربِ، لأنّ سُلطانَها يومئذٍ، أبا حَمُّو من ولد يَغْمِرَاسِنْ بن زَيّان، كان يُكْرِهُه على التّصرّفِ في أعماله، وضبط الجِباية بحُسبانِه، ففرّ إلى المَغرب، ولحق بمَرّاكُش، ولزم العالِمَ الشهير، أبا العبّاسِ ابنَ البَنّاء، الشّهير الذّكر، فحصّل عنه سائر العلوم العَقْليّةِ، وورِثَ مقامَه فيها وأرفعَ، ثمّ صعِدَ إلى جِبالِ الهَسَاكِرةِ، بعدَ وفاةِ الشّيخ، باستدعاء عليّ بن مُحمّد ابن تُرُومِيتْ، ليقرأ عليه، فأفادَه، وبعدَ أعوامٍ استنْزَلَه مَلِكُ المغربِ، السُّلْطانُ أبو سَعيد، وأسكنَه بالبلدِ الجديد، والآبِليّ مَعه.

(أ) ظ: وأجاز لي، وكانت كذلك في آيا صوفيا فأصلحت (ب) آيا صوفيا: تلميذ

ثمّ اختصّه السُّلْطانُ أبو الحَسَن، وَنَظَمهُ في جُملةِ العلماء بمَجلِسه، وهو في خِلال ذلك يُعلِّم العلومَ العقليّة، وَيبثُّها بين أهل / المغرب، حتّى حَذِقَ فيها الكثير [318 ب] منهم من سائِر أمْصارِه، وألحقَ الأصاغرَ بالأكابِر في تعليمِه.

ولمّا قَدِمَ على تُونِسَ في جُمْلَةِ السُّلْطان أبي الحَسَن، لَزِمْتهُ، وأخذتُ عنه الأَصْلَيْن، والمَنْطِق، وسائر الفنون الحِكْميّة، والتَّعليميّة؛ وكان رَحِمهُ الله يشهدُ لي بالتَّبريز في ذلك.

وممّن قدِم في جُملةِ السُّلْطانِ أبي الحَسَن، صاحبُنا، أبو القاسِم، عبدُ الله بن يُوسُفَ بن رِضوان المالَقيّ، كان يكتب عن السُّلْطانِ، ويلازم خِدْمَةَ أبي مُحَمَّد، عبد المُهَيْمن، رئِيس الكتّاب يومئذٍ، وصاحِب العَلامة التي توضَع عن السُّلْطانِ أسفلَ المراسيمِ والمُخاطبات، وبعضها يَضَعُه السُّلْطانُ بخطّه.

وكان ابن رِضوانَ هذا من مفاخِر المغربِ، في بَرَاعة خطّه، وكثرة عِلْمِه، وحُسْن سَمْتِه، وَإجادته في فِقْه الوثائِق، والبلاغَة في التَّرسيل[1] عن السُّلْطانِ، وحَوْك الشّعر، والخطابة على المنابِر؛ لأنّه كان كثيراً ما يُصَلّي بالسُّلْطان. فلمّا قَدِم علينا بتُونِسَ، صحِبتُه، واغتبطتُ به، وإنْ لم أتَّخِذه شيخاً، لمُقَارَبة السّن، فقد أفدتُ منه كما أفدتُ منهم.

وقد مَدَحه صاحبُنا أبو القاسِم الرَّحَويّ، شاعر تُونِس، في قصيدةٍ على رَويّ النُّون، يَرغَبُ منه تَذْكِرَةَ شَيْخِهِ أبي مُحَمَّد، عبد المُهَيْمن، في إيصال مَدْحِه إلى السُّلْطان أبي الحَسَن، في قصيدته على رَوِيّ الباء، وقد تقدّم ذكرُها[1] في أخبارِ السُّلْطان.

---

(1) انظر نص القصيدة بتمامها في ص 273-277.

وذكر في مَدْحِ ابن رضوان أعلامَ العلماءِ القادمين معَ السُّلْطان، وهي: [من الطويل]

عرفتُ زَماني حين أنكَرْتُ عِرفانِي ... وأيقنتُ أنْ لا حظَّ في كفِّ كَيْوانِ
وأن لا اختيارٌ في اختيارِ مُقَوَّمٍ ... وأن لا قِراعٌ بالقِرانِ لأقْرَاني
وأنَّ نِظامَ الشَّكْلِ أكْمَلَ نَظْمِهِ ... لأضْعَفُ قاضٍ في الدَّليلِ بُرْجحانِ
وأنَّ افتقارَ المرْءِ من فَقَراتِهِ ... ومن ثقله يُغْنى(ب) اللبيبُ بأوزانِ
فمن بعد ما شِمتُ الخِلابَ ولم أُرَعْ ... لِهَشَّةِ راضٍ أو لِشِرَّةِ غَضْبَانِ
ولم يُغْشِني للنارِ لَمْعُ شُعاعِها ... فما كلّ نارٍ نارُ موسى بن عِمرانِ
ولم يبقَ لي في الغَيْبِ من أملٍ سوَى ... لقاءِ ابن رضوانٍ وجنَّةِ رِضْوانِ
هُنالِكَ ألفيتُ العُلا تنْتمي إلى ... أناسٍ ضَئيلٌ عندهم فَخرُ غَسَّانِ
[319أ] / وَأُرْعِيتُ(ج) من رَوْضِ التأدّب يانِعاً ... وحُيِّيتُ(د) من كَنْزِ العلوم بعِقْيانِ
وَرُدْتُ فلم تُجْدِبْ لديه رِيَادَتي ... وَصَدَّقَ طَرْفِي ما تلقَّتْه آذانِي(هـ)
فحسبُكَ من آدابه كلُّ زاخِرٍ ... يُحَيِّيكَ مَغسولاً بِدُرٍّ ومَرْجانِ
يحيِّيكَ بالسِّلكِ الذي لم تُحطْ به ... طُرُوسُ ابن سَهلٍ أو سوالف بورانِ
فقل: بابِليٌّ إن يُنافثْكَ لفظَةً ... وَفي وَشْيِه الأطراسَ قل: هو صَنْعانِي
خلائقُ لم تُخْلَقْ سُدىً بل تكمَّلَتْ ... بإسداءِ إنعَامٍ وإيلاءِ إحْسانِ

ثُمَّ يَقولُ في ذكر العُلَماء القادِمينَ:

(أ) ظ: الترسل (ب) ظ: يغني (ج) آيا صوفيا: وأرعبت (د) ظ: وحبيت (هـ) ظ: أذناني

هم القومُ، كلُّ القومِ، أما حُلومُهم ... فأرسخُ من طودَيْ: ثَبيرٍ وثَهْلانِ
فلا طيشَ يَعْرُوهم، وأمّا عُلومُهم ... فأعلامُها تَهْدِيك، من غيرِ نِيرانِ
بفقهٍ يَشيمُ الأصبَحيُّ صَباحَهُ ... وأشْهَبُ منه، يَستدلُّ بشُهْبانِ
وحُسنِ جدالٍ للخصوم ومنطقٍ ... يَجيشان، في الأخفى، بأوضحِ بُرْهانِ
سقتْ روضةَ الآداب منهم سَحائبٌ ... سَحَبْن على سَحْبانَ أذيالَ نِسْيانِ
فلم يُبْقِ نَأْيُ ابنِ الإمامِ شَماخةً(أ) ... على مُدُنِ الدُّنيا لأنفِ تِلِمْسانِ
وَبعْدَ نَوى السَّطيّ، لم تَنشطْ فاسُهُ ... بفخرٍ على بَغْدانَ في عصرِ بَغْدانِ
وبالآبِليّ(ب) استَنشقَت الأرضُ وَبْلَها ... ومُستَوْبَلٌ ما مال عنه لأظْعانِ
وهامت على عبدِ المُهَيْمنِ تُونسٌ ... وقد ظفرتْ منه بوصلٍ وقُرْبانِ
وما عَلِقتْ منّي الضمائرُ غيرَهُ ... وإنْ هَوِيتُ كلاًّ بحُبِّ ابنِ رِضوانِ

وكتب هذا الشّاعر، صاحبُنا الرَّحَويّ، يُذكِّر عبد المهَيمن بذلك: [من الخفيف]

لَهِيَ النَّفسُ في اكتسابٍ وسَعْيِ ... وهُوَ العُمْرُ في انتهابٍ وَفَيّ
وأرى النَّاسَ، بين ساعٍ لرُشْدٍ ... يَتوخَّى الهُدَى، وساعٍ لغَيِّ
وأرى العلمَ للبريّةِ زَيْناً ... فتَزَيّا منه بأحسنِ زِيّ
وأرى الفضلَ قد تجمَّعَ كُلاًّ ... في ابنِ عبدِ المُهَيمنِ الحَضْرَمِيّ
/ حلَّ بالرّتبةِ العليّةِ في حضْـ ... ـرَةِ مَلْكٍ سامي العِمادِ عَلِيّ [319 ب]

(أ) آيا صوفيا: سماحة (ب) ضبطه في ظ: بضم الباء

قَلَمٌ أوسَعَ الأقاليمَ أمْراً   فلهُ قد أطاعَ كُلُّ عَصِيّ
قَدَرٌ ما يُفيدُ منه احتِذارٌ   فبأيٍّ تراه يَقضِي بأيّ
يَمنحُ العِزَّ والعُلا ويُوالِي   بالعطايا الجِسامِ كلَّ وَلِيّ
يَلجَأُ الدّارعُون خوفاً إليه   فهو يُزري بالصّارِمِ المَشرَفِيّ
هو أعلَى الأقلامِ في كُلِّ عصرٍ   حيث يُنمَى إلى الإمامِ عَلِيّ
حَلِيَتْ[أ] تلكُمُ الرِّياسةُ منهُ   بفريدٍ في كُلِّ مَغنىً سَنِيّ
سالِكٌ في النِّظام درّاً، وطَوراً   ناثرٌ دُرَّه بنَشرٍ وطَيّ
بِدَعٌ للبديعِ تَرمي بحَصْرٍ   ولصابي بني بُوَيْهِ بِعِيّ
ويَرى أخرسُ العراقِ لديه   أنّه بالشّآمِ كالأعجَمِيّ
وعلومٌ هِيَ البُحُورُ، ولكنْ   يَنثَني الواردون منها بِرِيّ
تَصدِرِ الأمّةُ العظيمةُ عنهُ   بحديثٍ مُجَوَّدٍ مَرْوِيّ
وَبفقْهٍ[ب] فيه وحُسْنِ مقالٍ   يَضَعُ النُّورَ في لِحَاظِ العَمِيّ
وبنَحْوٍ يُنْحِي على سِيبوَيهِ   بِبَيانٍ في المُشْبِهاتِ جَلِيّ
عَمِيَ الأخفشان عنه وسُدَّتْ   عن خفاياهُ فِطْنةُ الفارِسِيّ
يا أخا الحُكمِ في الأنامِ وإنّي   لأُنادي ربَّ النَّدَى والنَّدِيّ
بنتُ فِكري تعرَّضتْ لِحماكُمْ   فالقَها راضياً بوجهٍ رَضِيّ
تَبتغي القُربَ من مراقي الأماني   والتَّرَقِّي للجانِبِ العَلَوِيّ
فأَنِلْها مَرامَها نِلْتَ سَهلاً   كلَّ دانٍ تَبغي وكلَّ قَصِيّ

(أ) ضبطها في ظ، أ بالضم: حُليت (ب) ظ: ويفقه

ثمّ كانت واقعة العرب على السُّلْطان بالقَيْرَوان، في فاتحة تسعٍ وأربعين، فشُغِلوا عن ذلك، ولم يظفر هذا الرَّحَوِيُّ بطِلْبَتِه. ثمّ جاء الطّاعون الجارف، فطوى البِساط بما فيه، وهَلَكَ عبدُ المُهَيْمن فيمن هَلَكَ، ودُفن بمقبرة سَلَفنا بتُونِس، لخُلَّةٍ كانت بَيْنه وبين والدي، رحمه / الله، أيّامَ قُدومه[أ] علينا. [320أ]

فلمّا كانت واقعة القَيْرَوان، ثار أهل تُونِس بمن كان عندهم من أشياع السُّلْطانِ أبي الحَسَن، فاعتصموا بالقَصَبَة دار المُلْكِ، حيث وَلَدُ السُّلْطان وأهلُه، وانتقض عليه ابن تافْرَاكِين، وخرجَ من القَيْرَوان إلى العربِ، وهم يحاصرون السُّلْطانَ، وقد اجتمعوا عَلى ابن أبي دَبُّوس، وبايعوا له، كما مرّ في أخْبارِ السُّلْطانِ[1]، فبعثوا ابنَ تافْرَاكِين إلى تُونِس، فحاصرَ القَصَبَة، وامتنعَتْ عليه. وكان عبدُ المهيمن، يوم ثورة أهل تُونِس، ووقوعِ الهَيْعَة، خرجَ من بَيْتِهِ إلى دَارنا، فاختفى عند أبي، رحمه الله، وأقام مختفياً عندنا نحواً من ثلاثةِ أشهر، ثمّ نجا[ب] السُّلْطانُ من القَيْرَوان إلى سُوسَة، وركب البحرَ إلى تُونس؛ وفرَّ ابنُ تافْرَاكِين إلى المشرق[ج]، وخرج عبدُ المُهَيْمن من الاختفاءِ، وأعادَه السُّلْطان إلى ما كان عليه، من وظيفةِ العَلامَة والكتابة، وكان كثيراً ما يُخاطب والِدي، رحمه الله، ويشكره على مُوالاته. وممّا كتبَ إليه، وحفظتُه[د] من خَطّه: [من الوافر]

لِحَمْدِ ذوي المكارم قد ثناني ... فَعَالٌ شكرُهُ أبداً عَنَاني[هـ]

(أ) أ: قدومهم (ب) أ: جاء (ج) آيا صوفيا: الشرق (د) ظ: وحفظه (هـ) آيا صوفيا: غناني.

(1) انظر ما تقدم ص284.

جـزَى الله ابـنَ خَلـدونٍ حَياةً　　منعَّمــةً وخُـــلداً في الجِنـــانِ
فكم أولـى وَوَالـى مـن جَميـل　　وبِــرٍّ بالفِعَـــالِ وباللّـــسانِ
وراعى الحَضْرَميَّةَ في الّذي قَد　　حَبَـا مـن وُدّه، ومـن الحَنَـانِ
أبـا بَكْـرٍ ثـاءَك طـولَ دهـري　　أُردِّدُ باللّـــسانِ وبالجَنَـــانِ
وعـن عَلْيـاك مـا امتدَّتْ حَياتي　　أكافِحُ بالحُـــسامِ وبالـــسِّنانِ
فمنك أفدتُ خِلاًّ لستُ دَهـري　　أرَى عـن حبِّه أثْـني عِنَاني

وهؤلاء الأعلامُ الذين ذكرهم الرَّحَويّ في شعره، هم[أ] سُبَّاقُ الحَلْبة في مَجْلِس السُّلْطان أبي الحَسَن، اصطفاهم لِصِحابته من بين أهْل المَغْرِب.

فأمّا ابنَا[ب] الإمام منهم، فكانا أخوين من أهل بَرِشْك، من أعمال تِلِمْسان، واسم أكبرهما: أبو زيد عَبْد الرحمن، واسم الأصْغر: أبو موسى عيسى، وكان أبوهما إماماً ببَعْض مساجد بَرِشْك، واتّهمه المتغلِّب، يومئذٍ، على البَلَد زِيَرم بن حَمَّاد، بأنّ [320 ب] عنده وديعةً من المالِ لبعض أعدائه، / فطالبه بها، فلاذَ بالامتناعِ، وبَيَّته زِيَرم؛ لينتزع المالَ من يدِه، فدافعه وقُتل، وارتَحل ابناه، هذان الأخوان، إلى تُونِس في آخر المائة السّابعة، وأخذا العلم بها عن تَلاميذ[ج] ابن زَيْتُون، وتفقَّها على أصحاب أبي عبد الله ابن شُعَيْب الدُّكّالِي، وانقلبا إلى المغرب بحظٍّ وافرٍ من العلمِ، وأقاما بالجزائرِ يَبُثّان بها[د] العلمَ، لامتناع بَرِشْك عليهما من أجل زِيَرم المتغَلِّبِ عليها، والسُّلْطان أبو يَعْقوب، يومئذٍ، صاحب المَغْرِب الأَقْصى من بَني مَرِين، جاثمٌ على تِلِمْسان يحاصِرها الحِصارَ

(أ) ساقطة من أ　(ب) ظ، أ، آيا صوفيا: ابن　(ج) آيا صوفيا: تلميذ　(د) ساقطة من أ

الطويلَ المشهور، وقد بثَّ جُيوشه في نَواحيها، وغَلَب على الكثيرِ من أعمالِها وأمْصارِها، وملك عمل مَغْراوة بشَلَف، وحَاضرتُه مِلْيَانة، فبعَثَ عليها الحسَنَ بن عليّ ابن أبي الطَّلاق، من بني عَسكر، وعليّ بن مُحَمَّد الخِيَّرِيّ، من بني وَرْتَاجَنْ، ومعهما ـ لضبط الجِباية واستخْلاص الأموال ـ الكاتبُ منديل بن مُحَمَّد الكِنَانيّ، فارتحل هذان الأخَوان يومئذٍ من الجزائرِ، واحتلاَّ بِمِلْيَانةَ، فَحَلِيَا بعيْن منديل الكِنانيّ، فقرَّبهما واصْطفاهما، واتَّخَذَهما لتعليمِ ولده مُحَمَّد.

ثمّ هلك يُوسُفُ بن يعقوب، سلطانُ المغرب، بمكانه من حصار تِلِمْسان سنة [ستٍّ][أ] وسبعمائة، على يد خَصِيٍّ من خِصْيانِه؛ طعنه فأَشْواه، وهلكَ[1]. وقام بالمُلك بعده حَافِدُه أبو ثابت، بعد خطوبٍ ذكرناها في أخبارِهم[2]، ووقع بَيْنه وبين صاحب تِلِمْسان يومئذٍ، أبي زَيَّان، مُحَمَّد بن عُثْمان بن يَغْمَرَاسَن، وأخيه أبي حَمُّو، العهدُ المُتأكّدُ على الإفراج عن تِلِمْسان، وردّ أعمالها عليهم، فوفَّى لهم بذلك، وعاد إلى المغربِ.

وارتحل ابنُ أبي الطَّلاق والخِيَّرِيّ والكنانيّ من مِليانة راجعين إلى المَغرب، ومَرُّوا بتِلِمْسان، ومع الكِنانيّ هذان الأَخَوان، فأوصلهما إلى أَبي حَمُّو، *وأثنى عليهما، وعرَّفَه بمَقَامهما في العلمِ، فاغتبط بهما أبو حَمُّو*[ب]، [واختطّ لهما][ج] المدرسة المعروفة بهما

(أ) ظ، آ، آيا صوفيا: خمس، والصواب ما أثبتناه من المصادر وحسب ما ذكره ابن خلدون فيما تقدم، في خبر مملك السلطان أبي يعقوب، راجع ص 177 (ب) سقط ما بين النجمين من آ (ج) ظ: وأحفظها

(1) انظر خبره فيما تقدم ص176

(2) انظر فصل الخبر عن ولاية السلطان أبي ثابت ص 177

بتِلِمْسان، وأقاما عندَه على هَدْيِ أَهْلِ العِلْمِ وسَنَنِهم؛ وهلك أبو حَمُّو، فكانا كذلك مع ابنه أبي تاشِفِين، إلى أنْ زَحَفَ السُّلْطان أبو الحسن إلى تِلِمْسان، وملكها عَنْوةً سنة سَبْعٍ وثلاثِين، وكانت لهما شُهرة في أقطارِ المغرب، أثبَتَتْ لهما في نَفْس السُّلْطان عقيدةً صالحةً، فاستدعاهما / لحِين دخوله، وأدْنَى مجلسَهما، وأشاد بتَكْرِمَتِهما، ورفع محلّهما [321 أ] على أهْلِ طَبقَتِهما، وصار يُجَمِّلُ بهما مجلسَه متى مَرَّ بتِلِمْسان، أو وفَدا عليه في الأوقات الّتي يَفِد فيها أعيانُ بلدِهما. ثمّ استنفرهما للغَزْوِ، وحَضرا معه واقعةَ طَرِيف، وعادا إلى بلدهما. وتوفي أبو زيد منهما إِثْرَ ذلك، وبقي أخوه، أبو موسى، مُتَبَوِّئاً ما شاء من ظِلال تلك الكرامة.

ولمّا سَار السُّلْطانُ أبو الحسَن إلى إفْرِيقِيَّةَ سَنة ثمانٍ وأربعين، كما مرَّ في أَخباره، استَصحَبَ أَبا موسى ابنَ الإمامِ معه، مُكرَّماً، مُوَقَّراً، عالي المَحلّ، قريبَ المجلس منه؛ فلمّا استولَى على إفْرِيقِيَّة، سرَّحه إلى بَلَده، فأقام بها يسيراً، وهَلكَ في الطّاعون الجارِف سنةَ تسع وأربعين، وبقي أعقابُهُما بتِلِمْسان دارجِين في مَسالِكِ تلك الكرامةِ، ومُتَوَقِّلين(أ) قُللها طَبَقاً عن طَبَقٍ إلى هذا العَهْدِ.

وأمّا السَّطِّيُّ، واسمهُ مُحَمَّد بن سُلَيمان، من قبيلة سَطَّة، من بُطون أَوْرَبَة بنَواحي فاس، نزل أبوه سُلَيمان مدينة فاس، ونشأ مُحَمَّد بها، وأخذ العلمَ عن الشّيخ أبي الحسن الصُّغَيِّر، إمام المالكيّة بالمَغْرِبِ، والطّائر الذِّكر، وقاضي الجَماعةِ بفاس، وتفقّه عليه، وكان أحفظَ النّاس لِمَذْهَب مالِك، وأفْقَهَهم فيه، وكان السُّلْطان أبو

(أ) ظ: ومتولقين

الحسَن ـ لدينه، وسَراوته، وبُعْد شَأْوه في الفَضْل ـ يتشوّف إلى تَنويه مجْلسِهِ بالعلماءِ، واختارَ منهم جماعةً لِصحابته ومُجالستهِ، كان منهم هذا الإمامُ مُحَمَّد بن سُلَيمان. وقدمَ علينا بتُونِسَ في جُملتِه، وشهِدنا وفورَ فضائله، وكان في الفِقْه من بينها لا يُجارى، حِفْظاً وفَهْماً، عَهْدي به وأخي مُحَمَّد، رحمه الله، يقرأ عليه من كتاب التَّبْصرةِ لأبي الحَسَن اللَّخْميّ، وهو يُصَحّحه عليه من إملائه وحِفْظه، في مجالسَ عَديدة، وكذا كان حالُه في أكثرِ ما يُعَاني حَمْلَهُ من الكُتُبِ؛ وحَضَر معَ السُّلْطان أبي الحَسَنِ واقِعةَ القَيْروان، وخلَص معه إلى تُونِس، وأقام بها نحواً من سَنتَيْن. وانتقَض المغربُ على السُّلْطان، واستقلَّ به ابنُه أبو[أ] عِنَان، ثمّ ركِبَ أبو الحَسَن في أساطيله من تُونِس، آخرَ سنة خمسين، ومرَّ بِبجَايَة، فأدركَه الغَرَق في سواحِلها، / فغرقت أساطيلُه، [321 ب] وغرق أهلُه، وأكثرُ مَنْ كان مَعه مِن هؤلاء الفُضَلاء وغيرِهم، وألقاهُ البحرُ ببعضِ الجُزُرِ هناك، حتَّى استنقذَه منها بعضُ أساطيله، ونَجا إلى الجزائر بعد أن تَلِف موجودُه، وهلكَ الكثيرُ من عِياله وأصحابه، فكان من أمره ما مَرَّ في أخبارِه.

وأمّا الآبِليّ، واسمُه مُحَمَّد بن إبراهيم، فمنشَؤه بتِلِمْسان، وأصلُه من جالية الأنْدَلُس، من أهل آبِلَة، من بلاد الجَوْفِ منها، أجازَ أبوه وعمُّه أحمد، فاستَخْدمهم يغْمَرَاسَنُ بن زَيّان، وولدُه في جُنْدهم، وأصهَر إبراهيم منهما إلى القاضي بتِلِمْسانَ، مُحَمَّد بن غَلْبُون، في ابنتِه، فولَدَت له مُحَمَّداً هذا، ونشأ بتِلِمْسان في كفالة جدِّه القاضي، فنشأ له بذلك مَيْلٌ إلى انتحالِ العِلْمِ عن الجُنْديّة الّتي كانت مُنْتَحَل أبيه.

(أ) ظ: أبا

فلمّا يَفَعَ وأدْرَكَ، سَبق إلى ذِهنه محبّة التّعَاليم، فبَرَع فيها، واشتَهر، وعَكف النّاسُ عليه في تعَلُّمها، وهو في سِنِّ البلوغ.

ثمّ أطلَّ السُّلْطانُ يُوسُف بن يعقوب على تِلِمسان، وجَثَم عليها يُحاصِرُها، وسيَّرَ بُعوثه إلى الأعمال، فافتتح أكثرَها، وكان إبراهيم الآبِليُّ قائداً بهُنَين؛ مَرْسى تِلِمسان في لُمّةٍ من الجُند. فلمّا مَلكها يُوسُفُ بن يعقوب، اعتقل من وَجَد بها من شِيَع ابن[(أ)] زَيّان، واعتقل إبراهيم الآبِليَّ فيهم، وشاع الخبرُ في تِلِمسان بأنَّ يُوسُف بنَ يَعقوب يَسْتَرْهِن أبناءَهم ويُطْلِقُهم، فتشوَّف ابنُه مُحَمَّد إلى اللَّحاقِ به، من أجْل ذلك، وأغراه أهلُه بالعَزْمِ عليه، فتَسَوَّرَ الأسوارَ، وخرج إلى أبيه، فلم يجد خبرَ الاسترْهانِ صحيحاً.

واستخْدَمَه يُوسُفُ بن يعقوب قائداً على الجُنْدِ الأندَلُسيّين بِتَاوَرِيرْتُ، فكره المُقَام على ذلكَ، ونَزع عن طَوْره، ولبس المُسُوحَ، وسار قاصداً الحَجَّ، وانتهى إلى رِبَاط العُبّادِ مُتخفيّاً في صُحبة الفقراءِ، فوَجَد هنالك رئيساً من أَهْل كَرْبَلاء ثمّ من بني الحُسَين، جاء إلى المغرب يرومُ إقامةَ دعوتهم فيه، وكان مُعَقَّلاً؛ فلمّا رأى عَسَاكِرَ يُوسُفَ بن يعقوب، وشدّةَ هَيْبَتِه، غَلَب عليه اليَأْسُ عن مَرامه، ونَزَع عن ذلكَ، واعتزَمَ على الرُّجوع إلى بَلَدِه، فسَار شيخُنا مُحَمَّد بن إبراهيم في جُملته.

[322 أ] قال لي رحَمه الله: وبعدَ / حين انكشف لي حالُه، وما جاءَ له، واندرجتُ في جُمْلَةِ أَصحابِه وتابِعه. قال: وكان يتلقّاه في كلّ بلَد من أشيَاعه وخَدَمه مَن يأتيه بالأزوادِ والنَّفقات من بَلَده، إلى أنْ ركِبنا البحر من تُونس إلى الإسكَنْدَريّة. قال: واشتَدَّت

(أ) آيا صوفيا: بني

عليَّ الغُلْمَةُ فِي البَحْر، واستَحْيَيْتُ من كثرة الاغتسالِ؛ لمكان هَذا الرَّئِيس، فأشار عليَّ بعضُ بِطانته بشُرْب الكافور، فاغترفتُ مِنه غُرْفةً، فشربتُها، فاختلطتُ. وقدِم الدّيار المِصريّة على تلك الحال، وبها يومئذٍ تقيّ الدّين ابن دَقيق العِيد، وابن الرِّفعة، وصفيّ الدين الهِنديّ، والتّبريزيّ، وابن البَديع، وغيرُهم من فُرسَان المعقول والمنقول، فلم يَكن قُصَاراه إلاّ تَمييز أشخاصهم، إذا ذكَرهم لنا، لما كان به من الاختلاطِ. ثمّ حجَّ مع ذلك الرَّئيس، وسارَ في جُملته إلى كَرْبَلاَء، فبَعَث معه من أصحابِه من أوصَلَه إلى مَأْمَنِه من بلادِ زَوَاوَة من أطرافِ المَغرِبِ.

وقال لي شيخُنا رحمه الله: كان معي دَنانير كثيرة، تزَوّدتُها من المغربِ، واستبطنتها في جُبّةٍ كنت ألبسُها؛ فلمّا نزل بي ما نزل، انتزعها منّي، حتَّى إذا بَعَث أصحابَه يشيّعونني إلى المغربِ، دَفَعها إليهم، حتَّى إذا أوصلوني إلى المَأْمَنِ، أَعْطَوْني إيّاها، وأشهدوا عليَّ بها في كتابٍ حَملوه معهم إليه كما أمرهم.

ثمّ قَارَن وصولُ شيخِنا إلى المغرب مَهْلَك يُوسُف بن يعقوب، وخلاص أهل تِلِمْسان من الحِصَار، فعاد إلى تِلِمْسان، وقد أفاق من اختلاطِه، وانبَعثَت همتُه إلى تعلّمِ العلمِ، وكان مائلاً إلى العقليّات، فقرأ المَنْطِق على أبي موسى بن الإمام، وجملةً من الأَصلَيْن. وكان أبو حَمُّو صاحب تِلِمْسان، يومئذٍ، قد استفحل ملكُه، وكان ضابطاً لأموره، وبَلَغَه عن شيخنا تقدُّمُه في علمِ الحسابِ، فدَفَعه إلى ضَبْطِ أموالِه، ومُشارفة عُمّاله، وتفادى شيخُنا من ذلك، فأكرَهَه عليه، فأعمل الحيلةَ في الفرارِ منه، ولَحِق بفاسَ أيّامَ السُّلطانِ أبي الرَّبيع، وبَعث فيه أبو حَمُّو، فاختفى بفاسَ عند شَيْخ

[322 ب] التَّعَالِيم من اليَهودِ، خَلُّوف المَغِيليّ؛ فاستَوْفى عليه فُنونَها، وحَذِق، وخرَج / متوارياً من فاس، فلحِق بمَرَّاكُش، أعوام العشر والسَّبع مائة، ونـزل على الإمام أبي العبّاس ابن البَنَّاء، شيخِ المعقول والمنقُول، والمبرَّز في التصوّف علماً وحالاً، فلزمه، وأخذ عنه، وتَضَلَّع[ا] من علم المعقول والتّعاليم والحِكْمَة. ثمّ استدعاه شيخ الهَسَاكِرة، عليّ بن مُحَمَّد بن تُرُومِيت ليقرأ عليه، وكان مُمَرِّضاً[ب] في[ج] طاعتِه للسُّلطان، فصَعِد إليه شيخُنا، وأقام عندَه مدّة؛ قرأ عليه فيها وحَصَّل، واجتَمع طلبةُ العِلم هنالك على الشَّيخ، فكثُرت إفادَتُه واستفادتُه، وعليُّ بن مُحَمَّد في ذَلك على تَعْظِيمِه ومَحَبَّته، وامتثال إشارته، فغلَب على هَواه، وعظُمت رياستُه بين تلك القبائل.

ولمّا [استَنْزَل][د] السُّلطانُ أبو سَعِيد عليَّ بن تُرُومِيت من جَبَله، نزَل الشَّيخ معه، وسكن بفاس، وانثال عليه طلبةُ العلمِ من كلّ ناحيةٍ، فانتشرَ علمُه، واشتهر ذكره؛ فلمّا فَتح السُّلطانُ أبو الحسَن تِلِمْسان ولقيَ أبا مُوسى بن الإمام، ذكَره له بأَطيبِ الذكر، ووصَفَه بالتَّقَدُّم في العُلوم؛ وكان السُّلطان مَعْنِيّاً بجمْع العُلماء لمجْلِسه[هـ]، كما ذكرنا، فاستَدعاه من مَكانه بفاس، ونَظَمَه في طبقة العُلَماء بمجْلِسِهِ. وعكَفَ على التَّدريس والتَّعليم، ولازم صِحابةَ السُّلطان، وحضَر معه واقعةَ طَرِيف، وواقعة القَيْرَوان بإفْريقِيَّة؛ وكانت قد حَصَلت بينه وبين والدي، رحمه الله، صِحابة، كانت وَسيلتي إليه في القِراءة عليه، فلزِمْت مجلسَه، وأَخذتُ عنه؛ وافتتحتُ العلومَ العَقليّةَ بالتَّعالِيمِ، ثمّ قرأتُ المنطقَ، وما بعدَه من الأصلَيْن، وعلومَ الحِكْمة؛ وعَرَضَ

(ا) سقطت الواو من ظ (ب) آيا صوفيا: بمرضا (ج) ظ: وكان ممن ضاق؟! (د) ظ: استولى (هـ) ظ: بمجلسه

أثناء ذلك ركوبُ السُّلطان أساطيلَه من تُونِس إلى المَغرب، وكان الشَّيخ في نُزُلِنا وكفالتِنا، فأشرْنا عَلَيه بالمُقَام، وثبَّطْناهُ عن السَّفَرِ، فقَبِل، وأقامَ، وطالَبَنا به السُّلْطانُ أبو الحسن، فأحسنَّا له العُذْر، وتجافى عنه، وكان من حديث غَرَقِه في البحرِ ما قدَّمناه. وأقام الشَّيخ بتُونِس، ونحن وأهل بَلَدِنا جميعاً نتساجَلُ في غِشْيانِ مَجلِسِه، والأَخْذِ عنه؛ فلما هَلَكَ / السُّلْطان أبو الحسن بجبال هِنتَاتة، وفرغ ابنه أبو عِنَان من شواغله، ومَلَكَ تِلِمْسان من بَني عبد الوَاد؛ كتَب فيه يطلبه من صاحبِ تُونِس، وسُلْطانُها يومئذٍ أبو إسحاقَ، إبراهيم ابن السُّلْطان أبي يَحْيَى، في كفالة شيخ [323أ] المُوَحِّدين، أبي مُحَمَّد بن تَافْرَاكِين، فأسلمه إلى سَفيره[أ]، وركبَ معه البَحْر في أُسطول السُّلْطانِ الذي جاءَ فيه السَّفير، ومرّ بِبجَايَة، ودَخَلها، وأَقام[ب] بها شَهراً، حتَّى قرأ عليه طلبةُ العلمِ بها مُخْتَصر ابن الحَاجِب في أُصولِ الفِقْهِ، برغْبتهم في ذلك منه ومن صاحب الأُسطولِ، ثمّ ارتحل، ونزل بمَرْسَى هُنَيْن؛ وقَدِم على السُّلْطان بتِلِمْسان، وأحلَّه محلَّ التَّكْرِمة، ونَظَمه في طَبَقَة أشياخِه من العلماءِ، وكان يقرأُ عليه، ويأخذُ عنه، إلى أنْ هلكَ بفاس، سنةَ سبع وخمسين وسبعمائة. وأخبَرني، رحمه الله، أنّ مولِدَه بتِلِمْسان سنة إحدى وثمانين وستّمائة.

وأمّا عَبدُ المُهَيْمِن[1]، كاتبُ السُّلْطان أَبي الحَسَن، فأصلُه من سَبْتَة، وبيتُهم بها

(أ) ظ: سفين (ب) أ: فأقام

(1) تقدم لابن خلدون الترجمة والتعريف بعبد المهيمن هنا في الفصل الذي عقده بعنوان: الخبر عن استقدام عبد المهيمن للكتابة والعلامة، ص202.

قديم، ويُعْرَفُون ببَني عبد المُهَيْمن؛ وكان أبوه مُحَمَّد، قاضيًا أيّام بَني العَزَفِيّ، ونشأ ابنُه عبد المُهَيْمن في كفالتِه، وأخذَ عن مَشْيختِها، واختصَّ بالأستاذ أبي إسحاق الغَافِقِيّ.

ولمّا ملَكَ عليهم الرَّئِيسُ أبو سَعيد، صاحب الأَنْدَلُس، سَبْتَة، ونقَل بَني العَزَفِيّ مع جُملة أَعْيانها إلى غَرْناطَةَ، ونقَلَ معهم القاضيَ مُحَمَّد بن عبد المُهَيْمن، وابنه عبد المُهَيْمن، فاسْتَكْمل قراءةَ العلم هنالك، وأخذ عن أبي جعفر بن الزُّبَيْر ونُظرائه، وتقدَّم في معرفة كتاب سِيبَوَيه، وبَرَّز في عُلُوّ الإسناد، وكثرة المَشْيخةِ، وكَتب له أهل المغربِ والأَنْدَلُس والمَشرق، واستَكْتبه رئيسُ الأَنْدَلُس، يومئذٍ، الوزيرُ أبو عبد الله ابن الحَكيم الرُّنديّ، المستَبِدّ على السُّلْطان المَخلوع من بني الأَحْمر، فكتبَ عنه، ونَظَمه في طَبَقةِ الفُضلاء الّذين كانوا بمَجْلِسِه، مثل: المحدّث الرحّالة، أبي عَبْد الله بن رُشَيد الفِهْرِيّ، وأبي العبّاس أحمد بن [......][1] العَزَفِيّ، والعالِم الصُّوفي المتَجَرِّد، أبي عبد الله مُحَمَّد بن خَمِيس التِّلِمْسانيّ، وكانا لا يُجارَيان في البلاغةِ والشّعرِ؛ / إلى [323 ب] غير هؤلاء ممّن كان مختصًا بهِ؛ وقد ذكرهم ابنُ الخَطيب في تاريخ غَرْناطَة. فلمّا نُكِب الوزيرُ [ابن][ب] الحَكيم، وعادت سَبْتَةُ إلى طاعةِ بَني مَرين، عاد عبد المُهَيْمن إليها، واستقرَّ بها؛ ثمّ ولي السُّلْطان أبو سَعيد، وغَلَب عليه ابنُه أبو عليّ، واستبدّ بحمل الدَّوْلَة، تَشوّفَ إلى استدعاءِ الفُضَلاءِ، وتجمُّل الدَّوْلَةِ بمكانهم، فاستقدَم عبدَ المُهَيْمن

(أ) بياض في ظ وآيا صوفيا قدر كلمة والنص متصل في أ (ب) ساقطة من ظ

من سَبْتَة، واستَكْتبه سَنة ثِنتَي عشرة؛ ثمّ خالَف[أ] على أبيه سنة أربعَ عشرة، وامتنع بالبلد الجديد، وخرج منها إلى سِجِلْمَاسَة بصُلحٍ عَقَدَهُ مع أبيه، فتمسَّك السُّلْطان أبو سَعيد بعَبْد المُهيمن، واتَّخذه كاتباً، إلى أنْ دَفعه لرياسةِ الكُتّاب، ورسْم عَلاَمتِه [في][ب] الرّسائلِ والأوامِر، فتقدّمَ لذلك سَنة ثمانَ عشرة، ولم يزلْ عليها سائرَ أيّام السُّلْطان أبي سَعيد وابنه أبي الحَسَن، وسار مع أبي الحَسَن إلى إفْرِيقِيَّة، وتخلّف عن واقعة القَيْروان بتُونِس؛ لما كان به من علّة النّقْرِسِ.

فلمّا كانت الهَيْعة بتُونِس، ووصل خبرُ الواقعةِ، وتحيَّز أشياعُ السُّلْطان إلى القَصَبةِ، مع حُرَمِهِ، تسرَّب عبدُ المُهَيْمن في المدينةِ منتبذاً[ج] عنهم، وتوارَى في بيْتنا، خشيةَ أن يُصَاب معهم بمكْروه. فلمّا انجلت تلك الغَيابَةُ، وخرجَ السُّلْطان من القَيْروانِ إلى سُوسَة، وركب منها[د] البحرَ إلى تُونِس، أعْرض عن عبد المُهَيْمن، لِما سَخِط غَيْبته عن قَوْمه بالقَصَبة، وجعل العَلاَمة لأبي الفَضْلِ ابن الرئيس عبد الله بن أبي مَدْيَن، وقد كانت مقصورةً من قبلُ على هذا البيتِ. وأقام عبدُ المهيمن عُطْلاً من العَمَلِ مدّة أشْهُر، ثمّ أعْتبه السُّلْطان، ورضيَ عنه، وأعاد إليه العَلاَمةَ كما كانَ، وهلك لأيّام قلائل بتُونِس في الطّاعون الجارفِ، سنة تسع وأربعين.

ومولدُه سنةَ خمس وسبعين من المائة قبلَها، وقد استوعبَ ابنُ الخطيب التعريفَ به في تاريخ غَرْناطَة[1]، فليطالِعْه هناك مَنْ أَحبَّ[هـ] الوقوفَ عليه.

(أ) آيا صوفيا: حالف (ب) ظ: و (ج) ظ: مقيداً (د) ظ: بها (هـ) أ: أراد

---

(1) ابن الخطيب: الإحاطة 4: 11 ـ 18.

وأمّا ابن رِضْوان الّذي ذكره الرّحَويّ في قصيدته، وهو أبو القاسم عبد الله بن يُوسُف بن رِضوان النّجاريّ؛ أصلُه من الأنْدَلُس، نشأ بمالَقَة، وأخذ عن مشْيَختها، وحذِق في العربيّةِ والأدبِ، وتفنَّن في العلومِ، ونظمَ ونثرَ، / [324 أ] وكان مُجيداً في التَّرسيلِ(أ)، ومُحسِناً في كِتابة الوثائق؛ وارتحل بعدَ واقعة طَرِيف، ونزَل بسَبْتَةَ، ولقِي بها السُّلْطان أبا الحسن، ومدَحَه، وأجازَه. واختصَّ بالقاضي إبراهيم بن أبي يَحْيَى، وهو يومئذٍ قاضي العَساكِر، وخطيبُ السُّلْطان، وكان يستنيبُه في القضاءِ والخطابةِ؛ ثمّ نَظمه في حَلْبَةِ الكُتّابِ بباب السُّلْطان، واختصَّ بخدمة عبدِ المُهَيْمِن رئيس الكتّابِ، والأَخْذِ عنه، إلى أنْ رَحَل السُّلْطان إلى إفْرِيقِيَّة، وكانت واقعةُ القَيْرَوان، وانحصر بقَصَبةِ تُونِس مَن انحصَر بها من أشياعه مع أهله وحُرَمه، وكان السُّلْطان قد تخلَّف ابنَ رِضوان هذا بتُونِس في بعضِ خدَمه، فجَلَّى عند الحِصَار فيما عرض لهم من المكاتبات، وتولّى كِبْرَ ذلك، فقام فيه أحسنَ قيام، إلى أن وصل السُّلْطان من القَيْروان، فرعى لَهُ حَقّ خِدمته، تأنيساً وقرْباً، وكثرةَ استعمال، إلى أن ارتحَل من تُونِس في الأسطولِ إلى المغرب سنة خمسين، كما مرَّ. واستخلَف بتُونِس ابنَه أبا الفَضْلِ، وخلَّف أبا القاسمِ ابن رِضْوان كاتباً له، فأقام كذلك أيّاماً، ثمّ غَلَبهم على تُونِس سُلطان المُوَحّدين، الفَضْلُ ابن السُّلْطان أبي يَحْيَى، ونَجا أبو الفضل إلى أبيه، ولم يُطِق ابنُ رضوان الرّحلة معه، فأقام بتونِس حَوْلاً، ثمّ ركب البحر إلى الأنْدَلُس، وأقام بالمَرِيّة مع جُملةٍ هنالك مِن أشْياعِ السُّلْطان أبي الحَسَنِ؛ كان فيهم عَامِر بن مُحَمَّد بن

(أ) ظ، أ: الترسل

عليّ، شيخ هِنتَاتة، كافلاً لحَرَم السُلْطان أبي الحَسَن، وابنِه؛ أركبهم السَّفِينَ معه من تُونِس عندما ارتحَلَ، فخَلَصوا إلى الأنْدَلُس، ونزَلوا بالمَرِيّة، وأقامُوا بها تحتَ جِرَايةِ سُلْطانِ الأنْدَلُس، فلَحِق بهم ابنُ رِضْوان، وأقام معهم، ودعاه أبو الحجَّاج، سُلْطان الأنْدَلُس، إلى أنْ يَسْتكتبه؛ فامتنعَ، ثمّ هلك السُلْطان أبو الحَسَن، وارتحل مُخَلَّفه الذين كانوا بالمَرِيّة، ووفَدوا على السُلْطان أبي عِنَان، ووفَد معهم ابنُ رِضوان، فرَعى له وسائلَه في خِدمة أبيه، واسْتَكْتَبَهُ، واختصَّه بشهودِ مَجْلسه مع طلبَةِ العلم بحضرتِهِ؛ وكان مُحَمَّد بن أبي عمرو، يومئذٍ، رئيس الدَّوْلَة، ونَجِيّ / الخَلوة، وصاحب العَلاَمة، وحُسبان الجِبايةِ والعساكِر، قد غَلَب على هوَى السُلْطانِ، واختَصَّ به؛ فاستخدم له ابنَ رضوان حتَّى عَلِق منه بذِمِه، ولايةً وصحبةً، وانتظاماً في السَّمَرِ، وغِشْيَان المجالس الخاصَّةِ، وهو معَ ذلك يُدْنيه من السُلْطانِ، ويُنفِق سُوقَه عِنده، ويَسْتكفي به في مواقف خدمتهِ إذا غاب عنها لما هو أهَمّ، فخَلِيَ بعَيْنِ السُلْطانِ، ونفقَتْ عنده فضائلُه؛ فلمَّا سارَ ابنُ أبي عَمرو في العساكِر[(أ)] إلى بِجَايَة، سنة أربع وخمسين، انفرد ابنُ رِضوانَ بقلَم الكِتاب عن السُلْطان، ثمّ رجع ابنُ أبي عَمرو، وقد سخِطه السُلْطان، فأقصاه إلى بِجَايَة وولاّه عليها وعلى سائر أعمالها، وعلى حرب المُوَحِّدين بقُسَنْطِينة، وأَفْرد ابنَ رضوانَ بالكتابةِ، وجعل إليه العَلامة كما كانت لابن أبي عَمرو، فاستقلّ بها، موفَّر الإقطاع والإسهام والجاه؛ ثمّ سَخِطه، آخرَ سبع وخمسين، وجعل العَلاَمة لمُحَمَّد بن أبي القاسِم بن أبي مَدْيَن، والإنشاءَ والتوقيعَ لأبي إسحاق، إبراهيم بن الحاج الغَرْناطيّ.

[324 ب]

(أ) أ: المعسكر

فَلما كانتَ دولةَ السُّلْطان أبي سَالم، جعل العَلاَمةَ لعليّ بن مُحَمَّد بن سعود، صاحب ديوان العساكِر، والإنشاءَ والتوقيعَ والسِّرَّ، لمؤلِّف الكتاب، عبد الرّحمن بن خَلْدون؛ ثمّ هَلكَ أبو سالمٍ سنة ثِنْتين وستّين، واستبدَّ الوزير عَمَرُ بن عبد الله على مَن كفَلَه من أبنائهم، فجَعَل العَلاَمة لابن رِضْوان، سائرَ أيّامه؛ وقتله عبد العزيز ابن السُّلْطان أبي الحَسن، واستبدّ بمُلكه، فلم يزل ابنُ رِضْوان على العَلامة.

وهلَكَ عبدُ العزيز، ووليَ ابنُه السَّعيد في كفالةِ الوزير أبي بكر بن غازي بن الكاس، وابنُ رضوان على حاله؛ ثمّ غَلَب السُّلْطان أحمد على المُلْك، وانتزعه من السَّعيد، وأبي بكر بن غازي، وقام بتدبير دَولته مُحَمَّد بن عُثْمان بن الكاس، مستبدّاً عليه، والعَلاَمةُ لابن رِضْوان، كما كانت، إلى أنْ هلك بأزَمُّور في بعض حركات السُّلْطانِ أحمد إلى مَرَّاكُش، لحصار عبد الرّحمن بن بُويَفَلُوسَنْ ابن السُّلْطان [أبي][(أ)] عليّ سنةَ[(ب)] [...][(ج)].

وكان في جُملةِ السُّلْطانِ أبي الحَسَن جَماعةٌ كبيرة من فُضلاءِ المغرب وأعيانِه، هَلَكَ / كثيرٌ منهم في الطّاعون الجارف بتُونِسَ، وغرِق جماعةٌ منهم في أُسْطوله لَمَّا غرِقَ، وتخطّت النكبةُ آخرين، إلى أنْ استَوفوا[(د)] ما قُدِّر من آجالهم[(هـ)]. [325 أ]

فَمِن حضرَ معه بإفريقِيّة من العُلماء شيخُنا، أبو العبَّاس، أحمد بن مُحَمَّد الزَّوَاويّ، شيخُ القراءات بالمغربِ؛ أخذ العلمَ والعربيّة عن مَشْيَخة فاس، وروى عن

(أ) ساقطة من ظ ومثبتة في أ وآيا صوفيا (ب) عوضها في ظ: بن (ج) بياض في ظ، أ، آيا صوفيا قدر كلمة (د) ظ: استوفوا، ومهملة في أ وآيا صوفيا (هـ) ظ: أجيالهم

الرَّحَّالة أبي عبد الله، مُحَمَّد بن رُشَيد؛ وكان إماماً في [فنّ][أ] القراءاتِ، وصاحبَ مَلَكةٍ فيها لا تُجارَى، وله مع ذلك صوت من مزامير آلِ داودَ، وكان يُصَلّي بالسُّلْطان التراويحَ، ويقرأُ عليه، بعضَ الأحيان، حِزْبَهُ.

ومَمن حضرَ معه بإفْرِيقِيَّة، الفقيهُ أبو عبد الله، مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن الصَّبَّاغ، من أهل مِكْنَاسَة، [كان][ب] مبرّزاً في المَنقول والمَعقول، وعارفاً بالحديث وبرجالِه، وإماماً في مَعْرفة كتاب المُوَطَّأ وإقرائه. أخذ العلومَ عن مَشْيَخَة فاس ومِكْنَاسة، ولَقِي شيخَنا أبا عبد الله الآبِليّ، ولازَمَه، وأخذ عنه العلوم العقليّة، فاستنفدَ بَقِيَّة طَلَبِه عليه، فبرَّز آخِراً؛ واختاره السُّلْطان لمجلسِه، فاستدعاه، ولم يزَل معه إلى أنْ هلكَ غريقاً في ذلك الأسطولِ.

ومنهم: القاضي أبو عَبْد الله، مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد النُّور، من أعمال نَدْرُومَة[ج]، ونسبُه في صِنْهَاجة، كان مبرّزاً في الفِقهِ على مَذْهَبِ الإمام مالك بن أنَس، تفقَّه فيه على الأخوَيْن أبي زيد وأبي موسى ابنَي الإمام، وكان من جِلَّة أصحابِهما[د].

ولمَّا استولى السُّلْطان أبو الحَسَن على تِلِمْسان، رفَع من مَنزِلة ابنَي الإمام، واختصَّهما بالشُّورَى في بلدِهما، وكان يَسْتكثِرُ من أهْلِ العلمِ في دولته، ويُجْري لهم الأرزاق، ويُعْمِر بهم مجلسَه؛ فطلب، يومئذٍ، من ابن الإمام أن يختار لَه من أصحابِه

(أ) من أ وآيا صوفيا وساقطة من ظ (ب) ساقطة من ظ، أ وآيا صوفيا

من يَنظِمه في فُقهاءِ المجلس، فأشاروا عليه بابن عَبد النُور هذا، فأدناه، وقرَّب مجلسَه، وولاّه قضاءَ عسكرِه، ولم يزَلْ في جُملتِه إلى أنْ هلَكَ في الطّاعونِ بتُونِس، سنة تسع وأربعين؛ وكان قد خلّف بتِلِمسان أخاه عليّاً، رفيقَه في دروس ابنِ الإمام، إلاّ أنه أقصر باعاً منه في الفِقْهِ.[ج] فلمّا خَلَع / [325 ب] السُلْطان أبو عِنَان طاعة أبيه السُلْطان أبي الحَسَن، ونهض إلى فاس، استنفَره في جُملته، وولاّه قضاء مِكْناسة، فلم يزلْ بها، حتَّى إذا تغلَّب عُمَر بن عبد الله على الدَّوْلَة كما مَرَّ، نَزَعَ إلى قضاء فَرْضِهِ، فسرَّحَه، وخرجَ حاجّاً سنة أربع وستّين؛ فلمّا قدمَ على مَكَّة، وكان به بقيةُ[د] مرَض، هلكَ[هـ] في طَوافِ القُدوم، وأوصى أميرَ الحاجّ على ابنه مُحَمَّد، وأن يُبلِّغ وصيتَه به للأمير المتغلّبِ على الدّيار المصريّة، يومئذٍ، يَلْبُغا الخاصِكِيّ، فأحسَن خلافَته فيه، وولاّه من وظائفِ الفقهاءِ ما سدَّ به خَلّته، وصانَ عن سؤالِ النّاس وَجْهَه؛ وكانَ له ـ عَفا الله عَنه ـ كَلَفٌ بعَمَلِ الكيمياءِ، تابعاً لمن غَلِطَ في ذلك من أمثاله، فلم يزل يُعاني من ذلك ما يورِّطه مَع النّاسِ في دينه وعِرْضِه، إلى أنْ دَعَته الضرورةُ للترحُّل عن مصرَ، ولَحِق ببغدادَ، ونالَه مثلُ ذلك، فلحِق بمَارِدِين، واستقرّ عندَ صاحبها، فأحسن جِوَارَه؛ إلى أنْ بلغَنا بعدَ التّسعين أنّه هلك هنالك حَتْفَ أنفِهِ، والبقاءُ لله.

ومنهم: شيخُ التَعَاليم أبو عبد الله مُحَمَّد ابن النَّجّار من أهلِ تِلِمْسان؛ أخذ العلم ببلده عن مشيختِها، وعن شيخِنا الآبِليّ، وبرَّز عليه. ثمّ ارتحل إلى المغرب، فلقي

(أ) ظ: بزرومة (ب) أ: أصحابهم (ج) من هنا إلى آخر الفقرة، قوله "والبقاء لله" كتبه ابن خلدون بخطه في حاشية نسخة آيا صوفيا (د) ظ، أ، آيا صوفيا: له لقية ؟! (هـ) ظ، أ، آيا صوفيا: فهلك

بِسَبْتَةَ إمامَ التّعاليمِ أبا عبد الله مُحَمَّد بن هِلاَل شارِح المَجَسْطِي في الهَيئة، وأخذ بمَرّاكُش عن الإمام أبي العبّاس ابن البَنّاء وكان إماماً في عُلُوم النّجامَةِ وأحكامِها، وما يتعلّقُ بها، ورجعَ إلى تِلِمْسان بِعِلْمٍ كبيرٍ[أ]، واستخلصته الدَّوْلَة. فلمّا هلك أبو تاشِفين، وملَكَ السُّلْطانُ أبو الحسن، نَظَمه في جُملته، وأجرى له رِزْقَه، فَحَضر معه بإفْرِيقِيَّة، وهلَك في الطّاعونِ.

ومنهم؛ أبو العبّاس أحمد بن شُعَيْب من أهل فاس؛ بَرَع في اللّسان، والأدب، والعُلوم العَقْليّة، من الفَلْسفة، والتّعاليم، والطّبّ، وغيرها؛ ونظمه السُّلْطان أبو سَعيد في حَلْبَة الكُتّابِ، وأجرى عليه الرّزقَ معَ الأطِبّاء؛ لتقدُّمه فيهم، فكان كاتبه وطبيبَه؛ وكذا معَ السُّلْطان أبي الحَسَن، بعدَه، فحضر بإفْرِيقِيَّة، وهلك بها في ذلك الطّاعون. وكان له شِعْرٌ سَابقَ به الفحُول من المتقدّمين والمتأخّرين، وكانت له إمامةٌ في نقدِ الشّعرِ وبَصَرٌ به، وممّا حضرني الآن من شعره: [من الكامل الأحذّ]

[326أ] / دارُ الهوى نَجدٌ، وساكنُها ... أقصى أماني النّفس من نَجْدِ
هل بَاكَرَ الوَسْمِيُّ ساحتَها ... واستَنَّ في قِيعانِها الجُرْدِ
أو باتَ معتلُّ النّسيم بها ... مُسْتَشفِياً بالبَان والرَّنْدِ
يتلو أحاديثَ الذين هُمُ ... قَصْدي وإن جاروا عن القَصْدِ
أيّامَ سُمْرُ ظلالِها وَطَني ... مِنها، وزُرْقُ مِياهِها وِرْدِي
ومَطارِحُ النّظَراتِ في رَشأٍ ... أحْوَى المَدامِعِ أهْيَفَ القَدِّ

(أ) كذا في ظ وآيا صوفيا، ومهملة في أ

يَرنُو إليكَ بعينِ جازيةٍ ... قُتِلَ المُحِبُّ بها على عَمْدِ
حتّى أجدَّ بهم على عَجَلٍ ... رَيْثُ[أ] الخطوبِ وعاثِرُ الجَدِّ
فُقِدوا فلا وأبيكَ بعدَهمُ ... ما عِشتُ لا آسَى على الفَقْدِ
وغَدَوا دفيناً قد تضمَّنَهُ ... بطنُ الثَّرى وقرارةُ اللَّحْدِ
ومشرَّداً من دُون رُؤيتِه ... قُذُفُ النّوى وتَنوفَةُ البُعْدِ
أجدَى[ب] عليَّ العيشُ بعدَهمُ ... أنّي فقَدتُ جميعَهم وَحْدي
لا تَلحَنِي يا صاحِ في شَجَنٍ ... أخفيتُ منه فوق ما أُبْدِي
بالغَرب لي سَكنٌ تأوَّبَني[ج] ... من ذِكره سُهْدٌ على سُهْدِ
فرخانِ قد تُركا بمضيَعةٍ[د] ... زُوِيَتْ عن الرُّفَداءِ والرِّفْدِ

ومنهم: صاحبنا الخطيب أبو عبد الله، مُحَمَّد بن أحمد بن مَرزُوق؛ من أهل تِلِمسان، كان سلفه نُزَلاءَ الشيخِ أبي مَدْين بالعُبَّاد، ومتوارِثِين خدمة تُربته، من لَدُن جدّهم خادِمِه في حياتِه.

وكان جدُّه الخامس أو السَّادس، واسمُه أبو بَكْر بن مَرزُوق، معروفاً بالوِلايةِ فيهم، ولمّا هلك دفنَه يَغمَرَاسَن بنُ زَيَّان، سلطانُ تِلِمسان من بَني عبد الوَاد، في التُّربَة بِقَصْرِه، ليُدفَنَ بإزائه، متى قُدِّر بوفاتِه.

ونشأ مُحَمَّدٌ هذا بتِلِمسان، ومولدُه ـ فيما أخبرني ـ سنةَ عَشْرٍ وسبعمائة، وارتحل مع أبيه إلى المشرقِ، سنة ثمان عشرة، ومرَّ ببِجَايَة فسمع بها على الشَّيخ أبي عليّ

(أ) ظ: وبث، والمثبت من أ وآيا صوفيا (ب) كذا في ظ، أ، آيا صوفيا، وأجدى عليه يُجْدي إذا أعطاه. لسان العرب، مادة: جدا
(ج) ظ: فأوّبني (د) في آيا صوفيا: بمضيفة

ناصر الدِّين/ ودخل المشرق، وجاور أبوه بالحَرَمَيْن الشَّريفين، ورجع هو إلى القاهرة، فأقامَ بها، وقرأ على بُرهان الدِّين الصَّفاقُسيّ المالكيّ، وأخيه، وبرع في الطَّلب والرِّوايةِ، وكان يُجيد الخطَّيْن. [326 ب]

ثمّ رجع سنةَ خمس وثلاثينَ إلى المَغرِبِ، ولقِيَ السُّلطان أبا الحَسَن، بمكانِه من حِصار تِلِمْسان، وقد شَيَّد بالعُبّاد مَسجِداً عظيماً؛ وكان عمُّه مُحَمَّد بن مَرْزوق خطيباً به على عادتهم بالعُبّاد، وتُوفي، فولاّه السُّلطان خَطابة ذلك المَسْجد مكانَ عمِّه، وسمِعَه يخطبُ على المِنْبَرِ، ويُشِيدُ بذكرِه والثناءِ عليه، فَحَلِيَ بعينه، واختَصَّه وقرَّبه، وهو مع ذلك يلازم مجلس الشيخين ابنَي الإمام، ويأخذ نفسَه بِلقَاء الفُضلاء والأكابر، والأخذِ عنهم؛ والسُّلطانُ في كل يوم يزيدُه رُتبةً؛ وحضرَ معه واقعةَ طِريف الّتي كان فيها تَمحيصُ المُسلمين، وكان[1] يستَعملُه في السِّفارةِ عنه إلى صاحب الأندَلُس. ثم سَفَر عنه، بعدَ أنْ مَلَكَ إفريقِيَّة، إلى ابنِ أُذفونش، مَلِك قَشْتَالة، في تقرير الصُّلح واستنْقاذ ابنه، أَبِي عُمَر تاشِفين، كان أُسِرَ يومَ طريف، فغَاب في تلك السِّفارةِ عن واقعةَ القَيْرَوانِ، ورجَع بأبِي تاشِفِين معَ طائفةٍ من زعماء النّصرانيّةِ، جاءوا في السِّفارةِ عن مَلِكهم، ولَقِيَهم خَبَرُ واقعة القَيْرَوَان، بقُسَنْطِينَة، من بلادِ إفرِيقِيَّة، وبها عامل السُّلطان وحاميتُه، فثار أهل قُسَنْطِينَة بهم جميعاً، ونَهَبوهم، وخطَبوا للفَضْلِ ابن السُّلطانِ أَبِي يَحْيَى، وراجعوا دعوة المُوَحِّدين، واستدعوه، فجاءَ إليهم، وملَكَ البلَدَ، وانطلق ابن مَرْزوق عائداً إلى المَغرِبِ، معَ جماعةٍ من الأعْيانِ والعُمَّال والسّفراء عَن المُلُوك، ووَفَد على السُّلطانِ أَبِي عِنَان بفاس معَ أُمِّه، حَظيّة أَبِي الحَسَن وأثيرتِه،

(1) آ، آيا صوفيا: فكان

كانت راحلةً إليه، فأدركها الخبر بقُسَنطِينَة، وحضرتْ الهَيْعَة، واتّصل بها الخبر بتَوثُّب ابنها أبي عِنَان على مُلْك أبيه، واستيلائه على فاس، فرَجَعت إليه، وابنُ مَرزوق في خدمتها، ثمّ طلب اللّحاق بتِلِمْسان، فسرَّحوه إليها، وأقام بالعُبَّاد مكان سلَفه، وعلى تِلِمْسان يومئذٍ أبو سَعيد عُثْمان بن عبد الرّحمن بن يَحْيَى بن يَغْمَراسَن بن زَيَّان، قد بايع له قَبِيلُهُ بنو عَبْد الوَاد بعد واقعة القَيْرَوَان بتُونِس، [327أ] / وابن تَافْرَاكِين يومئذٍ مُحاصِرٌ للقَصَبة، كما مَرّ في أخبارِهم، وانصرفوا إلى تِلِمْسان، فوجدوا بها أبا سعيد عُثْمان بن جَرَّار، من بيت مُلُوكِهم، قد استعملَه عليها السُّلْطان أبو عِنَان، عند انتقاضِه على أَبيه، ومسيره إلى فاس.

فانتقضَ ابن جَرَّار من بعدِه، ودعا لنفسه، وصمدَ إليه عُثْمان بن عبد الرّحمن، ومعه أخوه أبو ثابت، وقومُهُما، فملكوا تِلِمْسان من يد ابن جَرَّار، وحبَسوه، ثمّ قتَلوه؛ واستبَدَّ أبو سعيد بمُلك تِلِمْسان، وأخوه أبو ثابت يُرَادفه، وركبَ السُّلْطان أبو الحسَن البَحْر من تُونِس، وغرِق أُسطوله، ونجا هو إلى الجزائِر، فاحتلَّ بها، وأَخَذ في الحَشْدِ إلى تِلِمْسان، فرأى أبو سعيد أن يكفَّ غَرْبه عنهم، بمواصلةٍ تقعُ بينَهما، واختارَ لذلك الخطيبَ ابنَ مرزوق، فاستدعاه، وأسرَّ إليه بما يلقيه عنه للسُّلْطانِ أبي الحَسَن، وذهبَ لذلك على طريقِ الصَّحراء؛ واطَّلع أبو ثَابت وقومُهم على الخبرِ، فنكِرُوه على أَبِي سَعيد، وعاتَبوه، فأنكر، فبَعَثُوا صُغَيِّر بنَ عامر في اعتِراض ابن مَرْزوق، فجاءَ به، وحَبَسُوه أيّاماً، ثمّ أجازوه البحرَ إلى الأَنْدَلُس؛ فنزَل على السُّلْطانِ أَبِي الحجَّاج بغَرْناطَةَ، ولَه إليه وسيلةٌ منذُ اجتماعه به بمجلس السُّلْطان أبي الحسَن

بِسَبْتَةَ إثْرَ واقعةِ طَرِيف، فرَعَى له أبو الحجّاج ذِمَّةَ تلك المَعرفة، وأدناه، واستعمله في الخَطَابَة بجامعِهِ بالحَمْراء، فلم يزل خَطيبَه إلى أنْ استدعاه السُّلْطان أبو عِنَان سنةَ أربعٍ وخمسين بعد مَهْلِك أبيه، واستيلائه على تِلِمْسان وأعمالها، فقَدِم عليه، ورَعَى له وسائلَه، ونظَمه في أكابِر أهل مَجْلِسِه، وكان يقرأُ الكتاب بين يَدِيه في مجلسِه العِلْميّ، ويُدَرِّس في نَوبَته مع مَن يُدَرِّس في مجلسه منهم؛ ثمّ بعثَه إلى تُونِس عامَ مَلَكَها، سنةَ ثمانٍ وخمسين، ليخطب له ابنةَ السُّلْطان أبي يَحْيَى، فَردَّت تِلك الخِطْبَة، واختفت بتُونِس؛ ووُشِيَ إلى السُّلْطان أبي عِنَان أنّه كان مطَّلعاً على مكانها، فَسخِطه لذلكَ، ورجعَ السُّلْطان من قُسَنْطِينة، فثارَ أهلُ تُونِس بمَنْ كان بها من عُمَّاله وحَامِيتِه، واستقدموا أبا مُحمَّد ابن تَافْرَاكِين من المَهْدِيَّة، فجاء، ومَلَكَ البلد، ورَكِبَ القومُ الأُسطول[أ]، / ونزلوا بمَرَاسِي تِلِمْسَان، وأوعزَ السُّلْطان باعتقالِ ابنِ مَرْزوق، وخَرَجَ لذلك يَحْيَى بن شُعَيب، من مقدَّمي الجَنادِرَة[1] ببابِه، فلقِيه بتَاسَّالَة، فقيّده هنالك، وجاءَ به، فأحضره السُّلْطان وقرَّعه، ثمَّ حبَسه مُدَّة، وأطلقه بين يدي مَهْلِكِهِ. [327 ب]

واضطربت الدَّوْلَةُ بعدَ موت السُّلْطان أبي عِنَان، وبايع بنو مَرِين لبعض الأَغْيَاصِ من بني يعقوب بن عبد الحَقّ، وحاصروا البلدَ الجديدَ، وبها ابنه السّعيد، ووزيره المُستبِدُّ عليه، الحسَن بن عُمَر؛ وكان السُّلْطان أبو سالم بالأَنْدَلُس، غرَّبه إليها أخوه السُّلْطان أبو عِنَان، معَ بَني عَمِّهم، ولدِ السُّلْطان أَبي عليّ بعدَ وفاةِ السُّلْطان

(أ) آيا صوفيا: الاصطول

(1) الجنادرة: مفردها جَنْدار، فارسية تعني حرس السلطان.

أبي الحسَن، وحصُولهم جميعاً في قَبْضته. فلمّا تُوفّي، أراد أبو سالم النهُوض لمُلكه بالمغرب، فمَنَعه رضْوان، القائم يومئذٍ بمُلْك الأنْدَلُس، مستبدّاً على ابن السُّلْطان أبي الحَجَّاج، فلحِقَ هو بإشبيلِيَّة، من دار الحَرْبِ، ونزَل على بِطْرُه، مَلِكِهم يومئذٍ، فهيَّأَ له السَّفِينَ، وأجازه[أ] إلى العُدْوَةِ، فنزل بجبَل الصَّفِيحَة، من بلاد غُمارة، وقام بدَعوته بَنُو مُثَنّى وبنو منير، أهل ذلك الجَبَل منهم، حتَّى تَمّ أمره واستَولى على ملكه؛ في خَبَرٍ طويلٍ ذكرناه في أخْبار دَوْلَتِهم.

وكان ابن مَرْزُوق يُداخِله، وهو بالأنْدَلُس، ويَستخدمُ له، ويُفاوِضُه في أُمورِه، وربّما كان يكاتِبُه وهو بجَبَل الصَّفِيحَة، ويُدَاخل زعماءَ قومِه في الأخْذِ بدَعوتِه. فلمّا مَلَكَ السُّلْطان أبو سالم، رعَى له تلك الوسائلَ أجمعَ، ورفعه على النّاسِ، وألقَى عليه محبّته، وجعل زِمام الأمور بيدِه، فوَطِىء النّاسُ عَقِبَه، وغشِيَ أشرافُ الدَّوْلَة بابَه، وصَرَفوا الوجوه إليه، فمرِضَت لذلك قلوبُ أهلِ الدَّوْلَة، ونقَموه على السُّلْطان، وتربَّصوا به، حتَّى توَثَّب[ب] عَمَرُ بن عبد الله بالبلد الجديدِ، وافتَرَق النّاسُ عن السُّلْطان، وقتله عَمَرُ بن عبد الله آخر ثِنتَين وستِّين، وحبَس ابنَ مرزوق وأغرى به سلطانَه الذي نصَبَه؛ مُحَمَّدَ بن عبد الرّحمن بن أبي الحسَن، [فامتحَنَه][ج]، واستصفاه، ثمّ أطلقَه، بعدَ أنْ رام كثيرٌ من أهل الدَّوْلَة قَتْلَه، فمَنَعه منهم.

[328أ] ولحِقَ بتُونِسَ، سنةَ أربعٍ وَستِّين، ونزلَ على السُّلْطان أبي إسحاق، / وصاحبِ دولته، المُسْتَبِدّ عليه، أبي مُحَمَّد بن تَافْرَاكِين، فأكرموا نُزُلَه، وولّوه الخَطابة بجامع

(أ) آيا صوفيا: وأجاره (ب) آيا صوفيا: توبث (ج) ساقطة من ظ

المُوَحِّدين بتُونس، وأقَامَ بها إلى أنْ هَلَكَ السُّلْطان أبو إسحاق سنَةَ سبعين، وَولِي ابنُه خالد. وزحَف السُّلْطان أبو العبّاس، حافدُ السُّلْطان أبي يَحْيَى، من مَقَرِّه بقُسَنطِينَة إلى تُونس، فملكها، وقَتَل خالداً سنة ثِنتَيْن وسَبعين.

وكان ابنُ مَرْزوق يَستريبُ منه، لما كان يميلُ، وهو بفاس، معَ ابنِ عمِّه أبي عبد الله مُحَمَّد، صاحب بِجَاية، ويُؤْثِره عندَ السُّلْطانِ أبي سالم عليه؛ فعَزَله السُّلْطان أبو العبّاس عن الخُطبة بتُونِس، فوَجَمَ لها، وأجمع الرِّحلة إلى المَشْرِقِ، وسَرَّحه السُّلْطان، فركِب السَّفين ونزَل بالإسْكَنْدَرِيّة، ثمّ ارتحَل إلى القاهرة، ولقِيَ أهلَ العِلْمِ، وأُمَرَاء الدَّوْلَة، ونفَقت بضائعُه عندَهم، وأوصلوه إلى السُّلْطانِ، وهو يومئذٍ الأشرف، فكان يَحضُر مجلسَه، وولّوه الوظائفَ العِلْمِيّة، فكان ينتجعُ منها مَعاشَه، وكان الذي وصل حَبْله بالسُّلْطانِ أشتا دارِه[أ] مُحَمَّد بن أقْبُغا آصْ، لقِيه أوّلَ قُدومِه، فحَلِي بعينه، واستظرف جُملته، فسَعَى له، وأنجحَتْ سِعايتُه، ولم يَزَلْ مُقيماً بالقاهرةِ، موقَّر[ب] الرُّتبةِ، معروفَ الفضيلَةِ، مرشَّحاً لقضاء المالكيّة، ملازماً للتدريسِ في وظائِفه[ج]، إلى أنْ هَلكَ سنةَ إحدى وثمانين.

هذا ذكرُ من حَضَرنا من جُملةِ السُّلْطان أبي الحسَن، من أشياخنا وأصحابنا؛ وليس موضوعَ الكتاب الإطالة، فلنقتصرْ على هذا القَدْر، ونرجعُ إلى ما كنّا فيه من أخبارِ المؤلِّف.

(أ) آيا صوفيا: أستاد داره (ب) أ: موفر (ج) ظ: طائفة

ولايةُ العَلامَة بتُونس، ثـمَّ الرِّحلةُ بعدَها إلى المَغْرِب، والكتابةُ عن السُّلْطان أبي عِنَان

لم أزَلْ، منذ نشَأتُ وناهَزتُ، مُكبّاً على تَحْصيلِ العلمِ، حريصاً على اقتناء الفضائِل، متَنقّلاً بين دُروس العلمِ وحلَقاته، إلى أنْ كان الطّاعون الجارِف، وذَهَب / [328 ب] بالأعيان والصُّدور وجميع المَشْيَخَة، وهلَكَ أبوايَ، رحمهُما الله، ولزِمتُ مجلسَ شيخنا أبي عَبْد الله الآبِليّ، وعكفتُ على القراءة عليه ثلاثَ سنين، إلى أنْ شَدَوتُ بعضَ الشّيء؛ واستدعاه السُّلْطان أبو عِنَان، فارتَحل إليه، واستَدعاني أبو مُحمَّد بن تَافْرَاكِين المُستبدُّ على الدَّوْلَة، يومئذٍ بتُونِس، إلى كِتابةِ العَلاَمةِ عن سُلْطانِه أبي إسحاقَ، وقد نَهضَ إليهم من قُسَنطينة صاحبُها الأمير أبو زَيْد، حافِدُ السُّلْطان أبي يَحيَى في عساكِره، ومعَه العربُ أولادُ مُهَلْهِل، الذين استنجدُوه لذلـكَ، فأخـرج ابنُ تَافْرَاكِين سلطانَه أبا إسحاقَ مع العربِ، أولاد أبي اللّيل، وبَثَّ العطاء في عسكره، وعَمَّر له المراتبَ والوظائفَ، وتعلّل عليه صاحبُ العَلاَمة أبو عَبْد الله، مُحمَّد بن علي بن عُمَر[أ]، بالاستزادة من العَطاء، فعَزَله، وأدَالَني منه، فكتبتُ العَلاَمة عن السُّلْطان، وهي وَضْعُ "الحَمْدُ لله، والشُّكرُ لله"، بالقَلَم الغليظ، ما بين البسْملة وما بَعْدها، من مخاطبةٍ أو مَرْسوم؛ وخرجت معهم أوّلَ سنة ثلاث وخمسين. وقد كنت مُنطوياً على مفارقتهم، لما[ب] أصابني من الاستيحَاش لذَهاب أشياخي، وعُطلَتي عن طلبِ العلمِ. فلمّا رجع بنو مَرِين إلى مَراكزهم بالمغربِ، وانحسَر تيّارُهم عن إفريقيّة،

(أ) آيا صوفيا: عُمَر (ب) ظ: على ما

وأكثرُ من كان معهم، من الفضَلاءِ، صَحابةٌ وأشياخ، فاعتزمتُ على اللّحاقِ بهم، وصدّني عن ذلك أخي وكبيري مُحمَّد، رحمهُ الله؛ فلمّا دُعيتُ إلى هذه الوظيفةِ، سارعت إلى الإجابة، لتحصيل غَرضي من اللّحاقِ بالمغربِ، وكان كذلك؛ فإنّا لمّا خرجنا من تُونِس، نزلنا بلادَ هَوّارَة، وزحفت العَساكِر بعضُها إلى بعضٍ بفَحص مَرْماجَنّة[أ]، وانهزَمَ صفُّنا، ونجوْتُ أنا إلى أُبَّة؛ فأقمتُ بها عند الشّيخ عبد الرّحمن الوَشْتَاتي، من كبراء المُرابطين، ثمّ تحوّلتُ إلى تَبِسّة، ونزلت بها على مُحَمَّد بن عَبْدون، / صاحبها، فأقمتُ عنده لياليَ حتَّى هيّأ لي الطّريقَ، وبَذْرَق لي مع رفيق من العَرَبِ. [329أ] وسافرتُ إلى قَفْصَة، وأقمتُ بها أيّاماً أترَصّد الطّريق، حتَّى قدِم علينا بها الفقيه مُحَمَّد ابن الرّئيس مَنصور بن مُزْني، وأخوه يُوسُف يومئذٍ صاحبُ الزّاب، وكان هو بتُونِس، فلمّا حاصرها الأميرُ أبو زَيْد، خَرَجَ إليه، فكان معه، ثمّ بلغَهم الخبر بأنّ[ب] السُّلْطانَ أبا عِنَان، مَلِك المغرب، نَهض إلى تِلِمْسان فملكها، وقَتل سُلطانَها عُثْمانَ بنَ عبد الرّحمن، وأخاه أبا ثابِت، وأنّه انتهى إلى المَدِيّة، ومَلَك بجَايَة من يدِ صاحبِها الأميرِ أبي عبد الله، من حَفَدة السُّلْطان أبي يحيى؛ راسَله عندَما أطلّ على بَلدِه، فسار إليه، ونَزَل له عنها، وصار في جُملته، وولَّى أبو عِنَان على بجَايَة عُمَر بن علي شيخ بني وَطّاس، من بَني الوزير، شُيوخهم.

فلمّا بَلَغ هذا الخبر، أجفَل الأميرُ عبد الرّحمن من مكانه على حِصارِ تُونِس، ومرَّ بقَفْصه، فدَخَل إلينا مُحَمَّدُ بن مُزْني ذَاهباً إلى الزّاب، فرافقْتُه إلى بَسْكَرَة، ودخلتُ

(أ) ضبطها في ظ، آيا صوفيا: مَرْمَاجَنّة (ب) مكررة في آيا صوفيا

إلى أخيه هنالك، ونزل هو ببعض قُرى الزّاب تحت جِراية أخيه، إلى أنْ انصرم الشّتاء.

وكان أبو عِنَان لمّا ملكَ بِجَايَة، ولّى عليها عُمَرَ بن علي بن الوزير، من شُيوخِ بني وطّاس، وجاء فارِح، مولى الأميرِ أبي عبد الله، لنقل حُرَمه ووَلَده، فداخلَ بعضَ السُّفَهاءِ من صِنْهاجَة في قتل عُمَرَ بن علي؛ فقَتَله في مَجْلِسِه، ووثبَ هو على البَلَدِ، وبعَثَ إلى الأميرِ أبي زَيْد يستدعيه من قُسنطِينَة، فتمشّت رجالاتُ البلدِ فيما بينَهم خشيةً من سطوة السُّلْطان، ثمّ ثاروا بفَارِح، فقتلوه، وأعادوا دعوة السُّلْطان كما كانت، وبعثوا عن عامل السُّلْطان بتَدَلّس، يَحْيَاتَنْ بن عُمَرَ بن عبد المؤمن، شيخ بني وَنكَاسَن من بني مَرِين، فملّكوه قيادهم، وبَعَثوا إلى السُّلْطان بطاعتهم، فأخرج، لوقته، [حاجِبه][أ] مُحَمَّدَ بن أبي عَمْرو، وأكثَفَ له الجُند، وصرَف معه وجوهَ دولته، [329 ب] وأعيانَ / بطانته، وارتحلتُ أنا من بَسْكَرَة، وافداً على السُّلْطان أبي عِنان بتِلِمْسان، فلقيتُ ابن أبي عَمرو بالبَطْحاء، وتلقّاني من الكرامة بما لم أحتسبه، وردّني معه إلى بِجَايَة، فشهدتُ الفتح، وتَساتَلَت وفودُ إفْرِيقِيّة إليه؛ فلمّا رجع السُّلْطان[ب]، وفدتُ معهم، فنالني من كرامتِه وإحسانه ما لم أحتسِبْه، إذ كنتُ شاباً لم يَطَرَّ شارِبي، ثمّ انصرفتُ مع الوفود، ورجَع ابن أبي عَمْرو إلى بِجَايَة؛ فأقمتُ عنده حتّى انصرَم الشّتاء من أواخر أربع وخمسين؛ وعاد السُّلْطان أبو عِنَان إلى فَاس، وجمع أهل العِلم للتّحليقِ بمجلسه، وجرَى ذِكري عندَه، وهو [ينتَقي][ج] طلَبة العلم للمُذاكَرةِ في ذلك

(أ) ظ: صاحبه (ب) أ، آيا صوفيا: فلما رجع إلى السلطان (ج) ظ: يلتقي

المَجْلِس، فأخبرَه الذين لقيتُهم بتُونس عنّي، ووصَفوني له، فكتب إلى الحاجب يَستقدِمُني، فقدِمتُ عليه سنةَ خمس وخمسين، ونظَمَني في أهْلِ مَجْلِسه العِلميّ، وألزمَني شُهودَ الصّلوات معَه؛ ثمّ استعمَلني في كتابتِه، والتّوقيع بين يَديه، على كُرهٍ منّي، إذ كنتُ لم أعهد مثلَه لسَلَفي، وعكَفتُ على النَّظَرِ والقِراءةِ، ولقاء المشْيَخةِ من أهل المغرب، ومن أهل الأندَلُس الوافدين في غَرَض السّفارةِ؛ وحصلتُ من الإفادة منهم على البُغْيَةِ.

وكان في جُملته، يومئذٍ، الأستاذُ أبو عَبْد الله مُحَمَّد ابن الصَّفّار، من أهْلِ مَرَّاكُش، إمام القراءات لوَقْته؛ أخذَ عن جماعةٍ من مَشيخَة المَغرِبِ، كبيرُهم شيخُ المُحدّثِين الرَّحّالة أبو عبد الله مُحَمَّد بن رُشَيْد الفِهْريّ، سَنَد أهلِ المغرب، وكان يُعارِض السُّلْطانَ القرآنَ برواياته السَّبْع إلى أنْ توفّيَ.

ومنهم: قاضي الجماعة بفاس أبو عبد الله مُحَمَّد المَقَّريّ(أ)، صاحبنا، من أهل تِلِمْسان. أخَذ العِلمَ بها عن أبي عبد الله مُحَمَّد السَّلاويّ؛ ورَدَ عليها من المغرب خِلواً من المعارفِ، ثمّ دعته همّته إلى التحلّي بالعلم، فعكف في بيته على مُدارسة القرآنِ، فحفظه، وقرأه بالسَّبع، ثمّ عكَفَ على كتاب التّسهيل في العربيّة، فحفِظه، ثمّ على مختصَرَيْ ابن الحاجِب في الفِقهِ / والأُصولِ، فحفظهما؛ ثمّ لزِمَ الفقيهَ عِمْران المَشَدّالِي [330أ] من تلاميذِ(ب) أبي علي ناصر الدّين، وتفقَّه عليه؛ وبرَّز في العُلوم، إلى حيثُ لم تُلحَق غايتُه؛ وبنَى السُّلْطان أبو تاشِفين مدرستَهُ بتِلِمْسان، فقدَّمه للتدريس بها، يضاهي به

(أ) آيا صوفيا: المقري (ب) آيا صوفيا: تلميذ

أولادَ الإمام، وتفقَّه عليه بتِلِمْسان جماعة، كان من أوفرهم سَهْماً في العلوم أبو عبد الله المَقّريّ هذا.

ولمّا جاء شيخنا أبو [عبد الله][أ] الآبِليّ إلى تِلِمْسان، عند استيلاء السُّلْطان أبي الحَسَن عليها، وكان أبو عبد الله السَّلاويّ قد قُتل يوم فتح تِلِمْسان، قَتلَه بعض أشياع السُّلْطان، لذنب أسلَفه في خدمةِ أخيه أبي عليّ بسِجِلْماسَة، قبل انتحالِه العلمَ، كان السُّلْطان يعتدُّهُ عليه، فقُتل ببابِ المدرسةِ، فلزِم أبو عبد الله المَقّريّ بعدَه مجلس شيخنا الآبِليّ، ومجالس ابنَي[ب] الإمام، واستبحَرَ في العلومِ، وتفنّن.

ولمّا انتقض السُّلْطانُ أبو عِنَان سنةَ تسع وأربعين، وخلَع أباه، نَدَبهُ إلى كتابِ البَيْعة، فكتبها، وقرأه على النّاس في يومٍ مشهودٍ، وارتحل مع السُّلْطان إلى فاس؛ فلمّا مَلَكها، عزَل قاضيَها الشّيخ المُعَمَّر أبا عبد الله بن عبد الرَّزّاق، وولاّه مكانه، فلم يَزلْ قاضياً بها إلى أنْ سخِطه لبعضِ النَّزَعاتِ المُلُوكيّة، فعزَلَه؛ وأدال منه بالفقيه أبي عبد الله الفِشْتَاليّ آخرَ سنة ستٍّ وخمسين؛ ثمّ بعثه في سِفارة إلى الأنْدَلُس، فامتنع من الرّجوعِ، وقام السُّلْطان لها في ركائبه، ونكِر على صاحب الأنْدَلُس[1] تمسُّكَه به، وبعث إليه فيه يَسْتقدمه، فلاذ منه ابنُ الأحمر بالشَّفاعةِ فيه، واقتضى له كتابَ أمانٍ بخَطّ السُّلْطان أبي عِنَان، وأوفدهُ معَ الجماعةِ [من][ج] شُيوخِ العلم بغَرْناطَةَ، [القاضيان بِغَرْناطَة][د]: شيخنا أبو القاسم الشَّريف السَّبتيّ، شيخ الدُّنيا جَلالةً وعِلماً

(أ) ظ: أبو علي (ب) ظ، أ، آيا صوفيا: بني (ج) ساقطة من ظ (د) سقط ما بين الحاصرتين من ظ

(1) هو السلطان ابن الأحمر

ووَقاراً ورِياسةً، وإمام اللّسان حَوْكاً ونَقْداً، في نظمِه ونَثْرِه. وشيخنا الآخَرُ، أبو البَرَكات مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن إبراهيم ابن الحاج البَلْفيقيّ من أهل المَرِيَّة، شيخ / [330 ب] المحدّثين، والفُقَهاء، والأُدَباء، والصُّوفيّة، والخُطَباء، بالأندَلُس، وسيّد أهل العِلْم بإطلاق، والمُتفنّن في أساليبِ المَعارِفِ، وآداب الصّحابة للمُلُوكِ فمن دونَهم؛ فوَفَدا به على السُّلْطانِ شَفيعَيْن على عظيمِ تشوُّفه للقائِها، فقُبِلت الشّفاعةُ، وأُنجِحَت الوسيلةُ.

حضرتُ بمجلس السُّلْطان يوم وِفادتها سنة سبع وخمسين، وكان يوماً مشهوداً. واستقرَّ القاضي المَقّرِيّ في مكانه بباب السُّلْطان، عُطْلاً من الولاية والجِراية، وجرت عليه بعدَ ذلك محنةٌ من السُّلْطانِ، بسبب خُصومة وقعت بينه وبين أقاربه؛ امتنع من الحضورِ معهم عندَ القاضي الفَشْتاليّ، فتقدَّم السُّلْطان إلى بعض أكابر الوَزَعةِ ببابِه، بأن يَسْحبَه إلى مجلسِ القاضي؛ حتَّى أنفَذَ فيه حُكْمَه، فكان النّاس يَعدُّونها مِحْنةً.

ثمّ ولّاه السُّلْطان، بعدَ ذلك، قضاءَ العساكِر في دولتِه، عندما ارتحل إلى قُسَنْطينة، فلمّا افتتَحها، وعاد إلى دار مُلكهِ بفاس آخر ثمانٍ وخمسين، اعتلَّ القاضي المَقّرِيّ في طريقهِ، وهلك عند قدومهِ بفاس.

ومنهم صاحبُنا، الإمام، العالِم، الفَذُّ، فارس المَعْقول والمَنْقول، وصاحب الفُروع والأُصول، أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد الشَّريف الحَسَنيّ، ويُعرف بالعَلْويّ[أ]، نسبةً إلى قرية من أعْمال تِلِمْسان، تُسمى العَلْوِين[ب]؛ وكان أهل بيته لا يُدافَعون في نَسَبِهم،

(أ) في أ: العلْويّ، وفي آيا صوفيا بلا ضبط (ب) أ: العلْوِين

وربما يَغمزُ فيه بعضُ الفَجَرةِ، ممَّن لا يَزَعه دينُه، ولا معرفته بالأنساب، فيُعَدُّ من اللَّغوِ، ولا يُلتفتُ إليه.

نشأ هذا الرّجل بتِلِمْسان، وأخذَ العلمَ عن مَشْيَختِها، واختصَّ بأولاد الإمام، وتفقَّه عليهمَا في الفِقه، والأُصول، والكَلام؛ ثمّ لزِم شيخَنا أبا عبد الله الآبِليّ، وتضلَّع من معارفِه، فاستبْحَر، وتفجّرت ينابيعُ العُلومِ من مَدارِكِه؛ ثمّ ارتَحلَ إلى تُونِسَ في بعضِ مذاهبه، سنةَ أربعين، ولقِيَ شيخَنا القاضيَ أبا عبد الله بن عبد السَّلام، وحضَر مجلسه، وأفادَ منه، واستعظم رُتْبَتَه في العِلم؛ وكان ابنُ عبد السّلام يُصْغي إليه، ويؤثِر محلَّه، ويَعرف حَقَّه، حتَّى لزَعموا[أ] أنّه كانَ يَخلو به في بيته، فيقرأُ / عليه [331 أ] فَصْلَ التَّصوّف من كتاب الإشارات لابنِ سينا، بما كان هو قد أحْكَمَ ذلك الكتابَ على شيخنا الآبِليّ؛ وقرأ عليه كثيراً من كتاب الشّفاءِ لابن سِينا، ومن تَلاخيص كتب أَرَسْطُو[ب] لابن رُشْد، ومن الحِساب، والهندسة، والهَيئة، والفَرائض، عِلاوةً على ما كان يَحمله من الفقه والعَربيّة، وسائر عُلوم الشّريعةِ؛ وكانت له في كُتُب الخِلافيّات يَدٌ طُولَى، وقَدَمٌ عَاليةٌ[ج]، فعَرف له ابن عبد السّلام ذلك كلّه، وأوجب حقَّه. وانقلب إلى تِلِمْسان، وانتصَب لتدريس العِلم وبثّه، فملأ المَغرب معارفَ وتلاميذَ[د]، إلى أنْ اضطرب المغرب بعد واقعة القَيْرَوان؛ ثمّ هلك السُّلْطان أبو الحَسَن، وزحف ابنُه أبو عِنَان إلى تِلِمْسانَ، فملكها سنة ثلاث وخمسين، فاستخلص

(أ) أ: زعموا (ب) آيا صوفيا: أرْهَطُوا (ج) ظ: علية (د) آيا صوفيا: وتلميذاً

الشَّريفَ أبا عبد الله، واختاره لمجلسِه العِلميّ، معَ مَنْ اختار من المَشيخَةِ، ورَحَل به إلى فاس، فتبرَّم الشَّريفُ من الاغترابِ، وردَّد الشَّكوى، فأحفظَ السُّلطان بذلك، وارتابَ به، ثمّ بلغَه أثناءَ ذلك، أنّ عُثْمانَ بنَ عَبْدِ الرَّحمن، سلطان تِلِمْسان، أوصاه على وَلدِه، وأودَعَ له مالاً عندَ بعض الأعيان من أهل تِلِمْسان، وأنّ الشَّريف مطَّلِعٌ على ذلك، فانتزعَ الوديعَةَ، وسَخِط الشَّريفَ بذلك ونَكَبَه، وأقامَ في اعتقالِه أشهُراً، ثمّ أطلقَه أوّلَ ستٍّ وخمسين، وأقصاه، ثمّ أعتبَه بعدَ فتح قُسَنطِينَةَ، وأعاده إلى مجلِسِه، إلى أنْ هَلكَ السُّلطان آخرَ تِسع وخمسين.

وملك أبو حَمُّو بن يُوسُف بن عبد الرّحمن تِلِمْسان من يد بني مَرِين، واستدعى الشّرِيفَ من فاس، فسرَّحه القائم بالأمر، يومئذٍ، الوزير عَمَرَ بن عبد الله، فانطلق إلى تِلِمْسان، وتلقّاه أبو حَمّو براحتَيه، وأصهرَ له في ابنتِه، فزوّجها إيّاه، وبَنَى له مدرسةً، جعل في بعضِ جوانِبها مَدْفَن أبيه وعمِّه، وأقام الشّرِيفُ يُدَرِّس العلمَ إلى أنْ هلكَ سنةَ إحدى وسبعين. وأخبرني، رحمَه الله، أنّ مَولدَه سنة عَشْرٍ.

ومنهم؛ صاحبنا، الكاتب، القاضي، أبو القاسِم مُحمَّد[1] بن يَحْيَى البَرْجيّ، من بَرْجَة الأنْدَلُس، كان كاتبَ السُّلطان أبي عِنَان، وصاحبَ / الإنشاء والسِّرّ في دولته، [331 ب] وكان مختصّاً به، وأثيراً لديه؛ وأصلُه من بَرْجَةِ الأنْدَلُس، نشأ بها، واجتهَد في العِلم والتَّحصيل، وقرأ، وسَمِعَ، وتفقّه على مَشْيَخة الأنْدَلُس، واستبحَر في الأدبِ، وبرَّزَ في النَّظْمِ والنَّثْرِ، وكان لا يُجارَى في كرم الطِّباع، وحُسْن المعاشَرةِ، ولِين الجانبِ، وبَذْل

(1) آيا صوفيا: لم

البِشر والمعروف. وارتحَل إلى بجَايَة في عشرِ الأربعين والسّبعمائة، وبها الأميرُ أبو زَكَريّاء ابن السُّلْطان أبي يَحْيَى، منفرداً[أ] بملكِها، على حينَ أقفرَتْ من رَسْمِ الكتابة والبَلاَغة، فبادَرَ[ب] أهل الدَّوْلَة إلى اصطفائِه، وإيثاره بخُطَّة الإنشاء، والكتابة[ج] عن السُّلْطان؛ إلى أنْ هلكَ الأميرُ أبو زَكَريّاء، ونُصِبَ ابنه مُحَمَّد مكانَه، فكتَب عنه على رَسْمه؛ ثمّ هلكَ السُّلْطان أبو يَحْيَى، وزَحَف السُّلْطان أبو الحسَن إلى إفْريقِيَّة، واستولى على بِجَايَةَ، ونقل الأمير مُحَمَّداً بأهله وحاشيته إلى تِلِمْسان، كما تقدّم في أخباره. فنَزَل أبو القَاسم البَرْجِيّ تِلِمْسان، وأقام بها، واتَّصل خبرُه بأبي عِنَان ابن السُّلْطان أبي الحسن، وهو يومئذٍ أميرُها، ولقيَه فوقَع من قلبه بمكان، إلى أنْ كانت واقِعةَ القَيْرَوَان.

وخَلع أبو عِنَان، واستبدَّ بالأمرِ، فاستكتبه، وحَمَله معه إلى المَغرب، ولم يَسْمُ به [إلى][د] العَلاَمَةِ، لأنّه آثرَ بها مُحَمَّد بن أبي عَمْرو؛ بما كان أبوه يعَلّمه القرآنَ والعِلمَ، ورَبِيَ مُحَمَّد بدارِه، فولاّه العَلاَمة، والبَرْجِيُّ مُرادفٌ له في رياسته، إلى أنْ انقرضوا جميعاً. وهلكَ السُّلْطان أبو عِنَان، واستولى أخوه أبو سَالم على مُلْك المَغرِب، وغلبَ ابنُ مَرزوق على هَواه كما قدّمناه، فنقَل البَرْجِيّ من الكِتابة، واستعمله في قضاءِ العسَاكِر؛ فلم يزَلْ على القَضاءِ إلى أنْ هلك سنة [...][هـ] وثمانين. وأخبرني، رحمه الله، أنَّ مولده سَنَةَ عشر.

(أ) آيا صوفيا: منفرد (ب) ظ، آيا صوفيا: فبادرت (ج) أ، آيا صوفيا: والكتاب، وكانت كذلك في ظ ثم أصلحها (د) ظ: في
(هـ) بياض في ظ، أ، آيا صوفيا قدر كلمة، ولم يذكر ابن الخطيب - وقد ترجم له - سنة الوفاة. انظر الإحاطة 2: 293

ومنهم: شيخُنا المُعَمَّر الرَّحّالة أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الرَّزّاق، شيخُ وقته، جلالَةً، [وقَدْراً][أ]، وتربيةً، وعلماً، وخِبرةً بأهل بلدِه، وعظمةً فيهم. نشأ بفَاس، وأخذ عن مَشْيختها، وارتحلَ إلى تُونس، فلقِي القاضيَ أبا إسْحاق بن عبد الرَّفيع، والقاضيَ أبا عبد الله / النَّفْزَاويّ، وأهلَ طبقتِها، وأخذَ عنهم، وتفقَّه عليهم، ورجعَ إلى [332أ] المَغْرِبِ، ولازَم سَنَن الأكابِر والمشايخ، إلى أنْ ولأه السُّلْطان أبو الحَسَن القَضاء بمدينةِ فاس، فأقام على ذلك، إلى أنْ جاءَ السُّلْطان أبو عِنَان من تِلِمْسان، بعد واقعة القَيْروان، وخَلْعِه أبيه[ب]، فعزلَه بالفقيه أبي عبد الله المَقَّرِيّ[ج]، وأقام عُطلاً في بيتهِ.

ولمّا جمعَ السُّلْطان مَشْيَخَة العلم للتَّحليق بمجلسِه، والإفادة منهم، استدعى شيخَنا أبا عبدِ الله بن عبد الرَّزّاق؛ فكان يأخذُ عنه الحَديثَ، ويقرأ عليه القرآن برواياته، في مجلس خاصّ إلى أنْ هلك، رحمه الله، بين يدي مَهْلِك السُّلْطان أبي عِنَان.

إلى آخرين وآخرين، من أهل المَغرِبِ والأنْدَلُس، كلُّهم لقيتُ، وذاكرتُ، وأفدتُ منه، وأجازني بالإجازة العامّة.

حُدوثُ النَّكبة من السُّلْطان أبي عِنَان

كان اتّصالي بالسُّلْطان أبي عِنَان، آخر ستٍّ وخمسين؛ وقرَّبني وأدناني، واستعملني في كتابته، واختصَّني بمجلسه للمناظرة والتَّوقيع عنه، فكثُر المنافسون

(أ) ساقطة من ظ وأشار بمخرج في آيا صوفيا لكنه لم يضعها (ب) ظ، أ، آيا صوفيا: أباه (ج) في آيا صوفيا: القاف ساكنة

وارتفعت السّعايات، حتّى [تكدّر](أ) جوّي عنده، بعد أن كان لا يُعبّر عن صفائه؛ ثمّ اعتلّ السُّلطان آخرَ سبع وخمسين، وكانت قد حصلت بيني وبين الأميرِ مُحَمّد صاحب بِجَاية من المُوَحّدين مداخلة، أحكمها ما كان لسلَفي في دولتهم، وغفلتُ عن التحفُّظِ في مثل ذلك، من غَيْرة السُّلطانِ، فما هو إلاّ أن شُغل بوجَعِه، حتّى أُنمي إليه بعض الغُواةِ، أنّ صاحبَ بجاية، مُعتمِلٌ في الفِرار ليَسترجِع بَلَده، وبها يومئذٍ وزيرُه الكَبير عبد الله بن علي؛ فانبعث السُّلطان لذلك، وبادر بالقَبْضِ عليه. وكان فيما أُنمِي إليه، أني داخلتُه في ذلك، فقبض عليَّ، وامتَحنني، وحبَسني، [وذلك في ثامنَ عشرَ صفر، سنةَ ثمانٍ وخمسين](ب). ثمّ أطلق الأمير مُحَمّداً، وما زلتُ أنا في اعتقالِه، إلى أنْ هلك.

وخاطبتُه، بين يديْ مَهْلِكه، مستعطِفاً بقصيدةٍ، أوّلُها: [من الطّويل]

علـى أيِّ حَـالٍ لليالـي أعاتِـبُ ... وأيَّ صُرُوفٍ للزّمـان أُغالـبُ
كفَى حَزناً أنّـي على القُـرْبِ نـازحٌ ... وأنّي علـى دعْـوى شُـهُودِيَ غائِـبُ
وأنّـي علـى حكْـم الحـوادثِ نـازلٌ ... تسالمنـي طَـوْراً وطَـوْراً تُحـارِبُ

[332 ب] / ومنها في التّشوُّق:

سَلوْتُهُـمُ إلاّ ادّكـارَ مَعاهِـدٍ ... لها في اللّيـالي الغـابرات غَرائـبُ
وإنّ نسيـمَ الرّيـح منهـم يَشوقُنـي ... إليهم، وتُصْبيني [البُروق اللّواعبُ](ج)

وهي طويلة، نحو مائتَيْن بيتاً، ذهبت عن حِفظي، فكان لها منه مَوْقع، وهَشّ

(أ) ساقطة من ظ (ب) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ج) في متن ظ: الصبا والجنائب، وكتب في الهامش ما هو مثبت

لها، وكان بتِلِمْسان، فوعَد بالإفراج عنّي عند حلوله بفَاس. ولخمسِ ليالٍ من حُلوله؛ طرقَه الوجَع، وهلك لخمسَ عشرةَ ليلةً، في رابع عِشري(أ) ذي الحجّة، خاتم تسع وخمسين، وبادر القائم بالدَّوْلَة، الوزير الحسن بن عُمَر، إلى إطلاق جماعة من المُعتقَلين، كنتُ فيهم، فخلعَ عليّ، وحملني، وأعادني إلى ما كنت عليه، وطلبتُ منه الانصرافَ إلى بلدي، فأبَى عليّ، وعاملني بوجوه كرامتِه، ومذاهبِ إحسانِه، إلى أن اضطَرب أمرُه، وانتقضَ عليه بنو مَرين، وكان ما قدَّمناه في أخبارِهم.

الكتابةُ عن السُّلطان أبي سالم في السِّرِّ، والإنْشاء

ولمَّا أجاز السُّلطان أبو سالم من الأنْدَلُس لطلب مُلكِه، ونزَل بجَبَل الصَّفيحَة من بلاد غُمارة، وكان الخطيب ابن مَرْزوق بفاس، فبثَّ دعوتَه سرّاً، واستعان بي على أمرِه، بما كان بيني وبين أشياخ بَني مَرين من المحبَّة والائتلاف، فحملتُ الكثيرَ منهم على ذلك، وأجابوني إليه، وأنا، يومئذٍ، أكتبُ عن القائم بأمر بَني مَرين، مَنصورِ بن سُلَيمان بن مَنصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عَبد الحقّ، وقد نَصبوه للمُلْك، وحاصروا الوزيرَ الحسنَ بن عُمَر، وسلطانَه السَّعيدَ بن أبي عِنَان، بالبلد الجديدِ، فقصَدني ابنُ مَرْزوق في ذلك، وأوصل إليَّ كتاب السُّلطان أبي سَالم، بالحضّ على ذلكَ، وإجمال الوَعْدِ فيه، وألقى عليَّ حِمْله، فنَهضت به، وتقدّمتُ إلى شيوخ بَني مَرين، وأمراء الدَّوْلَة، بالتّحريض على ذلك، حتَّى أجابوا؛ وبعث ابنُ مَرزُوق إلى الحَسَن بن عُمَر، يدعو إلى طاعة السُّلطان أبي سَالم، وقد ضَجِر من الحصارِ، فبادرَ

(أ) آيا صوفيا: رابع وعشري

إلى الإجابةِ، واتّفق رأيُ بَني مَرِين على الانفضاضِ عن مَنصور بن سُلَيمان، والدّخول إلى البلد الجديد؛ فلمّا تمّ عَقْدُهم على ذلك، نزعتُ إلى السُّلْطان أبي سالم في طائفةٍ من وُجوه أهل الدَّوْلَة، كان منهم مُحَمَّد بن عُثْمان بن الكاس، المستبدّ، بعدَ ذلك، بمُلك / المغرب على سلطانِه، وكان ذلك النُّزوع مبدأ حَظّه، وفاتحةَ رياسته، [333 أ] بسِعايتي له عند السُّلْطان؛ فلمّا قدِمتُ على السُّلْطانِ بالصَّفيحَة، بما عِندي من أخْبار الدَّوْلَةِ، وما أجمعوا عليه من خَلْع مَنصور بن سُلَيمان، وبالموعد الّذي ضَربوه لذلك، واستحثثتُه فارْتحل، ولقِيَنا البشيرُ بإجْفال منصور بن سُلَيمان، وفراره إلى نواحي بادِس[أ]، ودخول بَني مَرِين إلى البلد الجديد، وإظهار الحسن بن عُمَر دَعوةَ السُّلْطان أبي سالم.

ثمّ لقِيَتْنا، بالقَصْر الكبير، قبائلُ السُّلْطان وعساكره على راياتهم، ووزيرُ مَنصورِ ابن سُلَيمان، وهو مَسْعود بن رَحُّو بن مَاسَايْ؛ فتلقّاه السُّلْطان بالكرامةِ كما يجب[ب] له، واستوزره نائباً[ج] للحسَن بن يُوسُف بن علي بن مُحَمَّد الوَزتاجَنّيّ السّابق إلى وزارته، لَقِيَه بسَبْتَة، وقد غرَّبه مَنصور بن سُلَيمان إلى الأنْدَلُس، فاستوزَره واستكفاه.

ولمّا اجتمعت العساكرُ عندَه بالقَصْر، صَمَد إلى فاس، ولقيَه الحسن بن عُمَرَ بظاهرها، فأعطاه طاعته، ودخل إلى دار مُلكه وأنا[د] في رِكابه، لخمسَ عشْرَةَ ليلةً من نزوعي إليه، مُنتَصَفَ شعبانَ، ستين وسبعمائة؛ فرعى لي السّابقةَ، واستعملني في كتابةِ سِرّه، والتّرسيلِ عنه، والإنشاء لمخاطباته، وكان أكثرها يَصدُر عني بالكلام

(أ) آيا صوفيا: بادس (ب) ظ: يحب، ومهملة في أ (ج) آيا صوفيا: كاتباً (د) ظ: وأنا

المُرَسّل، [دون](أ) أن يُشاركَني أحدٌ ممَّن ينتحلُ الكتابةَ في الأسجاعِ، لضَعف انتحالِها، وخفاء العالي منها على أكثرِ النّاس، بخلاف المرسل، فانفردت به، يومئذٍ، وكان مستَغرَباً، عندَهم، بين أهل الصّناعة.

ثمّ أخذتُ نفسي بالشّعر، فانثال عليّ منه بحورٌ، توسّطت بين الإجادة والقصور، وكان ممّا أنشدتُه إيّاه، ليلةَ المولد النبويّ، من سنة ثنتَين وستِّين[1]: [من الكامل]

أسرَفْن(ب) في هَجْري وفي تَعْذيبي ... وأطَلْنَ موقفَ عَبْرَتي ونَحيبي
وأبَيْنَ يومَ البيْـن وقفَةَ ساعةٍ ... لوَداع مَشغوف الفؤاد كئيبِ
لله عهـدُ الظّاعنيــن وغـادرُوا ... قلبي رَهـينَ صَبابةٍ ووجيـب
غَرَبَت ركائبُهـم ودمعيَ سافِـحٌ ... فـشرِقَت، بعدَهُمُ، بماء غُروبِ
يـا ناقعـاً بالعَتْـبِ غُلّةَ شَوْقهم ... رُحْـماكَ في عَـذْلي وفي تـأنيبي
/ يَستعذِب الصَّبُّ المَلامَ وإنني ... ماءُ المَلام لـديَّ غيـر شَـرُوبِ [333 ب]
ما هاجَني طرَبٌ ولا اعتاد الجَوَى ... لـولا تـذكُّر مَـنزِلٍ وحَبيـبِ
أهفُو إلى الأطلال كانت مَطْلعاً ... للبَدْر منهم أو كِناسَ رَبيبِ(ج)
عَبِثَت بها أيدي البِلَى وتَرَدّدت ... في عِطفِها للدّهر أيُّ خُطوبِ!
تَبلَـى مَعاهدُهـا وإنَّ عُهودَهـا ... ليُجِدُّها وَصْفي وحُسْنُ نَسيبي
وَإذا الدّيــار تعرَّضــت لمُتيَّمٍ ... هزَّتـه ذِكراهـا إلـى التَّشبيـب

(أ) زيادة يقتضيها السياق (ب) آيا صوفيا: أشرفن (ج) ظ، آ، آيا صوفيا: زبيب، والربيب: ولد الظبي

(1) أورد ابن الخطيب القصيدة بتمامها في الإحاطة 3: 508.

إيهٍ [عن][أ] الصّبر الجميل فإنّه ... ألوَى بـدَيْنِ فؤادِيَ المنهوبِ

لم أنسَنا والدّهرُ يَثني صَرفَه ... ويَغُضُّ طَرْفَيْ حاسدٍ ورَقيبِ

والدّارُ مُونِقة [محاسنها][ب] بما ... لبِسَتْ من الأيام كلَّ قَشِيبِ

يا سَائقَ الأظعانِ يعتَسِفُ الفَلاَ ... ويُواصِل الإسْآدَ بالتَّأويبِ

مُتَهافتاً عن رَحلِ كلِّ مُذَلَّلٍ ... نَشوانَ من أيْنٍ ومَسِّ لُغوبِ

تَتَجاذبُ النَّفحاتُ فَضْلَ رِدَائه ... في مُلتقاها من صَباً وجَنُوبِ

إنْ هامَ من ظَمأ الصَّبابة صَحْبُه ... نَهَلوا بمَوْرِد دَمعِه المسكُوبِ

أو تَعترِضْ مَسْراهمُ سُدَفُ الدُّجى ... صدَعوا الدُّجَى بغرامِه المشبُوبِ

في كلِّ شِعْبٍ مُنْيةٌ مِن دُونِها ... هَجْر الأماني أو لِقاء شَعُوبِ

هلاَّ عطفتَ صُدورهنّ إلى التي ... فيها لُبانَة أعيُنٍ وقُلوبِ

فتَؤمَّ من أكْناف يثرِبَ مَأمَناً ... يكفيك ما تَخشاه من تَثْرِيبِ

حَيثُ النُّبُوَّةُ آيُها مَجلوَّةٌ ... تتلو من الآثار كلَّ غريبِ

سِرٌّ عجيبٌ لم يُحَجِّبه الثرَى ... ما كان سرُّ الله بالمَحجوبِ

ومنها بعدَ تعديد معجزاته، والإطناب في مَدْحِه:

إنّي دعوتُك واثقاً بإجابتي ... يا خيرَ مَدعُوٍّ وخيرَ مُجيبِ

قصَّرتُ في مَدحي فإن يَكُ طيِّباً ... فبما لِذِكْرِك من أريجِ الطِّيبِ

[334أ] /ماذا عسَى يَبغي المُطيل وقد حوى ... في مدحك القرآنُ كلَّ مَطِيبِ

(أ) ظ: على (ب) ساقطة من ظ

يا هَل تُبلِّغنـي اللَّيالــي زَوْرَةً   تُـدني إليّ الفــوزَ بالمَرغــوبِ
أمحُو خطيئاتي بإخلاصـي بها   وأحُـطّ أوزاري وإصْرَ ذُنـوبِي
في فِتْيـةٍ هجَروا المُنـى وتَعوَّدوا   إنــضاء كلّ نَجيبــةٍ ونَجيــبِ
يَطوِي صحَائفَ ليلِهم فوقَ الفَلا[أ]   ما شئتَ من خَبَبٍ ومن تقْريـبِ
إن رنَّـم الحـادي بذكـركَ ردَّدوا   أنفاسَ مُشتاقٍ إليك طروبِ
أو غـرَّد الرَّكْـبُ الخَلِيُّ بطَيْبـةٍ   حَنُّـوا لمَغناهـا حَنِـينَ النّيـبِ
ورِثوا اعتِساف البيد عن آبائهم   إرثَ الخِلافـة في بَـني يَعقُـوبِ
الطّاعنون الخيلَ وهـي عوابسٌ   يغـشى مُثَـارُ النَّقْـع كلَّ سَـبِيبِ
والواهبون المُقْرَبَـاتِ صَوافِنــاً   مـن كلِّ خـوَّار العِنَـان لَعُـوبِ
والمانعـون الجـارَ حتَّـى عرضُـه   في مُنتدى الأعداء غيرُ مَعيبِ
تُخشَى بوادرُهـم ويُرجَى حِلمُهُم   والعـزُّ شِيمـةُ مرتَجــىً ومهيـبِ

ومنها في ذكر إجازتِه البحر، واستيلائه على مُلكه:

سائل به طامِي العُباب وقد سرَى   تُزجيه ريحُ العـزم ذاتُ هُبـوبِ
تَهديـه شُهْـب أسِنَّـةٍ وعزائــم   يصدَعْن ليلَ الحـادثِ المرهُـوبِ
حتَّى انجَلت ظُلَمُ الضَّلال بسعْيه[ب]   وسـطا الهدى بفريقهـا المغلـوبِ
يابن الأُلى شادوا الخلافةَ بالتُّقى   واسـتأثروك بتاجهـا المَعصوبِ
جمعوا لِحفْظ الدِّين أيَّ مناقبٍ   كَرُمـوا بهـا في مَـشهدٍ ومَغِيـبِ

(أ) ظ، أ: القَلا، آيا صوفيا: الفل، والمثبت من الإحاطة 3: 510   (ب) ظ: بسيفه

لله مَجدُك طارفاً أو تالـــداً   فلقد شهدنا منه كلَّ عَجيبِ
كم رهبةٍ أو رغبةٍ بك والعُلَى   تُقتاد(أ) بالترغيب والترهيبِ
لا زلتَ مسروراً بأشرفِ دَوْلةٍ   يبدو الهُدى من أُفقها المَرقوبِ
تُحيي المعاليَ غادياً أو رائحـــاً   وحَديدُ سَعدِك ضَامنُ المطلوبِ

[334 ب] / ومن قصيدةٍ خاطبتُه بها عند وصول هَدِيةِ مَلِكِ السُّودان إليه، وفيها الحيوانُ الغريبُ المسمَّى بالزَّرَافةِ(1): [من الكامل الأحذّ]

قَدحَتْ يدُ الأشواق من زَنْدِي   وهفـتْ بقَلبي زَفْـرَةُ الوجْـدِ
ونبـذتُ سُلـواني علـى ثقـةٍ   بالقُـرب فاسـتبدلتُ بالبُعْـدِ
ولــرُبَّ وَصْـلٍ كنتُ آمُلُه   فاعتَضْـتُ منـه بمُؤلِم الصَّدِّ
لا عَهـدَ عنـد الصَّبـر أطلبهُ   إنّ الغـرامَ أضـاع مـن عهـدِي
يلحَـى العَـذُولُ(ب) فمـا أعنِّفُـه   وأقـول ضـلَّ؛ فـأبتَغِي رُشْـدِي
وأعـارضُ النفَحـاتِ أسألهـا   بَـرْد الجَـوَى فتزيـدُ في الوَقْـدِ
يَهْـدي الغـرامُ إلـى مسالكها   لـتَعلُّلي بـضعيفِ مـا تُهْـدي
يـا سائـقَ الأظعـان مُعتَسِفاً   طَـيَّ الفَـلاة لِطيَّـة الوجْـدِ
أرِحِ الرِّكـابَ ففـي الصَّبا نبأٌ   يُغـنِي عـن المُـسْتَنَّة الجُـرْدِ
وسَـلِ الرُّبـوعَ برامـةٍ خَبـراً   عـن ساكِنـي نَجْـدٍ وعـن نَجْـدِ

(أ) ظ: تعتاد   (ب) آيا صوفيا: العدول

(1) القصيدة في الإحاطة 3: 511

ما لي تُلام على الهوى خُلُقِي   وهْي التي تأبى سِوى الحَمدِ
لأبَيتُ إلاّ الرُّشدَ مُذْ وَضَحتْ   بالمُستَعِينِ معَالمُ الرُّشدِ
نِعمَ الخليفةُ في هُدىً وتُقىً   وبناءِ عزّ [شامخ الطَّوْدِ](أ)
نجلُ السَّراةِ الغُرّ شأنُهمُ   كسب العُلا بمواهِبِ الوُجْدِ

ومنها في ذكر خلوصي إليه، وما ارتكبتُه فيه:

للهِ مِنّي إذ تأوَّبَني   ذِكراه وهْو بشاهقٍ فَرْدِ
شهمٌ يَفُلُّ بواتِراً قُضُباً   وجُموعَ أقيالٍ أولي أيْدِ
أورَيْتُ زَنْدَ العَزْمِ في طَلَبي   وقضيتُ حقَّ المجدِ من قصدِي
وورَدتُ، عن ظَمَأٍ، مناهِلَهُ   فرَوِيتُ من عِزّ ومن رِفْدِ
هي جَنَّةُ المأوى لمن كلِفَتْ   آمالُه بمطالبِ المجدِ
/ لَوْ لَم أُعَلَّ بورْدِ كوثرِها   ما قلتُ هَذِي جَنَّةُ الخُلْدِ [335أ]
مَن مُبلِغٌ قومي ودونَهمُ   قُذُفُ النوَى وتَنُوفَةُ البُعْدِ
أنِّي أنَفْتُ على رجائهمُ   وملكتُ عِزَّ جميعِهم وَحْدي
ورقيمةِ الأعْطافِ حاليةٍ   مَوشِيّةٍ بوشائعِ البُرْدِ
وَحْشِيةِ الأنسابِ ما أنِسَتْ   في مُوحِشِ البَيْداءِ بالقَوْدِ
تَسمُو بجيدٍ بالِغٍ صعَداً   شرفَ الصُّرُوحِ بغَيرِ ما جَهْدِ
طالت رؤوسَ الشَّامِخاتِ بهِ   ولربَّما قصُرَت عنِ الوهْدِ

(أ) مكان ما بين الحاصرتين بياض في ظ

قطعَت إليك تنائفاً وَصَلتْ ... إسْآدها بالنَّصِّ والوَخْدِ

تَخْدِي[أ] على استِصْعابِها[ب] ذُلُلاً ... وتَبِيتُ طَوْعَ القِنِ والقِدِّ

بسُعودك اللائي[ج] ضَمِنَّ لنا ... طولَ الحياة بعِيشة رَغْدِ

جاءتْك في وَفْدِ الأحابِش لاَ ... يَرجُون غَيرك مُكْرِمَ الوَفْدِ

وافَوْك أنضاءَ تُقَلّبُهُم[د] ... أيْدِي السُّرَى بالغَوْر والنَّجْدِ

كالطَّيْف يسْتَقْرِي مضاجِعَه ... أو كا[لحُسام][هـ] يُسَلُّ من غِمْدِ

يُثْنُون بالحُسنَى التي سبقَت ... مِن غير إنكارٍ ولاَ جَحْدِ

ويرَوْن لحظَك مِن وِفَادتِهم ... فخراً على الأتراكِ والهِنْدِ

يا مُستعيناً جَلَّ في شَرَفٍ ... عن رُتبةِ المَنصورِ والمَهْدِي

جازاك ربُّك عن خليقته ... خيرَ الجزاء فنِعْم ما يُسْدِي[و]

وبقيتَ للدُّنيا وساكِنِها ... في عِزَّةٍ، أبداً وفي سَعْدِ

وأنشدته في سائِر أيّامه غير هاتين القصيدتين كثيراً، لم يحضُرني الآن شيء منه.

ثمّ غَلب ابن مرزوق على هَواه، وانفرد بمُخالطته، وكبَح الشّكائمَ عن قُربه، فانقبضتُ، وقصَّرتُ الخَطْو، معَ البقاءِ على ما كنتُ فيه من كتابةِ سرِّه، وإنشاء مخاطباتِه ومراسِمه.

[335 ب] ثمّ ولاّني، آخرَ الدَّوْلَةِ خُطَّةَ المَظالم، فوفَّيتُها / حَقّها، ودَفعت للكثيرِ ممّا أرجو

(أ) آيا صوفيا: تحدي (ب) ظ، أ، آيا صوفيا: استصعانها (ج) ظ، أ: اللاتي (د) أ: تقبلهم (هـ) ما بين الحاصرتين بياض في ظ، وفي أ، وآيا صوفيا: كالحام، والمثبت من الإحاطة (و) ظ: تُسدي، ومهملة في أ وآيا صوفيا

ثوابه، ولم يزلْ ابنُ مَرزوق آخذاً في سِعايته بي وبأمثالي من أهل الدَّوْلَة، غَيْرَةً ومُنافَسةً، إلى أنْ انتقض الأمرُ على السُّلْطانِ بسببه، وثار الوزيرُ عُمَرُ بن عبد الله بدار المُلْك، فصار إليه النّاسُ، ونَبذوا السُّلْطان وبيعَتَه، وكان [في][أ] ذلك هَلاكُه، على ما ذكرناه في أخبارِهم.

ولمّا قام الوزير عُمَرُ بالأمر، أقَرَّني على ما كنتُ عليه، ووفَّر إقطاعي، وزاد في جِرايتي؛ وكنت أسمو، بطُغيان الشَّباب، إلى أرفعَ مِمّا[ب] كنتُ فيه، وأُدِلّ في ذلك بسابقة مودَّةٍ معه، منذ أيّامِ السُّلْطان أبي عِنَان، وصِحَابةٍ استَحكَمَ عَقْدُها بَيْني وبينَه، وبين الأمير أبي عبد الله، صاحب بِجَايَة، فكان ثالثَ أثافينا، ومَصقلَةَ فُكاهتِنا، واشتدَّت غيْرة السُّلْطانِ لذلك، كما مرّ، وسَطا بنا، وتغافل عن عُمَرَ بن عبد الله لمكان أبيه من ثغْر بِجاية؛ ثمّ حَملني الإدْلال عليه أيّامَ سلطانه، وما ارتكَبه في حقّي من القصور بي عمّا أسمُو إليه، إلى أن هجرتُه، وقعدتُ عن دارِ السُّلْطان مُغاضِباً له، فتنكَّر لي، وأقطَعني جانباً من الإعراض، فطلبتُ الرِّحلةَ إلى بَلدي بإفْريقِيَّة، وكان بنو عَبْد الوَاد قد راجَعوا مُلْكَهم بتِلمْسان والمغرب الأوْسط، فمنعَني من ذلك؛ أن يغتبط أبو حَمُّو، صاحبُ تِلِمْسان بمكاني، فأُقيم عندَه[ج]، ولجَّ في المَنْعِ من ذلك، وأبيْتُ أنا إلاّ الرِّحلة؛ واستجَرت في ذلكَ برَديفهِ وصهره، الوزير مَسْعود ابن رَحُّو بن مَاسَايْ، ودخلتُ عليه يومَ الفِطْرِ سنةَ ثلاثٍ وستِّين، فأنشدتُه[1]: [من الطويل]

(أ) ساقطة من ظ (ب) ظ: ما (ج) مكررة في آيا صوفيا

---

(1) أورد المَقَّري (نفح الطيب 6: 187) القصيدة بتمامها، وفيها زيادة على ما أورده ابن خلدون.

هَنيئاً بصومٍ لا عَداه قَبولُ ... وبُشرَى بِعيدٍ أنت فيه مُنيلُ

وهُنِّئتَها من عِزَّةٍ وسَعادةٍ ... تتابَعُ أعوامٌ بها وفُصولُ

سقَى الله دَهْراً أنت إنسانُ عينِهِ ... ولا مسَّ ربْعاً في حِماكَ مُحُولُ

فعصرُك ما بينَ الليالي مواسِم ... لها غُررٌ وضَّاحة وحُجُولُ

[336 أ] /وجانبكَ المأمولُ للجود مَشرَعٌ(أ) ... يَحُومُ(ب) عليه عالمٌ وجَمُولُ

عَساكَ، وإن ضَنَّ الزَّمان، منوِّلي ... فرسْمُ الأماني من سِواكَ مُحيلُ

أجِرْني فليسَ الدَّهرُ لي بمُسالمٍ ... إذا لم يكُنْ لي في ذُراك مَقيلُ

وأَوْلِنِيَ(ج) الحُسْنَى بما أنا آملٌ ... فمثلُك يُولِي راجياً ويُنيلُ

ووَالله ما [رُمت](د) التَرحُّل عن قِلىً ... ولا سَخْطَةً للعيْش فهْو جزيلُ

ولا رغبَةً عن هذه الدّار إنّها ... لَظِلّ على هذا الأنام ظَليلُ

ولكن نأى بالشِّعْب عنّي حبائبٌ ... شجاهنَّ خَطْب للفِراق طويلُ

يَهيج بهنَّ الوَجْدَ أنّي نازحٌ ... وأنّ فؤادي حيث هن حُلولُ

عزيزٌ عليهن الذي قد لقيتُه ... وأنّ اغترَابي في البلاد يطولُ

تَوارثُ بأنبائي البقاعُ كأنّني ... تُخُطِّفتُ، أو غالت رِكابِيَ غُولُ

ذكرْتُك يا مَغْنَى الأحبَّة والهوَى ... فطارت بقلبي أنَّةٌ وعَويلُ

وحَيَّيْتُ عن شوقٍ رُباكَ كأنما ... يُمثِّل لي نؤْيٌ بها وطلولُ

أأَحبابَنا والعهدُ بيني وبينَكم ... كريمٌ وما عهد الكريم يحولُ

(أ) ظ، أ: مترع (ب) ظ: نجوم (ج) ظ، أ، آيا صوفيا: وأوليني (د) ظ: نلت

إذا أنا لم تُرضِ الحمولَ مدامعي ... فـلا قـرَّبتْني للقـاء حمـولُ
إلامَ مُقامي حيثُ لم تُرِدِ العُلى ... مُـرادِي ولـم تُعـطِ القيادَ ذَلولُ
أُجاذبُ فضلَ العُمْر يوماً وليلةً ... وسـاءَ صـباحٌ بينهـا وأصـيلُ
ويذهبُ بي ما بين يأسٍ ومَطمَعٍ ... زمـانٌ بنَيْـل المعلْـوَات(أ) بخيـلُ
تُعلّلنـي عنــه أمـانٍ خـوادعٌ ... ويؤنسُنـي لَيّانُ منه مَطـولُ
أمَـا لليالـي لا تـردُّ خطوبَهـا ... فَفي كِبِـدي مـن وقْعهنَّ فُلولُ
يروّعُني من صرفها كلُّ حادث ... تـكاد له صُمُّ الجبـال تـزولُ
أُداري، على الرّغم(ب)، العِدَى لا لِريبةٍ ... يـصانعُ واشٍ خوفَهـا وعَـذولُ
وأغـدُو بأشجانـي عليـلاً كأنّمـا ... تجـود بنفـسي زفـرة وغَليـلُ
/وإني، وإن أصبحت في دار غربةٍ، ... تُحيل الليالي سلْوتيَ(ج) وتُديلُ [336 ب]
وصَدّتْنيَ الأيّامُ عن خيرِ منزلِ ... عهِدت بـه أن لا يُضَام نزيـلُ
لأعلم أنّ الخيـرَ والشـرَّ ينتهي ... مَـداه وأنّ الله سـوف يُـدِيلُ
وأَني عزيزٌ بابن مَاسَايَ مُكْثِـرٌ ... وإن هـان أنصارٌ وبـان خَليـلُ

فأعانني الوزير مسعود عليه، حتّى أذِن لي في الانطلاق على شَرِيطة العُدول عن تِلِمْسان، في أيّ مذهب أردتُ، فاختَرت الأنْدَلُس، وصرفت ولَدِي وأُمَّهم إلى أخوالهم، أولادِ القائد مُحَمَّد بن الحكيم بقُسَنْطِينَة، فاتحَ أربع وستّين، وجعلتُ أنا طَريقي على الأنْدَلُس، وكان سُلْطانُها أبو عبد الله المَخلوع، حينَ وفَد على السُّلْطان

(أ) آيا صوفيا: نبيل للعلوات (ب) ظ: رغم (ج) ظ، أ: سلوة

أبي سالم بفاس، وأقام عندَه، حصلت لي معه سَابقةٌ، وصِلَة ووسيلة خِدمة، من جهة وزيره[أ] أبي عبد الله ابن الخَطيب، وما كان بَيني وبينَه من الصّحابة؛ فكنتُ أقومُ بخدمته، وأعتَمل في قضاء حاجاته في الدَّولَةِ. ولمّا أجازَ، باستدعاء الطَّاغية، لاسترجاع مُلكه، حين فسَد ما بينَ الطّاغية وبينَ الرّئيس المتوثّب عليه بالأندَلُس من قَرَابته، خَلَفْتُه فيمن تَرَك من عِياله وَولَـدِه بفاس، خيرَ خَلَف؛ في قضاء حاجَاتِهم، وإدْرار أرْزاقهم، من المُتَولِّين لها، والاستِخدام لهم. ثمّ فسدَ ما بينَ الطّاغية وبينَه، قبل ظَفَرِه بمُلكه، برُجُوعه عمّا اشترَطَ لَه؛ من التَّجافِي عن حُصون المُسلمين التي تَمَلّكها بإجْلابه، ففارَقَه إلى بَلدِ المُسلمين، ونَزل بأَسِجَة[ب]، وكتب إلى عُمَرَ بن عبد الله، يطلب مِصْراً يَنْزِلُه من أمصارِ الأندَلُس الغربيّة، التي كانت رِكاباً لمُلوك المَغْرِب في جِهادِهم، وخاطَبني أنا في ذلك، فكنتُ له نِعْم الوَسيلَة عندَ عُمَرَ، حتّى تمّ قصدُه من ذلك، وتَجافَى له عن رُنْدَة وأعمالِها، فنزَلها، وتملّكها، وكانت دارَ هِجْرته، وركابَ فَتْحه؛ ومَلَك منها الأندَلُس أواسطَ ثلاثٍ وستّين؛ واسْتوحَشتُ أنا من عُمَرَ إثرَ ذلك، كما مرَّ، وارتَحَلتُ إليه، / معوِّلاً على سوابقي عندَه، فغرَّب في المكافأة، كما نَذكُر. [337 أ]

الرِّحلةُ إلى الأنْدَلُس

ولمّا أجْمعتُ الرِّحلَةَ إلى الأندَلُسِ، بعثتُ بأهلي وولَدِي إلى أخوالهم بقُسَنْطِينَة،

(أ) بعدها في آيا صوفيا فراغ مقدار نصف صفحة تقريباً لكن السياق متصل (ب) قيدها في ظ، أ: بالجيم المشددة: أسِجّة، وقد تقدمت في هذا الجزء برسم: إستجة

وكتبتُ [لهم][أ] إلى صاحبِها السُّلطانِ أبي العبّاس، من حَفَدَة السُّلطان أبي يحيَى، وأنّي أمرُّ على الأندَلُسِ، وأُجيزُ إليه من هُنالكَ. وسِرتُ إلى سَبتَة، فُرْضَة المَجاز، وكبيرُها ـ يومئذٍ ـ الشّريف أبو العبّاس، أحمد بن أبي الشّرف الحُسَينيّ[1]، ذو النّسب الواضِح، السّالِم من الرّيبة عند كافّة أهل المَغرِب؛ انتقَل سَلَفُه إلى سَبتَة من صِقِلّيَة، وأكرَمَهم[ب] بنو العَزَفيّ أوّلاً، وصاهَروهم، ثمّ عظُم صيتُهم في البَلَدِ، فتنكَّروا لَهم، وَغرَّبَهم يحْيَى العَزَفيّ، آخرُهم، إلى الجزيرةِ، فاعترَضهم[ج] مَراكب النّصارى في الزُّقاقِ، فأسَرُوهم، وانتدب السُّلطان أبو سعيد إلى فِديتهم، رِعايَةً لشَرَفهم؛ فبعَث إلى النّصارى في ذلك، فأجابوه، وفادَى هذا الرّجلَ وأباه على ثلاثةِ آلافِ دينارٍ، ورجَعوا إلى سَبتَة، وانقرض بنو العَزَفيّ ودَولتهُم، وهَلَك والدُ الشّريف، وصار هو إلى رياسة الشُّورَى.

ولمّا كانت واقعة القَيْروان، وخلَع أبو عِنَان أباه[2]، واستولى على المَغرب، وكان بسَبتَة عبدُ الله بن علي الوزير، والياً من قِبَل السُّلطان أبي الحسن، فتمسّك بدَعْوته، ومال أهلُ البلد إلى السُّلطان أبي عِنَان، وبثّ فيهم الشّريف دَعوتَه، فثاروا بالوزيرِ وأخرجوه، ووَفَدوا على أبي عِنَان، وأمكَنوه من بلدِهم، فولّى عليها من عظماءِ دولتِهِ سعيدَ بن موسى العَجِيسيّ؛ كان كافِل تَربيته في صِغَرهِ، وأفرد هذا الشّريف برياسة الشُّورَى في سَبتَة، فلم يكنْ يُقطَع أمرٌ دونَه، ويفد على السُّلطانِ بعضَ

(أ) ساقطة من ظ (ب) أ: فأكرمهم (ج) آيا صوفيا: فاعترضتهم

(1) أثبته الطنجي (في نشرته للتعريف 83) نقلاً عن النسخ الأخرى: أحمد بن الشريف الحسني.
(2) انظر ما تقدم ص289.

الأيّام، فيلقاه من الكرامةِ بما لا يشارِكُه فيه أحدٌ من وفودِ المُلوكِ والعُظماء. ولم يَزَلْ على ذلك سائرَ أيّامِ السُّلطان وبعدَ وفاتِه. وكان مُعَظّماً، وَقورَ المجلس، هَشَّ اللّقاء، كريمَ / الوِفادةِ، متَحَلّياً بالعِلم والأدَبِ، منتحِلاً للشّعـر، غايةً في الكَرم وحُسْن العَهد، وسذاجة النّفسِ. [337 ب]

ولمّا مررتُ به سنةَ أربعٍ وستّين، أنزَلَني ببيْته إزاءَ المسجد الجامِع، وبلَوْت منه ما لا يقدِر مثلَه من المُلوكِ، وأركبَني الحَرّاقةَ ليلةَ سفري؛ يُباشر دَحْرَجتَها إلى الماءِ بيدِه، إغراباً في الفَضْل والمُساهَمة؛ وحَطَطتُ بجَبل الفتح، وهو يومئذٍ لصاحِب المغرب، ثمّ خَرجتُ منه إلى غَرْناطَةَ، وكتبتُ إلى السُّلطان ابن الأحْمَر وَوزيره ابن الخَطيب بشأني، وليلةَ بِتُّ بقرب غَرْناطَة على بَريدٍ منها، لقِيَني كتابُ ابنِ الخَطيبِ يُهَنّئني بالقُدومِ، ويؤنسُني، ونَصُّه[1]: [من الطويل]

حَللتَ[أ] حُلولَ الغيْثِ في البلَد المَحْلِ ... على الطّائر الميْمون والرَّحْبِ والسَّهْلِ
يَميناً بمَــن تَعْنُــو الوجــوهُ لوَجْهِــهِ ... من الشَّيْخ والطّفل المُهَدّإ والكَهْلِ
لقَـد نشـأَت عِنـدي للُقيـاك غِبطَـةٌ ... تنَسّـي اغتباطِـي بالشَّبِيبَة والأهْلِ[2]

أَقسمتُ بمَن حجَّت قُريْشٌ لبَيْته، وقبْرٍ صُرِفَتْ أزِمّةَ الأحْياءِ لمَيْته، ونُورٍ ضُرِبت الأمثالُ بِمِشكاته وزَيتِه، لَو خُيِّرتُ أيّها الحَبيبُ الذي زِيارَتُه الأُمنيَّة السَّنيَّة، والعارِفة

(أ) آيا صوفيا: التاء مضمومة

(1) أورد ابن الخطيب نص كتابه لابن خلدون في ريحانة الكتاب 2: 185.

(2) بعده في ريحانة الكتاب 2: 185:

وودّيَ لا يُحتاجُ فيه لشاهِدٍ ... وتَقريريَ المعلومَ ضربٌ من الجَهلِ

الوارِفة، واللّطيفةَ المُطيفَة، بين رَجْعِ الشباب يَقطرُ ماءً، ويَرِفُّ نَماءً، ويُغازلُ عُيون الكواكِبِ، فضْلاً عن الكواعبِ، إشارةً وإيماءً، بحيث لا الوخطُ(أ) يُلمُّ بسِياج لِمَّتِه، أو يَقدَح ذُباله في ظُلمتِه، أو يقُوم حَوارِيّه في مِلّتـه، من الأحابِش وأُمّتِه، وزمانُه رَوْحٌ ورَاحٌ، ومَغْدىً في النّعيم ومَراح، وقَصْفٌ صُراحٌ، ورُقىً وجِراحٌ، وانتِخابٌ واقتِراح، وصدورٌ ما بها إلاّ انشِراح، ومسَرّاتٌ تَردُفها أفراح؛ وبيْنَ قُدومِك خليعَ الرَّسَن، مُمتَّعاً ـ والحمد لله ـ باليَقظةِ والوَسَن، مَحكَّماً في نُسُك الجُنَيْد أو فَتْك(ب) الحسَن، مُمَتَّعاً بظَرْف المَعارفِ، مالئاً أكُفّ(ج) الصَّيارف، ماحياً بأنوار البراهين شُبَهَ الزَّخارف؛ لَمّا اخترتُ الشّبابَ، وإن شَاقَني زمنُه، وأعياني ثمنُه، وَأجرَتْ سَحَابَ دمعي دِمَنُه. فالحمدُ لله / [338أ] الذي رَقَّ جُنونَ اغترابي، وملّكني أزِمّة آرابي، وغَبّطَني بمائي وتُرابي، ومَألَف أتْرابي، وقد أغصّني بلَذِيذ شَرابي، وَوقّع على سُطوره المعتَبَرة إضْرابي. وعجّلتُ هذه مُغَبّطةً بمُناخ المَطِيَّة، ومنتَهى الطِّية، ومُلْتَقى للسُّعود غير البَطِيَّة، وبهَنّي الآمال الوَثيرة الوَطِيّة؛ فما شِئتَ من نفُوسٍ عاطِشةٍ إلى رِيِّك، متجمّلةٍ بزِيِّك، عاقلةٍ خُطا مَهْرِيِّك؛ ومَوْلىً مَكارمُه نَشيدة أمثالك، ومَظانٌّ مثالِك، وسَيُصَدِّق الخبَرَ ما هُنالك، ويَسَعُ فضلُ مجدِك في التخلّف عن الإصحَار، لاَ، بل اللّقاء من وراء البِحارِ، والسّلام.

ثمّ أصبحتُ من الغدِ قادماً على البلَد، وذلك ثامنَ ربيع الأوّل عامَ أربعةٍ وستّين، وقد اهتزّ السُّلْطانُ لقُدومي، وهَيأَ لي المنزِل من قصوره، بفرشه وماعُونه، وأركب

(أ) في ظ، أ، آيا صوفيا: الوقت، والصواب ما أثبتناه عن الطنجي ونسخه المتأخرة، والوخط: فُشُوُّ الشيب (ب) ظ: قتل
(ج) ظ: ألف

خاصّته للقّائي، تحفّياً وبرّاً، ومُجازاةً بالحُسْنى؛ ثمّ دخلتُ عليه، فقابلني بما يُناسب ذلِك، وخلَع عليّ، وانصرفت.

وخرج الوزيرُ ابن الخطيب، يُشيّعني[أ] إلى مكان نُزُلي؛ ثمّ نظَمني في عِليةِ أهل مَجلسِه، واختصَّني بالنَّجِيّ في خَلوته، والمُوَاكبَة في رُكوبِه، والمُوَاكَلَة والمُطايبة والفكاهة في خَلَوات أُنسِه؛ وأقمتُ على ذلك عِندَه؛ وسَفَرتُ عنه، سنةَ خمس وستّين، إلى الطّاغية مَلِك قَشْتالة يومئذٍ؛ بِطْره[ب] بن الهُنْشُهْ بن أُذْفُونْش، لإتمام عَقد الصّلح ما بينه وبين مُلوك العُدْوَة، بهَدِيَّةٍ فاخرة، من ثياب الحرير، والجياد المُقَرَبات بمراكبِ الذّهب الثَّقيلة، فلقِيتُ الطّاغيةَ بإشبيليّة، وعايَنْتُ آثارَ سَلَفي بها، وعاملني من الكرامةِ بما لا مَزِيدَ عليه، وأظهر الاغتباطَ بمكاني، وعَلِمَ أوّليّةَ سَلَفِنا بإشْبيلِيّة، وأثنى عليّ عندَه طبيبُه إبراهيمُ بن زَرْزَر اليهوديّ، المُقَدَّم في الطبّ والنّجامةِ، وكان لقِيَني بمَجلسِ السُّلْطانِ أبي عِنَان، وقد استدعاه يَستطِبُّه، وهو، يومئذٍ، بدارِ ابن الأحْمر بالأنْدَلُسِ، ثمَّ نَزَع - بعد مَهْلِك رضوان القائم / بدولتهم - إلى الطّاغية، فأقام عِندَه، [338 ب] ونظَمه في أطِبّائه. فلمّا قَدِمتُ أنا عَليه، أثنى عليّ عندَه، فطلب الطّاغيةُ منّي، حينئذٍ، المُقام عندَه، وأن يُردّ عليّ تُراثَ سَلفي بإشْبيلِيّة، وكان بِيَد زُعماء دولَته، فتفاديْتُ من ذلك بما قَبِلَه. ولم يَزَلْ على اغتباطه إلى أنْ انصرفتُ عنه، فزَوَّدني وحَمّلني، واختصَّني ببَغلةٍ فارهةٍ بمَركبٍ ثَقيل ولِجام، ذهَبِيَّيْن، أهديتُهما إلى السُّلْطان، فأقطَعني قريةَ إلبيرَة من أراضي السَّقْي بمَرْج غَرْناطَةَ، وكتَب لي بها منشوراً، كان نصُّه[1]:

(أ) ط، آيا صوفيا: فشيعني، وأصلحت في أ (ب) ضبطه في ط: بُطْرُه، وهو: بطره الأول ابن ألفونسو الحادي عشر (751 - 769هـ)

(1) لم تورد النسخ نص المنشور، ولعل ابن خلدون أراد إلحاقه فيما بعد ولم يتهيّأ له ذلك

ثمّ حضَرتُ ليلةَ المولد النّبويّ لخامِسَةِ قُدومي، وكان يَحْتفل في الصَّنيع فيها والدَّعوة، وإنشاد الشّعراء، اقتداءً بِمُلوكِ المَغرِب، فأنشَدتُه، ليلتَئِذٍ[1]: [من البسيط]

حَـيِّ المعاهـدَ كانـت قبـلُ تُحَيينـي ... بواكِـفِ الدَّمـعِ يَرْويهـا ويُظْميـني

إنَّ الأُلـى نَزَحـت داري ودَارُهـمُ ... تَحمَّلـوا القلـبَ في آثارهم دُوني

وقفتُ أَنشُـد صبْـراً ضاعَ بَعدَهـمُ ... فـيهمْ، وأسْـأل صـبراً لا يُنـاجِيني

*أمثّـل الرَّبـعَ مـن شَـوق فألثِمُـهُ ... وكيـفَ والفِكـرُ يدْنيـه ويُقـصيني

ويَنهَـب الوَجـدُ منّـي كـلَّ لُؤلُـؤةٍ ... مـا زال قلـبي عليها غيرَ مـأمون*(أ)

سقَـتْ جُفونـي مَغَانـي الرَّبْعِ بعدَهُـمُ ... فـالدَّمعُ وقـفٌ عـلى أطـلالهِ الجُـونِ

قد كان للقلب عن دَاعي الهَوَى شُغُلٌ ... لـو أنَّ قلْـبي إلى السُّلْوان يَـدعُوني

أحْبابَنـا هـل لِعَهْـد الوَصـل مُدَّكَـرٌ ... مِـنكُمْ؟ وهـل نَسمةٌ عنكم تُحَيّيني؟

مـا لـي وللطَّيـف لا يَعتـادُ زائـرُه ... وللنَّسـيمِ علـيلاً لا يُـداويني

يـا أهـلَ نَجـدٍ ومـا نَجْـدٌ وساكنُهـا ... حُسْناً سِوَى جنَّةِ الفِرْدَوس والعِينِ

أعِندَكـم أنّنـي مـا مـرَّ ذِكرُكُـم ... إلاّ انثنيتُ كـأنّ الـرَّاح تُثْنيني

أَصبُـو إلـى البرْق مـن أنحاء أرضِكمُ ... شـوقاً ولـولاكُمُ مـا كان يُـصْبِيني

يـا نازحـاً والمُنـى تُدْنيـه مـن خَلَدي ... حـتَّى لأحـسَبُه قُـرْباً يُنـاجيني

أسْلَى هواك فؤادي عـن سِوَاك ومـا ... سِواك يوماً(ب) بحالٍ عنك يُسْليني

(أ) سقط البيتان المحصوران بين النجمين من أ وآيا صوفيا (ب) ساقطة من أ

---

(1) أورد ابن الخطيب (الإحاطة 3: 514) نصّ القصيدة، وقال: إنه أنشدها السلطان أبا عبد الله بن أبي الحجاج لأول قدومه ليلة الميلاد الكريم من عام 764هـ، وكذلك المقري في نفح الطيب 6: 189.

تـرى الليالـيَ أنستْـك ادّكـاريَ يـا   مَـن لـم تكـن ذِكره الأيّـامُ تُنْسيني

[339 أ] / ومنها في وصف الإيوانِ(1) الذي بناه لجُلوسه بينَ قُصوره:

يـا مصْنَعـاً شيدَت منه السُّعود حِمىً   لا يَطْـرُق الدّهـرُ مَبْنـاه بتَـوْهينِ
صَـرحٌ يحَـار لديْـه الطّـرْفُ مُفتَتنـاً   فـيما يَرُوقـكَ مـن شَـكْلٍ وتَلـوِينِ
بُعْداً لإيوان كِسرى، إنّ مَشْـوَرك السّـ   ـامي لأعظـمُ مـن تِـلك الأواويـن
ودَعْ دِمَشْـقَ ومغْناهـا، فقَصْـرُك ذا   أشْهَى إلى القلْب من أبواب جَيْرونِ

ومنها في التّعريض بمُنصَرَفي من العُدْوة:

مَن مُبلِغٌ عنّيَ الصَّحْبَ الأُلَى تَركـوا   وُدّي وضـاع حِـماهم إذْ أضـاعوني
أنـى أوَيْـتُ مـن العَلْيا إلى حَـرمٍ   كادت مَغانِيـه بالبُـشرى تُحَيِّيـني
وأنّنـي ظاعنـاً لـم ألـقَ بعـدَهُم   دهـراً أُشـاكِي ولا خَـصْماً يُشاكِيني
لا كالـتي أخفَـرَت عهْـدي ليالِـيَ إذْ   أُقَلِّبُ الطّرْف بـين الخَوف والهُونِ
سَقْياً ورَعياً لأيّامـي التـي ظفِـرَتْ   يـدَايَ منهـا بحـظٍّ غيـر مغْبـونِ
أرتـادُ منهـا مَليّـاً لا يُماطلنـي   وعـداً، وأرجـو كريماً لا يعَنّيـني
وهـاك منهـا قَـوافٍ طيُّها حِكَـمٌ   مثـلُ الأزاهـرِ في طـيِّ الـرَّياحِينِ
تلـوحُ إن جُلِيـت دُرّاً، وإن تُلِيَـتْ   تُثْـنِي عليـكَ بأنفـاس البَـساتينِ
عانَيـتُ منهـا بجُهْـدي كُـلَّ شـارِدةٍ   لَـولا سُـعودُك مـا كادَت تُـواتيني

(1) عند ابن الخطيب: وصف المشور المبتنى لهذا العهد، وقد مرّ تعريف المشور ص443.

يُمانع الفكرَ عنها ما تقسّمه   من كلّ حُزنٍ بطيّ الصّدر مكنُونِ
لكن بسَعْدِك ذلّت لي شواردُها[أ]   فرُضتُ منها بتحبير وتزيينِ
بقيتَ دهرَك في أمنٍ وفي دَعَةٍ   ودام مُلكُك في نصرٍ وتمكينِ

وأنشدْته، سنةَ خمس وستّين، في إعذار ولَدِه، والصّنيع الذي احتفَل لهم فيه، ودعا إليه الجفَلى من نواحي الأندلس، ولم يَحضُرني منها إلاّ ما أذكُره: [من الطويل]

صَحا الشّوقُ لولا عَبرةٌ ونَحِيبُ   وذِكرَى تُجِدّ الوَجْد حين تثُوبُ
وقلبٌ أبى إلاّ الوفاءَ بعَهدِه   وإن نَزَحت دارٌ وبانَ حبيبُ
/ ولله منّي بعدَ حادثة النَّوى   فؤادٌ لتذكارِ العهود طَرُوبُ [339 ب]
يؤرّقه طيفُ الخيال إذا سَرَى   وتُذكِي حَشَاهُ نفحةٌ وهُبوبُ
خليلَيّ إلاّ تُسعِدا فدَعا الأسَى   فإنّي لما يدعو الأسَى لَمُجيبُ
ألِمّا على الأطلال يقضِ حقوقَها   من الدّمع فيّاضُ الشّؤون سَكُوبُ
ولا تَعذُلاني في البكاء فإنّها   حُشاشةُ نفسي في الدّموع تَذُوب

ومنها في تقدُّمِ ولدِه للإعذارِ من غَيرِ نُكولٍ:

فيَمّمَ منه الحَفلَ لا متقاعِسٌ   لخَطْبٍ ولا نِكْسُ اللّقاءِ هَيُوبُ[ب]
وراح كما راحَ الحُسامُ من الوَغَى   تَرُوق حِلاهُ والفِرِنْدُ خضيبُ
شواهدُ أهدَتْهُنّ منكَ شمائلٌ   وخُلْقٌ بِصَفو المَجدِ منكَ مَشُوبُ[ج]

(أ) ظ: شوارها، والمثبت يوافق ما في الإحاطة (ب) ظ: هبوب (ج) ظ: متوب

ومنها في الثّناءِ على ولديه:

هما النّيِّرانِ الطّالعانِ على الهُدى   بآياتِ فتحٍ شأنُهنّ عجيبُ
شِهابان في الهيْجا غَمامان في النّدَى   تَسُحُّ المعالي منهما وتَصوبُ
يدانِ لبَسْطِ المكرمات تَماهُما   إلى المجدِ فيّاضُ اليدينِ وَهُوبُ

وأنشدته ليلةَ المولِد الكريم، من هذه السّنةِ: [من الطويل]

أبَى الطّيفُ أن يعتادَ إلاّ توهُّما   فَمَن لِي بأن ألقَى الخيالَ المُسَلِّما
وقد كنتُ أسْتَهديه لو كان نافِعي   وأستمطر الأجفانَ لو تنقَعُ(1) الظَّمَا
ولكنْ خَيالٌ كاذبٌ وطَماعةٌ   تُعَلِّلُ قلباً بالأماني مُتيَّمَا
أيا صاحبَيّ نَجوايَ والحُبُّ لوْعةٌ   تُبيح بشكواها الضّميرَ المكتَّمَا
خُذَا لفؤادِي العَهدَ من نَفَس الصَّبَا   وظَبْيِ النَّقَا والبانِ من أجْرَع الحِمَى
ألاَ ضيع الشّوقُ الذي هو صَانِعٌ   لحُبِّي مُقيمٍ أقصرَ الشّوقُ أو سَمَا
وإنّي ليدعُوني السُّلُوُّ تعلُّلا   وتَنهانِيَ الأشجانُ أن أتقدَّما
لمن دِمَنٌ أقفَرْنَ إلاّ هواتفاً   تُرَدِّدُ في أطلالهنَّ الترَنُّما
[340 أ] / عَرفتُ بها سِيمَا الهوى وتنكّرتْ   فعُجتُ على آياتها مُتوسِّما
وذو الشَّوْقِ يَعْتاد الرُّبوعَ دَوارساً   ويَعرفُ آثارَ الدِّيار تَوهُّما
تأوّبني واللّيلُ بيْني وبينَهُ   وَميضٌ بأطرافِ الثنايا تَضرَّما
أجَدَّ لِيَ العهدَ القديمَ كأنّه   أشار بتذكار العُهود فأفهَمَا

(1) ظ، أ: تنفع

عجبتُ لمرتاع الجَوَانح خافقٍ ... بكيتُ له خلفَ الدُّجى وتبَسَّما
وبتُّ أرَوِّيه كُئُوسَ مدامِعي ... وباتَ يُعاطِيني الحديثَ عن الحِمَى
وصافحتُه عن رسم دارٍ بذي الغَضَى ... لبستُ بها ثوبَ الشَّبيبة مُعْلَما
لَعَهدي بها تُدني الظِّباءَ أوانساً ... وتُطلعُ في آفاقها الغِيدَ أَنْجُما
أحِنُّ إليها حيث سار بيَ الهوى ... وأَنْجَدَ رحْلِي في البلاد وأَتْهَما

ولمّا استقرّ القرار، واطمأنّت الدّار، وكان من السُّلطان الاغتباط والاستئثار، وكثُر الحنين إلى الأهل والتّذكار، أمَر باستِقْدام أهلي من مطرَح اغترابهم بقُسَنطينَة، فبعث عنهم مَن جاء بهم إلى تِلِمْسان، وأمر قائد الأُسطول بالمَرِيَّة، فسار لإجازتهم في أسطوله، واحتلوا بالمَرِيَة، واستأذنتُ السُّلطان في تَلَقِّيهم، وقدِمتُ بهم على[1] الحضرةِ، بعدَ أنْ هَيّأتُ لهم المنزِل والبُستان، ودِمْنَةَ الفَلْحِ، وسائرَ ضرورات المَعاشِ.

وكتبَ إليَّ الوزيرُ ابنُ الخَطيب عندما قاربتُ الحَضْرة، وقد كتبتُ إليه أستأذنه في القدوم، وما أعتَمده في أحواله:

سيِّدي، قَدِمْتَ بالطَّيرِ المَيامينِ، على البَلَد الأمينِ، واستضفتَ الرِّفاءَ إلى البَنينِ، ومُتِّعتَ بطول السِّنين. وَصَلتني البَراءة المُعْرِبة عن كَثَب اللقاءِ، ودُنوِّ المَزارِ، وذهاب البُعْد، وقربِ الدّار؛ واستفْهَم سيِّدي عمَّا عِندي في القدوم على المخدومِ، والحقُّ أنْ يتقدّم سيِّدي إلى البابِ الكريمِ، في الوقتِ الذي يجد المجلس الجُمْهوريّ لم

(1) ظ: إلى

يُفِضْ[أ] حَجِيجُه، ولا صَوَّح بهيجُه، ويصل الأهلُ بعدَه إلى المحلّ الذي هيأته السّعادةُ لاستِقْرارِهم، واختاره اليُمن قبلَ / اختيارِهم. والسّلام. [340 ب]

ثمّ لم يَنْشَب الأعداءُ وأهلُ السّعاياتِ أنْ خيّلوا الوزيرَ ابن الخطيب من ملابستي للسُّلْطان[ب]، واشتماله عليّ، وحرّكوا له حُوارَ الغَيْرة، فتنكَّر، وشمِمتُ منه رائحةَ الانقباضِ، مع استبدادِه بالدَّوْلَة، وتحكُّمه في سائِرِ أحوالِها؛ وجاءتني كُتب السُّلْطانِ، أبي عبد الله، صَاحب بجَايَة، بأنّه استولَى عليها في رمضانِ خمسٍ وستِّين، واستدعاني إليه، فاستأذنتُ السُّلْطانَ ابنَ الأحمرِ في الارتحال إليه، وعمَّيتُ عليه شأنَ ابنِ الخطيب إبقاءً لمودّته، فارتَمض لذلك، ولم يَسَعْه إلاّ الإسعافُ؛ فودَّع وزَوَّد، وكُتِب لي مَرْسوم بالتّشييعِ من إملاء الوزيرِ ابن الخَطيب، نَصُّه:

هذا ظَهِيرٌ كريمٌ، تضمَّن تَشْييعاً وتَرْفيعاً، وإكراماً وإعظاماً، وكان لعَمَل[ج] الصَّنيعة خِتاماً، وعلى الّذي أحسن تماماً، وأشاد للمعتد[د] به بالاغتباط الّذي راقَ قَسَاماً، وتوفَّر[هـ] أقساماً، وأعلَن له بالقبول إنْ نَوَى بعدَ النَّوَى رُجوعاً، أو آثر على الظَّعَن المُزمَع مُقاماً.

أمَرَ به، وأمضى العمل بمقتضاه وحَسْبِه، الأميرُ، عبد الله، مُحَمَّد، ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجّاج، ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نَصْر، أيّدَ الله أمرَه، وأعزَّ نَصْره، وأعْلى ذكرَه، للوَليّ الجليس، الحَظِيّ المكين، المقرَّب الأودّ الأحبّ، الفقيه الجَليل، الصّدر الأوحد، الرّئيس العَلَم، الفاضل الكامل، المرفَّع

(أ) ظ، أ: يقتض (ب) أ: السلطان (ج) أ: يعمل (د) أ، آيا صوفيا: للمعتمد (هـ) أ: وتوفر

الأسمى، الأطهر الأرضَى، الأخلص الأصفَى، أبي زيدٍ، عَبد الرّحمن ابن الشّيخ الجليل، الحَسيب الأصيل(أ)، الفقيه المرفَّع المعظَّم، الصّدْر الأوحد الأسمى، الأفضل الأكمل، الموقَّر المبرور، أبي يَحْيَى أبي بَكر، ابن الشّيخ الجَليل الكبير، الرّفيع الماجِد، القائد الحظيّ، المعظَّم الموَقَّر، المبرور المَرحوم، أبي عبد الله ابن خَلْدون. وصَل الله له أسبابَ السّعادةِ، وبلَّغه من فَضْله أقصى الإرادة؛ أعلَنَ بما عنده، أيّده الله، من الاعتقادِ الجميلِ في جانبه المرفَّع، وإنْ كان غنيّاً عن الإعلانِ، وأعرب / عن معرفته [341أ] بمقدارِه، في الحُسَباء العُلماء الرؤَساءِ الأعيان، وأشاد باتّصال رضاه عن مقاصِده البَرَّة وشِيَمِهِ الحِسان، من لَدُن وَفَد على بابه، وفادة العِزّ الرّاسخ البُنيان، وأقام المُقام الذي عَيَّن له رِفعَةَ المكان، وإجلالَ الشّأن، إلى أنْ عَزَم على قَصْد وطنهِ، أبلغه الله ذلك في ظلّ اليُمْنِ والأمانِ، وكفالة الرّحمن، بعدَ الاغتباط المُرْبي على الخبَر بالعِيانِ، والتّمسُّك بجِواره بجُهْد الإمكان، ثمّ قَبول عُذره بما جُبِلت الأنفسُ عليه من الحَنين إلى المَعاهِد والأوطان، بعد أنْ لم يَدْخَر عنه كرامةً رفيعَة، ولم يَحْجُب عنه وجهَ صَنيعة، فولّاه القِيادةَ والسّفارة، وأحلّه جَليساً معتَمداً بالاستشارة، وألبَسه من الحُظوة والتّقريب أبهَى الشّارةِ، وجَعَل مَحَلَّه من حضرتهِ مقصوداً بالمِثْل، مَعْنيّاً بالإشارة، ثمّ أصْحَبه تَشْييعاً يَشهد بالضّنانةِ بفِراقه، ويجمع له بِرَّ الوجهةِ من جميع آفاقِه، ويجعله بيده رَتِيمَةَ خِنْصِر، ووثيقَةَ سامع أو مُبْصِر؛ فمها لَوَى أَخْدَعَه إلى هذه البلاد، بعدَ قضاء وطَرِه، وتَملّيه من نُهْمَةِ سفَره، أو نزَع به حُسْنُ العَهْد وحنين الوُدّ، فصَدْر العِناية به مشروحٌ، وبابُ الرّضا والقَبُول مَفْتوح، وما عَهِده من الحُظوة والبِرّ مَمنوح؛ فما كان

(أ) ظ: الأصل

القصدُ، في مثله، من إمجاد الأولياء ليتحوّل، ولا الاعتقادُ الكريم ليتبدّل، ولا الأخيرُ من الأحوال ليَنْسَخَ الأوّل. على هذا فليطوِ ضميرَه، ويَرِد متى شاءَ نَميرَه، وَمَنْ وَقَف عليه من القُوّاد والأشياخ والخُدّام، بَرّاً وبحراً، على اختلافِ الخُطَطِ والرُّتَب، وتبايُن الأحوال والنِّسَبْ، أنْ يعرفوا حقَّ هذا الاعتقاد، في كلّ ما يحتاج إليه من تشييع ونزولٍ؛ وإعانة وقَبول، واعتناءٍ موصول، إلى أنْ يَكمُل الغَرض، ويؤدَّى من امتثال هذا الأمرِ الواجبُ المُفتَرَض، بحَوْلِ الله وقوّته.

وكُتب في التاسع عَشَرَ جمادَى الأولى، عامَ ستّة وستّين وسبع مائة.

وبعدَ التّاريخ / العَلاَمةُ بخطّ السُّلْطان، ونصُّها: "صَحّ هذا". [341 ب]

الرِّحْلةُ من الأنْدَلُس إلى بجايَة(أ)، وولايَةُ الحجابَة بها على الاستبْداد

كانت بجايةُ ثَغراً لإفريقِيَّة في دولةِ بني أبي حَفْصٍ من المُوَحّدين، ولمّا صارَ أمرُهم للسُّلْطانِ أبي بكر بن يَحْيَى منهم، واستقلَّ بمُلك إفريقِيَّة، وَلَّى في ثَغر بجاية ابنَه الأميرَ أبا زَكَرِيّاء، وفي ثَغر قُسَنطِينة ابنَه الأميرَ أبا عبد الله. وكان بنو عَبْد الواد مُلُوك تِلِمْسان والمغرب الأَوْسط، ينازعونه في أعمالِه، ويُجَمِّرون العساكر على بِجايَة، ويُجْلِبون على قُسَنطِينة، إلى أنْ تمسّك السُّلْطان أبو بكر بذمّةٍ من السُّلْطانِ أبي الحسن، مِلِك المَغْرِب الأقصى، من بني مَرِين، وله الشُّفُوف على سائِر مُلُوكِهم، وزحف السُّلْطان أبو الحسن إلى تِلِمْسان، فأخذ بمخَنّقِها سنَتَيْن أو أزيد، وملكها عَنْوةً، وقتَل

(أ) أ: الرحلة إلى بجاية من الأندلس

سُلطانها أبا تاشَفِين، وذلك سنة سبع وثلاثين؛ وخفَّ ما كان على المُوَحِّدين من إضْرِ بني عبد الواد، واستقامت دولتُهم.

ثمّ هلك أبو عبد الله، مُحَمَّد ابن السُّلْطان أبي يَحْيَى بقُسَنْطِينة، سنةَ أربعيـن، وخلَّـفَ سبعـةً من الوَلَدِ، كبيرُهم أبو زَيْد، عبدُ الرّحمن. ثمّ أبو العبّاس، أحمد، فولَّى الأميرَ أبا زيد مكان أبيه، في كفالةِ نَبِيلٍ مولاهم، ثمّ تُوفِّيَ الأميرُ أبو زَكَريّاء بِبجَاية سنةَ ستٍّ وأربعين، وخلَّف ثلاثةً من الولدِ، كبيرُهم أبو عبد الله، مُحَمَّد، وبعث السُّلْطانُ أبو بكر ابنَه الأمير أبا حَفْص عليها، فمال أهلُ بجاية إلى الأميرِ أبي عبد الله بن أبي زَكَريّاء، وانحرفوا عن الأميرِ عُمَرَ وأخرجوه، وبادرَ السُّلْطان فرقَع هذا الخَرْقَ، بولايةِ أبي عَبْد الله عليهم كما طَلَبوه؛ ثمّ توفّي السُّلْطان أبو بكر مُنتصَفَ سبعٍ وأربعين، وزحفَ أبو الحسن إلى إفْرِيقِيَّة، فملكَها، ونقل الأمراءَ من بِجَايَة وقُسَنْطِينة إلى المغرِب، وأقطع لهم هنالك، إلى أنْ كانت حادِثة القَيْرَوان، وخلع السُّلْطان أبو عِنَان أباه، وارتحل من تِلِمْسانَ إلى فاس، فنقَل معه هؤلاء الأمراءَ، أهلَ بِجَايَة وقُسَنْطِينة، وخَلَطَهم بنفسِه، وبالغَ في تَكْرِمَتِهم، ثمّ صَرَفهم إلى ثُغورِهم، / الأميرَ أبا [342أ] عبد الله أوَّلاً، وإخوتَه من تِلِمْسان؛ وأبا زَيْد وإخوتَه من فاس، ليستبِدُّوا بثُغورهم، ويُخَذِّلوا النّاسَ عن السُّلْطانِ أبي الحَسَن، فوصلوا إلى بلادهم، وملكوها بعد أنْ كان الفضلُ بن السُّلْطان أبي بكر قد استولى عليها من يَد بَني مَرِين، فانتزعوها منه، واستقرَّ أبو عبد الله ببجاية، حتَّى إذا هلك السُّلْطان أبو الحَسَن بجبال المَصَامِدَة، وزَحَفَ أبو عِنَان إلى تِلِمْسان سنة ثلاثٍ وخمسين، فهزَم مُلوكَها من بني عبد الواد،

وأبادَهم، ونزَل المِديّة، وأطلَّ على بجايةَ، وبادر الأميرُ أبو عبد الله للقائه، وشكا إليه ما يلقاه من زَبُونِ الجُنْد والعَرَب، وقلَّةِ الجِبايةِ، وخَرَجَ له عن ثَغر بجاية؛ فملكها، وأنزل عُمّاله بها، ونقل الأميرَ أبا عبد الله معه إلى المغرب، فلم يزلْ عنده في حِفَايةٍ وكَرامة.

ولمّا قدِمْتُ على السُّلْطانِ أبي عِنَان آخر خمسٍ وخمسين، واستخْلَصني، نبضَتْ عُروق السّوابق بيْنَ سلَفي وسَلَف الأمير أبي عبد الله، واستدْعاني للصّحابة؛ فأسرعتُ، وكان السُّلْطانُ أبو عِنَان شديد الغَيْرة من مثلِ ذلك، ثمّ كثُرَ المنافِسون، ورفعوا إلى السُّلْطان، وقد طَرقَه مرضٌ أرجفَ له النّاس، فرفعوا له أنّ الأميرَ أبا عبد الله اعتزَم على الفِرار إلى بجَاية، وأنّي عاقَدْتُه على ذلك، على أنْ يُولِّيَني حِجَابتَه، فانبعثَ لها السُّلْطان، وسَطا بنا، واعْتقَلني نحواً من سنتَيْن إلى أنْ هلكَ، وجاء السُّلْطانُ أبو سالِم، واستولى على المغربِ، ووَليتُ كتابة سِرّه، ثمّ نهض إلى تِلِمْسان، وملكها من يد بني عبد الواد، وأخرجَ منها أبا حَمُّو، موسى بن يُوسُف بن عبد الرّحمن بن يَحْيَى بن يَغْمَراسَن، ثمّ اعتزم على الرّجوع إلى فاس، وولَّى على تِلِمْسان أبا زيّان، مُحَمَّد بن أبي سعيد عُثْمان بن السُّلْطان أبي تَاشِفِين، وأمدَّه بالأموالِ والعساكِرِ من أَهْلِ وَطنِه، ليُدافعَ أبا حَمُّو عن تِلِمْسان، وتكونَ خالصةً له، وكان الأمير أبو عبد الله، صاحبُ بجَاية، معه / كما ذكرناه، والأمير أبو العبّاس [342 ب] صاحب قُسَنْطِينة، بعد أنْ كانَ بنو مَرِين حاصروا أخاه أبا زيد بقُسَنْطِينة أعواماً تِباعاً، ثمّ خرجَ لبَعْضِ مذاهبِه إلى بُونَة، وترك أخاه أبا العبّاس بها، فخلعه، واستبَدَّ

بالأمرِ دونَه، وخرجَ إلى العساكِرِ المجمَّرة عليها من بني مَرِين، فهزمهم، وأثخن فيهم، ونهض السُلْطانُ إليه من فاس سنةَ ثمانٍ وخمسين، فتبرّأ منه أهلُ البلد، وأسلموه، فبعثه إلى سَبْتَةَ في البَحْرِ، واعتقله بها، حتَّى إذا مَلَكَ السُلْطان أبو سالم سَبْتَةَ عند إجازتِه من الأنْدَلُسِ سنةَ ستّين، أطلقَه من الاعتِقال، وصَحِبه إلى دار مُلكِه، ووعَده بردِّ بلادِه عليهِ.

فلمّا ولّي أبا زيّان على تِلِمْسان، أشارَ عليه خاصَّتُه ونُصحاؤه، بأنْ يبعثَ هؤلاء المُوَحِّدين إلى ثغورِهم، فبعثَ أبا عَبْد الله إلى بِجَايَة، وقد كان مَلَكَها عَمُّه أبو إسْحاق، صاحب تُونِس، ومكفولُ ابن تَافَرَاكِين، من يَد بني مَرِين، وبعثَ أبا العبّاس إلى قُسَنْطِينة، وبها زعيمٌ من زعماءِ بني مَرِين، وكتب إليه السُلْطان أبو سالِم أن يُفرِجَ له عنها، فملكَها لِوَقْتِه، وسارَ الأميرُ أبو عبد الله إلى بِجَايَة، فطال إجْلابُه عليها، ومعاودتُه حِصارَها، ولَجَّ أهلُها في الامتناعِ منه معَ السُلْطان أبي إسحاقَ. وقد كان لي المَقامُ المَحمود في بَعثِ هؤلاء الأمراء إلى بلادِهِم، وتولَّيتُ كِبْرَ ذلك معَ خاصّة السُلْطان أبي سالمٍ وكبار أهْل مجلسه، حتَّى تمَّ القصدُ من ذلك.

وكتبَ لي الأميرُ أبو عَبْد الله بخَطِّه عَهْداً بولايةِ الحِجابةِ متى حصل على سُلْطانه؛ ومعنى الحِجابة في دُولنا بالمغرب: الاستقلالُ بالدَّوْلَة، والوساطةُ بين السُلْطانِ وبين أهل دَوْلته، لا يشاركُه في ذلكَ أحدٌ؛ وكان لي أخٌ اسمه يَحْيَى، أصغرُ منّي، فبعثتُه معَ الأمير(أ) أبي عبد الله حافظاً للرَّسِم، ورجَعتُ مع السُلْطانِ إلى

(أ) ظ: فبعثه الأمير، أ: فبعثه مع الأمير، والمثبت من آيا صوفيا

فاس. ثمّ كان ما قدّمتُه من انصرافي إلى الأندلُس والمُقام بها، إلى أنْ تنكّر الوزير ابنُ الخَطيب، وأظلم الجوُّ بيني وبينَه.

وبينا[أ] نحنُ في ذلك، وصلَ الخبرُ باستيلاءِ الأميرِ أبي عبدِ الله على بجَاية من يَد [343أ] عَمّه، في رمضان خمسٍ / وستّين؛ وكتب لي الأميرُ أبو عبد الله يستقدمُني، فاعتزمتُ على ذلك، ونكِر السُّلْطان أبو عبد الله ابنُ الأحمر ذلك منّي، لا يَظُنُّه لسوى ذلكَ، إذ لم يطّلع على ما كان بيْني وبين الوزير ابن الخطيبِ، فأمضَيْتُ العَزْم، ووَقَع منه الإسعافُ، والبرُّ والإلطاف، وركبْتُ البحرَ من ساحل المَرِيّة مُنتصَفَ ستٍّ وستّين، ونزلتُ بجَاية لخامسةٍ من الإقلاع، فاحتفلَ السُّلْطان صاحب بجَاية لقُدومي، وأركَب أهلَ دولتِه للقائي، وتهافت أهلُ البلد عليَّ من كل أوْبٍ، يمسحونَ أعطافي، ويقبّلون يديَّ، وكان يوماً مشهوداً.

ثمّ وصلتُ إلى السُّلْطانِ، فحيّا وفدّى، وخَلَع وحَمَل؛ وأصبحتُ من الغَد، وقد أمَرَ السُّلطانُ أهلَ الدَّوْلَةِ بمُبَاكَرةِ بابِي، واستقللتُ بحمْل مُلْكه، واستفرغتُ جُهدي في سياسةِ أُموره، وتدبيرِ سُلْطانِه، وقدَّمني للخَطابة بجامعِ القَصَبة، وأنا معَ ذلكَ، عاكفٌ - بعدَ انصرافي من تَدبير المُلْك [غُدْوَةً][ب] - إلى تدريسِ العِلْم أثناءَ النّهارِ بجامع القَصَبة، لا أنفكُّ عن ذلك.

ووجدتُ بينه وبينَ ابن عَمّه، السُّلْطان أبي العبّاس، صاحب قُسَنطِينة، فِتنةً، أحدثتْها المُشاحّة في حدودِ الأعمال من الرّعايا والعُمّال، وشبَّ نارَ هذه الفتنة عَربُ

(أ) أ: وبينا (ب) مكانها بياض في ظ قدر كلمة

أوطانهم من الدَّواوِدَة[أ] من رِياح، تنفيقاً لسُوق الزَّبُون، يَمتَرُون به أموالهم، وكانوا في كلِّ سَنةٍ يجمع بعضُهم لبعض، فالتقوا سنةَ ستٍّ وستِّين بفرْجِيوَة، وانقسمَ العربُ عليها، وكان يعقُوب بنُ عليّ معَ السُّلطان أبي العبّاس، فانهزَم السُّلطان أبو عبد الله، ورجَع إلى بِجايَة مفلولاً، بعد أنْ كنتُ جمعتُ له أموالاً كثيرةً، أنفق جَميعَها في العرَب. ولمَّا رَجَع أعْوَزَتْه النَّفقَةُ، فَخرجتُ بنفسي إلى قبائل البَرْبر بجبال بِجَايَة، المُمتَنعين من المغارمِ منذُ سنين، فدخلْتُ بلادَهم، واستَبَحتُ حِماهم، وأخذْتُ رُهُنَهم على الطّاعةِ، حتَّى استوفَيتُ منهم الجِبَايَةَ، وكان لنا في ذلك مَدَدٌ وإعانة.

ثمّ بعَثَ صاحبُ تِلِمْسان إلى السُّلْطان يطلبُ[ب] منه الصِّهرَ، فأسعَفه بذلك؛ ليصلَ يده به / على ابن عمِّه، وزوَّجه ابنتَهُ؛ ثمّ نهضَ السُّلْطانُ أبو العبّاس سنة سَبع [343 ب] وستِّين، وجاسَ أوطانَ بِجايَة، وكاتَبَ أهل البَلَد، وكانوا وَجِلِينَ من السُّلْطانِ أبي عَبْد الله بما كان يُرهِفُ الحدَّ لهم، ويَشُدّ وَطْأته عليهم؛ فأجابوه إلى الانحرافِ عنه، وخرَج السُّلْطانُ أبو عبد الله يَرُوم مُدَافعتَه، ونزَلَ جَبل لِيزُو مُعْتَصِماً به؛ فبَيَّته السُّلْطان أبو العبّاس في عساكِره، وجموع الأعراب من أولادِ مُحمَّد بن رِياح بمكانِهِ ذلك، بإغراء ابن صَخْر، وقبائلِ سِدْوِيكْش، وكبَسَه في مُخيَّمِه، وركَضَ هارباً، فلحِقه وقتَله، وسار إلى البَلَدِ بمُواعدَةِ أهلِها. وجاءَني الخبرُ بذلكَ، وأنا مُقيم بقَصَبة السُّلْطان وقُصوره، وطلب منّي جماعةٌ من أهل البلدِ القيامَ بالأمرِ، والبيْعةَ لبَعْضِ الصِّبيانِ من أبناء السُّلْطان، فتفاديتُ من ذَلك؛ وخرجْتُ إلى السُّلْطان أبي العبَّاس، فأكرمني وحَيَّاني، وأمْكَنْتُه من بَلَدِه، وأجرى أحْوالي كلَّها على مَعهُودها، وكثُرت

(أ) آيا صوفيا: الذواودة (ب) أ: فطلب

السّعاية عِندَه فيَّ، والتّحذيرُ من مكاني، وشَعَرت بذلك، فطلبتُ الإذنَ في الانصرافِ بعهْدٍ كان منه في ذلك، فأذِنَ لي بَعْدَ لأيٍ؛ وخَرَجتُ إلى العَرَب، ونزلتُ على يعقوبَ بنِ عليّ؛ ثمّ بدا للسُّلْطان في أمْري، وقبضَ على أخي، واعْتَقَله بِبُونَة؛ وكَبَس بيُوتَنا يَظُنُّ بها ذَخيرةً وأموالاً، فأخفق ظنُّه، ثمّ ارتحلتُ من أحْياء يعقوبَ بنِ عليّ، وقصدتُ بَسْكَرَة، لِصِحَابةٍ بيني وبينَ شيخِها أحمدَ بنِ يُوسُفَ بن مُزْني وبين أبيه؛ فأكرم وبَرَّ، وساهم في الحادثِ(أ) بمالِهِ وجاهِه.

مُشايعةُ أبي حَمّو، صاحب تلمْسان

كان السُّلْطان أبو حَمُّو قد التحمَ ما بينَه وبينَ السُّلْطان أبي عبد الله، صاحِب بِجَايَة، بالصِّهر في ابنتِه، وكانت عندَه بتِلِمْسان، فلمَّا بلغه مقتلُ أبيها، واستيلاءُ السُّلطان أبي العبّاس، ابن عمِّه، صاحبِ قُسَنطِينة، على بِجَايَة، أظهرَ الامتِعَاضَ لذلك، وكان أهلُ بِجَايَةَ قد توجَّسُوا الخِيفَةَ من سُلْطانِهم، بإرهاف حَدِّه، وشدَّةِ سَطْوتِه، فانحرَفوا عنه باطِناً، وكاتَبوا ابنَ عمِّه بقُسَنطينَة، كما ذكرناه.

ودَسُّوا للسُّلْطانِ أبي حَمُّو بمثلِها؛ يَرْجُون الخلاصَ من صاحِبهم بأحدهما. فلمَّا استولى السُّلْطانُ / أبو العبّاس، وقَتل ابنَ عمِّه، رأوا أنّ جُرحَهم قد اندمَل، [344أ] وحاجَتهم قد قُضِيتْ، فاعصَوْصَبوا عليه؛ وأظهر السُّلْطان أبو حَمُّو الامتعاضَ للواقعة، يُسِرُّ منهُ حَسْواً في ارتِغاءٍ، ويجْعَلُه ذريعةً للاستيلاءِ على بِجَايَة، بما كان يَرَى نفسَه كفؤَها بِعَدِّه وعَدِيدِه، وما سلَفَ من قومِه في حصارها؛ فسار من تِلِمْسان يجُرُّ

(أ) أ: الحادثات

الشَّوكَ والمَدَر، حتَّى خيَّم بالرَّشَّة من ساحتِها، ومعه أحياءُ زُغْبَة بجُموعِهم وَظعائنهم، من لَدُن تِلِمْسان إلى بلادِ حُصَيْن؛ من بني عامِر، وبني يعقُوبَ، وسُوَيْد، والدَّيَالِم، والعَطَّاف، وحُصَين.

وانجحَر أبو العبَّاس بالبَلدِ في شِرْذِمَةٍ من الجُنْدِ، أعجله السُّلْطان أبو حَمُّو عن استيعَابِ الحشْد، ودافَعَ أهلُ البَلد أحسنَ الدِّفاعِ، وبعثَ السُّلْطان أبو العبَّاس عن أبي زيَّان ابن السُّلْطانِ أبي سعيد عمِّ أبي حَمُّو من قُسَنْطِينة، كانَ مُعتَقَلاً بها، وأمرَ مولاه وقائدَ عسكرِه بَشِيراً[أ] أن يخرُج معه في العَساكِر، وساروا حتَّى نزلوا بني عَبْد الجبَّارِ، قُبالَةَ مُعَسكَر أبي حَمُّو؛ وكان رجالات زُغْبَةَ قد وجَمُوا من السُّلْطانِ، وأبلغَهم النَّذيرُ أنَّه إنْ مَلكَ بِجَايةَ اعتقلهم بها؛ فراسَلوا أبا زيَّان، وركبوا إليه، واعتقدوا مَعه، وخرجَ رُجَّل البلدِ بعضَ الأيَّام من أعلى الحِصْن، ودفعوا شِرْذِمَةً كانت مجمَّرةً إزاءَهم، فاقتلعوا خِباءَهم[ب]، وأسهلوا من تلك العَقَبة إلى بَسيط الرَّشَّةِ، وعايَنَهم العرَبُ بأقصى مكانِهم من المُعسكر فأجفلوا، وتَتَابع النَّاسُ في الانْجفَال حتَّى أفرَدوا السُّلْطانَ في مُخَيَّمه؛ فحملَ رواحِلَه وسار، وكَضَّتْ الطّرق بزِحامِهم، وتراكَموا بعضٌ على بعضٍ، فهلكَت منهم عَوالِم، وأخذَهم سكَّان الجبال من البَرْبر بالنَّهْب من كُلِّ ناحيةٍ، وقد غشِيَهم الليلُ، فتركوا أزوِدَتهم ورِحالَهم، وخلَص السُّلْطانُ ومَنْ خلَص منهم بعدَ عَصْبِ الرِّيقِ، وأصبحوا على مَنجاةٍ، وقذَفَتْ بهم الطُّرقُ من كلِّ ناحِيةٍ إلى تِلِمْسان.

وكان السُّلْطان أبو حَمُّو قد بلَغه خبر خُروجي من بِجَايةَ، وما أَحدَثه السُّلْطان بَعْدِي في أخي وأهلي ومُخَلَّفي؛ فكتبَ إليّ يستَقْدِمُني قبلَ هذه الواقعة، وكانت

(أ) آيا صوفيا: بشير (ب) ظ: أحياءهم

[344 ب] الأمورُ قد اشتَبهتْ؛ / فتفادَيتُ بالأعْذارِ، وأقمتُ بأحياءِ يعقوبَ بن عليّ، ثمّ ارتحلتُ إلى بَسْكَرة، فأقمتُ بها عند أميرها أحمد بن يُوسُف بن مَزْني؛ فلمّا وَصَل السُّلْطان أبو حَمُّو، إلى تِلِمْسان، وقد جَزِع للواقعة، أخذَ في استئلاف قبائل رِياح، ليُجْلِبَ بهم مع عساكِره على أوطانِ بِجَاية؛ وخاطَبني في ذلك؛ لقُرب عهْدي باستتباعهم، ومُلْكِ زِمامهم، ورأى أنْ يُعَوّلَ عليّ في ذلك، واستَدْعاني لحجَابَته وعَلاَمته، وكتبَ بخطّه مُدْرَجَةً في الكتاب، نصُّها:

"الحمدُ لله على ما أنعم، والشّكرُ لله على ما أوْهَب؛ ليَعْلَمْ الفقيهُ المكَرّم، أبو زَيد، عبدُ الرّحمن بن خَلدون، حفظه الله، على أنّك تصلُ إلى مَقامِنا الكريم، لما خصصناكم به من الرُّتبة المَنيعَة، والمنزلة الرَّفيعَة، وهو قَلَمُ خِلافتِنا، والانتظامُ في سِلْكِ أوليائنا، أعلمناكم بذلك. وكتبَ بخطّ يده، عبدُ الله، المتوكّل على الله، موسى ابن يُوسُف، لطفَ الله به، وخارَ له".

وبعدَه بخطّ الكاتبِ ما نَصُّه: بتاريخ السَّابعَ عشَر من شهر رَجَب الفَرْد الّذي من عام تسعةٍ وستّين وسبعمائة، عرَّفَ الله خَيْرَه.

ونَصُّ الكتابِ الذي هذه مُدْرَجَتُه، وهو بخطّ الكاتب:

"أكرمكم الله، يا فقيهُ أبا زيد، ووَالَى رعايَتكم. إنّا قد ثبتَ عندَنا، وصَحَّ لدينا، ما انطويتُم عليه من المحبّة في مقامِنا، والانقطاعِ إلى جَنابنا، والتّشيُّع قديماً وحديثاً لنا، مع ما نَعلمُه من مَحاسِنَ اشتَملت عليها أوصافُكم، ومعارفَ فُقْتُم فيها نُظَراءَكم، ورُسوخِ قدَمٍ في الفنون العِلْمِيّة، والآدابِ العَربيّة.

وكانت خُطَّة الحِجابة ببابِنا العَليّ، أسماهُ الله، أكبرَ درجات أمثالكم، وأرفعَ الخططِ لنظرائكم؛ قُرباً منّا[أ]، واختصاصاً بمقّامنا، واطّلاعاً على خفَايا أسْرارِنا، آثرناكم بها إيثاراً، وقدّمناكم لها اصطفاءً واختياراً؛ فاعمَلوا على الوُصول إلى بابنا العليّ، أسماه الله، لما لكم فيه من التّنويهِ، والقَدْر النَّبيه، حاجِباً لعليّ بابِنا، ومُستَودَعاً لأسرارِنا، وصاحبَ الكريمة عَلاَمتِنا، إلى ما يُشاكِل ذلك من الإنعامِ العميمِ، والخيرِ الجَسيمِ، والاعتناء والتّكريمِ، لا يُشاركُكم مشاركٌ في ذلك، ولا يزاحِمكُم أحدٌ، وإن وُجِد من أمثالك فأعلِمُوه، وعوّلوا عليْه، والله تعالى يتولاّكم، ويصل سَرَّاءَكم، ويُوالي احتفاءَكم، والسَّلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه".

وتأدَّتْ / إليّ هذه الكتبُ السُّلطانيّةُ على يَد سَفيرٍ من وُزرائه، جاءَ إلى أشياخ [345أ] الدَّوَاودةِ[ب] في هذا الغَرَض، فقمت له في ذلك أحسَن مَقَام، وشايعتُه أحسَنَ مُشَايعة، وحملتُهم على إجابة دَاعي السُّلْطان، والبِدارِ إلى خِدْمتِه، وانحرفَ كبراؤُهم عن خدمة السُّلْطان أبي العبَّاس إلى خِدمته، والاعْتمال[ج] في مذاهبه، واستَقام غَرضُه من ذلك؛ وكانَ أخي يَحْيَى قد خلَص من اعتقَالِهِ ببُونَة، وقَدِم عليَّ ببَسْكَرَة، فبعثتُه[د] إلى السُّلْطان أبي حَمُّو كالنَّائب عَنّي في الوظيفة، مُتفادِياً عن تَجَشُّم أهوالها، بما كنتُ نزَعْتُ عن غَوَايةِ الرُّتَبِ، وطالَ عليَّ إغفالُ العِلم، فأعرضتُ عن الخَوْضِ في أحوالِ المُلُوكِ، وبعثتُ الهمّةَ على المطالَعة والتَّدْرِيس، فوصَلَ إليه الأخُ، فاستكفى به في ذلك، وَدفَعَه إليْه.

(أ) ساقطة من أ (ب) آيا صوفيا: النواودة (ج) ظ: الاعتماد (د) ظ: فبعثه

وَوَصَلني معَ هذه الكتبِ السُّلطانيّةِ، كتابُ رسالةٍ من الوزيرِ أبي عبد الله ابن الخطيب من غَرْنَاطَة، يتشوّق إليّ، وتأدّى إلى تِلِمْسان على يد سُفَراء السُّلطانِ ابن الأَحْمر، فبعثَ إليّ به مِن هُنالك، ونَصُّه[1]: [من الطويل]

بنَفْسِـي وَمـا نفْسـي علـيَّ بِهَيْنَـةٍ ... فيُنْزِلَنـي عَنهـا المِكـاسُ بأثمـانِ
حَبِيـبٌ نَـأى عنّـي وصُـمَّ لأنّتِـي ... وراشَ سِهَام البَيْنِ عمـداً فأصْمَـاني
وقَدْ كان همُّ الشَّيب – لا كَان- كافياً ... فقـد أدَّني[أ] لمّـا ترحّـل همّـانِ
شرعتُ له منْ دَمع عَيني مَوَارداً[ب] ... فكـدَّر شِرْبِي بالفِـراق وأظْـماني
وأرعَيْتهُ مـن حُسْـن عهـدِي جَمِيمَهُ ... فأجـدبَ آمـالي وأوحـشَ أزْمَـاني
حلفتُ على ما عِنـدَه لِيَ مـن رِضـىً ... قياسـاً بمـا عِنـدي، فأحنَـثَ أيمـاني
وإنّي على ما نالني منه من قِلىً ... لأشتـاقُ مـن لُقيـاهُ نُغْبَـةَ ظَمْـآنِ
سألـتُ جُنـوني فِيه تَقريبَ عرشِه ... فَقِسْتُ بجِنّ الشَوْق جِنَّ سُـليمانِ
إذا مـا دَعـا داعٍ مـن القَـوْم باسمِـه ... وثبْـتُ ومـا اسْـتَثْبَتُّ شِـيمَةَ هَيْمَـانِ
وتالله مـا أَصغيـتُ فِيـهِ لعـاذِلٍ ... تحاميتـهُ حـتَّى ارعَـوَى وتحامَـاني
ولا اسْتَشْعَرتُ نفسي برحمَةِ عابدٍ[ج] ... تُظَلِّـل يومـاً مـثْلَه عَبْـدَ رَحـمانِ
ولا شعَـرتُ مـن قَبلِـه بتَشَـوُّق ... تخلَّلَ [منها بيـنَ رُوحٍ وجُثْمَـانِ][د]

(أ) آيا صوفيا: آذني (ب) آيا صوفيا: مورداً (ج) ظ: عايد، ومهملة في أ (د) في ظ كرر عجز البيت الذي قبله: وتخلل يوما مثله عبد رحمان، وفي آيا صوفيا كرره ثم شطبه وصحّحه

(1) أثبت ابن الخطيب نصّ رسالته هذه لابن خلدون في كتابه ريحانة الكتاب 2: 134، والمقري: نفح الطيب 6: 389.

/ أمّا الشَّوقُ، فحدّثْ عن البَحْرِ ولا حَرَج، وأمّا الصَّبر؛ فاسْأل بهِ أيّةَ دَرَج، [345 ب] بعْدَ أن تَجاوَزَ اللّوَى والمُنْعَرَج، لكن الشدَّة تَعْشَقُ الفَرَج، والمؤمنُ ينشَقُ من رَوْحِ الله الأَرَج؛ وأنّى بالصَّبر على إبَرِ الدَّبْر، لاَ، بل الضَّرْبِ الهَبْرِ، ومطاوَلَةَ اليوْم والشّهر، تحت حُكم القَهْرِ؛ ومن للعَيْن أن تَسْلُوَ سُلوَّ المقصِّر، عن إنسانها المُبْصر، أو تَذْهلَ ذُهولَ الزّاهدِ، عن سِرّها الرّائي والمشَاهِد، وفي الجسد بَضْعَةٌ يصْلح إذا صَلُحتْ، فكيفَ حالُه إنْ رَحَلت عنه وإنْ نزَحتْ؟ وإذا كان الفِراقُ هو الحِمَامُ الأوّلُ، فعلامَ المعَوّل؟ أعْيَتْ مُراوضَةُ الفِراقِ على الرّاق، وكادَتْ لوعة الاشتِياق، أن تُفْضِيَ إلى السّيَاق: [من السَّريع]

تَرَكْتمونـي بعـدَ تَشْيِيعِكـم ... أُوسِعُ أمْرَ الصّبر عِصْيانا
أقْـرَعُ سِنِّـي ندمـاً تـارَةً ... وأَسْتَمِيـحُ الدّمـعَ أحيانَـا

وربّما تعلّلْتُ بِغشْيانِ المَعاهدِ الخاليةِ، وجدَّدتُ رُسوم الأسى بمُبَاكَرَة الرُّسومِ الباليةِ، أسأل نونَ النُّؤى عن أهْليه، وميمَ المؤقِدِ المَهْجور عن مُصْطَليه، وثاءَ الأثافيِّ المثلّثةِ عن منازِلِ المُوَحّدين، وأحارُ بين تلك الأطلال حَيرَةَ المُلحِدين، لقد ﴿ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام، من الآية 56]؛ كَلِفْتُ، لعَمرُ الله، بسَالٍ عن جُفوني[1] المؤرَّقه، ونائمٍ عن هُمومي المتَجَمّعة المتفرّقة، ظَعَن عن مَلال، لا متَبرِّماً مِنّا بِشَرِّ خِلالٍ، وكدَّر الوصلَ بعدَ صَفائه، وضَرَّج النَّصل بعد عَهدِ وفائه: [من الطّويل]

(1) آيا صوفيا: جنوني

أَقِـلَّ اشتيَاقــاً أيّهـا القلـبُ إنّمـا   رَأيتُكَ تُصفي الوُدَّ من [لَيسَ][أ] جازِيا[1]

فها أنا أبكِي عليه بدَم أسَالَهُ، وأندُب في رَبْع الفِراق آسَى لَه، وأشكو إليه حالَ قَلْبٍ صَدَعَه، وأوْدَعه من الوَجْد ما أودَعَه، لما خَدَعه، [ثمّ قَلاَهُ ووَدَّعه، وأُنشِقُ رَيّاهُ أنفَ ارتيَاح قَد جَدَعَه][ب]، وأستَعدِيه على ظلمٍ ابتدَعَه: [من الطويل]

خَلِيلَـيَّ، فيما عِشتُما، هـل رأيتُمَـا   قَتيلاً بَكَى مِن حُبِّ قاتِلِهِ قَبْلِي؟[2]

فلولا[ج] [عسَى الرجاءِ ولَعَلّه][د]، لا. بَلْ شفاعةُ المحلِّ الذي حَلَّه[هـ]، لنشَرتُ ألْوِيَةَ العَتْبِ، وَبثَثْتُ كتَائِبَها كُمَناءَ في شِعابِ الكُتُب، تَهزُّ من الألِفات[و] رِماحاً / [346 أ] خُزر الأسِنَّة، وتُوتِّر من النُونات أمثالَ القِسِيّ المُرِنَّة، وتَقُود من مَجْمُوع الطِّرْسِ والنِّقْس بُلَقاً تَرْدِي في الأعِنَّة، ولكنّه آوَى إلى الحَرَم الأمين، وتَفَيّأ ظِلال الجِوار المُؤَمَّن من مَعَرَّة الغِوَار عن الشِّمال واليَمين، حَرَم الجِلاَل المُزْبِيَّة، والظِّلال اليَزَنيَّة، والهِمَم السَّنِيَّة، والشِّيَمِ التي لا تَرضَى بالدُون ولا بالدَّنِيَّةِ، حيث الرِّفدُ المَمنُوحُ، والطَّيرِ المَيامين يُزجَر لَها السُّنوح، والمثْوَى الذي إليه، مَهْما تَقارَعَ الكِرامُ عَلَى الضِّيفانِ، حَولَ جَوابِي الجِفَان هو الجُنُوح: [من الكامل]

(أ) ظ: كان (ب) ساقطة من ظ (ج) قبلها فراغ في آيا صوفيا مقدار كلمة (د) مكانها في ظ بياض قدر خمس كلمات، وفي آيا صوفيا: إجلالي محله، ثم فراغ بمقدار كلمتين (هـ) بعدها في ظ، أ، آيا صوفيا: بياض قدر كلمتين (و) ظ: الألقاب، آيا صوفيا: الألفات (وتحت التاء نقطة)

(1) للمتنبي، انظر ديوانه (بشرح العكبري) 3: 284، التذكرة الحمدونية 3: 30.

(2) لجميل بن معمر المعروف بجميل بثينة، انظر: ديوانه 99، والأغاني 8: 70.

نَسَبٌ كأنّ عليه من شمسِ الضُّحى ... نُوراً ومن فلقِ الصَّباحِ عَمودا[(1)]

وَمَن حلّ بتلك المَثابة فقد اطمأنّ جَنبُه، وتُغُمّد بالعَفو ذَنبُه؛ ولله دَرُّ القائِل[(2)]: [من الكامل]

فَوَحقِّه لقــد انتُدِبتُ لوصفِـهِ ... بالبُخـل لـوْلاَ أنّ حِمْـصاً دارُهُ
بلدٌ مَتَـى أذكُرْهُ تهتَـجْ لوعَتِـي ... وَإذا قَدحتَ الزَّنْدَ طارَ شَـرارُهُ

اللّهمَّ غُفْراً، وأيـنَ قَرارةُ النَّخيـلِ، مـن مَثْـوَى الأقلَـف البَخِيـل؟ ومَكذَبةِ[(أ)] المُخِيل؛ وأينَ ثانيةُ هَجَر، مِن مُتَبوّاً مَن ألْحَدَ وفَجَر؟: [من المتدارك]

مَـن أنكَـرَ غيثـاً مَنشَـؤهُ ... فِي الأرض يَنـوءُ بمُخْلِفِهَـا
فَبَنـانُ بَنِـي مُزْنـي مُـزَنٌ ... تَنهَـلُّ بلُطْـفِ مُـصَرِّفهَا
مُـزْنٌ مُـذْ حـلَّ بِبَسْكَـرَةِ ... يومـاً نطقَـتْ بمُـصَحَّفِهَا
شَكَـرتْ حتَّـى بِعبَارَتِهـا ... وبِمَعْنَاهـا وبِأحْرُفِهـا[(ب)]
ضَحِكت بأبِي العبَّاس من الْـ ... أيّـام ثَنَايـا زُخْرُفِهَـا
وتَنكَّـرت الدُّنيـا حتَّـى ... عُرِفَـتْ منـهُ بِمُعَرَّفِهَـا

بل نَقولُ: يا مَحلَّ الوَلَدِ، ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [سورة البلد، الآية 1، 2]، لقَد حَلَّ بَيْنُك عُرَى الجَلَد، وخلَد الشَّوقُ [بعْـدَك][(ج)] يا ابنَ خَلدُون في

(أ) ظ: وتكذبة (ب) ظ: وأحرفها (ج) ساقطة من ظ

---

(1) لأبي تمام، انظر: شرح ديوانه 177، أخبار أبي تمام للصولي 107، الأغاني 16: 266، ديوان المعاني للعسكري 1: 205.
(2) هو محمد بن عمّار الأندلسي، انظر: الذخيرة في محاسن الجزيرة 3: 393 وفيه: فوحسنة لقد ...

الصَّمِيم من الخَلَدِ؛ فحيًّا الله زمناً شُفِيتَ في قُربك زَمانَته، واجتُليتَ في صَدَفِ مجدِك جُمانَته، وقُضِيتْ في[أ] مَرْعَى خُلَّتِك لُبَانته؛ وأهلاً بروْضٍ أظلَّت أشتاتَ مَعارفك بَانَته؛ فَحَمائمُه بعدَك تَندُب، فيُساعِدُها الجُندُب، ونَوَاسِمُهُ تَرِقُّ فتَتَغاشَى، وعَشِيانُه[ب] تَخافتُ وتَتَلاشَى، / وأدواحُه في ارتِباك، وحمائمُه في مَأْتَم ذي اشتِباكٍ؛ كأنْ لم تكن [346 ب] قَمَرَ هالاتِ قِبابِه، ولم يكن أُنسُك شارعَ بابه، إلى صَفوة الظَّرفِ ولُبابِه، ولم يَسبح إنسانُ عَيْنِك في ماءِ شَبابه؛ فلهفاً عليك من دُرَّة اختَلَستْها يدُ النَّوَى، ومَطَل بردِّها الدَّهرُ ولَوَى، ونعَق الغُراب بِبَيْنِها في رُبوع الهَوَى، ونطَقَ بالزَّجرِ فما نَطَق عن الهَوَى؛ وبأيِّ شيءٍ يُعتاضُ منكِ أيتُها الرِّياض! بَعْد أنْ طما نَهرُك الفَيَّاض، وفَهَقَت الحِياض؛ ولا كان الشَّانئُ المَشنوءُ والجَرِبُ المَهْنوءُ؛ من قِطَع لَيلٍ أغار على الصُّبح فاحتَمَل، وشارَكَ في الذَّمِ النَّاقةَ والجَمَلَ، واستأثَر جُنحُه ببَدر النادي لمَّا كَمَل؛ نَشَر الشِّراع فَرَاع، وواصل الإسراع، فكأنَّما هو تِمساح النِّيل ضايَقَ الأحباب في البُرْهَة، واختَطَفَ لهم من الشَّط نُزهةَ العيْن وعَيْن النُّزهة؛ ولَجَّج بها والعُيون تَنظُر، والغَمْرُ عن الإتباع يَحْظُر؛ فلم يُقْدَر إلاَّ على الأسَف، والتماح الأثَر المنْتَسَف[1]؛ إنَّما نَشكو إلى الله البَثَّ والحُزن، ونستَمطِر من عَبَرَاتِنا[ج] المُزن[د]، وبِسَيْف الرَّجاء نَصُول، إذا شُرِعَتْ لِليَأس أسِنَّة ونُصُول: [من البسيط]

(أ) بعدها في آيا صوفيا فراغ بمقدار أربع كلمات، لكن النص متصل (ب) ظ: وعشيانه (ج) مكانها بياض في ظ وآيا صوفيا قدر كلمة (د) بعدها في آيا صوفيا فراغ بمقدار كلمة، لكن النص متصل

(1) في نفح الطيب 6: 393 زيادة: [والرّجوع بملء العَيْبَة من الخيْبة، ووفْر الجَشرة من الحَسْرة].

ما أقدرَ الله أن يُدْنِي عَلَى شَحَطٍ   مَنْ دَارُهُ الحَزْنُ مِمَّنْ دَارُهُ صُولُ(1)

فإنْ كان كَلْمُ الفِراق رَغيباً، لَمّا نويتَ مَغِيباً، وجَلَّلتَ الوَقْتَ الهَنِيَّ تَشْغِيباً، فلعلَّ المُلتقَى يكون قريباً، وَحَديثه يُرْوَى صحيحاً غريباً.

إيهٍ سَيِّدي! كيفَ حالُ تِلك الشَّمائل، المُزهِرَة الخَمائل، والشِّيَم الهَامِيَة الدِّيَم؟ هل يمُرُّ ببَالها مَن رَاعَتَ بالبُعْد بالَه، وأخمَدَت بعاصِفِ البَيْنِ ذُبَالَه؟ أو تَرْثِي لشُؤونٍ شَأنُها سَكْبٌ لاَ يَفْتُر، وشَوْقٌ يَبُتُّ حِبال الصَّبْرِ(أ) ويبتُر، وضَنىً تَقصُر عن حُلله الفَائقة صَنْعَاءُ وتُسْتَر، والأمرُ أعظَم والله يَسْتُرُ! ومَا الذي يَضِيرُك، صينَ من لفْحِ السَّمُوم نَضِيرُك، بعْدَ أن أضرمْتَ وأشعَلْتَ(ب)، وأوقَدتَ(ج) وجعَلت، وفعَلتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ، أنْ تَتَرفَّق بذَماءٍ، أو تَرُدَّ بنُغْبةِ ماءٍ، أرْمَاقَ ظِمَاءٍ، وتَتَعاهدَ المَعَاهِد بتَحيَّةٍ يُشَمُّ عليها أشذاء أنفاسِك، أو تَنظرَ إلينا ـ على البُعدِ ـ / بمُقلةٍ حَوراءَ من بَياضِ [347أ] قِرطاسِك، وسوادِ أنقاسِك، فربَّما قَنِعت الأنفسُ المُحِبَّة بخيالٍ زُور، وتعَلَّلت بنَوال مَنْزُور، ورضِيت، لَمّا لم تَصِد العَنقاءَ، بِزُرْزُور: [من الكامل]

يـا مَـن تَرحَّـل والرِّيـاحُ لأجلِهِ   يُشتاقُ(د) إنْ هَبَّتْ شَذا رَيّاهَا

تَحْيَـا النّفـوسُ إذَا بعثْـتَ تَحِيَّـةً   وإذا عَزَمتَ(هـ)، اقرأْ وَمَنْ أحْيَاهَا

ولئِن أحيَيْتَ بها فِيما سَلَفَ نفوساً تَفْدِيك، والله إلى الخَيْر يَهدِيك، فنَحن نَقُولَ:

(أ) آيا صوفيا: الشوق (ب) ظ: واشعلت (ج) ظ: وأقدْت (د) ظ: تشتاق، ومهملة في أ وآيا صوفيا (هـ) ظ: عرفت

---

(1) لحُنْدُج بن حُنْدُج المرّيّ، انظر: الأمالي لأبي علي القالي 1: 165، معجم البلدان (صول)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 3: 294، تاج العروس (صول)، زهر الأكم في الأمثال والحكم لليوسي 2: 175 وفيه: جندح.

مَعشَرَ مُودِّيك: "ثنّي ولا تَجعليها[1] بَيضَةَ الدِّيك"؛ وعُذراً فإنّي لم اجترىء[أ] على خِطابِك بالفِقَرِ الفَقِيرة، وأدللتُ لَدى حُجُراتِك بِرَفْعِ العَقِيرَة، عن نَشاطٍ بعث مَزموسَه، ولا اغتباطٍ بالأَدَبِ تُغرِي بِسياسَته سُوسَه، وانبساطٍ أُوحِي إليّ على الفَتْرَةِ ناموسَه؛ وإنّما هو اتّفاق جُرَّته نَفْثَة المَصْدور، وهِناء الجَرِب المَجْدور؛ وإنْ تَعَلَّل به مُخارِق، فثَمَّ قِياس فارِق، أو لَحنٌ غنّى، به بعدَ البُعد، مُخارِق؛ والذي هيَّأ هذا القَدْرَ وسبَّبه، وسهَّل المكروهَ إليّ [منه][ب] وحبَّبه، ما اقتضاه الصِّنوُ يَحْيَى ـ مدَّ الله حياتَه، وحَرَس من الحوادث ذاتَه ـ من خطابٍ ارْتَشَفَ به لهٰذه القَرِيحَة[ج] بُلالَتها، بعد أنْ رَضِي عُلالَتها، ورَشَّح إلى الصِّهْر[د] الحَضْرَميّ سُلالَتها؛ فلَم يَسعْ إلاّ إسعافُه، بما أعافُه؛ فأمليتُ مُجيباً، ما لا يُعَدُّ في يَوم الرِّهانِ نَجيباً، وأسمَعتُه وَجيباً، لمّا ساجلتُ بهذه التُّرّهات سِحْراً عجيباً؛ حتَّى إذا ألِفَ القَلَمُ العُرْيانُ سَبْحَه، وجَمَح بِرذَونُ الغزارةِ فلَم أُطِق كَبْحَه، لم أُفِق من غَمرةِ غُلُوّه، وموقِفِ مَتْلُوّه، إلاّ وقد تحيَّز إلى فِئتك، مُعتَرّاً بل مُعتَرّاً، واستَقبلَها ضاحكاً مُفتَرّاً، وهَشَّ لها بَرّاً، وَإنْ كان من الخَجَل مُصْفَرّاً؛ وليسَ بأوَّلِ مَن هَجَر، في التِماس الوَصْل ممَّن هَجَر، أو بعثَ التَّمر إلى هَجَر؛ وأيُّ نسَبٍ بيْني اليومَ وبينَ زُخْرُف الكلام، وإجَالة جِيادِ الأقلام، في مُحَاورة الأعلام؛ بعد أن حال / [347 ب] الجَريضُ دونَ القَريضِ، وشُغِل المريضُ عن التَّعريض؛ وغَلَب حتَّى الكَسَل، ونَصلت الشَّعرات البيضُ كأنّها الأَسَل؛ تَروع برُقْطِ الحَيّاتِ، سِرْبَ الحياةِ، وتَطرُق بِذَوات

(أ) ظ: أجتزِ، آيا صوفيا: اجتر (ب) ساقطة من ظ (ج) مكررة في ظ، أ، آيا صوفيا (د) ظ: الضمير

(1) ظ: تجعلها، وهو عجز بيت لبشار بن برد؛ صدره: "قد زرتِنا مرةً في الدهر واحدةً"، وهو من أمثال العرب، وكان الاعتقاد بأن الديك يبيض بيضة واحدة في عمره.

الغُرَر والشِّيَات، عند البيات؛ والشَّيبُ[أ] المَوت العَاجِل، وإذا ابيضَّ زَرْعٌ، صبَّحته المَناجلُ، والمُعتبَر الآجِلُ؛ وإذا اشتَغَل الشَّيخُ بغير مَعَادِه، حُكِم في الظَّاهِر بإبعَادِه، وأَسْرِهِ[ب] في مَلكَةِ عَادِه؛ فأَغْضِ، أبقَاك الله، واسمَح، لمن قَصَّر عن المَطْمَح، وبالعينِ الكَلِيلة فالْمَحْ؛ واغتَنِم لِباس ثَوب الثَّواب، واشفِ بعضَ الجوَى بالجَوابِ.

تَولَّاك الله فيما استَضَفتَ ومَلكتَ، ولا بَعُدْتَ ولا هَلَكْتَ، وكان لك أَيَّةَ سَلَكْتَ؛ ووَسَمكَ من السَّعادة بأوضَحِ السِّماتِ، وأتاحَ لِقاءَك من قَبْلِ المَماتِ؛ والسَّلامُ الكَريمُ يعْتَمد جِلالَ ولَدي، وسَاكِن خَلَدي، بَل أخي - وَإن اتَّقيتُ عَتْبَه - وسَيِّدي، ورحمةُ الله وبركاتُه، من مُحِبِّه المُشتاق إليه، مُحَمَّد بن عبد الله بن الخَطيب، في الرَّابعَ عَشَرَ من شَهْرِ رَبيعِ الثَّاني، من عام سبعين وسبعمائة.

وكان تقَدَّم منه قبلَ هذه الرِّسالة كتابٌ آخَرُ [إليَّ][ج]، بعثَ به إلى تِلِمْسان، فتأخَّر وُصُوله، حتَّى بَعَث به الأخُ يَحْيَى عندَ وِفادته على السُّلطان، ونَصُّ الكتاب:

"يا سَيِّدي إجلالاً واعْتِداداً، وأخي وُدّاً واعتِقاداً، ومَحلَّ وَلَدي شَفَقةً سَكنَتْ منّي فؤاداً. طالَ عليَّ انقطاعُ أنبائك، واختفاءُ أخبارِك؛ فرَجَوتُ أنْ تُبلِّغَ النيّةُ هَذا المكتُوبَ إليكَ، وتَختَرِقَ به الموانعَ دونَك؛ وَإنْ كنتُ في مُباتّك كالعاطِش الذي لا يَرْوَى، والآكِلِ الذي لا يشبَع، شَأنُ مَنْ تَجاوَز الحُدودَ الطَّبيعيّة، والعوائدَ المألوفة؛ فأنا الآنَ - بعدَ إنهاء التَّحيّةِ المطلُولة الرَّوض بماءِ الدُّموع، وتَقرير[د] الشَّوق اللَّزِيم[هـ]،

(أ) آيا صوفيا: الشبيب (ب) ضبطها في ظ: وأَسَرَه، وفي آيا صوفيا: وأَسْرُهُ (ج) ساقطة من ظ (د) آيا صوفيا: تقدير
(هـ) أ: الكريم

وشكوَى البِعاد الأليم، وسُؤال إتاحَة القُرب قبلَ الفَوْت من الله مُيسِّر العَسيـر، [348أ] ومُقرِّب/ البعيد ـ أسْأل عن أحوالك سُؤالَ أبعدِ النّاس مِحَالاً في مَجَال الخُلوصِ لك، وأشَدِّهم حِرصاً على اتِّصال سَعادتك.

وقد اتَّصل بي في هذه الأيّامُ ما جَرَى به القَدَر من تَنويع الحالِ لَدَيْك، واستقرارك بِبَسْكَرَةَ مَحَلِّ الغِبْطة بكَ، باللّجَإ إلى تلكَ الرّياسةِ الزَّكِيّة، الكريمة الأَب[أ]، الشَّهيرة الفَضْل، المعروفة القَدْر عَلَى البُعْد؛ حَرسَها الله ملجَأً لِلْفُضَلاء، ومُخيَّماً لرِجال العَلْياء، ومَهبّاً لطيب الثّناء، بحَوْله وقُوَّته؛ وما كلُّ وقتٍ تُتاح السَّلامة؛ فاحمَدُوا الله على الخَلاصِ، وقارِبوا في مُعاملة الآمالِ، وضنُّوا بتلك الذّاتِ[ب] الفاضِلة عن المَشاقِّ، وابْخَلوا بها على المَتالِفِ؛ فمطلوب الحَريصِ على الدُّنيا خَسِيسٌ، والموانعُ الحافَّةُ جَمَّةٌ، والحاصِل حَسْرة، وبأقلِّ السَّعي تَحصُل حالةُ العافية، والعَاقِل لا يَسْتَنْكِحه الاستِغْرَاقُ فيما آخِرهُ[ج] المَوْت، إنّما يَنال منه الضَّرورِيّ؛ ومثلُك لا يُعْجِزه ـ معَ الْتِماس العافيةِ ـ أضعَافُ ما يُزَجّى به العُمْر من المأْكَلِ والمَشْرَبِ، وحَسْبُنا الله.

وإن تَشَوَّفَتْ[د] لحالِ المُحِبِّ تلك السِّيادةُ الفذّة، والبُنُوّةُ البرَّة؛ فالحَالُ الحَالُ، من جَعْل الزّمام بيَد القَدَر، والسَّيْرِ في مَهْيَعِ الغَفْلةِ، والسَّبْحِ في تَيّارِ الشَّواغِل؛ ومِن وَراءِ الأمورِ غَيْبٌ مَحْجُوبٌ، وأَجَلٌ مَكْتُوب، نُؤَمِّل فيه عادةَ السَّتْر من الله؛ إلاّ أنّ الضَّجَر الذي تَعلَمُونه، خَفَّضه اليَأْسُ لمَّا عَجَزت الحِيلَة، وأعْوَزَ المَنَاص، وسُدَّت المَذاهب؛ والشَّأنُ اليومَ شأنُ النّاس فيما يقرّب من الاعتدال.

(أ) ظ: الأدب (ب) أ: الدار (ج) ظ: أخره (د) ظ: تشوقت

وفيما يَرجعُ إلى السُلطانِ - تولاَّه الله - على[أ] أضعافِ ما باشَر سيِّدي من الإغْياءِ في البِرّ، ووَصَل سَبَب الالتحامِ والاشتمالِ، مَع الاستِقْلال، وما يُنتِجُه مُتعَوَّد الظّهور، والحَمدُ لله.

وفيما يَرجعُ إلى الأحبابِ والأولاد، فعَلى مَا عَلِمت؛ إلاّ أنّ الشّوقَ مُخامر القُلوب، وتَصوُّرَ اللّقاء مِمّا[ب] يُزهّد في الوَطَنِ وحاضرِ النّعَم. سَنَّى الله ذلك على أفضلِ حال، ويسَّره قبل الارتحال، عن دار المِحَال.

وفيما يرجعُ إلى الوَطَن؛ فأحلامُ النّائم، خِصْباً، وهُدنَةً، وظُهوراً على / العَدوّ؛ [348 ب] وحَسبُكَ بافتتاح حِصْن آشِرْ، وبرْغَةُ القَاطعة بَينَ بلادِ الإسلامِ، ووَبْذَة، والغَارين، وبيغُهْ، وحِصْن السَّهْلَة، في عام؛ ثمّ دخولِ بلَد إطْريرَة: بنت إشْبيلِيّةَ عَنوةً، والاسْتِيلاءِ عَلَى ما يُناهِزُ خَمسَة آلاف من السَّبْي؛ ثمّ فَتحِ دار المُلْك، ولِدَة قُرطُبَة؛ مدينةِ جَيَّان، عَنوةً في اليومِ الأغرّ المحَجّلِ، وَقتلِ المُقاتِلة، وسَبْيِ الذُّرِّية، وتَعْفِيَةِ الآثار، حتَّى لاَ يُلِمَّ بها العُمْران؛ ثمّ افتتاحِ مَدينَة أُبَّدَة التي تَلفُّ جَيَّان في مُلاءَتِها: دار التَّجر، والرَّفاهِيَّة، والبُنَى الحَافِلَة، والنِّعَم الثَّرَّة؛ نسأل الله - جَلَّ وعَلاَ - أنْ يصلَ عوائدَ نَصْره، ولا يقطَعَ عنّا سَببَ رَحْمتِه، وأنْ ينفعَ بما أعان عليْه من السَّعي في ذلك، والإعانة عليه.

ولم يتزَيَّدْ من الحَوادثِ إلاَّ ما [علِمتُم][ج]؛ من أخذ الله لنَسَمَةِ السُّوء، وخَبَثِ الأَرض، المسلوب من أثَر الخَيْر؛ عَمَرَ بن عبد الله، وتحكُّم شَرِّ المِيتَة في نَفْسه، وإتْيانِ

(أ) ظ: على ما (ب) ظ: ما (ج) ساقطة من ظ

النّكال على حاشِيته، والاستِئصالِ على ذاتِه[أ]؛ والاضطرابُ مُستَوْلٍ على الوَطَن بَعدَه؛ إلاّ أنّ الغَرْب ـ على عِلاّتِه ـ لا يرْجَحُه غيْرُه.

والأنْدَلُس اليومَ شيخُ غُزاتِها الأمير عبدُ الرّحمن بن عليّ ابن السُّلْطان أبي عَليّ، بعدَ وفاةِ الشّيخِ أبي الحَسَن، عليّ بن بَدْر الدّين، رحمَه الله. وقد استقَرَّ بها ـ بعدَ انصرافِ سَيّدي ـ الأميرُ المذكور، والوَزير مَسْعود بن رَحُّو، وعمر بن عُثْمان بن سُلَيمان.

والسُّلْطانُ مَلِكُ النّصارى بِطْرُه، قد عادَ إلى مُلكِه بإشبيلِيَة، وأخُوه مُجْلِبٌ عليه بقَشْتَالَة، وقُرطُبَةُ مُخالفةٌ عليْه، قائمةٌ بطائفَةٍ من كِبار النّصارى[ب] الخَائفِين على أنفُسِهم، داعِينَ لأخيه؛ والمُسْلِمُون قد اغتَنَموا هُبُوبَ هذه الرّيح. وخرَق الله لهم عوائدَ في بابِ الظُّهور والخير، لم تَكن تَخطُر في الآمال. وقد تلَقَّب السُّلْطان ـ أيّدَه الله ـ بعَقِب هذه المكَيِّفات، بـ "الغَنيّ بالله"، وصَدَرت عنه مُخاطَبات، بمُجمَلِ الفُتوح ومفَصَّلِها، يعظُمُ الحِرصُ على إيصالها[ج] إلى تِلك الفَضائل لو أمكَن.

وأمَّا ما يرجِعُ إلى ما يَتَشَوَّف إليه ذلك الكمالُ من شُغل الوقت؛ فصَدَرت تقاييد، وتصانيف، يُقال فيها ـ / بعد ما أَعْمَلَته تلك السّيادة من الانصراف ـ يا إبراهيم، ولا إبراهيمَ اليوم. [349 أ]

منهَا: أنّ كتاباً رُفِع إلى السُّلطانِ في المَحَبَّة، مِن تَصْنيف ابن أبي حَجَلَة من المَشَارِقَةِ[1]، أشارَ الأَصحابُ بمعارَضَته، فعارضتُه، وجعلتُ المَوضوعَ أشرفَ، وهو

(أ) ظ: نفسه، وكانت كذلك في آيا صوفيا، وأبدلت (ب) آيا صوفيا: النصرين (ج) ظ، آيا صوفيا: اتصالها، ومهملة في أ

(1) عدّه ابن خلدون مشرقياً، لكنه تلمساني، ولد في المغرب واستوطن القاهرة. والكتاب المذكور هو ديوان الصبابة.

مَحَبَّةُ الله؛ لجاء كتاباً ادَّعَى الأصحابُ غرابتَه. وقد وُجِّه إلى المَشرق صُحْبَةَ كِتاب: تَاريخ غَرْناطَة، وغيره من تآليفي. وتُعُرِّف تحبيسهُ بخانقَاه سَعيد السُّعَداء مِن مِصر؛ وانثالَ النَّاسُ عليْه، وهو في لَطافة الأغراض، يتكلَّف أغراضَ المشارِقة. مِن مُلَحِه:

[من الدُّوبيت]

سَلَّمتُ لِمصْرَ في الهَوى من بَلَدِ ... يَهْدِيــه هَــوَاؤه لَدى استِنـشَاقِهِ
مَن يُنْكِرُ دَعْوايَ فقُل عَنِّي لَـهُ ... تَكفي امرأَةُ الْعَزِيزِ من عُشَّاقِـهِ[1]

والله يرزقُ الإعانةَ في انتِساخِه وتَوجِيهِه.

وصَدَر عنِّي جُزءٌ سَمَّيتُه: الغَيْرَة على أَهْل الحَيْرَة؛ وجزءٌ سمَّيته: حَمْل الجُمْهُور على السَّنَنِ المَشهُورِ. والإكبابُ على اختِصَار كتاب التَّاج للجَوْهَرِيّ، وردُّ حَجْمه إلى مِقدار الخُمُس، معَ حِفظِ ترتيبه السَّهْل؛ والله المعينُ على مَشْغَلَةٍ تُقطَعُ بها هَذِه البُرْهةُ القَرِيبةُ البِدَاءَة من التَّتِمَّة، ولاَ حولَ ولا قُوةَ إلاَّ بالله.

والمَطلوبُ المُثابَرةُ على تعْريفٍ يَصِلُ مِن تلكَ السِّيادَةِ والبنُوَّة؛ إذ لا يَتعَذَّر وُجود قَافِلٍ من حَجٍّ، أو لاَحقٍ بتلِمْسان، يبعَثُها السَّيد الشَّرِيف مِنها؛ فالنَّفْس شَديدة التَعطُّشِ، والقُلوبُ قَد بَلَغَت ـ من الشَّوقِ والاستِطْلاع ـ الحناجِر.

والله أَسأَلُ أَنْ يَصُونَ في البُعْدِ وَدِيعتي منك لَدَيه، ويُلْبِسَك العافيةَ، ويخلِّصك وإيّاي من الوَرْطَة، ويحمِلَنا أجمعِينَ على الجادَّة، ويختِمَ لنا بالسَّعادة.

---

(1) ورد البيتان في مقدمة كتاب المحبة لابن الخطيب، ممّا حفظه المقري في نفح الطيب 6: 280.

والسَّلامُ الكريمُ عَوْداً على بَدْء، ورحمةُ الله وبركاتُهُ، من المُحبّ المتَشَوّق، الذَّاكر الدَّاعي، ابنِ الخَطيب. في الثَّاني من جُمادى الأولى[أ] من عام تِسعة وستّين وسَبْعِمائة. انتهى.

فأجَبتُه عن هذه المُخاطَباتِ، وتفادَيْتُ من السَّجع خشيةَ القُصورِ عن مُساجَلتِه، فلَم يكُن شَأْوهُ يُلْحَق. ونَصّ الجَواب:

[349 ب] / "سَيِّدي مَجْداً وعُلُواً، ووَاحِدي ذُخْراً مَرْجُوّاً، ومَحَلَّ وَالِدي بِرّاً وَحُنُوّاً. ما زالَ الشَّوقُ - مذ نأت بِي وبك الدَّار، واستَحْكَمَ بيننا البِعاد - يُرْعِي سَمْعِي أنباءك، ويُخَيّلُ إليّ من أيدِي الرِّياح[ب] تناولَ رَسائلك، حتَّى وَرَد كِتابُك العَزيز على اسْتِطلاع، وعَهْدٍ غَيرِ مُضاع، ووُدٌّ ذي أجناس وأنواع؛ فَنشَر بقَلبي مَيْت السُّلُوّ، وحشَر أنواع المسَرَّات، وقَدح لِلقائك زِنَاد الأمل؛ ومِن الله أسأَل الإمتاعَ بك، قَبلَ الفَـوْت، علـى مـا يُرضيك، ويُسْنِي أمانِيَّ وأمانِيك. وحَيَّيتُه تَحِيَّةَ الهَائم لِمَوَاقع الغَمائـم، والمُدْلِج للصَّباح المتبَلِّج، وأملي[ج] على مُقْتَرَح الأولياء، خصوصاً فيك؛ من اطمئنان الحَال، وحُسْن القَرار، وذهاب الهَواجس، وسكون النَّفْرة؛ وعُموماً في الدَّوْلَةِ، من رُسوخِ القَدَم، وهُبوبِ رِيح النَّصر، والظُّهور على عَدوّ الله، باسترجاع الحُصُون التي استَنقَدُوها[د] في اعتلال الدَّوْلَة، وتَخْريب المَعاقلِ التي هي قَواعد النَّصْرانِيّة؛ غَريبةٌ لا تَثبُتُ إلاَّ في الحُلْم، وآيةٌ من آياتِ الله. وَإنَّ خَبِيئةَ هذا الفَتح في طَيِّ العُصورِ السَّالفة، إلى هـذه المُدَّة الكريمَة، لَدَليلٌ على عِنايةِ الله بتِلـك الـذَّات الشَّريفةِ، حينَ ظهرَتْ[هـ]

(أ) ظ، آيا صوفيا: الأوّل (ب) ظ: الرماح (ج) آيا صوفيا: أمل (د) آيا صوفيا: استنفدوها (هـ) ظ: ظهر

على يَدِها خَوارقُ العادة، وما تَجدَّد آخرَ الأيّامِ من مُعجِزات المِلَّة؛ ولكُم فيها - والحمدُ لله - بحُسن التَّدبير، ويُمْن النَّقيبةِ، من حَمِيد الأثَرِ، وخَالِد الذِّكر، طرازٌ في حُلَّة الخِلافة النَّصْريّة، وتَاجٌ في مَفْرِق الوزارةِ. كتبَها الله لكم فيما يَرضَاه[(أ)] من عبادِه.

ووَقَفْتُ عليه الأشرافَ من أهْلِ هذا القُطْر المحروس؛ وأَذَعْتُهُ في المَلأ سُروراً بعزِّ الإسلام، وإظهاراً لنِعْمة [الله][(ب)]، واستطراداً لذكر الدَّوْلَة المَوْلويّة بما تَستَحقُّه مِن طَيِّب الثَّناء، والتِماس الدُّعاء، والحديثِ بنِعمتِها، والإشادةِ بفضْلها على الدُّوَل السَّالِفة والخَالِفة وتَقدُّمها، فانشرَحت الصُّدور حِباءً[(ج)]، وامتلأت القُلوب إجْلالاً وتَعْظِيماً، وحسُنَت الآثارُ اعتقاداً ودُعاءً.

وكان كتابُ سيِّدي لشَرفِ تِلكَ الدَّوْلَة عُنواناً، ولِمَا عَساهُ يستعجِمُ من لُغَتي في مَنَاقِبِها تَرجُماناً؛ زادَه الله من فضْله، وأَمتعَ المُسْلمين [ببقائه][(د)]. وبَثَثْتُه[(هـ)] شكوى الغَريب، من / الشَّوق المُزْعِجِ، والحَيرة التي تكاد تَذْهب بالنَّفْس أسَفاً، للتَّجافي عن مِهاد الأَمْنِ، والتَّقْويض[(و)] عن دارِ العزِّ، بين المولى المُنعِم[(ز)]، والسَّيِّد الكريمِ، والبلَد الطَّيِّبِ، والإخوان البَرَرة؛ ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [1350]

[سورة الأعراف، الآية 188].

وإن تَشَوَّفَت السِّيادةُ الكريمةُ إلى الحَالِ، فعلى ما علِمتُم، سَيراً مع[(ح)] الأمَل، ومُغالَبةً للأيّام على الحَظّ، وإقطاعاً للغَفْلةِ جانبَ العُمر: [من الكامل]

(أ) ظ: ترضاه، ومهملة في أ (ب) ساقطة من ظ، وفيها: إظهار النعمة، ولفظ الجلالة مقحم في آيا صوفيا (ج) ظ: حُبّاً، آيا صوفيا: حبا (د) ساقطة من ظ (هـ) ظ، أ، آيا صوفيا: وبثثه (و) ظ: والتفويض، ومهملة في أ (ز) ظ: دار العزيز المولى النعم (ح) ظ: من

هَل نَافِعِي والجِدُّ في صَبَبٍ   مَرِّي معَ الآمَالِ في صَعَدِ[1]

رَجَعَ الله بنا إليه. ولعلَّ في عِظتكم النّافِعة، شِفاءَ هذا الدَّاء العَيَاء، إنْ شاء الله؛ على أنّ لُطف الله مُصاحب، وجِوارَ[أ] هذه الرِّياسة المُرْتيّة ـ وحسبُك بها عَلَمِيةً ـ عِصمةٌ وافية، صَرفت وجهَ القَصد إلى ذَخِيرتي التي كنتُ أعتدُّ منها كما عَلِمتم، على حِين تَفَاقُم الخَطْبِ، وتلَوُّن الدَّهْر، والإفلاتِ من مَظانِّ النَّكبةِ، وقد رتَعتُ حولَها؛ بعدَ ما جرّته الحادِثة بمَهْلِك السُّلْطان المرحوم على يد ابنِ عَمّه، قَرِيعِهِ فِي المُلْكِ، وقَسيمِهِ فِي النَّسبِ؛ والتِياثِ الجاه، وتغيُّرِ السُّلْطان، واعتقالِ الأخِ الخَلَف، واليأسِ منه، لولا تَكيِيفُ الله في نَجاته، والعَيْث بعده في المنزل والولَد، واغتصاب الضِّياع المُقْتَناة من بَقايا ما مَتَّعت به الدَّوْلَة النَّصْريّة ـ أبقاها الله ـ من النِّعمةِ؛ فآوَى إلى الوَكْرِ، وساهَمَ فِي الحادِث، وأشرَك في الجَاهِ والمالِ، وأعانَ على نوائبِ الدَّهرِ، وطلَبَ الوِتر، حتَّى رَأَى الدّهرُ مكَاني، وأمّلَ المُلوكُ استخلاصِي، وتَجارَوا في إتحافي. والله المُخلِّص من عِقال الآمالِ، والمُرْشِدُ إلى نَبْذِ هذه الحُظوظ المُورِّطة.

وأنبأني سَيّدي بِما صَدر عنه من التَّصانيف الغَريبة، والرَّسائل البَليغة، في هذه الفُتوحات الجَليلة، وبِوُدّي لو وَقَع الإتحافُ بها أو بعضِها، فلقد عادَني النَّدَمُ على ما فَرَّطتُ.

وأمّا أخبارُ هذا القُطر، فلا زِيادةَ على ما علِمتُم؛ من استقرارِ السُّلْطان أبي

[أ] ظ: مصاحب من جوار

(1) للشريف الرضي، انظر ديوانه 1: 368.

إسحاق ابن السُّلْطان أبي يَحْيَى بتُونِس، مستَبِدّاً بأمره بالحَضْرة بعد مَهْلِك شَيْخ المُوَحِّدين، أبي مُحَمَّد بن تَافَرَاكِين القائم بأمرِه، رحمة الله عليه؛ مُضَايِقاً في جِبَايَة[أ] الوطن، / [350 ب] وأحكامه بالعَرب المستظهِرين بدَعوته، مُصانعاً لهم بوَفره على أمان الرَّعايا والسَّابِلَة، لو أمكن، حسَن السِّياسة جهدَ الوقت؛ ومن انتظام بِجَايَةَ، محلّ دولتنا، في أمر صاحِب قُسَنطِينَةَ[ب] وبُونَه، غِلاباً كما عَلِمتُم، مُحَمَّلاً[ج] الدَّوْلَة بصَرامته[د] وقوّة شَكيمتهِ فوقَ طوقها، من الاستبداد والضّرب على أيدي المُتغلّبين[هـ] من الأعرابِ، مُنتَقَض الطّاعة أكثرَ أوقاتِه لذلك، إلاّ ما شَمل البلادَ من تغلُّب العرَبِ، ونقص الأرض من الأطرافِ والوسَطِ، وخُمود ذُبال الدُّول في كلّ جهةٍ؛ وكلُّ بداية فإلى تَمام.

وأمّا أخبارُ المغربِ الأقصى والأدنى فلَدَيكم طِلْعُه، وأمّا المَشرِقُ فأخبر الحاجّ هذه السّنةَ من اختلالِه، وانتقاض سُلْطانه، وانتزاءِ الجُفاة على كرسيّه، وفسادِ المصانع والسِّقايات المُعدَّةِ لوَفْد الله وحاجّ بَيْته، ما يُسخِن العينَ وَيُطِيل[و] البَثّ، حتّى لزعموا أنّ الهَيْعَة اتّصلت بالقاهرة أيّاماً، وكثُر الهَرْج في طُرُقاتِها[ز] وأسواقها، لِما وقَع بين سَندَمُر المتغلّب بعد يَلْبُغا الخاصكيّ[ح]، وبين سُلْطانه، ظاهرَ القلعة، من الجَوْلة الّتي كانت دائرتُها عَليه. أجلَت عن زُهاء الخَمسمائة قتْلَى، من حاشيته وموالي يَلْبُغا؛ وتقبّض على الباقين، فأودَع منهم السّجون، وصلّب الكثير، وقتل سَندَمُر في مَحْبِسه، وأُلقِي زمامُ الدَّوْلَة بيد كبيرٍ من موالي السُّلْطانِ، فقام بها مُستبدّاً،

(أ) آيا صوفيا: جباية (ب) آيا صوفيا: قسطه (ج) ظ: محلاً (د) في ظ أخّرها إلى ما بعد: طوقها (هـ) ظ: المستغلبين.
(و) ظ: ويُطيرُ (ز) ظ: أزقتها (ح) أ، آيا صوفيا: الخاسكي

وقادَها مستقلاً؛ وبيد الله تصاريفُ الأمورِ، ومظاهر الغُيوب، جَلَّ وعَلاَ.

ورَغْبتي من سيّدي - أبقاه الله - أنْ لا يُغِبَّ خطابه عنّي، متى أمكن، يَصِلُ بذلك مِنَنَه الجَمَّة، وأنْ يُقَبِّل عنّي أقدام تلك الذّات المَوْلوِيّة، ويعرِّفَه بِما عندي من التّشيُّع لسلطانِه، والشّكر لنعمته، وأن تُهوا عنّي لحاشيته وأهل اختصاصِه، التحيّةَ المختلَسة من أنْفاسِ الرّياضِ، كبيرِهم وصغيرِهم.

وقد تأدّى منّي إلى حضرتِه الكريمة خطابٌ على يد الحاجّ نافع - سلّمه الله - تَناولَه من الأخ يَحْيَى عندَ لقائه إيّاه بتِلْمسان، بحضرة السُّلْطان أبي حَمّو - أيّدَه الله - فربَّما يصل، وسيّدي يُوضِّح من ثَنائي ودُعائي ما عَجَزَ عنه الكتاب. والله يُبقيكم ذُخراً [351 أ] للمسلمين، ومَلاذاً / للآمِلين بفضله.

والسّلام الكريم [عليكم][أ]، وعلى مَنْ لاذَ بِكم من السّادة الأولاد المناجيب، والأهل والحاشية والأَصْحاب، من المُحِبِّ[ب] فيكم، المعتدِّ[ج] بكم، شيعةِ فَضْلكم، ابن خَلْدون، ورحمة الله وبركاته.

عنوانُه: سيّدي وعِمادي، وربُّ الصّنائع والأيادي، والفضائل الكريمة الخواتم والمبادي، إمامَ الأُمّة، علَمَ الأئمة، تاجَ الملّة، فخرَ العُلَماء الجِلّة، عِمادَ الإسلام، مُصطَفى المُلُوك الكِرام، نُكتةَ الدُّول، كافلَ الإمامة، تاجَ الدّول، أثيرَ الله، وليِّ[د] أمير المسلمين الغنيِّ بالله - أيّدَه الله - الوزيرُ أبو عَبد الله بن الخطيب، أبقاهُ الله، وتولّى عَنِ المُسلمين جزَاءه".

(أ) ساقطة من ظ، وفي آيا صوفيا (عليك) مقحمة (ب) ظ: المحبة (ج) أ: المعتمد (د) ظ: ولد

وكتبَ إليَّ من غَرْناطَة:

"يا سيّدي ووَلِيّي، وأخي ومحلَّ ولدي! كان الله لكم حيث كنتم، ولا أعدَمكم[أ] لُطْفَه وعنايتَه. لَو كان مُستقَرّكم بحيث يتأتّى لِي إليه تَرديدُ رسول، أو إيفاد[ب] مُتطلِّع، أو تَوجيهُ نائب، لرجَعتُ على نفسي باللأئمَة في إغفال حَقّكم؛ ولكنَّ العذرَ ما علمتم؛ واحمدوا الله على الاستقرار في كَهْف ذلك الفَاضل الذي وسِعكم كَنَفُه. وشَمِلكم فضلُه، شَكَرَ الله حسَبَه الذي لم يُخْلِف، وشُهرَتَه التي لم تَكذِب.

وإنّي اغتنمتُ سفَرَ هذا الشّيخ، وافِدِ الحَرمين، بمجْموع الفُتوح، في إيصال كتابي هذا، وبودي لو وقَفتُم على ما لديه من البضاعة التي أنتم رئيسُها وصَدرها، فيكُون لكم في ذلك بعضُ أُنس، وربّما تأدّى ذلك في بَعْضِه ممّا لم يُختَم عليه، وظاهرُ الأمور نُحيل[ج] عليه في تعريفكم بها، وأمّا البواطن[د] فمِمّا لا يتأتّى كَثرةً وضَنانةً، وأخُصّ، بالصّاد - ما أظنّ تشوُّفكم إليه - حالي. فاعلموا أني قد بَلَغ بي الماء الزُّبى، واستولى عليَّ سوء المزاج المنحَرِف، وتَوالت الأمرَاض، وأعوزَ العِلاج، لبقاء السَّبَب، والعَجْزِ عن دَفعه، وهي هذه المُداخلة، جعَل الله العَاقبة فيها إلى خير؛ ولم أترك وجهاً من وجوه الحيلة إلاّ بَذلتُه، فما أغنَى ذلك عنّي شيئاً، ولولا أنّني، بعدَكم، شَغَلتُ الفكر بهذَر التأليف، مع الزُّهد، وبُعْد العهد، وعدَم الإلماع بمطالعة الكُتب، لم يتَمشّ حالي من طريق فَساد الفِكْر إلى هذا الحدّ؛ وآخرُ ما صدَرَ عنّي كُنّاش سَمَّيتُه باستنْزال / [351 ب] اللُّطف الموجود، [في أَسْر الوجود][هـ]، أمليتُه في هذه الأيّامِ التي أُقيمُ بها رسمَ النيابة

(أ) ظ: أعدكم (ب) ظ: اقاد (ج) ظ: تحيل، ومهملة في آيا صوفيا (د) أ: الواطن (هـ) سقط ما بين الحاصرتين من ظ

عن السُلطان في سَفَره إلى الجهادِ، يؤدّي لو وقفتم عليه، وعلى كتابي في المحبّة، وعسى الله أنْ يُيسّرَ ذلكَ.

ومع هذا كلّهِ، والله ما قصّرتُ في الحِرْصِ على إيصالِ مكتوبٍ إليكم، إمّا من جهةِ أخيكم، أو من جهةِ السّيّد الشّريفِ أبي عَبد الله، حتّى من المغرب، إذا سمعتُ الرَّكب يتوجّه منه، فلا أدري هل بلَغَكم شيءٌ من ذلك أم لاَ؟ والأحوالُ كلُّها على ما تركتموها عليه، وأحبابُكم بخير، على ما علمتم من الشّوق والتّشوّف والارْتماض لمفارقتكم، ولا حَولَ ولا قوّةَ إلاّ بالله.

والله يحفظُكم، ويكون لكم، ويتولّى أُمورَكم؛ والسّلام عليكم ورحمة الله، من المُحبّ الوَاحِش، [الشّيخ][أ] ابن الخطيب. في غُرّةِ ربيع الثّاني من عام أحد وسبعين وسَبعمائة".

وبباطنهِ مُدرَجةٌ نَصُّها:

"سيّدي، رضيَ الله عنكم. استقرّ بتِلِمْسانَ، في سبيل تقلّبٍ ومطاوعة[ب] مزاج تعرفونَهُ، صاحبُنا المقدّم في صَنْعَةِ الطّبّ، أبو عبد الله الشّقُوريّ، فإنْ اتّصل بكم فأعينوه على ما يَقِف عليه اختيارُه، وهذا لا يُحتاجُ معه إلى مثلكم.

عنوانه: سيّدي ومحلّ أخي، الفقيهَ الجليل، الصّدرَ الكبير المعظّم، الرّئيسَ الحاجب، العالم الفاضل، الوزير ابنَ خَلْدون، وصَل الله سعدَه، وحَرَس مجده، بمنّهِ".

وإنَّما طولّتُ بذكر هذه[ج] المُخاطبات، وإنْ كانت - فيما يظهر - خارجةً عن غرَضِ

(أ) ساقطة من ظ (ب) ص: ومصارعة (ج) ساقطة من أ

الكتاب، لأنّ فيها كثيراً من أخباري، وشرح حالي، فيستوفي ذلك منها مَنْ يتشوّف إليه مِن المطالعين للكتاب.

ثمّ إنّ السُّلْطان أَبَا حَمُّو لم يزل مُعتمِلاً في الإجلاب على بِجَايَة، واستئلاف قبائلَ رياحٍ لذلك، ومعوّلاً على مُشايَعتي فيه، ووَصْلِ يدِه، مع ذلك، بالسُّلْطان أبي إسحاق ابن السُّلْطان أبي بكر، صاحب تُونِس، من بني أبي حَفْص، لِمَا كان بينه وبين أبي العبّاس، صاحب بِجَايَة وقُسَنطِينة، وهو ابن أخيه، من العداوة التي تقتضيها مُقاسمة النَّسَب والمُلك، وكان يوفِد رُسلَه عليه في كلّ وقتٍ، ويمُرّون بي، وأنا بِبَسْكَرَة، فأوْكَد الوُصْلَة بمخاطبة كلّ منهما؛ وكان أبو زيّان، ابن عمّ السُّلْطان أبي حَمُّو، بعدَ إجفاله عن بِجَايَة، واختلال مُعَسكرِه، قد سَار في أثره إلى تِلِمْسَان، وأجْلَب على نواحيها، فلم يظفر بشيءٍ، وعاد / إلى بلاد حُصَين، فأقام بينهم، واشتملوا عليه، ونَجَم [352أ] النفاقُ في سائر أعمال المغرب الأوسط، واختلف أحياء زُغْبَةَ على السُّلْطان، وانتبذ الكثير عنه إلى القَفر، [ولم يزلْ][أ] يَستَألفهم حتَّى اجتمعَ له الكثيرُ منهم، فخرج في عساكره مُنتصَف تسع وستِّين إلى حُصَين وأبي زيَّان، واعتصموا بجبَل تِيطَرِي، وبعث إليّ في استنفار الدَّوَاوِدَة[ب] للأخذ بحُجُزَتِهم من جِهَةِ الصَّحراء، وكتب يستدعي أشياخَهم: يعقوبَ بنَ عليّ، كبيرَ أولاد مُحَمَّد، وعُثمانَ بن يُوسُف، كبيرَ أولاد سِباع بن يَحْيَى. وكتب إلى ابن مُزْني، قعيدةِ وطنهم بإمدادهم في ذلك، فأمدَّهم؛ وسِرنا مُغرِّبين إليه، حتَّى نزلنا القَطْفَا، قِبلَةَ تِيطَرِي[ج]، وقد أحاط السُّلْطان به من جانب التَّل، على أنَّه إذا فرغ من شأنهم سَار معنا إلى بِجَايَة.

(أ) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ب) آيا صوفيا: الذواودة (ج) ضبطها في أ بفتح الأول

وبلغ الخبرُ إلى صاحب بِجَايَة أبي العبّاس، فاستألف مَن بقي من قبائل رِيَاح، وعسكَر بطرف ثنيّة القِصَاب، المُفضِيَة إلى المَسِيلَة. وبينما نحنُ على ذلك، اجتمعَ المخالفون من زُغْبَة، وهم: خالد بن عامر، كبير بني عامر، وأولاد عَرِيف، كبراء سُوَيْد، ونهَضُوا إلينا بمكاننا من القَطْفَا، فأجفلت أحياء الدَّوَاودة(أ)، وتأخّرنا إلى المَسِيلَة، ثمّ إلى الزّاب، وسَارت زُغْبَةُ إلى تِيطَرِي، واجتمعوا مع أبي زيّان وحُصَيْن، وهجموا على مُعَسْكر السُّلْطان أبي حَمُّو، ففَلُّوه، ورجع مُنهَزِماً إلى تِلِمْسان، ولم يزل من بعد ذلك على استئلاف زُغْبَة ورياح، يؤمّل الظّفَرَ بوطنه وابنِ عمّه، والكرّةَ على بِجَايَة عاماً فعاماً، وأنا على حالي [في مُشايعتِهِ](ب)، وإيلاف ما بينه وبين الدَّوَاوِدَة، والسُّلْطانِ أبي إسحاق صاحِب تُونس، وابنه خالد من بعدِه.

ثمّ دخلت زُغْبَةُ في طاعتِهِ، واجتمعوا على خِدمته، ونهض من تِلِمْسان لشِفاءِ نفسه من حُصين وبجَاية، وذلك في أخرَيات إحدَى وسبعين؛ فوفَدْتُ عليه بطائفة من الدَّوَاوِدَة(ج)، أولاد عُثْمان بن يُوسُف بن سُلَيمان، لنشارفَ أحواله، ونطالَعه بما يَرسم لهم في خِدمته، فلقيناه بالبطحاء، وضَرب لنا موعداً بالجزائر، انصرف به العَرَبُ إلى أهليهم، وتخلّفتُ بعدَهم لقضاءِ بعض الأغْراض واللّحاق بهم، وصلّيت به [352 ب] عيدَ الفِطْر على البَطْحاءِ، وخَطَبتُ به، وأنشدتُه / عِند انصرافه من المصلَّى أُهَنِّيه بالعيد، وأُحَرِّضُه: [من الكامل]

هـذي الدّيــارُ فحيِّهــنَّ صباحَـا ... وقِـفِ المطايـا بينهـنَّ طِلاحَـا
لا تَسأل الأطلالَ إن لـم تَروِهـا ... عبـراتُ عَيْنـك واكفاً مُمْتاحَـا

(أ) آيا صوفيا: الذواودة (ب) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ج) آيا صوفيا: الذواودة

فلقَد أخـذْنَ على جُفونك مَوْثِقاً　　أن لا يَـرَيْنَ مـع البِعَـادِ شِحَاحَـا
إيـهِ عــن الحـيِّ الجميـع وَربَّمـا　　طـرِبَ الفـؤاد لذكـرِهم فارتاحَـا
ومنازِلٍ للظّاعنيـن استَعجَمـت[أ]　　حُزْناً وكانت بالسُّـرورِ فِصَاحَـا

وهي طويلة، ولم يبقَ في حِفظِي منها إلاّ هذا.

وبينما نحن في ذلك، بلغ الخبر بأنّ السُّلْطان عبدَ العزيز، صاحبَ المغرب الأقصى من بني مَرِين، قَد استولى على جبل عامر بن مُحَمَّد الهِنتَاتيّ بمَرَّاكُش، وكان آخذاً بمُخَنّقِه منذُ حَوْلٍ، وساقه إلى فاسَ، فقتله بالعَذابِ، وأنّه عازم على النّهوض إلى تِلِمْسَان، لما سَلَف من السُّلْطان أبي حَمُّو أثناءَ حِصَار السُّلْطان عبد العزيز لعامر في جَبَله، من الإجْلاب على ثغور المغرب؛ ولحِينِ وصول هذا الخبر؛ أضرب السُّلْطان أبو حَمُّو عن ذلك الشّأن الذي كان فيه، وكَرَّ راجعاً إلى تِلِمْسان، وأخذَ في أسباب الخروج إلى الصّحراء، مع شيعة بَنِي عامر مِن أحياء زُغْبَة. فاستألف، وجَمَع، وشدّ الرّحال، وقَضَى عيدَ الأضحَى. وطلبتُ منه الإذنَ في الانصراف إلى الأَنْدَلُس، لتعذّر الوجْهَة إلى بلاد رِيَاح، وقد أظلَمَ الجوُّ بالفِتْنة، وانقطعت السُّبُل؛ فأذِن لي، وحمَّلني رسالةً فيما بينه وبين السُّلْطان ابن الأَحْمَر، وانصرفتُ إلى المرسَى بهُنَيْن؛ وجَاءَهُ الخبَرُ بنزول صاحِبِ المَغْرب تَازَا في عساكره، فأجفَل بَعدِي من تِلِمْسان، ذاهباً إلى الصَّحراء على طريق البَطْحَاء، وتعذّر عليَّ ركوبُ البَحْرِ من هُنَيْن، فأقصرت، وتأَدّى

(أ) ظ: استجمعت

الخَبَر إلى السُّلْطان عبد العزيز بأنّي مقيم بهُنَيْن، وأنّ معي وديعةً احتملتُها إلى صاحب الأنْدَلُس، تَحَيَّل(أ) ذلك بَعْض الغُواة، فكتبَ به إلى السُّلْطان عَبْد العزيز، فأنفذ من وقته سَرِيّة من تازا تعْتَرضني لاسترجاع تلك الوَديعة، / [353 أ] واستمرَّ هو إلى تِلِمْسان؛ ووافتني السَّرِيّة بهُنَين، وكشفوا الخبر، فلم يقِفوا على صِحّته، وحملوني إلى السُّلْطان، فلقيتُه قريباً من تِلِمْسان؛ واستكشفَني عن ذلك الخبر، فأعلَمْتُه بيَقينه، وعنَّفني على مُفارقة دارهم، فاعتذرتُ له بما كان من عُمَر بن عبد الله، المستبدّ عليهم، وشَهِد لي كبيرُ مجلسه، ووليّ أبيه وابنُ وليّه: وَنْزْمار بن عَرِيف، ووزيرُه عُمَر بن مَسْعود بن منديل بن حَمامة؛ واحتفّت الألطاف، وسألني في ذلك المجلس عن أمر بِجَاية، وأفهمني أنّه يروم تملُّكَها، فهوَّنتُ عليه السَّبيل إلى ذلك، فسُرَّ به، وأقمتُ تلك اللَّيلة في الاعْتقال. ثمّ أطلقني من الغد، فعمدت إلى رباط الشّيخ الولي أبي مَدْيَن، ونزلتُ بجواره، مُؤثِراً للتَّخَلّي والانقطاعِ للعلم، لو تُرِكْتُ له.

مُشَايَعَةُ السُّلْطان عَبْد العَزيز، صاحب المَغْرِب، على بَني عَبْد الوَاد

ولمَّا دخلَ السُّلْطانُ عبدُ العزيزِ تِلِمْسانَ، واستولَى عليها، وبلغَ خبرُه إلى أبي حَمُّو، وهو بالبَطْحاءِ، فأجفل من هنالك، وخرج في قَوْمِه وشِيعتِه من بني عامر، ذاهباً إلى بلاد رِياح، فسرّح السُّلْطان وزيرَه، أبا بكْر بن غازي، في العساكر

(أ) ظ: تحيل، ومهملة في أ، ولعلها من اتخاذ الحيلة

لاتّباعه، وجمع عليه أحياء زُغْبَة والمَعْقِل باستِئلاف وليّه ونَزْمَار وتدبيره؛ ثمّ أعْمَل السُّلطانُ نَظرَه، ورأى أنْ يُقدّمني أمامَه إلى بلاد رياح لأُوطِّدَ أمرَه، وَأحْمِلَهم على مُناصرته، وشِفاء نَفْسه من عَدوّه، بما كان السُّلطان آنس منّي من استِتْباع رياح، وتصريفهم فيما أريدُه من مَذاهب الطّاعة. فاستدْعاني من خَلْوَتي بالعُبّاد، عند رباط الوَليّ أبي مَدْيَن، وأنا قد أخذتُ في تدريسِ العلمِ، واعتزمتُ على الانقطاع؛ فآنسني، وقرّبني، ودعاني إلى ما ذهب إليه من ذلك، فلم يسعني إلاّ إجابتُه، وخلَع عليّ، وحَمَلني؛ وكتب إلى شُيوخ الدَّوَاوِدَة[أ] بامتثال ما أُلقيه إليهم من أوامره؛ وكتب إلى يعقوب بن عليّ، وابن مُزْني بمُساعدتي على ذلك، وأنْ يحاولوا على استِخْلاص أبي حَمُّو من بين أحْياءِ بني عامر، ويحوّلوه إلى حيّ يعقوب / بن عليّ؛ فودّعتُه، [353 ب] وانصرفتُ في عاشوراء ثنتَين وسبعين؛ فلحقتُ الوزير في عساكرِه وأحياءِ العرب من المَعْقِل وزُغْبَة على البَطْحاء، ولقيتُه، ودفعت إليه كتاب السُّلطان، وتقدّمتُ أمامه؛ وشيّعني ونَزْمار، يومئذٍ، وأوصاني بأخيه مُحَمّد، وقد كان أبو[ب] حَمُّو قَبض عليه عندما أحسَّ منهم بالخلاف، وأنّهم يَرومون الرِّحلة إلى المغرب، وأخرجه معه من تِلِمْسان مُقيّداً، واحتمله في مُعَسكره، فأكّد عليَّ ونَزْمار، يومئذٍ، في المحاولة على اسْتِخْلاصِه بما أمكن، وبعث معي ابنَ أخيه عيسى في جماعة من سُوَيْد يُبَذْرِق بي، ويتَقَدّم إلى أحياء حُصَين بإخراجِ أبي زَيّان من بينهم، فسرنا جميعاً، وانتهينا إلى أحْياء حُصَين، وأخبرهم فرح[ج] بن عيسى بوصيّةِ عَمّه ونَزْمَار إليهم، فَنبَذوا إلى أبي

(أ) آيا صوفيا: الذواودة (ب) ظ: ابن (ج) آيا صوفيا: فرج

زيّان عهدَه، وبعثوا معه منهم من أوْصَله إلى بلاد رياح، ونزل على أولاد يَحْيَى بن عليّ بن سِبَاع، وتوغّلوا به في القَفْر، واستمَرّيتُ أنا ذاهباً إلى بلاد رياح؛ فلمّا انتهيت إلى المَسِيلَة ألفيتُ السُّلْطانَ أبا حَمُّو وأحياءَ رياح مُعسكِرِين قريباً منها في وطنِ أولادِ سِباع بن يَحْيَى من الدَّوَاوِدَة[أ]، وقد تَسَاتلوا إليه، وبذَلَ فيهم العَطاء ليجتمعوا إليه، فلمّا سمعوا بمكاني بالمَسِيلَة، جاءوا إليّ، فحملتُهم على طاعة السُّلْطان عبد العزيز، وأوفدتُ أعيانَهم وشيوخَهم على الوزير أبي بكر بن غازي، فلقوه ببلاد الدَّيَالِم عند نَهر وَاصِل، فآتوه طاعَتَهُم، ودعَوه إلى دخول بلادِهم في اتباع عدوّه، ونهَض معهم، وتقدّمتُ أنا من المَسِيلَة إلى بَسْكَرَة[ب]، فلقيتُ بها يَعقوب بن علي، واتّفق هو وابن مُزْنِي على طاعة السُّلْطان، وبعث ابنه مُحَمَّداً للقاء أبي حَمُّو وأميرِ بني عامر، خالد ابن عامر، يدعوهم إلى نُزول وطَنه، والبُعد به عن بلاد السُّلْطانِ عبدِ العزيز، فوجَدهُ متدلّياً من المَسِيلَة إلى الصَّحراءِ، ولقيه على الدَّوْسَن، وبات لَيْلَتَهُ يعرض عليهم التحوّل من وَطَنِ أولاد سِبَاع إلى وطنهم بشرقيّ الزَّابِ، وأصبح يومَه كذلك، فما راعهم آخرَ النّهار إلاّ انتشارُ العَجاج خارجاً إليهم من / [354أ] أفواه الثَّنِيَّة، فركبوا يستشرفون، وإذا بهوادي الخيل طالعة من الثَّنِيَّة، وعساكرُ بني مَرِين والمَعْقِل وزُغْبَة متتالية أمام الوزير أبي بكر بن غازي، قد دلَّ بهم الطّريق وفدُ أولاد سِبَاع الذين بعثهم من المَسِيلَة؛ فلمّا أشرفوا على المُخَيَّم، أغاروا عليه مع غروب الشّمس، فأجفل بنو عامر، وانتُهِب مُخَيَّم السُّلْطان أبي حَمُّو ورحائله وأموالُه، ونجا بنفسه تحتَ اللَّيلِ، وتمزَّق شملُ ولده وحُرَمه، حتَّى خَلَصوا إليه بعد أيّام، واجتمعوا بقصور مُصَاب[ج] من

(أ) آيا صوفيا: اللذواودة (ب) أ: البسكرة (ج) في أ وآيا صوفيا وضع تحت الصاد حرف زاي

بلاد الصَّحراء، وامتلأت أيدي العساكرِ والعربِ من نِهابهم، وانطلق مُحَمَّد بن عريف في تلك الهَيْعة؛ أطلقه الموكّلون به، وجاء إلى الوَزير وأخيه[أ] ونَزْمار، وتلقَّوه بما يَجب له، وأقام الوزير أبو بكر بن غازي على الدَّوْسَن أيّاماً أراح فيها، وبعث إليه ابن مُزْني بطاعتِه، وأرْغَد له من الزّاد والعُلُوفة، وارتَحل راجعاً إلى المغرب؛ وتخلَّفتُ بعدَه أيّاماً عند أهْلي بِبَسْكَرة، ثمّ ارتحلتُ إلى السُّلْطان في وَفْدٍ عظيم من الدَّوَاوِدَة، يقدُمُهم أبو دينار، أخو يعقوب بن عليّ، وجماعةٌ من أعيانهم، فسَابقْنا الوزيرَ إلى تِلِمْسان، وقدِمنا على السُّلْطان؛ فوسِعَنا من حِبائه وتَكْرِمته ونُزُله ما بَعُد العَهْد بِمثله، ثمّ جَاء من بعدِنا الوزيرُ أبو بَكر بن غَازِي على الصّحراء، بعدَ أنْ مرَّ بقُصور بَني عامر هُنالك، فخرَّبَها، وكان يومُ قدومه على السُّلْطان يوماً مَشهوداً؛ وأَذِنَ بعدها لوفود الدَّواودة[ب] بالانصراف إلى بِلادهم، وقد كان يَنتظر بهم قُدومَ الوزير، وَوليّه ونَزْمار ابن عَرِيف، فودَّعوه، وبالغ في الإحسَان إليْهم، وانصَرفوا إلى بلادِهم؛ ثمّ أعمل نظرَه في إخراج أبي زيّان من بين أحياءِ الدَّوَاوِدَة[ب] لما خشيَ من رجوعِه إلى حُصَين، فَوامَرَني في ذلك، وأطلقَني إليْهم في مُحاولة انصرافِه عنهم، فانطلقتُ لذلك؛ وكان أحياءُ حُصَين قد توجَّسوا الخِيفة من السُّلْطان، وتنكَّروا له، وانصَرفوا إلى أهلهم بعدَ مَرْجعهم من غَزاتهم مع الوزيرِ، وبادَروا باستدعاء أبي زَيّان من مكانِه عندَ أولاد يَحْيَى بـن علي، وأنزلـوه بينَهـم، واشتملـوا عليه، وعَادوا إلى الخلافِ الذي كانوا عليه أيّام / أبي حَمُّو؛ واشتعل المغرب الأَوسط ناراً، ونَجم صَبيٌّ من بَيْت المُلك في مَغْرَاوَة، وهو حَمْزة بن عليّ بن راشِد؛ فرَّ من مُعسكَر الوزير ابن غَازِي[ج] أيّامَ مُقامه [354 ب]

(أ) ظ: الوزير أخيه (ب) آيا صوفيا: الذواودة (ج) ظ: ابن عنان، أ: ابن غاز

عليها، فاستولى على شَلَف، وبلاد قومه؛ وبعث السُّلْطان وزيرَه عُمَر بن مَسْعود في العساكر لمنازلتِه، وأعيا داؤه؛ وانقطعتُ أنا بِبَسْكَرَة، وحال ذلك ما بيني وبين السُّلْطان إلاّ بالكتاب والرّسالة.

وبلَغني في تلك الأيّام، وأنا بِبَسْكَرَة، مَفَرُّ الوزير ابن الخطيب من الأنْدَلُس، وقُدومُه على السُّلْطان بتِلِمْسان؛ توجُّس الخِيفة من سلطانِه، بما كان له من الاستبداد عليه، وكثرةِ السّعاية من البِطانة فيه، فأعمل الرّحلة إلى الثُّغور الغربيّة لمطالعتها بإذْنِ سُلْطانِه، فلمّا حاذَى جَبلَ الفَتْح، قُفْلَ الفُرْضَةِ، دَخَل إلى الجَبَل، وبيَده عَهْد السُّلْطان عبد العزيز إلى القائدِ هنالك بقَبوله، وأجاز البَحْر من حِينِه إلى سَبْتَة، وسَار إلى السُّلْطان بتِلِمْسان، وقَدِم عَليه بها في يَوْمٍ مشهودٍ، وتلَقّاه السُّلْطان من الحُظْوة والتّقريب وإدرار النِّعَم بما لا يُعْهَدُ مثلُه. وكتَبَ إليَّ من تِلِمْسان يُعَرِّفني بِخَبره، ويُلِمُّ ببَعْضِ العِتاب على ما بَلَغَه من حديثي الأوّل بالأنْدَلُس، ولم يَحضُرْني الآن كِتابُه، فكانَ جوابي عَنه ما نَصُّه:

"الحمد لله، ولا قوّة إلا بالله، ولا رَادَّ لما قَضَاهُ الله.

يا سَيِّدي، ونِعْم الذُّخر لأَبَدِي، والعُرْوَةُ الوُثْقَى التي اعْتَلَقَتْها يَدِي، أُسَلِّم عليكم سلامَ القُدوم على المَخْدُوم، والخُضوع للمَلِك المَتْبُوع، لاَ؛ بل أُحَيِّيكم تَحِيَّةَ المَشُوق لِلمعْشُوق، والمُدْلِج للصَّباح المتَبلِّج، وأُقَرِّر ما أنتُم أعلَم بصحيح عَقْدي فيه من حُبّي لكُم، ومعرفتي بِمقْدارِكم، وذهابي إلى أبعد الغايات في تَعظيمكم، والثّناءِ عليكم، والإشادة في الآفاق بمَناقِبكم، دَيْدَناً معروفاً، وسَجِيَّةً راسخة، يعلم الله، وكَفَى به شهيداً.

وبهذا ـ كما في علمكم ـ قَسَماً ما اختلف لِي فيه أوّلٌ وَآخر، ولا شاهدٌ ولا غائب، وأنتم أعلمُ بما في نَفْسي، وأكبرُ شهادة في خفايا ضميري؛ ولو كنتُ ذاك، فقد سلَف من حقوقكم، وجميل أخْذِكم، واجتلاب الحظّ ـ لو هيّأهُ القَدَر ـ بمساعيكم، وإيثاري بالمكان من سُلْطانِكم، ودَولتكم، ما يَسْتلين/ [1355] معاطفَ القلوبِ، ويَسْتلُّ سَخائمَ الهواجس، فأنا أُحاشيكم مِن استشعار نَبْوَةٍ، أو إخفاق ظَنٍّ؛ ولوْ تَعَلَّق بقلب سَاق حُرٍّ ذَرْءٌ وذَرْءٌ، فحاشَ لله أنْ يَقدح في الخُلوص لكم، أو يرجِّـحَ سوابقكم، إنَّما هو خبيثةُ الفؤاد [إلى][أ] الحَشْـر أو اللّقاء. ووالله، وجميعِ[ب] ما يُقسَمُ به، ما اطَّلعَ على مُستَكِنِّه مِنّي غيرُ صديقِي وصديقكم المُلابس ـ كان ـ لي ولكم، الحكيم، الفاضل، العَلَم، أبي عَبد الله الشَّقُوريّ، أعزّه الله؛ نفثةُ مَصدور، وَمَبَّاثةُ خُلوص، إذ أنا أعلم النّاس بمكانه منكم، وقد عَلِم ما كان منّي حين مفارقة صاحب تِلِمْسان، واضْمِحْلال أمْره، من إجماع الأمر على الرّحلة إليكم، والخُفوف إلى حاضرةِ البَحْرِ للإجازةِ إلى عُدْوَتِكم، تعرَّضتُ فيها للتُّهمِ، ووقفتُ بمجال الظّنون، حتَّى تورَّطتُ[ج] في الهَلَكَةِ[د] بما ارتفع عنِّي مما لم آتِه، ولا طويتُ العَقْد عليه، لولا حِلمُ مولانا الخليفة، وحُسنُ رأيه فيَّ وثبات بَصيرته، لكنتُ في الهالكين الأوَّلين؛ كلُّ ذلك شوقاً إلى لقائكم، وتمثُّلاً لأُنسكم؛ فلا تَظنُّوا بيَ الظُّنون، ولا تُصدِّقوا فيَّ التَّوهُّمات، فأنا مَن علِمتُم صداقةً، وسَذاجةً، وخلوصاً، واتّفاقَ ظاهرٍ وباطِن، أثبتُ النّاسِ عَهْداً، وأحفظُهم غيباً، وأعْرفُهم بوزن[هـ] الإخوان وَمَزَايا الفُضَلاء؛ ولأمْرٍ مَّا تأخَّرَ كتابي من تِلِمْسان؛ فإنِّي كنتُ أستَشْعر ممّن استضَافَني رَيْباً بخطاب سواه، خصوصاً جِهتَكم، لقديم ما بينَ الدَّولَتين من الاتحاد

(أ) عوضها في ظ: أو (ب) ظ: ووالله جميع (ج) ظ: توطّت (د) ظ، آيا صوفيا: المهلكة (هـ) آيا صوفيا: بوزان

والمظاهرة واتّصال اليد، مع أنّ الرّسول تردّد إليّ، وأعلمني اهتمامَكم واهتمامَ السُّلطان، تولاّه الله، باستكشافِ ما انبهمَ[أ] من حالي؛ فلم أترك شيئاً ممّا أعلم تشوُّفكم[ب] إليه إلاّ وكشفتُ له قِناعه، وأمّنته على بَلاغه؛ ولم أزل، بعدَ انتِياش مولانا الخليفة لِذَمائي، وجَذْبِه بضَبْعَيّ، سابحاً في تيّارِ الشّواغل، كما علمتم، القاطعةِ حتّى عن الفِكرِ.

وسَقطَت إليّ، بمحلّ[ج] خِدمتي من هذه القاصيةِ، أخبارُ خلوصكم إلى المَغرب، قبل فصُول راجِلي إلى الحَضرة، غيرَ جليّة ولا ملتئِمة، ولم يتعيَّن مُلقى العَصا ولا مستَقَرُّ النّوَى، فأرجَيْت الخِطابَ إلى استِجْلائها؛ وأفدتُ من كتابكم العزيز عليّ، [355 ب] الجاري على سَنَن الفضل، ومَذْهبِ المجد، / غرِيبَ ما كَيّفه القَدَر من تنويع الحال لديكم؛ وعجِبتُ من تأتّي أملكم[د] الشّارد فيه كما كُنّا نستَبْعده عندَ المُفاوَضةِ؛ فحمدتُ الله لكم على الخَلاص من وَرْطة الدّوَل على أحسَن الوجوه، وأجْمل المَخارج الحميدةِ العواقب في الدُّنيا والدِّين، العائدة بحسن المآل؛ في المُخلَّف: من أهل، ووَلد، ومَتاع، وأثر، بعد أن رُضتُم جَموح الأيّام، وتوقّلتم قُلَل العِزّ، وقُدْتُم الدُّنيا بجذَافِيرها، وأخذتم بآفاقِ السّماء على أهلها، وهنيئاً؛ فقد نالت نفسُكم التوّاقة أبعدَ أمانيها، ثمّ تاقَت إلى ما عند الله؛ وأشهد لَمَا أُلهِمتُم للإعْراض عن الدُّنيا ونَزْع اليد من حُطامِها[هـ] عندَ الإصْحاب والإقبال[و]، ونَهْي الأمال، إلاّ جَذباً وعنايةً من الله وحُبّاً؛ وإذا أراد الله أمراً يسَّر أسبابَه.

واتّصَلَ بي ما كان من تَحَفّي المَثابة المولويّة بكم، واهتزازِ الدَّوْلَة لقُدومكم؛ ومثلُ

(أ) أ، آيا صوفيا: أبهم (ب) ظ: تشوقكم (ج) وردت في الأصول الثلاثة ظ، أ، آيا صوفيا مكررة (د) ظ: أمدكم
(هـ) ظ: خطامها (و) ظ: والأقيال

تلك الخِلافة، أيَّدَها الله، مَن يُثابر على المَفاخر، ويستأثر بالأخاير؛ وليتَ ذلك عندَ إقبالكم على الحظّ، وأُنسِكم باجتلاء الآمال، حتَّى يَحسُنَ المَتاع بكم، ويَتجمَّلَ السَّريرُ المُلوكيّ بمكانكم؛ فالظنُّ أنَّ هذا الباعث الذي هَزَم الآمال، ونَبَذ الحظوظ، وهَوَّن المُفَارَقَ العَزيز، يَسومكم الفِرار إلى الله، حتَّى يَأخذَ بيَدكم إلى فَضاء المُجاهَدَة، ويستَوِيَ بكم على جُودِيّ الرِّياضة، والله يَهدي للتي هي أقوم.

وكأنّ بالأَقدَام نُقِلَت، والبَصائر بإلهام الحقّ صُقِلَت، والمَقاماتِ خَلَفَت بعد أنْ استُقْبِلَت، والعرفانِ شيمَت أنوارُه وبَوارِقُه، والوصُول انكشَفَت حقائقُه لمَّا ارتفَعَت عوائقُه.

وأمّا حالي، والظنُّ بكم الاهتمامُ بها، والبحثُ عنها، فغيرُ خَفيَّة بالباب المَولويّ - أعلاهُ الله - وَمظْهَرُها في طاعته، ومَصْدَرُها عن أمرِه، وتصاريفُها في خِدمته، والزَّعْمُ أني قُمتُ المَقامَ المحمودَ في التَّشَيع[أ] والانحياش، واستمالة الكافّة، إلى المُناصَحة، ومُخالطة[ب] القلوب للولاية؛ وما يتشوَّفه / مَجْدُكم ويتَطلَّع إليه فضلكم وَاهتمامكم، من خاصِّيها[ج] في النَّفس والوَلَد، فجُهَيْنَةُ خَبَرِه مُؤدِّى كتابي إليكم، ناشىءُ تأديبي، وثَمَرة تربيتي؛ فسَهِّلوا له الإذن، وألينُوا له جانبَ النَّجْوَى، حتَّى يُؤدِّيَ ما عِندي وما عندكم، وخُذُوه بأعقابِ الأحاديثِ أنْ يَقِفَ عندَ مبادئها، وائتَمِنُوه[د] [على][هـ] ما تُحدِّثون، فليس بظَنينٍ على السِّرّ. [356أ]

ونَشوُّفي لما يَرجعُ به إليكم سَيّدي وصَديقي وصَديقكم المُغْـرب في المَجـدِ والفَضْلِ،

(أ) ظ: التشيع (ب) ظ: ومخالصة (ج) ظ: خاصيتها (د) آيا صوفيا: وائتمنوه (هـ) ساقطة من ظ

المُساهِم في الشّدائدِ، كبير المَغرب، وظهيرُ الدّوْلَة، أبو يَحْيَى بن أبي مَدْيَن -كان الله [له][أ] - في شأن الوَلَد والخلَف، تَشوّفُ الصّديق لكم، الضّنين على الأيّام بقُلامَة الظُّفرِ من ذات يدكم، فأطْلِعُونِي طِلْعَ ذلك ولا يَهُمّكم؛ فالفِراق الواقع حسَن، والسُّلْطان كبير، والأثَرَ جميل، والعدوُّ السّاعي قليل وحقير، والنيّة صالحة، والعَمَل خالص؛ ومَنْ كان لله، كان الله له.

واستطلاعُ الرّياسةِ المَرْيَنيّة الكافلة - كافأ الله يدَها البيضاءَ عنّي وعنكم - إلى مِثله من أحوالكم استطلاعُ من يَستَرجِحُ وِزانَكم، ويشكُر الزّمانَ على وِلادِه لمثلكم.

وقد قرّرتُ لعُلومه من مَناقبكم، وبُعد شأوكم، وغريب مَنْحاكم، ما شهدَت به آثارُكم الشّائعة، الخالدة في الرّسائل المُتأدّية[ب]، وعلى ألسِنَة الصّادر والوارد من الكافّة؛ مِن حَمل الدّوْلَة، واستقامة السياسة؛ ووقّفْتُه على سَلامكم، وهو يُراجِعكم بالتّحيّة، ويساهمكم بالدُّعاء.

وسَلامي على سيِّدي، وفَلْذَةِ كَبِدي، ومحَلّ ولَدي، الفقيه الزّكي الصّدر، أبي الحسَن، نَجلِكم، أعزّه الله؛ وقد وقَع منّي مَوقعَ البُشرَى حلُوله[ج] من الدّوْلَة بالمكان العزيز، والرُّتْبة النّابهة.

والله يُلحِفكم جَميعاً رِداءَ العافية والسّتر، ويُمهّد لكم محلَّ الغِبْطة والأمْن، ويَحفظُ عليكم ما أسبغَ من نعمته، ويُجريكم على عَوائد لُطفه وعنايته.

(أ) ساقطة من ظ (ب) ظ: المتودية (ج) آيا صوفيا: خلوله

والسّلامُ الكريمُ يخصُّكم من المحبِّ الشّاكر، الدّاعي الشّائق، شيعةِ فَضْلكم: عبد الرّحمن بن خَلدُون، / [356 ب] ورحمةُ الله وبركاتُه، في يوم الفِطْر، [عامَ][أ] اثنيْن وسبعين وسَبْعمائة".

وكان بعَث إليّ مع كتابه نسخةَ كتابه إلى سُلْطانه ابن الأحْمر[1]، صاحب الأنْدَلُس، عندما دخَلَ جَبَل الفَتْح، وصار إلى إيالةِ بَني مَرِين، فخاطبه من هنالك بهذا الكتاب، فرأيتُ أنْ أُثبِتَه هُنا، وإنْ لم يَكن من غَرض التّأليف، لغرابته ونهايَته في الجَوْدة، وأنَّ مِثلَه لا يُهمَل من مِثْل هذا الكتاب، مع ما فيه من زيادة الاطّلاع على أخبار الدُّوَل في تفاصيل أحوالها. ونصُّ الكتاب: [من المنسرح]

"بانُوا فَمَن كان باكِياً يَبْكِي ... هَذي رِكابُ السُّرَى بِلاَ شَكِّ
مِن ظُهور الرِّكاب مُعمَلةً ... إلى بُطون الرُّبى إلى الفُلْكِ
تصدَّع الشَّمْلُ مثلَما انحدرَتْ ... إلى صُبوبٍ جَواهرُ السِّلْكِ
مِنَ النَّوَى قبلُ لم أزَلْ حَذِراً ... هَذِي النَّوى، جَلّ مالِكُ المُلْكِ[2]

مولاي، كان الله لكم، وتَوَلَّى أمْرَكُم. أُسَلِّم عليْكم سلامَ الوَداع، وأدعو الله في تَيسير اللِّقَاء والاجتِماع، من بعد التفرُّقِ والانصداع؛ وأُقرِّر لديكم أنَّ الإنسان أسير الأقدار، مَسلوب الاختيار، متقلِّب في حُكْم[ب] الخَواطر والأفكار، وأن لا بُدّ لكلّ

(أ) ساقطة من ظ (ب) ظ: حبكم

(1) أبو عبد الله الغني بالله محمد بن يوسف.

(2) نسب ابن الخطيب هذه الأبيات لمحمد بن أحمد ابن شبرين. الإحاطة 2: 243.

أوّل من آخِر، وأنّ التفرّق لَمّا لزِم كلَّ اثنين بِموتٍ أو في حياة، ولم يكن منه بُدّ، كان خيرُ أنواعه الواقعةِ[أ] بينَ الأحباب، ما وقَعَ على الوُجوه الجَميلة البَريئة من الشُرور[ب].

وَيعلَمُ مولاي حالَ عَبْدِه مُنذُ وَصَلَ إليكم من المغربِ بوَلَدِكم، ومُقامُه لديكم بحالِ قَلَقٍ وقُلَعَةٍ، لولا تعليلُكم[ج]، ووعدُكم، وارتقابُ اللّطائف في تقْليب قَلْبكم، وقطع مراحل الأيّام حريصاً على اسْتِكمال سِنّكم، ونُهوض وَلَدكم، واضْطلاعكم بأمْركم، وتَمكُّن هُدنَة وطنِكم، وما تَحمّل في ذلك من تَرْك غَرَضه لغَرَضِكم، وما استقَرَّ بيده من عُهودكم؛ وأنَّ العبْد الآن لما تَسبَّب[د] لكم في الهُدْنة من بعد الظُّهور والعِزّ، ونُجح السَّعْي، وتأَتّي لسنين كثيرة الصُّلحُ، ومن بَعد / أنْ لم يبقَ لكم[هـ] بالأنْدلُس مُشَغِّبٌ [357 أ] من القَرابةِ، وتَحرَّكَ لمطالعةِ الثُّغورِ الغَرْبيّةِ، وقَرُب من فُرْضَةِ المَجازِ، واتّصالِ الأرض ببلاد المشرقِ، طرقَته الأفكار، وزَعْزعتْ صَبْرَه رِياحُ الخواطرِ، وتذكَّر إشرافَ العُمْر على التَّمام، وعواقِبَ الاستغراق، وسيرةَ الفُضَلاء عندَ شُمُول البَياضِ؛ فغلَبَتْه حال شديدة هَزَمَتِ التَّعَشّق بالشَّمل الجميع، والوَطَن المليح، والجاه الكبير، والسُّلْطان القليل النظير، وعَمِل بمُقْتَضى قوله: "مُوتوا قَبل أنْ تَموتوا"(1). فإنْ صَحّتْ[و] هذه الحالُ المرجُوُّ من إمْداد الله، تَنقَّلت الأَقْدام إلى أمام، وقَوِيَ التعلّق بعُرْوة الله الوُثْقَى، وإنْ وقَع العجزُ، وافتضَحَ العزمُ، فالله يُعاملنا بلُطْفِه.

(أ) ظ: للواقعة، أ: المواقعة (ب) أ: السرور (ج) ظ: تعليكم (د) ظ: نسب (هـ) ظ: لم يتولكم (و) آيا صوفيا: صحب

(1) هذا من كلام الصوفية، معناه: موتوا اختياراً بترك الشهوات قبل أن تموتوا الموت الطبيعي، وجرّدوا أنفسكم من الصفات المذمومة.

وهذا المُرتَكَب مَرامٌ صَعبٌ، لكن سَهّله عَلَيّ أمور؛ منها: أنّ الانصراف لَمّا لم يكن منه بُدّ، لم يتعيّن على غيرِ هذه الصّورة، إذ كان عندكم من باب المُحال. ومنها: أنّ مولاي لو سَمَح لي في غَرَض الانصراف، لم تَكُن لي قُدرة على مَوقِف وَدَاعه، لا والله! وَلَكان الموتُ أسبَقَ إليّ؛ وكفَى بهذه الوَسيلة الحُبّيّة ـ التي يَعرفها ـ وَسيلة. ومنها: حِرْصي على أنْ يظهر صِدْقُ دَعوايَ فيما كُنت أهتِفُ به، وأُظنُّ أني لا أصْدُقُ. ومنها: اغتنامُ المفَارَقة في زَمن الأمان، والهُدْنة الطّويلة، والاستغناء؛ إذ كان الانصراف المفروض ضرورياً قبيحاً في غير هذه(أ) الحالِ. ومنها ـ وهو أقوى الأعذار ـ: أنني مَهْما لم أُطِق تَمامَ هذا الأمرِ، أو ضاق ذَرْعي به، لعجزٍ أو مَرَضٍ، أو خوفِ طريقٍ، أو نَفَاد زادٍ، أو شَوْقٍ غالِبٍ، رجعتُ رجوعَ الأبِ الشّفيق، إلى الوَلد البَرّ الرّضي، إذ لم أُخَلّف وَرائي مانِعاً من الرّجوعِ، من قولٍ قبيحٍ ولا فعلٍ؛ بل خلّفتُ الوَسائلَ المَرْعيّة، والآثارَ الخالدة، والسِّيَرَ الجميلة؛ وانصرفتُ بقَصْدٍ شريفٍ فُقْتُ به أشياخي، وكبارَ وَطني، وأهلَ طَوْرِي، وتركتُكُم على أتمّ ما أرضاه، مُثنياً عليكم، داعياً لكم.

وإنْ فَسَح الله في / [357 ب] (ب)[الأَمَدِ، وقَضَى الحاجة، فأَمَلي العودةُ إلى وَلَدي وتُرْبتي، وإنْ قُطِع الأجل، فأرجو أنْ أكون ممَّن وقَع أجْره على الله.

فإنْ كانَ تَصَرُّفي صَواباً، وجارياً على السَّداد، فلا يُلامُ مَن أصاب، وإنْ كان عَن حمق، وفساد عقل، فلا يُلاَم من اختلّ عقلُه، وفَسد مزاجُه، بل يُعذَر، ويُشفَق

(أ) ساقطة من أ (ب) من هنا سقطت ورقة من نسخة الأصل، والترقيم مستمر

عليْه، ويُرحَم؛ وإنْ لم يُعْطِ مَولايَ أمري حقّه من العدل، وجُلِيتْ الذُنوب، وحُشرت بَعديَ العُيوب، فحَياؤه وتَناصُفه يُنكِر ذلك، ويَستَحضر الحسنات؛ من التّربية والتّعليم، وخِدمة السَّلف، وتَخليد الآثار، وتَسْمية الوَلَد، وتلقيب السُلْطان، والإرشاد للأعمال الصَّالحة، والمُداخَلة، والملابَسة؛ لم يتخلَّل ذلك، قَطُّ، خيانةٌ في مالٍ ولا سِرّ، ولا غِشٌّ في تَدْبير، ولا تَعَلَّقَ به عارٌ، ولا كدَّره نقْص، ولا حَمَل عليه خوفٌ منكم، ولا طمعٌ فيما بيدكم؛ فإنْ لم تكنْ هذه دواعي الرَّعْي والوُصْلة والإبْقاءِ، ففيمَ تكون بين بني آدم؟

وأنا قَد رحلتُ[أ]؛ فلا أوصيكم بمالٍ، فهُو عندي أهونُ مَتْروك؛ ولا بوَلَدٍ، فهُم رجالكم وخَدَمكم[ب]، ومِمّن يَحْرِص مثلكُم على الاستكثار منهم؛ ولا بعيَال، فهي من مُرَبِّيات بيتكُم، وخواصّ داركم؛ إنَّما أوصيكم بحظّي العزيز - كان - عليّ بِوطَنِكم، وَهُو أنتم؛ فأنا أُوصيكم بكُم، فازعَوني فيكم خاصَّةً: أوصيكم بتقْوى الله، والعَمَل لغَدٍ، وقبض عِنان اللهو في مَوطِن[ج] الجِدّ، والحياءِ من الله الّذي مَحّص وأقال، وأعادَ النّعمة بعد زوالها، لينظُرَ كيف تعملون[1]، وأطلبُ منكم عِوضَ ما وفَّرتُه عليكم، من زاد طريقٍ، ومُكافأة، وإعانَة، زَاداً سَهْلاً عليكم، وهو أنْ تَقُولُوا لي: غَفَر الله لَكَ ما ضَيَّعتَ من حَقِّي خطأً أو عمداً؛ وَإذا فَعلتُم ذلك فقَد رَضِيتُ.

واعلَمُوا أيضاً - على جِهة النَّصيحة - أنّ ابنَ الخطيبِ مشهورٌ في كلِّ قُطْر، وعند

(أ) أ: رجعت (ب) آيا صوفيا: وخدامكم (ج) أ: وطن

(1) اقتباس من قوله تعالى في سورة الأعراف، الآية 129 ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

كُلّ مَلِك؛ واعتِقَادُه، وبِرُّه، والسؤالُ عنه، وذكرُهُ بالجَمِيل، والإذنُ في زيارته، نَجابةٌ منكم، وسَعَةُ ذِرْعٍ ودَهاءٌ، فإنَّما كان ابنُ الخطيب بوطنكم سَحَابَةَ رحمةٍ نَزَلت، ثمّ أقشَعَتْ، وتَرَكَتِ الأزاهر تفوح، والمحاسنَ تَلوح؛ ومِثاله مَعَكم مثالُ المُرضِعَةِ أرضَعت السياسةَ، والتَّدبيرَ المَيْمُون، ثمّ رقدَتكم[ا] في مَهد الصُّلح والأمان، وغطّتكم بقِناع العافية، وانصرفَت إلى الحمّام تَغسِل اللَّبَنَ والوَضَر، وتَعُود؛ فإنْ وجَدت الرَّضيع نائماً فَحَسَن، أو قد انتبَه فلم تَترُكه إلاّ في حَدّ الفِطام.

ونَختِمُ لكم هذه الغَزَارة بالحَلِفِ الأكيدِ: إنّي ما تركتُ لكم وجهَ نصيحةٍ في دينٍ، ولا في دُنيا، إلاّ وقَد وفَّيتها لكم، ولا فارقتُكم إلاّ عن عَجْزٍ؛ ومَنْ ظنَّ خِلاف هذا فقد ظلَمَني وظلمكم؛ والله يرشدُكم، ويتولّى أمورَكم[ب]. ونَقُول: خاطِركم في ركوب البحر.

انتهت نُسخةُ الكتابِ، وفي طَيِّها هذه الأبيات: [من الخفيف]

صَاب مُزْنُ الدُّموع من جَفْن صَبّكْ ... عندما استَرْوَح الصَّبَا مِن مَهَبّكْ
كَيفَ يَسْلُو يا جَنّتِي عَنك قَلبٌ ... كانَ قَبلَ الوُجُودِ جُنَّ بِحُبّكْ؟
ثُمّ قُل: كيف كان بعدَ انتشاء الـ ... ـرُوح من أُنسِك الشّهيّ وقُرْبِكْ؟
لم يَدَع بيتَك المَنيعَ حِمَاهُ ... لِسِواهُ إلاّ إلى بَيتِ رَبّكْ
أَوْلِ عُذرِي الرِّضا فما جِئتُ بِدْعاً ... دُمتَ والفَضلُ والرِّضا من دَأْبِكْ
وإذَا ما ادَّعيتَ كَرْباً لفقْدِي ... أينَ كَرْبِي ووَحْشَتي من كَرْبِكْ؟
وَلَدِي في ذَرَاكَ، وَكُرِيَ، في دَوْ ... حِكَ، لَحْدِي، وتُرْبَتي في تُرْبِكْ

(ا) أ: رقدتم (ب) آيا صوفيا: أمركم

يَـا زمانـاً أغـرَى الفِـراقَ بِشَمْلِـي لَيْتَـنِي أَهْبَـتي أخَـذتُ لحَرْبِـكْ
أرْكَبتَنـي صُروفَـكَ الصَّعْـبَ حَتَّـى جِئتَ بِالبَيْـنِ وَهْـو أصعَـبُ صَعْبِكْ

وكَتب آخرَ النُّسخة يخاطِبني:

هَذا ما تيسَّر، والله وليُّ الخِيَرَةِ لِي ولكم من هذا الخُبَاط الذي لا نِسْبةَ بينَهُ وبيْن أُولِي الكَمالِ. رَدَّنا الله إليه، وأخلَصَ تَوَكُّلَنا عليه، وصَرف الرَّغبة إلى مَا لَدَيْه.

وفِي طَيِّ النُّسخة مُدْرَجةٌ، نَصُّها:

"رضيَ الله عن سيادتكم. أونِسُكم بما صَدَر منّي أثناءَ هذا الواقع مِمَّا استحضَرَه الولَدُ فِي الوقْتِ؛ وهو يُسَلِّمُ عليكم بما يَجِبُ لكُم؛ وقَد حَصل من حُظْوةِ هذا المقام الكريمِ على حَظٍّ وافِرٍ[^1]، / وأَجْزِل إحسَانُه، وَنُوّهَ بجِرايَتِه، وأُثْبِتَ الفُرسَانُ خَلفَه؛ والحَمدُ لله". انتهى. [357 ب]

ثمّ اتّصل مُقامي بِبَسْكَرة، والمغربُ الأوسط مُضْطَرِبٌ بالفِتنةِ المانعة من الاتِّصالِ بالسُّلْطانِ عبدِ العزيز، وحَمـزةُ بن عليّ بن راشد ببلاد مَغْرَاوة، والوزيرُ عُمَرُ بن مَسْعود في العَساكِرِ يُحاصِره بحِصن تاجَحْمُومِتْ، وأبو زَيّان العَبْد الوَادِيّ ببلاد حُصَيْن، وهم مُشتَمِلون عَلَيْه، وقائمون بدَعْوتِه.

ثمّ سَخِط السُّلْطانُ وزيرَه عُمَرَ بن مَسْعود، ونكِر منه تقصيرَه في أَمْر حَمْزةَ وأصحابِه، فاستَدْعاهُ إلى تِلِمْسان، وقبَضَ عليْه، وبعثَ به إلى فاسَ مُعْتَقَلاً، فحُبِسَ هناك؛ وجهَّز العساكرَ مع الوزير أبي بَكْر بن غازي، فَنهضَ إليه، وَحاصره؛ ففرَّ مِنَ

[^1]: (أ) انتهاء سقط ورقة الأصل ظ

الحِصْن، ولحِقَ بمَلْيَانَةَ مُجتازاً عليها، فأُنذِر به عَاملُها، فتقبّض عليه، وسيق إلى الوَزير في جماعة من أصْحابه، فضَرَب أعناقهم، وصلَبَهم عِظَةً ومُزْدَجَراً لأهْلِ الفِتْنَةِ.

ثمّ أوعَز السُّلْطان إلى الوزير بالمسير إلى حُصَين وأبي زَيَّان، فسَار في العَساكر، واسْتَنفر أحياءَ العرَب من زُغْبَةَ، فأوعَبَهم، ونَهَضَ إلى حُصَيْن، فامتَنعوا بجَبَل تِيطَرِي[أ]، ونَزَل الوزيرُ بعساكره ومَنْ مَعه من أحياءِ زُغْبَةَ على جبل[ب] تِيطَرِي مِن جهة التّلّ، فأخَذَ بمخَنَّقِهم، وكاتَبَ السُّلْطانُ أشياخَ الدَّواوِدَة من رياح بالمَسير إلى حِصار تِيطَرِي من جهة القِبْلة، وكاتَبَ أحمد بن مُزْني، صاحبَ بَسْكَرَة، بإمدادهم بأُعْطِياتهم، وكتَب إليَّ يأمُرني بالمَسيرِ بهم لِذلك، فاجتَمَعُوا عليَّ، وسِرتُ بهم أوّلَ سنة أربعٍ وسبعين، حتَّى نزلنا بالقَطْفَةِ، ووفَدتُ، في جماعةٍ منهم، على الوزيرِ بمكانِه من حِصار تِيطَرِي، فحدَّ لهم حدودَ الخِدْمَةِ، وشارطَهم على الجزَاءِ؛ ورجَعْنا إلى أحيائِهم بالقَطْفَةِ، فاشتَدُّوا في حِصار الجبَلِ، وألجَئوهم بسوامِّهم وظَهْرهِم إلى قُنَّته، فهلَكَ لهم الخُفُّ والحَافِرُ، وضاق ذَرْعُهُم بالحِصار من كلّ جانبٍ؛ ورَاسَل بَعْضُهم في الطّاعة خُفْية، فارتابَ بعضُهم من بعضٍ، فانفَضُّوا ليلاً من الجبَلِ، وأبُو زَيَّان معهم، ذاهبينَ إلى الصَّحراءِ؛ واستَولى الوزيرُ عَلَى الجَبل بما فيه / من مُخَلَّفِهم. ولمَّا بلغوا [358أ] مَأْمَنَهم من القَفْرِ، نَبَذُوا إلى [أبي][ج] زَيَّان عَهْدَه. فلحِقَ بجِبَال غُمَّرَةَ، ووَفَد أعيانُهم على السُّلْطانِ عَبْد العَزيز بتِلِمْسان، وفاءوا إلى طاعتهِ، فتقبَّل فَيْئَتَهم، وأعادَهم إلى أوطانهم.

[وتقدّم إليَّ الوزيرُ ـ عن أمر السُّلْطانِ ـ بالمَسيرِ معَ أولادِ يَحْيَى بن عَلِيِّ بن

(أ) ضبطه في ظ بفتح أوله (ب) ظ، آيا صوفيا: الجبل (ج) ساقطة من ظ

سِباع، للقَبْض على أبي زَيَّان في جَبَلِ غُمَّرَة، وفاءً بحقّ الطّاعة، لأنّ غُمَّرَة من رَعاياهم؛ فمضينا لذلك، فلم نجدْه عندهم، وأخبرُونا أنَّه ارتحَل عنهم إلى بلد وَارْكَلاً من مُدُن الصَّحراءِ، فنزَل على صاحبها أبي بكر بن سُليمان، فانصرفنا من هُنالك، ومضَى أولادُ يَحْيَى بن عَليّ إلى أحيَائهم، ورجَعتُ أنا إلى أهلي بِبَسْكَرة؛ وخاطبتُ السُّلْطانَ بما وقَعَ في ذلك، وأقمتُ مُنْتظِراً أَوامرَه، حتَّى جاءني استدعاؤه إلى حَضْرتهِ، فارتحلتُ إليْه][أ].

[فَصْلٌ][ب]

وكانَ هذا الوزيرُ ابنُ الخطيبِ آيةً من آياتِ الله في النَّظمِ والنَّثرِ، والمعارِف والأدبِ؛ لا يُسَاجَل مَدَاه، ولا يُهْتَدى فيهَا بمثل هُدَاه.

فمَّا كَتَب عن سُلْطانه إلى سُلْطان تُونِس جَواباً عن كتابٍ وَصل إليه، مضحوباً بهَدِيَّة من الخيل والرَّقِيق؛ فراجعهم عنه بما نصُّه إلى آخرِه[1]:

"الخلافةُ التي ارتَفَع في عقائد فَضْلها الأَصِيل القواعِد الخِلافُ، واستَقلّت مَباني

(أ) سقطت خاتمة الفصل المشمولة بين الحاصرتين من ظ، وعوضها: "ورجعت أنا إلى بسكرة فأقمتُ بها". (ب) لم يرد هذا الفصل بطوله في نسخة الأصل (ظ). وهذا الفصل، الذي خصَّصه ابن خلدون لإدراج نموذجين من نثر ابن الخطيب، أوردته نسخة (أ) مضبوطاً بالشكل وعليه تصحيح ابن خلدون، ونقلناه عنها، ووضعنا في مفتتح كل صفحة منه خطّاً مائلاً (/) للفصل بين كل صفحة من صفحاته دون الإشارة إلى رقمها تجنباً للتداخل مع أرقام صفحات الأصل (ظ) وكذلك أوردته نسخة آيا صوفيا.

(1) نصُّ هذه الرسالة التي كتبها ابن الخطيب عن سلطان الأندلس ابن الأحمر إلى صاحب تونس المستنصر بالله الحفصي، أثبتها بنصها في كتابيه: ريحانة الكتاب 1: 179ـ 202، والإحاطة في أخبار غرناطة 4: 561 ـ 588، وأوردها أيضاً القلقشندي (صبح الأعشى 6: 536 ـ 558) كنموذج لـ "المكاتبات البديعة المُسْفرة عن صبح البلاغة".

فَخْرها الشّائع، وعِزّها الذّائع، على ما أسّسه الأسلاف، ووَجَبَ لحقّها الجازِم، وفرضها اللأزِم، الاعْتِراف، ووَسِعَت الآملين لها الجوانبُ الرحيبَة والأكناف؛ فامتزاجُنا بعَلائها المُنيف، ووَلائها الشّريف، كما امتزَج الماءُ والسُّلاف، وثناؤنا على مَجدها الكريم، وفَضْلها العميم، كما تأرّجَتْ الرّياض الأفواف، لما زارَها الغَمامُ الوكّافُ[أ]؛ ودعاؤنا بطول بقائها، واتّصال عَلائها، يَسْمو به إلى قَرْع أبوابِ السّمواتِ العُلا[ب] الاستشراف، وحِرْصُنا على تَوفية حُقوقها العَظيمة، وفواضِلها العَميمة، لا تَحصره الحدود، ولا تُدرِكه الأوْصافُ، وإنْ عَذَر في التّقصير عن نَيْل ذلك[ج] المَرام الكبيرِ الحقُّ والإنْصاف. خلافةُ وِجْهةِ تَعظيمِنا إذا توجّهت الوُجوهُ، ومن نُؤْثِره إذا أهّمنا[د] ما نَرجُوه، ونُفَدّيه ونُبَدّيه إذا استُمنِح المحبوبُ واستُدفع المكروه؛ السُّلْطان الكَذَا أبي إسْحاق بن السُّلْطان الكَذَا، أبي يَحْيَى أبي بَكر بن السُّلْطان الكَذَا، أبي زَكَريّاء بن السُّلْطان الكَذَا، أبي إسحاق بن الأمير الكَذَا، أبي زَكَريّاء بن الشّيخ الكَذَا، أبي مُحَمّد عبد الواحد ابن أبي حَفْص، أبقاه الله ومَقَامُه مَقَام إبراهيمَ رِزقاً وأماناً، لا يَخُصّ جَلبُ الثّمراتِ إليه وقتاً ولا يُعيِّن زماناً؛ وكان على من يَتَخَطّفُ النّاسَ من حَوْلِهِ مؤيّداً بالله مُعاناً.

مُعظِّمُ قدرِه العالي على الأقدارِ، ومُقابِلُ داعِي حَقّه بالابتدار، المُثْني على معاليه المُخلّدة الآثار، في أصونَة النّظّام والنّثّار، ثناءَ الرّوضة المِعطار، على الأمطار، الدّاعي إلى الله بطولِ بَقائه في عِصْمةٍ مُنسَدِلَةِ الأسْتار، وعِزّةٍ ثابتةِ المَرْكَز مُستَقيمةِ المَدارِ، وأنْ يَختِم له بعدَ بلوغِ غاياتِ الحالِ، ونِهاية الأعمال، بالزُّلفى وعُقْبَى الدّار.

(أ) سقطت هذه العبارة من صبح الأعشى (ب) ساقطة من الريحانة (ج) الريحانة: ذاك (د) الإحاطة والصبح: همنا

سلامٌ كريمٌ كما حمَلَت أحاديثَ الأزهار نَسَماتُ الأسْحار، ورَوَتْ ثُغورُ الأقاحي والبَهار، عن مُسَلسلات الأنهارِ، وتَجلّى على مِنصّة الاشتِهار،/ وجهُ عَروس النَّهارِ؛ يَخُصّ خِلافَتكم الكريمة النّجار، العزيزة الجَار، ورحمة الله وبركاته.

أمّا بعد؛

حمداً لله الذي أخفَى حكمته البالغةَ عن أذْهانِ البَشَرِ، فعجَزَت عن قياسها، وجَعَل الأرواح -كما ورَدَ في الخَبَرِ- "أجْناداً مُجنَّدَةً"[1] تَحِنُّ إلى أجْناسِها، مُنجِد هذه المِلّة، من أوليائه الجِلّة، بمَن يَرُوض الآمال بعدَ شِماسِها، ويُيَسّر الأغْراضَ قبلَ التِماسِهَا، ويُعْنَى بتجديد المودّات في ذَاتِه وابتِغاء مَرْضاته على حين إخلاقِ لِباسِها؛ الملك الحقّ، واصل الأسباب بعدَ انتكاثِ أمراسِها[أ]، ومُغْني النُّفوس بطَوْله؛ بَعْدَ إفلاسها - حمداً يُدِرُّ أخلاف النِّعَمِ بعد إبْساسِها، وينشُر رِمَمَ الآمال من أرْماسِها، ويُقَدِّسُ النُّفوسَ بِصِفاتِ ملائكة السّماوات بعدَ إبلاسها.

والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيّدِنا ومولانا مُحَمَّدٍ رسولِه، سِراجِ الهداية ونِبْراسها، عندَ اقتناءِ الأنوار واقتباسها، مُطهِّر الأرضِ من أوْضارِها وأدْناسِها، ومُصطَفَى الله من بين ناسِها، وسيّد الرُّسُلِ الكرامِ ما بين شِيثِها وإلياسِها، الآتِي مُهيْمِناً على آثارِها، في حين فَتْرتِها ومن بعد نُصْرتِها واستيئاسها، مُرغِمِ الضَّراغِم في أخْياسِها، بعدَ افترارها وافتراسها، ومُعفِّر أجرامِ الأَصْنام ومُصْمِت أجْراسها.

(أ) آيا صوفيا: مراسها

(1) إشارة إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "الأرواح جنودٌ مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف". الأدب المفرد للبخاري 265 (رقم 9001)، صحيح مسلم (رقم 4773).

والرّضا عن آلهِ وأصحابِه وعِترتهِ وأحزابهِ، حُماةِ شِرْعَتِه البيضاء وحُرّاسِها، ومُلقِحي غِراسها، ليوثِ الوغَى عندَ احتدامِ مِراسها، ورُهبان الدُّجَى تتكفّل مُناجاة السّميع العليم، في وَحْشَةِ اللّيلِ البَهيمِ بإيناسها، وتُفاوحُ نسيمَ الأسحار، عندَ الاستغفار، بطيب أنفاسِها.

والدُّعاءُ لخلافتِكم العليّة المُستنصريّة بالصّنائع التي تُشعشِع أيدي العِزّة القَعْساء من أكْواسِها، ولا زالت العِصمةُ الإلهيّة كَفيلةً باحترامِها واحتراسِها، وأبناءُ الفتوح، المُؤيّدة بالملائكة والرُّوح، رَيحانَ جُلاّسها، وآيات المفاخِر، التي تَركَ الأوّلُ للآخِر، مُكتتَبَةَ الأسْطار بأطْراسِها، وميادينُ الوجود مَجالاً لجياد جُودها وباسِها، والعزُّ والعَدلُ منسُوبَين لفُسطاطِها وقُسْطاسها، وصفيحَة النّصرِ العزيز تَقْبِضُ كفُّها، المُؤيّدة بالله، على رياسها، عند اهتياج أضدادِها، وشَرَهِ أنكاسها، لانتهابِ البلاد وانتهاسِها، وهبوبُ رياحِ رياحِها وتمرّد مِرداسِها.

فإنّا كتبناه إليكم، كتبَ الله لكم من كتائبِ نَصْرِه أمداداً[أ] تُذعِنُ أعناقَ الأنامِ، لطاعة مَلِكِكُم المَنصور الأعلامِ، عند إحساسِها، وآتاكم من آياتِ العنايات، آيةً تضرب الصّخرةَ الصّماء، ممّن عَصاها بِعَصاها، فتُبادر بانْبِجاسها، من حمراءِ غَرْناطَة، حَرَسَها الله وأيّامَ الإسلام، بعناية الملك العلاّم، تحتفِل وُفود الملائكة الكِرام، لولائمِها وأعراسِها، وطواعين الطّعان، في عدوّ الدّين المُعان، تُجدّد عَهْدَها بعام عَمْواسِها.

والحمدُ لله حمداً مُعاداً يُقيّد شواردَ النّعَم، ويستَدِرُّ مواهبَ الجُود والكَرَم، ويُؤمّن من انتِكاثِ[ب] الجُدود وانتكاسِها، ولَيِّ الآمال ومِكاسِها؛ وخلافَتُكم هيَ المَثابة التي

(أ) آيا صوفيا: إمدادها (ب) آيا صوفيا: انتكاب

يُزْهَى الوجودُ بمحاسِنِ مَجْدِها، زَهْوَ الرِّياضِ بوَرْدِها وآسِها، وتُستَمَدُّ أضواءُ الفضائِل من مِقْباسِها، وَتَرْوِي رُواة الإفادة، والإجادَة، غَرِيبَ الوِجادَة، عن ضَحّاكِها وعبّاسِها.

وإلى هذا أعلى الله معارجَ قَدرِكِم، وقَد فعَلَ، وأنطق بحُجَج فَخْرِكِم، مَن احتفَى وانتَعَل، فإنَّهُ وصلَنا كتابُكم الّذي حسِبناه، على صنائعِ الله لنَا، تَميمةً لا تَلْقَع بعدَها عَيْنٌ، وجعلناه ـ على حُلَل مواهبِه ـ قِلادةً لا يُحتاج معها زَيْن، ودعوناه من جَيْب الكِنانةِ آيةً بيضاءَ الكِتابة[1]، لم يَبقَ معها شَكٌّ ولا مَيْنٌ، وقرأْنا مِنه وثيقَةَ وُدٍّ هُضِم فيهَا عن غَرِيم الزَّمان دَيْن، ورأينَا منه إنشاءً، خَدَم اليَراعُ بينَ يديه وَشّاءً، واختَزم بهِميان عُقْدته مَشّاءً، وسُئل عن معانيه الاختِرَاع فقالَ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ [سورة الواقعة، الآية 35]؛ فأهلاً به من عَربِيٍّ أبِيٍّ يَصِفُ السَّانحَ والبانَة، ويُبِينُ فيُحسِن الإبانة، أدّى الأمانة، وسُئل عن حَيِّهِ فانتَمَى / إلى كِنانة، وأفصَح وهو لا يَنبِسُ، وتَهلَّلت قَسَماتُه وليلُ حِبْرِه يَعْبِسُ؛ وكأنّ خاتَمه المُقفَلَ على صُوَانه، المتحِفَ بباكِرِ الوَرد في غيرِ أوانه، رَعَف من مِسْك عُنوانه؛ ولله من قَلَم دَبَّج تلك الحُلَل، ونقَعَ بمُجاج الدَّواة المستَمِدَّة من عَيْنِ الحياةِ الغُلَل؛ فلقد تَخارقَ في الجُودِ، مُقتدياً بالخِلافَة التي خلّد فَخرُها في الوجودِ، فجاد بسِرِّ البيَانِ ولُبابه، وسَمَح في سَبيل الكَرَم حتَّى بماءِ شَبابه، وجَمَح لفَرْطِ بَشاشَته وفَهامَته، بعدَ شَهادةِ السَّيفِ بشَهامته، فَمَشَى من التَّرحيب، في الطِّرْسِ الرَّحيب، على أُمِّ هامتِه.

وأَكْرِمْ به من حَكيم، أفصَح بمَلغُوز الإكسِير، في اللَّفظ اليَسير، وشَرَح بلسان

(1) آيا صوفيا: للكتابة

الخَبيرِ، سِرُّ صِناعة التَّدبيرِ، كأنَّما خدَم المَلِكة السَّاحرةَ بتلك البِلاد، قَبْل اشْتِجار الجِلاد، فآثرَتْه بالطَّارف من سِحْرها والتّلاد، أو عثَر بالمُعَلّقة، وتِيكَ القَديمة المُطَلَّقة، بدَفينَة دارٍ، أو كَنْزٍ تحتَ جِدار، أو ظفِر ببَاني الحَنَايا، قبلَ أنْ تَقْطَع به عن أمانيه المَنَايا، ببديعَة، أو خَلَف جِرجيرَ الرُّوم[أ]، قبلَ مُنازَلة القُروم، عَلَى وَديعة، أو أسْلَمه ابنُ أبي سَرْح، في نشَبٍ للفَتْح وسَرْح، أو حَتَم له رَوْحُ ابن حاتم ببلوغِ المَطْلَب، أو غلَبَ الحظوظَ بخِدمَةِ آلِ الأغْلَبِ، أو خَصّه زيادةُ الله بمَزيدٍ، أو شارَك الشّيعةَ في أمرِ أبي يَزِيد، أو سَارَ على مِنهاج، في مُناصَحَةِ بَني صِنْهاج، وفَضَحَ بتخليدِ أمداحِهم كُلَّ هاجٍ.

وأعْجِبْ بِهِ، وقد عُزّزَ[ب] منه مَثْنَى البيانِ بثالثٍ، فجَلَب سِحْرَ الأسماعِ، واسترقاقَ الطِّباعِ، بين مَثانٍ للإبداع ومَثالثٍ، كيف اقتدَر على هذا المَحيد، وناصَحَ مع التَّثليثِ مَقامَ التَّوحيدِ؛ نستغفرُ الله وَلِيَّ العَوْنِ، على الصَمتِ والصَّوْن، فالقَلَمُ هوَ المُوحِّد قبلَ الكَوْنِ، والمتَّصِفُ من صِفات السّادة، أُولِي العِبادةِ، بضُمور الجِسم وصُفْرة اللَّوْنِ؛ إنَّما هي كَرامةٌ فارُوقيَّة، وأثارةٌ من حَديثِ سَارِيَةَ وبَقيَّةٌ؛ سَفَر وجْهُها في الأَعقابِ، بَعْدَ طولِ الانْتِقابِ، وتَداوُلِ الأحقابِ؛ ولسانٌ مُنابٍ، عن كَريمِ جَنابٍ؛ وإصابةُ السَّهم لسواه مَحسُوبة، وإلى الرَّامي الّذي سَدَّده مَنسُوبة؛ ولا تُنكِرْ على الغَمام بارقَة، ولا على المُتحقِّقِينَ بمَقام التَّوحيد كرامةً خارقَة، فما شاءَه الفضلُ من غرائبِ برٍّ وَجَد، ومَحاريبِ خُلُقٍ كَريمٍ رَكَع الشُّكْر فيها وسَجَد؛ حديقةُ بيانٍ استثّارت نواسمَ الإبْداع مِن

(أ) آيا صوفيا: الروي (ب) آيا صوفيا: عزر

مَهَبِّها، واستزارت غمائم الطّباع من مَصَبِّها، فآتت أُكلَهَا مرَّتَيْن بإذن ربِّها؛ لا؛ بل كَتِيبةُ عِزٍّ طاعنَتْ بِقَنَا الألِفاتِ[أ] سُطورُها، فلا يَرومُها النّقدُ ولا يَطورُها، ونَزَعت عن قِسِيِّ النُّوناتِ خطوطُها، واصطفَّت من بَياض الطِّرْسِ، وسَواد النِّقْس، بُلْقٌ تَحوطُها.

فما كأسُ المُدير، عَلَى الغَدير، بَيْنَ الخَوَرْنَق والسَّدير، تُقامِر بنَرْد الحَباب، عُقُولَ ذوي الألباب، وتُغْرِقُ كِسْرَى في العُباب، وتَهدِي - وهي الشَّمْطاءُ - نَشاطَ الشَّباب، وقد أَسرجَ ابنُ سُرَيْج وأَلْجَمَ، وأَفْصَح الغَرِيضُ بعدَما جَمجَم، وأعربَ النَّايُ الأَعْجَمُ، ووقَّع مَعْبَد بالقضيبِ، وشَرَعت في حِسابِ العَقْدِ بَنانُ الكَفِّ الخَضِيب؛ وكأنَّ الأنامِلَ فَوقَ مَثالثِ العُودِ ومَثانيه، وعند إغراءِ الثَّقيل بثانيه، وإجابةِ صَدَى الغِناءِ بين مَغانيه، المَراودُ تَشْرَعُ في الوَشْي، أو العَناكبُ تُسْرِع في المَشْي؛ وَمَا المُخبِر بنَيْل الرَّغائبِ، أو قُدومِ الحَبيبِ الغائبِ؛ لا؛ بل إشارةُ البَشير، بكُمِّ المُشِير، على العَشِير، بأجلبَ للسُرورِ، من زائره المُتَلَقَّى بالبُرورِ، وأدْعَى للحُبور، من سَفيره المُبهج السَّفور؛ فلم نَرَ مثلَه من كَتِيبةِ كتابٍ تَجْنُب الجُرْدَ، تَمرَح في الأَرْسان، وتَتَشَوَّف مَجالي ظهورها إلى عرائِس الفُرسان، وتهزُّ معاطفَ الارتياح، من صَهيلها الصُّراح، بالنَّغمات الحِسَان؛ إذا أوجَسَت الصَّريخَ نازَعت أفْناءَ الأعِنَّة، وكاثَرت بأسِنَّة آذانها مُشْرَعَةَ الأسِنَّة؛ فإنْ ادَّعَى الظَّليمُ أشكالَها فهو ظالِمٌ، أو نازَعها الظَّبْيُ هَوادِيَها وأكفَالَها فهُو هاذٍ أو حَالِم، وإنْ سُئل الأَصْمَعِيُّ عن عيوبِ الغُرَرِ والأَوْضَاح، قَال مشيراً إلى وجوهِها / الصَّباح: [من الطويل]

(أ) آيا صوفيا: الأقتاب

جِلْدَةُ بَيْنَ العَيْنِ وَالأَنْفِ سَالِمِ[1]

من كلِ عَبْلِ الشَّوَى، مُسَابِق للنَّجْم إذا هَوَى، سامِي التَّلِيل، عَرِيض ما تحتَ الشَّلِيل، مَمْسوحةٌ أعطافُه بمنديلِ النَّسيمِ البَلِيلِ.

من أحمَرَ كالمُدام، تُجْلَى على النّدَام، عَقِبَ الفِدَام، أتحفَ لونُه بالوَرْد، في زمن البَرْد، وحُيِّي أفُق مُحيَّاه بكوكَب السَّعْد، وتَشَوَّف الواصفون إلى عَدِّ مَحاسِنه فأعيَتْ على العَدّ؛ بَحْرٌ يُساجِل البَحرَ عند المَدّ، وريحٌ تَبارِي الرِّيحَ عندَ الشَّدّ، بالذّراع الأَشَدّ؛ حَكَمَ له مُدِير فَلَكَ الكَفَل باعتِدال فَضْل القَدّ، وميَّزه قَدرُه المميِّزَ عندَ الاستبَاقِ، بقَصَب السَّبَاق، عندَ اعتبارِ الحَدّ، ووَلَّد مُختَطٌّ غُرَّته أشكالَ الجَمال، على الكَمال، بين البَيَاضِ والحُمرَة ونَقَاءِ الخَدّ؛ وحِفظ روايةَ الخلقِ الوَجِيه، عن جَدِّه الوَجِيه، ولا تُنكَر الرِّوايةُ على الحافِظِ ابنِ الجَدّ.

وأشقَرَ، أَبَى الخَلْقُ، والوَجْهُ الطَّلْقُ، أنْ يُحقَر، كأنَّما صِيغَ من العَسجَد، وطُرِفَ بالدُّر وأُنعِل بالزَّبَرْجَد، وُسِم في الحديثِ بسِمة اليُمن والبَرَكة، واختصَّ بفُلْج الخِصام، عند اشتجارِ المعْرَكةِ، وانفَرد بمُضاعَفِ السِّهام، المُنكَسِرة على الهَام، في الفَرائض المُشْتَرَكَةِ؛ واتَّصلَ فَلَكُ كَفله بحَرَكتَي الإرادَة والطَّبْع من أَصْنَاف الحَرَكة، أصغَى إلى

---

(1) عجز بيت يُنسب لعدد من الشعراء منهم زهير بن أبي سلمى وأبو الأسود الدؤلي وابن الرومي ، وأظهر الروايات تنسبه لعبد الله بن عمر بن الخطاب، وكان من خبره محبته الشديدة لابنه سالم حتى لامه الناس فيه. وصدر البيت:

يديرونني عن سالم وأديرهم وجلدة....

ورواه بعضهم:

يلومونني في سالم وألومهم

انظر: اللآلىء في شرح الأمالي للبكري 1: 67، ربيع الأبرار للزمخشري 1: 459، الوافي بالوفيات 15: 84 (في ترجمة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب).

السَّماءِ بأُذُنِ مُلْهَم؛ وأغْرَى لِسانَ الصَّهيل ـ عندَ التباس مَعاني الهمْز والتَّسْهيل ـ بِبيَان المُبْهَم؛ وفُتِنَتَ العُيونُ من ذَهَب جِسمِه، ولُجَيْنِ نَجْمه، بالدِّينار والدِّرْهَمِ؛ فإنْ انْقَضَّ فَرْجَم، أو ريح لها حَجْم، وإنْ اعتَرَض، فَشَفَقٌ لاحَ به للنَّجم نَجْم.

وأصفَرَ قَيَّد الأوابدَ الحُرَّة، وأمسَكَ المَحاسن وأطلقَ الغُرَّة؛ وسُئِل مَن أنتَ في قُوادِ الكتائبِ، وأولي الأخبارِ العَجائبِ؟ فقَال: أنَا المُهَلَّبُ بنُ أبي صُفْرة؛ نرْجِسُ هذه الألوانِ، في رياض الأكْوَان، تُحَيَّى به وُجُوه الحَرْبِ العَوَان؛ أغَارَ بنَخوة الصَّائل، على مُعَصْفَرات الأصائل، فارتَداهَا، وعَمِدَ إلى خُيُوط شُعاع الشَّمس، عند جانِحَة الأمْس، فألحم مِنها حُلَّته وأسْداها، واستَعدَت عليه تِلكَ المَحاسِنُ فما أعدَاها؛ فهو أصيلٌ تمَسَّكَ بذَيْل اللَّيل عَرْفُه وَذيْلُه، وكوكبٌ يُطْلِعُه من القَتَام ليلُه، فيَحْسُده فرْقَدُ الأفقِ وسُهَيْلُه.

وأشهَبَ تَغَشَّى من لونِه مُفاضَة، وتَسَرْبَل منه لأمَةً فَضْفَاضة، قد احتَفَل زَيْنُه، لمَّا رُقِم بالنَّبال لُجَيْنه، فهو الأشمَطُ، الذي حقَّه لا يُغْمَط، والدَّارعُ المُسَارِع، والأعزَل النَّازعُ، وراقي الهِضاب الفارعُ، ومكتوبُ الكَتيبة البارعُ.

وأكْرِم به من مُرتاضٍ سَالِك، ومُجتَهِد على غايات السَّابقين الأولين مُتَهالك، وأشْهَب يَروي من الخَليفة، ذي الشِّيَم المُنِيفة، عن مالِك.

وحُبَارِيٌّ كلَّما سَابَقَ وبَارَى، استَعار جَناح الحُبَارَى؛ فإذا أُعمِلَت الحِسْبَة، قيل: مِن هُنا جاءت النِّسْبَةُ، طرَدَ النَّمِر، لما عظُم أمرُه وأمِر، فنَسَخ [1] وُجودَه بعدَمِه،

(1) في آيا صوفيا مهملة الحروف عدا الحرف الأخير جيم

وابتزّه الفَرْوَةَ مُلَطَّخةً بدَمِه؛ وكأنّ مُضاعَفَ الوَرْد نُثر عليه من طَبقِه، أو الفلَك، لمّا ذهبَ الحلَك، مُزِجَ فيه بياضُ صُبحِه بحُمرةِ شَفَقِه.

وقِرْطاسيٌّ حَقُّه لا يُجهَلُ، "مَتَى ما تَرَقَّ العَينُ فيه تَسَهَّلُ"؛ إنْ نُزِع عنه جُلُّه، فهو نَجمٌ كلُّه؛ انفرَدَ بمادَّة الألوان، قبل أن تَشُوبَها يَد الأكوان، أو تَمزِجَها أقلامُ الملَوان؛ يَتقَدّم الكتيبةَ منهُ لِواءٌ ناصعٌ، أو أبيض مناصِع؛ لبِسَ وَقارَ المَشيبِ، في رَيْعان العُمُرِ القَشيبِ، وأنصتَتْ الآذان من صَهيله المُطيل المِطيب، لَمّا ارتَدَى بالبياضِ إلى نَغْمةِ الخَطيبِ؛ وإنْ تَعَتَّبَ منه للتأخيرِ مُتَعتِّب، قُلنا: الواوُ لا تُرَتِّبُ، ما بين فَحْل وحُرَّة، وبهرمانةٍ ودُرَّة؛ ويالله من ابتسام غُرَّة! ووُضوح يُمْنٍ في طُرَّة! وبَهْجَةٍ للعَين وقُرَّة؛ وإنْ وَلِعَ النّاسُ بامتداحِ القديمِ، وخَصُّوا الحديثَ بِفَرْيِ الأديمِ، وأوجَبَ المُتعصِّب، وإنْ أبَى المَنصِب، مَزيّةَ التّقديمِ، وطَمَح إلى رتبةِ المَخدوم طَرْفُ الخَديمِ، وقُورِنَ المُثْرِي بالعَديمِ، وبُخِسَ في سُوقِ الكَسَد الكَيْل، ودَجَا اللّيل، وظَهر في فَلَكِ الإنصافِ المَيْلُ، لَمّا تُذُوكِرت الخَيْل؛ فَجِيءَ بالوَجيه والخَطّار، والذّائدِ[أ] وذي الخِمارِ، ودَاحِس والسَّكْبِ، والأبْجَرِ وزاد الرَّكْب، والجَمُوحِ واليَحمُوم، والكُمَيْتِ ومَكْتُوم، والأعْوَج وحُلْوان، ولاَحِق والغَضْبان، / وعَفْزَر[ب] والزَّعفَران، والمُحَبَّر واللَّعّاب[ج] والأغَرّ والغُراب، وشُغْلَة والعُقّاب، والفَيّاض واليَعْبُوب، والمُذْهَب واليَعسوب، والصَّمُوت والقُطَيْبِ، وهَيْدَبَ والضُّبَيْبِ، وأُهلُوبَ وهَدّاج[د]، والحَرُون

(أ) أ: الزائد، تحريف (ب) أ، آيا صوفيا: عَفْزَز، بتقديم الراء. (ج) في أ بضم اللام المشدّة: اللُّعّاب (د) أ، آيا صوفيا: بداج

وخَراج، وعَلْوَى[أ] والجَنَاحِ، والأَحْوَى ومِجَاح، والعصَا والنَّعامَةِ، والبَلْقاءِ والحَمامةِ، وسَكَاب والجَرَادة، وخَوْصاء والعَرادة[ب].

فكَم بين الشَّاهِد والغائب، والفُروض والرَّغائب، وفرقُ ما بينَ الأثرِ والعِيَان، غَنيٌّ عن البَيانِ؛ وشتَّان بيْنَ الصَّريحِ والمشْتبِه؛ ولله دَرُّ القائل:

خُذْ ما تَراه ودَعْ شيئاً سَمِعتَ به[1]

والنَّاسِخُ يختَلِفُ به الحكمُ، وشَرُّ الدَّوابِّ، عند التفضيلِ بينَ هذه الدَّوابِّ، الصُّمُّ البُكْم، إلاّ ما ركِبَه نَبِيٌّ، أو كان له يَومَ الافتخارِ برهانٌ خَفِيٌّ، ومُفَضِّلُ ما سَمِعَ عَلَى ما رَأَى غَبِيٌّ؛ فلَو أُنْصِفَتْ محاسِنُها التي وُصِفت، لأَقْضمت حَبَّ القلوبِ عَلَفاً، وأوردتْ ماءَ الشَّبِيبَة نُطَفاً؛ واتُّخِذَت لها من عُذَر الخدود المِلاَحِ عُذَرٌ مَوْشِيَّة، وعُلِّلت بصفير ألحان القِيانِ كلَّ عَشيّة؛ وأُنعِلت بالأهِلَّة، وغُطِيَت بالرّياض بَدَلَ الأَجِلَّة.

إلى الرّقيقِ، الخليق بالحُسْنِ الحقيق، تَسُوقه إلى مَثْوى الرّعاية رُوقَة الفتيان رُعاتُه، ويُهدِي عقيقُها من سَبَجه أشكالاً تَشهَد للمُخترِع، سُبْحانه، بإحكام مُختَرَعاته، وقفَتْ ناظرَ الاستحسَان لا يَريم، لِما بَهَره منظرُها[ج] الوسيمُ[د]، وتَخَامل الظَّليم، وتَضاءل الرّيم، وأُخرس مُفوَّه اللّسان، وهو بملَكات البيانِ، الحفيظُ العَليم؛ ونابَ

(أ) في أ بضم أوّله: عُلْوي (ب) أ: الحرادة، آيا صوفيا: الجرادة (ج) آيا صوفيا: ناظراها (د) أ: الكريم، وكتب في الهامش بخطّه ما هو مثبت وعليه إشارة التصحيح "صح".

---

(1) صدر بيت لأبي الطيب المتنبي، وعجزه:

في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

انظر: ديوانه (بشرح العكبري) 3: 81، العمدة لابن رشيق 1: 220، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 3: 322.

لسَانُ الحَالِ، عَن لسانِ المقَال، عند الاعتِقَال، فقَال يُخاطِب المقَامَ الذي أطلعتْ أزهارَها غمائمُ جُوده، واقتَضَت اختيارَها بركاتُ وُجوده: لو علمنا أيُّها المَلك الأصيل، الذي كرم منه الإجمالُ والتَّفصيلُ، أنّ الثّناء يُوازيها، لَكِلْنا لَكَ بكَيْلِك، أو الشُّكرَ يعادِلُها ويُجازيها، لتعرَّضنا بالوَسَلِ إلى نِيل نَيْلك، أو قُلْنا هِيَ التي أشار إليها مُستَصْرِخُ سَلَفك المستنصِر بقَوله: "أدرِكْ بخَيْلِك"[1]، حين شَرِق بدمْعه الشَّرْقُ، وانهزَم الجَمْع واستولَى الفَرَق، واتَّسعَ فيه - والحكمُ لله - الخَرَق، ورأى أنّ مقَام التَّوحيدِ بالمظاهَرةِ على التَّثليثِ، وحِزبه الخَبيثِ، الأولَى والأحَقّ.

والآن قد أغنَى الله بتلك النِّيَّةِ، عن أَنجادِ الطِّوال الرُّدَيْنِيَّة، وبالدُّعاء من تلك المَثَابةِ الدِّينيَّة، إلى رَبِّ البَنِيَّةِ، عن الأمدادِ السَّنِيَّة، والأجوادِ تخوضُ بحرَ المَاء إلى بحر المَنيَّة، وعن الجُرْد العَرَبيَّة، في مَقاود اللُّيوث الأبِيَّة؛ وجدَّد برَسم هذه الهَديَّة، مراسم العُهود الوُدِّيَّة، والذِّمم المُوحِّدِيَّة، لتكونَ علامة على الأصْلِ، ومكذِّبةً لدعوَى الوقْفِ والوصل، وإشعاراً بالأُلفةِ التي لا تَزال أَلِفُها أَلِفَ الوصْلِ، ولأمُها حَراماً على النَّصْل.

وحَضَر بين يدَيْنا رسولكم[أ]، فقرَّر من فَضلكم ما لا يُنكِره مَن عَرَف عُلُوَّ مِقدارِكم، وأصالةَ دارِكم، وفَلَكَ إبْدارِكم، وقُطْبَ مَدارِكم؛ وأجَبناه عنه بجُهْدِ ما كنّا لنَقْنَعَ مِن جَناه المُهْتَصَر، بالمقتضَب المقتَصر، ولا لِنُقابلَ طُولَ طَوْله بالقِصَر، لولا طُرُوءُ الحَصَر.

(أ) بعدها في آيا صوفيا: فلان

(1) يشير إلى مطلع سينية ابن الأبّار مستصرخاً لنجدة الأندلس:

أدرك بخيلك خيلِ الله أندلسا   إنّ السبيل إلى منجاتها دَرَسا

ديوان ابن الأبّار 395، وتقدم لابن خلدون ذكرها في الجزء الثاني عشر من العبر.

وقَد كان بينَ الأسْلافِ ـ رحمةُ الله عليهم ورضوانُه ـ وُدٌّ أُبرِمَت من أجل الله مَعَاقِدُه، ووُثِّرَت للخُلوصِ، الجَليِّ النُّصوص، مَضاجِعُه القارَّة ومَراقِدُه، وتَعاهُدٌ بالجميلِ يُوجَع لفَقْدِه فاقِدُهُ، أبَى الله إلاّ أنْ يكونَ لكم الفَضْلُ في تَجديدِه، والعَطْف بتوكيدِه؛ فنحن الآن لا نَدرِي أيَّ مَكارمكم نَذكُر أو أيَّ فَواضلكم نَشكُر، أمُفَاتَحتُكم التي هي في الحقيقَةِ عندَنا فَتحٌ؟ أم هَديَتكم، وفي وصْفِها للأقلامِ سَبْحٌ، ولعَدُوّ الإسلامِ بحِكْمَةِ حكمَتِها كَبْح، إنّما نَكِل الشُّكرَ لمن يُوَفِّي جَزاءَ الأعمالِ البَرَّة، ولا يبخَس مِثقالَ الذَّرَّة ولا أدنى مِن مِثقال الذَّرَّةِ، ذِي الرَّحْمة الثَّرَّةِ، والألطافِ المتَّصِلَة المُسْتَمِرَّة، لاَ إلهَ إلاّ هوَ.

وإنْ تَشَوَّفتم إلى الأحوالِ الرّاهنةِ، وأسبابِ الكُفر الوَاهِيَة ـ بقُدرة الله ـ الوَاهِنَةِ، فنَحن نُطرِفكم بطُرَفِها، ونُطْلِعُكم على سَبيلِ الإجمال / بطَرَفِها؛ وهو أن لما أعادَنَا الله من التَّمحيصِ، إلى مَثابَة التَّخْصيص، من بَعْدِ المَرَام العَويص، كَحَلْنا، بتَوفيق الله، بَصَر البَصِيرة، ووقَفْنا على سَبيله مسَاعِيَ الحياة القَصِيرة، ورأينا ـ كما نَقِلَ إلينا، وكُرر على مَن قَبْلَنا وعَلَيْنا ـ أنّ الدُّنيا ـ وإنْ غَرَّ الغَرُورُ، وأنَام على سُرُر الغَفْلةِ السُّرور، فلم ينفَعْ الخُطور على أجْدَاث الأحبَاب[أ] والمُرور ـ جِسْرٌ يُعبَر، ومَتَاع لا يُغبَط منْ حُبِيَ به ولا يُحْبَر، إنّما هو خَبَر يُخْبَر؛ وأنّ الحَسْرة بِمقدار ما على تَرْكِه يُجْبر، وأنّ الأعمارَ أحلاَم، وأنَّ النّاسَ نِيَامٌ؛ وربّما رَحَل الرّاحِلُ عن الخَانِ، وقَد جَلله بالأذَى والدُّخَان، أَو تَرَكَ به طِيباً، وثَناءَ يقوم بَعْدُ لِلآتي[ب] خَطيباً؛ فَجعلنا العَدْلَ في الأمورِ مِلاَكاً، والتَفَقُّد للثغورِ مِسْواكاً، وضَجيعَ المِهاد، حديثَ الجِهاد، وأحكامَه مَناطَ

(أ) آيا صوفيا: الأحداب (ب) أ: الآتي

الاجتهادِ، وقولَه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ ﴾ [سورة الصّف، من الآية 10] من حُجَجِ الاستشهاد؛ وبادَرنا رَمَقَ الحصُون المُضَاعة وَجُنْحُ التَّقِيَة دَامِس، وعَوراتها لا تَردُّ يَدَ لامِس، وسَاكنُها بائِس، والأعْصَمُ في شَعَفَاتِها من العِصْمة يائِس؛ فرَيَّنَّا بِبِيض الشُّرُفات ثَنَايَاها، وأفعَمنا بالعَذْب الفُراتِ رَكَايَاها، وغشَّيْنا بالصَّفيح المضَاعَف أبوابَها، واحْتَسَبْنَا عند مُوَفِّي الأُجور ثَوابَها، وبيَّضْنا بناصِع الكَلْسِ أثوابَها؛ فهِيَ اليَومَ تُوهِمُ حِسَّ العِيَان، أنها قِطَع من بِيضِ العَنَان، وتَكاد تناوَلُ قُرَصَ البَدْر بالبَنَان، متكفِّلَةً للمؤمنينَ من فَزَعِ الدُّنيا والآخِرة بالأمان[أ]؛ وأَقرَضْنا الله قَرْضاً، وأوسَعْنا مُدَوَّنَةِ الجَيْش عَرْضاً، وفَرَضْنا إنصافَه مع الأَهِلَّةِ فَرْضاً؛ واستَنَدْنا من التَّوكّل على الله الغَنِيّ الحَميدِ إلى ظِل لوَاءِ، ونبَذنا إلى الطَّاغِيَة عهْدَهُ عَلَى سَوَاءِ، وقلنا: رَبَّنا؛ أنتَ العزيز، وكُلُّ جبَّار لعزِّكَ ذَليل، وحِزبُكَ هو الكثِير، ومَا سِواه قَليل؛ أنتَ الكَافي، ووَعْدُكَ الوَعْدُ الوَافي، فأفِضْ علينَا مَدارِعَ الصَّابرين، واكتُبْنا مِنَ الفائزين بحُظوظ رِضَاك الظَّافرين، وثبِّت أقدامنا، وانصُرْنا على القَوْم الكَافِرين.

فتحَرَّكنا أوّلَ الحَركاتِ، وفاتحَةَ مُصْحَف البَركاتِ، في خِفٍّ من الحُشُود، واقتصارٍ على مَن[ب] بِحَضرتنا من العَساكر المظفَّرة والجُنود، إلى حصْن آشَر البَارِي المُطِلّ، ورِكَاب العَدوّ الضالّ المُضِلّ، ومُهْدِي نَفَثات الصِّلّ[ج]، عَلَى امتِناعِه وارْتِفاعِه، وسُمُوّ يَفَاعِه، ومَا بَذَل العدُوُّ فيه من استِعدادِه، وتَوفِير أسلِحتِه وأزوادِه، وانتخاب أَنْجادِه؛ فَصَلَيْنا بنَفسِنَا نَارَه، وزاحَمْنا عَليه الشهداءَ نُصابِرُ أُوَارَه، ونَلْقَى بالجوارح العَزيزة سِهَامَه المَسْمُومَة، وجَلاَمِدَهُ المَلْمُومَةَ وأَحجارَه، حتَّى فَرَغْنا ـ بحَولِ مَنْ لاَ حَوْلَ

(أ) آيا صوفيا: الأمان (ب) ظ، أ: ما (ج) آيا صوفيا: الصل

ولا قُوَّةَ إلاّ بِه - أبراجَهُ المَنيعَةَ وأسوارَه، وكفَفْنا عن البِلادِ والعِباد أضرارَه، بَعْدَ أنْ استَضَفْنا إليه حِصْنَ السَّهْلَة جارَه؛ ورَحلنَا عنه بَعد أنْ شَحنَّاه رابطةً وَحامية، وأزوَاداً نامِية، وعَمِلْنا بيدنا في رَمّ ما ثَلَمَ القِتال، وبقَرَ من بُطون مُسابِقَةِ الرِّجال، واقْتَدَيْنا بنَبِيّنا - صلواتُ الله عَلَيْه وسَلامُه - في الخَنْدَق لمّا حَمَى ذلك المَجَال، ووقَع الارتجاز المَنقُول حَديثُه والارتجال؛ وما كان ليقرَّ للإسلام معَ[أ] تَركه القَرار، وقَد كثَبَ الجِوَار، وتَداعَى الدَّعرَةُ وتَعاوَى الشّرار.

وقَد كنّا أغْرَيْنا مَنْ بالجِهَة الغَربيّة من المُسلمين بمدينة بُرْغُهْ التي سَدَّت بين القَاعِدَتَين: رُنْدَةَ ومالَقَة الطّريق، ومنَعَتْهُما أنْ يُسيغَا الرّيق؛ فَلا سَبيلَ إلى الإلمَام، لطَيْف المَنَام، إلاّ في الأَحلاَم، ولا رسالةَ إلاّ في أجنحَة هُدُلِ الحَمامِ؛ فَيَسَّر الله فتْحَها، وعجَّل مَنْحَها، بعد حَرْب ابتَنَّت[ب] فيها النُّحُور، وتَزَيَّنَت الحُور. وتَبِعَ هَذه الأمّ بَناتٌ شَهيرَة، وبُقَعٌ للزَّرع والضَّرع خِيرَة، فشُفِيَ الثَّغْرُ من بُوسِه، وتهلَّل وجهُ الإسلام بتِلْك النَّاحِية النَّاجِية بَعد عُبُوسِه.

ثمّ أعْملنَا / الحَركَة إلى مَدينة إطْرِيرَة، عَلَى بُعد المَدَى، وتَغَلغُلها في بِلاد العِدَا، واقْتِحام هَوْل الفلا وغُول[ج] الرَّدَى؛ مَدينةٌ تَبَنَّتْها حِمْص فأوسَعَت الدَّار، وأغْلَت الشّوَار، ورَاعت الاستِكثَار، وبَسَطت الاعْتِمَار؛ رجَّح لَدينا قَصْدَها على البُعد، والطَّريق الجَعْد، ما آسَفَتْ بِه المُسْلِمين من استِئصَال طائفَةٍ من أسْرَاهم، مَرُّوا بهَا آمنين، و[د] بطَائرها المشؤوم متيَمّنِين، قد أنهَكَهم الاعتِقال، والقُيُودُ الثّقَالُ، وأضرَعهم

(أ) آيا صوفيا: من (ب) أ: أثبتت، ومهملة في آيا صوفيا (ج) آيا صوفيا: هول (د) الواو ساقطة من آيا صوفيا

الإسَارُ، وجللهم الانكِسَارُ، فَجدَّلوهم في مَصْرعٍ واحِد، وتركوهم عِبْرةً للرَّائي والمُشاهِد، وأَهْدَوا بوَقِيعَتِهِم إلى الإسلام ثُكْلَ الوَاجِد، وتِرَة(أ) الماجد؛ فكَبَسْنَاها كَبْساً، وفَجَأْنَاها بِالهَامِ مَن لا يَضِلّ ولا يَنسَى، وصبَّحتها الخَيْل، ثمّ تلاَحَقَ الرَّجْلُ لَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ، وحَاق بِهَا الْوَيْل؛ فَأُبيح مِنهَا الذّمَار، وأخذَها الدّمار، ومُحِقَتْ من مَصَانِعها البِيض الأهِلَّة، وَخَسَفَت الأقمَار، وشُفِيَتْ من دِماءِ أهلهَا الضُّلُوع الحِرَار، وسُلِّطَت على هَيَاكِلِها النَّار، واستَولَى عَلَى الآلاف العَديدة من سَبْيِها الإسَار، وانتَهَى إلى إشْبيلِيَّة الثَّكْلَى المُغَار، فَجُلِّلَ وُجوهَ مَنْ بها من كِبار النَّصرانيّة الصَّغَار، واستَوْلَت الأَيدِي عَلَى ما لاَ يَسَعُه الوَصفُ ولا تُقِلُّه الأوقَار.

وَعُدْنا والأرضُ تَموج سَبْياً، لم نَتْرُكْ بِعِفِرِّينَ شِبْلاً ولا بِوَجْرَةَ ظَبياً، والعَقَائِلُ حَسْرَى، والعُيون يَبْهَرُها الصُّنعُ الأَسْرَى، وصُبحُ السُّرى قَد حُمِدَ من بَعْدِ المَسْرَى، فـ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾ [سورة الإسراء، من الآية 1]؛ ولِسَانُ الحَمِيّة يُنادِي، في تِلك الكَنائِس المُخَرَّبَةِ(ب) والنَّوادِي: يا لَثاراتِ الأَسْرَى!.

ولم يَكن إلاّ أنْ نُفِلَت الأنفال، ووُسِمَتْ بالأَوْضَاحِ الأَغْفَال، وتَمَيَّزَت الهَوَادِي والأَكْفَال، وكانَ إلى غَزْوِ مَدينَة جَيَّانَ الاحْتِفَال، قُدنَا إليْها الجُرْدَ تُلاَعِب الظِّلاَلَ نَشَاطاً، والأبطالُ تَقْتَحِم الأخطار رضًى بما عندَ الله واغْتِباطاً، والمُهَنَّدَةُ الذُّلق تَسبِق إلى الرِّقاب استِلالاً واختراطاً، واستكثَرْنا من عُدَد القتال احتياطاً، وأزَحْنا العِلَل عَمّن أراد جِهاداً مُنجِياً غُبَارُه من دُخَان جَهَنَّم ورِبَاطاً، ونادَيْنا: الجِهادَ! الجهادَ! يا أُمّة

(أ) أ: وترة (ب) آيا صوفيا: العربه (بلا نقط)

الجِهاد! رَايَةَ النَّبِيِّ الهَاد! الجَنَّةُ تَحْتَ ظلال السُّيوف الجِداد!؛ فَهَزَّ النداءُ إلى الله، تَعالَى[أ]، كلَّ عَامرٍ وغَامرٍ، وائتَمَر الجَمُّ من دَعوة الحَقّ إلى أمْرِ آمِر، وَأَتَى النَّاسُ من الفُجوجِ العَمِيقَة رِجَالاً وعلى كُلِّ ضَامِر، وكَاثَرتِ الرَّايَاتُ أزهَار البِطَاح لَوناً وَعَدّاً، وَسَدّت الحُشود مسالكَ الطُّرق العَريضَة سَدّاً، ومُدَّ بحرُها الزَّاخِر[ب] مَدّاً، فَلاَ يجد لهَا النَّاظِر وَلاَ المُنَاظِر حَدّاً.

وهَذه المَدِينة هي الأمُّ الوَلُود، والجَنَّةُ التي في النَّار لِسُكَّانها من الكُفَّار الخُلُود؛ وكُرسِيُّ المُلكِ، ومُجَنَّبَةُ الوُسْطَى من السِّلْك؛ باءَت بالمَزَايا العديدَة وَنجَحَتْ، وعِندَ الوِزان بغَيرها من أُمَّاتِ البُلْدَانِ، رَجَحَت، غَابُ الأُسود، وجُحر الحَيَّات السُّود، ومُنَصَّب التَّمَاثيل الهَائِلة، ومُعَلَّقُ النَّواقِيس الصَّائِلة.

فأَدْنَيْنا إليها المَرَاحِل، وعنَيْنا ببحَار المُحِلاَّت المُستَقِلاَّت مِنها السَّاحِل، وَلما أَكْثَبْنا جِوارَها، وكِدْنا نَلتَمِح نَارَها، تَحَرَّكنا إليها ووشاحُ الأفُق المَرقُوم، بزُهْرِ النُّجُوم، قَدْ دَار دَائرُه، واللَّيلُ من خَوفِ الصَّباحِ، عَلَى سَطْحِه المُسْتَباح، قَدْ شَابَتْ غَدَائِرُه، وَالنَّسْر يُرفرف باليُمْن طَائرهُ، والسِّماكُ الرَّامِح يَثْأرُ بِعزِّ الإسْلام ثَائرُه، والنَّعائمُ راعِدَةٌ فَرَائِص الجَسَد، من خَوْف الأَسد، والقَوْسُ يُرسِل سَهم السَّعَادَة، بوَتَرِ العادةِ، إلى أَهْدَافِ النَّعَمِ المُعَادَة، والجَوْزاءُ عابِرَةٌ نَهَر المَجَرَّة، والزُّهَرَةُ تَغَارُ من الشِّعْرَى العَبُور بالضَّرَّة؛ وعُطارِدٌ يُسْدِي في حَبْل الحُروب، عَلَى البَلَدِ المَحْروبِ ويُلْحِمُه، ويُناظِر عَلَى أشكَالِها الهَنْدَسِيَّةِ فيُفْحِمُه، والأَحْمَر يَبْهَر، وبعَلَمه الأبيض يُغْرِي وَيَنْهَر، والمُشتَرِي يُبْدىءُ فِي فَضْلِ الجِهاد ويُعيدُ، وَيُزاحِمُ في الحَلَقَات، عَلَى مَا لِلسَّعادة من الصَّفَقَات

(أ) ساقطة من آيا صوفيا (ب) آيا صوفيا: الزاجر

وَيَزِيد؛ وزُحَل عن الطّالع مُنْزَحِل، وعَنِ العَاشِر مُرتَحِل، وفي زَلَق السُّعُودِ وَحِل؛ والبَدْر يُطالع حَجَر المِنْجَنِيق، كَيفَ يَهْوي إلى النّيق؟ ومَطْلِعُ الشّمْس يُرَقّب، وجِدَارُ الأفقِ يَكادُ بالعُيُون عَنْها يُنقَب.

ولمّا فَشَا سِرُّ الصَّباحِ، واهتزّت أعْطافُ الرّاياتِ بِتَحِيّات مُبشّرَاتِ الرّيَاح، أطْلَلْنا عليها إطلالَ الأُسُود على الفَرائس، والفُحولِ على العَرائس؛ فنَظَرنا مَنْظراً يروعُ بأساً وَمَنْعَة، ويَرُوق وضْعاً وصَنْعَة، تلفّعت معاقِلُه الشُّم للسّحابِ ببُرُودٍ، وَوَرَدَت من / غُدَر المُزْنِ في بُرُود، وأشرَعَتْ لاقْتِطَاف أزهَارِ النُّجوم والذّراع بينَ النّطاق مَعَاصمَ رُود، وبَلَداً يُعْيِي المَاسِحَ والذّارِعَ، ويَنتَظِمُ المَحَانِيَ والأَجَارِعَ؛ فقُلنا: اللّهمّ؛ نَقّله أيدِيَ عِبادك، وأرِنَا فيه آيةً من آيات جِهَادِك؛ ونَزَلْنا بسَاحَتِها العَرِيضَة المُتون، نُزولَ الغَيْث الهَتُون، وتَيَمّنّا من فَحْصِها بسُورَة ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾، متبَرّئَةً من أَمان الرّحمن للبَلَد المَفْتُون؛ وأعْجَلنا النَّاس بحَمِيّة نُفُوسِهم النّفِيسَة، وسَجِيّة شَجَاعَتِهم البَئِيسَة، عن أنْ تَبَوّأ لِلقِتَال المَقَاعِد، وتُدنَى بإسماع شَهِير النّفِير منهُم الأباعِد، وقَبْلَ أنْ يَلْتَقِيَ الخَدِيمُ بالمَخْدُوم، ويركَع المِنْجَنيق رَكعَتَي القُدُوم؛ فَدَفَعُوا من أصحَر إليهم من الفُرْسانِ. وسَبقَ إلى حَوْمَة المَيْدَان، حتّى أَحْجَروهم في البَلَدِ، وسَلَبُوهُم لِبَاسَ الجَلَد، في مَوْقِف يُذْهِل الوَالِدَ عن الوَلد، صَابَت السِّهامُ فيهِ غَماماً، وطارَت كأسرَابِ الحَمام تَهْدِي حِماماً، وأضحَت القَنَا قِصَداً، بعدَ أنْ كانَت شِهَاباً رَصَداً؛ ومَاجَ بَحْرُ القَتَام بأَمواجِ النُّصُول، وأخَذَ الأرضَ الرّجَفَانُ لِزَلزال الصّياح المَوْصُول؛ فَلا تَرى إلاّ شَهيداً تُظَلّل مَصْرَعَه الحُور، وصرِيعاً تَقْذِف به إلى السَّاحل تِلك البُحور؛ ونَوَاشِبَ تَبْأى بها

الوُجُوهُ[أ] الوَجِيهةُ عندَ الله والنُّحُورُ؛ فالمِقْضَب، فَوْده يَخْضَب، والأَسمَر، غُصنُه يُسْتَثْمَر، والمِغْفَر، جِمَاهُ يَخْفَر، وظُهورُ القِسِيِّ تُقْصَم، وعِصَمُ الجُنْد الكَوَافِر تُفْصَم، ووَرَق اليَلَب في المُنقَلَب يَسقُط، والبِيضُ تكْتُب والسُّمر تَنقُط. فاقتُحِم الرَّبْضُ الأَعظَم لِجِينِه، وأظهَرَ الله لعيون المُبصِرين والمستَبْصِرين عِزَّةَ دِينِه، وتَبرَّأ الشَّيطانُ من خَدِينِه، ونُهِبَ الكفَّار وخُذِلُوا، وبِكلِّ مَرْصَدٍ جُدِّلوا.

ثمَّ دُخِلَ البَلَدُ بعدَهُ غِلابًا، وجُلِّل قَتْلاً واستِلاباً؛ فلا تَسَل إلاَّ الظُّبَا والأَسَلَ عَن قِيام ساعَتِه، وهَوْل يَوْمها وشَناعَتِه، وتَخريب المَبانَت والمَبَاني، وغِنَى الأَيْدِي من خَزَائن تلك المَغَاني، وَنَقْل الوجُود الأوّل إلى الوُجُود الثَّانِي؛ وتَخَارَق السَّيفُ فجاءَ بغَير المُعْتاد، ونَهِلَت القَنَا الرُّدَيْنِيَة من الدِّماء، حتَّى كادَت تُورِق كالأغصان المُغْتَرَسَة والأَوتاد، وهَمَت أفلاكُ القِسيِّ وسَحَّت، وأَرَنَّت حتَّى بُحَّتْ، ونَفَدت موادُّها فشحَّت، مِمَّا أَلَحَّت، وسَدَّت المسَالكَ جثثُ القَتْلَى فمَنعت العَابِرَ، واستأصَلَ الله من عَدوِّه الشَّأْفَةَ وقَطَع الدَّابرَ، وأزلَف الشَّهيدَ وَأحسَب الصَّابرَ، وسَبَقَت رُسلُ الفَتح الذي لم يُسمَع بمثله في الزَّمَن الغَابِر. تَنقُل البُشرَى من أفْوَاه المحَابِر، إلى آذان المَنَابِر.

أقَمنا بها أيّاماً نَعْقِرُ[ب] الأشجار، ونستَأْصِلُ بالتَّخريب الوِجَار، وَلسانُ الانتقَام من عَبَدَة الأصنام يُنَادي: يا لَثَاراتِ الإسْكَنْدَرِيَة تَشَفِّياً من الفِجَار، ورَعْياً لحقِّ الجَار؛ وقَفَلنا وأجنحةُ الرَّايات، بِرِياح العِنَايات، خَافِقَة، وأوْفَاقُ التَّوْفِيق، النَّاشِئة من خُطوط الطَّريق، مُوَافِقَة، وأَسْواقُ العزِّ بالله نافقَة[ج]، وحَملاءُ الرِّفق مُصاحِبَةٌ - والحَمدُ

(أ) أ، آيا صوفيا: الوجود (ب) في آيا صوفيا: فعفر (غير منقوطة) (ج) آيا صوفيا: خافقة

لله ـ مُوافِقة؛ وقَد ضَاقَت ذُرُوع الجِبال، عن أعناقِ الصُّهب السِّبال، ورُفِعَت على الأَكفَال، رُدَفَاء كرائم الأنفَالِ، وقُلقِلَت مِن النّواقِيس أجْرام الجِبَال، بِالْهِندَام والاختِيال؛ وهلَكَ بَهَلِكِ هذه الأمّ بناتٌ كلّ يرتضِعْنَ ثُدِيَّها الحَوافِل، وَيسْتَوْثِرْنَ حِجْرَها الكافل؛ شَمِل التّخرِيبُ أَسْوَارَها، وَعجَّلَت البوار[أ] بَوَارَها.

ثُمّ تَحرَّكْنا بعدَها حَركةَ الفَتْح، وأرسَلنا دِلاءَ الأدِلاّءِ قَبلَ المَتْح، فَبَشّرَت بالمَنْح؛ وَقَصَدْنَا مَدينةَ أُبّدَة، وهِيَ ثَانِيَةَ الجَناحَيْن، وكُبْرَى الأُختَيْن، ومُسَاهِمَةُ جَيَّانَ في حِينِ الحَيْن؛ مَدينةٌ أَخَذت عَرْضَ الفَضَاء الأَخْرَق، وتَمشَّت فيه أربَاضُها تَمشّيَ الكِتَابةِ الجَامِحَة فِي المُهْرَق؛ المُشْتَمِلَة على المَتَاجر والمكاسِب، والوَضع المُتَناسب، والفَلَح المغْيِي رَيْعُه عَمَل الحَاسِب، وكوَارَة[ب] الدَّبْرِ اللاّسِب، المُتَعَدّدة اليَعَاسِيب؛ فأناخَ العَفَاءُ[ج] بِرُبُوعها العَامِرة، ودارت كُؤُوس عُقَار الحُتُوفِ، بِبَنَان السُّيوف، على مُتَدَيِّرِيها المُعَاقِرَة، وصبّحَتْها طَلائعُ الفَاقِرَة، وأُغْرِيَت بِبطُونِ أسوارها عُوجُ المَعَاول البَاقِرَة؛ ودخلَت مدينَتَها عُنوَةُ السّيْفِ، في[د] أَسْرَعَ من خَطْرَة الطّيْفِ، ولا تَسْأَلْ عن الكَيْفِ، فلم يَبْلُغ العَفاءِ من مَدينَةٍ حَافِلة، وعَقِيلَة فِي حُلَل المَحاسِن / رافِلة، ما بَلَغ من هذه البائِسة التي سَجَدت لآلهة النّيران أبْراجُها، وتَضَاءَلَ بالرَّغَامِ مِعْرَاجُها؛ وضَفَتْ على أعطافِها ملابِسُ الخِذْلان، وأَقْفَرَ من كنائِسِها كِناسُ الغِزْلاَن.

ثمّ تَأَهَّبنا لغَزوِ أُم القُرَى الكافِرَة، وخزائن المَزَاين الوافِرَة، ورَبّة الشُّهرَة السّافِرَة، والأنباءِ المسَافِرَة؛ قُرْطُبَة، ومَا أَدْرَاك ماهِيَهْ! ذَات الأَرْجَاء الحَالِيَة الكاسِيَة، والأَطْوادِ

(أ) أ: النوار، ومهملة في آيا صوفيا (ب) أ، آيا صوفيا: وكورة (ج) أ، آيا صوفيا: العفاف، تحريف (د) ساقطة من آيا صوفيا

الرَّاسِخة الرَّاسِية، والمَبَاني المُبَاهِيَة، والزَّهْراءِ الزَّاهِيَة، والمَحَاسِن غير المتَناهِية؛ حيثُ هَالةُ بَدر السَّماءِ قد استدارت من السُور المَشِيدِ البِناءِ داراً، ونَهرُ المجرَّة من نَهْرِهَا الفَياض، المسْلول حُسامُه من غُمـود الغِيَاض، قد لَصِقَ بها جَاراً، وفَلَكُ الدُّوْلاب المُعتَدِل الانقِلاب، قَد استَقام مداراً، ورجَّع الحَنِينَ اشتِياقاً إلى الحبيبِ الأوّل وادكاراً، حيث الطَّودُ كالتّاج، يَزدَان بلُجَيْنِ العَذْبِ المُجَاج، فيُزْرِي بتَاجِ كِسْرَى ودَارَا؛ حيْثُ قِسِيُّ الجُسُور المَدِيدَة، كأنَّها عُوجُ المَطِيِّ العَديدَة، تعْبُر النَّهْر قِطاراً؛ حيثُ آثارُ العَامِرِيِّ المُجَاهِد، تَعْبَق بين تلك المَعَاهِد، شَذىً مِعطاراً؛ حيثُ كرائمُ السَّحائِب، تَزُور عَرائسَ الرِّياض الحبائب، فتَحْمِل لها منَ الدُّرِّ نِثَاراً؛ حَيْث شَمُولُ الشَّمالِ تُدَار على الأدْوَاح، بالغُدُوِّ والرَّواح، فتَرَى الغُصونَ سُكارَى، ومَا هيَ بُسكارَى؛ حيثُ أيدي الافتتَاح، تَفْتَضُّ من شَقَّائق البِطاح، أبكاراً؛ حيثُ ثُغورُ الأَقاح الباسم، تُقبّلها بالسّحَر زُوارُ النَّواسِم، فتَخفُق قلوبُ النُّجوم الغَيَارَى؛ حيثُ المُصَلَّى العَتيق، قَد رَحُبَ مَجالاً وطالَ مَناراً، وأزرَى ببَلاَط الوَليد احتِقَاراً؛ حيثُ الظُّهور المُثَارة بسلاحِ الفَلاَح، تُجَبُّ عن مثلِ أَسْنِمَة المَهَارى، والبُطونُ كأنَّها لتَدميثِ الغَمائِم، بُطونُ العَذَارَى، والأدْواح العاليةِ، تُخْتَرَقُ أعلامُها الهادية، بالجداولِ الحيارَى.

فما شئتَ من جَوٍّ بَقِيل، ومُعرَّسٍ للحُسن وَمَقِيل، ومالكٌ للعَقْل وعَقِيل؛ وخمائل، كم فيها للبَلابل، مِن قالَ وقيل، وخَفيف يجاوِرُ بثَقِيل؛ وسَنَابلَ تحكي من فوق سُوقها، وقَصَب بسُوقها، الهمزاتِ على الألِفات والعَصافيرَ البَدِيعة الصِّفات، فوْقَ القُصب المؤْتَلِفات، تميل لِهُبوب الصَّبَا والجَنوب، مالِئَة الجُيوب، بدُرِّ الحُبوب؛ وبِطَاحٍ لا تَعرِف عَيْنَ المَحْل، فَتَطْلبَه بالذَّحْل، ولا تَصْرِفُ في خِدمةِ بيضِ قِبَاب

الأزهَار، عندَ افتِتاحِ السَّوسَن والبَهار، غيرَ العُبْدان من سُودَان النَّحْل؛ وبَحْرِ الفِلاحةِ الذي لا يُدرَك ساحلُه، ولا يَبلغُ الطِّيةَ البعيدةَ راحلُه؛ إلى الوَادي، وسَمَر النَّوادي، وقَرَارِ دُموعِ الغَوادِي للتَّجاسُر على تَخَطِّيه، عِندَ تمَطِّيه الجِسْرُ العَادِي؛ والوَطنِ الذي لَيسَ من عَمْرو لا زَيْدِ، والفَرَا الذي في جَوْفِهِ كلُّ صَيْدِ[1]؛ أقلَّ كرسيُّه خلافةَ الإِسْلاَم، وأَغَار بالرُّصافة والجِسْرِ دارَ السَّلام؛ وما عَسَى أنْ تُطْنِبَ في وَصفِه أَلْسِنَةُ الأقْلام، أو تُعَبِّر بِه عن ذلك الكَمالِ فنونُ الكَلام.

فأعملنَا إليها السُّرى والسَّيْر، وقُدنَا إليْها الخَيْلَ، قَد عقَد الله في نَواصيها الخَيْرَ.

ولمَّا وقَفْنا بظاهِرها المُبهت المُعجِب، واصطَففْنا بخَارجِها المُنبِتِ المُنجِب؛ والقُلوبُ تَلتَمس الإعانَةَ مِن مُنعِمٍ مُجزِلٍ، وتَستَنْزِلُ[أ] مَدَد الملاَئكة مِن مُنجِد مُنْزِل، والرَّكَائبُ مِن خَلفِنا بمَعْزِل، تَتَناشَدُ في مَعَاهِد الإسلام: [من الطَّويل]

قِفَا نَبْكِ من ذِكرى حَبيبٍ ومَنْزِلِ[2]

بَرَزَ مِن حامِيَها المُحامِية، ووَقُودِ النَّارِ الحَامِية، وبَقِية السَّيف الوَافِرة عَلى الحِصاد النَّامِية، قِطَعُ[ب] الغَمائم الهَامية، وأَمواجُ البُحورِ الطَّاميَة؛ واستَجَنَّت بظِلال أَبطال المَجَال، أَعدادُ الرِّجال، النَّاشِبة والرَّامية، وتَصدَّى للنِّزال، مِن صَناديدِها

(أ) أ: ونستنزل ومهملة في آيا صوفيا (ب) أ، آيا صوفيا: وقطع

(1) مَثَلٌ يُضرب في الواحد الذي يقوم مقام الكثير لعظمه، وأصله قول أحدهم حينما خرج مع أصحابه للصيد، فاصطاد بعضهم أرنباً، واصطاد الآخر ظبياً، واصطاد هو فرأ أي حماراً وحشياً. فلما طرحوا ما اصطادوا بين يديه، قال: كل الصيد في جوف الفرا، أراد أنه أكبر الصيد، وبمنزلة كل الصيد. المستقصى في أمثال العرب 2: 224.

(2) مطلع معلقة امرىء القيس، وعجز البيت:

بسقط اللّوى بين الدخول فحومل

الصُّهبِ السِّبالِ، أمثالُ الهِضَاب الرَّاسِية، تُجِنُّها جُنَنُ السَّوابغ الكَاسِية، وقَوامِيسها المُفَادِيَةُ للصُّلْبان يَومَ بُوسِها بنُفوسِها المُوَاسِيَة، وخَنازيرُها التِي عَدتْها عَن قَبُولِ حُجَجِ الله ورَسُوله، سُتُورُ الظُّلَمِ الغَاشِية، وصُخُورُ القُلوب القَاسِيَة؛ فكَانَ بينَ الفريقَين أمامَ جَسْرها الذِي فَرَقَ البحْر، وحَلَّى بلُجَيْنِه، ولآلِيء زَيْنِه، منْها النَّحْرَ، حَربٌ لم تَنْسُج الأيَّامُ(أ) على مِنْوَالِها، ولاَ أتَت الأيَّامُ الحَبَالَى بِمثل أجِنَّةِ أهوالِها؛ مَنْ قَاسَها بالفِجَار، أفَكَ وفَجَر؛ أوْ مَثَّلَها بجَفْرِ الهَبَاءَةِ، خَرِفَ وَهَجَر؛ ومَن شَبَّهها بحَرب دَاحِس والغَبْرَاء، فَمَا عَرَف الخَبَر، فلْيَسْأَل مَن جَرَّب وخَبَر؛ ومن نَظَّرها بيَوم شِعْبِ جَبَلَة، فهُو ذُو بَلَه؛ أو عَادَلَهَا ببَطْنِ عَاقِل، فغَيْرُ عاقل؛ أو احتجَّ بيَوم ذِي قَار، فَهو إلى المَعرفة ذُو افتِقَار؛ أو نَاضَل بيَوْم الكَدِيد، فَسهْمُه غَير السَّدِيد؛ إنَّما كَان مَقَاماً غيرَ مُعْتاد، ومَرْعَى نُفوسٍ لم يَفِ بوصْفِه لِسَانُ / مُرْتَاد، وزلزالُ جبال أوتَاد، ومَتْلَفُ مَذْخُورِ لسُلطَانِ الشيْطَانِ وَعَتاد؛ أَعلَمَ فيه البَطَلُ البَاسِل، وتَورَّد الأبيَضُ البَاتِر، وتَأوَّد الأسْمَر العَاسِل، ودَوَّم الجَلْمَد المتَكَاسِل، وانبَعَث من حَدَب الحَنِيَّة، إلى هَدَف الرَّمِيَّة، النَّاشِر النَّاسِل، ورُوِيَتْ لمُرْسَلاَت السِّهامِ المَرَاسِل؛ ثمَّ أفضَى أمرُ الرِّماح إلى التَّشَاجُر والارتبَاكِ، ونشَبَت(ب) الأسِنَّةُ في الدُّروع نَشَبَ السَّمَكِ فِي الشِّبَاك؛ ثمَّ اختَلَطَ المَرْعِيُّ بالهَمَلِ، وعُزِل الرُّدَيْنِيُّ عَن العَمَل؛ وعادَت السُّيوف من فَوق المَفارِق تِيجَاناً، بعدَ أنْ شَقَّت غُدَرَ السَّوابغ خلْجَاناً؛ واتَّخَذَت جَداولُ الدُّروع، فَصَارت بَحْراً، وكَان التَّعانُق، فَلا تَرَى إلاَّ نَحْراً يُلازم نَحْراً، عِناقَ وَدَاعٍ، وموقِفَ شمْل ذِي

(أ) صبح الأعشى 6: 554 : الزمان (ب) أ: ونشت

انصداع، وإجابةَ مُنادٍ إلى فِراق الأبد وَ دَاع؛ واسْتَكْشَفَتْ مَآلَ الصَّبرِ الأنفسُ الشَّفَّافة، وهبَّت بريح النَّصر الطَّلائعُ المبشِّرةُ الهَفَّافَة؛ ثمّ أمَدَّ السَّيلُ ذَلك العُبَاب، وصَقَلَ الاسْتِبْصارُ الألباب، واستَخلَص العَزمُ صَفوةَ اللُّباب، وقَال لِسان النَّصر: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ [سورة المائدة، الآية 23]؛ فأصبحت طوائفُ الكفّار، حَصائدَ مَنَاجِل الشّفار، فَمَغافِرُهم قَد رضِيَت حُرمَاتُها بالإخْفار، ورُؤوسُهم مَحطُوطةٌ في غير مقام الاستِغْفار، وعلَت الرَّايات من فَوق تلك الأبراج المسْتَطْرَقَة والأسوار، ورَفْرَف على المدينة جناحُ البَوار، لولا الانتهاءُ إلى الحَدّ والمِقْدار، والوُقُوف عِندَ اختِفَاء سِرّ الأقْدَار.

ثمّ عَبرنَا نهرَها، وشدَدنا بأيدِي الله قَهرها، وضيَّقنا حَصْرها، وأدَرْنا بلآلىء القِبابِ البِيضِ خَصْرَها؛ وأقَمْنا بها أيّاماً تَحُوم عقْبَانُ البُنُود على فَرِيسَتِها حِياماً[أ]، ونَرمِي الأدواحَ بِبَوارِها[ب]، ونُسلِّطُ النّيرانَ على أقطَارِها؛ فَلولا عائقُ المَطر، لحصَلْنا من فَتْح ذلك الوَطَنِ على الوَطَر؛ فرأينا أنْ نَروضَها بالاجتِثَاث[ج] والانتِسَاف، ونُوالِي على زُرُوعها وربُوعها كَرَّاتِ رَياح الاعْتِسَاف؛ حتَّى يَتهيّأ للإسلام لَوكُ طَعْمَتِها، ويَتَهنَّا بفضل الله إرثُ نِعمَتِها؛ ثمّ كَانت من[د] مَوقِفها الإفَاضة مِن بَعدِ نَحْرِ النُّحور، وقَذْف جِمَار الدَّمار على العَدوّ المَدْحُور، وتَدافَعَتْ خَلْفَنا السَّيِّقَاتُ المتَّسِقَات، تَدَافُعَ أمواج البُحورِ.

وبعدَ أنْ ألحَحنا علَى جنّاتِها المُضحِرة، وكُرُومِها المشْتَجِرة، إلحاحَ الغَرِيم، وعَوَّضْناهَا المَنْظَرَ الكَرِيهَ من المنظَرِ الكريمِ، وطَافَ عليها طَائفٌ من ربِّنَا، فأصبَحتْ

(أ) ضبطها في أ بضم الأول: حُياماً. انظر: لسان العرب، مادة: حوم (ب) آيا صوفيا: بنوارها (ج) أ: بالاحتثاث، ومهملة في آيا صوفيا (د) آيا صوفيا: عن

كالصَّرِيم، وأغرينَا حِلاَق النَّارِ بجُمم الجَمِيم، وَراكَمْنا في أحوافِ أجرافها غَمائم الدُّخانِ، يُذكِّر طِيبهُ البانَ بيوم الغَمِيم، وأرسلنا رياح الغَارات لا ﴿تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [سورة الذاريات، الآية 42]؛ واستقْبَلْنا الواديَ يَهول مَدّاً، ويَروع سيفُه الصَّقيلُ حدّاً؛ فيسَّره الله من بعد الإعْواز، وانطَلَقت على الفُرصَةِ بتلك الفُرْضَة أيدِي الانتِهاز، وسألْنا، مِن سَائِلِه، أسَدَ بنَ الفُراتِ فأفتَى برجْحَانِ الجَوَاز، فعمَّ الاكتِساحُ والاستبَاحُ جميعَ الأحواز؛ فأُدِيلَ[أ] المَصُون، وانتُهِبت القُرى، وهُدَّت[ب] الحُصُون، واجتُثَّت الأصول، وحُطِّمَت الغُصون؛ ولم نَرفَع عنهَا إلى اليوم غارةً تصَابِحُها بالبُوس، وتُطْلِعُ عليها غُرَرَها الضَّاحكةَ باليوم العَبوس؛ فهِي الآن مُجْرَى السَّوابق ومجرُّ العَوالي، على التَّوالي، والحَسراتُ تَتجَدَّد في أطلالها البَوالي؛ وكأنْ بها قَد ضَرعَت، وإلى الدَّعوة المُحَمَّديَّة أسرعَت، بقدرةِ مَن لَو أنزلَ القرآنَ على الجِبالِ لخَشعَت من خَشْيةِ الله وتَصدَّعَت[1]، وعِزَّة من أذعنَت الجَبَابِرةُ لعِزِّه وخضَعَت.

وعُدنا والبُنود لا يَعرِف اللفُّ نشرَها، والوجوهُ المُجاهِدةُ لا يُخالِط التَّقطِيبُ بِشْرَها؛ والأَيْدي بالعُرْوة الوُثقَى متعلّقة، والألسنُ بشُكرِ نِعَم الله مُنطلِقَة، والسُّيوفُ في مَضاجِع الغُمود قَلِقَة، وسَرَابيلُ الدُّروع خلَقَة، والجِياد مِن ردّها إلى المَرابط والأَوَارِي، رَدَّ العَوارِي، حَنِقَة، وبعَبَرات الغَيْظِ المكْظُوم مُختَنِقَة؛ تَنظرُ إلينا نظَرَ

(أ) أ: فأذيل (ب) ساقطة من آيا صوفيا

(1) اقتباس من قوله تعالى ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ : [سورة الحشر، الآية 21].

العائِب، وتَعودُ من مَيادين الاختِيَال والمَرَاح، تَحتَ حُللِ السّلاح، عَوْدَ الصّبيان إلى المكاتِبِ؛ والطَّبلُ بِلسان العِزّ هادِر، والعَزْمُ إلى مُنَادي العَوْدِ الحَمِيد مُبَادِر، ووجُودُ نَوعِ الرّماح، من بعدِ ذلكَ الكِفاح نادِر[أ]، والقَاسِم تَرتَّب بين يَدَيه من السَّبي النَّوادِر، ووَارِدِ مَنَاهل الأُجور، غيرِ المُحلاَّءِ ولا المَهْجُور، غيرُ صادر، ومُناظِرُ الفَضل الآتِي، عَقِبَ أخيه الشَّاتِي، على المَطْلوب المُواتي، مُصَادر، والله على تَيْسير الصِّعَاب، وتَخْويل المِنَنِ الرِّغاب، قَادِر؛ لا إله إلاّ هُو. فما أَجْمَلَ لنا صُنعَه الحَفِيّ، وأكْرَمَ بِنا لُطْفه الخَفِيّ، اللهمَّ لا نُحصِي ثَناءً عَليكَ، ولا نَلجَأ مِنكَ إلاّ إليْكَ، ولا نَلتَمِس خَيرَ الدُّنيا والآخرة إلاّ لَديك؛ فأَعِدْ عَلَينا عَوائدَ نَصرِك، يا مُبدِئ يا مُعيدُ، وأَعِنّا من وَسائِل شُكرِك، على ما يَنْثَالُ به المَزيد، يا حَيُّ يا قَيُّوم، يا فَعَّالاً لِما يُريد.

وقَارَنَت رسالتُكم الميمونةُ لَدَينا حَذَقَ فَتحٍ بَعيد صِيتُه، مُشْرَئِبٌ لِيتُه، وفَخرٍ من فوق النُّجوم العَواتِمِ مَبيتُه؛ عَجِبنَا / من تَأَتِّي أَمِله الشّارد، وقُلنا: البركةُ في قَدَمِ الوَارد؛ وَهُو أنَّ مَلِكَ النَّصارَى لاطَفَنا بجُمْلةٍ من الحُصون كانَت من مَمْلَكَة[ب] الإسلام قد غُصِبت، والتَّماثِيلُ فيها بِبُيوت الله قد نُصِبت، أَدَالَها الله - بِمُحاولَتِنا - الطَّيبَ من الخَبِيث، والتَّوحيدَ من التَّثليثِ، وعَاد إليها الإسلامُ عَودَ الأبِ الغَائبِ، إلى البَنَات الحَبائبِ، يسأَلُ عن شُؤونها، ويمسَحُ دُموعَ الرِّقَّة مِن جُفونِها؛ وهِي للرُّوم خُطَّةُ خَسْفٍ قَلَّمَا ارتَكَبُوها فيما نَعلَم من العُهودِ، ونَادرةٌ من نَوادِرِ الوُجودِ. وَإلى الله علينا وعليكم عَوارفُ الجُودِ، وجَعَلَنا في مَحَاريب الشُّكرِ من الرُّكَّعِ السُّجودِ.

(أ) آيا صوفيا: الكفار هادر (ب) أ، آيا صوفيا: ملكة

عَرّفناكم بمُجمَلاتِ أمورٍ تحتَها تفْسير، ويُمْنٌ منَ الله وتيْسير، إذِ استيفاء الجزئيّات عَسيرٌ، لنُسِرَّكم بما منَح الله دينَكم، وَنُتَوِّجَ بِعزّ المِلّة الحَنيفيّة جَبينَكم، ونَخْطبَ بَعْدَه دُعاءَكم وتأمينَكم؛ فإنّ دعاء المُؤمن لأخيه بِظَهْر الغَيْب سلاحٌ ماضٍ، وكفيلٌ بالمواهِب المسئُولة من المُنعِم الوهّاب مُتقَاضٍ؛ وأنتم أولَى مَنْ ساهمَ في بِرّ، وعامَلَ الله بخُلُوصِ سِرّ؛ وأين يذهَبُ الفضلُ عن بيتكم، وهو صِفة حَيّكم، وتُراثُ مَيْتِكم؛ ولكم مَزِيّةُ القِدَم، ورُسوخِ القَدَم؛ والخِلافةُ مَقرُّها إيوانُكم، وأصحابُ الإمام مَالِك - رضيَ الله عنه - مُستَقَرُّهم قَيْرَوانُكم، وهِجّيرَا المَنابِر ذِكرُ إمامِكم، والتّوحيدُ إعْلاَمَ أعلاَمِكم، والوقائعُ الشّهيرةُ في الكُفر منسُوبةٌ إلى أيّامِكم، والصّحابةُ الكِرام فَتَحَةُ أوطانِكم، وسُلالَةَ الفَاروق(أ)، عليه السّلام، وشَائِجُ سُلطانِكم؛ ونَحن نَستكثِر من بركةِ خِطابكم، ووُصْلةِ جنابِكم؛ ولَولاَ الأعذَار لوالَينا بالمتزَيّدات تَعْريفَ أبوابِكم.

والله - عَزَّ وجَلَّ - يتولَّى عنّا من شُكرِكم المحتُوم، ما قَصَّر المكتُوبُ مِنه عَنِ المكْتُوم؛ ويُبْقيكم لإقامة الرّسومِ، ويُحِلُّ مَحبّتَكم من القُلوبِ محلَّ الأرواح من الجُسُوم؛ وهو، سُبحانَه، يصِل سَعْدَكم، ويَحْرُس مَجْدَكم، ويُوالِي نِعَمَه عِندَكم.

والسّلاَم الكَريم، الطَّيّب الزّكِيُّ المُبارك البَرُّ العَميمُ، يَخُصُّكم كَثِيراً أثيراً، ما أطلَعَ الصُّبحُ وجهاً مُنيراً، بعدَ أنْ أرسَل النَّسيم سَفيراً، وكَان الوَميضُ البَاسِم لأكْواسِ الغَمائم، على أزهارِ الكمائم، مُديراً؛ ورحمةُ الله، وبَركاتُه.

(أ) آيا صوفيا: الفارق

وكتبَ إليّ يُهنّئني بمولودٍ، ويُعاتِبُ عَلَى تأخِيرِ الخَبَرِ بولادِه عنه[1]: [من الطويل]

هَنيئاً أبا الفَضْلِ الرِّضَا وأبا[أ] زَيْدِ ... وأُمِّنْتَ من بَغْيٍ يُخافُ ومن كَيْدِ

بطالِعِ يُمْنٍ طَالَ في السَّعْدِ شَأْوُه ... فما هو مِنْ عَمْرو الرِّجالِ ولا زَيْدِ

وقيِّدْ بِشُكْرِ اللهِ أنعُمَهُ التي ... أَوَابِدُها تأبَى سِوَى الشكْرِ من قَيْدِ

أهلاً بدرّيِّ المَكاتب، وصَدْرِيِّ المراتب، وعُتْبَى الزَّمَن العاتِب، وبكْرِ المُشْتَرِي والكاتب؛ ومرحباً بالطَّالع، في أسْعَد المَطالع، والثَّاقِب في أجْلَى المَراقِب؛ وسَهْلاً بِغَنِيِّ البشير، وعِزَّةِ الأهل والعَشِير، وتاج الفَخْرِ الذي يَقْصُرُ عنه كِسْرَى وأَزْدَشِير[ب]؛ الآن اعتَضَدت الْحِلَّةُ الحَضْرَمِيّة بالفارس، وأَمِنَ السّارح في حِمَى الحارس، وسَعِدَت بالنَّيِّر الكَبِير، أفلاكُ التَّدْوِير، مِن حَلَقَاتِ المدارِس، وقَرّت بالجَنَى الكريم عَيْنُ الغارس، واحْتُقِرَتْ أَنظارُ الآبِلِيِّ[ج] وأبحاثُ[د] ابن الدَّارِس؛ وقيل لِلْمُشكلات: طالما أَلِفْتِ الخَمْرَة، وأمضيْتِ عَلَى الأَذْهَانِ الإِمْرة، فتأهَّبِي للغارة المُبِيحة لِحِماك، وتَحيَّزِي إلى فِئَة البَطَل المُسْتَأثِر بِرَشْف لَماكِ.

ولله من نَصْبَة احتَفَى فِيها المُشْتَرِي واحْتَفَلْ، وكَفَى العُمر سِنِيَّ تَربيتِها وكَفَل، واختَال عُطارِد فِي حُلَل الجَذَل لها وَرَفَل، واتَّضَحَت الحُدُود، وتَهلَّلت الْوجوهُ، وتنافَست المُثلَّثاتُ تؤمِّلُ الحَظَّ وَتَرجُوه، وَنَبَّه البيتُ على واجِبه، وأشار لَحْظُ

(أ) أ: أو أبا (ب) أ، آيا صوفيا: وأزدشير (ج) ضبطه في أ بضم الباء: الأبُلِيّ (د) آيا صوفيا: وأبحاث

(1) أثبت ابن الخطيب نصّ هذا الخطاب الموجّه لابن خلدون في كتابه ريحانة الكتاب 2: 177، وفي أوله تهنئة ابن الخطيب له بالإبلال من المرض، وتجاوز ابن خلدون عن إثبات طالع الكتاب.

الشَّرَف بحاجِبه، وأسرَعَ نَيِّرُ التَّوْبة في الأَوْبَة، قائماً في الاعتذار مَقَام التَّوبَة؛ واستأثر بالبُروج المُوَلِّدة بَيتُ البَنين، وتَخَطَّتْ خُطا القَمر رأسَ الجَوْزَهِرِّ وَذَنَبَ التِّنِّين؛ وساوَقَ منها حُكمَ الأصلِ، حَذْوَكَ النَعلَ بالنَّعل، تَحويلُ السِّنين، وحقَّق هذا المولود بينَ المواليد[أ] نِسبةَ عُمُرِ الوالد، فتجاوزَ درجةَ المئِين؛ واقتَرَنَ بعاشرِه السَّعْدان اقترانَ الجسَدِ، وثَبَتَ بدقيقةِ مركزه قلبُ الأسَد، وسرَقَ من بيت أعدائه خُرْثِيَّ الغِلِّ والحَسَد؛ ونُظِّفت طُرُقُ التَّسيِير، كما يُفعلُ بينَ يدَي السّادةِ عندَ المَسير، وَسَقَطَ الشَّيخ الهرِمُ من الدَّرجِ في البيرِ، ودُفع المُقاتل إلى الوبال الكبير: [من البسيط]

لِمْ لا يُنالُ العُـلاَ أو يُعْقَـدُ التَّـاجُ ... والمُـشْتَرِي طَـالِعٌ والـشَّمسُ هَـيْلاجُ
والسَّعْدُ يَرْكُضُ في ميدانِهَا مَرِحاً ... جَـذْلاَنَ والفلَـكُ الـدَّوَّارُ هِمْـلاجُ

كأنْ به - والله يَهديه - قد انتقل من مَهْدِ التَّنويم، إلى النَّهْج القَويم؛ ومن أريكةِ الذِّراع، إلى تصريف / اليَرَاع، ومن كَتَد الدَّايه، إلى مَقَام الهِدَايه، والغايةِ المُختَطَبَةِ البِدَاية؛ جَعَلَ الله وقَايته عليه عُوذَة، وقَسم حَسَدَتَه قسمةَ مُحَرَّم اللَّحْم، بين مُنْخَنِقَةٍ ونَطِيحَةٍ وَمُتَرَدِّيَةٍ وَمَوْقوذة؛ وحَفِظَ هِلالَه في البِدَار إلى تِمِّه وبعدَ تِمِّه، وأقرَّ به عينَ أبيه وأمِّه.

غير أنِّي - والله يَغفر لسيِّدي - راكعٌ[ب] في سبِيل الشُّكر وساجدٌ، فأنا عاتبٌ وواجد؛ إذ كان ظنِّي أنَّ البريد بهذا الخبَر إليَّ يُعْمَلُ، وأنَّ إتحافي به لا يُهمَل، فانعَكسَت القَضِيَّة، ورابَت الحالُ المرضِيَّة، وفَضَلَت الأُمورَ الذَّاتيةَ الأمورُ العَرَضيَّة،

(أ) أ، آيا صوفيا: الموالد (ب) أ، آيا صوفيا: بيد أني راكع.

والحُكم جَازِم، وَأَحدُ الفَرْضَيْنِ لأزمٌ؛ إمّا عَدَم السَّويّة، ويُعَارِضُه اعتناءٌ حَبْلُه مُغَار، وعُهْدَةُ سَلْمٍ لم تَدْخُلها جِزْيَةٌ ولا صَغَار؛ أو جَهْلٌ بِمقْدار الهِبَة، ويُعارِضُه عِلْمٌ بمقْدار الحُقُوق، وَرضىً مُنافٍ للعُقُوقِ، فوقَع الإشكالُ؛ وربَّما لطُف عُذرٌ كان عليه الاتّكال. وإذا لم يُبَشَّر مِثْلي بِمنْحة الله قِبَلَ تلك الذّاتِ السَّريّة، الخَليقَة بالنِّعَم الحَريّة؛ فمن الذي يُبَشَّر؟! وعَلَى من يُعرضُ بَزُّهَا أو يُنْشَر؟ وهي التي وَاصَلَت التَّفَقُّد، وَبَهْرَجَت المُعَاملَةَ وأبَت أنْ تَنقُد، وأنَّسَت الغُرْبَةَ وجُرحُها غيرُ مُندَمِل، ونَفَّسَت الكُرْبَةَ وجُنحُها على الجَوانِح مُشتَمِل؛ فمَتَى فُرِضَ نِسيانُ الحُقوق لم يَتَلُني فَرْضٌ، ولا شَهِدَ به عليَّ سماءٌ ولا أرْض؛ وإنْ قَصَّر فيما يجبُ لسَيّدي عَمَل، لم يُقَصِّر رَجَاءٌ ولا أمَل، ولِي في شَرح حَمْدِه نَاقةٌ وجَمَل.

ومِنه ـ جلَّ وعَلاَ ـ نسألُ أنْ يُريَه قُرَّة العَيْن في نفْسِه ومالِهِ وبَنِيه، ويجْعَلَ أكبَرَ عَطَايَا الهَيَالِج أصْغَر سِنِيه، ويُقلِّد عَواتِقَ الكَواكب البَابَانيّة حَمائلَ أمَانيه.

وإنْ تَشَوَّف سَيّدي لِحال وَلِيِّه، فخلوةٌ طيِّبةٌ، ورحمةٌ من جَانب الله صَيِّبَة، وبَرقٌ يُشَام، فيقالُ: حدِّث، ما وَراءَك يا هِشام، ولله دَرُّ شيخِنا[1] إذْ يَقُول: [مخلّع البسيط]

لا بَـارَكَ الله فـيَّ إنْ لـم أُصرِّف النَّفسَ في الأهمّ
وكثَّـر الله فـي هُمومـي إنْ كَان غَيْرُ الخَلاَص هَمّي

(1) لم نهتدِ إلى معرفة شيخ ابن الخطيب قائل البيتين.

وإنْ أنعم سَيّدي بالإلماع بحَاله، وحَال الولَد المُبارك، فذلِك من غُرَر إحسَانه، ومَنزلتُه في لَحظِ لَحظِي بمَنْزلَة إنسَانِه؛ والسَّلام][أ].

العَوْدةُ إلى المَغْرب الأَقْصى

ولمَّا كنتُ في الاعتمالِ في مُشايَعة السُّلْطانِ عَبْدِ العَزيز مَلِكِ المَغْرِبِ، كما ذكرتُ تفاصيلَه، وأنا مقيمٌ بِبَسْكَرة في جِوَار صاحِبها أحمدَ بن يُوسُفَ بن مُزْني، [وهو صاحِب زِمَام رِيَاح، وأكثرُ عَطائهم من السُّلْطانِ مُفْتَرَضٌ[ب] عليه في جِبَايَة الزَّاب، وهم يَرجعون إليه في الكثيرِ من أُمورِهم؛ فلَم أشعُر إلاّ وقد حَدثَت المُنافسةُ[ج] في استِتْباعِ العَرَبِ، ووَغِرَ صدرُه، وصَدَّق فيَّ ظنُونَه وتوَهُّماتِه، وطَاوَع الوُشاةَ فيما يُورِدون على سَمْعِه من التَّقَوّل والاختِلاق، وجَاشَ صَدرُه بذلك؛ فكتَب إلى وَنْزِمار بن عَرِيف، وليِّ السُّلْطان، وصاحب شوراه، يتَنفَّس الصُّعَداء مِن ذَلك، فأنهَاه إلى السُّلْطان؛ فاستَدْعاني لِوَقته، وارتحلتُ مِن بَسْكَرَةَ بالأَهْل والوَلَد، في يَوم المَوْلِد الكريم، سَنَةَ أربَعٍ وسَبْعين، مُتَوجِّهاً إلى السُّلْطانِ][د]، وقد كانَ طرَقَهُ المَرَضُ؛ فما هو إلاّ أنْ وصلتُ مِلْيَانَةَ من أعمالِ المَغرِب الأَوْسط، فلقيني هنالك خَبَرُ وفَاتِه، وأنَّ ابنَهُ أبا بَكْر السَّعِيد، نُصِبَ بَعدَه للأمرِ، في كَفَالة الوزير أبي بَكْر بن غازِي، وأنَّه ارتَحلَ إلى المَغْرِبِ الأقصَى مُغِذّاً السَّير إلى فاس؛ وكان على مِلْيَانَةَ يومئذٍ عليُّ بنُ حَسُّون بن

(أ) هنا موضع انتهاء سقط الفصل من ظ (ب) آيا صوفيا: مفترض (ج) بعدها في آيا صوفيا: منه (د) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، وعوضه: "وانقضى أمر هذه الخدمة عدت إلى موضع مقامتي فاستدعاني السلطان عبد العزيز إلى حضرته، وارتحلت إلى بسكرة بالأهل والولد ذاهباً إليه". والمثبت من أ

أبي عليّ اليَنَاطِيّ، من قُوَّادِ السُّلْطان ومَوَالي بَنِيه؛ فارتحلتُ معَه إلى أحياء العَطَّاف، ونَزَلنا على أولادِ يَعقوبَ بن موسَى مِن أُمرَائهم، وبَذْرَق بي[أ] بعضُهم إلى حِلَّة أولاد عَرِيف، أمراءِ سُوَيْد؛ ثمّ لَحِق بنا بعدَ أيّام عليُّ بنُ حَسُّون في عَسْكَرِه، وارتحلنا جَميعاً إلى المغربِ على طريقِ الصَّحراءِ؛ وكان أبو حَمُّو قد رجَع بَعدَ مَهْلِكِ السُّلْطان من مَكان انتِبَاذِه بالقَفْرِ في تِيكُورَارِين إلى تِلِمْسان، فاستَولَى عليْها وعلى سائِر أعماله؛ فأَوْعَزَ إلى بَنِي يَغْمُور مِن شُيوخِ عُبَيدِ الله المَعْقِل أنْ يعترضونا بحُدود بِلادهم مِن رأس العَيْنِ، مَخرج وادي صَا[1]، فاعترضونا هنالك، فنَجا مَن نَجا منّا على خيولهم إلى جَبل دَبْدُو، وانتَهبوا جميعَ ما كان معنا، وأرجَلُوا الكثيرَ من الفرسان، وكنتُ فيهم؛ وبقِيتُ يَوْمَيْن في قَفْرِه، ضاحياً عارِياً إلى أنْ خَلَصتُ إلى العُمْرانِ، ولحقتُ بأصحابي بجَبَل دَبْدُو، / وَوَقَع في خِلال ذلك من الألطافِ ما لا يُعَبَّر عَنه، ولا يَسَعُ الوفاءُ بشُكْرِه. [358 ب]

ثمّ سِرنا إلى فاس، ووَفَدتُ على الوزير أبي بَكْر، وابنِ عَمِّه مُحَمَّد بن عُثْمان بفاس في جُمادَى من السَّنةِ؛ وكان لي مَعه قَدِيمُ صُحْبَةٍ واختِصاص، منذ نَزَع مَعي إلى السُّلْطانِ أبي سالم بجبَل الصَّفِيحة، عندَ إجازته من الأنْدَلُس، لطلَب ملكِه، كما مرّ في غيرِ مَوْضعٍ من الكتاب؛ فلقِيَني من بِرّ الوزير وكرامته، وتوفير جِرَايته وإقطاعِه، فوقَ ما أحتَسِبُ، وأقمتُ بمكاني من دَولتهم أثيرَ المحلّ، نَابِه الرُّتْبَة، عَرِيضَ الجاهِ، مُنَوَّهَ المَجْلِس عندَ السُّلْطان.

(أ) ظ: فيّ

(1) هو وادي زا؛ كتبه ابن خلدون صاداً في وسطها زاي، واشتبهت على ناسخ ظ فكتبها: وادي رضا. وقد تقدم التعريف به

ثمّ انصَرَمَ(أ) فَصلُ الشّتاءِ، وحَدَث بين الوزير أبي بَكْر بن غَازي، وبين السُّلْطان ابن الأحْمر، مُنَافرةٌ بسببِ ابن الخطيب، وما دَعَا إليه ابنُ الأحمر من إبعادِه عنهم؛ وأَنِفَ الوَزيرُ من ذلك، فأظلم الجوُّ بينهما؛ وأخَذ الوزيرُ في تجهيز بَعضِ القَرابة من بني الأحمر، للإجلاب على الأنْدَلُس، فبادرَ ابن الأحمر إلى إطلاق الأمير عبد الرّحمن بن أبي يَفْلُوسَنْ من ولَد السُّلْطانِ أبي عليّ، والوزيرِ مَسعود بن رَحُّو بن ماسَايْ؛ كان حبَسَهما أيّام السُّلْطان عبد العزيز، وبإشارته بذلك لابن الخطيب حين كان في وزارته بالأنْدَلُس؛ فأطْلقهما الآن، وبعثهما لطلَب المُلْك بالمَغرِب، وأجازَهُما في الأُسْطُول إلى سَواحل غَسَاسَة، فنزَلوا بها، ولحِقوا بقَبائل بَطُّويَة هُنالك، فاشْتَمَلوا عليهم، وقامُوا بدَعْوةِ الأمير عبْدِ الرَّحمن، ونَهضَ ابنُ الأحمر من غَرْناطَة في عَسَاكِر الأنْدَلُس، فنَزَلَ عَلَى جَبَل الفَتْح يُحاصِرُه، وبلغَت الأخبارُ بذلك إلى الوزير أبي بَكر بن غازِي، القائِم بدوْلَة بني مَرين، فَجَهَّزَ لحينه ابنَ عمِّه، مُحَمَّدَ بنَ عُثْمان بن الكاس إلى سَبتَةَ لإمدَادِ الحَامِيَة الذين لَهُم بالجَبَل، ونَهَضَ هُو في العَسَاكِر إلى بَطُّويَة لِقتال الأمير عَبْد الرّحمن، فوَجَده قد مَلَكَ تَازَى، فأَقَامَ(ب) عليْها يُحاصِرُه؛ وكانَ السُّلْطانُ عبدُ العَزيز / قد جَمع [359أ] شَبَاباً(ج) من بَني أبيه المرشَّحين، فَحَبَسَهم بطَنْجةَ، فلمّا وَافَى مُحَمَّدُ بن الكاس سَبتَةَ، وقَعت المُرَاسلةُ بينَه وبين ابن(د) الأحمر، وعتَبَ كلٌّ منهما صاحبَه على مَا كان منه، واشتَدَّ عَذلُ ابنِ الأحْمَر على إخلائهم(هـ) الكرسيَّ من كُفوْه، ونَصْبِهم السَّعيدَ بنَ عبد العَزيز صبيّاً لم يُثْغِر؛ فاسْتَعْتَب له مُحَمَّد، واستقالَ من ذلك؛ فَحَمَلَهُ ابنُ الأحْمَر على

(أ) ظ: انصرف (ب) ظ: فأقدم (ج) ظ: سبايا، ومهملة في ظ (د) ساقطة من آيا صوفيا (هـ) ظ: خلائهم

أنْ يُبايعَ لأحَدِ الأبناءِ المحبُوسين بطنجَةَ؛ وقد كان الوزيرُ أبو بكر أوصَاه أيضاً بأنّه إنْ تضايقَ عليه الأمر من الأميرِ عبد الرّحمن، فيفرّج عنه بالبَيعةِ لأحَدِ أولئك الأبناءِ.

وكان مُحَمَّد بنُ الكاس قد استَوزَره السُّلطان أبو سَالِم لابنه أحْمد أيّام مُلكه، فَبادَرَ من وَقْتِه إلى طَنْجَة، وأخرج أحمَدَ ابنَ السُّلطان أبي سالم من مَحْبِسِه، وبايعَ له، وسار بهِ إلى سَبْتَة، وكتَب لابن الأحْمر يعرِّفه بذلك، ويطلبُ منه المدَد، على أنْ ينزِلَ له عن جبل الفَتح؛ فأمدَّه بما شاء من المال والعَسْكر، واستولَى على جَبَل الفتح، وشَحنَه بحاميتِه.

وكان أحمدُ ابن السُّلطانِ أبي سالِم، قد تعاهَد مع بني أبيه في مَحْبِسهم، عَلَى أنَّ مَنْ صار المُلْك إليه منهم، يُجيزُ الباقين إلى الأنْدَلُسِ؛ فلمَّا بويع له، ذَهَب إلى الوَفاء لهم بعهدهم، وأجازَهم جميعاً، فنزلوا[أ] على السُّلطان ابن الأحْمر، فأكرم نُزُلهم، ووفَّرَ جراياتِهم.

وبلغ الخبرُ بذلك كلّه إلى الوزير أبي بكر بمكانه من حِصَار الأمير عبد الرّحمن بِتَازَة[ب]، فأخذَهُ المُقِيمُ المُقْعِدُ من فَعْلَة ابن عَمِّه، وقَوَّضَ راجعاً إلى دار المُلْك، وعَسْكر بِكُدْية العرائس من ظاهرها، وتوعَّد ابنَ عمِّه مُحَمَّدَ بن عُثْمان، فاعتذَر بأنّه إنّما امتثل وصِيَّتَه، فاسْتَشَاط وتَهدَّده؛ واتَّسَع الخرْقُ بينهما، وارتحلَ مُحَمَّدُ بن عُثْمان بسُلْطانه ومَدَدِه من عَسْكَرِ الأنْدَلُس إلى أنْ احتَلَّ بِجَبَل زَرْهُون[ج] المُطِلِّ على مِكْنَاسَة، وعَسْكَرَ به، واشتَملوا عَلَيْه؛ وزَحَفَ إليهم الوزيرُ أبو بكر، وصَعِد الجَبَل، فقَاتَلُوه وهَزَمُوه، ورَجَع إلى مكانِه بظاهر / دَار المُلْك. [359 ب]

(أ) ظ: فتولوا (ب) كذا رسمها في ظ، أ، آيا صوفيا (ج) ظ: ززهوان

وكان السُّلْطان ابنُ الأحمر قد أوصَى مُحَمَّد بنَ عُثْمان بالاستِعانَةِ بالأميرِ عَبْدِ الرَّحمن، والاعتِضَاد بِه، وَمُسَاهَمته في جانبٍ من أعمالِ المَغْرِب يستَبِدُّ به لِنَفْسِه؛ فَراسَلَه مُحَمَّد بن عُثْمان في ذلك، واستَدْعاهُ، واستَمدَّه.

وكان وَنَزْمَارُ بن عَرِيف، وليُّ سَلَفهم، قد أظلم الجوُّ بينَه وبينَ الوَزِير أبي بَكر، لأنَّه سَأَلَه - وهو يحاصر تَازَى - في الصُّلح مَعَ الأمير عَبد الرَّحمن فامتَنع، واتَّهمه بمداخلتِه، والمَيْلِ لَه، فاعتَزَم على القَبْض عليْه، ودسَّ إليه بذلك بعْض عُيونه، فَرَكِبَ اللَّيل، ولحِقَ بأَحياءِ الأَحْلافِ من المَعْقِل، وكانوا شِيعةً للأمير عَبد الرَّحمن، ومعهم عليّ بن عمر الويغلاني كَبير بني وَرْتَاجَنْ؛ كان انتَقَضَ على الوزير ابن غازي، وَلحِقَ بالسُّوس، ثمّ خَاضَ القَفْر إلى هؤلاءِ الأَحْلاَف، فنَزَلَ بيْنَهم مُقيماً لدعوة الأمير عَبْد الرَّحْمَن. فجاءَهم وَنَزْمار مُقْلِتاً من حِبَالَة الوزير أبي بَكر، وحَرَّضَهُم على ما هُم فيه، ثمّ بلَّغهم خَبَرَ السُّلْطان أحمدَ بنِ أبِي سالم، ووَزيرِه مُحَمَّد بن عُثْمان؛ وجاءَهم وافِدُ الأمير عبد الرَّحمن يسْتَدعيهم، وخَرَج من تَازَى، فلَقِيَهُم، ونزَل بينَ أحْيائهم، ورَحَلوا جميعاً إلى إمداد السُّلْطان أبِي العبَّاس، حتَّى انتَهَوْا إلى صَفُوري[أ]. ثمّ اجتَمَعُوا جَميعاً على وَادي النَّجَا، وتعَاقَدُوا عَلَى شأنهم، وأصبَحوا مِن الغَدِ على التعْبِئَة، كُلٌّ من نَاحِيَته.

وَرَكِبَ الوزيرُ أبو بَكْرٍ لِقِتَالهمْ، فلم يُطِقْ، وَوَلَّى مُنْهَزِماً، فانحَجَر[ب] بالبَلَد الجديدِ، وخَيَّم القَوْمُ بكُديَة العرائِس مُحاصرينَ له، وذلك أيّامَ عيدِ الفِطْر من خَمسٍ وسَبْعين؛ فحاصروها ثلاثةَ أشهرٍ، وأخَذوا بمُخَنَّقها إلى أنْ جَهِدَ الحِصارُ الوزيرَ ومَن

(أ) ظ، أ، آيا صوفيا: صفووي وتقدم التعريف بهذا الموضع (ب) ظ: وانحجز

مَعَه، فأذْعَن للصُلح على خَلْع الصَّبيّ المنصُوب السَّعيدِ ابن السُّلْطان عَبْد العزيز، وخُروجه إلى السُّلْطان أبي العبّاس، ابن عمِّه، والبَيْعة. وكان السُّلْطان أبُو العبّاس، والأميرُ عَبدُ الرّحمن، قد تَعَاهدوا ـ عند الاجتماع بوادي النَّجا ـ عَلَى التَّعاوُن والتَّناصُر، على أنَّ المُلْك للسُّلْطان عبد العزيز بسائِر[أ] أعْمالِ المَغرِب، وأنّ للأمير عبد الرَّحمن بَلَدَيْ سِجِلْمَاسَة[ب] ودَرْعة، والأعمالَ التي كانت لجَدِّه السُّلْطان أبي عَليّ، أخي السُّلْطان أبي الحَسَن؛ ثمّ بَدَا للأمير عبد الرَّحمن في ذلك أيّامَ الحِصار، واشتَطَّ بطَلَب مَرّاكُش وَأعمالِها، فأغضَوْا له في ذلك، وشارطُوه عَلَيْه حتَّى يَتمّ لهم الفتح؛ فلمَّا انعقَدَ ما بينَ السُّلْطان أبي العبَّاس والوَزير أبي بَكْر، وخرج إليه من البَلد الجَديد، وخَلَعَ سُلطانَه الصَّبيّ المنْصُوب، ودَخَل السُّلْطانُ أبو العبَّاس إلى دار المُلْك، فَاتِحَ ستٍّ وسَبعين، وارتَحَل الأميرُ عبد الرَّحمن يُغِذُّ السَّيْرَ إلى مَرَّاكُش، وبَدَا للسُّلْطان أبي العبَّاس، ووَزيرِه مُحمَّد ابن عُثْمانَ في شأنِه، فَسَرَّحوا العساكِر في اتّباعه، وانتَهَوْا خَلْفَه إلى وادي بَهْت، فواقَفُوه ساعةً من نهار[ج]، ثمّ أحجَموا عنه، وولُّوا على رَاياتِهم، وسار هُو إلى مَرَّاكُش، ورَجَع عنه وزيرُه مَسْعود بنُ مَاسَايْ، بعد أنْ طلَبَ منه الإجازةَ إلى الأنْدَلُس يَتَودَّع بها، فسرّحه لذلك، وسار إلى مَرَّاكُش، فملكها.

وأمَّا أنا فكنتُ مقيماً بفَاس، في ظلّ الدَّوْلَة وعنايتِها، منذُ قدِمتُ على الوزير سنةَ أربعٍ وسَبعين، كما مَرّ، عاكفاً على قراءة العِلم وتَدْرِيسه وتَدْوينه[د]؛ [فلمَّا جاء][هـ] السُّلْطانُ أبو العبَّاس والأميرُ عبدُ الرَّحمن، [وعَسْكَروا][و] بكُدْية العرائس،

(أ) ظ، أ: لسائر (ب) ظ، أ، آيا صوفيا: بلد السجلماسة (ج) ظ: النهار (د) ساقطة من أ، آيا صوفيا (هـ) ظ: حتى اجتمع (و) ساقطة من ظ

(أ)[وخَرجَ أهلُ الدَّوْلَةِ إليهم، من الفُقَهاءِ، والكتّابِ، والجُندِ، وأُذِنَ للنَّاس جميعاً في مُباكَرةِ أبوابِ السُلْطانَيْنِ مِنْ غَيرِ نَكيرٍ في ذلك، فكنتُ أُبَاكرهما مَعاً، وكانَ بَيْني وبينَ الوزير مُحَمَّد بن عُثْمان مَا مَرَّ ذِكره من هذا، فكان يُظْهِرُ لي رِعَايةَ ذلك، ويُكثِر من المَواعيد؛ وكانَ الأميرُ عَبدُ الرَّحمن يَميل إليّ، وَيَستَدعيني أكثرَ أوقاته يُشَاوِرُني في أحوالِه؛ فَغصَّ بذلك الوزير مُحَمَّد بن عُثْمان، وأغرَى سُلْطانَه، فقَبَضَ عَلَيّ، وسَمِع الأميرُ عبد الرَّحمن بذلك، وعَلِمِ أنّي إنَّما أوتِيتُ(ب) من جَرَّاه، فَحلفَ ليُقَوِّضَنَّ خِيامَه، وبَعثَ وزيرَه مَسْعودَ بنَ مَاسَايْ لِذَلك، فأطلَقُوني من الغَد، ثمّ كان افتِرَاقُهما لثَالثِه.

ودَخل السُلْطانُ أبو العبَّاس دَارَ المُلْك، وسَار الأميرُ عبدَ الرَّحمن إلى مَرَّاكُش، وكنتُ أنا يومئذٍ مستوحِشاً، فصَحِبتُ الأميرَ عبد الرّحمن، مُعْتَزِماً على الإجازة إلى الأنْدَلُس من ساحل أَسَفي، مُعَوِّلاً في ذلك عَلَى صِحابَة الوزير مَسْعُود بنِ ماسَايْ لهوَايَ فِيه، فَلَمَّا رجع مَسْعُود انثَنى عَزْمِي(ج) في ذلك، ولَحِقْنا بوَنْزْمار بنِ عَريف بمكانه من نواحي كَرْسِيف لتَقَدّمَه وَسِيلةً إلى السُلْطان أبِي العبَّاس، صاحِب فاس في الجَوَاز إلى الأنْدَلُس، ووَافَيْنا عِندَه دَاعيَ السُلْطان، فصَحبناهُ إلى فاس، واستأذنَه في شأني، فأذِن لِي بَعْدَ مطاولة، وعلى كُرهٍ من الوَزير مُحَمَّد بن عُثْمان، وسُلَيمانَ بنِ داود بن أَعْرَاب، ورِجَال من الدَّوْلَة.

(أ) من هنا إلى آخر الفصل ساقط من ظ، وتجاوز ابن خلدون فيها عن ذكر تفاصيل إقامته بفاس ثم الرغبة في الرحلة منها إلى الأندلس، وخاتمة الفصل في ظ: "وحاصروا البلد الجديد واستولى عليها السلطان أبو العباس، كما مرّ، فاستأذنته في اللّحاق بالأندلس للتودّع بها، فأذن لي في ذلك إلى أن كان ما نذكر". (ب) أ، آيا صوفيا: أتيت (ج) (انثنى عزمي) مكررة في آيا صوفيا

وكان الأخ يَحْيَى لمَّا رحَل السُّلْطانُ أبو حَمُّو من تِلِمْسَان، رجَع عنه من بِلاَد زُغْبَة إلى السُّلْطان عَبد العزيز، فاستَقرَّ في خدمتِهِ، وبَعْدَه في خِدمَة ابنه مُحَمَّد السَّعيد، المنصوب مَكانَه. ولمَّا استَولى السُّلْطانُ أبو العبَّاس على البَلَد الجديد، استأذَنَ الأخُ في اللَّحَاق بتِلِمْسان، فأُذِنَ له، وقَدِم على السُّلْطان أبِي حَمُّو، فأعَادَه إلى كِتابَة سِرِّه، كما كان أوّل مرّة، وأُذِنَ لِي أنا بعدَه، فانطلَقْتُ إلى الأندَلُس بقَصْد القَرار والدَّعة، إلى أنْ كَان ما نذكرُ][أ].

الإجازةُ ثانيةً إلى الأندَلُس، ثمَّ إلى تلمْسَانَ، واللَّحاقُ بأحْياءِ العَرَب، والمقَامَةُ عندَ أولاد عَريف

[ولمَّا كانَ ما قَصَصْتُه من تَنكُّرِ السُّلْطان أبِي العبَّاس، صاحب فاس، والذَّهابِ معَ الأميرِ عَبد الرَّحمن، ثمّ الرُّجوع عنه إلى وَنْزَمَار بن عَرِيف، طلباً لوسيلته في انصرافِي إلى الأندَلُس][ب] بقصد القَرار والانقِباض، والعُكُوف على خدمة[ج] العِلْم تدريْساً وتأليفاً[د]؛ [فتمَّ ذلك][هـ]، ووَقَع الإسعافُ به بعدَ / الامتِناع، وأجَزتُ إلى [360 ب] الأنْدَلُس في ربيع سِتٍّ وسَبعين؛ [ولَقِيَني السُّلْطان][و] بالبِرِّ والكرامة، وحُسْن النُّزُل، على عادَته، [وكنتُ لقيتُ بجبَل الفتح كاتبَ السُّلْطان ابنِ الأحمر، مِن بعدِ ابنِ الخَطيب، الفقيهَ أبا عَبْد الله بنَ زَمْرَك، ذَاهِباً إلى فَاس في غَرَض التَّهْنِئة، وأجاز إلى

(أ) هنا نهاية الزيادة التي تضمنتها نسخة أ وآيا صوفيا، وسقطت من ظ (ب) ما بين الحاصرتين ساقط من ظ، وعوضه: "ولما استأذنت السُّلطان في اللحاق بالأندلُس". (ج) آيا صوفيا: قراءة (د) أ: على قراءة العلم (هـ) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (و) ظ: فلقيني صاحب الأندلس

سَبْتَة في أُسطولِهِ، وأوصَيتُه بإجازة أهلي وَوَلدي إلى غَرناطَةَ؛ فلمّا وَصَل إلى فاس، وتحدَّث معَ أهْلِ الدَّوْلَةِ في إجازتِهم(أ)، تنكَّروا لِذلك، وساءَهُم استِقْراري بالأنْدَلُس، واتَّهموا أنّي ربّما أحمِل السُّلْطان ابنَ الأحْمَر على المَيلِ إلى الأمير عَبد الرّحمن، الذي اتَّهَموني بِمُلابَسته، ومَنَعوا أهلي من اللَّحَاق بِي، وخاطَبُوا السُّلْطانَ ابنَ الأحْمَر في أنْ يُرجِعَني إليهم، فأبَى من ذلك، فطَلَبُوا مِنه أنْ يُجيزَني إلى عُدْوَةِ تِلِمْسان؛ وكانَ مَسْعُودُ بن مَاسَايْ قَد أذِنُوا له في اللَّحاق بالأنْدَلُس، فحَملُوه مُشَافَهَةَ السُّلْطان بذَلك، وأبْدَوْا له أني كنتُ ساعياً في خَلاص ابن الخطيب](ب)، وكانوا قَد اعتَقَلُوه لأوّلِ استِيلائهم على البَلَد الجَدِيد، وظَفَرِهم به، وبَعَثَ(ج) إليَّ ابنُ الخطيب مِن مَحْبِسه مُسْتَصْرِخاً بي [ومتَوَسّلاً](د)، *فشاركْتُهُ في محمِّهِ*(هـ) وخاطبتُ في شأنِه أهلَ الدَّوْلَة، [وعوَّلتُ فيه مِنهم على وَنْزَمَار، وابنِ مَاسَايْ، فلم تُنْجِحْ تِلك السِّعَاية، وقُتِل ابنُ الخطيب بمَحْبِسِه؛ فلمّا قدم ابن مَاسَايْ على السُّلْطان ابنِ الأحمر - وَقَد أغْروهُ بي - فألقَى إليّ السُّلْطان ما كانَ مَنِّي في شأن ابن الخطيب، فاسْتَوْحَشَ لذلك ، وأسعَفَهم بإجازَتي إلى العُدْوة، ونَزَلتُ بهُنَيْن، والجوُّ بيني وبينَ السُّلْطانِ أبي حَمُّو مظلم، بما كان منّي في إجلاب العَرَب عليه بالزَّاب كما مرّ. فأوعَزَ بمُقَامي بهُنَيْن؛ ثمّ وفَدَ عليه مُحَمَّد بن عَرِيف، فعذَلَه في شَأني، فَبَعَثَ عَنِّي إلى تِلِمْسان، واستَقْرَرْتُ بها بالعُبّاد، ولَحِقَ بي أهلي وَوَلدي من فَاس، وأقامُوا معي، وذلك في عِيد الفِطر سنةَ سِتٍّ وسَبعين، وأخذتُ في بَثِّ العِلم.

(أ) أ: أخبارهم (ب) عوض ما بين الحاصرتين في ظ: "ووجدت عنده استيحاشاً من سعايتي في استنقاذ ابن الخطيب؛ وذلك أنَّ أهل الدولة بفاس كانوا ..." (ج) ظ: فبعث (د) ساقطة من ظ (هـ) سقط ما بين النجمين من أ

وعَرَض للسُّلْطان أبي حَمُّو أثناءَ ذلك رَأيٌ في الدَّواودة[أ]، وحَاجةٌ إلى استئلافهم؛ فاستَدْعَاني، وكلَّفَني السِّفَارة إليهم في هَذَا الغَرَضِ، فاستَوْحَشتُ منه، ونَكِرتُه على نَفْسي، لما آثرتُه من التَّخَلِّي والانقِطاع، وأجبتُه إلى ذَلك ظاهراً][ب]، وخرجْتُ مُسَافراً من تِلِمْسان حتَّى انتهيت إلى البَطْحَاء، فَعَدلت ذَاتَ اليَمينِ إلى مَنْدَاس، ولحِقتُ بأحْياء أولاد [عَريف][ج] قِبْلَةَ جبل كُزُول، فَتَلَقَّوني بالتَّحَفِّي والكَرامةِ، وأَقمْتُ بينهم أيّاماً حتَّى بعثُوا عَن أهلِي وَوَلدي من تِلِمْسانَ، وأحسَنُوا العُذْرَ إلى السُّلْطانِ عَنِّي في العَجْزِ عن قَضَاءِ خِدْمته، وأنزَلُوني بأهلِي في قَلْعَةِ ابن سَلاَمَة، مِنْ بَلاَد بَني تُوجِينْ، التي صَارَتْ [لهم][د] بإقطاعِ السُّلْطان، فأقَمْتُ بها أربعةَ أعْوامٍ، مُتَخَلِّياً عن الشَّوَاغِل كلِّها؛ وشَرَعتُ في تأليف هَذَا الكتاب، وأنَا مُقِيمٌ بها، وأكملتُ المقدِّمَة مِنهُ على ذَلك[هـ] النَّحوِ الغَرِيب، الذي اهتَديتُ إليه في تِلك الخَلْوَة، فَسالَتْ فيهَا شآبِيبُ الكَلاَمِ والمَعَاني على الفِكْرِ، حتَّى امتَخَضَتْ زُبدَتُها، وتألَّفت نَتَائِجُها؛ وكَانَتْ، [من][و] بَعدِ ذلكَ، [الفيئةُ][ز] إلى تُونِس، كما نَذْكُرهُ.

(أ) آيا صوفيا: الذواوده (ب) لم تتضمّن نسخة الأصل (ظ) الزيادات التي أحدثها ابن خلدون على أخباره مع السلطان ابن الأحمر والسلطان أبي حمو، وهي الزيادات التي استوعبتها نسخة (أ) ونسخة آيا صوفيا، ونصّ (ظ) هو: "فلم يزدهم ذلك إلاّ جماحاً، وانطلقتُ أنا إلى الأندلُس فوجدتُ السُّلْطان قد استَوْحَش لذلك، فاستوحشتُ أنا، وأجزتُ إلى العُدْوة، ونَزَلْتُ بهُنَيْن، حاضرة البحر من تِلِمسان، وكان الأخ يَحْيَى قد لحق به من فاس لأول دخوله تِلِمْسان، وأعادهُ إلى كتابة سِرّه كما كان، فأقمْتُ عندهم أياماً وأنا في غاية الانقباض والاشتغال بالعِلْم، ثمّ أرادَني السُّلْطان على بعض أغراضه من استئلاف العرب الذّواودة من رياح لخدمته، وكلّفني السِّفارة في هَذَا الغَرَض، فنكرتُه على نَفْسي، لما آثرتُه من التّخلّي والعكوف على العلم، وأجبته مُضْمِراً الانطلاق إلى حيث يتهيّأ لي ما أنا بسبيله من التخلي للعلم". (ج) ظ: أولاد علي (د) ساقطة من ظ (هـ) ظ: وأتيت في المقدمة منهم بذلك ... (و) ساقطة من ظ (ز) ظ: الرجعة

الرَّجعةُ إلى تُونِس(أ)، والمقامُ بها

[361أ] ولمَّا نزلتُ بقلعةِ ابن سَلامةَ، [بينَ](ب) أحياءِ / أولادِ عَريف، وسكنتُ مِنْها بقَصر أبي بَكر بن عَريف الذي اختطَّه بها، وكان من أحْفَل المساكِن وأوثقِها، ثمّ طالَ مُقامي هنالكَ، وأنا [مستَوْحِشٌ من دَولةِ المغرب وتِلِمْسانَ، و](ج) عاكفٌ على تأليفِ هذا الكتاب، وقَد فَرغتُ من مُقَدّمتهِ *ولم تكمل أغراضها بعد*(د) إلى أخبار المغربِ والبَرْبرِ وزَناتةَ، وتشوَّفتُ إلى مُطالعةِ الكُتب والدَّواوين التي لا تُوجَد إلاَّ بالأمصارِ، بَعْدَ أنْ أمْلَيتُ الكثيرَ مِن حِفظِي، وأَردتُ التَّنقِيحَ والتَّصْحِيحَ؛ ثمّ طرقَني مَرضٌ أوْفَى بِي على الثَّنِيَّة، لولاَ ما تَدارَكَ من لُطْفِ الله؛ فحدثَ عِندِي مَيْلٌ إلى مُراجَعةِ السُّلْطانِ أبِي العبَّاسِ، والرِّحلةِ إلى تُونِس، حيثُ قَرارُ آبائي، ومَساكِنُهم، وآثارُهم، وقُبورُهم؛ فبَادرتُ إلى خطاب السُّلْطان بالفَيْئَةِ إلى طاعتِه، والمُراجَعَة، وانتظرتُ، فما كان غَيْر بعيد، وإذَا بخطابه وعُهوده بالأمان، والاستِحْثاثِ للقُدوم، فكان الخُفُوف للرِّحلة، وظَعنتُ عن أولادِ عَرِيف مَع عَرب الأخضَر من بَاديةِ(هـ) رِياح، كانُوا هُنالك ينتَجِعُون المِيرة بِمَنْدَاس، وارتَحلْنا في رَجب سنة ثمانين، وسَلكْنا القَفْر إلى الدُّوسَنِ من أطرافِ الزَّاب، ثمّ صَعِدتُ إلى التّل معَ حَاشية يَعقوب بنِ عَلِيّ، وجَدتهم بِفَرْفَار، الضَّيعَة التي اختَطَّها بالزَّابِ، فَرحلتُهم معي إلى أنْ نَزلنا عليه بضَاحية قُسَنْطِينَةَ، ومَعَه صاحبها الأميرُ إبراهيم ابنُ السُّلْطان أبِي العبَّاس بمخيَّمِه، وفي عَسْكرِه، فحضرتُ

(أ) ورد العنوان في أ: الفيئة إلى السلطان أبي العباس بتونس والمُقام بها، وفي آيا صوفيا: الفيئة إلى تونس والمقام بها (ب) ظ: من (ج) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (د) سقط ما بين النجمين من أ، وآيا صوفيا (هـ) ظ، آيا صوفيا: نادية، ومهملة في أ

عِندَه، وقَسَم لي من بِرّه وكرامَته فَوقَ الرّضَى، وأذِنَ لي في الدُّخول إلى قُسَنطِينَةَ، وَإقامة أهلي في كفَالة إحسانِه، بَيْنَما أصِلُ إلى حضرة أبيه(أ)؛ وبَعثَ يعقوبُ بن عليّ معي ابنَ أخيه أبي دينار في جَماعةٍ من قَوْمِهم، وسِرنا إلى السُّلْطان أبي العبّاس، وهوَ، يومئذٍ، قد خَرَج من تُونِس في العساكر إلى بلاَد الجَرِيد، لاستنزال شُيوخها عن كراسي الفِتْنَة الّتي كانوا عليها، فوافَيتُه بظَاهِر سُوسَة، فحَيَّا وِفَادَتِي، وبَرّ مَقْدَمي، وبالَغَ في تأنِيسي، وشَاوَرَني في مُهمّات أُمورِه؛ ثمّ رَدَّني إلى تُونِسَ، وأوعَزَ إلى نَائبه بهَا، مولاه فَارح بتَهْيئَة المَنْزِل، والكِفَايـة من الجِرَايةِ(ب) والعُلُوفة، وجَزِيل الإحْسَان؛ فَرجَعتُ / [361 ب] إلى تُونِس في شَعْبانَ من السَّنة، وآوَيتُ إلى ظِلٍّ ظَلِيلٍ من عِنايَة السُّلْطان وَحُرْمَته، وبَعَثتُ عن الأهل والولَد، وجَمَعت شملهم في [مَرعَى](ج) تِلك النِّعْمَةِ، وألقيتُ عَصَا التَّسْيارِ.

وطالَت غَيْبَةُ السُّلْطان إلى أن افتَتحَ أمصارَ الجَرِيدِ، وذهب فَلُّهُم في النَّواحي، ولَحِق زعيمُهم، يَحْيَى بن يَمْلُول بِبَسْكَرَة، ونزلَ على صِهْرِه ابنِ مُزْني، وقَسَم السُّلْطان بلادَ الجَرِيد بينَ ولَدِه، فأنزلَ ابنَه مُحَمَّداً المنتَصِرَ بتُوزَر، وجَعَل نَفْطَة ونَفْزَاوة من أعمالِه، وأنزلَ ابنَه أبا بكر بقَفصَة، وعاد إلى تُونِس مُظَفَّراً مَاهِداً، فأقبل عليّ، واستَدْنَاني لمجالستِه، والنَّجِيِّ في خَلْوَتِه، فغَصَّ بِطانَتُهُ بِذلكَ، وأَفاضُوا في السّعايات عِندَ السُّلْطان فَلم تُنْجِح؛ وكانوا يَعكُفُون على إمام الجامع، وشَيْخ الفُتْيا، مُحَمَّد بن عَرفَة، وكانت في قَلبِه نُكْتَةٌ من الغيرةِ من لَدُن اجتماعِنا في المَرْبَى بمَجالِس الشّيُوخ،

(أ) أ: ابنه (ب) ظ: والكفاية من الكفاية من ... (ج) ساقطة من ظ

فكثيراً ما كانَ يظهرُ شُفُوفي عَليْهِ، وإنْ كان أسَنَّ مِنّي، فاسودَّت تلكَ النُّكْتَةُ في قَلْبِه، ولم تُفَارِقه.

ولَمَّا قَدِمت تُونِس انثالَ عليّ طلبةُ العِلْم من أصحابِه وسِوَاهُم؛ يطلُبُون الإِفَادَة والاشتِغَالَ، وأسْعَفتهم بذلكَ، فعظُم عَلَيْه، وكان يُسِرُّ التَّنفِيرَ[أ] إلى الكثِير منهُم، فلم يقْبَلُوا، واشتدَّت غَيْرتُه؛ ووافقَ ذلكَ اجتماعُ البِطانةِ إليْه، فاتَّفقُوا على شَأْنِهم في التَّألِيب والسِّعَايةِ[ب]، والسُّلْطانُ خِلالَ ذَلِكَ مُعْرِضٌ عَنْهم *في ذلك*[ج]؛ *وقد كَلَّفَني بتلخيص كتابٍ في الأخبار، فاقْتَضَبْتُ له من هذا الكتاب ملخَّصاً استوعبتُ فيه أخبارَ البَرْبَر وزَنَاتَة من أهل المغرب، وبعضاً من أخْبَارِ الدَّولتَين: الأمويّة والعَبَّاسيَّة، وشيئاً من أخبار الدُّول قبل الإسلام، ولم استوفِ ذلك ولا أخبار المشرق ودُوَله في العَرب والعَجم قبل الإسلام وبعده، وإنَّما استوعبتُ ذلك بعد الرِّحلة إلى المشرق، وفي هذا الكتاب المتوّج باسم الملك الظَّاهر*[د].

[362 أ] وكانَ مِمَّا يُغْري به القومُ / يومئذٍ، السُّلْطان[هـ]، قُعُودي عَن امْتِدَاحِه، فإنّي كنتُ قد أهمَلْت الشِّعرَ وانتِحالَه جُمْلَة، وتفرَّغتُ لتدريس العِلم[و] [فقط، فكَانُوا يقولون لَهُ: إنَّما تَرَك ذَلك استِهانةً بِسُلطانِك[ز]، لِكثْرة امتداحِهِ للمُلُوك قَبْلَك، وتَنَسَّمتُ ذلِك عَنهم من جهة بَعْض الصَّدِيق من بِطانَتِهم][ح]؛ فلمَّا رفعتُ لَه الكتابَ[ط]، [وتَوَّجتُه باسْمِه][ي]،

(أ) ظ: التنقير، والتنقير عن الأمر: البحث عنه وفحصه (ب) أ، آيا صوفيا: في التأليب عليّ والسعاية بي (ج) ساقط من أ (د) عوض ما بين النجمين في أ وآيا صوفيا: "وقد كلّفني بالإكباب على تأليف هذا الكتاب لتشوّفه إلى المعارف والأخبار، واقتناء الفضائل؛ فأكملتُ منه أخبارَ البَرْبَر وزناتة. وكتبتُ من أخبار الدّولتين وما قبل الإسلام ما وَصل إليّ منها، وأكملتُ منه نُسخةً رفعتُها إلى خزانته". (هـ) أ، آيا صوفيا: وكان مما يغرون به السلطان عليّ قعودي .... (و) آيا صوفيا: وتفرغت للعلم (ز) آيا صوفيا: لسلطانك (ح) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ط) ظ: ذلك الكتاب (ي) سقط ما بين الحاصرتين من ظ

أنشدتهُ؛ ذلك اليومَ، هَذهِ القَصيدةَ أمتدِحُه، وأذكر سِيَرَه وفُتوحَاتِه، وأُعَرِّضُ بالعُذْر[أ] عن انتحالِ الشِّعرِ، [وأستَعطِفُه بهَديةِ الكتاب إليْه][ب]؛ وهيَ هَذه[1]: [من الكامل]

هَل غيرُ بابِك للغَرِيبِ مُؤَمَّلُ؟ ... أو عَن جَنَابِك للأَمَانِي مَعْدِلُ؟
هِي همةٌ بَعثَتْ إليْك عَلى النَّوَى ... عَزماً كَمَا شَحَذَ الحُسَامَ الصَّيْقَلُ[ج]
مُتَبَوَّأُ الدُّنيَا ومُنْتَجَعُ المُنَى ... والغَيثُ حَيثُ العَارِض المتَهَلِّلُ
حيثُ القصُورُ الزَّاهِراتُ مُنِيفَةٌ ... تُغْنَى بهَا زُهْرُ النجُوم وتَحفِلُ
حَيثُ الخيامُ البِيضُ تُرفَع للقِرى ... قَد غام في أرجائِهنَّ المندَلُ
حَيثُ الحِمَى للعِزِّ في سَاحاتِهِ ... ظِلٌّ أفاءَتْه الوَشِيجُ الذُّبَّلُ[2]
حَيثُ الرِّماحُ يكادُ يُورِقُ عُودُهَا ... مِمَّا تُعَلُّ منَ الدِّماءِ وتُنهَلُ
حَيثُ الجِيَادُ أمَلَّهُنَّ بَنو الوَغَى ... مِمَّا أطالُوا في المُغَار وأوْغَلُوا
حَيثُ الوجُوهُ الغُرُّ قَنَّعَهَا الحَيَا ... والبِشْرُ في صَفَحَاتِها يتَهلَّلُ
حَيثُ المُلُوكُ الصِّيدُ والنَّفَر الأُلَى ... عَزَّ الجِوَارُ لَديهمُ والمَنْزِلُ
مِن شِيعَةِ المَهْدِيِّ بَلْ مِن شِيعَةِ التَّوْ ... حِيدِ جَاءَ بِه الكِتَابُ يُفَصِّلُ
بَلْ شِيعَةِ الرَّحْمَنِ أَلقَى حبَّهم ... في خَلْقِهِ فسَمَوا بِذاكَ وفُضِّلُوا
شَادُوا على التَّقْوى مَبَانيَ عِزِّهِم ... للهِ ما شَادُوا بِذاك وأثَّلُوا

(أ) أ، آيا صوفيا: واعتذر (ب) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ج) ظ: الصقيل

(1) القصيدة في نفح الطيب 6: 188
(2) بعده في نفح الطيب:
حيثُ الكِرامُ يَنُوبُ عَنْ نارِ القِرَى ... عَرفُ الكِباءِ بحيِّهم والمندَلُ

قَومٌ أبُو حَفْصٍ أبٌ لَهُمُ وَمَا — أدراك! والفَارُوقُ (أ) جَدٌّ أوَّلُ
نَسَب كَمَا اطَّرَدتْ أنَابيب القَنَا — وأتَى على تَمْوِيهِنَّ مُعَدِّلُ
سَامٍ على هَامِ الزَّمَانِ كأنَّه — للفَخْرِ تاجٌ بالبُدُورِ مُكَلَّلُ
فَضَل الأنَامَ حَديثُهم وقَديمُهم — ولأنْتَ إنْ فَضَلوا أعزُّ وَأفضَلُ
وَبَنَوْا على قُلَل النُّجوم وَوَطَّدوا — وبِنَاؤُكَ العَالي أشَدُّ وأطْوَلُ
[362 ب] / وَلَقَد أقُولُ لِخَائضٍ بَحْرَ الفَلاَ — واللَّيْلُ مُزْبَدُّ الجَوَانِبِ ألْيَلُ
مَاضٍ عَلَى غَوْلِ الدُّجَى لا يَتَّقِي — تِيهاً وذابِلُهُ ذُبالٌ مُشْعَلُ
مُتَقلِّبٍ فوقَ الرِّحال كأنَّهُ — طيْفٌ بِأطراف المِهادِ مُوكَّلُ
يَبْغِي مَنالَ الفَوْزِ من طُرُق الغِنَى — ويَرُودُ مُخْصِبَها الّذي لا يُمْحِلُ
أرِح الرِّكابَ فقَد ظفِرتَ بِواهِبٍ — يُعْطِي عَطاءَ المنْعِمِين فيُجْزِلُ
لله من خُلُق كَرِيم في النَّدَى — كالرَّوض حيَّاهُ نَدِيٌّ مُخْضِلُ
هذَا أميرُ المؤمنين إمَامُنَا — في الدِّينِ والدُّنيَا إلَيه المَوْئلُ
هَذَا أبُوا العبَّاسِ خَيْرُ خليفَةٍ — شَهِدَتْ لَه الشِّيَمُ التِي لا تُجْهَلُ
مُسْتَنْصِرٌ بالله في قَهْرِ العِدَا — وعَلى إعَانَةِ رَبِّه مُتَوكِّلُ
سَبَقَ المُلُوكَ إلى العُلا مُتَمَهِّلا — لله منكَ السَّابِقُ المتَمهِّلُ
فَلأنْتَ أعلَى المَالِكين وإنْ غَدَوا — يَتَسابقُون إلى العَلاَءِ وَأكْمَلُ
قَايِسْ قَدِيماً منكم بِقَدِيمِهِم — فَالأمْرُ فِيه وَاضِحٌ لاَ يُجْهَلُ

(أ) آيا صوفيا: والفارق

دَانُوا لِقَومِكُمُ بأقْوَمِ طَاعَةٍ ... هِيَ عُزْوَةُ الدِّينِ التِي لا تُفْصَلُ
سَائِلْ بِتِلِمْسَانَاً بِهَا وَزَنَاتَةً ... ومَرِينَ قَبْلَهُمُ كَمَا قَدْ يُنْقَلُ
وَاسْأَلْ بِأَندَلُسٍ مَدَائِنَ مُلْكِهَا ... تُخْبِرْكَ حِينَ اسْتَيْأَسُوا واسْتُوْهِلُوا
واسْأَل بِذَا مَرَّاكُشاً وقُصُورَهَا ... ولَقَدْ تُجِيبُ رُسُومُهَا مَنْ يَسْأَلُ
يأَيُّهَا المَلِكُ الذي في نَعْتِهِ ... مِلْءُ القُلُوبِ وفَوقَ ما يُتَمَثَّلُ
لله منْكَ مُؤَيَّدٌ، عَزَماتُه ... تَمْضِي كَما يَمْضِي القَضَاءُ المُرْسَلُ
جِئْتَ الزَّمانَ بحيثُ أعضلَ خَطْبُهُ ... فَافْتَرَّ عَنْهُ وَهْوَ أَكْلَحُ أعْصَلُ
والشَّمْلُ مِن أَبْنَائِهِ مُتَصَدِّعٌ ... وحِمَى خِلَافَتِهِ مُضَاعٌ مُهْمَلُ
والخَلْقُ قَد صَرَفُوا إليكَ قُلوبَهُم ... وَرَجَوْا صَلَاحَ الحَالِ مِنْكَ وَأَمَّلُوا
فعجِلتَه لَمَّا انتُدِبْتَ لأَمْرِه ... بالبَأْسِ وَالعَزْمِ الذِي لا يُمْهَلُ
/ ذلَّلْتَ مِنْه جَامِحاً لا يَنْثَنِي ... سَهَّلْتَ وعْراً كادَ لاَ يَتَسَّهلُ [1363أ]
وأَلَنْتَ مِن شَرَسِ العُتَاةِ وذُدتَهُم ... عَن ذَلِكَ الحَرَمِ الذِي قَدْ حَلَّلُوا
كَانَت لِصَوْلَةَ صَوْلَةٌ ولِقَوْمِهِ ... يغْدُو ذُوَيبُ بها وتَسْطُو المَعْقِلُ
ومُهَلْهِلٌ تُسْدِي وتُلْحِمُ فِي الَّتِي ... مَا أَحكَمُوهَا بَعدُ، فهْيَ مُهلْهَلُ

المرادُ بصَولة هُنا: صَوْلَة بن خَالد بن حَمزة، [أميرُ][أ] أولاد أبي اللَّيل. وذُوَيبٌ: هو ابن عمّه أحمد بن حمزة. والمَعْقِل: فَريق من العَرب مِنْ أحلاَفِهم. ومُهَلْهِلُ: هُمْ بنو مُهَلْهِل بن قَاسِم، أنظارُهم وأَقْتَالُهم.

ثُمَّ رجَعْتُ[ب] إلى وصف العرب وأحيائهم:

(أ) ساقطة من ظ (ب) أ، آيا صوفيا: رجع

عَجِبَ الأنامُ لشَأْنِهِم بَادُون قَد ... قَذَفَت بحيِّهِمُ المَطِيُّ الذُّلَّلُ

رفعُوا القِبَابَ عَلَى العِمادِ وعِنْدَهَا(أ) الـ ... ـجُرْدُ السَّلاهِبُ والرِّمَاحُ العُسَّلُ

في كلِّ ظامِي التُّرب متَّقِدِ الحَصَى ... تَهْوَى لِلُجَّتِهِ الظِّمَاء فتنهَلُ

جِنٌّ شَرَابُهُم السَّرَابُ ورِزْقُهُمْ ... رُمحٌ يَروحُ بِهِ الكَمِيُّ ومُنْصُلُ

حَيٌّ حُلُولٌ بالعَرَاءِ ودُونَهم ... قُذُفُ النَّوَى إنْ يَظْعَنُوا أو يُقْبِلُوا

كَانُوا يَرُوعونَ المُلُوكَ بِما بَدَوْا ... وغَدَتْ تُرَقِّهُ بالنَّعِيمِ وتُخْضَلُ

فَبَدَوْتَ لاَ تَلْوِي عَلَى دَعَةٍ وَلاَ ... تَأْوِي إلى ظُلَلِ القُصُورِ تُهَدَّلُ

طَوْراً يُصافِحكَ الهَجِيرُ وتَارَةً ... فِيهِ بِخَفَّاقِ البُنُودِ تُظَلَّلُ

وإذا تُعاطِي ضُمَّراً يَومَ الوَغَى ... كَأْسَ النَّجِيعِ فبالصَّهيلِ تُعَلَّلُ

مُخْشَوشِناً فِي العِزِّ مُعْتَمِلاً لَهُ ... في مِثْلِ هَذَا يَحْسُنُ المستعمَلُ(ب)

تَفْرِي حَشَا البَيْداءِ لا يَسرِي بِها ... رَكْبٌ ولا يَهْوِي إليها جَحْفَلُ

وَتَجُرُّ أذْيالَ الكَتائبِ فوقَها ... تَختالُ في السُّمرِ الطِّوال وتَرفُلُ

تَرمِيهِمُ منْها بكلِّ مُدَجَّجٍ ... شَاكِي السِّلاحِ إذا استَعَار الأعزَلُ

وَبِكُلِّ أسْمَرَ غُصْنُه متَأَوِّدٌ ... وبِكُلِّ أبيَضَ شَطُّه مُتَهَدِّلُ

حَتَّى تَفَرَّق ذَلِك الجَمعُ الأُلَى ... عَصَفَت بِهِم رِيحُ الجِلاَدِ فزُلْزِلُوا

[363 ب] / ثُمَّ استَمَلْتَهُمُ بأنْعُمِكَ(ج) التي ... خَضَعُوا لِعِزِّك بعْدَها وتَذَلَّلُوا

ونَزَعتَ مِن أهلِ الجَرِيدِ غَوايَةً ... كَانَت بِهِم أَبداً تَجِدُّ وتَهْزِلُ

خَرَّبتَ مِن بُنْيانِها مَا شيَّدوا ... وقَطَعتَ مِن أسْبابِها مَا أصَّلُوا

(أ) آيا صوفيا: وغيدها (ب) ظ: المستعجل (ج) آيا صوفيا: بنعمتك

ونَظمتَ مِن أمْصَارِهِ وثُغُورِه   لِلمُلْك عِقْداً بالفُتُوح يُفَصَّلُ
فَسَدَدتَّ مُطّلَع النّفَاق وأنتَ لا   تَنْبُوا[أ] ظُبَاك ولاَ العَزِيمَةُ تَنكُلُ
بِشَكيمَةٍ مَرهُوبَةٍ وسِيَاسَةٍ   تَجْرِي كمَا يَجْرِي فُراتٌ سَلْسَلُ
عَذُبَ الزّمَانُ لَها ولَذَّ مَذَاقُه   مِن بَعْدِ مَا قَد مرَّ مِنْه الحَنظَلُ
فَضَوَى الأنامُ لِعزِّ أَروعَ مَالِكٍ   سَهْلِ الخَلِيقَةِ، مَاجِدٌ مُتَفَضِّلُ
وتَطابَقتْ فيكَ القُلوبُ على الرِّضَى   سِيَّانِ منها الطِّفلُ والمُتَكَهِّلُ
يَا مَالكاً وسِعَ الزّمانَ وأهلَهُ   دَعَةً وأَمْناً فوقَ ما قد أمّلُوا
فَالأرضُ لاَ يُخشَى بِها غُولٌ ولاَ   يَغْدُو بِسَاحَتِها الهِزَبْرُ المُشْبِلُ
والسَّفْرُ يَجْتَابُون كلَّ تَنُوفَةٍ   سِرْبَ القَطَا مَا رَاعَهُنَّ الأجْدَلُ
سُبْحَانَ مَن بِعُلاَك قَد أحْيَا المُنَى   وأعَادَ حَلْيَ الجِيدِ وَهْوَ مُعَطَّلُ
سُبْحَانَ مَن بِهُدَاك أوْضَحَ لِلْوَرَى   قَصْدَ السَّبِيلِ فأبْصَرَ المُتَأمِّلُ
فكأنّما الدُّنيَا عَروسٌ تُجْتَلَى   فتَمِيسُ في حُلَلِ الجَمالَ[ب] وتَرفُلُ
وَكَأَنَّ مُطْبَقَةَ البِلادِ[ج] بِعَدْلِهِ   عَادَتْ فَسِيحاً لَيْسَ فيه مَجْهَلُ
وكأنّ أنْوارَ الكَوَاكِبِ ضُوعِفتْ   مِن نُور غُرَّتِهِ الـتِي هيَ أجْمَلُ
وكأنّما رُفِعَ الحِجَابُ لِنَاظِرٍ   فَرأى الحقيقةَ فِي الذِي يَتَخَيَّلُ

وَمِنها فِي العُذْرِ عَن امتداحه من قبل[د]:

مَولايَ غاضَتْ فِكرتِي وتَبلَّدت   مِنّي الطِّباع، فكلُّ شَيْءٍ مُشْكِلُ

(أ) ظ: تنبوه (ب) ظ: البلاد (ج) ظ: الجمال (د) أ، آيا صوفيا: عن مدحه

تَسْمُوا إلى دَرْكِ الحَقَائِقِ هِمَّتي ... فأصُدُّ عن إدراكهنَّ وأعزَلُ
وَأجِدُّ لَيْلي في امْتِراءِ قريحَتي ... وتعُودُ غَوْراً بيْنَما تَسْتَرسِلُ
[364أ] / فأبيتُ يَعْتَلِجُ الكلامُ بخاطِري ... والنَّظْمُ يَشْرُدُ وَالقَوافِي تَجْفِلُ
وإذا امتريتُ العفو منه جاهداً ... عابَ الجهابذُ صُنعهُ واسترذلوا
مِن بَعْد حولٍ أنتقيه وَلَمْ يكُنْ ... في الشِّعر حَوْليٌّ يُعَاب وَيُهمَلُ
فأَصُونُه عَن أهلِهِ مُتَوارِياً ... أن لاَ يَضُمَّهُمُ وَشِعْرِيَ مَحْفِلُ
وَهْيَ البِضَاعةُ في القَبول نَفاقُهَا ... سِيَّان فيهَا الفَحْلُ والمتَطفِّلُ
وبَنَاتُ فكري إنْ أتَتْكَ كليلَةً ... مَزْهَاءَ تَخْطِر في القُصور وتَخْطِلُ
فَلَهَا الفَخَارُ إذَا مَنَحْتَ قَبُولَهَا ... وأنا عَلَى ذَاكَ البَلِيغُ المِقْوَلُ

وَمِنها في ذِكْر الكِتَاب المُؤَلَّف لِخزانَتِه:

وَإليكَ مِن سِيَر الزَّمانِ وأهلِهِ ... عِبراً يَدِينُ بِفَضْلِها مَنْ يَعْدِلُ
صُحُفاً تُتَرجِمُ عن أحاديث الأُلى ... غَبَرُوا، فَتُجْمِل عَنْهُم وتُفَصِّلُ(أ)
[تُبْدِي التَّبَابِعَ والعَمَالِقَ سِرَّها ... وثَمُودُ قَبْلَهُمُ وعَادُ الأوَّلُ
والقَائِمُونَ بِمِلَّةِ الإسْلامِ مِنْ ... مُضَرٍ وبَرْبَرِهِمْ إذَا مَا حُصِّلُوا](ب)
لَخَّصْتُ كُتْبَ الأوَّلِينَ لجَمْعِهَا ... وأتَيْتُ أوَّلَهَا بِمَا قَدْ أغْفَلُوا
وألَنْتُ حُوشِيَّ الكَلاَمِ كأنَّمَا ... شُرُدُ اللُّغَاتِ بِهَا لِنُطْقِيَ ذُلَّلُ
أَهْدَيْتُ منه إلى عُلاَكَ جَوَاهِراً ... مَكْنونَةً وكَوَاكِباً لا تأفُلُ

(أ) ظ: وتفضل (ب) سقط البيتان من ظ

وجَعَلتُـه لِصـوَانِ مُلكِـكَ مَفخَراً   يَبْأَى النَّدِيُّ بِهِ وَيَزْهُـو المَحْفِـلُ
واللهِ مـا أسْرَفـتُ فيمـا قُلتُـــه   شـيئًا ولا الإسْرافُ مِمَّـا يَجْمُـلُ
وَلأنـتَ أرسَخُ في المَعـارِفِ رُتبَةً   مِـن أنْ يُمَـوَّهَ عِنـدَه متطَفِّـلُ
فَمِـلاكُ كـلِّ فَضيلـةٍ وحَقِيقَـةٍ   بِيَدَيْكَ تَعرِفُ وَضعَها إنْ بَدَّلُوا
والحقُّ عنـدَكَ فِي الأُمُـورِ مُقَدَّمٌ   أبـداً، فَمـا ذَا يَدَّعِيـهِ المُبْطِـلُ
واللهُ أعطـاكَ الّتـي لاَ فَوْقَهَـا[1]   فَاحكُمْ بِمَا تَرضَى فَأَنتَ الأَعْدَلُ
أبقَــاكَ رَبُّـــكَ لِلعِبَـاد تَرُبُّهُم   فَـاللهُ يَخْلُقُهـم وَرَعْيُـكَ يَكْفُـلُ

وكنتُ لمَّا انصَرفتُ عنه مِن مُعَسْكَرِه على سُوسَةَ إلى تُونِس، بَلَغَني - وأنا مُقيم بها - أنَّه أصَابَهُ في طَريقه مَرَضٌ، وعَقِبَه إبْلاَل، فخاطبتُه بهذه القَصِيدة: [من الكامل]

[364 ب] / ضَحِكَتْ وجُوهُ الدَّهْرِ بَعدَ عُبُوسِ   وتَجَلَّلَتْنَـا رحمَـةٌ مِـن بُـوسِ
وَتَوَضَّحت غُرَرُ البَشائرِ بَعْدما انـْ   ـبَهَمَتْ فأطلَعَهَا حُدَاةُ العِيسِ
صَدَعُـوا بِهَـا لَيلَ الهُمـوم كأنَّمَـا   صَدَعُوا الظَّلامَ بِجَذْوَةِ المَقْبُوسِ
فكأنَّهم بَثُّـوا حيـاةً فـي الـوَرَى   نُشِرتْ لَهَا الآمالُ مِن مَرْمُـوسِ
قَرَّت عيـونُ الخلـقِ مِنهـا بِالّتـي   أضفَتْ مِنَ النَّعْماءِ خَيرَ لَبُوسِ
فكـأنَّ قَومـي نَادَمَتْهُـم قَرْقَـفٌ   شَرِبـوا النَّعـيمَ لَها بغَيرِ كُؤُوسِ
يتَمايَلـون مـن المسَـرَّةِ والرِّضَـى   ويُقَــابِلُون أهِــلَّةً بِـــشُموسِ

(1) ضمّن ابن خلدون صدر هذا البيت من رجز لعبد الله بن همّام السّلوليّ؛ قاله مُبايعاً للوليد بالخلافة بعد وفاة أبيه عبد الملك، (الكامل 4: 522) وكـرّره ابن خلدون في القصيدة السينية الآتية ص708.

مِـن راكـبٍ وافـى يُحيّي رَاكِباً   وجَلِـيسِ أُنْـسٍ قـادَهُ لجليـسِ
ومُشَفَّـعٍ لله يُؤنَـسُ عِنـدَه   أثَـرُ الهُدَى في المَعْهَدِ المأنُوسِ
يَعتَـدُّ مِنها رحمةً قُدسِيَّةً   فَيَبُـوءُ للرَّحمَنِ بالتَّقديسِ
طَبٌّ بإخلاَصِ الدُّعاءِ وإنَّه   يَشفِي منَ الدَّاءِ العَياءِ ويُوسِي

والمغنيُّ به إمَامُ الجامِعِ الأعظَم، جامع الزَّيتُونَة بتُونِس(أ):

يا ابنَ الخَلائِفِ والذيـن بنُورهِم   نُهِجَتْ سَبيلُ الحَقِّ بعدَ دُرُوسِ
والنَّاصـرُ الدِّيـنِ القَويـمِ بعَزْمَةٍ   طَـرْدُ اسـتِقامَتِها بغَيرِ عُكـوسِ
هَجَـرَ المُنَى فِيها وَلذَّاتِ المُنَـى   في لَذَّةِ التَّهْجِيرِ والتَّغْلِيسِ
حَاطَ الرَّعِيَّةَ بالسِّيَاسَةِ فانضَوَتْ   مِنـهُ لأكْـرَمِ مَالِكٍ وسَـؤُوسِ
أَسَـدٌ يُحامِي عَـن حِمَى أَشْبَالِهِ   حتَّى ضَوَوْا مِنه لأمنَعِ خِيسِ
قَسَماً بمَوْشِيِّ البِطاحِ وقَـد غَدَت   تَختَالُ زَهْواً في ثِيابِ عَروسِ
والماثِلاتِ مِـنَ الحَنَايَا جُثَّما   يُخبِرْن عَنْ طَسْمٍ وَفَلِّ جَدِيسِ
خُوصٌ مُضَمَّرةُ البُطُونِ كأنَّها   أنضاءُ رَكْبٍ في الفَلاةِ حَبِيسِ
وخَزَ البِلَى مِنهَا الغَوارِبَ والذُّرَى   فَلفتْـن خَـزْراً بالعيونِ الشُّوسِ
لَبَقَاكَ حِـرزٌ للأنامِ وَعِصمَةٌ   وحَيَاةُ أرواحٍ لَنَـا ونُفُـوسِ
/ ولأنتَ كافِلُ دينِنا بحِمايَةٍ   لَولاكَ ضُيِّعَ عَهدُها وتُنوسِي [365أ]
الله أعطاكَ التي لا فَوْقَها   وحَبَاكَ حَظّاً ليسَ بالمؤكُوسِ

(أ) سقط ما بين النجمين من أ

تَعْنُو القُلوبُ إليْكَ قبلَ وُجوهنا … سِيَّان مِن رَأْسٍ ومن مَرْؤوسِ
فـإذَا أقمـتَ فـإنَّ رُعْبك راجـلٌ … يُحْمي عَلَى الأعْدَاء كُلَّ وَطيسِ
وإذا رَحلـتَ فللسَّعَـــادة آيـةٌ … تَقْتَادُهَـا في مَوْكِـبٍ(أ) وخَمـيسِ
وَإذا الأدِلَّةُ في الكَمال تطابقَـتْ … جـاءَتْ بمَـسْمُوعٍ لَهَا ومَقِـيسِ
فَانْعَـم بمُلكِـــكَ دولـةً عَادِيـــةً … تُشْقِي(ب) الأعَادِيَ بالعَذَاب البِيسِ
وإليكَهـا منّـي علـى خَجـلٍ بهـا … عَذراءَ قَدْ حَلِيَتْ(ج) بكُلِّ نَفِيسِ
عُذْراً فَقَد طُمِسَ الشَّبَابُ ونُورُه … وأَضَاءَ صُبْحُ الشَّيْب عِندَ طموسِ
لَـولاَ عِنَايتُـكَ التـي أولَيْتَنـــي … ما كنتُ أُعْنَى بعدَهَا بِطُرُوسِ
والله مـا أبقَتْ مُمَارَسَـةُ النَّـوَى … مـنِّي سِـوَى مَـرَسٍ أحمَّ دَرِيـسِ
أنْحَى الزَّمانُ عليَّ في الأَدَب الـذي … دَارَسْـــــتُه بمَجَـــامِعٍ ودُروسِ
فَسَطَا عَلَى وَفْرِي وَرَوَّعَ مَأْمَني … واجْتَثَّ من دَوْحِ النَّشاطِ غُرُوسي
وَرِضَـاكَ رَحْمتِـيَ التـي أعتدُّهَـا … تُحْيِي مُنَى نَفْسِي وتُذْهِبُ بُوسي

ثمّ كثُرت سِعَاية البِطانة [بكلّ نَوع من أنوَاع السّعَايَات، وابنُ عَرَفَةَ يَزيدُ في إغْرَائهم مَتى اجتمَعُوا إليْه، إلى أنْ أغْرَوا السُّلْطانَ بسَفَرِي مَعَه، ولقَّنُوا النّائِبَ بتُونِس، القَائد فَارِح، من موالِي السُّلْطان، أنْ يَتَفَادى من مُقَامَتي معه، خَشْيةَ على أمْره منّي، بِزَعْمِه، وتَوَاطئوا عَلَى أنْ يَشْهَد ابنُ عَرَفَة بذلك للسُّلْطان، فشهد به في غيبةٍ منّي، ونَكِر السُّلْطان عَليهم ذَلِك، ثمّ بَعَث إليَّ، وأمَرني بالسَّفر مَعه، فسارعْتُ

(أ) ظ: تقتادها في موكب تقتاده ....، وجُعلت كذلك في آيا صوفيا (ب) ظ: تسقي (ج) ظ، آيا صوفيا: جُليت

إلى الامتثالِ، وقَد شَقَّ ذلك عَليَّ، إلاّ أني لم أجِد مَحيصاً عنه[أ]، فَخَرجتُ معه، وانتهيْتُ إلى تِبِسَّة، وَسَطَ تُلُول إفْرِيقِيّة، وكان منحَدِراً في عساكره وتَواليفه من العَرَب إلى تَوْزَر؛ لأنَّ ابنَ يَمْلُولَ كانَ أجلبَ عليهَا سنةَ ثلاثٍ وثمانين، واستَنْقَذَها من يد ابنِهِ، فَسَار السُّلْطانُ إليْه، وشَرَّدَهُ عنها، وأعادَ إليها ابنَه وَأولياءَه؛ ولمَّا نَهَض من تِبِسَّة، رَجَّعَني إلى تُونِس، فأقمتُ بضَيْعَتي الرِّيَاحين من نواحِيها، لِضَمّ زُرُوعي بهَا، إلى أنْ قَفَل السُّلْطان ظافِراً منصُوراً، فصحبتُه إلى تُونِس.

ولمّا كان شهرُ شعبان من سَنَة أربع وثمانين، أجمَع السُّلْطان الحَرَكَة إلى الزَّابِ، بما كان صَاحبُه ابنُ مُزْني قد آوى ابنَ يمْلُولَ إليْه، ومَهّد له في جِوَاره، فخشيتُ أنْ يَعُودَ في شأني ما كان في السَّفْرة قَبْلها، وكانَت بالمرسَى سَفينةٌ لتجّار الإسْكَنْدَريّة قد شَحَنَها التجّار بأمتعتهم وعُروضِهم، وهي مُقلِعةٌ إلى الإسْكَنْدَريّة][ب]، فتطارحتُ على السُّلْطان، وتوسَّلتُ إليه في تخليَة سَبيلي لقضاءِ فَرْضي، فأذِنَ لي في ذلك، وَخَرجتُ إلى المَرْسَى، والنَّاسُ مُتَسَاتلون عَلَى أثَرِي من أعيَان الدَّوْلَةِ والبَلَد، وطلَبَةِ العلم. فودَّعتُهم، ورَكِبتُ البَحْرَ، منتَصَفَ شَعْبانَ من السَّنةِ، وفَوَّضْتُ[ج] عَنْهم بحَيث كانَت لي الخيرَة من الله سُبحانَه، وتفرّغتُ لتجدِيد ما كانَ عندي من آثار العِلم، والله وليُّ الأُمور، سُبحانَه.

(أ) ساقطة من آيا صوفيا (ب) سقط ما بين الحاصرتين من ظ وعوضه: "ثم كثرت سعاية البطانة وابن عرفة ومنافستهم وإغراؤهم فاخترت التحول عنهم، فتطارحت ...". (ج) ظ: وفوضت، ومهملة الأول في أ

/ الرِّحْلَةُ إلى المَشْرِق، وولايَةُ القَضاء بمِصْرَ [365 ب]

ولمَّا رَحَلت مِنْ تُونِس، مُنتصَفَ شعْبان، من سَنَةِ أربَعٍ وثمانين، أقمنا في البَحرِ نحواً من أربعين لَيلَةً، ثمّ وافينا مَرسَى الإسْكَنْدَرِيّة يومَ الفِطْرِ، ولعشرِ لَيالٍ من جُلُوس الملكِ الظّاهرِ على التّخْتِ، واقْتِعاد كُرسِيِّ المُلك دُونَ أهله، بَني قَلاَوُون(أ)؛ وكنّا على تَرقُّب ذلك، لما كانَ يؤثَر بقَاصِيةِ البِلادِ من سُموّه لِذَلك، وتَمهِيده لَه؛ وأقمتُ بالإسْكَنْدَرِيّة شَهْراً لتهيئةِ أسباب الحجّ، ولم يُقَدَّر، عامَئِذٍ، فانتقَلتُ إلى القاهرة أوّلَ ذي القَعدةِ، فَرَأيتُ حَضْرَةَ الدُّنيا، وبُستَانَ العالَم، ومَحْشَرَ الأمَم، ومَدْرَجَ الذَّرّ من البَشَرِ، وإيوانَ الإسْلام، وكُرسيَّ المُلْكِ؛ تَلُوحُ القُصُور والأوَاوينُ في جَوّه، وتَزْهَر الخَوانِكُ والمَدَارِسُ بآفاقِه، وتُضيءُ البُدور والكَواكِبُ من عُلَمائِه؛ قَد مَثَلَ بشاطِىءِ بَحْر النيل، نَهْرِ الجنَّةِ، ومدْفَع مِيَاهِ(ب) السّماء، يَسقيهم النَّهَل والعَلَلَ سَيْحُه، ويَجْبي إليهم [الثَّمَراتِ و](ج) الخَيْراتِ ثَجُّه؛ وَمَرَرْتُ في سِكَكِ المَدينةِ(د) تَغَصُّ بزِحَامِ المارَّة، وأسْواقُها(هـ) تَزْخَر بالنِّعم.

وَمَا زِلْنا نُحَدَّثُ عَن هَذَا البَلَد، ونسمع عن بُعدٍ(و) مَداه في العُمْران(ز)، واتِّساعِ الأَحْوَالِ(ح)؛ ولقَد اخْتَلفَت عِباراتُ [مَنْ لَقِيناه من](ط) شُيوخنا وأصحابِنا، [حاجِّهم وتاجِرِهم، بالحدِيث عنه](ي). سَألتُ صاحبَنا، قاضيَ الجماعة بِفاس، وكبيرَ العلماءِ والفضلاء(ك) بالمغربِ؛ أبا عبد الله المَقَّرِيَ، *مَقْدَمَهُ من الحجّ سَنَة أربعين*(ل)،

(أ) أ، آيا صوفيا: قلاون (ب) ظ: أمياه (ج) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (د) ساقطة من ظ، وفيها: في سككه
(هـ) ظ: وأسواقه (و) أ، آيا صوفيا: البلد، وبُعد ... (ز) ظ: عمرانه (ح) ظ: أحواله (ط) سقط ما بين الحاصرتين من ظ
(ي) سقط ما بين الحاصرتين من ظ، وفيها: وأصحابنا في الكفاية عنه (ك) ساقطة من أ وآيا صوفيا (ل) سقط ما بين النجمين من أ وآيا صوفيا

فَقُلتُ(أ) له: كَيف رأيتَ(ب) القَاهِرة؟ فقال: من لم يَرَ القَاهِرة(ج) لم يَعرِف عِزَّ الإسْلاَم.

وسألتُ شَيخَنا أبا العبَّاسِ ابن إدريسَ، كَبيرَ العُلَماء بِبجَايةَ، مِثْلَ ذلكَ؛ فقال لي(د): بلدٌ ترى أهله كأنَّما انطلَقوا من الحِسَاب إلى الجَنَّة؛ يُشيرُ إلى ما هُم عليه من الكَثرة، ووفور النّعمة، والأمْن [من](هـ) طَوَارِق الزّمن(و).

وحَضرَ صاحبُنا قاضِي العسكر بِفَاس، الفقيهُ الكاتبُ، أبو القاسِم البُرْجِيّ بمجْلس السُّلْطان أبي عِنَان، مُنْصَرَفَهُ من السّفارَةِ عنه إلى مُلُوك مِصر، وتَأْدِيَة رِسَالَتِه النَّبَوِيّة إلى الضّريح الكَرِيمِ، [سَنةَ سِتٍّ وخمسين](ز)، وَسَأَلَه يومئذٍ(ح) عن القَاهرة، فقَال له(ط):

والله ما أدري كيف العِبَارة عن ذلك؛ إلاَّ أني أقول(ي) على سَبيل الاختصار: إنَّ كلّ ما يتَخَيَّلُه الإنسَان ثمَّ يراه، فإنَّه / يَراهُ(ك) دُون الصُّورَة التي تَخَيَّلَها منه(ل)، لاتِّسَاع الخَيَال عن كلّ محسوس(م)، إلاَّ القَاهرة، فإنّها ولو أوْسعت في تخيّلها ما شئت، فما تراها إلاَّ أعظم ممَّا تتخيّله(ن). فأُعجِبَ السُّلْطان والحاضرون(س) بذلك(ع)، *ولعبارته عنها*(ف). [366 أ]

ولمَّا دَخلْتُها، أقمْتُ أيّاماً، وانثَالَ عليَّ طلبةُ العلم بهَا، يلتَمِسون القراءة(ص) والإفادة

(أ) ظ: وقلت (ب) عوضها في أ وآيا صوفيا: هذه (ج) أ، وآيا صوفيا: من لم يرها (د) ساقطة من أ وآيا صوفيا
(هـ) زيادة يقتضيها السياق (و) في أ وآيا صوفيا: "فقال: كأنما انطلق أهله من الحساب، يُشير إلى كَثْرةِ أُمَمِه، وأمنِهِم العَوَاقِبَ".
(ز) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ح) ساقطة من أ وآيا صوفيا (ط) ساقطة من أ وآيا صوفيا (ي) في أ، آيا صوفيا: أقول في العبارة عنها على سبيل ... (ك) أ، وآيا صوفيا: إن الذي يتخيله الإنسان فإنما يراه ... (ل) ساقطة من أ (م) ظ: موجود
(ن) في أ، وآيا صوفيا: إلاَّ القاهرة، فإنها أوسع من كل ما يتخيّل فيها، فأعجب ... (س) ظ: والحاضرين (ع) ظ: لذلك
(ف) سقط ما بين النجمين من أ وآيا صوفيا (ص) ساقطة من أ وآيا صوفيا وفيها: يلتمسون الإفادة

[مع قِلَّةِ البِضاعَةِ، ولم يُوسِعُوني عُذْراً][أ]؛ فجلستُ للتّدريسِ بالجامِعِ الأزهَرَ منها.

ثمّ كان الاتّصال بالسُّلْطانِ، فأبَرَّ اللّقاء، وأنّسَ الغُربَة، ووفَّر الجِرايةَ مِن صَدَقاته، شأنَهُ مع أهل العِلم، وانتظرت لَحاقَ أهْلي وَوَلَدي من تُونِس، وقد صدَّهم السُّلْطان هُنالِك عن السَّفر، اغْتِباطاً[ب] بعَوْدي إليْهِ، فطلبتُ من السُّلْطان، صاحبِ مصر، الشَّفاعةَ إليه في تخليةِ سَبيلهم، فخاطبهُ في ذلك [ج][بما نَصُّه:

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

عبد الله ووليّه، أخوه بَرْقُوق[1]

السُّلطانُ الأعظم، المَالِك المُلْك الظّاهر، السَّيد الأجَلّ، العَالِم العَادل، المؤيَّد المجَاهد، المُرَابط المُثَاغِر، المظَفَّر، الشَّاهِنشَاه، سَيْف الدُّنيا والدّين، سُلطان الإسلام والمسلمين، مُحيِي العَدل في العَالمين، مُنصِف المظلُومين من الظَّالمين، وارِث المُلْك، سلطان العَرَب والعَجَم والتُّرْك، إسْكَنْدَر الزّمان، مُولِي الإحسَان، مُمَلِّك أصحاب التُّخُوتِ والأَسِرَّة والتِّيجَان، واهِب الأقاليم والأقطارِ، مُبِيد الطُّغَاة[د] والبُغَاة والكفَّار،

(أ) سقط ما بين الحاصرتين من ظ (ب) كذا في ظ، أ، آيا صوفيا، والغبط: الريبة والشك، ولعل المراد: ظناً بعودي إليه (ج) لم تتضمّن نسختا ظ وآيا صوفيا كتاب السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى سلطان تونس، وقد ألحقه ابن خلدون في نسخة أ في طيارتين مُفردتين. (د) أ: الكفاة، تصحيف

(1) أورد القلقشندي (صبح الأعشى 7: 378)، معتمداً على التعريف للعمري، رسوم المكاتبات في بلاط دولة المماليك، ومنها ما يختصّ بالكتابة إلى دول المغرب، وقد أورد نسخة كتابٍ عن الظاهر برقوق يبدأ بهذه المقدمة نفسها المشتملة على ألقاب السلطان، وبيّن أن الكتابة إلى ملوك المغرب تبدأ بعد البسملة، بحيث يكون تحتها سواء في الجانب الأيمن من غير بياض، ثم يخلي مقدار بيت العلامة، ثم تكتب الألقاب الشريفة من أول السطر مسامتاً للبسملة.

مَلكِ البَحْرَين، مُسْلِكِ سَبيلِ القِبْلَتين، خادِمِ الحَرَمين الشَّريفين، ظلّ الله في أرضه، القائم بسُنَّتِه وفَرْضه، سُلْطان البَسيطة، مُؤَمّن الأرضِ المُحيطَة، سيّد المُلوك والسّلاطين، قَسيمُ أمير المؤمنين، أبو سَعيد بَرْقُوق ابن الشَّهيد شَرَف الدُّنيا والدّين، أبي المَعَالي أنس[1] ـ خَلَّد الله سُلْطانه، ونَصَر جُيوشه وأعْوانه ـ يَخُصُّ الحَضْرة السَّنِية السَّرِية، المظفَّرة المَيْمونة، المنصورة المصونة، حضرة السُّلْطان العَالم، العَادل المؤيَّد، المُجَاهد الأوْحَد، أبِي العبَّاس، ذُخْرِ الإسلام والمسلمين، عُدَّة الدُّنيا والدّين، قُدوَة المُوحّدِين، نَاصِر الغُزَاة والمُجَاهِدين، سَيْف جَماعَة الشَّاكرين، صَلاَحِ الدُّول. لا زالَت مَملكته بقُوَّته عَامِرةً، ومَهَابتهُ لِنفُوس الجَبَابرة قَاهرة، ومَعْدَلتُه تُبَوّئُه غُرُفَاتِ العِزّ في الدّنيا والأخِرة.

سَلامٌ صَفَا وِردُه وَضفَا بُردُه، وثَناءٌ فاحَ نَدُّه، ولاَحَ سَعدُه، وَوِدَادٌ زَاد وَجْده، وجادَ جَدُّه.

أمَّا بعدَ حَمْدِ الله الذي جعَل القلوبَ أجناداً مجنَّدة، وأسْبابَ الوِدَاد على البِعَاد مُؤَكّدة، ووسائلَ المَحبّة بينَ المُلُوك في كلّ يَوْم مُجَدَّدة؛ والصَّلاةِ والسَّلامِ على سيّدنا ومَولانا مُحَمَّدٍ، عبدِه ورسوله، الذي نَصَره الله بالرُّعْب مَسيرةَ شَهْر وأيَّدَه، وأعْلَى به مَنارَ الدّين وشَيَّدَه؛ وعَلَى آلِه وأَصْحابه الذينَ اقتَفَوْا طريقَهُ وسُؤْدَدَه، صلاةً دائمَةً مؤبَّدَة.

فإنَّنا نَوضّحُ لِعلْمِه الكَريم، أنَّ الله ـ وَلَه الحَمْد ـ جَعلَ جِبِلَّتَنا الشَّرِيفَة مَجْبُولة عَلَى

(1) هو أنص الجركسي (ت 783هـ)، وقد تقدم ذكره

تَعظِيم العِلْم الشّريف وَأَهْلِه، ورِفعَة شَأْنِه، ونَشر أعلامِه[أ]، ومَحَبّة أهلِه وخُدّامِه، وتَيسير مقَاصِدهم، وتَحقِيق أَملهم، والإحْسان إليهم، والتَقرّب إلى الله بذَلك في السّرّ والعَلاَنية؛ فإنّ العُلماء، رضي الله عنهم، وَرَثَةُ الأنبياء، وقُرّةُ عَيْن الأولياء، وهُدَاة خَلْق الله في أرْضه؛ لا سِيّما مَن رَزَقه الله الدّرايَة فيما عِلمه من ذَلك، وهَدَاه للدُّخول إليه من أَحسَن المسَالِك، مِثْلُ مَن سَطّرنا هَذهِ المُكَاتَبَة بسَبَبِه: المجلس السّامي[1]، الشّيْخيّ، الأجَلّيّ، الكَبيريّ، العَالِميّ، الفَاضِليّ، الأثِيليّ، الأثِيريّ، الإمَاميّ، العَلاّميّ، القُدْويّ، المُقتَدِي، الفَريديّ، المحَقّقِيّ، الأَصِيليّ، الأَوحَدِيّ، المَاجِدِيّ، الوَلَويّ، جَمَال الإسْلام والمسْلمين، جَمال العُلماء في العَالَمين، أَوحد الفُضَلاء، قدْوَةُ البُلغَاءِ، عَلاّمَة الأُمّة، إمامُ الأئمّة، مُفِيد الطّالبين، خَالِصَة المُلُوك والسّلاطين، عَبد الرّحمن ابن خَلْدُون المالكِي. أَدَام الله نِعمتَه؛ فإنّه أَوْلَى بالإكرام وَأَحرَى، وَأَحقُّ بالرّعَاية وأجَلُّ قَدْراً؛ وقَد هَاجر إلى مَمالِكنا الشّريفة، وآثَرَ الإقامَة عندَنا بالديار المِصْريّة، لا رَغْبَة عن بِلادِه، بل تَحَبُّباً إلينا، وتقرُّباً [إلى][ب] خَواطِرنا، بالجواهر النّفِيسة من ذاتِه الحسَنَة، وصِفاته الجَميلَة؛ وَوَجَدْنا منه فوقَ ما في النُّفوس، مما يَجلّ عن الوَصْف، ويُرْبِي عَلَى التّعْداد: [من الخفيف]

يَالَـهُ مـن غَريـبِ وَصْـفٍ ودَارٍ   قَـد أَتَـى عَنكُـم بكـلّ غَريـبِ

ومَا بَرِح - من حِينَ ورَدَ علينا - يُبالغ في شُكْر الحَضْرة العَلِية، ومَدْح صفَاتها الجميلَة، إلى أنْ استَمالَ خَواطرَنا الشّريفة إلى حُبّها، وآثرنا المُكاتَبَة إليها.

(أ) أ: أعلاه (ب) زيادة يقتضيها السياق

(1) بيّن ابن فضل الله العمريّ معاني ودرجات هذه الألقاب الخاصة بطبقة القضاة والعلماء، في كتابه عرف التعريف 209.

وَالأذنُ تَعْشَقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْياناً(1)

وَذكَرَ لنا، فِي أثناءِ ذَلك، أنَّ أهلَه وأولادَه، في مملكة تُونِس تحتَ نظَر الحَضْرة العَلِية، وقصَد إحضارهم إليه ليُقيموا عندَه، ويجتمعَ شملُه بهم مُدَّةَ إقامتِه عندَنا، فاقتَضت آراؤنا الشَّريفة، الكتابةَ إلى الحَضْرة العَليّةِ لهذَيْن السَّببيْن الجميلين؛ وقَد آثَرنا إعلاَم الحضرة العَليَّة بذلك، ليكونَ على خاطِره الكَريم، والقصد من محبَّتِه، يُقدِّم أمرَه العَالي بطلَبِ أهل الشَّيخ وَليِّ الدِّين المشار إليه، وإزَاحة أعذَارهم، وإزالَة عَوَائقهم، والوَصيّة بهم، وتجهيزهم إليه مُكرَّمين مُحتَرَمين، على أجمل الوجُوه، صُحْبَةَ قاصِده الشَّيخ الصَّالح، العَارف السَّالك الأوحَد، سَعد الدِّين، مَسْعود المِكْناسِيّ، الوَاصِل بهذه المكاتَبَة، أعزّه الله؛ ويكون تجهيزُهُم على مَرْكَبٍ من مَراكب الحَضْرة العَليَّة، مع تَوصِيَة مَن بها من البَحْريَّة بِمضَاعفة إكرام المشارِ إليهم، ورِعَايتهم، والتَّأكِيدِ عليهم فِي هَذا المعنى. وَإذا وَصَل مَن بها من البحريّة، كان لهم الأَمْنُ والإحْسَان فَوقَ ما فِي أنفُسهم، ويُرْبِي عَلَى أمَلِهم؛ بحيثُ يَهتَمُّ بذَلك عَلَى ما عُهِد من مَحبَّتِه، وجميل اعتِيادِه، معَ مَا يُتحِفُ به من مُرَاسَلاَتِه، ومقَاصِده ومكاتَبَاتِه. وَالله تعالى يَحْرُسُه بملائكته وآياته، بِمَنِّه ويُمْنِه، إنْ شَاء الله.

كُتِب خامسَ عشر صَفر المبارك، من سَنة ستّ وثمانين وسَبعمائة، حَسَب المرسُوم الشّريف. الحمد لله، وصلواته على سَيّدنا مُحمَّد وآله وصَحبه وسَلم](أ).

(أ) نهاية سقط الرسالة من ظ

(1) عجز بيت لبشّار بن برد، وصدره:

يا قوم أذني لبعض الحيّ عاشِقَةٌ

انظر: الديوان (بشرح محمد الطاهر بن عاشور) 4: 206، الأغاني 3: 114.

ثمّ هَلك بَعضُ المدرِّسين بمدرسة القَمْحيّة بمصرَ، من وَقْفِ صَلاَح الدِّين ابن أيُّوب، فولأّني تَدْريسَها مكانَه، وبَيْنَا أنَا في ذلك، إذْ سَخِط السُّلْطانُ قاضِيَ المالكيّة في دولته، لبَعض النَّزَعات؛ فَعزله، وهو رَابعُ أربعة بعدد المذَاهب، يُدعَى كُلّ منهم قَاضيَ القُضاة، تمييزاً عن الحكّام بالنّيابة عنهم، لاتّساع خُطّة هَذَا المغمور، *وكَثْرة عَوالمه*[أ]، وَمَا يرتفعُ من الخصُومات في جوانبِه؛ وكبيرُ جَماعتهم قَاضي الشّافعيّة، لِعُموم ولايَتِه في الأعمال شرقاً وغرباً، وبأعمال الصَّعيد[ب] والفيّوم، واستبداده[ج] بالنَّظَر في أموالِ الأيْتام، والوَصَايا؛ ولَقَد يُقَال: بأنّ مُباشَرة السُّلْطان قديماً بالولايةِ إنّما كانت تكونُ له.

فلمّا عُزل هذا القاضِي المَالِكيّ سنةَ ستٍّ وثمانين، اختصَّني السُّلْطان بهذه الوِلاَية، تأهيلاً لمكَاني، وتَنْويهاً بذكْري؛ وشَافهتُه بالتّفادِي من ذلك، فأَبَى إلاّ إمضَاءَه؛ وخلعَ عليّ بإيوانِه، وبَعَث من كِبار الخاصّة من أقعدني بمجلسِ الحكم بالمدرسَة الصَّالحيّة بين القَصْرين، فقمتُ بِما دَفَع إليّ من ذلك المقامَ المحمودِ، ووفّيتُ جُهْدي بِما أمّنَني عليه من أحكام الله، لاَ تأخُذني في الحقّ لَوْمَة لائم[د]، ولا يَزَعُني عنه جَاهٌ ولا سَطْوة، مُسَوّياً في ذَلك بيْنَ الخَصْمين، آخِذاً بحَقّ الضَّعيف مِن الحكَمين، مُعْرِضاً عَن الشّفَاعَات والوسَائل مِن الجَانبَيْن؛ جَانِحاً إلى التَّثبُّتِ في سَماعِ البَيّنَات، والنَّظَر في عَدَالة المنتَصِبين لتحَمُّل الشّهادَات؛ فلقَد[هـ] كان البَرُّ منهم مُخْتَلِطاً بالفَاجِر، / والطَّيّبُ [366 ب]

(أ) سقط ما بين النجمين من أ وآيا صوفيا (ب) أ، وآيا صوفيا: وبالصعيد (ج) أ، آيا صوفيا: واستقلاله (د) ساقطة من أ وآيا صوفيا (هـ) أ، وآيا صوفيا: فقد

مُلتَبِساً بالخَبِيثِ، والحكّامُ مُمسِكون عَن انتِقَادِهِم، متجَاوزُون عمّا يَظْهَرون عليه من هَنَاتِهِم، لما يُمَوِّهون بِهِ من الاعتصَام بأهل الشَّوكَةِ؛ فإنَّ غالبَهم مُختَلطون بالأُمَراءِ، مُعَلِّمِين للقرآن، وَأَئِمَّةً فِي الصَّلُواتِ، يُلَبِّسُون عَليهم بالعَدالةِ، فيَظنُّون بهم الخَيرَ، وَيقْسِمُون لهم الحَظَّ من الجَاهِ في تَزكِيَتِهم عندَ القُضَاة، والتَّوسُّل لَهم؛ فأعْضلَ داؤُهم، وفَشَتِ المَفَاسِدُ بالتَّزوِيرِ والتَّدليس بينَ النَّاسِ منهُم؛ وَوَقَفتُ[أ] على بَعضها، فعَاقبتُ فِيه بمُوجِعِ العقاب، ومُؤلمِ النَّكَال؛ وتَأَدَّى إليَّ العِلمُ بالجَرحِ في طَائِفَةٍ منهم، فَمَنَعتُهُم من تَحَمُّل الشَّهادة؛ وَكان مِنهم كُتَّاب لدَواوين القضاة، والتَّوقيع فِي مَجَالِسهم، قد دَرِبُوا على إملاءِ الدَّعَاوَى، وتَسْجِيل الحُكومَات، واستُخْدِمُوا لِلأُمراءِ فيما يَعْرِض لَهُم من العُقود، بإحكام كِتَابتها، وتَوثيق شُروطها؛ فَصَار لهُم بذلك شُفُوفٌ على أهْلِ طبَقَتِهم، وتَمويهٌ على القُضاةِ بجاهِهِم، يَدَّرِعُون به مِمّا يتوقَّعُونه من عَتبِهم، لتَعَرُّضِهم لِذلك بفَعَلاتِهم؛ وقد يُسلِّط بعضٌ منهم قَلَمَه على العُقود المُحكَمَة، فيُوجِدُ السَّبيل إلى حَلِّها بوجْهٍ فِقْهِيٍّ، أو كتابيّ؛ وَيُبادِر إلى ذَلك مَتَى دَعاه إليْه داعي جاهٍ أو مِنحَةٍ؛ وخُصوصاً فِي الأَوقافِ الَّتي جاوَزَت حُدودَ النِّهايَة في هذا المصرِ بكثرة عوالِمه؛ فأصبحَت خَافِيَةَ الشُّهرة، مجهولةَ الأعيَان، عُرضَةً للبُطلانِ، باختلاَفِ المَذَاهب المنصُوبة للحكّام بالبَلَد؛ فَمَن اختار فيها بَيْعاً أو تَمليكاً، شَارَطوهُ وأجابُوه، مُفْتَاتِينَ فيه على الحكّام الذين ضَربوا دُونَه سُدَّ الحَظْر والمنْع حِمايَةً عن التَّلاَعبِ؛ وفَشَا من ذَلك الضَّرَر في الأوقَاف، وطَرَق الغَرَرُ في العُقودِ والأَمْلاَكِ.

فعَاملتُ اللهَ فِي حَسْم ذَلِك بما آسَفَهم عَلَيَّ وأحقَدهم؛ ثمّ التفتُّ إلى أهل الفُتْيا

(أ) آيا صوفيا: ووقعت

بالمَذهَب[أ]، وكانَ الحكّام منهم على جَانِبٍ من الحيرة[ب]، لكثرة مُعَارَضَتِهم، وتَلْقِينهم الخصُوم، وفُتْيَاهُم بَعدَ نُفُوذ الحكم؛ وإذَا فيهم أصَاغِرُ، بَيْنَا هُم يَتَشَبَّثُون بأذْيال الطَّلَب والعَدَالَة ولاَ يَكادُون؛ إذَا بهم طَفَروا إلى مَرَاتِب الفُتْيَا والتَّدريس، فاقْتَعدُوها، وتَنَاولُوها بالجُزاف[ج]، واحْتَازُوهَا من غَير مُتَرَّب، ولا مُنتَقِدٍ للأهْلِيةِ ولاَ مُرشِّح؛ إذ الكَثْرة فيهم بَالغَة، ومن كثرة السَّاكِن مُشتَقَّة، وقلَمُ / الفُتْيا في هذا المِصْر طَلْق، وعِنانُها [1367] مُرسَل، يَتَجاذَب كلُّ الخُصُوم مِنه رَسَنا، وَيَتَنَاول مِن حافَّتِه شِقًّا، يَرُومُ به الفُلْجَ على خَصْمِه، ويَستظهِرُ به لإرغامِه، فيُعطِيهِ المُفتِي من ذلك مِلْءَ رضَاه، وكِفَاء أُمْنِيَّتِه، مُتَتَبّعاً إيّاهُ في شِعاب الخلاَف؛ فتَتعارض الفَتَاوَى وتَتناقَض، ويَعظُم الشَّغَب إنْ وَقعتْ بَعدَ نُفوذ الحكم؛ والخِلافُ في المَذاهِب كثير، والإنصافُ متَعَذّر، وأهليةُ المُفتي أو شُهْرةُ الفُتْيا ليسَ تمييزُها للعَامّي؛ فلا يَكادُ هذا المَدَد ينحَسِر، ولاَ الشَّغَبُ ينقَطِع.

فصَدَعتُ في ذلك بالحقّ، وكبحتُ أعِنَّةَ أهْل الهَوَى والجَهْل، ورَدَدتُّهم على أعقَابِهِم. وكَان فيهم مُلتَقطون سَقَطُوا من المَغربِ؛ يُشَعوِذُون بِمفتَرِق من اصطِلاحاتِ العُلُوم هُنا وهُناك، لاَ يَنتَمون إلى شَيْخٍ مشهور، ولا يُعرف لهم كِتاب في فَنّ، قد اتَّخذوا النّاس هُزؤاً، وعَقَدوا المَجالسَ مَثلَبَةً للأعْرَاض، ومأبَنَةً لِلحُرَم؛ فأَرغَمهُم ذلك مِنّي، ومَلأهم حَسَداً وحِقْداً عليّ، وخَلَوا إلى أهل جَلْدَتِهم مِن سُكّان الزَّوَايا المنتَحِلين للعِبَادة، يشتَرُون بها الجاهَ ليُجِيرُوا بِه عَلَى الله؛ ورُبّما اضطُرَّ أهلُ الحقُوق إلى تَحْكِيمِهم، فيَحْكُمونَ بما يُلْقِي الشَّيْطَان عَلَى ألسِنَتِهم، يَتَرخَّصُون به لِلإصْلاَح، لا

(أ) ظ: في المذهب (ب) كذا في الأصول الثلاثة، وأثبتها الطنجي في نشرته للتعريف 263: الخيرة. (ج) ظ: بالجزاف

يَزْعُمهم الدِّينُ عن التَّعَرُّض لأحْكام الله بالجَهل؛ فقَطعتُ الحبْلَ في أيديهم، وأمضَيْتُ أحكامَ الله فيمن أجَارُوه، فَلَم يُغْنُوا[أ] عَنه من الله شيئاً، وأصبَحَتْ زَوَايَاهم مَهْجُورة، وبِئْرُهم التي يَمْتَاحُون مِنها مُعَطَّلة؛ وانطلَقُوا يُراطِنُونَ السُّفَهَاء في النَّيْل مِن عِرْضي، وسُوءِ الأُحْدُوثَة عَني بمُخْتَلَقِ الإفْك، وَقَوْل الزُّور، يَبُثُّونَه في النَّاس، ويدُسُّون إلى السُّلْطان التَّظَلُّمَ مِنّي، فلاَ يُصْغِي إليهم؛ وأنا في ذلك مُحتَسِبٌ عند الله ما مُنِيتُ به من هَذا الأَمْر، ومُعْرِضٌ فيه عن الجَاهِلين، ومَاضٍ عَلَى سَبيلٍ سَوَاء، مِن الصَّرامة، وقُوَّة الشَّكِيمة، وتَحَرّي المَعْدَلة، وخَلاَص الحُقوق، والتَّنَكُّبِ عن خطّةِ البَاطِل متى دُعِيتُ إليها، وصَلاَبَة العُود عن الجاهِ والأَعْرَاضِ متى غَمَزَني لامِسُها؛ ولم يَكُن ذلك شَأنَ مَنْ رافَقْتُه من القُضَاة، فَنَكِرُوه عليّ، ودَعَوْنِي إلى تَبَعِهِمْ فِيما يَصْطَلِحُون عليْه من / [367 ب] مَرْضَاة الأَكابر، ومُرَاعَاة الأعيَان، والقَضَاء[ب] للجَاهِ بالصُّورِ الظَّاهرة، أو دَفْع الخُصُوم إذا تَعَذَّرت[ج]، بناءَ عَلَى أنّ الحَاكم لا يَتعيَّن عليه الحُكم مَعَ وُجُودِ غَيْره، وهم يَعلَمون أنْ قَد تَمالَئُوا عليْه.

وليتَ شِعري ما عُذْرُهم في الصُّوَر الظَّاهِرة إذَا عَلِمُوا خِلافَها؛ والنبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقُول في ذَلك: "مَن قَضَيْتُ لَه مِن حَقّ أخيه شيئاً فإنَّما أقْضِي لَهُ مِن النَّارِ"[1].

(أ) أ: فلم يغني [يغن]   (ب) ظ: الأعيان والقضاة ...   (ج) ظ: تعددت

---

(1) حديث متّفق عليه ونصّه: عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنكم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض؛ فأقضي له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً، فإنما أقطع له قطعة من النار". البخاري: كتاب الأحكام (رقم 7169)، مسلم: الأقضية (رقم 1713)، الترمذي: الأحكام (رقم 1339).

فأبَيتُ في ذلك كلّه إلاّ إعطاءَ العُهدَة حقَّها؛ والوفاءَ لهَا ولمن قلّدنيهـا، فأصبَحَ الجَميعُ عليَّ ألباً، ولمَنْ يُنادِي بالتّأفّف مِنّي عَوْناً، وَفي النَّكير عليَّ أُمَّةً؛ وأَسْمَعُوا الشّهود المَمْنُوعِين أنْ قَد قَضَيْتُ فيهم بغَيْر الحَقّ، لاعتمادِي عَلَى عِلْمي في الجَرْح، وهيَ قَضِيّةُ إجماع؛ وانطَلَقت الألْسِنَةُ، وارتفَع الصَّخَب، وأرَادني بعضٌ عَلَى الحكم بغَرَضهم فوقفت، وأغرَوا بِيَ الخُصوم، فتَنَادَوْا بالتَّظلّم عند السُّلْطان؛ وجَمَع[1] القُضاةَ وأهلَ الفُتْيَا في مَجلسِ حَفْل للنظر في ذلك، فَخَلَصَت تِلك الحكومةَ من الباطِل خُلُوصَ الإبريز، وتبَيَّن أمرُهم للسُّلْطان، وأمضَيْتُ فيها حُكْمَ الله إرغَاماً لهم، فـ﴿ غَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴾ [سورة القلم، من الآية 25]، وَدَسُّوا لأَوْلياء السُّلطان وعُظماءِ الخاصّة، يُقَبّحون لهم إهمالَ جاهِهم، وَرَدَّ شفَاعاتهم، مُمَوّهين بأنّ الحَامِلَ على ذلك جَهْلُ المصْطَلَح، ويُنَفّقُون هذا الباطلَ بِعظائمَ يَنْسُبونَها إليّ، تَبعثُ الحَلِيم، وتُغْري الرّشِيد، يَسْتَثِيرُون حَفَائظهم عَلَيّ، ويُشْرِبُونهم البَغْضَاءَ لِي؛ والله مُجَازِيهم ومُسَائِلُهم.

فَكَثُر الشَّغْبُ عَلَيَّ من كلّ جَانبٍ، وأظلَمَ الجوُّ بَيْني وبينَ أهل الدّوْلَة. وَوافق ذلك مُصَابي بالأَهْل والوَلَد؛ وَصَلوا من المغرب في السّفِين، فأصَابهَا قاصفٌ من الرّيح؛ فغَرِقت، وذَهَب الموجُود، والسَّكَن والمولُود؛ فَعظُم المُصَابُ والجَزَعُ، ورَجَحَ الزُّهد، واعتَزَمتُ على الخروج عَن المَنصِب، فلم يُوافقْني عليه النّصِيحُ مِمَّن استَشـرتُه، خَشْيةً مـن نَكِير السُّلْطان وسَخَطِه؛ فَوقَفتُ بين الوِرْد والصَّدَرِ، وَعَلَى صِرَاطِ الرَّجاء واليأسِ؛ وعَن قَريب تَدارَكَني اللُّطف الرّبانيّ، وشَمِلتْني نِعمةُ السُّلطان

(1) أ: وأجمع

ـ أيّده الله ـ في النَّظَر بعَيْن الرَّحمة، وتَخْلِيةِ سَبيلي من هذه العُهدة التي لم أُطِق حَمْلَها، ولا عَرفتُ ـ كما زَعَموا ـ مُصْطَلَحَها؛ فرَدَّها إلى صاحِبِها الأوّلِ، / وأنشَطَني من [368 أ] عِقَالها؛ فانطلَقتُ حَمِيدَ الأثر، مُشَيَّعاً من الكافّة بالأسَف والدُّعاء وحَميد الثَّناء؛ تَلْحَظني العُيونُ بالرَّحمةِ، وتَتَناجَى الآمالُ فيَّ بالعَوْدة؛ ورتَعتُ فيما كُنتُ راتعاً فيه قبلُ من مَرَاعِي نِعمتِه وظِلِّ رضاه وعِنايتِه، قانعاً بالعافيةِ التي سألَها رسولُ الله صلّى الله وسلّم من ربّه، عَاكفاً على تدريس علم، أو قِراءةِ كتاب، أو إعْمال قَلَم في تدوينٍ أو تأليف، مؤمِّلاً من الله. قَطْعَ صُبَابَةِ العُمرِ في العِبادةِ، ومَحْوِ عَوائقِ[أ] السَّعادةِ، بفضلِ الله ونِعْمَتِه.

السَّفَرُ لقضاء الحَجّ

ثمّ مكثتُ بعْد العَزْلِ ثلاث سِنينَ، واعتَزَمت على قضاء الفَريضةِ، فودَّعتُ السُّلْطانَ والأُمراء، وزَوَّدُوا وأعانُوا فوقَ الكِفايةِ؛ وخرجتُ من القاهرة مُنتَصَف رمَضانَ تِسعٍ وثمانين، إلى مَرسَى الطُّور بالجانب [الشرقيّ][ب] من بَحْر السويس؛ وركِبتُ البَحر من هُنالك، عاشِرَ الفِطْر، ووصَلْنا إلى اليَنْبُع لشهر، فوافَينا المَحْمِل، ورافقْتُهم من هُنالك إلى مكّةَ، ودخلتُها ثانيَ ذي الحِجّة، فقَضَيتُ الفريضةَ في هذه السَّنةِ. ثمّ عُدتُ إلى اليَنْبُع، فأقمتُ به خَمْسين ليلةً حتّى تهيّأ لنا رُكوب البَحْر، ثمّ سافرنا إلى أنْ قارَبْنا مَرسَى الطُّور، فاعتَرَضَتنا الرِّياح، فما وسِعنا إلاّ قَطْعَ البَحْر إلى

(أ) ظ: عوائق، ومهملة في أ (ب) في ظ محرفاً: الغربي

جَانِبه [الغَرْبِيّ][أ]، ونَزلنَا بساحِلِ القُصَيْر، ثمّ بَذْرَقْنا مَع أعْرابِ تلك النّاحِيةِ إلى مَدِينةِ قُوص، قَاعِدةِ الصَّعيد، فأرَحْنا بها أيّاماً، ثمّ ركِبنَا في بَحْر النّيل إلى مِصْر، فوَصَلنا إليها لِشهرٍ من سَفَرنا، ودخلتُها في جُمادَى تِسْعين؛ وقَضَيْتُ حَقَّ السُّلْطان في لِقَائه، وإعلامِهِ بما اجتَهدتُ فيه من الدُّعاء لَه، فتقبّلَ ذلك بقَبُولٍ حسَن، وأقمْتُ فيما عَهدتُ مِن رِعَايته وظلّ إحسانِه.

وكنتُ لَمّا نزَلتُ باليَنْبُع، لقِيتُ بهَا الفقيهَ الأديبَ المُتَفنّن، أبَا القاسم بن مُحمَّد ابن شَيخ الجماعَة، وفارِسَ الأدباء، ومُنَفّق سُوق البَلاَغَة، أبي إسْحَاق إبرَاهيم السّاحِليّ المَعْروف جَدُّه بالطُّوَيْجِن، وقَد قَدِمَ حَاجّاً، وفي صُحْبَتِه كتابُ رِسالةٍ من صَاحبنا الوَزير الكَبِير العالم، كاتب سِرّ السُّلْطان ابن الأحْمَر صاحب غَرْناطَة، الحَظِيّ لَدِيْه، أَبِي عَبْد الله ابن زَمْرَك؛ خاطبني فيه بنَظْمٍ ونثْر، يتَشوّقُ ويُذَكّرِ بعُهود الصُّحبة، نَصُّه: [من الطويل]

/ سَلُوا البارِقَ النَّجْدِيَّ مِن عَلَمَي نَجْدِ ... تبَسّم فَاسْتَبْكَى جُفُوني مِن الوَجْدِ [368 ب]
أجادَ رُبوعي بِاللِّوى بُورِكَ اللِّوَى ... وَسَحَّ بـه صَوْبُ الغَمائم مِن بَعْدِي
ويَا زَاجرِي[ب] الأظعان وهي ضَوامِرٌ ... دَعُوها تَرِدْ هِيماً عِطاشاً عَلى نَجْدِ
وَلا تَنْشَقُوا الأنفاسَ مِنْها مَع الصَّبا ... فإنَّ زَفِير الشَّوقِ من مِثْلها يُعْدِي
بَراها الهَوَى بَرْيَ القِدَاح وخَطَّهَا ... حُروفاً على صَفْحٍ من القَفْر مُمْتَدِّ
عَجِبْتُ لَهَا[ج] أنَّى تُجاذِبُني الهَوَى ... ومَا شَوقُها شَوْقِي وَلاَ وَجْدُها وَجْدي

(أ) ظ: الشرقي (ب) أ: ناجري، والنّجر: سوق الإبل شديداً. لسان العرب، مادة: نجر (ج) ظ: عجبت بها لها

لَئِــن شَاقَها بيــنَ العُذَيــب وَبَـارِقٍ ... مِيــاهٌ بِفَــيْءِ الظِـلّ للبَــان والرَّنْــدِ
فَمَـا شَاقَـنـي إلاَّ بُـدورُ خُدُورِهَـــا ... وقَـد لُحْنَ يـومَ النَّفْرِ في قُضُبٍ مُلْدِ
فَكَم فِي قِبَـابِ الحَيِّ مِــن شمْـسِ كِلَّـةٍ ... وفي فَـلَكِ الأزرارِ مِــن قَمَــر سَــعْدِ
وَكَمْ صَارِمٍ قَد سُلَّ مِـن لَحظِ أحْـوَرٍ ... وكَمْ ذَابـلٍ قَـد هُـزَّ مِــن نَاعِمِ القَـدِّ
خُـذُوا الحِـذْرَ من سُكَّان رَامَـة إنَّهَا ... ضَعِيفَاتِ كَرِّ اللَّحْظِ تَفتكُ بِالأُسْـدِ
سِهَام جُفـونٍ عَـن قِسـيِّ حَواجِـبٍ ... يُصَابُ بهَـا قَلْـبُ البَرِيءِ عَلَى عَمْـدِ
ورَوض جَمَـال ضَـاعَ عَــرْفُ نَسِيمِـه ... وما ضاع غيرُ الوَرْد في صَفْحة الخَدِّ
ونَرْجِـس لَحْـظٍ أرسَـلَ الدَّمعَ لؤلُـؤاً ... فَـرَشَّ بمـاءِ الـوَرْد رَوْضـاً مِـن الـوَرْدِ
وكَـم غُصْـنٍ قـد عَانَـق الغُصْـنَ مثلَهُ ... وكلٌّ على كلٍّ مـن الـشَّوْق يَسْتَعْدِي
قَبيـــحٌ ودَاعٌ قَـــد جَــلاَ لعُيُونِنَـا ... مَحاسِـنَ مـن رَوضِ الجَمَال بِـلاَ عَـدِّ
رَعَـى الله لَيْلَـى لَـو عَلمتُ طريقَهـا ... فَرَشْـتُ لأخفَـاف المَطِـيِّ بـه خَـدِّي
وَمَـا شَاقنـي والطَّيْفُ يُرْهِبُ أدْمُعِي ... وَيَـسْبَح في بَحْـرٍ مِــن اللَّيْـل مُزْبَـدِّ
وَقَـد سَـلَّ خَفَّـاق الذُّؤابَـــةِ بـارقٌ ... كَـما سُـلَّ لَمَّـاعُ الـصَّقَّالِ مِـن الغِمْـدِ
وهُزَّت مُحَلاَّةً يدُ الشَّوقِ في الدُّجَـى ... فَحُلَّ الذِي أبْرَمْتُ للصَّبْرِ من عَقْدِي
وأقْلَـقَ خفَّـــاقُ الجوانــح نسْمَـــةً ... تَنِـمُّ مـــع الإصبَــاح خَافِقَــة البُــرْدِ
وَهَــبَّ عليــلٌ لَــفَّ طــيُّ بُــــرُودِهِ ... أحاديثَ أهْدَاها إلى الغَـوْرِ مِـن نَجْدِ
[369أ] /سِوَى صَادِحٍ فِي الأَيْكِ لَمْ يَدْرِ مَا الْهَوَى ... ولكِـنْ دَعَـا مِنِّي الـشُّجُونَ عَـلَى وَعْـدِ
فهَــلْ عِنـدَ لَيْلَــى، نَعَـم الله لَيْلَهَـا ... بــأنَّ جُفُـوني مَـا تَمَــلُّ مِــن الـسُّهْدِ

وليلةَ إذْ أوْفى الحَجِيجُ عَلَى مِنى   وفَتْ لِي المُنَى مِنْها بما شئتُ من قَصْدِ
فَقَضَّيتُ مِنها - فوقَ مَا أحْسَبُ - المُنَى   وبُرْدُ عَفَافِي، صانَه الله مِنْ بُرْدِ
وليْسَ سِوى لَحظٍ خَفيّ نُجِيلُهُ   وشَكْوَى كما ارفضَّ الجُمَانُ من العِقْدِ
غَفَرْتُ لِدَهْرِي بعدَها كلَّ ما جَنى   سِوَى ما جَنَى وفْدُ المَشِيبِ عَلَى فَوْدِي
عَرفْتُ بهذا الشَّيبِ فضْلَ شَبِيبتي   وما زَالَ فَضل الضّدّ يُعْرَفُ بالضّدّ
ومن نَامَ في ليْلِ الشَّباب ضَلاَلَةً   سَيُوقظُه صُبْح المَشِيب إلى الرُّشْدِ
أمَا والهَوَى ما حِدْتُ[أ] عن سَنَن الهَوَى   ولاَ جُرْتُ في طُرُقِ الصَّبَابة عن قَصْدِي
تَجَاوزتُ حدَّ العَاشقينَ الأُلى قَضَوْا   وأصبَحْتُ في دِينِ الهَوَى [أُمَّةً][ب] وَحْدِي
نَسِيتُ وما أنْسَى وفَائي وخلّتي   وأقفَر رَبْعُ القَلْبِ إلاّ مِنَ الوَجْدِ
إليكَ أبا زَيْدٍ شَكَاةً رفعْتُها   ومَا أنتَ مِنْ عَمْرٍو لَدَيّ وَلا زَيْدِ
بِعَيشِكَ خَبِّرْني ومَا زلتَ مُفْضِلا   أعِندَكَ من شَوقٍ كِمثْل الذي عِندِي
فكم ثَارَ بي شَوْقٌ إليك مُبَرّحٌ   فظَلّت يَدُ الأشواق تَقْدَح من زَنْدي
وصَفّقَ حتّى الرّيحُ في لِمَمِ الرُّبى   وَأشفَقَ حتَّى الطِّفْلُ فِي كَبِدِ المَهْدِ
يُقَابِلُني منكَ الصَّباحُ بَوَجْنَةٍ   حَكَى شَفَقاً فيه الحَيَاءُ الذي تُبْدي
وَتُوهِمُني الشَّمسُ المنيرةُ غُرَّةٌ   بوَجْهِك، صَانَ الله وجْهَكَ عن رَدِّ
مُحيّاكَ أجْلَى في العُيون من الضُّحَى   وذِكْرُكَ أحْلَى في الشِّفَاهِ من الشُّهْدِ
وَمَا أنتَ إلاّ الشَّمسُ في عُلْوِ أُفْقِها   تُفِيدُكَ مِن قُرْبٍ وَتُلْحَظُ مِن بُعْدِ
وفي عَمَهٍ مَن لا تَرَى الشَّمسَ عينُه   وما نَفْعُ نُورِ الشَّمسِ في الأعْيُنِ الرُّمْدِ

(أ) آيا صوفيا: حلت (ب) ساقطة من ظ

مَن القَوْمِ صَانُوا المَجْدَ صَوْنَ عُيُونِهِم ... كَمَا قَدْ أبَاحُوا المَالَ يُنْهَب لِلرِّفْدِ
إذا ازدَحَمَتْ يوماً عَلَى المَالِ أُسْرَةٌ ... فَمَا ازدَحَمُوا إلاَّ عَلَى مَوْرِدِ المَجْدِ
[369 ب] / وَمَهْمَا أَغَارُوا مُنْجِدِينَ صَرِيخَهُم ... يَشُبُّون نَارَ الحَرْبِ فِي الغَوْرِ وَالنَّجْدِ
وَلَم يَقْتَنُوا بَعْدَ البِنَاءِ ذَخِيرَةً ... سِوَى الصَّارِمِ المَصْقُولِ والصَّافِنِ النَّهْدِ
وَمَا اقتَسَمَ الأنفَالَ إلاَّ مُمَدَّحٌ ... بَلاَهَا[أ] بِأَعْرَافِ المُطَهَّمَةِ الجُرْدِ
أَتَنسَى ولا تَنسَى لَيَالِيَنا التي ... خَلَسْنَا بِهِنَّ العَيْشَ فِي جَنَّةِ الخُلْدِ
رَكِبْنَا إلى اللَّذاتِ فِي طَلَقِ الصِّبَا ... مَطَايَا اللَّيَالِي وَادِعِينَ إلى حَدِّ
فَإن لَم نَرِدْ فِيهَا الكُؤوسَ فإنَّنا ... وَرَدْنَا بِهَا للأُنْسِ مُسْتَعْذَبَ الوِرْدِ
لَقِيتكَ[ب] فِي غَرْبٍ وَأنتَ رَئِيسُهُ ... وَبَابُكَ للأعْلاَمِ مُجْتَمَعُ الوَفْدِ
فَآنسْتَ[ج] حتَّى ما شَكَوْتُ بِغُرْبَةٍ ... وَوَالَيْت حتَّى لَم أجِد مَضَضَ الفَقْدِ
وَعُدتُ لِقُطْرِي شَاكِراً ما بَلَوْتُه ... مِنَ الخُلُقِ المَحْمُودِ والحَسَبِ العِدِّ
إلى أنْ أجَزْتَ البَحْرَ يا بَحْرُ نَحْوَنَا ... وَزُرتَ مَزَارَ الغَيْثِ فِي عَقِبِ الجَهْدِ
أَلَذّ مِن النُّعْمَى على حَالِ فَاقَةٍ ... وَأَشْهَى مِن الوَصْلِ الهَنِيِّ عَلَى صَدِّ
وَإنْ سَاءَنِي أنْ قَوَّضَتْ[د] رَحْلَكَ النَّوَى ... وَعُوِّضْتَ عَنَّا بِالذَّمِيلِ وَبِالوَخْدِ
لَقَد سَرَّنِي أنْ لُحْتَ فِي أُفُقِ العُلاَ ... عَلَى الطَّائِرِ المَيْمُونِ والطَّالِعِ السَّعْدِ
طَلَعتَ بأُفْقِ الشَّرقِ نَجمَ هِدَايَةٍ ... فَجِئْتَ مَعَ الأنْوارِ فيه عَلَى وَعْدِ
يَمِيناً بِمَن تَسْرِي المَطِيُّ سَوَاهِماً ... عَلَيها سِهَامٌ قَد رَمَت هَدَفَ القَصْدِ

(أ) ظ: تلاها، ومهملة في أ وآيا صوفيا (ب) أ، وآيا صوفيا: أتيتك (ج) في ظ، أ: فأنست (د) ظ: فوضت، ومهملة الأول في أ وآيا صوفيا

إلـى بيْتِــه كيما تُـزُورَ مَعَاهــداً ... أبانَ بِهـا جِبْرِيـلُ عَـن كَـرَم العَهْـدِ
لأنتَ الـذي مَهْما دَجَا لَيْلُ مشكِلٍ ... قَـدَحْتَ بـه للنُّـور وَارِيـةَ الزَّنْـدِ
وَحيثُ استقلَّت بِي ركاب أطِيَّـةٍ(أ) ... فأنـتَ نَجِيُّ الـنَّفْسِ فِي القُرْبِ وَالْبُعْدِ
وَإنّي بِبَـاب المُلْكِ حيـثُ عَهِدتَّـي ... مديدَ ظلالَ الجَاه مُسْتَخْصَفَ العَقْدِ
أُجَهِّــز بالإنشَــاء كُــلَّ كَتِيبـــةٍ ... مِنَ الكتْبِ والكُتَّابُ فِي عَرْضِها جُنْدِي
نَلـوذُ مِـنَ المـولَى الإمام مُحَمَّـدٍ ... بِظِــلٍّ عَــلَى نَهْــر المَجَــرَّة مُمتَــدِّ
إذا فَـاضَ مـن يُمناه بحـرُ سَمَاحـةٍ ... وعَمَّ بـه الطُّوفـانُ في النجْـدِ والوَهْـدِ
/ رَكبْنَا إلـى الإحْسَان فِي سُفُن الرَّجَا ... بُحـورَ عطـاءٍ لَـيْسَ تَـجْزُرُ عـن مَـدِّ [370أ]
فَمَـن مُبلِغُ الأنصار عنّـــي أَلوكَـةً ... مُغَلْغَـلَةً فِي الـصدق مُنجَـزَةَ الوَعْـدِ
بآيَــةِ مــا أعطَـى الخليفةَ رَبُّــهُ ... مَفَـاتِيحَ فَـتْحٍ سَـاقها سـائِقُ السَّعدِ
وَدُونك مــن رَوض المحَامِــدِ نَفْحَـةً ... تفـوتُ إذا اصطفَّ النَّـدِيُّ عَـنِ النَّـدِّ
ثناءً يَقُولُ المِسْـك إنْ ضَـاعَ(ب) عَرْفُـهُ ... أيَـا لـك مـن نَـدّ! أمَـا لـك مـن نِـدِّ
وَمَـا المـاءُ فـي جَوْفِ السَّحَاب مُرَوَّقاً ... بـأَظهَرَ(ج) دَأْباً منـكَ في كَنَـفِ المَهْـدِ
فَكيْـفَ وقـد حَلَّتْكَ أسْرابُهـا الحُلَـى ... وبَاهَـت بـكَ الأعـلاَمَ بالعَلَـم الفَـرْدِ
ومَا الطَّلُّ في ثَغْـرٍ مـنَ الدَّهْـرِ بَاسِـمٍ ... بأَصْفَـى وأذكَـى مِـن ثَنَائِي وَمِن وُدّي
وَلاَ البَــدْرُ مَعْصُوبـاً(د) بتَـاج تَمَامِـهِ ... بأبهر من وُدّي وأَسْيَرَ(هـ) مِنْ حَمْدِي

(أ) كذا في أ، وفي ظ: رطية، آيا صوفيا: لطية (ب) ظ: ذاع (ج) أ، وآيا صوفيا: بأطهر (د) ظ: معصوماً (هـ) ظ: وأستر، ومهملة في أ

بَقِيتَ ابنَ خَلْدُونٍ إمامَ هِدَايَةٍ ولا زِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فِي جَنَّةِ الخُلْدِ

وَوَصَلها بقوله:

سَيِّدي علَمَ الأعلامِ، كبيرَ رؤساءِ الإسلاَم، مُشرِّف حَمَلة السُّيوف والأقلام، جمال الْخَواصّ والظُّهَراء، أثير الدُّوَل، خالِصَة المُلُوك، مُجْتَبَى الْخُلَفَاء، نيِّر أُفق العَلاء، أوْحَد الفُضَلاَء، قُدْوة العُلَماء، حُجَّة البُلَغاء.

أبقاكُم الله بقاءً جميلاً يَعْقِدُ[أ] لوَاء الفَخْرِ، ويُعْلِي منَارَ الفَضْل، وَيَرفَع عِمادَ المَجْدِ، ويُوَضِّح مَعَالم السُّؤدَد، ويُرسِل أشِعَّة السَّعَادة، ويُفِيض أنوارَ الهِدَايَة، ويُطلق ألسنَة المحامد، ويَنشُرُ أُفقَ المَعَارِف، ويُعْذِب مَوَارِد العِنايَة، ويُمتِعُ بعُمُر النِّهاية ولاَ نِهاية.

بأيِّ التَّحِيّات أُفاتِحُك وقدرُك أعلَى، ومَطْلِع فَضْلِكَ أوْضَحُ وَأجلَى؛ إنْ قُلْتُ تَحيَّةُ كِسْرَى فِي السَّنَاء وتُبَّعِ، فأثَرٌ لاَ يُقْتَفَر وَلا يُتْبَع[ب]، تِلكَ تَحِيَّةٌ عُجَماءُ لا تَبِينُ ولا تُبِين، وزَمْزَمَةٌ نَافَرَها اللِّسانُ العربِيُّ المبين، وَهَذه جَهَالةٌ جَهلاَء، لا ينطبق على حُروفها الاسْتِعْلاء، قَد مَحَا رسُومَها الجَفَاء، وعلى آثارِ دِمْنتِها[ج] العَفاء؛ وَإنْ كانت التَّحِيَّتَانِ طَالما أوْجَف بِها الرِّكاب وقَعْقَعَ البَريد، ولكن أين يَقَعانِ مِمّا أُريد.

[370 ب] تَحِيَّة الإسلام آصَلُ في الفَخر نَسَباً، وَأوصَلُ بالشَّرع سَبَباً، / فالأولَى أنْ أُحيِّيك

(أ) ظ: يعقد، ومهملة في أ وآيا صوفيا (ب) ظ، أ: لا يقتفر ولا يتّبع (ج) أ: آثارها دمتها

بما حيّا الله في كتابه رُسُلَهُ وأنبياءَه، وَحَيَّت به مَلائكتُه في جواره أولياءَه، فأقُول: سَلاَمٌ عَليكم يُرْسِلُ من رَحَمَاتِ الله غَماماً، ويَفتَقُ من الطُّرُوس عن أزهار المَحَامِد كِماماً، ويَستَصْحِبُ من البَرَكَاتِ ما يكُون عَلَى الذي أحسَن من ذَلك تَماماً؛ وأُجدِّد السّؤال عن الحال الحَالية بالعِلْم والدِّين، المستَمِدَّة من أنوارهَا سُرُجُ المُهتَدِين. زادهَا الله صَلاحاً، وعَرَّفَها نَجاحاً يَتْبع فَلاحاً؛ وأُقرِّر ما عِندِي من تَعظِيم أرتَقِي كُلَّ آونة شُرَفَه، واعتقادِ جَميلٍ يَرفَع عن وَجْه البَدرِ كُلَفَه، وثناءٍ أنْشُر بِيَد التُّرْكِ صُحُفَه؛ وعَلَى ذلك أيُّها السّيِّد المالك، فقد تَشَعَّبَت عليَّ في مُخَاطَبَتك المَسَالك؛ إن أخذتُ في تَقْرِير فَخْرك العَمِيم، وحَسَبك الصَّمِيم، فَوَالله ما أدْرِي بأي ثَنِيَّةٍ[أ] للفَخْر يُرفَعُ العَلَم، وَفِي أيِّ بَحرٍ من ثَنَائِك يَسْبَحُ القَلَم، الأمْر جَلَل:

والشَّمسُ تكبُر عن حَلي وَعَن[ب] حُلَل[1]

وإنْ أخَذتُ في شَكاةِ الفِراق، والاستِغْدَاءِ[ج] على الأشواق، اتَّسعَ المَجَال، وحَصِرتِ الرَّوِيَّةُ والارْتِجال، فالأوْلَى أنْ أترُكَ عَذَبَةَ اللِّسان تَلعَب بها رِياحُ الأشْواق، وأسَلةَ اليَرَاع تخضِبُ[د] مَفَارق الطُّرُوس بنَجِيع الحِبْرِ المُرَاق؛ وغَيرُك من تُركَضُ في مُخَاطَبَته جِيَادُ اليَرَاع، في مَجَال الرِّقَاع، مُسْتَوليةً على أمَدِ الإبداع والاختِرَاع؛ إنَّما

(أ) آيا صوفيا: ثنية (ب) ساقطة من أ (ج) أ: والاستدعاء (د) ظ: تحصف

(1) عجز بيتٍ لإسماعيل بن أحمد الشاشيّ العامريّ، وصدره:

وما به حاجةٌ في المدح تنظمه

انظر: الثعالبيّ: يتيمة الدهر 3: 449

هُو بَثٌّ يُبْكَى، وَفِراق يُشكَى، فيَعْلَمَ الله حِرْصِي عَلَى أنْ أُشَافِه عَن أنبائك ثُغُورَ البُروق البَواسِم، وأنْ أحملَك الرَّسَائل حَتَّى مَعَ سُفَراءِ النَّوَاسِم، وأنْ أجْتلِيَ غُرَرَ ذَلِك الجَبِين في مُحَيَّا الشَّارِق، ولَمْحِ البَارِق.

ولَقَد وجَّهتُ لَك جُمْلةً من الكتُبُ وَالقَصَائد، وَلاَ كالقَصِيدة الفَرِيدة في تأْبِين الجَوَاهر اللاتِي اسْتأْثر بهنَّ البَحْر؛ قَدَّس الله أروَاحَهم، وأعظَم أجْرك فيهمْ؛ فإنَّها أنَافَت على مائة وخَمْسِين بَيْتاً، وَلاَ أدْرِي هَلْ بَلَغَكم ذَلك أمْ غَالَهُ الضَّيَاعُ؟ وَغَدَر وُصُولَه بُعدُ المَسافَةِ؛ والذِي يُطْرِق لِي سُوءَ الظَّنّ بِذَلك، ما صَدَر في مُقَابِلهِ منكُم، فإنِّي على علمٍ من كَرَم قَصْدِكم، وحُسْنِ عَهْدِكم.

ومِن حينَ استَقَلَّ نَيِّـرُكم بذَلك الأفُق الشَّرقِيّ، لم يَصِلْني منكم كِتابٌ، مَعَ عِلْمِي [371أ] بضَيَاع اثنَين منها بهذَا الأُفُق / الغَرْبِيّ. انتهى.

وفِي الكِتَاب إشارةٌ إلى أنَّه بَعَث قَصِيدةً في مَدْح المَلِك الظَّاهر، صَاحِب مصرَ، وَيَطلُب منِّي رفعَها إلى السُّلْطان، وعَرْضَها عَلَيه بحَسَب الإمكان؛ وَهِي على رَوِيِّ الهَمزة، ومطلعُها: [من الكامل]

أمَدَامِــعٌ مُنْهَلَّــةٌ أمْ لُؤْلُـؤُ لَمَّا استَهَلَّ العَارِضُ المُتَلأْلِئُ

وَبَعثَها فِي طيِّ الكتاب، واعتَذَر بأنَّه استَنَابَ في نَسْخِها، فكُتِبَتْ همزَةُ رَوِيِّها ألِفا، قال: وحقُّها أنْ تُكتَب بالوَاو، لأنَّها تُبْدَل بالوَاو، وتُسَهَّل بَيْنَ الهَمْزَة والوَاو، وحَرفُ الإطلاق أيضاً يسُوقُها وَاواً. هَذا مُقْتَضَى الصَّناعةِ، وإن قال بعضُ الشُّيوخ: تُكْتَبُ ألفاً على كلِّ حالٍ، على لُغَة من لاَ يُسهِّل، لكنَّه ليس بشيءٍ.

وأذِن لي في نسخ القصيدة المذكورة بالخطّ المَشرقيّ لتَسهُل قِراءتها عليهم، ففعَلت ذلك، ورفَعتُ النُّسخةَ والأصلَ للسُّلطان، وقرَأها كاتبُ سِرِّه عليه، ولم يَرجع إليَّ منْهُا[أ] شيءٌ، ولَم أستَجِز أنْ أنسَخَها قبلَ رفعها إلى السُّلطانِ، فضاعت من يَدِي.

وكان في الكتاب فصلٌ عرَّفني فيه بشأن الوزير مَسْعود بن رَحُّو، المستَبدّ بأمر المَغرب لذلك العهدِ، وما جَاء به من الانتقاض عليهم، والكُفران لصَنيعهم، يقول فيه:

كان مَسعود بن رَحُّو الذي أقام بالأنْدَلُس عِشرين عاماً يَتَبَنَّكُ النَّعيم، ويقودُ الدُّنيا، ويتَخيَّرُ العَيْشَ والجاه، قَد أجِيز صُحْبةَ ولَد أبي عِنَان، كما تعرّفتم من نُسْخَة كتابٍ أنشأتُه بجبَل الفَتح لأهل الحَضْرةِ، فاستَوْلَى على المِلْكة[ب]، وحَصَل على الدُّنيا، وانفرد برياسة دار المغربِ[ج]، لضَعف السُّلطان، رَحِمَه الله؛ ولم يكن إلاَّ أنْ كُفِرت الحُقوق، وحُنظِلَت نَخْلته السَّحُوق؛ وشَفَّ على سَوادِ جِلْدَته سَواد العُقوق؛ وداخَلَ مَن بِسَبْتَة[د]، فانتقَضت طاعةُ أهْلها، وظنُّوا أنّ القَصَبَة لا تَثبُت لهم؛ وكان قائدُها الشَّيْخُ البُهْمَة، فَلُّ الحِصَار وحَلْي القِتَال، ومِحَشُّ الحَرْب، أبو زَكَرِيَّاء ابن شعيب، فثبت للصَّدْمَة، وتَوَرَ الأَنْدلُس فَبادَره المدَدُ من الجَبل، ومن مالَقَة، وتوالت الأَمدادُ، وخافَ أهلُ البَلَدِ، وراجَع شُرفاؤه، ودَخلوا القَصَبَة، / واستغاثَ أهلُ البلَد بمن [371 ب]
جاورَهم، وجاءهم المَدد أيضاً، ثمّ دَخَل الصَّالحون في رَغْبة[هـ] هذا المقام، ورفع القِتال، وفي أثناء ذَلك غَدَروا ثانية، فاستَدعى الحالُ إجازَةَ السُّلطان المخلوع أبي العبّاس

(أ) ظ: منها (ب) آيا صوفيا: المملكة (ج) ظ، آيا صوفيا: الغرب (د) ظ، أ: نسبته. (هـ) أ: رعنه

لِتُبَادِرَ القَصَبةُ به، ويتوجّهَ منها إلى المَغرب، لرغْبَة مَرِينَ وغيرِهم فيه، وهو وَلَد السُّلطان المَرحُوم أبي سَالم الذي قَلّدَكُم رياسَةَ دارِه، وأوجَبَ لكم المَزِيةَ على أوليائه وأنصارِه. انتهى.

وبعدَه فصلٌ آخرُ يطلبُ فيه كُتباً من مِصْر، يقول فيه:

والمرغوب من سَيِّدي أنْ يبعثَ لِي ما أمكن من كلام فُضلاءِ الوقْت وأشياخِهم على الفاتحة، إذ لا يمكن بَعثُ تفسيرٍ كامِل؛ لأنِّي أثبتُّ في تفسيرها ما أرجُو النَّفعَ به عِندَ الله، وقد أعلمتُكم أنّ عندِي التفسيرَ الذي أوصَله إلى المَغرب عُثمانُ التّجَانيّ من تأليف الطِّيْبِيّ، والسِّفْرَ الأوّلَ من تفسير أبي حَيَّان، ومُلَخَّصَ إعرابه، وكتابَ المُغْني لابن هشَام، وسَمعتُ عن بَدْأَةِ تفسيرٍ للإمامِ بَهاء الدِّين ابن عَقيل، ووصَلَتْ[(أ)] إليَّ بَدْأَةٌ من كَلام أكمل الدِّين الأثيرِيّ، رضي الله عن جميعهم، ولكن لم يَصل إلاّ للبَسْملة، وذكر أبو حَيَّان في صدر تفسيره أنّ شيخه سُلَيمان النَّقيب، أو أبا[(ب)] سُلَيمان؛ لا أدرِي الآن، صَنَّف كِتاباً في البَيان في سِفْرَين، جَعَلَهُ مُقَدِّمةً في كتاب تفسيره الكبير، فإنْ أمكن سَيِّدي توجيهُ. انتهى.

وَفي الكتاب فُصولٌ أخرَى في أغراضٍ متعدِّدة، لا حاجةَ إلى ذكرِها هُنا.

ثمَّ خَتَم الكتابَ بالسَّلام، وكتَب اسمَه: مُحَمَّد بن يُوسُف بن زَمْرَك الصَّريحِيّ، وتاريخه العشرون من مُحرَّم، تِسعٍ وثمانين.

(أ) ظ: ووصل (ب) في الأصول الثلاثة: أبو

وكتب إليّ قاضي الجماعةِ بغَرناطَةَ؛ أبو الحسَن، عليُّ بن الحسن البُنّي [(1)]:

الحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيّدِنا ومولانا مُحَمّد رسُول الله.

يا سيِّدي ووَاحِدي، وُدّاً وحُبّاً، ونجيَّ الرُّوح، بُعداً وقُرباً. أبقاكم الله وثوبُ سيادتكم سَابغٌ، وقَمَر سَعَادتكم - كلَّما أفَلَت الأقمارُ - بازغٌ، أُسلِّم بأتمِّ السَّلام عليكم، وأُقَرِّر بعضَ ما لديَّ من الأشواق إليكم، مِن حضرةِ غَرناطَة - مَهَّدها الله -، عن ذكرٍ لكم يَتَضوَّع طيبُه، وشُكرٍ لا يَذْوِي / - وإنْ طال الزَّمانُ - رَطيبُه، [372أ] وقَد كان بلغَ ما جَرَى من تأخِيرِكم عن الولايةِ التي تَقَلَّدْتُم أمرَهَا، وتحمَّلتُم مُرَّها، فتمثّلتُ بما قاله شَيْخُنا أبو الحسَن ابن الجيّاب، عند انفِصال صَاحِبه الشَّريف أبي القاسِم عن خُطَّة القَضَاء [(2)]: [من السريع]

لا مرحباً بالنَّاشِزِ القَارِكْ إذ جَهِلَت رفعةَ مقدارِكْ
لَو أنَّها قد أوتِيتْ رُشْدَها ما بَرِحت تَعشُو إلى نارِكْ

ثمّ تعرَّفتُ كيفيَّةَ انفِصالكم، وأنَّه كان عن رغبةٍ من السُّلْطان المؤيَّد هنالِكُم، فردَّدْتُ - وقد توهَّمت مُشَاهدتكم - هذه الأبيات: [من الطويل]

لَكَ الله يا بدرَ السَّماحةِ والبِشْرِ لَقَد حُزْت في الأَحكامِ مَنزلَةَ الفَخْرِ
ولكنَّك استَعْفَيتَ عنها تورُّعاً وتلك سبيلُ الصَّالحين كما تدْرِي
جريتَ على نَهجِ السَّلاَمةِ في الذِي تخيَّرتَه، أبْشِر بأمنِك في الحَشْرِ

(1) ضبطه في ظ وآيا صوفيا: البُنّي، ونسبته إلى حصن بُنّة بالأندلس من أعمال الفرج. ياقوت: معجم البلدان 1: 501

(2) أورد ابن الخطيب بيتي ابن الجياب المذكورين مع ثلاثة أبيات أخرى في الإحاطة 2: 183.

وحَقِّـــق بـأنّ العِلـم ولأْك خُطَّـــةً … من العِزّ لا تنفكّ[أ] عنْها مَدَى العُمْرِ
تَزِيـدُ علـى مَــرّ الجديدَيْــنِ جِـدَّةً … وتَسْرِي النُّجُوم الزَّاهِراتُ وَلاَ تَسْرِي
ومَــن لاَ حــظَ الأحْـوالَ وازَنَ بينَها … ولم يَــرَ للدُّنيــا الدَّنِيَّــة مــن خَطَـرِ
وأمسَــى لأنـــواعِ الوِلايـات نابــذاً … فغــيرُ نَكــيرٍ أن تُواجَــه بالنُّكْــرِ
فَيهنيـكَ يَهْنيـكَ الـــذي أنـتَ أهلُـه … مـن الزُّهْـد فيها والتَّـوَقِّي مـن الـوِزْرِ
ولا تكـتَــرِثْ مــن حاسِديـك فإنَّهُـمْ … حَصىً والحَصَى لا يَرْتِقِي مُرْتَقَى البَدْرِ
ومَــن عَامَـلَ الأقــوامَ بـالله مُخْلِصاً … له مِـنهُم[ب] نال الجزيـلَ مـن الأجْـرِ
بَقيـتَ لرَبْـع الفَضْـل تَحْمِــي ذِمـارَهُ … وَخَارَ لكَ الرَّحْمَنُ فـي كُلّ ما تُجْـرِي

إيهِ سَيِّدي، رَضى الله عنكم وأرضاكم، وأطنَبْتُم في كِتَابِكم في الثناء على السُّلْطان الذي أنعمَ بالإبقاء، والمسَاعدة على الانفِصال عن خُطَّة القَضَاء، واستَوْهَبتُم الدُّعَاءَ له مِمَّن هُنا من الأولياء، ولله دَرُّكم في التَّنْبِيهِ على الإرشادِ إلى ذلكم، والدُّعاءُ له من الوَاجب، إذ فيه استقَامة الأمور، وصَلاَح الخاصَّة والجُمْهُور، وعندَ / [372 ب] ذلك ارتفعت أصواتُ العُلَماء[ج] والصُّلحاء بهذا القُطْر لَه ولكم بجَميل الدُّعاء. أجابَ الله فيكم أحسَنَه وأجْمَله، وبَلَّغ كُلّ واحدٍ منكم ما قَصَدَه وأَمَّله.

وأنتم أيضاً من أنتُم من أهل العِلم والجَلالة، والفضل والأصالة، وقد بلغتم بهذه البلادِ الغايةَ من التَّنويه، والحظّ الشَّريف النَّبيه؛ لكن أراد الله سبحانه أنْ يكون لمحاسنكم[د] في تلك البلاد المعظَّمَة ظُهورٌ، وتَحْدُثُ بعدَ الأمورِ أمورٌ؛ وبكلٍّ اعتبارٍ، فالزَّمان بكم ـ حَيثُ كنتُم ـ مُباهٍ، والمحامدُ مجموعةٌ لكم جمعَ تَناهٍ.

(أ) ظ: ينفك، ومهملة الأول في أ (ب) ظ وآيا صوفيا: فيهم، ومهملة في أ (ج) أ: الأصوات من العلماء (د) ظ: بمحاسنكم

ولمَّا وقَف على مَكتوبكم إليَّ مَولانا السُلْطان أبو عَبدِ الله، أطال الثناء على مقَاصِدِكم، وتحقَّق صحيحَ ودَادكم، وجَميل اعتقادِكم، وعَمّر[أ] مَجْلِسَه، يومئذٍ، بالثَّناءِ عليكم، والشكرِ لما لديكم.

ثمّ ختم الكتابَ بالسَّلام من كَاتِبه عليّ بنِ عبد الله بن الحسَن، مؤرّخاً بصَفَرِ تسْعين.

وفي طيِّه مُدْرَجَةٌ بخطِّه *وقَد قصَّر فيها عَن الإجَادة*[ب]، نَصُّها:

سيِّدي، رضيَ الله عنكم وأرضاكم، وأظفَر يُمْناكم بذَوائب مُنَاكم.

أعتذر لكم عن الكِتاب المدْرَج هَذا طيِّه بِغَيْر خَطِّي، فإنِّي في الوَقْت بحالِ مَرَض من عَينيَّ، ولكم العَافية الوَافية[ج]، فيَسَعُني سَمْحُكم؛ وربَّما أنّ لديكم تشوّفا[د] لما نَزَلَ في هذه المدَّة بالمغْرب[هـ] من الهرْج، حاطه الله، وأمَّنَ جميعَ بلادِ المسلمين.

والموجِبُ أنّ الحِصَّة الموجّهة لتلك البِلادِ في خِدمةِ أميرهم الوَاثق، ظهر له ولوزيره ومَنْ ساعده على رأيه إمساكُها رهينة، وجعْلُهم في القيود إلى أنْ يقعَ الخروجُ لهم عن مدينة سَبْتَة، وكان القائد على هذه الحصَّة العِلْج المدعو محمَّد، وصاحبُه الفتى المدعو نَصر الله، وكثُر التَّردُّد في القضيّة، إلى أنْ أبرز القَدَرُ توجيهَ السُّلْطان أبي العبَّاسِ ـ تولاَّه الله ـ صُحبةَ فَرَج بن رِضْوان بحصَّةٍ ثانية، وكان مَا كان، حسبما تلقَّيتم من الرّكبان، هذا ما وَسِع الوَقْت من الكلام. ثمّ دَعَا، وخَتَم.

(أ) ظ: وعَمَّ (ب) سقط ما بين النجمين من أ وآيا صوفيا (ج) ظ، آيا صوفيا: الواقية (د) ظ: تشوقاً (هـ) ظ: بالغرب

وإنّما كتبتُ هذه الأخبار، وإنْ كانت خارجة عن غَرض هذا التّعريف بالمؤلّف، لأنّ فيها تحقيقاً لهذه الواقِعات، وهي مذكورةٌ في أماكنها من الكِتاب، فربّما يحتاج النّاظر إلى تحقِيقها من هَذا الموضع.

وبعدَ قَضَاءِ الفريضةِ، رجعتُ إلى القاهرةِ محفُوفاً بسترِ الله ولُطفِه، ولقيتُ السُّلْطان، فتلقّاني - أيّده الله - بمعهود مَبرّته وعِنايتهِ.

[373 أ] وكانت فتنَةُ / النّاصِرِيّ[1] بعدها، سَنَةَ إحدى وتسعين، ولحقَت السُّلْطانَ النكبةُ التي مَحّصَهُ الله فيها وأقالَهُ، وجَعَلَ إلى الخيْرِ فيها عاقبتَهُ ومآلَهُ؛ ثمّ أعاده إلى كرسيّه للنّظرِ في مصَالحِ عباده، فطوّقه[أ] القِلادةَ الّتي ألبَسه كما كانت. فأعاد لِي ما كان أجراهُ من نِعْمتهِ، ولزمتُ كِسْرَ البَيْتِ ممتّعاً بالعافيةِ، لابساً بُرْدَ العُزْلةِ، عاكفاً على قراءةِ العلمِ وتدريسِه، لهذا العهد، فاتحَ سبعٍ وتسعين[ب].

ولاية الدُّروس والخَوانق

أهلُ هذه الدّوْلَةِ التُّركِيّةِ بمصرَ والشّام مَعْنِيُّون - عَلَى القِدَم مُنذُ عَهْدِ مَوالِيهم

(أ) ظ: وطوقه (ب) هنا تقف نسخة الأصل ظ، ولم تستوعب الزيادات التي ألحقها ابن خلدون على تأليفه بعد سنة 797هـ، وقد تابعنا بقية النص على نسختَيْ أ، وآيا صوفيا، ولم نُدرج أرقام المخطوط حتى لا تلتبس مع أرقام الأصل ظ، فاكتفينا بوضع خط يفصل بين الورقات (/)، ونصّ عبارة الختم في نسخة الأصل ظ: "والله يعرّفنا عوارف لطفه، ويمدّ علينا ظلّ ستره، ويختم لنا بصالح الأعمال. وهذا آخر ما انتهينا إليه، وقد نجز الغرض ممّا أردنا إيراده في هذا الكتاب، والله الموفّق - برحمته - للصّواب، والهادي إلى حُسن المآب، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمد وعلى آله، والحمد لله ربّ العالمين. كَمُل التّعريف بمؤلّف الكتاب، وبكماله كَمُل الجزءُ الرّابع عشر من الكتاب الظّاهِريّ في العِبر، بأخبار العرب والعجم والبَرْبر، وهو آخرُ التّأليف؛ فنَجزَ الدّيوان كلُّه بكماله. والحمد لله وحده، وصلواته على سيّدنا محمد نبيه وعبده وعلى آله وصحبه وسلامه"

(1) أفرد ابن خلدون فصلاً للحديث عن خبر الفتنة مما سيرد لاحقاً.

مُلُوكِ بَني أَيُّوب ـ بإنشاءِ المَدارس لتدريس العلْم، والخَوانق لإقامة رُسُوم الفُقَراء في التَّخَلُّقِ بآدابِ الصُّوفيّة السُّنيّة في مُطارحة الأذكار، ونَوافِل الصَّلوات، أَخَذُوا ذلك عَمَّن قَبْلَهم من الدُّول الخِلاَفِيّة؛ فيَختطُّون مَبَانِيَها، ويَقِفُون الأَراضِيَ المُغِلَّةَ للإنفاق مِنها عَلَى طَلَبَة العِلْم، ومُتَدَرِّبِي الفُقَرَاء، وإنْ استفضَل الرَّيْعُ شَيئاً عن ذلك، جعلوه في أعقَابِهم خَوفاً على الذُّرِّيّة الضِّعاف من العَيْلَة.

وَاقتَدَى بِسُنَّتِهم في ذلك مَن تَحتَ أيديهم من أهل الرِّياسَة والثَّرْوة، فكثُرت لذلك المدارِسُ والخَوانقُ بمدينة القاهرة، وأصبَحت مَعاشاً للفُقراء من الفُقهاء والصوفيّة، وَكان ذلك مِن محاسِن هذه الدَّوْلَة التُّركيّة، وآثارها الجَميلة الخالِدة.

وكنتُ لأَوّل قُدُومي عَلَى القاهرةِ، وحُصولي في كَفَالَةِ السُّلْطان، شَغَرَتْ مَدرَسَةٌ بِمصْرَ من إنشاءِ صَلاح الدّين ابن أيّوب، وقَفَها عَلَى المالكيّة يتَدارَسون بها الفِقه، ووَقَفَ عليها أراضيَ مِن الفَيُّوم تُغِلُّ القَمْحَ، فسُمِّيت لذلك القَمْحِيَّةَ؛ كما وقَف أُخرَى على الشَّافعيّة هنالك؛ وتُوفّي مُدَرِّسُها حينئذٍ، فَوَلاَّني السُّلْطانُ تَدْرِيسَها، وأعقَبَه بولاية قَضَاء المالكيّة، سَنةَ سِتٍّ وثَمانين، كما ذَكرتُ ذلك من قَبْلُ؛ وحَضَرَني يومَ جُلوسي للتَّدريس فيها جَماعةٌ من أكابِر الأمراءِ، تنويهاً[أ] بذِكْري، وعِنايةً من السُّلْطان ومنهم بجَانبي؛ وخَطبتُ [يوم جلوسي][ب] في ذلك الحَفل بخُطبةٍ أَلممتُ فيها بِذِكرِ القومِ بما يُناسِبهم، ويُوفّي حَقَّهم، وَوَصَفْتُ المَقَام، وكان نَصُّها:

الحمدُ لله الذي بَدأ بالنِّعَم قبلَ سُؤالها، ووفَّق مَن هَداه للشُّكرِ على مَنَالِها، وجعَل

(أ) أ: تنبيهاً، آيا صوفيا: تميها (ب) من آيا صوفيا

جزاءَ المُحْسِنين في مَحبَّته، ففازوا بعَظيمِ نَوالها؛ وعَلَّمَ الإنسانَ الأسماءَ والبَيان، وما لَم يَعلَمْ من أمثالِها؛ ومَيَّزه بالعقْلِ / الذي فَضَّله على أصنافِ الموجُوداتِ وأجْيالها، وهَدَاه لقَبول أمانةِ التَّكليف؛ وحَمّل أثقَالِها؛ وخَلَقَ الجنَّ والإنسَ للعِبَادة، فَفازَ مِنهم بالسَّعادة مَنْ جَدَّ في امتثَالِها؛ ويَسَّرَ كلاً لِما خُلِقَ لَه، من هِدايةِ نَفْسِه أو إضلالها؛ وفَرَغَ ربُّكَ من خَلْقِها وخُلقِها وأرْزاقِها وآجالِها.

والصَّلاةُ على سَيِّدنا ومولانا مُحمَّد نُكتَةِ الأكوان وجَمالِها، والحُجَّة البالغة لله عَلَى كَمالِها، الذي رَقَّاه في أطوار الاصْطفاء(أ)، وآدمُ بينَ الطِّينِ والماءِ، فجاء خاتِمَ أنبيَائِها وأرْسَالِها؛ ونَسَخَ المِلَل بشَريعتِه البَيْضاء فتَمَيَّزَ حَرامُها من حَلاَلِها؛ ورَضِيَ لنا الإسلامَ دِيناً، فأَتَمَّ علينا النِّعْمةَ بإكمالِها.

وَالرِّضَى عن آلِهِ وأصحابِه غُيوثِ(ب) رَحمتِه المُنْسَجِمة وطِلالها(ج)، ولُيوثِ مَلاَحِمِه المشتَهِرة وأبطالِها، وخَيرِ أُمةٍ أُخرجَت للنَّاس، فِي توسُّطِها واعتِدالها، وظُهُور الهِدَايَة وَالاستقامة في أحوالها. صَلَّى الله عليه وعليهم صلاةً تَتَّصل الخيراتُ باتِّصالها، وتُنَال البَركاتُ من خِلالِها.

أمَّا بعدُ؛ فإنَّ الله سُبْحانَه لمَّا أقرَّ هذهِ المِلَّةَ الإسلاَميَّة في نِصابِها، وشَفَاها مِن أدْوَائِها وأَوصَابِها، وأورَثَ الأرضَ عبادَه الصَّالحين من أيدِي غُصَّابِهَا، بَعْدَ أنْ بَاهَلَت فارسُ بتَاجها وعِصَابِها، وخَلَت الرُّومُ إلى تَماثِيلِها وأنْصَابها؛ وجَعَلَ لها مِن العُلماءِ حَفَظَةً وقُوَّاماً، ونُجوماً يَهْتَدِي بها التَّابعُ وأعْلاماً، يُقَرِّبُونها لِلدِّراية تِبْيَاناً وإفْهاماً، ويُوسِعونها

(أ) آيا صوفيا: الإطفاء (ب) أ: عيون، تحريف، ومهملة في آيا صوفيا (ج) أ، آيا صوفيا: وظلالها

بالتَّدْوين تَرْتِيباً وَإِحكاماً، وتَهْذِيباً لأصولها وفُروعها ونِظاماً؛ ثُمَّ اختَار لها المُلُوك يرْفَعون عَمَدَها، ويُقِيمُون صَغَاها بإقامة السِّياسَة وأوَدَها، ويَدْفَعُون بعَـزَائمِهم الماضِية في صَدْر من أرادَهَا بكِيَادٍ أو قَصَدَها؛ فكان لهَا بالعُلَماء الظُّهورُ والانتِشار، والذِّكْرُ السَّيَّار، والبَرَكَاتُ المخلَّدَة والآثار؛ ولَها بالمُلُوك العِزُّ والفَخَار، والصَّوْلَةُ التي يَلِينُ لَها الجَبَّار، ويَذِلُّ لِعزَّة المؤمنينَ بِها الكُفَّار، ويُجَلِّلُ وُجوهَ الشِّرك مَعَها الصَّغَار؛ ولَم تَزَل الأجيالُ تَداول على ذَلك والأعْصار، والدُّولُ تَختلف والأمْصَار، واللَّيل يَختَلِف والنَّهار، حتَّى أَظَلَّت الإسْلاَمَ دُوَلُ هذه العِصابة المنْصُورة مِن التُّرْك، المَاحِين بأنوار أسِنَّتِهم ظُلَمَ الضَّلاَلَة والشَّك، القَاطعين بِنِصَالهم المرْهَفَة عَلائقَ المَيْن والإفْك، المُصِيبين بِسهَامهم النَّافِذة ثَغْر الجَهالَة والشِّرْك، المُظْهِرين سِرَّ قَولِه: "لا تَزَالُ طائفةٌ مِن أُمَّتِي"[1] فِيما يتَنَاولُونَه من الأخْذِ والتَّرْك؛ ففَسحَوا خِطَّة الإسلام، وقاموا بالدَّعوة الخِلافيّة أحسَنَ القِيام، وبَثُّوها في أَقْصَى التُّخُوم من الحِجاز والشَّام، واعتَمَدُوا في خِدمة الحَرَمَيْن الشَّريفَيْن مَا فَضَلُوا به مُلُوكَ الأنام، واقْتَعَدوا كُرسِيَّ مِصْرَ الَّذي أَلقَتْ لَه الأقَاليمُ يَدَ الاستِسلاَم، على قِدَم الأيَّام؛ فزَخَر بها منذ دوْلتِهم بَحْرُ العُمرانِ، وتَجَاوَبت فيهَا المَدَارِسُ بتَرْجِيع المَثَانِي والقُرْآن، وعُمِّرَت المَساجِدُ بالصَّلوَات والأذَان، تُكاثِرُ عَددَ الحَصَى والشُّهْبان، وقَامت المآذِن عَلَى قَدم الاستِغْفَار والسُّبحَان مُعْلِنَةً بشِعَارِ

(1) إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لعدوّهم قاهرين لا يضرّهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قالوا: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس". مسند الإمام أحمد (رقم 22320)، وورد برواية أخرى في صحيحي البخاري (3640) ومسلم (1921).

الإيمَـان، وازدَانَ جوُهَـا بالقَـصر فالقَـصرِ والإيـوَانِ فـالإيوان، ونُظّـم دَسْـتُها بالعَزيـز، والظَّاهِر، والأمِير، والسُلْطان؛ فما شِئتَ من مَلِكٍ يخفُقُ العِزُّ في أعلاَمِه، وَتَتوقّـد في لَيْل المَوَاكب نِيرانُ الكَواكِب مِن أسِنَّتِهِ وسِهامِهِ؛ ومن أُسرةٍ للعُلَماء تَتَناوَلُ العِلمَ بوَعْـد الصَّادق ولو تعلّق بأعْنَانِ السَّمَاء، وتُنِير سِرَاجَه في جَوَانب الشُبَه المُدْلَهِمّه الظَّلْمَـاء؛ ومِن قُضَاةٍ يُبَاهُون بالعِلم والسُّؤدَدِ عِندَ الانتِماء، ويَشْتَمِلون الفَضَائل وَالمَنَاقبَ اشتَمالَ الصَّمَّاء، ويَفْصِلون الخُصُوماتِ برأيٍ يفرقُ بينَ اللَّبَنِ والماء.

ولاَ كَدَوْلَةِ السُلْطان الظَّاهِر، والعَزِيز القَاهِر، يَعْسُوب العَصَائب والجماهِر، ومُطلِع أنواعِ العزِّ الباهِر، ومُصَرِّف الكتائِب تُزرِي بالبَحْر الزَّاخِر، وتَقُومُ بالحُجَة للقِسِيّ[أ] على الأَهِلَّة في المَفَاخِر؛ سَيفِ الله المنتَضَى على العَدوّ الكافِر، ورحْمَته المتَكفّلَة للعِبَاد باللُّطْفِ السّاتِر، رَبِّ التّيجَان والأَسِرَّة والمَنَابر، والأَوَاوين العَالِيَة والقُصور الأَزَاهِر، والمُلْكِ المؤيَّد بالبِيضِ البَواتِر، والرِّمَاح الشَّوَاجِر، والأَقلام المرتَضِعَة أخْلاَفَ العِزِّ في مُهُودِ المحَابِر، والمدد الرَّبانيّ الذي فاقَ قُدرةَ القَادر، وسبَقَت به العِنَايةُ للأَوَاخر، سيِّدِ المُلُوك والسَّلاطِين، كافِلِ أَمير المؤمنين، أبو سَعيد، أمدَّه الله بالنَّصْر المُصاحِب، والسَّعْد / المؤَازِر، وعَرَّفَهُ آثارَ عِنَايَتِه في المَوارد والمَصَادر، وأَرَاهُ حُسْنَ العَاقِبة في الأُولَى وسُرُورَ المُنْقَلَب في الآخِر؛ فإنّه لمَّا تَناوَل الأمرَ بِعزائمه وعَزِمه[ب]، وآوَى المُلْكَ إلى كَنفِه العزيز وحَزْمِه، أَصَاب شَاكِلَةَ الرَّأْي عِندَما سدّد مِن سَهْمِه، وَأَوْقَعَ الرَّعَايَا في ظِلٍّ من أَمْنِه، وَعَدْلٍ من حُكْمِه، وقَسم البَأْسَ والجُودَ بَيْنَ حَرْبِه وسَلْمِه؛ ثمّ أَقَام دولَته بالأُمَرَاءِ الذين اختَارَهم باختيار الله

(أ) أ: للقسي، وكذلك في آيا صوفيا لكنها مهملة النقط (ب) أ: وعزائه، آيا صوفيا: بعزيمه وعزامه

لأرْكانها، وشَدَّ بهم أَزْرَهُ في رَفْعِ القَواعِد من بُنْيَانها؛ مِن بَيْنِ مُصَرِّفٍ لِعنانها، متقَدِّم القَدَم على أغيانها، في بِسَاط إيوَانها؛ وربِّ مَشورةٍ تَضيءُ جوانبَ الملْكِ بِلَمعَانِها، ولا يَذهَبُ الصَّواب عَنْ مَكانها؛ ومنفِّذ أحكامٍ يُشْرِق الحقُّ في بَيانها، ويَضُوع العَدْل من أردانها، ونَجِيّ[أ] خلْوَةٍ في المُهِمّ الأعظَم من شانها؛ وصاحب قلَم يُفْضي بالأسْرار إلى الأسِل الجَرّار، فيَشفي الغَليلَ بإغلانها. حَفظ الله جميعَهم، وشَمِل بالسَّعادة والخيرات المبدَأة المُعَادة تابِعَهم وَمَتْبُوعَهم.

ولمَّا سَبَحتُ في اللُّجّ الأَزرَقِ، وخطَوْتُ من أفُقِ المغرِب إلى أفق المشرِقِ، حيث نَهَرَ النَّهار يَنصَبُّ من صَفْحِهِ المُشرق، وشَجَرَةُ الملك الّتي اعتزَّ بها الإسلامُ تَهتَزُّ في دَوْحِهِ المُغرِق، وأزهارُ الفنون تَسْقُط علينَا من غُصْنه المُورِق، ويَنَابيعُ العُلوم وَالفَضَائل تُمِدّ وَشَلَنَا من فُرَاتِهِ المُغْدِق؛ أَوْلَوْني عِنَايَةً وتَشريفاً، وَغَمَروني إحساناً وَمَعْروفاً، وأوسَعُوا بُهْمَتي إيضاحاً، ونكرَتِي تَعْريفاً؛ ثمَّ أَهَّلُوني للقيام بوظيفة السَّادة المالكيّة بهذا الوقف الشَّريف، من حسَنات السُّلْطان صَلاح الدِّين أيّوب مَلِك الجِلاد والجِهاد، ومَاحِي آثار التَّثليثِ وَالرَّفْضِ الخَبيث مِن البِلاد، ومُطهِّر القُدسِ الشَّريف من رِجْس الكُفرِ بعدَ أنْ كانَتِ النَّواقيسُ[ب] والصُّلبانُ فيه بمكان العُقود من الأَجْيادِ، وصَاحِب الأعمال المتقَبَّلة يَسْعَى نُورُها بين يَدَيْه في يوم التَّنادِ؛ فأقامَني السُّلْطان - أيّدهُ الله - لتَدريسِ العِلْمِ بهذا المكانِ، لاَ تقدُّماً على الأعيان، ولاَ رغبةً عن الفُضَلاء من أهل الشّان؛ وإنّي موقنٌ بالقُصور، بين أهل العُصور، مُعتَرف بالعَجْزِ

(أ) آيا صوفيا: ونجي (ب) آيا صوفيا: للنواقيس

عن المَضاءِ في هذا الفَضاء؛ وأنا أرغَبُ من أهل اليد البيضاء، والمعارف المتَّسِعة الفَضاء، أنْ يَلْمَحوا بعينِ الارتِضاء، ويَتَغَمَّدوا بالصَّفح والإغضاء، والبضاعةُ بينهم مُزْجاة، والاعترافُ من اللَّوم ـ إنْ شاء الله ـ مَنْجَاة، والحُسْنَى من الإخوان مُرتَجاة.

والله تعالى يَرفع لمولانا السُّلطان في مَدارج القَبول أعمالَه، ويبلّغه في الدَّارَين آمالَه، ويجعلُ للحُسنَى والمَقرّ الأسْنى، مُنقَلَبه ومآلَه؛ ويُديمُ على السَّادة الأُمراء نعمتَه، ويحفَظُ على المسْلِمِين بانتظام الشَّمل دَولَتهم ودولَتَه، ويُمِدُّ قُضَاةَ المسلمين وحُكّامَهم بالعَوْن والتَّسْديد، ويُمتِّعُنا بانفسَاح آجالهم إلى الأمد البَعيد، ويَشْمَلُ الحاضِرين برضوانه في هذا اليَوم السّعيد، بمنّه وكرمِهِ.

وانفضَّ ذلك المجلسُ، وقد شيَّعتني العُيون بالتَّجِلَّة والوَقار، وتَناجت النُّفوس بالأهْلية للمنَاصب؛ وأَقَمْتُ على الاشتغال بالعِلم وتدريسه، إلى أنْ سَخِط السُّلْطانُ قاضيَ المالكيّة، يومئذٍ، في نَزْعةٍ من النَّزَعات المُلُوكيّة، فعَزله، واستَدعاني للوِلاية في مَجلسه، وبينَ أُمرائه، فتَفاديتُ من ذلك، وأَبَى إلاّ إمضاءَه، وخَلَع عليّ، وبَعث مَعي مَن أجلَسَني بمَقعَد الحكم في المدرسَة الصَّالحيّة في رَجَبٍ ستٍّ وثمانين؛ فقُمتُ في ذلك المقَامَ المحمُود، ووفَّيتُ عَهدَ الله في إقامة رُسُوم الحقّ، وتَحَرّي المَعْدَلَة، حتَّى سَخِطَني مَن لم تُرْضِه أحكامُ الله، ووَقعَ من شَغَبِ أهل الباطل والمِرَاء ما تَقَدّم ذكره.

وكنتُ، عند وصولي إلى مصر، بَعَثتُ عن ولَدي من تُونِس، فَمَنَعَهم سُلْطانُ تُونِس من اللَّحاقِ بي اغتِباطاً[1] بمكاني، فرغِبتُ من السُّلطان أنْ يشفعَ عِندَه في

(1) تقدمت: اعتباطاً بمكاني، ولعل المُراد: الريبة بمكانه

شأنهم، فأجاب، وكتب إليه بالشَّفاعة، فركِبوا البحر من تُونِس فِي السُّفين، فما هو إلاّ أنْ وصَلوا إلى مَرسَى الإسْكَنْدَريّة، فعصفت بهم الرِّياح، وغرِق المركَبُ بمن فيه، وما فيه، وذهَب الموجُود والمولُود؛ فعظُم الأسَف، واختَلَط الفِكر، وأعفَاني السُّلطان مِن هذه الوظيفةِ وأراحَني، وفرغتُ لشأنِي من الاشتغالِ بالعلمِ تَدرِيساً وتأليفاً.

ثمّ فرغ السُّلطان من اختطاط مَدْرستِهِ بين القَصْرَين، وجعَل فيها مَدَافنَ أهلِه، وعَيَّن لي فيها تدرِيسَ المالكيّة، فأنشأتُ خُطبةً أقومُ / بها في يوم مُفْتَتَحِ التَّدرِيس على عَادتِهم في ذلك، ونصُّها:

"الحمدُ لله الذي مَنَّ على عِبادِه، بنعْمة خَلقِه وإيجاده، وصَرَّفهم في أطوار استعبادِه، بيْنَ قَدَرِه ومُرادِه، وعَرّفهم أسْرار توحيده، في مَظاهِر وُجُوده، وآثارَ لُطفِه في وقائع عباده، وعَرَضهم على أمانَةِ التّكاليف ليَبْلُوَهم بِصَادِق وَعْدِه وإيعَاده، ويَسّر كُلاًّ لِما خُلِق لَه، مِن هِدايته أو إضلالِه، وغَيِّه أو رَشَادِه، واستَخلَفَ الإنسانَ في الأرض بَعد أنْ هَداهُ النَّجْدَيْن لصَلاَحِه أوْ فَسَادِه، وعَلّمه مَا لم يَكن يَعلَم، من مَدارك سَمْعه وبَصَرِه والبيان عَمّا في فُؤاده؛ وجَعَل منهم أنبياءَ ومُلُوكاً يُجاهدون في الله حَقَّ جهاده، ويُثابرون على مَرضَاته في اعتمال العَدْلِ واعتمادِه؛ ورفَع البُيُوتَ المقدَّسَة بسُبُحَاتِ الذِّكر وأورَادِه.

والصَّلاةُ والسّلامُ على سَيِّدِنا ومَولانا مُحمَّدٍ، سيِّد البشر، من نَسْل آدمَ وأولادِه، لاَ، بَل سيِّد الثَّقَلَيْن في العالَم من إنسِه وجِنّه وأرواحِه وأجسادِه، لا، بل سيِّد الملائكة والنَّبِيِّين، الذي خَتَم كمالَهم بكَماله وآمَادهم بآمادِه، الذي شرَّف به

الأكوانَ فأضاءت أرجاءُ العالَم لنور وِلادِه؛ وفصَّل له الذكر الحكيمَ تفصيلاً، كذلك ليُثبِّتَ من فؤادِه، وألقَى على قلبِه الروحَ الأمِينَ بتنزيل رَبِّ العالَمين، ليكونَ من المُنذِرين لعبادِه؛ فدعَا إلى الله على بَصيرةٍ بِصادِقِ جِدَاله وجِلادِه، وأنزَلَ عليه النَّصرَ العزيزَ، وكانت مَلائكةُ السَّماء مِن إمدادِه، حتَّى ظهرَ نورُ الله على رَغْم مَن رَغِمَ بإطفائه وإخمادِه، وكَمُل الدِّينُ الحَنيفُ فلاَ تُخشَى - والحمدُ لله - غائلةُ انقِطاعِه ولا نَفَادِه؛ ثمَّ أعَدَّ له من الكرامات ما أعَدَّ في مَعَادِه، وفضَّله بالمَقَامِ المحمودِ في عَرَصَاتِ القِيامة بَيْن أشْهادِه، وجَعَل له الشَّفاعةَ فيمَن انتَظَم في أُمَّته، واعتَصَم بمَقَادِه.

والرِّضَى عن آله وأصحابه، غُيوث رحْمتِه، ولُيوث إنجاده، من ذَوِي رَحِمِه الطَّاهرة وَأهل وِدادِه، المتَزوِّدين بالتَّقوَى مِن خَيْرِ أزوادِه، والمُرَاغمين بِسُيُوفهم مَن جاهَرَ بمكابَرة الحقِّ وعِنادِه، وأرادَ في الدِّين بظُلمه وإلحادِه، حَتَّى استَقام المِيسَمُ في دين الله وبِلادِه، وانتَظَمت دعوةُ الإسلام أقطارَ العالَم، وشُعوبَ الأنَام، مِن عَرَبِه، وعَجَمِه، وفارسِه، ورُومِه، وتُركِهِ، وأكْرادِه.

صَلَّى الله عليه وعليهم صلاةً تُؤذن باتِّصال الخَيْرِ واعْتيادِه، وتُؤَهِّلُ لاقتناءِ الثَّواب وزِيادِه، وسَلَّم كثيراً؛ وعَن الأئمَّة الأربعة، عُلماءِ السُّنَّة المتَّبعة، والفئةِ المجتَبَاة المصْطَنَعة؛ وعن إمامِنا من بَيْنِهم الذي حَمَل الشَّريعةَ وبَيَّنها، وحَرَّر مَقَاصدَها الشَّريفَةَ وعَيَّنها، وتَعرَّض في الآفاق منها والمَطالع، بَيْنَ شُهُبِها اللَّوامَع، فزَيَّنها، نُكتَةُ الهِدايةِ إذا حُقِّق مَنَاطُها، وشَرْطُ التَّحصيل والدِّراية إذا رُوعِيت أشراطُها، وَقَصْدُ الرِّكابِ إذَا ضُرِبَت في طلَبِ العلم آباطُها؛ عالمُ المدينة، وإمامُ هذه الأُمَّة الأَمِينة، ومُقبِسُ أنوارِ النُّبوَّة من

مِشكاتِها المُبِينة، الإمامُ مالك بن أنَس. ألْحَقَهُ الله بِرِضوانه، وعَرَّفَنا بَرَكَةَ الاقتِداء بِهَدْيِه وعِرْفَانِه؛ وعن سَلَف المؤمنِين والمُهْتَدِين، وتابِعِيهم بإحسان إلى يَوم الدِّين.

أمّا بعد؛ فإنّ الخلْق عِيالُ الله يكنُفُهم بلُطفه ورحمته، ويكفُلُهم بفضله ونِعْمَته، ويُيَسِّرهم لأسباب السّعادة بآداب دينه وشِرْعَته، ويَحْمِلهم في العِناية بأُمورهم، وَالرِّعاية لجُمْهُورهم، عَلَى مناهِج سُنّتِه ولَطائف حِكمتِه، ولذلك اختار لَهُم المُلُوكَ الذين جَبَلهم على العَدْل وفِطرته، وهَدَاهم إلى التَّمَسُّك بِكَلِمَتِه، ثمّ فَضّلَهم بِمَا خَوّلَهم من سَعَةَ الرِّزق وبَسْطتِه، واشتِقَاق التَّمكينِ فِي الأَرض من قُدرتِه، فَتسابقُوا بالخيْرات إلى جزائه ومَثُوبَته، وَذَهَبوا بالدَّرجاتِ العُلَى فِي وُفور الأجْر ومَزِيّته.

وإنَّ مولانا السُّلْطان المَلِك الظّاهر، العزيز القاهر، العادل الطّاهر، القائم بأمُور الإسلام عندَما أعْيَى حَمْلُها الأكتَاد، وقُطْب دائرة المُلْك الّذي أَطلَعَ الله من حاشِيَته الأبدالَ وأَنْبَتَ الأَوْتاد، ومُنَفِّق أسواقِ العِزّ بما بَذَلَ فيها / من جميل نَظَره المذْخُور والعتَاد؛ رحمةُ الله الكافلةُ للخَلْق، ويَدَاه المبسوطتَان بالأجَل والرِّزْق، وظِلُّه الوَاقي[أ] للعبادِ بما اكْتَنَفهم من العَدْل والحَقّ، قَاصِمُ الجبَابرة، والمعَفِّي[ب] على آثارِ الأعاظِم مِنَ القَياصِرة، وذَوِي التِّيجَان من التَبَابعَة والأكَاسِرة، أُولي الأقْيال[ج] والأَسَاوِرة، وحائز قَصَب السَبق في المُلُوك عِندَ المُنَاضَلَة[د] والمُفاخَرة، ومُفَوِّض الأُمور بإخلاصه إلى وَلِيّ الدّنيا والآخرة؛ مُؤيّد كلمة المُوَحّدين، ورَافع دعائم الدِّين، وظهير خلاَفة المؤمنين، سُلْطان المسْلمين، أبو سَعيد؛ صَدَّق الله فيما يَقتَفِي من الله ظنونَه، وجعَل النَّصْرَ

(أ) آيا صوفيا: الوافر (ب) آيا صوفيا: والمعفر (بلا نقط) (ج) آيا صوفيا: الابعال (بدون نقط) (د) أ، آيا صوفيا: المناصلة

ظهيرَه، كما جَعَل السّعدَ قَرينَه، والعِزَّ خَدينَه، وكان وَليّه على القيام بأمور المسلمين ومُعينَه، وبلَّغ الأمّة في اتّصال أيّامِه، ودَوام سُلْطانه، ما يَرْجُونَه من الله وَيؤمّلُونه. لمَّا قلَّده الله هذا الأمرَ الذي استوَى له على كرسيّ المُلك، وانتَظَمت عُقود الدُّول في لَبّاتِ الأيّام، وكَانت دَولتُه واسطةَ السِّلك، وجمعَ له الدِّين بولاَية الحَرَمَيْن، والدُّنيا بسُلْطان التُّرك، وَأَجْرَى له أنهارَ مصْرَ مِن الماءِ والمال، فكان مَجَازه فيها بالعَدل في الأخْذ والتَّرك، وجمعَ عليه قُلُوب العِبَاد، فشَهِد سرُّها بمحبّة الله شهادةً خالصةً من الرَّيْب، بريئةً من الشَّكّ، حتَّى استَوى منَ العزّ والمُلك على المَقام الذي رَضيَه وَحَمِدَه، ثمّ تَاقَت نَفْسُه إلى ما عندَ الله، فصرفَ قصدَه إليه واعتَمدَه، وسَارَع إلى فعل الخيرات بنفس مُطمئنّة، لا يَسْأَل عليها أجْراً ولا يكدِّرها بالمِنّة، وأحسَنَ رعايةَ الدِّين والمُلْك تَشهَد بها الإنسُ والجِنّة، لا. بل النَّسَم والأَجِنّة، ثمّ آوَى الخلق إلى عَدلِه تَصديقاً بأنّ الله يُؤْويه يومَ القيامةِ إلى ظلالِهِ المُستجِنّة، ونَافَس في اتّخاذِ المَدارس والرُّبُط لتعليم الكتاب والسُّنّة، وبناء المساجد المقدَّسة يَبْني له بها الله البيوتَ في الجنَّةِ، والله لا يُضيعُ عملَ عاملٍ فيما أظهرَه أو أكنّه.

وَإنّ ممّا أنتجَتْه قَرائحُ هِمّته وعنايتِه، وأَطلعته آفاقُ عَدله وهِدايته، وَوَضَحت شواهدُه عَلَى بُعدِ مَداه في الفَخْر وغايتِه، ونُجح مَقاصده في الدّين وسِعايتِه، هذَا المَصنَع الشَّريف، والهَيْكَل السَّامي المُنيف، الذي راقَ الكواكب حُسْنُه وظَرْفُه، وأعجَزَ الهِمَمَ البشَريّة تَرتيبُه ورَصفُه، لا، بل الكلِمَ السّحريّة تمثيلُه ووَصْفُه، وشمخَ بمُطاولة السُّحب ومُناولَة الشُّهب مارِنُه العزيز وأَنفُه، وازْدَهى بلَبُوس السَّعادة والقَبول مِن الله

عِطْفُه، إنْ فَاخَر بَلَاط الوليد، كان له الفَخار، أو باهَى القَصْرَ والإيوانَ، شَهِد له المِحْرابُ والمَنَار، أو نَاظرَ صَنْعَاء وغُمْدان، قَامَت بحجَّتِه الآثار؛ إنَّما هو بَهْوٌ مِلْؤُه دينٌ وَإسلام، وقَصْرٌ عليه تحيَّةٌ وسَلام، وفَضَاء رَبَّانِيّ يَنشأ في جَوّه للرَّحمة والسَّكِينة ظُلَّةٌ وغَمام، وَكَوكَب شَرْقٍ يُضَاحك وجهَ الشَّمس منه ثغرٌ[أ] بسَّام؛ دفع إلى تَشْييد أركانه، ورَفْعِ القواعدِ من بُنيانِه، سَيْفَ دَولته الّذي استَلَّه من قِرابِ مُلكه وانتَضاه، وسَهْمَه الّذي عَجَم عيدانَ كِنانَته فَارتَضَاه[ب]، وحُسامَ أمره الذي صَقَّل فِرِنْدَه بالعزّ والعَزم وأَمْضاه، وحاكَه المؤيَّدَ الّذي طالب غَرِيم الأيّام، بالأملِ العزيزِ المَرَام، فاستوفَى دَيْنَه واقْتَضاه، الأميرَ الأعزَّ الأعلى جَهَرْكَس الخَليليّ، أميرِ الماخُوريّة بإسطَبْله المنيع، حرَسَه الله من خُطوبِ الأيّامِ، وقسَم له من عِنايَة السُّلْطانِ أوفرَ الحظوظِ والسِّهام؛ فقَام بالخَطْو الوَسَاع، لأمره المُطاع، وأغرَى بها أَيْدِي الإتقان والإبداعِ، واختصَّها من أصنافِ الفَعَلة بالمَاهِر الصَّنَاع، يتَناظرون في إجادةِ الأشكال منها والأوضاع، ويتَناولون الأعمالَ بالهِنْدَام إذا تَوَارت عن قُدْرتِهم بالامتناعِ؛ فكأنَّ العَبْقَرِيّ، يَفْرِي الفرِيّ، أو العَفَاريت، قَدِمَت مِن أَمَارِيت، وكأنّما حُشِرَت الجِنُّ والشَّياطين، أو نُشِرَت القَهَارِمَةُ من الحكماء الأُوَل والأسَاطِين، / جَابُوا لَها الصَّخر بالأذْواد لا بالوَاد، واستنزلوا صُمَّ الأطوادِ على مَطايا الأعْواد، ورَفَعوا سَمكها إلى أقصَى الآماد، على بَعيد المَهْوَى من العِماد، وغَشَّوها من الوَشْي الأزْهر، ومُضَاعَف الصَّدَف والمَرْمَر، ومَائِع اللُّجَيْن الأبيَضِ والذَّهب الأحمر، بِكُلّ مسَهَّم الحواشي حالي الأَبْرادِ؛ وقَدَّروه مساجدَ للصَّلواتِ والأذكار، ومَقَاعدَ للسُّبُحَاتِ بالعَشِيّ والإبكار، ومَجالسَ للتِّلاَوة والاستغفارِ،

(أ) آيا صوفيا: بغر (ب) آيا صوفيا: وارتضاه

فِي الآصال والأسْحار، وزَوايا للتَّخَلّي عن ملاحَظة الأسماعِ والأبصارِ، والتَّعَرُّض للفتوح الرَّبّانيّة والأنوار، ومَدارس لقَدْح زِناد الأفكارِ، ونِتاج المَعارف الأبكار، وصَوغ اللُّجَين والنُّضَار، في مَحَكّ القَرائح والأبصار، تَتَفجَّر يَنابيعُ الحِكْمَةِ في رياضه وبُستانه، وتَتَفتَّحُ أبوابُ الجنَّة من غُرَفه وإيوانه، وتُقْتادُ غُرُّ السَّوابق، من العُلُوم والحقائق، في طَلَق مَيْدانِه، ويَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصّالحُ إلى الله من نواحِي أَرْكانِه؛ وتُوفَّرُ الأجور لغاشيته مُحتَسَبةً، عند الله، في ديوانِه، راجِحَةً في ميزانِه.

ثمّ اختارَ لها من أئمة المذاهب الأربعة أعياناً، ومن شيوخ الحقائق الصُّوفيّة فُرساناً، تَصَفَّح لهم أهلَ مَملكتِه إنساناً إنساناً، وأشاد بقَدْرهم عِنايةً وإحساناً، ودَفَعهم إلى وظائفه توسُّعاً في مذاهب الخير وافتناناً، وعهد إليهم برياضة المريدين، وإفادة المستفيدين، احتساباً[أ] لله وقرباناً، وتقَيُّلاً[ب] لمذاهب المُلوك من قومِهِ واستناناً؛ ثمّ نَظمني معَهم تطوُّلاً وامتِناناً، ونعمةً عظُمت موقِعاً وجلَّت شاناً؛ وأنا وإنْ كنتُ لقصورِ البضاعَة، متأخِّراً عن الجماعةِ، ولقُعود الهِمّة، عيالاً على هؤلاء الأئمّة، فسَمحُهم يغَطّي ويُلحِف، وبمواهب العَفْو والتَّجاوز يَمنَح ويُتحِف؛ وإنّما هي رحمةٌ من مولانا السُّلطان ـ أيّده الله ـ خصّت كما عمَّت، وَوَسَمت أغفال النَّكرَةِ والإهمال وسَمَّت؛ وكَمَلت بها مَواهِب عَطفه وجَبْره وتَمّت؛ وقد ينتَظِم الدُّرُّ مع المَرجان، وتُلتَبَس العَصائب بالتِّيجان، وتُراض المسوّمة العِرابُ على مُسابَقَة الهِجان؛ والكلُّ في نظرِ مَولانا السُّلطان وتَصْريفه، والأهليّةُ بتأهيله والمعرفةُ بتَعريفه، وقِوام الحَياة والآمالِ بلطائفِ إحسانِه وصُنوفِه؛ والله يُوزِعُنا شُكرَ مَعروفه، ويوفِّقُنا للوفاءِ بشَرطِه في هذا الوقْف

(أ) آيا صوفيا: إحساناً (ب) آيا صوفيا: وتقيّاد

وتَكْليفِه، ويَحْمِي حِماه من غِيَرِ الدَّهر وصُروفِه، ويُفِيءُ على مَمالك الإسلام ظِلالَ أعلامه ورماحِهِ وسُيوفِه، ويُرِيه قُرَّةَ العَين في نَفْسِهِ وبَنِيه، وحَاشِيَتِهِ وذَوِيه، وخاصَّتِه ولَفِيفه، بمَنِّ الله وفَضلِه.

ثمّ تَعَاونَ العُداةُ عندَ أميرِ الماخُورِية، القائم للسُّلْطان بأمور مَدرستِه، وأغرَوه بصَدِّي عنها، وقَطْع أسبَابِي من ولايتها، ولم يُمكِن السُّلْطانَ إلاَّ إسعافُه، فأعرَضتُ عن ذلك، وشُغِلتُ بما أنَا عَليْه من التَّدريس والتَّأليف.

ثمّ خرَجتُ عامَ تِسعَةٍ وثمانِين للحجّ، واقتَضَيتُ إذْنَ السُّلْطان في ذلك، فأسعَف، وزَوّد هو وأمراؤه بما أوسَع الحَالَ وَأرْغَدَه؛ وركِبتُ بحرَ السّويس من الطُّور إلى اليَنْبُعِ، ثمّ صَعِدتُ مع المَحْمِل إلى مَكّةَ، فقَضيتُ الفَرض عامَئذٍ، وعُدتُ في البَحْر، فنزلتُ بساحل القُصَيْر، ثمّ سافرتُ منه إلى مدينة قُوص في آخر الصَّعيد، وركِبتُ منها بحرَ النيل إلى مِصر، ولقيتُ السُّلْطان، وأخبرتُه بدُعائي لَه في أماكن الإجابةِ، وأعادَني إلى ما عَهِدتُ من كرامته، وتفيُّء ظِلِّه.

ثمّ شَغرَت وظيفةُ الحديث بمدرسة صَرْغَتْمش[1]، فولاّني إيّاها بدلاً من مَدرسته، وجلستُ للتَّدريسِ فيها في مُحرّمِ أحدٍ وتسعين، وقمْتُ ذلك اليومَ ـ على العادة ـ بخطبةٍ نَصُّها:

---

(1) في أ، آيا صوفيا: صلغتمش، وسيرد بعد قليل: صَرْغَتْمش، وهو الأصح. وهو الأمير سيف الدين صَرْغَتْمش الناصري، وقد بنى مدرسته سنة 756هـ بجوار جامع أحمد بن طولون، ورتّب لها الجرايات والمدرّسين. تاج التراجم 139 وقد أرّخ السيوطي عمارتها في حسن المحاضرة 2: 268، المقريزي: السلوك 3: 22، وانظر: النجوم الزاهرة 10: 328 الدارس في تاريخ المدارس 1: 496 والطبقات السنية 2: 221.

"الحمدُ لله إجلالاً وإعظاما، واعترافاً بحقوق النّعم والتزاما، واقتباساً للمَزيدِ منها واغتناما، وشكراً على الذي أحسَن وتماما، وسِع كلّ شيء رحمةً وإنعاما، وأقام على توحيده مِن أكوانه ووُجوده آياتٍ واضحةً وأعلاَما، وصَرَّف الكائناتِ في قَبضَةِ قُدرتِه ظُهوراً وخَفاءً وإيجاداً وإعْداما، وأعطى كلّ شيء خَلْقَه ثمّ هداه إلى مَصالحه إلهاما، وأودَع مَقدورَ قضائه في مسْطور كتابه، فلا يَجِدُ مَحيصاً عنه ولا مَراما.

والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيّدنا ومولانا مُحَمَّدٍ، نبيِّ الرّحمة الهامية غَماما، والمَلْحَمة التي أراقَت من الكُفْر نجيعاً[أ]، وحطَّمت أصْناماً، والعُروة الوثقى، فازَ من اتخَذها / عِصاماً، أوّل النّبيين رُتبَةً وآخرهم ختاما، وسيّدهم ليلة قاب قوسَين[1] إذ بات للملائكة والرُّسل إماماً؛ وعلى آله وأصحابه الذين كانوا رُكْناً لدعوته وسَناماً، وحَرباً على عدوّه وسِماماً، وصَلُوا في مُظاهرته جِدّاً واعتزاماً، وقطَعوا في ذَات الله وابتغاءِ مرضاتِه أنساباً وأرحاماً، حتَّى مَلأُوا الأرضَ إيماناً وإسْلاَماً، وأوسَعوا الجاحدَ والمُعاند تَبكيتاً وإرغاماً، فأصبَح ثَغر الدّين بَسّاماً، ووجهُ الكُفر والبَاطلِ عَبوساً جَهاماً. صلَّى الله عليه وعليهم ما عاقَبَ ضِياءٌ ظَلاَماً، صلاةً تُرجِّح القَبولَ ميزاناً، وتُبَوِّىءُ عندَ الله مَقاماً.

والرضى عن الأئمةِ الأربعةِ، الهُداة المتَّبَعَة، مَصَابيحِ الأمانِ، ومَفاتيح السُّنَّة الذين أحسنوا بالعلم قياماً، وكانوا للمتَّقِين إماماً[2].

(أ) أ: نجيباً، آيا صوفيا: بجيبا (مهملة باستثناء الأول)

(1) من قوله تعالى عن ليلة المعراج: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [سورة النجم، الآية 9].
(2) من قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [سورة الفرقان، الآية 74].

أمّا بعدُ؛ فإنّ الله سُبحانَه، تكفّل لهذا الدّين بالعَلاء والظُّهور، والعزّ الخالد على الظُّهور، وانفِسَاح خُطَّتِه في آفاق المَعْمور، فلم يزَل دولةً عظيمةَ الآثار، غزيرةَ الأنصار، بعيدَة الصّيت عاليةَ المقدار، جامعةً ـ بمحاسنِ آدابِهِ، وعِزّة جَنابه ـ مَعاني الفَخار، مُنفّقةً بضائعَ علومه في الأقطار[(أ)]، مفجّرة ينابيعَها كالبحار، مُطْلعةً كواكبَها المنيرة في الآفاق أضوأ من النهار؛ ولا كالدَّوْلَة التي استأثرت بقبلة الإسلام ومنابره، وفاخَرت بحُرُمات الله وشَعائره، واعتَمدَت بركَةَ الإيمان ويُمنَ طائره، في تمهيد قَواعده وتأييد ناصِره، وظفِرت ـ في خِدمة الحَرَمين الشّريفَيْن ـ بالمتين من أسباب الدّين وأواصره، واعتَمَلت في إقامة رُسُوم العلم ليكونَ من مَفاخره، وشاهداً بالكمال لأوّله وآخرِه.

وإنّ مولانا السُّلطانَ الملِكَ الظّاهر، العزيزَ القاهِر، شَرَف الأوائل والأواخر، ورَافع[(ب)] لواءِ المعالي والمَفاخر، ربَّ التّيجانِ والأسِرَّة والمنَابر، والمُجَلّي في مَيْدان السّابقين منَ المُلوك الأكابر، في الزّمنِ الغابِر، حامِلَ الأمّة بنظَرِه الرّشيد ورأيه الظّافر، وكافلَ الرّعايا في ظلّه المَديد وعَدْله الوافِر، ومُطْلِع أنوَار العزّ والسّعادة من أفقِه السّافِر؛ واسِطَةَ السِّلك من هذا النّظام، والتّاجَ المحلّى في مَفارق الدّول والأيّام، سَيّدَ المُلوك والسّلاطين، بَركةَ الإسلام والمسلمين، كافلَ أميرِ المؤمنين، أبو سَعيد. أعلَى الله مَقامَه، وكافأَ عنِ الأُمّة إحسانَه الجزيلَ وإنعامَه، وأطالَ في السّعادة والخَيْرات المبتدَأة المُعادة لياليَهُ وأيّامَه؛ لما أوْسَع الدّين والمُلك نظراً جميلاً مِن عِنَايته،

(أ) أ، آيا صوفيا: الأقدار (ب) آيا صوفيا: راجع

وأنامَ الخلْقَ في حِجْرِ كفَالته، ومِهادِ كِفَايته، وأيقظَ لتَفقُّد الأُمور، وصَلاح الخَاصَّة والجمهور، عينَ كَلاءَتِه، كما قلَّده الله رعايته وأقامَ حكامَ الشريعة والسياسة يُوسِعون نِطاقَ الحقِّ إلى غايته، ويُطْلِعون وجهَ العدل سافراً عن آيته، ونَصَب في دَسْت النِّيابة مَن وثِق بعدْله وسياسته، ورضِيَ الدِّينُ بحُسن إيالتِه، وأمَّنه على سُلْطانه ودولتِه، وهو الوفيُّ - والحمدُ لله - بأمانته.

ثمّ صَرَف نَظرَه إلى بيوتِ الله؛ يُعْنَى بإنشائها وتأسيسها، ويُعْمِل النَّظرَ الجميلَ في إشادَتِها وتَقديسها، ويُقرِض الله القَرْض الحسَن في وقفْها وتَحْبِيسها، ويَنصِب فيها لبَثِّ العلم من يُؤَهِّله لوظائفها ودُروسها، فيُضْفِي عليه بِذلك من العناية أفخرَ لَبوسهَا، حتَّى زهت الدَّوْلَةُ بمِلكِها ومصرِها، وفاخَرت الأنامَ بزمانها الزَّاهِر وعَصْرِها، وخضَعت الأواوينُ لإيوانها العَالي وقَصْرِها، فابتَهج العالَمُ سُروراً بمكانها، واهتزَّت الأكوانُ للمُفاخَرة بشأنها، وتَكفَّلَ الرّحمن - لمن اعتزَّ به - الإيمان، وصَلُح على يَده الزّمان، بوُفورِ المَثُوبةِ ورُجْحانِها.

وكان ممّا قد مَنّ به الآن تَدريسُ الحديثِ بهذه المدرَسَة وقْف الأمير صَرْغَتْمَش[1] من سَلَفِ أمراءِ التُّرْكِ، خفَّفَ الله حِسابَه وثقَّل في الميزانِ - يوم يُعْرَضُ على الرّحمنِ - كِتابَه، وأَعْظَم جزاءَه في هذه الصَّدَقة الجَارية وثوابَه، عِنايةً جدّد لِي لباسَها، وإيثَاراً بالنِّعمة التي صَححتُ قِياسَها، وعرفتُ منه أنواعَها وأجناسَها، فامتثلتُ المَرْسوم، وانطلقْت أُقيمُ الرُّسُومَ، وأَشكُر من الله وسُلْطانِهِ الحظَّ المَقسومَ. وَأنا، مَع هَذا،

(1) آيا صوفيا: صلغتمش. انظر ص761، حاشية (1)

مُعْتَرِف بالقُصُورِ، بين أهل / العُصور، مُستعيذٌ بالله وبركَةِ هؤلاء الحُضور، السّادة الصُّدور، أنْ يَجْمَحَ بِي مَركبُ الغرور، أو يَلِج شيطانُ الدَّعوَى والزُّور، في شيء من الأمور.

والله تعالَى ينفَع مولاَنا السُّلطان بِصَالِح أعماله، ويُعَرِّفه الحُسنَى وزيادةَ الحظّ الأسنَى في عاقبتِه ومآلِه، ويُريه في سُلطانِه وَبَنِيه وحَاشيته وذَويه قُرَّةَ عينه ورضَى آمالِه، ويُديم على السَّادة الأمراءِ ما خَوَّلهم من رضَاه وإقبالِه، ويحفظُ المسلمين في هذا الأمر السَّعيد بدوامِه واتِّصاله، ويسدِّدُ قُضاتَهم وحُكَّامَهم لاعتمادِ الحقِّ واعتمالِه، بِمَنِّ الله وإفضَاله.

وقد رأيتُ أنْ أقرِّر للقراءة في هذا الدَّرس، كتابَ المُوَطَّأ للإمام مَالك بن أنس، رضي الله عنه، فإنَّه من أصول السُّنَن، وأُمَّهات الحديث، وهُو معَ ذلك أصلُ مَذهبنا الذي عليه مَدار مَسَائله، ومَناط أحكامه، وإلى آثاره يَرجع الكثير من فِقهه(أ).

فلنَفتَتِحْ الكلامَ بالتَّعريف بمؤلِّفه، رضي الله عنه، ومكانِه مِنَ الأمانة والدِّيانة، ومنزلةِ كتابه المُوَطَّأ من كُتُبِ الحَديث. ثمّ نَذكُر الرِّواياتِ والطُّرقَ التي وقَعت في هذا الكتاب، وكيفَ اقتصَر النَّاسُ منها على رواية يَحْيَى بن يَحْيَى، ونَذكُر أَسَانِيدي فيها، ثمّ نرجعُ إلى الكلاَم على مَتْنِ الكتابِ.

أمّا الإمامُ مالِك، رَضيَ الله عنه، فهو إمام دار الهجرة، وشَيْخ أهل الحِجاز في الحديثِ والفِقه غيرَ مُنازَع، والمقلَّدُ المتْبُوع لأهل الأمْصَار، وخصوصاً أهلَ المغرب.

(أ) آيا صوفيا: ممن تفهمه

قال البُخاريُّ[1]: مالك بن أنس بن أبي عَامر الأصبَحيّ؛ كُنيتُه أبو عبد الله، حَليف عبد الرَّحمن بن عُثمان بن عُبَيد الله القُرشيّ التَّيْميّ، ابن أخي طَلْحةَ بن عُبَيدِ الله. كانَ إماماً، رَوَى عَنه يَحْيَى بنُ سَعِيد. انتهى كلام البُخاريّ.

وجدُّه أبو عامر بن عَمرو بن الحارث بن عُثمان؛ ويقال: غَيْمان بغينٍ معجمة مفتوحة، وياءٍ تَحتانيّة ساكنة، ابن جُثَيل بجيم مضمومة وثاء مثلَّثة مفتوحة، وياء تَحتانيّة ساكنة؛ ويقال: حُثيل أو خُثَيل[أ] بحاء مضمومة مهملة أو مُعجمة، عِوضَ الجيم؛ ويقال: حِسْل بحاء مهملة مكسورة، وسين مهملة سَاكنة، ابن عَمرو بن الحَارِث؛ وهو ذو أَصبَح، وذُو أَصْبَح: بطنٌ من حِمْيَر، وهمْ إخوةُ يَحْصُب، ونَسَبهُم معروفٌ؛ فهو حِمْيَريّ صَلِيبَةً، وقُرَشيٌّ حِلْفاً.

وُلد سنةَ إحدى وتسعين فيما قال ابنُ بُكَير، وأربعٍ وتسعين فيما قال مُحمَّد بن عبد الله بن عَبد الحَكَم؛ ونشأ بالمدينَة؛ وتفقَّه بها. أخذ العِلْم عن رَبيعةِ الرَّأي، وابنِ شِهاب وعن عمِّه أبي سُهَيل، وعن جَماعة ممَّن عاصَرهم من التَّابعين وتابِعِي التَّابعين؛ وجلَس للفُتيَا والحديثِ في مَسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، شاباً يُناهزُ العشرين، وأقام مُفتياً بالمدينة ستِّين سنةً، وأخَذَ عنه الجَمُّ الغفيرُ من العُلماءِ الأعلام، وارتَحلَ إليه من الأَمْصار مَن لا يُحصَى كثرةً؛ وأعظمُ مَن أخذَ عنه الإمامُ مُحمَّد بن

(أ) آيا صوفيا: دثيل أو حثيل

(1) ترجم له البخاري في تاريخه الكبير 7: 310 ولم نهتدِ إلى مصدر النقل.

إدريسَ الشّافِعيّ، وابنُ وَهْب، والأَوْزاعيّ، وسُفيانُ الثَّوريّ، وابنُ المُبارَك، في أمثالِ لهُم وأَنظارٍ[أ].

وتوفّي سنة تسعٍ وسبْعين ومائة باتّفاقٍ من النّاقلين لِوفاته[ب]. وقَال الواقِديُّ: عاش مالكٌ تسعين سنةً، وقال سَحْنُون عن ابن نافع: توفي مالِك ابن سبعٍ وثمانين سَنة، وَلم يختِلف أهلُ زمانِه في أمانَتِه، وإتقانِه، وحفظه، وتَثَبُّته، ووَرَعه؛ حتَّى لقد قال سُفيان بنُ عُيَيْنَة: كُنَّا نَرَى في الحديث الوَارِد عن رَسُولِ الله صلّى الله عليه وسلَّم: "تُضْرب أكباد الإبل فلا يُوجد عَالمٌ أعلمُ من عالِم المدينة": أنّه مالك ابنُ أنس.

وقال الشّافعيّ: إذا جاء الأثرُ فمالكٌ النَّجمُ، وقالَ: إذا جاءك الحديث عن مالكٍ، فشُدّ به يدَيْك؛ وقَال أحمدُ بن حَنبل: إذا ذُكِر الحَدِيث فمالكٌ أميرُ المؤمنين.

وقد ألَّف النّاس في فَضائله كتباً، وشأنُه مشهورٌ.

وأمّا الذي بعثه على تصنيف المُوَطّأ ـ فيما نقل أبو عُمَر بنُ عبد البرّ ـ فهو أنّ عبدَ العزيز بن عبد الله بن أبي سلَمة الماجِشون، عَمِل كتاباً على مِثال المُوَطّأ، ذكر فيه ما اجتَمع عليه أهلُ المدينة، ولم يَذكر فيه شيئاً من الحديثِ، فَأُتِيَ به مالك، ووقف عليه وأعجَبَه، وقال: ما أحسنَ ما عمِل هذا! ولو كنتُ أنا الذي عَمِلتُ لبدأتُ بالآثارِ، ثمّ شددت ذلك بالكلام.

و[ج]قال غيره: حجّ أبو جعفر المنصور، ولقِيه مالك بالمدينة، فأكرمه وفاوضه وكان فيما فاوضَه: يَا أَبا عبد الله، لم يبقَ على وجه الأرض أعلم مِنّي ومنك، وقد شغلتني

(أ) أ: وأنصار، آيا صوفيا: انضار (ب) أ، آيا صوفيا: بوفاته (ج) الواو ساقطة من آيا صوفيا

الخِلافة، فضعْ أنت للنّاسِ كتاباً ينتفعون به، تَجَنَّبْ فيه رُخَص ابنِ عَبّاس، وشَدائد ابنِ عُمَر، وَوَطِّئه للناس توطئةً. / قال مالك: فلقد علّمني التّأليفَ؛ فكانت هٰذِه وأمثالُها من البواعثِ لمالك على تَصنيف هذا الكتاب، فصنّفه وسَمّاه المُوَطّأ، أي: المُسَهَّل. قال الجوهريّ: وَطُؤَ يَوْطُؤُ وَطاءةً، أي: صَار وطيئاً؛ ووطَّأتُه تَوطِئةً؛ ولا يُقَال: وطَّيْتُه. ولمَّا شُغِل بتَصنيفه أخَذَ النّاسُ بالمدينة يومئذٍ في تَصْنيف مُوطآت، فقال لِمالكٍ أصحابُه: نَراكَ شَغَلت نفسك بأمرٍ قد شَرَكَك فيه النّاس؛ وأُتِيَ بِبَعْضِها فنظرَ فيه، ثمّ طرحه منْ يَدِه وقال: ليُعلَمَنَّ أنّ هٰذا لا يرتفِعُ منه إلاّ ما أُرِيد به وجهُ الله؛ فكأنَّما أُلْقِيت تلك الكُتُب في الآبارِ، وما سُمِع لشيءٍ منها بعدَ ذلك ذِكر.

وَأقبل مَالك عَلَى تهذيب كتابِه وتَوطئته؛ فيُقَال: إنّه أكمَلَه في أربعين سنةً؛ وتلقَّت الأمّة هذا الكتابَ بالقَبولِ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، ومن لَدن صُنّف إلى هَلُمَّ، وطالَ ثَناء العُلماء في كلّ عصْرٍ عليْه، ولم يَختلف في ذلك اثنان. قال الشّافعيُّ، وعبْدُ الرّحمن بن مَهْديّ: ما في الأرضِ كِتابٌ بعْد كتابِ الله أنفعَ، - وفي رواية: أصحَّ، وفي رواية: أكثَرَ صَواباً - من مُوَطّأ مالك.

وقال يُونس بن عَبْد الأعلَى: ما رأيتُ كتاباً أُلِّف في العلم أكثَرَ صَواباً من مُوَطّأ مالِك.

وأمّا الطُّرقُ والرِّواياتُ التي وقعتْ في هذا الكتاب، فإنَّه كتَبَه عن مالك جماعةٌ، نُسِبَ المُوَطَّأُ إليهم بتلك الرِّواية، وقيل مُوطّأُ فلان لرَاوِيه عنه؛ فمنها: مُوطّأُ الإمام مُحَمَّد بن إدريس الشّافعيّ [أ]، ومنها موطأ عبد الله بن وَهْب، ومنها مُوَطّأُ عبد الله

(أ) ساقطة من آيا صوفيا

ابن مَسْلَمة القَعْنَبيّ، وَمِنها مُوَطَّأ مطَرّف بن عبد الله اليَساريّ نسبةً إلى سُلَيمان بن يَسَار، ومنها مُوَطَّأ عبد الرَّحمن بن القَاسِم، رَواه عنه سَحْنون بن سَعيد؛ ومنها مُوَطَّأ يَحْيَى بن يَحْيَى اللَّيْثيّ الأنْدَلُسيّ، رحل إلى مالك بن أنس من الأنْدَلُس، وأخذ عَنه الفقهَ والحديث، وَرَجَع بعلمٍ كثيرٍ وحدِيثٍ جَمّ، وكان فيما أخَذَ عنه المُوَطَّأ، وأدخلَه / الأنْدَلُس [أ] والمَغرب، فأكبَّ النَاسُ عليه، واقتَصَروا على روايتِه دونَ ما سِواها، وعَوَّلوا على نَسَقِها وترتيبها في شَرْحِهم لكتاب المُوَطَّأ وتفاسيرِهم، ويُشيرون إلى الرِّوايات الأخرَى إذا عرضت في أمكنتها، فهُجِرت الرِّوايات الأخرى، وسائرُ تِلك الطُّرق، ودَرَست تلك المُوَطَّآت إلاّ مُوَطَّأ يَحْيَى بن يَحْيَى، فروايته أخذ النَّاس في هذا الكتاب لهذا العهد، شرقاً وغرباً.

وأمّا سَنَدي في هذا الكتاب المتَّصل بيَحْيَى بن يَحْيَى، فعَلَى ما أصِفُه: حدثني به جماعةٌ من شيوخِنا رحمة الله عليهم.

منهم: إمام المالكيّة، قاضي [ب] الجماعة بتُونِس، وشيْخ الفُتْيا بها، أبو عَبْد الله، مُحَمَّد ابن عبد السَّلام بن يُوسُف الهَوّاريّ، سَمِعتُه عليه بمنزلِهِ بتُونِس، من أوّله إلى آخره.

ومنهم: شيخ المُسْنِدِين بتُونِس، الرَّحَّالة أبو عبد الله مُحَمَّد بن جَابر بن سُلطان القَيْسيّ الوادي آشِيّ [ج]، سمعتُ عليه بَعضَه، وأجازَني بِسائِره.

ومنهُم: شيْخ المحَدِّثين بالأنْدَلُس، وكبيرُ القُضَاةِ بها، أبو البركات، مُحَمَّد بن مُحَمَّد ابن مُحَمَّد ـ ثلاثة مِنَ [المحمّدين] [د] ـ [بن] [هـ] إبراهيم بن الحاجّ البَلَّفِيقيّ، لقيتُه بفاس

(أ) آيا صوفيا: إلى الأندلس (ب) آيا صوفيا: وقاضي (ج) آيا صوفيا: الواد ياش (د) أ: المحدثين (هـ) ساقطة من أ

سنةَ ستٍّ وخمسين من هذه المائة الثّامنة[أ]، مَقْدَمَهُ من السِّفَارة بين[ب] مَلك الأنْدَلُس وملك المغرب، وحضَرتُ مجلسَه بجامع القَرَوِيِّين من فاس، فسَمعتُ عليه بعضاً من هذا الكتاب، وأجازني بسَائره، ثمّ لقيتُه لِقَاءةً أخرى سنة ثنتين وستّين، اسْتَقْدَمَه مَلِكُ المغرب، السُّلْطانُ أبو سالم ابن السُّلْطان أبي الحسَن للأخذ عنه[ج]، وكنتُ أنا القَارِيء[د] فيما يأخذُه عنه، فقرأتُ عليه صَدراً من كتاب الموَطَّأ، وأجازَني بسَائره إجازةً أُخرى.

ومنهم: شيخُ أهلِ المغربِ لعَصْرِه في العُلُوم العقْليَّة، ومُفيدُ جماعتهم، أبو عَبْد الله، مُحَمَّد بن إبراهيم الآبِليّ، قرأتُ عليه بَعضَه، وأجازني بِسائره، قالوا كلُّهم: حدَّثنا الشَّيخ المُعَمَّر، أبو مُحَمَّد، عبد الله بن مُحَمَّد بن هارون الطَّائيّ[هـ]، عن القاضي أبي القاسم، أحمد بن يزيد بن بَقِيّ، عن الشَّيخ أبي عبد الله، مُحَمَّد بن عبد الحقّ الخَزرَجيّ.

وحدَّثني به أيضاً شيخُنا أبو البركات، عن إمام المالكيّة ببِجايَة، ناصر الدِّين، أبي علي، مَنْصُور بن أحمد بن عبد الحقّ المَشَدَّاليّ، عن الإمام شَرَف الدِّين، مُحَمَّد بن أبي الفَضْل المُرْسِيّ، عن أبي الحسن، علي بن موسى ابن النَّقراتِ[و]، عن أبي الحَسَن، علي بن أحمد الكِنَانيّ. قال الخَزْرَجيّ، والكنانيّ: حدَّثنا أبو عبد الله مُحَمَّد بن فرح، مولى ابن الطَّلاَّع، عن القاضي أبي الوليد، يونس بن عبد الله بن مُغيث بن الصَّفَّار، قاضي الجماعة بقُرْطُبَة.

(أ) أ: الثانية، تحريف، آيا صوفيا: الثانية (بدون نقط) (ب) أ، آيا صوفيا: في السفارة من (ج) أ: عليه (د) آيا صوفيا: القارىء له (هـ) آيا صوفيا: الصابى (بلا نقط) (و) آيا صوفيا: السفرات (بدون نقط)

وحدَّثني به أيضاً شيخُنا / أبو عبد الله بن جَابر، عن القاضِي أبِي العبَّاس، أحمد ابن مُحَمَّد بن الغَمَّاز، عن شيخه أبِي الرَّبيع، سُلَيمان [أ] بن مُوسَى بن سالِم الكَلاَعِيّ، عن القَاضي أبِي القاسِم عَبْد الرَّحمن بن حُبَيْش، وأبِي عبد الله، مُحَمَّد بن سَعيد بن زَرْقُون، شَارح كتاب المُوَطَّأ، قال ابن زَرْقُون: حدَّثنا به أبو عَبد الله الخَوْلانِيّ، عن أبِي عَمْرو، عُثْمانَ بن أحمد القَيْجَاطِيّ، وقال ابن حُبَيْش: حدَّثنا به القَاضي أبو عبد الله بن أَصْبَغ، ويونسُ بن مُحَمَّد بن مُغيث، قَالا: قرأناهُ على أبِي عَبْد الله، مُحَمَّد ابن الطَّلاَّع. وقال ابن حُبَيش أيضاً: حدَّثَنا به أبو القاسِم، أحمد بن مُحَمَّد بن ورْد، عن القاضي أبِي عبد الله، مُحَمَّد بن خَلَف بن المُرَابِط، عن المُقْرِىء أبِي عُمَر، أحمد ابن مُحَمَّد بن عبد الله المَعَافِرِيّ الطَّلَمَنْكِيّ؛ قال القاضي أبو الوليد بن مُغيث، والقَيْجَاطِيّ، والطَّلَمَنْكِيّ: حَدَّثنا أبو عيسَى، يَحْيَى بن عبد الله بن يَحْيَى، عن عَمِّ أَبيه أبِي مروان، عُبَيد الله [ب] بن يَحْيَى، عن أبيه يَحْيَى بن يَحْيَى.

وقال الطَّلَمَنْكِيُّ: حدَّثَنا أبو جعفر، أحمد بن مُحَمَّد بن حُدَيْر البَزَّاز، قال: حدَّثنا أبو مُحَمَّد، قاسم بن أَصْبَغ، قال: حدَّثنا أبو عبد الله، مُحَمَّد بن وضَّاح، قال: حدَّثنا يَحْيَى بن يَحْيَى، عن مالِك، إلاّ ثلاثةَ أبوابٍ من آخر كتابِ الاعْتكاف، أوَّلُها: خروج المُعْتكف إلى العيدِ، فإنَّ يَحْيَى شَكَّ في سَماعِها عن [ج] مالِك، فسمعها من زياد بن عبد الرَّحمن، الملقَّب: شَبْطون، عن مالِكٍ.

ولِي فِي هذا الكتابِ طُرُقٌ أخرى، لم يَحْضرْني الآنَ اتِّصالُ سَندي فيها.

(أ) آيا صوفيا: سلمان (ب) آيا صوفيا: عبد الله (ج) آيا صوفيا: من

فمنها: عن شَيخنا أبي مُحَمَّد عبد المُهَيْمِن بن مُحَمَّد [أ] الحَضْرَميّ، كاتب السُّلْطان أبي الحسَن، لقيتُه بتُونِسَ عندَ استيلاءِ السُّلْطان عليها، وهو في جملتِه سنَةَ ثمانٍ وأربعين، وحضرتُ مجلسَه، وأخذتُ عنه كثيراً، وسمعتُ عليه بعضَ المُوَطّأ، وأجازني بالإجازة العامَّة، وهو يَرويه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزُّبَيْر، وعن شيخِه الأستاذِ أبي إسحاق الغافِقيّ، وعن أبي القاسِم القَبْتُوريّ، وجماعةٍ من مَشْيَخَة أهل سَبْتَة؛ ويتَّصل سنَدُه فيه بالقاضي عِياض، وأبي العَبَّاس العَزَفِيّ، صاحب كتاب الدُّر المُنَظَّم في المَوْلِد المُعَظَّم.

ومنها: عن شيخنَا أبي عبد الله اللَّوْشيّ[1]، خطيب الجامع الأعظم بغَرْناطَة، سمعتُ عليه بعضَه وأجازني بسائِره، وهو يَرويه عن الأستاذ أبي جَعفر بن الزُّبَير، عن القاضي أبي عبَد الله بن بكّار، وجماعةٍ من مَشيخة أهل الأنْدَلُس، ويتَّصل سَنَده فيه بالقاضي أبي الوليد البَاجِيّ، والحافظ أبي عُمَر بن عَبد البَرّ، بسَندها.

ومنها: عن شيخنَا المكتِّب، أبي عبد الله، مُحَمَّد بن سعد بن بُرَّال الأنصاريّ، شيخ القراءات بتُونس، ومُعَلِّمي كتابَ الله؛ قرأتُ عليه القرآن العظيم بالقِراءات السَّبْع، وعَرضتُ عليه قَصيدَتَي الشّاطِبيّ في القراءات، وفي الرَّسْم، وعَرَضْتُ عليه

(أ) بعدها في آيا صوفيا: بن عبد المهيمن

(1) في أ، آيا صوفيا: الكوسيّ، وقد سكت العلاّمة الطنجيّ ـ على غير عادته ـ عن التعريف به في نشرته لرحلة ابن خلدون، أو التّنبيه عليه، وهو معذور لانعدام ذكر الكوسيّ في المصادر التراثية كافة، وقد أدّانا البحث عمّن ولي الخطابة بجامع غرناطة إلى معرفة الرجل الذي أخذ عنه ابن خلدون رواية الموطأ، وهو محمد بن يوسف بن عبد الله بن محمد اليَحْصُبيّ اللّوشيّ الغرناطيّ، مولده سنة 692هـ ووفاته سنة 773هـ، ترجم له ابن حجر العسقلاني قال"سمع على أبي جعفر بن الزبير السنن الكبرى للنسائي والشفا والموطأ... وأقرأ القرآن وخطب بالجامع وعقد مجلس السماع للموطأ مُدّة". انظر: الدرر الكامنة 4: 66، شذرات الذهب 8: 394

كتابَ التَّقَصِّي لابن عبد البَرّ، وغَيرَ ذلك، وأجازني بالإجازة العامَّة، وفي هذه بالإجازة الخاصَّة، وهو يَرْوِي هذا الكتاب عَن القاضي أبي العبَّاس أحمد بن مُحَمَّد بن الغَمَّاز، وعن شيْخِه أبي العبَّاس، أحمد بن موسَى البَطَرْنيّ، بسَنَدهما.

ومنها: عن شيخنا الأُستاذ أبي عبد الله، مُحَمَّد بن الصَّفَّار المَرَّاكُشيّ، شيخ القراءات بالمغرب، سَمِعتُ عليه بعضَ هذا الكتاب بمجلس السُّلْطان أبي عُثْمان مَلِك المَغرب، وهو يُسْمِعُه إيّاه، وأجازَني بسَائره؛ وهو يَرويه عن شَيْخه مُحدِّث المَغْرِب أبي عَبد الله، مُحَمَّد بن رُشَيد الفِهريّ السَّبْتيّ، عن مشْيَخَة أهل سَبْتَة، وأهل الأنْدلُس، حَسبَما ذلك كلّه[1] مذكور في كُتبِ رواياتِهم وطُرقِ أسَانيدهم، إلاّ أنَّها لم تَحضُرني الآن، وفيما ذكرناه كفايَة، والله يوفّقنا أجمعين لطاعتِه، وهَذا حينَ أبتَدي، وبالله أهتَدِي.

وانفضَّ ذلك المجلس، وقد لاَحَظتني بالتَّجِلّة والوَقار العُيون، واستَشْعرتْ أهْلِيَّتي للمناصب القُلُوب، وأخلَص النَّجِيَّ في ذلك الخاصَّةُ والجُمهُور، وَأنَا أنتابُ مَجلسَ السُّلْطان في أكثَر الأَحيان، لِتأدية الوَاجب من التَّحيَّة والمُشَافهة بالدُّعاء، إلى أنْ سَخِط السُّلْطانُ قَاضيَ المالكيَّة يومئذٍ في نزعةٍ من النَّزَعات المُلُوكـيَّة، فأبعَدَه، وأخَّره عن خُطَّة القَضاء في رجبِ ستٍّ وثمانين وسبعمائة، ودَعَاني للوِلاَية في مَجْلسه وبينَ أمرائه، فتَقَاديتُ من ذَلك، وأبَى إلاّ إمضَاءه، وخلَع عليّ، وبَعثَ الأمراءَ معي إلى مَقْعد الحكم بمدرسة القَضاء؛ فقُمت في ذَلك المَقامَ المحمُود، ووفَّيتُ عهدَ الله وعهدَه في إقامة رُسُوم الحقّ، وتَحرِّي المَعْدِلة، حتَّى سَخِطني مَن لم تُرضِهِ أحكامُ الله، ووقع في

(أ) ساقطة من آيا صوفيا

ذلك ما تقدّم ذكره، وكثُرَ شغَبُ أهْلِ البَاطِل وَالمِراء، فأعفاني السُّلْطان منها لحَوْلٍ من يومِ الوِلاَية، وكان تَقَدَّمَها وصولُ الخَبرِ بغَرَق السَّفِين / الواصِل مِن تُونِس إلى الإِسْكَنْدَرِيّة، وتلَفِ المَوْجُود والمولودِ، وعَظُمَ الأَسَفُ، وحَسُنَ العزاءُ، والله قادرٌ على ما يَشَاء.

ثمّ خرجتُ عامَ تسعةٍ وثمانين لقَضاءِ الفَرْضِ، وركبْتُ بحرَ السّويس من الطّورِ إلى اليَنْبُع، ورافقتُ المَحْمِل إلى مَكّة، فَقَضَيتُ الحجَّ عامَئِذٍ، وعدتُ إلى مِصر في البَحْر كما سافرت أوّلاً.

وشغَرَتْ وظيفةُ الحديث بمدرسَةِ صَرْغَتْمش[أ]، فولاَّني السُّلْطانُ إيّاها بدلاً من مدْرَستِه في مُحَرّمِ أحد وتِسعين، ومضيتُ على حَالي في الانقباضِ، والتّدْريس والتّأْليف، حتَّى ولاَّني خَانقّاه بَيْبَرس، ثمّ عزَلَني عنها بعدَ سَنةٍ أو أزيدَ، بِسَببٍ أنا ذاكِرهُ الآنَ.

ولايةُ خَانقاه بَيْبَرس، والعزلُ عنها[ب]

لمّا رجعتُ من قضاءِ الفَرْضِ سَنةَ تسعين، ومَضَيتُ على حَالي من التّدْريس، والتأليف، وتعاهُدِ السُّلْطان باللّقاءِ والتّحِيّة والدُّعاءِ، وهو ينظُر إليّ بعَيْنِ الشّفَقةِ، ويُحسن المَوَاعِدَ، وكانت بالقاهرة خَانقاه شَيَّدَها السُّلْطانُ بَيْبَرس، ثامِن مُلُوك التُّرك الذي استبَدَّ على النّاصِر مُحَمّد بن قَلاوون[ج] هُوَ ورفيقُه سَلار، وأنِفَ النّاصرُ من استِبدادِهما، وخَرج للصَّيد، فلمّا حَاذَى الكَرَك امتَنَع به، وتركَهم وشأنَهم، فجلَس

(أ) في أ، آيا صوفيا: صلغتمش، انظر ص761 حاشية (1) (ب) آيا صوفيا: منها (ج) في أ، آيا صوفيا: قلاون

بَيْبَرس على التَّخْتِ مَكانَه، وكاتَبَ النَّاصرَ أمراءُ الشَّامِ مِن مَماليك أبيه، واستَدْعَوه للقِيام مَعَه، وزَحَفَ بهم إلى مِصر، وعادَ إلى سُلْطانِه، وقَتَل بَيْبَرْس وسَلار سنة ثمانٍ وسبعمائة. وشيّد بَيْبَرس هذا أيّام سُلْطانِه داخلَ بابِ النَّصْر من أعظمِ المصانعِ وأحفلها، وأوفرها رَيْعاً، وأكثرها أوقافاً، وعَيَّن مشيختها، ونظرها لمن يستَعدّ له بشَرْطِه في وَقْفِه، فكان رِزقُ النَّظَر فيها والمشيَخة واسعاً لمن يتولّاه، وكان ناظرَها، يومئذٍ، شَرفُ الدِّين الأشقر، إمامُ السُّلْطان الظَّاهر، فتُوفِّيَ عند مُنْصَرَفي من قضاءِ القَرْضِ، فولّاني السُّلْطانُ مكانَه تَوسِعةً عليّ، وإحساناً إليّ، وأقمتُ على ذلك إلى أنْ وقعت فتنةُ النَّاصِريّ.

❁ فتْنَةُ النّاصِريّ، وسِيَاقةُ الخبر عنها [1]،

بعد تقديم كلامٍ في أحوال الدُّول، يليق[أ] بهذا الموْضع، ويُطلعُك[ب] على أسرارٍ في تنقُّل أحوال الدُّوَل بالتَّدريج إلى الضَّخامة والاستيلاء، ثمّ إلى الضَّعف والاضمحلال، والله بالغ أمرِه

وذلك أنّ الدُّول الكُلِّيَّة، وهي الّتي تتعاقبُ فيها الملُوكُ واحداً بعدَ واحدٍ، في مدّةٍ طويلة، قائمين على ذلك بعصَبيّة النَّسب أو الوَلاء، وهذا كان الأصلَ في استيلائهم وتغلُّبهم، فلا يزالون كذلك إلى انقراضهم، وغلَب مستَحقّين آخرين يَنْزَعونَهُ من أيديهم بالعَصبيّة التي يقتدرون بهَا على ذلك، ويَحُوزون الأعمالَ التي كانت بأيدي الدَّوْلة

(أ) أ: تليق (ب) أ: وتطلعك

(1) بسط ابن خلدون خبر هذه الفتنة في العبر 10: 536.

الأُولى؛ يَفُضُّون [أ] جبايتَها بينهم على تفاضل البأس، والرُّجولة، والكثرة في العِصابة أو القلّة؛ وهم على حالهم من الخشونة لمعَاناة البأس، والإقلال من العَيْشِ، لاستصحابِ حال البَداوةِ، وعدم الثَّروة من قبل. ثمّ تَنمو الثَّروةُ فيهم بنُمُوّ الجباية التي ملكوها، ويزيِّن حُبُّ الشَّهوات للاقتدار عليها، فيَعظُمُ التَّرفُ في الملابِسِ، والمطاعم، والمساكن، والمراكب، والممالك، وسائر الأحوال، ويتزايد شيئاً فشيئاً بتَزايُد النِّعم، وتتَّسِعُ الأحوال أوسعَ ما تكون، ويقْصُر الدّخل عن الخَرج، وتَضيقُ الجِباية عن أرزاق الجُند وأحوالهم، ويَحصل ذلك لكلّ أحدٍ مِمّن تحتَ أيديهم، لأنّ النّاسَ تبَعٌ لملُوكِهم ودَولتهم، ويُراجِع كلُّ أحدٍ نَظَره فيما هو فيه من ذلك، فيَرجع وراءَه، ويطلب كِفاءَ خَرْجِه بدَخْلِه.

ثمّ إنّ البَأسَ يَقِلُّ من أهل الدَّوْلَةِ بما ذهب لهم من الخشُونة، وما صاروا إليه من رِقّة الحاشية، والتنعُّم، فيتطاولُ مَن بقِيَ من رؤساءِ الدَّوْلَة إلى الاستبداد بها غيرةً عليها من الخللِ الواقعِ بها، ويستعدّ لذلك بما بَقِي عنده من الخُشونةِ، ويحمِلهُم على الإقلاعِ عن التَّرفِ، ويسْتَألُف لذلك العصابةَ بعشيره أو بمَن يدعوه لذلك، فيستَوْلي على الدَّوْلَةِ، ويأخذُ في دَوائها من الخلَل الواقعِ، وهو أحقُّ النّاس به، وأقربُهم إليه، فيصير المُلكُ له، وفي عَشيرِهِ؛ وتصير كأنّها دولة أخرى، تَمرُّ عليها الأوقاتُ، ويقعُ فيها ما وقعَ في الأولى، فيَسْتولي آخَرُ منهم كذلك، إلى أنْ / تنقرضَ الدَّوْلَة بأَسْرها، وتخرج عن القَوم الأَوّلين أجمع. وتأتي دولةٌ أخرى مُباينة لعصابةِ هؤلاءِ في النَّسب، أو الوَلاء. سُنَّةُ الله في عبادِه.

(أ) آيا صوفيا: يفيضون (الحروف الثلاثة الأولى مهملة)

وكان مَبْدأ هذه الدَّوْلَةِ التُّركيَّةِ، أنَّ بَني أيُّوب لمَّا ملكوا مصرَ والشَّام، كما قَصصناه عَليك في أخبارِهم، واستقلَّ بها كبيرُهم صلاح الدِّين، وشُغِل بالجهاد وانتزاع القِلاع والحصُون من أيدي الفِرَنْجِ الّذين مَلكوها بالسَّواحلِ، وكان قليلَ العِصابة، إنَّما كان عَشيرُه من الكُرْد يُعْرَفُونَ ببني هَذَبانَ[1]، وهم قليلون، وإنَّما كَثَّر منهم جَماعةُ المسلمين بهمَّة الجهادِ الذي كان صَلاح الدِّين يدعو إليه، فعَظُمت عصابتُه بالمسْلمين، وأسْمَع دَاعيَه، ونصَر الله الدِّينَ على يَده، وانتَزَعَ السَّواحِل كلَّها من أيدي نَصارى الفِرَنْجِ، حتَّى مَسْجدِ بَيْتِ المَقْدِس، فإنَّهم كانوا مَلكوه، وأفحشوا فيه بالقتْلِ والسَّبي، فأذهبَ الله هذه الوَصْمَةَ على يدِ صَلاحِ الدِّين.

وانقسمَ مُلْك بني أيُّوب بعدَه بين وَلده، وولد أخيه، واستَفْحل أمرُهم، واقتَسموا مدُن الشَّام ومصْرَ بينَهم، إلى أنْ جاء آخِرُهم الصّالحُ نَجْمُ الدِّين أيُّوب ابن الكامل مُحَمَّد بن العادل أبي بكر أخي صَلاحِ الدِّين، وأراد الاسْتكثار من العِصابة لحمايةِ الدَّوْلَةِ، وإقامة رُسومِ المُلْك، وأنّ ذلك يَحصُل باتّخاذ المماليك، والإستكثار منهم، كما كان آخراً في الدَّوْلَةِ العبَّاسيَّةِ ببغدادَ؛ وأخذ التُّجَّارُ في جَلْبهم إليه، فاشترَى منهم أعداداً، وأقامَ لتربيتهم أسَاتيذَ معَلّمين لحرفَة الجُنديَّةِ، من الثّقافة والرَّمي، بعدَ تعليم الآداب الدِّينيّة والخُلقيّة، إلى أنْ اجتمع له منهم عددٌ جَمٌّ يناهز الألف؛ وكان مقيماً

(1) أوردها الطنجيّ في نشرته المستقلّة للكتاب ص 324: "هنان"، وقدَّر أن المثبت في إحدى النسخ "هدبان" تصحيف، فأثبت ما أورده ابن خلكان (وفيات الأعيان 7: 139)، والصواب ما أثبتناه، وقد تقدم ذكرهم في أكثر من موضع من العبر (الجزء 5 عند الكلام على ابتداء دولة بني حمدان، وفي الجزء 8: 539)، والمثبت يوافق صورة الأرض لابن حوقل 370، والكامل لابن الأثير 9: 382، وانظر أيضاً: محمد أمين زكي: خلاصة تاريخ الكرد وكردستان 1: 130

بأخوازِ دِمْياط[1] في حمايةِ البلاد من طوارقِ الفِرنْجِ المتغلّبين على حصنها دِمْياط، وكان أبوه قد اتّخذ لنُزُلِه هنالك قلعةً سمّاها المنصورةَ، وبها توفي - رحمه الله - وكان نجم الدِّين نازلاً بها في مُدَافعة سَاكِني دِمْياط من الفرنج، فأصابه هنالك حَدثُ الموت، وكان ابنه المعظَّم تُورَنْشاه نائباً في حِصْن كَيفا من ديار بَكر وَرَاءَ الفُرات، فاجتمع الجندُ على بَيْعتهِ، وبَعثوا عنه، وانتظروا، وتَفَطَّن الفرنجُ لشأنهم، فهجموا عليهم، واقتتلوا، فَنَصَر الله المسْلمين، وأُسِر مَلِك الفرنج رَيْد إفرَنْس، فبعثوا به إلى مِصر، وحُبِس بدار ابن لُقمان، إلى أنْ فَادَوْه بدِمْيَاط، كما هو مذكور في أخبَار بني أيُّوب. ونصبوا - للمُلْك، ولهذا اللَّقَّاء - زَوجةَ الصالح أيُّوب واسمُها شَجَرُ الدُّر، فكانت تحكم بين الجُنْد، وتكتُب على المراسم، ورَكِبت يوم لقاءِ الفرنج، تحت الصَّناجقِ، والجُنْدُ مُحْدِقون بها، حتَّى أعزَّ الله دينَه، وأتمّ نصرَه.

ثمّ وصَل تُورَنْشاه المعظَّم، فأقاموه في خُطَّة المُلْك مكان أبيه الصَّالح أيُّوب، ووَصَل معه مماليكُ يُدِلُّون بمكانهم منه، ولهم به اختصاصٌ، ومنه مكان؛ وكان رُؤساءُ التُّرك، يومئذٍ، القائمون بالدَّوْلَةِ من عَهد أبيه وجدِّه، أَقْطايَ الجَمْدار، وأَيبَك التُّرْكُمانيّ، وقَلاوُن الصَّالحيّ، فأَنِفُوا من تصرّفات مماليك تُورَنْشَاه، واستغلائهم بالحظّ من السُّلْطان، وسَخِطوهم وسخطوه، وأجمعوا قتلَه، فلمّا رحل إلى القَاهرة اغتالوه في طريقه بفَارسْكُور، وقتلوه، ونصبُوا للأمر أَيبَك التُّرْكُمانيّ منهم، واسْتَحْدثوا هذه الدَّوْلَة

(1) كتبها ابن خلدون في أ حيثما ترد بالمعجمة "ذمياط"، وأثبتناها بالمهملة كما في المصادر، وقد نبّه العبدري (الرحلة 133) أنّ أكثر الناس يعجمها والإعجام خطأ، وأفردها ياقوت (معجم البلدان 2: 472-475) في حرف الدال ولم يذكرها على الوجه الذي أورده ابن خلدون.

التُّركيَّة كما شرَحْناه في أخبارها؛ ومَلك بعد أيبَك ابنُه عليّ المنصور، ثمّ مولاه قُطُز، ثمّ الظَّاهر بَيْبَرس البُندُقْداري[أ]. ثمّ ظهرَ أمرُ الطَّطَر[ب]، واستَفْحل مُلكهم، وزَحَف هُولاكُو بن طولي بن جِنكيزخَان من خُراسان إلى بَغداد، فملكها، وقتل الخليفةَ المُسْتعْصِم آخر بني العبَّاس، ثمّ زَحَف إلى الشَّام، فملك مدُنَه وحواضَره من أيدي بني أيّوب، إلى أن استوعَبها، وجاءه[ج] الخبرُ بأنّ بَرَكَة صَاحب صَرَايْ شريكَه في نَسَب جِنكيزخَان، زَحَف إلى خُراسانَ، فامتعضَ لذلك، وكرَّ راجعاً، وشُغِل بالفِتْنةِ معه إلى أنْ هلكَ.

وخرجَ قُطُزُ من مصرَ عندما شُغل هُولاكُو بفتنة بَرَكَة، فملَكَ الشَّام كلَّه، أمصارَه ومُدنَه، وَأصارَه للتُّرْكِ موالي بني أيُّوب، واستفحلت دولةُ هؤلاءِ المماليك، واتَّصلت أيّامُها واحداً بعدَ واحدٍ، كما ذكرنا في أخبارِهم.

ثمّ جاء قَلاَوُن عندما ملك بَيْبَرس الظَّاهرُ منهم، فتظاهر به، وأصهر إليه، والتَّرفُ يومئذٍ لم يأخذ منهم، والشِّدّة والشكيمةُ موجودةٌ فيهم، / والبأسُ والرُّجولةُ شعار لهم؛ وهلك الظَّاهرُ بَيْبَرس، وابناهُ من بعده، كما في أخبارهم.

وقام قَلاَوُن بالأمر، فاتَّسعَ نِطاقُ مُلكه، وطال ذرْعُ سُلْطانه، وقصُرت أيدي الطَّطَر عن الشَّام بمهلك هُولاكُو، وولاَية الأصاغر من ولده، فعظم مُلْك قَلاَوُن، وحَسُنَت آثارُ سياسته، وأصبَحَ حجّةً على مَن بعدَه.

ثمَّ ملك بعدَه ابناه: خَليل الأَشْرف، ثمّ مُحَمَّد النّاصر، وطالت أيّامُه، وكثُرت

(أ) أ، آيا صوفيا: البندقدار (ب) وضع في أ على يمين حرف الطاء، نقطتين، وتكرَّر ذلك حيثما ترد لفظة الططر تالياً
(ج) أ: جاء

عصابته من مماليكه، حتّى كَمُل منهم عَدَد لم يقَع لغيره، ورتَّبَ للدّولة المَرَاتِب، وقَدَّم منهم في كلّ رُتبة الأمراءَ، وأوسَع لهم الإقطاع وَالولايات، حتَّى توفّرت أرزاقُهم واتّسعت بالتَّرَفِ أحوالهُم، ورحَل أربابُ البضائع من العلماءِ والتُّجّار إلى مصره، فأوسَعهم حِباءً وبرّاً، وتنافست أمراءُ دَولته في اتّخاذ المدارس والرُّبط والخوانق، وأصبَحت دولتُهم غُرَّةً في الزَّمانِ، وواسطةً في الدّول.

ثمَّ هلك النّاصر بعد أربعين وسَبْعمائة، فطفِق أمراءُ دَولته يَنصبُون بنيه للمُلْك، واحداً بعدَ آخَر، مُستبدّين عليهم، مُتنافسين في المُلْك، حتَّى يغلبَ واحدٌ منهمُ الآخَر، فيقتُلَه، ويقتُلَ سُلْطانَه من أولادِ النّاصر، ويَنصِبَ آخرَ منهم مكانَه، إلى أنْ انسَاقَ الأمرُ لولدِه حسَن النّاصر، فقَتَل مُستَبدَّه شيخُون، وملك أمرَه، وألقَى زِمام الدَّوْلَة بيد مملوكه يَلْبُغا، فقام بها، ونافسَه أقرانُه، وأغرَوا به سُلْطانَه، فأجمع قتلَه، ونُمِي إليه الخبرُ وهو في علوفة البرْسيمِ عند خَيْله المُرْتَبَطة لذلك، فاعتزم على الامتناع، واستعدّ للّقاء، واستدعاه سُلْطانُه فتثاقَل عن القُدوم، واستَشاط السُّلْطانُ، وركِب في خاصّته إليه، فركِب هو لمصَادمته، وهاجَم السُّلْطانَ ففلَّه، ورجَع إلى القَلْعة، وهو في اتّباعِه، فلم يُلْفِه[1] بقَصْره، وأغرَى به البحثَ فتقبَّض عليه، واسْتصفَاه، وقتَله؛ ونَصَب للمُلْكِ مُحمَّد المنصورَ ابن المظفَّر حَاجي بن النّاصر، وقام بالدَّوْلَة أحسن قيام، وأغرَى نفسَه بالاستكثارِ من المماليك، وتهذيبهم بالتَّربيةِ، وتوفير النِّعم عندَهم بالإقطاعِ والولاياتِ، حتّى كَمُلَ منهم عددٌ لم تَعهدْه الدَّوْلَةُ، ثمّ خلَع المنصورَ بن المظفَّر لسنتَين، ونصبَ مكانَه للمُلك شَعْبانَ الأشرف ابنَ حُسَين بن النَّاصِر، فأقام على

(أ) آيا صوفيا: يلفه

التَّخْتِ وهو في كفالتِه؛ وهو على أوّله في إعزاز الدَّوْلَةِ، وإظهار التَّرف والثَّروة، حتَّى ظهرت مَخائل العِزّ والنَّعيم؛ في المساكن، والجِياد، والمماليك، والزِّينةِ؛ ثمّ بَطرُوا النّعمة، وكفَروا الحقوق، لحَنِقوا عليه لِمَا كان يتجاوز الحدود بهم في الآداب، فهمّوا بقَتله، وخلَصُوا نَجِيّاً لذلك في مُتَصَيَّدهم الشّتَوِيّ، وقد بَرَزوا له بخيامهم وسُلطانهم على عادتهم؛ ولمّا أحسّ بذلك، ركبَ ناجياً بنفسِه إلى القاهرةِ، فدخلوا على السُّلْطانِ الأشرف، وجاءُوا به على إثْرِه، وأجازوا البحرَ، فقبضوا عليه عَشِيَّ يومِهم، ثمّ قتلوه في مَحْبِسه عشاءً، وانطلقت أيديهم على أهل البلَد بمَعَرّاتٍ لم يعهدوها من أوّل دولتهم، من النَّهب، والتّخطُّف، وطروق المنازل والحَمّاماتِ للعَبَثِ بالحُرَم، وإطلاق أعنّة الشَّهوات والبغْي في كلّ ناحية، فَمرِجَ أمرُ النّاس، ورُفع الأمر إلى السُّلْطان، وكثُر الدّعاء واللَّجَأُ إلى الله، واجتمع أكابرُ الأمر إلى السُّلْطان، وفاوضوه في كفّ عاديتِهم، فأمرهم بالرُّكوب، ونادَى في جُنده ورعيّته بانطلاق الأيدي عليهم، والاحتياط بهم في قَبْضَة القَهْر، فلَم يكنْ إلاّ كلَمح البَصَرِ، وإذا بهم في قَبضة الأَسْر. ثمّ عَمَرَتْ بهم السُّجُون، وصُفِّدوا وطِيف بهم على الجِمال ينادَى بهم، إبلاغاً في الشُّهْرة؛ ثمّ وُسِّط أكثرهم، وتتُبِّع البقيّةُ بالنَّفْي والحَبْس بالثُّغور القَصِيّة، ثمّ أُطلِقوا بعدَ ذلك، وكان فيمَن أُطلِقَ جماعةٌ مِنْهم بحَبْس الكَرَك، فيهم بَرْقُوق الذي ملكَ أمْرَهم بعدَ ذلك، وبركة الجُوبَانيّ، وأَلْطُنْبُغا الجوبانيّ، وجِهَرْكَس الخليليّ.

وكان طَشْتَمَر، دَوَادار يَلْبُغا، قَد لطُفَ محلُّه عندَ السُّلْطان الأشرفِ، ووَلِي الدَّوَاداريّة له، وكان يؤمِّل الاستبداد كما كان أستاذه يَلْبُغا، فكان يحتال في ذلك بجمع

هؤلاء المماليك اليَلْبُغَاويّة من حيث سقطوا، يُريد بذلك اجتماعَهم عُصْبةً له على هَواه، ويُغْرِي السُّلْطانَ بها شِفاهاً ورسالةً، إلى أنْ اجتمع أكثرُهم ببابِ السُّلطانِ الأشرفِ، وجعَلَهم في خدمة ابنهِ عليّ وليّ عهده؛ / فلمّا كَثُروا، وأخذَتهم أَرْيَحيّةُ العِزّ بعَصَبيّتهم، صَاروا يَشتَطُّون على السُّلْطان في المَطالب، ويعتزّون بعصبيّة اليَلْبُغاويّة، واعتزَمَ السُّلْطان الأشرفُ عام سبعة وسبعين على قَضَاء الفَرْضِ، فخَرج لذلك خروجاً فخْماً، واستناب ابنَه عليّاً على قَلعتهِ ومُلكه في كفالةِ قُرطاي من أكابر اليَلْبُغاويّة، وأخرجَ معه الخليفةَ والقضاة. فلمّا بلغ العقَبة اشتَطّ المماليكُ في طلبِ جِرايتهم من العُلُوفةِ والزّادِ، واشتَطّ الذين بمصرَ كذلك في طلَبِ أرزاقهم من المتولّين للجِباية، وصارَ الذين معَ السُّلْطان إلى المُكاشَفَةِ في ذلك بالأقوالِ والأفعالِ، وطَشْتَمر الدَّوادَار يُغْضِي عَنهُم، يَحْسُبُ وقتَ اشتبداده قد أزِف، إلى أنْ رَاغَمهم السُّلْطان بالزّجرِ، فركِبوا عليه هنالك، وركِبَ من خيامه مع لَفِيف من خاصّته، فنَضَحوه بالنّبل، ورجَعَ إلى خيامِه، ثمّ ركب الهُجُن مَساءً، وسَار فصَبَّح القاهِرة، وعَرَّس هُوَ ولَفيفهُ بقُبَّة النَّصْرِ.

وكان قُرطاي، كافلُ ابنه عليّ المنصور، حَدَثت بينَه وبين ناظِر الخاص المَقْسِيّ مكالَمة عند مَغيب السُّلْطان أحْقَدَته، وجَاشَت بما كان في نفسِه، فأغرَى عليّاً المنصورَ ابن السُّلْطان بالتَّوثُّب على المُلك، فارتاح لذلك وأجابه، وأصبَح يومَ ثَورة المماليك بالعَقَبة؛ وقد أجلسَ عليّاً مكفولَه بباب الإسْطبل، وعقَدَ له، ورفع الرَّاية بالنّداء على جُلوسه بالتَّخت؛ وبينَما هم في ذلك، صَبَّحهم الخبرُ بوصُول السُّلْطانِ الأشرفِ إلى قُبَّة النَّصر، ليَلْتَئِذٍ، فطاروا إليه زَرَافَاتٍ ووُحْدانا، فوجَدُوا أصحابَه نِياماً

هنالك، وقد تسلَّل من بينهم هو ويَلْبُغا النّاصريّ من أكابر اليَلْبُغاويَّة، فقطعوا رؤوسَهم جميعاً، ورجعوا بها تَسيل دَماً، وَوَجَموا لفُقدان الأشْرَفِ، وتابَعوا النّداءَ عليه، وإذا بامرأةٍ قد دَلَّتهم عليه في مكانٍ عَرفَته، فتسابَقوا إليه، وجاءوا به فقَتَلوه لوقتِه بخَلْع أكتافِه، وانعقَدت بيعَةُ ابنِه المنصُور، وجاءَ طَشْتَمُر الدَّوادَار من الغَدِ بمن بقِي بالعقبَة من الحُرَم، ومُخلَّف السُّلْطان، واعتزَم على قتالِهم طمَعاً في الاسْتبدادِ الّذي في نفسه، فدافَعوه وغلَبوه، وحَصَل في قبضَتِهم، فخلَعُوا عليه بنيابة الشَّام، وصَرَفوه لذلك، وأقاموا في سُلْطانِهم، وكان أيْنَبَك أميراً آخر من اليَلْبُغاويَّة قد ساهم قُرَطاي في هذا الحادثِ، وأصهَر إليه في بعض حُرَمه، فَاستنام له قُرَطاي، وطمِعَ هُو في الاسْتيلاء، وَكان قُرَطاي مواصِلاً صَبُوحَه بغَبُوقِهِ، ويَسْتغرق في ذلك، فركِب في بعض أيّامه، وأركَب معه السُّلْطانَ عليّاً، واختاز الأَمْرَ من يد قُرَطاي، وصيَّره إلى صَفَد، واستَقلَّ بالدَّوْلَةِ، ثمّ انتقض طَشْتَمَر بالشَّامِ معَ سائِر أُمرائه، فخرجَ أيْنَبك في العَساكِر، وسَرَّح المقدّمة مع جَماعة من الأمراءِ، كان منهم بَرْقُوق وَبَرَكَة، المسْتوليان عَقِبَ ذلك؛ وخرجَ هُو والسُّلْطان في السَّاقَةِ، فلمّا انتهوا إلى بِلْبِيس، ثار الأمراءُ الذين في المقدّمةِ عليه، ورجَع إليه أخوه مُنهزماً، فرجعَ إلى القَلْعَةِ، ثمّ اختلف عليه الأمراءُ، وطالبوه بالحَرب في قُبَة النَّصر، فسَرَّح العساكر لذلك، فلمّا فصَلوا فرَّ هو هارباً، وقُبِض عليه وثُقّف بالإسْكَنْدَريّة، واجتمع أمراءُ اليَلْبُغاوِيَّة يقدمهم قطلقتمر العَلائيّ، ويَلْبُغا النَّاصريّ، ودَمُرْدَاش اليوسفِيّ، وبَرَكة، وبَرْقُوق فتصدّى دَمُرْدَاش، ويَلْبُغا، وبَرَكَة، وبَرْقُوق، إلى الاستقلال بالأمر، وتغلَّبوا على سائر الأمراء، واعتقَلوهم

بالإسْكَنْدَرِيَةِ، وفوّضوا الأمر إلى يَلْبُغا النّاصريّ، وهم يرونه غيرَ خبيرٍ، فأشاروا باستدعاء طَشْتَمُر، وبعثوا إليه، وانتظروا، فلمّا جاءه الخبر بذلك ظنّها مُنْيَةَ نفسه، وسار إلى مِصْر، فدفعوا الأمر إليه، وجَعَلوا(1) له التَّوْليةَ والعَزْلَ، وأخذ بَرْقُوق وبَرَكَة يستكثران من المماليك بالاستِخْدام والجاه، وتَوْفير الإقْطاع، إكثافاً لعصبيّتهما، فانصرفت الوجوهُ عن سواهما، وارتاب طَشْتَمُر بنفسِه، وأغرَاه أصحابُه بالتوثّبِ؛ ولمّا كان الأضحى من سنة تسعٍ وسبعين، استعجَل أصحابُهُ على غيرِ رَوِيّة، وركبوا وبَعثوا إليه فأحْجَم، / وقاتلوا فانْهزموا، وتقبّض على طَشْتَمُر، وحُبِس بالإسْكَنْدَرِيّة، وبُعث معه يَلْبُغا النّاصريّ، وخلَت الدَّوْلَةُ للأمِيرَين بَرْقُوق وبَرَكَة من المنازعين، وعَمروا المراتب بأصحابهما، ثمّ كثُر شغْبُ التُّركُمان والعَرب بنواحي الشّام، فدفَعوا يَلْبُغا النّاصريّ إلى النّيابةِ بحَلب ليستكفُوا به في تلك النّاحيةِ، ثمّ تنافَس بَرْقُوق وبَرَكَة في الاستقلالِ، وأضمر كلُّ واحد منهما لصاحبِه، وخشِيَ منه، فقبَض بَرْقُوقُ على بطانةِ بَرَكَة من عصابته، ليَحُصَّ بذلك جَناحَه، فازْتاع لذلك بَرَكَة، وخرَج بعصابته إلى قُبّة النَّصر ليُوَاضع بَرْقُوقاً وأصحابَه الحربَ هنالك، ورَجَا أنْ تكون الدّائرة له؛ وأقام بَرْقُوق بمكانه من الإسْطبل، وسرَّبَ أصحابُه في جُموعهم إلى مُجاولة أولئك، وأقاموا كذلك أيّاماً يُغادُونهم ويُراوِحُونَهم ثلاثاً، إلى أنْ عَضّتْ بَرَكَةَ وأَصْحابَهُ الحربُ، فانفضُّوا عنه، وجيءَ ببَرَكَة، وبَعَث به إلى الإسْكَنْدَرِيَة فَحُبِس هنالك، إلى أن قتله ابنُ عَرّام نائبُ الإسْكَنْدَرِيّة، وارتفع أَصْحابه إلى بَرْقُوق شاكين، فثأرَهُم منه بإطلاق أيديهم في النَّصَفَة،

(1) من هنا تنقطع نسخة آيا صوفيا، على الرغم من الترقيم المتسلسل للأوراق

فانتصفوا منه بقَتْله في ساحة القَلْعة، بعد أنْ سُمّر، وحُمل على جَمَلٍ عقاباً له؛ ولم يُقْنِعهم ذلك، فأطلق أيديَهم فيما شاءوا منه، ففعلوا به ما فَعلوا؛ وانفرد بَرْقُوق - بعدَ ذلك - بحَمْل الدَّوْلَة ينظر في أعْطافِها بالتَّهديدِ، والتَّسْديد، والمُقَارَبة، والحِرص على مكافأةِ الدَّخْلِ بالخَرْجِ، ونَقَّص ما أفاض فيه بنو قَلاَوُن من الإمعانِ في التَّرَفِ، والسَّرَف في العوائدِ والنَّفقاتِ، حتَّى صَار الكيْلُ في الخَرجِ بالمِكْيال الرَّاجِح، وعَجَزَت الدَّوْلَةُ عن تَمْشيةِ أحوالِها؛ وراقبَ ذلك كلَّه بَرْقُوق، ونظر في سدّ خَلَل الدَّوْلَة منه، وإصلاحها من مَفاسِده، يَعتَدُّ ذلك ذريعةً للجُلوس على التَّخْت، وحيازَة اسم السُّلْطان من أولاد قَلاَوُن، بما أفسَد التَّرَفُ منهم، وأحال الدَّوْلَةَ بسَببهم، إلى أنْ حصَل من ذلك على البُغْيةِ، ورَضِي بِه أصحابُه وعصابتُه، فجَلس على التَّخت في تاسع عشر رمضان من سنة أربعٍ وثمانين، وتلقَّب بالظَّاهر، ورتَّبَ أهلَ عصابته في مَراتب الدَّوْلَة، فقام وقاموا بها أحسنَ قِيام، وانقلبت الدَّوْلَةُ من آل قَلاَوُن إلى بَرْقُوق الظَّاهر وبَنِيه، واستمرّ الحالُ على ذلك، ونافَسه اليَلْبُغَاوِيَّةُ - رُفَقاؤه في وَلاءِ يَلْبُغا - فيما صارَ إليه من الأمرِ، وخصوصاً يَلْبُغا نائبَ حلَب، فاعتزم على الانتقاضِ، وشعر به الظَّاهر فبعث باستدعائه، فجاء، وحَبَسه مُدّة، ثمّ رجعه إلى نيابة حلَب، وقد وغَر صَدرُه من هذه المعاملَة، وارتاب به الظَّاهر، فبعث سنة تسعين دَوَادَاره للقبضِ عليه، ويستَعينُ في ذلك بحاجب حَلَب، فدسَّ إليه ذلك الدَّوَادَارُ بالخَبر، واعتدَّ يوم دخوله إليه ففتكَ بالحاجبِ، وانتقَض، واستدعَى نائب مَلَطْيَة، وهو مَنْطَاش من أمراء اليَلْبُغَاوِيَّةِ، وكان قد انتقض قبله، ودَعَا نوّاب الشَّام إلى المسيرِ إلى مصرَ إلْباً على الظَّاهرِ، فأجابوه، وساروا في جُملتِه، وتحتَ لوائه؛ وبلغ الخبرُ إلى بَرْقُوق،

فأخرج عساكِرَه مع أمراءِ اليَلْبُغاويَّة من أصحابِه؛ وهم الدَّوادارُ الأكبرُ يونُس، وجِهَرْكَس الخليليّ أمير الإسطبل، والأتابَكيّ أيتَمش، وأيدكار حاجب الحُجّاب وأحمد بن يَلْبُغا أستاذهم.

وخرج النّاصريّ من حَلَب في عَسكَرِه، واستَنْفر العَرَبَ والتُّركُمان وأمراءَ الشّام؛ ولما تَراءى الجمعان بناحية دِمَشق، نَزَع كثيرٌ من عسكرِ السُّلطان إليهم، وصَدَقوا الحَمْلة على مَن بَقِيَ فانفضُّوا، ونجا أيتَمش إلى قَلْعة دمشق فدخَلها، وقُتل جِهَرْكَس، ويونُس، ودخَل النّاصريُّ دمشقَ، ثمّ أجمع المسيرَ إلى مصرَ، وعميتْ أنباؤُهم حتَّى أطَلُّوا على مصرَ.

[وفي خلالِ ذلك أطلقَ السُّلطانُ الخليفةَ من مَحْبِسه؛ كان بعضُ الغُواة أنْمى عنه أنّه داخَله شيطانٌ من شياطينِ الجُنْدِ، يُعرف بقُرط، في قتل السُّلطانِ يومَ ركوبِه إلى الميدانِ قبل مُلكِه بسنينَ، فلمّا صَحَّ الخبر عنده أمرَ بقتلِه، وحبَس الخليفةَ سبعاً إلى تلك السّنة، فأطْلَقه عند هذا الواقع.

ولمَّا وصل النّاصريُّ إلى قَطْيَا[1] اجتمعت العَساكِر][أ]، ووقف السُّلطان أمامَ القَلْعةِ يومَه حتَّى غَشِيَه اللّيل، ثمَّ دخل إلى بَيْته وخرج متنكّراً، وتسرّب في غيابات

(أ) ما بين الحاصرتين من مخرج بهامش أ، كتبه ابن خلدون بخطه، وقد أخفى التصوير - وربّما التجليد في الأصل - بعض كلماته، فاستعنا بالمصادر لتعويض النقص. انظر خبر خروج الناصري إلى مصر وملكه مصر من يد برقوق عند: ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة 11: 211 - 237

(1) وترد قطية: قرية في طريق مصر بعد غزة، وسط الرمل، قرب الفَرَما. ياقوت: معجم البلدان 4: 378. قال ابن بطوطة وقد زارها في طريقه إلى بلاد الشام: ثم وصلنا إلى الصالحية، ومنها دخلنا الرمال ... ومن منازلها قَطْيا، والناس يدلون ألفها هاء تأنيث، وبها تؤخذ الزكاة من التجار، وتُفتّش أمتعتهم. الرحلة 1: 232.

المدينة، وباكَرَ النّاصريُّ وأصحابُه القلعةَ، ودعوْا أمير حاجّ ابن الأشرف، فأعادوه إلى التّخْتِ، ولقّبوه المَنْصورَ، / وبعثوا عن الأمراءِ المحبوسين بالإسْكَنْدَريّة، وكان فيهم أَلْطُنْبُغا الجوبانيّ الذي كان أميرَ مجلسٍ، وقبض السُّلْطان الظّاهر عليه، وحبسَه أياماً، ثمّ أطلقه وبعثَه نائباً على دِمشقَ، ثمّ ارتفعت عنه الأقوالُ بأنّه يَرومُ الانتقاضَ، وداخَل النّاصريَّ نائبَ حلب في ذلك، وأكّد ذلك عند السُّلْطان ما كان بَيْنه وبين النّاصريّ من المُصَافَاة والمُخالَصةِ، فبعث عنه؛ ولمّا جاء حَبَسه بالإسْكَنْدَريّة، فلمّا ملك النّاصِريُّ مصرَ، وأجلس أمير حاجّ ابن الأشرفِ على التّخْتِ، بعث عنه ليستعينَ به على أَمْرِه؛ وارتابوا لغيبة الظّاهر، وبالَغوا في البحثِ عنه، فاسْتَدْعى الجوبانيَّ واستَنامَ لهُ، واسْتَحْلفه على الأمانِ، فحلفَ له، وجاء به إلى القلعة بعد أنْ ساورَ صاحِبَهُ النّاصريَّ في المُضِيّ إليه وتأمينه، وحَبَسوه في بعضِ قصور الملكِ، وتشاوروا في أمْره، فأشار أمراءُ اليَلْبُغاوِيّة كلُّهم بقتْله، وبالغَ في ذلك مَنْطاش، ووصل نُعَيْر، أمير بني مُهَنّا بالشّام للصّحابة بينه وبين النّاصريّ، فحضّهم على قتله، ومنَع الجوبانيُّ من ذلك وفاءً بيمينه، فغَلَت صُدورُهم منه، واعتزموا على بَعثه إلى الكَرَك، ودافعوا مَنْطاشاً بأنّهم يبعثونه إلى الإسْكَنْدَريّة، فليعترِضْه عند البحرِ بما شاء من رأيه، ووثق بذلك، فقعدَ له عند المرساةِ، وخالفوا به الطّريقَ إلى الكَرَكِ، وولّوا عليها نائباً وأوصوه به، فأخفق مَسْعَى مَنْطاش، ودبّر في اغتيال الدَّوْلَةِ، وتمارض في بَيْتهِ، وجاءه الجوبانيّ عائداً فقبض عليه، وحبسَه بالإسْكَنْدَريّة، وركب مُنتقِضاً، ووقف عند مدرسة النّاصر حَسَن يحاصر النّاصريَّ بالقلعة، واستحاش هو بأمراء

اليَلْبُغاوِيّة، فَدَاهنوا في إجابته، ووقَفوا بالرُّمَيْلَة أمامَ القَلْعةِ، ولم يزل ذلك بينَهم أيّاماً حتَّى انفضَّ جمع النّاصِريّ، وخرج هارباً، فاعترضه أصحابُ الطَّريقِ بفارسْكور، ورَدُّوه، فَحَبَسَهُ مَنْطَاش بالإسْكَنْدَريّة مع صاحبِه، واستقلّ بأمر المُلكِ، وبعث إلى الكَرَك بقتل الظّاهر، فامتنع النّائبُ، واعتذر بوقوفه على خطّ السُّلْطان والخليفة والقُضاة، وبثَّ الظّاهر عطاءَهُ في عامّةِ أهل الكَرَك، فانتدبت طائفة منهم لقتل البَريديّ الذي جاء في ذلك، فقتلوه، وأخرجوا الظّاهر من مَحْبِسِه، فأَصْحَروا، واستألف أفاريقَ من العَرَبِ، واتّصل به بعض مَماليكه، وسارَ إلى الشّام، واعترضه ابن باكيش، نائب غَزَّة، فأوقع به الظّاهر، وسارَ إلى دمشقَ، وأخرَج مَنْطَاش العساكرَ مع سُلْطانِه أمير حاج، وسارَ على التَّعبئةِ ليمانعَ الظّاهرَ عن دمشقَ، وسَبَقه الظّاهر، فَمَنَعه جنتمر، نائب دمشقَ، فواقعه الظّاهر، وأقام محاصراً له، ووصل إليه كمشبُغَا الحَمَويّ، نائبُ حَلَبَ، وكان قد أظهر دعوته في عمله، وتجهَّز للقائه بعسكرِه، فلقيه وأزاح عِلَله، وأقام له أُبَّهَةَ المُلْكِ، وبينَا هم في الحِصار إذ جاء الخَبَرُ بوُصول مَنْطَاش بسُلْطانِه وعساكِره لقتالِهم، فلقيَهم الظّاهر بِشَقْحَب، فلمَّا تراءى الجمعان، حَمَل الظّاهر على السُّلْطان أمير حاج وعساكره ففَضَّهم، وانهزَم كمشبُغَا إلى حَلَب، وسار مَنْطَاش في اتّباعه، فحطم[1] الظّاهر على تعبئة[أ] أمير حاج، فَفَضَّها، واحتازَ السُّلْطانَ والخليفةَ والقضاة، ووَكَّل بهم، واختلَط الفريقان، وصاروا في عَمْياءَ من

(أ) أ: تعبته

---

(1) كذا في أ، وأثبتها الطنجي (التعريف 340): فهجم، وعند ابن منظور نقلاً عن ابن سيده: انحطم الناس عليه، أي: تزاحموا، اللسان، مادة: حطم.

أمرهم، وفرَّ مَنطَاش إلى دِمَشق، واضطرب الظَّاهر أخبيَتَه، ونزل على دِمَشق مُحاصراً لها، وخرج إليه مَنطَاش من الغَد فهزمه، وجمع القُضاة والخليفة، فشهدوا على أمير حاج بالخَلْع، وعلى الخَليفة بإعادة الظَّاهر إلى مُلكِه.

ورحل إلى مصرَ، فلقيه بالطَّريقِ خَبَرُ القلعة بمصرَ، وتغلُّب مماليكه عليها؛ وذلك أنّ القلعةَ لمَّا خَلت من السُّلْطان ومَنطَاش والحامية، وكان مماليكُ السُّلطان محبوسين هنالك في مُطْبَقٍ أُعدّ لهم، فتناجَوا في التَّسوُّر منه إلى ظاهرهِ، والتوثُّب على القَلْعة والمُلْك، فخرجوا، وهرب دَوَادَار مَنطَاش الّذي كان هنالك بمَن كان معه من الحاشيةِ، وملك مماليكُ الظَّاهر القلعةَ، ورَأسُهم مملوكهُ بُطَا، وساسَ أمرَهم، وانتظر خبر سُلْطانه. فلمَّا وصل الخبرُ بذلك إلى الظَّاهر، أَغَذَّ السَّير إلى مصرَ، وتلقَّاه النَّاسُ فرحِين مَسْرورين بعَوْدِه وجَبْرِه، ودخل / مُنْتَصَفَ صَفَر من سنة إحدى وتسعين، وولَّى بُطَا دَوَادَاراً، وبعثَ عن الأمراءِ المحبوسين بالإسْكَنْدَريّة، وأَعْتَبهم، وأعادهُم إلى مراتبهم، وبعث الجوبانيّ إلى دمشقَ، والنّاصريّ إلى حَلَب كما كانا، وعادت الدَّوْلَة إلى ما كانت عليه، وولَّى سودُونَ على نيابته، وكان ناظراً بالخانقاه التي كنتُ فيها، وكان يَنقِم عليَّ أحوالاً من مُعاصاته فيما يريدُ من الأحكامِ في القضاءِ أزمانَ كنتُ عليه، ومن تَصرُّفات دَوَادَاره بالخانقاه، وكان يَستنيبُه عليها، فوَغِر صَدره من ذلك؛ وكان الظَّاهرُ ينْقِم علينا مَعْشَرَ الفقهاءِ فتاوَى استدعاها مِنّا مَنطَاش، وأكرَهنا على كتابها، فكتبناها، ووَرَّيْنا فيها بما قدرنا عليه، ولم يقبل السُّلْطان ذلك، وعتَبَ عليه، وخصُوصاً عليّ، فصادف سودُون منه إجابةً في إخراج الخانقاه عَنّي، فولّى فيها غيري وعَزَلني عنها.

وكتبتُ إلى الجوبانيّ بأبياتٍ اعتذرُ عن ذلك ليطالعَهُ بها، فتغافل عنها، وأعرضَ عنّي مُدَّة، ثمّ عادَ إلى ما أعرفُ من رضاه وإحسانه، ونَصُّ الأبيات: [من الخفيف]

سَيِّدي والظُّنونُ فيك جَميلَهْ ... وأيَاديك بالأماني كَفيلَهْ
لا تَحُلْ عن جَميل رأيك إنّي ... مالِيَ اليومَ غيرُ رأيك حِيلَهْ
واصطنعْني كما اصطنعتَ بإسْدَا ... ءِ يَدٍ من شفاعةٍ أو وَسيلَهْ
لا تُضِعْني فلستُ منك مُضِيعاً ... ذِمّةَ الحبّ، والأيادي الجميلَهْ
وأجرني فالخَطْب عَضَّ بَنابَيْـ ... ـهِ وأجرَى إلى حِماي خُيولَهْ
ولَوَ أنّي دَعَا بنصْرِيَ داعٍ ... كنتَ لي خير مَعشَرٍ وفَصيلَهْ
أنّهِ أمري إلى الّذي جَعَل اللـ ... ـهُ أمورَ الدُّنيا له مكفولَهْ
وأراه في مُلكه الآيةَ الكُبْـ ... ـرى فولاّه ثمّ كان مُديلَهْ
أشهدتْه عنايةُ الله في التّمْـ ... ـحيص أن كان عَوْنَه ومُنيلَهْ
العزيزُ السُّلطان والملكُ الظّا ... هرُ فخرُ الدُّنيا وعزُّ القَبيلَهْ
ومُجيرُ الإسلام من كل خَطْب ... كاد زلزالُ بأسه أنْ يُزيلَهْ
ومُبيد العَدُوّ بالطَّعْنة النَّجْـ ... ـلاَ تُفَرّي ماذيَّة ونُصولَهْ
وشَكُور لأنْعُم الله يُفْنِي ... في رضاهُ غُدُوَّه وأصيلَه
وتلطّفْ في وصفَ حالي وشَكْوَى ... خَلَّتي يا صفيَّه وخَليلَه
قل له والمقالُ يَكرُم من مثلـ ... ـك في مَحفِل العُلا أنْ يَقُولَهْ
يا خونَدَ المُلوك يا معدل الدَّ ... هر إذا عَدّل الزّمان فُصُولَه

لا تقصّر في جَبْر كسْري فما زلـ ـتُ أرجّيك للأيادي الطّويلَهْ
أنا جارٌ لكم منعتم حماه ونهَجتم إلى المعالي سَبيلَه
وغريبٌ آنَسْتُموه على الوَحْـ ـشَة والحُزن بالرضى والسُّهولَهْ
وجَمعتم من شَمله فقضى اللـ ـهُ فراقاً وما قَضَى مأمولَهْ
غالَه الدّهرُ في البنين وفي الأهْـ ـل وما كان ظنُّه أنْ يَغُولَه
وَرَمَته النّوَى فقيداً قَد اجْتَـ ـاحَت عليه فُروعَه وأُصولَهْ
فجذَبْتم بضَبْعِه وأنَلتُم كلّ ما شاءت العُلاَ أنْ تُنيلَهْ
ورفعتم من قَدْره قبل أنْ يَشْـ ـكو إليكم عَياءَه وخُمولَهْ
وفرضتم له حقيقةَ وُدٍّ حاشَ لله أنْ تُرَى مُسْتَحِيلَهْ
همّةٌ ما عرفتُها لسواكم وأنا من خَبرتُ دَهرِي وجيلَه
والعِدا نمّقوا أحاديثَ إفْكٍ كلّها في طرائق معلولَهْ
روّجوا في شأني غرائب زورٍ نصبوها لأمْرهم أُحبُولَهْ
ورمَوا بالّذي أرادوا من البهـ ـتان ظنّاً بأنّها مقبولَهْ
زعموا أنني أتيت من الأقْـ ـوال ما لا يُظنُّ بي أنْ أقولَه
كيف لي أغمطُ الحقوق وأنسى شكرَ نعماكم عليّ الجزيلَهْ؟!
كيف لي أنكر الأيادي التي تَعْـ ـرفها الشّمسُ والظّلالُ الظليلَهْ
إنْ يكن ذا فقد برئتُ من اللـ ـه تعالى وخُنتُ جهراً رسولَه
طوّقونا أمر الكتاب فكانت لقداح الظّنون فينا مُجيلَهْ

لا، وَرَبِّ الكتـاب أنزلـــه اللّـ ـه على قلب مَن وعَى تنزيلَه

مـا رضينا بـذاك فعلاً ولا جنـ ـناهُ طوعـاً ولا اقتفينـا دَلـيلَه

إنّمـا سامنـا الكتـابَ ظَلُـــوم لا يُـرَجَّى دِفاعُـه بالحِـيلَهْ

سَخَـطٌ ناجـزٌ وحلمٌ بَطـيءٌ وسـلاحٌ للـوخز فينـا صَـقيلَهْ

ودَعَوْني[أ]، ولستُ من مَنْصِب الحـ ـكم ولا سَـاحباً لَدَيهم ذُيـولَه

غيرَ أنّي وشَى بذكريَ واشٍ يَتَقَـصّى أوتارَه وذُحُـولَه

فكتبنـا معوِّليـن علـى حِلـ ـمك تمحو الإصار عَنّا الثَّقيلَهْ

مـا أشرنـا بِـهِ لِزيـد ولا عَمـ ـرو ولا عَيَّنُـوا لنَـا تفـصيلَه

إنّمـا يذكـرون عمّـن وفيمَـن مُـبْهماتٍ أحكامُهـا منقـولَهْ

ويظنّـون أنّ ذاك علـى مـا أضمروا مـن شـناعةٍ أو رذيـلَهْ

وهْو ظنٌّ عـن الصَّـواب بعيدٌ وظـلامٌ لم يُحْـسِنُوا تـأويلَه

وجنـاب السُّلْطــان نَزَّهـه اللّـ ـهُ عن العاب بالهُدَى والفَضيلَهْ

وأجَـلُّ المُلُـوك قـدراً صفـوحٌ يَرْتَجِـي ذنـبَ دَهـره لِيُقِـيلَه

فاقبلوا العُذرَ إنّـا اليـومَ نرجُـو بحيـاةِ الـسُّلطان مـنكُم قبـولَه

وأعينُـوا عَلَـى الزّمـان غريبـاً يشتكي جَذب عَيشِه ومُحُولَه

جارُكـم ضيفكـم نزيـلُ حِماكـم لا يُـضيعُ الكـريمُ يومـاً نَـزيلَه

جَـدِّدوا عنـدَه رُسـومَ رضاكـم فرُسُـومُ الكـرام غَـيرُ مُحـيلَهْ

داركُــوه برحمـــةٍ، فلقــد أمـ ـسَتْ عقـودُ اصطبـاره محلُولَـهْ

(أ) هنا ينتهي انقطاع نسخة آيا صوفيا، لتعود تواكب نسخة أ

/ وانحلوه جَبْراً فليس يُرجّي غيرَ إحسَانكم لِهذِي النّحِيلَهْ
يا حميدَ الآثار في الدّهر يا أَلْـ ـطُنْبُغَا يَا رَوْض العُلاَ وَمقِيلَهْ
كيفَ بالخانِقاه ينقلُ عنّي لاَ لذَنب أو جُنْحَةٍ مَنقولَهْ
بل تقلّدتُها شَغُوراً برسْمِ شَريف وخِلعة [أ] مَسْدُولَهْ
ولقد كنتَ آمِلاً لسواها وسواهَا بوَعْدِهِ أنْ يُنيلَه
وتوثّقتُ للزّمان علَيْها بعقودٍ ما خِلتُها محْلُولَهْ
أبلغَن قِصّتي فمثلُك من يَقْـ ـصِدُ فعل الحسنى بمن ينتمي لَه
واغتنموا من مثوبتي ودعائي قُرْبَةً عند ربّكم مقبولَه

وفي التّعريض بسَفَره إلى الشّام:

واصْحَبِ العزَّ ظافراً بالأماني واتـرُك العُصبةَ العِدا مَفْلولَهْ
واعتَمِل في سعادة الملك الظّا هر أنْ تمحوَ الأذَى وتُزيلَه
وتُعيدَ الدُّنيا لأحسَنِ شَمْلٍ حين تُضحِي بسَعْده مشْمُولَهْ
واطلب النّصر من سَعادته يصْـ ـحَبْك دأباً في الظّعن والحَيْلُولَهْ
وارتقِب ما يُحِلُّه بالأعادي في جُمادَى أو زد عليه قَليلَهْ
وخذُوه فألاً بحُسن قبولٍ صَدَّق الله في الزّمان مَقُولَه
فلقد كان يحسُنُ الفالُ عِند الـ ـمُصطفى دائماً ويَرضَى جَميلَه

(أ) آيا صوفيا: حمله

السّعايةُ في المُهاداة

والإتحاف بينَ مُلوكِ المَغْرب والملك الظّاهر

كثيراً ما يتعاهدُ المُلوكُ المتَجاورونَ بعضُهم بعضاً بالإتحافِ بطُرَفِ أوطانهم، للمُواصلةِ والإعانةِ مَتَى دعا إليها داعٍ، وكانَ صلاحُ الدِّين ابنُ أيّوب هادى يَعقوبَ المنصورَ، ملكَ المغرب، من بني عَبْدِ المؤمِنِ، واستجاش[أ] به بأُسطوله[ب] في قَطْع مَدَد الفِرَنْج عن سواحل الشّام حين كان مَغْنِيّاً بإزعاجهم عنها، وبَعَث في ذلك رسولَه عبد الكَريم بن مُنقذ من أُمَراء شَيْزَر، فأكرَمَ المنصورُ رَسولَه، وقعد عَن إجابته في الأُسطول لما كان في الكتّاب إليه من العدُول عن تَخطيطه بأميرِ المؤمنيـن، فوجَدَها غُصّةً فـي صَـدرِه مَنَعَتْه مِنْ إجابتِه إلى سُؤاله؛ وكان المانع لصَلاح الدّين من ذلك كاتبه الفَاضِل عَبد الرَّحيم البَيْسَانيّ بمَا[ج] كان يُشاوِره في أُموره، وكان مُقيماً لدعوةِ الخليفة العَبّاسيّ بمصرَ، فرأى الفاضلُ أنّ الخِلافة لا تنعقدُ لاثنين في المِلّة، كما هو المشهُور، وإنْ اعتَمد أهلُ المَغرب سوَى ذلك، لِمَا يَرون أنَّ الخِلافة ليست لَقباً فقط، وإنَّما هي لصَاحب العَصَبيّةِ، القائم عليْها بالشدَّةِ والحمايةِ؛ والخلافُ في ذلِك معْروفٌ بينَ أَهْل الحَقّ.

فلمّا انقَرضَت دَولةُ المُوَحِّدين، وجاءَت دولةُ بني مَرِين مِن بعدِهم، وصار كُبَراؤهم ورؤساؤُهم يتَعاهدون قضَاء فرضهم لهذهِ البِلاد الشَّرقيّة، فيتَعاهدُهم مُلوكُها بالإحسان

(أ) آيا صوفيا: واستحاش (ب) آيا صوفيا: بأصطوله (ج) آيا صوفيا: ما

إليهم، وتَسهيل طريقهم، لحُسُن في مكارم الأخلاق انتحالُ البرّ والمواصَلة، بالإتحافِ والاستِطْراف والمكافأة في ذلك بالهممِ المُلوكيّة، فسُنَّت لذلك طرائقُ وأخبار مَشهورة، من حقّها أنْ تذكَر.

وكان يُوسُفُ بنُ يعقوبَ بن عَبد الحَقّ ثالث مُلوك بَني مَرين، أهدَى لصاحبِ مصرَ، عامَ سبعمائة، وهو، يومئذٍ، النَّاصر مُحَمَّد بن قَلاون، هديَّةً ضخمة، أصحبها كَرِيمَةً من كرائم دارِه، احتفل فيها ما شاءَ من أنواعِ الطُّرَفِ، وأصناف الذَّخائرِ، وَخصوصاً الخيلَ والبِغال.

أخبرني الفقيهُ أبو إسحاق الحَسْناويّ، كاتب المُوَحّدين بتُونِس، أنَّه عاين تلك الهَديَّةَ عند مُرورها بتُونِس، قال: وعددتُ من صِنف البغال الفارهة فيها أربعمائة، وسكتَ عمّا سوى ذلك، وكان معَ هذه الهديّةِ من فُقَهاءِ المغربِ، أبو الحَسَن التَّنَسيّ كبيرُ أهل الفُتْيا بتِلِمْسان. ثمّ كافأ النّاصر عن هذه الهديّة بأعلى منها وأحفل مع أميرين من أمراءِ دَولته، أدركا يُوسُفَ بنَ يعقوب وهو يُحاصر تِلِمْسان، فبعَثَهما إلى مُرَّاكُش للنَّزاهة في محاسنها، وأدْركه الموتُ في مَغيبِهما، ورجَعا من مُرَّاكُش، فجهَّزهما حَافدُه أبو ثابت المالكُ بعدَه، وشَيَّعهما إلى مِصر، فاعترَضَتهما قبائل حُصَيْن ونَهَبوهما، ودخَلا بِجَاية، ثمّ مَضَيا إلى تُونِس، ووَصَلا من هنالك إلى مصرَ.

ولمّا ملك السُّلْطانُ أبو الحَسَنِ تِلِمْسان، اقترَحَتْ عليه جاريةُ أبيه، أبي سَعيد، وكانَت لَها عليه تَرْبيةٌ، فأرادت الحجّ في أيّامِه وبعنايته، فأذِن لها في ذلك، وبَعث في خِدْمتها وليَّه، عَرِيف بن يَحْيَى من أمراءِ سُويد، وجماعةً من أمرائه وبطَانته،

واستَصْحبوا هَدِيّة منه للملك / النّاصر، احتفل فيها ما شاء، وانتقى من الخَيْل العِتاق، والمَطايا الفُرَّهِ، وقُمَاش الحرير، والكتّان، والصُّوف، ومدبوغ الجلود النّاعِمَة، والأواني المتَّخذة من النّحاسِ، والفخَّارِ المَخْصوصِ، كلُّ مصرٍ من المَغْربِ بأصْنافٍ من صَنائِعِها، مُتَشابِهَة الأشكالِ والأنواع؛ حتَّى لقد زَعموا أنّه كان فيها مَكيلة من اللآلىء والفُصوص، وكان ذلك وقرَ خمسِمائة بَعير، وكانت عِتاقُ الخيلِ فيها خمسمائة فرس، بالسّروج الذّهبيّة المرصّعة بالجواهر، واللّجُم المُذهبة، والسُّيوف المحلاّة بالذهب واللّآلىء؛ كانت قيمة المركب الأوّل منها عشرة آلاف دينار، وتدرَّجت على الولاء إلى آخر الخمسمائة، فكانت قيمته مائة دينار؛ تحدَّث النّاس بهذه الهديّة دهراً، وعُرِضت بينَ يَدَي الملك النّاصر، فأشار إلى خاسكيته بانتهابها فنُهبت بين يديه، وبُولغ في كَرامة أولئك الضّيوف، في إنزالهم، وقِرَاهم، وإزوادهم إلى الحِجاز، وإلى بلادِهم؛ وبقي شأنُ الهديّةِ حديثاً يتجاراه النّاسُ في مجالِسهم وأسْمارِهم؛ وكان ذلك عامَ ثمانية وثلاثين وسبعمائة.

ولمَّا فَصَل أرسالُ مَلِك المغربِ، وقد قَضَوا فرضَهم، بعث الملِكُ النّاصر معهم هَدِيّةً كِفَاءَ هديّتهم، وكانت أصنافها حمل القُمَاش من ثياب الحرير والقماش المصنوعة بالإسْكَنْدَريّة، تُحمَل كلَّ عام إلى دار السُّلْطان، قيمة ذلك الحملِ خمسون ألفَ دينار، وخيمة من خيامِ السُّلْطان المصنوعة بالشّام على مثال القُصور، تشتمل على بُيوتٍ للمَراقد، وأوَاوينَ للجلوس والطّبخ، وأبراجٍ للإشراف على الطُّرقات، وأبراجٍ أحدُها لجلوس السُّلْطان للعَرْض، وفيها تمثالُ مسجدٍ بمحرابه، وعَمَدِه، ومأذنته؛ حَوائطها كلُّها

مـن خِـرَقِ الكتّـان الموصـولة بحَبْـك الخِياطـة، مفـصَّلَةً عـلى الأشـكال الـتي يقترحـها المتّخذُون لهَا، وكان فيها خيمة أخرى مُستديرةُ الشّكل، عاليةُ السّمك، مخروطة الرّأسِ، رحبةُ الفِناء، تظلّ خَمْسَ مائة فارسٍ أو أكثر، وعشرةٌ من عِتاق الخيلِ بالمراكب الذَّهبيّة الصَّقيلة، ولُجمُها كذلك؛ ومرَّت هذه الهَدِيَّة بتُونِس، ومعها الخُدَّام القائمون بنَصْب الأبنيةِ، فعَرَضوها على السُّلْطانِ بتُونِس، وعاينتُ يومئذٍ أصنافَ تلك الهدِيَّة، وتوجَّهوا بها إلى سُلْطانِهم، وبَقِيَ التَّعجُّب منها دهراً على الألسِنة. وكان مُلُوك تُونِس من المُوَحِّدين، يتعاهدون مُلُوكَ مصر بالهَدِيَّة في الأوقاتِ.

ولمّا وصلتُ إلى مصرَ، واتّصلتُ بالملكِ الظّاهر، وغَمَرني بنعَمه وكرامَتِه، كاتبتُ السُّلْطان بتُونِس يومَئذٍ، وأخبرتُه بما عندَ المَلك الظّاهر من التَّشوُّف إلى جِياد الخيل، وخصوصاً من المغرب، لِمَا فيها من الشّدّة والصّبر على المَتاعب، وكان يقول لي مثلَ ذلك، وأنَّ خيلَ مصر قصّرت بها الرّاحة والتّنعُّم، عن الصّبر على التَّعَب، فحَضَضتُ السُّلْطانَ بتُونِس على إتحاف الملك الظّاهر بما يَنتقيه من الجياد الرّائعةِ، فبعث له خمسةً انتقاها من مَرَاكِبه، وحملها في البَحر في السَّفين الواصلِ بأَهْلي وَوَلَدي، فغرقت بمرسى الإسكَنْدَريّة، ونَفَقَت تلك الجِياد، معَ ما ضاعَ في ذلك السَّفين، وكلُّ شيٍ بِقَدَر.

ثمّ وَصَل إلينا عامَ ثلاثة وتسعين شيخُ الأعراب المَعْقِل بالمغرب: يُوسُف بن علي ابن غانم، كبير أولاد حُسَين، ناجياً من سَخَط السُّلْطان أبي العبّاس أحمد بن أبي سَالم، من مُلُوك بني مَرين بفاس، يَروم قَضَاء فَرْضه، ويتوسَّل بذَلك لرِضَى سُلْطانِه،

فوجَد السُّلْطانَ غائباً بالشَّام في فِتنَة مَنطَاش، فعَرضتُه لصاحب المَحْمِل، فلمَّا عادَ من قَضاءِ فَرضه، وكان السُّلْطانُ قد عادَ من الشَّام، فوصَلتُه به، وحضَر بين يديْه، وشَكَا بَثَّه، فكتب الظَّاهر فيه شفاعةً لسُلْطان وَطنه بالمغربِ، وحمَّلَه مع ذلك هديَّة إليه من قُماش، وطِيب، وقِسِيّ، وأوصَاه بانْتقاءِ الخيلِ له من قُطْر المغربِ، وانصرف؛ فقبِل سُلْطانُه فيه شفاعةَ الظَّاهر، وأعادَه إلى مَنْزلته، وانتقَى الخيولَ الرَّائعة لمهاداة الملِكِ الظَّاهر، وأخذ في انْتقاءِ أصناف الهديَّة، فعاجَلَتْه المنيَّةُ دُون ذلك؛ ووَلِي ابنُه أبو فارس، وبقِي أيَّاماً ثمَّ هلك، وَوَلِيَ أخوه أبو عَامِر، فاستكمل الهديَّةَ، وبعثها صُحبةَ يُوسُف بن عليّ، الوارد / الأوّل.

وكان السُّلْطانُ الملك الظَّاهرُ، لمَّا أبْطَأ عليه وصولُ الخيل من المغربِ، أراد أنْ يَبْعثَ من أُمرائه مَن يَنْتقي له ما يشاءُ بالشِّراء، فعيَّن لذلك مَمْلوكاً من مماليكه منسوباً إلى تربيةِ الخليليّ، اسمه قُطْلُوبُغَا، وبعثَ عنّي، فحضرتُ بين يَدَيه، وشاوَرني في ذلك فوافقتُه، وسألني كيف يكون طريقُه، فأشرتُ بالكتابِ في ذلك إلى سُلْطان تُونِس من المُوَحِّدين، وسُلْطان تِلِمْسان من بَني عبد الواد، وسُلْطان فاس والمغرب من بني مَرين؛ وحمَّله لكلّ واحدٍ منهم هديَّة خَفِيفَةً من القُمَاش، والطِّيب، والقِسِيّ، وانصرفَ عامَ تسعة وتسعين إلى المغرب، وشيَّعَه كلّ واحد من مُلُوكه إلى مَأْمَنه، وبالغ في إكرامه بما يتعيَّنُ، ووصلَ إلى فاس، فوجَد الهَديّة قد استُكْمِلت، ويُوسُف بنَ عليّ على المسير بها عن سُلْطانه أبي عامر من وَلد السُّلْطانِ أبي العبّاس المخاطَب أوّلاً، وأظلَّهم عيدُ الأضحى بفاس، وخَرَجُوا متوجّهين إلى مصر، وقد أفاض السُّلْطان من

إحسانه وعطائه، على الرّسول قُطْلُوبُغَا ومَن في جُملته بما أقرّ عيونَهم، وأطلق بالشّكر ألْسِنَتَهم، ومَلأَ بالثّناءِ ضَمائرَهم؛ ومَرُّوا بتِلِمْسان، وبها يومئذٍ أبو زَيّان ابنُ السُّلْطان أبي حَمُّو من آلِ يَغْمُرَاسَن بن زَيّان، فبعث معهم هديّةً أخرى من الجِياد بمراكبها، وكان يَحوكُ الشّعر، فامتدحَ الملكَ الظّاهر بقصيدةٍ بَعَثَها مع هديّته، ونَصُّها من أولها إلى آخرها: [من الكامل]

لِمَنِ الرَّكائب سَيْرُهُنَّ ذَميلُ　　　والصَّبْرُ ـ إلاّ بعدَهنَّ ـ جَميلُ
يأيّها الحادِي رُوَيْدَك إنَّها　　　ظُعُنٌ يَمِيلُ القَلْب حَيثُ تَميلُ
رفقاً بمَن حملَتْه فوقَ ظهُورها　　　فالحسنُ فوقَ ظهورها محمولُ
لله آيةُ أنجُمٍ شَفّافةٍ　　　تنجاب عنها للظّلام سُدولُ
شُهُبٌ بِآفاق الصّدور طلوعها　　　ولها بأستار الجُدول أفولُ
فـي الهَوْدَج المَزْرُورِ منهَا غادةٌ　　　تَـزَعُ الدُّجى بجبينها فيحولُ
فكأنّها قمرٌ على غُصْنٍ على　　　مَتنَيْ[أ] كثيبٍ والكَثِيبُ مَهيلُ
ثارَت مَطاياها فثارَ بيَ الهَوَى　　　واعتادَ قَلْبي زَفرةٌ وغَليلُ
أومَت لتودِيعِي فغالبَ عَبْرتي　　　نظرٌ تخالسُه العيون كليلُ
دمع أُغَيِّض منه خوفَ رقيبها　　　طوراً ويَغْلِبُني الأَسَى فيَسيلُ
ويحَ المحبّ وشَت به عَبَراتُه　　　فكأنّها قالٌ عليه وقيلُ
صانَ الهَوَى وجفونُه يوم النَّوَى　　　لِمصُون جوهر دَمْعِهنّ تُذِيلُ

(أ) أ: متنى.

وتَهابُه أُسْدُ الشَّرَى في خِيسها　　　ويَرُوعه ظَبْيُ الحَمَى المَكْحُولُ
تأبَى النّفوسُ الضَّيْمَ إلاّ في الهَوَى　　　فالحرُّ عَبْدٌ والعَزِيزُ ذَليلُ
يا بانةَ الوادي ويَا أهْلَ الحِمَى　　　هل ساعةٌ تصْغين لي فأقولُ
مَا لي إذا هَبَّ النّسيمُ من الحِمَى　　　أرتاحُ شوقاً للحِمَى وأميلُ؟
خَلُّوا الصَّبَا يَخْلُصْ إليّ نسيمُها　　　إنّ الصَّبا لصَبابتي تَعليلُ
ما لي أُحَلاُّ[١] عن وُرود محلّه　　　وأُذَادُ عَنهُ ووِرْدُه مَنْهولُ
والبَاب ليس بمرتَجٍ عن مُرتَجٍ　　　والظَّنُّ في المَوْلَى الجميلِ جَميلُ
من لي بزَوْرَة رَوْضَةِ الهادي الذي　　　ما مثلُه في المرْسَلين رسولُ
هو أحمدٌ ومُحَمَّدٌ والمصطفَى　　　والمجتَبَى وله انتهى التّفضيلُ
يا خيرَ من أهدى الهُدى وأجلَّ مَن　　　أثنَى عليه الوَحْي والتّنْزيلُ
وحيٌ من الرّحمن يُلقيه علَى　　　قَلْبِ النّبيِّ مُحَمَّدٍ جِبْرِيلُ
مَدَحتْكَ آياتُ الكِتابِ وبَشَّرت　　　بقُدومك التّوْراةُ والإنجيلُ
صِلةُ الصَّلاةِ عليك تَحْلُو في فَمي　　　مَهْما تكرَّر ذكرُك المَغْسُولُ
فَوَربْعِكَ المأهولِ إنّ بأَضْلُعي　　　قلباً بِحُبِّك رَبْعُه مأهولُ
هل من سبيلٍ للسُّرَى حَتّى أرَى　　　خَيْرَ الوَرَى؟ فهو المُنَى والسُّولُ
حتَّامَ تمْطُلُني اللّيالي وغدَها؟　　　إنّ الزّمانَ بوَعْدِه لَبَخِيلُ
ما عَاقني إلاّ عظيمُ جرائمي　　　إنّ الجَرَائمَ حَمْلُهنَّ ثَقيلُ

(١) آ. آيا صوفيا: أخلا

أنا مُغْرم فتعطَّفوا، أنا مُذنِبٌ   فتجاوزوا، أنا عاثِرٌ فأَقِيلوا
وأنا البَعيد فقرّبوا، والمُستَجِيـ   ـرُ فأمّنوا، والمُرتَجِي فأنيلُوا
يا سائقاً نحو الحِجاز حَمُولَةً   والقَلب بين حُمولِهِ مَحمولُ
لِمُحَمَّدٍ بلِّغْ سلامَ سَمِيِّهِ   فذِمامُه بمُحَمَّدٍ موصُولُ
وسَل الإله له اغتفار ذنوبه   يُسمعْ هناك دعاؤُكَ المقبولُ
وعن المليك أبي سعيدٍ فلتَنُبْ   فلَكَمْ له نحوَ الرَّسول رَسُولُ
مُتَحَمِّلٌ لله كِسْوة بَيْتِهِ   يا حَبَّذاك المَحْمَلُ المحمُولُ
سَعْدُ المَلِيك أبي سَعِيدٍ أنّه   سَيفٌ على أعدائه مَسلُولُ
مَلِك يَحُجُّ المَغرِب الأقصى بِهِ   فَلَهُم به نَحوَ الرَّسول وُصولُ
ملِك به نامَ الأنامُ وأُمِّنَتْ   سُبُلُ المَخاف فلا يُخاف سبيلُ
فالمُلك ضَخم والجَناب مؤمَّلٌ   والفَضل جمٌّ والعَطاءُ جَزيلُ
والصُّنع أجملُ والفَخار مؤثَّلٌ   والمَجد أكملُ والوَفاءُ أصِيلُ
يا مالك البَحرين بُلِّغت المُنَى   قَد عادَ مصرُ على العِراق يَصُولُ
يا خادِم الحَرَمَيْن حُقَّ لك الهَنا   فعليك من رَوْح الإله قبولُ
يا مُتحِفي ومُفاتِحي برسالةٍ   سَلْسالةٍ يُزهى بها التَّرسِيلُ
أهديتَها حَسْناءَ بِكراً ما لَها   غَيْري، وإن كثُر الرِّجال، كَفِيلُ
ضاء المِداد من الوِدادِ بصُحْفِها   حتّى اضمحلَّ عُبُوسُه المجبولُ
/ جُمِعَتْ وحامِلَها بحضرتنا كما   جُمِعتْ بُثَيْنَةُ في الهَوى وجَميلُ

وتأكّـــدت بهدِيَّـــةٍ ودِّيـــة هي للإخـاء المرتـضَى تكميـلُ

أطلعْـتَ فيهـا لِلقِســيّ أهلّـةً يرتـدُّ عنها الطَّرْفُ وهـو كليـلُ

وحُسَـامَ نَصْــرٍ زاهيـاً بنُضَـاره رَاقَ العيــون فِرِنْـدُه المغـسولُ

ماضِي الشَّبَا لمضَائه[1] تعنُو الظُّبَا فَبِه تـصولُ على العِدا وتطُولُ

وبَدائـعَ الحُلَـــلِ اليَمانِيَّـة التـي رَوَّى معاطِفَهـا بمـصرَ النّيـلُ

فأجَلْـتُ فيهـا ناظـرِي فرأيْتُهـا تُحَفاً يجُول الحسنُ حيث تجولُ

جلّت محاسنُهـا فأهْـوَى نحوَهـا بِفَـم القَبـول اللَّـثْمُ والتَّقْبِيـلُ

يا مُسْعِدِي وأخِي العزيزَ ومُنْجِدِي ومـن القُلُـوب إلى هَـواه تَميـلُ

إنْ كـان رسْـم الوُدِّ منك مُذَيَّلاً بالــبِرِّ وهــو بــذَيلِه موصــولُ

فنظيرُه عنـدي وليس يَضِيـرُه بمعـــارِضٍ وَهْمٌ ولا تَخْيِيـــلُ

ودٌّ يزيـدُ و ثابـتٌ شَهِـــدَا بِـهِ و لخـــالدٍ بخُلـــودهِ تـــذيِيلُ

وإليكَهـا تُنبِيـك صـدقَ مودَّتـي صَحَّ الدّليـلُ ووَافـقَ المـدلولُ

فـإذَا بِذَاك المجلسِ السّامي سَمَتْ فلَديــك إقبــالٌ لهــا وقَبــولُ

دام الـوِدادُ على البِعاد موصَّلا بـينَ القُلـوب وحـبلُه موصـولُ

وبقِيتَ فـي نِعَـمٍ لَديـك مَزيدُهـا وعليْك يضفُو ظلُّهـا المسـدُولُ

ثمّ مَرُّوا بعدَها بتُونِس، فبعثَ سُلْطانُ تُونِس أبو فَارس عبد العزيز ابن السُّلْطان أبِي العبَّاس من مُلُوك المُوَحِّدين، هديَّةً ثالثةً انتقَى لها جِيادَ الخيـل، وعزّزَ بها هـديَّةَ

(١) أ، آيا صوفيا: لمصابه، تصحيف

السُلْطانَين وَراءَه، مع رَسوله من كِبار المُوَحِّدين أبي عبد الله ابن تَافْرَاكِين؛ ووصَلَت الهَدايا الثّلاث إلى باب الملك الظّاهر في آخر السَّنة، وعُرِضَت بين يدي السُلْطان، وانتَهَب الخاسِكيّة ما كان فيها من الأقمشة، والسُّيوف، والبُسُط، ومراكب الخَيلِ، وحَمل كثيراً منهم على كثير من تلك الجياد، وارتَبَط الباقيات.

وكانَت هديَّةُ صاحِبِ المغربِ تَشتَمِلُ على خمسةٍ وثلاثين من عِتاق الخيلِ بالسّروج واللُّجُم الذَّهبيّة، والسُّيوف المَحلاّة، وخمسةٍ وثلاثين حِملاً من أقمشة الحريرِ والكتّان والصُّوف والجلد، مُنتقاةً من أحسن هَذه الأَصنافِ.

وهديّةُ صاحب تِلِمْسان تَشتَمِلُ على ثلاثين من الجياد بمراكبها المُمَوَّهة، وأحمالاً من الأقمشة.

وهديّةُ صاحب تُونِس تَشتَمِل على ثلاثين من الجياد مُغَشّاةً ببراقع الثّياب من غير مَراكب، وكلُّها أنيق في صُنعِه، مُستطرَف في نوعِه؛ وجلَس السُلْطان يَوم عرضِها جلوساً فَخْماً في إيوانه، وحضَر الرُّسُل، وأدّوا ما يجب عن مُلوكهم، وقابَلَهم السُلْطان بالبِرّ والقَبُول، وانصرفوا إلى منازِلهم للجرايات الواسِعة، والأحوال الضَّخْمَة، ثمّ حَضرَ وقتُ خُرُوج الحاجّ، فاستأذنُوا في الحَجّ مع مَحْمِل السُلْطان، فأذِن لهم، وأرغَدَ أزوِدَتهم، وقَضَوا حجَّهم، ورجَعُوا إلى حضرةِ السُلْطان ومَعهودِ مَبرّته، ثمّ انصَرفوا إلى مَواطنهم، وشَيَّعهم من برّ السُلْطان وإحسانه، ما ملأ حقائبهم، وأسْنَى ذخيرتَهم، وحصَل لي أنا من بين ذَلك في الفخر ذِكـرٌ جميلٌ بما تَناولتُ بين هؤلاءِ المُلوكِ من السَّعْي في الوُصْلَةِ الباقيةِ على الأبَدِ، فَحمدتُ الله علَى ذلك.

ولاية القضاء الثانية بمصر

ما زلتُ، منذُ العزلِ عن القضاءِ الأوّل سنةَ سَبعٍ وثمانين، مكبّاً على الاشتغالِ بالعلمِ، تأليفاً وتدريساً، والسُلطان يولّي في الوظيفة من يراه أهلاً متَى دعاه إلى ذلك داعٍ، من مَوْت القَائم بالوَظيفة، أو عَزْله. وكان يراني الأوْلَى بذلك، لولاَ وجودُ الذين شَغَّبوا من قبلُ في شأني، من أمراء دَولته، وكِبَار حاشيته، حتَّى انقرضوا، واتفقَت وفاةُ قَاضي المالكيّة إذ ذاك ناصر الدّين ابن التّنَسِيّ، وكنتُ مُقيماً بالفيّوم لضَمّ زرعي هنالك، فبعث عنّي، وقلّدني وظيفةَ القَضاء، في منتصف رمضان من سنة إحدى وثمانمائة، فجَريتُ على السَّنَنِ المعروف مني، من القيام بما يجبُ للوظيفة شَرْعاً وعادَةً؛ وكان - رحمَه الله - يَرضَى بما يَسمع عنّي في ذلكَ، ثمّ أدرَكتْه الوفاةُ في منتصف شوّال بعدَها، وأحْضَر الخليفةَ والقضاةَ والأمراءَ، وعَهِد إلى كبير أبنائه فَرَج، ولإخوته من بَعده واحِداً واحِداً، وأشهدَهم على وصيّته بِما أرادَ، وجعل القائمَ بأمر ابنه في سُلْطانه إلى أتابكه أيْتَمش، وقَضى، رحمةُ الله عليه، وترَتَّبت الأُمور من بَعده كما عَهِد لهم، وكان النّائبَ بالشّام يومئذٍ أميرٌ من خاسكيّةِ السُلْطان يعرف بتَنِم، وسمعَ بالواقعاتِ بعدَ السُلْطان فغصَّ إن لم يكن هو كافلَ ابن الظّاهر بعدَه، ويكونُ زمام الدَّوْلَة بيده، وطفق سَمَاسِرةُ الفتَن يُغرُونه بذلك. وبَينا هُم في ذلك إذ وقعت فتنة الأتَابك أيْتَمش؛ وذلك أنّه كان للأتَابك دَوَادَار غِرٌّ يتطاول إلى الرّياسة، ويترفّع عَلَى أكابر الدَّوْلَة بِحظّهِ من أستاذه، وما لَهُ من الكفالَة على السُلْطانِ، فنقَموا حَالَهم مع / هذا الدّوَادَار، وما يَسُومهم به من التّرَفُّع عليهم، والتّعَرّض لإهمال نصائحهم، فأغروا السُلطان بالخروج عن

رِبْقَةَ[أ] الحَجْر، وأطاعهم في ذلك، وأحضر القضاةَ بمجْلسه للدّعوى على الأتابك باسْتِغْنائه عن الكافِل بما عُلِم من قيامِه بأمرِه، وحُسن تصرّفاته، وشهِدَ بذلك في المجلسِ أمراءُ أبيه كافَّة، وأهلُ المراتبِ والوظائف منهم، شهادةً قبِلَهَا القضاةُ، وأعذروا إلى الأتابَك فيهم، فلم يَدفَع في شيءٍ من شهادتهم، ونَفَذ الحكمُ يومئذٍ برفع الحَجْر عن السُّلْطانِ في تصرّفاتِه وسياسةِ مُلكِه، وانفَضَّ الجمع، ونزَل الأتابكُ من الإسطبل إلى بيت سُكناه.

ثمّ عاوَد الكثيرُ من الأمراءِ نَظَرهم فيما أتوه من ذلك، فلم يَروهُ صواباً، وحملوا الأتابك على نَقْضه، والقيام بما جَعَل له السُّلْطانُ من كفالة ابنه في سُلْطانِه، ورَكب، وركبوا معَه في آخرِ شهر المولد النّبويّ، وقاتَلهم أولياءُ السُّلْطان فَرَح عشيَّ يومِهم وَليلتَها، فهزمُوهم، وساروا إلى الشَّام مُستَصْرخين بالنّائب تنِم، وقد وقَر في نفسه ما وقَر من قَبلُ، فبرَّ وِفادتهم، وأجاب صَريخَهم، واعتزموا على المُضيّ إلى مِصْرَ؛ وكان السُّلْطان لمَّا انفضَّت جُموع الأتابك، وسار إلى الشَّام، اعتَمله في الحركة والسَّفرِ لخَضْدِ شَوْكتِهم، وتفريق جماعتهم؛ وخرج في جُمادى حتَّى انتهى إلى غَزَّةَ، فجاءه الخَبرُ بأنّ نائب الشَّام تنِم، والأتابك، والأمراء الذين مَعَه، خرجوا من الشَّام زاحفين للقاء السُّلْطان، وقد احتَشَدوا وأوعَبوا، وانتهوا قريباً من الرَّمْلة، فراسَلَهم السُّلْطانُ معَ قَاضي القُضاة الشّافعيّ، صَدر الدّين المُنَاويّ، ونَاصر الدّين الرَّمَّاح، أحد المعَلّمين لِثقافةِ الرّماح، يُعْذِر إليهم، ويَحْمِلُهم على اجتماعِ الكَلِمة، وتَركِ الفِتْنة، وإجابتهم إلى ما

(أ) في أ. آيا صوفيا: رقة الحجر، ولعل الأوجه ما أثبتناه.

يطلُبون من مَصَالحهم؛ فاشتطُّوا في المطالب، وصمَّموا على ما هم فيه. ووَصَل الرَّسولان بخبرِهم، فركبَ السُّلطان من الغدِ، وعبَّى عَساكره، وصمَّم لمعاجلتهم، فلقِيهم أثناء طريقه، وهاجَمهم فهاجَمُوه، ثمّ ولَّوا الأدبارَ منهزمين، وصُرِع الكثيرُ من أعيانهم وأُمرائهم في صَدْر مَوْكبه، فما غشِيهم الليلُ إلاَّ وهم مُصَفَّدون في الحديدِ، يقْدُمهم الأمير تَمِر، نائب الشَّام، وأكابرُهم كلّهم، ونَجَا الأتابكُ أيتَمش إلى القَلْعة بدمَشْق، فآوى إليها، واعتقله نائب القلعة، وسار السُّلطان إلى دمشق، فدخلها على التَّعبئة في يوم أغرّ، وأقام بها أيّاماً، وقَتَل هؤلاءِ الأمراء المُعْتقلين وكبيرَهم الأتابك ذَبْحاً، وقتل تَمِر من بينهم خَنْقاً، ثمّ ارتحل راجعاً إلى مصر.

وكنتُ استأذنت في التّقدُّم إلى مِصْرَ بين يَدَي السُّلطانِ لزيارة بَيْتِ المقدِس، فأذِنَ لي في ذلك، ووصلتُ إلى القُدْس ودخلتُ المسْجِد، وتبرَّكْتُ بزيارته والصّلاة فيه، وتعفّفْت عن الدّخول إلى القُمَامَة لما فيها من الإشَادة بتكذيب القرآن، إذ هو بناءُ أمم النّصرانيّة على مكّان الصَّليب بزعْمهم، فنكِرتْه نفْسي، ونَكِرْتُ الدُّخول إليْه، وقضيت من سُنَن الزّيارة ونافِلَتِها ما يجب، وانصرفتُ إلى مدفَن الخليل، عليه السّلام، ومررتُ في طريقي إليه ببيت لَحْم، وهو بناءٌ عظيم على موضع ميلادِ المسيح، شَيَّدت القياصرةُ عليه بناءَ بسِماطَيْن من العَمَد الصُّخُور، مُنَجّدَةً مضطفّةً، مرقوماً على رؤوسها صُورُ مُلُوك القياصرة، وتواريخ دُوَلِهم، مُيَسَّرةً لمن يبتَغي تحقيق نَقْلها بالتَّراجمة العارفين لأوضاعها؛ ولقد يشهد هذا المصْنَع بِعِظَم مُلْك القياصرة وضَخامة دولتهم.

ثمّ ارتحلتُ من مدفن الخليل إلى غزّة، وارتحلتُ منها، فوافيتُ السُلطانَ بظاهر مِصْر، ودخلتُ في رِكابه أواخر شهرِ رمضان سنةَ اثنين وثمانمائة. وكانَ بمصر فقيه من المالكيّة يعرف بنُور الدّين ابن الخلال، ينوب أكثرَ أوقاته عن قُضاة القضاة[أ] المالكيّة، فحرّضه بعض أصحابِه على السّعي في المنصِب، وبذَل ما تيَسّر من مَوجوده لبعض بِطانةِ السُلْطانِ السّاعين له في ذلك، فتمّت سِعايته في ذلك، ولبِس منتصفَ المحرَّم سنة ثلاث؛ ورَجَعْتُ أنَا للاشتغال بما كنتُ مشتغلاً به من تدرِيسِ العلمِ وتأليفهِ، إلى أنْ كان السّفر لمدافعةِ تِمر عن الشّام.

سَفَرُ السُّلْطان إلى الشّام لمُدافَعَة الطّطَر[ب] عن بلاده

هؤلاء الطّطَر من شُعوب التُّرك، وقد اتّفق النسّابة والمؤرخونَ على أنّ أكثر أمم العالم فِرْقتان، / وهما: العرب والتُّرك، وليس في العالم أُمّة أوفرَ منهما عدداً، هؤلاء في جنوبِ الأرضِ، وهؤلاء في شمالِها، وما زَالوا يَتَناوَبُون المُلْك في العالَم؛ فتارةً يَملك العربُ ويزْحلون الأعاجمَ إلى آخر الشّمال، وأخرى تَزْحَلهم الأعاجم والتُّرك إلى طرف الجنوب، سنّة الله في عباده.

فلنذكر كيف انسَاقَ المُلْك لهؤلاءِ الطّطَر، واستقرت الدُّول الإسْلاميّة فيهم لهذا العهدِ، فنقول:

إنّ الله سبحانه، خلقَ هذا العالَم واعتَمَره بأصناف البَشَر على وَجه الأرض، في

(أ) في آيا صوفيا (القضاة) واحدة (ب) في آيا صوفيا نقطة على كل طاء

وسَط البُقْعة التي انكشفت من الماء فيه، وهي عندَ أهل الجغرافيا مقدَار الرُّبع منه، وقسَّموا هذَا المغمور بسبعة أجزاء يُسَمُّونها الأقاليم، مبتدأةً من خطِّ الاستواء بيْنَ المشرق والمغرب، وهو الخطّ الذي تسامِتُ الشَّمسُ فيه رؤوسَ السُّكَّان، إلى تمام السَّبعة أقاليم، وهَذا الخطّ في جَنُوب المَغمورِ، وتَنتهي السَّبعة الأقاليم في شماله، وليس في جَنوب خطِّ الاستواء عِمارةٌ إلى آخر الرّبع المنكَشف، لإفراط الحرّ فيه، وهو يَمنع من التَّكوين؛ وكذلك لَيس بعدَ الأقاليم السَّبعة في جهة الشَّمال عِمارة، لإفراط البَرْد فيها، وهو مَانع من التكوين أيضاً، ودخَل الماء المحيطُ بالأرض من جهة الشَّرق فوق خطِّ الاستواء بثلاث عشرة درجة، في مدخَل فسيح، وانساح مع خَطِّ الاستواء مُغرِّباً، فمَرَّ بالصِّين، والهِند، والسِّند، واليَمَن، في جَنوبها كلِّها، وانتهى إلى وسط الأرض، عند باب المَندَب، وهو البحرُ الهِنديّ والصِّينيّ، ثمّ انحرفَ من طرفهِ الغَربيّ، في خليجٍ عندَ باب المَندَب، ومَرّ في جهة الشَّمال مغرِّباً باليَمَن، وتِهامَة، والحجاز، ومَدْيَن، وأيلَة، وفاران[1]، وانتهى إلى مدينة القُلْزُمِ، ويُسمّى بحر السّويس، وفي شرقيّه بلادُ الصّعيد إلى عَيذَاب، وبلاد البُجَاة؛ وَخرَجَ من هذا البحرِ الهنديّ من وَسطِه خليجٌ آخر يُسَمّى الخليجَ الأخضر، ومَرَّ شمالاً إلى الأُبُلَّة، ويسمّى بَحْر فَارس، وعَليْه في شرقيّه بلادُ فارس، وكِرْمان، والسِّند؛ ودخلَ الماء أيضاً من جهة الغرب في خليج مُتضايق في الإقليمِ الرّابع، ويُسَمَّى بحرَ الزُّقاق، تكون سَعتُه هنالك ثمانيةَ عشرَ ميلاً، ويمر مُشَرِّقاً ببلاد البَرْبَرِ، من المغرب الأقصَى، والأوسَط،

(أ) آ، آيا صوفيا: وفارا

وأرض إفرِيقِيَّة، والإسْكَنْدَرِيّة، وأرض التِّيه، وفلسطِين، والشّام؛ وعليه في الغرب بلادُ الافرنْج كلّها؛ وخرج منه في الشّمال خليجان، الشّرقيّ منهما خليج القُسْطَنطِينِيّة[أ]، والغربيّ خليج البَنَادقة، ويُسَمّى هذا البحرُ البحرَ الرُّوميّ والشّاميّ.

ثمّ إنّ هذه السّبعة الأقاليم المعمورة، تنقسم من شرقيّها وغربيّها بنصفين، فنصفُها الغربيّ في وسطه البحرُ الرُّوميّ، وَفي النّصف الشّرقيّ من جانبه الجنوبيّ البَحر الهنديّ؛ وكان هذا النّصف الغربيّ أقل عمارةً من النصف الشّرقيّ، لأنّ البحرَ الرُّوميّ المتوسّط فيه، انفسَح في انسياحه، فغمرَ الكثيرَ من أرضه، والجانبُ الجنوبيّ منه قليل العِمارة لشدّة الحرّ؛ فالعُمْران فيه في جانب الشَّمال فقط، والنّصف الشّرقيّ عُمرانه أكثر بكثير، لأنَّه لا بَحرَ في وسطه يُزَاحم، وجانبه الجنوبيّ فيه البحر الهنديّ، وهو مُتَّسع جدّاً، فلطّف الهواءَ فيه بمجاورة الماء، وعدّل مِزاجَه للتّكوين، فصَارت أقاليمُه كلُّها قابلة للعِمارة، فكَثُر عُمرانه.

وكان مبدأُ هذا العُمْران في العَالم، من لَدُن آدمَ، صلواتُ الله عليه، وتَنَاسَل ولَدُه أوّلاً في ذلك النّصف الشَّرقيّ، وبادت تلك الأُمَم ما بينه وبين نوحٍ، ولم نَعلم شيئاً من أخبارها، لأنَّ الكُتب الإلهيّة لم يرِد علينا فيها إلاّ أخبارُ نوح وبَنيه، وأمّا مَا قبلَ نوحٍ فلم نَعرف شيئاً من أخباره؛ وأقدَم الكتب المنزلة المتداولة بين أيدينا التّوراةُ، وليس فيها من أخبارِ تلك الأجيال شيء، ولا سبيل إلى اتّصال الأخبار القديمة[ب] إلاّ بالْوَحي؛ وأمّا الأخبارُ فهي تَدرُس بدروس أهلها.

(أ) أ، آيا صوفيا: القسطنطينة (ب) آيا صوفيا: القيمة

واتّفق النّسّابون على أنّ النّسل كلّه منحصر في بني نوح، وفي ثلاثةٍ من ولدِه، وهم: سَام، وحَام، ويافِث؛ فمن سَام: العرب، والعِبْرانيُّون، والسّبْائيّون: ومن حَام: القِبْط، والكَنْعَانِيُّون، والبَرْبَر، والسُّودان؛ ومن يَافِث: التُّرك، والرُّوم، والخَزَر، والفُرْس، والدَّيْلَم؛ والجِيل.

ولا أدري كيف صَحّ انحصارُ النّسَب في هؤلاءِ الثّلاثةِ / عندِ النّسّابين؛ أمِنَ النّقل؟ وهو بَعِيدٌ كما قدّمناه، أو هو رأيٌ تفرّع لهم من انقِسام جهات المَعْمُور، فجَعَلُوا شعوب كلّ جهةٍ لأهل نَسَبٍ واحِدٍ يشتركون فيه؛ فجَعَلوا الجنوبَ لبني سَام، والمغربَ لبني حَام، والشّمال لبني يافث؛ إلاّ أنّه[أ] المتَناقل بين النّسّابة في العالَم كما قلناه، فلنعتمِدْه، ونقولُ: أوّلُ مَن مَلَكَ الأرض من نَسْل نُوح عليه السّلام، النّمرود بن كَنْعَان بن كوش بن حام، ووقع ذكرُه في التوْراة، ومَلك بعدَه عابر بن شالَخ الذي يُنسَبُ إليه العِبرانيّون، والسُّريانيّون، وهم النّبَطُ، وكانت لهم الدّوْلَةُ العظيمةُ، وهم مُلوك بابِل، من نبيط بن أشُّور بن سام، وقيل: نَبيط بن ماش بن إرَم، وهم مُلوكُ الأرض بعد الطّوفان على ما قالَه المَسْعُوديّ[1]، وغلَبَهم الفرسُ على بَابِل، وما كان في أيديهم من الأرض. وكانت يومئذٍ في العالم دَوْلتان عظيمتان، لمُلوك بابل هؤلاء، وللقِبْط بمصر، هذه في المغرب[ب]، والأخرى في المشرقِ؛ وكانوا ينتحلون الأعمالَ السّحريّةَ، ويُعوّلون عليها في كثيرٍ من أعمالهم، وبَرَابِي مِصر، وفِلاَحةُ[2] ابن وَحْشيّة، يشهدان بذلك.

(أ) آيا صوفيا: ان (ب) آيا صوفيا: الغرب

---

(1) مروج الذهب 1: 213

(2) كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشيّة النبطي الكلداني.

فلمّا غلب الفُرسُ على بَابِل، استقلّ لهم مُلْك المشرق، وجاء موسَى - صلوات الله عليه - بالشّريعة الأوّليّة، وحرَّم السّحر وطُرُقَه، وغلَب الله له القِبْط بإغراق فرعونَ وقومه؛ ثمّ مَلَكَ بنو إسرائيل الشَّام، واختطّوا بيتَ المَقْدِس، وظهر الرُّومُ في ناحية الشّمال والمغرب، فغلبوا الفُرس الأولَى على مُلكهم، وملَكَ ذو القَرنين الإسْكَنْدَر ما كان بأيديهم، ثمّ صار مُلْكُ الفُرْسِ بالمشرقِ إلى مُلُوكهم السَّاسانيّة، ومُلْكُ بني[أ] يونان بالشّام والمغربِ إلى القياصرة، كما ذكرنا ذلك كلَّه من قَبلُ، وأصبحت الدَّوْلَتان عظيمتين، وانتظمتا العالَم بما فيه، ونازع التُّركُ مُلُوكَ فارس في خُراسانَ، وما وراءَ النّهرِ، وكانت بينهم حُروبٌ مشهورة، واستقرّ مُلْكُهم في بَني أَفْراسْيَاب.

ثمّ ظهر خاتِمُ الأنبياء مُحَمَّد، صلواتُ الله عَلَيه، وجَمَعَ العربَ على كلمةِ الإسلامِ، فاجتَمعوا له، ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الأنفال، الآية 63]، وقبَضه الله إليه، وقد أمَرَ بالجهاد[ب]، ووعَد عن الله بأنّ الأرض لأُمَّتِه، فزَحَفُوا إلى كِسْرَى، وقَيْصَرَ بعد سَنَتَيْن من وَفاته، فانتَزعوا المُلْك من أيديهما، وتَجاوزوا الفُرسَ إلى التُّرك، والرُّومَ إلى البَرْبَر وَالمغرب، وأصبَح العالَم كلُّه مُنتظِماً في دَعوة الإسلام.

ثمّ اختلفَ أهل الدِّين من بعده في رجوعهم إلى مَن ينظم أمرَهم، وتَشيّع قومٌ من العرب فزعموا أنّه أوصى بذلك لابن عمّه عليّ، وامتَنَع الجماعةُ من قَبول ذلك، وأَبَوْا إلاّ

(أ) أ، آيا صوفيا: بنو (ب) آيا صوفيا: الجهاد

الاجتهادَ في تَعْيينه، فمَضَى على ذلك السَّلَف في دولة بني أُميّة الّتي استفحل الملكُ والإسلامُ فيها، وتناقل التّشيّعُ بتَشعّبِ المذاهبِ، في استحقاق بني عليّ، وأيِّهم يتعيّن له ذلك، حتّى انساقَ مذهبٌ من مذاهبهم إلى مُحَمَّد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس، فظهرت شيعتُه بخُراسان، وملكوا تلك الأرض كلَّها، والعراقَ بأسرِه، ثمّ غَلَبوا على بني أُمَيَّة، وانتزعوا المُلْك من أيديهم، واستفْحل مُلكُهم، والإسلامُ باستفحاله، وتَعَدّد خُلَفاؤُهم، ثمّ خامَر الدَّوْلَةَ ما يُخامر الدُّولَ من التَّرَف والرّاحة، ففَشِلُوا، وكثُر المنازعون لهم من بني عليّ وغيرِهم، فظهرت دولةٌ لِبَني جَعْفر الصَّادق بالمغرب، وهم العُبَيْدِيُّون بَنُو عُبَيد الله المهديّ[أ] ابن مُحَمَّد، قام بها كُتَامَة وقَبائلُ البَربرِ، واستَوْلوا على المَغربِ ومِصر؛ ودولةُ بني العلَويّ بطَبَرِسْتان، قام بها الدَّيْلَمُ وإخوانهم الجِيل؛ ودولةُ بني أُمَيّة الثانيةُ بالأنْدَلُس، لأنّ بني العبّاس لمّا غلبوهم بالمشرق، وأكثَروا القتل فيهم، هرب عبد الرّحمن بنُ معاوية بن هشام بن عبد الملك، ونَجا إلى المغرب، ثمّ ركِب البحرَ إلى الأنْدَلُس، فاجتمع عليه من كان هُنالك من العَرب ومَوَالي بني أُميَّة، فاستحدَث هنالك مُلكاً آخرَ لهم، وانقسمت الملّةُ الإسلاميّةُ بينَ هذه الدُّوَلِ الأربعِ إلى المائة الرّابعة.

ثمّ انقرَضَ مُلكُ العَلَويّة من طَبَرِستَان، وانتقَل إلى الدَّيلَم، فاقْتَسَموا خُراسانَ وفَارِس والعراق، وغَلَبوا على بَغْداد، وحَجَرَ الخليفةَ بها بَنُو بُوَيْه منهم، وكانَ بنو سَامان ـ من أَتْباع بني طاهرٍ ـ قد تَقَلّدوا عَمَالات ما وراءَ النَّهر، فلمّا فشِل أمرُ

(أ) آيا صوفيا: عبيد المهدي

الخِلافة، استبدُّوا بتلكَ النّواحِي، وأصاروا لَهم فيها مُلكاً ضخماً، وكان آخرهم محمود بن سُبُكْتُكِين من مَواليهم، فاستبدّ عليهم، ومَلَك خُراسانَ، وما وراءَ النّهر / إلى الشّاشِ، ثمّ غَزْنَة، وما وراءها جنوباً إلى الهِند، وأجاز إلى بلاد الهِند، فافتتح منها كثيراً، واستخرج من كنوزها ذَخائرَ لم يعثر عليها أحدٌ قبلَه، وأقامت المِلّةُ على هذا النّمطِ إلى انقضاءِ المائة الرّابعة.

وكان التُّرك منذُ تَعبّدوا للعرب، وأسْلموا على ما بأيديهم وراءَ النّهر، من كَاشْغَر، والصّاغُون إلى فَرْغَانَة، ووَلاّهم الخلفاءُ عليها، فاستحدثوا بها مُلكاً، وكانت بَوادِي التُّرك في تلك النّواحي مُنتجِعَةً أمطارَ السّماء، وعُشْب الأرض، وكان الظُّهور فيهم لقبيلة الغُزّ من شعوبهم، وهُم الخُوزُ، إلاّ أنّ استعمالَ العرب لها عرَّبَ خاءَها المعجمة غيناً، وأُدْغِمَتْ واوها في الزّاي الثّانية، فصارت زاياً واحدة مشدّدة.

وكانت رياسة الغُزّ هؤلاء في بني سَلْجوق بن ميكائل، وكانوا يُستَخْدَمونَ لمُلوكِ التُّركِ بتُركستانَ تارةً، ولمُلوك بني سَامَان في بُخَارَى أخرى، وتَحْدُث بينهما الفِتْنة، فيتألّفون مَن شاءوا منهما؛ ولمّا تغلّب محمود بن سُبُكْتِكين على بني سَامَان، وأجاز من خُراسان فنزل بُخَارَى، واقتَعد كرسيَّهم، وتقبّض على كِبار بني سَلْجوق هَؤلاء، وَحبسهم بخُرَاسَان، ثمّ مَات وقام بالأمر أخوه مَسْعود، فملك مكانَه، وانتقضَ عليه بنو سَلْجُوق هؤلاء، وأجاز الغُزُّ إلى خُراسانَ فملكوها، وملكوا طَبَرِسْتَانَ منْ يد الدّيْلَم، ثم أصْبَهَان وفارس، من أيدي بني بُوَيْه، ومَلِكُهُم يومئذٍ طُغْرُلْبَك بن ميكائيل من بني سَلْجوق وغلب على بغدادَ من يد بني مُعزّ الدّوْلَة ابن بُوَيْه المستبدّين على الخليفة

يومئذٍ المطيع، وحَجَرَه عن التصرُّف في أمور الخِلافة والمُلْك، ثمّ تجاوز إلى عِراق العَربِ، فغلبَ على مُلوكِه، وأبادَهم، ثمّ بِلاد البَحْرين وعُمان، ثمّ على الشّام، وبلاد الرُّوم، واستوعَب مَمالك الإسلام كلَّها، فأصَارها في مُلكه؛ وانقَبَضَت العربُ راجعَةً إلى الحِجَاز، مَسْلوبةً من المُلك، كأنْ لم يكُن لهم فيه نَصيب، وذلك أعوامَ الأربعين والأربعمائة.

وخرجَ الإفْرنج على بقايا بني أُمَيّة بالأنْدَلُس، فانتزعوا المُلْك من أيديهم، واستَوْلوا على حواضِر الأنْدَلُس وَأمصَارِها، وضَاق النّطاقُ على العُبَيْدِيِّين بالقَاهرة بمُلوك الغُزّ يُزَاحمونهم فيها من الشّام، بمحمود بن زَنْكي[1] وغيره من أبنائهم ومماليكهم[أ]، وبمُلوك المغرب قد اقتطعوا ما وَرَاءَ الإسْكَنْدَرِيّة، بمُلوك صِنْهاجة في إفْرِيقِيّة، والمُلَثّمين المرابطين بعدَهم بالمغرب الأقصَى والأوسط، والمَصَامِدة المُوَحّدين بَعدَهم كذلك، وأمَام الغُزّ والسّلجوقيّة في مُلك المشرق، وبَنوهم ومَواليهم من بعدِهم إلى انقضاءِ القَرن السّادس.

وقد فشل ريحُ الغُزّ، واختلّت دولتُهم، فظهر فيهم جِنكيزخَان، أميرُ المُغلِ من شعوب الطَّطَر، وكان كاهناً، وجدّه النجر كاهناً مثلَه، ويزعمون أنّه وُلِد من غير أب؛ فغلَب الغُزّ في المفازة، واستَوْلَى على مُلك الطَّطَر، وزحَفَ إلى كرسيّ المُلك بخُوارَزْم، وهو عَلاَء الدّين خُوَارَزْم شاه، سَلَفُه من موالي طُغْرُلْبَك، فغَالبَه على مُلكِه،

(أ) آيا صوفيا: ممالكهم

(1) رسمه في أ وآيا صوفيا بصاد في وسطها زاي، إشارة إلى نطقه بينهما.

وفرَّ أمامَه، واتَّبعه إلى بُحَيرة طَبَرِسْتان، فنَجَا إلى جزيرة فيها[1]، ومَرِض هُنالك ومات[2]. ورجع جِنكِيزخَان إلى مازنْدَرَان، من أمصارِ طَبَرِسْتان[3]، فنزلها، وأقَام بها، وبعث عساكره من المغُل حتَّى استولوا على جميع ما كان للغُزّ، وأنزل ابنَه طولي[4] بكرسيّ خُراسانَ، وابنَه دُوشيخان[5] بَصَراي[6] وبلاد التُّرك، وابنه جَقَطاي[7] بكرسيّ التُّرك فيما وراءَ النَّهر، وهي كاشْغَر وتُركِسْتَان، وأقام بمازَنْدَران إلى أن مات ودُفِنَ بها. ومات ابنُه طولي وله ولدان، قُبْلاَيْ وهُولاكُو[8]، ثمّ هَلك قُبلاَيْ، واستقلَّ هُولاكُو بمُلْك خُراسان، وحدث بينه وبين بَرَكة بن دُوشيخان فتنةٌ بالمُنازعة في القَانيّة؛ تحاربوا فيها طويلاً، ثمّ أَقْصَرُوا. وصرف هُولاكُو وَجْهَهُ إلى بلاد أصْبَهان وفارس، ثمّ إلى الخُلَفاء المُسْتبدِّين ببغداد[9]، وعِراقِ العَرَبِ، فاستولَى على تلك النَّواحي، واقتحمَ بَغْداد على الخليفةِ المستَعصمِ، آخر بني العبّاس، وقتَلَه، وأعظَمَ فيها

(1) يقصد بحر قزوين، واسم الجزيرة: آبسكون. روضة أولي الألباب للبناكتي 251.

(2) كانت وفاته سنة 618هـ. روضة أولي الألباب 251.

(3) مازندران ليست من أمصار طبرستان، وإنما اسم ظهر في القرن السابع الهجري مرادفاً لطبرستان، ثم بطل استعمال (طبرستان)، وحلّ محله (مازندران)، وأصبح هو الاسم الشائع في القرون التالية. وشمل اسم مازندران لبعض الوقت إقليم جرجان المجاور. بلدان الخلافة الشرقية 409. وكان ياقوت – وهو أول من ذكر اسم مازندران من البلدانيين المسلمين – قد أوضح ذلك بقوله: "وما أظن هذا إلا اسماً محدثاً لطبرستان" 5: 41.

(4) في المصادر التي تتحدث عن المغول، يرد اسمه: تولوي. انظر على سبيل المثال: تركستان لبارتولد 128، 715.

(5) في المصادر: جوجي.

(6) وترد أيضاً سراي، مدينةٌ على شاطىء نهر إتل من الجانب الشمالي الشرقي، غربيّ بحر قزوين وشماليه، وهي فرضةٌ عظيمةٌ للتجار ورقيق الترك، وقاعدة بلاد الترك. تقويم البلدان 64، 216-217.

(7) جغتاي.

(8) بل كان له أربعة أولاد، فبالإضافة إلى هذين، كان له: مونكو، وأريغ بوكا.

(9) يقصد الخلفاء العباسيين.

العَيْث والفَساد. وهو يومئذٍ على دينه من المجوسيّة، ثمّ تخطّاه[أ] إلى الشّام، فملك أمصاره وحَواضِره إلى القُدْس، ومُلوكُ مصر يومئذٍ من موالِي بَني أيُّوب قد استحاشوا ببَرَكَة صاحب صَرَاي، فزحف إلى خُراسان ليأخُذ بحُجْزَة هُولاكُو عن الشَّام ومصر، وبلَغ خبره إلى هُولاكُو فحَرِدَ لذلك، لِمَا بينهما من المُنافَسَة والعداوة، وكرَّ راجعاً إلى العراق، ثمّ إلى خُراسان، لمدافعة بَرَكة، وطالت الفِتْنة بينَهما إلى أنْ هلك هُولاكُو سنة ثلاثٍ وستِّين من المائة السَّابعةِ.

وزحَفَ أمراءُ مِصرَ من موالِي بني أيُّوب، وكبيرهم يومئذٍ قُطُز، وهو سُلْطانُهم، فاستولى على أمصارِ الشَّام التي كان هُولاكُو انتزعها من أيدي بني أيّوب، واحدةً واحدةً، واستضاف الشَّام إلى مصر في مُلكه.

ثمّ هَدى الله أبغَا بن هُولاكُو إلى الإسلام؛ فأسْلَمَ بعد أنْ كان أسْلَمَ بركَةَ ابنُ عمِّه، صاحبُ التَّخت بصَرَاي من بَني دُوشي خان على يَدِ مُريدٍ من أصحاب نجم الدِّين كُبْرَى[1]، فتواطَأ هو وأبغَا بن هُولاكُو على الإسلامَ، ثمّ أسلَمَ بعد ذلك بنو جَقَطاي وراءَ النّهْر، فانتظمت ممالكُ الإسلام في أيدي ولد جِنْكِيزْخَان من المغُل، ثمّ من الطَّطَر، ولَم يَخرج عن مُلكِهم منها إلاّ المغربُ والأنْدَلُس ومصرُ والحجاز، وأصبحوا، وكأنّهم

(أ) آيا صوفيا: تخطا

(1) أ، آيا صوفيا: شمس الدين، والأصح ما أثبتناه. وهو أحمد بن محمد بن عمر الخِيوَقي من كبار رجال الصوفية، وهو خوارزمي لكنه طاف بالبلاد وسمع الحديث، وكان ذا حضور وموقف، سبق أقرانه فهماً وعلماً؛ فلُقِّب الطامّة الكبرى، ثم شاع اسمه بعد حذف (الطامة). صنّف كثيراً ومنها تفسير كبير. استشهد وهو يحارب التتار. شذرات الذهب 7: 141.

في تلك الممالك خَلَفٌ من السُّلجوقيّة والغُزّ، واستمرّ الأمرُ على ذلك لهذا العهدِ.

وانقرضَ مُلْك بني هُولاكُو بموت أبِي سعيد[1] آخرِهم، سنة أربعين[2] من المائة الثّامنة، وافترقت مملكتُهم بين عُمّال الدّوْلَة وَقَرابتها من المُغُل؛ فملك عراقَ العَرب، وأذْرَبيجَان وتَوْرِيز[3]، الشّيخُ حسَن سبْط هُولاكُو، واتّصل مُلكُها في بَنِيه لهذا العهد؛ ومَلَك خُرَاسان وطَبَرِسْتان شاه وليّ من تابعة بني هُولاكُو؛ ومَلَك أصْبهانَ وفارسَ، بنو مُظفَّر اليَزديّ[أ] من عُمّالهم أيضاً؛ وأقام بَنو دُوشِي خان في مملكة صَرَايْ، وآخِرُهم بها طقطمش بن بَزْدِي بَكْ.

ثمّ سَمَا لبني جَقَطَاي ورَاءَ النّهر، ومُلُوكِهِم أَمَلٌ في التغلّب على أعمال بني هُولاكُو، وبني دُوشِي خان، بما استفحل ملكهم هنالك، لعدم التّرف والتّنعم، فبقُوا على البَداوة؛ وكان لهم مَلكٌ اسمه سَيُوْر غتمِش[4] هَلك لهذا العَهد، وأجلَسوا ابنَه على

(أ) أ: النردي. ومهملة في آيا صوفيا، والأصح ما أثبتناه، نسبةً إلى يَزْد إحدى أهم مدن إقليم فارس، فقد التحق مظفر الدين جد هذه الأسرة بخدمة أتابكة يَزْد، وشغل بعض المناصب الكبيرة في بلاطهم، إلى أن توفي سنة 713هـ، فتولى أولاده مناصب كبرى، إلى أن أقاموا دولتهم في فارس وكرمان. عن المظفريين ومشجر أنسابهم انظر: العبر 10: 725، تاريخ الدول الإسلامية 2: 526.

---

(1) هو: بوسعيد بن خدا بندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو المُغُليّ. ونبّه الصفدي وابن تغري بردي على أن أكثر الناس يذكرونه (أبو سعيد) على أنها كنيته والصحيح أنه اسم علم بلا ألف. وذكر الصفدي أنه اطّلع على كتبه التي أرسلها إلى الملك الناصر وكتب فيها ألقابه الذهبية (بوسعيد) باللازورد مزمّكة (متداخلة) بالذهب. وزاد الصفدي وابن تغري بردي أن بعض الناس يقولونه معرّباً (بوصيد) بالصاد المهملة وإسقاط العين. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات 10: 322، أعيان العصر وأعوان النصر 1: 68، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 9: 309.

(2) كذا أرّخ ابن خلدون لوفاته، والذي تذكره المصادر أنه توفي في ربيع الآخر من سنة ستٍ وثلاثين وسبعمائة. انظر: الوافي بالوفيات 10: 323، أعيان العصر 2: 69، النجوم الزاهرة 9: 309.

(3) صيغة أخرى لاسم مدينة تبريز.

(4) في أ: ساطلمش، والمثبت من مخرج في آيا صوفيا كتبه ابن خلدون بخطه في الهامش وعليه علامة التصحيح (صح).

التَّخت مكانَه، وأمراءُ بني جَغَطاي جميعاً في خدمته، وكبيرُهم تَيمور المعروف بتِمُر بن طَرَغاي[أ] [1] فقام بأمرِ هذا الصَّبِيّ وكفَله، وتزوّج أمّه، ومدّ يَدَه إلى ممالك بني دُوشِي خان الّتي كانت على دعوتهم وراءَ النّهر، مثل: سَمَرْقَنْد وبُخَارى وخُوارَزْم، وأجاز إلى طَبَرِسْتان وخُرَاسانَ فملكها، ثمّ ملك إصْبهان، وزحَف إلى بَغْداد، فملكها من يد أحمد بن أُوَيس، وفرَّ أحمد مستجيراً بمَلِكِ مصرَ، وهو المَلك الظّاهِر بَرْقُوق، وقد تقدّم ذكره[2]، فأجارَهُ[ب]، ووعده النّصر من عدوّه، وبعث الأمير تِمُر رُسُلاً إلى صاحب مصر، يقرّرون معه الولايةَ والاتّحاد، وحُسْنَ الجِوار، فوصلوا إلى الرَّحْبة، فلقيهم عاملُها، ودارَ بينهم الكلامُ فأوْحشوه في الخطاب، وأنزلهم، فبَيَّتَ جميعهم، وقتَلهم، وخرج الظّاهر بَرْقُوق من مِصْر، وجَمَع العربَ والتُّرْكُمان، وأناخ على الفُرات، وصَرَخ بطقطمش من كرسيّه بِصَراي، فحشد ووصل إلى الأبواب. ثمّ زحف تِمُر إلى

(أ) أ: طرغان، آيا صوفيا: طوغان وصححت: ترغاي (ب) أ: فأجازه

(1) وكُتب بالعربية على شاهد قبر تيمورلنك في سمرقند المعروف بـ"كور أمير" ما نصه:
"هذا مرقد السلطان الأعظم الخاقان الأكرم أمير تيمور كوركان بن الأمير ترغاي بن الأمير بُركل بن الأمير ايلنكير بن الأمير إيجل بن قراجار نويان بن الأمير سوغو جيجن بن الأمير إيردجي بارولا بن الأمير قجولاي بن تومناي خان. وبهنا ينشعب نسب جنكيز خان من هذا الأصل، وحصل إلى السلطان الأمجد المدفون في هذا المرقد غاية الشرف، فإن جنكيز خان بن الأمير بيسوكاي بهادر بن الأمير برتل بن قبول خان بن تومناي خان المذكور، وهو ابن الأمير بايسنغر بن قيدو خان بن الأمير توتومن بن الأمير بوقا بن الأمير بوذنجر. ولم يعرف والد لهذا الماجد، إلا أن أمه الانغ – غوا حكت، وكانت شيمتها الصدق والعفاف ولم تكن بغياً، أنها حملته من نور دخل عليها من أعلى الباب، فتمثل لها بشراً سوياً، وذكر أنه من أبناء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب". وهناك اختلاف كبير بين مؤرخي عصره حول عراقة نسبه أو وضاعته.

(2) العبر 10: 721.

الشَّامَ سنة سِتٍّ وتسعين، وبلَغ الرُّهَا، والظَّاهرُ يومئذٍ على الفُرات، فَخَام تِمُرْ عن لقائه، وسَار إلى محاربةِ طقطمش، فاستولى على أعمالِه كلِّها، ورجعتْ قبائلُ المُغل إلى تِمُرْ، وسَاروا تحت رايته، وذهب طقطمش في ناحية الشّمال وراءَ بُلْغَار، مُتَذَمِّماً بقبائل أُرُوس من شعوب التُّرك في الجبال، وسارت عصائبُ التُّركِ كلّها تحت رايات تِمُرْ.

ثمَّ اضطرب مُلُوكُ الهِند، واستصرخ خارجٌ منهم بالأمير تِمُرْ، فسار إليهم في عساكرِ المُغل، ومَلك دِلِّي[1]، وفرّ صاحبها إلى كَنْبَايَةَ مرسى بحر الهندِ، وعاثُوا في نواحي بلاد الهِند.

ثمَّ بلغه هنالك مهلكُ الظَّاهر بَرْقُوق بمصر، فرجع إلى البلاد، ومرّ على العِراقِ، ثمّ على أرْمينيَة وأرزنكان، حتَّى وَصَل سيواس، فخرَّبَها، وعاث في نواحيها، ورجع عنها أوّل سنة ثلاثٍ من المائة التَّاسعةِ، ونازلَ قلعة الرُّوم[2]، فامتنعت، وتجاوزها إلى حَلَب، فقابَله نائبُ الشَّام وعساكرُه في ساحتها، ففضَّهم، واقتحم المغُل المدينة من كلّ ناحية، ووقَع فيها من العَيْث والنَّهْب والمُصادرة، واستباحة الحُرَم، ما لم يَعهَد النّاس مثلَه[3]؛ وَوَصَل الخبر إلى مصر، فتجهّز السُّلْطان فَرَج ابنُ المَلِك الظّاهر إلى المُدافَعةِ عن الشَّام، وخرَج في عساكِرِه من التُّرك مُسَابقاً المُغُلَ ومِلكَهم تِمُرْ أنْ يَصُدَّهم عنها.

---

(1) يقصد دِهْلي أو ما يعرف اليوم بدِلْهي.

(2) قلعة حصينة غربي الفرات مقابل البيرة، بينها وبين سميساط. بها مقام بطرك الأرمن، وهذه القلعة في وسط بلاد المسلمين، تركوها كما يتركون البيع والكنائس في بلاد الإسلام. معجم البلدان 4: 390.

(3) شرح ابن عربشاه (عجائب المقدور 204) الأهوال التي لاقتها حلب من جيش تيمور.

لقاءُ الأميرِ تمُرْ سُلطانِ المُغُلِ والطَّطَرِ[أ][1]

/ لمَّا وصَل الخبرُ إلى مِصْر بأنّ الأميرَ تِمُرْ مَلَكَ بلاد الرُّوم، وخرَّب سِيوَاس، ورجعَ إلى الشَّام، جمع السُّلْطانُ عساكرَه، وفتح ديوانَ العَطاءِ، ونادى في الجُنْد بالرَّحيل إلى الشَّام، وكنتُ أنا، يومئذٍ، مَعْزُولاً عن الوظيفة، فاستدعاني دَوَادارُه يِشْبَك، وأرادَني على السَّفَر معه في رِكاب السُّلْطان، فتجَافيتُ عن ذلكَ، ثمّ أظهرَ العزمَ عليَّ بِلَيِّن القَوْل، وجزيلِ الإنعام؛ فأصْحَيْتُ، وسافرتُ معهم مُنتصفَ شهر المولد الكريم من سَنة ثلاث، فوصلْنا إلى غَزَّة، فأرَحْنا بها أيّاماً نترقَّبُ الأخبار؛ ثمّ رحلنا إلى الشَّام مُسابقِين الطَّطَر إلى أنْ نزلنا شَقْحَب، وأسرينا فَصبَّحنا دِمشق، والأمير تِمُرْ في عساكِره قد رحل من بَعْلَبَكّ قاصداً دمشق، فضرب السُّلْطانُ خيامَه وأبْنيتَه بساحة قُبّة يَلْبُغا[2]، ويئسَ الأميرُ تِمُرْ من مُهاجمة البلد، فأقام بمرقَبٍ على قُبَّة يَلْبُغا يُراقبنا ونُراقبُه أكثرَ من شَهْر، تجَاول العَسْكران في هذه الأيّام مرَّاتٍ ثلاثاً أو أربعاً، فكانت حربُهم سِجالاً[3].

(أ) في آيا صوفيا وضع نقطة فوق كل طاء

---

(1) انظر في هذا الموضوع: كتاب والتر فيشل: لقاء ابن خلدون لتيمورلنك. وكان لقاؤهما في دمشق سنة 803هـ، وقد علّق الدكتور مصطفى جواد - في الترجمة العربية - على كلّ مفاصل ذلك اللقاء وما به من ملاحظات.

(2) كانت قبة يلبغا على مسافة ميلين تقريباً من أسوار دمشق جنوباً في نهاية ميدان دمشق الحالي، بالقرب من مسجد القدم. وقد بناها يلبغا اليحياوي نائب دمشق سنة 747هـ في موضع خيمته ذكرى لانتصاره بخلع السلطان الكامل شعبان، وسماها قبة النصر. تعليقات مصطفى جواد على كتاب لقاء ابن خلدون لتيمور لنك لفيشل، تعليقات محقق عجائب المقدور 222.

(3) تفصيلات ذلك أوردها ابن عربشاه في عجائب المقدور 232.

ثمّ نُمِي الخبرُ إلى السُّلطانِ وأكابرِ أُمَرائه، أنّ بعضَ الأمراءِ المنغمسين في الفِتْنةِ يُحاولون الهَرَب إلى مِصرَ للثّورةِ بها[1]، فأجمع رأيُهم للرُّجوع إلى مصر خشيةً من انتقاض النّاس وراءهم، واختلال الدَّوْلَة بذلك؛ فأسْروا ليلة الجمعة من شهر [جُمادى الأولى][2] وركبوا جَبَل الصَّالحيّة، ثمّ انحطُّوا في شِعابه، وساروا على شافة البحر إلى غَزَّة، وركب النّاس ليلاً يعتقدون أنّ السُّلطان سارَ على الطّريقِ الأعظمِ إلى مصرَ، فساروا عُصَباً وجَماعاتٍ على شَقْحَب، إلى أنْ وصلوا إلى مصرَ، وأصبَح أهلُ دمشق مُتَحَيِّرين، قد عَمِيَتْ عليهم الأنباءُ.

وجاءني القُضاةُ والفقهاءُ[3]، واجتمعنا[أ] بمدرسَة العادِليّة، واتّفق رأيُهم على طلب الأمان من الأمير تِمُرْ على بُيوتِهم وحُرَمِهم، وشاوروا في ذلك نائبَ القلعة، فأبَى عليهم ذلك ونَكِرِه، فلم يوافقوه، وخرج القاضي بُرهان الدّين ابن مُفلِح الحَنبليّ ومعه شيخ الفقراء بزاوية [.....][4] فأجابَهم إلى التّأمين، وردّهم باستدعاءِ الوجوه والقُضاة، فخرَجوا إليه متدلّين من السّور بما صحبهم[ب] من التّقدمة، فأحسن لقاءهم، وكتب لهم الرِّقاع بالأمان، وردّهم على أحسنِ الآمالِ، واتّفقوا معه على فَتْح المدينة من الغَد،

(أ) آيا صوفيا: واجتمعت (ب) آيا صوفيا: صبحهم

(1) تفصيلات هذه الثورة في لقاء ابن خلدون لتيمور لنك 104.

(2) ما بين الحاصرتين من إضافات فيشل (لقاء ابن خلدون لتيمورلنك 70) بناء على بعض النسخ المخطوطة، وحدد تاريخه في اليوم الحادي والعشرين من الشهر المذكور. ومكانها في أ، وآيا صوفيا بياض قدر كلمتين.

(3) ذكرهم ابن عربشاه بالتفصيل، وذكر معهم ابن خلدون وما دار بينهم وبين تيمور. عجائب المقدور 249.

(4) مكانها في أ وآيا صوفيا بياض قدر كلمة. وقد جهد فيشل والدكتور مصطفى جواد في معرفة اسم الزاوية دون جدوى، بعد بحث طويل ومناقشة معمّقة، انظر: فيشل: المصدر نفسه 110.

وتصرّف النّاس في المُعاملات، ودخول أمير يَنزِل بمحلّ الإمارة منها، ويملكُ أمرَهم بعزّ ولايته.

وأخبرني القاضي برهان الدّين أنّه سأله عنّي، وهل سافرتُ مع عساكر مِصْر أو أقمت بالمدينة؛ فأخبره بمقامي بالمدرسةِ حيثُ كنتُ. وبتنا تلكَ اللّيلة على أُهْبَةِ الخروجِ إليه، فَحَدَثَ بين بعضِ النّاس تشاجرٌ في المسْجدِ الجامعِ، وأنكر البعضُ ما وقعَ من الاستنامةِ إلى القَول.

وبلَغني الخبرُ من جوْفِ اللّيل، فخشِيت البادِرةَ على نَفْسي، وبكّرتُ سَحَراً إلى جَماعة القُضاة عند الباب، وطلبت الخروجَ أو التدلّي من السُور، لِما حدث عندي من توهّمات ذلك الخبرِ، فأبوا عليّ أوّلاً، ثمّ أصخَوا لي، ودلّوني من السّور، فوجدتُ بطانتَه عند الباب، ونائبَه الذي عيّنه للولاية على دمشقَ، واسمه شاه مَلَك، من بني جَغطاي، أهلِ عصابتِه، فحيّيتُهم وحيّوني، وفدّيتُ وفدّوني، وقدّم لي شاه مَلَك مركوباً، وبَعث مَعي من بطانة السُلْطان مَن أوْصلني إليه، فلمّا وقفتُ بالباب، خرج الآذنُ بإجْلاَسي في خَيْمةٍ هنالك تُجاور خَيْمة جلوسِه، ثمّ زيد في التّعريف باسمي أنّي القاضي المالكيّ المغربيّ، فاسْتدعاني، ودخلتُ عليه بخيمة جلوسِه مُتّكئاً على مَرْفِقِه[1]، وصِحاف الطّعام تمرُّ بين يَديه، يُشيرُ بها إلى عُصَب المُغُل جلُوساً أمام خيمتِه، حِلَقاً حِلَقاً، فلمّا دخلتُ عليه فاتحتُ بالسّلام، وأوميتُ إيماءَةَ الخضوعِ، فرفَع رأسَه، ومدَّ

(1) للاطلاع على المجلس الرسمي لتيمور، ومراسم استقباله لضيوفه، وكيفية ترتيب البروتوكول في بلاطه، انظر ما كتبه السفير الإسباني في بلاطه والذي نشره لسترنغ في لندن سنة 1928 بعنوان:
Narrative of the Spanish Embassy to the court of Timur at Samarkand in the year 1403-1406

يدَه إليّ، فقبّلتُها، وأشار بالجلوسِ، فجلستُ حيث انتهيتُ، ثمّ استدعَى من بطانتِه الفقيهَ عبدَ الجبّار بن النُّعمان من فُقَهاءِ الحنَفيّة بخُوَارزم[1]، فأقعدَه يُترجِمُ ما بينَنا، وسألني: من أين جئتَ من المغرب؟ ولِمَا جئتَ؟ فقلت: جئت من بلادي لقَضاء الفَرْض، / ركبتُ إليها البحر، ووافيتُ مرسَى الإسْكَنْدَريّة يوم الفِطر سنة أربع من هذه المائة الثامِنة، والمفرّحاتُ بأسْوارهم لجلوس الظّاهر على تَخْت المُلْك لتلك العشرة الأيّام بعَدَدِها. فقال لي: وما فَعَل مَعك؟ قلتُ: كلَّ خَيْرٍ، برّ مَقْدَمي، وأرغَد قِرَاي، وزوّدني للحجّ؛ ولما رجَعت وفّر جِرايتي، وأقمت في ظلّه ونعمته؛ رحمه الله وجزاه. فقال: وكيف كانت توليتُه إيّاك القضاء؟ فقلتُ: ماتَ قاضي المالكيّة قبل موته بشهر، وكان يظنُّ بي المقام المحمودَ في القيام بالوظيفة، وتحرّي المَعْدِلة والحقّ، والإعراض عن الجاه، فولاّني مكانَه، ومات لشهر بعدَها، فلم يَرضَ أهلُ الدَّوْلَةِ بمكاني، فأدالوني مِنها بغَيْري جزاهم الله. فقال لي: وأين ولدُك؟ فقلتُ: بالمغرب الجوّانيّ كاتب للمَلِك الأعظم هنالك. فقال: وما معنى الجوّانيّ في وصف المغرب؟ فقلتُ: هو في عرف خِطابهم معناه الدّاخليّ، أي: الأبعد؛ لأنّ المغرب كلَّه على ساحل البحر الشّاميّ من جنوبه؛ فالأقربُ إلى هنا بَرْقَة وإفْرِيقِيّة؛ والمغرب الأوسط: تِلِمْسان وبلاد زَنَاتَة؛ والأقصى: فاس ومَرّاكُش، وهو معنى الجوّانيّ. فقال لي: وأين مكانُ طَنْجَةَ من ذلك المغرب؟ فقلتُ: في الزّاوِيَة التي بين البحر المحيط، والخليج المسمّى بالزُّقاق، وهو خليج البَحْر الشّاميّ فقال: وسَبْتَة؟ فقلت: على مسافة يومٍ من طَنْجَة على ساحل

(1) عبد الجبار بن النعمان الخوارزمي المعتزلي، كان إمام تيمور وترجمانه. وكان عالماً فقيهاً أصولياً جدليا. قال عنه ابن عربشاه: "وكان يخوض في دماء المسلمين". عجائب المقدور 261، 265. وله ترجمةٌ مهمة في الطبقات السنية للغزي 4: 262.

الزُّقاق، ومنها التَّعْدِية إلى الأنْدَلُس، لقُرب مسافته، لأنّها هناك نحو العشرين ميلاً. *فقال: وفاس؟ فقلتُ: ليست على البَحْرِ، وهي في وسَط التّلول، وكرسِيُّ مُلُوك المغرب من بَني مَرين*[1]. فقال: وسِجِلْماسَة؟ قلتُ: في الحَدّ ما بين الأرياف والرّمال من جهة الجنوب. فقال: لا يُقنِعني هذا، وأُحِبُّ أنْ تكتبَ لي بلادَ المغرب كلَّها، أقاصِيَها، وأدَانِيَها، وجبالَه، وأنهارَه، وقُرَاه، وأمصارَه، حتّى كأنّي أُشاهِدُه. فقلتُ: يحصل ذلك بِسَعادتك.

وكتبتُ له بعدَ انصرافي من المجلس لِما طلب من ذلك، وأوعبتُ الغَرَض فيه في مختصَرٍ وجيزٍ يكون قدرَ ثِنْتَي عَشْرة من الكراريس المنَصَّفة القَطْع؛ ثم أشار إلى خَدَمه بإحضار طعام من بيته يسمّونه الرّشتَة[1]، ويُحْكِمونَه على أبلغ ما يمكن، فأُحضِرَت الأواني مِنه، وأشار بِعَرضها عليَّ، فمَثَلْتُ قائماً، وتناولتُها، وشَربتُ، واستَطبتُ؛ ووقَع ذلك منه أحسنَ المواقع؛ ثمّ جلستُ وسكتْنا، وقد غَلَبني الوَجَلِ بما وَقَع من نكبَة قاضِي القُضاة الشّافعيّة، صدْر الدين المُنَاويّ[2]؛ أَسَرَه التّابعون لعسْكر مِصر بشَقْحَب، ورَدُّوه، فحُبِس عندَهم في طلب الفِدْية منه، فأصَابنا من ذلك وَجَل؛ فزوّرتُ في نفسي كلاَماً أُخاطبه به، وأتلطّفه بتعظيم أحواله ومُلكه، وكنتُ قبل ذلك بالمغرب قَد سمعت كثيراً من الحَدَثان في ظهوره، وكان المنَجّمون المتكلّمون في

(أ) سقط ما بين النجمين من آيا صوفيا

---

(1) أقرب ما يكون لما نعرفه اليوم بمعكرونة السباكيتي Spaghetti أو Noodles وهو ما يعرف في كتب الطبيخ العربية بالإطرية، وهو قطع مستطيلة من العجين المجفف، تطبخ بطرق مختلفة. وما تزال معروفة بالعراق باسم الرشدة. لكن ابن عربشاه يقول عن هذا الموقف: "فكرّموا تلالاً من اللحم السّليق". عجائب المقدور 254.

(2) يذكر ابن عربشاه ما فُعل به في مجلس تيمور من تعذيب وإهانة. عجائب المقدور 256.

قِرَانات العُلْوِيَّيْن(1) يترقّبون القِرَانَ العاشرَ في المثلَّثة الهوائيّة(2)، وكان يَترقّبُ عام ستّةٍ وستّين من المائة السّابعة. فلَقِيتُ ذاتَ يوم من عام أحدٍ وستّين بجامع القَرويّين من فاس، الخطيبَ أبا عليّ ابن باديس خطيب قُسَنطِينَة، وكان ماهراً في ذلك الفَنّ، فسألتُه عن هذا القِران المتوقَّع، وما هي آثاره؟ فقال لي: يدلّ على ثائر عظيم في الجانب الشّماليّ الشرقيّ، من أُمّةٍ باديةٍ أهلِ خيام، يتغلّب على الممالك، ويقلبُ الدُّول، ويستَوِلي على أكثرِ المعمور. فقلتُ: ومَتَى زمنُه؟ فقال(أ): عامَ أربعة وثمانين تَنتَشر أخبَارُه. وكَتَب لِي بمثل ذلك الطّبيبُ ابن زَرْزَر اليَهوديّ، طبيبُ مَلِك الإفرنج ابن أُذْفُونَش ومُنَجّمُه. وكان شَيْخي رحمه الله إمامُ المَعْقولات مُحمَّد بن إبراهيم الآبِليّ متى فاوَضْتُه في ذلك، أو سَائَلتُه عَنه يقول: أمرُه قَريبٌ، ولا بُدّ لك إنْ عِشْتَ أنْ تَراه.

وأمّا المتصوّفة فكنّا نسمعُ عنهم بالمغرب تَرقُّبَهم لهذا الكائن، ويَرون أنّ القائمَ به هو الفاطميُّ المشارُ إليه في الأحاديث النّبَويّة من الشّيعةِ وغَيرِهم؛ فأخبرني يَحْيَى بنُ عبد الله، حافد الشّيخ أبي يعقوب البَادِسيّ كبير الأولياء بالمغرب، أنَّ الشّيخ قال لهم

(أ) آيا صوفيا: فقام

(1) زحل والمشتري. مفاتيح العلوم 252. ومن الألقاب التي كان يفضّلها تيمور: صاحب قِران. لأنه تولّى لما اقترن الكوكبان. وما يزال الناس في سمرقند يعظّمونه ويترحّمون عليه ويسمّونه: صاحب قِران، والاسم يدل عندهم على تيمور دون أي دلالة أخرى.

(2) المثلثة: كل ثلاثة بروج تكون على طبيعة واحدة من الطبائع الأربع، تنسب إلى ثلاثة كواكب، ويكون أحدها صاحب المثلثة المقدم بالنهار، والثاني المقدم بالليل، والثالث شريكهما بالنهار والليل. مفاتيح العلوم للخوارزمي 247.

ذاتَ يوم، وقد انفتل من صَلاةِ الغَداةِ: إنّ هَذا اليَوم ولد فيه القائم الفاطِميّ، وكان ذلك في عَشر الأربعين مِن المائة الثّامنة؛ فكان في نفسي من ذلك كلّه تَرقُّبٌ له.

فوقعَ في نفسي لأجل الوَجَل الذي كنتُ فيه أنْ أفاوضه في شيء من ذلكَ يَستَريحُ إليه، ويأنَسُ به مِنّي، ففاتحتُه، وقلتُ: أيّدَك الله! لِيَ اليومَ ثلاثون أو أربعون سنةً أتمَنّى لقاءَك. فقال لِي التُّرجمان عبد الجبّار: وما سببُ ذلك؟ فقلتُ: أمْران، الأوّل: أنّك سُلطان العَالَم، ومَلِكُ الدُّنيا، وما أعتقد أنّه / ظهرَ في الخليقة منذ آدَم لهذا العهد مَلكٌ مثلُك، ولستُ ممّن يقول في الأمور بالجُزَاف، فإنّي من أهل العِلْم، وأُبيِّن ذلك فأقول:

إنّ المُلْك إنّما يكون بالعَصَبيّةِ، وعلى كَثرتها أو قلّتها يكون قدرُ المُلك؛ واتّفق أهلُ العِلم[(أ)] من قبْلُ ومن بَعْد، أنّ أكثر أُمَمَ البَشر فرقَتان: العَرَب والتُّرك، وأنتم تَعلمون مُلك العَرَب كيف كان لمّا اجتمعوا في دِينِهم على نبيِّهم، وأمّا التُّركُ ففي مُزاحَمتِهم لِمُلُوكِ الفُرسِ، وانتزاعُ مَلِكهم أفراسيَاب خُرَاسَانَ من أيديهم شاهدٌ بنصابهم من المُلك. ولاَ يُساويهم في عَصَبيَّتهم أحدٌ من مُلُوك الأرض من كِسرَى، أو قَيصَر، أو الإسْكَنْدَر، أو بُختنَصَّر، أمّا كِسرى فكبيرُ الفُرس ومَلِكُهم، وأينَ الفُرْس من التُّرك؟ وأمّا قَيصَر والإسكَنْدَر فمُلُوك الرُّوم، وأينَ الرُّوم من التُّرك؟ وأمّا بُختَنَصَّر فكبيرُ أهل بَابِل والنَّبَط. وأين هؤلاءِ من التُّرك؟ وهذا برهانٌ ظاهِرٌ على ما ادّعيتُه في هَذا المُلكِ.

وأمّا الأمـرُ الثّاني؛ ممّا يَحملني على تَمَنّي لقائه، فهوَ ما كنتُ أسمعه من أهل

(أ) آ: العالم

الحَدَثان بالمغربِ، والأولياء، وذكرتُ ما قصصتُه من ذلك قَبلُ. فقال لي: وأراك قد[أ] ذكرتَ بُختنصَّر مع كِسرى وقَيصر وَالإسكَنْدَر، ولم يكن في عِدادِهم، لأنهم مُلوك أكابر. وبُختنصَّر قائد من قوّاد الفرس، كما أنا نائبٌ من نواب صَاحب التّخْتِ، وهو هذا، وأشار إلى الصّفّ القائمين وراءه، وكان واقفاً معهم، وهو رَبيبُه الذي تقدَّم لنا أنّه تزوَّج أمّه بعد أبيه سَاطلمش، فلم يُلفِه هناك، وذكَر لَه القائمون في ذلك الصَّفّ أنّه خَرَج عنهم.

فرجع إليّ، وقال: ومن أيّ الطّوائف هو بُختنَصَّر؟ فقلت: بين النّاس فيه خلاف، فقيلَ من النّبط بقيّة مُلوك بابِل، وقيل من الفُرْس الأولى، فقال: يعني من وَلَد مَنُوشِهر[1]؟ قلتُ: نعم؛ هكذا ذكروا، فقال: ومَنُوشِهر له علينا ولادَة من قِبَل الأمّهات. ثمّ أفضتُ مع التُّرجُمان في تعظيم هذا القَوْل منه، وقلتُ له: وهذا ممّا يحملني على تمنّي لقائه.

فقال المَلِك: وأيُّ القولين أرجح عندك فيه؟ فقلت إنّه من بقيّة مُلوكِ بَابِل، فذهبَ هوَ إلى ترجيحِ القول الآخر. فقلتُ: يُعكِّر علينا رأيُ الطّبريّ[2]، فإنّه مؤرّخُ الأمّة ومحدّثهم، ولا يَرجُحه غيرُه، فقال: وما علينا مِنَ الطّبريّ؟ نُحضِر كُتب التّاريخ للعَرَبِ والعَجَمِ، ونُناظِرُك، فقلتُ: وأنَا أيضاً أناظِرُ على رأي الطّبريّ، وانتهى بنا القَول، فسكت.

(أ) ساقطة من آيا صوفيا

---

(1) بهامشها في آيا صوفيا: مَنُوچِهر بالجيم المتوسطة بينها وبين الشين اسم ملك من الفرس الأول، ومعناه: فِضّيّ الطلعة وذلك لبهائه فإن مَينُو بالفارسية: الفضّة، فاقتصروا على حذف الياء، وقالوا مَنُو، وچِهر: الطلعة.

(2) تاريخ الطبري 1: 538.

وجاءه الخَبَرُ بفتح باب المدينة، وخُروج القُضاة وفاء بما زَعَموا من الطّاعةِ التي بَذَل لهم فيها الأَمان، فرُفِع من بَيْن أيدينا، لما في رُكْبَتِه من الدّاء[1]، وحُمِل على فَرَسه فقَبض شكائمَه، واستوى في مَرْكبه، وضُربت الآلات حِفَافَيْه حتَّى ارتجّ لَهَا الجوُّ، وسار نحو دمشق، ونزل في تربة مَنْجَك عند باب الجابية، فجلس هناك، ودخل إليه القُضاة وأعيانُ البلدِ، ودخلتُ في جُملتِهم، فأشارَ إليهم بالانصرافِ، وإلى شاه مَلِك نائبه أنْ يَخلعَ عليهمْ في وظائفهم، وأشار إليّ بالجُلوس، فجلستُ بينَ يَدَيه؛ ثمّ استدعَى أمراءَ دولتِه القائمين على أمْر البِناء، فأحضروا عُرَفاء البُنْيان المهندسين، وتناظروا في إذهاب الماءِ الدّائر بحفيرِ القلعة، لعلّهم يَعْثرون بالصّناعة على مَنفَذه، فتناظروا في مَجلسه طويلاً، ثمّ انصرفوا، وانصرفتُ إلى بَيْتي داخلَ المدينةِ بعدَ أن استأذنته في ذلكَ، فأذِنَ فيه، وأقمت في كِسْر البيت، واشتغلتُ بما طلَب مني في وصف بلادِ المغرب، فكتبتُه في أيّام[أ] قليلة، ورفعتُه إليه، فأخذَه من يَدي، وأمر مُوقِّعه بترجمته إلى اللّسان المُغلي. ثمّ اشتدَّ في حصار القَلْعَة، ونَصَب عليها الآلاتِ من المَجانيق، والنُّفوط، والعَرّادات، والنَّقْب؛ فنَصَبوا لأيّامٍ قليلةٍ ستّين منجَنيقاً إلى ما يُشاكِلُها من الآلات الأخرى، وضَاق الحِصارُ بأَهْلِ القَلعةِ، وتهدّم بناؤُها من كلّ جهة، فطلَبوا الأمان.

وكان بها جَماعةٌ من خُدّامِ السُلْطان ومُخَلّفه، فأمَّنهم السُلْطان تِمُرْ، وحضَروا

(أ) آيا صوفيا: أويّام

(1) كان أعرج بسبب سهمٍ أصابه في رجله اليمنى، فبقي أعرج طوال حياته.

عنده، وخرّب القلعةَ وطَمَس معالمها، وصادر أهلَ البَلَد على قناطيرَ[أ] من الأموال؛ استولى عليها بعد أنْ أخذ جميع ما خلّفه صاحبُ مصر هنالك، من الأَموال، والظَّهْر، والخيام، ثمّ أطلق أيدي النّهّابة على بُيوت أهل المدينة، فاستوعبوا أناسِيَّها، وأمتعتَها، وأضرَموا النّيِّران[1] فيما بقِي من سَقَط الأقمشة والخُرْثي، فاتصَلت النّار بحيطان الدُّور المدعَّمة بالخَشَب، فلم تَزل تتوقّد إلى أن اتّصلت بالجامع الأعظم[2]، وارتفعت إلى سَقْفه، فسال رَصاصُه، وتهدّمت سُقُفه وحوائطُه، / وكان أمراً بلغ مَبَالغَهُ في الشّنَاعة والقُبح؛ وتصاريفُ الأمورِ بيدِ الله يفعل في خَلْقِه ما يريدُ، ويحكم في ملكِه ما يشاء.

وكان أيّامَ مُقامي عندَ السُّلْطان تِمُرْ، خَرجَ إليه من القَلعة يَوْمَ أمَّن أهلَها رجلٌ من أعقابِ الخلفاء بمصرَ، من ذُرية الحاكم العبّاسيّ الذي نَصبَه الظّاهر بَيْبَرس، فوقَف إلى السُّلْطان تِمُرْ يَسألُه النَّصفة في أَمْره، ويطلب منه مَنصِب الخِلافَة كما كان لِسَلَفِه، فقال له السُّلْطانُ تِمُرْ: أنا أُحضِر لك الفقهاءَ والقُضاة، فإنْ حَكَموا لك بشيء أنصَفْتك فيه، واستَدْعى الفقهاءَ والقُضاة، واستدعاني فيهم، فَحضَرْنا عندَه، وحَضَر هذا الرَّجُلُ الذي يسأل مَنصِبَ الخلافةِ، فقال له عبدُ الجبّار: هذا مجلس النَّصَفَة فتكلَّمْ. فقال: إنّ هذه الخلافة لَنا ولسَلَفِنا، وإنّ الحديث صَحَّ بأنّ الأَمْر لبني العبّاس ما بقيَت الدُّنيا، يعني: أمر الخلافة، وإنّي أحقُّ من صاحب المَنصِب الآن بمصر، لأنّ

(أ) أ: قناطر

(1) في عجائب المقدور 283 وتعليقات محقّقه ما يصوّر أهوال تلك النيران وما التهمته من دمشق.
(2) الجامع الأموي.

آبائي الذين[1] ورثتُهم كانوا قد استحقُّوه، وصار إلى هذا بغير مُستند، فاستدعَى عبدُ الجبّار كُلاًّ مِنّا في أمره، فسكَتْنا بُرْهة، ثمّ قال: ما تقولون في هذا الحديثِ؟ فقال بُرهان الدّين ابن مُفْلِح: الحديثُ ليس بصحيح، واستَدْعَى ما عندي في ذلك؛ فقلتُ: الأمر كما قُلْتم من أنّه غيرُ صحيح، فقال السُّلْطان تِمُرْ: فما الذي أصار الخِلافة لبني العبّاس إلى هذا العهدِ في الإسْلام؟ وشافَهني بالقَول، فقلتُ: أيّدك الله! اختلف المسلمون من لَدُن وفاةِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، هل يَجبُ على المسلمين ولاية رَجُلٍ منهم يقوم بأمورهم في دينهم ودُنياهم، أم لا يجبُ ذلك؟ فذهبتْ طائفةٌ إلى أنّه لا يجبُ، ومنهم الخَوارج، وذهبَ الجَماعَةُ إلى وُجوبِه، واختلفوا في مُستَند ذلك الوجوب، فذهب الشّيعَةُ كلُّهم إلى حديث الوَصيّة، وأنّ النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم، أوصى بذلك لعليّ، واختلفوا في تنقُّلها عنه إلى عَقِبِهِ إلى مذاهب كثيرة تَشذُّ عن الحَصْرِ. وأجمعَ أهل السُّنّةِ على إنكار هذه الوصيّةِ، وأنّ مستند الوُجوب في ذلك إنّما هو الاجتهاد، يعنون أنّ المسلمين يَجتهدون في اختيار رَجُلٍ من أهل الحقّ، والفِقْهِ، والعَدْل، يُفوّضون إليه النظرَ في أمورِهم.

ولمّا تعدّدت فرقُ العَلويّة، وانتقلت الوصيّة بزعْمهم من بني الحَنفيّة إلى بني العبّاس، أوصى بها أبو هاشِم بن مُحمّد بن الحَنفيّة إلى مُحمّد بن عَليّ بن عبد الله بن عَبّاس، وبثَّ دُعاته بخُراسان، وقام أبو مُسْلم بهذه الدّعوةِ، فمَلَكَ خُرَاسان والعِراق، ونزل شيعتُهم الكوفَة، واختاروا للأمر أبا العبّاس السَّفّاح، ابنَ صاحب هذه الدّعوة؛

(1) آيا صوفيا: الذي

ثمّ أرادوا أنْ تكون بيعتُه على إجماعٍ من أهلِ السُّنّةِ والشّيعةِ، فكاتَبوا كبار الأمّة يومئذٍ، وأهلَ الحَلّ والعَقْدِ، بالحِجاز والعِراق، يشاورونهم في أمرِه، فوقع اختيارُهم كلُّهم على الرِّضَى به، فبايَع له شيعتُه بالكوفةِ بيعةَ إجماعٍ وإصْفاقٍ، ثمّ عَهِد بها إلى أخيه المنصورِ، وعهدَ بها المنصورُ إلى بَنيه؛ فلم تزلْ مُتناقَلةً فيهم، إما بِعَهْدٍ أو باختيارِ أهل العَصرِ، إلى أنْ كان المستَعصمُ آخرُهم ببغداد؛ فلمّا استولى عليها هُولاكُو وقَتَله، افترق قَرابتُه، ولحق بعضُهم بمصر، وهو أحمد الحاكم من عَقِب الرّاشدِ، فنصَبه الظّاهر بَيْبَرس بمصر، بمُمالأة أهل الحَلّ والعَقْد من الجُند، والفقهاء، وانتقَل الأمر في بيته إلى هذا الذي بمصر، لا يُعْلم خلاف ذلك. فقال لهذا الرّافِع: قد سمعتَ مقال القضاة، وأهلِ الفُتيا، وظهر أنّه ليس لكَ حَقّ تطلبه عِندِي. فانصرِفْ راشِداً.

الرُّجوعُ عن هذا الأمير تمُرْ إلى مصْر

كنتُ لمّا لقيتُه، وتدلّيتُ إليه من السّورِ كما مَرّ، أشار عليّ بعض الصّحاب ممّن يَخْبُر أحوالَهم بما تقدمَتْ له من المعرفة بهم، فأشار بأنْ أُطْرِفه ببعْض هَدِيّةٍ، وإنْ كانت نَزْرةً فهي عندهم متأكّدةٌ في لقاء مُلُوكهم، فانتقَيتُ من سُوق الكُتبِ مُصْحَفاً رائعاً[أ] حَسناً في جزءٍ محذو، وسجّادةً أنيقة، ونُسخةً من قصيدة البُرْدَة المشهورة للأبُوصِيريّ في مدح النبيّ صلّى الله عليه وسَلّم، وأربعَ علبٍ من حلاوَات مصر الفاخِرة، وجئتُ بذلك فَدَخلت عليه، وهو بالقَصر الأَبْلق جالسٌ في إيوانه، فلمّا رآني مقبِلاً مَثَل قائماً وأشار إليّ عن يمينه، فجلستُ وأكابر من الجقطيّة حِفافَيْه،

(أ) آيا صوفيا: رايقاً

فجلستُ قليلاً، ثمّ استدرتُ بينَ يديه، وأشرتُ إلى الهَديّة الّتي ذكرتُها، وهي بيد خُدّامي، فوضَعتُها، واستَقبلني، ففتحتُ المُصحَفَ، فلمّا رآه وعرفَه، قام مُبادراً، فوضعَه على رأسِه، ثمّ ناولتُه البُردةَ، فسألني عنها وعن ناظمها، فأخبرتُه بما وقفت عليه من أمرِهَا، / ثمّ ناولته السجّادة، فتناولها وقبلَها، ثمّ وضعتُ عُلَبَ الحلوى بين يديه، وتناولتُ منها حَرفاً على العادة في التأنيس بذلك، ثمّ قَسم هو ما فيها من الحلوى بين الحاضرين في مجلسه، وتقبّل ذلك كلّه، وأشعر بالرّضى به.

ثمّ حَوّمْتُ على الكلام بما عندي في شأن نَفسي، وشأن أصحابٍ لي هنالك، فقلتُ: أيّدك الله! لي كلامٌ أذكره بين يديك، فقال: قُلْ، فقلتُ: أنا غريب بهذه البلاد غُربتَيْن، واحدة؛ من المَغرب الذي هو وطَني ومَنشاي، وأخرَى، من مِصر وأهلُ[أ] جيلي بها، وقد حصلتُ في ظلّك، وأنا أَرجو رأيك لي فيما يُؤنِسُني في غُربتي، فقال: قُل الّذي تريد أفعلْه لك، فقلتُ: حالُ الغُربة أنستْني ما أريد، وعساك - أيّدك الله - أنْ تعرف لي ما أريد، فقال: انتقل من المدينة إلى الأُزدو[1] عندي، وأنا[ب] إن شاء الله أوفي كُنْهَ قصدك؛ فقلتُ: يأمُر[ج] لي بذلك نائبُك شاه ملك، فأشار إليه بإمضاءِ ذلك، فشكرتُ ودعوتُ وقلتُ: وبَقِيَتْ لي أُخرَى. فقال: وما هي؟ فقلتَ[د] هؤلاءِ المخلَّفون عن سُلْطانِ مصر؛ من القُرّاء، والموقّعين، والدّواوين، والعمّال، صاروا إلى إيالتك والمَلِكُ لا يُغْفِل مثل هؤلاء، فَسُلطانُكم كبير، وعَمالاتكم

(أ) آيا صوفيا: وأهلي (ب) ساقطة من آيا صوفيا (ج) آيا صوفيا: أمر (د) آيا صوفيا: قلت

(1) الأردو (الأوردو) ويرادفها الوطاق: مخيم أو معسكر السلطان عند المغول والترك. القلقشندي: صبح الأعشى 4: 427 محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية 14، 155.

متّسعة، وحاجةُ مُلككم إلى المتصرّفين في صنوف الخدم أشدُّ من حاجة غيركم، فقال: وما تُريد لهم؟ قلتُ: مكتوبَ أمانٍ يَستنيمون إليه، ويعوّلون في أحوالهم عَلَيه. فقال لكاتبه: اكتبْ لهم بذلك، فشكرتُ ودعوت، وخرجتُ مع الكاتبِ حتّى كتب لي مكتوبَ الأمان، وختَمه شاه مَلَك بخاتَم السُلطان، وانصرفتُ إلى مَنْزلي.

ولمّا قَرُب سفرُه واعتزَم على الرّحيل عن الشّام، دَخلت عليه ذاتَ يوم، فلمّا قَضَيْنا المعتادَ، التفت إليّ، وقال: عندك بغلةٌ هنا؟ قلت: نعم، قال: حسنة؟ قلتُ: نعم، قال وتبيعها؟ فأنا أشتريها منك، فقلتُ: أيّدك الله! مِثلي لا يبيع من مثلك، إنّما أنا أخدُمك بها، وبأمثالها لو كانت لي، فقال: إنّما أردت أنْ أكافئك عنها بالإحسان، فقلتُ: وهل بقي إحسَان وراءَ ما أحسنتَ بهِ، اصطنَعْتني، وأحلَلتني مِن مجلسك محلَّ خَواصّك، وقابلتَني من الكرَامة والخير بما أرجو الله أنْ يقابِلَك بمثلِه، وسكَتَ وسكتُّ[أ]، وحُمِلت البَغْلةُ - وأنا معه في المجلِس - إليه، ولم أرَها بَعْدُ.

ثمّ دخلتُ عليه يوماً آخرَ فقال لِي: أتسافر إلى مِصر؟ فقلتُ: أيّدك الله، رغبَتي إنّما هي أنت، وأنتَ قد آويت وكفَلت، فإنْ كان السّفر إلى مصرَ في خِدمتك فنعم، وإلاّ فَلاَ بُغْيةَ لي فيه، فقال: لا. بل تسافر إلى عِيالك وأهلِك، فالتفتَ إلى ابنِه. وكان مسافراً إلى شَقْحَب لمرباع دوابّه، واشتغَل يُحادِثُه، فقال لي الفقيه عبد الجبّار الذي كان يَتَرْجم بينَنا: إنّ السُلطان يُوصي ابنَه بك، فدعوتُ له؛ ثمّ رأيت أنّ السّفر مَع ابنه غيرُ مُستَبين الوِجْهة، والسّفَرُ إلى صَفَد أقرَبِ السّواحل إلينا أملكُ لأمري،

(أ) آيا صوفيا: وسكنت (بلا نقط)

فقلتُ له ذلك، فأجابَ إليه، وأوصَى بي قاصداً كان عندَه من حَاجب صفَدَ ابن الدَّويداريّ، فوادَعتُه، وانصرفت، واختلفتُ الطَّريقَ مع ذلكَ القاصد، فذهَب عنّي، وذهبتُ عَنه.

وَسَافرتُ في جمعٍ من أصحابي، فاعترضَتنا جماعة من العشير قَطعوا علينَا الطَّريق، ونهبوا ما مَعنا، ونجونَا إلى قريةٍ هنالك عَرايا، واتّصلنا بعدَ يومين أو ثلاثة[أ] بالصُّبَيْبَة، فخَلَفْنا بعضَ الملبوس، وأجزنا إلى صَفَد، فأقمنا بها أيّاماً، ثمّ مرّ بنَا مركبٌ من مَراكب ابن عُثمان سُلْطان بلاد الرُّوم، وصل فيه رسولٌ كان سفر إليه عن سُلْطان مصر، ورجع بجواب رسالته، فركبتُ معَهم البحرَ إلى غَزَّة، ونزلت بها، وَسَافرتُ منها إلى مصرَ، فوصلتُها في شعبان من هذه السّنةِ، وهي سنة ثلاث وثمانمائة.

وكان السُّلْطان صاحب مصرَ قد بعثَ من بابه سفيراً إلى الأمير تِمُرْ إجابةً إلى الصُّلح الذي طلب منه، فأعقَبني إليه، فلمّا قضَى رسالَته رجَع، وكان وصولُه بعدَ وصولي، فبعثَ إليّ مع بعض أصحابه يقول لي: إنّ الأمير تِمُرْ قد بعثَ معي إليكَ ثمَنَ البَغلَة التي ابتاعَ منك، وهي هذه فخُذها، فإنّه عَزَم علينا[ب] من خلاص ذمّته من مالِكَ هذا، فقلت: لا أقبله إلاّ بَعْدَ إذْنٍ من السُّلْطانِ الّذي بعثَكَ إليه، وأمّا دُون ذلك فلاَ، ومضَيتُ إلى صَاحب الدَّوْلَة فأخبرتُه الخبَرَ، فقال: وما عليك؟ فقلتُ: إنّ ذلك لا يَجملُ بي أنْ أفعلَه دون إطلاعِكم عليه، فأغضَى عن ذلك، وبعثوا إليّ بذلك

(أ) أ: ثلاث (ب) آيا صوفيا: إلينا

المَبْلغ بعدَ مُدَّةٍ، واعتذَر الحاملُ عن نقصِهِ بأنَّه أُعطِيَه كذلكَ، وحمدتُ الله على الخَلاَصِ.

وكتبتُ حينئذٍ كتاباً إلى صاحبِ المَغرِبِ، عَرَّفته فيه / بما دَار بيني وبين سُلْطان الطَّطَر تِمُرْ، وكيف كانت واقعتُه معنا بالشَّام، وضَمَّنت ذلك في فَصْلٍ من الكتاب نَصُّه:

"وإنْ تفضَّلتم بالسُّؤالِ عن حَال المملوكِ، فهي بخيرٍ والحمدُ لله، وكنت في العام الفارِط توجَّهت صُحبةَ الرِّكاب السُّلْطانيِّ إلى الشَّام عندما زَحَفَ الطَّطَر إليه من بلاد الرُّوم، والعراق، مع مَلِكهم تِمُرْ، واستولَى على حَلَب، وحَماة، وحِمْص، وبَعْلَبَكَّ، وخرَّبَها جميعاً، وعاثت عسَاكره فيها بما لم يُسمَع بأشنع منه، ونهَض السُّلْطان في عساكره لاستنقاذها، وسبق إلى دِمَشق، وأقام في مقَابلته نحواً من شهر، ثمّ قفَل راجعاً إلى مصرَ، وتخلَّف الكثير من أمرائه وقضاته، وكنتُ في المخلَّفِين، وسمعتُ أنّ سُلْطانَهم تِمُرْ سَأل عنّي، فلم يَسعْ إلاّ لقاؤه، فخرجت إليه من دِمَشْق، وحضرتُ مَجلسَه، وقابلَني بخَيْر، واقتضيتُ منه الأمان لأهلِ دِمَشْقَ، وأقمتُ عندَه خمساً وثلاثين يوماً، أُباكره وأُرَاوِحه، ثمَّ صرَفني، وودَّعني على أحسَن حال، ورجعتُ إلى مِصر، وكَان طلَبَ منّي بَغْلَةَ كنت أركبها فأعطيته إيّاها، وسأل[أ] البيع فتأَفَّفتُ[ب] منه، لِمَا كان يُعاملُ به من الجميلِ، فبعدَ انصرافي إلى مِصْرَ بعث إليّ بثَمَنها مع رَسول كان من جِهَة السُّلْطانِ هنالك، وَحَمدتُ الله تعالى، على الخلاص من ورطات الدُّنيا.

وهؤلاءِ الطَّطَر هم الذين خرجوا من المَفازةِ ورَاء النَّهرِ، بينه وبين الصِّين، أعوامَ

(أ) آيا صوفيا: وسألني (ب) آيا صوفيا: فتافقت (الرابع ممهل)

عشرين وستّمائة مع ملكهم الشّهير، جِنكيزخَان، ومَلك المشرق كلّه من أيدي السّلجوقيّة ومواليهم إلى عراقِ العربِ، وقَسَم الملكَ بينَ ثلاثة من بنيه، وهم: جَقَطاي، وطولي، ودوشي خان.

فَجَقَطاي كبيرُهم، وكان في قسمتِه تُرْكِستان، وكاشغَر، والصّاغُون، والشّاش، وفَرْغَانة، وسائرُ ما وراء النّهر من البلاد.

وطُولي، كان في قِسمته أعمال خُراسان، وعراق العجم، والرَّيّ إلى عراقِ العَرب، وبلاد فارس، وسِجِسْتان، والسّندِ، وكان أبْناؤه: قُبْلاَي، وهُولاَكُو.

ودُوشي خان، كان في قسمته بلاد قَبْجَق، ومنها صَرَاي، وبلاد التُّرك إلى خُوَارَزم، وكان لَهم أخ رَابع يسمّى أوكداي كبيرهم، ويسمُّونَه الخَان، ومعناه: صَاحب التّخت، وهو بمثابة الخَليفة في مُلكِ الإسلام؛ وانقرَض عَقِبُه، وانتقَلت الخَانيّة إلى قُبلاَي، ثمّ إلى بني دُوشِي خان، أصحابِ صَرَاي؛ واستمرَّ مُلكُ الطَطَر في هذه الدُّولِ الثّلاث؛ ومَلك هُولاَكُو بَغدادَ، وعراق العَرَب، إلى ديار بَكْر، ونهر الفُرات؛ ثمّ زحفَ إلى الشّام وملكَها، ورجع عنها، وزَحف إليها بَنُوه مراراً، ومُلُوكُ مصر من التُّرك يُدافعونهم عنها، إلى أنْ انقرض مُلك بني هُولاَكُو أعوامَ أربعين وسبعمائة، ومَلك بعدَهم الشّيخ حسن النُّوْيَن[1] وبنوه، وافترقَ مُلكهم في طوائفَ من أهلِ دولتِهم، وارتفعت نِقْمَتُهُم عن مُلُوكِ الشّام ومِصر، ثمّ في أعوام السّبعين أو الثمانين

(1) لقبٌ مغولي يأتي بعد (خان) يُمنح للموظّفين الكبار، ويقابل (بيك) التركيّة. والشيخ حسن هنا هو مؤسّس الدولة الجلائرية في العراق. لقاء ابن خلدون لتيمور لنك 184. وفي تعليقات مصطفى جواد على هذا اللقب بعض النصوص المأخوذة من آثار الجلائريين الدالّة على كهه وأهميته. ويمرّ ذكره كثيراً في سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي للنسوي.

وسبعمائة، ظهر في بَني جَقَطاي وراء النّهر أمير اسمه تيمور، وشُهرته عند النّاس تِمْز، وهو كافلٌ لصبيّ متّصل النّسَب معه إلى جَقَطاي في آباءٍ كلُّهم مُلوك، وهذا تِمْز بن طَرَغاي[أ] هو ابنُ عَمّهم، كَفَل صاحبَ التَّخْتِ منهم اسمه محمود، وتزوّج أمّه صَرغَتْمِش، ومدَّ يده إلى ممالك الطَّطَر كلّها، فاستولَى عليها إلى ديارِ بَكر، ثمّ جَال في بلادِ الرُّوم والهِنْدِ، وعَاثت عساكرُه في نواحيها، وخرَّب حُصونَها ومُدنَها، في أخبارٍ يَطولُ شَرْحها. ثمّ زحَف، بعدَ ذلك، إلى الشّام، ففعل به ما فعلَ، والله غالبٌ على أمرِه. ثمّ رجَع آخراً إلى بلادِه، والأخبار تتّصل بأنّه قَصَد سَمَرْقَند، وهي كرسيّه.

والقومُ في عَدَدٍ لا يَسَعُه الإحصاءُ، إنْ قدّرتَ ألفَ ألفٍ فغيرُ كثيرٍ، ولا تقولُ أنقَص، وإنْ خيّموا في الأرض ملأوا السّاح، وإنْ سَارت كتائبهم في الأرضِ العَريضةِ ضاق بهم الفضاءُ، وهم في الغارة، والنّهب، والفَتْك بأهل العُمرانِ، وابتلائِهم بأنواع العذابِ، على ما يحصّلونه من فِئاتِهم[ب]، آيةٌ عَجَبٌ، وعلى عَادة بوادي الأعْراب.

وهذا المَلِك تِمْز من زُعماءِ المُلوكِ وفراعنتهم، والنّاس يَنْسُبونه إلى العلم، وآخرون إلى اعتقاد الرّفض، لِمَا يرون من تَفْضيله لأهل البَيْتِ، وآخرون إلى انتحال السّحر؛ وليس من ذلك كلّه في شيء، إنّما هو شديدُ الفِطنة والذّكاء، كثيرِ البَحْثِ واللّجاجِ، بما يعلمُ وبما لا يعلمُ، عُمُره بين السّتّين والسّبعين، وركْبَتُه اليُمنَى عاطلةٌ من سَهْمٍ أصابه في الغارة أيّام صِباه، على ما أخبرني، فيجرُّها في قَريب / المشْي، ويتناولُه الرّجال على الأيدي عند طُول المسَافة، وهو مَصْنوعٌ له؛ والملكُ لله، يؤتِيه من يشاءُ من عبادِه[ج].

(أ) آيا صوفيا: طوغان (ب) آيا صوفيا: فئاتهم (ج) بعدها في آيا صوفيا: انتهى

ولايةُ القضاء الثّالثةُ والرّابعةُ والخامسةُ بمصْر

كنتُ لمّا أقمتُ عندَ السُّلطان بِمْز، تلكَ الأيّامَ التي أقمتُ، طال مَغِيبي عن مِصرَ، وشُيِّعتِ الأخبارُ عنّي بالهلاك، فقُدِّم للوظيفَة مَن يقوم بها من فُضلاء المالكيّة، وهو جمالُ الدّين الأقفهسيّ، غَزير الحفظِ والذّكاء، عفيف النّفسِ عن التّصدّي لحاجاتِ النّاسِ، وَرِع في دينِه، فقلّدوه منتصفَ جُمادَى الآخرة من السّنةِ.

فلمّا رجعتُ إلى مِصْرَ، عَدلُوا عن ذلكَ الرّأي، وبَدا لَهُم في أمري، فولّوني في أواخِر شعبان من السّنَةِ، واستمررتُ على الحال التي كنتُ عليها من القيامِ بالحقّ، والإعراضِ عن الأغْراضِ، والإنصاف من المُطالَب؛ ووقَع الإنكارُ عليّ ممّن لا يَدينِ للحقّ، ولا يُعطِي النَّصَفة من نَفْسه، فسَعوا عند السُّلطان في ولاية شخصٍ من المالكيّة يُعرفُ بجمال الدين البِساطيّ، بَذَل في ذلكَ لسُعاةٍ داخَلوه، قطعةً من مالِه، ووُجوهاً من الأغْراض في قضائه. قَاتلَ الله جميعَهم، فخلَعوا عليه أواخرَ رجب، سنة أربعٍ وثمانمائة.

ثمّ راجع السُّلطان بصيرتَه، وانتقَد رأيَه، وَرَجَّعَ إليّ الوظيفة خاتمَ سنة أربعٍ، فأجريتُ الحال على ما كان.

وبقِي الأمر كذلكَ سنة وبعضَ الأخرى، وأعادُوا البِسَاطيّ إلى مَا كَان، وبِمَا كَان، وعلى ما كان، وخلَعُوا عليه سادسَ ربيع الأوّل سنةَ ستٍ. ثمّ أعادوني عاشرَ شعبان سنةَ سبعٍ، ثمّ أدالوا بِه منّي أواخرَ ذِي القَعدةِ من السّنةِ، وبيدَ الله تصاريفُ الأمورِ[1].

ثمّ الكِتابُ، والحَمْدُ لله

---

(1) بعدها في آيا صوفيا وبخط مغربي مغاير لخط الناسخ: "الحمد لله، توفي المصنف رحمه الله بالقاهرة عام ثمانية وثمانماية؛ هذا هو الصحيح. وقيل: بل مات بدمشق من رجفة في طريقه، والأول أثبت والله سبحانه أعلم".

المصادر والمراجع

- ابن الأبّار القضاعي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله البلنسي (ت658هـ): ديوان ابن الأبّار. [تحقيق] عبد السلام الهرّاس. تونس: الدار التونسية للنشر، 1985م.
- ابن الأثير، علي بن محمد الجزريّ (ت 630هـ): الكامل في التّاريخ. ط7، بيروت، دار صادر، 2005م.
- ابن الأحمر، إسماعيل بن يوسف بن محمد، أبو الوليد (ت 807هـ): بيوتات فاس الكبرى. الرباط: دار المنصور للطباعة، 1972م.
- ـــــــــ : روضة النسرين في دولة بني مرين. [تحقيق] عبد الوهاب بن منصور، ط2. الرباط: المطبعة الملكية، 1991م.
- الإدريسيّ، مُحمّد بن مُحمّد (ت 560 هـ): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت: عالم الكتب، 1989م.
- الأصفهاني، علي بن الحسين (ت356هـ): كتاب الأغاني. [تحقيق] إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس. بيروت: دار صادر، 2002م.
- بارتولد، فاسيلي فلاديميروفتش: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي. [ترجمة] صلاح الدين عثمان هاشم. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1981م.
- بالباس، ليوبلدو تورّس: المدن الإسبانية الإسلامية. [ترجمة] إليو دورو دي لابنيا. الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2003م.
- ابن بسّام، علي بن بسام الشنتريني (ت542هـ) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة [تحقيق] إحسان عباس. ليبيا – تونس – الدار العربية للكتاب، 1979م.

• ابن بطّوطة، مُحمّد بن عبد الله اللواتيّ (ت 779 هـ): رحلة ابن بطوطة المسمّاة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. [تحقيق] عبد الهادي التازي، الرباط: الأكاديمية المغربية، 1997م.

• البَكْريّ، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسيّ، أبو عبيد (ت 487هـ): المسالك والممالك [تحقيق] أدريان فان ليوفن وأندري فيري، قرطاج: بيت الحكمة، 1992م.

• ـــــــــــ : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. [تحقيق] البارون دوسلان، ط2، الجزائر، 1911م.

• ـــــــــــ : اللآلي في شرح أمالي القالي. [تحقيق] عبد العزيز الميمني. ط2، بيروت: دار الحديث، 1984م.

• البناكتي، داود بن محمد (ت730هـ): روضة أولي الألباب في معرفة التواريخ والأنساب، المعروف بـ: "تاريخ البناكتي". [ترجمة] محمود عبد الكريم علي، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2007م.

البناهيّ = النباهيّ

• بورويبة، رشيد: مساهمات الجزائر في الهندسة المعمارية العربية الإسلامية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائرية، 1956م.

• التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم. المحمدية: مطبعة فضالة، 1986م.

• ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف الأتابكيّ، أبو المحاسن (ت 874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. [قدم له وعلق عليه] محمد حسين شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية، 1992م.
• التمكروتيّ، علي بن مُحمّد (ت 1003هـ): النفحة المسكية في السفارة التّركيّة. [تحقيق] مُحمّد الصالحيّ، أبو ظبي - بيروت: دار السويدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2007م.
• الثّعالبيّ، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت 429هـ): التمثيل والمحاضرة. [تحقيق] عبد الفتاح محمد الحلو. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1961م.
• ــــــــــ : يتيمة الدّهر في محاسن أهل العصر. [تحقيق] مفيد محمد قميحة. بيروت: دار الكتب العلمية، 1983م.
• ابن جُبَيْر، مُحمّد بن أحمد الأندلسي الكنانيّ (ت 614هـ): رحلة ابن جُبَيْر المسمّاة: "تذكرة بالإخبار عن اتّفاقات الأسفار". بيروت: دار صادر، 1995م.
• الجزيريّ، عبد القادر بن مُحمّد الأنصاريّ (ت نحو 977هـ): الدّرر الفرائد المنظّمة في أخبار الحاج وطريق مَكّة المعظّمة. [تحقيق] محمد حسن إسماعيل. بيروت: دار الكتب العلمية، 2002م.
• جميل العذري، جميل بن عبد الله بن معمر (ت82هـ): ديوانه، بيروت: دار صادر، 1966م.

• الجواليقيّ، موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر (ت 540هـ): المعرَّب من الكلام الأعجمي. [تحقيق] أحمد محمد شاكر. طهران: (د.ن) 1966م.
• ابن الحاج النميريّ، إبراهيم بن عبد الله، أبو إسحاق (ت 768هـ): فيض العُباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب. [تحقيق] محمد بن شقرون. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990م.
• ابن حَجَر العسقلانيّ، شهاب الدين أحمد بن عليّ (ت 852هـ): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. [تحقيق] محمد سيد جاد الحق. القاهرة: دار الكتب الحديثة، 1966م.
• ابن أبي حجلة، أحمد بن يحيى التلمسانيّ (ت 776هـ): سكردان السُّلطان. [تحقيق] علي محمد عمر. القاهرة: مكتبة الخانجي، 2001م.
• الحجيّ، عبد الرحمن عليّ: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة. القاهرة: دار الاعتصام، 1983م.
• ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي الظاهري (ت 456هـ): جمهرة أنساب العرب. [تحقيق] عبد السلام محمد هارون. ط5، القاهرة: دار المعارف، (د.ت).
• ـــــــــ : رسائل ابن حزم الأندلسيّ. [تحقيق] إحسان عباس. ط2، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2007م.
• الحفناويّ، أبو القاسم محمد بن أبي القاسم الديسيّ (ت 1941م): تعريف الخلف برجال السلف. الجزائر: مطبعة بيير فونتانه، 1906م.

• ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد (ت562هـ): التذكرة الحمدونية. [تحقيق] إحسان عباس، بكر عباس. بيروت: دار صادر، 1996م.
• الحميريّ، مُحمّد بن عبد المنعم (من أهل القرن الثامن الهجري): الروض المعطار في خبر الأقطار. [تحقيق] إحسان عباس، ط2، بيروت: مكتبة لبنان، 1984م.
• ابن حيان، حيان بن خلف بن حيان القرطبي (ت469هـ): المقتبس (السفر الثاني). [تحقيق] محمد علي مكي. الرياض: مركز الملك فيصل، 2003م.
• ابن الخطيب، أبو عبد الله مُحمّد بن عبد الله السلمانيّ، لسان الدين (ت 776هـ): الإحاطة في أخبار غرناطة. [تحقيق] محمد عبد الله عنان. ط2، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1973م.
• ــــــــــ : أعمال الأعلام، فيمَن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. [نشره] ليفي بروفنسال بعنوان: "تاريخ إسبانيا الإسلامية". القاهرة: مكتبة القافة الدينية، 2004م.
• ــــــــــ : ريحانة الكُتّاب ونجعة المُنْتاب. [تحقيق] محمد عبد الله عنان. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1980م.
• ــــــــــ : الكتيبة الكامنة فيمَن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة. [تحقيق] إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة، 1983م.
• ــــــــــ : كُناسة الدكان بعد انتقال السكّان. [تحقيق] محمد كمال شبانة. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2003م.

• ــــــــــــ : اللَّمحة البدريَّة في الدَّولة النَّصريَّة. ط2، بيروت: دار الآفاق، 1978م.

• ــــــــــــ : معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار. [تحقيق] مُحمّد كمال شبانة. الرباط: صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، 1976م.

• ــــــــــــ : نُفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب. [تحقيق] أحمد مختار العبادي. القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، (د.ت).

• ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد (808هـ): التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً. [تحقيق] محمد بن تاويت الطنجي. [راجعه] إبراهيم شبُّوح. تونس: القيروان للنشر، الدار العربية للكتاب، 2006م.

• ــــــــــــ : العبر، وديوان المبتدإ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرَهم من ذوي السُّلطان الأكبر (تاريخ ابن خلدون): الجزء الأول [تحقيق] إبراهيم شبوح، إحسان عباس. تونس: القيروان للنشر، الدار العربية للكتاب، 2006م.

• ــــــــــــ : الجزء الثاني [تحقيق] إبراهيم شبوح. تونس: القيروان للنشر، 2007م.

• ــــــــــــ : الجزء السابع [تحقيق] إبراهيم شبوح وصلاح جرار (قيد الطبع).

• ــــــــــــ : الجزء الثامن [تحقيق] إحسان الثامري والمهدي الرواضية. تونس: القيروان للنشر، 2008م.

• ـــــــــــ : الجزء العاشر: [تحقيق] محمد محمد أمين. تونس: القيروان للنشر، 2009م.

• ـــــــــــ : الجزء الحادي عشر، [تحقيق] إبراهيم شبُّوح. (قيد الطبع)

• ابن خلدون، يحيى بن محمد، أبو زكرياء (ت 780هـ): بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. [تحقيق] عبد الحميد حاجيات. الجزائر: المكتبة الوطنية، 1980م.

• ابن خلّكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. [تحقيق] إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة (د.ت).

• الخوارزميّ، محمد بن أحمد بن يوسف (ت387هـ): مفاتيح العلوم. [تحقيق] إبراهيم الأبياري. ط2، بيروت: دار الكتاب العربي، 1989م.

• الدّاليّ، الهادي المبروك: مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها مع المغرب وليبيا. بيروت - ليماسول: دار الملتقى للطباعة والنشر، 2001م.

• الدّرّاجيّ، بوزياني: نظام الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانيّة. الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائرية، (د.ت).

• دهمان، محمد أحمد: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي. بيروت – دمشق: دار الفكر المعاصر، دار الفكر، 1990م.

• ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (ت 1092هـ): المؤنس في أخبار إفريقية وتونس. ط3، بيروت: دار المسيرة، 1993م.

• ابن رشيق القيرواني، الحسن بن رشيق (ت456هـ): العُمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. [تحقيق] محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: دار الجيل، 1981م.

- ابن أبي زرع الفاسيّ، أبو الحسن علي (من أهل ق 8هـ): الأنيس المطرب بروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972م.
- ـــــــــ : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972م.
- الزركشيّ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ت بعد 894هـ): تاريخ الدولتين "الموحدية والحفصية". [تحقيق] محمد ماضور. تونس: المكتبة العتيقة، (د.ت).
- الزركليّ، خير الدين: الأعلام "قاموس لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين"، ط6. بيروت: دار العلم للملايين، 1984م.
- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر (ت 538هـ): ربيع الأبرار ونصوص الأخبار. [تحقيق] سليم النعيمي. بغداد: إحياء التراث الإسلامي، 1976م.
- ـــــــــ : المستقصى في أمثال العرب. ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، 1977م.
- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت 902هـ): الإعلان بالتوبيخ لمَن ذمّ التاريخ. [تحقيق] فرانز روزنتال. [ترجمة] صالح أحمد العلي. بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت).
- السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر: تاريخ السودان. [اعتناء] هوداس. م دلافوس. باريس: المدرسة الباريسية لتدريس الألسنية الشرقية، 1964م.

- ابن سعيد المغربيّ، أبو الحسن علي بن موسى بن مُحمّد (ت 685هـ): بسط الأرض في الطول والعرض (أو: الجغرافية). [تحقيق] إسماعيل العربي. بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر، 1970م.
- ــــــــــ : المُغرب في حُلى المغرب. [تحقيق] شوقي ضيف. ط4، مصر: دار المعارف، (د.ت).
- سليمان، أحمد السعيد: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة. مصر: دار المعارف، (د.ت).
- السيوطي، عبد الرحمن بن محمد (ت911هـ): ما رواه الواعون في أخبار الطاعون. [تحقيق] محمد علي البار، دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشامية، 1997م.
- الشريف الرضي، محمد بن الحسين بن موسى (ت406هـ): ديوانه، [شرح] يوسف شكري فرحات. بيروت: دار الجيل، 1995م.
- ابن الشَّمَّاع، أبو عبد الله بن أحمد (ت بعد 861هـ): الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية. [تحقيق] الطاهر بن محمد المعموري. طرابلس، تونس: الدار العربية للكتاب، 1984م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت 764هـ): الوافي بالوفيات. [تحقيق] مجموعة من المحققين، بيروت: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية (سلسلة النشرات الإسلامية)، 1962-2004م.
- الصولي، محمد بن يحيى (ت335هـ) أخبار أبي تمام. [تحقيق] خليل محمود عساكر، محمد عبده عزام، نظير الإسلام الهندي. بيروت: المكتب التجاري، (د.ت).

• الطّبريّ، محمد بن جرير (ت 310هـ): تاريخ الرُّسل والملوك (تاريخ الطبري). [تحقيق] محمد أبو الفضل إبراهيم. ط4، القاهرة: دار المعارف، 1979م.

• طرخان، إبراهيم علي: دولة مالي الإسلامية "دراسات في التاريخ القومي الإفريقي". القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973م.

• ابن عاصم، محمد بن عاصم الغرناطيّ، أبو يحيى (ت 857هـ): جنّة الرضا في التّسليم لما قدّر الله وقضى. [تحقيق] صلاح جرار. عمان: دار البشير، 1989م.

• ابن عبد البرّ، يوسف بن عبد الله القرطبيّ (ت 463هـ): الاستيعاب في معرفة الأصحاب. [صححه وخرج أحاديثه] عادل مرشد. عمّان: دار الأعلام، 2002م.

• ابن عبد الحليم (من أهل القرن الثامن): كتاب الأنساب "منشور ضمن كتاب: ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلاميّ". [دراسة وتحقيق] محمد يعلى. مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية/ الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، 1996م.

• ابن عذارى المراكشيّ، محمد بن محمد (ت 695هـ): البيان المغرب، في أخبار الأندلس والمغرب. تطوان: المطبعة الحسنية، 1960م.

• ابن أبي عذيبة، أحمد بن محمد بن عمر الشافعي المقدسي (ت 856هـ): إنسان العيون في مشاهير سادس القرون. [تحقيق] إحسان الثامري ومحمد القدحات. عمّان: دار ورد، 2007م.

• ابن عربشاه، شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي (ت854هـ): عجائب المقدور في نوائب تيمور. [تحقيق] أحمد فايز الحمصي. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1986م.

• ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله المالكي (ت 543هـ): شواهد الجِلَّة. "منشور ضمن كتاب: ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلاميّ". [دراسة وتحقيق] محمد يعلى. مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية/ الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، 1996م.

• العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت نحو 395هـ): ديوان المعاني. [تحقيق] أحمد سليم غانم. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003م.

• ابن العماد الحنبليّ، عبد الحي بن أحمد بن محمد الدمشقيّ (ت 1089هـ): شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب. [تحقيق] عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط. دمشق - بيروت: دار ابن كثير، 1986 - 1995م.

• عنان، محمد عبد الله: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1966م.

• العيني، بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى (ت 855هـ): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. [تحقيق] محمد محمد أمين. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م.

• ابن غازي المكناسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد العثماني (ت 919هـ): الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون. [تحقيق] عطا أبو رية وسلطان الأسمري. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2007م.

• الغبرينيّ، أبو العبّاس أحمد بن أحمد بن عبد الله (ت 714هـ): عنوان الدراية فيمَن عُرف من العلماء في المئة السّابعة ببجاية. [تحقيق] عادل نويهض، ط2، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1979م.

• الغربي، محمد: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي. بغداد: وزارة الثقافة والإعلام العراقية، دار الرشيد للنشر، 1982م.

• الغزي، تقي الدين عبد القادر التميمي الداري المصري الحنفي (ت1005 أو 1010هـ): الطبقات السنية في تراجم الحنفية [تحقيق] عبد الفتاح محمد الحلو. الطبعة الأولى، دار الرفاعي، الرياض / دار هجر، القاهرة، 1989م.

• أبو الفداء، إسماعيل بن محمد بن عمر، صاحب حماه (ت732هـ): تقويم البلدان [اعتنى بتصحيحه وطبعه] جوزيف توسن رينود، ماك كوكين ديسلان. باريس: دار الطباعة السلطانية، 1840م.

• فرحان، يوسف شكري: غرناطة في ظلّ بني الأحمر. بيروت: المؤسّسة الجامعية للنشر، 1982م.

• ابن فرحون، إبراهيم بن نور الدين المالكيّ (ت 799هـ): الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. [تحقيق] مأمون بن محيي الدين الجنان. بيروت: دار الكتب العلمية، 1996م.

• ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى (ت749هـ): عرف التعريف في المكاتبات. [تحقيق] سمير الدروبي. عمّان: دار ابن الجوزي، 2008م.

- فيشل، والتر جوزيف: لقاء ابن خلدون لتيمور لنك. [ترجمة] محمد توفيق. [مراجعة] يوسف روشا. بيروت: دار مكتبة الحياة، 1950م.
- القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت356هـ): الأمالي. [تحقيق] علي محمد زينو. دمشق – بيروت: مؤسسة الرسالة، 2008م.
- القرمانيّ، أحمد بن يوسف (ت 1019هـ): أخبار الدول وآثار الأُوَل في التّاريخ. [تحقيق] فهمي سعد، أحمد حطيط. بيروت: عالم الكتب، 1992م.
- ابن قطلوبغا، أبو الفداء زين الدين قاسم بن قطلوبغا السودوني (ت879هـ): تاج التراجم [تحقيق] محمد خير رمضان يوسف، الطبعة الأولى، دمشق، دار القلم، 1992م.
- القلقشنديّ، أحمد بن علي بن أحمد (ت 821هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشا. القاهرة: دار الكتب الخديوية، 1915م.
- ________ : قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان. [تحقيق] إبراهيم الأبياري. ط2، القاهرة ـ بيروت: دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، 1982م.
- ابن قُنفذ، أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب (ت 810هـ): الفارسيّة في مبادئ الدولة الحفصية. [تحقيق] محمد الشاذليّ النيفر وعبد المجيد التركي. تونس: الدار التونسية للنشر، 1968م.

• كربخال، مارمول: إفريقيا. [ترجمه عن الفرنسية] محمد حجّي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون. الرباط: مكتبة المعارف، 1984م.

• الكرملي، انستاس ماري: الألقاب الرومانية عند قدماء العرب. مجلة المجمع العلمي العربي، ج7، مج1، تموز 1921م.

• كعت، محمود كعت ابن الحاج المتوكّل كعت الكرمني التنبكتي الوعكريّ (ت 1002هـ): تاريخ الفتّاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر النّاس. [تحقيق] هوداس. م دلافوس. باريس: المدرسة الباريسية لتدريس الألسنية الشرقية، 1964م.

• لسترنج، كي: بلدان الخلافة الشرقية. [ترجمة] بشير فرنسيس وكوركيس عواد. ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985م.

• المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت354هـ): ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، المسمى بالتبيان في شرح الديوان. [تحقيق] مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. بيروت: دار المعرفة (د.ت).

• مجهول (من أهل القرن السادس الهجريّ): الاستبصار في عجائب الأمصار. [تحقيق] سعد زغلول عبد الحميد. الدار البيضاء: الدار المغربية للنشر، 1985م.

• مجهول (من القرن السابع الهجريّ ظنّاً): ذكر بلاد الأندلس وفضلها وصفتها وذكر أضقاعها. [تحقيق] لويس مولينا، مدريد: ميغل أسين، 1983م.

• مجهول (من أهل القرن الثامن الهجري): الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. [تحقيق] سهيل زكّار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 1979م.

• مجهول (من أهل القرن الثامن الهجري): كتاب الحوادث. [تحقيق] بشار عواد معروف وعماد عبد السلام. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1997م.

• المراكشي، محمد بن محمد بن عبد الملك (703هـ): الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة. [تحقيق] إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة، 1965م.

• ابن مرزوق التلمسانيّ، محمد بن أحمد بن محمد (ت 781هـ): المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن. [تحقيق] ماريا خيسوس، الجزائر، 1981.

• المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر. [تقديم] مفيد محمد قميحة. بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت).

• مَقْدِيش، محمود بن سعيد (ت 1282هـ): نزهة الأنظار في عجائب التاريخ والأخبار. [تحقيق] علي الزواري ومحمد محفوظ. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988م.

• المقَّريّ، أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041هـ): أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. الرباط: صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، (1978م -).

• ـــــــــــ : نفح الطّيب، من غصن الأندلس الرطيب. [تحقيق] إحسان عباس. بيروت: دار صادر، 1968م.

• المقريزيّ، أحمد بن علي (ت 845هـ): الذهب المسبوك في ذكر مَن حج من الخلفاء والملوك. [تحقيق] جمال الدين الشيّال. القاهرة - بغداد: مكتبة الخانجي، مكتبة المثنى، 1955م.

• ابن مليح السّراج، مُحمّد بن أحمد القيسيّ (ت بعد 1042هـ): أنس السّاري والسّارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيّد الأعاجم والأعارب. [تحقيق] مُحمّد الفاسي، فاس: وزارة الدولة، 1968م.

• المنوني، محمد: ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، الرباط: كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، 1985م.

• الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت 518هـ): مجمع الأمثال. [تحقيق] محمد محيي الدين عبد الحميد. الكويت: دار الكتاب الحديث، (د.ت).

• الناصري، أحمد بن خالد السلاوي (ت 1315هـ): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. [تحقيق] جعفر الناصري، ومحمد الناصري. الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954م.

• النّاصريّ، جعفر بن أحمد: سلا ورباط الفتح "أسطولها وقرصنتها الجهاديّة". [تحقيق] أحمد بن جعفر الناصري. الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربيّة، 2006م.

• النباهي، أبو الحسن علي بن عبد الله الجذامي المالقيّ (كان حيّاً 793هـ): المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (أو: تاريخ قضاة الأندلس). [تحقيق] لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة. ط5، بيروت: الآفاق الجديدة، 1983م.

• النسوي، محمد بن أحمد (ت639هـ): سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي [تحقيق] حافظ أحمد حمدي، القاهرة، دار الفكر العربي، 1953م.

• النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت978هـ): الدارس في تاريخ المدارس [أعد فهارسه] إبراهيم شمس الدين، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، 1990م.

• النويريّ، أحمد بن محمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب. [تحقيق] محمد أبو الفضل إبراهيم (وآخرين). القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1954م.

• الوزّان، الحسن بن مُحمّد الفاسيّ، ليون الإفريقيّ (ت 956هـ): وصف إفريقيا. [ترجمه عن الفرنسية] محمد حجي، محمد الأخضر. ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983م

• الوزير الغسّانيّ، مُحمّد بن عبد الوهاب الأندلسيّ الفاسيّ (ت 1119هـ): رحلة الوزير في افتكاك الأسير. [حرّرها وقدم لها] نوري الجرّاح. أبو ظبي - بيروت: دار السويديّ، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، 2002م.

- ياقوت الحمويّ، ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ): معجم البلدان. بيروت: دار صادر (د. ت).
- اليعقوبيّ، أحمد بن إسحاق بن واضح (ت بعد 292 هـ): كتاب البلدان، ليدن: مطبعة بريل، 1889م.
- ـــــــــــ : تاريخ اليعقوبي. بيروت: دار صادر، (د.ت).
- اليوسي، الحسن بن مسعود (ت1102هـ): زهر الأكم في الأمثال والحكم. [تحقيق] محمد حجي ومحمد الأخضر. الدار البيضاء (المغرب): دار الثقافة، 1981م.

المحتوى

۞ الخَبَرُ عن بَني مَرِين وأنسابهم وشُعوبهم، وما تأثّلوا بالمَغرب من السُّلْطان والدَّوْلَة الّتي استتبعت سائرَ زَناتة، وانتظمت كراسيّ المُلْك بالعُدْوَتَيْن، وأوّليّة ذلك ومَصايِره 3

• الخَبَرُ عن إمارة عبد الحقّ بن مَحْيُو المستقرّة في بَنيه وإمارة ابنه عُثْمان من بعده ثم أخيه مُحَمَّد بن عبد الحقّ بعدهما، وما كان فيها من الأحْداث 12

• الخَبَرُ عن دَوْلة الأمير أبي يَحْيَى بن عبد الحقّ، مُدِيلِ الأمر لقومه بني مَرِين، وفاتِحِ الأمصار، ومُقيم الرُّسُوم المُلوكيّة من الآلة وغيرها لمن بعده من أمرائهم 20

• الخَبَرُ عن انتقاض أهلِ فاس على أبي يَحْيَى بن عبد الحقّ، وظَفره بهم، بعد إيقاعه بيَغْمَرَاسَن وقَوْمِه بإيسلي 28

• الخَبَرُ عن تغلُّب الأمير أبي يَحْيَى على مدينة سَلا، وارتجاعها من يَدِه، وهزيمته للمُرْتَضَى بعدها 31

• الخَبَرُ عن فَتْح سِجِلْمَاسة وبلاد القِبْلَة، وما كان في ذلك من الأحْداث 33

• الخَبَرُ عن مَهْلِك الأمير أبي يَحْيَى، وما كان إثر ذلك من الأحْداث التي تمخّضت عن استبداد أخيه يَعْقُوب بن عبد الحقّ بالأمر 35

• الخَبَرُ عن فَجْأةِ العَدوّ مدينةَ سَلا واستنقاذِها من أيديهم 37

• الخَبَرُ عن مُنازلة السُّلْطان أبي يُوسُف حضرةَ مَرَّاكُش، دار الخلافة، وعُنْصُر الدَّوْلَة، وما كان إثر ذلك من نُزوع أبي دَبُّوس إليه، وكيف نصبه للأمر، وكان مَهْلِك المُرْتَضَى على يَدِه ثم انتقض عليه 40

• الخَبَرُ عن وقيعة تلاغ بين السُّلْطان يَعْقُوب بن عبد الحَقّ ويَغْمَرَاسَن بن زَيَّان بإغراء أبي دَبُّوس وتَضْرِيبه 42

• الخَبَرُ عن السِّفارة والمهاداة التي وقعت بين السُّلْطان يَعْقُوب بن عبد الحَقّ وبين المُسْتَنْصِر الخليفة بتُونِس من آل أبي حَفْص 44

• الخَبَرُ عن فَتْح مَرَّاكُش، ومَهْلِك أبي دَبُّوس، وانقراض دولة المُوَحِّدِين من المَغْرب 47

• الخَبَرُ عن عَهْد السُّلْطان لابنه أبي مالك، وما كان عَقِب ذلك من خُروج القَرابة عليه أولاد أخيه إدْرِيس و إجازتهم إلى الأنْدَلُس 49

• الخَبَرُ عن حركةِ السُّلْطان أبي يوسُف إلى تِلِمْسان، وواقعتِه على يَغْمَرَاسَن وقومه بإيسْلِي 51

• الخَبَرُ عن افتتاح مدينة طَنْجَة، وطاعةِ أهْلِ سَبْتَة، وفَرْضِ الإتاوَة عليهم، وما قارنَ ذلك من الأحداث 55

• الخَبَرُ عن فَتْح سِجِلْمَاسَة الثّاني، ودُخولها عَنْوةً على بَني عَبْد الوَاد والمُنَبَّات من عَرب المَعْقِل 60

• الخَبَرُ عن شأن الجهاد، وظُهور السُّلطان أبي يوسُف على النَّصارَى، وقَتْل زَعيمِهِم ذُنُنَّه، وما قارَن ذلك 64
• الخَبَرُ عن اختطاط البَلَد الجَدِيد بِفاس، وما كان على تفيئة ذلك من الأحداث 79
• الخَبَرُ عن إجازة أمير المُسْلِمين الثّانية، وما كان فيها من الغزوات 84
• الخَبَرُ عن تَمَلُّك السُّلْطان مدينة مَالَقَة من يد ابن إشْقَيْلُولَة 87
• الخَبَرُ عن تَظاهُرِ ابن الأَحْمر والطَّاغِيَة على مَنْع السُّلْطان أبي يوسُف من إجازة البَحْر، وإصْفاقِ يَغْمَرَاسَن بن زَيَّان معهم من وراء البَحْر على الأخذ بحُجْزَته عنهم، وواقعةِ السُّلْطان على يَغْمَرَاسَن بخَرْزُوزَة 90
• الخَبَرُ عن إجازة السُّلْطان أبي يوسُف الثّالثةِ باسْتدعاء الطَّاغِيَة لخُروجِ ابنِه شَانجُهْ عليه، وافْتِراق كَلِمَة النَّصْرانيَّة، وما كان في هذه الإجازة من الغَزوات 105
• الخَبَرُ عن شأن السِّلْم مع ابن الأَحْمر، وتَجافِي السُّلْطانِ له عن مَالَقَة، ثمّ تجدُّد الغَزْو بعد ذلك 107
• الخَبَرُ عن إجازةِ السُّلْطان أبي يوسُف الرّابعة، ومُحاصرة شَرِيش، وما تخلَّل ذلك من الغَزوات 110
• الخَبَرُ عن وِفادة الطَّاغِيَة شَانجُهْ، وانعقاد السِّلْم، ومَهْلِك السُّلْطان على تفيئة ذلك 116

• الخَبَرُ عن دَوْلَةِ السُّلْطان أبي يَعْقُوب، وما كان فيها من الأحداث، وشأن الخوارج لأوّلِ دَوْلته 120

• الخَبَرُ عن دُخولِ وادي آش في طاعة السُّلْطان، ثمّ رُجوعِها إلى طاعة ابن الأحْمر 125

• الخَبَرُ عن خُروج الأميرِ أبي عامر ونُزوعِه إلى مَرَّاكُش، ثمّ فَيْئته إلى الطّاعة 126

• الخَبَرُ عن تَجدُّد الفِتْنَة مع عُثْمان بن يَغْمَرَاسَن، وغَزْو السُّلْطان مدينة تِلِمْسان ومُنازلته إيّاها 128

• الخَبَرُ عن انْتقاضِ الطّاغِيَة، وإجازَةِ السُّلْطان لغَزْوِه 131

• الخَبَرُ عن انتقاضِ ابن الأَحْمر، ومُظاهرته الطّاغِيَة على طَرِيف 132

• الخَبَرُ عن وِفادة ابن الأَحْمر على السُّلطان والْتقائهما بطَنْجَة 134

• الخَبَرُ عن انتزاء ابن الوَزِير الوَطّاسيّ بحِصْن تازُوطا من جهات الرِّيف، واسْتنزال السُّلْطان إيّاه 136

• الخبرُ عن نُزوع أبي عامر ابن السُّلْطان إلى بلاد الرِّيف وجبال غُمارَة 139

• الخَبَرُ عن تَرْديد الغَزو إلى تِلِمْسان ومُنازلتها 141

• الخَبَرُ عن الحِصار الكبير لتِلِمْسان، وما تخلَّلَ ذلك من الأحْداث 144

• الخَبَرُ عن افتتاح بلاد مَغْرَاوَة وما تخلَّلَ ذلك من الأحداث 148

• الخَبَرُ عن افتتاح بلاد بَني تُوجِّين، وما تخلَّلَ ذلك 151
• الخَبَرُ عن مُراسلة المُوَحِّدِين مُلُوك إفريقيّة بتُونِس وبِجَايَة وأحواله معهم 153
• الخَبَرُ عن مُراسلةِ مُلُوك المشرق الأقصى ومُهاداتِهم، ووِفادة أمراء التُّرْك على السُّلطان، وما تخلَّلَ ذلك 158
• الخَبَرُ عن انتقاض ابن الأحمر، واستيلاء الرَّئِيس أبي سعيد على سَبْتَة، وخروجِ عُثْمان بن أبي العُلَى في غُمَارَة 163
• الخَبَرُ عن انتقاض بَني كَمِي من بني عبد الواد وخُروجهم بأرض السُّوس 169
• الخَبَرُ عن مَهْلِك المشيخة من المَصَامِدَة بتلبيس ابن المَلْيَانيّ 172
• الخَبَرُ عن رِياسة اليَهُود بَني رَقّاصة ومَقْتَلهم 174
• الخَبَرُ عن مَهْلِك السُّلْطان أبي يَعْقُوب 176
• الخَبَرُ عن ولاية السُّلْطان أبي ثابت، واسْتلحامه المرشحين، وما تخلَّلَ ذلك 177
• الخَبَرُ عن انتزاء يوسُف بن أبي عيّاد بمَرّاكُش وتغلّب السُّلْطان عليه 182
• الخَبَرُ عن غَزَاة السُّلْطان لمدافعة عُثْمان بن أبي العُلَى ببلاد الهَبْط، ومَهْلِكِه بطَنْجَة بعد ظُهورِه 185
• الخَبَرُ عن دَولَة السُّلْطان أبي الرَّبِيع، وما كان فيها من الأحداث 188

• الخَبَرُ عن مَقْتل عَبْد الله بن أبي مَدْيَن 190
• الخَبَرُ عن ثورة أهلِ سَبْتَة بالأنْدَلُسيّين ومُراجعتهم طاعة السُّلْطان 193
• الخَبَرُ عن بَيْعة عبد الحَقّ بن عُثْمان، بمُمالأة الوَزِير والمشيخة، وظُهور السُّلْطان عليهم، ثمّ مَهْلكه إثر ذلك 195
• الخَبَرُ عن دَولة السُّلْطان أبي سعيد، وما كان فيها من الأحداث 198
• الخبرُ عن حَرَكة السُّلطان أبي سعيد إلى تلمسان؛ أُولَى حركاته إليها 200
• الخَبَرُ عن اسْتِقْدام عَبْد المُهَيْمِن للكتابةِ والعَلامة 202
• الخَبَرُ عن صَرِيخ أهْلِ الأنْدَلُس بالسُّلْطان، ومَهْلِك بِطْرُة على غَرْنَاطَة 205
• الخَبَرُ عن انْتِقاضِ الأمير أبي عليّ، وما كان بينه وبين أبيه من الواقِعات 208
• الخَبَرُ عن نَكْبَة مِنْدِيل الكِنَانيّ ومَقْتله 214
• الخَبَرُ عن انْتِقاضِ العَزَفِيّ بِسَبْتَة، ومُنازلته، ثم مصيرها إلى طاعة السُّلْطان بعد مَهْلكه 216
• الخَبَرُ عن صِهْر المُوَحِّدِين، والحركة إلى تِلِمْسان على أثره، وما تخلَّل ذلك من الأحْداث 220
• الخَبَرُ عن مَهْلِك السُّلْطان أبي سعيد، وولايةِ ابنِه السُّلْطانِ أبي الحَسَن، وما تخلَّل ذلك من الأحْداث 226
• الخَبَرُ عن حركة السُّلْطان أبي الحسن إلى سِجِلْمَاسَة، وانكفائه عنها إلى تِلِمْسان بعد الصُّلْح مع أخيه والاتفاق 228

• الخَبَرُ عن انتقاضِ الأمير أبي عليّ، ونُهوضِ السُّلطانِ أبي الحَسَن إليه وظَفَرِه به 230
• الخَبَرُ عن مُنازلة جَبَل الفَتْح، واسْتِئثار الأمير أبي مالك والمُسلِمين به 232
• الخَبَرُ عن حِصار تِلِمْسان، وتَغلُّب السُّلطان أبي الحسن عليها، وانقراض أمْر بَني عَبْد الوَاد بمَهْلِك أبي تاشِفِين 235
• الخَبَرُ عن نَكْبَة الأمير أبي عبد الرَّحمن بمِتِّيْجَة، وتقبُّض السُّلطان عليه، ثمَّ مَهْلِكه آخراً 241
• الخَبَرُ عن خروج ابن هَيْدُور، وتلبيسه بأبي عبد الرَّحمن 243
• الخَبَرُ عن شأن الجهاد، وإغزاء السُّلطان ابنَهُ الأمير أبا مالك، واستشهادِهِ 245
• الخَبَرُ عن واقعة المَلَنْدِ، والظَّفَر به، وظهور أساطيل المُسلِمين على أُسْطُول النَّصارَى 246
• الخَبَرُ عن واقعةِ طَرِيف وتَمْحيص المُسْلِمين 248
• الخَبَرُ عن مُنازلة الطَّاغِيَة الجزيرةَ، ثمَّ تغلُّبه عليها، بعدما غَلَب على القَلعة من ثُغور ابن الأحْمر 250
• الخَبَرُ عن شفاعَةِ صاحب تُونس في أولاد أبي العُلَى ووُصولهم إلى السُّلطان 252
• الخَبَرُ عن هديّة السُّلطان إلى المشرق، وبَعْثِه بنُسَخ المُصحَف من خَطّه إلى الحرَمَيْن والقُدْس 256

• الخَبَرُ عن هَدِيَّة السُّلْطان إلى ملك مَالِّي من السُّودان المجاورين للمَغْرِب 260
• الخَبَرُ عن إصهار السُّلْطان إلى صاحب تُونِس 263
• الخَبَرُ عن حركة السُّلْطان إلى إفْرِيقِيَّة واستيلائه عليها 264
• الخَبَرُ عن واقعة العَرَب مع السُّلْطان بالقَيْرَوان، وما تخلَّلها من الأحداث 277
• الخَبَرُ عن انتقاض الثُّغور الغَرْبيَّة من إفْرِيقِيَّة، ورُجوعها إلى دَعْوة المُوَحِّدِين 286
• الخَبَرُ عن انتزاء أولادِ السُّلْطان بالمَغْرب الأوْسَط والأقصى، ثمَّ استقلال أبي عِنَان بمُلْك المَغْرب كلّه 289
• الخَبَرُ عن انتقاض النَّواحي، وانتزاء بَني عَبْد الوَاد بتِلِمْسان، ومَغْرَاوَة بشَلَف، وتُوجِّين بالمَدِيَّة 294
• الخَبَرُ عن رُجوعِ أمراءِ الثُّغور الغَرْبيَّة من المُوَحِّدِين إلى ثُغورهم بِبجَايَة وقُسَنطِينَة 298
• الخَبَرُ عن نُهوض النَّاصِر ابن السُّلْطان ووليّه عريف بن يَحْيَى من تُونِس إلى المَغْرب الأوْسَط 300
• الخَبَرُ عن رِحْلة السُّلْطان أبي الحسن إلى المَغْرب، وتغلّبِ المولى الفَضْل على تُونِس، وما دعا إلى ذلك من الأحوال 301
• الخَبَرُ عن استيلاء السُّلْطان علي سِجِلْمَاسَة، ثمَّ فرارُه عنها أمامَ ابنه إلى مَرَّاكُش، واستيلائه عليها، وما تخلَّلَ ذلك 306

• الخَبَرُ عن استيلاء السُّلطان على مَرَّاكُش، ثُمَّ انهزامه أمام الأمير أبي عِنَان، ومَهْلِكه بجبل هِنْتَاتَة 308
• الخَبَرُ عن حَرَكَة السُّلطان أبي عِنَان إلى تِلِمسان، وإيقاعه ببني عَبْد الوَاد بأنْكَاد، ومَهْلِك أبي سعيد سُلطانهم 312
• الخَبَرُ عن شأن أبي ثابت، وإيقاع بَني مَرِين به بوادي شَلَف، وتقبُّض المُوَحِّدِين عليه بِبِجَايَة 314
• الخَبَرُ عن تملُّك السُّلطان أبي عِنَان بِجَايَة، وانتقال صاحبها إلى المَغرب 316
• الخَبَرُ عن ثورةِ أهل بِجَايَة، ونُهوضِ الحاجب إليها في العَسَاكر 317
• الخَبَرُ عن الحاجب ابن أبي عَمْرو، وما عَقَد له السُّلطان على ثغر بِجَايَة، وعلى مُنازلة قُسَنطِينَة، ونُهوضه لذلك 321
• الخَبَرُ عن خروج أبي الفَضْل ابن السُّلطان أبي الحسن بجبل السَّكْسِيويّ، ومَكْر عامِلِ دَرْعَة به ومَهْلِكه 326
• الخَبَرُ عن انتقاضِ عيسى بن الحسن بجَبَل الفَتْح ومَهْلِكِه 328
• الخَبَرُ عن نُهوض السُّلطان إلى قُسَنطِينَة وفَتْحها، ثُمَّ فتح تُونِس عَقِبها 332
• الخَبَرُ عن وزارة سُلَيمان بن داود، ونُهوضِه بالعَسَاكر إلى إفرِيقِيَّة 338
• الخَبَرُ عن مَهْلِك السُّلطان أبي عِنَان، ونَصْب السَّعيد للأمر، باستبداد الوَزِير الحسن بن عُمَر في ذلك 340

• الخَبَرُ عن تجهيز العَسَاكر إلى مَرَّاكُش، ونُهوض الوَزير سُلَيمان بن داود لمحاربة عامر بنِ مُحَمَّد 342
• الخَبَرُ عن ظُهور أبي حَمُّو بنَواحي تِلِمْسان، وتَجهيز العَسَاكر لمدافعته، ثمَّ تغلّبه عليها، وما تخلّل ذلك 344
• الخَبَرُ عن نُهوض الوَزير مَسْعُود بن مَاسَايْ إلى تِلِمْسان، وتغلّبه عليها، ثمَّ انتقاضِه، ونصبِه منصور بن سُلَيمان للأمر 348
• الخَبَرُ عن نُزول المولى أبي سالم بجبال غُمَارَة، واستيلائه على مُلْك المَغرب، ومَقْتَل منصور بن سُلَيمان 351
• الخَبَرُ عن خَلْع ابن الأَحْمر صاحِبِ غَرْنَاطَة ومقتل رِضْوَان، ومَقْدمه على السُّلْطان 356
• الخَبَرُ عن انتقاض الحسن بنِ عُمَر، وخروجه بتَادَلا، وتغلّب السُّلْطان عليه، ومَهْلكه 363
• الخَبَرُ عن وَفْد السُّودان، وهديّتهم، وفيها الحيوان الغريب الشّيَات المُسَمَّى بالزَّرَافة 365
• الخَبَرُ عن حركة السُّلْطان إلى تِلِمْسان واستيلائه عليها، وإيثار أبي زَيّان حافد أبي تَاشِفين بمُلكها، وما كان مع ذلك من صَرْف أمراء المُوَحِّدِين إلى بلادهم 367
• الخَبَرُ عن مَهْلِك السُّلْطان أبي سالم، واستيلاء عُمَر بن عَبْد الله على مُلْك المَغرب، ونَصْبِه للمُلُوك واحداً بعد آخر إلى أنْ هَلَكَ 370

• الخَبَرُ عن الفَتْكة بابن أنطون قائد العَسْكَر من النَّصارى، ثمّ خروج يَحْيَى بن رَحُو وبَني مَرِين عن الطَّاعة 376
• الخَبَرُ عن وُصول عَبْد الحَلِيم ابن السُّلْطان أبي علي من تِلِمْسان، وبَيْعة بَني مَرِين له، وحصار البَلَد الجَدِيد 379
• الخَبَرُ عن قُدوم مُحَمَّد ابنِ الأمير أبي عبد الرَّحمن وبيعته بالبَلَد الجَدِيد في كَفالةِ عُمَر بن عَبْد الله 383
• الخَبَرُ عن تحيُّز السُّلْطان عَبْد الحَلِيم وإخوته إلى سِجِلْمَاسَة بعدَ الواقعة عليهم بِمِكْنَاسَة 384
• الخَبَرُ عن قُدوم عامر بن مُحَمَّد ومَسْعُود بن مَاسَايْ من مَرَّاكُش، وما كان من وزارة ابن مَاسَايْ، واستبداد عامر بمَرَّاكُش 386
• الخَبَرُ عن زحف الوَزِير عُمَر بن عَبْد الله إلى سِجِلْمَاسَة 388
• الخَبَرُ عن بَيْعة العَرَب لعَبْد المُؤْمن، وخُروج عَبْد الحَلِيم إلى المَشْرِق 389
• الخَبَرُ عن نُهوض ابن مَاسَايْ بالعَسَاكر إلى سِجِلْمَاسَة، واستيلائه عليها، ولحاق عَبْد المُؤْمن بمَرَّاكُش 390
• الخَبَرُ عن انتقاضِ عامر، ثمَّ انتقاضِ الوَزِير ابن مَاسَايْ على أثره 391
• الخَبَرُ عن نُهوض الوَزِير عُمَر وسُلْطانه إلى مَرَّاكُش 394
• الخَبَرُ عن مَهْلِك السُّلْطان مُحَمَّد بن أبي عبد الرَّحمن، وبَيْعة عَبْد العَزِيز ابن السُّلْطان أبي الحسن 395

• الخَبَرُ عن مَقْتل الوَزِير عَمَر بن عَبْد الله واستبداد السُلْطان عَبْد العَزِيز بأمره 397

• الخَبَرُ عن انْتِزاءِ أبي الفَضْل ابنِ السُلْطان أبي سالم، ثمَّ نُهوضِ السُلْطان إليه ومَهْلِكِه 398

• الخَبَرُ عن نَكْبَةِ الوَزِير يَحْيَى بن ميمون بن أَمَصْمود ومَقْتَلِه 400

• الخَبَرُ عن حَرَكة السُلْطانِ إلى عامر بن مُحَمَّد، ومُنازلته بجبله، ثمَّ الظَّفر به 402

• الخَبَرُ عن ارتِجاع الجزيرة 405

• الخَبَرُ عن حركةِ السُلْطان إلى تِلِمْسان واستيلائه عليها وعلى سائر بلادها وفِرار أبو حَمُّو عنها 408

• الخَبَرُ عن اضطرابِ المَغْرب الأوْسَط، ورجوعِ أبي زَيّان إلى تِيطَرِي وإجلابِ العَرَب بأبي حَمُّو على تِلِمْسان، إلى أنْ غلبهم السُلْطانُ جميعاً على الأمر واستوسَق له المُلْكُ 413

• الخَبَرُ عن قُدومِ الوزير ابن الخَطِيب على السُلْطان بتِلِمْسان نازعاً إليه عن سُلْطانه ابنِ الأَحْمر صاحبِ الأنْدَلُس 418

• الخَبَرُ عن مَهْلِكِ السُلْطان عَبْد العَزِيز، وبيعة ابنه السَّعيد، واستبداد أبي بكر بن غازي عليه، ورجوع بَني مَرِين إلى المَغْرب 427

• الخَبَرُ عن استيلاء أبي حَمُّو على تِلِمْسان والمَغْرب الأوْسَط 429

• الخَبَرُ عن إجازة الأمير عبد الرَّحمن بن أبي يَفْلُوسَنْ إلى المَغرب واجتماع بَطُّويَة إليه وقيامهم بدَعْوته 430
• الخَبَرُ عن بَيْعة السُّلطان أبي العبَّاس أحمد بن أبي سالم واستقلاله بالمُلْك، وما كان خلال ذلك من الأحْدَاث 433
• الخَبَرُ عن مَقْتل ابن الخَطِيب 439
• الخَبَرُ عن إجازة سُلَيمان بن داود إلى الأنْدَلُس ومُقامه بها إلى أنْ هَلَكَ 443
• الخَبَرُ عن شأن الوَزِير أبي بكر بن غازي وما كان من تَغريبه إلى مَيُورْقَة، ثمَّ رُجوعِه وانْتِقاضِه بعد ذلك ومَهْلِكه 444
• انتقاضُ الصُّلح بين عبد الرَّحمن صاحبِ مَرَّاكُش والسُّلْطانِ أبي العبَّاس صاحبِ فاس، واستيلاءُ عبد الرَّحمن على أزَمُّور، ومَقْتل عاملِها حَسُّون بن عليّ 447
• الانتقاضُ الثَّاني بين صاحبِ فاس وصاحبِ مَرَّاكُش، ونُهوضُ صاحبِ فاس إليهِ وحصاره، ثمَّ عودهما إلى الصُّلح 451
• انتقاضُ عليّ بن زَكَرِيَّاء، شيخِ الهَسَاكِرَة، على الأمير عبد الرَّحمن، وفَتْكه بمولاه منصور 452
• إجلابُ العَرَبِ على المَغرب في مَغيب السُّلْطان بقُربته من وَلَد أبي عليّ، وبأبي تَاشِفِين بن أبي حَمُّو صاحبِ تِلِمْسان، ومجيء أبي حَمُّو على أثرهم 454

• نُهوضُ السُّلطان إلى تِلِمسان وفَتْحُها وتَخريبُها 456
• إجازةُ السُّلطان موسى ابن السُّلطان أبي عِنَان من الأَنْدَلُس إلى المَغرب، واستيلاؤه على المُلْك، وظفَرُه بابن عمّه السُّلطان أبي العبَّاس وإزعاجه إلى الأندَلُس 458
• نَكْبَةُ الوَزِير مُحَمَّد بن عُثْمان ومَقْتَلُه 462
• خروجُ الحسن بن النَّاصِر بغُمَارَة، ونهوضُ الوَزِير ابن مَاسَايْ إليه بالعَسَاكِر 464
• وفاةُ السُّلطان موسى، والبيعةُ للمنتصر ابن السُّلطان أبي العبَّاس 465
• إجازةُ الواثق مُحَمَّد بن أبي الفَضْل ابن السُّلطان أبي الحسن من الأندَلُس، والبَيْعة له بفاس 466
• الفِتْنَة بين الوَزِير ابن مَاسَايْ وبين السُّلطان ابن الأحمر، وإجازةِ السُّلطان أبي العبَّاس إلى سَبتَة، لطلب مُلْكِهِ واستيلاؤه عليها 469
• مسيرُ السُّلطانِ أبي العبَّاس من سَبتَة لطَلَب مُلْكه بفاس، ونُهوض ابن مَاسَايْ لدِفاعه ورُجوعه مُنْهزماً 471
• ظُهورُ دَعْوةِ السُّلطان أبي العبَّاس في مَرَّاكُش، واستيلاءُ أوليائه عليها 474
• ولايةُ المُنتصر ابن السُّلطان على مَرَّاكُش، واستقلاله بها 475
• حِصارُ البَلَد الجَدِيد وفتحُها، ونَكْبَةُ الوَزِير ابن مَاسَايْ ومَقْتَلهُ 476
• وزارة مُحَمَّد بن عَلَّال 477

• ظهورُ مُحَمَّد ابن السُّلْطان حَلي بسِجِلْمَاسَة 479
• نَكْبَةُ ابنِ أبي عَمْرو ومَهْلِكه، وحَرَكَات ابن حَسُّون 482
• خلافُ عليّ بن زَكَرِيَّاء بجبال الهَسَاكِرَة ونَكْبته 483
• وِفادةُ أبي تَاشِفِين على السُّلْطان أبي العبَّاس صَرِيخاً على أبيه، ومسيرُه بالعَسَاكر، ومَقْتَلُ أبيه السُّلْطان أبي حَمُّو 485
• وفاةُ أبي تَاشِفِين، واستِيلاءُ صاحبِ المَغْرب على تِلِمْسان 489
• وفاةُ أبي العبَّاس صاحب المَغرب، وولايةُ ابنه أبي فارس مكانه، واستيلاءُ أبي زَيَّان ابن أبي حَمُّو على تِلِمْسان والمَغرب الأوْسَط 490
• الخَبَرُ عن القَبَائِليّ كافِل وَلَد السُّلْطان أبي العَبَّاس والقائِم بدُوَل الثَّلاثة منهم إلى أن كانت نَكْبَتُهُ في دَوْلَة الأخير منهم 492
۞ الخَبَرُ عن القَرابة المُرَشَّحِين من آل عبد الحَقّ الأُمراءِ على الغُزَاة المُجاهِدين بالأنْدَلُس، الذين قاسَموا ابنَ الأحْمر في مُلْكه، وانفردوا برِياسة جِهادِه 501
• الخَبَرُ عن موسى بنِ رَحُّو فاتِحِ هذه الرِّيَاسَة بالأنْدَلُس، وخَبَرُ أخيه عبد الحَقّ من بعده وابنه حَمُّو بن عبد الحَقّ بعدَهُما 504
• الخَبَرُ عن عبد الحَقّ بن عُثْمان شيخِ الغُزاة بالأنْدَلُس 507
• الخَبَرُ عن عُثْمان بن أبي العُلَى، من أُمراءِ الغُزَاة المُجاهِدين بالأنْدَلُس 510
• الخَبَرُ عن رِياسةِ ابنِه أبي ثابت من بعده ومَصيرِ أمرهم 515

• الخَبَرُ عن يَحْيَى بن عُمَر بن رَحُّو، وإمارتِه على الغُزَاةِ بالأَنْدَلُس: أُولى وثانية، ومبدأ ذلك و تَصاريفِهِ 518

• الخَبَرُ عن إدْرِيس بن عُثْمان بن أبِي العُلَى، وإمارته بالأَنْدَلُس، ومصَائِر أمره 523

• الخَبَرُ عن إمارة عليّ بنِ بدر الدّين على الغُزَاةِ بالأَنْدَلُس ومصَائِر أمره 525

• الخَبَرُ عن إمارة عبد الرَّحمن بنِ عليّ أبي يَفْلُوسَنْ ابن السُّلْطان أبي عليّ على الغُزَاةِ بالأَنْدَلُس ومصَير أمره 529

۞ التَّعْرِيفُ بابن خَلْدُون؛ مُؤَلِّف الكتابِ، ورحلته غَرباً وشَرْقاً 533

• نَسَبهُ 533

• سَلَفُه بالأَنْدَلُس 536

• سَلَفُه بإفْرِيقِيَّة 539

• نَشْأَتُه ومَشيختُه وحالُه 544

• ولايةُ العَلاَمة بتُونِس، ثمَّ الرِّحلةُ بعدَها إلى المَغرب، والكتابةُ عن السُّلْطان أبي عِنَان 575

• حُدوثُ النَّكبة من السُّلْطان أَبي عِنَان 584

• الكتابةُ عن السُّلْطان أبي سالم في السِّرّ، والإنْشاء، وولاية المظالم 586

• الرِّحلةُ إلى الأَنْدَلُس 597

• الرّحلةُ من الأندَلُس إلى بجايةَ، وولايةُ الحجابَة بها على الاستبْداد 609
• مُشايعةُ أبي حَمّو، صاحب تِلِمْسان 615
• مُشَايَعَةُ السُّلْطان عَبْد العَزيز، صاحب المَغْرب، عَلى بَني عَبْد الوَاد 641
• فَصْلٌ [رسالةٌ لابن الخطيب كتبها عن سلطانه ابن الأحمر إلى المستنصر بالله الحفصي صاحب تونس] 657
• العَوْدةُ إلى المَغرب الأقْصى 687
• الإجازةُ ثانيةً إلى الأنْدَلُس، ثمَّ إلى تلمْسَانَ، واللَّحاقُ بأحْيَاءِ العَرَب، والمقامَةُ عندَ أولاد عَريف 694
• الرَّجعةُ إلى تُونِس، والمقامُ بها 697
• الرِّحْلَةُ إلى المَشْرق، وولاَيةُ القَضاء بمِصْرَ 710
• السَّفرُ لقَضاء الحَجّ 721
• ولايةُ الدُّروس والخَوَانق 735
• ولايةُ خَانقاه بَيْبَرس، والعزلُ عنها 761
فتنة الناصريّ 762
• [مقدّمة في أحوال الدول وتنقّلها بالتدريج إلى الضخامة والاستيلاء، ثم إلى الضعف والاضمحلال] 762
• السّعايةُ في المُهادَاةِ والإتْحافِ بينَ مُلُوكِ المَغرب والملك الظَّاهِر 781
• ولايةُ القَضاء الثّانيةُ بمِصْرَ 791
• سَفَرُ السُّلْطان إلى الشّام لمُدافَعَة الطَّطَر عن بلاده 794

• لقاءُ الأمير تِمُرْ سُلطان المُغُل والطَّطَر 807

• الرُّجوعُ عن الأمير تِمُرْ إلى مصْرَ 818

• ولايةُ القضاء الثّالثةُ والرّابعةُ والخامسةُ بمصر 825

• المصادر والمراجع 827

• المحتوى 847